

المروية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

1939
Volume 1

PUBLICATION PROTEGEE

PAR LA

LEGISLATION SUR LA PROPRIETE

LITTERAIRE ET ARTISTIQUE

LOI N **57-298** DU **11 MARS 1957**)

PROVENANCE DE LA COLLECTION

**INSTITUT DU MONDE
ARABE**

Cote: 833 (051) RIW

MICROFILM ÉTABLI

PAR

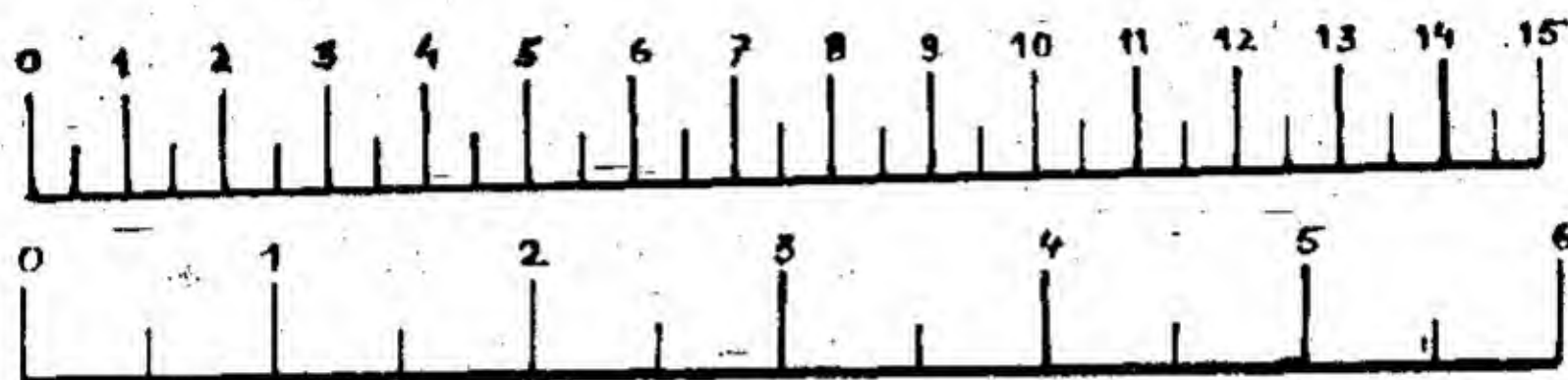
**L'ASSOCIATION POUR LA CONSERVATION
ET LA REPRODUCTION PHOTOGRAPHIQUE
DE LA PRESSE**

PARIS

*L'Exploitation commerciale de ce film est interdite.
La Reproduction totale ou partielle est soumise à
l'autorisation préalable des ayants droit et à
celle de l'A.C.R.P.P. qui conserve un exemplaire
du microfilm négatif.*

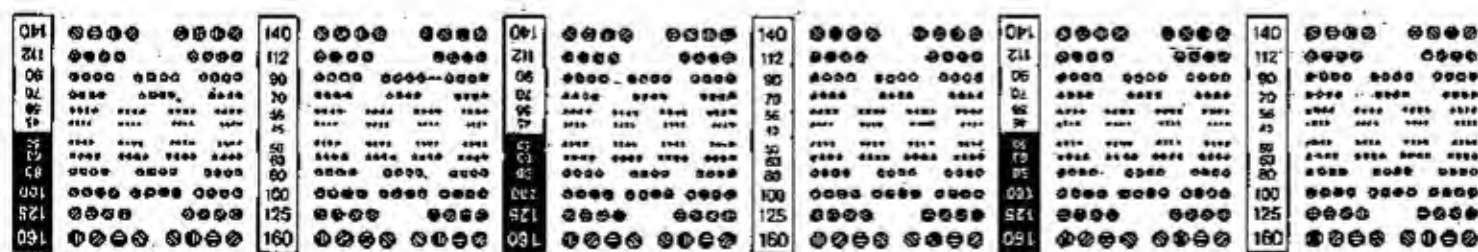
© 1998 A.C.R.P.P.

ECHELLE DE PRISE DE VUE



Rx9

A.C.R.P.P



MIRE ISO N° 1

NF Z 43-007

AFNOR

Cedex 7 - 92080 PARIS-LA-DÉFENSE

graphicom 338.57.70



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المستول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك على سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الحمولة

مجلة أسبوعية للقصص والسير

نصدر مؤقناً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٤ ذو القعدة سنة ١٣٥٧ - ١٥ يناير سنة ١٩٣٩

العدد ٤٨

وأخذته الحيرة وهو يدنو
منها ماذا عساه أن يقول بعد
هذا الغياب؟ وجمل بدور بعينه
ليتبين ما إذا كان أحد يراه من
أهل القرية... ولكنه حين
أصبح منها على خطوات وحين
وقعت على عيناها عيناها أحس
من نظراتها كأنما أصاب قلبه

من ضهور الريف
جيلة
أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ محمود الحفيف

مهم مسموم...

ومرت به الفتاة مصفارة الوجه لا تكاد تنفرج
شفتها على رغبها عن بسمة كالشعاع الخافت، حتى
تطبقهما كأنما تداركت أنها تأتي شيئاً محرماً،
وتتجهم للفتى وتنكر كأنه بات من عدوها؛ ثم
تدور بوجهها متظاهرة أنها تزجر بقرتها فتجذب
جبلها وتستحشها ولا تستقبل الطريق حتى تفوته
بخطوات.

رأها أول مرة بعد عودته، ولم يبق من الشمس
إلا حمرة طفيفة في أطراف السعف؛ وكانت كمادتها
كل مساء قافلة إلى القرية بعد أن سقت بقرتها من
قناة قرية

أخذتها عيناها مقبلة فسار للاقائها وإنه من فرحه
ليطفر كما يطفر المصفور، وإن قلبه ليخفق خفقات
يكاد لا يقوى عليها جسده، فلقد ارتهكت مفاصله
حتى ما تحمل رجلاه بدنه إلا في مشقة



يرى في لون الشفق مثل حمرة الجفون قرحها للنحيب
والسهر ...

وصات جليلة إلى دارها فربطت بقمرتها وألقت
أمامها بعض الملف ، ثم تناولت جرتها من فوق
المصطبة الفاتحة في مدخل الدار وخرجت لملأها
من الساقية ، وسارت ثقيلة الخطى كأنها ينقض
ظهرها عب ... وجلست عند الساقية حتى يأتي
دورها ، وصاحباتها يتضاحكن ويتمايبن ، وهي عنهن
في شغل بما يشغل قوادها ، وهن لا يدري ماذا يكربها
وكانت من قبل يدين أسرعهن إلى المزاح وأمرهن
عند المداعبة ، كما كانت تفوقهن جميعاً على كثرتهن
عذوبة روح وخفة حركة ..

وعادت تحمل الحجرة فوق أكتافها ، فوضعتها حيث
كانت ثم صعدت إلى سطح الدار فجلست على الزراب
شاخصة إلى القمر وبوجهها مثل ما بوجهه من
شحوب ومثل ما به من ملاحظة

ودخل على القرية في نور القمر وإنه ليتواري
من الأعين في ظلال النخيل والشجر ، ولا يدري
لماذا يحس في نفسه الرغبة ألا يراه الناس ؛ ولما بلغ
منزله وهو في القرية أول ما تقع عليه عين القادم من
الحقول ، صعد إلى جبرته ونادى الخادمة فأشعلت
له المصباح ؛ ثم صرفها مشدداً عليها أنه متعب فلا يجب
أن يرى أحداً وأنه عما قليل سيأوى إلى مضجعه
وأخذ الفتى يفكر وقد طافت برأسه الوسوس
وأخذته الحيرة من أمر تلك الفتاة التي طالما كانت
تدني إلى قلبه الوسيلة وتجهد في استرضائه وتحرص
على مودته ، والتي بلغ من سرورها بلفائه في العام
الماضي أنها لم تقو وهي في سرب من صاحباتها على
كتمان ما بها حتى لقد سقطت جرتها فتحطمت
وبللت ملابسها وزادتها ربكة على ربكتها

وكيف يحمل على الصبر نفسه ، وهو يرى في
هذا الجفاء إهانة له ، وأي إهانة أشد وقعاً على نفسه

ويقف هو كالتثال لا يبي ولا يتحرك ، وقد
جف ريقه وتصعب بالمرق جبينه ، ويظل على تلك
الحال الأليمة حتى ينتبه بعد لحظات على صوت رجل
يحياه وقد صر به مسرعاً على ظهر دابته ... فيمد
عينيه ويرسل بصره فلا يراها تلتفت وراءها مرة
حتى تتيب عنه . فيكاد يأكل الغيظ قلبه ويود لو أنه
استطاع أن يسحقها أو يسحق ذلك القلب . ثم إنه
يجر رجله بعد ذلك جرّاً لا يدري أين يذهب ؛ فهو
مأخوذ عن نفسه كمن نزع من الشيطان نزع !

كان ذلك أول الصيف وقد عاد على إلى القرية
يلتمس في مسارحها الراحة بعد العناء ، ويقضى
لبانة نفسه وأرب مشاعره من فنون السحر وضروب
الجمال في مجالها ؛ وإنه ليجمع للقرية كل عام أجازته
الطويلة اللهم خلا أيام معدودات يقضيها غريباً على
بعض السواحل ... وإنه ليحس كلما عاد إلى منبته
ومنجم أرومته مثل إحساس النبات جي به إلى يئنه
وتربته فترحم واستغلف واستوى على سوقه ...

الساء حلو النسيم تهب أنفاسه الرخية في غير
انقطاع ولا وناء ؛ والآق الغربي بارع الرواء تطرز
حواشيه ظلال الغروب وتتجمع في جوانبه ألوان
الشفق ، والحقول منبسطة أمامه إلى آخر ما يمتد إليه
بصره ، وهي بين خالية تتناثر فيها بقايا عيدان القمح
بعد الحصاد ، وحالية تزينا شجيرات القطن الغالية
التي تقرأ العين في سطورها مبلغ عناء الزارع وكده ،
وشجيرات السرو والصفصاف والجيز على جوانب
الغدران مورقة فينانه تتباعد حيناً وتتقارب أحياناً
فتكون منها خائل بهيجة لا تمل الأعين من النظر إليها
ولكن عليها يحس أن هذا المجتلى الساحر قد شملته
في تلك الساعة كآبة قابضة فلم يعد يرى شيئاً من
روائه ؛ وإنه ليخيل إليه كأن من يجاً غريباً من الوجوم
والوحشة بات يشقى الفضاء من حوله وأن بالشجر
مثل ما به من هم فهي تتأيل من فتور ومسكنة ، ثم إنه

ومهما يكن من الأمر فهو لن يحمل بمديحا كان أو يلتفت إليه .

كانت جليلة في الثامنة عشرة من عمرها يحسدها صبايا القرية على ما توافي لها من أسباب الجمال ، وكان اسمها على ألسنة الشباب كلما هفا بهم إلى الحب والجمال ذكر ... وكانت تعرف ذلك فتدبل به وترمي ولا تردد بالدلال إلا ملاحه وفتنة

وماذا عسى أن تبلغ الكليات من هذا الجمال وفي مقدمة خصائصه الأعجاز ؟ وما كان النظر إليه إلا ليشر الناظر لأول وهلة بالتحدي ، تحدى الريف أنه قد ينبت من الجمال نوعا تتقاصر عنه المدن ... وتحدي الطبيعة أنها تأتي إذا أرادت بحالا يحسن أن يأتي بمثله فن مهما تأتي له من قوة التخيل وعمق التأمل وبراعة الابتكار ... وتحدي الفقر أنه قد يبلغ على ضمته منزلة يتحرق الفنى أن يبلغها ولو بخلق ردائه والمهبوط من سمائه ، ثم من وراء هذا كله يرى الناظر ذلك السحر الذي يحس ولا يفهم ويسجب ولا يوصف ، ذلك السر الذي يكون قصارى أمرنا فيه هتافنا به وأجنادنا إليه وإذعاننا له ولقد أحس على حينها وقمت عيناه على هذا الجمال أول ما وقمتا كأنما تمثل له طيف أحلامه هيكلا يعيش على الأرض ، وهو لا يدري لهافته على هذا الجمال سببا غير هذا السبب ، وكثيرا ما حدثه خياله الشاعر أن بهذه الفتاة القروية من السحر ما لم ير في غيرها من بنات الريف أو بنات المدن

كان يخيل إليه أن هذه القسامة لن توجد في وجه غير هذا الوجه ، وكان إذا تأمل في تكوينه يحار أي أجزائه بث فيه تلك الفتنة الأخاذة وهاتيك الطلاقة الرائعة ، أما هاتان المينان الساجيتان الدججوان ، أم هو ذلك الفم اللطيف الذي ترف عليه أحلام الصبا ويختلج في بساطه عذاب المني .. أم هو ذلك الأنف الذي يراه وكأنما صبيغ لينتسق في هذا

من أن يتقدم بالزاني إلى فتاة لا يحسبها تزيد في المرتبة عن خادمته ، فتشيع بوجهها عنه ولا ترعى له مقاما ، ثم إنها تظهر الجفاء على غرة فلا تحفظ الجليل ولا تذكر ما كان بينهما من مودة ولا ما كان منه على بعد ما بينهما في الدرجة من ملاطفة وإحسان وزين له شيطانه أن بمض الحاقدين قد سمي بينها وبينه ، فود لو يعرفه ليدبقه من بأسه وليريه عاقبة نطاوله ثم ليربها معه ، بلغ ماله من جاه وسطوة وليفهمها أنه إن عفا عنها فما ذلك إلا لضعفها وهوان شأنها عنده

وتطوف برأسه فكرة تمذه وترجمه فهي قد آثرت عليه غيره ؛ وهذا الذي باتت تؤثره قد أخذ عليها العهد ألا تكلم الناس وعلى الأخص لا تكلمه هو ، وإلا فهو لن يعرفها إن فلتت ... وهي إنما تنفذ الآن ما أمرها به لا تنهون فيه ، وما أشد ما يفيض منها هذا الاذعان لصاحبها وهو لا يراها . أفما كان منها كلمة ثم تنطلق في سبيلها ولا تفجأ هذه المفاجأة الشنيعة الوحقة ؟

ثم إن الفتى يفرع إلى النوم من هذه الوسواس فيطفيء المصباح ، ولكنه قبل أن يذهب إلى سريره يطل من النافذة على القرية الهاجمة ، وقد غاب القمر ؛ وما يلبث أن يتسم كأنما هو يسخر من نفسه ويضحك من أوهامه ، وكأنما يلتقي بأفكاره في هذا الفضاء المنبسط أمامه والذي تكنفه الظلمة فلا يراه وإن كان يعرفه ...

سخر من نفسه أن كان يحمل كل هذا المم من أجل فتاة قروية ساذجة فقيرة ؛ ورأي المسألة أهون من أن تكدر عليه صفو أجازته ، فانه إلى الراحة في هذا الصيف أشد حاجة منه في كل ما سلف من الأعوام ، لما كان من نصيبه في الاستعداد لامتحان . ولن يخرج الأمر فيما يظن عن أن يكون أبواها قد شدوا عليها الانطيمه أو تطيع غيره من شباب أسرته

الجمال ... أم تري هو ذلك الخلد الأسيل المشرب
الصفحة من حمرة الشفق ووضاءة البدر ؟
الحق لقد كان مراد ذلك الجمال إلى هذا كله ،
وقد اختلف على صورة معينة اهتزت لها نفسه وجاوبتها
روحه ، بحيث لو جاء على نسق آخر ما كان له
في قلبه ذلك السحر العجيب ... أضف إلى ذلك
سماحة ونضارة كانت منهما الروعة وكان فيهما السر
وكانما أرادت الطبيعة ألا يكون في هذا الجمال
نقص ، فأودعت فيها سر الأنوثة كأنهم ما تكون
الأنوثة وسوت هيكما بحيث يكون بهجة في منظره
ثم هو في حركته نوع عجيب من الألحان الصامتة
التي تحبس النفس فيها وإن لم تقصد معاني الالتفاف
والتناسق والظرف . ولقد كان على يشبه حركاتها
والتفانيات بما يكون من حركات المهرة الكريمة التي
لم تتعلم شيئاً مما تبديه من رشاقها فهي تأتي به لأنها
هكذا خلقت ... وإنه ليراها من بعد بين صوحيباتها
فيميزها منهن بحركة أو التفاتة قبل أن تتحقق من
شخصها عيناه

وكان لها صوت تجمعت فيه كل معاني أنوثتها
وكل خصائص جمالها ، حتى لو قدر للمرء أن يسمع
ذلك الصوت دون أن يرى صاحبه لدل عليها دلالة
الصورة أو دلالة الوصف صوت كأنما يعلن
به الحب عن نفسه ثم هو يسوقه بعد دليلاً على سلطانه
وكان في سجاياها شيء من الكبر فوق ما كان
فيها من الدلال ... ولكنه كان كبراً محبه النفوس
إذ تشمر أن مبعثه الاحساس بالتفوق والميل إلى
التسامي ، وما كان التبذل ليتفق وهذا الجمال ،
بل ما كان للتواضع إلا لينال من عفوانه وينقص
من سلطانه ؛ وكثيراً ما استمتع على بهذا التكبر
لأنه كان يكبر فيه معنى السمو ، وإنه ليعجب
ويطرب لتلك النظرات التي كانت تنبث من عينيها
وهي في أسماها ، فلا تكون أقل أنفة واعتزازاً من

نظرات الناشئات في الحرير والورد ، بل لتكون
أكثر عزة لأن فيها عفة هي مع الفقر غاية النبل
هكذا كان نصيب جليلة من الحسن ، بحيث
لو جملوا في الريف ملكة للجمال لاستوت هي على
عرشه ، ولكانت وهي في عرشها المتخذ من
الصفصاف والسعف والكافور والسعد ، أسمى منزلة
في الجمال من كثيرات تربعن على عروش الذهب
والدمقس

وكان على يستشرف للحادية والمشرين وهو
في القرية سيد ابن سيد ، لأسرته الرياسة والحكم
فيها منذ أكثر من مائة عام ، وقد انحصرت الرياسة
في هذا البيت لا عن جيروت وبطش كما هو الشأن
في كثير من البيوت في الريف ، ولكن عن كرم
محدد وطيب عنصر وسماحة

ولئن لم تكن تلك الأسرة بذات ثروة واسعة
كثيرها من الأسر في القرى المجاورة ، فلقد كان لها
من حسن سمعتها وعراقها أصلها ما رفع قدرها في
أعين الأحياب والخصوم على السواء

وكان على يحب الفلاحين ويمظف عليهم ،
وكثيراً ما كان يجلس إلى جماعاتهم يتفياون ظلال
الأشجار في أوقات المهجير وينعمون بالهواء الرخي
على ضفاف الترع في ساعات الأسيل ويسمرون على
جوانب البيادر في ليالي القمر ؛ ولقد أحبه هؤلاء
الفلاحون وأكبروه ، وما لبثت أن ارتفعت بينه
وبينهم الكلفة فصار كأنه أخدم ؛ وهو في القرية
يحبس كأنما انقطعت الصلة بينه وبين المدينة حتى
كأنه ما خرج منها قط ، وكثيراً ما كان يضحك بينه
وبين نفسه ، إذا تصور ما عسى أن يقوله شاب من
خلانه من أهل المدينة إذا هبط القرية وراه في جليابه
الفضفاض جالساً في ذروة كومة من الرماد تحت
سرحة أو على بقايا حصير في مصلى على ضفة قناة ؛
ولكنه لن يعبأ بذلك ولن يرى شيئاً أحب إليه من

أن يطلق نفسه على سجينها

وكان لا يغيب عن القرية إلا ازداد حباً لها
وتعلقاً بكل ما فيها ، فإذا آب راح يتعمق كل شيء
حسنة لا يستثنى منظراً مهما هان أمره ، وبخاصة
تلك الملاعب التي كان لا يفتأ وهو غلام يشب في
أنحائها ويرف كما يرف الفراش ... تلك المسارح
الخضراء في ظلال النخيل وحول أشجار الليمون
والنارج في بستان أسرته ... وهاتيك الظلال
الوارفة التي تبسطها خمائل التوت على ضفة التربة
الكبيرة في الحقل البعيد ...

وكان على يستصحب معه بعض الكتب كل
عام وكان أكثرها دواوين شعر وقصص ، وما كان
أعجب أمر هذا الفلاح الشاعر حين يقلب صفحات
الشعر يقرأ تارة للمثنى وتارة لبيرون في تلك القرية
فيرى في كل شيء لمحة واختلاجة تصور ما تنطوي
عليه نفسه ... إذ كانت مناظر قريته أعز عنده
وأحب إلى فؤاده من كل ما تجيء به الكتب

في وسط هذا الكون الذي ينسم بروائح الجنة
وفي ميعه هذا الشباب التوثب المنفتح ، وفي نشوة
هذا الخيال الشاعر ، رأى على جليلة وكان ذلك منذ
عامين حين كانت في السادسة عشرة تسويها يد
الطبيعة وتفيض عليها من رونقها ، وتبرز محاسنها
وتوضح مفاتها

رأها الفتى فمجبب كيف لم يرها من قبل ،
وما أسرع ما نسي ما بينها وبينه من الفوارق ،
فصار يرى فيها خلاصة ما في القرية من سحر ،
وكان جمال تلك القرية بكل ما يسع من الماع قد
تجسم فكان هاتيك الفتاة . بل لقد غدت عنده هي
التي تبت في تلك البقعة من الوجود كل ما يجببها إلى
نفسه ويربطها بعشاهره

وحادثها فلم تمرض عنه أو تهيب من مودته .
فكانت لا تزال غريبة لاهية ، ثم إنها كانت تراه

يمطف على أخيها ، وهو فتى في مثل سنه ، وكان
أخوها يثنى عليه إذا جاء ذكره ويصف لأبيه وأمه
طيب قلبه وتواضعه وسخاء يده . وعرفت جليلة
هذا السخاء بعد حين فيما كانت تبسعه له من الخضر
التي كان يشتريها ولا حاجة به إليها فينقدها أضعاف
ثمها وهو مقتبط بهذه الوسيلة التي بها يستطيع أن
يعطيها من ماله دون تخرج أو استحياء ، وإنه أيدى كر
ما عراه من الاضطراب وعراها من الحياء يوم غير
طريقته في المطاء لأول مرة فقال لها : « خذي
هذا ثمناً لتلك الخضر وهذا لك أنت »

واطمأنت الفتاة إليه وصارت تحرص على لقائه
على علم من أمها إذ كان يسرها سخاؤه ؛ وما كان
على يقبض يده عنها قط وما كانت هي تردد أن تمد
يدها لتتال ما يمنحها حتى لقد دعاه ذلك أن يحمل
إليها من القاهرة بعض الهدايا كلما آب إلى القرية ،
وإنها لتفرح بذلك أشد للفرح وما كان أشد غبطته
وابتهاجه حين كانت تتقبل هداياه بقولها : « كتر
خيرك يا سيدي . ربنا بخليك لنا »

ذكر على ذلك حيناً رأى من الفتاة ما رأى من
إعراض وصد ؛ وأخذته حال عجبية من الحيرة والألم
مما ؛ وصار إذا أتجه فكره إليها يقنازعه مزيج من
الصفح والغضب والهم والتأسي ، وكثيراً ما كان يسخر
من حاله ويردما هوفيه إلى الوهم والخيال ... ولكنه
يمود فيسأل نفسه أهو يحب تلك الفتاة ؟ فإذا أجابته
نفسه بالنفي تساءل فيم إذا هذا الهم كله من أجلها ؟
وماذا يهمه من إعراضها عنه وهي مهما تطاولت
لا تزيد مرتبة على خادمته ؟ وإذا أجابته نفسه أنه
يجبها ازدادت حيرته وراح يتساءل ما غرضه من هذا
الحب ؟ إنه لا يعرف السوء ولا يطبق حتى مجرد
ذكره ، وهو يسمو بروحه عن مواطن الغواية ،
ويقوي على عصيان الشيطان قوة قلما تتاح لن كان
في مثل سنه ، كما أنه من خياله وحسه يسبح أبدأ

ولكن ذلك كان قصاراه منها ؛ كان حسبه أن ينعم بالجمال في صورة من صورته وفي نمط من أنماطه وأن يستمتع به استمتاع صاحب الفن بتمثال من تماثيله ، فذا كان يرى فيها أكثر مما يراه في دمية من الدمي إلا أنها تتحرك وتنطق وتبتسم !

والآن تعبس دميته وتغر به كأن لم يكن بينها وبينه شيء ! وما كان ذلك منها عن غضب فكثيراً ما رآها من قبل غاضبة ، ولكنه يكن لم يري في ملاحظها وعينها من المعاني مثل ما يري اليوم ؛ إنه يري القطيعة سافرة جليلة بحيث لا يخالجه فيها شك ؛ وهذا المم الذي يرسم على حياها وتلك الصفرة التي باتت تغشاه وهذا السكون الذي حل محل الجذل والرح في طبعها ، إنما هي دلائل لا يغفل عنها إلا غراً وأحق . ولكن فلتفعل جليلة كما تشاء أو كما يشاء لها صاحبها فهو لن يشغل بها نفسه بعد اليوم . ذلك ما وطد عليه العزم

تجنب على طريقها فلم يعد يراها ، وأعرض عن أنخبها فلم يعد يدعوها إليه ، وخاصم أمها فلم يعد يرد عليها بحياتها إلا بقدر ؟ ورأى أبوها أنه لا يتحرك للدفاع عنه إذا شكاه إلى عمه المدة شاك من الدائنين أو إذا اعتدى عليه معتد من الفلاحين ؛ وحارت تلك الأسرة في ذلك أول الأمر ولكنهم ردوه إلى ما استقر في نفوسهم من معان وما علق بخيالهم من صفات ينعت بها كثير من الفلاحين في قرى مصر ذوى الجاه والتفوذ فيهم ، مهما تبين لهم مما ينهض دليلاً على عكس ما يعتقدون ؛ وإنهم ليؤمنون بتلك الأفكار إيماناً كونه فيهم ما تمودوا أن يذوقوه من البطش والجور هم وأبلافيهم طوال القرون وهم يعملون على تلك التربة لياً كلوا ويتنفسوا ولو كما تأكل وتنفس الدواب !

ومضى شهر من الأجازة وعلى لا يري جليلة ، ولكنه لم يطق أن يبقى حيث هو طول هذا الشهر ،

في عالم من الشعر والسحر لا يري فيه الجمال إلا على أنه وسيلة تتخلص بها النفس من هذا الطين وتتطلع بوجهه صوب السماء ، ولكم كان له في هذا الجمال الذي أسبقته الطبيعة على تلك الفتاة ، من ضروب الرحي وصنوف الالهام

وإذا كان هذا أمره فلم يبق من غاية إلا الزواج ، ولكنها غاية أبعد من المستحيل ، فما زال سلطان العرف في مصر يضع بين الطبقات من الحوائل والموانق ما لا تكسره إلا ثورة جارفة أو حقب قد تمتد حتى تباغ القرون . وهل يجوز في عقل أن يقدم شاب من أسرة كاسرة ، له مثل ثقافته ونظريته إلى الحياة ، فيمد يده إلى فتاة كذلك الفتاة التي ما عرفت سوى دارها وحقلها والتي مارأت غير أهل قريبها من الناس إلا من يجيئون إليها من الباعة والشرين يوم السوق من كل أسبوع ؟ إنه لكي يفعل هذا لا بد له من أحد أمرين : السر ، وهذا غير مقبول ولا مقبول ولا طعم له ، أو العلن ، وهذا معناه في رأي الناس الجنون

وإذا كان هذا موقفه من جليلة فقيم إذا كان اتصاله بها مدة عامين ؟ وكيف يفسر تلك الصلة ؟ ألم يك يحرض على لقاءها فيجلس وإياها إذا جنهما الليل ومترهما عن أعين الرقباء وينعم بحديثها الساذج ساعة أو بعض ساعة ؟ ألم يك يعمد إلى المرور بحقلها الصغير مرتين أو ثلاثاً في اليوم الواحد كلما علم أنها هناك في بعض شأنها ؟ ثم ألم يك يجمل مسيره عصر كل يوم في طريقها إلى التربة لكي يراها مخاطر بين أربابها من حاملات الجرار فلا يتحول بصره عن صدرها للناهد وعن قوامها المرهف الرشيق حتى تنيب عنه ، وفي نفسه نشوة قوية تهزه إثر نظرة من نظراتها أو إثر ابتسامة خفية لا تلبث حتى تطفئها وقد أثلج فتوادها أنه رآها ؟

ذلك كله حق لا مربة فيه ولا أثر لخيال أو وهم ؛

وأقبل الليل فأقبلت عائشة فأشارت إليه بيدها وهو جالس أمام داره ، تخف إليها فأسرت في أذنه كلمات ثم انصرفت مسرعة وجاس هو يفكر ، وفي نفسه نشوة كنشوة النصر

أمام دار من تلك الدور المتواضعة ، في درج من الدور الضيقة خلف « دوار » العمدة ، اجتمع لفيق من الشبان لسماع « المواويل » يتغنى بها في سكون الليل إبراهيم ، ذلك الذي يقبمه شباب القرية أينما سار ويتحلفون حوله في كل سائر ، يتمتعون أنفسهم بتلك الأغاني الحلوة التي يرتجلها في سر عجب وفي رشاقة تسحر الألباب ويدبرها على كل معنى يخطر له أو يقترح عليه . وكان إبراهيم في تلك الليلة في حال من التجلي ارتفع بها عن مستواه ؛ فاقدم كانت ليلة من ليالي عرس صاحبه حسن ، ولذلك اكتظت الحارة بالجالسين حتى لم يبق فيها إلا عمر ضيق يسلكه القادمون في عسر شديد ؛ وكان أمام دار حسن في تلك الليلة « كروب » وهاج يشيع الضوء في الحارة كلها ، لذلك لم تجلس الفتيات كما تعودن أن يجلسن إلى جوانب الحيطان فأوين إلى سطوح الدور ليستمن مسحورات طروبات .. وعلى سطح إحدى الدور الملاصقة « الدوار » العمدة جلست عائشة وجليلة ؛ وكانت عائشة قد أغلقت باب دارها حتى لا يصعد إلى سطحها أحد من البنات

جلست البنات على حافة السطح ، أما إحداها فكانت مقبلة على إبراهيم تمي مواويله بسمعها وقلها وأما الأخرى فهي جليلة فلم تك تسمع شيئاً وما هي إلا برهة حتى نزل شبيب على سلم كانت وضعت عائشة على جدار « الدوار » ، وغمرت عائشة صاحبها بأصبعها فأفاقت مرعاة ونظرت فإذا هو على ..

ونفضنا للقائه فسار بأبضع خطوات على استحياء

كما أنه لم يستطع أن يسافر فيبعد كل البعد ، ولذلك آثر أن يذهب إلى حيث يقم جماعة من البدو في حقل لأسرته بعيد فأقام هناك في شبه عزلة ، وهو يتعلل بحاجة إلى الهدوء والراحة والهواء النقي

وخطر له ذات صباح أن يعود إلى القرية فولي وجهه شطرها ، وسار حتى أصبح منها غير بعيد فلمحت عيناه سرباً من البنات كن عائدات من للزعة ورأى فيهن جليلة فأثر أن يمضي على مهل حتى لا يدركهن ، ثم رأى إحداهن تتأخر عنهن فكاد يدخل في روعه أنها هي لولا أنه تبين أنها عائشة ، ومن عجيب أمره في تلك اللحظة أنه تأهب ليجدثها كأنما نسي غضبه وترفعه . ثم إنه أدرك عائشة فحمله باسمة وحياتها ، فرأى في وجهها وعينيها أنها تود أن تقول شيئاً ولكنها تحار كيف تبدأ الحديث فبدأ هو بسؤالها لم تخافت عن صاحبها ، وكأنما فتح لها هذا السؤال باب الحديث على مصراعيه فأجابت في خفة وفي خبث :

— عازمه أقول لك كله يا سيدي

— قولي

— رأيته من بعد فأحببت أن أكلك فأنا من أيام أريد ذلك

— وهل رأيته وحدك ؟

— لا . رأيته كلنا وجليلة في الأول

— لا . لا أحب أن أسمع اسمها أو سيرتها

— كيف وهي دائماً تذكرك وتشكر

— كاذبة .. كاذبة ؛ قابليني فيما بعد ... قابليني

فما بعد

وأمرع على في مشيته وترك عائشة في حيرة شديدة واضطراب ؛ ولم يتوقف أو يعطى حتى بلغ القرية فأمرع فدخل منزله ، وصرت عائشة بعد برهة وفي وجهها كدرة من أثر الخيبة ، وذهل مما فعلت به الدهشة

باكية وهو يصدها، وأما من قريب تدعو عليه دعوة ارتاع لها فؤاده...

وأخذت الأيام تنصرم، وكان على ربي صاحبته من بعد إذا ساقته إليها المصادفة، وكانت إذا أمنت الرقيب تدنو منه فتحييه باسمه ويحييها... ولكنه لم يعد يرى في وجهها شيئاً من تلك المعاني التي يفهمها الماشقون باللمحة الخاطفة دون حاجة منهم إلى لغة الكلام... واكتفى على بذلك، وكانما هان أمر تلك الفتاة عنده، فلقد استثمر الراحة بعد تضرعها إليه وبكائها بين يديه في تلك الليلة التي لا ينساها؛ وكان إذا همس بعدها في نفسه هاجس أنها تخدعه، وأنها تحب فتى من طبقها حاول أن يرضى بذلك، بل لقد صور له قلبه أن يكون قصارى حبه لها العمل على إسماعها ما وسعه الاسعاد، وكان يسأل نفسه كلما دبت الخيرة إلى قلبه: ماذا يريد منها؟ وماذا ينتظر سوى أن تحب فتى على شاكلتها تأمل من وراء حبه ما تأمله فتاة في مثل عمرها؟

وأوشكت أجازته أن تنتهي فلم يبق منها إلا شهر أو نحوه. وأقبل الخريف السمح على القرية يسبح عليها بكفه وينفحها بأنفاسه، وغصت الطرقات بين المزارع في البكر والأصال بالبنات والصبية يسرون جماعات إلى الحقول ويمودون منها بعد جمع تلك الثمرة البيضاء الغالية التي مازال الفلاحون يملقون عليها الآمال كل عام على رغم ما لحق بها من كساد وما أصابها من بوار. والمزارعون يمودون بالقطن في الأعدال فيكون في منظره وهم يدخلون به القرية فرحة السنة وبشير الخير، وإن كان منهم من ينمي على القطن وسنينه «اللي بقت زى الوقت»

وكان يحشد من أبناء القرية وبناتها عدد كبير لجمع قطن الممدة وأسرته، فيذل على كل ما في وسعه لكي تكون جليلة بين هؤلاء فيحدثها وتحدثه ولو مرة قبل أن يسافر، ومالبت أن تذكر أن أباه

قد يده دون أن يشكلم وأخذتها عائشة فقبلتها، وأنحنت جليلة تلتهمها ولكنه شدها سريعاً وجلس فجلسا أمامه...

ولم يدرك أول الأمر ماذا يقول، ولكنه داعبهما مشيراً إلى ما يسمع من معاني الحب ترخر بها أغنيات إبراهيم. ثم أشار إلى عائشة من طرف خفي فطلبت إلى جليلة أن تنتظرها برهة ريثما تعود ونزلت إلى فناء الدار... فلما انفردا قال لفتاته:

— أهكذا بصير ما بيننا؟

— لا شيء يا سيدي، أنا خادمتك، وسأبقى خادمتك. أنا «غليانه» والناس يتهموني إذا... أعني أخاف أن «يميل بختي».. وأنا أحلف لهم فلا يصدقوني، أبداً لا يمكن أن أرى مثلك وسأبقى طول عمري أحلف بحياتك. بس أنا خائفة من «ميلة البخت»

— وماذا أردت من مقابلي؟

— أردت أن أعذر إليك وأرجوك أن تنساني فأنا خادمتك يا سيدي فلا أستحق أن يهتم بي مثلك إني لن أنساك أبداً... أبداً ولي عندك يا سيدي مسألة؛ ابن عمك سيدي محمد يريد أن يحجز على الجاموسة في نظير الأيجار المتأخر فن أجل خاطري قل له ينتظر حتى يفرجها ربنا الله بخليك لنا يارب.

وأجهشت للفتاة، ولكنها كتمت بكاءها خشية أن يسمها أحد، واستجمع على قوته وأخذها بين ذراعيه لأول مرة منذ رآها وضمها إلى صدره وأحس بدموعها تبلل شفتيه، ثم همس في أذنها قائلاً: «لا تخافي فلن يحجز عليك أحد وأنا موجود»... وهم فصعد على السلم وتركها وحدها في حال أشبه بالاغماء، وآوى إلى مضجعه وهو لا يدري إن كان ما وقع حقيقة أم كان في حلم أو رأى تلك الليلة فيما يرى النائم أن جليلة أمامه تتوسل إليه

بريقهما لولا بقايا من فتور زادت ملاحه وسحراً ؛
وقام بنو الأعمام متظاهرين أنهم يفتشون وراء
الحول وأعوانه ... وكان يذهب كل منهم إلى حيث
كانت جليلة تجمع القطن فيحيبها ويلطفها وهي
لا تجيب إلا بابتسامة هادئة ... أما محمد فربها وفي

عينيه شروفي وجهه عبوس وحنق

وحاول على أن يذهب كما ذهبوا ولكنه بقي
مكانه متردداً ؛ ولقد كان يخجل إليه أن الأنظار جميعاً
لا بد أن تتجه إليه إن هو فعل وهو لا قبل له بالتمزات
تبادلها الخبيثات من البنات ؛ وعلى الرغم من أنه كان
يدرك أن موسم جمع القطن موسم تطلق فيه الحرية
بعض الشيء ، فقد اتقى مكانه لا يتحرك ؛ وكان يكتفي
بنظرة من عيني صاحبه كلما جاءت إلى « الفرش »
على رأس الحقل لتضع فوق كومتها ما جمعت ...
على أنه كان يتبرم أحياناً لندرة مجيئها ، ولأنها لا تأتي
إلى التربة لتشرب كما يفعل غيرها كأنها لا تحب أن
تبادل النظرات ، وكأنها إنما تأتي لتضع القطن
حسب ...

وجاء فتى من القرية يدعى أحمد طويل القامة
أبلج الجبين ، طلق الحيا ، في عينيه خبث وفي نظره
جراة وذكاء ؛ ودخل بين الخدم ولم يدعه أحد وراح
يجيب « الطلبات » في خفة وسرعة ويؤدي ما يطلب
منه في لباقة عجيبة ، حتى لقد صار لا ينادى غيره ،
فهو طوراً ينقل الفرش إلى الظل ، وطوراً يصنع
الشاي ويدبر كؤوسه ، وطوراً يشغل نفسه بأعداد
الطعام ...

وفي الظهيرة خرجت العاملات بطمن ويتلمسن
في ظلال الشجر مقبلهن ؛ وبسطت كل منهن خرقة
فيها طعامها ، وجلسن يأكلن على ضفة التربة وقام
على فربهن ، ونظر ماذا تأكل جليلة ، فلم يجد على
خرقتها غير الخبز المتخذ من الدرة ؛ وقطعة من الجبن
وبعض الملح ، وراعه صفرة فاقمة تمشت في وجهها ،

مدين لابن عمه فأنعمل أياماً نظير جزء من هذا
الدين وليضاعف هو لها الأجر سراً ، ولجأ إلى
صاحباتها فخبين إليها ذلك كأنه من لديهن حتى قبلته
من أجل أبيها ؛ وسر على بذلك وأخذ يترقب في شوق
شديد ...

وحان يوم الجمع في حقول الأسرة وخرجت
جليلة مع « القافلة » كما يسميها الفلاحون في هذه
القرية ، ولقد جرت العادة أن تكون على رأس كل
قافلة امرأة تتمهد بجمع البنات تسمى « شيخخة
القافلة » وقابل على « الشيخخة » في الليلة السالفة
وأوصاها بجليلة وشدد عليها أن تتأكد من
حضورها كل يوم

ولم يشأ أن يذهب على أول يوم إلى الحقل إلا عند
الأسيل ؛ ولقد استطاع أن يحمل على الصبر نفسه
طول النهار ، ولما ذهب وجد محمد آيزن للبنات لكل
ما جمعت ويكتب ذلك ابن عم آخر في كراسة ، ووقف
على ينظر فلما جاء دور جليلة أبصر محمد أيداعها
ويطيل في مداعبتها ولكنها لا ترد إلا بابتسامة خفيفة
ثم تدير وجهها عنه ؛ ورأى على أن ذلك يؤله وإن
كان يخفى ذلك الألم ، فأوجس في نفسه خيفة عليها
فما كان محمد بالذي يرضى أن تتكبر عليه فلاحه وهو
الذي يخشى الرجال والشباب بأسه ويتوقون جرأه
وبطشه بله النساء والبنات

وفي اليوم الثاني بكر على إلى الحقل في رفقة من
بنو أعمامه فسبقوا إليه للقافلة ، وقد حمل الخادمون
لهم سجادة ووسائد فرشوها تحت شجرة ؛ ولم تك
ترتفع الشمس على الأفق حتى أقبلت العاملات ،
ونزلت كل واحدة في خطها ، وبعد ساعة أو نحوها
خرجن بـ « الوش » الأول ووضعت كل فتاة قطنها
في كومة ...

وكانت جليلة في ذلك اليوم فتنة الحقل وبهجته ،
عادت إلى وجهها نصرة وبشاشته ، وعاد إلى عينيها

مقربة منهما رجال لفهم الظلام وقد هجعت القرية ،
وتقدم أحد الرجال فهمس في أذن محمد وعاد إلى
موضعه ، وغمز محمد الخفير ، فسحب حماراً ومشى
به خطوات وقد أقبل نحوه شبح فلما سار أمامه
أمسك به ونفخ في « صفارة » وتجمع الرجال
وقد هب بعضهم من النوم ، وجأوا يستفهمون
فوجدوا أحمد يساق إلى « دوار » العمدة لأنه
سرق حماراً من زريبة البستاني

وشهد الشهود وكتب المحضر وسبق المسكين
إلى « نقطة البوليس » ، وأصبح حديث القرية
كلها في اليوم التالي . وراحت جليلة تبكي حظها
للمآثر فلا أقل من ستة أشهر يقضيها فتاها في
السجن كما يخبرها بذلك المارفون ...

وعرف العمدة حقيقة الأمر ، فدعا أبا الفتاة
وأما ، وأمرها في لهجة صارمة أن تزوجها من
ابن خالتها إسماعيل خشية أن يفتضح أمرها وأن
يتقول عليها الناس الأفاويل ... وجيء بالمأذون بعد
ساعة وأرغمت البنت إرغاماً على القبول فأعطت
« التوكيل » وإنها لتوشك أن تموت من الغيظ
والحسرة ...

وصافر على بعد أيام ولو أنه بقي لرأى مكان
جليلة فتاة غير فتاته التي أحبها . لو أنه بقي لرأى
بقايا هيكل من جمال وسحر ، يبعث منظره اليوم في
النفوس من حسرة وألم بقدر ما كان يبعث فيها
ألم من نشوة وفتون ، وهل كان يقوى على رؤية
جسدها الناحل المهزبل ووجهها الذي يلوح عليه
شبح الموت ، وعينيها اللتين أصبحتا تهران عن
الألم واللوعة ؟ حسبه ما يؤرقه إذا أراد النوم ،
وما يشغل باله من هم كلما ذكر ذلك الحلم الذي أفاق
منه على توسل جليلة ودعوة أمها

الخفيف

ومضج من الدهشة والخوف يختلج في مجيها . . .
وكانت قد بسطت مائدة الطعام وتحلق حول
الصينية النحاسية الكبيرة بنو الأعمام ، فسادوا
علياً فجلس وأخذ من الطعام جزءاً بيديه ونادى
إحدى الخادومات فأمرها أن تذهب به إلى جليلة ،
ولم يبال في تلك اللحظة ما ارتسم على وجوه الجميع
من دهشة وسخرية ، وتلفت فماذا رأى ؟ أيمكن ذلك ؟
ها هي ذي جليلة تريد أن ترفض معتذرة ! ولاحظ
عليها أنها تعد يدها تارة وتستردها فاطرة إلى أحمد
وهو يحدجها حدج الملامة ، ولكنها لم تستطع آخر
الأمر إلا أن تأخذ الطعام فتضعه أمامها . وصربها
أحمد بعد برهة وقد حمل إليها بعض الحلوى مما بقي
على المائدة فأخذتها مطرقة وفي وجهها ووجهه من
الماني مالا يخفى على أحد

إذا لقد انكشف الأمر ؛ ولكن ليت ما انكشف !
لقد تربد وجهه على وأظلمت في عينيه الدنيا ، وصارت
تأكل للغيرة قلبه ، وعبثاً حاول أن يهدي نفسه ،
فلقد غابت عنه فلسفته ؛ وذهل منطقه وتبدد حلمه ،
أوتيممه هذه الفتاة من أجل أحمد ؟ وكيف اجترأت
على خداعه والكر به ؟ ألا إنه لخدوع غرثم إنه
لما تقي أحق . ذلك ما كانت تحده به نفسه ؛ وفي تلك
اللحظة التي يعمى الحقد فيها البصائر ، حدث على
محمد آ حديثاً ، يا شؤمه من حديث !

انقضى اليوم ، وسار البنات تلقاء القرية ،
وركب على دابة لتمود به فما كان مما به من هم يقوي
على المشي ، وكأنما أرادت الظروف أن تكيد له كل
الكيد فما هو ذا يرى جليلة وأحمد تحت شجرة
يتناحيان ، ولما رآه الفتى من بعد أسرع الخطى
واختفى ... واختفت جليلة ولم تمد بعد لجمع القطن
انقضت أيام وفرغت القرية من جمع القطن ،
وشملها فتور الخريف وطافت بها طيوفه .. وفي ذات
ليلة كان يقف محمد وإلى جانبه أحد الخفراء وعلى

عروس الماء

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّة
يَقْلَمُ الْإِسْتَاذُ دُرَيْي خَشَبَةَ

وكان النسيم يذاعب شمرها
الأسود الفاحم المندودن ليسرق
عطره، وينشره في ذلك الكون
المظلم أرجاً ينعش النفوس
بالأمل، أو يكون للضالين قفصة
من سيناء !
تري لماذا أرسلت هذا
النار الأسود الحزين، فوق تلك

الشفوف البيض الحربية !؟
تري لماذا جلست وحدها فوق تلك الصخرة
الفريدة النائية عن السويس، في تلك الساعة التي
توشك أن تنام فيها الطبيعة ؟
كل شيء ساكن هادي، إلا خرير الماء
ورشاش الشبج

الشمس تلج أبواب المغرب، والبدر يذر من
بيان المشرق ...
الشمس تختم كتاب النهار ... والبدر يقن
أنشودة الليل ...
فيا ترى لم جلست هذه الحسناء وحدها
هناك ... فوق تلك الصخرة الفريدة ؟

فيم تفكر ؟
أوه ! إنها تبكي !!
يا لله ! ألا ما أجل الدموع في عيون المنداري ؟
ألا ما أجل المنداء تبكي وحدها في دنيا جميلة كهذه
من شفق وبنفسج ونسيم وبر وبحر وأرض وسما
وليل مقبل ونهار مول ؟
فيم تبكي يا ترى ! ألا ما أغلى هذه الدموع التي
تنسكب من هذه العيون !؟
إسمي يا طبيعة ! إن عذراءك تغنى :

كانت تجلس وحدها على صخرة فريدة من تلك
المخور الوردية التي تشرف على هذا البحر القديم
الكريم المقدس، بحر اللازم كما كان يسميه العرب،
أو البحر الأحمر كما تسميه الطبيعة والشعر، لأنه بحر
الزبرجد والعقيق والمرجان، وبحر الجبال والله كريات
والجوارى المنشئات !

وكانت الشمس تهبط إلى الأفق، متأججة في
السحاب المنتثرة في سماء السويس الساحرة، فتوشى
أذيالها بالشفق، وتثر في اللجة دنانير الذهب،
وتسكب في حواشها ذوب اللجين ... ثم تمحور
للطبيعة كلها هيكلًا لتلك الراهبة الصامتة، الجالسة
فوق الصخرة الفريدة تفكر ساعمة، وتغلى من
جمال الله ووحدانيته، وتعبده في هذه الآثار الجليلة
الجميلة السكاملة التي أبدعتها يده، وبرأتها قدرته،
فعى عندها الدليل عليه، والوسيلة إليه ...

وكان النسيم الرخي يهب في أنفاس المغرب كأنما
عمرته هزة من ذكريات موسى حينما لح المصرية الجميلة
الرائعة تشرف على بحره القديم الكريم المقدس فيكاد
يكون فرقين لتخوض بينهما فتلمب بحصباء دره،
وتلهو بمكنون مزجانه ...

كانت تنظر بعينها النجلاوين في الوج المضطرب

« ما أفساك أيها البحر ، لم قتلت حبيبي ؟ »
إنها تسرد مأساة غرامها ، وها هي ذى تنغم من
بحر موسى ما أطبق موجه على ابن فرعون !
مسكينة أينما المذراء ، لقد تخضب مرجان
البحر بدماء حبيبك ، وتفتحت أسدافه لتلقف
أنفاسه ليكتسب الدر سناءها !

كان علوى يذرع رمال الشاطئ في هذه الهدأة
الرائحة من مغرب السويس ، حينما لمح الفتاة الباكية
تجلس وحدها فوق الصخرة الفريدة ، ترسل في أطباق
الوج نظراتها المنداة

لقد أحس للشاب بعاطفة قوية تجذبه إلى حيث
جلست الفتاة ، فهرول كالشبح بين الكتيبان النائمة
حتى كان قاب قوسين من صخرتها ، فجلس في كن
يسمع إلى بكائها وغنائها ، فاذا بالبكاء والغناء قصة
حب دامية ، وإذا الفتاة قد أقبلت من جهة بعيدة
نائية تصل من أجل حبيبها ، وتذرف الدموع حارة
سخينة على ذكراه !

ولقد كان علوى ينظر إلى الفتاة من كنهه ،
فيراها ملاكا نورانيا صورته يد القدرة في نسيم
البحر الأحمر ، أو طبعته في أديم سمانه ؛ وكانت
جلستها جلسة شعرية ، لأنها لم تكن تلتفت حولها
عينة أو يسرة ، بل كانت تثبت عينيها في لجة واحدة ..
وتبكي ! وبكاء عذراء تجلس وحدها فوق صخرة
موحشة من صخور هذا البحر ، شيء بشير الفضول
في قواد العابر ، وخاصة إذا كان في مثل شباب
علوى المشبوب

لقد لمح علوى جمالا بشير الألم في النفس ...
جمالا غامضا من ذاك الجمال للنادر الذي يخلقه الله
كما يخلق المعجزات

وجه حزين ، بيد أنه جميل فتان رائع .. وجسم
شفه الوجد وأضنته الأحزان ، بيد أنه أهيف ممشوق
يتثنى ... وثوبان ، أما أحدهما فأبيض كالنهار
وأما الآخر فأسود كالليل ، يتهدل فوقهما شعر قاحم
خلق للحب ولم يخاق للأحزان !

وعجب علوى لغناء الفتاة ، لأنه كان يتشقق عن
نفس باكية ، وروح وفية ، في صوت بللته الدموع ،
وأنفاس صهرتها نيران الألم ، وعاطفة مكبوتة محبوسة
لا يفرج عنها الشدو إلا قليلا

ثم صعدت الفتاة فجأة ، لأن القرص المتهب أخذ
يستتر ويبدأ وراء الأفق ؛ ونضت ثوبها الأسود
في هدوء وتؤدة ، وزعت حذاءيها ، وكشفت عن
ساقها ، فاختلط بياض الحرير ببياض اللحم الوردي
وقبل أن يمتحن القرص المتهب كله ... أو حين
لم يبق منه إلا هذه البضعة التي تحكي الجرح في كف
الأفق ... تجردت للفتاة من ثوبها الأبيض كذلك
ثم وقفت عروسا من عرائس الماء مادة ذراعها نحو
البحر ... وهبطت إلى الماء فجأة فنامت فيه

وأفاق علوى من الطلسم الذي سحر قلبه حينما
شهد الفتاة تتجرد من ثوبها ، وذكر أن هذا الجزء
من الشاطئ هو أخطر الجهات للاستحمام ، لكثرة
ما به من الصخور المؤذية ، وما يأوى إليه عادة من
حيوان هذا البحر ليستخفي فيه ... وإن تكن تلك
خرافة انتشرت بين أهل السويس ، لم تؤيدها
حجة ، ولم يقم على صحتها برهان

ذكر ذلك علوى فبرز من مخبئه على عجل ...
ونضا ثيابه على عجل كذلك ، وكانت فكرة جديدة
من ألوف الأفكار التي ترد في الخاطر في مثل تلك
اللحظة تزيد في عجلته ، وتضاعف نشاطه ، حتى

قريبة من سطح الماء ، قوف فوقها منهو كما مكدوداً ،
لا يكاد يحسك نفسه من التعب
وكان القمر المصري الجليل قد أخذ يسكب فضته
فوق الكون الهامد إلا من جرجرة الموج حول
الصخرة التي وقف فوقها علوى الحائر ...
فيأترى ؟ هل يسخر القمر بملوى ، كما سخر
به البحر ؟ !

أين الفتاة يا ترى ؟

لقد راح المسكين يبحث عنها بعينه المرتعشتين
في آفاق الماء ... لكنه لم يجد شيئاً ، غير لجة عند
لجة عند أخرى ... !!

هل غرقت ؟

ولم لا يكون ذلك ؟

إن هذا بحر تفرق فيه الجن ، فبال فتاة طرية
حزينة كمود القصب الرقيق !

أخذ علوى طائف من الحزن والوجوم وأخذت
الوساوس تمصف في قلبه ، وشعر كأن كنزاً بأكله
من السمادة والهناء قد أفلت من يديه .. وراح وهو
فوق الصخرة ، وحوله هذا الموج المفترس ، يستميد
رجع الغناء الذي ملأ أذنيه فوق الشاطئ ، فلا يذكر
أنه سمع مثله فيما عاش حلاوة وطلاوة ولا سحراً ..
ولا إجماعاً كذلك !

وطفق يتحدث نفسه حديثاً طويلاً مؤسباً ...
« وأأسفا عليك يا فتاة ؟ ليتك عشت لي ؟ ليتك
عرفتني قبل أن تلقى بنفسك في هذا اللج الصخاب
هل حسبت أن الدنيا أقفرت من القلوب بمد
حببيك ؟ أي قلوب العالم لا تتفتح كالزهر لتشرق
أنفاسك ؟ هللى إلى من الماء يا عروس الماء ! عودى
إلى الحياة فعلى أحفل من قاع البحر بحبيبك

لأوشك أن يرتبك وهو يخلع ثيابه ، فكان لا يبالي
تقطيع أزراره أو تمزيق إزاره ... ذلك أنه حسب
أن الفتاة قد فعلت فعلتها لتنتحر ، وقد كان غناؤها
الحزين يعني ذلك ، لأنها ذكرت أن تلك اللجة في
ذلك المكان عند هذه الصخرة ، كانت قبر حبيبها
الذى غيبه البحر في أحشائه ، غير راحم شبابه ...
لذلك ارتبك علوى ارتباكاً شديداً قبل أن يقذف
بنفسه في اليم لينقذ الفتاة الجميلة الباردة التي ضاقت
بها الحياة بعد حبيبها ، فبادرت إلى الانتحار في
المكان نفسه ، وفي البحر نفسه ، وفي هذه الهدأة
الرائمة من مغرب السويس نفسها

وسبح علوى ...

ثم سبح ... بيد أن البحر الذي يخضع للنفيد
الحسان النوام ، هو البحر نفسه الذي يأبى أن
يقهره أحد من ذكران البشر ، ولو كان فرعون
ومن وراء فرعون جنوده ! لذلك لم يدر علوى لم
نار للمباب حوله وقار ، واصطخب الموج وأرغى الزبد
وهزى الشاب الفتى أول الأمر ، ثم مضى في
سباحته قدما ، غير أن البحر هزى هو أيضاً ،
ثم جرجرت حول علوى أمواجه ، وأزبدت من
فوقه أثباجه ، حتى غدا الليل في عينيه ليلين ،
وإن كان البدر السافر قد سار هو الآخر في روعة
بدرين ، بدرأ في السماء وبدرأ في الماء !

وعجب علوى لطغيان البحر وشدة مراسه ،
ورجع بذأكته إلى ألوف المرات التي خاض فيها
عبابه ، فلم يذكر أنه عتا مثل هذه المرة ، ومثل ذاك
العتو ...

ثم سبح ولم يبالي ...

وبلغ بمد إعياء وبعد جهد ، جزيرة من الصخر

- والفرمين بك ، وعباد جمالك ! إن حبيبك الذي
تحسبته قد نوى كالحمر في أصداف هذا اليم ، هو
هنا ! هنا ، فوق هذه الصخرة ، وهو يكلمك الآن ،
إنه ليس هناك في القاع يا فتاة فعودي ! عودي إلى
الذي لا يعرف اسمك ، وإن كان قد انطبع في فؤاده
رسمك ! عودي فإن في قلبك جنة موشاة بأزاهير
حبك ، وهي في حاجة إلى الأنفاس المبقعة التي يرددها
فك الجليل للشاوي ! لم كرهت الدنيا وشيكا هكذا ؟
الآن قلباً واحداً من ملايين القلوب التي تنفق
بحبك قد أودى ، فأنك تهجرين الدنيا من أجله ؟
أو قد كنت تخلصين له إلى هذا الحد ؟ ما أسعده
حياً وميتاً ؟ ترى من هو يا فتاة ؟ أو هكذا تمسين
حلماً في خالدي بمد إذ كنت حقيقة ملء ناظري ؟
وكان الريح قد هدأ ، والوج قد تطامن إلا قليلاً
والبدر قد ارتفع بضمة أمتار فوق الأفق ، وكان
علوى قد يئس من المشور على الفتاة ولو جثة هامة
تطفو على اليم ... وكان قد سرت في كيانه رعدة
من البرد والحزن والخوف ، فاعتزم أن يعود إلى الشاطئ
وقبل أن يخوض الماء ، سمع خلقه هاتفاً
يقول : « هل السيد في حاجة إلى معاونة ؟ »
وتلفت علوى مذهولاً ، فرأى الفتاة معلقة
بنتوء من صخرته ، وجسمها الجليل يلعب في فضاء
القمر ، نفق قلبه خفقة شديدة لهذه المفاجأة ثم قال :
- أمي أنت ؟
— ... ؟
— ألم تفرقي ؟ أما تزالين حية ؟ ما أسعدني !
— ماذا ؟
— لقد كنت أبكي قبل لحظة من أجلك !
— من أجل أنا ؟ ... من أنت ؟
- أنا ... أنا ... علوى ؟ وأنت ؟
— علوى ؟ ... من علوى ؟
— أجل ... أنا علوى ... أنا والله علوى الذي
كاد يهلك في هذا الباب من أجلك ! ألا تريد
أن تذكر اسمك ؟ إذن لماذا كنت تبكين ؟
وبرزت الفتاة من الماء فوقفت فوق الصخرة ،
وراحت تقلب في وجه علوى عينيها الحاليتين ...
ثم أشاحت فجأة ، وصرخت قائلة :
— كلا ... لست أنت علوى ... هذا حلم ...
هذا ... باطل !
ثم أهرعت إلى اليم فأعملت فيه ذراعها
ولم يتوان علوى ، بل قذف بنفسه في اللجة ،
وانطلق يسابق الفتاة إلى الشاطئ ... وقد نشط
هذه المرة ، وتدقت القوة كالحديد في أعصابه ،
وأحس كأن الماء الذي كان كالنواج قبل لحظة ،
قد صار حاماً ساخناً
وبالزغم مما عراه من فجأ وتلف ، فقد ذهب
بأكل هذا الجمال اللامع بعينيه الجائعتين ، وبعلاً
رثيله بذاك الأرج الذي أخذ يتضوع بالحب فوق
البحر وتحت القمر ...
وكان علوى أسبق من الفتاة إلى الشاطئ ،
فوقف عنده بتنظرها ...
وقالت له وهي في الماء
— إذا أنت ظلت واقفاً هكذا فسأعود !
— تمودين ؟ وإلى أين ؟
— إذهب أرجوك !
— بل اخرجي وأنا خادمك ... إنني أهلك
حياتي تسير في ركابك حتى تباني مأمناً المدينة !
— أشكرك ... لا حاجة بي إلى أحد !

كالحمالة من فوق صخرتها واقتربت حتى كانت تلتقاه
ثم وقفت صامتة ساكنة ولم تحرك...
ومد علوى يديه المتداعيتين بالفوطة آخر الأمر
ثم قال :

- أشكرك !
- وأين ثيابك ؟
- وراء الصخرة السميدة !
- الصخرة السميدة ؟ ماذا تمنى ؟
- الصخرة السميدة التي كانت تحملك إذا أنت
تبكين وتفتنين !
- أوه !

ونهدت الفتاة فكانت فوق الصخرة ، ثم
استدارت حولها . فاكتشفت للكن الساكن
حيث ملابس الشاب ، وحيث كان يجتني ويسترق
السمع . والأنين . والبكاء . والسر .
وعادت تحمل ملابسه جميعاً فوضعتها على الرمال
تلقاه ثم قالت له : « هذه ملابسك فينبى أن
تلبسها وإلا عرّضت نفسك لخطر البرد . أما فوطتي . »
ولم تكمل عبارتها ، بل أطلقت ساقها لتسليم
البحر فكانت فوق الصخرة ، وحملت حقيبتها
وانطلقت لا تلوى على شيء ...

وجفف علوى ما تبقى على بدنه من قطر ، ثم هرول
فوق الشاطئ وملابسه في يده ، وانطلق يمدو
في إثر الفتاة ... وكان مع ذلك يمس إحدى ساقيه
في جزء من سرواله - أى بنطلونه - ثم بخطو
فيتعثر ، ويقف فيدس الأخرى في مكانها الآخر
من السروال ، ثم يمدو ... ويدس ذراعه في كم
القميص ، ويهبط ، ثم يدس الذراع الثانية في الكم

- وكيف ؟ إن هذا مكان موحش ، وإن
الطريق لمفر ، ولا بد أن أصحبك إلى المدينة ...
أو إلى حدودها على الأقل ، أتعرفين لم نزلت وراءك
إلى البحر ؟

- لتفريق ؟ أليس كذلك ؟
- بلى ! لقد كدت أعرق والله !
- لقد رأيتهك تجاهد الموج ، ولولا أنك كنت
قريباً من الصخرة لأتخذتك ... فذهب مشكوراً
إذن !
- ولكنك تضرين نفسك بالبقاء هكذا
في الماء . فلم لا تخرجين ؟

وبرزت الفتاة من الماء فازلزل فؤاد علوى ...
ثم توائمت كالقطاة فوق رمال الشاطئ حتى كانت
دون الصخرة ، فقفزت قفزتين أو ثلاثاً فكانت
فوقها ...

وانتذت تفتح حقيبتها فأخذت فوطة فسحت
بها جسمها البض الرطب ... وهنا ... نظر إليها
علوى وهو فوق رمال الشاطئ ينتفض من برد
الليل ، ففهمت سؤله ، وقذفته بالفوطة فتلقفها
باسمها ، وبدلاً من أن يجفف بها جسمه الرطب ،
دس فيها وجهه ، ولا يعلم إلا الله ماذا كان يصنع ،
وأى أنفاس حرار كان يردد ، ولا أى دموع كان
يذرى ويسكب !

ولبست الفتاة ثوبها الأبيض الناصع الذي زاده
أشعة القمر بهاء وسناء وجاذبية ، ثم أضفت عليها
من ثوبها الأسود ، واستدارت لترى هل انتهى
علوى ... فلما رآه واقفاً تحت هذا الليل القضي
والرياح تساوره ، وقطرات الماء تداوره ، هبطت

- الآخر، وهكذا. حتى لم يبق في يده إلا حذاؤه !
فحك علوى حين رأى نفسه يقتنى أثر مبعوده
المفاجئة وفي يده حذاؤه ! فتركه على الصخر
وانطلق كالظلم وراءها .
- ما هذا ؟
- إن الفتاة تقفز في سيارة كانت تنتظرها عند
هامش الصحراء في أول الطريق الموصل إلى طريق
القاهرة ...
- ولاح علوى ذلك ، فكاد يصعق وتتخشب ساقيه ،
فلا يستطيع عدوا بل لا يستطيع حراكا ...
لكنه سمع على أن يلحق بها . لأنه أحس بشيء
غريب يمتزج بدمه ، ويجرى دفاقاً في عروقه ...
وأحس أيضاً أن القدرة التي حرمتها كل
هذه السنين الطوال نعمة الحب ، قد فتحت له
جنة الحب فجأة بتفياً منها حيث يشاء فإذا
هربت هذه الفتاة فستفلق أبواب الجنة ، ويطل
إلى الأبد طريداً منها ، يطوف بأعرافها ، ولا يناله
من نسيها شيء ... فجري ، ثم جري ، وظل يجري
كالجنون ، وكان يسب الأرض لأنها لا تنطوى
بسهولة تحت قدميه ، وظل يدعو الله أن ينبت له في
ظهره جناحين أو ثلاثة أو أربعة ... أو أجنحة
لا عدد لها ، ليبلغ السيارة قبل أن تهتم ...
- ولم يقبل الله دعاءه طبعاً ... فلم تثبت له أجنحة
بيد أنه مع ذلك قد بلغ ضالته ... وقبل أن تتحرك
السيارة ، استطاع أن ينظر أمامها لتقف ...
أو لتقتله ... وهل أشهى في هذه الدنيا من قتلة
بسيارة تحمل حبياً كهذا الحبيب !
- وتبسمت الفتاة ... وأوقفت الماكينة ... ثم
- نزلت لترى ما خطب هذا الشاب !
- أوه ؟ ماذا تريد ؟
- أريد أشياء كثيرة .
- أريد أن أعرف
- قبل كل شيء أحب ألا تمبسى هكذا ؟ هل
أنت غاضبي ؟
- وكيف لا أغضب وقد حصل منك كل
ما حصل ؟
- وماذا حصل متى جعلت فداك ؟
- ألم تخني لتسرق سرفتاة ؟
- الصدفة والله فعلت هذا ؟
- ولماذا نزلت البحر وأنت لا تحسن السباحة ؟
- أنا أحسن السباحة جداً ، وقد فعلت فماني
هذه لا تقذك ؟
- لتنفذني ؟ وماذا ظننتني أصنع ؟
- حسبك ...
- حسبت ماذا ؟
- حسبتك عولت على الانتحار ؟
- وماذا يجعلني أنتحر ؟
- ألم تكوني تنفين وتبكين وتذكرين حبياً
لك ... أوه ؟ معذرة ؟ ...
- آه ! إنها أغنية يا هذا ؟
- أنا لست (هذا) .. أرجوك .. لقد ذكرت
لك اسمي ؟
- آه ! اسمك ... علوى ... أليس كذلك ؟
- هو ذاك ... ويقيني أنه كان يسمى
علوى^(١) أيضاً
- كان يسمى علوى ؟ ومن هو يا ترى ؟
- (١) نعتذر عن منع الأعلام من الصرف في كل قصصنا

— لا والله يا أختاه ، لكنى أشفق على شبابك
وجالك أن يستلما ليد الدبول فتذوى زهرتك وهي
أعبق ماتكون ، ويصوح ربيمك وهو يد في إياه
— أشكرك ... ألا تتركنى أنصرف إذن ؟
— تنصرفين ... وأنا ؟
— وأنت ماذا ؟
— أين أذهب ؟
— إلى بيتك ؟
— ليس لي بيت ... لقد خرجت اليوم من صدقة !
— أرجوك ... أنا لا أحتمل الدعاية !
— دعابة ؟ أية دعابة يا ... يا عجبا ! ألا أعرف
اسمك ؟

— هذا مستحيل !
— وله ؟
— لأنى أقسمت ألا أخونه !
— أقسمت ألا يخونى من ؟
— لقد عرفته ...
— ألم أقل لك ؟
— ألم تقل لي ماذا ؟
— ألم أقل لك إن اسمه علوى !
— حقا ، لقد كان اسمه علوى ...
— ولماذا غرق إذن ؟
— كما أوشكت أنت أن تغرق !
— ليتنى غرقت ... ليتنى غرقت !
— ولم تمنى ذلك ؟
— لأنى أوشك أن أقنط من ...
— م ؟
— من إقناعك ؟
— إقناعى بماذا ؟

— الشاب السعيد الذى غرق في البحر
— لقد بدأت تمزح !
— كلا والله ، إنى ما إلى المزاح أردت !
— إذن كيف يكون سعيداً من يغرق ؟
— أى مخلوق يرزقه الله نعمة ... حبك ...
— يكون أسعد خلق الله ولو غرق ؟
— حقاً إنك شاب جرى ...
— لست جريئاً ولكنى ...
— ولكنك ماذا ؟
— ولكنى أقول الحق !
— إنهم ... لقد أرويت الرمال بالدم المتصبب
من قدميك ؟
— دم ؟ ... أوه ؟ ... ليتنى سفكت دمي كله
تحت قدميك !
— ما شاء الله ؟ كيف تستبيح لنفسك أن
تخاطبني هكذا ؟
— وكيف أخاطبك إذن ؟
— كما يخاطب الناس أناساً لا يعرفونهم ؟
— غير أننى أعرفك !
— تعرفنى ؟
— ولم لا ... لقد كان غناؤك وحياً تنزل على
فؤادى فحفظته عن ظهر قلب ... لقد حفظت قصتك
كلها ... أتأذنين بسماعها ؟
— وهل تؤمن أن ما غنيت قصة ؟
— بل أؤمن أنها حقيقة لا ريب فيها !
— فلم إذن لا تحترم قدس الموت ؟
— قدس الموت ، أوه ! ما أبشع أن يذكر
اسم الموت ههنا ؟
— لأنك رجل أنانى !

أبأخ القاهرة في ميعاد لا أحب أن أعدوه
وتنحى علوى ... وقفزت الفتاة في السيارة ..
وقبل أن تغلق بابها نظرت إلى الشاب نظرات
غامضة لم يفهم منها إلا أنها تدعوه . فتقدم خطوات
ووقف كالشبح .. فددت إليه يدها الناعمة الخصبية ،
فتناولها في يديه جميعاً ، ثم أهوى عليها بفمه المرتعش
يطبع فوقها عشرات القبل ، وينثر عليها قلبه وروحه
ودموعه ...

ثم مدت يدها الأخرى فربت بها على شمره
الأشعث ، وخديه البليلين ، وجذبتة إلى جانبها في
السيارة .

— آه يا قاسية !

— لننس !

— وما اسمك إذن ؟

— اسمى ... ستعرفه في القاهرة !

— في القاهرة ؟

— أجل ... هناك !

— لقد تركت هنا ...

— طربوشك وحذاءك ؟ أليس كذلك ؟

— بلى !

— نشترى غيرها من هناك ؟

...

وأقيم في السويس سرادق غخم حاشد ، وأقبل
الناس من كل فج يمزون والله علوى ... أليس
قد غرق ؟ أليس هذا طربوشه وهذا حذاءه ، وهذه
قوطة ملقاة على الرمال !

وكان من بين المزين علوى نفسه !

لقد أقبل هو وأسماء في الليلة التالية ليزفا إلى
أبيه للبشرى السعيدة ... لقد خطبها !

دميتي فمشيت

— بجمال هذه الدنيا وكثرة مباحجها ...
— فاذا غاب منها شخص لم تعد جميلة كما تحسب ...
— هذا وهم ، ويجب أن تعالجه بالذسيان !
— أجل ، سأعالجه بأن أنسى كل شيء ...
إلا ذكره ! آه يا علوى ! آه يا حبيبي ! تعال الآن
من قاع هذا البحر المقترس فانظر كيف يريد للناس
أن ينسخوك من ذا كرتي ! الناس الأثانيون الذين
لا يحترمون قدس الموت ، ولا تقشمر فلوبهم فرقا
لذكره ! لقد صارت الدنيا بليدة من بعدك يا حبيبي
ها هو ذا رجل ... لا يريد أن يخلص فتاة لالفها
الذى أخلص لها حتى الموت ... الذى ضحى نفسه
وشبابه من أجلها ... ما أفبعك أيتها الدنيا ! لقد
شوهتك أثنائية الانسان ! لقد كنت قبل آدم جميلة
ساذجة طهوراً فاطخ وجهك بأوحاله
تنح أيها الشاب ! لقد كنت أحسب دماءك
هذه دماء نقية ... لقد كنت أرثى لك والبحر
يلقفك ... لقد خدعت في دموعك التى ذرقها من
أجلي فوق رمال الشاطئ ، وكنت أرجو أن أعثر
في روحك على صديق ، فاذا للشيطان القدر يتعذر
في صلبك من أيام آدم

— أختاه ... أرجوك ؟

— علام تساومنى ؟ على قلبى ؟

— بل أذ ضحية أخرى من ضحاياك

— أسكت فاني ليس لى ضحايا ... إنك تدنس

دمك ودموعك بهذا الهراء ! كيف تستطيع لنفسك
التلصص على فجائع القلوب

— اللصص ! أوه ! إنك تهينينى !

— وأنت أهنت ذكرى حبيبي ، وآلمت روحه !

— إذن ، فأنا أعتذر

— إذن ، تنح ، فقد طال حوارنا ، وأريد أن

الرسالة في عامها السابع

المجلة التي أحدثت في الأدب الحديث مدرسة خاصة
المجلة التي ثبتت على مكاره الجهاد والانتقاد والزمن
المجلة التي تنسم بأريج الاسلام والعروبة والشرق
المجلة التي لا تتخلف ولا تتوقف ولا تنهت

ستخطو هذا العام أوسع خطواتها وأجرأها

أدب ، علم ، فن ، فلسفة ، اجتماع ، سياسة ، اقتصاد ، قصص ، شعر
تقدم ، محادثات ، ربورتاج ، مترجمات ، مختارات ، أقطار ، مسرح ، سينما

أسرة الرسالة في سذتها الجديدة

الأستاذ المقاد ، الأستاذ المازني ، الأستاذ توفيق الحكيم ، الأستاذ عبد الرحمن شكري ، الأستاذ اسماعيل
النشاشيبي ، الأستاذ ساطع بك المصري ، الدكتور محمود عزمي ، الدكتور عبد الوهاب عزام ، الدكتور زكي
مبارك ، الدكتور محمد محمود غالي ، الدكتور أحمد موسى ، الدكتور يوسف هيكل ، الأستاذ محمد أحمد
الغضراوي ، الأستاذ سميد المريان ، الأستاذ دريني خشبة ، الأستاذ عبد المنعم خلاف ، الأستاذ محمود الخفيف ،
الأستاذ عمر الدسوقي ، الأستاذ محمد حسن ظاظا ، الأستاذ أحمد خاكي ، الأستاذ علي الطنطاوي ،
الأستاذ أنور المطار ، الأستاذ أحمد الطرابلسي ، الأستاذ الحوماني ، الأنسة أسماء فهمي ، الأنسة زينب
الحكيم ، الأنسة الزهرة ، الأنسة فلك طرزي ، الأستاذ محمد لطفي جمعة ، الأستاذ فليكس فارس ،
الدكتور بشر فارس ، الأستاذ محمود غنيم ، الأستاذ محمود حسن إسماعيل ، الأستاذ أحمد حسن الزيات .

إدفع من الآن لغاية آخر يناير ستين قرشاً

تكسب مجلة الرواية ومعهما كتاب متوسط الحجم ، أو كتاب كبير بالتخفيض ، أو مجموعة السنة الأولى
أو الثانية من مجلة الرواية بحيث يصبح اشتراك الرسالة مع هذه الهدايا عشرين قرشاً . والاشتراك في الخارج
هو مثله في الداخل ، ويزاد عليه ثلاثون قرشاً مصرياً فرق أجور البريد . وسنمان عن كتب الهدايا في
الرسالة خلال شهر يناير — أما الاشتراك بعد مدة التخفيض فهو ستون قرشاً للرسالة وثلاثون للرواية
في الداخل ، ومائة قرش للرسالة وخمسون في الخارج للرواية وبخضم في كل منها للطلاب ٢٥ / .

تظهر في ثوبها الجديد : بحروف جديدة ، وطبع متقن

كَيْلَاهُنْ

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ نَجِيبِ مُحَمَّدٍ

القليلين الذين يصادفهم أجل
التوفيق وأسعده في دنيا النساء
فمشق عدداً وافراً من الممثلات
والراقصات وربات القصور
المصونات غير متردد ولا متحرج
ورشف من كؤوس الهوى خمرأ
صافية ، أعمته نشوتها عن طي
الأعوام ، فايدري يوماً إلا وهو

يصحو على عاذل يقول : « أتباع الخامسة والأربعين
ولما تزوج ؟ » الخامسة والأربعون ... أحقاً ذهب
للشباب الناصر وولى ؟ أحقاً تسنم ذروة الكهولة ؟
ووجد نفسه يفكر في مسألة الزواج تفكير
شاب يهدف لثلاثين ، ويكاد الزواج أن يكون
كاللوت نهاية كل رجل ، وإلا فلن يترك هذه الثروة
الطائلة التي يمتلكها ؟ ومن يؤنس وجشته إذا احتجزه
البيت يوماً ؟ ومن يعينه على متاعب الشيخوخة
وأهوال الكبر إذا تألبت عليه عوامل الفناء ؟

ولكنه لم يفكر عن طبعه وأنه مناصر عشاق ،
ومثله يستطيع أن يقرأ قلب المرأة كما يقرأ الكتاب
الفتوح ، ويمرر طبيعتها معرفته لبداهيات الحساب
لذلك رأى أن الحكمة تلي عليه ألا يختار زوجة
شابة تفصل بينها وبينه عشرات الأعوام ، وصحت
عزيمته على الزواج من أرملة أو مطلقة في الثلاثين
على أدنى تقدير ، حذراً من أن يقضى عليه بما قضى
به على ضحايا الكثيرين ...

ولكنه شاء غير ما شاءت الأقدار ، وما حيلته
في ذلك ؟ لم يكن هو الذي يبرم الأقدار حين دعى
يوماً إلى حفلة زفاف فراح مالكاً لفؤاده وعاد مسلوب
الفؤاد والارادة ، ولم يكن هو الذي يخلق الأعمار

هل يتمنى الانسان على الله أكثر من أن يهبه
زوجة حسناء وثروة طائلة ، ويمتعه بصحة سابعة
وبنين ، ويؤنه مركزاً اجتماعياً فذاً ، وقد فاز حضرة
صاحب العزة جمال بك ذهني بأوائك جميعاً ؛ كانت
له زوجة شابة حسناء يعزى النظر إلى وجهها الحسن
عن أحزان الدنيا جميعاً ، ووهبه الله أربعة من الأبناء
كالرود صحة وجمالاً ، وترقى في مراتب القولة حتى
تولى كرسي الاستشارة في أكبر هيئة قضائية ،
وورث عن والديه ثروة طائلة ما بين عقار ومزارع ،
ومع ذلك فن كان يطلع على وجهه ذلك اليوم إذ هو
جالس في شرفة قصره المظلة على شارع السرايات
ياخذ المعبج لهذا الا كفهرار الذي يظله وتلك
النظرة القلقة التي تحار في عينيه منذرة بالشقاء !

ولا سبيل إلى إبطال هذا المعجب ما لم نلج بماضيه
لأن حاضر الانسان يقع غالباً من ماضيه موقع النتيجة
من القدمات وإن كانت لا تدعم العلاقة بينهما
في الحياة بما تدعم به في المنطق من الضرورة والاحكام ،
ومهما يكن من الأمر فقد كان ماضى صاحب العزة
حافلاً بالشباب المرح السعيد والعمل للنزاه والدكاء
الوقاد والمغامرات التي تجعل من الشباب ديوان
شمر غنياً بالذكريات المذبة ، لأنه كان من الرجال

في هذه الفيلا يأتى منذ زمن بعيد؟ وهل هو متزوج أم أعزب؟ وكان يستطيع أن يسأل زوجه عما يحيرة ولكنه نقر من هذا نفورا عجيبا وآثر عليه الجهل والحيرة .

وكان قلقه غريبا لدرجة أنه ود لو يستطيع أن يحمل زوجه على نقل حجرة النوم إلى الجهة الأخرى من القصر المظلة على شارع القشلاق وإخلال المكتبة عاهاء، ولكنه لم يدرك كيف يمال طلبه وأبت كبريائه عليه أن يفتحها بشأته .

ووجد في حياة الفراخ الجديدة فرصة طيبة لمراقبة «غريمه» في صمت وحذر، فلاحظ أنه يتناول للشاي كل صباح في شرفته وأنه يعود فيجلس بها عند الأصيل ساعة أو نحو ذلك ، وفي تلك الأثناء يصادف أن تدخل زوجه إلى الشرفة فيديم الشاب النظر إليها ، وخيل إليه أن بصرها يتجه أحيانا إلى شرفته ، نعم يحتمل ألا يكون وراء هذه النظرات أى معنى سوء ولكن يتعذر عليه أن يتصور أنه من الممكن أن ينظر شاب إلى مثل زوجه الحسنة نظرة بريئة لا يشوبها طمع .

وضاق بصمته المرهق فأشار يوما إلى شرفة الضابط وسألها :

— من يقيم في هذه الفيلا ؟

فقالت :

— جار جديد ، أظنه مفتشاً في الداخلية

فسألها بلا اكتراث في الظاهر :

— ومن الضابط الذى يظهر أحيانا كثيرة

في هذه الشرفة ؟

— أى ضابط ؟ ... لا أدري ... له ابن المفتش

فوقع تجاهلها من نفسه موقعا أليما ؛ واشتد

إذا كانت التي سلبته فؤاده في المشرين من عمرها ، ربما قلت إنه كان ينبغي له أن يثلب الحكمة والعقل على الهوى ، ولكن والأسفاه فان هذا القول وأمثاله لا يجدى فيمن تسيطر عليهم الشهوات ، فجميعهم — أيا كانت الشهوة التي تتحكم فيهم — لا يرون في العقل إلا وسيلة لتحقيق شهواتهم ، يستوى في ذلك منهم من يعبد الله أو يعبد المال أو يعبد النساء ، فلم يتردد جمال بك عن سلوك سبيله المحتوم وخطب الآتسة حياة إلى والدهما الأستاذ محمد عويس الخبير بالمجلس الحسبي وتمت الزيجة وأثمرت على الأيام أربعة من الأبناء أكرم في المدرسة الثانوية وأصغرهم في الروضة ...

ولكن للزمن حكمه الصارم كذلك ، فقد أحيل المستشار في هذا الأسبوع إلى الماش وأذن النذير بمجيئ الخامسة والستين بكوارثها الممهودة من نضوب الأعصاب وبرودة الاضمحلال وتنكر معالم الدنيا وتآلب أمراضها ، وما كان به من ظمأ ولا جوع فقد ارتوت نفسه من لذائذ الدنيا وأخذ نصيبه كاملا من متاعها الفرور ، ولكن دب بقلبه ديب القلق الذى تمود بوائمه التي تلك الزوجة الحسنة التي يعطيها الزمن — الآخذ منه — نضجا وكالا ويزيدها كل يوم حسنا على حسن ، وما كانت مخاوفه أوهاما ولا محض حذر تلمبه مفاصاته الماضية ، ولكنه شاهد هذا الصباح في شرفة الفيلا التي تواجه قصره ضابط بوليس شابا ، يتألق جماله في بذلته الرسمية المزدانة بالنجوم الذهبية ، وتنفع صدره توة الشباب وغروره ، وتعبث أنامله بشاربه الأنيق الصغير فانقبض صدره لراءه وتوجس منه خيفة لغير سبب بين ، ومجب كيف أنه لم يره قبل اليوم ، وهل يقيم

وكان يمهّد في زوجه البرود والزانة والسيطرة
على الأعصاب وكانت كمهده بها فلم تفجأ بحضوره
وسألته بانكار :

— خير ... ما الذي أني بك قبل ميمادك ؟

فانفجر غاضباً وسألها بغيظ وحنق :

— قولي لي أنت ما الذي أني بك إلى هذه الشرفة ؟

فقال بغيظ وإباء :

— إنك تهينني يا بك إهانة لا تحتمل

فاشتد به الغضب والغيظ وقال بمنفأ :

— أنت تحاولين تضليل باسطناع هذا الإباء

الكاذب

— عهدي بك أعظم أدباً من هذا

— ما شاء الله ، وددت لو يستمع إليك أبنائنا

إذ نملين أباهم الأدب

— أما أنا فلا أود أن يستمعوا إلى أبيهم وهو

يكيل التهم لشرف أمهم

فنظر إليها نظرة عميقة وهو يضرع إلى الله أن

يطامه على خبيثة نفسها وجعل يتساءل في حيرة :

تري هل هي صادقة في غضبها ؟ هل هي حقاً بريئة

مما رماها به ، وتهد حزناً شقياً وقال وكأنه يحادث

نفسه :

— حقاً إن الشك مس من الجنون -

فقال باستياء :

ألا ترى أنك تترف بأنك شككت في ؟

فماوده الغضب وقال لها بمرارة :

— لماذا تعودين إلى الظهور بهذه الشرفة ؟ وفي

هذه الساعة المهددة ؟ اصفى إلى يا هانم ، أنا لا أسمع

لامرأة بأن تتعذلي أبداً ...

— هذا كلام لا يليق برجل له مكانتك

غضبه اشتداداً لا يستند إلى أسباب معقولة فقال :

— لا أشك في أنه ضابط أحق وقع

فبدت الدهشة على وجهها وسألته :

— ما الذي يغضبك عليه ؟

فقال بمحبة :

— رأيته مراراً ينظر إليك نظرات وقعة

ساقلة ، جعلتني أفكر جدياً في نقل حجرة النوم

إلى الجهة الأخرى

فقال بلهجة استياء :

— ولكنه نمب لامبرر له ، وأرى أنه يتضمن

إهانة قاسية لي يا بك

— كلا يا هانم ، ما أردت هذا قط ولكني أحب

أن تتمنى بحريتك بعيداً عن تطفل الميون

فهزت منكبيها استهانة وقالت : « افعل

ما بدالك »

وتحققت مشيئة ، ولكن آلمته استهانتها واعتقد

أنه تسرع تسرعاً مريباً ورطه فيه الغضب وأحس

من تصرفه بخزي أليم وكبر عليه أن يعتلي رعباً

من نظرة يرسلها هذا الشاب المفرور ، وما عسى

أن يفيدته نقل حجرة من مكان إلى مكان ؟ وهل

يعني هذا زحزحة الحب من موضعه إذا كان أنشب

أظافره في لحم قلبها الطرى ؟ ... هيهات ...

ولم تهدأه شكوكه وخاوفه ، وقد ثقلت عليه

وطائها يوماً وكان يجلس في قهوة لونا برك مع محام

كبير فاستأذن بفترة وقام إلى سيارته التي انطلقت به

إلى قصره وبلغت شارع السرايات وكان الوقت

أصبلا ونظر خلال زجاج النافذة فرأى زوجته في

شرفة المكتبة ونظر إلى الناحية الأخرى فرأى

الشیطان ...

وأخلاقك وبجدربك أن تنادي عقلك الذي عذب به
للغضب ، فإذا ينقمتك إغلاق الأبواب والنوافذ إذا
أنا نيت الغدر ؟ ... وما يضيرك ظهوري بكل مكان
إذا انطوى قلبي على الاخلاص والأمانة ؟
فقال بذهول :

— الاخلاص ... الأمانة ... ما عدت ألقه
معنى لهذه الكلمات لأن عقلى تسم فينبى أن تفهمى
ذلك جيداً ، قد يكون المرض لعله ، وقد يكون
لغير علة إلا الوهم ، فاعمل على إعادة الطمأنينة إلى
نفسى ، ودعى الوعيد جانباً ... فأنا رجل لا يمكن
أن تتغفله امرأة مهما أوتيت من المكر والدهاء
— أهكذا تتغير بعد العشرة الطويلة وتنقلب
إنساناً غير الإنسان لأنك رأيت شاباً ينظر إلى من
بعيد ؟

وأى امرأة لا تلتمها العيون كلما بدت للناظرين ؟
نظرة من بعيد . كلا ليس الأمر كذلك ، إنها
تكذب وتجد في الكذب وهى تعلم بما يمدبه ويشقيه
إنها تتجاهل الحقيقة وليس لتجاهلها إلا معنى واحد
إنها تتغفله ولكنها لن تفوز بظائل ...

— اصنى إلى يا هانم لا بد من وضع حد
لكل هذا

فنظرت إليه بارتياح وقالت :

— ياله من قول خطير . فقال :

— لا خطورة هنالك ، إنى أقر بأنى أخطأت
فما صنعت من تغيير ترتيب بيتنا ، وأقر بأنى ليس
لى الحق فى الحجر عليك لأنه يبنى أن أكون أرفع
من العوام ، فاذهبى إلى حيث تشاءين وتنقلى كما
تشهين ولكنى لن أفارقك وأظن أن هذا حتى أيضاً
فلم تهالك نفسها من الضحك وسأته :

— أبدأ ؟

فقال بهدوء :

— سألازمك كظلك

— ياله من أسر مرهق !

— لك ؟

— كلا ... فانه يسمدن ولا شك أن يظل

زوجى إلى جانبى ، ولكن كيف لك أنت بالصبر على
هجر لونا برك وسنت جيمس ؟

— هذا شأن يعننى وحدى

فلم ترد على أن قالت : افعل ما فيه راحتك

ومضى البك يحقق وعده أو وعيده دون إهمال
نخلع ثيابه وارتنى البيجاما والروپ دى شامبر
وجلس إلى جانبها . وتسلسلت الأيام على منوال
واحد ، فكانا يقطمان النهار معاً يتحدثان حيناً
ويطالمان حيناً آخر ، فإذا سئمت من جلستها وقامت
إلى الشرفة أخذ مقعداً إلى جانبها ، أو نزلت إلى
حديقة القصر تريض فى عماشها وافقها إليها حتى
إذا ولى النهار وجاء الليل وحانت ساعة النوم أوياماً
إلى مخدعهما فنام ملء جفنيه ...

وكانا يخرجان كثيراً لزيارة الأصدقاء والأقارب ،
أو لفشيان الملاعب والملاهى والسينمات فلا يفرقان
دقيقة . وثابر على حياته الجديدة مثابة الصابرين
ولازمها حقاً كظلمها ، وحافظ على كلمته أن يتركها
تفعل كما تشاء على أن تتركه بفعل ما يشاء كذلك ،
ولم تظهر السيدة أى تدمر وقضت أيامها مريحة
ضاحكة كأنها أسعد الأزواج حقاً . وفى يوم من
الأيام اقترحت عليه أن يذهب إلى شيكورييل لشراء
حاجاتها وحاجات الأولاد ، فذهب معاً ودخلا
الحل للشهير ، ودارت به على الأقسام المختلفة تشاهد

إلى المحل ، وبحث عن زوجه بمبنيه ، ومضى يسير هنا وهناك ولكن الظاهر أنها كانت بالطابق العلوي فصعد الأدراج على مهل وقطع المكان ذهاباً وإياباً ولكنه لم يثر لها على أثر ، فماد أدراجه وهم بالبحث مرة أخرى في الطابق الأول ولكنه رآها مقبلة من أقصى المحل والغلام يتبعها حاملاً المشتريات فلم يرد أن يظهر لها نفسه وسبقها إلى السيارة ... وتساءل في صمته كيف لم يثر بها مع أن المحل لم يكن مزدحماً ؟ هل لأنه لم يحسن البحث ياترى ؟ ... ولده الشك ... هل من الممكن !... ولكن هذا بعيد عن التصور

وجاءت معه في غداة اليوم التالي ودخلت المحل ولبت هو في السيارة كما فعلت بالأمس ولكنه لم يراها إلا دقيقة ثم تبعها على الأثر ورآها تسرع الخطأ منعطفة إلى يمين الداخل فظن أنها قاصدة إلى المصعد ولكنها واصلت السير إلى باب المحل الجانبي وخرجت منه ، خفق قلبه بشدة وتبعها بخطى سريعة ، وبأنح الباب ، ثم نظر إلى الطريق فرآها تدخل إلى عمارة « لا كلير » المواجهة لباب المحل وشاهدها تدخل إلى المصعد ثم صعد بها ، فاجتاز الطريق ودخل إلى العمارة وانتظر هبوط المصعد وسأل البواب عن الطابق الذي صعد إليه فرفع الرجل بصره وقال : « الطابق الرابع » فدخل المصعد وضغط الزر رقم ٤ وخرج منه فوجد نفسه في ردهة تواجهه ثلاثة أبواب فألقى عليها نظرة هائلة وهو يقول : تري في أيها دخلت ، واقترب من أولها فقرأ عليه اسم المسبو قاله بغير كراوس الهامى بالحكمة المختلطة ، وقرأ على الباب الثاني اسم هـ ، ليفي متعهد راديو تلفنكن وكتب على الثالث « مدموازيل فلورا خياطة

البضائع وتساءل البائمين وصعدا إلى الطابق الثاني وجالا هنا وهناك ، وهو يتبعها صامتاً يقف حيث تقف ويسير حيث تسير ، قرر على تجوالهما ساعتان أو يزيد لم يسترح الشيخ فيهما دقيقة واحدة حتى لثت من شدة التعب وعلا صدره وانخفض ، وسال عرقه بارداً ، واشترت ذلك اليوم شريطاً من الدانتلا ثم عادا إلى السيارة فارتقى الرجل على مقعده منهوك القوى وقال لها :

— لم تشتري شيئاً ذا بال

فقلت :

— يذني التريث في الشراء ، سنعود غداً

وعادا في الفند ودارت به كما فعلت بالأمس ولكنه

لم يحتمل المشى والوقوف ولحقه الاعياء فقال لها :

— سأنتظرك في السيارة

وانتظارها ساعة أو يزيد ، ثم حضرت يتبعها

غلام يحمل المشتريات ، فسألها البك :

— هل انتهيت والحمد لله ؟

فقلت بهدوء :

— هذه كسوة حسنى

فقال الرجل دهشاً :

— حسنى فقط ؟ ... وإخوته ... وأنت ؟

فقلت :

— لسه يابك ... لسه ... أرجو ألا تنكر

على تباطئي فهذه عادتي في الشراء وإن كنت تطلع عليها لأول مرة ...

وجاءا معا في اليوم التالي ودخلت الزوجة

إلى المحل وانتظر البك في السيارة وقات على دخولها

ساعة ثم ساعة أخرى فتلملم البك في جلسته

وأحس برغبته في الحركة فغادر السيارة ودخل

البواب حسبانه ؟ أم أن الشيطانة موجودة بداخل شقة الخياطة ؟ ولماذا صرخت الفتاة المسمومة بهذا الصوت المزعج وهي تنادى مدام جمال ذهني ؟ ألا يجوز أنها فعلت ذلك لتحذر النافلين ؟ وهل يجوز أن يسبق في مكانه لا يحرك ساكنا وزوجه في داخل الشقة في خلوة غرامية ؟ فاعسى أن يفعل وكيف يضبط الآئمة متلبسة بجريعتها ؟ ...

وعند ذاك فتح الباب ، فتقهقر خطوتين ، وخرجت سيدة ، وأوصاتها الفتاة الافرنجية وقد رآته ولكنها لم تباله ، وأغلقت الباب مرة أخرى . فمضى روح ويحيى في خيرة شديدة . من المؤكد أنها في هذه المارة ، فقد رآها وهي تدخل ورآها وهي تندس في المصعد ، وأكد البواب أنها صعدت إلى الطابق الرابع وها هو ذا الطابق الرابع ، ولا مكان يصح اقتراض دخولها إليه إلا شقة الخياطة . فالشيطانة لا شك في الداخل ، ولكن ما عسى أن يفعل ؟ هل يظل روح ويحيى ؟ أم هل ينتظر إلى ما شاء الله ؟ وما يزيد ارتباكه أن وقوفه هكذا قد يربب الصاعدين والهابطين وتيارهم لا ينقطع . وصرت عليه ساعة كاملة كانت أقسى ساعات حياته جميعاً ونال منه التعب والقهر كل منال ، فاضطر إلى مغادرة مكانه وفي نيته أن ينتظرها لدى الباب الخارجي ولكن خطر له خاطر أزجه فسأل البواب : « هل للمارة مدخل آخر ؟ » فأجابه الرجل بلمهجة البربرية بأن للمارة ثلاثة أبواب ، فأحس باليأس وذاق مرارة الخيبة وعرض شفته من الحنق والغيظ ، وكبر عليه أن تتغله الشيطانة وتمثل به هذا التمثيل الزرى . وكان ما عناه عقله وجسمه فوق ما يحتمله شيخ في

(٤)

السيدات « ووقف أمام الباب الأخير لا يريم ، وقد انحصر فيه ارتياحه ، وضغط على الجرس ففتح الباب ، ودخل قبل أن يؤذن له بالدخول فتراجعت أمامه التي فتحت الباب دهشة مستاءة ، وألقى نفسه في ردهة متوسطة الحجم تحيط بها حجرات أربع ، منها ثلاث مذاقة الأبواب وواحدة مفتوح بابها على مصراعيه ويرى بداخلها بعض السيدات والأوانس منهن من تطمئن إلى مقعدها ومنهن من تقف أمام المرآة لتأق النظرة الأولى على فستانها الجديد . واتبه إلى الفتاة الواقفة أمامه يبدو على وجهها الانكار وسمعتها تسأله : « هل المدام معك ؟ » فالتفت إلى مغزى السؤال وتحير كيف يجيب أو كيف يعتذر عن وجوده ، لأنه اندفع تحت تأثير الغضب والحنق اندفاعاً فلم يتدبر أمره ، وألقى على الأبواب المعلقة نظرة ارتياح وقهر ، وود لو يستطيع أن يقتحمها ليرى ما بداخلها ولكنه لم يفعل شيئاً لأنه لم يكن قد عقله ، ولأنه وهو رجل القانون - لم تكن تخفى عليه مذبة عمله فيما أخطأ تقديره وحسبانه . وكأنه أراد أن يقاصر بما تبقى لديه فسألها « أليست هذه شقة مدموازيل فلورا ؟ » فقالت الخبيثة : « بلى ، ألم تقرأ اللافتة يامسيو ؟ » فقال : « إن زوجتي سبقتني إلى هنا » فسألته : ما اسمك ياسيدي ؟ فقال : جمال ذهني . فصاحت بصوت عال لدرجة مزعجة : مدام جمال ذهني . ولكن سيدة من الموجودات لم تلب النداء ، فقالت : المدام غير موجودة بلا شك . قالت ذلك بلمهجة من ترى وجوب انتهاء المقابلة عند هذا الحد ، فلم يربدا من الخروج ، وأغلق الباب خلفه ، ولكنه لم يتحرك من مكانه ولبت يرمى الباب بعين منتقدة . ترى هل أخطأ

إلى القبر وهو كظيم . وكيف يفعل غير ذلك وهو
القاضي الذي قضى حياته في خدمة القانون ؟
ولاحث منه التفاته إلى الطريق فرأى بعض
المارين يحدجون السيارة بنظراتهم المتطفلة ، فسأل
نفسه ترى هل ينفسون عليه السيارة الفخمة
والزوجة الحسنة ؟

حقاً إنه يستحق الرثاء ، وسيكون أحق بالرثاء
في مستقبله حين يخلو بيته منها — وهو ما صدقت
نيتته عليه — فكيف تكون حياته بلا زوجة ؟ وكيف
تكون حياة أبنائه بلا أم ؟

وهل تروج يوم تزوج إلا إشفاقاً من أن يلحقه
الكبر وهو وحيد فيماني مرارة الشيخوخة ووحشة
الوحدة ...

نجيب محفوظ

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جون ايرلاني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعها ١٥ قرشاً

سنه، فماد خائر القوى إلى سيارته. وكم كانت دهشته
عظيمة حين هم بالدخول فرأى زوجه جالسة آمنة
مطمئنة تنتظر أوبته منذ زمن غير يسير وقد نظرت
إليه بانكار وسألته :

— أين كنت يا بك ؟

فأنم في وجهها النظر فرآها تبسم ابتسامتها
المألوفة ، ولكن لم يخف على عينه الثاقبة شحوب
لونها ونظرتها الدالة على الأثم بقدر دلالتها على
الطهارة المصطنعة ، فهي شيطانة بلا ريب ولكنها
لم تنمود الاجرام بمد

وجلس إلى جانبها صامتاً وانطلقت بهما السيارة
وكان مقهوراً مغلوباً على أمره ، يماني مرارة
المزمنة ومحس كأن بدأ تخنق كبريائه خنقاً . وكان
يسوؤه أن يجلس هكذا إلى جانب المرأة التي تفكته
وهزأت بكرامته ولوثت عرضه ، ولم يرتب قط في
أنها تلم بأمر مطاردته الفاشلة لها. ومن يعلم ؟ فلعلها
تضحك في سرها الآن من خيبتته وهزيمته . ياله من
نصور لا يحتمل !

لقد أُنذرها بأنه لن يتركها لحظة ، ثم اضطر
إلى تركها أو هي اضطرت إلى ذلك ، ولكن لم يخطر
له على بال أن تتخذ من زيارتها لشيكوريل سبيلا
إلى مقابلة عشيقها

واستسلم للتفكير الحزين ، وذكر طريقة عامة
الشعب في الانتقام من الخائنات فوجد نفسه — في
محنه — يقرها ، وهل تستحق الأذى إلا تهشيم
رأسها ؟ ... أما هو البك الوجيه الثقف فيجلس
إلى جانب معذبتة يماني آلامه في صمت ، ويشبع كبريائه

انقضاء الاميرال

للقصص الفرنسي أرنست دودو
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

تصطدم بصخرة القصر الهائلة
وتنحسر عنها فيسمع لها زئير
كزئير الأسد وهزم كهزم
الرعد

في تلك الأثناء كان الأميرال
الركيز « دى بك هيلون »
جالساً إلى نضد صغير وضع عليه
بضع رسائل عفي على لونها الزمن

فاسفر وحال ، وبضع زهور زاوية ونوط قلادة
وشريط من الحرير الأزرق ، وبجوار هذه الأشياء
صندوق صغير مفتوح من خشب الأبنوس العظيم
بالمج ، كان ولا ريب يضم تلك الآثار الغرامية المتناثرة
على النضد . ونجحت أمارات الحزن العميق على وجه
الأميرال بينما لمت عيناه فجأة يريق للفضب المسجور
وكان الأميرال رجلاً رقيق السن واهن العظم
له وجه مفضن بارز المظام ، وعينان غائرتان قد
قد انطفاً فيهما التآلق والبريق ، وبدان مبروقتتان
عاريتا الأشاجع . وعلى الجملة كان بدنه المنهوك قد
ذبل بفعل المرض الذي يفتك به فتكا ذريعاً
ولقد فقد أميرال البحر العظيم قوة المزم التي
كانت تسبح نائرة في دمه وتشتع من عينيه .
وخفت فيه ذلك الصوت الجمهورى الملى الذي
كان يمزق العواصف ويطحن عليها . ولم تبق
فيه ذرة من القوة التي طالما أحجب بها رجال أسطوله
وبحارته من قبل . وأبت الجرأة والبسالة أن تسكنا
ذلك الجسم المهدم للفاني ففارقته بعد إذ كانتا تفوران
فيه فوراناً حينما كان يزخر بقوة الشباب ويموج
بفتوة الرجولة . واشتد به السقام حتى صيره هزيبلاً
ناحلاً . ولم يبق عليه المرض الجاثم فوق صدره إلا
ليعالج هذه الجريمة النكراء التي اكتشف الآن فقط

كان القصر العتيق يجثم كالحصن الجبار فوق
صخرة عظيمة هائلة على سيف البحر . وكانت الشمس
حينذاك تضئف للغروب وتنحدر رويداً من شارف
السماء ، إلى ما بين الأفق والماء . وقد سالت حولها
أباطح الدم ، وارتسم على جبينها الكلال والأتين .
ويشرف القصر أيضاً على الطريق الممتد إلى « برست »
وعلى قارعة هذا الطريق تقع الميناء وقد أطلت من
ورائها سوارى السفن ومداخلها مصبوغة بألوان
الشقق الزاهى الجميل ... ومن نوافذ القصر الضيقة
بان البحر كأنه بساط من سندس واستبرق تجرى
عليه السفن بقلاعهما التي يهددها نسيم الأسيل
فتتموج ، وتداعبها الرياح الخفيفة فتترجرج ...
وتملو من القصر المنيف قباب وأبراج شاحخة في
الفضاء تتحدى الزوابع العاتية والعواصف الهوجاء ..
وتحف أغصان الأشجار اللغاء الوارفة بمجدران
تحركما الرياح المواتى فتبدو كضفائر جافة خشنة
لطيف امرأة تضرب فزعاً في الليل المدهم ...
وعند ما غسق الليل وأجن الكون في مسوحه
الطاخي الأسحم ، أترعت السماء سحاب ثقلاً منشآت
تحركما العواصف الهوج في شدة وعنف . وغب
عباب الرياح فهاجت الأمواج للمصاحبة الزبدة فراحت

من عنايته ، وغمره بفيض من صداقته .. يا للعار
ويا للدرن ! أنسى هذا السافل الخؤون ، هذا الجاحد
الكنود ... أنسى كيف كان يراه كاتبه وزيادة ؟
وهذه الشقية زوجه ؟ لا نكران أنه اقترن بها
والفرق بين عمرهما جد كبير . إذ كانت في العشرين
وهو في الخمسين ... بيد أنه ليس ثمة من ينكر أيضاً
أنه انتشلها من وحدة اليتيم والمسغبة ، وأضفى عليها
لقبه المجيد التاد وقلها في ثرائه الواسع ، وضمن
لها الحماية والرعاية في حياته ، وسيخلف عليها من
ترانه درعاً يقيا من بعده عدوان الناس وغدرات
الزمن . أبدأ ما أرغمها امرؤ على الزواج منه ، بل كان
هذا عن اختيار منها ورغبة ... ولم يكن يوماً ابني
عن تلبية رغبة لها مهما صعبت وشقت . فالصيف
في الريف الجميل الساحر ، والشتاء في أرفع فنادق
باريس الفواخر . أو إذا شاءت في قصره العظيم
في « نيس » . في كل حفل كانت تبدو زينة الأتراب
والصواحب . في كل جمع كان يملو بها اسم زوجها
إلى أرفع مكان وأسمى منزلة بين سائر الفتيات والمقاتل .
وبينا كان بثق في وقائها وإخلاصها ويمجب بجمالها
وفتنها وبتيه لسحرها وأنوثتها ، إذا هي تخونه
وهو لا يدري

لقد خدم بلاده أربعين سنة سوياً . حارب في
أفريقيا وفي المكسيك ، وحاز أرفع الأوسمة
وجلب الحمد والفخر لابنه ... ثم ماذا بعد كل تلك
الحياة الحافلة بجلائل الأعمال وطيب المآثر ؟ عار
تجلبه عليه هذه المخلوقة الشقية وهو من الموت على
شفا جرف هار

وليت الأمر قاصر على هذا فحسب ، بل جرت
إلى شك مظلم يتخبط فيه حتى ليكاد يذهب عقله
فيمضي إلى رموه نجولاً . ابنه « باتريك » زهرة

دليلها الحاسم ، ويرى مدى قدرته على الثأر وهو
من الموت قاب قوسين أو أدنى

لقد تسلم صباح اليوم رسالة من (نيس) حيث
اعتاد أن يقضي فصل الشتاء من كل سنة ، يقول
فيها كاتبها : « لقد خلت أربع عشرة سنة وزوجك
ممعنة في خيانتك ، دائبة على المبت بشرتك ؛ ولملك
وحدك الشخص الذي لا يعلم شيئاً عن علاقتها الآثمة
بمساعذك السابق الكاتبين « فوشرون » . وإذا
أردت على ما أقول شاهداً ودليلاً فاذهب إلى مخدع
الركيزة ، فهناك من ناحية رأس السرير ترى تحت
إحدى الصور المعلقة خزانة في الحائط ، بها صندوق
صنير . افتح هذا الصندوق واقرأ ما فيه ، فستنتشع
المنشاة عن عينيك ، وتبين بوضوح ما غاب عن
بصيرتك كل تلك السنين الماضى »

وعزا الركيزة هذه السعاية إلى خادم مطرود . لذلك
قضى مريباً على ما أثاره الخطاب في نفسه من
شكوك وأوهام ، وفرك الرسالة في يمينه وهم بتمزيقها
لولا أن حاك الشك في صدره فأرجع الكتاب يتلوه
مرة أخرى ... وللمرة الأولى في كل حياته مع زوجه
تساوره الظنون والريب . وتعامل على نفسه وغادر
مضججه ، ثم راح يجر نفسه جراً ، وفي الحز المين
في الكتاب أنى أدلة الاتهام السود

وراح يتمثل ويمجب كيف مرت عليه هذه
الستون الطوال وهو غارق في لجج هذا الوحل دون أن
يدري ... ها هو ذا يمضي إلى متواه الأخير تكتنفه
قرائن الجريمة الدنسة التي اكتشفها اليوم فقط هازئة
ساخرة ... فكيف إذن يتسنى له الثأر لنفسه من هذين
المجرمين قبل أن ينطق سراج حياته الخافت الضئيل
يا للخيانة ويا للغدر ! أزوجه التي شملها بحبه
ووهب لها كل قلبه ! وصرؤوسه الذي أمطره بوابل

— قل إنى انتهيت يا دكتور
 — لم يضع الأمل بعد يا سيدى ... إنك فى
 حال سيئة ولكن ...
 — لا تراوغنى . لقد سمعت للموت مراراً ،
 ولا أود أن يأخذنى هذه المرة على حين غرة . قل الحق
 إنى أمرك ...
 فظل الطبيب صامتا لا ينبس دقيقتين قال بعدها:
 — سيختارك الله هذا المساء على الأكثر
 يا سيدى إن لم تحدث معجزة
 ونلقى الأميرال الصدمة بكل ثبات ... قال
 — حسن ... وستمودن طبعاً مرة أخرى ...
 أليس كذلك ؟
 — بالتأ كيد يا سيدى الأميرال . ألا تحب أن
 نخطر سيدتى المريضة
 — وأى جدوى فى ذلك وهي فى نيس . ثم
 إنى لا أود أن أحملها الجزن فجأة . إنها تعلم أنى
 مريض . وستعرف على كل حال أنها ترميت . ولكن
 يجب أن يكون هذا بعد أن أموت
 فانسحب الطبيب
 وقابله باريك لدى الباب فقال له :
 كيف أبى ؟
 فلم ينبس الطبيب بل أجابت عنه عيناه . فأسرع
 العصى نحو أبيه بقلب جزوع . فنهض الأميرال
 بجهد جهيد على مرققه وقال :
 — ادن منى يا بنى . إن لى حديثاً معك ...
 إنك فى الثانية عشرة من عمرك يا باريك . ولكنى
 مضطر أن أحدثك كما أحدث رجلاً
 ولم يأخذ منهما الحديث طويلاً . ولكن حينما
 انتهى ومضت عيناه العصى يريق من نار ، وتلجج بدنه
 حتى كأنما انتقلت برودة الاحتضار من بدن أبيه

آماله وعمره الثانى ... آبنه هو ، أم ابن خريمه
 فوشىرون ؟ باريك . لقد شب ونما فى قصره المنيد
 حيث تقضى أمه كل شتاء وحيث كان يذهب هو
 ليعانقه ويتحلى من رؤيته . إنه يبدو قوياً كفصن
 شاه فنى ، ويتملى الزهو والكبرياء فى نظراته ،
 ويبدو الصلف والخيلاء فى لفتاته ، وتنطق ملامح
 وجهه بقوة العزم وشدة المراس . ياله من إله صغير
 من آلهة القوة والجمال ! خير خلف لأشرف سلف .
 ومما زاد الرجل تعلقاً بابنه وحبا له أنه ورث عنه
 قوة العزم وصلابة الرأى وثبات الجنان
 والآن تقضى هذه الجريمة التى اقترفتها زوجته
 على كل تلك الذكريات السامية حول ابنه وذلك
 الإعجاب الذى يحمله الرجل لوحيدته
 وأمسك الرجل لنفسه رأسه للثأر بين كفيه
 كأنه يمنعه من الانفجار ، وسرت حى الغضب فى دمه
 فغمغم وهو فى تلك الحال من اليأس والضعف والمرض
 — سأنتقم لنفسى ... سوف أثار لشرفى ...
 ولكن كيف ؟ أيقتل ذينك اللذين لوئنا اسمه
 ولطأنا شرفه ، وكيف السبيل إليهما وهذه الفراسخ
 العديدة تفصلهما عنه . فلا هو بمستطيع أن يبلعهما .
 ولا هما يبالغيه قبل أن يموت ... وأوغل فى سبل
 الانتقام الكثيرة المتشعبة ... وأغطش الليل ولما بهتد
 فكره إلى سبيل يبلغه طيته فيبشغ غلبه ... واستلقى
 على الفراش بقلب ممزق وأضلع تكتر نازاً تكاد تأنى
 على بقايا جسمه المحطم
 وعند ما انصدع عامود الفجر أقبل طبيب
 الطوافة « المنيد » التى اغتلاها علم الأميرال طويلاً ،
 ليمود رئيسه العليل وذعر لى رؤيته وجه رئيسه
 الشاحب المتقع ودهش لتقدم المرض السريع فى
 يوم ويلة ... ونم وجهه عن ذعره ودهشته فقال
 الأميرال :

إلى بدنه . وفي أثناء هذا الوقت القصير انتقل فجأة من طور الطفولة إلى طور الرجولة وما يحمل من متاعب وأعباء

وفي السنة التي تلت ذلك . أي بعد موت الأميرال بشرة أشهر أو تقل راح الناس يلغطون بقرب زواج أرملة من الشاب الوسيم القسيم فوشيون . تناقلوا ذلك فيما بينهم في غمز ولز كأنما كان ذلك من ما يتوقعون . ويبدو أن الماشقين قد آثروا بعد علاقتهما الدنسة الآتية أن يرتبطا بعلاقة بقرها المعروف والدين

ووصل الكابتن فوشيون ذات صباح إلى القصر العتيق حيث تنتظره المركيزة مع ابنها بعد إذ قضى زوجها نحب

وعند ما متع النهار وارتفعت الشمس دخل باريك على أمه يحمل من الأعباء ما ينوء به عمره الصغير . قال لها :

— أحقا أنك تمدين المدة للزواج من الكابتن فوشيون يا أماء ؟

فأجابته بصوت مضطرب :

— من أبلغك هذا ؟

لم ينبس الغلام . فاستطردت المرأة

— على كل يجب ألا يستجوب الغلام أمه

— إني لا أقبل مهما يكن الأمر أن يشغل

الكابتن فوشيون مكان أبي

— لا تقبل ! ماذا تقصد بهذا الهراء ؟

ثم أشارت إلى الباب غاضبة واستأنفت

— أخرج من هنا حالا يا سيدي

فانصرف من لديها إلى غرفته ، ثم غادرها بعد

بضع دقائق إلى غرفة فوشيون واقتحمها دون

استئذان واضعاً إحدى يديه في جيب بنطلونه

وكان فوشيون يحلق لحيته أمام مرآة ،

فاستدار نحو باريك وقال :

— إن اللياقة تقضى بدق الباب قبل الدخول

— إنه ييتي ياسيدي . ومن حق أن أدخل

أية غرفة فيه بدون دق ولا استئذان . ثم إن لي حديثاً معك

— لك حديث معي ... تكلم

— إني أعلم سبب وجودك هنا . وإن ما تبغيه

لا يمكن أن يتم . ويجب أن ترحل الليلة على ألا تعود

أبداً . إني أمتنع من الزواج بأبي

— إنك مجنون ولا رب أيها الطفل

— من الخير لك أن تطيعني

فشحب وجه فوشيون من شدة الغضب .

وومضت عيناه من فرط الغيظ . قال :

— أخرج أيها التتير وإلا عركت أذنك

واتجه نحو باريك رافعاً يده . فتراجع الغلام

عنه ثم وأخرج من جيبه شيئاً كان يخفيه ، مسدساً

ورفع به يده . ضغط الزناد ، فانطلق

فانشق صدر فوشيون عن صرخة هائلة دوت

في سكون القصر العميق . وترخ ثم سقط جثة

هامة وقد اخترقت الرصاصة جبينه ...

وأقبلت المركيزة على جمل ورأت كل شيء ...

ثم صرخت تقول بعد أن ألقت بنفسها على ابنها

وجردته من سلاحه .

— ماذا فعلت أيها الشقي ؟

وتركها باريك تأخذ منه السلاح ثم قال : وقد

رأها ترتمي على الجثة تبكيها وتندبها :

— لقد أنبأني أبي قبيل وفاته أن هذا الرجل

عدولي وعدو لك ، وأوصاني بحمايتك من شره وغدره

حتى ولو أدت الحال إلى قتله . ولقد نفذت وصية أبي .

ثم أشيع بين الناس أن الكابتن فوشيون

مات منتحراً محمد عبد الفتاح محمد

الغلاف بطبيعة كونه مسجلاً ألف
مثل هذه الأحوال فهياً على عينيه
منظاره ، وقرأ في صوت أجش
جيل على تفصيل العقود :

يا ابني ، يا ابني العزيزين ،
إني لا أستطيع أن أنام قريراً
في ضجتي الأبدية ما لم أبحث

إليكم من رجام القبر باعتراف ، باعتراف بجرمة ضرفت
حياتي بالندم . أجل ، لقد اقررت جرماً ، جرماً
خفيفاً شنيعاً

كنت إذذاك في السادسة والعشرين من عمري ،
أمارس المحاماة في باريس ، وأعيش في تلك المدينة
عيشة الشبان الغرياء ، بغير معارف ولا أصدقاء
ولا آباء .

فأخذت خلية . وكم من الناس من يشورون
لهذا اللفظ وحده : « خلية » ولكن بمض الخلق
لا يستطيع أن يعيش فريداً ، وأنا من بين هؤلاء ؛
فإن الوحدة لثلاثي باستيجاش خفيف ، وحدة المأوى ،
قرب المصطلي ، في المساء . حينئذ ينجبل إلى أني أعيش
على ظهر الأرض وحيداً ، تحدق بي أخطار مبهمة ،
ونكنفي أشياء مجهولة وخيفة . حينئذ ينجبل إلى
أن الحاجز الذي يفصلني عن جاري ، جاري الذي
لا أعرفه ، يبعدني عنه بعد النجوم التي ألتأها من
نافذتي ! فتعروني حمى من الجزع والخوف ، ويرعبي
صمت الجدران . ما أبلغ الحزن وما أعمق الصمت
في غرفة الرجل الوحيد ! أنت هناك لا يأخذك
الرب إذا رنق الصمت قدر ما يحتويك إذا اختلج
ستر أو قرقت قطعة من أثاث . لأنك في مأواك

الإعتراف

للمقضى الفرنسي جي دي موباسان
بقلم الأديب شكري محمد عيسى

أقبلت قرية « فزير لوريتيل » عن بكرة أبيها تشيع
جناز السيد « بادون ليرمتيه » وتشهد رسمه .
وانطبعت في كل ذهن كلات نائب الولاية في تأييده :
« إن أقل ما يقال فيه إنه رجل شريف ! »

لقد كان رجلاً شريفاً بكل ما قدم من عمل مجيد ،
بأقواله ومثله ، بسلوكه ومعاملاته ، بسماه وشارته ،
بهيئة لحينه ووضع قبعته . ما قال يوماً كلمة إلا ضمنها
حكمة ، ولا جاد يوماً بصدقة إلا شفعها بنصيحة ،
ولا بسط يوماً يده إلا كان كمن يزلف حسنة

ولقد خلف ولدين : ذكرًا وأنثى . أما الابن
فقد كان على وشك أن يمين قائداً في الجيش ؛ وكانت
الابنة من عقائل فزير ، فقد كانت زوجة للسجل
السيد بوارل دلا فولت

وكانا موت أبيهما آسيبين لا يتعزبان ، فقد كانا
يصدقانه الحب ويخلصان له الولاء

وما انتهت مراسم الدفن حتى آبا إلى المنزل ،
واختلوا ثلاثتهم : الابن والابنة وزوجها ، ففضوا
الوصية التي كان عليهم أن يتلوها وحدهم بعد أن يقر
في الأرض تابوت الفقيد . وكانت على الظروف
إشارة تبين هذه الرغبة ، وتحتم هذا الشرط

كان السيد بوارل دلا فولت هو الذي فض

الكثيب لا تنتظر صوتاً ولا تتوقع نامة

وكم من مرة أزعجني السكون الآخر من فطفت
أنكم ، أفوه بالفاظ لا رابطة بينها ولا معنى لها
لأحدث صوتاً . حينئذ يلوح لي صوتي من الغرابة
بحيث أخافه هو أيضاً . وهل أبت على الرعب من
أن تتكلم وحيداً في منزل خال ؟ إن صوتك لي لوح
لك حينئذ كأنه صوت سواك ، صوت مجهول يتكلم
لغير سبب ولغير أحد ، ويشق جوف الهواء لغير
أذن تسمعه . ذلك بأننا نعرف قبل التلفظ ما نوشك
أن نقول ، فإذا أرن الصوت الحزين في الصمت
الجائم لم يعد إلا تشبيه الصدى ، صدى عجيب خلفت
ضليل همس به الدهن الكليل .

اتخذت خلية : فتاة ككل أولئك للفتيات
اللاتي يمشن في باريس من عمل لا يقين . كانت
حالة ناعمة سمجة بسيطة ؛ وكان أبواها يستوطنان
واس ، فكانت تذهب إليهما من حين إلى حين
فتمضي بينهما بضعة أيام .

قضيت معها حولا في عشرة هادئة ، وأنا ثابت
المزم على هجرها متى وجدت الفتاة التي أرتضيها
زوجة . وكنت أهبها أجراً صغيراً من المال ،
فقد جرى العرف في مجتمعنا على أن الحب يجب أن
يشري من المحبوب بالمال إن كان فقيراً وبالهدايا
إن كان غنياً .

ولكن هامي ذي تنبثي ذات يوم أنها حبلى .
فذهرت ولحت في لحظة كارثة وجودي . وبدا
لي الغل الذي سوف أرسف فيه دائماً : في أسرتي
المستقبلة ، في شيخوختي ، حتى أموت . غل المرأة
التي ارتبطت بي بوليد ، غل الطفل الذي يجب أن

ينشأ ويحفظ دون أن يعرفني ، ودون أن يعرفه
الناس . ذهلت لهذا الخبر وامتلكتني فكرة مبهمة
ما كنت لأجتليها ، ولكنني أحسستها في قلبي
على أهبة للبروز ، كأولئك القوم المتوارين وراء
السدل ينتظرون إشارة بالظهور . كانت تدور
في أعماق تفكيري رغبة فائكة : لو حدث حادث
إنه كثيراً ما يقع لتلك الكائنات الصغيرة ،
التي تموت قبل أن تولد !

أوه ! ما كنت أريد أن تموت عشتي ، فقد
كنت أحبها حقاً تلك الفتاة المسكينة ؟ ولكن
لعل كنت أومل أن يموت الآخر من قبل أن أراه
بيد أنه برز إلى الوجود يرهقنا بالنفقات ويطلبنا
بالعناية ؛ لقد كان يشبه كل الأطفال وما كنت
لأحبه . والآباء لا يحبون إلا متأخرين فليس لهم مثل
ما للأمهات من حنان فطري وحذب مكتسب وحسب
سريع . لكن يشيقظ عطفهم شيئاً فشيئاً ، ويرتبط
قلوبهم بتلك الوشيجة التي تؤلف بين المتمايشين وتزيد
على الأيام توثقاً واصراراً .

وأدبر حول جديد فإذا أنا أفر من مسكني الصغير
وقد انتشرت فيه ثياب ولقائف وجوارب كالفافيز ،
وألف شيء من كل نوع ماتي في كل مكان : على
قطعة من أثاث أو على ذراع من مقعد . ولقد كنت
أفر حتى لا أسمع صياحه ، فقد كان يصيح دائماً
ويصرخ بغير انقطاع : إن بدلنا مكانه أو نظفنا
جسده ، أو لسناه أو أرقدناه أو حملناه .

وعقدت مع بعض الأسرات أوامر المعرفة ،
فلقيت في أحد الأبناء تلك التي غدت أمكاً ، فشغفت
بها حباً واستيقظت في نفسي رغبة أن أتزوج منها .

أن أذوده ، وبأن أفتح ذهني لأفكار بعيدة وآمال جديدة ، كما تفتح النافذة لنسيم الصباح البكر فيزيج هواء الليل السم ، ولكني لم أستطع أن أبعد عن ذهني لحظة واحدة . لست أدري كيف أصف هذا المذاب . لقد كان يقضم روحي ، فأحس لجذ أسنانه ألياً هائلاً ، ألياً حقيقياً يلهب الجسد والروح جميعاً .

لقد قضيت نحيبي ، فكيف أخلص من هذا الكلام ؟ كيف أرد للهمة ثم أثبت الاعتراف ؟

لقد كنت أحب تلك التي غدت أمني حب الجنون . وكنت أقول إن الحجر الكئود سوف يسد طريقها أيضاً ، وسوف يملأ قلبها شجي ولوعة وامتلكني غضب مخيف ، غضب سد حنجرتي ودفعني نحو الجنون ... نحو الجنون ... ! يقينا لقد كنت مجنوناً ذاك المساء البعيد ؟

كان الصغير ينام . فقامت ونظرت إليه وهو نائم . إنه هو ذلك السقط ، تلك الدودة ، ذلك اللاشيء الذي يلزمني شقاء مبرماً لا يراجع ! كان ينام مفتوح الفم ، مدرجاً في لفائفه ، ناعماً في مهده ، قرب فراشي الذي لم أكن أنا أستطيع عليه نوماً !

كيف فعلت ما فعلت ؟ هل أعلم أنا ؟ أي قوة دفنتني ؟ أي شيطان استبطنني ؟ لقد كانت الجريمة تجتذبني بغير وعي مني . لست أذكر إلا أن قلبي كان يدق ! وكان في رأسي صخب عجيب كأنما غادره كل تفكير وكل هدوء . كنت في ساعة من ساعات الدهول حيث لا يقدر المرء ما يرى ، ولا يدري ما يفعل ولا يقرر ما يريد

رفعت الأغصان التي كانت تستر جسدي ولدي ،

(٥)

وعينت في القضاء فطلبت يدها ، وأجبت إلى ما طلبت . وأمست من أسري في رهن شديد . أأبني بتلك التي أعبدتها ولي ذاك الولد ، أم أصرح بالحق فأفقدتها وأفقد السعادة والمستقبل وكل شيء ؟ لقد كان أبواها من الصارمين المزمعين ولو علما الحقيقة ما أسلمها إلى .

قضيت شهراً في أنون من الهم والألم ، تموج في ذهني آلاف من الأفكار الخيفة ، فتثير في نفسي البغض والمداة نحو ابني ، نحو هذه القطعة الوجلة من اللحم الحى ، نحو هذه النطفة التي تسد طريقي ، وتسلمني إلى وجود لا رجاء فيه ، ولا أمنية تملأ الشباب حياة وجمالا .

ولكن ها هي ذى خليلتي يمتريها المرض فأبقى والطفل وحدي .

كنا في ديسمبر ، وكان الطقس قرأ شديداً . يا لها من ليلة ! لقد بارحتني خليلتي فتعشيت في قاعتي الضيقة وحدي ، ودلفت إلى غرفة الصغير للنائم . جلست على مقعد إلى المصطلي ، وكانت الريح تمصف فيقرقع لها الزجاج ، وكنت أبصر النجوم من نافذتي تلمع لمعها الحاد في ليالي الصقيع .

إذ ذاك سعد إلى رأسي للكره الذي احتواني شهراً ، وما كدت أجلس ساكناً حتى هبط على ونفذ إلى وتآكل قلبي . وإذا هو في رأسي كالفكرة الراسخة بنخر فيه نخر السرطان في اللحم للفريض . كان يخيل إلي أنه يدب مني في الرأس والقلب والجسد ، ويمس مني الأطراف والشفاف والسماع ، ويبتلعني كأنه الوحش الجائع النهوم . فأردت أن أطرده ،

وألقيتها تحت المهد، فرأيتُه عارياً تماماً. ولم يستيقظ
فذهبت إلى النافذة في هدوء وفتحتها

واندفعت هبة من الهواء كأنها المجرم الأثيم،
نكست لبردها، وخفق لمصغها نور الشمعتين.
وظللت بجوار النافذة قائماً، لا أجسر على الارتداد
حتى لا أرى ما يجري خلفي، وأنا أحس على يدي
وخدي وجيبي برد الريح المبيتة لا تفتأ ما كفة
على المبوب. وبقيت كذلك طويلاً

لم أفكر قط ولم أتدبر شيئاً، حتى نمت سعة
صغيرة أرسلت في رعدة بلغت منبت الشعر أحسها
اللحظة مرة أخرى، وفي حركة عنيغة مجنونة أوصدت
مصرامى النافذة، ثم عدت فعدوت إلى المهد
كان ما يزال نائماً، مفتوح الفم، عارياً تماماً.
فلست قدسيه قاذفاً هما باردتان كالثلج؛ فرددت
عليهما الغطاء

ورق قلبي فجأة وانحطم، وامتلاً حناناً وعطفاً
وحباً لذلك المخلوق البريء المسكين الذي أردت قتله
قبلته طويلاً في شمرة الرقيق، وعدت فجلست
إلى المصطلى

تدبرت في ذهول ورعب ما فعلت. وساءلت
نفسى من أين تصف بالإنسان هذه الفكر التي يفقد
مهما كل تقدير للأشياء وكل سلطان على نفسه،
ويعمل في مثل نشوة السكران أو ذهول الآخرق
غير عالم ما يفعل ولا حاسب حساباً لما سيكون،
فكانه زوزق وسط إعصار شديد

سمل الطفل ثانية، وأحسست كأن قلبي يتمزق.
آه لو مات الرباه الرباه! ومن أغدو أنا؟!
نهضت كي أراه، وحنوت عليه وفي يدي شمة

رأيتُه يتنفس في هدوء فطأنت نفسي، بيد أنه سعل
مرة ثالثة فأحسست مثل وقع الصاعقة، ونكست
على عقبى كمن رأى شيئاً أروعيه فسقطت الشمعة
من يدي

ولما التقطتها واستويت واقفاً إذا بخدي مبللان
بالعرق، بذلك العرق الذي توجه النفس ساعة ثورتها
لاهباً مثلجاً في وقت ممكاً، وكأنما تنفست بين المعظم
والخناخ نفحة من ذلك العذاب الفليظ، الفارس
كالثلج، اللافح كالنار

ظللت حتى الصباح عاطفاً على ولدى، أسرى
عن نفسى الهم كلما رأيتُه هدأ وصفاً، ويمزقنى الألم
كلما انبعثت من فمه الصغير سعة خافتة

واستيقظ وقد احمرت عيناه، واضطرب حلقه
وبان عليه الألم

وعند ما أقبلت خادى أرسلت في طلب طبيب،
فجاء بعد ساعة، وقال بعد أن فحص الصغير:
— ألم يصبه برد؟

فطفقت أرتعد كارتعاد الشيوخ الطاعنين
ونعمت:

— كلا، لا أظن

فأجاب:

— أنا لا أعرف شيئاً غير هذا. سأعود هذا
المساء

وعاد في المساء. وكان ولدى قد قضى جل النهار
مبتكلاً لا يفتق، ساعداً بين الحين والحين

ودامت تلك الحال عشرة أيام، ولست بقادر
على أن أصف ما قامبت في تلك الساعات للفلاط التي

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطنب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل
طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زكياتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة
ويباع في جميع المكتبات الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

تفصل بين كل صباح ومساء ، وكل مساء وصباح
لقد مات ...

ومنذ تلك اللحظة لم أعرف ساعة واحدة
تعفيني من شناعة هذا الجرم ، أو تحميني من لهيب
هذه الذكري التي تقذ الحشا وترمض الجوانح ،
وتدور في النفس كوحش مميت ، حبيس في أعماق
هذه الروح

آه لو استطعت أن أغدو مجنوناً !

خلق السيد بوارل دلائل منظاره في حركة
مألوفة لديه عند فراغه من قراءة عقد ، وتبادل الورثة
الثلاثة النظرات دون أن يتبسوا بكلمة ، فقد كانوا
شاحبين سامعين لا يتحركون

وبعد دقيقة قال المسجل :

— يجب أن نعدم هذه

ونخفض الآخرين رأسيهما إشارة الاقرار ،
فأوقد السيد شمعة ، وفي عناية واحتراس فصل
الأوراق الحاوية الاعتراف المخوف عن تلك الشاملة
توزيع المال ، ثم قدمها إلى النار وقذفها في المدخنة
وراقبوا الأوراق البيضاء وهي تحترق ، فلم تمد
بعد قليل غير كومة صغيرة سوداء . ورأت الابنة
أجزاء من الورق لا تزال بيضاء تحمل حروفاً قليلة
فحطمتها بضربات صغيرة من كعب حذائها وخلطتها
بالرماد القديم

وفي ثلاثهم زمناً يشهدون هذا الرماد ، كأنما

خشوا أن يفر من المدخنة للسرا المحرق

شكري محمد عيار

وفي مقصورة - وقتئذ -

من مقاصير الحمراء ، المقعنة
بأريج المسك ، وشذى المنبر ،
كان أبو عبد الله آخر ملوك
بنى الأحمر جالساً للقرفصاء في
محراب من محارب الصلاة ،
يميد الله ويندب حظه ، ويودع

أيامه الممطرة السابحة على أمواج الماضي في آخر
ليلة من ليالي الحمراء العابسة !

وتولت اللطافات تدمدم في آفاق غرناطة ،
فلم أن الساعة قد أزفت ، وأمر الله قد وقع ، فقام
من فوره متثاقلاً وانحط على شرفة من شرفات
الحمراء فترأى له جبال سيرانفادا Sierranevada^(٢)
وقد تجمعت بركام من الثلج الفضي الذي يلعب في
أعطاف الفجر ؛ وإنه كذلك وإذا بنسبات الفجر
الرفيعة قد هبت من أعالي هذه الجبال حاملة معها
أنفاس المروج ، وعطر الأحراج ، إلى غرناطة
ومحراثها !

ثم أغمض عينيه ، ووضع رأسه بين يديه ،
واستسلم لتفكير عميق ممض ، وراح مواكب
الذكريات تتراحم على نفسه ، وتثقل صدره ، ولم تدم
طويلاً لأن غنمة الأحراج ، وهممة الجداول
الساحية التي تشق ردهات الحمراء قطعت عليه سلسلة
تفكيره فرقع رأسه المثقل ورمى بطرفه ثانياً في ضوء
الفجر فرأى غرناطة ، غرناطة حبيته التي صب
عليها أجداده من قبل أنوار المغامة والجمال ،
غارقة في أمواج من الخضرة والنضرة والسكون
العميق ...

(٢) معناها سلسلة جبال الثلج

نَفْسُ الْعَرَبِيِّ

أَقْصَوْصُ شَرْقِيَّةِ
يَقْلُمُ الْأَسْتَاذِ مُحَمَّدَ عَبْدِ اللَّهِ الْعُودِيِّ

(إلى غرناطة ...)

يا ... يا زهرة مدائن الأندلس الجميلة ؛
يا موطن النور والحب والأزهار !
أين ذهبت السعادة التي كان يرقل في أثوابها
سادتك الأجداد ؟ أين قصورك الصيفية المرقية
البدية ذات المنائر الطاعنة في أجواز الفضاء ؟
ما الذي حدث يا غرناطة حتى قطعت عن الوجود
لحنك المطرب ، وأغانيك الشجية ؟

(الفرناطى : جوزى زورلا)

في صباح مكفهر الوجه ، صربد الأفق ، وفي
ساعة مشثومة من ساعات الدنيا الفاصلة لجمال التاريخ
وقعت أجفح فاجمة دامية حملها تاريخ الاسلام ،
وطويت آخر صفحة من صفحات النبوغ للعرب
في بلاد الأسبان !

كان ذلك في صباح ١٠ يناير من سنة ١٤٩٢
ميلادية عند مادوت في سهل الفيجا Vega للفسيح
ضربتان من مدفع نصب على أعلى برج من أبراج
الحمراء ، مخطرة ملك إسبانيا الجديد فرناند التمحسن
بمدينة سانتافي Santefé^(١) التي لا تبعد كثيراً عن
غرناطة ، أن يتحرك ليتسلم زمام الأمر ومقاليد
الحكم في حمراء غرناطة !

(١) مدينة في الفيجا بناها الكاثوليك أثناء حصارهم
لغرناطة

شوارع غرناطة وقد أقفرت من كل شيء تحف
به كوكبة من رجاله المخلصين وبلغ آخر المار فاحتضنه
سهل الفيجا، فلاحته خلال أغصان النار الخوذ
اللامعة، والرياح التالقة، ودمدمة الجيش الاسبان
المنتصر يشق طريقه إلى غرناطة ...

وهناك في مكان معين قابلته أولى طلائع الجنود
الاسبانية وقد نسجت في الجو من عثريها رداء
عكراً حجب قرص الشمس، وقد ملأ هزيها
الآفاق وفي مقدمتها ذلك الملحج الأسباني
(بدرو فانزالو دي مندوزا) الذي يعتبره التاريخ
أعظم موقد لنار الحرب على غرناطة . ونظر هذا
إلى أبي عبد الله نظرة الشبهة ، أتبعها بتحية صفراء
ضربت أحشاء الأمير للعرب النعمس

وتتابعت مواكب الأسبانيول تملاً السهل
والوهر، وهي نصب في سهل الفيجا أروع حماسيات
قشتالا ، وأعذب ألحان أراغونيا ، وابن الأحمر
سام واجم تفتسه الآلام ، وتنوشه الموم من كل
جانب ، ولكنه أبدى من رباطة الجأش ، ومثانة
الرجولة، ما بهر أنظار الفرسان وهم يمرون به سريعاً.
وبينا طرفه بموج في هذه الأمواج إذ لاح
له كوكبة من الفرسان تتوسطها مركبة مرصعة
بكرات الفضة ، وعلى واجهتها الخلفية المرتفعة
يتذبذب في وهج الشمس صليب ضخيم الحجم هائل
النظر ، من تحته يجلس الزوجان السعيدان فردناند
وإيزابلا ومن حولهما صفوة مختارة من الفرسان
شاكي السلاح !

وطبقاً للشروط القاسية التي تمهد بتنفيذها هذا
الأمير النعمس فقد انحط من على فرسه بسرعة البرق

وصعدت من صدره زفرة أرسلها في جوف
الفجر إزاء هذه المناظر الساحرة التي حركت
إحساسه ، وألهبت عواطفه ، وهزت أسلاك قلبه ،
وأثارت كامن شجونه ! ثم طفرت من عينيه دمعتان
ساخنتان ، وعيناه ضنيتان بمثل هذا الماء في جميع
الأدوار القاسية التي مرت به ، ولكن للرجال
ساعات تتلاشى فيها رجولتهم وكبرياؤهم

وراح صدره يعلو ويهبط ، وعيناه ممدقتان
إلى غرناطة وقد بلتاهما الدموع ونسجت عليها توباً
شفافاً تراءت له هذه المدينة الساحرة من خلاله
وهي مضطجعة في هذا السهل المرع المخضل ،
كأنها قطعة من سحب ناصع ضارب في سماء
صافية !

وغرق ابن الأحمر في بحار التأملات ، وما أفاق
إلا على قول الحارث بن حلزة :
أجموا أمرهم عشاء فلما
أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن نصها

ل خيل ، خلال ذاك رغاء
فأطل من شرفته ليرى ما الخبر ، فإذا بحاشيته
تضطرب في فناء السباع ، وقد أعدت كل معدات
السفر ، ولم يبق إلا نزول للسلطان ليأخذ طريقه
إلى منفاه !

غامت مقاصير الحمراء في عينيه ، وقد كانت
بهجة النفوس ، ومتعة الخواطر ، ونزل ابن الأحمر
يجرأ ذيل الخيبة وثقل الزمن ، وحساب التاريخ ،
متثاقلاً متهاكاً يترشح في مشيته كالثلج ، واخترق
الفناء فامتطى صهوة جواده الأدم فاندفع به في

أبواب غرناطة بينما الأهازيج تجلجل في أجواء الفيجا
ووقف سيد الأمس وطريد اليوم ، يندب حظه
وملكه المضاع ، ثم زفر زفرة محرقة منقرت أحشاءه
وسقط منشياً عليه ، وما أفاق إلا على طلقة مدفع
أحدثت دويًا شديدًا في سهل الفيجا ...

نهض وقد علت بوجهه الشاحب حبيبات من
الرمل ، أبعدها بردنه ثم أقبل على جواده فرأى هناك
بعيداً على قنة برج من أبراج الحمراء صليبا من الفضة
الصافية مؤذناً بأفول الهلال ، وعلى برج آخر حلت
محل راية القرآن الراية القشتالية تتعرج في الرياح !
ومن هذا اليوم انقطع ذلك اللحن السامى
الحنون الذى ينصب في أذن الفجر هاتفاً : الله أكبر ...
الله أكبر ... وارتفعت ضربات النواقيس ، ودق
الطبول ، وترانيم القسوس ، وسقطت غرناطة في
أحضان المسيحية !

تحرك ابن الأحمر من مكانه ، وامتلأ صهوة
جواده ، ولحق به أصحابه ، فلفهم الأفق بردائه
وهناك تحت أقدام جبال اللاتج اضطجعت قرية
صغيرة على سفح من سفوحه قد لفها الضباب بردنه
تسكنها بضع عائلات عربية رقيقة الحال ، تشتغل
بالزراعة

فزل ابن الأحمر على عين من عيونها ليقضى
(سواد) نهاره هناك ، وعلت بمقدمه جموع
العرب فتوافدت إليه تسكب بين يديه العبرات
الحرار ، وتندب ملكاً منقرته المعصية ، وتثرته
الشهوات والأهواء !

عند ما اقتربت منه المركبة الملوكية ، واخترق
الصفوف ، ووقف في قلب الموكب والحزن يحز قلبه
حزاً ، وشاهده في هذه الأثناء فردناند بمهامته العربية
البيضاء المتأزجة فتربت قليلاً في سيره لبسلب شرفه
هائياً وبمحطم كبرياءه العربي ، ونظر إلى أبي عبد الله
نظرة فهم مضمونها قائمى له هذا ، وقد أغمض
عينيه ، المحناة ما عرفت ما ملوك العرب منذ الأزل ،
المحنة كان كابوسها الرهيب يتمثل له في لياليه
الأخيرة حتى أجهز عليه !

وتأذت أنظار الجمهور من هذه النهاية المؤلمة التي
جلت بأمر المؤمنين سلطان غرناطة ومالقة والرية
أبي عبد الله سليل بنى الخزرج !

ثم رفع السلطان رأسه وقد احترت عيناه وأدلى
بيده على جبينه وأخرج مفاتيح المدينة وقدها
لفردناند قائلاً :

« أيها السيد ! هذه غرناطة ملكك ، وما قدر
الله كان ، فهانذا أضع مفاتيح هذا الفردوس بين
يديك وأفوض إلى رحمتك وسدق إخلاصك حقوق
أبنائى (١) »

ثم أشاح بوجهه وقد تفصد جبينه عرقاً ،
وظن الجمهور أن الأسباني وقد أخذه نشوة
النصر ، وتفتحت له جنان غرناطة ، ستأخذه حنوة
على هذا الأمير المنكود فيفيض على قلبه المسحوق
للمظف وحسن المعاملة ، ولكن العزة الكاذبة ،
سابتاً منه مميزات النفس البشرية فاستلم القاليد
وتابع سيره في جموع المسيحية التي قاربت طلائعها

(1) Luisa banal : gli ultimi signori dell'al-hambra

قراءت لم آفاق الأندلس في صحوة الفجر تيمت
معاني التهليل والتسبيح في النفوس... هذه رحاب
الأندلس كلها قد بدت كالبساط المدور حاملة غارقة
في أمواج الحضرة، ضاحكة بمفاتيح الطبيعة؛ وهذه
خيالات القرى البيضاء قد لاحت من خلال أشجار
السرو والصفصاف كاللؤلؤ المنتثور، وتفقد ابن الأحمر
مدينة أحلامه، ليودعها آخر نظرة، وأحر زفرة،
إلى الأبد! فرآها غارقة في سبات عميق وقد غسلت
أمواج القمر أبراجها المشمخة ومناظرها السامقة،
فبدت تتلألأ في ضمير الفجر كشماريح من فضة
تهللت من أجفان السماء!

أثر هذا المنظر الساحر في نفسه فزفر زفرة
عميقة سجلها التاريخ في مطاويه ثم هتف هتافاً
عالياً:

الله أكبر... الله أكبر...!

غرناطة... غرناطة...!

وسقط تخنقه العبرات في نجيب طويل!

في هذه الأثناء كان قرص الشمس الملهب قد برز
من خلال الجبال مهبلاً تلك الغائم الرقيقة السابجة
في هذه الأجواء. وأفاق ابن الأحمر على قبيلات
الشمس المداقنة وقد تقرحت أجفانه من فرط النجيب
بينما كان أصحابه ينشجون نشيجاً مؤلماً يفتت الأكباد
ويذيب الجداد، وتشجع أحدهم وقد آلت له هذه
المواقف التي تدعى القواد فتقدم نحو السلطان وعلى
شفتيه بضع كلمات تقال في مثل هذه المناسبات
الموجعة تخفيفاً للكرب وترفيفاً للخاطر المشرد:

— صبراً يا عظيم الروح صبراً... فلبعض

لم يعض على وصوله ساعات حتى أقبلت أمه
عائشة، المرأة التي كان لها القدر الممل في هذه
الفاجمة، تحف بها جوع الخدم والحشم وقد حملت
من أبهاء الحراء كل ما خف حمله، وغلا ثمنه!
وأذنت الشمس بالغيب، وقبل أن تختبئ وراء
خرائب الأبدية، وقبل أن تمنق فلولها هامات الجبال
المسكالة بمصائب الثلج، آوى أبو عبد الله إلى مخدعه
يائساً وقد هد الحزن أركان قلبه، وأكات نار
العذاب فتاده، وانطرح على فراشه وعيونه تنفجر
بآلام أعظم فاجعة عرفها تاريخ البشر!

كان ذلك في اليوم الحادي عشر من شهر يناير
سنة ١٤٩٢، قبل أن تنفض ذكاه أشعتها المداقنة
على أعالي جبال البشرات Alpuxarrat أخذ
أبو عبد الله طريقه إلى إفريقيا في غلس الفجر قبل
انبثاق النور...

ولفهم سهل الفيجا بصمته الرهيب، فلم تحس
لهم حساً ولا جرساً، اللهم إلا حوافر الخيل توقع
اللعن الموجه في مسمع الطبيعة، وتعل على الوجود
سورة الخلود العربي المخلف في بلاد الأسيان
وجأة، كانت الخيل قد وصلت إلى أعتاب
جبال الثلج، فاقنعت صخورها، وتغلطت
في أحشائها ترهاها مرتفعاتها المداهية صمداً إلى
أعنان السماء!

وهنا بلغوا الدروة القصوى لهذه الجبال،
وهنا نفث العربي الخزرجي زفرته الأخيرة كأنفاس
الصيف...

وأجال الفرسان أنظارهم من على هذا النجم،

وقفته الأخيرة ، وزفر فيها زفرة الشهيرة فلا تزال
حتى هذه الساعة تؤلف مريجاً من الخرافة والتاريخ
في صدور الأسبانيول

يمر بها السائر فيحييها فتحتدم في نفسه ذكريات
الماضي المعطر ، ويرنو إليها البحار الأسباني وهو
معلق بسارية سفينته في عرض البحر المتوسط فيطرق
مليا مشغول البال ، مبلبل الخاطر ، ثم يترنم بأغاني
شجية ومقاطع رومانسية تتعلق بأخبار العرب
وآثارهم ... هذه الروبة مشهورة في الفناء والتاريخ
هذه *il sospiro del moro* «لأزفرة العربي» (١)

محمد عبد الله العمودي
دبلوم دار العلوم

(القاهرة)

المصائب نحن ... ! ولها فوائد فعالة عند ما تتموج
ذكرياتها في أذهان الأحفاد ... !

ولكن أبا عبد الله لم يعبأ بهذا ، بل أشار بيده
وقد خفضها قليلا إلى غرناطة الساحرة وهي تضحك
في نور الشمس وأجاب بكلام رقيق كنوم السحر :
— أواه ! أي نكبة تعادل نكبتى هذه ؟

ثم همز جواده الطوم ، فابتلعت أحشاء الجبال ،
وغابت عن عينيه غرناطة ... إلى الأبد !

وركب البحر إلى (مليلا) على الشاطئ الأفريقي
وشخص نحو (فاس) عاصمة الأيالة المراكشية وبقيت
روحه متشعة بوشاح الحزن والكآبة طيلة حياته

(1) Yoseph mccabe : the splendour of moorish
spain

أما الروبة العالية التي وقف عليها أبو عبد الله

شركة مصر للغزل والنسيج

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة في أثمانها ...

رائعة في ألوانها ...

فيادروا باخذ طلباتكم

حاجي بابا اصبر فها نحن

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الخامس والثلاثون

الحظ يتسم في ربه حاجي بابا بك

كانت الهدية الوحيدة التي عدنا بها إلى رئيسنا هي كبشين سميين، فلما وصلنا إلى معسكرنا قدمنا نفسيهما إلى النائب الذي قدمنا إلى «النازا كشي باشا» وكان إذ ذاك جالسا في خيمته يتحدث مع بعض أصدقائه

قال لشعير بك : « هل جئت بالضريبة أم بالعمدة ؟ ما الذي فعلت ؟ »

قال شعير بك بلهجة عجيبة من التملق لم أنصوّر أنه قادر على مثلها : « كلا يا سيدي الرئيس لم أجيء بهذا ولا بذلك، ولكن للعمدة أرسل كبشين ليذبها عند بابك، ولم يكن عنده غيرها حتى ولا القوت، وإذا لم تنجد الحكومة الايرانية هذه القرية بما يكفيها من الطعام فإن أهلها سيموتون جوعاً أو سياً كل بعضهم بعضاً »

فصاح الجلاد : « أ هذا هو للصدق ؟ إذا كان عندهم خراف فهل يعقل أنه ليس عندهم نعاج ؟ هل هذا القول معقول ؟ »

قال شعير بك : « إن ظنك صائب يا سيدي الرئيس ولكننا لسنا نتكلم عن الغنم بل عن القمح » قال الجلاد : « ولكن لماذا لم تتبع الأوامر

الصادرة إليك فتأتي بالعمدة وكبار أهل المدينة ؟ أنا لو كنت هناك لأحرقت جثث هؤلاء الأوغاد أو لأذقتهم أنواع التعذيب حتى يتعرفوا بأن لديهم ثروة غبوءة »

وقال شعير بك بعد أن نظر إلى مستنجدنا : « لقد كنا نريد أن تأتي بهم وشدونا وثاقهم وضربناهم وعنفناهم وحاجي بابا يعرف كل شيء فقد طلب إليهم أن يدفعوا للضريبة نقداً وإلا فانهزم يحدوا منا رحمة لأن الرحمة ليست من أخلاقنا، وحذرهم من سطوتك يا سيدي الرئيس قائلاً إن شجاعتك لا تعرف التردد، وقوتك لا تعرف اللين؛ ولم يزل يصفك أمامهم حتى أغشى عليهم من الخوف »

قال لي الجلاد : « ما الذي أجابوك به يا حاجي بابا ؟ إنني لم أفهم لماذا لم يأت هؤلاء القوم أمامي كما أمرت » فقلت بمتنهي الخضوع : « وأنا لم أفهم كذلك فإن شعير بك هو الذي كان بنوب عنك في هذه المهمة، وقد تولى الأمر كله بنفسه وقد ذهبت في خدمته فلم يبعد إلى شيء »

عند ذلك ثارت تائرة الجلاد وخاطبنا بأشد ألفاظ الاحتقار ونظر إلى أصدقائه وقال : « من الواضح أن هذين الوغدين قد لعبا لعبة هناك . قل لي يا شعير بك بحق الملح والخبز الذي أكلته في خدمة الشاه، كم طوماناً أخذت في هذه الصفقة ؟ » ثم نظر إلى وقال : « وأنت يا حاجي لم يمس عليك أكثر من شهر واحد في الخدمة فكيف طوماناً ربحته ؟ »

حاولنا عبثاً أن نبري أنفسنا وأقسمنا أغلظ الايمان فلم تقابل بغير التكذيب. ثم استدعى الجلاد

زملائي ينظرون إلى نظرتهم إلى رجل نزيه لانه يخفه
الطامع وقال أحدم : « إن ذلك يرجع إلى كونه
طبيباً والأطباء يعرفون الحكمة وهي أغلى من
كنوز الأرض »

وقال آخر : « إنه رجل يقدر المواقف فلا يضع
رجليه حيث ينبغي أن توضع رأسه »

وصفوة القول أنني اشتهرت بأني رجل حريص
حذر وأني — بالرغم من كل ما رأيت من المصائب —

رجل حسن الطالع موفق الحظ
وكانت نتيجة هذه الشهرة أنني عينت مساعداً
لرئيس الجلادين، وهذا منصب كبير الأهمية كما سيتضح
 للقراء .

الفصل السادس والثلاثون

رقة القاب لا تغيرها طبيعة المنصب

في ذلك الوقت نشبت الحرب بين حكومة الشاه
وبين المسكوف الذين اعتدوا على الحدود الإيرانية
في المقاطعة الواقعة بين نهري خور وأراس، وهي
مقاطعة يحكمها قائد من خاصة أتباع الشاه، ورتبته
في الجيش رتبة « سردار » فصد هذا الحاكم الجنود
الروسية التي اخترقت حدود بلاده، ولكنه لم يكتف
بذلك بل طارد الأعداء في بلادهم راغباً في تحقيق
أمل قديم عند الإيرانيين وهو الاستيلاء على البلاد
الجنوبية من القوزاق حتى مدينة تفليس

وكانت الأخبار تصل يومياً إلى الشاه في قصر
السلمانية كما كانت تصله بين حين وحين رؤوس
الضباط الروس الذين يقتلهم الجيش الإيراني، فكانت
تقابل بحفلات عسكرية لأن استعمار إرسلها كان
دليلاً على النصر

نائبه وأمره أن يسجننا حتى يأتي العمدة ورجال
المدينة فيواجههم بنا

ولما صرت أنا وشمير بك وحدنا عرض على
نصف ما أخذه قائلا : إنه لم يرد حرمان ولكن
كان ينتظر غودتنا ثم تقسم الهدية

فقلت له : « كلا أيها الصديق . لقد جاء هذا
الجود بعد فوات الوقت وإذا كنت قد شربت
من الخمر المحرمة فأصيب رأسك بالصداع فلماذا
تطلب إلى أن أصدع رأسي وأنا لم أشارك في شربها ؟
حسبي من هذه الرحلة أنني تعلمت درساً وقنمت به ؛
وشكراً لأنك أنت الذي علمتني هذا الدرس »

فحاول بعد ذلك أن ينال مني وعداً بمساعدته
عند ما نواجه بالعمدة وأن أقسم على صحة ما سوف
يدعيه . وبالرغم من تشدده تارة ولينه طوراً فأنني
لم أنله هذا الوعد . وقال لي إنه إذا جلد فلن يعيش
لأنه اشتهر بالقسوة الشديدة في جلد المحكوم عليهم
وإنه لذلك لا يرجو من الجلادين شيئاً من الرحمة،
وأقسم أنه يفضل أن ينكب بأية نكبة على أن يحكم
عليه بالجلد

ولما اقترب الوقت الذي سندعي فيه إلى
« النازاكشي باشي » لم يوجد شمير بك . وسئلت
عنه فقلت : إنه خاف أن يحكم عليه بالجلد ، ولذلك
لاذ بالفرار

ولما جئ بالعمدة وأصحابه شهدوا بأنني لم آخذ
منهم أي شيء ، وأنني على النقيض من ذلك كنت
أحتم على تقديم هدية ثمينة للنازاكشي باشي
وشهدوا ضد شمير بك بأنه حاولهم وقبل رشوتهم
وقد أثرت شهادتهم هذه أثراً حسناً في نفس
النازاكشي باشي . وتداولت صيرت الألسن فأخذ

ولى العهد إلى مدينة جابجا التي حاصرها العدو
ولما تداول السردار مع نازا كشى باشى يوم
وصول الأخير اتفق رأيهما على بث الجواسيس في
الجهات القريبة من الميدان لترقب حركات الروس
وجمات رئيساً للجواسيس المبيين من قبل
نازا كشى باشى وجعل رجل آخر رئيساً للجواسيس
المبيين من قبل السردار ولكن القسم الأخير لم يكن
له مثل درايتنا بهذه البلاد فكافوا باستشارتي وجعلت
في الواقع رئيساً على الفرقتين، فجمعت الرؤساء حولي
بعد صلاة المشاء وألقيت عليهم أوامري ثم صرحت
بهم إلى قرية « اشتارك » ومررنا في أثناء الطريق
إليها بقرية ايتشمياريك وهي قاعدة البطريكية الأرمنية
وكان وصولنا إلى جسر اشتارك قبيل الفجر؛
وكننا نسير على الشاطئ الصخري للنهر بين المرتفعات
العالية . وكانت القرية واقعة خلف تلك المرتفعات .
وبالرغم من أن نور الفجر لم يكن قد سطع في هذا
الحين فقد كان من في القرية يستطيعون رؤيتنا بين
الأكام المتخافة عن بقايا الكنائس الأرمنية الكثيرة
في هذه البقعة من إيران

وقد نهت حوافر الجياد في عدوها كلاب
القرية فأخذت تنبح ونحن لا تزال بميدان ، فلما
ازددنا من القرية دواً سمعنا رجلاً يقول للآخر :
« يا على ! يا على ! ألا ترى شبحاً أبيض بالقرب من
الكنيسة ؟ »

وأشار إلى مكاننا
فأجابه الآخر : « نعم هذا هو النول الذي
اعتدنا رؤيته في هذه الساعة . إنه يبحث عن جثة
ليأكلها »
سرنا في الطريق ونحن نسمع هذين الرجلين

وأمر الشاه حاكم مقاطعة أذربيجان بأن يمد
السردار بقوة عظيمة من جيشه ليستمر في غزواته
للبلاد الروسية

وفي يوم من الأيام جاء رسول من السردار
يقود خمسة جمال محملة برؤوس الروسين، ولكن يظهر
أنه جاء في الوقت نفسه بأخبار مقلقة لأن الشاه
أمر بإرسال حملة يقودها النازا كشى باشى وعدد
جنودها مائة ألف ومعه ضباط برتبة بكباشى
« قائد ألف » ويوزباشى « قائد مائة » وأونباشى
« قائد عشرة »

في ذلك اليوم أنعم على كثيرين من الجلادين
ببعض هذه الرتب واكتظت الطرق المؤدية إلى خيمة
القائد بالضباط الرأخين والغبادين على عجل لتلقى الأوامر
الخاصة بنظام هذا الجيش

وكانت مهمتي من أصعب المهمات لأنني كانت
بقيادة فرقة من الجنود والمرور بها على الفري لتجنيد
الشبان من أهلها وتدريبهم على القتال
وكانت هذه المهمة تستلزم نشاطاً شديداً وحركة
دأمة ولكن فيها من جهة أخرى نفعا كبيرا لأنه
كان من السهل على فيها أن أحصل على ثروة كبيرة
لو أردت ذلك . لكن الموعظة التي استفدتها من حادثة
شمير على بك لم تنب عن ذهني، فعزمت على أن أطفى
نار الطمع بماء الصبر وعلى أن أبقى يدي ظاهرة من
أموال الناس

وصلت بفرقتي إلى مدينة أريفان قبل وصول
الجيش ببضعة أيام وهناك وجدت السردار وكان
قد وصل إلى مدينة جافيشلو ولكنه عاد فتقهقر
إلى أريفان منتظراً وصول المدد . وفي هذا الوقت
وصلت فرقة أخرى من الجيش الفارسي بقيادة

شيئاً بشأنك . من أين جئت ؟ وإلى أين تريد الذهاب ؟ »

فقال لى الشاب : « إن قصتي طويلة محزنة ، فإذا ساعدت على نقل هذه الفتاة المسكينة إلى حيث تأمن ويمنى بأمرها فسأقص عليك قصتي . وهي مصابة بجراح شديدة ولكنها ستشفى منها إذا سادت عناية . أحمد الله على أنك لم تكن من جنود السردار وأرجو أن نمطف على لأنك ستجد بعد أن تسمع قصتي ما يملكك على مساعدتي وإتقادي .

لم أكن في حاجة إلى استجدائه رحمتي لأنني أشفت عليه وعلى المرأة التي معه ساعة وقع نظري عليهما وقلت له إنني أجيب مطلبه فيما يتعلق بالفتاة وإنني سأخبره عن رأيي فيه بعد أن أسمع قصته

ثم ساعدته على تضميد جراح الفتاة وأمرت واحداً من جنودي بأن يترجل عن جواده وحملناها عليه وأخذناهما إلى القرية ثم درنا على منازل أهلها حتى توصلنا في أحدم المزوءة والانسانية فمهدنا إليه بملاجئنا ووجدنا من الرجل قبولاً حسناً وشهامة ، وقابلتنا زوجته فقالت إنها تسر من أداء هذه الخدمة في علاج المريضة ، وعلمت من ذلك الشاب أن صاحبي المنزل أرمنيان مثله ومثل المريضة التي معه وأنه مسرور لذلك فهو لم يكن يتوقع أحسن منه

الفصل السابع والثلاثون

يوسف الأرمني وزوجته مريم

كان في عزى الذهاب إلى مرتفعات أيران حيث الهواء بارد طلق وحيث المرعى معشب خصب صالح للعياد ، ولكنني علمت أن قبائل الرجل التي كنت أحسبها معسكرة في مكان معين قد انتقلت

وغيرها يستميزون بالحسين وبالأئمة وبالنبي وبعلي . وعلمهم أحد الموجودين آية ، قال : إنهم إذا تلوها هرب القبول . فتلوها ولكنهم ما زالوا يرون شبحاً غامضاً ، فأكد ذلك الرجل أن الشبح لو كان غولاً لاختفى بعد تلاوة الآية الشريفة ، وقال وهو يمدو بجواده : انتظروني حتى أراه وأخبركم بحقيقته

وجري في غير اتجاهنا ثم عاد يقول : إن الذي كانوا يحسبونه غولاً لم يكن إلا امرأة على وجهها نقاب أبيض وهي تحاول الاختفاء في أنقاض كنيسة أرمنية

عرفت أنهم لم يكونوا ناظرين إلينا . وذهبت إلى المكان الذي أشار إليه لأرى تلك المرأة ذات النقاب الأبيض لعلها ذات صلة بالمهمة التي نيطت بنا وأمرت رجالي أن يقيموني عن بعد

وجدت في ركن بين جدارين مهدمين من هذه الأنقاض امرأة يظهر من اصفرار وجهها أنها مريضة وكان معها رجل ، وكلاهما في ميعة الشباب ، والفتاة جميلة فاتنة والفتى قوى تبدو عليه مخايل القوة والنشاط والرجولة ، وهو يحمل إلى جنبه سيفاً ولا حظت أن ثياب الفتاة وبديها مخضبة بالدم ، وعرفت أن الرجل ليس عدواً لها لأنه كان يضمد جراحها ويواسيها . وبالرغم من أن عملي ومهمتي كانا يستلزمان قسوة في القلب فقد أخذتني رحمة بهما واحترمت حزنهما وقلت : « ما الذي تفعلانه هنا ؟ وإذا كنتم غربيين فلماذا لا تذهبان إلى القرية ؟ »

فقال لى الشاب : « إن كنت رجلاً ذا قلب فاحم هذه الفتاة ؟ وإذا كنت مرسلًا من قبل السردار لا اعتقالي فاني لن أقاوم ولكن الفتاة تحتضر فارحمها » قلت له : « من أنت ؟ إن السردار لم يقل لنا

وهو قسيس القرية ، ومن أجل ذلك أراد والهداي
أن يجعلاني قسيساً

ولما بلغت العاشرة من العمر أرسلت إلى الكنيسة
لأتعلم الكتابة والقراءة وأصول الدين وكان في
الكنيسة كتب كثيرة أخذت أقرأها واحداً بعد
واحد حتى أصبحت القراءة أحب عاداتي وأزمتها؛
وصرت أشتري كتباً من أنواع مختلفة فلا أستريح
منذ يصل إلى كتاب حتى آتي على آخره

وكانت أكثر هذه الكتب دينية، ولكنني قرأت
بعض كتب التاريخ الأرمني فتنبه إحساسي بماطفة
الوطنية وعرفت أن بلادنا كانت أمة وكان لها ملوك
اضطروا العالم إلى احترامهم؛ وتاملت في حالتنا اليوم
فحزنت ووددت أن يتاح لنا من يثبت بيننا الدعوة
ويجمع شملنا للتخلص من نير الحكم الأجنبي وشغلني
المزم على أن أعمل نحو هذه الغاية عن الواجبات
الدينية التي كرسيت حياتي لها باعتباري قسيساً

وفي هذه الأثناء نشبت الحرب بين روسيا وبين
فارس وكانت بلادنا في وسط ميدان القتال لوقوعها
على الحدود فانتقلت من الكنيسة إلى قريتي لا كون
بين أهلي الدين وجدتهم شديدي الخوف والقلق
بسبب هذه الحروب لأن كلا الفريقين المتحاربين
(فارس وروسيا) جدير بأن يخاف

ولم تكن نتيجة الحرب لتفيد إحدى الدولتين
قائدة كبرى ولكنها كانت شديدة الضرر علينا،
لا لخوفنا من القتل فقط بل لأن الجيوش المحاربة
من الجانبين كانت تفسد علينا زراعتنا فتسلب الناضج
من الحبوب وتطعم جيادها بما لم ينضج بعد
وكان الفلاحون ممرضين دائماً للاعتقال والأسر؛
ولما خشينا أن نموت من الجوع بسبب هذا الاعتداء

إلى تلك المرتفعات وما يليها من الجبال خوفاً من
الحرب الناشئة، فمزمّت على أن أظل في أشتارك حتى
تخف حرارة النهار

وانقسم رجالنا فذهبوا إلى أجزاء مختلفة في المدينة
فذهب البعض إلى جهة الجسر ليطعموا جيادهم من
الحشائش الطويلة النابتة على الشاطئ، وذهب فريق
آخر إلى طاحون بجانب النهر ليستظلوا وللغرض
السالف أيضاً . وجاست في غرفة من أنقاض
إحدى الكنائس قائمة على قمة عالية لأشرف على المنظر
كله ولأرى أي شبح يبدو من جهة الحدود الروسية
وقد أثر الهواء الطلق في نفسي فممت ساعتين
ثم قمت فاستدعيت للشاب الأرمني وطلبت إليه أن
يقص على قصته خصوصاً ما كان متعلقاً بمجيئه مع
السيدة إلى هذا المكان الذي قابلتم ما فيه

وكانت القوة والحياة قد ظهرتنا على وجهه وتبينت
من مخايل النبل البادية عليه أنه لم يقل غير الصدق
وهذا هو مجمل القصة على لسانه :

« أنا أرمني المولد مسيحي الدين واسمى بوصف
وكان أبي رئيساً لمدينة جافيشلو التي أكثر سكانها
من الأرمن وهي قرية من مجرى نهر « بجباكي »
وتبعد عن هذا المكان ستة فراسخ وحول هذه
المدينة أراض خصبة مزروعة وهي غنية بمحصولاتها
جميلة المناخ هادئة السكان

وكنا كسائر أهلها سعداء على فقرنا بما رزقناه
من جودة الصحة ومنا فريق يسكن في الجبال خوفاً
من مظالم الحكام الذين لا ينجو من بطش أيديهم
كل أهل المدن

وعاداتنا كلها بسيطة ونظام حياتنا ديني بمحت
ولي عم من الأساقفة في بطريركية أبشميزين، وخال

العمر . وإذا نسبت شيئاً فلن أنسى شعوري بالحب
وبالسرور وبالشفقة ساعة أبصرتها وأحسست بأن
مشاعري في هذا الحين جديدة كماهاونسيت كل ما كان
لي في الحياة من غاية أو غرض إلا السهر على ما فيه
خير هذه الفتاة ورضاها

وجرت أول كلمات قالتها الفتاة في مجري دمي
من المروق ثم بكيت بكاء شديداً أخذت بعمده تمالك
نفسها شيئاً فشيئاً

ولما علمت أنني من أبناء جنسها وأبناء دينها
وذكرت أنني منقذها أخذت تشمر نحوى شعوراً
مختلفاً، وأمل على غروري أن إحساسها نحوى كان
مثل إحساسى نحوها

وشجمنى هذا السرور على أن أكشف النقاب
عن وجهها وكان ذلك منى جريئة لم تفتبرها الفتاة
لأن الفتيات الأرمنيات يحتفظن به كل الاحتفاظ
أمام الأجانب عنهن ويمددن السفور فضيحة منكزة
ولما رأيت غضبها وقفت أمامها وقوف المجرم
ولكننى اعتذرت بأن وقوعها عن ظهر الجواد
قد حبس أنفاسها وبأنه لولا نزع هذا النقاب عن فمها
وأنفها لاختنقت ، لكن هذا الاعتذار لم يصادف
قبولاً عندها . ولم يكن فى استطاعتى إقناعها بأن
رؤبى وجهها كله أمام هذه الضرورة لا تشينها
ولا تلحق بها عاراً لأن ذهنها كان ممتلئاً بهذه الفكرة ،
ثم أقسمت لها بأن رؤبى إياها سبق سرّاً أكتمه
ما دمت على قيد الحياة ، فاطمأنت وتمزت ثم طلبت
إليها أن تقص قصتها على وتخبرنى عن الرجل الذى
كان من حسن حظى أننى أبقيتها من بين يديه
فقلت : « إن كل ما أعرفه عن الرجل أنه فارسى

على المزارع وصلنا الليل بالنهار فى خدمة الأرض
لنموض ما فقدناه ، ولكن فلاحينا كانوا يخرجون
إلى الحقول والفؤوس فى أيديهم والسيوف إلى جنوبهم
والبنادق محشوة بالبارود معلقة على ظهورهم ، وكنا
كلنا رأينا أجانب مقبلين نحونا تجمنا وأظهرنا
استعدادنا للدفاع

وبقينا على هذه الحال عدة أعوام استطعنا فيها
أن نحفظ بالقوت بالرغم من القليل الذى كان يؤخذ
على الرغم منا

ومنذ عامين ذهبت فى جملة من ذهب إلى الحقل
من أبناء قريتى لمراقبة الحصاد عند جنيته كالعادة
حاملاً بندقيتى وسبقى فرأيت جواداً يمدو وعلى ظهره
رجل فارسى ووراءه فتاة أسيرة

وعندما وقع نظر الفتاة على صاحبة مستجيرة
مستنجدة فركبت جوادى وركضت نحو الفارسى
شاهراً أسبقي فى وجهه فلم يستطع الرجل بالنظر لوجود
المرأة خلفه أن يجرّد سيفه ويهاجمنى فاختار أن يسرع
حتى يفر منى ، ولكننى أسرعت فأطلقت من بندقيتى
رصاصة فى الهواء ففرع جواده لأن الرصاصة كانت
قريبة من عينيه وشب فصرخت الفتاة المردفة خلف
الفارس وسقطت عن الجواد

وكان الرجل فى هذه الحالة يستطيع أن يقاتلنى
إما بالسيف أو بالبندقية ولكنه وجد بندقيتى مصوبة
نحو رأسه فرأى الفرار أسلم ونجا بنفسه ، وذهبت
إلى تلك الفتاة التى كانت منقبة فساعدتها على الوقوف
ووجدتها جريحة لسقوطها عن الجواد

وبعد إسعافى لها وتأكدي من أنها لم تصب بكسر
أورض تبينت أنها أرمنية مثلى ووجدتها أجمل شئ
وقع نظري عليه وهى لا تتجاوز الخامسة عشرة من

ولم أره قط قبل هذه المرة ولم يختطفني إلا لكي
يبيعني في سوق الرقيق .

ومنذ أيام قليلة حدثت موقعة بين الفارسيين
وبين القوزاق ، فطرد الفارسيون القوزاق من قرية
أربنان وهي القرية التي أنا منها وابتهجوا بذلك
إبتهاجاً عظيماً ، وصار الفرس يمتقلون النساء القوزاقيات
ويرسلونهن إلى البلاد الأخرى لبيعهن في أسواق
الرقيق . ويظهر أن الوغد الذي اختطفني أراد بيعي
على أنى قوزاقية .

ذهبت في الصباح كالعادة لأملأ إناء من البئر
فلقيني وشرع في وجعي سيفاً وهددني بالقتل إذا لم
أطيعه حيث شاء دون أن أحدث ضجة فأطعته
مكرهة وأركني جواده .

وكان الفتيات في ذلك الوقت يصرننا فذهبن
إلى المدينة ركضاً واعتمدت على الضجة التي سيجدها
هؤلاء الفتيات بعد عودتهن . ولكنه لم تمض بضعة
دقائق حتى كنا بسيدن عن المدينة بسرعة الجواد
بين النجاد والوهاد التي يقل فيها سرور الناس ، وكنت
أنت أول إنسان رأيته واستنجدت به على الرغم من
طول المسافة التي قطعناها .

لم تكن الفتاة تصل إلى هذا الحد من قولها
حتى بدا لنا عدة أشخاص أحدم على ظهر جواد
والباقون مشاة ، وكانوا مقبلين نحونا على جناح السرعة
وقد عرفتهم الفتاة عند ما رأتهم فتهلل وجهها
استبشاراً وصاحت : « هذا أبي وإخوتي أوفان
وأغوب وأرتوان ومعهم أعمامى أيضاً »

وكنت أخشى أن يكون في الأشخاص المقبلين
أحد يستميل عطفها عني ولكنني حمدت الله إذ لم
يكن فيهم غير الأتارب .

ولما دنوا أعربوا لها عن ذعرهم لما علموا أنها
اختطفها وقالوا إنهم يحمدون الله إذ لم يضلوا الطريق
وبعد أن وصفت لهم كيفية اختطافها قالت في
حياء واضطراب إن الفضل في نجاتها يرجع إلى .
فأجبت إلى عيوشهم وبدأ عليهم الاهتمام بمعرفة حقيقتي
وقال لي أبوها : « من أين أنت يا بني ؟ »

قالت : « أنا ابن رئيس قرية جافيشلو »
فأجابني : « أنت إذن ابن صديقي وجاري ولكنني
لم أرك من قبل . لملك الطالب الذي كان يتعلم في
الكنيسة ثم عاد بعد نشوب الحرب لمساعدة أهله ؟ »
قلت : « نعم أنا هذا الطالب » فرحب بي ودعا
لي وقال إنه وأسرته مدينون لي بالشئ الكثير ، وأصر
على أن أذهب معه لا كون في ضيافته ، وقال : إن
أبناء أسرته يسرون بأن يحملوني على رؤوسهم
ويقبلوا قدمي لاتخاذ مريم من البيع في سوق الرقيق
فتصبح طول عمرها في أسر المسلمين .

ثم حياني أعمامها بكلمات رقيقة وألحوا على أن
أرافقهم إلى القرية فلم أستطع مقاومتهم لشدة تأثرى
بما أبدوه من العطف ولأننى كنت أريد أن أرى
مريم في دارها فقبلت الدعوة وسرنا جميعاً إلى قريتهم
ولما وصلنا إلى تلك القرية وجدنا النساء والأطفال
عند بابها منتظرين عودة مريم مع من ذهبوا للبحث
عنها . ولما رأوها تمود معهم أبدوا من مظاهر الفرح
ما ليس في وسع كاتب أن يوفيه حقه من الوصف .
وأعيدت على مسممهم قصة اختطافها وإنقاذها

وبمثل سرعة البرق انتقلت القصة من فم إلي
فم وزيد عليها من المبالغات ما لا بد منه في مثل
هذه الحالة ، وكان مجمل القصة كما رويت للمرة
الأخيرة : أن شيطاناً ذا رأس من الحديد وحوافر

الحديث الذي دار بين عيني وعينيها طويلاً متمماً يدل على أن شعورها نحوي مثل شعوري نحوها . وبلغ بي الزهو إلى حد تمنيت معه لو أن الفارسي الذي اختطفها وأنقذتها منه كان عشرين فارساً ليكون لي حق الفاخرة والتباهي ، ولكنني عدت فذكرت أنني لست إلا أرمنياً حقيراً من شعب حقير وأنني لست من القوة بحيث يحق لي أن أنعمي هذا التمتي . وحسبي أن أطرده الدئب عن أغنامي

أمضيت طول هذا اليوم في قرية « جلكو » وهي القرية التي فيها أهل مريم . وأقيمت لي وليمة ذبح فيها كبش سمين ودعى كثيرون من الأصدقاء والأهل . .

وفي اليوم التالي عدت إلى أبوي اللذين أزعجهما غيابي عنهما واللذين أنصتا إلى قصتي بكل ما كنت أرجوه من الاهتمام ، وكان اشتغالي بهذا الحب أكبر من أن يسمح لي بالتفكير في أي شأن آخر وقلت لهما : « إنني بفضل الله وفضلكما أصبحت قوي الدراعين وبلغت من العمر ما يحق لي معه أن أنفرد بالنظر في أمر نفسي وأريد أن أتزوج وقد هيات لي العناية الإلهية طريق الزواج »

ثم طلبت إليهما أن يخطبا مريم من أبويها ثم قبلت يدي والدي ووالدتي ، وكان جوابهما أن الزواج أمر كبير الأهمية خصوصاً في هذا الزمن الصعب ، وأن الأسرة فقيرة لا تستطيع القيام بنفقات الزواج ، وأنه من الضروري شراء ثياب وخاتم وشمع وحلوى وفراش وأغطية للفراش واستئجار مننيين والدعوة إلى وليمة ، وأن كل ذلك يتطلب من المال مالا يوجد منه شيء . .

قلت : إن هذا كله صحيح ؛ فالأل غير موجود

كخوافر الخيل ومخالب كخالب الأسد اختطف الفتاة فوضعهما على جواد من جياذ النار ينهب الأرض في قفزه ، وبكاد يبلغ للسماء بوثبه ، وجري بها فراسخ وأميالاً ، فهبط من السماء ملاك من ملائكة الرحمة وأمن للشيطان لعة حاقت به ، ففلت يده وأخرست لسانه وأنقذت الفتاة من مخالبه بمد أن أحالته رماداً . ومازال هذا الملاك الحارس يحمي الفتاة حتى وصلت إلى أهلها . ثم أشير إلى وقيل : إنني هذا الملاك . فاتجهت إلى عيون أهل القرية جميعاً . ولكن حدث لسوء الحظ أن فتى من المزارعين كنت أراه كثيراً في الحقل نظر إلى وقال لأهل القرية : إنني لست ملاكاً ، ولكنني يوسف بن رئيس قرية جافشيلو ، فمدت في نظرم إنساناً هالكا كما كنت . ولكنني مع ذلك ظلت أعامل معاملة ممتازة عن التي يعاملها سائر الناس خصوصاً من أهل مريم الذين لم يتركوا وسيلة إلا أعربوا بها عن شكرهم وعن عجزهم عن إظهار كل ما تكنه جواهرهم نحوي من الشكر وعرفان الجليل

ولكنني لم أعد أبصر مريم مرفوعة النقاب ، فقد مضت تلك اللحظات الهنية التي ملئت فيها بحسنها ، ولكنني قلت في نفسي إن هذه الصلة لن تنقطع بل ستعود وستبقى مستمرة طول الحياة ، ولن تكون في الحياة قوة تستطيع الفصل بيني وبينها . إنني لم أكن أعرفها ولم يكن بيني وبينها أية علاقة ؛ فالقوة التي ساقني إليها وساقها إلى قوة مريدة رأت جمع حظي وحظها والثواب ما بين نفسي ونفسها . ولو أن هذه القوة كانت تريد غير ذلك لترك الفارسي الذي اختطفها يذهب بها إلى حيث شاء . وبالرغم من أن حديثي مع مريم كان قصيراً فقد كان

وكذا من المصوغات ومناديل اليد وأخرى للرأس وجوارب وحذاءين وسلسلة ذهبية للعنق وخمسين قرشاً فارسياً للمصاريف النثرية وأن يكون سلسلة العنق طومان فارسى .

وبعد أن استشار أهل المروس بعض سواحبه قبل ما عرضته أى ، ولكن مجوزاً فيهن كانت خادمة فى بيت من البيوت الإيرانية اقترحت اقتراحاً آثار المناقشة وهو أن أقدم مقداراً من المال لا يتفق على تحديده وإنما يترك لاختيارى جريباً على العادة الإيرانية

فقلت أى : إن هذه العادة ليست من عوائد الأرمن ولا يحسن بنا اتباعها . وقد أدت المناقشة إلى ارتفاع الصوت فى المخاطبة من الجانبين بالرغم من تأكيدى على والدنى ألا توجد أو تسين على وجود شئ من المصاعب . ثم وقف البحث فى ذلك إلى مقابلة أخرى مع الرجال

ودعيت وخالى فذهبت ، وقد نصح لى الأصدقاء ألا أنحك أو أبتم فى أثناء الحديث لأن ذلك يعتبر عند الأرمن فالاً سيئاً على الحياة المقبلة

ذهبت فوجدت أى ومن معها وأمامهن أم المروس وإلى جانبها سواحبه . ودخلت صريم فى اللحظة التى دخلت فيها فقدمت أى لها خاتماً (وكان لسوء حظى من النحاس) فوضعت فى أصبعها وقدم النبيذ إلى القسيس فشرب جرعة منه وقال : إن الخطبة أصبحت معقودة بين صريم وبينى وهنأنا الحاضرون فكان سرورى عظيماً بقبول هذه التهنئة . ورأيت على وجه خطيبتى كل علامة السرور والفرح وربما كنا أسعد المتزوجين فى هذه الساعة التى تم فيها عقد الخطبة

(٧)

والزواج لا يحسن أن يتم بغير هذه التكاليف محافظة على كرامة أسرتى وإظهاراً لتقديرى أسرة المروس . ولكن فى وسمى أنت أقترض لأن لى أصدقاء فى الكنيسة وسأعمل بمجهود مضاعف حتى أتمكن من الوفاء ولن أعيش عيشة السرفين حتى لا يصبح وفاء دينى مستحيلاً .

وقلت لهما إن فى عزى الاشتغال فى خدمة واحد من التجار والسفر معه أو عنه إلى الاستانة أو استرخان ، وفى كسب هذا العمل ما يقوم بنفقتى وبينى ديوئى .

وعجل القول أننى أقنعت والدى بمقدرتى على الكسب وعلى تحمل مسئوليات الزواج وقد وعدنا بأن يخطبا صريم من أبويها . وتحدد يوم قريب لسفر أبى وعمى القسيس ورجل من المتقدمين فى السن من أهل القرية — إلى قرية « جوكلى »

وفى نفس هذا اليوم ذهبت إلى تلك القرية متعللاً سبباً من الأسباب حتى لا تفاجئى هي وأهلها بهذه الخطبة

وقد استقبلت أسرة الفتاة رجال أسرتى أحسن استقبال ، وفتح باب الكلام فى هذا الموضوع فأبدى أهلها رضى واعتباطاً ، وانتهزوا هذه الفرصة فقدموا لضيوفهم أكثر مما اعتادوا شربه من المرق ، وهو الشراب المفضل عند الأرمن ، وتم الاتفاق على إتمام المراسيم الشرعية للزواج بعد أن يتم الجهاز

وبعد ثلاثة أيام ذهبت أى وثلاث من نساء القرية وخالى القسيس إلى جوكلى فكان استقبالهم أحسن من الاستقبال الأول وتم الاتفاق معهم على جانب آخر من التفاصيل وعرضت أى بالنيابة عنى أن أقدم للمروس كيت وكيت من الثياب وكذا

في أثناء الطريق بعض رجال القبائل الراحلة فنتام
في خيامهم

وقد اشتهرت هذه القبائل بكرم الضيافة على الرغم
مما هو معروف عنهما من الشر والبيل إلى النهب والسلب
سافرت وكانت أمي على ظهر الحمار وكنت
أسير على قدمي والبندقية على ظهري والسيوف إلى جنبي
فلما وصلنا إلى مرتفعات أيران وجدنا خياماً
كثيرة بيضاء وفي وسطها خيمة كبيرة حسنة الشكل
هي خيمة الزعيم . وأخبرنا فارسي قابلناه في الطريق
أن هذه خيام سردار إيفان وجنوده وقد عسكروا
هنا استعداداً للحرب مع الروس

أزعجنا هذا الخبر ورأت أمي أن تعود إلى قريبنا
وأن تؤجل الزواج الآن . ولكن حبي كان أكبر
من أن يسمح لي بالامضاء إلى مثل هذا الرأي فحثتها
على الإسراع حتى تتمكن من العودة سريعاً .
وأسرعنا في اليوم الأول حتى بدا لنا في نهاية هذا
اليوم دخان إيفان

وقضينا الليلة تحت صخرة بارزة واستأنفنا
السير في فجر الغد فوصلنا إلى إيفان آمين

وذهبت أمي لشراء الملابس في يوم وصولنا؛ أما
أما فتجولت في الأسواق مصنياً لأحداث الدين
يسرون فيها فسمعت إشاعات كثيرة عن الحرب
وعن المواقع التي ينوي السردار أن يقوم بها ضد
الروس . وظهر لي أن هذه الحرب ستكون من أشد
الحروب التي اشتركت فيها فارس لأن عمال الدخيرة
كانوا يواصلون الليل بالنهار في صنع قنابل من نوع
لم يسبق صنعه في البلاد الفارسية

وخطر لي خاطر كدت أبداً في تنفيذه وهو أن
أطلب بواسطة الكنيسة من السردار أن يحمي قرانا

ثم عادت أمي ومن معها إلى القرية ، وبقيت
للاتفاق على سائر المسائل التي لم يكن تم الاتفاق
عليها . وعزمت على أن أجيب بالقبول على كل
ما يطلب مني مهما كان الغلو فيه والسرف
ولما تكلمنا عن المال وجدت جملة ما يطلب مني
على أجزاء قد بلغت مبلغاً معضلاً فوافقت وأنا أفكر
في اقتراض البقية من شخص آخر غير الذي أزمعت
الاقتراض منه إلى حد معين

ولكنني دهشت عندما رأيت أبي يخرج من
جيبه كيساً من النقود ويقدمه لأهل العروس
ويتناولني عشرة طومات وهو يقول لي : « إن رئيس
قرية جافشيلو لا يرضى على ابنه بشيء في يوم عرسه .
خذ هذا يا يوسف وقدمه لزوجتك زيادة على
ما اتفقتم عليه »

عند ذلك لم يسعني إلا السجود وتقبيل يديه
وتأثر عمي من موقف أبي وموتني فباركني
وقال لي : « إن الكنيسة الأرمنية فقيرة وإن رجالها
أشد فقراً؛ ولكن خذ هذا واشتر به شمعاً لمركك »
وأعطاني عشرين عباسية فضية

وكذلك فعل سائر أقربائي حتى لم تعد ضرورة
ندعو إلى الاقتراض ؛ وزاد عندي من المال ما يكفي
للاتفاق مدة بعد القيام بكل النفقات المطلوبة . فشكرت
لهم وعزمت على السفر إلى إيفان وهو المركز الذي
تلبه القرية لكي أشتري منه الثياب اللازمة

لكنني كنت أجهل في البيع والشراء خصوصاً
ما كان متعلقاً بثياب النساء ، فعزمت على أن آخذ
مع أمي وأن أركبها حماراً وأن أسير على قدمي .
ولكن المسافة كانت بعيدة ولا بد من النوم ليلاً
في أثناء الطريق فاعتمدت على أن أجد مصادفة

قريبين . وكان من المنتظر أن تدور حى الحرب فوق رؤوسنا

وكان صبرى يقل فى كل يوم وحبى يزداد ولكنه كان من المحال إتمام الزواج فى هذه الظروف ولذلك كان على أن أصبر على كره مهم ما كافنى الصبر مضى أسبوعان من يوم عودتنا ولم يحدث حادث جديد وكانت علاقتنا بضيوفنا الروسيين حسنة جداً . وكانت الروابط التى تربطنا بهم كثيرة فهم مسيحيون مثلنا ينادون عند الفزع الإله الذى نعبدته ويشكرون عند النصر الذى نشكره ويصلون فى الكنائس التى نصلى فيها ويشربون معنا الخمر وعجاسها كما يعلم شاربوها تقوى الروابط

وكان قائد الفرقة الروسية شاباً حسن الأخلاق شديد الرغبة فى معرفة أحوالنا وعوائدنا كثير الميل إلى محادثتنا فى كل موضوع نحب أن نتحدث فيه . وقد كلمته فى موضوع زواجى فأصنى إلى باهتمام شديد ووجدت فيه صديقاً صادقاً . وكان مما قاله لى : « ولماذا تؤخر الزواج ؟ اقبل نصيحتى وتزوج الآن فانتنا إنما جئنا لنعميكم ولم يظهر الفارسيون إلى الآن ما يدل على أنهم سيقدمون خطوة واحدة

ووعدتنى فضلاً عن ذلك بأن يقدم لمرورى هدية هي عقد من الذهب الروسى وبأن يبرنى جواده لأركبه فى يوم الزفاف ولم يكتف بمحدثه من بل حادث أهل المروس فى هذا الموضوع فأقنعهم بتعجيل الزواج وتحديد يومه بواسطته . ولقد كان اهتمامه الشخصى بإتمام هذا الأمر يكاد يثير ريبى ويحمل على الغيرة منه لولا أنه كان قبيح الوجه إلى درجة عظيمة فلا خوف من أن تميل مرىم إليه لأنه خير لها أن تحب قرداً بدلاً من أن تحب ضابطاً كهذا

الأرمنية . ولكن قليلاً من التفكير حملنى على المدول عن هذا الخاطر وقلت إن حماية الله وسيوفنا خير من حماية السردار وجنوده

وعدت أنا وأمى من نفس الطريق الذى ذهبنا منه ولكننا كنا أبطأ فى السير لعدم الحاجة إلى السرعة ولأننى كنت أحمل عبئاً ثقيلاً من الثياب . ولم يحدث لنا أى حادث يستحق الذكر حتى وصلنا إلى مرتفعات جافيشلو فرأت أمى خيمة فأشارت إليها وسألتنى عنها ولم أكن إذ ذاك أفكر فى أى شيء غير المرس ومعداته فكان جوابى لها : « لعل أهل المروس سيقيمون لنا مأدبة فى هذا المكان »

قالت : « ما هذا القول يا يوسف ؟ هل جنت ؟ يظهر أن الروسيين قد احتلوا قريتنا » فلم أجبها ولما وصلنا إلى القرية وجدت ظنها كان صائباً فان فرقة صغيرة من الجنود الروسية قد احتلتها وألزمت كل أسرة فى المدينة أن تقدم الطعام لواحد من الجنود . ولما كانت أسرتنا أسرة الرئيس فقد كان ضيفنا هو قائد الفرقة ؛ ولقد كان من سوء حظى حدوث ذلك فى وقت المرس ، وقد شكوت أمرى إلى بعض أصحابى فى جوكلى التى لم يكن الروسيون قد احتلوها ولكن أهلها شاركونا خوفنا لما علموا بما حدث عندنا

وقابلت مرىم بالرغم من أن عوائدنا لم تكن تسمح بالتحدث معها فى الفترة ما بين الخطبة والزفاف ، ولكن الحب يغلب كل عادة ويتغلب على كل المصاعب قابلتها وتحادثت معها مراراً وكنت على وشك الجنون من حدوث هذه الحوادث التى من شأنها تأخير زواجنا . وكانت القرائن كلها تدل على قرب حدوث نكبة عظيمة لأن الجيشين المتحاررين كانا

أصحابي من الأرمن والضابط الروسي، وكانت الموسيقى أمامنا تعزف بألحانها الجميلة . ولما وصلنا إلى منزل المروس أدبرت علينا الرطبات ووفد علينا أهل القرية جميعاً لتهنئتنا

ولما حان وقت عودتنا مع المروس إلى قرية أبي ألبست المروس ثياباً حمراء من مفرق الرأس إلى القدم . وأركبت جواد أبيها وسار حولها إخوتها وأعمامها ووضعوا في يدها طرفاً من حبل أمسكت أنا بطرفه الآخر وأنا على جوادى وفقاً للمادة حتى وصلنا إلى الكنيسة

وصحب الوكب كل من له علاقة به من قريب أو صهر أو صديق وكان بعضهم مشاة والبعض على ظهور الخيل وكانوا يهتفون ساعة ويغنون ساعة وكان عمى يقود هذا الوكب . ولما وصلنا إلى القرية وجدنا فرقة من الجنود الروسية في انتظارنا كما أمرها الضابط التولى قيادتها وهو صديق الذي رافقني في الوكب ومشت أمامنا هذه الفرقة إلى الكنيسة فزادت موكبنا جلالاً وهيبه .

وكنيت والمروس لانزال ممسكين بطرف الخيل حتى بعد أن ترجلنا عن الجوادين . وأتى علينا الأصدقاء الزهور والورد .

ثم ، وقفت أمام مريم ووضعت يدها في يدي وفتحت الكتاب المقدس فجعل بين رأسي ورأسها ثم جاء القسيس وسألها وسألني هل يريد كل منا أن يتزوج من الآخر، فأجبنا إجابة القبول ثم أخذ القسيس يرتل وأقيمت صلاة العرس .

ولما انتهت هذه الصلاة علا الهتاف والانشاد ودقت الطبول وصدحت الموسيقى . وكان ضوء النهار في هذه الساعة قد تلاشى وبدأت العاصفة

وذا وجه كبير المظام وحجرتين عظيمتين في مكان عينيه ، كبير الأنف أفناه ، هيئة وجهه كهيئة البومة ، وكانت شفته العليا غليظة وفكه الأسفل صغيراً وذقنه رفيعة محدبة

قلت في نفسي : « حال أن تحب مريم مثل هذا الوجه وهي أشبه بأن تحب عملاقاً فارسياً من حبها مثل هذا الروسي

ثم وازنت بينهما وبين نفسي فأرضيت غروري بأن قلت إنني أجمل منهما وإنها لن تحب غيري

قبل الزفاف بليلة أرسلت الثياب وغيرها من الهدايا إلى قرية المروس في موكب يتقدمه الموسيقون وهم يكترون في كل مدينة وكل قرية ، وقد أعارنا الضابط الروسي طيلة من طبول الجيش زيادة في إكرامنا

وبعد إرسال الهدية بساعات قليلة ذهبت إلى تلك القرية لكي آخذ الهدية التي تهديها المروس وفقاً لموائدنا

وكانت هديتها لي مسدسين مصنوعين في الفوزاق وقد كانا مملوكين من قبل لأحد أعمامها وهو ضابط في جيش الوالي الفارسي لتلك الولاية قبل أن يستولي عليها الروس

وفي اليوم التالي وهو الذي كنت أعده أسعد أيام حياتي وكننت أنتظره بصبر نافذ استيقظ كل أقاربي مبكرين . وكان الجو بنذر بهبوب عاصفة والسماء ملبدة بالغيوم ، ولكن الهواء كان معتدلاً نقياً لأن الطر الذي هطل في الليلة السالفة نقاه وطهره .

وأرسل إلى صاحبي الضابط جواده في ذلك اليوم وابست ثيابي الجديدة وتحليت بكل ما أملك من الخناجر والسندات وعلب الخرطوش وسار معي

وسمنا أصواتاً عنيفة وخبيجا فحسبنا ذلك من هزيم الرعد . ولكننا عرفنا بعد قليل أنها أصوات آدمية وسمنا وقع حوافر الخيل نعدو في الطريق . وكانت الكوة مسدودة سداً محكمًا خوفاً من المطر ولم أجسر على فتحها خوفاً من تسرب الماء إلى الغرف ولكن سرعان ما سمنا وقوع شيء ثقیل فوق سقف الغرفة ووجدنا جانباً منه يسقط بجانب الفراش ورأينا نور السماء يتخلل الغرفة فصحت بزوجتي: إن هذه ساعة. وأصرتها بالفرار من الغرفة لتنجو ، ولكن قبل انقضاء لحظة واحدة حدث انفجار في الغرفة فذهلت وحسبت أنني نقلت إلى الجحيم ووقمت على الأرض في حالة إغماء ، وكل الذي أذكره عن تلك اللحظة أنني رأيت نوراً يتفجر وشممت رائحة كبريتية ثم ساد سكوت عميق لا أعرف كم انقضى وأنا غائب عن الحس؛ ولما عاد إلى الشعور عاد بالتدريج . ولما تذهت وجدت أنني لم أصب بجرح أو كسر وراجعت ذاكرتي في الحوادث الغريبة فذكرت زواجي كأنه حلم رأيت في النوم أو قصة سمعتها ، وأصغيت فسمعت حركة عظيمة اختلط فيها الأنين بأصوات الفرقعات وصليل السلاح بالأصوات التي تحدث من تهدم المنازل . ولم أزل أحسب نفسي في عالم آخر حتى ذكرني بالحقيقة صوت امرأة تصرخ وكان هذا الصوت هو صوت مريم وقت لأري مصدر الصوت فوجدت تراباً كثيراً وقطعاً صغيرة من الأحجار ملقاة فوق جسمي فنفضتها وقت فرأيت في الطريق منظرًا لا أستطيع وصفه لموه

وجدت رجلاً فارسياً يجري وفي يمينه سيف مجرد مخضب بالدم وفي يساره رأس مقطوعة ، وكان

التي كانت منذ الصباح تنذر بالهبوب فتساقطت الأمطار الغزيرة وهبت الرياح الموحاء وأرعد الرعد وأبرق البرق ، ومن أجل ذلك انتهت سريعاً الحفلة التي أقامها أبي للضيوف . وبعد انصرافهم قابلت المروس فكنت بهذه المقابلة أسمع إنسان في الوجود لست أعرف هل يجب أن أقف عند هذا الحد من قصتي المزججة الرهيبة أم تريد أن تسمع ما حل بنا بعد ذلك من النكبات .

أريد قبل كل شيء أن تعلم أن عروسي كانت جميلة مشرقة مثل كوكب الصبح طاهرة، بريئة مثل الملائكة ، وكانت تحبني أخلص حب وأتقاً وأظنك تقدر موقفي في هذه الساعة بعد إذ علمت أنني كنت شديد القلق من تأخر يوم الزواج ، وبعد إذ علمت مقدار حبي لها ورغبتني في الزواج منها ، وبعد اعتباري هذه الليلة أسمع ليلة في الحياة

ولكي تفهم حقيقة الحال يجب أن تعرف أولاً أن البيوت في القوزاق وفي هذا الجزء من البلاد الأرمنية يحمل جزء منها تحت الأرض لأنه ينحت في بطنها نحتاً بحيث أن السائرين في الطرقات يعرفون أن تحت الطبقة الأرضية التي يمشون فوقها غروفاً من البيوت القائمة على الجانبين . وفي هذه الغرف يقيم أهل تلك البيوت . وكانت غرفتي في بيت أبي إحدى تلك الغرف الأرضية وبها كوة على الطريق تصلح باباً وتقوم مقام النافذة .

وكان من عادات الأرمنين أن يدخل الزوج غرفته قبل عروسه وتتولى المروس نزع حذاءيه وجوريه ثم تطفى النور قبل أن تنزع ثيابها وفي هذه اللحظة كانت الرعود تهزم في السماء وتحدث أصواتاً عنيفة مزججة ، وكان الشتاء يتدفق.

من الافتراضات التي أعلل نفسي بها غير أنني قد جنت
وعند ذلك فاضت من عيني الدموع التي كانت
لا تزال محبوسة ، وقمت أمشي على مهل نحو المنزل
ورأيت الفلاحين في أثناء الطريق مجتمعين ذراعات
وهم يتحدثون همسا عما جرى بالأمس والخوف
يكاد يقضى عليهم جميعا . وكان كل منهم ينتظر أن
تحل به نكبة من النكبات

أما أنا فلم أكن أنتظر شيئا منها لاعتقادي أنه
لم تبق في الدنيا نكبة لم تحل بي وأنني لم أجد أحدا
من أهلي باقيا على قيد الحياة فلا زوجة لي ولا أب
ولا أم ولا إخوة ولا قريب أو صاحب ، وأن المنزل
الذي أسير نحوه قد أصبح أنقاضا مهدهمة . لكن
خيالي كان متغاليا في تصوير الواقع فاني لم أكد أقرب
من المنزل حتى رأيت أي مقبرة نحوي وعانقتني
وقبلتني وهي تبكي

ثم لما هدأ روعها وروعي أخبرني أن ابن أصيب
في جسمه ورأسه بجراح من انفجار المفرقات وأن
منزلنا قد هدم بمضه خصوصا غرفة الدروس فانه
لم يبق بها شيء وأن الضابط الروسي الذي كان ضيفا
لدينا قد خرج عند ما حدث الانفجار الأول
فاختطفه جنديان فارسيان وأن أهل منزلنا فيما عدا
ذلك لم يصابوا بسوء

قالت ذلك ثم أدخلتني المنزل فقدمت لي ثوبا
من ثياب أبي . وبعد أن عدت أبي عزمت على أن
أبدأ في الحال بالبحث عن زوجتي واقتنمت بأن بعض
الجنود الذين هاجموا المدينة قد اختطفوها وأنها لا بد
أن تكون الآن في مدينة أربفان لأنها أقرب سوق
للربيق وأخذت سيفي ومسدساتي وبتدقيق
ووضعت في جيبتي بعض النقود الفضية وودعت

ينير الظلام بين لحظة ولحظة وميض البرق وتمكنت
بواسطته من رؤية ما يجري في الطريق من مطاردة
الجنود الفارسية لجنود الروس ومن كان يؤويهم
من الأرمن

ولم أعرف كيف ولا أين أبحث عن زوجتي
وكنت لا أزال أسمع بكاءها، وعمرت جسمي رعشة
لا خفت أن يكون أنيها هو أنين الاحتضار، وبالرغم
من أنني كنت في ثياب النوم فقد خرجت إلى
الطريق بحالة أشبه بحالات المجانين فرأيت على وميض
البرق فارسين يجريان ومعهما امرأة فتبعتهما ركضا
لأنني لم أكن أبالي بشيء غير زوجتي

ولما كان اتجاهاهما ساعة رأيتهما نحو الجبل فقد
سرت في هذا الاتجاه وأنا لا أراهما ؛ وكنت حافيا
والأرض كثيرة الأحجار والصخور . وكنت عاريا
والبرد شديد والمطر ينهمل ؛ وكنت متعب الجسم من
شدة الدهر ، ولكنني لم أزل أجرى على غير هدى
حتى رأيت نفسي على قمة الجبل ، ثم أدركني الكلال
واشتدت الجراح فلم أعد أستطيع الاستمرار في
الجرى الذي رأيته غير مجد ، فجلست باكية منتحبا ولم
أفك حتى سمعت في الصباح تغريد المصافير وفتحت
عيني فرأيت الشمس مسفرة

وقلت في نفسي : « أين أنا ؟ ومن الذي جاء
بي إلى هذا المكان ؟ »

وكان الجو في ذلك اليوم جميلا ، وليس بالساء
ما يدل على عاصفة الأمس ، فلم أستطع تعليل الحالة
التي كنت فيها إلا بأنها حلم من أحلام الشيطان
لكن إذا كان كل ما رأيته حلما فإني زوجتي
المحبوبة ؟ هل هي لا تزال بالمنزل وهل تركتها فيه
وجئت إلى الجبل حافيا بثياب النوم ؟ إذن فلم يبق

وأنا لا أعلم شيئاً عن مريم ولكنني كنت أعتقد أنها في قصره هناك وكان ذلك القصر مبنياً على صخرة عظيمة تحتها هاوية تفصل بين ذلك القصر وبين مجرى النهر

وكان على هذا النهر جسر وهذا الجسر هو الذي يصل البلاد التركية على أحد الشاطئين بمرجان على الشاطئ الآخر

وكان القسم المخصص للسيدات في هذا القصر مطلاً على النهر وهو مميز عن غيره بما على نوافذه من الحواجز؛ وكنت لا أشك أن مريم موجودة وراء تلك النوافذ فوقفت على الجسر أنتظر أن تطل فأراها. وكنت أقول في نفسي: «ماذا أستفيد إن أطلت على؟ إنني لا أزداد بذلك إلا يأساً وحسرة» وكان مما يشبه المستحيل أن تنجو من هذا السجن أو تبقى على قيد الحياة إذا ألقت بنفسها من إحدى النوافذ المطلة على الهاوية سوى أن تحت نافذة واحدة من تلك النوافذ شجرة يمكن أن تكون وسيلة للفرار ظلت في مكاني أنظر إلى النوافذ وأطبل التفكير والتأمل وكنت أخشى أن يراني أحد فتقع على شبهة فشيت على أن أعود عند انتهاء النهار

استمرت مراقبتي للنوافذ أسبوعين كاملين ، وفي آخر يوم من هذه المدة رأيت نافذة مفتوحة ، وقد رفع الحاجز الذي عليها ورأيت امرأة تطل منها فاشتبهت في أنها هي وانقطعت أنفاسي حتى ظهر لي أن التي تطل من النافذة قد عرفتني ودنوت من المنزل فإذا هي مريم ، وكنت إذ ذاك بالشاطئ الآخر . ولما مدت يديها نحوي لم أفكر في المواقب بل ألقيت بنفسي في النهر وسبحت إلى الشاطئ

قريباً منذراً ألا أعود إليها حتى أجد زوجتي وسافرت بخطى سريعة إلى أريغان سالكا إليها أقصر طريق . وفي أثناء الطريق وجدت فارسين فاستوقفاني وسألاني عن غابتي فلم أتردد في إخبارها بالحقيقة عليهما يساعداني على البحث عن زوجتي وقد عرضا على هذه المساعدة ولكن بأخشن لحجة مما دعاني إلى الشك والريبة

وكانا لقسوتهما يضحكان من حزني ويسخران من شدة اهتمامي وأفهماني أنها إن كانت الآن في منزل السردار بين الجوارى التي أسرن فإن كل جهد أبذله سيذهب سدى

حدث الله إذ سمع لي هذان الشريدان بالذهاب وحدي فذهبت وكلّي أمل في الله الذي ابتلاني بهذه النكبة أن يجد لي مخرجاً منها أو يلهم قلبي صبراً وسلواً

ولما اقتربت من المسكر الذي كنت قد رأيت أثناء ذهابي مع أمي إلى أريغان علمت أن السردار كان لا يزال في هذا المسكر وأنه أرسل رؤوس الروسين الذين قتلوا في قريتنا إلى الشاه لأن جلالته لا يقتنع بنصر جنوده إلا إذا رأى هذا الدليل المادي وعلمت أن في المسكر حركة تدل على شدة السرور بما فعلوه في قريتنا كأنما كانوا يظنون أنه ختام للحرب أو أن هجومهم في الليل على قرية صغيرة يمد موقعة حاسمة . ولكن سرعان ما تغيرت الحال فإن هذا المسكر المنتشى بنشوة السرور قد أعد المدة للتفكير وجلا عن موقعه في أقل من ساعتين حيث ظهر الجيش الروسي من جهة الحدود رحل السردار بجيشه إلى أريغان وتبعته إليها

الذهاب بها إلى قريتي ولكنني عدت فذكرت أنه لا بد لنا من عبور النهر أو الانتظار إلى الغد حيث يعاد الجسر الذي يرفع في المساء عادة لتمر السفن . لكنه ما كان في وسعنا الانتظار حيث كنا . وكذلك رأيت أن تقضى الليل في أنقاض الكنيسة الأرمنية وهناك أقنأنا حتى جئت ووجدتنا . ولقد كان أملى كبيراً في عطفك ولست أستطيع وصفك بعد الذي وجدته من رأفتك إلا بأنك حامينا ومنقذنا فشكراً لك من القلوب النعسة التي تنتظر عودتنا . ومهما كانت مهمتك والفرص الذي جئت من أجله فانك كبير الرجولة وسندعو لك بالرغم من كوننا على غير دينك دعوة يستجيبها الله الذي يثيب على عمل الخير

عبد اللطيف النشار

« يتبع »

الذي هي فيه ووقفت على حافة الهاوية تحت النافذة التي تطل منها زوجتي المحبوبة

وتكرر مدها ذراعها نحوي كأنما كانت تهم بأن تلقى بنفسها من النافذة فأشرت إليها بالأفعال وكدت أرفع صوتي بتنبيهها إلى ذلك خوفاً عليها

وكان كلانا ينظر إلى الآخر نظرة شوق وقد منعنا الخوف أن نتكلم وأن نمرب عما يجيش في صدورنا من الشوق

وأخيراً رأيتها على حين فجأة ترفع بقية الحاجز وتفتح المصراع الآخر من النافذة فبقيت في مكاني أنتظر النهاية ثم رأيتها تلقى بنفسها من النافذة فبهت ولم تقو رجلاي على حملي وشردت نظراتي ودارت عيناى في وجهي ثم رأيت جسمها معلقاً على الشجرة التي تحت هذه النافذة فصعدت على الشجرة مدفوعاً بدافع الغريزة لأنه لم يكن لدى مجال للتفكير . ولو أن حيواناً في مكاني لما فعل غير ما فعلت ، وبذلك أنقذت أعز مخلوق لدى

ولما أزلتها عن الشجرة جلست وإياها على جانب حائط مهدم ، وكان كلانا مسلوب القوة ولكنها كانت مشخنة بالجراح من أثر الصدمة التي اصطدمتها بفروع الشجرة . وبالرغم من أنه لم ينكسر شيء من عظامها فقد كانت جراحها بالغة لأن بعض فروع الشجرة قد شق ثيابها وجلدها في مواضع متعددة وأضعفها ما نزف من دمها ضعفاً شديداً وكانت مفقودة الرشد من الخوف والاعياء

وأخيراً أفاقت ونادت باسمي فكدت في هذه اللحظة أن أجن من الفرح وعانقتها وقت أريد

مجموعات الرسائل

نباع مجموعات الرسائل مجلدة بالاشهاد الآتية

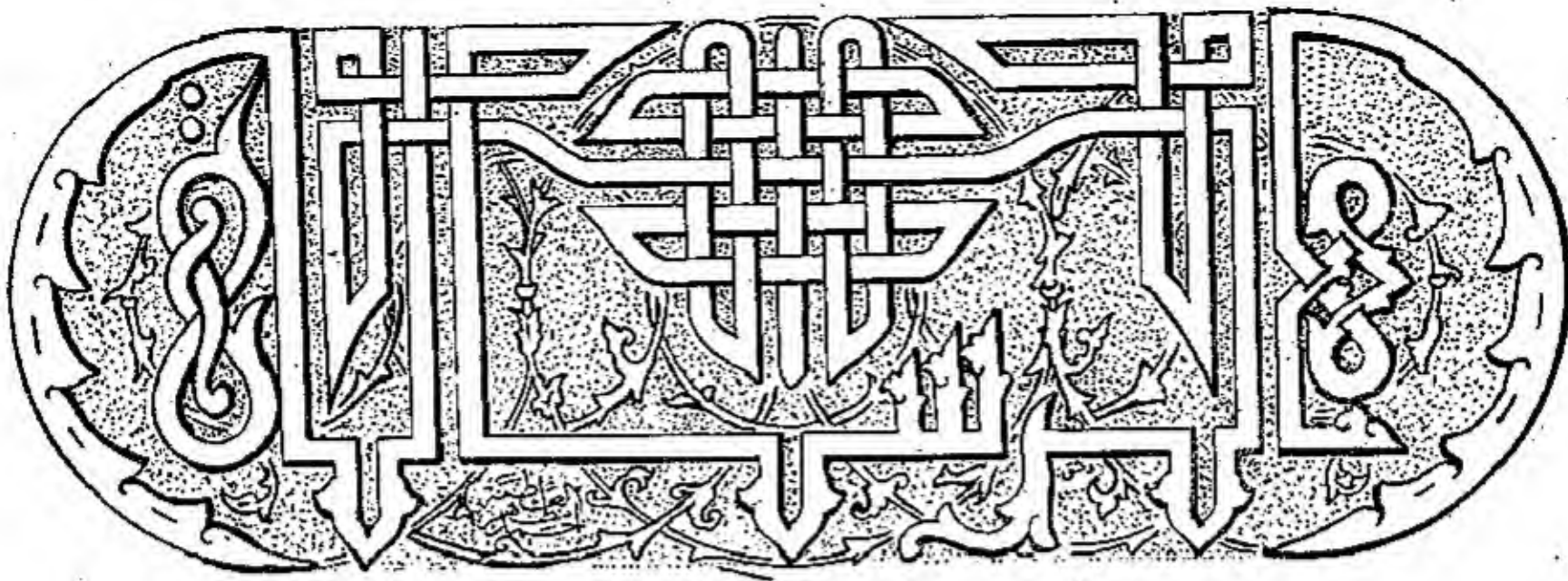
٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد

طُبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبروكى - عابدين

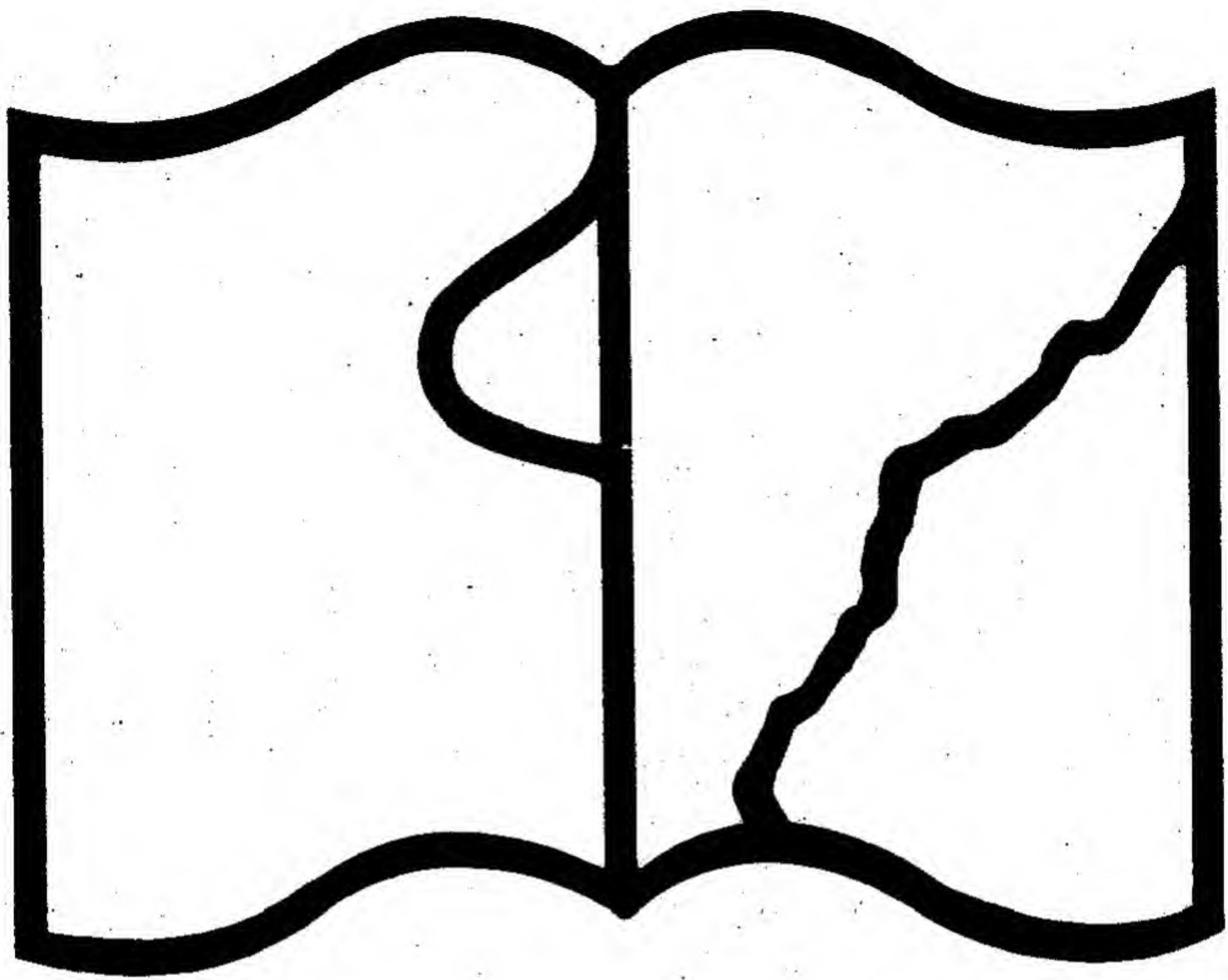


مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالْثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصِّدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

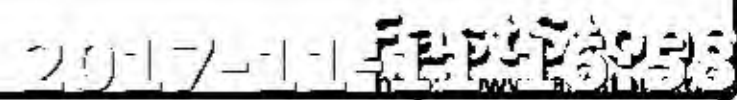
مَجْلُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُّ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الدُّسْتُرَانِ الْأَخْفَى سِتْرُونَ قَرْنًا ، وَالْخَارِجِيُّ مَا بَسَادَى جَنِينًا مِصْرِيًّا ، وَلِلْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِخَصْمِ ٢٠٪



Texte détérioré — reliure défectueuse

NF Z 43-120-11



صاحب المجلة ومديرها:
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
طابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

المروية

مجلة أسبوعية للفقه والدين

تصدر مؤقثاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١٢ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ - أول فبراير سنة ١٩٣٩

العدد ٤٩

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة		
٥٨	صوفية جديدة	أقصصة مصرية
٦٩	النافذة المفتوحة	عن الانجليزية
٧٢	الأراجوز الحزن	أقصصة مصرية
٧٩	غزوة الجزائر البريطانية	للكاتب الانجليزي آرثر كونان دويل
٨٥	الأب الشاكل	أقصصة مصرية
٩٢	مذ هبط من سمائه	أقصصة مصرية
٩٧	حاجى بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي « جيمز مور »
		بقلم الأستاذ دريني خشبة
		بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار
		بقلم الأديب نجيب محفوظ
		بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة
		بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد
		بقلم الأديب محمد طه الحماجرى
		بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

— لست أفهم ! جمال
الظاهر كأي شيء ؟
— كالسحر الذي ملأ به
عيونهن ، وجمرة الورد التي
موت بها خدودهن
— وكأي شيء أيضاً ؟
— القوام الرشيق !
— وماذا أيضاً ؟

صوفية جليلة

أقصوصة قصيرة
بقلم الأستاذ دريخ خشبة

— والسيفان الخديجة والأذرع التي تكاد
تتمقد من لين وطراوة ؟
— ثم ماذا يا شيخ عبد القوي ؟
— أسكت لحالك الله ... وماذا بعد هذا ؟
— بعد هذا ما بعده يا شيخ عبد القوي ...
أيها الصديق الصوفي !
— معاذ الله أن أكون قد ضللت !
— أنت . ومن زعم لك أنك ضللت ؟
— حسبك ظننت هذا !
— كلا أيها الصديق ... لكنني أطمع في أن
تكلمني بأصرح مما فعلت ... أفي الحق أن الله
قد خلق أكثر جمال الظاهر كما تزعمون فتنة لعباده
المتقين !

— أنا أعتقد هذا
— إذن أنتم تؤمنون أن الله يريد للفتنة ؟
— معاذ الله أن يريد شراً بالمباد !
— أليس قد خلق أكثر جمال الظاهر فتنة لنا ؟
— هو بلاء فحسب !
— إذن نحن نخيرون
— الله خلقنا وما نصنع ؟
— من خير أو شر !

— آه يا صديق الشيخ عبد القوي لو رأيتهم
مرة واحدة ! مرة واحدة يا صديق الشيخ
عبد القوي ثم تنسى هذه الصوفية وذاك التقشف !
— ذاك لأنني إن فعلت ألقى بزمامي للشياطين
أمثالك !

— أتستطيع أن تحمدس لم خلق الله النساء ؟
— خلقهن لعمار هذه الدنيا يا صالح !
— ولم خلقهن جميلات رائعات فاتنات ؟
— ليلو عباده ، فمن سلم منهم سلم في دينه
ودنياه ، ومن أغويته خسر الدنيا والآخرة
— إذن أنتم يا معاشرة المتصوفة تزعمون أن الله
خلق الجمال للنواية !

— ليس الجمال كله ... أرجوك !
— جمال النساء فحسب !
— وليس جمال النساء كله !
— جزء من جمالهن فقط ؟
— هو ذاك
— وهذا الجزء ، أأكثر الجمال هو أم أقله ؟
— أأكثر جمال للظاهر
— جمال الظاهر ؟
— أجل ...

- قل كل من عند الله !
- هذا هو الذى لا تفهمونه من كلام الله ...
- لترك هذا ... وجمال الباطن ، ماذا تقصدون به ؟
- جمال الروح
- وكيف تكون الروح جميلة ؟
- الروح التى تفزع من الأثم
- هذا هو الجانب السلبي ...
- وتصدر عنها المكرمات
- أحسنت ! والروح التى تفزع من الأثم ،
- هل تحسبونها تفزع من جمال المرأة ؟
- قل جمالها الظاهر أرجوك ! أجل ، إنها
- تفزع من هذا الجمال الخبيث فزعاً شديداً
- ألا تتفق معي أن مثل هذه الروح تكون
- روحاً شريرة ناقصة ؟
- ولماذا تكون كذلك ؟
- لأنها كلما رأت جمال المرأة الظاهر نفرت
- وقرنته بالشر ؟ ولو أنها قرنته بالخير ، ومجدت الله
- الذى خلقه ، لكان خيراً لها وأكثر إيماناً بالله !
- ... ؟ ...
- أراك لا تستطيع أن تتكلم ، وأنت تريد
- أن تفعل ؟ !
- ولماذا هذا الحوار الطويل عن المرأة ،
- ألا يوجد في الدنيا غيرها ؟
- بل يوجد غيرها كثير ... فيم تريدني
- أن أناقشك ؟
- أنا لم أعترض على مخلوقات الله مثلك ،
- فتكلم أنت !
- وهل حسبتني اعترضت على مخلوقات الله
- يا صديق ؟
- وهل تريد أن تنكر ذلك ؟
- إنى أنكره لأنى لم أفعله !
- ألم تعترض على الصوفية والتصوفية ؟
- لقد سألتك عن أشياء فلم تستطع أن تقرر
- حجتي ، أفيمكن ذلك اعتراضاً مني ؟
- إننا يا صديق قد طلقنا هذه الدنيا ثلاثاً ،
- ونحن أحرار نصنع ما نشاء
- وكيف تطلقونها وقد اعترفت أن الله أراد
- عمارها ؟
- أنا اعترفت بهذا !
- ألم تعترف ؟
- أبداً ، أبداً ...
- إذن يريد الله خراب الدنيا !
- أليست الساعة ستقوم ؟
- سوف تقوم ما في ذلك ريب !
- أليس في قيامها خراب الدنيا ؟
- إنها تكون قد انتهت إلى الأجل الذى
- أجلها الله إليه ، وإلى أن يجيء سوف تظل عامرة
- جميلة ناضرة !
- آه من عمارها وجمالها ونضرتها !
- وما عليك من ذلك يا عبد القوى ؟
- طوبى لمن يخلق عنه بردها الزائف يا صالح !
- وكيف يخلق بردها ولماذا ؟
- إنها دار القرور يا أخى !
- أنا أسألك كيف يخلق الرء بردها ولماذا
- يخلعه ؟
- تخلعه هكذا ... إليس كما إليس أنا ...
- ذاك للصوف الحشن وتلك للنمل المخصومة ، وهذا
- الطروش الذى ليس له زر ... و...

— ما ضر الدنيا من عبادة الأصنام !

انصرف صالح لشأنه ، وأقام عبد القوى ،
أو الشيخ عبد القوى زعيم متصوفة القرية ، يفكر
في هذا الحديث الطويل الذي جرى بينه وبين صديقه
عن ظاهر الجبال وباطنه ، وعن المرأة من وجهة
نظر المتصوفة ، وعن الدنيا ... والتكشف ...
والشعر المرسل والملبس الخشن ... والنمل
المخصوصة ... ثم هذه المكحلة وتلك المذبة التي
هي فضل مندبل الهامة ...

ولكنه كان يمود من كل أفكاره إلى التفكير
في المرأة ، فما كانت أفكاره فيأعدها إلا كما يخطف البرق
لقد نمي عليه صالح أن المتصوفة يمدون المرأة
عدوم الأكبر لأنهم يزعمون أن الشياطين تتخذ
من مفاتها سموماً تصيد فرائسها ... وصالح يقول
إن هذا زعم خاطئ ، لأنه يقرن جمال المرأة بالشر ،
ولو قرنوه بالخير لكان أصلح لأرواح الناس ،
ولقربت الدنيا أن تكون جنة ، ولهربت الأبالسة
من حياتنا ...

فكرة طيبة ، وهي أقرب إلى حكمة الله من
هذا النظر الأسود إلى أحسن مخلوقاته التي اختصها
بالجمال ، واستودعها الرقة والمذوبة والطلاوة والسحر
ووقر في قلب الشيخ أنه لم يستطع أن يدفع
حجة صديقه صالح في فساد رأي المتصوفة في المرأة ..
وكان مجزه ذاك أول إحساسه الخفي بالهزيمة ، وقد
رأى بعيني تصويره كيف أخذت هذه القصور المجيبة
التي شادها الوم في وجدانه الصوفي تنهار وتنقض
وتتحطم وتصير ركاما

— وماذا أيضا يا عبد القوى ؟

— وترسل لحينك وشمر رأسك حتى تكون لك

وفرة ولة وذوائب

— ثم ماذا ؟

— وتكون لك سبعة كبيرة ومكحلة

— ولماذا المكحلة ؟

— لا تكون صوفيا إلا بها !

— لقد جمعت المكحلة للنجمل والزينة ، أليس

كذلك يا صديقي الشيخ ؟

— كلا ... كلا ... إنها تقاليد يا صالح !

— لا ... لا بد أن تفسر لي اتخذكم المكحلة

وتشبهكم بها !

— وهل ذلك في استطاعة أحد ؟

— ليس في استطاعة أحد أن يفسر

اتخذكم المكحلة ؟

— هذا محال يا صديقي !

— ولماذا يكون محالا ؟

— مثل المكحلة مثل هذه المذبة التي ترى !

— لقد كدت أسألك عن أمر هذه المذبة

لماذا ترسلونها على أقفيتكم هكذا ؟

— هي أيضا من تقاليدنا معاشر المتصوفة

— ما أحسبها إلا من بقايا الوثنية التي تندس

في طبائع الناس دون أن يشعروا ...

— وثنية ! نحن لسنا وثنيين يا صديقي !

— ومن قال إنكم وثنيون يا عبد القوى !

— وما بقايا الوثنية التي اندست في طبائعنا إذن ؟

— هذه المكحلة التي تأخذون بها أنفسكم

وتلك المذبة ، والنمل المخصوصة

— وماذا ضرك من ذاك ؟

— حل من حديثه في قلبي أنه يعيرني بأننا
معاشر المتصوفة نقرن نظرنا إلى ما ظهر من جمال
المرأة بالشر ، ولو أننا قرنا هذه النظرة بالخير لكان
خيراً لأرواحنا ، واطردنا الأبالسة من حياتنا وبذلك
تصبح الدنيا جنتنا الأولى ...

— كلام جميل ، بيد أنه مُخَلَب ... أو ...
ممسول !

— أما إنه جميل فهذا رأيي فيه ... ولست أدري
كيف يكون خلباً

— إن الذي قال صالح هو ما تقول يا أخي
— نحن تقول بالذي يقول به صالح أيها الشيخ
— هو هو !

— هذا عجيب !

— وما عجيبه ؟

— وأي خير نقرن به جمال المرأة ؟ ألم تخلق
عدة للشيطان ؟

— معاذ الله أن يكون ذلك ؟

— إنك تحيرني يا سيدي الشيخ !

— وكيف ؟

— أليس أول ما يأخذ به الصوفي نفسه هو

الحذر من المرأة ومن الدنيا ؟

— هذا حق !

— إذن فلم نغقت ما ظهر من جمال المرأة ؟

— نحن لا نغقت جمالها ما ظهر منه وما بطن !

— يا سيدي وأنت مع ذاك كبير من مشايخ

الصوفية ؟ !

— بل أنا أكبر مشايخها قاطبة ! ! اسمع

يا عبد القوى ، إننا معاشر المتصوفة نجب الجمال

ونهم به ونفنى فيه ، وجمال المرأة هو أبرز صورة من

ولقي بعد ذلك شيخاً من أجل مشايخ الطرق
فما عثم أن أثار المسئلة بمخادفها ... وكان قد نسي
الوقار الذي لم يكن منه بد في تناول هذه المسائل ،
والتي يزعم المتصوفة أن الخوض فيها كالخوض في
حديث القضاء والقدر ، لا بد فيه من الاحتراز
والاحتباس إن لم يفضل فيه التسليم كل التسليم

ولحظ الشيخ الجليل في محادثة هذا التبذل الذي
يخرج بالصوفي عن أصول المذهب ، فشده أول
الأمر ... ثم علم أنه الشيطان قاتله الله قد استطاع
أن ينفذ إلى قلبه ، وأن يسيل من هناك على لسانه ،
فقال له :

— أي حبيبي عبد القوى ، ماذا دهاك ؟ إنك
تتحدث بما لم نعهده فيك !

— عمرك الله مادهاني شيء ... إنما هو حديث
جري بيني وبين صديقي صالح ، لم أستطع أن أرد
عليه شيئاً مما قال

— لا بد أنه كلمك في المرأة وفي الدنيا وفي الذي
نحاربهما به من الجفوة والتقصيف !

— أوه ! ... لقد حصل كل هذا ، فهل حدثك
مثل ذاك الحديث ؟

— كلا ولكن فهمت ذلك من سياق حديثك
— وماذا ترى إذن في الذي حدث ؟

— أرى أنه حق يؤدي إلى باطل

— حق يؤدي إلى باطل ؟

— أجل يا أخي !

— وكيف أيها السيد ؟

— أتسألني كيف ؟

— إي والله إنني أسألك

— قل لي أولاً ماذا حل من حديثه في قلبك !

- جمال الدنيا ... لكن نظرتنا إلى جمالها غير نظرة
سوانا من الناس ... إن الناس ينظرون إلى المرأة
بين تنقذ شهوة وفسوقاً ، أما نحن فننظر إليها
لنمجد الله وتقديس أسمائه . ونحن حين نخشى المرأة
لا نخشاهم لأنها عدوة لنا ، بل نخشى أن نفتن
ونزل ونقع في حبال الشيطان الذي أقسم ربنا أن
يقدم لعباده طريقهم المستقيم . . . فنحن نستعبد
بالله من الشيطان إذا وقع بعصرنا على المرأة ، ليس
لأنها عدوة لنا ولكن لأن الشيطان هو عدو لنا ...
ونحن نظلم المرأة كما نظلم الدنيا التي غلبها بالفساد
والعاصي ، ولو عقل بنو آدم للأوها بالطاعات
والخيرات فتكون جنتهم الأولى كما زعم لك صديقك
صالح ... ولكن ...
- ولكن ماذا يا سيدي الشيخ !
— ولكن ... لي معك كلمة بعد الذي قلته لك !
— تفضل !
— أستطيع يا عبد القوي إذا أنت نظرت إلى
المرأة — غير عاق طبعاً — أن تجعل نظرتك للخير
لا للشر ؟
— وكيف لا أستطيع ؟
— هذا ما أشك فيه !
— وهل تستطيع أنت يا شيخنا الجليل !
— أنا دائماً أجاهد نفسي
— ولماذا لا أجاهد نفسي أنا أيضاً ؟
— هنا تتفاوت نفوس الصالحين ... ولذلك
قلت لك إن كلمة صالح حق يؤدي إلى باطل يا صديقي !
— وكيف أيها الشيخ ؟
— لأننا لا نستطيع دائماً أن نقرن نظرنا
إلى المرأة بالخير ... هذه مرتبة الملائكة التي أعيت
أكثر البشر
- لذلك ...
— لذلك ينبغي أن نحارب في نفوسنا الهيام
بالمرأة ...
— ولذلك ...
— ولذلك أرسلنا شعورنا وأعفينا لحانا وآثرنا
لبوس الصوف الخشن والنمل المخصوفة والهندام
الجاني ...
— ليتك جادلت صالحاً ... ليتك جادلت صالحاً

لم يمد عبد القوي هذا الرجل المتصوف المتكشف
الزاهد بعد ... لقد تبدلت حاله ، وصار كلما تذكر
المكحلة والنمل المخصوفة والسبعة والوفرة والدواب
يلعن هذه الأيام التي حرم نفسه فيها من مباحج الحياة
لقد شك أول الأمر في قيمة هذه الأسلحة
التي يتخذها المتصوفة ليظهروا في ذلك المظهر الخشن
الجاني بحجة أن هذه أحسن وسيلة لاذلال النفس
وقهر الشيطان ... وعجب لماذا لا تكون الأثافة
والمظهر المحتشم والنظافة معواناً للمرء على ضبط
النفس واكتمال أدبها ...
— لا ... لن تكون لي هذه اللحية الكثية ،
ولا ذاك المظهر الزري ... لتذهب المكحلة والسبعة
إلى الشيطان ... لماذا أعد صلواتي وتسبيحاتي ؟
أأفعل ذلك لأحاسب ربي ؟ أم آخذ السبعة شعاراً
ومظهراً ورثاء الناس ؟ لن ينفعني ظاهري إن لم يكن
لي وازع من باطني ... إن هذا الطربوش الذي
ليس له زر تدجيل وشموذة ، إن لم يكن على الناس
فعل نفسي ... لقد خلق الله الدنيا وجعل فيها من
كل شيء ، فلنملأها بشراً وخيراً ولنملأها سلاماً
وإيماناً ... ليكن كل ما فيها جيلاً فقد خلقها الله

لا ينبعث إلا من أعين المؤمنين الصالحين الخاشعين ،
الذين لا يستعينون على عبادة الله بقهر أبدانهم وحرمان
نفوسهم ، ولكن يستعينون على تقديسه بالاندماج
الطاهر في الدنيا التي برأها وأبدع فيها الكائنات
وذهب مرة إلى قرية قريبة في عمل له ، فسمع
الناس يلهجون بذكر رجل تقي ورع قوام الليل
صوام للدهر عزوف عن الدنيا ، تكفيه السمسة
إذا أفطر ، والزبيدة إذا تحلى ، وثبته الماء إذا ظمى ...
لا يحرك لسانه بهجر ولا يرفع عينيه فيمن يكامه ...
يطيل الركوع ويخشع في السجود ويسبغ الوضوء
ولا يفتر لسانه عن ذكر الله والتسبيح له

وعرف أن الرجل يتخذ صومعة في منعرج
قريب تحت جيزة باسقة عند شاطئ النيل ، فهو
يمتزل الناس فيها فلا يلقاهم إلا لماماً

وانتوى الشيخ عبد القوي أن يزور هذا الرجل
الصالح عسى أن ينفعه الله بلقائه ، أو أن يقف منه
على سر عزله واستيحاشه ... ولم يشأ أن يصحب
أحدًا ممن عرضوا أن يذهبوا معه إلى الشيخ الصالح
بل شكرهم وآثر أن يذهب إليه وحده ... لأنه
يعرف من تجاربه أن الوحدة هي الطريق إلى البوح ،
ثم هو يعلم أن النامل والاتحاد بالمالم لا يتلفهما
إلا فضول الناس والثروة التي هي فطرة في ألسنتهم
فما يقلمون عنها إلا قليلاً

وخرج الشيخ عبد القوي من مسجد القرية
بعد صلاة المشاء ، وتسلل من الناس ثم اتخذ سبيله
إلى شاطئ النهر

وكان الليل قد نشر طيلسانه فوق الكائنات ،
والقرية توشك أن تهجع إلا من نباح الكلاب ،

جميلة ... لماذا تبدو في هذا الظاهر الأشعث الأغبر
لنقل أنفسنا ونؤذيها بالقهر ، وكان خيراً لنا أن
نأخذها بالكرامات وحيد الخصال ... إن السبع
لا يزداد بالمقاومة إلا شراسة وثماساً ... وهو بالين
والموادعة يسلس وينقاد ويطأطي لروضه ... إنما
ينبغي أن أذكر دائماً أنني في نضال مع نفسي ...
لن أتركها تنتصر علي ... لن أدع زمامها للشيطان
ولكني لن آخذها بالخشونة والقهر مع ذاك ... كلما
لقيت امرأة قلن أنظر إليها باشتهاء ولا فسوق ...
إن المرأة الجميلة تحفة رائحة من صنع الله فينبغي
ألا ندنسها بأنظارنا الشريرة ... والدنيا مثل المرأة
فيجب أن نغلاها بهجة ... إن اشتهاها للمرأة هو
مثل اشتهاؤنا للدنيا ... الأول يدل على نقص في
طبائعنا كلما حاولنا إرواءه من النساء تضاعف ثم
تضاعف حتى يجرفنا ... والثاني يدل على طائفة من
عيوبنا من أبرزها الجشع والطمع والافتناء والذل
المقيم لمطالب الجسد من طعام وشراب وكساء ...
ونحن أمام هذين ننحط إلى مراتب الحيوان الأحمق
وننسى فضائلنا ...

وهكذا استطاع الشيخ عبد القوي أن يرسم
هذه الصوفية الجديدة ... وهي صوفية معنوية سامية
لم يزخرف على نفسه لبلوغها بحدائق الشعر وذوائبه ،
ولا بهذه المباءة الفضفاضة من الصوف الخشن ،
ولا بتلك النمل المخصوفة والسبحة الهائلة
ومرت الأيام ...

وبدا عبد القوي بين الناس فتى أنيق البزة
رشيق الهندام نظيفاً ، لا تحمل ذقنه إلا شمرات ،
وينبث من عينيه هذا البريق المعجيب الجميل الذي

بغنى في سمواتهم بهذه المباركة ، وهم يرددونها بعده
لذلك كلما سمعوها ،

وبرز رجل من كهف فجأة ، وأخذ هو أيضاً
يقول في إثر تسبيح الكروان : « اللهم مالك الملك .
لك الملك .. وأنت صاحب الملك .. »

وتلفت عبد القوي فاذا حباله رجل أشعث أغبر
قد أرسل لحيته حتى تهدلت فوق بطنه ، وانتشرت
فوق ظهره ذوائب بيض كالندف ، وهو مع ذلك
أصلع عريض المنكبين ، ويده هراوة كبيرة كأنها
هراوة نوح أو عصا موسى

ثم صرخ الرجل صرخة مدوية ، وأخذ يترنح
يمنة ويسرة وهو يقول :

« الله — حى — الله — حى — الله — حى »
وكان يقولها في تلك النغمة الموسيقية المروفة
التي وقع بها النشيدون أذكارهم ، ويرتلون
على جرسها أورادهم ...

ووقف عبد القوي مكانه باهتا صامتا مسبوها
لهذا الشيخ المتعبد الذى انشق عنه بطن الأرض
فبرز يشوه جمال الطبيعة بصوته الأجش وبجته
المنكرة ، وإنشاده المختنق ؛ ويكسب صداً حشرجته
موسيقى القمر وغناء الكروان

— السلام عليك أيها المؤمن !
— حى — الله — حى — الله !
— اللهم لا حول ولا قوة إلا بك !
— الله — حى — الله — حى !
— الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... رويدك
يا أخى وترفق بنفسك
— حى ... حى ... حى ... حى ...

وإلا من فاك الضوء المبيض المنبعث من دكان البقال
الذى يبيع للناس ألف صنف مما يحتاجون
ما أشد رهبة الليل في صروج الريف ؟

لقد كان خريز الماء المتدفق في النيل يبعث
الرب في قلب الشيخ عبد القوي حتى لقد فكر
في أن ينثني إلى بيت مضيغه ، ويقذف إلى الشيطان
زيارة هذا الشيخ الصالح الذى اعتزل العالم تحت تلك
الصفصافة البعيدة كأنها في عالم وحدها ...

وكان الظلام الدامس يرسل عقاربه في الهواء
الرطب فلانفتأ رقص فوق أكوام السباح وشواخص
القبور القرية .. لكن عبد القوي استعاض بالله وتم
بآيات من القرآن .. ثم ذهب لا يأبه بتهاويل الليل
واقترب من الجزيرة ... فأرشف أذنيه عسى
أن يسمع تسبيح الشيخ الصالح المعتكف ثمة ...
بيد أنه لم يسمع شيئاً

وكان القمر قد أخذ يرسل أذنته الدواكن
في الأفق الشرقى ، فيختلط الضوء النحاسى بفحمة
الليل ...

ومن وراء أحراج النخل البعيدة ، ظهر للبدر
الشاحب فاهتزت الكائنات خاشعة لهذه الآية من
آيات الله القدير ... ووقف الشيخ عبد القوي هو
أيضاً يفكر في خالق الأرض والسموات ، ويرمق
النهر الجبار الأبدى يجرى كأنه نهر الزمن لا يابه
للتواني والدقائق والساعات .. بل الأيام والدهور .
وأرسل الكروان المصرى الجليل شدوه في هدأة
الليل الساجى ، فقال الشيخ عبد القوي معه « اللهم
مالك الملك . لك الملك وأنت صاحب الملك ... »
والفلاحون في ريف مصر يزعمون أن الكروان

- وخطا عبد القوى نحو الرجل خطوات ثم أخذ
يربت على كتفه يمينه ، والرجل مع ذاك كأنه
بندول الساعة يهطع هنا ثم يهطع هناك
ثم جذبه عبد القوى جذبة قوية فتوقف الرجل
ثم حدق فيه بصره وقال :
- إني الله ... لماذا تجذبني هكذا ؟
— أعتذر إليك إن أكن قد أسأتك
— ولماذا أبيت إلا أن تقطع عليّ تأملاتي ؟
— أنا ؟ أنا قطعت عليك ... ؟ أي تأملات
يا صاحبي ؟
— تأملاتي في خلق الله ؟
— لقد كنت تتأرجح وتعيد وتهتز ، أهذه
تأملات ؟
— أسكت ... لحاك الله أيها الشيطان !
— من ؟ أنا ؟ ... أنا شيطان ؟
— أنت أكبر الأبالسة !
— معاذ الله يا صاحبي ... ليس هكذا يكون
خلق الرجل الذي انقطع لعبادة الرحمن
— من أنت ؟ هه !
— أنا ... أنا عبد من عباد الله سميت إليك
لأزورك
— ما اسمك ؟
— ولماذا تريد أن تعرف اسمي ؟
— أنت عبد القوى ؟
— هل تقنياً ، أم أنك تطلع الغيب ؟
— لا هذا ولا ذاك ... لكني أعرفك !
— تعرفني ؟
- أجل ... أما أعرفك ... أعرفك من
زمن طويل !
— ومتى عرفتني وأين ؟
— قل لي أولاً ... لن أجيبك حتى تقول لي :
— أقول لك ماذا ؟
— أين لحبتك الضافية السابقة ؟
— لحبتني ؟
— أجل ... لحبتك التي كانت أطول من هذه !
— حلقها !
— وله ؟
— لقد كانت تضايقي !
— والمكحلة ؟
— استغثت عنها
— والسبحة ؟
— قرطت عقدها !
— ولماذا آثرت هذا المندام الأنيق ؟ هل
صبات ؟
— معاذ الله أن أفعل ! ألا تخبرني من أنت إذن ؟
— أنا ؟ ... أنا عبد الله !
— عبد الله من ؟
— ولماذا تلحف ؟
— أحب أن أعرفك ...
— لا حول ولا قوة إلا بالله ! سبحان الذي
بدلنا يا عبد القوى !
— سبحان من بدلنا كيف ؟
— إذن ... فاعلم أنني ... خدني شبابيك
ورفيق صباك ... صالح !

- قال ذلك وكأنما ساخت قدماء في الأرض ، ثم
نشج نشيجاً مؤلماً ... واستمرت عيناه ... ثم
استخرط في البكاء ...
- ماذا ؟ هل تبكي ؟ ... ويك ... ؟ أنت
حقاً صالح ؟
— ... ! ... !
- لا حول ولا قوة إلا بالله !
— أجل يا عبد القوي ... أنا صالح يا صديق !
وهذا حال !
- مسكين أيها الرفيق !
— أين أنت أيها الأخ طيلة هذه السنين ؟
ليتني ... ولكن ...
— ليتك ماذا ؟ ... لماذا قطعت كلامك ...
قل ...
- لا أجسر !
— لا نجسر ؟ ولماذا يا أخي ؟
— أخشى أن تنخسف الأرض تحتي !
— أترك يا صديق هذه المواجهات التي تستمر
في قلبك فالله وليتنا ...
- ليتني يا أخي سرت في الحياة سيرتك ...
— أية سيرة يا صالح ؟ ...
— سيرتك الأولى التي كنت أعياها عليك !
— سيرتي الأولى ؟
— أجل ... سيرتك الأولى التي كنت تستعين
عليها بلحيتك وسبعحك ومكحلتك وهراوتك
وصوفك الجاني الخشن ونملك المخصوفة الغليظة !
— أنت تحيرني يا صالح ...
- لا ... لست أحيرك ... أنظر يا أخي ماذا
أصابني !
— إن كنت تشتغي أن تكون مثلي في الأيام
الحوالي ، فالك الآن أشد رهبانة وأكثر تقشفاً ...
فم تشكو ؟
— أشكو أنني لم أكن كذلك قبل أن أعترض
عليك !
- لقد كنت تعيب هذا المظهر على ، فما الذي
جملك تؤثره على ما أحل لنا الله من زينة هذه
الحياة الدنيا ؟
— أوه ! ... لا أستطيع ... لا أستطيع !
— لا تستطيع ماذا ؟
— لا أستطيع أن أحرك بذلك لساني !
— هو سر رهيب إذن ؟
— رهيب جداً يا صديق !
— مسكين !
— مسكين جداً
— لكنك تمنب نفسك بالكتمان أضعاف
ما تمنبها بالبوح ... تكلم ...
— هذا حق ... لكنني لا أستطيع ...
— يخجل لي أنك عصبت الله ممصية كبيرة !
— أوه ...
— ولذلك فانت تخجل من الكلام !
— كل ما تقول ...
— صحيح ! أليس كذلك ؟
— أجل يا صديق !
— لكنني أعدك أن أكنم ما تقول ، وأن

جعلتني شيئاً آخر ... لقد ضاعت كل نظرياتي التي
كنت أبدهك بها فلا تستطيع لها رداً ... لقد
كنت أقول لك ، لم لا تقرن نظرتنا إلى المرأة بالخير ؟
لم لا ننظر إليها فنميد الله وتقديس أسماءه ؟ لماذا نجعل
من جمالها شرّاً مستطيراً نتجنبه وتوقاه ؟ لم تستمعينون
يا معاشر المتصوفة على إذلال أنفسكم بارسال شعوركم
وإعفاء لحاكم والصوف الحشن والنمل المخصوصة ؟
إنكم تشوهون خلق الله الذي شاء أن يجعله جيلاً
موتقاً وتائبون أنتم إلا أن تجعلوه بشماً كريهاً ...
هكذا كنت أقول لك .. وهكذا كنت أني عليك !
وأسفاه ! ليتني كنت مثلكم يا عبد القوى ... ليتني
أرسلت لحيتي وأعفيت شعري وأذلت نفسي بما أذلتكم
به نفوسكم .. لا .. لقد ذهبت أدل بشبابي وأتبه ..
وأتشق بنظريات فارغة ما جعل الله لها سنداً من
الحق ، وإن جعل لها رواء وإن جعل فيها طلاوة !
لم أستطع يا أخي أن أصبر على حبها الذي غمزا
قلبي وعصف بنفسي ، وزلزل وجداني ... إذن ،
لقد غايتها ... ولم تستمع طويلاً على ... فقد
صدتها في شرك محكة من كلمات النزل المرسول
وآهات الهوى المشتعلة ...
وسهرنا الليالي ...
وتبادلنا القبل ...
ثم .. سقطنا !
وضقت بها وبنفسى حينما جاءها الخاض ... ماذا
أصنع ؟! عاونتها ... لكن ، لأنجو من جريمتي ...
لأقلت من الجريرة ...
ثم فررنا إلى جهة نائية . وفي الطريق . وتحت جنح
الليل ، جلسنا تحت صفصافة حيث وضعت !

أعينك على بلواك إذا استطعت !
— أتعلم لي ؟
— أقسم لك
— إذن ... لقد قتلت ... ؟
— قتلت ؟
— أجل يا عبد القوى ! أجل يا صديقي !
— قتلت من ؟
— ولدي ... ؟ ... ولدي ...
— ولماذا أيها الرجل تقتل ولدك !
— ألا تعرف لماذا ؟ لقد أتيت به من سفاح
يا أخي !
— آه ... جريمة تله جريمة ...
— لقد خدعتني نظرياتي في الحياة يا أخي !
— كلا ... لقد كنت أنت السبب في اعتناق
هذه الصوفية الجديدة المهدية يوم عنيت بالرد عليك .
لقد كنت على حق يا صالح ، ولم تكن قط على ضلال
ولكن هلم فحدثني كيف سقطت هذا السقوط !
— أوه ؟ هذا حديث شاق يا أخي !
— ليس شاقاً كما تتصور ... أوه ... لقد تعبت
على ما يبدو لي ... هلم إلى كهفك السحيق نستريح به
وكان القمر قد أطل وارتفع ، وأرسل أضواءه
ملء للكون ... وكانت البرايا كلها قد أرهقت
آذانها تصغي للحديث وتلقفه ... أليست هذه
مأساة الجميع ؟ أليس يعب الإنسان أحرأ ثم يتردى
فيها هو شر منه ؟ !
— عرفت يا أخي ريانة الالهة موفورة
للشباب ... لقد كانت فينانة كالزهرة تعبق بالحب
في فؤاد كل من نزار .. حينما رنت إلى قلبت كياني ..

- يا لله ... ربي ؟ لقد وسعت رحمتك كل شيء ... مسكين يابني ؟ ... ليتني أبقيت عليك وأعترفت بك وذهبت فداك ... لقد خفت يابني أن تفضحني حينما صحت أول سيعتك في هذه الدنيا المنكودة فلم أبال أن أقبض على رقبتك وأخنقك ! لماذا ياربي لم أمت قبل أن أفضل هذا ؟
- مسكين يا صالح . والفتاة ؟ ماذا صنعت ؟
- لقد كانت تبكي على ولدها
- أهذا كل شيء ... ؟
- لا إنها طلبت إلي أن أقتلها
- هل فعلت ؟
- أجل يا صديق
- وواريت سوء تيهما ؟
- بل ألقيتهما في ...
- أين !!
- في هذا النهر ... آه ... آه ... إنه ينظر إلى ... إحمي يا عبد القوي إحمي يا صديق ... إن النيل يفرغ فاه ليلتلعني ! إني أسمع صياح ابني وآلام حبيتي ...
- مسكين ! ومن يدري !
- ومن يدري ماذا يا أخي ؟
- لا شيء ... ولكن ... خبرني يا صالح ... ماذا ترجو بعد ذلك من الله ؟
- أرجو مغفرته يا أخي ! إني أصوم الدهر وأقوم الليل ولا يفتر لسانى عن ذكر الله !
- وهل ذلك يكفي لو فعلته ألف سنة ؟
- وماذا أصنع ؟ لقد عجزت عن حرب نفسى
- وجاهدتها قبل أن أرتكب جرائى ، ولو استسلمت ما حصل منها شيء مما يروى الآن
- إن كنت تطمع في مغفرة الله
- فإذا أصنع يا أخي
- فلا يكفي أن تحيا حياتك هذه !
- وكيف ؟
- يجب أن يقع عليك القصاص الذى أمر الله أن يقع على أمثالك !
- أوه ! لقد فكرت في ذلك ...
- وما الذى عاقل أن تفعل ؟
- خفت أن أقتل نفسى !
- لو قتلت نفسك لكانت جريمة رابعة !
- إذن ...
- تسلم نفسك لولى الأمر !!
- دربى خشيته

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوتة الاولانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وعنها ١٥ قرشاً

- في هذا النهر ... آه ... آه ... إنه ينظر إلى ... إحمي يا عبد القوي إحمي يا صديق ... إن النيل يفرغ فاه ليلتلعني ! إني أسمع صياح ابني وآلام حبيتي ...
- مسكين ! ومن يدري !
- ومن يدري ماذا يا أخي ؟
- لا شيء ... ولكن ... خبرني يا صالح ... ماذا ترجو بعد ذلك من الله ؟
- أرجو مغفرته يا أخي ! إني أصوم الدهر وأقوم الليل ولا يفتر لسانى عن ذكر الله !
- وهل ذلك يكفي لو فعلته ألف سنة ؟
- وماذا أصنع ؟ لقد عجزت عن حرب نفسى

النافذة المفتوحة

عن الأنجلو ليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

كنت من الذين تصاب أوتار
الصوت عندهم بالشلل عند رؤية رجال
البوليس

وكان هذا الجندي طويلًا جدًا
عريض الأكتاف قوي الجسم
والنظرات أحمر الشعر مهيب الطلعة في
نظري على الأقل ، وكان ينظر إلى

الفضاء كما كثر رجال البوليس حينها يرون سارقاً
أو قاتلاً لا يستحق التشريف بنظرهم إليه

فلما اقتربت منه رمقني بنظرة كنظرة علماء
الحشرات تحت المجهر فلاحظت زرقة عينيه واتساع
ذقنه وبروزها

ولم يكن من عادي دعوة رجال البوليس إلى
الاشتراك في حديث : أولاً لأنني أخشاهم ، وثانياً
لأنني قصير القامة نحيل وأعد من الأمور المهينة لي
أن أقف ثانياً رأسي إلى الوراء لأنني لا أعتمد من عادية
المالقة الطوال ، لكنني الآن تحت تأثير الخمر وجدت
في نفسي ميلاً إلى تحية هذا الجندي لا لأحدثه ،
ولكن لأتق عليه السلام ثم أستمر في طريقي . وقد
يكون هذا الميل من جانبي مظهرًا واضحًا من مظاهر
الخوف .

قلت : « سعد صباحك ! » فأجابني الجندي
وقد سر من تحيتي إياه سروراً كان يحاول كتمانها :
« سعد صباحك ! »

قلت وكنت لا أريد أن أحدث ولا أن أقاخر ،
ولكن لأشرح علة وجودي في الطريق في مثل هذه
الساعة : « لقد كنت مدعوًا إلى وليمة فتأخرت
للآن » فنظر إلى الجندي نظرة طويلة وقال :

« وهل أنت من سكان هذا الشارع ؟ »

قلت : « نعم في المنزل رقم ٢٨ » فأشار لي الجندي

وقفت لحظة في منمطف من شارع « كريكت
جراوند » لأشعل غليونني وأشكر نعمة الله عليّ أنني
غير متزوج ، لأنني في حياة العزوبة استطعت أن
أقضي هذه الليلة السارة ساهراً إلى منتصف الساعة
الخامسة صباحاً فأشهد طلعة الفجر في اليوم المقبل
الجميل من أيام شهر يونيو . وكنت إذ ذاك في طريقي
إلى المنزل بعد وليمة دُعيتُ إليها في بداية الليل فتمتعت
بالطعام الشهى وبالشراب المتق . وكنت رجلاً
كسائر الرجال غير خال من الهم ، ففي ليلة كهذه
تفريج عن النفس وسرور وممتعة قلما ينسيان بعد
عدة أعوام . وفضلاً عن مسرات هذه الليلة فقد
اشتركت فيها في لعب القمار فكان حظي حسناً
وفوق الحسن

ثم مشيت وأنا أتفني طروباً مرحاً ولكن لا تحسب
أنني كنت أرفع صوتي بالغناء في مثل هذه الساعة
فأفان راحة النائمين لأنني كنت أوفر أدباً من ذلك
بل كنت أغني بصوت رقيق لأرضي عاطفتي التي
بمشتها في نفسي نشوة الخمر ونشوة الكسب في المقامرة .
وإنني لأعترف بأن تأثير الخمر في نفسي كان شديداً
جداً وإن كان لم ينسني إلى ذلك الوقت طريقي إلى
منزلي ولم يسلبني قوة التفكير

ولما وصلت إلى شارع « لا بورنم » رأيت جندياً
من جنود البوليس فاحتبست الأغنية في حلقى لأنني

النافذة في هذا الوقت. فلما وقف الجندي أمام الباب قالت له : « إذا كان بالمنزل لص واحد ساعدتك عليه؛ وإن كان به لصان قبضت على واحد وأنت على الآخر وإن كانوا عدة لصوص استعنت بي على الاستنجاد بجنود أخرى »

فلم يجبني الجندي ولكنه دفع الباب فوجده مفتوحاً ودخل فدخلت وراءه بغير دعوة . وكنت في أثناء سيرى أراقب الأثاث وقد أعجبني بناء المنزل ولم يجبني أمانه فقلت للجندي : « هذا فراشي رث وإن منزل إحدى الخدم لأفضل . . . » فلم يدعني الجندي أنعم جلتي بل زجرني بلفظة حادة ونظرة أشد إزعاجاً لنفسى ، فلزمت الصمت وتبعت إلى الغرفة التي رأينا فيها النافذة المفتوحة ، فإذا بها مكتب المستر ترول ؛ ولحت أدراج مكتبه مفتوحة وأمرني الجندي بالوقوف في مكاني وتقديم هو : وكانت هذه أول مرة خالفت فيها أوامر البوليس لأنني لو بقيت حيث كنت لما تمكنت من رؤية الجسم الممدد على الأرض ، وتبعت الجندي فرأيت

قال الجندي : « أهذا هو المستر ترول ؟ » قلت : « نعم هو وأري رأسه ماثلاً بشكل غير طبيعي. فقال الجندي : « إن رقبته مكسورة ولا بُدَّ أن يكون الذي لواها قد فعل ذلك من وقت قريب » قلت : « إن الذي فعل ذلك قد أراح الدنيا من شرير كبير ، ولا شك أن كثيرين سيفرحون عند ما يصل إليهم هذا الخبر »

وقلت : « نعم فقد كان الرجل صرايياً يتز في وقت عمله أموال الساكين ويتجر بالفضائح ليحاول الكسب أيضاً عن طريق التشهير بالناس وإذاعة أسرارهم » فقال الجندي : « هل كان الرجل سيئاً إلى هذا الحد ؟ »

إلى المنزل الذي أمامه وقال : « وهل تعرف المقيم في هذا المنزل ؟ » فنظرت إلى منزل جميل صغير المساحة له حديقة أنيقة وقلت : « نعم هذا المنزل رقم ٤ يقيم فيه المستر « ألابيك ترول » هل تحب أن تعرف به ؟ » فقال الجندي : « هل هو صديقك ؟ »

قلت : « إنه ليس صديقاً لأى إنسان » فتأمل الجندي في المنزل لحظة ثم قال : « إننى أستغرب بقاء هذه النافذة مفتوحة في مثل هذه الساعة » وأشار إلى نافذة فقلت : « إن نظرك كنظر الصقر ولكن لا أظن أن من حق أحد أن يسأل المستر ترول عن فتح نافذته »

قال الجندي : « هذا صحيح ولكن هذا وقت غير مناسب لفتح النوافذ وأظن أنى رأيت النافذة منغلقة ساعة صررت بالمنزل منذ عشرين دقيقة »

فقلت : « إن المستر ترول رجل شاذ ولا يبعد أن يكون قد تعمد فتح النافذة الآن ليستنشق نسيم الفجر في هذا اليوم الجميل »

فتأمل الجندي في وجهي لحظة وقال : « يظهر أنك تعرف الشيء الكثير عن هذا الرجل فكيف مع ذلك تقول إنك لست صديقه ؟ »

فقلت : « لقد أخبرتك بأنى لست صديقه وبأنى لا أظن له صديقاً في العالم؛ ولو أننى خبرت بينه وبين كاب أعور أعرج لذهبت في الحال لأشتري طوقاً للكلب . إننى لست صديقه ولكنى أعرفه كما يعرفه عدد كبير من الناس »

قال الجندي : « أهذا وصفه ؟ إننى على كل أرى فتح النافذة الآن أمراً غريباً » ثم عاد إلى النظر نحو النافذة ومشى مسرعاً نحو منزل المستر ترول مشيت وراءه لأنى لم أكن متمجلاً في الذهاب إلى منزلى، ولأنى كنت مثل الجندي أستغرب فتح

السري وقدمت لي ابنها فوجئت ساعة رأيته وصاحفته
دون أن يفوه كلاما بحرف
وانتهزت فرصة نخلوت به فقال : « لا تذكر
شيئاً لأى عن سابقة لقائك بي فاني لم أخبرها »
وكان ابن خالتي هذا هو الجندي الذي اجتمعت
به في منزل القتيل

ثم صارحته فقلت : « لقد عثرت ساعة كنت
تسكلم في التلفون على زر من أزرار سترة عسكرية
تحت ذراع القتيل فوضعت في جيبى وهذا هو » ثم
أريته إياه

وقلت : « وقد نسيت به ذلك نظراً لحالة
السكر التي كنت فيها . ولكنني تنبئت له بعد انتهاء
القضية . وأظنني فهمت بعض الشيء »

فابتسم ابن خالتي وقال : « هو زر سترى وأنا
الذي قتلته ثم عدت إلى الوقوف في الطريق مترقباً
رؤية سكران مثلك برىء لأستشهد به على ملاحظتي
رؤية النافذة المفتوحة واستكشاف الجريمة . ولكنني
لم أكن أريد قتل هذا الرجل بل أخذ أوراق عنده
لأنه كان يهدد أى بالتشهير بها لأن لديه خطابات
منها . وكانت أى تسكنه بالمال حتى لم يبق لديها شيء
منه فذهبت لأحصل على تلك الخطابات ولكن الرجل
كان ضميماً فلم يتحمل تهديدي ومات بين يدي ،
وأذكر أنك حدثتني عن قريب لك اضطر إلى
الاستدانة منه ثم سرق بسببه ليوفى باقي الربا المضاعف
منها . أنا هذا القريب . وقد تطوعت في خدمة
البوليس من أجل هذا الغرض .

وعلى الرغم من أني لم أكن أميل إلى الاجرام
فلم يسمني إلا تهينة ابن خالتي على قتله هذا الشرير
وطأهده على بقاء سره مكتوماً . وقد كتمته حتى
مات ابن خالتي بعد عدة أعوام

عبد اللطيف النشاء

قلت : « نعم ولو لم يقتله قاتله الليلة فاني أعرف
نحو خمسين من غير المجرمين يودون لو يقتلونه ؛ ثم
هم مستعدون بمد ذلك لتحمل جزاء القتل لكي
يربحوا العالم منه . وقد علمت أن شاباً من أقاربي
اضطر إلى الاستدانة منه وكان هذا الشاب لا يزال
صغيراً جداً فلم يزل يدفع من أقساط الدين ما بلغت
جملة ضئف ما استدانه ، ولكنه ظل مديناً بعد ذلك بجزء
كبير من الربا . وضايقه « ترول » ليضطره إلى الوفاء
فاضطر هذا الطائش إلى سرقة مال من المصنع الذي
كان يشتغل به ووفى دينه ، ثم هرب لما وقعت عليه
الشبهة ولا يزال أهله يبحثون عنه فلا يجدونه من
نحو عشرين عاماً

وكان الجندي يصنى إلى قصتي باهتمام ثم خطر
ببالي خاطر فقلت : « لعلنا بالتحدث الآن عن حياة
هذا الوغد نفعل غير الذي يفتقره القانون من رجلين
استكشفا جريمة في الساعة الخامسة . ألا نستدعى
الطبيب ؟ » فقال الجندي : « هل تعرف مكان
التلفون ؟ » فأشرت إلى غرفة الجلوس وذهب
وأمرني بالبقاء حيث أنا حتى يعود .

أخذت القضية مجراها فلم تهتد النيابة إلى شيء
وقضت بأن القاتل مجهول

وبعد بضعة أسابيع وصل إلى كتاب من خالتي
في بلدة قريبة في الريف تدعوني فيه إلى مأدبة ، فسافرت
وكنت قد علمت قبل ذلك أن ابنها الغائب منذ عشرين
عاماً قد عاد من أمريكا فجملت غرضي من إجابة
الدعوة أن أهنئها وأرى ابن خالتي الذي أوقعه
سوء الحظ في شبابه في تكبته تلك التي اضطرته
إلى الفرار

وتلقتني خالتي بالمناق وعرفتني بسائر المدعويين
وكلمهم من علية القوم الذين كانوا أصدقاء لزوجها

ولكن هيات أن تكفى هذه
الكلمة للدلالة على ثروته، فهو
يملك خمسة آلاف فدان في النيا
ونصف مليون من الجنيهات
تقدأ في البنك الأهلي، وعمارة
النياوى الشهيرة بشارع المسكة
نازلى بالقاهرة. هذا غير أنهم

الأرجوز المحزن

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
يَقْلَمُ الْإِدِيْبُ بِحَبِّ مَحْفُوظٍ

والسندات مما لا يعلم عدده إلا الله

فصاح الشاب وقد تملكته الدهشة :

— يا سلام سلم

فقال الشيخ مبتسما :

ألا تعلم أنه الآن عميد أعرق أسرة بالنيا ؟ ...

هو الابن الوحيد المغفور له على باشا النياوى الذى
كان وزيرا للأوقاف، وحفيد محمد باشا النياوى أحد
النظار في نظارة نوبار باشا

فسها الشاب عن محدته لحظة ثم قال متسائلا :

— والظاهر من خطابه أنه متعلم

فأمن الرجل على قوله قائلا :

— إنه حاصل على شهادة الحقوق المصرية .

وعلى أعلى شهادات فرنسا في القانون . والحق أن العلم
والمال من بعض تراث أسرته المريقة ...

وانتهى عند ذاك الحديث وودعه الشيخ وذهب

إلى حال سبيله . وأحس الشاب برغبة في الشئ بمد
طول الجلوس في السراى المكتظ ، فسار إلى غير
وجهة معلومة ينتقل من طريق إلى طريق كيفما

اتفق، وخواطره تهموم حول الشاب السعيد وما قاله

عنه الشيخ إبراهيم . وانتهت به قدماء إلى محطة

النيا . وعند اقترابه من بابها الخارجى وقفت أمامه

سيارة نفخة ، وفتح بابها وإذا بالخارج منها الوجيه

كانت المرة الأولى التى رأى فيها عبد الرحيم
افندى جاد الكاتب بناية النيا الأهلية الوجيه السرى
محمد بك النياوى فى الاجتماع الانتخابى الذى أقيم
للدعوة للبك الوجيه . رآه واقفا على منصة الخطابة
بأقى الخطاب الختلى فأنهى على من تقدمه من الخطباء
والشمرء الذين أخجلوا تواضعه ، وشرح برنامجه
الانتخابى الحرى بأن يصلح أمما برمتها شرحا مسهبا
فى أسلوب خطابى رائع قوبل من ألوف الحاضرين
بالتصفيق الحاد والهمثاف المتواصل ، ولكن عبد الرحيم
افندى لم يؤخذ بمنطقه قدر ما أخذ بجمال وجهه
الفتان ، ولم يتحمس لبرنامجه الانتخابى بمضى تحمسه
لشبابه الغض وقامته الكاملة وقوته البادية . وانفض
الاجتماع وغادر المكان وخياله لا ينى يتشبث بصورة
الشاب الجميل ، الذى لم تقع عينه قط على إنسان يماثله
حسنا وشبابا وقوة . وكان يسير إلى جانبه الشيخ
إبراهيم سليم العلم بالمدرسة اللازمية وهو شيخ
متقدم فى السن قضى من عمره سنين طويلة فى النيا
فقال له :

— مرشح دائرتنا عظيم لا نظير له بين الشباب ،

وتبدو عليه النعمة ... هل هو غنى ؟

فقال الشيخ إبراهيم :

— غنى ! ... نعم يا بنى غنى وما غنى إلا الله .

لحوم وطيور وفاكهة . وإن أراد شرباً فله ما يشاء
من ماء النيل وماء فيشى والكونياك والشمبانيا .
وإن تاق إلى مشاهدة فالأرض جيماً من الأسكندرية
إلى البندقية ، ومن سويسرا إلى اسكتلندا تفتح
له ذراعيها وتتمناه ... فيا للقوة ... ويا للحرية ...
ويا للسعادة ... !

رباه ... وما نصيبه هو من الدنيا ؟ ...
وحين خطر له هذا السؤال علت شففيه ابتسامة
ساخرة صريرة .

ما هو إلا هيكل نحيل ، شاحب اللون ، غار
المينين ، بارز الفكين ، متهافت البنيان ، يستقبل
الفصول الأربعة ببذلة واحدة لا تبدل حتى يئأس
منها الرفاء ينكمش فيها شتاء كمصفور يتقى البرد
تحت غصن شجرة عار ، ويشوي فيها صيفاً في جو
الصميد الخانق ... وهو ابن جادرضوان البائع البائس
بمحل عطارة الماوردي بالنورية ؛ والله وحده يعلم من
هو رضوان جده ، فلو كان شيئاً يذكر ما أتى أبوه
على ذكره ستاراً من الصمت الأليم . وأما ثروته
فهي ستة جنيهات شهرية يرسل منها لوالده ثلاثة
لتعينه على معاش أسرته المكونة من عشر أخوات
وعمتين . فهو على رؤسه وفقره ليس الابن الوحيد
لجادرضوان ، وإن كان محمد بك النياوي الابن الوحيد
لملي باشا النياوي . ويقي له ثلاثة جنيهات يدبر بها
حياته من مسكن ومأكل وملبس . وإن كان يدين
لشيء غير هذا فهو الفول المدمس والطعمية والطماطم
والجن الرومي ، فهي غذاؤه طول أيام الأسبوع
إلا يوم الجمعة جعله عيداً بهيجاً فيذهب فيه إلى
« لوكاندة الأمراء » ويطلب أرزاً ونصف رطل
كباب وضغاً من الخضر تشتد حيرته عادة قبل

(٣)

محمد بك النياوي وفي صحبته عادة هيفاء مياسة
القد ، بادية الفتنة ، وهبها الله عينين ساجيتين جمع
فيهما ما وزعه على عيون الحسان النوانى من الفتنة
والروعة . وكانت ترتدى معطفاً أسود وزين وجهها
البرقع الأبيض الشفاف الذي تلمسك به سيدات
الأسر التركية النبيلة ؛ فأحس بقلبه يكاد يقفز من
صدره ، ولبت مكانه واقفاً ذاهلاً غافلاً عما حوله
حتى غيبهما عن عينيه الساهيتين باب المحطة . ثم مضى
ثانية في سيره وهو لا يشك في أنه رأى الوجه
مع زوجه

وشمر عبد الرحيم بفهر غريب لا يجده
إلا الظالمون المفلوبون على أمرهم . وخال الدنيا عدواً
يتهم به ويتشفى منه . فأحس نحوها بكراهية صريرة
وتمرد مكتوم لا يجد منفذاً يتففس منه عن كربه .
وانطوى على نفسه كأنه يرغب في مقاطعتها تعالياً
عليها . والحق أنه يسجز كل المجز أن يصلها صلة تجعل
له فيها قيمة أو شأنًا . وتساءل منكراً غاضباً : كيف
أمكن أن يوجد الكمال على الأرض ؟ ... كيف
غفل الدهر عن هذه السعادة التناهية ؟ وكيف
جهلت الأحزان الطريق إلى هذه الجنة الآمنة ؟ ...
ألا من عيب يشينه ؟ ... ألا من نقص يعتوره ؟ ...
جال لم يكتس بمثله وجه رجل من قبل ، وصحة لم يتمتع
بمثالها جسم إنسان ، ونسب يردد نخرآ وتبهاً كلما
أوغل في الماضي المجيد ، وثروة لا يحيط بها حصر
ولا يفنيها الدهر ، وزوجة تسير السعادة بين يديها
سير الشماع المنير بين يدي الشمس السافرة . ومستقبل
باسم مشرق بالآمال يبشر اليوم بالنيابة وغداً بالوزارة
والدنيا جيماً طوع إشارة من يده . تعطيه ما يشاء
حين يشاء ، فإذا اشتهى طعاماً فدونه وما يحب من

وتساءل : ترى هل يوجد في هذه الخليقة من يشمر
بآلامى ... ؟

ولكن كانت السماء جامدة متعالية ، والأرض
صلبة خرساء ، والناس منشغلين بهمومهم . فأحس
بمزلة قلبية موحشة . وخال نفسه ميتاً في قبر مظلم ،
وعاد إلى حجرة الكثيبة كاسف البال ، تنظوى نفسه
على غيظ قاتل وثورة جامحة وحسد أليم ضاعف
أثقال حياته ، وجعلها سلسلة متصلة من الغضب
والسخط والتبرم

والواقع أنه كان مقدراً له أن يرى من حقائق
الدنيا أعجب مما رأى . واستطاع وهو جالس إلى
مكتبه الحقيق أن يطلع على أسرار حسنها عقله الشارد
للتائه أعجب ما في الدنيا من عجائب ...

أند كحادثة المراف حسين عارف الذى اختلس
عشرة آلاف من الجنيهاً منذ شهر ؟ لقد اتضح
للمحققين أن التهم تمت بصلة القربى إلى الوجه
محمد بك النياوى ، فطلبوا إلى نيابة النيا إجراء
اللازم للاطلاع سراً على الخطابات الواردة للبك من
جميع أنحاء القطر لعل وعسى أن يمتروا بينها على
خطاب من اللص المهرب يهتدون به إلى المنطقة
التي بلوذ بها . وكانوا قد شددوا الرقابة على الحدود
فندا اللص محصوراً داخل القطر عرضة لقيود
البوليس في أى وقت . وظنوا لذلك أنه ربما دفعه
الخوف واليأس إلى الاستغاثة بقريه ذى النفوذ ...
وكان الأمر خطيراً ، لأن انتهاك حرمة
الخطابات إجراء لا يلجأ إليه المحققون إلا في ظروف
قاسية دقيقة ، وزاد من خطورة ما يتمتع به البك
من منزلة سامية في البيئات المالكية والأوساط
السياسية . وعرضت النيابة المسألة على القاضي ،

اختياره ... ومن الغريب أن نفسه كانت تهوى
الحركة والتنقل والمغامرات البعيدة ، وتبرم بالقيود
والجمود ولون الحياة الذى لا يتغير ولا يتبدل ،
ولكنه لم يعلم بمواقع البلدان إلا في كتاب الجغرافيا .
وأنى له أن يراها و كاهله بنوء بالفقر وسلاسل الوظيفة
المرهقة التى تسلبه وقته كله وتحتم عليه أن يكون
رهن إشارتها آتاء الليل وأطراف النهار ؟ ... ولشد
ما يمزجه الحرمان ويقتله التبرم . ولشد ما توزع
قلبه للشهوات وتنبث به الأحلام والأخيلة أو كم من
مرة يكون جالساً إلى مكتبه بدار النيابة ، ثم يشرد
عقله فتغيب عن عينيه الأوراق والدفاتر ، ويخال
المكتب مأدبة طعام حفلت بما له وطاب من فراخ
مخمرة ولحم مشوى وفريك بالحمام والبوظايس والرز
والهلبية والبقلادة والكنافة . أو يستحضر له خياله
صوراً فائقة مما علق به في الطريق فيرى صدرأ ناهداً
أو ردفاً ثقيلاً أو لحظاً كيلاً أو ساقاً ممثلة . وربما
جذبه الأوهام إلى وديان بعيدة فيخلق لنفسه دنيا
على هواه ويندمج فيها اندماجاً كاملاً ويستسلم
لأحلامها السعيدة ويظل كالنائم حتى يستيقظ على
نداء زميل أو لدعة جوع ...

ولكنه كان على كل حال يعلم - في أوقات
يقظانه - أنها دنيا خيال لا تتحقق على الأرض
أبداً ، حتى رأى النياوى بك ، فأمن بأن تلك الدنيا
التي حلم بها لنفسه تحققت في عالم الحقائق لغيره .
ووقع ما كان يظنه ممجزة

وحين انتهى من هذه الموازنة التمهيدية وبين
الشاب الوجه تهاد من صدر ثقيل ، ونظر فيما حوله
إلى السماء والأرض والبيوت والدكاكين والسابلة ،

وأذن القاضى للنيابة بفحص الخطابات بعد اقتناعه
بوجهة نظر المحققين ...

وكان عبد الرحيم يتتبع سير التحقيق باهتمام
شديد . فلما انتهى إلى تلك النهاية نهّد ارتياحاً
وأحس بفرح أثيم أن تتاح له فرصة الاطلاع على
خطابات محمد بك الخصوصية . أليس هذا انتقاماً
شافياً من الذى خلقته الدنيا عدواً له وغريباً ... ؟
واستطاع بالفعل أن يطلع على الخطابات التى وردت
للك فى فترة التحقيق ، وكان مرسلوها إما من
الأصدقاء أو التجار أو بعض شباب الحزب الوطنى
ولم تكن تحوى شيئاً ذا بال، ولكن أرادت المصادفات
أن تكتب إلى البك أمه فى تلك الفترة خطابين
غريبيين قد ينسى عبد الرحيم افندى ماضيه وحاضره
قبل أن ينسى مدلولها . وقد جاء فى الخطاب الأول
بعد المقدمات الممهودة ما يلى « ... أخبرنى الدكتور
بأنك لا تمنى باتباع نصائح وتعاليم العناية الرجوة،
وأنتك تهاون أحياناً كثيرة فتأكل ما تشهيه
نفسك وربما تباطأت عن تجديد الأدوية؛ وقد يبالغ بك
الاستهتار ألا تتماطلى الحقن فى مواعيدها المقررة .
والله وحده يعلم بما أحدثه كلام الدكتور فى نفسى
من الحزن والأسف . لأنى أدرك خطورة السكر
وضغط الدم وخاصة إذا اجتمعا . فخذ حذرك يا بنى
المعزى ولا تهمل صحتك واتبع بدقة تعاليم الطبيب
مهما كانت قاسية ، فلا تذق اللحوم ولا الصلصة
ولا المواد الدسمة ، وامتنع بتاتاً عن تناول المشروبات
والحموى ، وواظب دائماً على تماطلى الدواء عسى الله
أن يقيك شر المرض ويصون لى ولك شبابك .
واذكر دائماً أن أى إهمال لتعاليم الدكتور هو بمثابة
قضاء أبدى على بالحزن والألم »

وأما الخطاب الثانى فكان مختصراً لا يشفى غلة
المتطفل ويدل على تخرج كاتبته ولكنه كان عظيم
الدلالة وقد جاء فيه ما يلى « ... لماذا تشكو دائماً
يا بنى المعزى .. لماذا تكتب إلى دائماً هذه الكلمة التى
ينفر منها قلبى أشد النفور: (ليت الله يأخذ ثروتى
ويهبى السعادة) والحق أقول لك أن قلبى لا يسلم
بوجهة نظرك . وأنا على كل حال أمك ، ويحق لى
أن أقول لى فى هذا الشأن على الأقل أعظم منك تجربة
ومعرفة، لذلك تاهمنى نفسى بأن التوفيق بينك وبين
قربنتك ليس أمراً مستحيلاً كما تقول وتؤكد .
فأرجو أن تترث قبل أن تخطو تلك الخطوة الآلية
التى لم تكتب بها أسرتنا من قبل . وإنى أقترح عليك
أن تنفصلاً مؤقتاً عسى أن يشوب كل منكما إلى رشده
ويدير أمره بما يصون كرامته ويحقق له السعادة . »
ولبت عبد الرحيم زمناً لا يدرك كيف يصدق
ما طالمت عيناه ، ولا كيف يفوق من الدهشة والحيرة
اللتين استولتا على عقله . ومضى يتسائل تسائل
الحيران هل حقاً أن ذلك الشاب الذى رآه منتصباً
كالطود على منصة الخطابة عليل سقيم ؟ وهل حقاً
أن مرضين ويبلين يهددان شبابيه الغض بالدبول
والمناء ؟ وهل حقاً أنه مضطر إلى الزهد الأبدى
فى أطيب الطعام والشراب ليدفع عن نفسه غائلة
الملاك ولا ضمهلال ؟ ولن خلق نعيم الدنيا إذن مادام
يمز على الفقير ويؤذى الغنى القادر ؟ ... أليكون
وهو الضعيف المتهاك الذى لا يستطيع أن يتقى
شراً أو يدفع بلية أصح منه بدناً وأكل عاقبة
وأهناً حياة .

إنه على أى حال لا يشكو مرضاً ولا يعاني من
الدواء وألم الحقن . نعم إنه لا يستطيع أن يأكل

ما تشتهي نفسه ولكنه يتناول يوم الجمعة ما لا يستطيع أن يذوقه البك الوجيه إلا ويعرض نفسه لشر المرض وغدره . وقد تناح له فرص سعيدة فيدعى مع موظفي النيابة إلى ولائم فاخرة لمناسبات الترقى والملاوات فيأكل بشهوة نهمة ويشرب بشراهة مفترسة غير متحرج ولا خائف حتى ينتفخ بطنه ويفقد النطق والقدرة على الحركة .

ياغبيا ! فما فائدة المال ؟ .. كيف لا يبق صاحبه شر المرض والخاوف ؟ ... وكيف لا يشفيه إذا أصابه سوء ؟ .. كيف ينسل حزن من أحزان الدنيا إلى بيت تتمر خزائنه الذهب والفضة ؟ ...

على أن ذلك جميعه بدا لناظريه تافها إلى جانب المجيبة الأخرى التي يدل عليها الخطاب الثاني وتساءل في تهيب وخوف وعدم تصديق ترى هل يفرق شقاق بين قلبى الوجيه الثرى والفاقة الحسنة التي رأها تخطر إلى جانبه كلاك كريم ؟ .. ياله من تساؤل سخيف بعيد عن التصور . ومع ذلك فما الذى يدل عليه خطاب الأم الثانى ؟ ... رياه .. أى شيطان ما كرا استطاع أن يسمى بالفساد بين هذين المخلوقين الجليلين ؟ ... أبطم البك فى امرأة تفوق زوجه حسنا وجالا ؟ . أم تتوهم الزوجة أنه يوجد بين الرجال من يفوق زوجها شبابا و ثراء ومكانة ؟ .. فما الذى عكر صفوح حياتهما وجعل البك يجأ بالشكوى ويصارع أمه بأن التوفيق أصبح مستحيلا ؟ ما الذى جعل البك المجنون يتمنى الفقر الذى لا يفقه معناه ويزهد فى ماله وجاهه ؟ ..

واشدت به الحيرة وغلبه القهر ومضى بضرب أخماسا لأسداس ... ترى أيهما المستول عن هذا الشقاء الزوج أم الزوجة ؟ ... أليس الظاهر من

شكوى البك أن الزوجة هى المتعجبة عليه ؟ .. فهل جنت هذه الشابة الحسنة فهي لا تبصر ولا تعقل ؟ كيف لا تحب هذا الشاب الكامل ؟ . وإذا لم تحب محبة بك النياوى فمن عسى أن تحب من الرجال ؟ .. وبدت له هذه الأسئلة التى يراها المجربون غاية فى التفاهة والابتذال ألغازا مستعصية على كل حل ومجائب خارقة تعدل المعجزات ، وتوهم عقله المريض الذى أنهكه الحرمان أن هذه الحقائق دليل على الانتقام الإلهى من الأغنياء . فالدنيا تعطيم مالا وجاهاً والله يسومهم سوء العذاب والمرضى ، ولكن لماذا لم يعف الفقراء من ضريبة الشقاء والعذاب ؟ ومهما يكن من الأمر فإن عبد الرحيم لم يشمر نحو غريمه بشيء من الرحمة أو الرأف ، وعلى العكس من هذا وجد فى شقائه شقاء لحقه وسخيمته وعزاء عن حرمانه وقهره ...

وقد التقى فى ذلك الوقت بالشيخ ابراهيم سليم فأفضى إليه بالسر الرهيب وقال له دهشاً وهو يضرب كفاً بكف :

— أنظر يا أستاذ إلى عجائب الدنيا ! ولكن الشيخ ابراهيم هز رأسه استهانة وقال برزائه اليهودية :

— ألم تسمع يا بنى بالقول الحكيم : (لو اطلعت على الغيب لاخترتم الواقع) وما أنت ذا تطلع على خبيثة أكبر الناس حظاً من حسد الناس فكيف تجده أحق بالرأف منى ومنك ... أليس كذلك ؟ فتغلب طبع الشاب المريض عليه وقال بمحبة :

— كلا يا شيخ ابراهيم . لست أقل منه شكوى أو شقاء . بل إن شقاه يهونه السال أما شقائى فلا يهونه شيء ، أتقول اخترتم الواقع ؟ ... كيف

أختار الواقع إذا كان يبسط أمامي مستقبلاً مظلماً
تافهاً وفقراً مدقماً ويضع على عاتقي أباً شيخاً وعشر
أخوات وعمتين ؟

فقال الشيخ :

— إن الله لا ينسى مخلوقاته : ألا ترى أنه يرزق
الطير على غصون الشجر ويطعم النمل في مراديب
الأرض ؟

— أرى حقاً أن النمل يجد رزقه سائماً ،
أما عبد الرحيم جاد الكاتب بنبابة الدنيا الأهلية
فلا يذوق اللحم إلا يوماً واحداً في الأسبوع ،
وأصبحت الطعمية تأكل معدتي وليس معدتي
التي تأكلها

فقال الشيخ بلمجته الهادئة :

— القناعة ملاذ المؤمنين

— إنا جميعاً مؤمنون ولكننا لانفي عن الشكوى .
الكل يشكو ويشقى . والظاهر أن الدنيا هي أصل
البلاء . وكأني بها تطرب لأنات الشكوى والألم
فهز الشيخ سليم رأسه بقوة وقال بحدة :

— من أخطر الأخطاء التي ترتكبها أن نغل
الشيء بغير أسبابه الحقيقية فنخلق لأنفسنا مشكلاً
غير قابل للحل ومستصعباً على العلاج ، ومثل اتهامك
الساذج هذا للدنيا مثل اتهام العوام للشيطان أو العين
الحاسدة أو لتناول اللبن والسمك يوم الأربعاء .
ما ذنب الدنيا ؟ هل الدنيا هي التي جعلت المتياوي بك
يفرط في الأكل والشراب والاستهتار حتى وقع
فريسة للأمراض ؟ أم هي نفسه الأمانة بالسوء ؟
الإنسان هو السبب الجوهرى في إسعاد نفسه
أو شقاءها ... أنظر إلى " يا بني . أنا إنسان سميد
لا يعرف الشكوى ، وقديماً خبرت حالي بعين فاحصة

وقلت لنفسي جاداً : حري بمن كان حاله كحالي ألا يأكل
إلا كذا من الطعام وألا يرتدى إلا كيت وكيت
من الثياب وأن تقتصر ملاهيته على هذا وذاك من
الملاهي البريئة . واتبعت نظاماً دقيقاً لا أحيد عنه
ولا أنطاع إلى سواء حتى أنه لا يوجد من الطعام
في الدنيا إلا ما آكله ، ولا من الثياب إلا ما أرتديه
ولا من الملاهي إلا ما أتلهى به . فلم أرمق بعين الحسد
من فضلم الله على بالآلاء والنعم وتمزيت بذكر من
فضاني الله عليهم فقدر لهم حظاً دون حظي وعشت
حياتي قانعاً سميداً لا يني لساني عن الشكر والحمد .
ولكل حياة سعادة وتوأمها يستطيع الإنسان أن يفوز
بها إذا راض نفسه على الرضاء والقنوع وسداد
النظر . ولو أني تركت نفسي تهيم في وديان الأمانى
والأحلام الخلب لأضلتنى شقاء وشكوى ولم تجدني
شكواي شيئاً ... فقال عبد الرحيم بتمرد جامع :

« إذا كانت هذه هي القناعة فهي الموت . وأنا
لا أدري ماذا كان يكون حال الدنيا لو آمنت بحكمك
هذه . هل كانت تكتشف أمريكاً ؟ هل كانت تستغل
الناسم وتستثمر الأراضي ؟ ... هل كانت تقوم
الثورات وتخلق المبادئ والأنظمة ؟ .. هل أستطيع
بالقناعة أن آكل ما تشبهه نفسي ، وأن أسعد
أخواتي وأبي ، وأن أشقى في أسوان وأصطاف في
الاسكندرية ... وأن أتزوج امرأة حسناء وأخلف
بنين وبنات ... ؟ هل السعادة أن أقنع نفسي بأنه
لا يوجد طعام في الدنيا سوى الطعمية والقول
الدمس ... وأنه لا توجد بها ثياب إلا هذه البذلة
للقدرة الملهمة ... وأنه لم ترفها نساء قط ؟ ... »

فضحك للشيخ إبراهيم وقال :

« المسألة قناعة أو لا قناعة . والذي لا يقنع

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الطائف

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي مبادئه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل
طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة وصدر منذ قليل

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زغاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة
ويباع في جميع المكتبات الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

لا يقنع ولو ملك الدنيا . فكما يشكو عبد الرحيم أفندي
يشكو محمد بك النياوى . وإذا كان ذلك كذلك
فما جدوى للتغيير ؟ ... أراك تهم بالاعتراض على ..
مهلاً فقد وجبت صلاة المصر وليس لدى متسع
من الوقت ولن أقول لك إلا كلمة واحدة : إذا
استعلمت أن تحول التراب إلى ذهب كأبناء أمريكا
فافعل .. وإلا فاقنع . هل تجد سبيلاً غير هذين ؟ ..
ولكنه لا يستطيع أن يحول التراب إلى ذهب ،
ولا يستطيع أن يقنع ويرضى . وهل كان محمد بك
النياوى حول التراب إلى ذهب ؟ وهل في مصر
كلها من حول تراباً إلى ذهب ؟ ... ومع هذا فيها
من يتقلب على الذهب وأغلبها يمرغ في التراب .
ما ذنبه أن يكون هذا نصيبه من الدنيا ؟ ...

وانتهى التحقيق في جريئة الصراف بالقبض
عليه كما يذكر للقراء . واستدعى رئيس نيابة
النيا حضرة صاحب العزة محمد بك النياوى ليخبره
بما اتخذته النيابة نحوه من الاجراءات السرية ،
وحضر الوجهه إلى دار النيابة فرآه عبد الرحيم للمرة
الثالثة ؛ ولكنه لم ينظر إليه هذه المرة بالعين التي
نظر إليه بها في المرتين السابقتين . نعم لم يزل يمدد
عدوآله ، ولكنه عدو حقيق بالثناء على أية حال .
وقد ابتسم لرآه ابتسامة ساخرة كأنه يقول له لانت
عجياً ، ولا تمس في الأرض مرحاً ، فأنا أعلم بما
وراء هذا الحسن والشباب من البلاء والشقاء

آه لو يتكاشف الناس ! ... آه لو تعلن سرائرهم
للأعين كوجوههم وثيابهم ! ... ألا يبدون حينذاك
كالأموة بائسة ؟ ...

ولكن ما عسى أن تكون اليد التي تلعب بهم
على هذا الوجه المزرى ؟ من الذي يحمل تبعه هذا
السخف المحزن .. الدنيا كما ظن هو ، أم الانسان نفسه
كما يظن الشيخ ابراهيم ؟ ... يجب محفرظ

من مضاجعته . ولما قامت
زوجتي في الأمر تهلل وجهها
وقالت :

— يا لها من فرصة سانحة
تجمع بيني وبين مستر هولز
وما أطيب الأيام نقضها في كنفه
على شاطئ البحر . وفي الساعة
الثامنة من صباح السبت التاسع

من شهر فبراير سنة ١٨٩٠ قصدت إلى مكتب
شركة الأسفار في بوند ستريت فتقاضينا التذاكر
وأجازات الرحيل لمركبة النوم والطعام . وبعد الظهر
بساعة واحدة تحرك بنا القطار من محطة تشانج
كروس . وعند الساعة الرابعة انتقلنا إلى باخرة
الغنال الانجليزي فتناولنا للشاي قبل أن تطلأ أقدامنا
أرض فرنسا في ميناء بولوني، وكان القطار السريع
يفتقر الركاب على إفريز البناء فتبوأنا مقاعدنا في
عربة عريضة مديدة مكتوب عليها بالخط الكبير
بولوني سيرمير — نيس ومونت كارلو . فصرخت
زوجتي صرخة صغيرة تدل على الفرح وقالت : هلو
يا زوجي العزيز ! قد آن الأوان أن نقضى أجازة
تموض علينا شهر للمسرح الذي لم تتح لنا الأيام فرصته
فابتسم هولز وقال : ويل للشجي من الخلى !
ما أسهل ما تلتمس المرأة أسباب السعادة وقال :
الغاية الأولى الاستراحة والاستجمام وشهر المسرح
يأتي مؤجلاً . بيد أنني لا أرى لذة في شهر المسرح
بعد مولد الطفل الأول ، إنما تكون لذة للموسمين
خالي البال

فضحكت وقلت له :

— من يسمعك تحكي هذا القول يعتقد أنك

غرفة الجرائد البريطانية

للكاتب الإنجليزي سير آرثر كونان دويل
يقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة

روى الدكتور وطسن قال :

كان لحادث الهندي أثر عميق في نفس هولز
فقد ساق رجلاً وامرأة إلى المشقة على أهون سبيل ،
ولم نمد نرى الوالد المشكول بعد تأدية شهادته في
محكمة أولد بيلي . وقد طلب هولز من القضاة أن
يقبلوا الرض لاسمه بحرفي الكاف والهاء أمام الجمهور
وأن يكتفوا بتقرير كتاب بدل الشهادة الشفوية
المسبوبة بالقسم التي يحتمها القانون ، ولكن مخبري
الصحف لم تفهم حقيقة الأمر ولم تخف عنهم خافية ،
فذكروا في جرائدهم أن بطل هذه المأساة هو مستر
شرلوك هولز نفسه كالعادة ؛ وقد بز رجال الشرطة
الرسمية ولكنهم في النهاية يحصدون ثمرات جهوده ،
لأنه يحب الاستخفاء كغيره من الهواة . فقال لي
هولز : خير لنا أن نقضى بضعة أيام في ريميرا ،
وهو شاطئ الذهب ومشتى الأعيان والسراة في
جنوب فرنسا ، استجماماً وفراراً من هجوم جيش
من طالبى الفتيا وهواة الاستشارة . فأبدت له
مماذيري وتلكأت في إجابته متملاً زوجتي وطفلي
الذي ما زال في المهد رضيعاً ، ولكنه لم يأنه لقولي
وقدم لي شيكا دسماً قائلاً : « هذا لتوظيف طبيب
ممتاز يحمل علك في عيادتك » فعملت أن لا مناص

السبعين إلى وقتنا هذا ، فإن الحرب الحاضرة بين مولدايا وزيندانايا مقدمة لحروب أخرى سيرها العالم ويخوض غمارها وهذه الحروب كلها ستكون أسلحتها الماضية وسائل التجسس قلت : مصلحة الأخبار^(١)

فضحك هولز وأشار لزوجتي وخادمتي بالانصراف بعد أن شربنا الشاي وأكلنا الكعك والخبز المتعدد الموء بالزبدة والربي

وقال لي : سمها ما شئت ، ولكن اعلم أنني أنا الذي أسست هذا العمل الضخم ورسمت خططه ، فأخذوا في تنفيذه بمخافيره دون أن يستشيروني في وسائل التنفيذ . ومن هنا

فبدت علي علامة الدهشة ، لأنني لم ألحظ في أثناء احتكاكي به أنه تدخل في النشاط السياسي ، ولم يكن يدير حرب مولدوفيا ضد زينداناويا أقل اهتمام فقال لي :

— أيدهشك ذلك يا وطسون ؟

قلت : لا ، ليس ثمة ما يدعو إلى العجب من ذلك ، فإن من له ذكاؤك وخبرتك يستطيع أن يفعل ما فعلت دون عناء أو مشقة . ولكن أين الشخص الذي تتوافر له الفطنة والخبرة . فإن رجالاً مثل آشندين وكروسويل وجراسقارم جديرون بأن يكونوا تلاميذك ، والآن فقط أدركت سر عنجهيتهم وانتفاخ أوداجهم قائمهم يسرحون ويمرحون على شهرة خطة أنت مدبرها وسبيل عيبتها لهم . فقال هولز :

— الواقع أن شيئاً لم يستمع علي في بلوغ غايي ... وأثناء دراستي مكنت أجمع المعلومات الخاصة بوسائل التجسس المولدوفي والمجروسوفاني

(١) Intelligence debaitment

خبير بنظم الزواج وطبائع النساء . وكنا قد اتخذنا مقاعدنا في مركبة المائدة ، بعد أن كافنا حارس القطار بتصنيف أمتعتنا في أماكنها . وطلب هولز إلى النادل أن يحضر قناني البياض المعدنية التي يشربها ثم أمر لنا بالشاي ، وكان شديد العناية بمس جولدز هامر مربية طفلي الصغير . وكانت ألمانية غضة بضعة حمراء الوجنتين كأنها تحمل على خديها وردتين من ورود الربيع فأطلق عليها هولز اسماً جديداً يداعبها به وهو : « فراولايين بروز » فسرت بهذا الاسم كثيراً وسألته إن كان يتكلم الألمانية ، وكانت خادى هذه من البساطة بكان عظيم ، فقال هولز لها وهو يتنسم : « بضع كلمات لقفها من أفواه الناطقين بها » ثم سكت برهة وقال لي :

— أتذكرها يا وطنس ؟

وكان لا يذكر ضمير المؤنث الغائب إلا وهو يقصد إليها : إلى السيدة جوز بند أدلر ، بطلة تلك الفائرة العريقة وهي فضيحة في بوهيميا . وعند ما نطق باسمها لحث في عينيه برقاً عجبياً ، حتى لقد سألت نفسي : هل تركت تلك المرأة في نفسه أثراً . وهل كان يحبها لو أن الحب مما قسم له في هذه الدنيا ؟ هذا ما لم أستطع الجواب عليه . كان هولز يبدو لي ذا شخصية غامضة كل الغموض ولا يظهر منه إلا ذكاؤه الخارق كأنه مصباح نافذ الضوء في وسط الضباب . فقلت له : نعم ومن ينس تلك المرأة ، يحرم نفسه أجل ذكرى وأوقمها وأبقاها

فقال هولز : إن فضلها علي في هوايتي أعمق أثراً من جمالها أو حشكتها أو سمة حيلتها أو دقيق فكرها ، فلولاها لم أكن لأنصل بتلك الدوائر السياسية التي كان لها الشأن الأول منذ حرب

وكان القطار السريع يطوى سهول فرنسا ووديانها ويخترق الحقول والبطاح ويصعد في الجبال ويعر خلال الأنفاق وينساب تارة كالأفوان وطوراً يندفع كالسيل النهر . ونحن من هذه المركبات الفسيحة في نعمة لا يقدرها إلا القليل من أهل الفطنة ، فهنا مجلسك ومطعمك ومنعمك ومشربك ومفناك على عجل يتحرك ويدور بسرعة ثمانين ميلاً في الساعة الواحدة

وكان القطار يقف في المحطات الكبرى دقائق معدودة . وعند ما يبلغ محطة كبرى مثل ديجون أوليون ينزوي هولز فلا يبدو لأحد ، ثم أراه يصعد فجأة قبيل تحرك القطار بقليل ولا أسأله عن مكانه أو مسرحه أثناء وقفة القطار . ولما كانت الساعة التاسعة تناولنا طعام المشاء وعلمنا أن القطار يبلغ ثغر مرسيليا عند الفجر ثم يمرج على ثغر طولون الحربي ، وكان هذا الحصن البحري مقلداً من الجانب الشمالي فلا تظاه قدم المدنيين بسبب الأعمال الحربية القائمة على ساق وقدم .

ولم يكن ثغر طولون أو صرفاً بونابرت أو حياض الاسلح والتعويم الهولة التي بناها مهندسون بحريون من فرنسا وإنجلترا هي التي تهمني في تلك اللحظة ، ولكن الذي كان يهمني زيارة مونتكارلو وكان أنيسي في صحبة امرأتى ونجاتنا نحن وطفلتنا الصغير من أهوال البرد الفارس في إنجلترا أثناء هذا الفصل الشديد الرطوبة والضباب ...

وأيضاً ... وهذه مسألة أخجل من ذكرها ، فضلاً عن تدوينها ... تجريب حظي على مائدة اللعب في مونتكارلو ... فنحن الأطباء نعلم أن القامرة أظهر معالم الحظ في الحياة . وهي تتفق (٤)

ووجدت السبل إلى إحاطة إدارة المخابرات في لندن وباريس ببعض المعلومات المهمة في أوقات متعاقبة فقلت : أ. كبر الظن أن فرنسا وإنجلترا والجمهورية الأمريكية أفادنا من وسائلك

قال هولز : نعم ، ولكن ليس هذا الذي يكرهني ويكرهني في الوقت الحاضر ، وإنما الذي يكرهني انتقال ذلك الداهية للشديد الخطر ، الذي يعتبر الحياة رقعة شطرنج ببادتها وقلاعها وفياتها ملوك الأرض وسواس الدول

قلت : أتقصد إلى البروفسور موريارتي ؟ قال : هو بنفسه فإن هذا الرجل لا وطن له ولا دين ولا ملة ولا عقيدة ولا ضمير وقد باع نفسه لأعدائنا بنصف مليون جنيه ذهباً تسلمها عداء ونقدأ وسمح له بأجازة حتى تمكن من إخفائها في مكان مجهول ، ثم عاد وانقطع إلى محاربتنا بمقله قلت لهولز : وعلام استقر رأيك ؟

قال : لقد استقر رأيي على إحباط مناورة مهما كلفني ذلك من جهد . غير أني أدركت أنه لكي أتبعه إلى بلاد الأعداء يجب على أن أخترق فرنسا من شمالها إلى جنوبها

قلت : إن هذه المطاردة هي الأولى من نوعها ، لأنك خبرتني من قبل أنك لن تمكن هذا الوغد من مقارنة مواهبه بمواهبك

فقال هولز : صدقت يا وطني ولكن هذا الشيطان مزود بأوراق تكفل له خداعة رجال المخابرات المصرية الإنجليزية والفرنسية وقد وفق في اختيار الاسم الذي انتحله لشخصيته الجديدة فضلاً عن أنه يبدو للناس متواضعاً ، رضى الخلق ، مثقفاً لا تفارق الانسامة شفثيه الدقيقتين حتى في أخرج المواقف ...

وصنعنا اتفاقاً تاماً . فان صنعنا حظ وحذر وكذلك القامرة . ولكن مالى أراى قد اندفعت فى تسجيل خواطرى ؟

عند الفجر بلغنا مرسيليا وعند الظهر كنا فى مرفأ أنتيب وهو ركن من جنة الفردوس فى وسط الشتاء . واتخذنا موطناً مؤقتاً ، وموثلاً فى فندق « جرانداوتيل ريش » وفى الحق أنى شديد الدهر من أسماء هذه الفنادق التى تدور على العظمة والثراء وتبعد عن البساطة التى تتبعها فى تسمية فنادقنا الطيبة الهادئة . وكانت شرفات ذلك الفندق الفخم الذى تطل على البحر بطبيعة الحال ، كما أن له بستاناً نخلاً فى جنوب البناء فيه لفائف الأشجار وبدائع الأزهار ولذائذ الثمار .

وفى الليلة الثانية استأذنته فى السفر إلى مونتكارلو فاستمهنى يوماً وليلة .

وقد لقيناه فى إحدى شرفات الفندق المطل على البحر وكان متكئاً بمرفقيه على حاجز الشرفة وقد تجلت فى عينيه نظرة لامة وإن كانت ساهمة بما دلنى على أنه مستغرق التفكير ، وظل ينقل بصره بين صفحة المساء ووجه السماء الذى زيفته العناية بأضواء ومصاييح كأنه يريد أن يستشف ما وراء الحجب .

وقد هالنى وآلمنى أن يقضى هذا الرجل العجيب حياته بعيداً عن عواطف الحنان والرحمة التى يمكن أن تسبغها على قلبه للكليم امرأة مخلصه ودود ، ولكن أنى لى أن أعبر له عن إخلاصى وحبى إياه ورغبتى فى إسعاده ؟ لقد خيل إلى أنه يشعر بالخوف ، لا من الموت ولا من المرض أو الفاقة ، ولكن خشية أن يدمه القدر قبل أن تحين الساعة الزهية

التي يتألف عليها ، تلك الساعة التى يقضى فيها على الرجل الذى باع دينه وشرفه وعقله ليبيع وطنه للأعداء . لقد خيل إلى أن هذا كل ما يطلبه هواز من الحياة ، فإذا تحقق هذا المطلب فليكن بعد ما هو كائن . لم يكن حب الوطن وحده ، أو مقاومة الشر أو رغبة الانتصار على خصم قوى عنيد هى التى تحركه ، بقدر ما كان هواه فى تخليص الإنسانية من ذلك العقل المجرد الذى يلبس الشر ثوباً محكماً على أجزائه .

وفى صباح اليوم التالى قامت مستر هواز فى رغبتى ، ولشد ما دهشت عندما علمت أنه هو أيضاً يرغب فى مشاهدة مونتكارلو وذلك « الكازينو » الفخم الذى يزيناها . وكانت الشقة بين أنتيب وعاصمة موناكو ضئيلة . وكان هواز قد احتجز لنا بالتلفون مائدة فى البهو البلورى الذى نسقته يد الأناقة والبذخ أجل تنسيق . وكان هواز بمجد الفراغ من المساء يجوس خلال القاعات الأرجوانية الفخمة التى مدت فيها موائد اللعب الخضراء . وللمرة الأولى وجدته مستغنياً فى زى كونت إيطالى بلحية كثة مستطيلة ومرعان ما التفت حوله فربق من بنى جلده المزعومة كان يتحدث إليهم بلهتهم بفصاحة تادرة . وكانت زوجتى قد أتقنت تلك اللغة فى أوقات الفراغ .. وفجأة شق تلك الصفوف رجل قصير القامة عريض المنكبين وأخذ يتكلم بالفرنسية الفصحى اللغيف من السيدات والفتيان الذين جاءوا ليقضوا إجازة آخر للعام وقد أصغيت إليه وتخلت عن الحلقة التى كان يقف حولها هواز فقال :

« إذا حدثتكم أنفسكم باستغلال شهرتكم أو ثروتكم والتوسل بها لأغراضكم الشخصية وشهواتكم البدنية

ليس في اللعب. ليس من أسو له. وآخر يقول: عليك أن تطيع وتنغذي ! ليس من شأنك أو شأن أن نجادل

ورأيت الكونت كاسياني يشق الصفوف ويهمس في أذني: خذ حذرك من الظلام. ولم يكذب ينطق بهذه الألفاظ حتى أطفئت الأنوار فجأة ولم يبق في الغرفة ضوء ثقاب، وساد المهرج نخطوت إلى المين خطوة وقبضت على يد زوجتي وسحبته متقهقراً وإذا بصوت يدوي كالرعد :

— لقد خاطرت بحياتك يا موريارتي وخلطت بين الحياة في السياسة وبين سرقة قطاع الطريق . هل قبضت عليه يا جريفيين؟ لقد سهلت الأمر لكم . واختلطت أصوات النساء بأصوات الرجال وسمعنا طلقات الرصاص في الظلام وتحطم مرآة كبري ، واستغاثة وصغيراً، وقد أخذت حذري كما نهت منذ هنية وقادتنى الغريزة وزوجتي إلى باب الخروج بعد أن اصطدمنا مرتين أو ثلاثاً في عمود من الرمر الوردى أو في مقعد مقلوب كدنا تتمثر فيه ، لولا أن الله سلم . وكانت ساحة الكازينو الكبير هي الأخرى مظلمة ، ولكن نجدة المشاغل قد وصلت إلينا فخرجنا جميعاً صاخبين صارخين وقد سلبت النساء حليهن والرجال تقودهم وبعض أسلحتهم ، وكان بودي أن أفدى هولز بحياتي لو أمكنني الاهتمام إليه وقد تبينت كل ذوى اللحي فلم ألهه بينهم ولم يكن يخيفني شيء عليه بقدر القدر . فان موريارتي وأعوانه لا يترددون في أن يوردوه الردي بخنجر خائن أو وخزة دبوس مسموم ، وقد حشدنا جميعاً في بهو المطعم الكبير ولم نستطع حركة وبقينا ذهن تحقيق البوليس

المادية ، فالويل للإنسانية منك والويل للحقيقة من شموذتكم والويل لأبطال الرأفة والرحمة والمدل والحق الكريم من خيانتكم ونكرانكم وجحودكم ستكون أحسابكم وأنسابكم وأماؤكم أكبر مساعد لكم على خداع السذج ومضاعفة الأغلال في أعناقهم. لقد أدعشكم أن تجردوا الناس والمجتمعات تسير على نظم تخالف ما تفرضه الفضيلة فلا يأخذنكم المعجب لأن السلطان لا يزال بأيدي المشعوذين والدجالين . وفي الوقت الذي يسيطر العلماء التخصصيون على القوى التي تدير العالم ستحل مشاكل كثيرة . ستجدون أناساً يصفون الأبيض بالسواد والأسود بالبياض وآخرين يمجّدون الجبروت والظلميان ويحتقرون من تملأ قلوبهم عواطف الرحمة والحنان وينمتونهم بأهل الخيال والسخف . ستجدون لصوصاً ينحني الناس أمامهم لخوف لا لاحترام ، وقد يقدمون شرفهم وضائرهم وكرامتهم لتداس بالأقدام ، ومثل هؤلاء كتل الجندي الذي يتسلم السلاح والعتاد للدفاع عن وطنه فإذا ما اتى كفة العدو هي الراجحة انضم إلى المنتصرين وسدد نار سلاحه إلى قلوب بني وطنه وأهل جنسه

وفي تلك اللحظة كان الكونت كاسياني أو كاسيني يقترب من حلقتنا شيئاً فشيئاً وهو يصني إلى كلام الرجل .

ثم استدرت لحظة واتجهت نحو المائدة الوسطى المستطيلة وهي التي عليها لعبة الروليت الشهيرة وكان « الكروبييه » وهو الموظف الموكل إليه حصاد المال وتوزيعه بين اللاعبين يقول : لا شيء ينزل إلى المائدة، لقد تمت الصفقة . ادفموا نقودكم ورسوها رساً قبل الختام . فسمت خلقى صوتاً ناعماً يقول :

يزدهى في « ثوب المساء » المحكم التطريز ، المحبوك الأطراف

ولم تكده عينه تقع على حتى قال :
لقد كانت غزوة موفقة ، فقد البنتك أثناءها مليوني فرنك ، وفقد النساء نصف حلين ، والرجال بعض أموالهم . ثم ضحك ضحكة عالية . أما نحن فقد خسرنا موريارتى ، ولم نتمكن من القبض عليه ، وإن كنا قد سمعنا صوته واعظاً .

فقلت : وماذا نكسب إذا خسرنا موريارتى ؟
أجاب وهو يتشم ابتهامة عريضة حلوة :
لقد كسبنا غزو بلاد إنجلترا واسكوتلاندا وإيرلاندا بلاد الغال . وأخرج من جيبه خريطة ملونة ونشرها على المائدة . وقال :

والذى يفرحنى وأغبط له أن هذه الخريطة مفردة وقد احتوت على مفتاح الشفرة ، فلا نحتاج لعناء حل رموزها ، لقد أعدها موريارتى فى خلاصة دراسة عشرين عاماً وتجسس خمسة أعوام . خذها يا وطنى وسافر فوراً إلى لندن . إن لورد كراوبروك أوف كاتتورباج ينتظرك فى دوننج ستريت وأبقى زوجتك معى وخادمتها كذلك ، وفى أثناء غيابك ... سيقبض على أياماً معدودة ، ولم يكده ينتهى من حديثه وأفرغ من طى الخريطة ووضعها فى أخفى مكان فى ثيابى حتى تقدم إلينا أربعة من الشرطة وقال أحدهم بلفسة مونتكاتيني : سنيورى أيكما سنيو سارلوكة هوليز؟ فأشار هوليز إلى وقال : أما أنا فصاحبه دكتور وطنى ، نخلوا سبيلى وألقوا القبض عليه وبمسد عشرين ساعة كانت خريطة الغزوة البريطانية فى إحدى خزان وزارة الحربية وقد اجتمع الوزراء لدراستها وفحصها .

محمد لطفي صفة

وفى الصباح خرجنا من اليوم مبللين ممزقين مهللين ، ومشينا إلى فناء الكازينو بخطى متثاقلة . وكان الفناء ينص بزائرى الكازينو الذين أطفئت عليهم الأنوار وسلبت تقودهم ورأيت ضباط البوليس للسرى وهم يستجوبونهم فرداً فرداً بينما كان مدير الكازينو وحصاد المال « كروبييه » عند الباب الكبير ينتظرون الأوامر

وكان من البعث أن يرفض أحد اللاجئين الإجابة عما باقى إليه من الأسئلة أو الامتناع عن تقديم « جيوبه » أو حقيبة اليد للتفتيش والفحص الدقيق وإبراز الوثائق الخاصة بتحقيق شخصيته ومركزه الاجتماعى وماضيه وعمله فى الحاضر وما يعتزم للقيام به فى المستقبل ، وكان أى تردد أو تلعثم أو ارتباك كافياً لأن يسيد أحدنا إلى المظلم مقبوضاً عليه . لم أندم فى حياتى على شيء ندى على موافقتى على اقتراح هوليز فى مصاحبته إلى شاطئ ريفيرا . وكان الذى يهمنى أكثر من كل شيء خوفي على أعصاب زوجتى من الاختلال فقد تمزق نياط قلبى من الظلام والخوف . وقلق اللبال على هوليز الذى افتقدته ... وقبيل الظهر وصلنا إلى الفندق ونحن بحال من الأعياء لا مثيل لها . ولكن كان همى الأول أن أعلم ماذا حل بهوليز الذى سمعت صوته بلا ريب وكان متزيماً بزي الكونت كاسيانى .

أما زوجتى فقد لثمت الفراش عليه مما أصابها من الانزعاج وببللة الخاطر .

وفى الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم دق تليفون الغرفة التى تقطنها زوجتى وأنا ، وإذا بهوليز يستبطنى حركتنا فى مؤاكلته على مائدة العشاء . فلبينا دعوته مبتهجين . فالفينا حليقاً سعطراً منغماً

الابى الشاكى

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّة
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

مسحة من الشقاء والبؤس
لأنها تفضى في سبيل حياتها دون
أمل أو رجاء . ولكم صرحت له
أنها على استعداد للتنازل عن أعز
ما تملك مقابل أن تنجب طفلاً ..
ولكن الأبناء — وبالألف —
لا يشترى بالمال ، وإلا لما استطاع

العامل الفقير أن يرى حوله عدداً كبيراً من الأبناء .
إنهم هبة الله ونعمته يوليهما من يشاء من عباده
ثم رفع فتحي وجهه إلى أعلى وتتم في حرارة
وإخلاص :

— اللهم هب لها من لئلك طفلاً
وظل ينظر إلى أعلى فترة طويلة كأنما أحس
الراحة في الاتجاه إلى الله في هذا المطلب الذى خرج
تحقيقه عن طوقه وقوته . ثم أخذ يخفض بصره
رويداً رويداً حتى وقع على زوجته ، فلمح الدموع
تساقط من عينيها ، ففاض قلبه بين جنبيه وهتف
وهو يفادر مكانه إليها :

— سميرة !
وجثا تحت قدميها ثم رفع وجهها المخضل
بالدموع وقال :

— أتبيكين يا سميرة ... ؟ أنت مجنونة ؟
خولت وجهها عنه كأنما أخجلها تساقط دموعها
ثم مسحت عينيها بمنديلها الموشى الصغير وقالت :

— لا شيء ... دعنى ... دعنى بربك
— إننى أعرف لماذا تبكين ، ولكن ماذا نفعل
ولا حيلة لنا في الأمر ؟
فالتفت إليه بسرعة وأنعمت فيه النظر لحظة
قصيرة ، ثم ابتسمت في تهكم وقالت :

... ومضى فتحي ينظر إلى زوجته نظرات
تفيض بالحنو والاشفاق وهي تجلس قبالة مطرقة
واجهة ... كأنها تحلق بروحها في أجواء هموم
وأشجان طوتها فجأة فأنستها زوجها الذى كان
يحادثها منذ لحظة ... وكانت في وضعها هذا برأسها
المستقر بين كفيها ، وشمرها الوحف المرسل ،
وجسدها اللدن اللين ؛ تبدو عند أهل الفن وحيّاً
صادقاً للجمال الحزين

كانت سميرة — وهذا اسمها — هى التى كفت
عن الحديث فجأة عند ما عرض اسم نبيل ابن
جيرانهم ، واسترسلت في أفكار تملكها فوراً ،
فتقلصت ملامح وجهها الساحر وارتمت عليه علامة
اليأس الشديد

وقد احترم فتحي صمت زوجته إذ كان يدرى
الواقع القاسى الذى زجها فيه . كان يعلم أنه نكاح
الجرح الذى في صدرها بذكره اسم نبيل ابن
جيرانهم ، فقد لوح لها بشيء هى محرومة منه ،
وتحس الشقاء والبؤس في هذا الحرمان

لقد كانت أمنيته الوحيدة عقب أن يبنى بها هى
أن ترزق طفلاً ؛ أما وقد انصرمت ثماني سنوات
على زواجها منه ولم تنسل ، فقد ضاعت آمالها
وانهارت آمانيها ، لذلك كان يغشى وجهها الجليل

— ماذا تفعل ... ؟ أجل ماذا تفعل

كانت تعلم أنه فكر كما فكرت هي في أن يسند الأمر إلى طبيب ليرى أيهما المقيم ، بيد أنه لم يفعل مخافة المزعجة . لقد استشفت منه هذا الاحساس من حديث لها في هذا الأمر . ولا ريب أنه محق في خوفه ، لأنها تحس إحساساً صادقاً بأنها كآبة امرأة أخرى فيها الاستعداد للانسال وللنفت إليه فجأة وقالت :

— ومع ذلك ففي وسعنا أن نصنع شيئاً

— ماذا ؟

— لماذا لا أذهب إلى طبيب ليفحصني ، ومن ثم يماجنني إذا كان المقيم مني ؟

وكان في جلستها تمرض بفتحي ، بيد أنه لم ينتبه إليه إذ قال :

أخشى أن تذهب هذه المحاولة سدى . فاني أعلم أن الأطباء لا يملكون — على رغم تهويلهم — في ذلك الأمر شيئاً

وتوقف قليلاً ثم استطرد :

— وما يدريك ؟ لعل أنا السبب

فمادت سميرة إلى إطرافها ولم تجب

كانت سميرة تحس في نفسها فراغاً كبيراً لا يملأه إلا وجود طفل لها يضيء حياتها المظلمة . أجل ، لقد أحست فجأة وعقب أن هدأت نشوة حبها وخذت شملة غرامها — بحياتها يتكاثف فيها الظلام ويتوالد حتى أضحت قاعة مدلهمة تتخبط فيها يائسة القاب ، مفرحة الجفن . لقد أولاهها الله من نعمته كثيراً ، ولكنه حرّمها النسل والولد . ها هي ذى ترغل في كل أسباب المتع واللذائذ لا ينقصها شيء

منها ؛ غير أنها تحس نقصاً هائلاً يتضاد إحساسها بالنعيم الذي هي فيه بجانب إحساسها بمعذابه وآلامه . لشدة ما تتمنى أن يهوى بها الله من حائق هذا النعيم الزائل إلى حياة الفقر والعوز على أن يهبها نيميا غلداً ، ابناً تتركه في هذه الحياة الدنيا قطعة منها يخلدها على مرّ الأجيال والزمن ، ابناً يشع النور من بسمة ويفيض الحنان من نظره ... ماذا تفيد تلك الفرش الثمينة والرياش الغالية وهذا البيت الجميل وتلك الحديقة للفينانة التي تكتنفه ؟ ماذا يفيد كل ما هي فيه من متاع مع هذا النقص الذي تحسه ؟ إنها تشمر كأنها تعيش وسط صحراء قاحلة تضرب الظلمات في جنباتها ، وأنها بعيدة عن عالم الحياة والنور . إنها لا تدخل غرفة من غرف المنزل إلا تراها قابضة موحشة خالية من الحياة والروح ، فتراها تتلفت بمحنة وبسرة كأنما تبحث عن شيء تفتقده بجوارها ... ولا تسير في الحديقة حتى يتولاها السأم والضجر ... ولا تقف أمام المرأة حتى ترى جمالها الذي طالما غرّها ، مجرداً من الروح كأنه تمثال من الحجر الأصم . وأين روحها وهو محلق في شرود وراء أمنيئتها البعيدة ؟ بل إنها لترى أن جمالها إن هو إلا كأموال للبخیل التي يسره أن ينظر إليها كل يوم دون أن يستثمرها وينميها ... نقص وحرمان يقضان مضجعهما ويذهلان عقلاها ويشتتاها سوء الأفكار السود المدلهمة

كانت بحياتها هذه تعيش مسلوكة للعقل عازبة اللب ، تعيش بجسدها الآلي كما تعيش الدبى والألاعيب وما كان ينقذها من عذاب هذا التفكير إلا التريض سائرة إلى بيت صديقتها (زاهية) تبثها شجنها وتنفض إليها خبيثة نفسها وقد تسكب

أمامها الدمع فيفرج عنها عقب هذا البكاء الهادي ،
وتنسى همومها قليلاً فتنتطلق هي والصديقة تتجاذبان
أطراف الحديث في مختلف الشئون

وكانت زاهية فتاة في ميمة الصبا وشرح
الشباب ، وقد تزوجت منذ بضعة شهور ، وكانت
في غمرة الحب الأولى ، لذلك كانت تسرى عن نفس
سميرة ما هي فيه من عذاب وشجن وتقبح لها ما وراء
تربية الأطفال من تعب وإرهاق ، وتعرض على صميمها
صوراً عديدة من تفرغ الزوجين لإشباع عواطفهما
الجياشة الثائرة بعيدين عن جلبة الأبناء وهموم
تربيتهم ... وما كان مثل هذا الحديث ليلقى أذناً من
سميرة ، بل كانت تستمع إليه في ذهول وشروود ...
ثم تنخرط فجأة في البكاء

وعابت سميرة على نفسها أن تحمل زاهية همومها
وأشجانها وهي من نصيبها وحدها .. ومن يديرها ؟
لعلها هي الأخرى لا تنجب بنين فيكون بثها الحزن
والهم إيماء لها بالإقبال في الحزن والهم ... لذلك
راحت تقلل من زيارتها ، بل آلت على نفسها
ألا تزورها إلا إذا وثقت أنها تحررت من همومها
وأفكارها بمض التحرير ، أو أن في وسعها أن تتلم
بقناع صفيق من البشاشة والرح

وخرجت سميرة إلى صديقتها بعد أن غابت عنها
شهوراً برمتها فتلقتها زاهية بفرح عنيف تجلى في
حركاتها العصبية وضحكاتها المضطربة . ودهشت
سميرة لحال صاحبها فقالت تشككاً للبشاشة والرح :
— ما كل هذا الفرح يآري ؟ خير إن شاء الله !
فأجابتها زاهية بين الضحك والثنائي :

— آه يا سميرة آه ... إن في أحشائي جنيناً ،
وعما قريب سأعقدو ...

وبترت جلستها إذ لمحت ملامح صديقتها تنقلص
ويتفشأها الحزن العميق . فأدركت خطأها في الإفضاء
لها بالخبر على هذه الصورة السارة البهيجة .. وأحست
سميرة بألم هائل يحز في نفسها ... بيد أنها تماثلت
نفسها بجهد واصطنعت الابتسام ثم سارت بجوار
زاهية إلى غرفة الاستقبال. تتسابقها الهواجس
والأفكار .. لقد جاءت لتنسى همومها قليلاً فصددها
محرك قاس أثار عواصف قلبها الهوجاء ... وقالت
في نفسها : « لم يارب هذا العذاب ؟ .. لم خصصتني
بهذا الحرمان القاسي الشديد ؟ .. كل من حولي من
النساء ينجبن قرة أعين ... أما أنا ... آه ... »
وكانت زفرة حارة انشق عنها صدرها الجياش لم تخف
على زاهية فاطرقت خجلى من تصرفها إزاء صديقتها
المحرومة

وأحست سميرة بالجلسة يسودها النكاف البغيض
حيناً والصمت الثقيل حيناً ، فاستأذنت ثم غادرت
دار صديقتها ، وسارت تضرب في الطرقات ذاهلة
على غير هدى ، وراحت تتفكر في حياتها المحرومة
وهي في سيرها البطيء المتشد

وانتهت من أفكارها الطاغية المستبدة على
صوت يهوس في أذنيها كلمات لم تتبينها فاستدارت
إلى التكلم فألفته شاباً غريباً عنها ، فخدجته بنظرة
قاسية وقالت له :

— ماذا تبغى ؟

— ماذا أبغى ؟ لا شيء ... غابة الأمر أني
رأيتك تسيرين ذاهلة عن الطريق فأثرت أن أحادثك
قليلاً لأسترعى انتباهك الشارد وأعيد عليك ذهنك
للمازب

لم تجب سميرة وإنما أنعمت إليه النظر فوجدته

وأبقظها من أفكارها يد الشاب وهي توضع
في رفق على ركبتيها فأجفلت إجمالا ، وانقبضت
في ركن العربة وهي تنزع يده عنها، فالتصق بها وراح
يقرع في أذنيها آياته التي يحفظها عن ظهر قلب ..
ثم طوق خصرها بذراعه وهوى على شفتيها
لنما وتقبيلًا

أوه ... ماذا تصنع ؟ ماذا تصنع ؟ أيمكنها
أن تعترض ؟ إذن فلماذا ركبت معه ؟ لا ... إنها
لا تستطيع أن تعترض ... ولكنها جريئة تلك
التي تأتيها . يجب أن تبعد الشاب عنها وتطلب إليه
النزول .. ولتصرخ إن أبي .. ولكن من ذا الذي
سيستمع إلي صراخها وهما هي ذي للعربة تطوي
الأرض طيا ؟

وأحست بالضعف بين هذين الماملين اللذين
يتجاذبانها فانشأت تبكي في بأس صرير
ومضي الشاب يسرى عنها بقبلاته للنهمة الجائئة
ويهدئها بكلماته المنمقة المسولة حتى وقفت السيارة
فأمسك بيدها ودعاها إلى النزول ... ثم صعد بها
بعد أن نقد السائق أجرته إلى أحد طوابق المبنى
الذي وقفت أمامه السيارة

بعد ساعتين من ذلك كانت سميرة تدخل منزلها
وهي تكاد لرزوحها تحت عبء الالتم الذي اقترفت
أن تلطم خدما وتجذب شعرها ... كانت في حالة
يأس هائل فأتجهت قدما إلى غرفتها وهي تتمتم :
« أواه ... لقد عرفت ... »

لقد أدركت الآن فقط الدافع الذي دفعها في
عنف إلى اقتراف ذلك الجرم الشنيع ... هو رغبته
في إجاب ولـ

شابا طويل القامة عريض المنكبين جميل الوجه ،
كان في مكنته أن يفخر برجولة زاخرة لو لم يصف
عليها رداء من النخنت والنائق . ولم يخف على سميرة
صرى الشاب من ذلك للتطفل ، إذ أدركت أنه من
أوائلك الشبان المتأليف الذين يتسكمون في الطرقات
ابتغاء إيقاع الفتيات في حبائلهم ... قالت :

— أشكرك .. إنني أفضل أن أسير وحدي
فأبسم الفتى ابتسامة أقرت سميرة بينها وبين
نفسها أنها فائنة خليقة بأن تجذب القلوب
حقا . وقال :

— ولكنني أخشى على هذا الجمال الساحر أن
يتمرض للخطر وهو يمشی هكذا ذاهلا عما حوله
ولم تدرك سميرة ما الذي منعهما أن تصفع الشاب
على هذه الواقعة ؛ كأنه دافعا خفيا يدفعها إلى الصبر .
فوقفت عن السير ونظرت إليه نظرات لاهي بالفاضة
ولا بالشجوة . كانت نظرات حيرى زائفة ، وأيقن
الشاب إزاء حيرتها أنها غدت في قبضة يده فاستدعى
سيارة كانت مارة ودعاها إلى الركوب
وارتفعت سميرة لجرأة الشاب وتلفتت يمنة
ويسرة ثم قفزت إلى السيارة مبهورة الأنفاس
وآرتمت على المقعد وهي ترتعد ارتعادا

وأحست بهول ما أقبلت عليه . وراحت تقاب
في رأسها الأفكار . لقد حدثها الشاب وسار
إلى جوارها كأنه يعرفها . ثم توقفت عن السير
فاستدعى السيارة . أكان في مكنتها بعدئذ أن تغضب
وترفض الركوب ؟ . أبدا ما كان لها أن تفعل ذلك
إذا أحست أن كل للناس عيون تنظر إليها ، وأنهم
أدركوا أنها على معرفة سابقة بالشاب . ومع كل
فإذا في ذلك ؟ ستطلب إليه النزول فتعفى إلى حال
سبيلها ...

وزوجها — بل لأنه طفلها هي خصب ، فما كانت لتلقى بالا إلى شعور زوجها الذي كان سيئاً في حرمانها تلك النعمة طوال تلك السنوات الماضية ... لقد ارتكبت إثماً زرياً ... ولكنه أيضاً إثم محتمل . ألم يمنعها ما يحجز زوجها عن منعها إياه ... إنها مجرمة في نظر المجتمع وفي نظر الناس ، ولكن أيدري المجتمع عن إثمها شيئاً ؟ ما من أحد يعلم ، حتي زوجها لا يدري من الأمر شيئاً ، وخيره ألا يعلم . ولكن أبلغ بها الفذر والحياة أن تخدعه هذه الخديعة ؟ لم لاتصارحه بالحقيقة وتغضي إليه بالسر وليكن بمدئ ما يكون . وما الذي تراه سيكون ؟ سينكرها ؟ سيطردها ؟ أجل ، فما في وسعه أن يفعل غير هذا . حسن او ماذا في ذلك ؟ حسبها إذا طردها أن يكون لها عادل . ذلك للنور الذي أشرق في أفق حياتها المظلم . ذلك الأمل الذي أجرت لتحقيقه وأثمت لتبائه . أجرت ؟ أثمت ؟ إنها لم تجرم ولم تأثم . إن المرأة لتزخر بماطفة أخرى غير عاطفة الحب ... عاطفة الأمومة ويجب أن تشبعها كما تشبع عاطفة الحب ... فهي لا تستطيع أن تعيش على الحب فحسب .. وما هو ذا زوجها قد قصر عن إشباع تلك الماطفة المكبوتة فالتست إشباعها عند رجل غيره ، فهل في هذا إجرام ؟ .. خليك بالرجل قبل أن يتزوج أن يلمس في نفسه كل ما يحقق أمانى المرأة ... وإلا فليتنح عن الطريق لغيره ... إذن فالذنب ذنبه لا ذنبها .

وهكذا أخذت سميرة تلمس لنفسها المآذير وتبرز الحجج حتى انزوى ضميرها وطمئ عليه ذلك الحب الوائد الذي نشأ بين جوارحها نحو طفلها المميز وتصرفت بضمة أشهر كبر فيها الطفل واستطاع

(٥)

وتغضي شهران شمريت سميرة بعدها بتغيير تام في حالتها . إذ أصابها تحول خفيف وامتقع لونها قليلا وصدف عن الطعام وأخذ الانغماء بماودها من حين إلى حين فارتاع زوجها من تلك الأعراض وظن أن بها داء فاستدعى الطبيب بنفس خائفة جزعة .

والنفث الطبيب إلى فتحي باسمك ثم سحبه من ذراعه إلى خارج الغرفة وهمس في أذنه يقول : — أبشر يا سيدي ... إن زوجك حامل عقلت الدهشة لسان فتحي فظل برهة ينظر إلى الطبيب في ذهول ، ثم انقبه أخيراً إلى نفسه وقال بصوت يهدج من شدة الفرح :

— آه ... أشكرك يا سيدي ... أشكرك

ثم تركه وهروا مسرعاً إلى مخدع زوجها ووقف بالباب لحظة قصيرة ينظر إليها وتنتظر إليه وكانت نظراتها مزيجاً من الحدة والحجل ... والخوف غير أنه لم ينتبه إلى تلك النظرات الناطقة بل أسرع إليها وهو يهتف :

— سميرة ! أما علمت يا سميرة ؟ إنك حامل .

هكذا قال الطبيب ... وافرحتي وافرحتي ... فأسبلت سميرة عينيها وقالت في نفسها : « نعم ... كنت أعرف . كنت أعرف . لك الله أيها الرجل » ومنذ تلك اللحظة أحست سميرة بأن هذا الرجل الجاثي بجوارها غريب عنها

اكتملت أشهر الحمل وأنجبت سميرة طفلاً فرح به فتحي فرحاً شديداً وأطلق عليه اسم عادل ... وفرحت سميرة بالطفل ، لا لأنه طفلها — هي

وما كان يقيظ سميرة وبفسد عليها سعادتها إلا رؤيتها
زوجها متعلقاً بابنها كل هذا التعلق

وكان يسيراً أن ترى الحياة على هذا النسق ،
لو لم يحدث ذلك الحادث الجلل الجسيم ، إذ سقط
عادل مريضاً محموراً فأضفى على البيت رداء حالكا
كثيلاً . . . وجزع فتحي لرض صغيره ودعاه
الأطباء فكانوا يخرجون بنتيجة واحدة ، هي أنه
مريض بحمى مموية ، إن ينج منها فكانما ولد
من جديد

وكاد فتحي يحزن من هول الصدمة . . . فأضفى
لا ينادر غرفة عادل ، بل راح يمضي ليله ونهاره على
مقعد بجوار فراشه لا تفارق عيناه وجهه النحيل
المصفر ، وإذا أضناه للسهر أو أنهكه التعب تراه ينفو
قليلاً في جلسته ثم ينتبه من غفوة فجأة على تحيب
زوجيه ونشيجهما

ومضى يومان أوغل فيهما المرض في بدن الصغير
فصيره كالخيال ، ورسم الموت على وجهه علامة الفناء ،
وارتاع فتحي لتقدم المرض السريع فراح يذرع
أرض الغرفة في عصبية واحتياج وهو بين الفينة
والفينة يمسح الدمع الساخن ويوفر الزفرات الحار ،
يلينا جثت سميره بجوار الفراش تتطلع إليه بعينين
شعنا كل معاني الجزع والاهفة والبأس

لم تكن تبكي فقد استعصى عليها البكاء ، إنما
كان قلبها يتقطع ويتفتت أمسى وحزنا . . .

وكان الطفل راقداً في فراشه كالخيال يملو صدره
ويهبط في اضطراب وحشيرة وتوجه عيناه المطفأتان
إلى سقف الحجرة كأنما ثمة شيء فيه يسترعى النظر

أن يبتسم لمراى فتحي ، فكاد هذا بطير من الفرح ..
وراح يحمله بين ذراعيه ويهدده في حنان ويحاده
بلهجة مكسرة إعرازاً وتديلاً ويخرج من الأصوات
ما يجمل للطفل يحدق فيه ويبتسم في سذاجة الطفولة
البريئة . . .

وكانت سميرة إبان ذلك تنظر إلى زوجها نظرات
جامدة لا ترتسم على وجهها تلك البسمة التي تبدو
على وجه الأم حين يداعب الأب طفله . . . بل كثيراً
ما كانت نظراتها تقسو حتى تخرج بالهمك والازدراء
وتكاد أن تهم بأن تنزعه منه قائلة : « دعه . . .
دعه أيها الرجل فانه ليس ابنك »

وبلغ الطفل المامين من عمره فكان فتحي
لا تسمعه الدنيا حين يناديه بلقطة « بابا » أو يمتطى
نخذه ويداعب شاربه بأنامله الصغيرة البيضاء في براءة
وطهر . . . بل كان يشمر بالزهو والخيلاء حين يسير
في الطرقات الموبنا وبجانبه عادل يتمتر في مشيته
وهو ممسك بيده

واستقرت سميرة وهدأت نفسها وظنت أنها
أوتيت خزان الدنيا في شخص صغيرها القدي . . .
وكانت تنظر إلى وجهه الأبيض الشرق فتحس الحنين
بطنى عليها وتشمر بقلبها بتحقيق الحب الكبير . . .
وكثيراً ما عاودتها ذكريات قديمة وهي تنظر إلى
وجه ابنها ، فقد كانت ترى في وجهه ملامح نجم
أشرق في أفق حياتها ساعة ثم خبا . . . كانت ترى
في وجهه وجه أبيه فترتمد وتهتز كأنما مسها تيار
من الكهرباء عنيف

ملا الطفل البيت حياة وبهجة ، فأضفى كدبنة
مأهولة صاحبة بمد إذ كان كصحراء مجذبة قاحلة .

كوبا من الماء وأدنته من فم الصغير وما كاد الماء يلمس
شفتيه حتى لفظ للنفس الأخير

صرخت سميرة في جنون وزاغت تلطم خدها
وتقتلع شعرها فتأص قلب فتحي وجزع. وكأنما خاف
الحقيقة فوقف ينظر إلى الطفل الميت نظرات ذاهلة برهة
قصيرة.. ثم أدركته الحقيقة للقاسية فاندفع إلى الجثة
يعطرها وابلا من قبلاته وهو يزأر زئير أسد جريح
وانتهت سميرة من حزنها على صراخ زوجها
وعويله ونظرت إليه وهو منكب على الجثة يقبلها في
كل أجزاء الوجه المتنع... نظرت إليه في ذهول
ودهشة... ثم تولاه الحلق والمنيظ... وتمتمت
وعلى وجهها ابتسامة ساخرة :

— يا للفر الأبله ! ماذا يفعل إذن لو كان يعلم !؟

محمد عبد الفتاح محمد

وانشق صدر سميرة عن صرخة هائلة دوت في
سكون الغرفة الرهيب ، ثم واتاها الدمع فاتفجرت
تبكي بكاء صراخا. فارتاع فتحي وأسرع إلى الطفل
فألفاه يتنفس ببطء وصعوبة فماوده الأمل ، وأدرك
أنها تكاد تجن من شدة الحزن وأن منظر الطفل
المشجى قد بعث في نفوسها اليأس قتالا مميتا

والواقع أن سميرة أنكرت على القدر أن ينتقم
منها هذا الانتقام الرهيب فيسلب منها طفلها...
ماذا عليه لو تركه لها ليفعل فيها ما يشاء ؟
إنه انتقام... أجل إنه انتقام . فيالقسوة المنتقم !
والتفت الطفل برأس أثقلته الحى القائلة إلى أمه
وقال بصوت تمشى فيه الفناء :

— أشرب... عاوز أشرب

فاندفعت أمه تتعثر في دموعها الفزار وأحضرت

شركة مصر للغزل والنسيج

تقدم لكم المنسوجات القطنية الجميلة على اختلاف أنواعها

معتدلة في اثمانها...

رائعة في ألوانها...

فبادروا باخذ طلباتكم

إلا عطر الأحاديث . إذ كان
رجلا كامل الرجولة ، فاضلا
على أنهم معاني الفضيلة ، لا يستهويه
من تزق الشباب وزوات الفتوة
ومغريات البيئة ما تهافت عليه
أهل المصر عامة إلا من عصم الله .

فنعمت به خير ما ينعم حبيب
بحبيبه ، وحمدت الله على هذا

التوفيق الذي أنساني هموم الحياة وغمرني بالمتعة
الحقة ، وأوجد حولي جوامن الواقع يتسق مع ما كان
يقوم في نفسي من أحلام المثل العليا التي أنشأتها
في نفسي تلك البيئة الدينية الخاصة في انقباضها
وترتمها ، وزينتها في صدرى غضارة القلب للناسم
السليم . . .

ولكني لا أكتفك أنى كنت أحس في بعض
الأحيان أنه قد احتجز لديه من أسرار سرأ يطويه
عنى ، ويصطنع الحيلة والحذر في كتمان وإخفاء
بواده ، فكان يحبك لهذا في صدرى شيء من الغيرة
والألم ، ولكن ما كان أسرع ما يتلاشى في غمرة
النعيم الروحي الذي يملأ قلبي ، فلا أرى أمانى إلا ذلك
الرجل الفاضل المهدب ، وتلك الروح اللطيفة
الصادقة ، وذلك الضوء الساطع الذي يمتد فيما بيننا
وينم ما حولنا ، وهكذا مضينا أعواماً خمسة لم يتل
من هذه الصداقة شيء . ولا تغير في عيني شيء
من معاني الكمال الخلقى الذي كانت تتألق به نفسه ،
ولم أعد أعبا بذلك السر الذي كان في قرارة صدره
وكان يخيل إلى أحيانا أنه سر امرأة ، إذ كنت
أشم منه عبير الحب ، فلم أحاول مطلقاً أن أسئله منه
وما ندمت على شيء فيما بعد ندي على إغفالي هذا

مذهب طين سماء

أقصوصة مصرية
بقلم الأديب محمد طه الحاجري

حدثني صاحبي ، قال :

كان فيمن صحبت من الناس في أوائل الشباب
شاب في عنفوان السن ، وكان من أهل اليسار
والنعمة ، أنيق اللبسة ، متدفق الفتوة ، كثير المرح ،
ولكنه مع هذا على خير ما يكون عليه الرجل السعيد ،
فما أعرف أنا من كلمة السعادة ، سلامة صدر ،
وطهارة قلب ، ومتانة خلق ، وبمدا عن سفاسف
الحياة وصغار الشباب .

وكان أول أمرى معه أنى لم أكد أعرفه
معرفة السمع والبصر ، حتى أحببته حب الرأى
والماطفة ، كأنما كان بين روحينا منذ البدء أسرة ،
كما يقول علماء الروح ، وإن فرقت من بعد بيننا
شقي الفوارق الاجتماعية ، حتى ما كان لثلى أن
يصحب مثله . ولكننا ما إن تراءينا حتى تعارفتنا فلتنا
فمحض كل صاحبه وده وخلط به نفسه ، فكان
عية سره ومستقر أمره وراحة صدره . وذهبتنا
تنساقى كؤوس الصداقة الصادقة ، لا يشوبها شائبة
غرض ، ولا يعبها ما تخضع له علاقات الناس من
أهواء النفوس المختلفة ، وعلاوات الحياة المادية
العنيفة . ومضينا على ذلك عهداً طويلاً لا أجدر
له في قلبى إلا كل محمداً ، ولا أنسم عنه بين الناس

الروحي الذي فقدته فقدت منه حظاً غير قليل من
المنفعة للصادقة والروح النفسى

وسارعت إليه ، فمشى لى ، ونحى لى ، وأجل
نحيتى ، وبالغ فى تكرمى . ولكنى كنت أشعر بذلك
كله فى دخيلة نفسى ألفاظاً لا معنى لها ، وصورة
للصدقة لا روح فيها ، وأنكرت من شخصه
ما أنكرت بالأمس من رسائله ، وكأن لم يتغير شيء
فى رأى قلبى . وحسبت هذا صنع الزمن ، فرجوت
منه تجديد ما أخلفه

ولكن هيهات ...

فلقد ترامت إلى الأخبار من كل وجه أن صاحبي
قد حال أمره ، وتغير عهده ، وانتقضت عراه ،
فأصبح من ذوى المجاعة والمهر والتبطل ، وجعل
حياته كلها فى أعقاب كل فاجرة ، وابتغاء كل
مستهرة ، واقتناص كل سادرة . وجعل يبذل لهذا
عن سمة من نفسه وماله لا يبالي ما أنفق منهما ،
ولا يأبه لمصيبته فيهما ، ولا يراجع فى ذلك رأياً ،
ولا يعبأ بعبارة مطوية أو مكشوفة . وذهب عنه كل
ما عهده الناس فيه من رأى متزن وبصيرة نافذة ،
فطوى كل قواه الفكرية ومواهبه النفسية فيما زين
له من شهوة عاتية وزوة طائشة

قبل لى هذا ورويت لى النواذر المعجبة والصور
الطريفة من حياته هذه ، وأنا لا أكاد أصدق ما يرويه
الناس وبؤ كدونه ويتواترون عليه . فقد صحبته تلك
المدة المديدة ، وخالطته مخالطة الأخ الأدنى ، كما سبق
لى القول ، فما أنكرت عليه شيئاً تحزى منه الفضيلة ،
ولا أخذت عليه ما يقدر فى خلقه أو مروءته ،
ولقد أثبت أمره فاذا هو تقي الدخلة قد تشابه ظاهره
وباطنه واستوى سره وعلنه ، فما باله اليوم ؟

الأمر ، وإغضائى عن هذا السر ، وعدم احتيالى
لمعرفته فربما كان فى ملكى أن أعمل شيئاً أخذه
قرباناً للحب والصدقة والفضيلة ، وما أجعلها قربة ،
ولكن الله غالب على أمره

ثم ضرب بيننا الدهر فطرحتنى بعض شؤون
الحياة الماتية مطرحاً بعيداً ، فكنا نتراسل بما يقوم
بحق الصداقة بعد أن حاول الزمن أن ينال منها ،
وكانت تأتبنى رسائله فيفتتح لها قلبى ، وتسطع ألفاظها
بمعانيها سطوعاً روحياً باهرأ ، فأجد لها نشوة
أى نشوة ، وأستشعر منها لذة لا تعد لها لذة ثم ...
ثم أخذ شعوري بهذه اللذة يضعف ويتضاءل ، ثم
إذا لى لا أرى ذلك النور الذى كان يتألق فى كلماته
وعدت من بعد لا أقرأ فى رسائله إلا أحرفاً مجتمعة
وعبارات مصطنعة ، لا أكاد أحرف لها معنى ،
وأخذت لى لها غاشية من الألم والحيرة ، واتهمت
نفسى بالنسيان ، ودميت قلبى بالملل ، وعالجته للعلاج
الشديد أن يعود إلى عهده من إدراك معاني الصداقة .
ثم لم أدر بعد إن كان قد صدى فلم تعد تلك المعاني
تتجلى فيه وتنمكس عنه ، أو أن فى الأمر شيئاً وراء
هذا يرجع إلى أن الصداقة قد فقدت قوتها الروحية
وخلت من معانيها التى قامت عليها وشدت منها
وحاطتها بأبلغ الحياطة . وما زالت الحيرة تتردد لى
بين شتى الفروض ولكن الرسائل كانت ما تزال
روح وتقود فيما بيننا تحمل ما يتراسل به عامة الناس
من كلام لا طعم له ولا روح فيه

ثم أتيت لى العودة إلى مسارح ودى القديم
بعد عام وبعض العام ، فعدت وأنا أشد ما أكون
شوقاً إلى مطالعة صاحبي وتجديد المهد بذلك الجمال

روح المكان ، وفئتنا في جلال الله كرى وأحسست في قرارة قلبي بالضوء الجميل الذي كان يغمرنا حين كنا نجلس هذا المجلس من قبل . ثم بدأ صاحبي يتحدث أجل حديث وأروحه على قلبي حتى كدت أنسى تمامًا انقلابه الأخير ، ولا أرى إلا عهداً من الود الصادق موصولاً .

وبينا نحن كذلك لاح لنا ضوء سياره على الطريق الزراعي تتوجه شطرنا ، حتى إذا حاذتنا أو كادت وقفت لتعود . وكان بها شاب حسن البزة ، متأنق الشباب ، وإلى جانبه فتاة بدية القوام مشرقة الوجه ، وقد أتى القمر عليها أشعته فبدت في أبهى منظر وأروع مجلى . ورأيت صاحبي قد أتى نحوها نظرة ثابتة مبهوطة لم يرجعها حتى دارت السيارة ورجعت أدراجها ، فزفر زفرة حري والتفت إلى يقول :

— أرايت هذه الفتاة ؟

— أجل ! وماذا تريد ؟ أطريدة جديدة تنصب لها شباكك ، وتعد لها أشراكك ؟

— معاذ الله ! بل معبد روحي ومحراب قلبي :

حبل بيني وبينه ، فاندفعت في الطرقات اندفاع البهم الجائعة

فسكت برهة أتأمل قوله ، فلم يكشف لي عن وجهه ، فاستوضحته معناه ، فأطرق لحظة حسبته يمالج فيها نفسه أشد الملاج ، ويراودها عن سر قامت دونها الحجب والأغلاق ، ولبثت أنتظاراً وتأهب لسماع قصة ممتعة تكشف لي عن ناحية من حياته . ثم التفت إلى يقول :

— أعني أنها كانت حبيبتي التي سيطرت على قلبي ، ثم ...

أى الممكن أن تتغير الأخلاق وتحول الطباع وتتحول الشخصيات بهذه السهولة ، وفي عدة من الشهور قليلة ؟ أم كنت غدوعاً في أمره ، معصوب العينين تجاهه ، وأنا أحسبني بصيراً به ، مثبِتاً من حقيقته ؟ أفى الممكن هذا ؟ ذلك سر من أسرار النفس ، ولنزمن أعمار الحياة الانسانية ، وما أكثرها وأخطرها !

لقد ذهبت ألتمس التفسير من كل مظانه ، وأقبلت أتحدث إلى هذا وذاك من أقرانه الأدين في خاصة أمره ، وما عساه قد داخل حياته ولا بس نفسه ، فأعياني أن أجده تفسيراً يطمئن إليه عقلي ، وبطرد مع ما أعرفه عنه ، فأنصرفت عن هذا وفي نفسي من الحيرة بمقدار ما أجده من الألم له ، والفجبة فيه ، واللوعة لمصابه ، وترجت على عهد كانت صداقتنا فيه كالنير الصافي تنمكس عليه أشعة السماء

وافيته أصيل يوم من الأيام في طريق إلى صرناضى بظاهر المدينة ، وكنا نعتاده معاً من قبل . فاستصحبته فصحبني إليه ، حتى إذا غشيناه كانت الشمس قد غربت بغمورها ، وطلع البدر من مشرقه . وصرناضى هذا هو روضة على جانب طريق زراعي ، تقوم بها أشجار متشابكة الأغصان ، وتحفها شجيرات ملتفة الأنان ، وتنتثر على أرضها أزهار مختلفة الألوان ، وقد جرى إلى جانبها غدير صاف يتألق في ضوء القمر وقد سطع علينا من سماه ، فاجتمع لهذه الروضة جمال الأرض وجمال السماء ، وكانت نسائمها تتأرجح بذكريات الود القديم ، فاجتمعت لنا منها متعة الحس ومتعة الروح . فجلسنا على مقعد وضع هناك ، وقد تركنا أنفسنا للذكريات تتناجي وتتجاوب ، حتى غمرتنا

ولكني لم أدعه يكمل حديثه فقلت له :
— أيهن ؟ فمن كثر

فنظر إلى نظرة فيها معاني الألم والتوسل وقال لي :
« ناشدتك الله دعني من هذا التهمك والتأنيب
وحسبي ما أشعر به في قلبي من قمع كلذع الجمر ،
فإن روح هذا المكان قد ليست ضميري فنفتحت
فيه الحياة ، ولا والله ما أحببت إلا هذه الفتاة التي
رأيتها ، والتي أنا محدثك عن أمري بها :

لقد عرفتها في مبة السن ، وأحببتها في مطالع
الشباب . ولست أذكر الأسباب التي وصلت بيني
وبينها ، وهيات لي سبيل حبها ؟ ولكني أذكر أنها
مازلت تكبر في عيني وتعظم ، وما زالت تمتد معانيها
وتتسع ملء الأفق ، حتى تألمت في رأي قلبي ،
وغمرتني بأشعتها الساحرة فأحسست كأن نفسي
مشتقة منها ، وكأن وجودي مندمج في وجودها .
وجعلت لا أراها بعد إلا معنى متسقاً من الجمال
والطهر والمظمة ، يبعث في نفسي معاني الحب
والفضيلة والخضوع

وجعلت أدور في فلكها الساحر الجميل المتلألئ
وما شعرت قط بالضيق به والرغبة عنه والتفقت منه ،
إذ كان عالي الذي لا أعرف عالماً سواء ، والذي
اجتمعت لي فيه كل أسباب النعمة ومعاني اللذة
ومظاهر الكمال

ولقد كنت فتي تملأ الفتوة عروقي وتهز
أعصابي ، وكان جديراً بها أن تفعل بي فعلها الطبيعي ،
فتوجهني تلك الوجهة التي يتجهها الشبان ، وتهوى
بي ذلك المهوى الزاخر بشقى اللذائذ الجسمية ،
وتقذفني إلى تلك السباحة التي يحف بها شياطين
الانس والجن بوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول

غروراً . ولكني كنت محفوفاً بروحها الملائكية ،
محسوراً في فلكها السماوي ، مملوئاً بمعانيها الجميلة ،
ولذائذ حبها اللبري .

لقد كانت ملاك روحي ومساك فضيلتي وشمس
حياتي ، سواء في ذلك شهودها وغيباتها وجلوتها
وحجابها ، إذ كنت أحياني شموري بها وإحساسى
بحبها . ولكني لا أذكر يوماً من أيام حبنا ، غي
دون أن أجلس إليها ، وأتمتع بظلمتها ، وأملأ قلبي
بجمالها ونضرتها ، فكنت أرى هالة من النور تحيط
بوجهها ، وعالم من الفضل والشرف والجمال والكمال
يقوم حولها ، فكنت أنظر إليها نظرة حب وإجلال معاً
وكنت أقرأ معها أحياناً بعض كتب الأدب
فأشهد ما عرفت أستاذاً يشرح دقائق الفن كما كانت
تشرحها هي في نظرة أو لمحة تحيط بالمعاني النفسية
البعيدة ، فتجولها أمام عيني كأنما صورها مصور
صناع ملهم . يا لله ! لقد كانت تحدثني بألفاظها ،
حديثاً فيه متعة القلب والأذن ، وفيه جمال للنعمة
والمعنى ، وفيه الحبيبة بكل مظاهرها ومعانيها . أواه
أواه من ألم الدكري وجميع المصاب فيها !

لقد أبأها على القدر فرماني بذلك الشاب الذي
رأيتني إلى جوارها : ساقه إلى خطبتها ، وزينه لأعين
أهلها . فاني لجالس ذات يوم وإذا بها مقبلة علي ،
وفي عينيها آثار البكاء .

فجزعت وأخذتني اللاوعة ، وأقبلت عليها أسألها
فقصت علي القصة ، وطلبت إلي أن أقدم لطلب يدها
عساي بذلك أبعد الخطر الدائم وعرفت حين ذاك
أن ذلك الشاب موظف بوزارة الداخلية ، من أسرة
متوسطة الحال ، يتقاضى مرتباً لا يتجاوز خمسة
عشر جنيهاً . وقد رآها مرة في طريقه ، ثم ذكرت

الشهوة في مذاهبه ، بعد أن كانت محبوسة من حب فتاتي في مكان صحيح .

ويلاه ! لقد كنت وجدت في حبها سبياً يصلني بالسما وما تزخر به من الملائكة ، فلما انبت السبب هويت إلى الأرض أنعرض لنزغات الشياطين والأبالسة .

لقد كنت من حبها في فلك سحري جميل ، أدور به أينما درت في حدود جاذبيتها تمسكني أن أهوى أو أتحرّف ، فلما ذهبت تلك الجاذبية عني جعلت أنطوح هنا وهناك لا بمصمى عاصم ولا بمنعنى شيء .

كنت معها ملكاً فأصبحت بدونها شيطاناً
كان قلبي منها في محيط نوراني مشرق ،
فأصبح من بعدها في ظلمات بعضها فوق بعض »
وهنا أخذته الذكرى وبلغ به التأثير ، فلم يملك نفسه من البكاء ، وجعل ينشج نشيجاً صراً ، وأنا أحاول تهدئته والتخفيف عنه ، حتى سكنت عنه البكاء فأخذت بيده ، وأخذنا طريقنا إلى المدينة ، وسرنا في صمت ظاهر ، تنكسر من تحته الخواطر ، وتتقلب فيه الصور والماني ، وجعلت قصة حبه تتردد في خاطري مختلطة بقصة صداقته وعهود وده . فذكرت ذلك السر الذي كان يحاول كتمان ، وقد صدق فيه حدسي : إنه سر الحب الذي أترع له كؤوسه في عالم الملائكة القربين ، ثم تركه يهوى بين المردة والشياطين « وندمت أشد الندم على إغفالي هذا الأمر ، وإغضائي عن هذا السر ، وعدم احتيالي لمعرفته ، فربما كان في ملكي أن أعمل شيئاً أنخذله قريباً للحب والصداقة والفضيلة ، وما أجملها قرينة ، ولكن الله غالب على أمره » محمد طه الحامري

له فتقدم إلى أبها - وهو رجل ساذج غفل - وحوله حاشية كبيرة من هيئة الوظيفة ، وما بيته الوهم من حولها ، وما يخلعه للسامرة عليها ، من الأنواء الساطعة والألوان الرائعة .

وتقدمت إلى الخطبة وأنا لا أكاد أشك في الغلبة والظفر ، إذ كنت أحسبني معتصماً بأقوى الأسباب في مثل هذه الأمور ، من مجد الأسرة واتساع الثروة وشرف الاسم . وأما منافسي فما يملك إلا الوظيفة وأهون بها . ولكن خاب ظني ، فإن الوظيفة التي ظننت على شتى نواحي الخير في مصر ، وهزمت صفات الرجولة والشعم والإباء في نفوس الناس ، قد أخذت بالموازين المتبعة في تقدير الرجال ، فشالت كفتي ، ورجحت كفة صاحبي ، فتعلل لي أهلها بأن فلاناً سبقني إلى خطبتها ، وما هي والله إلا الوظيفة ومصيتها وسوء أثرها في أنظار الناس . فأنصرفت وأنا أراني قد أصبت في قلبي بما حطمه تحطياً وتركه هشياً .

... وانتقلت صاحبتني إلى بيت زوجها ، ولم يلبث أن سافر بها إلى مقر وظيفته ، فانقطع ما بينتنا تماماً ، ووجدت هي في بيتها وأسرتها ما يستأثر بروحها ونشاطها النفسي ، وأما أنا فإذا لقيت ؟

لقيت شر ما يلقاه امرؤ مما يسمونه برد الفعل لقد طوحت بي تلك الصدمة العنيفة إلى الجمة المقابلة لما كنت فيه مما أحسبه أسمى حالات الخير والفضيلة ، فارتكست فيما تراني فيه ، وتنكره علي ، من الخلاعة والتبطل ، والجري وراء كل بني طموح ، وكل طائشة مرية ، وانطلقت غريزتي الجنسية في كل طريق يفسح الهوى من جوانبه ، وتزيد

حَاجِي يَا إِيصْفَهَانِي

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثامن والثلاثون

بين الواجب والضمير

أتم الشاب الأرمنى قصته وتركنى بين أشد عوامل الدهشة من غرابة قصته والاعجاب بحسن صفاته . ثم أذنت له بالذهاب مع بعض جنودى لرؤية زوجته فى المنزل الذى وضعناها فيه لكي تستريح ، وقلت فى نفسى يستحيل أن تكون هذه القصة الطويلة التى قصها على "مخترة" كلها لأننى قد رأيت بنفسى المرأة التى يتكلم عنها ووجودها أقوى دليل على صحة الرواية التى رواها . ولكن إذا تركتهما وعلم السردار ذلك فلا شك أننى سأفقد وظيفتى وربما فقدت أذنى أيضاً . إن الرحمة لا تلام مصلحتى مادمت أريد البقاء فى هذه الوظيفة ؛ وإن أكون حكماً كما يقولون عنى إذا لم أنبع حكمة لقمان الذى يقول فيها : « ما ينبغي للنمر أن يظهر بمظهر الحمار كيلا يجمع بين الشراسة وبين الخداع . فمن كان يشبه النمر فليظهر بين الناس شرساً كطبيعته لأن ذلك أقرب إلى الفضيلة . وما ينبغي للحمار أن يظهر بمظهر النمر ، فإن العالم يكون أشد قسوة عليه منه على سائر الحمار . فمن يشبه الحمار فليظهر بين الناس حماراً ، فإن ذلك أقرب أيضاً إلى الفضيلة »

بقيت متردداً فيما يجب على عمله نحو يوسف

هل أطلق سراحه أم أقوده إلى الأسر ؛
وبالتالى هل أكون نمرأ أم خماراً

وبينما كنت أفكر فى ذلك عاد يوسف الأرمنى وأخبرنى أن صحة زوجته تحسنت بمد أن استراحت فى ذلك المنزل ، ولكن الضعف الناشئ عن التزيف كان لا يزال مانعاً لها من الانتقال إلا إذا طاردها السردار فاضطرت إلى الفرار من وجهه ، وأنها أخبرته بقصتها منذ اختطفها الفارسان إلى أن وجدها يوسف

قالت : إن الذين اختطفوها ذهبوا بها فى الحال إلى بيت السردار فأمر بوضعها فى منزل الحرم بين جواريه وأجازها على اختطافها وإن السردار لما رأى ضعف بنيتها وهزال جسمها أمرها فجعات بين الخادومات للعاديات فحمدت الله على ذلك . وكانت تتجنب الظهور بأى مظهر لكي تبقى محجوبة . وقد نجحت فى ذلك أول الأمر ولكن سوء الحظ سلط عليها عجوزاً من جوارى القصر تظاهرت بودها وأفهمتها أنها تريد مساعدتها على استرداد حريتها

فلما أصغت سرىم إليها واعترفت لها برغبتها فى الفرار ظهر غدر المجوز ونقل الحديث إلى السردار

قالت سرىم : « فلما سمع ذلك اغتاض غيظاً شديداً وأمر باحضارى وأسمنى ما أكره سماعه من الوعيد والتأنيب وهددن بالموت إذا حاولت الفرار وأمرنى بأن أبرهن على إخلاصى بالاستعداد لمقابلته فى تلك الليلة فصمتت على أن أهرب بمجرد عودتى بإلقاء نفسى من النافذة قامة أن أتمكن من النجاة وإما أن أخلص من الحياة

ووافق على ما عرضته عليه ، فأذنته بأن يعود مرة أخرى إلى زوجته ليودعها وليخبرها بما قلته له فشكرني مرة أخرى وسار مع واحد من جنودي

الفصل التاسع والثلاثون

يوسف الأرمي يبرهن على أنه أهل ثقة مما جرى بابا سرنا متجهين نحو الحدود القوزاقية ، وكان يوسف خير دليل عرفناه لمعرفة هذه الجهات معرفة دقيقة أدهشتنا ولم يبد منه أى ميل لزيارة قريته وقال لي إنه لن يستطيع الذهاب إلى تلك القرية حتى ولو أمرته بذلك لأنه أنذر ألا يعود إليها إلا مصحوباً زوجته

لقد اتضح أن الخبر الذي بلغ مسمع السردار من تقدم الجيش الرومى غير صحيح لأن الرومى كانوا لا يزالون مرابطين على شاطئ نهر بمباكي وقد احتلوا قرية «جامملو» ومحصنوا في «قرقليسه» وكنا قريبين من هذين المكانين وأردت أن أحرف عدد الجيش الرومى فيهما وحالته الحربية فخطر لي خاطر يتعلق بذلك ويوسف الأرمي ، وقلت في نفسي : « إن بقاءه على الحالة التي هو عليها لا يشرفنا ظاهراً أن نفقده وإما أن نحميه وعزمت على إرساله ليتجسس على الجيش الرومى فان أدى مهمته استحق العفو عنه وإن ذهب ولم يعد عدنا إلى القرية التي تركنا فيها زوجته وأخذناها إلى السردار ولنلنا مكافأته

ولما طلبت الأرمي وقامتته في الأمر أدرك مقصدي وغابني بمثل سرعة البرق وقبل المهمة التي عرضتها عليه ، وما هو إلا أن أذنت له حتى وضع بندقيته على ظهره وسار نحو القرية

ولما فتحت النافذة كنت أريد إلقاء نفسي منها ولكنني رأيتك يا يوسف فحمدت الله

وكان بعض الجوارى قد جئن قبل ذلك بلحظة فأمرني بالاستعداد لدخول الحمام فصرقهن عنى بحيلة وأغلقت باب الغرفة قبل أن أفتح النافذة مصممة على اللحاق بك أو على الموت محاولة ذلك »

بعد أن أسمنى يوسف تلك القصة التي روتها له زوجته أظهر اهتماماً شديداً بمعرفة رأيي في أمره وتوسل إلى أن أعده ببذل مساعدتي له ومنحه صداقتي ، وكان جنودي قد عادوا في ذلك الوقت من الأماكن التي كانوا متفرقين فيها وأعدوا جيادهم وجوادى لاستئناف سيرنا ، وكان رأيي قد استقر بعد تردد في شأن الأرمي وزوجته فتأديته وقلت له :

« بعد القصة التي سمعتها منك يا يوسف صار محالاً علي أن أطلق سراحك لأنك قد اعترفت بأخذ سيدة من قصر السردار ، وذلك ذنب قد تماقب عليه بالموت ، وقد كان واجباً علي ألا أمهلك وتلك السيدة إلى الآن بل أبعت بكما إلى أربغان ساعة اعترفت لي بهذا الاعتراف . ولكن إذا قبلت ما سأعرضه عليك فاني لن أفعل هذا »

ثم أخبرته عن وظيفتي وعن المهمة التي أرسلت لأدائها وعرضت عليه أن يرافقنا في تلك المهمة فيكون دليلاً لنا في البلاد التي بمرورها أكثر منا وقلت : « إذا رأيت منك إخلاصاً في خدمتنا فاني أعدك بأن أداقم عنك عند السردار وأتوسط عند رئيسي وأحصل بأذن الله على أمر بإطلاق سراحك وفي هذا الحين تبقى زوجتك بالمنزل الذي هي فيه الآن حتى تعود إليها سالماً »

لما سمع يوسف قولي دنا مني فقبل يدي شاكراً

بعد ذهابه قال أحد جنودى : « لقد ذهب ولن يعود »

فقلت له : « إن الرجل أرمى وقد كان يفعل ذلك لولا وجود زوجته فالأرمنيون لن يتركوا نساءهم مهما كانت الأسباب »

فقال جندى آخر : « هذا صحيح ولكنه مسيحي والروس مسيحيون كذلك ويعد أن يجتمع بهمهم ببعض ثم يعودون إلى المسلمين وأنا أراهن على جوادى هذا إن عدتم إلى رؤيته »

قال جندى ثالث أشيب الرأس قد جمدت وجهه السنون : « ما هذه المهارة ؟ إنك لا تملك الجواد حتى تراهن عليه فالجواد جواد الشاه »

فقال ذلك الجندى ممانداً : « ولكنى أراهن عليه وما كان مملوكاً للشاه فهو مملوك لى »

أسكت الجنديين ورأيت عن كتب مكاناً به حشائش تصلح لأطعام الخيل فأصرت الجنود بالاتجاه نحوه، ونزلنا عن الجياد وأقمنا الخيام وأعلنت رغبتى فى الإقامة بهذا المكان حتى يعود يوسف ثم أرسلت بعض جنودى ليحصلوا على كبش أو نمجة لنا كل فذهبوا وعادوا بكبش سمين ذبحناه وأوقدنا النار فشويناه وأكلنا بشهوة قوية وأبقينا للفد ما زاد لدينا أظلم المساء ولم يأت يوسف ولكن لما استعدنا للنوم تاركين رجلين منا لحراسة الجياد سمعنا صوتاً من جهة بعيدة . وكان القمر إذ ذاك بدرأ وكانت قد مضت ساعة بعد منتصف الليل ثم سمعنا الصوت مرة أخرى ، وكان فى هذه المرة أدنى إلينا فاستيقظنا وتكررت الأصوات فلم يبق لدينا شك فى أن المقبل هو يوسف ثم جاء وكان فى حالة شديدة من التعب ولكنه مع ذلك كان قادراً على أن يسرد علينا قصته

قال إنه لما وصل إلى مدينة « حاملو » عرفه بعض الجنود الروسين الذين كانوا فى قريته الفارسية فأحسنوا استقباله وأخذوه إلى قائم الذى سأل عن الفرض من مجيئه فلم يجد خيراً من الإجابة بأنه جاء للبحث عن زوجته وقد كان له من النكبات التى حلت بقريته وشردت أهله ماجمله قادراً على الكلام دون أن يثير شبهة حول نفسه، ثم سمح له بالبقاء فى القلعة وتمكن بإبدائه ملاحظات بظاهر فيها إخلاصه . وبسؤاله مع للتظاهر بعدم الاهتمام — تمكن بذلك من معرفة ما ذهب ليعرفه وليخبرنى به من عدد الجنود ومقدار السلاح وما يمكن معرفته عن خططهم فى الحرب

أصرت بتقديم الطعام إلى يوسف وأذنته بأن ينام ليسترخ وتأمات فيما سمعته فلم أجد فيه شبهة الكذب . وفى الصباح أصرت جنودى بالاستعداد للعودة نحو أريفان وجعلنا الطريق إليها من جهة أشتارك ، وهناك علمنا بعض الشئ عن حركات السردار وقائد جنوده ، وأذنت ليوسف أن يزور زوجته، فذهب وعاد فرحاً مسروراً وقال إنه وجدها على أحسن حالة وقد شفيت من جراحها وشكر لى تكرر إحسانى إليه

وكان السردار قد انتقل من أريفان إلى مقر البطركية الأرمنية فتقدمت إليه وهى يوسف

الفصل الأربعون

هاجى بابا برافع عن يوسف

يدعو الأرمنيون هذه المدينة « إيتشميزين » ويدعوها الإيرانيون والأتراك « أوتش كليسة » أى الكنائس الثلاث ، وهى قرية كبيرة واقعة فى

المر وشككه قريباً من شككه
ومجل للقول في وصفه أنى لم أر قط شيئاً له
ولم أتصور قبل رؤيته أن إنساناً يكون بهذه الخلقة
وكانت نظراته تدل على أنه لا يحترم قانوناً من قوانين
الأرض ولا السماء . وكان يكظم غيظه إذا شاء
ولكن إذا نار غضبه فلا حد لقسوته وعنفه

على أنه مع هذه الصفات القبيحة كان ذا صفات
جعلته محبوباً عند جميع مرؤوسيه ، فهو كثير
التبسط معهم بطلق لهم الحرية في كثير من الأمور ،
وهو شديد الدكاء . وكان يتبع مع الشاه خطة
سياسية جعلته محبوباً لديه موثقاً به . ومن
أخص صفاته أنه يخلص في حماية من يرام مخلصين
في خدمته . وربما لم يكن في البلاد الفارسية من
ينافسه في شرب الخمر إلا صديقه النازا كشي باشي .
وقد دخلت أمام هذين الرئيسين ومضى ثلاثة من
أكبر أتباعي

فقال لي النازا كشي باشي ساعة رأي :
« مرحباً بك يا حاجي بابا ! أخبرنا كم روسيا قتلت ؟
هل معك بعض رؤوسهم ؟ أرنا ! »

قال لي السردار : « كم عدد الروسين الذين
على الحدود ومتى تبدأ المواقع ؟ »

فأجبت بمد خطبة للتحية المعتادة التي يجب أن
يلقيها كل مرؤوس أمام رئيسه وقلت : « لقد فعلت
أيها السيدان كل ما كان في وسمى أن أفعله ، فقد
عرفت الجواب على كل سؤال أردتما أن تسألاه
وعندي الأدلة الكافية على أن حفظنا في صمود »

قال السردار : « إن حسن الحظ شيء لا بأس
به ولكننا لا نمتد عليه بل كل اعتمادنا على سيوفنا »
ثم نظر إلى صديقه الذي قال : « نعم إن ضربة

وسط سهل خصب ترويه جداول متعددة ، وبالقرب
منها جبل « أجري داج » الذي يقده المسيحيون
عموماً والأرمنيون خصوصاً للسبب الذي أخبرني
به يوسف وهو أن سفينة نوح رست على هذا
الجبل عند ما انتهى الطوفان

وبطريك الأرمن في هذه المدينة مطلق النفوذ
على جميع الطائفة الأرمنية ، وهي تدعوه بلقب
« الخليفة » وهو لقب يطلقه المسلمون على أكبر
رئيس يجمع بين السلطين الدينية والدنيوية . ولكن
المسيحيين في آسيا لا يطلقونه إلا على البطريرك
الأرمني الذي تكاد تكون سلطته على أتباعه تعدل
سلطة الخلفاء في بغداد في الأزمنة السالفة

وجدنا جيوش السردار بالقرب من الكنيسة
وسمعت أحد ضباطه يقول : « نحن سنحرق هؤلاء
الكفار ونشرب ما في كنائسهم من النبيذ »
فقلت له : « هل أنت مسلم وتشكم عن شرب
النبيذ ؟ لقد أصبحت كافراً مثلهم »

قال لي الضابط : « إن السردار يشرب الخمر
كما يشربها الكفار ولا أعرف لماذا لا أخذو حذوه
في ذلك »

وقد ظهر لي بمد هذا الحديث أن جنود السردار
احتلت الكنيسة وأن القسس أظهروا رضام وبذلوا
مساعدهم مكرهين . وكان الخوف متسلطاً عليهم
من غضب الإيرانيين

وقد عرف القراء قبل الآن وصف « النازا كشي
باشي » الذي صار قائداً لجنود السردار ، أما السردار
نفسه فكان وجهه أشد تجهماً منه حتى وصفه
شاعر الشاه بأن وجهه يشبه « أجري داج » وهو
الجبل الذي كنا بالقرب منه . وكانت صفاته كصفات

ولا يسمح لجيشه بالتقهقر مهما كانت الظروف المحيطة بهذا الجيش وهم يقولون إن في جيبي مصحف السردار « فقال السردار : « إذن قلله هو القائد الذي حاربته في العام السالف فإن هذا الوصف ينطبق عليه . لقد أدهشني كل الدهشة بتصرفاته للفريفة وخططه وقد سرق مني مصحفني في العام السالف واست أعرف كيف وصل إليه . ولكن ذكرك هذه المسألة يدل على أنك صادق يا حاجي بابا ، كم مدفعاً تقول إنه لدى الجيش الرومى ؟ »

فقلت : « أربعة أو خمسة أو ستة » قال الكاتب مراجعاً لى : « لقد قلت الآن كما هو ثابت عندي إن عدد المدافع عشرون أو ثلاثون فأى القولين هو الصحيح ؟ »

فصاح السردار : « أنكذب هنا ؟ » وظهرت علامة القوة والقسوة على عينيه وقال : « أقسم برأسمى أنه إذا اتضح كذبك في أية كلمة قلتها فلن تغتفر لك هذه الجريمة . إن ذقوتنا لم تخلق ليضحك الناس عليها »

قلت : « الحقيقة يا سيدي السردار أنني لم أذهب بنفسى إلى مكان الجيش الرومى فأنا إنما أقول ما يملق بذهنى من كلام الرجل الذى أرسلته وهو موجود . إن عظمة مولاي السردار قد حملت أحد الشبان الأرمنيين على الخطأة بحياته ظامعاً فى أن تغف عنه » قال السردار : « أعف عنه ؟ هل فى الدنيا أرمنى يستحق المغف ؟ » فسردت عليه قصة الأرمنى من أولها إلى آخرها وكنت أعتقد أن دقاعى عنه علناً بهذه الكيفية يجعل من المستحيل على السردار أن يماقيه بمد أن كفت له المغف على شرط قام بوقائه ولكن لما أنعمت القصة لم أسمع من الوجودين غير

السيف أصدق من اصطربلاب المتجم وإن جواداً وسيفاً ومسدساً لأفضل عندي من الحظ الحسن » قال السردار : « وماذا تقول فى التبيذ المتق ؟ إن حاجى بابا قد قام بمهمته خير قيام وزيد مكافأته على ذلك بزجاجة من نبيذ الأرمن »

ثم قال لى : « من الذى يقود الجيوش الروسية ؟ وفى أى معسكراتهم الفرقة للقوزاقية ؟ وهل لديهم مدافع كثيرة وأين مراكز قيادتهم العليا ؟ »

ثم نادى كاتبه اسماعيل خان وأمره بأن يدون جوابي فقلت : « أقسم بنفس السردار وفداؤها نفسى وأقسم بالخبر والملاح الذى أكله مع النازاكشى باشى أن الروس ليسوا شيئاً يمتد به وهم إذا ماوزنوا بالجيش الفارسمى لا يساوون الكلاب ، وأقسم لكم بعد الذى رأيته بعينى أن فارسياً واحداً معه رمح وسيف يستطيع أن يقتل بسهولة عشرة من الروس » أظهر رئيسى سروراً شديداً وقال لى : « لقد صدقت فراستى فيك يا أصفهانى فقد حققت ثقى بك » فقلت : « إن عدد الروس الذين على الحدود قليل لا يتجاوز السبعمائة أو الثمانمائة وقد يبلغ الألف أو الألفين ولكنه على كل حال لا يتجاوز ثلاثة آلاف ولديهم عشرة أو عشرون أو ثلاثون مدفعاً ؛ أما القوزاق فهم أفراد قليلون ومن الممكن إخراجهم من الجيش الرومى بدفع رشوة إليهم وهذه عادتهم التى اشتهروا بها ويكفى أحدهم ثلاثون أو أربعون أو خمسون طوماناً »

قال نازا كشى باشى : « ولماذا تذكر القوزاق ؟ إن أحدهم على جواده لا يفضل القرد على ظهر تيس » قلت : « هذا هو وصفهم ؛ أما قائدهم فأنهم يلقبونه « بالبيجور المجنون » وذلك لأنه لا يفر مطلقاً

نفكر في ارتكاب التهم التي تنسبها إلينا . إننا من رعايا الشاه وأنت حامينا ونحن في أمن ودعة مستظلين بظلك فن هو الرجل الذي تنسب إليه هذه التهمة ؟ »
قال السردار : « هذا هو » وأشار إلى يوسف ونظر إليه وقال : « قل لي هل اختطفت جاريتي أم لا ؟ »

قال يوسف : « إذا كنت قد أخذت غير زوجتي فاقولني ، إن التي تقول إنها جاريتك هي مريم زوجتي وقد ألفت بنفسها من نافذة دارك حين رأني ، وكلانا من رعايا الشاه وأنت تعرف هل لك حق استرقاقنا أم ليس لك هذا الحق ؟ نعم نحن أرمنيون ولكننا آدميون ونحن من رعايا الحكومة الإيرانية وما حدث قط أن الشاه أكره أو أسر باكره امرأة متزوجة على أن تكون رقيقة لأنها مسيحية . والذي لا أشك فيه أنك حسبت لما أسرت بإدخالها إلى منزلك — أنها قوزاقية أسرت في الحرب . ولكن عليك متى علمت أنها من الرعايا ألا تزعم أنها من جواريك »

ازداد خوف الخليفة لما سمع اللهجة التي يتكلم بها الشاب الأرمني فأسكته بإشارة دالة على الغضب والحدة . ولكن السردار الذي اعتاد سماع هذه اللهجة سر منها بدلا من أن يغضب ونظر إلى يوسف نظرة تدل على أنه نسي للسبب الذي استدعاه من أجله .
وكان يوسف لا يزال يتكلم فأسكته السردار بقوله : يكفي ! يكفي ! اذهب وخذ زوجتك .
وبما أنك قمت لنا بخدمة فأسأبتك في خدمتي وأجملك من حرسى الخاص . اذهب الآن إلى رئيس الحرس ليعملك واجباتك . ولباسك الثوب الرسمي ثم عد إلينا . وإذا حسن مسلكك في المستقبل فسأعفو عن غلطتك الماضية »

النطق بالشهادتين وصعد السردار في نظره وصوبه ولوى شفته السفلى على أشكال متعددة . وأخيراً قال : « لقد قام هذا الأرمني بأعمال عجيبة »
ثم نادى الخادم فأمره بأن يحضر غليونه ، ولما صعد نفسين أو ثلاثة أنفاس أمر بإحضار الأرمني ورئيس الكنيسة « الخليفة » فجئ يوسف الأرمني ، فالتفت إليه كل السيون وبدا الإعجاب برؤيته بعد أن سمعوا قصته ورأوا منه شاباً قوياً تبدو عليه كل علام الرجولة . وحدد السردار فيه نظرة وأبدى النازا كشى باشى علامات متعارفا عليها عند جميع الإيرانيين تدل على شدة الإعجاب

وجئ بالخليفة وهو رجل طامع في السن ولكن لا تزال بادية عليه علام القوة .

وكان لا بساً ثياباً سوداء لأن هذا اللون هو الذي اختص به الأرمن ، وكان معه ثلاثة من القس

بعد أن وقف الخليفة دقيقتين أو ثلاثاً أمام السردار دعى إلى الجلوس فجلس دون أن يحيى باليدن كما هي العادة المتبعة في مثل هذه الحالة . ثم التفت إليه السردار وقال : « لقد أصبحنا نحن المسلمين أذل من الكلاب في إيران ، فالأرمن يستدون على منازلنا ويختطفون نساءنا وجواربنا . قل لنا يا خليفة ما هذا ؟ هل هذا من عمل الله أم من عملك ؟ »
انزعج الخليفة من هذه المفاجأة التي لم يكن ينتظرها فبدا عليه الدهر . وتندي جبينه عرقاً وقد علمته التجارب أن المفاجآت التي من هذا النوع تكون في المادة بداية لما هو أشد منها . وعزم على اتباع خطة المقاومة فقال : « ما هذه اللهجة التي تكلمني بها ؟ إننا لا نسلم من أذاكم فضلاً عن أن

يرتدى ثوباً رسمياً ، ويميل إلى جنبه سيفاً . وكان ثوبه أحمر اللون ذهبي الأزرار والحواشي ، وعلى صدره حزام من الكشمير فيه خنجره ومسدسه ، وعلى رأسه اللقاووق الجميل الذي يلبسه جنود الحرم وقد رجل شعره الذي لم يكن مرتباً تحت غطاء رأسه القديم المصنوع من الجلد ، فأصبح لجماله وروعته كأنه إنسان آخر ، وقد جملته خصل الشعر المنسدلة على جبينه أشبه بالنساء منه بالرجال . وساعد على تقوية هذا الشبه ظهور أجزاء جسمه في ثوبه الضيق الجديد ، وكان وجهه يحمر خجلاً إذا أطل أي إنسان النظر إليه

شكرني يوسف في زيارته على المساعدات التي قدمتها إليه ، وعلى الوفاء وعدي في الدفاع عنه . وقال لي إنه اعتقد لما بدأ السردار بالحديث المتقدم أنه فقد زوجته ، وإنه لذلك أجاب جواب من يريد أن يقتل حتى لا يعيش بعد أن تؤخذ زوجته منه وقال إن نجاة زوجته ونجاة هائلتين الداعيان لسرويه . أما تعيينه في هذه الوظيفة فليس بالشيء الذي يسره أو الذي يطيقه ، وإنه يريد العودة إلى العمل الذي اعتاده في الحقول أو الاشتغال بالتجارة أو بقاءه متبادلاً في خدمة السردار دون أن يعمل عملاً ما ليس مما يتفق مع طباعه . وقال لي إنه لم يميل بالاستقالة ولم يرفض هذا العمل خشية غضبه ، ولأنه يرى الاذعان لكل شيء طالما كانت زوجته في مأمن . وقال إنه يفضل أن يعيش راعياً للخنازير في جبال جرجان ، وأن تكون زوجته معه على أن يعيش منها في القصور الفارسية وزوجته معرضة للسبي

لم يسعني عندما سمعت هذا من يوسف الأرمني

مسجد يوسف عند قدميه وأعرب له عن الشكر على إحسانه وقبل طرف ثوبه ولكنه لم يعرف ماذا يقول ولم تتكون لديه فكرة بالقبول أو الرفض عن هذه الوظيفة التي عرضت عليه .

ودمعي كل الحاضرين من مسلك السردار مع يوسف لأنهم كانوا ينتظرون أن يأمر بقتله في الحال ، وهم للنازكشي بائي كتفيه ، وأخص « الخليفة » بأن عبثاً ثقيلاً رفع عن بائقه واخفت نقاط العرق التي كانت عالقة بجبينه وبدت على وجهه ابتسامة وهنا السجل السردار على حلمه وكرم أخلاقه وشبهوه بكسري أنوشروان .

وسرعان ما انتقل الخبر إلى المسكر قلعيج كل الجنود بمدح رئيسهم الرحيم . ولست أعرف ما هو الشهور الحقيق الذي كان يشعر به السردار في هذه اللحظة ولكن كل الذين يعرفون أخلاقه يثقون بأن الرحمة لم تكن إحدى الدوافع التي تدفعه إلى أي عمل .

الفصل الحادي والأربعون

مهرب الإبرانيين مع الروس

كان « النازا كشي بائي » ، والسردار ينصتبان إلى ما يقوله يوسف الأرمني عن مشاهداته في الجيش الروسي . فلما أتم قوله قررا القيام بالهجوم في الحال وصدرت الأوامر للجيش بالتقدم نحو حاملوا ومشت المدفعية إلى الجبال وتبعها الفرسان والمشاة . ولا يفوتني أن أقول إن الأرمني زارني قبل أن يتحرك الجيش للقتال

ولم يمسد يوسف ذلك الفلاح الذي استعجبته في الطريق ، بل صار حارساً من حراس السردار

غير أن أطريه ، وإن كنت أتمنى أن يقع اختياره على رجل غيرى يجعله أميناً لسره لأن وقوع اختياره على سبجملنى مسئولاً عنه إذا فر

في ذلك الوقت كان الجيش يتقدم إلى اشتارك ، واستأذن يوسف في الذهاب لرؤية زوجته . ولما وصلنا إلى الميدان ظهر فقدان الصبر بأجل معانيه على السردار . فأبى أن يبق مع المشاة لأن حركاتهم أبطأ من فرقة الفرسان . وتولى قيادة الفرقة الأخيرة . ومن عادات الفارسيين أن يحتقروا المشاة في الجيش ولست أقول شيئاً عن رئيسى النازا كشى باشى . فقد ملأ الدنيا ياداعه حتى خال كل من سمعه أنه لم تبق إلا اللحظات يصبح بعدها الجيش الروسى كله فى أمرنا أو يقضى عليه ، وكان يريد أن يكون فى فرقة الفرسان مع السردار ، ولكنه اضطر إلى اللحاق بالمشاة كأمر رئيسه ، وكنت معه فى هذه الفرقة

وكان السردار يريد الوصول إلى حماملو فى ساعة الفجر لكي يفاجئ الروسين عند أبوابها وسرنا وراعه لكي ننجده إذا اضطروه إلى التقهقر وكان وصولنا إلى النهر فى ساعة الشروق وكنا على وشك العبور عند ما صاح صوت عال ثلاث صيحات بلغة لا نفهمها فوقفنا والتفتنا إلى الرئيس الذى صار وجهه أشد اصفراراً من أوجه الموتى قال بصوت خافت : « ما هذا ؟ ما الذى نفعله ؟ أمر على يا حاجى بابا ! »

قلت : « لا أظن هنا أحداً من الأعداء ولكن ربما كان فى المكان غول مثل الفيلان التى يقولون إنها فى اشتارك »

وبعد لحظة سمعنا أصواتاً بربرية وسمعنا طلقاً

نارياً ، ورأينا على الشاطئ الآخر لنهر رجلين تدل ثيابهما على أنهما من جنود الروس . فلما رأى أن ليس موجوداً من الأعداء غير هذين عادت إلى وجهه دمويته وصاح : « اقتلوهما اقتلوهما ! هاتوا رأسيهما ! تقدموا ! »

فأتى بعض جنودنا بأنفسهم فى البحر شاهرين سيوفهم وثبت الجنديان الروسيان فى مكانهما ثباتاً أدهشنا وقتلا اثنين من جنودنا التى كانت تعبر النهر واضطر الباقون إلى التقهقر ولم يبد من أحد أى ميل إلى أن يحدو حدوهم ، وعبثاً حاول القائد بالوعد والوعيد ويذلل المال أن يحمل أحداً على التقدم وأخيراً تقدم بنفسه وهو يصبح : « أنا سأذهب وحدى فلا يتبعنى أحد » ثم وقف وقال لى : « ألا تذهب فتأتى برأسي هذين الرجلين ؟ إننى أعطيك فى مقابل ذلك أى شئ تطالبه »

ثم همس فى أذنى قائلاً : « اذهب فأبى واثق بأنك تستطيع قتلهم »

وفى اللحظة التى كان يكلمنى فيها أصابه سهم من أحد الروسيين فعلاً صخبه وضجته وبألت مخاوفه حد اليأس وأقسم أغلظ الإيمان أنه سيقتل كل من يخالف أمره وقال إن الروس حقراء مهينون لا يستحقون أن يجبن الفرس أمامهم هذا الجبن » وعند هذا ظهرت فرقة من الجنود الروسية وظهرت الفرقة التى يقودها السردار ، وكانت قد اصطلت ناراً حامية من الأعداء وضمت ضمفاً شديداً ، وبالرغم من أن عمل نازا كشى باشى فى ذلك اليوم كان جديراً بأن يمنحه عن المفاخرة طول عمره فإنه كان لا يزال يتبعجج بادعائه

ثم وصلت رسالة من السردار يطلب فيها إرسال

حاجي بابا إليه فذهبت مع الرسول وكانت أول جملة سمعتها من السردار قوله : « أين يوسف الأرمني ؟ » أين هو وأين زوجته ؟ » فخطر لي أنه قد هرب فأقسمت أنني لأعلم ولم تمد لي معرفة بمكانه، فأطال السردار من نظره إلى وحرك شففيه بأشكال مختلفة وأقسم أن يصب فوق رأسه جام انتقامه وأن ينتقم أيضاً من أهل قريته ومن كل إنسان له علاقة به وأقسم أنه إذا اتضح أنني ساعدته على الفرار بأي حال من الأحوال فإنه سيوجه كل نفوذه ضدي لينخفي ظلي عن الأرض

وسمعت بعد ذلك أنه أرسل بعض رجاله إلى جافيشلو ليقبضوا على أبوي يوسف وأقاربه وكل من بينه وبين يوسف صلة من القرابة وأمرهم بأن يحرقوا كل ما تقع عليه العين من أمتعه ولكن الشاب الذكي كان يتوقع كل ذلك فاحتاط لوقوعه وسار هو وزوجته وأهله في أرض روسية قبل أن يعلم السردار بأنه ترك جيشه وقد قابلهم الروس بمقاولة حسنة وعرضوا عليهم ما خسروه وأقطعهم أرضاً واسعة

الفصل الثاني والأربعون

حاجي بابا لدى الشاه

عدت إلى رئيسي نازا كشي باشي فأخبرته بالوعيد الذي توعدني به السردار ولما كنت أعلم مقدار التعاسد بين جميع الرؤساء الإيرانيين فأنني لم أتردد في إخباره بأنني مستاء من اللجة التي كلني بها لأنني سرؤوس لغيره وقد كان عليه أن يراعي ذلك لأنني لا أقبل هذه اللجة إلا من رئيسي

تأثر نازا كشي باشي تأثراً عظيماً بهذا القول

فأظهر غضبه وكانت كلماتي بمثابة الهواء الذي يهب على نار موقدة فيزيدها اتقاداً . وخشيت بأس السردار إن علم بعد ذلك بأمرى فيعطش بي فرأيت أن أختفي من الميدان واستأذنت رئيسي أن يسمح لي بالمودة إلى طهران فسر النازا كشي باشي من منحه هذه الأجازة لي لأن ذلك يفهم السردار أنه وحده صاحب السيطرة على أتباعه . وأمرني بتبليغ رسائل إلى رئيس الوزراء تدل على أنه قام بعمل هام في المارك وأن غيره لم يقم بأي عمل وقال لي : « لقد حضرت المواقع بنفسك يا حاجي بابا وأنت قادر على وصفها ونحن لا نستطيع مع الأسف أن ندعي أننا انتصرنا لأنه ليس لدينا من رؤوس الأعداء ما نستطيع إرساله ولكننا مع ذلك لم نهزم ، السردار قائد حمار لأنه بدلاً من أن ينتظر وصول المشاة عرض فرقة الفرسان لخطر الهزيمة لهجومه بها وحدها وهو لم يفعل غير أن نبه الأعداء إلى وجودنا فأعلقوا في وجوهنا أبواب المدينة واضطروه إلى التقهقر الزرى بكرامة الجيش الفارسي . ولو أنني كنت القائد لأريتكم كيف ينبغي أن تسير الأمور . ولا تنس أن تقول لرئيس الوزراء إنني أول من جرح في الجيش لأنني كنت أجراً الجنود على التقدم وبعد أن سلمني خطاباً لرئيس الوزراء وعريضة للشاه أمرني بالذهاب . وذهبت فوجدت الشاه لا يزال في السليمانية على الرغم من أن الخريف كان على الأبواب ، وبمجرد وصولي قدمت نفسي إلى رئيس الوزراء وأعطيته الرسالتين فرحب بي وقال : « لقد كنت أنت أيضاً في حمامو وقد بلغتنا الأخبار من رسائل السردار ، أن الكفار لم يجرؤوا على رفع السيف في أوجه الفرسان الإيرانيين ومن هم الذين (٧)

فاستشهد الكاتب ببیت شعر للسعدي يقول فيه :
« إن الأ كذوبة التي منشؤها حسن النية لا تعد
أ كذوبة بتاتا »

ثم قام الوزير فذهب إلى الشاه وتبعته في جملة
من تبعه من الخدم والأتباع ثم نظر إلى الكاتب وقال :
« أنا الآن في غنى عنك فلك أن تذهب وتستريح »

الفصل الثالث والأربعون

ما يحى بابا بروى قصة فتلى به نكبة

بعد أيام قليلة عاد الشاه وحرسه إلى طهران وكان
موكبه في عودته من الهيبة والجلال كما كان عند ذهابه
وعدت إلى عمل الأول مساعداً لرئيس الجلادين
و كنت مشغولاً بتعليم الجنود الجدد الدين حلوا محل
الدين أرسلوا إلى الحرب . وبثت برسالة إلى طهران
أبلغهم فيها أوامر الشاه بأن يحملوا الرافعات
والغنيات على استعداد لمقابلة جلالته . وكان القصر
الذي فيه الغنيات والرافعات بمكان يبعد عن العاصمة
ثمانية أميال أو تسعة

ولما أبلغني الشاه هذا الأمر لارساله عدت
فذكرت زينب التي كنت أنساها وتجددت
مشاعري التي كادت تخمد

كان قد انقضى على أول يوم تعرفت فيه بزينب
أكثر من سبعة أشهر . وعلى الرغم من أن
القوم الذين عاشرتهم في خلال هذه المدة كانوا من
التوحش بحيث ينسى كل من يعيش في وسطهم
كل ما في نفسه من شعور نبيل — على الرغم من
ذلك فقد كان تأري شديداً عندما ذكرتها وذكر
الحالة المزجة التي لا بد أن تكون قد وصلت إليها .
وقلت في نفسي : « لقد مرت بي أثناء معرفتها عهود

يجرؤون على ذلك ؟ لقد علمت أن رئيسك جرح
في المركة وقد برهن على أنه من أحسن خديم الشاه
ولا بد أن تكون جنودنا الآن على الشاطئ الآخر
من النهر

لم أكن أجيب على هذه الأقوال إلا بقولي :
« نعم ، نعم » أو « لا ، لا » ثم نادى كاتبه وأمره
بأن يصدر بياناً ينشر على الأقاليم والقرى ويعلن
فيه انتصار الجنود الإيرانية في جهات متعددة
خصوصاً في منطقة خراسان على جانبي النهر فنظر
إلى الكاتب وسألني : « كم عدد جنود الأعداء ؟ »
قلت : « كثير جداً » ثم ترددت في تقدير
العدد قليلاً وقلت : « اكتب خمسين ألفاً »

فقال : « وكم عدد القتلى منهم ؟ »
فقال رئيس الوزراء : « اكتب عشرة آلاف
أو خمسة عشر ألفاً فإنه لا يليق بجيش الشاه أن يقتل
أقل من هذا العدد . هل تريد أن تجعل الشاه في نظر
الشعب والشعوب المجاورة أقل من رستم وأفرسياب ؟
هل كتبت ؟ »

قال الكاتب : « لقد كتبت ما أمرتم دولتكم
به » ثم قرأ ما كتبه وهو : « إن الكفار من كلاب
موسكو طردوا الله من رحمة ، لم يجروا على التقدم
من جيشنا مع أن عددهم يربو على خمسين ألفاً وعددهم
لا يتجاوز بضعة آلاف وقد أمكننا الله منهم فقتلنا
في المواقع الأولى عدداً يتراوح بين عشرة آلاف
 وخمسة عشر ألفاً »

قال رئيس الوزارة : « بارك الله فيك ، هذه
كتابة حسنة وإذا كان الواقع يخالف ذلك فإن حسن
حظ الشاه كفيلاً بأن يجعل عدد القتلى أكثر من
ذلك في أقرب وقت »

قال لي الطبيب : « وتجديني شديد الخوف من استدعائي لمعالجتها لأنني إن قلت إنها غير مريضة هلكت الفتاة وإن قلت إنها مريضة هلكت أنا وإني لآسف على إهدائها إليه وإني لألتمن الساعة التي شرف فيها الشاه منزلي »

ذهب الطبيب بعد أن قال لي ذلك إلى منزله وعدت إلى خيمتي وأخذت أعزى نفسي بأن زينب مريضة وأن مرضها سيطول وستمنعها من مقابلة الشاه وأخذت أدعو الله أن يطيل مرضها ليطول أمد امتناعها عليه ، ثم أخذت أفكر في تتجه في كل اتجاه حتى حاولت في النهاية إقناع نفسي بفضل الزهد وضرورة التصوف ، وما ذلك مني إلا حيلة الماخذ وسلوة اليأس .

وأخيراً أعلن سفر الشاه إلى طهران فاجتمع أهلها لتحيته واستقباله وكنت في ذلك الوقت شديد الرغبة في مقابلة الطبيب مع التظاهر بأن هذه المقابلة جاءت مصادفة حتى لا يحوم حولي ريبة ولا يسوء بظن ، ولقد تقابلت معه عند وصولنا إلى طهران ولكن كان ذلك لسوء حظي في وقت غير مناسب . وتفصيل الخبر أنه أصدر لي الأمر في ذلك اليوم بالذهاب إلى الميدان لتبليغ رسالة إلى النازكشي باشي وفي الساعة التي تليق فيها هذا الأمر رأيت رئيس الأطباء خارجاً من حجرة الملك ، وقد بدت على وجهه علامات النهم والحزن الشديدين ، وأخفى ظهره فراقفته قليلاً وسألته عما به . فقال : « لقد جعلتني هذه اللمينة الكردية في أشد حالات البؤس والنكد . فإن للشاه غضب غصبة شديدة ، وأقسم أن يقتل كل رجل في داخل القصر أو خارجه ما دامت له علاقة به إذا لم تظهر هذه الفتاة »

مختلفة تماقب فيها الخوف والرجاء والأمل واليأس ولم يبق في عهد النزاع في حبها إلا أمد قصير ، ثم أجد نفسي أمام القضاء المقدر ، فاما أن يتحقق الأمل وإما أن ترجح كفة اليأس

ولما جاء يوم السفر سبقت الموكب إلى القصر لأرى كل الاستعدادات التي أمر بها الشاه هل تمت وفق رغبته أم لا يزال بها شيء من النقص مفتقر إلى الإصلاح ؟

ولما وصلت إلى باب ذلك القصر سمعت من فيه من السيدات يتحدثن . وما كان أشد شوق في تلك الساعة إلى التحدث مع زينب أو إلى رؤيتها إن كان التحدث مستحيلاً

لكنني وجدت أن سؤالها عنها بنوع خاص سيثير الريبة وقد يكون فيه خطر على حياتها وعلى حياتي فاكثفت باستدعاء رئيس القصر وسؤاله عما فعله بالأوامر وأطالت حديثي معه مراجعاً في الجواب مناقشاً في التفاصيل لئلي أسمع في خلال هذه المدة صوت زينب ولكن عبثاً ذهبت هذه المحاولة فاني لم أسمع صوتها ولا اسمها

وفي أثناء هذه الوقفة جاء سيدي القديم ميرزا أحمد رئيس أطباء الشاه وفهمت أنه جاء بدعوة من أهل القصر لمعالجة بعض من فيه نخشيت أن تكون زينب هي المريضة . وقلت إنها لو كانت كذلك فهي هالكة لا محالة

لكن الطبيب استدعاني إلى ركن من الغرفه وعمس في أذني بأنه شديد الخوف من غضب الشاه لأن الفتاة الكردية التي أهداها إلى جلالته منذ سبعة أشهر لم تستعمل لمقابله عند عودته كما أمرها معتذرة بأنها مريضة

قلت متجاهلا : « من هي ؟ »

فقال : « هي زينب التي أهدبتها إليه . وقال إنه سيقتل الوزراء أيضا إذا لم يعرفوا كيف كان اختفاؤها من قصره »

قلت له : « يظهر يا ميرزا أحمد إن الشاه يعتقد أن الفتاة تحبك » فاضطرب الرجل أيما اضطراب وقال : « أستغفر الله ! أرجوك ألا تميد هذا القول فتحوم حولي شبهة قد تصل إلى سمع الشاه فينقلني إلى العالم الآخر . من الذي قال لك ذلك ؟ كيف علمت أني أحب زينب ؟ »

قلت : « لقد سمعت كثيرا جداً عن حبك وإلا فما الذي دعاك وأنت جالينوس فارس ولقمان عصرك إلى تربية فتاة يزبدية من عبدة الشيطان في منزلك ؟ أأنت تعرف أن وجود فتاة مثلها يكفي لخراب بلد أو مملكة فضلا عن بيت مثل بيتك »

فقال لي رئيس الأطباء : « نعم لقد صدقت يا حاجي بابا » ثم هز رأسه يمنة ويسرة وقال : « لقد كنت شديد الحماسة لما افتننت بسحر عينيها وإن عينيها لساحرتان »

قلت : « ما الذي يفعل الشاه إن وجدها ؟ » فقال : « ليفعل بها ما يشاء ! ليرسلها إلى جهنم إلى بيت الشيطان الذي تمبده ؟ إنني لا أفكر فيها ولكنني أفكر في نفسي » ثم نظر إلى نظرة حنو وقال : « أنت تعرف يا حاجي بابا أنني كنت دائما أحبك وقد آويتك في منزلي عند ما كنت بغير مأوى وارتفعت مكانتك بفضل مساعدتي وأريد منك أن تدل على عرفانك الجميل وأمامك الآن فرصة سانحة » ثم مسح لحيته يديه وقال : « أنت تعرف ما أردت أن أقول »

قلت : « لا ، فاني لم أفهم شيئا » فقال : « سأفهمك إذن في كلمتين ، إنك لا تزال شابا فإذا قيل لك إنك أنت الذي أحب هذه الفتاة فإن هذا لا يضيع من اعتبارك وليست هذه الحالة كذلك فيما يتعلق بي »

قلت : « يضيع اعتباري ! إن المسألة تؤدي إلى ضياع الروح لا إلى ضياع الاعتبار . هل أنت مجنون ؟ لماذا تريد أن أموت وكيف تحتمل دمي ؟ إن كل ما أستطيع أن أقوله هو أنني أعتقد أنك غير مذنب لأنك شديد الخوف من زوجتك ولكنني لن أقول إنني أنا المذنب »

وفي أثناء هذا الحديث أقبل نحوي خصي من خصيان الشاه وقال لي : « لقد أمر الشاه باستدعائك أنت وخمسة من النازا كشية وبأن يكون معهم تابوت ليقطعوا جثة بين يدي جلالته »

فقلت : « سأحضر في الحال » وكان مجيء الخصى في هذه اللحظة من حسن حظي لأن الطبيب تركني ثم نصيب من كل جسمي عرق بارد وأحسست أن عيني تحترقان وأني على وشك الغماء وقلت في نفسي : ألا يكفي أن أكون أنا السبب في موتها حتى أطلب بأن أكون جلادها أيضا ؟ لماذا أدعى إلي هذه المهمة الشنيعة ألا أستطيع أن أهرب من هذا النظر البشع ؟ لا أظن شيئا من ذلك في الامكان لأنه لا مفر مما قدر علي ولا مناص من أداء ما كلفت به ، ما أقبحك أيها الدنيا ! ماذا يكون نصيبك في قلوب الناس لو اطلع كل منهم على حقيقته ؟

في هذا الوقت كنت أشمر أن قلبي ينوء تحت عبء ثقل ، وجمت الرجال الذين سيتولون من تنفيذ العقوبة الوحشية ولم يكن أحد منهم يبالي لأنهم

لا شأن لهم وليس في نفوسهم مثل ما في نفسى من المطاف

وكان الوقت إذ ذاك وقت الغروب وقد اختضبت السماء بلون دموى وتزايد نور النهار . وكانت ليلة البدر ولكن السماء ملبدة بالغيوم

ولما أذن المؤذن لصلاة العشاء أحسست أن سوتيه يبعث الموت في نفسى لأن هذا الصوت كان نذيراً بموت الفتاة . وذهبت مسرعة إلى المكان المهود فوجدت أصحابي قد وصلوا إليه وهم جالسون بغير مبالاة على التابوت الذى ستدفن فيه زينب وقلت لهم : « هل انتهيت ؟ »

فقالوا : إنهم لم ينتهوا

وبعد ذلك ساد صمت رهيب وقد كنت أتمنى أن يكونوا قتلوها قبل مجيئى حتى لا أشهد هذا المنظر المنكر . أما وهو لم ينته فلا بد لى من رؤيته . وبعد قليل جاء رجلان من خدم القصر يقودان بينهما فتاة تصرخ بصوت مرعب كأنه صوت عشرين مجنوناً يضحكون في وقت واحد ، وكان الرجلان يجبرانها بمنف وهى تقاوم وتأبى السير

وكان صوتها يشتد كلما دنت منا فبدا التأثير حتى على أوجه الجلادين الغلاظ القلوب ، أما أنا فذهلت ، ولو سئلت في هذه اللحظة عن شئ ما لما استطعت وصفه أو تحديده وقد كنت بالرغم من ذهولى وشروود ذهنى قادراً على رؤية ما يجري أمامى من الأمور

وأخيراً سمعت صرخة عالية تلاها صوت جسم يقع على الأرض وإذا نسيت شيئاً فيستحيل أن أنسى المرارة التى شغرت بها عند سماع هذا الصوت ثم رأيت جسم زينب ملقى على الأرض في وسط

الدماء . وكانت لا تزال تنفّس وسمعت ألفاظاً تقولها ولكننى لم أفهم معناها ثم خفت صوتها وصاح أحد الخادمين الذين جاء بها : « هل ماتت ؟ »

فقال أحد الأوغاد الذين معى : « نعم »

قال ذلك الخادم : « إذن فضعوها في التابوت واذهبوا بها إلى الجحيم »

وقمت ففمست مندبلى في دم زينب وقلت إنه أثر منها سيقى معى ما دمت حياً . ووضع الأوغاد جثتها في التابوت وحملوها إلى المدفن ليدفنوها في قبر كان قد أعد لذلك من قبل ، ومشيت معهم بحركة آلية ورجلاي لا تقويان على حمل جسمى

وضعا التابوت على الأرض وأخرجنا منه الجثة وجلست على قبر قريب منه وأخذت ألاحظ ما يفعلون وقد رأيتهم وهم يضمون الجثة في القبر ثم يثبتون الأحجار في مدخله

ولما انتهوا نظروا إلى وقالوا : « لقد فرغنا » . فقلت : « إذهبوا الآن وسأنبئكم » . وظللت جالسا على القبر

واشتد ظلام الليل ، وكنت في ذلك الوقت أسمع الأصدااء تتجاوب من ناحية الجبال ، وكانت رغبتى فى العودة تقل كلما طالت مدة جلوسى بهذا المكان ، وذكرت حياتى الماضية عهداً بمرور عهد وأحس قلبى بخشوع ورهبة ، وزهدت الحياة التى أعالج الآن مرارتها كأشد ما رأيت فى أدوار الحياة وأخيراً عزمتم عزماً صادقاً أكيداً على أن أكون

درويشاً بالمعنى الصحيح لا كما يعيش الدراويش ظللت فى هذا المكان حتى انبثق الفجر وأنا أدبر خطوة لحياتى المقبلة ، واستقر رأيى فى النهاية على أن أذهب سائراً على قدمى إلى أصفهان حيث

ولم تكن لدى رغبة في الكلام لما كنت أشعر
به من الهم ولكن مسلك الرجل معي جعلني أتكلم
معه وأصني إليه

سردت عليه قصتي منذ فارقتة وقد أعجبني منه
ما كان يظهره من الاحترام الشديد لي حتى إذا وصلت
إلى القول بأنني عينت مساعداً لرئيس الجلادين نادى
الرجل يسجد أمامي لأن تجاربيته دلته على وجوب
الاحترام لكل من يشغل مركزاً كبيراً . ولما
أخبرته أنني تركت هذا المنصب وتركت طهران ،
شعرت بأن مركزي يسقط من عينه وقال لي إنني
لا أساوي ثياب الشرف التي كنت ألبسها . وقال :
« أهكذا يضعني إنسان بحاضره ومستقبله من
أجل امرأة ؟ »

ثم أطرق مدة طويلة قال لي بعدها : « إن سير
الناس إلى السعادة غريب متفاوت ، فبعضهم يسير
إليها من أخصر طريق ، والبعض يسير إليها من الطريق
الذي لا يؤدي إلا إلى ضدها . والبعض يسير دون
أن يسأل إلى أية جهة يؤدي طريقه ، والبعض إذا
ما اقترب من غايته عاد من نفس الطريق الذي كان
يسلكه زاهداً في الغاية مستخفاً بالتعاب التي طأها
في سبيل الوصول إليها » واستشهد بآيات لا فردوسي
في هذا المعنى

وبينما نحن نتحدث إذ رأينا (خاناً) فقال لي البرويش
« تعال وانس أحزانك . تعال معي فأننا سنقضي ليلة
لذيذة في هذا الخان وسأقص عليك أخباري أثناء
وجودي في الأستانة »

كنت راغباً في تسليّة نفسي لملي أنسي همومي
فقبلت اقتراحه ومشيت معه إلى ذلك البناء . وقد
وجدنا فيه ناساً من جهات متعددة في فارس . وبعد

أرى أهلي وأعيش معهم عيشة الزاهد النحيف ،
وقلت إن أبي أصبح في أخريات أيامه فاعلم أن أسعده
بمودتي إليه وهو في سن الشيخوخة ، وأحتمل
عنه ما لا يطبق احتمالاً من أعباء الحياة وتكاليفها
ورأيت أن بقائي في مناصبي أو في هذه المدينة أصبح
مستحيلاً لأنه فوق طاقتي . ولو بقي في نفسى الشعور
الذي كنت أحس به هذه الليلة لصرت من أتقى
أولياء الله وأكثرهم ورعاً

الفصل الرابع والأربعون

ما همى بابا يقابل صديقاً لباعده ربيع عند الخطر
أخرجت من جيبى التنديل المصطبغ بدم زينب
وأخذت أفكر في مركزي الخفيف المربع ثم وقفت
أمام القبر وأقمت الصلاة . وقد أراحت هذه الصلاة
صدرى وجددت قواي فعمزت في الحال على مفادرة
طهران وسلكت الطريق المؤدى إلى أصفهان
وصلت إلى الطريق المؤدى إليها فلم أر قافلة مسافرة
فشيت إلى الصحراء وهناك وجدت رجلاً غريب
الشكل والحالة يخاطب شيئاً أمامه على الأرض ،
فدنوت منه ووجدته يكلم عمامته . ولما زدت اقتراباً
منه وجدت أني أعرفه وهو أحد الدراويش الثلاثة
الذين تعرفت بهم في مشهد وهو الذي كانت صناعته
القصص وإلقاءها في المجمع

ولما وقع نظره على عرفتني وأقبل نحو ليما تقنى
وسألني عما كنت أفعله في هذه السنوات . وقال
إنه مسرور برؤيتي . ولم يزل حديثنا يتقدم خطوة
بخطوة حتى تذكرنا ما كان من أمره وأمرى وقال
لي إنه ذاهب إلى الأستانة وإنه سيذهب منها إلى دلي
بعد أن يقضى فصلاً في أصفهان

فإنه آت من الآستانة وقال إنه رأى رجلاً أخذ يصفه بكل صفاتي ليوجه إليه اهتمام النازا كشيء . وبعد أن أتم الوصف حتى لم يعد ينقص إلا أن يذكر اسمي ، قال له : إن ذلك الرجل ذهب من طريق كذا ... وأخذ بضل النازا كشيء على أن يحذرنى فيما بعد من سلوك هذا الطريق

وقد كنت أطيع أى شيء سوى أن يظهر بى هذا الجلاد لأنه إنما جاء ليقبض علىّ ؛ ومحال أن أجد فى نفسه أو فى نفس غيره من الجلادين شيئاً من الرحمة . وبعد أن ذهب ذلك الوغد وعاد الدرويش سأله عن المكان الذى يمكن أن أذهب إليه فلا يدركونى فقال لى : اذهب إلى مدينة « قم » وستصل إليها فى الصباح . ومتى وصلت إليها فاذهب إلى قبر السيدة فاطمة الزهراء فهناك ملجأ لا يصل إليك فيه أى إنسان، وإذا ضبطت خارج سور المدفن فلا أمل لك فى النجاة »

قلت : « ولكن كيف آكل وأعيش فى داخل المدفن ؟ »

فقال : « أترك لى ذلك فأنى سأعولك لأنى أعرف المكان وأعرف كثيرين فيه . وقد اضطررت مرّة إلى الالتجاء إليه لأنى قدمت سماً لأحدى نساء الشاه لى تقتل به منافسة لها » وكان وصولى إلى المدفن قبل خمس دقائق من وصول الجلاد الذى جاء ليقبض على ولم أعش قط معيشة أرغد من عهدى فى ذلك المدفن لأنى كنت لا أعمل أى عمل ، وكان زائرو القبرة على كثرتهم يعطوننى كل شيء تميل نفسى إليه . والشئ الوحيد الذى تخشاه فى هذه الحالة هو أن يصدر الشاه أمراً يمنع الناس من إعطائك طعاماً ، وبأن من يخالف ذلك يصبح مستحقاً

أن استرحنا من مشينا الطويل أكلنا أكلة شهية ثم طلبنا ترجمتين وبدأ يقص على قصته التى وعد بها وكنت أحاول الاستماع إليه ولكنى وجدت ذهنى شاردآ بى بعض ما يسمع ويفوته البعض ولاحظت أن سائرساميه كانوا منصتين أشد الانصات وقد أبدوا أعظم اهتمام؛ ودلنى على ذلك أنى كلما تنفست فى لجة الذكريات نهى فحكمهم وعزمت على أن أستعيد هذه القصة فى وقت آخر لكثرة ما فاتنى منها . وكنت أحسد أصدقائى السرورين على سرورهم وتقت إلى حلول الوقت الذى أكون فيه مثلهم

انتهى النهار عند ما انتهت القصص التى كان يرويها وأشرق للبدر وكانت السماء صافية لا شيء فيها من الغيوم التى كانت متلبدة فى سماء الأمس . وبينما نحن جالسون إذا أقبل نحو الخان فارس يبدو على جواده

وكان من فى الخان يدخلون فى الغلابين ويتناقشون بهدوء . وكان خدمهم يتولون تهيئة الأسرة للنوم، وأما أنا فعمزمت على أن أنام على الأرض المارية وأضع تحت رأسى قطعة من الحجر ولكن لما وقع نظرى على الفارس المقبل تغير رأى فى ذلك كان هذا الفارس أحد النازا كشية الدين حضروا مى مقتل زينب وقد فهمت للغرض من مجيئه عند ما سمعته يقول لبواب الخان : « هل جاءكم أحد من طهران ؟ » وفهم الدرويش حقيقة الأمر بسرعة مذهشة لأنه كان على الدوام حاضر البديهة ولذلك أسرع إلى الباب ليتولى الإجابة على كل سؤال يوجه إلى البواب أو إلى غيره

وقد قال له إن كل من بالخان أتوا من جهات متعددة ولكنهم جميعاً ذاهبون إلى طهران إلا إياه

« إن هذا الجندي يهين المكان المقدس الذي لجأت إليه ويريد أن يأخذني بالقوة . فقولوا له هل تسمحون بذلك أم لا »

انضم الجميع إلى جانبي وقالوا ما سمعنا قط بمثل هذا من فارس، فأنت لا تستطيع أخذه وإلا استثرت ضدك غضب الزهراء وعلماء الدين جميعاً؛ ولن ينجيك من غضبهم اتناؤك إلي الشاه أو لجوءك إلى حماة الشيطان »

فلم يعرف الناز كشى بماذا يجيب وبقى هادئاً مدة ثم ألان صوته وراد أن يفاوضني في المبلغ الذي أدفعه إليه إذا تركني وعاد وحده . فلم أنكر عليه حقه في أن ينال ما يعوض عليه مشقة التعب لأنني ما كنت أفعل غير ذلك لو كنت في مكانه ولكنني أفهمته أنني لا أستطيع أن أدفع غير القليل لأنه يعرف الظروف التي غادرت فيها طهران . لكنه أصر على أن أدله على المكان الذي تركت فيه مالي بطهران ليأخذه متى عاد فأبيت ذلك عليه وأمرته أن يذهب ويترك المحزونين في أحزانهم

لكن الحقيقة أن الرجل كان قد أخذ ما وصلت إليه يده من أمتعتي وثيابي وفراشي وأثاث منزلي وهو الذي أبلغ الشاه عني وتطوع لمطاردتي لكي أمكنه من الحصول على ما ظنني أملكه من مال مخبوء وكان قد لاحظ حالتي ساعة نفذ الحكم في الفتاة

وتوقع أن يحمل بي نكبة فيجعل محلي في منصبٍ ولما رأى أن الأمر الذي معه ليس إلا قصاصة من الورق لأنه لا يستطيع اعتقالني مادمت في ذلك الملجأ — لم يجد بداً من العودة إلى طهران ولكنه قبل أن يذهب أوصى حاكم المدينة بأن يشدد في مراقبتي وبأن يقتلوني متى خرجت من الملجأ ويرسلني إلى طهران

عبر اللطيف الشار

« يتبع »

للإعدام ، ولكن حالتك لا تدعو الشاه إلى إصدار مثل هذا الأمر الذي لا يلبأون إليه إلا في حالات خاصة شديدة الأهمية

قلت له : « أنا لست أنسى جميلك ، وربما عاد نجعي إلى الارتفاع فأريك أنني لست ممن يضيع الجليل عندهم ، وأنت تعرف حاجي بابا من زمن قديم وهو ليس من الذين يضعون حسناتهم على راحة اليد ويخفون سيئاتهم تحت الأبط وأنا لا أزال كما عرفتنى في مشهد قبائع التبغ في تلك المدينة هو نفسه مساعد النازا كشى باشى » فمانقني الدرويش وقال : « اذهب حيث شئت فإن الله معك »

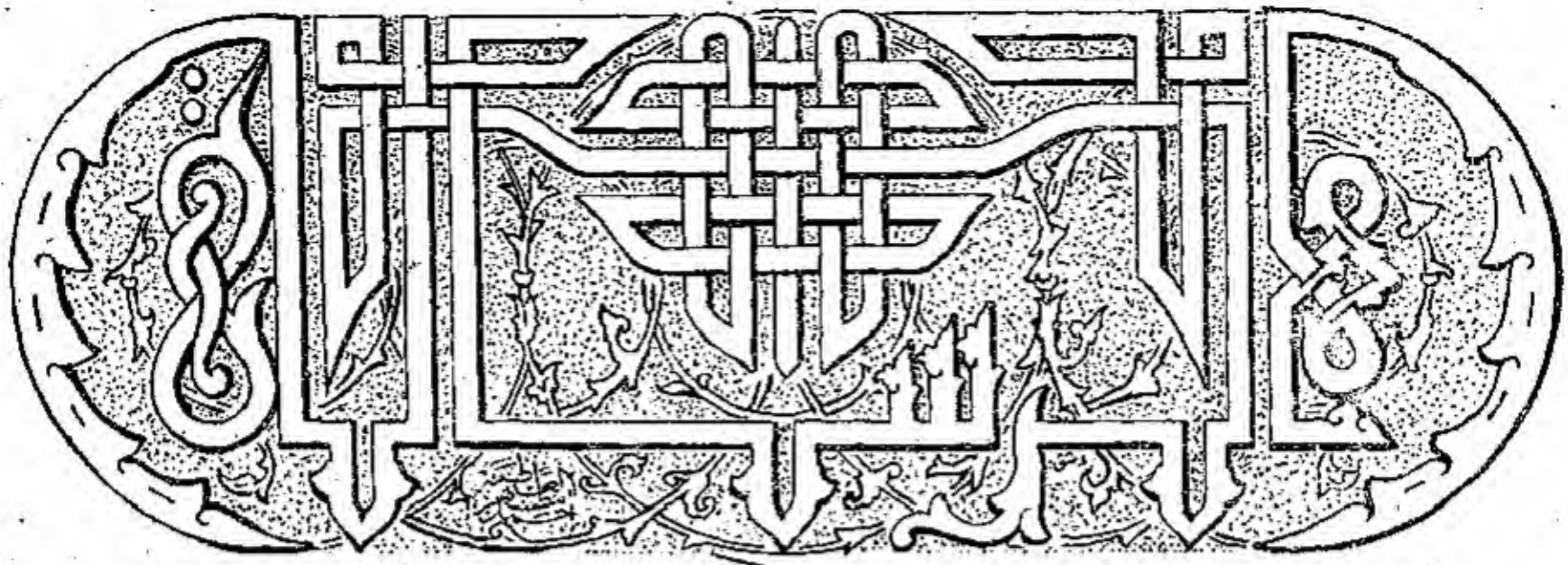
فسرت، ولما طلع الفجر رأيت على ضوئه قبة القبر؛ ولما صرت على صربي السهم من مدينة قم رأيت ذلك الفارسي يبدو نحوه فلم أنظر يمينا ولا يساراً حتى وصلت إلى القبر الشريف فقبلت عتبته وحمدت الله وشهدت أن لا نبي بعد رسوله وصليت على الامام علي

وفي هذه اللحظة وصل النازا كشى فخياني تحية فائرة وقال إن الشاه أمره بإحضاري من أي مكان يجتدي فيه . فقلت له إنني قد لجأت إلى هذا القبر ولن أقارقه باختياري . فإذا كان لديه أمر من الشاه بأن يفعل ما لا يتفق مع حرمة هذا المكان فليأخذني بالقوة .

قال لي : « وما الذي أقوله إذن يا حاجي بابا ؟ إن الأمر الذي صدر لي لا يتضمن استثناء وإذاعت دونك فربما قطع الشاه أذني بدلاً منك »

قلت : « سيفعل ذلك إن شاء الله »

قال وقد استولى عليه الغضب : « تقول إن شاء الله ؟ إنني أكون حماراً إذا لم أعد بك » ثم ارتفع صوتي وصوته فأقبل الدراويش المقيمون في هذا المكان وسألونا عن السبب فقلت لهم :



مَجَلَّةُ الْآدَابِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْآدَابِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النُّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ النُّظُورِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دَيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْتَرِكِ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجْلُ الْآدَابِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الْمَشْرِائِ الْإِخْلَافِيَّةِ قَرَاءً ، وَالْخَارِجِيَّ مَا يَسَارَى جَنِينًا مِصْرِيًّا ، وَلِلْبَلَدِ الْعَرَبِيَّةِ بِخَصْمِ ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العيد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للفن والفكر والتاريخ

تصدر مؤقثاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٦ ذو الحجة سنة ١٣٥٧ - ١٥ فبراير سنة ١٩٣٩

العدد ٥٠

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة		
١١٤	صلاة الفجر	أقصصة عراقية ...
١١٩	بين الحقل والمدرسة	أقصصة مصرية ...
١٣١	شجاعة امرأة	للكاتب ل. غارمان ...
١٣٧	الابن	للكاتب الفرنسي بول بورجية ...
١٤٣	مجنون زاهد	أقصصة مصرية ...
١٤٩	يونس	أقصصة مصرية ...
١٥٥	حاجي بابا أصفهاني	للكاتب الانجليزي « جيمز موير »
		بقلم الأستاذ علي الطنطاوى ...
		بقلم الأستاذ دريني خشبة ...
		بقلم الأديب ناجي الطنطاوى ...
		بقلم الأديب كمال الحريري ...
		بقلم الأنسة جميلة العلايلي ...
		بقلم الأديب عبد الحليم المشيرى ...
		بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...

صَلَاةُ الْخَيْرِ

أَقْصُوصٌ عِراقِيَّةٌ
يَقُومُ الْأُسْتَاذُ عَلَى الطَّنْطَاوِيِّ

قد احتواه هذا الواقع القبيح ،
وذكر ما كان بينه وبين هذه البني
التي قدمت إليه فرائشها ، وأحاطته
بذراعها ، فأحس بالاشمئزاز ،
وذل في عين نفسه وتضائل ..
ماذا فعلت بنفسى ! أهذه هي
مبادئ وأخلاقى ! وبعد فإذا
أصنع الآن ؟

وهم يابقاظ إيمانه واللجوء إلى ربه ، ولكنه
لم يستطع فقد ألقت المصيبة حجاباً على قلبه ، ورائت
الخطيئة عليه ، فأحس بالألم يقطع في فؤاده ، فقام
إلى ثيابه يرتديها على عجل ليخرج من هذه الدار القذرة
التي أضاع فيها عفافه ، وخسر طمأنينة نفسه .
وفكر في الناس ، ألا يرونه ؟ ثم رأى أن لا بد له
من الخروج من هذه الدار التي يحس أنه فيها كمن
ألقى في بركة قدرة لموت فيها غرقاً ...

وألقى على المرأة نظرة أودعها كل ما في نفسه
من كراهية واحتقار وبصق مشمئزاً وخرج هارباً .
ولكن كيف له بالهرب من نفسه ، والفرار
من ضميره الذي يذيقه من التعريغ والازدراء ما ليس
لخلق يحمل مثله طاقة ؟ وكان شارع الرشيد خالياً
مقراً إلا من أعقاب السابلة ، من كل بائس أودع
لأنه لا يبقى بقطاً في مثل هذه الساعة إلا البؤس
والرذيلة ، وكانت ليلة مجنونة ذات رياح تموى في هذا
الليل مثل عواء الدباب الجامعة يخالطه أصوات آلاف
من النوم تنعب ممكاً ، فتعلا أصواتها الفؤاد السليم
ذهراً ، فكيف بمثل فؤاد رجب أفندى الروح
الكليم ... وكانت الأمطار تسكن لحظة ثم تمود
فتنهطل ، تنصب انصباباً كأنما هي تريد إفراغ السحاب

... أفاق في الساعة التي ألف ، فضرب يصره
إلى الجدار حيث الساعة الكبيرة ، ليري كم بقي
من الليل ، فلم يجد على الجدار ساعة ، وإنما وجد
صورة لامرأة عارية ، تبدو له على ضوء الصباح
الكليل كابية مظلمة عليها من الوحشة والقبح ستار ،
فما من النظر إليها ، وأجال عينيه في أرجاء الغرفة ،
فإذا هو منكر لها ، لا يعرفها ولا عهد له بها ، وإذا
هو يري إلى جانبه على السرير امرأة عارية مفتوحة
الفم تغط غليظاً منكراً ، وقد سالت الأصبغة
على وجهها واختلطت ، فتعوذ بالله من هذا الحلم
وألقى برأسه على الوسادة ، يفكر تفكيراً مبهماً
مختلطاً ، فما لبث أن عاد إلى المنام فرأى نفسه ملكاً
من ملوك الأساطير ، مضطجماً على سرير الرصع
بالذهب ، المحلى بالياقوت والمرجان ، والوصائف
قائمات على رأسه ، عاريات السوق ، باديات النحور
والصدور ، ينثرن عليه الورد ، وبضمن مفرقه
بالمسك والعنبر ، وأمامه الفنون والمذنيات ، وإلى
جانبه فتاة جمع الله فيها ما تفرق من سمات الجمال ،
فلم يتالك أن أهوى على قفلة ...

... فأحس بها تدفمه عنها ، فنظر فإذا هو
مستيقن أن ما يراه حقيقة ثابتة ، وأن حلمه الجليل

الذنوب والله كريم غفار ، لو جاءه الميّد بقراب الأرض خطايا وجاء معها بالتوبة الصادقة بشروطها الثلاثة لجاءه الله بقرابها مغفرة ، والله غفور رحيم ...

وكان رجب أفندي في الخامسة والمشرين ، في السن التي تركب المرء فيها شياطين الشهوة ، وتزين له السبل إليها ، فلا يتفهم إذا خطا الخطوة الأولى عقل ولا تفكير ، ولا يقف إلا في آخر الطريق كالصخرة على شفر الوادي ما بقيت مكانها فهي ثابتة مستقرة ، فإذا زحزحتها وقلبها قلبه واحدة هبطت إلى أعماق الوادي ... وكان رجب أفندي قد نشأ متديناً ، وكان شيخاً بعمة وجبة يطلب العلم على المشايخ لم يدخل مدرسة نظامية ولم يختلط بشباب العصر ، فكانت العمة عصمة له من البلاء ، وسداً يحول بينه وبين (الأوتيلات) والمراقص والحانات ، وكانت نفسه كهذه العمة التي على رأسه صفاء وطهراً وبياضاً ولكنه اضطر منذ أعوام إلى العمل في ديوان من دواوين الحكومة فنزع العمة مكرهاً ، وودعها أسفاً ودخل اللجة وهو جاهل بالسباحة ، ليس له بطبيعة الماء خبرة ، ولا بمسير الموج علم ، فحملته موجة فألقته بحيث ترى ... ولو أنه عرف طرق الشر لما سلكها ، ولو كان متزوجاً لما هوى ، ولو أحسن اختيار أصحابه لما انساق هذا المساق ، ولكنه كان جاهلاً بما وراء البار والمدرسة والسوق ، يستوى عنده في عالم الرذيلة جلوس في قهوة ، أو شهود رواية في سينا ، ومعاينة الخمر في الحانة ، ومجالسة البنى في الماخور . وكان عزباً ، ونفس المزب مهما اتقى وصلح كصندوق الديناميت لا يؤمن انفجاره إذا دأب لهب أو مسسته نار ، ونفس المزب

في دقيقة واحدة . والريح تضرب حباتها فتصرفها ذات اليمين وذات الشمال ، والبروق تسطع خلال ذلك تخطف الأبصار ، والرعد يدوى فتحس أن قد تقلقت بساكنها الأرض .

وضرب رجب أفندي بيده إلى جيبه فألقاه فارغاً وذكراً أنه دفع مرتبه كله الذي قبضه أمس لهذه البنى ... فمظلم عليه الأمر ، وبلغ من سخطه على نفسه أن ود لوعض يده بأسنانه ، أو قطع شعره بيده ، واستفزع ما أتى وفكر في أهله الذين لم يغب عنهم من قبل ، ولم يبت ليلة إلا معهم ، فكر في أمه التي يعلم أنها لا يغمض لها جفن ما دام قائماً عن الدار ، وأبيه الشيخ المسكين الذي لا يفكر إلا فيه ، ولا يعنى إلا بسعادته . ماذا يقول لهم ؟ ومن أين يروض عليهم مرتبه الشهرى الذي ينتظرونه ساعة بعد ساعة ، ليشتروا به الخبز ... أيقول لهم إنه وضعه كله في يد مومس غنماً لليلة إثم وعار ؟

لا . الموت أهون من ذلك ، وفكر في الموت فعلاً : ماذا على إذا ألقيت بنفسى في دجلة فسترت فيها إثمى ... ولكن هذا الخاطر ائحى من رأسه على عجل ، لأن رجب أفندي كان متديناً يعلم أن السلم لا يمد أبداً إلى هذا الانهزام الشائن من غمرة الحياة وباب الفضيلة مفتوح أبداً ، والتوبة تغسل النفوس مهما تراكت عليها أوضار الآثام ... وهم بأن يستغفر الله ويدعوه ، ولكن الحياء من الله عقد لسانه ، أن يتوجه إليه ويسأله وهو غارق في حمأة الرذيلة إلى أذنيه ونسى أن الدعاء يكون أدنى إلى القبول كلما كان للبعد أقرب إلى الاضطرار ، وأن الندم على ماضى والمزم على الاقلاع عن الذنب فيما يأتي ، مع تركه والانصراف عنه دواء يشفى أكبر المذنبين من أشد

المسكين قد قرأ دواوين للشعر الغزل ، وروايات
الحب المندري كلها ، فظن أنه قد غدا قيساً جديداً ،
أو روميو آخر ...

وكان رجب أفندي يمرض في نفسه هذه القصة
وهو يمشى متسللاً في ظلال الجدران ، في هذه الليلة
العاصفة الماطرة ... ويذكر كيف عاد إليها بعد ذلك
فسمع حديث شقائها ... وبكى لبكاؤها ، كما كان
يفعل المحبون الذين قرأ أخبارهم في الأشعار والروايات
وصب بين يديها ما كان في جيبه من مال .. وكيف
ندم وتنبه إيمانه في نفسه . فززم على ألا يراها من
بعد ، فأبطل رفاقه عزيمته وأفهموه أن الشاب
المصري لا يليق به أن يفعل ذلك فعاد مرة ثالثة
ورابعة ، وهي دائماً في أبواب المثلة العاشقة للفريرة
تهيج نفسه وتطمعه ولكنها لا تطعمه ، وتعرض
عنه ولكنها لا تؤيسه ، فهو يتبعها أبداً راغباً فيها ،
ولكنه لا يصل إلى شيء

واستيقظ إيمانه كرة أخرى ، فأزمع أن يتركها
أبداً ، وذهب إلى مكتبه بمزجة جديدة ، وراحة بال
وأدى عمله بنشاط ظاهر ، وصرت على ذلك أيام
حسب فيها أن كل شيء قد انتهى ، وأن هذه السحابة
قد انقشعت من سماء حياته ، ولكن البريد حمل إليه
كتاباً منها فقرأه وغضب وخرقه باضطراب عصبي
ظاهر . وخرج يمشى إلى داره ، فأحس أن نفسه
تنازعها الذهاب إليها ، فأعرض ومضى قدماً فاشتدت
رغبته في زيارتها فزعم لنفسه أنه ذاهب لتأنيبها
وإعلان القطيعة بينه وبينها ... ودخل عليها مقطباً
ورد على تحيتها باعراض ، فسأته: مالك أيها الحبيب؟
فقال : لا شيء ! لست بحبيب أحد من فضلك

يلهبها كل ما في السوق من متبرجات سافرات ،
وما على الشاطئ من عارين وعاريات ، وما في السينما
والقصص من أخبار الداعرين والداعرات ... فأيان
تأمن انفجار الديناميت ؟ . ثم جاءت طامة الطامات
فالتف حول رجب أفندي نفر من زملائه تعاوخوا
لاغوائه احتساباً لوجه إبليس ، فوجدوه شديداً
عنيفاً ورأوه قد ثار الثورة الكبرى لما أرادوه على
دخول القهوة ، فعملوا أنه قد صف قوى نفسه كلها
في هذه المركة الصغيرة ، ولم يبق لما وراءها شيئاً ،
وأيقنوا أنهم لو غلبوه هذه المرة غداً منقاداً لهم طيعاً .
فما زالوا به يراوغونه ويحتالون عليه ، ويسألون من
يثق بهم على مسمع منه : هل في دخول القهوة
ما بمس الدين أو المرض ، أفتونا يا مسلمون ؟ .
فيقولون : لا ... وإنما هي مضيمة للوقت ، مفسدة
للمسحة ، وإنها عادة مؤذية ، ولكنها لا تنافي الدين ،
ولا تمد في المكفرات ... وما زالوا به حتى دخل
القهوة ، فجلس مستحيماً يتصبب منه العرق ، ويظن
أن كل ما في الأرض عيون تنظر إليه ... ثم لم يطق
البقاء فخرج ، ولكن رجله علقت في الفخ ... واعتاد
القهوات ، وسار إلى السينمات ، وما في ذلك كله
بأس ، ولكن رجب أفندي اعتقد أنه هوى وزل
مد دخل القهوة ، وأن للسد بينه وبين الرذائل كلها
قد أنهار ، فلم يقف في طريقه شيء ، وعرف ذلك
أصحابه من عباد إبليس المخلصين ، فأنعموا لعبتهم على
ذقته ، ليستكملوا سرورهم بكال هذه الرواية ،
فأخذوه إلى دار من تلك الدور التي تسمى (أوتيلات)
أو (بانسيونات) ولكن جدرانها تنغم على ماخور
من شر الواخير ، ومعبد من معابد إبليس ، وأغروا
به الفتاة ، وأوهموه أنها تحبه وتموت عشقاً له ، وكان

وذكر كيف أزمع الاتصال بها مرة واحدة ،
أو الاعراض عنها مرة واحدة واطراحها ونسيانها
وأني لذلك وهي لا تدع إلى إغرائه طريقاً إلا سلكته ،
إنه يراها كالأنف المبرقةشة ، ويتصورها أحياناً حشرة
قدرة ولكنه يود مع ذلك لو قبض عليها فمصرها إليه
وعصرها وأكلها أكلًا ...

وذكر كيف كان الندم يذمر نفسه ، فيأوي
إلى غرفته يشتغل بالمطالعة ، ويقبل على كتب الرقائق
ويخرج إلى المقابر والمستشفيات ، يتعظ برؤية المرضى
والتفكير في الأموات ، حتى إذا أحس البرء قليلاً
جاء رفاق السوء بالمرض الفضال ... وذكر كيف
كان ينفق في كأس من الويسكي أو الشمبانيا ما يكفي
أسرته أسبوعاً كاملاً ، كل ذلك من أجل هذه الفتاة
التي اتصل بها أخيراً ، فتكشفت له عن حشرة
حقيقية ، يبصق عند رؤيتها استمزازاً ...

وكان يفكر وهو يسير مسرعاً ، يريد أن يفر
من الناس حتى لا يراه أحد ، فلم يبع على نفسه
إلا وهو في ضاحية (الأعظمية) ...

قال لي وهو يحدثني حديثه :

... فلما بلغت سمعت المؤذن يعبد الله ويذكره
ذكر السحر

ورأيت جارنا أبا صالح ، يمشي إلى المسجد وهو
يقول : لا إله إلا الله ، يقتلها من قرارة قلبه ،
فتواريت منه كيلاً يراني ، وجعلت أذكر أيام كنت
لا أعرف هذا السحر الذي جر على كل بلاء ، فكنت
أنام عقب العشاء ، ثم أفيق في السحر ، فأرافق
أبا صالح إلى المسجد ... فرأيت بيني وبينه أمداً بعيداً
وتحدثت لي خطايبي وآثامي كلها ، لأن صوت المؤذن

وشمر بالارتياح ، وسره أنه استطاع أن يخاطبها
بمثل هذه اللجة ، وتوقع أن يجيبه بجفاء فيغضب
وبصارعها بالطبيعة . ولكنها ظلت صامتة ، وظل
هو مطرقاً ينظر جواب ما قال .. فطال عليه الأمر
فرفع بصره ليرى ما تصنع ، فالتفت نظراتهما وخيل
إليه أنه رأى في عينيها معنى الألم والعتب والاخلاص
بلوح له من خلال جفونها للناعسة ، وأهدابها الطويلة
فتضمضع ولان وخفق قلبه بشدة وأحس بالرغبة الملحة
في الاقتراب منها وعناقها ، ونهض ليدنو منها ولكنه
لم يجزؤ على ذلك فلبث قائماً . قالت : مالك أقلم بحب ، قدت
إليه يدها لتجلسه ، فلما أحس بأصابعها بين أصابعه
اهتز جسمه كله ، وانتفض على نحو ما يصف الشعراء
والقصصيون ... وجلس إلى جانبها وألقى يده على
كتفها كأنما كان ذلك عفواً ، فشمر بلذة وسره
ما كان من جرأته ففكر في أن يلف يده حول عنقها
ولكنه خشى أن تغضب .. وأن ترى في ذلك تعدياً
على عفافها ، وذكر أن ماجدولين غضبت لما قبلها
ستيفن لأن هذه القبلة قد أفسدت الهوى المذرى ..
الذي كان بينهما ، ثم اشتدت رغبته في تطويقها
بذراعه ، فتردد حيناً ثم لف ذراعه حول عنقها ،
وأتم ما كان يفكر فيه فأسند رأسه إلى كتفها
كما شاهد الممثلين في السينما يفعلون ، فلم يبد عليها
شيء من الغضب فأوغل في الجراءة فأخذ يدها بيده
الأخرى ورفعها إلى فمه فمس أناملها بشفتيه ...
ونظر ماذا تفعل ؟ فإذا هي قد ألقت رأسها فوق رأسه
حتى لامست خصلات شعرها وجهه ، فالتفت للنار
في أعصابه وهم بها فوثبت كالقطة .. وجعلت تشكو
إليه ما عليها من الدين ، فدفع إليها كل ما في جيبه ..
فلما احتوت المال يدها تخلصت منه فلم يدرك كيف
خرج إلى الشارع ...

سر الليل ، فأمد الله إلى ما كان سلبنيه من الأنس وسعادة الروح بالتوجه إليه . ومراقبته . . . وله الحمد على ذلك

الآن عرفت جمال الدنيا ، لا كما يقول أصحابك الأدباء ، من أن المرء لا يعرف جمال الدنيا إلا بالحب وأن الحب لا يرى الدنيا جميلة إلا إذا أضاءتها عيننا من يحب — فإذا غابت غاب جمالها — فأى كون هذا الذي تحتويه عيننا امرأة قد تكون بغيًا ؟

إننا نحتاج إلى مبشرين بالفضيلة ممن عرف الرذيلة وخبرها ، أما من دعا إلى الفضيلة لأنه لم يقدر عليها فهو شر من الشيطان ، لأنه إن قدر عليها انقلب داعراً خبيثاً فأضل معه من كان اهتدى بهديه ، والشيطان يدعو إلى الرذيلة على النور فلا يضل به إلا من أراد الضلالة ، وليست فضيلة الماجز إلا انتقاماً لنفسه من القادرين ، ولقد ترددت بين الحياتين : حياة يلذها الشبان ويأثسون بها وهي حياة الانطلاق من كل قيد ، والسعى وراء اللذة ، والاستجابة إلى داعي الهوى ، وحياة لا تعجب أكثر الشباب لأن لها غاية سامية ، ووراءها حياة آخرة ، وفوقها إله قادر يعلم صاحبها أنه إن فاته حظه من لذة عاجلة فانية ، فله من اللذة الآجلة الباقية ، فتأدبت بأدب القرآن فكنت أغض البصر ، وأتزه اللسان عن الفحش ، وأبتعد عن المغريات فنلت والحمد لله السعادة كلها !

قلت : أنأذن لي بنشر حديثك ؟

قال : نعم ، ولهذا حدثتك به ولكن دع الأسماء لا تصرح بها . وكذلك فعلت !

على الطنطاوي

وجلال السحر قد نبها في نفس الدخيرة الدينية ، فأدركت قيمة الاستقامة ، ولذة العفاف ، وعلمت أن هذه السعادة التي يحس بها المؤمن لا تعد لها دأئذ الجسم ، ومنع الحب ولا توازيها . . . وأدركت أن الصلة بالمرأة سراب خادع تراه من بعيد ، وتسمع وصف زلاله الصافي ، ومائه النخير ، فيهبجك الشوق إليه ، ولكنك إذا جئته لم تجده شيئاً . . . جرب هذه الصلة مرة تحس بهوائها وسخفها . . . لا . . . لا تجربها ، فإن من جرب المجرب حلت به الندامة ولا تناصر بدينك وشرفك لتعلم هذه الحقيقة بل ثق بما أقول لك . ولا تتر هذه النار في نفسك فانك لا تستطيع أن تطفئها . إنه لا يطفئها إلا أن تستمتع بكل جميل في الكون ، وهيات . إنك إذا استظمت لا تقوم صحتك به ، ولا تدوم لك وأنت تنفق منها بلا وعى ولا حساب

لما أحسست بذلك أسرع إلى الحمام فتطهرت ، وخرجت أؤم المسجد تائباً ، وأحلف لك أني لم أجاوز بابه حتى وجدت مثل ارتياح الغربيق إذا خرج إلى الهواء ، أو المختنق إذا فتح له مجرى النفس ، وشعرت أني أسمى وأرتفع ، وأن هذه الأغلال التي كانت تقيد روحي قد تحطمت وانكسرت ، وأن عبء الخطايا قد نزل عن كتفي ، ولما وقفت في الصف وقلت : الله أكبر خرجت من دنياي

وقرأ الامام : « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم ، لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله بغفر الذنوب جيماً » فجاء ذلك برداً على كبدي وسلاماً ، فصححت التوبة ، ورأيت أن أصل البلاء من رفاق السوء فهجرتهم جميعاً ، وقطعت جبل ودم ، وترك

بَيْتُ الْحَقِّ الْمَلِكِ مُسْتَرِيَّةٌ

اقْصُوصْهُ مِصْرِيَّةً
يَقْلُمُ الْاِسْتِزَادَ ذُرِّيَّ خَشَبَةٍ

— ليس غروراً ،

لكنك رجل لا تدري من
أمر الدنيا إلا الناف
والمحراث والساقية... إنك
مثل البهائم التي لا تعاشر
غيرها

— البهيمة التي تفيد

أحسن من الانسان الذي يضر !

— لملك تمنى توفيقاً بهذا الكلام ...

— هو ذاك ... أنا لا أعنى أحداً سواه

— وفيهم ضحك توفيق ؟ هل كسر ذراعك
أم سطا على حقلك ؟

— لا هذا ولا ذاك .. لكنه أضاع من جهودنا
هذه السنوات الأربع ، وقد كلفتنا مائة جنيه على
الأقل يارقة !

— فداؤه كل ما نملك ... إن دخوله علينا
كل أجازة يبدلته وطربوشه — صانه الله وحرسه —
أحسن من ألف جنيه !

— طبعاً ... هذا هو الذي يفريك بذهابه
إلى المدرسة ... وقد كسر الزير منذ ثلاثة أشهر
وأنا لا أستطيع أن أشتري غيره إلى الآن ، وأولادنا
يمرضون من الجوع والبرد وتفضل ألا نشترى
لهم لحماً أو ثياباً ليذهب أخوم توفيق إلى المدرسة ،
فلبت دخوله عليهم بالسترة التي نفختك هذه النفخة
كان يشقيهم أو يسد رمقهم

— أي جوع وأي مرض يا شيخ ؟ الصندوق
ولله الحمد ممتلئ بالمبيض ، والقاعة ممتلئة بالحبوب ...
هل شكاك أحد منهم ؟ هل قال أحد إنه جوعان ؟
— لا ... لم يشك أحد ... لكنهم مع ذاك

— كلا ، بل لا بد من أن يذهب إلى المدرسة

— قلت لك إننا فقراء ، ولا قبل لنا بالنفقات

الطائلة التي يقتضيها التعليم

— نجوع .. نمرى .. ولكن لا بد من ذهابه !

— ألا ترين يارقة أن نفقات التعليم تذهب

بنصف غلتنا كل عام ومع ذاك فولدك من الخياب ... ؟

— ولدي أنا ؟ توفيق من الخياب ؟ حماه الله

وحرسه !

— بل هو أخيب الخياب يارقة ، لقد رسب

هذا العام والعام الذي قبله ، وهو يعضى عامين في كل

فرقة ، ونفقات سنة واحدة كانت تشتري لنا جاموسة

أو بقرتين ... والثلاميذ ينالون الشهادة في أربعة

أعوام ، وما قد مضت ثمانية وتوفيق لما يزل في السنة

الرابعة ، فالأربعة الأعوام التي رسب فيها كانت توفر

لنا ثمانى بقرات لو أننا ملكناها للملات لنا الدار

لبنا وزبدآ وجينآ ووقودآ ، وكنا نعيش في سعة ...

وكنا أصلحنا هذا الجدار الدائل ... وكنا اشترينا

حصنة على أبي زيدان وأدخلناها في دارنا فاقسمت ... و..

— حسبك يا شيخ ... كفى تخريقاً ... إن

حرفاً واحداً مما تعلمه توفيق في المدرسة خير من

هذه المزبة ومن فيها ...

— هذا غرور يارقة

حظه ، أما ابنا فهو أخيب الخياب يارقة ... أنا والله لا أريد له إلا الخير ... يساعدني ... إني رجل مريض ، ولا أضمن أن أعيش له ... إني إذا مت اليوم فسينقطع عن المدرسة برغمه ، ولا يجدمن يعلمه عملاً ينفعه ... التعليم لأولاد الأغنياء والموسرين يارقة ... يكفي الفقير أن يتعلم الكتابة والقراءة والحساب وما ينفعه في صحته ودينه ...

— وهل كل الذين يذهبون إلى المدارس أغنياء ؟
— المجتهدون منهم يستحقون التعليم ... لكن الخياب أمثال السيد توفيق ، ينبغي أن يتعلموا في جهات أخرى

— وأى الجهات تقصد ؟

— يتخرطون في أعمال آبائهم

— ومن علمك هذا ؟

— الحياة يارقة .. الحياة الصارمة التي حيتها في ظل أبي

— زمن والدك قد مضى وانقضى ... نحن في زمان جديد

— زمانكم الجديد هذا ، زمان مريض عليل

يمتلئ بالغرور ... كله زخارف ... إنك لا تريد أن

أن يذهب توفيق إلى المدرسة إلا ليدخل عليك

بالبدلة والطربوش ، وحتى لا يمشي حافياً ولا يلبس

البشت ... وكى يكون يوماً من الأيام موظفاً مثل

ابن أبي عوف ... يقبض المرتب أول كل شهر ،

ويجوع آخر كل شهر ، وهو بالرغم من بذلته

ووسامته يعيش عمره ذليلاً فقيراً ، إذا طرد من عمله

أصبح من المتبطلين للفارغين ، فهو يتسكع هنا

ويتسكع هناك ، يحسد الناس ويحقد على الناس

وينقم أول ما ينقم على من يحسن إليه .. هل نسيت

عبد الخالق ابن الشيخ زفاني ؟ ...

— هذا حظه ...

لا يذوقون اللحم إلا مرة في كل شهر ... ودقيق الدرة قد أوهنهم وأنهم قوام ، وكلما رأيت الدم في بولهم وبرازهم ذكرت العلة التي أودت بمحمود وعضت على كثيرين من أهل القرية

— أذكر الله يا شيخ ودع هذا للتخريف

— لست أخرف يارقة ... لن يذهب توفيق إلى المدرسة بعد الآن ...

— وماذا يقول الناس ؟ نفصح أنفسنا بين أهل القرية ؟

— يقولون ما يشاءون ... ليس لأحد حساب عندنا !

— وماذا يصنع توفيق إن لم يذهب إلى المدرسة ؟

— ماذا يصنع ؟

— أجل ... ماذا يصنع ؟

— يساعدني !

— يساعدك ؟ يكون فلاحاً ؟

— ولماذا لا يكون فلاحاً ؟

— هذا مستحيل !

— لن يكون إلا فلاحاً ...

— نجوم السماء أقرب إليك مما تريد ... توفيق

لن يمشي حافياً ... توفيق لن يخلع البدلة ليلبس

البشت ... توفيق لن يلبس البدلة مكان الطربوش ...

توفيق لن يمسك المحراث بعد أن كان يمسك الفلم

— اطمني ... فلن يمشي توفيق حافياً ولن

يلبس البشت ولن يخلع الطربوش ... سيكون عروساً

كما تشتهين ، لكنه سيكون فلاحاً مع ذاك !

— لن يكون فلاحاً ...

— بل سيكون فلاحاً كما كان أبوه وكما كان جده

— بل سيكون موظفاً نظيفاً يقبض المرتب

أول كل شهر مثل ابن المعلم أبي عوف !

— ابن المعلم أبي عوف كان ولداً ذكياً وهذا

يعود إلى الوظيفة ، وأخيراً استطاع أن يتزلف إلى
أحد أعضاء بلدية منوف فسينه كناساً
— كناس ؟

— إي والله كناس يارقية ! بمائة وعشرين
قرشاً في الشهر

— مبلغ لا بأس به ... إنه ثروة !
— لقد كان يشرب دخاناً بأكثر منه
— ومع هذا لا أحسب أن الفلاح يكسب
مائة وعشرين قرشاً مثلها في الشهر

— الفلاح غلوق قنوع يارقية ، وهو إذا نجح
في زراعته وبارك له الله ربح أضعاف هذا المبلغ ...
إن جاموسة واحدة يبارك الله له فيها تربحه ضعف
هذا المبلغ

— ومع ذاك فلن يكون توفيق فلاحاً
— بل سيكون توفيق فلاحاً
— إذن أترك لك المنزل
— وإلى أين ؟

— إلى أبي
— وماذا تصنعين عند أبيك ؟
— ليس هذا شأنك
— إذا لم يكن شأنى فيكون شأن من إذن ؟
— إذن يذهب توفيق إلى المدرسة ولا ينقطع

عن التعليم
— لن يذهب إلى المدرسة ولن ينقطع عن التعليم
— وكيف لا ينقطع عن التعليم وهو لن يذهب
إلى المدرسة !

— سيتعلم الفلاحة صنعة أبيه وصنعة جده
— هذا لن يكون

اختلف الزوجان اختلافاً شديداً ، وذهبت رقية
تشكو زوجها إلى أبيها وإلى أخواتها وإخوتها وجميع
(٢)

— لا ... لم يكن هذا حظه ... بل للغلطة
غلطة أبيه

— وكيف أخطأ أبوه ؟
— لقد كان الشيخ زفاتي أمير حداد في القرية ..
لقد كان يبيع كل يوم جمعة عشرين شرشرة وعشرين
فأساً غير السكاكين والمقصات ، وقد استطاع أن
يجمع ثروة عظيمة ... سبعة أفدنة وثمانية عشر
قيراطاً يارقية من أحسن أراضي قريتنا ... خرطة
الساحل كلها وأرض أبي طاقية .. أين ذهبت هذه
الجنة ؟ .. لقد بددها عبد الخالق ...

— وما غلطة أبيه إذن ؟
— غلطته أنه لم يعلم ابنه صنعته
— لكنه علمه ما هو خير منها ؟
— وماذا علمه ؟
— لقد نال الشهادة والوظيفة

— وانسأخ من طهارة الريف وغرق في زيف
المدن ... ولما استغنى عنه وعاد إلى القرية ، لم يستطع
أن ينزل إلى أرضها لأن أجنحة الثرور كانت تذهب
به بعيداً في سماء غير سماها ، فباع الأرض تغاريق
وأنفق كما كان ينفق في حياة الوظيفة حتى لم يبق
في يديه شيء ... ولقد حاولت مرة أن أقنعه بفتح
دكان أبيه فسخر مني وقال : إنه لا يدري من صنعة
الحدادة كثيراً ولا قليلاً ... ولم أكن أقصد أن
يعمل بيديه ، بل كنت أعنى أنه يستطيع استخدام
أحد الصنائع الساكنين من أهل البندر فيصنع له
وهو يبيع ويدير العمل ، لكنه اتخذ حديثاً هزواً
واستكثر أن يخلع سترته وينغمس في تراب الفحم
ودخان الكير وأن يعود يعود سممه دقائق الأراذب
والسندال بمد ما تعودت أنقام المواد والقانون
والسكان ... قلت له : لكن الصنعة على قدراتها
أشرف من البطالة ، فتبسم وقال : إنه لم ييأس أن

— أريد أن أعرف ، هل شكت لك رقية من

ضيق في حياتها ؟

— شكت أمر الشكوى ...

— ومن أى شيء شكت ؟

— من كل شيء

— من كل شيء مثل ماذا ؟

— من الدار الخربة ومن الزير المكسور ومن

بخلك ... ومن ...

— بخلي ؟

— أجل يا سيد عبد الإله ... إنك تعنى بـ

شربة ملح على ابنك عبد الفتاح ...

— هذا هو الذي شكوت أمانته ... إن كل

قرش يقع في أيدينا ندخره لمصروفات توفيق وبذل

توفيق وطرايش توفيق ... إننا نجوع يا عم الشيخ

رزق لتفريح بدخلة توفيق علينا بالبدلة والطربوش

والخذاء الأصفر الفاتح ... أولادي كلهم يتبولون

دما لأنني أعجز عن إرسالهم للطبيب وهذا لأن أخام

يا كل أرزاقهم ... هم ينصبون ويكدون وكل نصيبهم

وكدم ذاهب عليه ... وهو مع هذا أخيب الخياب

— كلام فارغ ... تخريف ... هل دخلت

في علم الله يا شيخ ؟

— ليس ضروريا أن أدخل في علم الله لأعرف

إن كان ولدي ينفع أولا ينفع ...

— يا طاغي ؟

— أستغفر الله أن أكون طاغيا ... لن ينجح

توفيق في المدرسة ، ولو نجح فسوف يكون نجاحا

يشبه الخيبة

— ولماذا ؟

— سيكون مثل ابن أبي عوف

— وماله ابن أبي عوف ؟

من تعرفهم ومن لا تعرفهم ، وراحت تهمه بالجهل

وضيق الفهم وانقباض الكف ... ولبثت في منزل

والدها أياما طويلة وهي ترفض العودة إلى منزل الطاعة ،

كما يتقعر رجال المحاكم حين يسمون منزل الرجل

المتزوج .. وكما تردد الرجل على منزل أبيها يطلب أوتها

غلت في طلباتها فاشتراطت أن تشتري ثلاث بذلات

لتوفيق ، وطربوشين لتوفيق ، وزوجين من الأحذية

لتوفيق ، أحدهما أصفر فاتح ، والآخر أسود (بأسنك)

وجلس الفلاح المسكين الشيخ عبد الإله يحاور

صهره النبي فيما ينبغي وما لا ينبغي من هذه

المشكلات ... وكان الصهر كالفرس الحرون ، كما

أدلى عبد الإله بحجة ركب رأسه ، وأبي أن يصني

إليه ، وشرد بالحديث شرودا يكرب الصدر ويذهب

بأناة الحليم ... قال لزوج ابنته وهو يكلمه بكل

جراحة في وجهه ، فتارة يغمض عيناً ، وتارة يقلص

شفة ، وطورا يغفر فاه ، وأطوارا ترسم الأسارير

مستهزئة حول عينيه وملء جبينه ، وهو في ذلك

كله يتصنع اللباقة والفهم ، وإن لم يكن عنده شيء

من لباقة ولا فهم

— أنا عارف يا عبد الإله ... أنا عارفك ...

أنا عارف ...

— أنا اليوم كما كنت بالأمس يا سيدي

— أبدا ... أبدا

— وماذا تغير من ظبي ؟

— كل شيء ...

— كل شيء مثل ماذا ؟

— الوعود الحلوة التي كنت تعدنا بها في معاشر

رقية ذهبت كلها أدراج الرياح

— وأي هذه الوعود ذهب أدراج الرياح يا سيدي ؟

— كثير ... كثير ...

— أسوأ حال وألمن مآل !

— ولماذا ؟

— لأنه يشتغل كناساً في بلدية منوف

— كذاب !

— لست كذاباً

— هل رأيته ؟

— لم أره ، ولكني عرفت ؟

— لقد رأيته بعيني يجلس أمام مكتب نغم .

— هذا صحيح ؟

— إذن كيف تدعى أنه يشتغل كناساً ؟

— لقد ربحوه فقط ، فهو معين كناساً ولأنه

يحسن الكتابة أخذوه ليساعد الكتبة ...

— وهل أنت مهندس الكون يا شيخ عبد الله ؟

— لا ... لست أنا مهندس الكون ، ولكني

مهندس أسرتي فقط .

— وأين تعلمت هذه الفلسفة وأنت رجل فاف

ومحراث ؟

— ليس ضرورياً أن أتعلمها في الأزهر الذي

لم ينفعك ببصيلة !

— اخرس يا قليل الأدب !

— لست قليل الأدب ، ولكني أقول الحق ..

— اخرس يا جاهل

— لست جاهلاً فأنا أحسن الكتابة والقراءة

ولله الحمد ، وقد استفدت من الفلاحة أضعاف

ما استفدت أنت من الأزهر الذي قضيت فيه شبابك

فما أفدت مما حصلت فيه شيئاً ، ولولا ما ترك لك

أبوك ...

وهكذا انقلب الحوار فصار حواراً أفلاطونياً

عجيباً ... وهكذا تنقلب محاورات القرويين .. وقد

أخطأت رقية حين أثارت الماصفة في منزل زوجها

وحين جعلت أهلها قضاتها فيما كان ينبغي أن يكون

من شأنها وشأن زوجها فقط .

لقد كان الشيخ عبد الله رجلاً حصيفاً ينفع

أكثر من غيره من أهل القرية بعب الزمان ، وهو

إن أخطأ فعلا في إهاجة الشيخ زرق بتعبيره بتفاهة

ما أفاد من الأزهر إلا أنه كان على شيء من الحق

فما أراد أن يقول وإن يكن قد النوى عليه القصد

وفاته حسن للتعبير ... وأهل الزوجة حتى

حين يدسون أنوفهم فيما لا ينبغي أن يشاركو فيه

أصهارهم مما يعنيهم وخدم ولا يعني أحداً سواهم ؛

وهم حين يشجعون بنتهم على معاندة زوجها بتقصون

بأيديهم الأئيمة بنيان سعادتها وسعادة الأسرة

التي كان يجب أن تشيدها وتقيم عمادها ... وهذه

أولى وظائف الزوجة الصالحة ... لكنها وظيفة

لا تتم إلا للمرأة الكتوم التي لا يستخفها النزق

ولا يستهويها الطيش ، فتذيع من أسرار زوجها

ما كان ينبغي أن يكون سر بينهما لأنه سياسة حياتهما

لقد عير الشيخ زرق صهره عبد الله بأنه يبيع

ابنته وهي تهمة مفتراة ما في ذلك ريب ، وإن لم

تكن مفتراة فإن رقية هي التي قدفت بها في سمع

أبيها ... وقد اقترتها في غير وعي ولنغير حكمة اللهم

إلا لشهوة التشنيع على زوجها الذي ضاق ذرعاً

بنفقات تعليم ولده ، أخيب الخياب ، كما يطلق هو

دائماً عليه ، فهو يريد أن يقطعه عن المدرسة ليوفر

لأولاده أكلة من اللحم كل أسبوع على الأقل بدل

الأكلة الشهرية ، وليوفر لهم كذلك شيئاً من دقيق

القمح وشيئاً من القماش يقيمهم زمهرير البرد ، ثم

لكيلا يضمن على أحد منهم بشئ شربة من الملح

أوزجاجة من القطرة ، ثم لكي يضمن لولده مستقبل

عملها فلا ترهقه الحياة ولا تنفجأ بمطالبها بنته حين

يرغم على حياة المزرعة إرغاماً لم يأخذ له أهبة

ولا أعد له عدة . والزراعة فن وصران بصبحان

بعض الأيام غريزة في ساعدي الفلاح فهما تضربان
بالفأس وتثيران الحرث كما يفتي قلم الشاعر بأهازيج
المهوى فوق القرطاس .

كانت هذه الهواجس تضطرب في نفس عبدالاله
وكان كلما فكر في سلوك زوجته حزن وساوره الكمد ،
لأنها شغبت آلامه ، وخلقت له من المشكاة الواحدة
مشكلات ومشكلات ... وقد نسي كل شيء إلا
ما افترت عليه من أمر تجويعها ، فكان يذكر ذلك
ويبكي في أعماقه دون أن يذرف دموعاً واحدة وهو
أحر البكاء وأوجع

كان يقطن الشاب المراهق توفيق أفندي عبدالاله
الطالب بالثانوية الكبرى ، في منزل صغير قذر من
منازل عطفة السلاح بحى المنشية

وكانت غرفته البسيطة الساذجة الرطبة مأوى
لأسراب البعوض وبعيوش البراغيث والبق ...
لكنها بالرغم من هذا البلاء كانت جنته التي يقضى
فيها ليله وأكثر نهاره في أيام انقطاعه عن الدراسة
وما كان أكثر هذه الأيام

وليس عجيباً أن تكون هذه الباعة المثلثة
بأسراب البعوض وبعيوش البق جنة التلميذ المراهق
توفيق أفندي عبدالاله ... فالحجرة على قدارتها لها
نافذة تشرف من بعيد على حدائق المنشية الناعمة
تحت أسوار القلعة ، وذلك منظر عجب ينبت الريش
في خيال شاب مثل توفيق ، ويجعل له أجنحة
فيرفرف في عوالم الشمر ، ويجعل حياته ضرباً من
الأحلام لا يفتيق منها إلا على لدعة بموضة أو عضة
ذكر من ذكران البق أو باشق من بواشق البراغيث
وليس هذا المنظر وحده الذي جعل الغرفة جنة
لهذا الشاب ، بل هناك شيء آخر ... شيء إذا وجد
قلب كيان المرء وملك زمامه ، وسلبه لبه وتفكيره

لقد كانت أسرة فقيرة تعيش في إحدى حجرات
الطابق الثانى من ذلك المنزل ... وكانت الأسرة مكونة
من رجل عامل فقير ومن زوجة بائسة ، لها طفلان
ياقمان ، أما أحدهما فغلام في السنة الأولى الابتدائية
وأما الثانية فتاة في السابعة عشرة ، رسم للفقر حول
عينها تهاويل محجية من السحر ، كانت تنشر ظلالاً
من الفتنة فوق خديها ، وألواناً قرصية فوق شفيتها
وكانت ابتسامة واحدة من فمها الدقيق الرقيق تصير
بؤس والديها أنما ، وتنسبهم ما هم فيه من عناء وضيق
وكانت هذه الابتسامة نفسها بلسا يشفى فؤاد
توفيق ، وطلسا يشيع بالنشوة في كيانه ، فهو لهذا
لم يكن يعدل بغرفته القذرة المكظوظة بالحشرات
من كل صنف قصرأ بأسره ، ولا مدينة من ممر
يشيدها ملك الجن فيزخرها ويقم عمادها من فضة
وذهب ، ويجرى تحتها الأنهار من خمر ولبن وعسل
مصقى ، ويقت فيها من كل زوج بهيج

وأجل الحب وأخطره ما يكون في هذه السن
المبكرة ... فهو حب يضر القلب ويشك النفس
ويؤرق العين ، ويجعل صاحبه طيفاً قلماً تصدمه
حقيقة الدنيا ، وقلماً يعترف بما فيها من نضال ،
لأنه لا يفكر دائماً إلا في ملاك ، وهو يفتي فيه
بقلبه وعينه ومحمه وإدراكه ، ويهيه كل وقته لأنه
يعد نفسه كلما قربانا لحبيبه ، وهو ينظر إليه كأنه
شيء مقدس علوي ، فهو يحسد ملابسه لأنها تلتصق
دائماً بجسده الجميل المعتلى بالذرة ، وهو يحسد
الأرض التي يختال فوقها لأنها تقبل قدميه دائماً
دائماً ... وهو يحسد الهواء الذي يملأ رئتيه لأنه
ينفذ إليهما من أنفه الألفى الجميل ، ثم يخرج من
فه الحلو المطبوع بالقبل ... وهو يحسد الغرفة التي
يعيش فيها لأنها في نظره أئمن من كنوز سليمان
لأنها تضم ثروة من الجمال تعدل ثروته أضعافاً مضاعفة

فيسمونهم حبا ، ثم يوردون له الخدود ويقددون
للقدود ، ويكحلون عيون الآرام بالسحر ، ويمهدون
له القلوب لينام فيها مطمئنا مستريحاً ناعم البال

وذهب توفيق إلى القاهرة ليصل حياته المدرسية
وأنف أميه راغم ... ثم ليصل غرامه بالفتاة الناهد
العدراء الريانة

لقد كان توفيق يكره التعليم أشد الكره ...
وكان ينظر إلى الكتب كأنها سموم معبأة في قوارير
إذا ذاقها أذاقته المنايا أشكالا وألوانا ... وكان أكثر
الملموم بفضا إليه دروس الجبر ... لقد كان يسميها
دروس الألفاظ والمعاني .. ولم يكن يدرى ما فائدة
اللوغرتم مثلا ... وكيف يستعمله في حل مشكلة
دودة القطن أو الذبابة العسيلة التي تصيب اللوز
أو عمل الجبن أو استخراج الزبد من اللبن ...
أو ما فائدة الجذر التكعبي في علاج صدأ القمح
وكان يرى جيوش المعلمين تغزو الفهوات
ودور اللور ، والسعيد من حصل منهم على عمل
بيضة جنهات يستر بها حاله ولا تموض شقاءه
الطويل في دور التعليم ، ولا تنهض بالآمال الكبار
التي كان يملقها بمستقبله والباء

لقد كان يرى جيوش المعلمين المتعطلين يتسكعون
هنا ويتسكعون هناك ... وكان يقرأ في الصحف
غزواتهم للوزارات وأخبار اجتماعاتهم وهتافهم بزبد
وصياحهم بعمرو وإملاء إراداتهم على أولياء الأمور
حين يطالبونهم بخلق الوظائف لهم وتدير الأعمال
التي تناسبهم فكان يضيق ذرعاً بمستقبله ويراه أحلك
من ظلام القبور

وكان له صديق أسعد حالاً بالتعليم وأقل كراهية
للكتب ، وأكثر تفاؤلاً بالمستقبل فجلسا مرة
يتجاذبان أطراف الحديث في حديقة المنشية ، وكان

ثم يشذ في حسده ويفلو غلواً هجيباً حين يحسد
أم حبيبته وأباه وأهله الأديين لأنهم يكلمونه دائماً
وهو يكلمهم فيملا آذانهم من سحره ، في حين
أنه ناء ما يستطيع أن يكلمه إلا بقدر ، وإلا في كل
فرصة منترعة من عفو المصادفات

هذا هو الحب الجليل الخطر المهلك ... فهو جميل
لأنه ينمو في سن جميلة ... في زهرة العبا وعمر
الأحلام ... عمر الفراغ والخيال المشبوب . الخيال
الذي لم تفسده حقيقة الحياة المرة المشوبة بمكر
المسؤولية

وهو خطر بل مهلك لأنه يوقظ الحيوان الذي
يشور ويتدفق في أصلاب الناس منذ آدم ... وهذا
الحيوان هو أضرى الحيوانات كلها وأشرها لاسيما
إذا استيقظ في هذه السن المبكرة ، وهو في الغالب
يستيقظ فيها ، قلم بصرفه المؤدبون والآباء في كياسة
واطف بمختلف الوسائل التي يرسمها العلماء لمحاربتة
أو للتساي به ... فهم يحاربونه بالكبت بالدين
والنخوف بجهنم أو التهويل بما يلحق الجسم من
تهدم من جرائه ... وهذه طرائق سلبية قد تضر
أحيانا وقد لا تجدى إلا قليلا ... ثم هم يتسامون
به فيصرفونه إلى الرياضة والفنون والدفاع عن الوطن
والمخاطرات من كل لون ... وهذه طرائق إيجابية
كثيرة الجدوى في تلطيف حدته ، ولكنه مع ذلك
قد يشور بالوسيلتين فيحطم كل شيء ، كما حطم هذه
السنوات الثماني من حياة توفيق ، وكما حطم معها
أمل الشيخ عبد الله ، وكما حطم صحة أبنائه بالتجويع
والعري ، وكما ذهب بأمله في شراء حصاة أبي طاقية
وضمها إلى الدار ، وكما غل يد الرجل فلم يشتر
البقرات الثماني التي كان يرجو أن تملأ له منزله
سمناً وعسلا ...

هذا هو الحيوان الفتاك الذي يغازله الشعراء

— وهل المستقبل بيدك أنت ؟
— أنا لا أشك يا صديق أن مستقبل كل
إنسان بيديه وبدي أييه !!
— هذا كفر ...

— ليس هذا كفرًا كما توحى إليك تربيتنا
الفاسدة ... إن مستقبل الناس بأيديهم والمقادير
بيد الله ... إسمع يا صديق توفيق ... إن إقبال
الآباء بأبنائهم على مدارس التعليم النظري بهذه
الكثرة الهائلة هو نوبة من جنون التقليد ... إنهم
يندفعون مع التيار دون أن يفكروا في هول اللجة
التي تصعقهم حين يقذفون فيها بفلذات أكبادهم .
إنهم يرون ابن فلان من الناس قد حصل على وظيفة
بعد شق النفس ، ثم ما هو إلا أن بدا بينهم نختًا لا
في بذلته مياسًا تحت طربوشه حتى يجن جنونهم ،
ويتمنون لأبنائهم مثل مركزه إن لم يكن أسمى من
وظيفته ... فيسلكون السبيل نفسها التي سلك ...
فترى أبناء النجارين والحدادين والفلاحين والمتالين
والنقاشين يذهبون إلى المدارس أفواجًا ، ثم
يتخرجون فيها أفواجًا ، ثم يتكديسون بعد ذلك
في القهاوى ودور اللهو ، ولا يستحيون مع ذاك أن
يرهبوا ذويهم بمصرفاتهم الباهظة حتى يحين الحين
فيجد بعضهم عملاً نافعاً في ركن مصلحة من المصالح
ويسقى الآخرون وهم الآكثرون شذاً في الطرق
عياً لأهلهم .. ما هذا ؟ أليس هذا جنوناً يا صديق ؟
— ... ؟ ...

— أليس كان الألبق بأكثر هؤلاء إن لم يكن
بهم جميعاً أن يسلكوا سبيل آبائهم ؟
— ... ؟ ...

— لماذا لا تتكلم ؟
— إنك بهذا تريد أن تقصر التعليم على أبناء
الأغنياء !

للنلاميذ قد أجمعوا على الاضراب ذلك اليوم فلم يذهب
توفيق وصديقه إلى المدرسة

— وزارة ظالمة ووزراء لا يهمهم إلا أن يرفلوا
في ثياب السعادة للفضفاضة ... كلما كان لهم قريب
أو محسوب خلقوا له الوظيفة خلقاً ، فإذا طالبناهم
أن يحلوا أزمئتنا لوؤا أعناقهم وقالوا شباب قُنع
مستهترون ...

— وماذا ترى الوزارة صانعة يا توفيق ؟
— ماذا أراها صانعة ؟ ولماذا تقبلنا بمدارسها إذن ؟
— تقبلنا بمدارسها لأننا نطلب ذلك
— لكنها ولية الأمر فيجب أن تدبر لنا مستقبلاً
— وأي مستقبل تراها مدبرة لنا ؟
— لا تلحق بالوظائف إلا الأكفاء المتخرجين
في مدارسها

— هبها فعلت ذلك فهل تكفي وظائفها جماهير
المتخرجين ؟
— لا غرو أنها تكفي !

— أنت تقول هذا وقد أثبت الوقائع أن
استيعاب وظائف الحكومة لجيوش المتخرجين عبث
بل ضرب من المستحيل

— إذن فلماذا تقبلنا في مدارسها ؟
— تقبلنا لشدة إلحاحنا في ذلك .. لهالك آبائنا
على مدارسها . وإذا أردت الحقيقة فأبؤنا هم المخطئون
— أبؤنا مخطئون ؟

— أجل ، وهم الجناة المسؤولون عن ضياع
مستقبلنا ...

— ماذا تقول يا حلیم ؟
— أقول إنهم بلحقونا بالمدارس وهم لا يدرون
ماذا تصنع حين تتخرج فيها ... وإذا سألتهم أجابوك
هذا الجواب الضعيف التهافت : دع الأمر لله
فالمستقبل بيديه وهو يعلم الغيب وحده سبحانه !

— كلا ... فما إلى هذا قصدت

— وماذا تقصد إذن ؟

— هنا عيب الحكومة ...

— ألم أقل لك إنها وزارة مقصرة ؟

— ليست هذه الوزارة هي المقصرة بالذات ،

إذ هي غاطلة جميع الوزارات

— وما ذاك إذن ؟

— لو اقتصد الآباء في إرسال أبنائهم إلى

المدارس بعد المرحلة الضرورية منه — التعليم

الابتدائي مثلاً ، أو الأولى إذا دعت الضرورة —

كان واجب الحكومة أن تنتخب من أبناء الفقراء ،

بصرف للنظر عن مهن آبائهم ، العدد الأكبر من

ناقصهم فتعلمهم على نفقها ، فن استمر منهم على

نبوغه استمرت هي على الاتفاق عليه حتى يتم منهاجه

ويصبح جندياً ممن يعملون في الصف الأول من

صفوف الخدمة العامة ؛ ومن أهل منهم ، أو تكشف

عن غير ما كان يرجى منه ، انحرفت به الحكومة

عن الطريق ، أو انحرفت في وظيفة صغيرة مما يناسبه

من الأعمال الصغيرة العامة ... فبمثل هذه السياسة

خصوصاً إذا تولتها أيد حازمة ، كنت لا ترى هذه

الجيوش من المتعلمين الماطلين ، ثم كنا وفرنا للمهن

الحرة فئة من الشباب الصالح يرتفع بها ، ولا يجعلها

من الهوان بحيث يحتقرها الآباء . ومنها يطعمهم

الآباء ... إن احتقار المهن الصغيرة قد أخرج مجترقها

عن دائرة الشرف ، وهذه هي علة الملل في أخلاقنا

— وهل تظن أن هذه المهن من الرواج بحيث

تكفل الخير للكثيرين ؟

— إنني أثق أن أياً من هذه المهن تضمن للانسان

حياة هادئة سعيدة خصوصاً إذا تنافرت الحكومة

والأغنياء في رفع شأنها

— كيف تنافرت الحكومة والأغنياء ؟

— الحكومة عليها واجب عظيم في ذلك ... ينبغي

أن تحمي البلاد من سيل المهاجرين الأجانب الذين

يذهبون بثلاثة أرباع الأعمال العامة فتجنب الشبان

منافستهم الشديدة ومزاحمتهم غير المشروعة ...

إن سبعة في المائة من خدم القهاوي الكبيرة والفنادق

الراقية من الأجانب ... إن سبعة في المائة إن لم يكن

تسعين ، من وظائف الشركات الكبيرة الأجنبية

مقصورة على الأجانب

— إن رأس المال أجنبي يا صديقي فهذا حقهم

— كلا ... إنه إن يكن رأس المال أجنبياً

فإن الثمرة مصرية بحته ... ولا تنس أن رأس

المال الأجنبي يبدأ صغيراً ثم لا يلبث أن يتضاعف

في بلادنا ... فلك أن تعدد كالبذور الأجنبية نجلبها

من الخارج ونزرعها فنبت محصولاً مصرياً

— وما واجب الأغنياء إذن ؟ أتعني أنهم مكلفون

بالانفاق على الفقراء ؟

— ما عنت هذا ، ولا يستطيع أحد أن

يكلفهم به

— وماذا عنت إذن ؟

— عنت أن عليهم واجباً مقدساً إن لم يقوموا

به استحقوا الزرابة ... ذلك أنهم يكسبون أموالهم

فيما لا يجلب ثروة واسعة في هذا العصر ... إنهم

جميعاً لا هم لهم إلا شراء الضياع واقتناء الدور

والقصور ... فأموالهم بذلك معطلة وإن جلبت ثلاثة

أو أربعة في المائة ربحاً لها كل سنة

— وماذا يصنعون يارعاك الله ؟

— لو أن للناس منهم فكر في إنشاء مصنع لصالح

الحال ... على أنني أفضل أن تتحد كل جماعة منهم

فتكون شركة تفتح ناحية من نواحي النشاط المبكر

المعطلة في مصر ... يجب أن تتحرك أموالهم لأن

المال وحده هو دم الاقتصاد الذي لا ينفد ، وإن

تكن اليد الماملة والدهن المفكر لها پورت پلازم
هذا الدم ... أقسم لك لو تم هذا لما رأيت متعلماً
عاطلاً في مصر

— هذا صحيح يا حلیم ...

أفاد توفیق من حديث صديقه حلیم قائدة
جلیلة ... لقد رأى جانب المبعث من حياة التعلیم ...
لقد وقر في ذهنه أن أباه كان على حق حين أراد منه
من الذهاب إلى المدرسة ليتعلم الفلاحة ، وليندمج
في روح الحق ، وليرث أباه وراثته صحيحة ، وراثته
الملك والفن والمهنة .

غير أن شبح الفتاة الناهد — لیلی —
تمثل له غفده وصرف عنه طائف الحقيقة ، وأغرقة
في بحر لجي من هواء البرح ، وخياله المشبوب .

لقد كان الحيوان الخبيث الذي استيقظ بين
كتفيه يمدبه ، وبصور له الفتاة المثلثة الحسناء
تقلب بين ذراعيه ، وتلصق لهما الوردي الساخن
بالحمه المتأجج ، وفوقهما الخمرى الفتان فيه المشتعل
يقطف القبل ، وفي عينيها الدجواوين عيناها الجائعتين
تسبحان في دنيا من الفائن والسحر .

هذا هو حيوان اللذة المدمر ... هذا هو الحيوان
الذي يقضى على نزع الخير في نفس الانسان ...
هذا هو الشيطان المساط على الروح الانسانية يشوه
جمالها ويصرفها عن نهج الهداية ، ويخرف لها
باللذة الأليمة فتضل وتخزي .

كان يجلس في نافذة غرفته يفازل ليلي ساعات
وساعات حين لا تكون أمها في غرفتها .

وكان كلما لقيا على السلم أرسل نحيبة غنوقة
تردها في حياء وفي خفر ، وهي تعلم ما تضر
جوانحه لها من حب ، وما ينطوى عليه قلبه من هيام
وكان إذا واثته الفرصة فصعدت ليلي تنشر

ملابس الأسرة فوق السطح ، تسال كالاص ثم اختبأ
في ركن حتى تفرغ من عملها فيندفع نحوها في تأدب
وؤله ، ثم يقف صامتاً وملء وجهه الشاحب
المرنجف عواطف مكبوتة لا يستطيع أن يعبر عنها
إلا بدمعة أو دمتين ... فتفهم ليلي ... ويجزبه
بابتسامة رقيقة ... ثم تهبط بسرعة كالنزلة ...
فيتدحرج تحت قدميها قلبه وأنفاسه !

وصعدت مرة تلم الملابس فصمم على أن يغير
مهما خطته ، وأن يكون هذه المرة أكثر
إقداماً وجراً

لقد انتظرها حتى نزلت بحملها فوقف يحول
بينها وبين النزول إلى غرفتها .. ثم أخذ في حديث
خافت هكذا :

— ماذا يا توفيق ؟

— أحبك !

— عيب !

— وكيف يكون الحب عيباً ؟

— هذا لا يليق !

— لا بد أن أعرف !

— تعرف ماذا ؟

— إن كنت تحبيني !

— أرجوك دعني !

— لا بد أن تتكلمي !

— هذا مستحيل !

— ماذا هو هذا المستحيل ؟

— أي تحت ... دعني أرجوك !

— إذن نسجل حبنا بقبلة !

— مستحيل ، مستحيل !

وقبل أن تستطيع الافلات ، انقض على فمها
الشعنى الجميل فسرق منه قبلة ناضجة ، ثم
مرقت كالسهم على السلم ، ودخل هو إلى غرفته

حاملة حملها... فأخذ قلبه يخفق بشدة وفي عنق...
وخيل له أنها بطيئة مع أنها في زعمه أرشق من
الظبي وأسرع من الظليم... ثم هبط بمدو وانهض
على حملها فالتقطه من فوق رأسها... فنظرت إليه
وتضاحكت... وصعد الاثنان

ودخل توفيق إلى غرفته بكل الملابس !!

— هلى ...

— مستحيل... مستحيل !

— بل المستحيل أن تصمدى !

— يجب أن أصمد... إن أي عائدة الساعة،

فماذا أقول لها ؟

— لن نجلسي إلا دقائق

— ليكن بعد أن أفرغ من عملي !

— إذن أصمد فأساعدك !

— كثر الله خيرك... بل استرح أنت

حتى أزل !

— إذن أوصلك إلى السطح !

وتوالت على السلم... وتوالت من خلفه ليلى.

ثم وضع حملها، وأهوى على فخا فطبع عليه القبلة

للثانية... وكانت قبلة طويلة متبادلة...

وعادت ليلى بعد دقائق كانت أطول من دهر

فتلقاها توفيق في ذراعيه وأجلسها على مقعد متوسط

ثم راحا يتناجيان

وكان حديثاً طويلاً شهيماً مرصعاً بالقبل،

لم يوقظهما منه إلا انفتاح باب الغرفة السفلى، فهبطت

ليلى مسرعة

ونسى توفيق كتبه؛ وفرغ لحيه

وصرت الأيام

وبدا الشعوب على وجه توفيق، وكان قد

أفرط في استجلاب اللذة المصنوعة، لأن ليلى كانت

أحرص على عرضها أشد مما حرص إبليس على

(٣)

والأرض تميد تحت قدميه، ونشوة القبلة تسرى

كالحميا في فؤاده، مرفرفة بأجنحة اللذة، متأرجة

كالورد، علية كالنسيم، منددة كأنفاس الصباح !

ما أبدع القبلة الأولى من قبل الحب !!

إنها تفصل من حقيقة الحب بين حياتين...

إنها تظل تدوى في ذكرى الماشق كما يدوى الأمل

والظفر... إنها تلمع كالبرق في ظلمات يأسه...

إنها كالمنارة في ظلام البحر اللجى

تطرح توفيق فوق سريره بتقلب كالسكران

لقد نسي كل ما قاله حليم !

إنما الحياة هنا... في القاهرة... الحياة الحب

والحب الحياة كما يقول شوقي وكما يغنى عبد الوهاب

ليبق توفيق في غرفته... لتكن المدرسة حبيبة

إلى فؤاده لأنها تبقى إلى جانب حبيبته... ما أسراب

البعوض وجيوش البق والبراغيث في قبلة واحدة

يطبعها على فم ليلى ؟

لقد نال القبلة الأولى بالعنف، فإذا يحول بينه

وبين القبلة التالية ؟ لا شيء ! أليس قد شرب

الكأس الأولى ؟

وجلس يرقب صمود ليلى بقلب مضطرب،

وأعصاب ثائرة... وكان يعرف متى تصمد، إذا أحس

بحركة الفسل في قاعة حبيبته فيجلس بومه كله يرقب

الصاعدين والنازلين...

وأطل فرأى أمها تخرج وتترك دنيا غرامه

بدون رقيب أو عزول... ففرح واستبشر، وتأكد أنه

سيقع على منبة أغلى وأقنى... لا قبلة تترك في القلب

لوعة وأشجاناً

وفكر في أن يخاطر وينزل إلى ليلى ليسعد

بنظرة منها مؤقتة تشفيه أو تكويه... وكلاهما عنده

سواء...

لكنه ما كاد يفعل حتى رآها تبرز من غرفتها

عصيان ربه حينما أمره بالسجود لآدم . لقد رفضت
أن تسقط إلى الخفيض الذي أغراها توفيق بالتردى
فيه .. لكن الحيوان الدميم كان يمصف به ، ويرغمه
على إشباعه ، فكان المسكين يستسلم له بمد نزول ليلي
فيياشر العادة السرية مباشرة قتالة تستنزف ماء حياته
فلا تكاد تبقى منه شيئاً

وعاد يوماً من المدرسة فوجد غرفة ليلى خاوية
ماذا ؟ !

لقد ذهبت إلى حيث لا يدري !

وبات ليلة طويلة مؤرقة ... ونزل نصف الليل
يجوب الطرقات كالمجنون . ثم عاد مع الفجر فصعد
إلى غرفته ، وعاد إلى غرفة ليلى بمصباحه وجانب
من فراشه ، وابث يتلوى كالمحموم حتى تنفس الصباح .
وابس ملابسه ، وهرول في الشوارع يبحث
وينشم ، ولكن بلا جدوى .

ومضت أيام وأيام .
ثم تسلم يوماً ما خطابين عرف أولهما لأنه من
أييه فأهمله قليلاً ؛ وفض الثاني فلم يجد في رقبته
غير هذا السطر :

«وداعاً يا صديقي فقد تزوجت وأنا سعيدة برجلي !»
واضطرب قليلاً ... وحاول أن يقرأ خاتم البريد
فلم يفلح ...

وفض الخطاب الأول فهاه أن يقرأ من أييه أنه
مريض وأنه في خطر ، وأن لا بد من وجوده بجانبه
في ساعاته الأخيرة

وأفاق توفيق من حلمه اللذيذ
وصدمته الحقيقة المرة
فعاد ليودع أباه ... وليحمل على عاتقه العبء
الثقيل الذي تمنى لو كان حمله قبل اليوم ، ليكون له
أهلاً ...

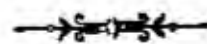
دربني غيبه

بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادي



علموه ... وعاملوا شرفاً ... تكبروا ... النصر ليهودكم

شجاعتُ امرأة

لِلْكَاتِبِ ل. غَرْمَانِ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ نَاجِي الطَّنْطَانِي

من بنى جلدتها ، يدخل بسرعة
ويغلق الباب وراءه بدقة وحذر
فحدقت «مى» في وجهه وسأله
بصوت رن صدهاء في جوانب
الغرفة :

— ماذا تريد؟ ألا تعلم أن
هذه غرفتي الخاصة وليست ندياً
مشاعاً؟

كان الداخل فتى يافعاً جميل الطلعة برغم العبوس
المشؤوم الذي شوه ملامحه، وكان ينظر بعينيه المظلمتين
كالمعتوه . ومارأته «مى» حتى ارتد فكرها إلى مناظر
القنص بواسطة الخيل ، وإلى العمل المسكين في الغابات
ثم قالت تحدث نفسها :

— إنه ممرض للفتح الشمس كما أظن
ولكن الرجل لم يدعها تتابع تفكيرها طويلاً ،
بل فاجأها بقوله :
— إياك أن تبدي حراً .
وسحب خنجره من تحت منطفه وشهره في
وجهها قائلاً :

— إننى يائس . لم يعد لى أدنى تردد في قتلك
فاستولى على «مى» تهبج نفسى مفاجئ اضطرب
له كل جسمها ، ولكنها جاهدت أن تكتمه وتجلدت
ما أمكنها التجلد

كانت «مى» ذات جمال ساحر ، وذات ملامح
متناسقة ، ويظهر أن سنّها لم تتجاوز الخامسة والعشرين
ومهما بالغنا في ذلك فإن نستطيع أن ندعى أنها تجاوزت
الثلاثين . كانت قامتها متوسطة الطول ولكن الشجاعة
لا تقاس في نظرها بالسنتيمترات . وعادت فألقت
عليه سؤالاً للمرة الثانية دون أن تم عضلة من عضلات

كانت الساعة تدق الثامنة ، في ناقوس السكرتارية
التي تقع في الجهة المقابلة للحديقة . وكانت الليلة
شديدة الحرارة والروحة الكهربائية تدور بسرعة
هائلة في الغرفة التي كانت «مى» ترتدى فيها ثيابها
استعداداً لتناول طعام العشاء

كانت منهمكة في زينتها الدقيقة، ولكنها لا تزال
على اتصال بالحياة خارج الغرفة ، إذ أنها كانت تسمع
ضجيج الشارع ، وكانت دارها محاطة بحديقة صغيرة
ملأى بالزهور المحنوظة من أشعة الشمس طيلة العام ،
وكانت هذه الزهور حمراء بلون الدم تغطي الأرض
كأنها . وكان يصلها من النافذة شذى نفحات
النباتات والورود مع النسيم الأريج ، والبيوت في
الشرق تكون عادة مفتوحة للنوافذ لجميع الجهات
كانت «مى» تشاهد خيالها في صفحة المرآة
وتبتسم ، ولما أتمت زينتها ، سمعت صريراً ، فالتفتت
فاذا يباب غرفتها يفتح

غضبت «مى» لهذه المفاجأة ، وارتدت للوراء
قليلاً كي توضح القادم وتمنعه ، وقد حسبته خادماً ،
والخادم لا يسمح له أن يدخل بلا استئذان إلا مرة
واحدة للضرورة ، ولكن نددت منها صيحة دهش
وذهل عند ما رأت رجلاً أبيض البشرة لأسودها ،

وجهما عن الغم والكمد اللذين أصابا نفسها :

— ماذا تريد ؟

فأجاب الرجل بصوت منخفض مضطرب :

— مالا بالطبع

فأعرضت عنه بازدراء واستخفاف ، وقالت

في نفسها :

— ليس لي من وسيلة أحسن من رفع صوتي

أو ضغط هذا الزر الكهربائي فيتسابق الخدم نحوي

ويكونون طوع أمسى

ولكن الخبيث أدرك ما يجول بخاطرهما فصاح

بها في وحشية وفظاظة :

— ابتعدي عن هذا الجرس !

فلم تتحرك « م » بل أجابته بهدوء :

— سيكون باستطاعتي أن أضغط على زر الجرس

دون أن تعلم بذلك ، ولكني لن أفعل ، لأنني موقنة

أنك لست مالكاً لشعورك الآن ، وستعود سريعاً

إلى حالك الطبيعية

قالت ذلك ، وظهرت على وجهها ابتسامة صغيرة

كلما تهكم وهزه وسخرية

فتبدل لون وجه الرجل من التهييج والجنون

وصاح بها :

— أعطيني المال حالا ، أسألك بالله

ومرت على وجهه سحابة مظلمة ، فلم يجب

« م » سؤاله رغم الاضطرابات الجنونية التي كانت

تثور في قلبها المتشنج ، بل اندفعت تقول له :

— إنني أعمل بلا انقطاع ولا توقف لكي أعيش

وأنا وحيدة في هذه البلدة . إنني أكتب قصصاً

ودوايات لبعض المجلات الأوربية ، أفتبئ بك البلامة

إلى الظن بأنني سأقدم هذا المال الذي أحرزته بمشقة

ونصب لأول شخص زرى الهيئة سافل بطلبه مني ؟

إن كنت تتصور هذا فأنت مجنون ولا ريب .

واسمح لي أن أصارحك القول بأنني أحتقر الخضوع

لأوامر تملي ، وعلى الأخص إذا كانت تملي بمد

السيف !

فأجابها الرجل بصوت أكثر شراسة وقد

أحفظه كلامها :

— إنني أقول لك إن المال يلزمي مهما كان

التمن ... !

وخطأ نحوها خطوة ... ولكنها بقيت رابطة

الجأش وقالت له :

— أما أهزأ بك وبطلبك ... ألا تصنع مثلي ؟

إنني نظمت حياتي تماماً وأنا لست إلا امرأة ، والمرأة

أدنى من الرجل كما يزعمون . أجل ، تستطيع أن

تضحك ، سأدعك تقترف جريمة دون أن أنزل عند

تهديداتك ...

لقد قلت كل ما أريد أن أقوله ، والآن سألتني

إليك بالكلام الأخير :

— إذهب من هنا بسرعة أو أضغط زر الجرس !

فهجم عليها بقفزة واحدة ، ودفعها بعيداً عن

المنضدة ، وأمسك بها ملصقاً جسمها بالجدار ،

وضحك ضحكا صامتاً ... فداخل الفزع قلب المرأة :

— أمتقدين أنك قوية ؟ أنتشبهين بالرجال ؟

إنك أنت المجنونة اثقتك بهؤلاء الخدم الذين هم من

كافة الأجناس باستطاعتي الآن أن أضحك ، وأن

أجزع عنقك أمام أعينهم ، وأؤكد لك أنهم لن يرفعوا

إصبعاً للدفاع عنك . سيتسللون صامحين وسينسحبون

كالأرانب حتى اللحظة التي ينتهي فيها كل شيء ...

فارتعشت « م » لهذه الألفاظ التي نطق بها

الرجل بوقاحة خفية ، وهاجت لتتخلص منه حتى

— وأنت ! إنك تتكلم كثيراً ، فاسمع هذه الحكمة التالية : « إن الكلب الذي يسوى دائماً لا يعض أبداً » قالت ذلك بلهجة هادئة رصينة — لن أعتقد أبداً أنه من الصعب ذبح أي إنسان . فأجابته بهي :
لقد فهمت من كلامك المتتابع أن هذا هو مشروءك الأول في الجريمة ! وبأسرع من لح الطرف ، ضربته بجمع يدها على ذراعه بكل ما لديها من قوة ، فانفلتت المديّة من أصابعه المتشنجة وتركته يشتم من جديد ، وأسّرت بخفة ورشاقة فوضعت قدمها على المديّة الملقاة على الأرض وقالت له بلهجة صارمة :

— إذهب واجلس هناك قرب النافذة !
لقد تبدل الموقف ، و ترى المرأة الآن بدورها تاتي الأوامر
أطاع الرجل الأمر بضمّت ، راضياً بكل شيء فأتت وجلست مجاهه وقالت :
— أين تقطن ؟
فأجاب برغمه :
— أقطن حي « لوفيس ستريت »
— حقاً إن ذلك موافق جداً لرجل أبيض

البشرة !
فقال الرجل بوحشية :
— لا تهكّ من فضلك ، إنني قانع جداً بوجود سقف يظلي
فأتمت « م » كلامها دون أن تنبّه إلى غيظ الرجل وقالت :

— ما اسمك ؟
— ماذا تفيدك معرفة اسمي ؟ هل لديك رغبة في كتابه قصتي المخجلة ؟

أفضى بها الأمر إلى أن عضت يده بقسوة ، فراح الرجل يهدد ويتوعد دون أن يتراجع ورفع المديّة بيده ليهوى بها على العنق النض المرتجف ذي البشرة البيضاء الناصعة ، قلمت المديّة بنور مشؤوم ومست رأسها الحادة عنقها مساً خفيفاً شمّرت بأن قواها خارت ، وأن قلبها يتلوي من الألم ، وأن أعصابها قد تشنّجت ، ولكنها برغم ذلك كله استطاعت بما لديها من شجاعة أن تحتفظ بابتسامة على شفّتها الجافتين الراجفتين ، وراحت في سرها تدعو الله وتطلب المعونة منه وعاد الرجل فصاح بها مهدداً وأطبقت شفّته على أسنانه البيضاء :

— أين تحبّين مالك ؟ إنها المرة الأخيرة التي أسألك فيها
فرفعت إليه عينيها الواسعتين الزرقاوين وسألته قائلة :

— لماذا تتردد في إزال الضربة للقاضية ؟
رجل أبيض البشرة يذبح امرأة من بنات جلده في هذه البلدة التوحشة ؟ إننا نسمع بأمثال هذه الوحشية عن الزوج ، ولكننا لا نسمع بمثالها أبداً عن مواطنينا بيض البشرة ولحّت شمعاً من الاضطراب بلوح في عيني الرجل المظلمتين ، فصمتت وأطرقت . فقال بلهجة فيها شيء من التضرع والتوسل :

— لا تدعيني أصبح قاتلاً من أجل شيء حقير تافه . أعطيني ما يمكنك إعطاؤه . مائتا روبية تكفيني فضحكك « م » وقالت :

— رغبتك في أن لا تصبح قاتلاً جعلتك مضحكا فأغمض الرجل عينيه وقال :

— أرى الشئام سهلة عندك

— لا تخف وأجب على سؤالى

فقال بلهجة شرسة :

— فرانسيز

فكرت الفتاة قليلاً ثم سأله برفق واضمة يدها على منكبه :

— فرانسيز ، هل أنت محتاج حقاً للمال إلى هذه الدرجة ؟

فضحك بمرارة وقال مجيئاً :

— محتاج للمال ؟ ياله من تهكم مرير ! أنظنين أنى تهيات لقتلك رغبة فى القيام بحركات رياضية أمرن بها جسدى ؟ إننى لاحظت لى إذ أن شجاعتك صدتنى . ولن تكون لى القوة الكافية لأجمل هذه المدية الرهيبة تفوص فى عنقك الجليل الذى تنتظر بهدوء

فضحكت لقوله . وإنها تستطيع أن تضحك ملء شديها دون وجل ولا خوف ، إذ علمت أنها قد رجحت المركة

— ألم تكن جاداً فى هذه اللحظات القاسية التى أمضيتها بسكرات نفسية لا تحتمل ؟

— لا تضحكى ! لقد كنت مجنوناً ، وسأغلق عيني فى اللحظة التى تفوص فيها المدية فى عنقى . — هذا فظيع .

واضطربت « م » لذكرى الاضطراب السابق وقالت بعد صمت حزين :

— فرانسيز ، سأعطيك مالاً ، كم يلزمك ؟ فقفز فرانسيز ووقف أمامها ناظراً إليها بىلاهة وقال :

— لن أستطيع أبداً أن أقبل الآن . وأصبح صاحب اللون جداً .

فقهقهت ملء شديها ، وألقت بجسمها على كرسى قريب وصاحت قائلة :

إن فكرة البطولة تعود إلى بساطتها . منذ لحظة كنت تريد أن تقتلنى بلا رحمة ولا شفقة لتسرقنى ، والآن لا تستطيع أن تقبل شيئاً هو بنظرك أشبه بالصدقة ! حقاً إن الرجال لديهم أدب مسل . وضحكت وفى هذه الأثناء سمع طرق خفيف على الباب ، فدخلت « م » الرجل على مكان يستطيع أن يختبئ فيه ، ثم فتحت الباب .

— ماذا حدث يا أنكا لاتشلام ؟ فأجاب الخادم :

— القديس أبونا أنى ليراك

— حسن ، قل له ينتظرنى فى البهو ، أنا قادمة الآن .

ولما اختفى الخادم ، أخرجت فرانسيز من مخبئه وقالت له :

— تعال مـى ، لقد دعوت الأب « دوران » هذا المساء لتناول طعام المشاء وتستطيع أن تأكل معنا فصاح الرجل وهو يشير إلى ثيابه الرثة ويديه الوسختين :

— كيف يكون هذا ؟

— سأدلك على غرفة الاستحمام ، ومن السهل عليك أن تستحم وتصبح لائقاً بالمقابلة ، ثم انحنت والتقطت المدية المطروحة على السجادة وقالت :

— سأحتفظ بهذا الضيف الثقيل كذكرى للحادث ، بعد أن أذكر أن امرأة وحيدة فى الحياة ليست أبداً فى أمان على نفسها ومالها

فتملكته الدهشة ولم يخرج جواباً وتبعها ، فتركته عند منضدة الزينة ، وكانت عالة أنها لم تنج من الخطر تماماً ، ولكنها كانت تدرك أنه يجب من أجل إنقاذه

أن تظهر له أنها ثابتة الجأش، وبكل بساطة وسداجة ذهبت لتقابل ضيفها ومدعوها في البهو

كان الأب « دوران » ينتظر « مي » بهدوء وصبر، فأقبلت ترحب به وتكلمه في كل شيء دون أن تشير في حديثها إلى الحادث المضحك المبكي

وسمعت الفتاة بعد قليل صوت خطوات الرجل المترددة خارج الباب فهضت لاستقباله، وابتسمت عنه الضيق والخجل قدمته بلباقة إلى القس الكهل قائلة:

— السيد فرانسيز

وسار الثلاثة إلى غرفة الطعام حيث كان الخدم البرمانيون والهنود حفاة الأقدام يعملون بصمت، وتنزلق أقدامهم على البلاط الرخامي كالأشباح

وقد أزعج القس وجود هذا الشخص الثالث الغريب، ولكنه لم يبد ذلك من نفسه ولم يشر إليه في كلامه، وقد بدأ الحديث بين الثلاثة في موضوعات تافهة ثم تطور حتى أصبح ودياً وأغزر مادة حتى أنه شمل الفن والعلم والأدب والموسيقى، واستأنس الرجل تماماً وراح يتكلم بجد، ويحاول أن يظهر بمظهر المثقف المربي تربية سامية...

ولاحظت « مي » أن الرجل يبذل جهداً عظيماً ليقمع شهوة الجوع التي قويت في نفسه، فانفطر قلبها رحمة له وشفقة عليه وبدأ الطعام

وبعد انتهائهم منه، عادوا للبهو كي يشربوا القهوة، فاعتذرت « مي » واستأذنتها في الخروج برهة قصيرة، وعادت إليهما سريعاً حاملة بيدها غلافاً قدمته إلى المعتدي بمحذق قائلة:

— هاك ياسيدي المال الذي لك عندي، وأرجو أن تجد هذا المبلغ كاملاً غير ناقص، وأنا موقنة أن حكى سيكون صائباً على الكتب النفسية التي بمنتهى!

فنهض فرانسيز وقد احمر خدهاء من الخجل، وتناول المال من يدها وقبض عليه بيده اليمنى بحركة عصبية، ولاحظ القس اضطرابه، فقال له أليطع حبل الصمت الثقيل الذي أعقب ذلك:

— يظهر لي أن الكتب التي بمنتهى لآنسة « مي » قيمة وثمينة، بل من الواجب أن تكون كذلك، إذ أنه من الصعب الرضى بقراءة كتب من نوعها ثم أضاف قائلاً:

— أتقبل زيارتي لك في أحد الأيام المقبلة؟

فتضايق فرانسيز واضطرب وأجابه قائلاً:

— أأ... أخاف كثيراً ألا تستطيع أن تزورني حيث أعيش... إنه حي سي منعمور الذي في رانجون الحى الوضع... إننى أخجل فقال له القس برفق ولين:

— لا تخجل أيها الشاب، لا يضيرنا المكان الذى تقطنه ما دمنا نميش بمحبة وفضيلة، على أنى أعترف أن رفقة السوء تفسد المرء، فلماذا لا تترك هذا الحى؟

فأجاب الشاب متجنباً نظرة « مي » النافذة:

— إن ثروتي لا تساعدنى على ذلك

وكان القس وافر الدكاء، وذا إلمام واسع بطبائع البشر، وسريع الفهم، ففكر في نفسه وهو ينظر إلى الشاب نظرة ذات معنى ثم قال له:

— لقد أعجبتنى يا بنى، وبما أن الآنسة « مي » تعرفك فلا حاجة لي بتوصية أخرى لتكون مقبولاً لدى. عندي مشروع أود أن أعرضه عليك...

إننى قد كبرت، ولا أزال محتاجاً لرأس مفكر شاب يدير لي أعمالى وينسج حساباتى، وفي دارى غرفة فارغة، وأظنك ستقبل الحياة قربى إلى أن تجد عملاً أكثر كسباً ومغناً، ما رأيك في ذلك؟

— لماذا ؟ هل ذلك ضروري يا بني ؟ أليس من الأوفق والأحسن أن تصمت وتحفظ شرك في صدرك لتقي احترامنا لك على الأقل

فأحس الشاب بالدموع تبلل أجفانه وقال : أقسم لك بأنك لن تجد الوقت الذي تأسف فيه وتندم على عمالك النبيل هذا. إنني مدين للآنسة « م » بأشياء كثيرة . إن من الواجب على أن أعذر إليها لأخطئ بمغفوها ، إذ أنني أرغب في أن أنال هذا المغف ولو كان الثمن إهانات عظمى . إنك لن تستطيع أن تشك في وداعتها وصفاء قلبها فنظرت إليه « م » وكانت ترى أمامها مستقبلاً باهراً . فضحكت كي تشجمه وقالت :

— إن الأب « دوران » صالح وتقي ، وأرجو أن تحمل له بين طيات قلبك الاحترام والحب اللذين يستحقهما . ويجب عليك قبل كل شيء أن تضرب صفحاً عن الماضي وأن تحاول نسيانه وتلقيه وراءك بعيداً .

— أعدك مخلصاً يا سيدتي أن أفعل كل ما أستطيع لأنال تقدير مواطني ، ولن أنسى قط أنك خاصنتني من نفسي وأتقذتني منها

وبعد دقائق معدودة ، ودعت « م » الرجلين وعادت إلى البهو وهي مطرقة تفكر . ورفعت رأسها فرأت على منضدة صغيرة نحاسية ، غلافاً أبيض ، ولما رفعت يدها وفتحت وجدته فيه المائتي الروبية التي قدمتها للشاب

فسارت إلى غرفتها وأدهشها أنها اكتشفت نفساً حساسة في هذا الرجل الذي كاد يصبح قاتلاً وسقط جسمها فجأة على السرير وهي تلهث ، وشمرت إذ ذاك أنها أضعف وأوهن من طفل صغير « دمشق » ناظم الطنطاوي

كانت « م » تنظر إلى النفس بفزع ، وقد داخل نفسها فجأة خوف عليه ، أفتسكت وتترك هذا الفصل من الفضيلة ونبل النفس يجري إلى النهاية ؟ ... وقبل أن تفتح فيها تكلم الرجل ، فأصمت إليه وهي دهشة مأخوذة :

— لقد غمرت نفسي باطفائك وحنانك يا أبي ، ولكن ليس لدى مال أدفعه للغرفة ، ليس عندي إلا ثمن الغذاء !

— لا تفكر في هذا يا بني ، فستعمل لي وسأبقى مديناً لك ، إنه ليمضي التفكير في أنك معرض لحياة سيئة فاسدة . أليس لديك كلام آخر ؟

شمر الشاب أنه مشرف على ساحل من المروف لاحدله ، لقد صادف في يومه هذا كثيراً من أمثلة نبل النفس وصلاحها ، وبقيت آثارها تنمر نفسه، وتراعى له أن العالم كله يريد أن يحمله ما لا يطيق من الفضائل يححو بها السبائث التي ارتكبتها ... وعم جسمه اضطراب شديد ، وصعد في صدره شهيق بلغ عنقه ، وبدافع نفسي قوي صاح بالنفس الهرم قائلاً :

— إنني لست جديراً بهذا الكرم العظيم ... اصنع لي يا أبت . إن شرف نفسك ونبلها قد أورتاني عذاباً ، وأرى أن أحسن طريقة هي إطلاعك على حالي وحقيقتي . إن الآنسة « م » لم تقل لك شيئاً كما يبدو لي ، وأنت لم تعرف الحادث ، فمن واجبي أن أسرد على مسامعك كل تاريخي الرهيب

فأقبلت عليه « م » بوجهها وكانت راضية كل الرضى عن هذا القول الذي صدر من الشاب ، وأيقنت أنه جدير بالمال الذي وهبته إياه وقالت :

— إنه حق في ذلك يا أبت

فقال النفس :

الأبنت

للكاتب الفرنسي بول بورجيه
بقلم الأديب كمال الحبري

قطعت كل صلة تربطني بامرأة
أخرى في هذه الحياة ، وأنت
كامرأة في ريتق شبابها واكتمال
أنوثها ، لك الحق بل يجب
عليك أن تستأنفي حياة الزوجية
السعيدة من جديد . وإذن فهل
أستطيع أن آمل يا سيدتي أن
تعتبريني الزوج المخلص الذي

سيكون من أنهي أحلامه أن يضحي راحته وحياته
لأجلك ... إني أحبك ... يا سيدتي ، ولعلها المرة
الأولى التي أسمح فيها لنفسي بنطق هذه الكلمة
الجريئة على مسمع منك ... أما أنت يا سيدتي فليس
عندك إلا كلمة واحدة تقولينها لي في هذه اللحظة
ستكون هي الأولى والأخيرة . ولكن بحقك
لا تلفظيها إلا بعد تأمل في عاقبتها ، فإن ما أجن
لك من هوى دفين لأمر من الأهمية والخطورة
بحيث لا تكفيه كلمة أو جواب يقال على استمجال
واقضاب . قالت مدام « ليجيه » وصوتها راجف
وطرفها خاشع :

— أنطلب مني استثناءاً لحياتي الزوجية معك ؟
ثم جمد لسانها عند هذه الكلمة فلم تأت « بلا »
أو « بنعم » ؛ وأخيراً جسرت فقالت :

ولكن حياتي لا يمكن ترميمها ولا استئنافها .
إنك تتكلم عن الحق والواجب وأنا لا أعرف إلا حقاً
واحداً : هو السهر على أولادي ، ولأفهم إلا واجباً
فرداً : هو واجبي نحو أبنائي الثلاثة .. قال الصديق
الخطاب :

— أو لا تشعرون أني أحبهم هم أيضاً وأعزهم
وأحنو عليهم كأبنهم صديق الراحل ... ؟ ومن
(١)

استيقظت مدام « ليجيه » في صبيحة هذا
اليوم قلقة بادية المموم والتفكير . فقد كان عليها أن
تضع حداً لحياتها كأرملة في مستقبل العمر ، ولحياتها
كأم ذات بنين ثلاثة . فلقد مضى على وفاة زوجها
ومى إذ ذاك في الثالثة والثلاثين عامان كاملان .
وكانت وفاته بعملة ذات الجنب التي غالته وشيكا من
دائرة عمله كمحام له شهرة مستفيضة وعمل من قلوب
الناس . ومنذ ستة أسابيع سلفت قبل هذا الصباح
الذي تستفيق فيه مدام « ليجيه » حائرة مفكرة ،
اجترأ « جورج فوكولت » صديق بدنها المرحوم
ومحام مثله أمضى معه سني الجامعة ثم لزم زوجها
في دائرته لزوم للشريك وفي بيته لزوم للصاحب ،
اجترأ هذا الزميل على أن يقول للأرملة الصبية منذ
سنة أسابيع :

— إني لأحمل لك أيتها السيدة منذ طويل
عاطفة لم أستطع استكناها ولا فهم طبيعتها إلا منذ
اليوم الذي غادرنا فيه صديق العزيز زوجك ، فأصبحت
بوفاته حرة التصرف مالكة لزمان أمرك . وأظنك
كنت تستشعرين مني هذا الصمت الناطق وتحسين
احترامي للراحل الفقيد وتقديرين رغابتي لك . فبسيك
يا سيدتي « ومعدرة من اعترافي بهذه الحقيقة »

لعمري سيحل محل الأب الراحل إن لم يحله صديق أبهم وصفيه ؟ وهل غيري يعرف ميول صديقه وذوقه ومشربه في التربية والسلوك ؟ وإذن فهل تسمحين يا سيدتي أن أشغل مكان الأب الراحل ؟ أرضين أن تكوني امرأتى أمام الله والناس

قالت الأرملة في حسرة وتلدد :

— خلني الآن لشأى ... هلا جنبنتى السلام

في هذا الموضوع .. !؟ إنه ليؤلنى البحث فيه ويسبب لي كثيراً من الشجن والشجو

لا أعرف شيئاً . لا أفهم شيئاً . لست بمستطعة أن ألح في قرارة نفسى الظلمة عاطفة أستطيع منها إجابتك على سؤالك لأنى أجهل نفسى ... ولكنى أعدك أن جوابى سيكون بعد قليل من الزمن ... أما الآن فلا أستطيع ، أجل لا أستطيع .. فأجاب جورج فوكولت :

— سأنتظر كلمتك كما تشائين وأنى تشائين .

إنك إلا تقولى « لا » هذه اللحظة فبحسبى ، لأن ذلك معناه أنك قد تبصرين خلال سجوف المستقبل الكلمة الحبيبة إلى قلبى وهى « نعم » . إن التردد والتعير مؤلمان للقلب مزمعان للروح إذا لم يكن القلب المنتظر فى شرخ شبابه . قال ذلك وأبان لها عن طرف لته وقد طرزتها سنوه الأربعمون بأسلاك الشيب البيضاء . فأحست المرأة الأرملة وهى تتأمل وخطات الشيب فى رأسه ، وتنظر إلى أثر التآبيب الصامت من عينيه السوداوين : أن موسيو جورج إنما يقيس سعادته فى هذه الدنيا بمقياس ما بقى له من سنين فيها ، وكأن نظره كانت تقول لها : إن ما يطويه الثياب اللامى من متع ومباهج لن ينشرها كفن الشيب مهما يمتد ويصف ثوبه . ثم يستأنف حديثه ويقول :

— إنه إحسان منك على أى حال أن تحدى لقلبي الشهيد موعداً للجواب كي أغادرك وأنا أقول لنفسي من يوم لآخر ستوافيني نعمة جوابها فى يوم كذا... « كاترين » ، أينها المزيزة ، اختارى بنفسك اليوم الموعد وعينى تاربخه ، وليكن القرب والبعد على ما يوافق رغبتك وهواك ... أما أنا فسأعاهدك الآن عهداً لا أتحنت فيه ولا أتحرف ألا أخوض فى ذكر هذا الموضوع الذى سيكون برغم هذا هو شغلى الشاغل وهى الناصب .. فحدى بميثاك موعد جوابك . وهنا تمت مدام « ليجيه » بصوت محتبس ولهجة ضارعة : سيكون ذلك حين ينتهى أجل حدادى على زوجى الراحل ، وبما أنك تدعى حبي فأرجوك التمسك بوعدك منذ الآن كما أتمسك بوعدى أنا . والآن أرجو ألا تلح على فى هذا الشأن فقد كفانى ما كفانى ...

ثم يقول لها ، وهو يود أن يوضح بالوقت المعين كل شك وغموض يمكن أن يمتور مواعده المرجى : وإذن فسيكون جوابك بعد أسابيع فى الرابع عشر من نيسان ؟؟ فأجابت على هذا بإعانة من رأسها ثم انمقد بينهما جو من الصمت ...

لقد غالت يد الموت زوجها الحبيب فى الرابع عشر من إبريل أى منذ اثنين وعشرين شهراً سلفت قبل هذا اليوم الذى تجالس فيه مدام « ليجيه » خطيبها المسبو جورج . كل ذلك جال بذهن « مدام ليجيه » وذهن الخاطب الصديق الذى شعر بشغل كلمته على نفس الزوجة بعد أن عين لها الموعد المضروب ...

أن يستأنف الزم حياته دون أن يفوج بذكرى أحبته الراحلين عن الدنيا فى ذلك وياللعسرة إسادة

ما الذى طرأ عليها ياترى فبدل عزمها ١٢... وأقبلت الخادم فى هذه اللحظة فمهرت أستار الثرفة عن النوافذ ولشبهايك فطفت على جوها موجة من نور لآلء ضاحك غمر المكان كله؛ وكان فى شارع «فانو» تشرف نوافذه وشرقاته على بستان القنصلية النمساوية الظليل البانع . ولعت زرقة السماء من خلال النوافذ ونفذ تغريد المصافير إلى السامع شجياً موسيقياً شمرت معه مدام «ليجييه» أن ثوب الجدة الذى تصفيه الطبيعة على جسمها يتفق والموقف الجديد الذى تقفه هى من حياتها الجديدة هذا اليوم... حتى أن للثوب المزركش الذى حملته الخادم منذ لحظة كان يفرها بأخيلة وخطرات جد حافلة باللذة والسعادة... ومع ذلك فلم يتقطب جبينها ويربث وجهها كلما نظرت إلى عقرب الساعة ينتقل من مكانه ١٢ مالم تنقف حالة ساهمة بدل أن تنشط وتفرح ؟... أتراها تتخوف مما عساه يحمله لها هذا اليوم من خوف مجهول ١٢... *

حين تكلمت مدام ليجييه عن واجباتها نحو أولادها لم تقل كل شئ للصديق الخاطب ، لم تعترف له أن ولدها البكر «شارل» ما فقى منذ شهور مدعاة تخوفها . أبدأ لم يتبادل الابن مع أمه كلمة عن «جورج فوكولت» خاطبها الرغيب ، وكان هذا الأخير لا يميز هذا النلام اليافع فى الخاطبة والحوار عن أخيه الصغير «رنيه» وأخته الصغيرة «هيلين» الذين كان يكلمهما بصيغة الافراد دون كلفة . ولكن إذا شفت سنو الطفل «رنيه» الخمس وأعوام الطفلة «هيلين» المشرقة لهذه الصيغة الافرادية يبدى فيها صديق أبيهما حبه وتدليله لهما ،

إلى ذكراهم الغابرة وعهودهم الماضية ، وإذن فمن ينب عن الوجود تمت معه ذكراه وتندم ثم تبتلعه هوة المدم إلى غير رجعة ، والافتاء .

ومرت على هذا اليوم ستة الأسابيع المضروبة دون أن يلم خلالها طيف الزوج الراحل ودون أن تردد ذكراه على رأس الخاطب ومام «ليجييه» فتفسد عليهما خلوتهما اللذيذة وجلساتهما اليومية المتعاقبة...

ويجد السيو جورج من اللطف والأدب ألا يعرض لذكر الموعد المرتقب خلال هذه الأسابيع الستة . ثم يرى من الظرف والكياسة أن ينادر (باريس) حين اقتراب اليوم المضروب يوم ١٦ نيسان . أما مدام «ليجييه» فقد أخذت تنهياً لهذا اليوم وهو ذكرى يوم وفاة زوجها . وقد أحييت هذه الذكرى فى ذلك اليوم فى شئ من البرود وعدم المبالاة لم تخرج بهما أنارة من حنان ولا بقية من فجعة وحسرة . وفى اليوم الثالث عشر من نيسان تسلمت من جورج خاطبها خطاباً ينبئها فيه بزيارته من الغد عند الظهر ، فأقبلت على الرسالة تقرأها مرة ومرتين ثم بدرت منها بادرة غريبة عجبت لها هى نفسها ... وذلك حين رفعت رسالته إلى فها وقبلت سطورها وفى ظنها أنها إنما تقبل حياة تفيض بالسعادة واللذة خلال هذه السطور... وأخذت تردد: نعم... نعم... سيكون جوابي.. نعم . وإذن فقيم استيقاظها صبيحة هذا اليوم مضطربة حيرى كما أسلفنا ؟... ما الذى حدث خلال هذه الفترة القصيرة بين تلقيها رسالة جورج نهـار أمس فرحة نشوى وبين الساعة التى ترتفق فيها وسادة سريرها الوثيرة يبدو عليها مهوم وتفكير ؟

وبالأسف كان يزيد ألماً وبضاعف شجوها ...
أجل إن جورج محق في قوله . فواجب على
معاودة حياتي الزوجية ، وأنا بهذا لأناأل شيئاً من
زوجي الميت ولا أسوءه في كرامته . كذلك لأفتات
على أولادي الأحبة الذين تركني لهم ، لأن جورج
سيحبهم وسيحزنو عليهم . والصغيران يحسان بهذا
ويقدرانه في سداجة وظهارة . أما شارل ولدى
الحبيب فسوف يقدره كذلك إن تفكر وتدبر .
آه لشد ما يجب أباه هذا الصغير ! إنه لينمو
ويتفتح للحياة يوماً بعد يوم كأنما تتعهد نماءه معجزة
من السماء

هو الأول في صفه في مدرسة «سانت لويس»
وإنه يترقى بين رفقاءه وزملائه بصورة غريبة سريعة
كأنما وطن نفسه على أن يسد الفراغ الذي تركه
أبوه من بعده ، إن لم يكن قد قام في نفسه أكثر
من هذا : أن يكون خليفة أبيه في البيت ورب
الأسرة التي كان يحلم أن يكون حامياً وراعياً .
فيا للقسوة والنكران ! وكيف تجرؤ هذه الأم أن تسلم
أمور البيت إلى راع آخر وحام غريب !

ومضى الوقت وكادت الساعة تبلغ العاشرة
وأفكار المرأة ما زالت تضطرب في ساحة ذهنها
حيث ذهاباً . وفيها هي منصرفة إلى زينتها وترجيل
شمرها وتعليق حللها وأقراطها ، إذا طرقات على
باب الغرفة تنفذ إلى أذنيها فيجب لها قلبها وترتمش
نفسها لأن هذه خطوات ابنها الذي كانت تعتبر
نفسها أمامه كجرم أمام قاضيه . وفي الحق لقد كان
الداخل «شارل» الذي توقف على الباب لحظة
كالأخوذ بدل أن يدخل عليها لتوه . قالت له الأم
مضطربة قلقة وقد شاهدت تأثراً فجائياً بطبع وجهه

فإن الستة عشر عاماً التي يجتازها للعلام المراهق
«شارل» كانت تقيم بينه وبين «جورج» الخاطب
جواً مختلفاً عن جو أخويه فيه بدل الالفة والمطف
وعدم الكلفة الانقباض والنفرة . ومع هذا فقد كان
الخاطب الواعل بغضى عن هذا ويتجاهل ، بل لقد أخذ
في الآونة الأخيرة يضاعف عطفه على الغلام ويتبنى
الوسيلة إلى قلبه النافر ووجهه المابس الصامت
وتلاحظ مدام «ليجييه» ذلك السلوك المحبب
الجناب الذي يعامل به الخاطب ولدها البكر فتتنبط به
وتشرح له

ولكن رغم كل هذا كانت تترقب من ابنها
رفضاً وثورة أخذت تحسب حسابهما وتنبأ لها
منذ أيام

من هنا كانت حيرتها وقلقها في هذه الصبيحة
الباسمة من نيسان التي كان عليها فيها أن تقول كلمتها
الأخيرة في رفض يد «جورج» أو قبولها . ولهذا
وحده هي تدير في ذهنها الصورة المستحبة الملائمة
التي يمكنها بها أن تفجأ ولدها دون أن تؤذيه
أو تسوءه في عزة نفسه ، فكانت تردد :

— كان على أن أنبئه بذلك وأسير غور رضاه
أو رفضه منذ ستة أسابيع ... غير أنني لم أستطع
ذلك لأنني أجدني أمامه مرتبكة مشلولة الإرادة كاني
بحضرة أبيه الراحل . فيا لله كم يشبهه حتى كأنه صورته
الثانية ! وعلى كل حال فإن جورج أحسن في
تحييه إليه وترضيه ... وذكر اسم جورج هكذا
مراشاً ، دل المرأة على أنها تنظوي له على حب
وميل ...

فتم يلوح لها أنها تحبه بأنصاف من المواطنين
والبول غير متكاملة ولا متكونة . ولكن ذلك

أخذت تحتل مكانها يوماً بعد يوم من قلبها
وفي صباح هذا اليوم في وثبة طافرة من وثبات
الارادة الغريزية أصرت مدام ليجيه الخادم فقالت :
— لويس، لانضى في هذا الغداء مقعد المرحوم
زوجي على المائدة ، بل عليك أن تضى مكانه مقعداً
لجورج فوكولت ...

وحان وقت الغداء واتخذت المائدة أمكنتها
حول المائدة، ولكن « شارل » الصغير ما كاد يرى
المائدة والكرسي الجديد بدل كرسي أبيه التوفى
حتى حلق في وجه أمه وقد امتقع وجهه وانفسف
لونه أولاً ثم احمر واشتعل بالدم الملهب . ونظرت إليه
الأم برعب وهيبة ، ثم صبغ وجهها الاحمرار هي
أيضاً . ولكن في تلك اللحظة الرهيبة المخرجة
جري أصر زاد في اضطراب مدام ليجيه وارتباها
ثم حيرها ، ولكنه في الوقت نفسه أجرى المسألة
في مجرى حسن لم تكن تتوقعه مدام « ليجيه » .

فبينما كانت تتناول بيدها مسند مقعد كي تجلس إلى
المائدة إذا « بشارل » ولدها ياق عليها نظرة تفيض
بالحنان والشكر ثم تخضل عيناه بالدمع الذي لم يكن
منبئه الحق عليها ولا الغضب منها وإنما هو الامتنان
منها والشكر لها ... ولكن عن أى شيء صدر هذا
الامتنان ؟ ! نجم مما صور له وهمه دون أن يتظان
بالحقيقة الواقعة فلم يلاحظ الولد الطيب صورة المفاجأة
والدهشة التي بدت على وجه أمه ، ولا نظرات
الارتباك المتبادلة بينها وبين الخادم ، فقرر في ذهنه أن
أمه إنما تبرعت له بمكان أبيه مراعاة له وتبديداً
لظنونه السابقة في وفائها لأبيه ، لهذا احتل مقعد
أبيه أو الكرسي الذي وُضع للخاطب « جورج
فوكولت » محل كرسي أبيه ، وقلبه يخفق من الفرح

بطابع الألم : ما لك يا بني ؟ فأجابها الغلام : لا شيء
لا شيء ، إني مشدوه متمجب فقط ... لقد
ألفت أن أراك دائماً في ثياب الحداد . ولكن
ولكن ... صحيح أن حدادنا على أبي قد انتهى ؟
فألت « مدام ليجيه » على المرأة الكبيرة أمامها نظرة
غير عامدة فإذا بها تبصر ملامح وجهها الرائق
تنسجم أبدع انسجام مع خصلات شعرها اللذهبي ،
ولكن يناقض ذلك كل المناقضة زى ولدها المدرسي
الأسود النارق كله في حلة من حداد ، ويرتجف
صوت الأم حين تهم بإجابة ولدها ثم تنجدها لباقتها
فتغير مجرى الحديث وتقول :

— ولكن ... قل لي ... لملك مسرور من
أستاذك هذا الصباح ؟ ثم ... ثم كيف حال كتابتك
في الانشاء ، أظنها أعجبتك ؟ ثم ناجت نفسها :
— سأبث لحظة قبل الاعتراف له بالحقيقة
خصوصاً وهو متأثر ومفاجأ بهذا اللباس والوقت
متسع للغداء وللإفشاء إليه بالأمر ...

على رغم أن الحامي التوفى موسيو « ليجيه » قد
خلف امائلته بفضل مركزه الخطير ونجاحه الكثير
ثروة لا بأس بها ، فان مدام « ليجيه » لم تخالف
شيئاً مما ألفتها سابقاً من تدبير واقتصاد في الانفاق
على المنزل . ولما كانت مدام ليجيه لا تستقبل في
مفتتح عهدها بالترمل إلا أقرباء يمتنون إلى الزوج
بصلات القربى والمودة ، فان الاعداد لكى البيت
لم يكن ليحملهم جهداً أو مشقة . ولكن أنى لها
بعل كرمى زوجها بشخص خاطبها جورج في
حفلة الغدا ؟ أى عذر ستعذر به لولدها ؟ كيف تخل
بهذه المادة التي يقدسها ابنها ويعجدها ، والتي باتت
تبهظ روحها وتثقل على قلبها لأن صورة الخاطب

طاغين : تيار جارف عنيف من حب امرأة صبية
حسنة ، وآخر هادئ عميق من عطف أم رؤوم ،
إذا برنين الجرس ينتزعها من ذراعي ابنها الذي
كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها بحرارة وشوق ..
لم تكن مخدوعة فقد جاءها الخادم بعد ثوان
يطلب الاذن لموسيو جورج الخاطب الجديد، فأبدى
ابنها « شارل » حركة مفاجئة أراد معها الانسحاب
من قاعة الاستقبال ولكن الأم فهمت منه هذه
الحركة فقالت في كبرياء ممزوجة بالمل :
— إبقى مكانك يا « شارل » ثم التفتت إلى
الخادم وهي تقول :

— قل لموسيو « جورج فوكولت » إنه من
المستحيل على مواجهته هذه الساعة وسأكتب له
جوابي كتابة ...

وحين انفردت بابنها راحت تمنقه في لهفة
وابتهاج ثم قالت : أبدأ لن أتزوج يا شارل العزيز .
أبدأ لن أنقل عليك باب يؤلم نفسك ويخرج قلبك .
لن أَرْضَى أن تتألم أنت كي أسعد أنا . إنك حسبي
من دنياي يا بني وأظن أنني حسبك أيضاً
كمال الحبري

الأم فترت

للساعر الفيلسوف جون المولاني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تمتد بحق من آثار القرن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ومنها ١٥ قرشاً

والشكر وحلقه غاص من الذكرى والحنين ...
وانتهى الغداء وخلوا المكان « بشارل » وبأمه فضم
« شارل » أمه إلى صدره بشوق وشكران وراح
يقول لها وقد أرخى لمبراته العنان حتى بللت وجه
الأم المسكينة الحائرة :

— آه، شكر آ لك ألف مرة يا أماء. فقالت أمه
في حيرة :

— ولكن لم هذا الشكر يا بني ؟ فقطعها
دون أن يترك لها الفرصة لتابعة حديثها :

— أشكرك لأنك أحللتني محل أبي على مائدة
الطعام في اليوم الذي تخلمين عنك فيه ثوب الحداد .
إنك لا تدري أي جميل أسديته إليّ وملأت به قلبي
الحزين .. آه .. ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة .

لقد كنت منذ زمن أشك ، بل أخاف من تصرفاتك
فاغفري لي الآن هذه الشكوك والظنون . نعم
كنت أخشى أن تسنح لك في يوم ما فكرة الزواج
لأنك ما تزالين صبية . ولقد أبصرت ثلاث أمهات
من أمهات رفقاء في المدرسة يتزوجن ويسلمن
أبناءهن لأب نان غريب عنهم . ولكنك أجلسني
تجاهك منذ لحظة على مقعد أبي المرحوم فأدركت
أنك تريدني أن أقول لي : املا عمل أبيض يا بني
فقد آن لك أن تشمله وتواجه أخذك وأخاك
المزيرين وأماك التي تحبك ، ولكن إن أشغل مكان
أبي ذلك الأب الذكي الطيب ، فذلك ما ليس في وسمى
ولكن أعاهدك أن أبذل له جهدي . وهنا
تمثل لمدام « ليجيه » أنها كانت ستعظم قلب ابنها
للنبيل لو أنها انقادت لهواها الذي بدأت تشعر به
نحو « شارل »

وفي هذه اللحظة وبينما كانت « مدام ليجيه »
تضطرب بين الماضي والحاضر ، وتترجح بين تيارين

أختها وهي تتجمل للقادمين بقاتها
وصوب محباتها: أي ذكرى صيرة
يحملها ذاك اليوم الحزين؟

— يا أختاه! لا بد أن
أجل رأسك بتساج من الفل
الطبيبي أوصيت بمعله، سأخرج
لأحضره وأعود به توأ...

هكذا قالت لأختها وهي صادقة كل الصدق..
خرجت على أمل أن تعود...

واليوم الأحد ومحل الورود منلق. لقد نسيت
ذلك ولم تذكره إلا عند ما بلغت مكانه...
وداهمتها خواطره المحزنة وصعب عليها أن تعود
إلى أختها بغير الفل...

ودون عمد تابعت الخطى حائرة لا تدري ماذا
هي قاعة... وسارت في الطريق لا تلوي على شيء
حتى أحست بنسيم معطر يجتاز جنبات نفسها
فيحبوها بالطمانينة، وتنهت فاذا بها في طريق خال
من السكان والمارة على جانبيه زرع الشتاء الأخضر
في غير زى الربيع الناضر

وطاب لها السير فلم ترد، وظلت تمشي حتى
استرعى نظرها شجرة كثيفة يتدلى من أغصانها ثمر
الحناء، فأسرعت الخطو لتجمع منه ما تستفيض به
عن الفل...

وما كادت تقترب من الشجرة حتى لمحت رجلاً
لم تشك في أنه غابر طريق؛ اقتشر الأرض واتخذ
جذع الشجرة خدناً اعتمد عليه برأسه في شبه
استسلام الوستنان؛ تصور ثيابه الرثة يا بمانيه من
بؤس وشقاء، ويحكي وجهه الشاحب أقصوة

مجنون زاهد

بقلم الأنتة جميلة العلايلي
”مهداة إلى صاحب القلب الحساس“

ليس أحب إلى النفس من الخلوة عند ما يفيض
بالإنسان حزنه أو أساه...

لذا لم يكن في وسع «هلا» أن تشارك أختها
فرحة عيد ميلادها لتجهم نفسها وتلبد غيوم ذهنها..
إنها تحب أختها وتميل إلى الطرب أيضاً وتفرح
لمسرة القريب والغريب، ولكن ذاك اليوم يذكرها
بأساة عاطفية رسمت حروفها النارية في سويداء قلبها
البكر...

ميلاد أختها، وموت قلبها، يجتمعان في يوم
واحد. فإذا عساها أن تفعل؟...

أتتكاف البشر وليس في مقدورها أن تحبس
دموعها في ذاك اليوم على الأخص...

حاولت جهدها أن تبدد الكآبة بتكاف البشر
فلم تستطع، وضاعت بهواجسها حتى خيل إليها
أن مجرد النظر إليها يدر الدموع من العينين...

إذن لماذا تكون آفة ميلاد أختها السعيد وهي
تريد أن تكون بهجته وباعث مسرته؟..

كل شيء حو اليها يحمل ظابع الأمى في ذلك اليوم،
حتى الموسيقى تبلغ مسميها كترتيلة الجنائز

أوه... لشد ما يفزعها صراى ظواهر المرح
والانشرائح والطرب في البيت! ولشد ما تنزعها رؤية

الآلام والحرمان ويشيع من عينيه بريق الدهول ..
أى منظر مروع ! منظر الرجل القوي الذى
يمجز عن التمتع بالحياة كما يتمتع بها كل رجل ،
لا عن مرض أو عاهة ، بل عن يأس وقنوط
مرض الجسم يداوى ... أما مرض النفس
فلا دواء له، يظل بصاحبه حتى يميته ...

ولا شك أن هذا الرجل مصاب بمرض نفسه
إذ لا تبدو عليه ظواهر علل البدن
تقدمت منه الفتاة حتى واجهته بدافع الشفقة ...

مدت إليه يدها بيضمة دريهمات ظناً منها أن من يقنع
بالجلوس فى هذا الخلاء الفقير لا شك أنه يعاف
التوسل إلى الناس ويستنكر الاستجداء

ولم يكده بلح حركة يدها والنقود حتى ضحك
بصوت جنونى هازأ رأسه فى إباء ناظراً إليها فى غيظ
كان بينها وبينه حقداً قديماً أو كأنها هتكت كرامته
وجرحت رجولته

وكانت نظره كافية لرد الفتاة إلى الصمت
والحجل على أنها وقفت قبالة حائرة مذهولة لا تدري
ماذا تقول وماذا تفعل ، وقد تنبه شعورها الرحيم
فاجترأت وتقدمت منه قائلة : سيدى ، ما ضرك
لو سمحت لى بمساعدتك ؟ أراك فى حاجة إلى المساعدة
فرفع الرجل رأسه فى كبرياء ونظر إليها محملاً
ثم قال بلهجة جافة : حتى هنا الشيطان يتبعنى ... ؟
ويحى ... ثم أن كالأجيع وشد شعر رأسه المشعث
ييد مرتعشة محومة ، وييده الأخرى أشار إليها قائلاً :
— إذهبي أيتها الشيطانة !

فريمت الفتاة ، ولكنها غلبت الخوف قائلة :
— هون عليك يا سيدى

ولكنه لم يكده يستمع إليها حتى انتصب وراح
يمدو كالمتموه مردداً : ظننت هذا الخلاء لا بأويه
شياطين الانس !

وظلت هي فى موقفها تتأمله وهو يجرى كالمجنون
يتلفت خلفه كالمذعور ، حائرة بين ما تريد أن تفعله
من أجله ، وبين ما تخافه منه :
— أى شيطان يعنى يا ترى ؟ ... أراها فتاة
حياته ... ؟

ثم هرولت خلفه تناديه : يا سيدى ، يا سيدى
لم تكن هيئته تحمل على ذاك النداء المحترم ،
ولكن هيئة الرجل ووقاره أ كسباء سمة أجل من
جمال الزى وروعة المندام

ووقف فظنته هدأ ، ولما بلغت اقترب منها باسمها
بسمه عريضة ، ثم رفع يده على غير ارتقاب
ولطمها على خدها ، وباليه الأخرى جذبهامن شعرها
فى قسوة جنونية وطوح بها بعيداً فارتجت على
الأرض كالطائر المذبوح تنن بصوت متهدج ثم
انقطعت أنفاسها . إنما لم يطل بها الاغماء حيث مال
عليها بنهبها ، أو لعله شاء أن يتأكد إن كانت حية
أو ميتة ...

ولما تنهت نظرت إليه بعينين دامعتين وغممت :
— ماذا جنيت ... ؟

وكان صوتها سهم صوب إلى صدره فقبض
عليها بكائتا يديه فى قسوة وهو يتعم : أما زلت حية ؟
وأزججها الشرر المتطاير من عينيه للفاضبتين
فقال بصوت رقيق :

— ولماذا تريد موتى ؟ ما ذنبى ؟
— فقال بصوت مرتعش فائر بفيض بلهب
قلبه : شيطانة ...
فتكافت بسمه وهى تقول : هدى روعك
وسامحك الله ...

كانت لهجتها لطيفة مليئة بالحنان ونظراتها كافية
لبعث الطمانينة فى نفسه ، لكنه أطرق برأسه فى صمت
الداهل

فتقدمت إليه في عناء لأن الصدمة آلتها وصح
عزمها على أن تسيره وتلاطفه حتى يطمئن إليها ويقص
عليها حكايته ...

قالت :

— يا سيدي ، إن كنت في حاجة إلى ابنة
فها أنا ذى ، وإن كنت في حاجة إلى أخت فلك منى
هذه الأخت ... خذ منى ما ينقصك من حنان ورعاية
وحسبك .

قالت ذلك بلهجة موزونة حارة انسكبت من معين
صاف ... كل كلمة فيها من قوة الصدق ما يزرى بكل
جبار عتيد

ونظرت إليه وشماخ نظراتها بصورا أجل ما يتمناه
الرجل من حب وحنين !

ولكنه غص الطرف مليا وهو يعض شفتيه
كأنه يمانى ألما ممضا في نفسه ، ثم وقف وانقض عليها
كما يفعل الأسد المصور بفريسته وشد شعرها وهو
يلفه على يده ناظرا إليها في ثورة وجنون ، ثم جذبها
في عنف وصدم رأسها بجذع الشجرة فسال الدم منه .
ولم يكد يلمح الدم يسيل حتى ضحك مقهقها في
جنون ، ثم أقبل على الدم بفمه يصب منه كأنه أشهى
غذاء يرتجيه وهي من هول الصدمة ساكنة سكتة
الأموات وقد ارتسم على شفتيها اصفرار الموت
وأسبلت جفونها في استسلام الفناء

ثم تركها وارتقى على الأرض يبكي كالأطفال ،
فانتهت ومالت عليه حانية متناسية ألما وما ألم بها
قائلة بصوت خفيض متقطع : إن كان قتلى يريحك
ويعيد إليك صفاء نفسك وهدوء بالك فأقدم عليه غير
هيب ، فليست حياتي ذات قيمة في ناظري
وسحبت يده في لطف وساعده حتى اعتدل
في جلسته ...

في هذه اللحظة أحست الفتاة أنها خلقت من
أجل ذلك الرجل فنسيت الوجود وعادت تقول في
شبه همس :

قلبي يحدثني أنك بليت بفدر امرأة أو عل
الموت اختطفها منك

فالتفت إليها في هدوء واستمع إليها لهفة ، ولما
صمتت قال : أما لا أنقم على المرأة غدرها ... لأن
الرجل هو الذى يبيت في صدرها بذور الشك بسوء
تصرفاته أحيانا ...

إنما أنقم على الحياة لأنها تقضي على الحب بالموت
في قلب بيتنا تحييه في القلب الآخر ... كأنه يخرج
من هنا ليدخل هناك ...

ثم ضحك بنير صوت مردفا : أنقضى نفسك
وعجلى بالذهاب ... فاني أشم رائحة أنفاسها منك ،
ولو طال مكثك بجانبى فلا بد من قتلك ... دون
عمد ... أنا الآن هادى يافتاة وأعتذر إليك مما بدر
منى ، فسامحني وأركني

كان يقول ذلك وهو يجاهد في نفسه مصابين :
مصاب الماضى الأليم ومصاب الحاضر الذي يفريه على
التعلق به وليس في مقدوره أن يجاوبه بالعزاء

وكان كلماته خلاصة ما تشبهه المرأة من حب
صبا بمهارة في قلبها فأكسبته حرارة ولهفة ، فقالت :
لن أحدث إليك بلساني يا سيدي ، إنما أرجوك أن
تنظر إلى عيني ... أنظر طويلا وافرأ دخيلة صدرى
ولا شك أنك ستفهم ما أعنيه

فاحمر وجهه وارتعشت شفتاه وحول وجهه
بيدا ثم عاد ونظر إلى وجهها متمعدا ألا ينظر
في عينيها وهو يقول : آه من السنين ... بهما
سمعت ومنهما شقيت ...

فقاطعته : ولم لا تكون شقيت بهما ومنهما تسعد ؟
فهز رأسه صرخابا وتهدد ثم أطرق ، ففهمت أن
(•)

وتشقينا به؟ ثم أشاح بوجهه مدممًا : لا، لا يمكن أبداً ... أنا حالم لا محالة ... ثم عاوده الضحك الجنوني ووضع رأسه بين ركبتيه ليخفي مداممه ويخرس تنهداته

فرفعت رأسه بيديها محاولة أن تجذب نظره بعينها قائلة : ليتني أعرف أين فتاتك لأسمى إليها. فصرخ في وجهها : كفى عن الهذيان، لقد ماتت .. فشبهت قائلة : رحمها الله .. ولماذا تقتل نفسك مادامت ذهبت عنك على الرغم منها، إذن أنا أشد منك قوة وأكثر إرادة ... في اليوم الذي قيدت نفسي بالرجل الذي ظننت أنه مثل الأعلى تبين لي أنه يلهو بغيري، ولقد نبذته نبذ النواة واستطعت أن أتناساه. ثم تكلفت ضحكة وأعقبت : خل عنك الحياة بين بأس ورجاء ... فاجمل ضوء الرجاء قبلة ناظر بك دائماً. فصمت مفكراً فيما قاله يحلل مرماه ومغزاه ولقد استطاعت الفتاة بجاذبيتها ولباقها أن تحوله من الركود الطلق إلى الأمل الحلو المرتقب ، وأيقن أن الله أراد به خيراً فأرسل إليه ملاك الرحمة في كيان هذه الفتاة ...

ومال برأسه على كتفها في شبه إغفاء ، وغاب بخياله عن الوجود ...

وهدأت الفتاة راجية أن يماوده البشر والأمل ، وراحت تتأمل وجهه الشاحب الحزين . ثم انتقلت بصرها إلى صدره ، وهو يملو وينخفض كأنه ضاق بأنفاسه

ولحت طرف ورقة تبدو من وراء ثيابه فمسكها الشيطان ، ومدت يدها في حذر لتسحب الورقة ... أوراق صفراء تثبت عدد السنين الخوالي . قد تبايع أربع سنوات ، ولقد اكتسح الزمن

فتاته ذات تأثير ساحر بعينها، فترقت به وقالت .. يجبل إلى أنك لجأت إلى هذا المكان النائي تحت تأثير أمر جلل. ألا تفتح لي صدرك على ذلك برفه عنك؟ فقال : وما الفائدة .. انتهى كل شيء . انتهى كل شيء ...

فقاطعته : ولكنك رجل

قال : وهل تحارب المرأة إلا الرجولة ؟

قالت : تعصف بالضعيف وتستسلم للقوي

قال : وهي جاهلة لا تفرق بين الضعف والقوة

قالت : لأن الرياء والكذب يشوهان حقائق

الوجود ...

وهنا لازمه الوجود ولم يتكلم ولجت جسمه بهتز كأن قشيرة الحصى ملكته فمطقت عليه وهمست في لطف : أظنك تشعر ببرد شديد ... وخلعت ممطفاً ثم ألقته على كتفيه فلم يمانع ، ونظر إليها في هدوء وتمتم : من أنت يا فتاة ؟ قالت وهي تمر على شفره المشمت بيدها للناعمة في حنان : بعثني الله إليك لأسمدك . فلم يتكلم ، وتساقطت مداممه كالندى الصافي فأكسبت خده الشاحب حمرة الشفق التوهج فابسمت قائلة : ألا تشمر بالحياة تسري في شرايينك ؟ ألا تحس بخفقة القلب الهنيء يحرك كيانك ؟

فقد يده في بطاء كأنه يتهيب لمسها، لكنه يريد أن يتحقق من أنه يخاطب إنساناً ثم قال منمماً : أيمكن أن تكوني امرأة حقاً ؟

أيمكن أن يكون بين شياطين النساء امرأة واحدة تحمل قلب ملاك ؟

أيمكن أن يكون ذاك للصوت الموسيقى لحن قلب صادق ؟

ثم صرخ ملتاعاً : رياء ... لم تسعدنا بالحُب

أن روعي انسرحت من الكثافة الحاصلة في عالم الحسن واستشفت الحقيقة في عالم الغيب المجهول غير المدرك أو الملموس. ألا ترى متى أن الحياة أقرب إلى الخلود منها إلى الفناء إذا لازم الحب عمرها الحافل بالأمانى الحسان .

ألا يحتمل أن يكون الخلود هو هذه الساعات الحبيبة المليئة بنشوة الحب الطهور ؟
لقد كونت الطبيعة الانسان ثمرة للحب، فهو إذن بالمادة والروح من عناصر الحب... خلق به ومنه وله .
فالروح الذى ياتى وحده بكهرباء الحب يدرك بالفرزة عناصر وجوده ثم مستلزمات الوجود وفهم الحب، والشمور بالحاجة إليه كنهم للحياة هو البنات على تنبه للماطفة إلى حد الاحتراق . إذن بلغت الآن إدراك الحقيقة وبدأت أفهم نظرية صحيحة لها أساسها العلمى .

الحب من عناصر الحياة إذا لم نجزم قطعاً بأنه ذات الحياة .
ولكل حياة مظهر للدلالة على وجودها، كذلك الحب يدل على وجوده بتنبيه للماطفة وفورتها، يملأ الفؤاد كما تملأ الكهرباء الجو... يكون بغير حصر حتى يحصر، وبدون نتيجة عملية إيجابية حتى يركز فيتوجه للعمل الإيجابي والانتاج .
فأنا قبلاً كان حبي موزعاً لأننى لم أصادف نقطة الارتكاز... فلما وجدت لها عدت لا أملك هبة قلبى ولم أقدمه طوعاً .. بل انزع منى انتزاعاً .

وهأنذا أشعر أن الماطفة تسير عقلى جنباً إلى جنب من ذلك تعرف أن العقل لا يخالف القلب إلا إذا كان الحب وليد الموم والجنون والكذب والنفاق؛ أما إذا كان الحب وليد الايمان الأكيد والميل الصحيح والشعور الصادق فلا سبيل للعقل غير مشاركة للقلب في وجدانه بتفكيره .

الراحل لون الجذ الزامى ، ولم يبق من الحروف غير ظلها . ولما تأكدت من غفوتة : راحت تحاول قراءة الرسالة فاذا بها :

يا طائر

بودى لو أكتب بغير مداد
أستمع بيد الأزل المجهولة على تسجيل عواطفى للنورانية ... ولكن أين العين التى تبين هذه الحروف الخفية ، وتدرك ما وراء نفسى الغامضة حتى أنت ؟ أيمكن أن تفهم مرماى ؟
إنى أشك . رغم ما بيننا من تقاسم وطيد ... صرت من الأعماق بصرخ فى أعماق مجلجلا كالرعد : أريدك تفهمنى كما أنا

وحسبى ...

قد تقول : كيف لا أفهمك وأنا أحبك ؟
وأنا أقول : قد تكون فهمتى كما يفهم كل رجل امرأة .

وأنا أريد أن تفهم روحك روحى ، ويدرك قلبك معنى قلبى .

فاذا نظرت إليك دون كلام فهمت حكاية نفسى ونشيد روحى وأغاني قلبى فتفهم حقيقة حبي ، ذلك الحب الذى يشبه البخار الذى رفمته الحرارة من البحر الأجاج فانهمر ماء حلوا على قمم الجبال ، وجرى أنهارا فى الوديان ثم عاد إلى البحر حيث كان ...

ثم أستودع الله ما انفصل عني لنير عودة —
أستودع قلبى الطليق لأستقبل قلبى المقيد ، وأستودع أحلام المنراء لأستقبل مسئولية المرأة ، وأستودع كل القلوب الهائمة حوالى لأستقبل قلباً واحداً أعز من الحياة على .

تسألنى : هل أحبك ؟

وجوابى : أنا أعرف إنى محبة لله ، وأن ذاك الحب الجليل يتجسم فيك وحدك ، حتى أحسست

فنحن نحب الله بقلوبنا ، ونفكر فيه بمقولنا ،
وكذلك الحال إذا حدث النقام بين شخصين
والآن ليس في مقدوري بعد الآن مخالفة قانون
الجاذبية .

وجميع قوانين الطبيعة صحيحة خالدة مهما اختلفت
المظاهر وتنوع الظروف والأجواء
إذن لا تتمجل الظروف فكل شيء حينه ،
فالجنين يوضع عندا كتاله ، والثمرة تسقط عن الشجرة
بعد تمام النضج

وحبي لن واجهك إلا بعد أن تثبت أركانه .
الآن آمنت . الحب كالقدر أعمي
وطلب المثل الأعلى في الحب أمنية من الأمنى
والقدر يلعب دوره حتى في المواطن ، فقد يتركز
الحب في غير ما يمتناه الانسان برغبته وبقله ومصالحته
فيخضع لسلطانه المستبد

أنا لا أرجو ولا أؤمل ، وليس لي هدف حسي ؛
إنما أعيش بالروح في عالم الروح ، نشدتي روحية
ومسراتي وآلامي باطنية منفصلة عن الحواس جميعها
والتخيل هو ارتقاء الفكر عن العالم المحسوس
وعالم الخيال ، هو عالم الحقيقة لن يرتقى عقله عن طباق
للعقل المحسوس ، فإذا تخيلت قلنفسى ، وإذا ناجيت
فكأننى أناجى روى لأن طيف ألبني صورة مماثلة
لي ... أراها فى وأرانى فيها ولا يمنع التخيل مانع
مادى ، وليس لعالم الخيال حد ... كذلك لا تجول
دون الروحانية الحوائل الوصفية . ولعل من أعجب
المعجب أن تتحاب قبل أن تتعارف كما يحدث دائماً
بين الناس ، ولماذا ؟ لأن الكهرباء التى تضىء
مصباحك الروجى هى التى تضىء مصباحى ؛
ولأن القوة المحمولة التى تحرك الخيال للتخيل

هى التى حركت الناحيتين للعمل وللأجاء المائل ،
كما تحرك الكهرباء قطارات الترام على شتى الخطوط .
إذن ليس في مقدوري مطلقاً أن أحاول مقاومة
الطبيعة لأننى لا أملك القوة على مخالفة الناموس ،
وأرى العاطفة تسيروها وحدة الوجود فى السبيل
الرسوم لها من الأزل بقوة المحرك العام مصدر
الحركة والسكون

لطالما حاولت أن أخفى هواى
وهاهى ذى الطبيعة تغلبنى أخيراً وتقهرنى . كنت
أتحصن دائماً بكبريائى ، وفانى أن الطبيعة أقوى من
الكبرياء ، إذ الكبرياء تغذيها المادة وتهديها
أما العاطفة فتغذيها للفريزة أو ناموس الكون
ثم تطلقها فى غير هدى
وأنا عند ما أصارحك بهواى أكون صادقة ،
إذ ليست عاطفتى وثبة عن طيش ولا قفزة عن رعونة
ولا وسيلة لتحقيق أمل
إنما هى يسميها الفكر المحدود مصادفة ، ويقرر
العلم أنها لازمة الاستقرار فلها قيمتها المعنوية فى
حياتى وحياتك « هلا »

لا تدرى الفتاة كيف قرأت الرسالة حتى النهاية .
فقدت حواسها ولم تنبيه إلا على صوت صرختها
المدوية عند ما قرأت اسم « هلا »
يا لله ... خطها وأسلوبها واسمها ... وذاك
البائس حبيبها للغادر . صرخت ..
فتنبه النائم ونظر إليها مشدوهاً فإذا بها ترتمش
وبين أصابعها الأوراق الدابلة ...
قال الرجل فى اضطراب : ماذا بك ؟ فغمضت :
هو أنت ؟ ثم غابت عن الوجود
(الصورة)
عجينة العليلي

ماضى ابنها ، الماضى الذى أودعها
السهاد والآلام والمهانة ، وتقيق
جفأة لتسأل ربها :

— لم يا رب جعلت ابنى
كذلك ؟

وتهز رأسها فى أسى وحسرة
وتجيش الدموع فى عينيها . ثم
تعود للمرة الثالثة لترقب الطريق

فى أمل وشوق وخوف منتظرة عودة ابنها ...

كان ابنها (يونس) هذا فى سن الشباب جبيل
على الشر منذ نمومة أظافره ، فهو لا يكف عن
السلطو على منازل من يعرفهم ومن لا يعرفهم ليسرق
أثمن ما فيها . وهو لا يصادق غير اللصوص
والأشرار . وهو يعامل أمه دائماً بفظاظة المجرم الذى
لا قلب له . وأمّه لا يسمها إلا أن تبتهل إلى الله فى
صلواتها أن يقوم أخلاقه ويهديه سواء السبيل ...
ولكن هيهات ...

ومنذ ستة أشهر سطا على دار أحد أعيان القرية
التي يمش فيها يريد سرقة ما بها فقبض عليه وسبق
إلى العمدة ، ومن العمدة إلى المحكمة ، ومن المحكمة
إلى السجن ليقتضى فيه ستة أشهر جزاء له على
ما اقترف !

وهاهى ذى الستة الأشهر قد مضت وسيعود الليلة
من السجن . وهاهى ذى أمه تنتظر عودته فى أمل
وشوق وخوف ...

واتنصف الليل ، والأم لما تزل واقفة تطل من
النافذة على الطريق . وكان الصمت سائداً فلا حركة
ولا نامة . وجفأة دوى فى سكون الليل المدهم صوت
أقدام آتية نحو الدار ، أقدام ثقيلة كأقدام يونس

يونس

أَقْصُوصُة مِصْرِيَّة
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ عَبْدِ الْحَكِيمِ الْعَشِيرِيِّ

فرغت الأم المجوز من صلاة العشاء وطوت
« السجادة » فى لآى ، ثم سارت صوب نافذة
صغيرة بالفرقة ففتحتها ووقفت ترقب منها فى أمل
وشوق وخوف ، الطريق الطويل المتشح بالسواد الذى
بدا أمام عينيها ، وهب على وجهها هواء الليل البارد
فسرت فى جسدها الضاوى قشعريرة شديدة ؛ ورغم
استمرار ذلك الهواء البارد فى المهبوب على وجهها
فأنها لم تتحول عن النافذة ، بل ظلت واقفة كما هى
ترقب الطريق فى أمل وشوق وخوف ، وكلما تنهى
إلى أذنيها صوت أقدام تقترب من الدار التي تسكنها
تزايدت دقات قلبها وهتفت فى صوت خافت مأوّه
الفرح والأمل والنسائل :

— ترى هل قدم ابنى يونس ؟ ...

وترى وجه صاحب الأقدام التي سمعتها فلا تجده
ابنها فيمتلى قلبها كآبة وبؤساً وترفع رأسها إلى السماء
تسأل نجومها فى ضراعة :

— هل يعود ابنى الليلة ؟ ؟

ولكن النجوم لا تجيب . فتعود ثانية لترقب
الطريق فى أمل وشوق وخوف ...

ويشرد بصرها قليلاً وهي تستعيد فى ذهنها
وجه ابنها يونس . ويبدو الوجه ومن وراءه يبدو

— إني جئت هنا لأكل يا امرأة ، لا لأسمع
هذا الكلام الذي هو كالكلم . فإذا لم تصمتي فاني
سأذهب من هنا . وأدع لك طعامك ...

ووضعت الأم خدها على يدها وصمتت . وراح
يونس يلثم ما بقي من طعامه بنهم . فلما أتى على
ما أمامه من الطعام شرب كوباً كبيراً من الماء ثم
تجشأ ومسح فمه في كفه . ونهض فبارح الغرفة ...
وهزت الأم رأسها في حزن ، وضربت كفاً
بكف ، وقالت بعد أن تنهدت :

— يا لسوء حظي مع هذا الابن ...
وقامت فجمعت بقايا طعام ابنها وألقها لقطة نحيلة
كانت نائمة في ركن الغرفة . ثم ذهبت في أثر ابنها ...
ووجدته مضطجماً على فراش نومه وقد غطي
وجهه بيديه فوقفت تنظر إليه وهي تبتهل إلى الله في
سرّها أن يرشده إلى طريق الصواب . ثم ذهبت
بعد هنيهة إلى فراش آخر كان بالقرب من فراش
ابنها فألقت بجسدها عليه في إعياء ، وحاولت أن تنام

وفي اليوم التالي عاد يونس إلى أصدقائه اللصوص ،
فتلقاه في ترحاب واشتياق . وراح من جديد يدبر
جرائم السطو على المنازل لسرقة ما بها ...
كانت هذه طبيعة فيه ، وما نفمت دعوات أمه
ولا نفع السجن في تخليصه من طبيعته هذه ...
وفي ذلك اليوم أيضاً عادت أمه إلى الابتهاال
إلى الله في صلواتها أن يذهب بابنها عن الطريق الذي
يسير فيه إلى الطريق السوي . ولكن هيهات ...
وفي اليوم الذي أعقب ذلك اليوم ، دخل يونس
على أمه وهو بنى بمض (المواويل) الريفية والسرور
يشيع في وجهه . وعلى غير عادته راح يجادها بلطف

ابنها . وخفق قلبها وحلفت في الطريق ببصر كله
انتباه واهتمام . وبدأ أمامها جسداً رجلاً ، وأفلتت من
فيها صرخة كلها فرح وطرب ، فقد كان ابنها
صاحب ذلك الجسد

وتركت النافذة وذهبت مسرعة لتفتح لابنها
باب الدار . ودخل يونس من الباب فصاحت
في سماعة وهي تفتح له ذراعها :

— يونس . ابني . حبيبي !
ولكنه سار في طريقه دون أن يلتفت إليها
فلحقت به وهي تصيح حائرة :

— ما هكذا يقابل الابن أمه بعد غيبة ستة
أشهر أيها الابن الناكِر للجميل ..
فالتفت إليها قائلاً في خشونة :

— ما هذا وقت عتاب . إني متعب وجائع .
وأشفقت عليه فلم تستمر في عتابها له مع قوة
رغبتها في ذلك . وأخذت بيده بعد أن قبلت خده
نحو غرفة صغيره مضادة بالدار وهي تقول :

— هنا دجاجة « محمرة » (وملوخية) أعدتهما
لك . أدخل وسوف أذهب لأحضر لك الخبز ..
ودخل الغرفة . وذهبت لتحضر له الخبز ،
وسرعان ما عادت به إليه . وجلس يلثم طعامه
وجلست بالقرب منه تسأله :

— وكيف وجدت الحياة في السجن ؟
فرد عليها في خشونته التي لا تفارقه :
— جعيم . ولكنه أفضل من الحياة هنا
على كل حال .

— وهل الحياة هنا لا تسجيك أيها الابن المذنب
أتذكر نعمة ربك ؟

فصرخ في غضب وفته ينفص بالطعام ...

ورقة ، فمجيبت لذلك وسألته :

— لم أرك على هذا السرور قبل الآن ،
فما السبب يا ترى ؟

فقال بغمه على أذنها يهمس فيها :

— لقد سرقت ليلة أمس مالا كثيراً ...
ولم يدر بما فعلت أحد ...
فصاحت فيه غاضبة :

— سرقت .. سرقت أيها الابن المذنب المخطئ ..

فقال لها وهو يهدىء من غضبها :

— لا ترفى صوتك هكذا . يقولون إن البعدران
أذا ما مثلنا ...

فلم تسمع كلامه واستمرت في صياحها :

— إنى لا أطيق أعمالك هذه ... فتى تفكر
في .. في أمك المعجوز يا يونس .. يجب أن تعرف
أنى في حاجة إلى الراحة ... أجل إلى الراحة يا ...
فلم يقف ليسمع من كلام أمه أكثر مما سمع ،
إذ تسلسل من أمامها مسرعاً وهو يقول :

— إنى ذاهب . فها أحب أن يتسم الجوالجيل
الذى أعيش الساعة فيه ...

وسمعت الأم بعد قليل صوت باب الدار وهو
يفتح ثم وهو يفتق فمرفت أن ابنها قد بارح المنزل ..
وارتمت على أحد المقاعد وهي تحبس دموعها
التي أوشكت أن تتعذر ...

وتصمرت خمسة أشهر لم تتغير فيها حياة يونس
وأمه ، فهو لا يكف عن السطو على المنازل وعن
مصاحبة اللصوص والأشرار ، وهي لا تكف عن
وعظه وإرشاده إلى طريق الخير وعن التضرع إلى
الله في صلواتها أن يساعدها على ذلك . ثم أتى اليوم

الذى عرف فيه يونس الحب ، فابتدأت حياته تتغير
وتتبدل ، وبحكم صلة حياة أمه بحياته فقد تغيرت هي
أيضاً وتبدلت

كان عجيباً أن يعرف يونس الحب . وهو الرجل
الشرير الذى لا قلب له . ولكن من الذى استطاع
أن ينظر في عيني « عالية » دون أن يصاب بداء
الحب ! أو من استطاع أن يرى بسماها دون أن
يحس بروحه قد امتزجت بروحها ؟

وعالية هذه فتاة قروية ، في جسدها استقامة
فاتنة ، وفي عينيها دمع منر ، وفي بسمتها سحر
فناك ، وفي نحيكتها الناعمة وكلامها الرقيق حلوة
الشهد ، رآها يونس ذات يوم في السوق الصغيرة
التي تقام بالقرية كل أسبوع ، فلم يدر لم وقف كالشده
يحملق في وجهها وهو الذى ما كان يستوقفه جمال
فتاة من قبل مهما كان هذا الجمال ؟

وفطنت عالية إليه فرمته بنظرة أحس وهو
يتلقاها بماطفة جديدة تنشأ في قلبه ، وأفاق ليجد
نفسه قد أحب ، قد أحب عالية

وبرغم ضخامة جسده وعظم قوته ، فإنه عند
ما رجع إلى منزله في ذلك اليوم كان يشعر بضعف
كبير أمام تلك الماطفة الجديدة التي طرقت قلبه
وتلقته أمه المعجوز على الباب ، فأدهمها أن
تجده ساهما مطرق الرأس

فقالت له في حنان : ما خطبك ؟

فهتف بلا وعى وبغير ترتيب : الحب ... الحب
يا أمى ...

وكانت هذه هي المرة الأولى منذ زمان طويل
التي يدعوها فيها بـ « يا أمى » . فقد تعودت أن
تسمه دائماً بدعواها بـ « يا امرأة » . وسرت في

ولم يتم كلامه . فصاحت به تحضه على إتمام ما يريد أن يقوله

— لأنك تحب . أليس كذلك ؟

فلم يجب . ولكنه نهض بسرعة وعاد إلى غرفة نومه ثم ألقى بجسده على فراشه وغطى وجهه بذراعيه وفي أثره عادت الأم السكينة ، وجلست بجوار فراشه ثم وضعت يدها على رأسه وتمتت مخاطبه :
— لم نخبيء عنى ما فى قلبك يا حبيبي ؟ ألسنت أمك ... ؟!

فلم تفز برد ...

وفي صباح اليوم التالي اجتمع يونس بأصحابه اللصوص ، وعلى غير عهدهم به وجدوه راغباً عن التفكير في جرائم السرقة ، كثير الاطراق ، خفيض الصوت عندما يتكلم . فحسبوه مريضاً ولكنهم ما دروا أنه قد أحب ...

وقبل أن يتفرض اجتماعهم راح يونس يصف لهم فتاته عالية ويسأل هل يعرفها أحدهم . وكان وصفه لها دقيقاً جديداً حتى أن ثلاثة من أصحابه هؤلاء أجابوه سريعاً بأنهم يعرفون الفتاة التي يصفها ، واقترب منه أحد الثلاثة فأخبره باسمها واسم والدها والمكان الذي به منزلها . ثم رفع إليه بصره يسأله في ابتسام :

— هل وقعت ؟ ...

ولكن النظرة القاسية التي صوبها يونس إليه جعلته يصمت ويطلق رأسه إلى الأرض . ثم انفرط عقد اجتماعهم

وبعد هنيهة كان يونس في طريقه إلى المنزل الذي تقيم فيه عالية . ونجاة وجد نفسه أمام عالية .

أعماق نفسها لذلك . وودت لو تطلب منه أن يعيد على مسميها مرة أخرى كلمة « يا أمي » هذه . ولكن كان هناك شيء أهم من ذلك تريد أن تستوضح أمره من ابنها ، ألا وهو ذلك « الحب » الذي نطق به . فقالت له : ماذا تقصد ؟

وكأنما هيأ له عقله أنه قد باح بشيء لم يكن من الواجب أن يبوح به ، فقد سار في طريقه وهو يذمهم : لا شيء ... لا شيء ...

ولكن أمه لم تكن من الجهل بحيث تصدقه . فذهبت تحاول اقتناص سره من صدره بمختلف الجليل والأساليب . ولكنه صمت وزاد تمادياً في صمته فترك الكثير من أسئلة ألقتها عليه ، محاولة أن تستدرجه إلى الذي تريد ، بلا جواب ..

وعندما آوى إلى فراشه كانت عينا عالية تملآن غرفته . وعبثاً حاول أن يبعدهما عنه ...

وانتصف الليل والكري لم يطرق له جفناً . فترك فراشه وبارح غرفة نومه إلى غرفة أخرى راح يشغل نفسه فيها ببعض الأعمال حتى لا يفكر في عالية ... ولكن بلا طائل ... ولحقت به أمه وقد أحست بأنه ليس في فراش نومه ، فوجدته على حالته هذه

سأله : ألم تنم ؟

قال : لا ..

جلست بجواره وربتت يدها على ظهره قائلة :

— لم ؟

— انتابني الأرق .

فسأله وهي ترفع إليه بصرها .

— ولم انتابك الأرق ؟

— لأنى ... لأنى ...

ورفع رأسه في بأس وحيرة وقال لأمه التي
كانت تنظر إليه في إشفاق :
— غداً بعد أن أرى ما سيتم في ذلك الموضوع
أجيب على سؤالك ...

وذهب يونس في الغد ليطلب يد فتاته من
والدها ... وتمنت له أمه من أعماق قلبها التوفيق
فيما هو ذاهب إليه . فقد كانت متأكدة أنه
لو تزوج فستبتمد به الحياة الزوجية عن حياة
الاجرام ، وبصبح يونس كما أرادته وكما ستظل تريده
ابناً صالحاً لا يزعمها بشيء ... ولكن . ولكن وقع
ما هجس بصدر الأم وابنها فلم يقبل والد عاليه
أن يزوجه من ابنته ، وزاد على ذلك أن أخبره أنها
مخطوبة إلى أحد أقربائها ...

وخرج يونس من دار والد حبيته وقد أظلمت
الحياة في عينيه . ماذا يفعل الآن ؟

وفي طريقه أبصر بعالية ، ووقف يفكر ...
يجب أن يقابها ... يجب أن يودعها . يجب أن
يقول لها إنه لن يعيش طويلاً وقد فقدتها ...

وذهب إليها ، ولكن عالية رآته قبل أن يقترب
منها ، فابتعدت عنه . كانت قد عرفت بالأمس أن
ذلك الشاب الطويل القامة ، الواسع الصدر ، المغم
قوة وفتوة ، الذي عرفته في الأيام الأخيرة ليس
إلا يونس اللص !

وصرخ يونس وهو يراها تبتمد عنه :

— عالية ...

فالتفت إليه خائفة ، وحدجته بنظرة هائلة
كلها ازدراء واحتقار ، ثم استمرت في سيرها
مرفوعة الرأس لا تلتفت إليه !

(٩)

ووقف في هذه المرة أيضاً يحملق في وجهها . وابتسمت
وقد عرفته ؛ وحجبت فيها بطرف خمارها في
استحياء والبسمة لا تزال عليه . ثم سارت في
طريقها ...

وود لو يقفها ليروح لها بحبه ولكنه لم يستطع
وما استطاع إلا تشييعها ببصره إلى حيث اختفت
ثم عاد إلى منزله في خطى وثيدة ...
وحدث في ذلك اليوم ما حدث بالأمس ...

وثقت الأم للمجوز أن ابنها قد أحب . ولكن
من هي الفتاة التي أحبها ... ذلك ما راحت تحاول
بطريقتها الخاصة ، وبيت الميون وراء ابنها أن تعرفه
وقد عرفته ...

وفي أحد الأيام أظلمت الأم ابنها على ما عرفته
وسألته :

— هل تنكر شيئاً مما ذكرت ... ؟

فأجاب : لا ...

قالت : وعلام نويت ؟

قال : سأطلب يد عالية من والدها غداً ...

وغمرت الأم سعادة . عظيمة وكيف لا تسر
وابنها بعزم على الزواج . وعادت تسأله في خوف :
— ولكن هل تظن أن والدها يقبل طلبك ؟

قال : سوف أبذل كل ما في وسعي حتى
يقبله ...

قالت : وإذا لم يقبله ... ؟

فأطرق برأسه ، وقد أدرك أمراً محيراً . أجل
إذا لم يوافق والد عاليه على أن يزوجه ابنته فماذا
يفعل ؟ ... إن والدها يعرف أنه لص فربما
لا يقبل طلبه ... ؟

ليخبرها أنه عائد لنوه من عند عمدة القرية وأن ابنها مقبوض عليه هناك بتهمة قتل رجل من القرية ... وتلقت الأم ذلك النبأ ذاهلة . ثم صرخت في صوت عال :

— ابني يونس قبض عليه بتهمة قتل رجل ..؟

ابني يونس ... حبيبي يونس ...
وذهبت إلى دار العمدة لتتحقق الأمر .
فعاذت والجنون أقرب إليها من جبل الوريد . إن ابنها قد قتل حقاً أحد رجال القرية والعمدة يقول لها إنه قد يحكم عليه بالاعدام شنقاً ...
وتمر الأيام والشيطان يضعك على الضحيتين الرخيستين : الأم وابنها .

... في صباح يوم دخلت إحدى نساء القرية على تلك الأم المسكينة لتخبرها أن ابنها قد حكم عليه بالاعدام شنقاً ، وأن ذلك الحكم سينفذ فيه في الغد . فوجدتها نائمة على غير عاداتها في الأيام الأخيرة . وكانت تحلم ، إذ سمعتها تقول :

— هل برئت يا ابني ؟ هل أطلقوا سراحك يا حبيبي وغدت إلى أمك المجوز ؟ حسن ، تعال إلى صدي أيتها الابن الشقي .. تعال إلى صدر أمك التي أوشكت أن تنجب عندما علمت بأنك لا تعود إليها . تعال يا حبيبي . تعال ...

وضنطت الأم النائمة بذراعيها على صدرها وكأنها تضم إليه ابنها حقاً . وعادت المرأة التي أتت لتخبرها أن ابنها حكم عليه بالاعدام شنقاً من حيث أنت . وعلى خديها بضع قطرات من الدموع حاولت أن تحبسها في عينيها فلم تستطع !
هــبـ الخليم محمد العشري

وأحس كأن سلاحاً حاداً أشبه ما يكون بالسكين قد أغمد في صميم قلبه ... ! وفرت دمة من عينه وسقطت على خده ، فمسحها بأصبعه الخشن وعاد ليتابع سيره وفي أعماقه شيء يئن ...

وبعد أيام أربعة سرت في مجالس رجال القرية الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم إشاعة مضمونها أن « يونس » مستعد لتخليص من له عدو من عدوه مقابل عشرة جنيهات . أجل عشرة فحسب ... ولو كانت مهمته هذه حياته ...
وانصل أحد هؤلاء الرجال الذين لهم أعداء يريدون التخلص منهم بيونس ، وبعد أن تأكد من صدق الإشاعة التي وصلتته اتفق معه على أن يخلصه من عدوه وأعطاه العشرة الجنيهات التي يريدونها كل هذا حدث وأم يونس لا تدري . ولو كانت تدري اباعت حياتها لتتخذ ابنها قبل أن يبيع هو حياته بتلك الجنيهات المشرة !

وذهب يونس بعد أن ملأ بطنه خمراً ليقوم بمهمته غير خائف ولا وجل ، فعاذت حياته بذات قيمة لديه بعد أن فشل في حبه . ولم يفكر في أمه المسكينة وهو مندفع في طريقه الظالم الذي لا يعرف إلى أين يوصله ، وإن كان يعرف أنه لن يوصله إلى نهاية حسنة ، اللهم إلا أنه أودع عند أحد أصدقائه بضمة جنيهات من الجنيهات المشرة وأوصاه أن يعطيها لأمه إذا قبض عليه لتعيش منها ...

وفي صباح اليوم التالي كانت الأم واقفة أمام منزلها تسأل المارة عن يونس ابنها إذ أنه لم يمد إلى المنزل ليلة أمس ، عند ما تقدم أحد أقربائها

حاجي بابا اصفهاني

للكاتب الانجليزى "جيمس مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

يقضى أيامه ولياليه عاملاً لا آخرته. وأكثر
من فيها من الناس مصابون بالهزال من قيام
الليل والزهد فى الطعام؛ وقلما وجدت فيها
رجلاً ضاحك السن أو مبتسم العين أو مورد
الخددين. ومن أجل ذلك يجب عليك أن
تظهر الحزن والا ككتاب لتبدو عليك هيئة

الصالح الورع

الفصل الخامس والأربعون

قصة غميمة

ما كدت أنجو من ظلمة النازا كشى حتى سمعت
صوت صاحبي الدرويش الذى أقبل فى هذه الساعة
إلى المدينة معلناً قدومه بأداء الشهاداتين بأعلى صوته
وبعد قليل رأيته يدخل المدفن باحثاً عني. ولما رآنى
ابتهج وحمد الله على وصولى إلى هذا المكان سالماً قبل
أن يصل إليه النازا كشى ووعدنى بأن يقيم معى مدة
قصيرة. ووقع اختيارى وإياه على خلوة من الغرف
الكثيرة المبنية حول القبر وكان معى عشرون طوماناً
من الذهب وبعض النقود الفضية، وأرسلته ليشتري
لى بعض الحاجات الضرورية كخمس لأرض هذه
الغرفة وزير يحفظ فيه الماء.

وقد فاجأنى هذا الدرويش مفاجأة لم أكن
أنتظرها إذ سألتى: «أخبرنى أولاً قبل أن أقيم
معك هل تقيم الصلاة وهل تصوم، أم أنت لا تزال
كما كنت فى مشهد؟»

قلت: «لماذا تسألنى هذا السؤال وماذا يعنىك
إن كنت أصلى أو لا أصلى؟»

قال: «إن ذلك لا يعنى كثيراً ولكنه يهمك
أنت لأن هذه المدينة «مدينة قم» من أكثر المدن
تمسكاً بالدين فلا تجد فيها إلا تقياً من أبناء النبي

قلت: «وأية فائدة يا صاحبي الدرويش من كل
هذا؟ إننى مسلم ويجب على أداء الفروض ولكن
إقامتى فى هذا المكان لا تستلزم كل ما تقول لأنه
قلما رآنى أحد فيه أو اهتم بوجودى إنسان»
فقال: «إذا أنت لم تتبع ما قلته لك فلست تعد
للرجم بالطوب أو الموت جوعاً، فالدرأوىش الذين
حولك لا يعرفون الوسط من الأمور ولا يتسامحون
فى أقل شئ، فإذا ارتابوا فى مسلكك أقل ريبة
فإنهم لا يتأخرون طرفة عين عن جعلك عبرة لغيرك؛
وإذا بدا لهم أن عصيانك ناشئ عن ضعف فى الاعتقاد
فلا تنتظر منهم شيئاً غير أن يمزقوا جلدك كل ممزق.
ولمأك لا تعرف يا حاجى بابا أن هذه مدينة ميرزا
أبى القاسم أكبر الأحياء من زعماء الدين، ولمأك
لا تعرف أن هذا الرجل إن ثارت معه مبات
الآلوف من أتباعه الذين لا يسألونه برهاناً على ما يقول
فهو أقوى من الشاه وأكثر نفوذاً

هذا هو الرجل ولكنه طيب القلب كريم
الأخلاق ولا أعرف فيه عيباً سوى أنه يقتل رجلاً
كل من يعتقد أنه ضيف الإيمان»

لما سمعت ذلك من الدرويش وعدته أن أؤدى
فروض الدين. وكنت أعد المناورة على هذه الفروض

من أكبر المشقات . ولكن لما مضت أيام قليلة اعتدتها فلم أعد أرى فيها شيئاً من الصعوبة فلم أعمل أداها في أوقاتها . وكنت أرفع صوتي حتى يسمعه كل مقبل من بعيد لزيارة المقبرة . وما كان أكثر الزائرين لها من مختلف الطبقات !

ولقد حذقت صناعة التكليج فصرت أجعل وجهي كأوجه الأتقياء والمزهدين عبوساً وتقطيباً . وقد شهد لي صاحبي الدرويش بالحدق في ذلك على أنه هو معدوم النظير في ذلك

ولقد أذيع سرياً أن في المدفن ولياً من أولياء الله . ولولا أنه هارب من مظلمة ولاجئ إلى هذا القبر لكان إماماً للناس . وأذيع عني أنني مظلوم مضطهد وأن مقامي في هذا الملجأ لا يدل إلا على ظلم الحكام الذين يحرصون الأتقياء الزهدين باضطهادهم . وتعرفت في أقرب وقت على أكثر أهل المدينة وقد اتفقت كلهم على أنه ليس في المدينة أكثر تبعداً مني . ولما طال المهمل صار بعضهم يستشيرني في أموره فأشير عليه . ودلتهم التجارب على أنني حكيم أسيل الرأي

ولم تكن مميشتي وصاحبي لتكلف أحداً شيئاً من المال لأن الزائرين وخصوصاً النساء منهم كانوا يقدمون إلينا ما نحن في حاجة إليه من خبز وفاكهة وعسل ، وكنت أجزي على ذلك بالشكر وبأحجية أكتبها بيدي في بعض الأحيان ، وعلى الرغم من قلة التكاليف التي تكبدنا إياها هذه الحياة فإنها حياة مظلمة لا ضطرارنا في أكثر الأحيان إلى قضاء الساعات الطوال دون أن تتحرك شفتنا أحداً بحرف ، ومن أجل ذلك كنت أشجبه على أن يقص على أخباره وروي لي قصصه . ومن بينها القصة التي لم أكن

مصنياً إليه وهو يرويها في الخان . ولقد سررت من هذه القصة كثيراً وأحسب للقاري سيسر منها كذلك ، وسواء صدق ظني أو لم يصدق فلا شك أن القاري 'بود' أن يعرف بماذا كان يتسلى الدراويش في سجونهم المخنارة

انقص

السلطان التركي الحاضر ملقب بين الإيرانيين بلقب « خون خور » أي شارب الدماء ، والإيرانيون في المادة يطلقون هذا اللقب على كل حاكم تركي . ولما تولى هذا السلطان أصر على إلذاء كثير من العادات والتقاليد التي نشرها الكفار الذين تطرقوا إلى الوظائف في عهد سلفه ، ورأى أن من واجبه إعادة الأمور إلى حالة البساطة التي كانت عليها قبل ذلك السلف ، فسن للحكومة نظاماً تركياً بحتاً

وكان في جملة التقاليد القديمة التي أحيها سنة التنكر والتجسس على الرعايا . وكان شديد الحرص على أن يكون تنكره متقناً وعلى أن يخفى سره عن أخص أتباعه ، وكانت الثورة تكاد أن تنشب في ذلك الوقت لكثرة ما كانت تبديه الجماهير من التذمر ، فأراد السلطان أن يتعرف بنفسه حالة الجماهير وأمر بصنع ثياب له يستحيل أن يعرف وهو مرتديها .

وكان من عادته أن يكلف بصنعها خياطين مختلفين في بلاد مختلفة وفي أوقات مختلفة . وفي الوقت نفسه أرسل خصيه الأمين واسمه المنصوري ليبحث له عن خياط غير مشهور

فذهب المنصوري إلى السوق ورأى خياطاً في حانوت ضيق يضع على غيبه منظاراً وإيس في حانوته ثياب كثيرة ، فقال المنصوري : « هذا هو بئيتي لأنه بئير شك ليس من المشهورين »

ولما ذهب الخصى عاد الخياط إلى عمله وأخذ يفكر في هذه الصفقة ثم قام فجأة فأغلق حانوته وذهب إلى منزله ليخبر زوجته

وكانت هذه الزوجة واسمها «دلفريب» محدودة الظهر مثله ، وقد دهشت عندما رأته يعود إلى المنزل قبل مواعده المادى ومعه طبق من الشواء الساخن يتصاعد منه الدخان وآخر من السكاج وقرطاس من النعنب

أكلوا وشربوا القهوة وأخبرها بالحديث وتركها ماأخذته من المال . ولما كاد الليل ينتصف ذهب إلى حانوته ليقابل النصورى وسمح له بأن يعصب عينيه ويقوده حتى وصلا إلى باب الحرم في قصر السلطان فدخلوا . ولم يزل الخصى يقود الخياط حتى وصل به إلى حجرة السلطان ولم يكن بها من النور غير مصباح ضئيل على الرف ، ولكن أاثها الفاخر كان ينم عليها

أمر الخياط بالجلوس على كرسي ذهبي فوق سجادة لم ير ولم يتخيل مثلها ، ثم جرى له بثوب من ثياب الدراويش وطلب إليه أن يتأمل فيه ويقول في كم من الزمن يستطيع أن يخيط ثوباً مثله . وتركه الخصى آمراً إياه بأن يطوى الثوب كما كان يمد أن ينتهي من فحصه ويضعه في المنديل الذى كان فيه وبعد أن قام الخياط بذلك الفحص ناظراً في كل جزء من الثوب طواه ووضع في المنديل . ولم يكده يفعل ذلك حتى دخل الغرفة رجل مهيب الطلعة فأخذ المنديل وخرج دون أن ينطق بحرف تاركا الخياط وحده وقد ساورة الأفكار من هذه المناظر التي يراها . ثم فتح باب آخر من هذه الحجرة فدخل رجل في ثياب ثمينة ومعه ثوب مطوى

حياه المنصورى فرفع بصره إليه ، ولما رآه في ثياب جميلة عاد إلى عمله في صمت دون أن يرد التحية لأنه اعتقد أنها غير موجهة إليه ، ولكن لما أعاد الخصى للتحية أيقن الرجل أنه هو المعنى بها فطرح أعماله جانباً وهم بأن يقف على قدميه ولكن المنصورى أمره بالجلوس وسأله عن اسمه فقال : « اسمى خادمك عبد الله وشهرتى بابا دول »

قال المنصورى : « وهل أنت خياط ؟ » فقال : « نعم صناعتى خياط ومؤذن في المسجد الصغير بسوق السمك »

قال : « اسمع يا بابا دول — إن لدى صفقة كبيرة الأهمية فهل تقبلها ؟ »

فقال الخياط : « وهل أنا مجنون حتى أرفضها ؟ قل لي ما هي »

— « تكلم بهدوء وفكر فيما أقوله لك . هل تقبل أن أربط عصابة على عينيك وأخذك إلى مكان لا تعرفه لتؤدي عملاً تأخذ عليه أجراً كبيراً ؟ » — هذا شيء آخر غير الذى عرضته على أولاً . إن الأوقات شديدة الحرج والرؤوس تتطاير الآن عن أجسادها بغير حساب ولا يبعد أن يقطع رأس خياط مثلى كما تقطع رؤوس الوزراء والباشوات في هذا الزمن . ولكن ادفع لى مقدماً ثمنك عالياً وأنا أخيط لك ثوباً يصلح لابلis فلا يرفه فيه أحد إن تنكر »

قال المنصورى : « هذه هي بنيتى ، وهذا هو المال » ووضع في يده كيساً من النقود الذهبية فأخذه وقال : « لقد قبلت فقل لى ماذا تريد واعتمد على » ثم تم الاتفاق بينهما على أن يأتى الخصى في منتصف الليل فيأخذه بعد أن يربط عينيه حيث يشاء

في (شال) من الكشمير وحياء هذا الرجل الخياط تحية
العبد الخاشع للسيد المهيب ثم قبل الأرض بين يديه
وترك الثوب وذهب

فقال الخياط في نفسه : « لاشك في أن صاحب
المنزل من أكبر الباشوات ولله صدر أعظم ،
ولو كنت أقدر الرهبة التي أشعر بها الآن لما قبلت
هذه الصفقة مهما كان ربحي منها . ومن الذي يدري
نتيجة وجودي في هذا المكان بين المظالم الذين
يظهر أنهم خرس لأنهم يذهبون ويأتون ولا ينطق
أحدهم بحرف . لقد كنت أرجو أن يقل انحناؤهم
أمامي ويكثر كلامهم لي . لقد سمعت أن امرأة ألقبت
في البحر منذ أيام . ومن يدري لعلها كانت خياطة
بمثل هذا المنزل ولعل نصيبي سيكون مثل نصيبها
لما وصل الخياط في مناجاته نفسه إلى هذا الحد
دخل الحجرة التصوري فأخذ الثوب الثاني الذي
كان الخياط قد انتهى من خصه وعصب عينيه ، وعادا
من نفس الطريق الذي جاء به منه بعد أن أعطاه سلة
معلقة . وكان الخياط رجلا حنكته التجارب فلم يسأل
سؤالا ولم يستفسر عن شيء . ولما طلب إليه الخصى
أن يحدد موعداً بفرغ فيه من خياطة الثوبين وعده
بإنجازهما بعد ثلاثة أيام ، فقبل الخصى وأعطاه عشرة
جنيهاً

ولما رفع الرباط عن عينيه أمام حانوته وفارق
النصوري حمد الله وذهب مسرعاً إلى منزله ليشرح
زوجته التي كانت منتظرة بصبر نافذ بأن الصفقة
تستحق أن تسمى صفقة رابحة . وكان وصوله إلى
منزله بعد ساعتين من منتصف الليل فهنأته لمودته
سالماً وقالت إنها استطلت مدة غيابه وتلقت بشراه
بالابتسام وبتكرار الحمد لله . وطلبت إليه أن يصف

ما رآه وأن يخبرها عما في السلة
فقال وعينا الآن من ذكر ذلك ولنذهب لكي ننام
قالت : « كلا بل أخبرني أولاً ماذا رأيت
والأقاني إن أستطيع النوم »

وأخذت السلة ففتحتها وهي تأمل أن تجد فيها
هدية ثمينة من بيت المظلم الذي تعاقد معه على هذه
الصفقة ولكن ما كان أشد انزعاجها وهلمها هي
والزوج المسكين عند ما وجدت في السلة رأساً مقطوعاً
قالت الزوجة : « ما هذه الداهية ، التي حلت
فوق رؤوسنا ؟ هل أتيت برأس قتيل لتصنع منه ثوباً ؟ »
فصاح المسكين : « لعنة الله على أمه وعلى أبيه .
لقد خدعني هذا الخصى اللعين ! ليتني طاوعت قلبي
فقد حدثني بالشر لما كلمني الخصى عن ربط عيني
وعن المكان المجهول . ولست أعرف الطريق إلى
المنزل الذي قادني إليه . وإلا لذهبت إليه في الحال
وأعدت رأس القاتل . إنني لست أعرف ماذا أفعل
أو ماذا أقول وأخشى أن يكون عندنا بعد لحظة مائة
من الشرطة فنكلف بدفع الدية أو تعلق لنا
المشقة أو نرمي في البحر . أشيرى على يد لفريب .
أشيرى على يد عزيزي ! »

قالت الزوجة : « علينا أن نتخلص من هذا
الرأس قبل كل شيء ! ولست أتحب هذه اللهمة من غيرنا
فلنبحث عن أي إنسان يحملها عنا »

فقال الزوج : « ولكن الفجر قد اقترب وإن
تأخرنا قليلاً يفوت الوقت الذي نستطيع أن نعمل
فيه أي عمل فلننظر في أمرنا الآن »

قالت الزوجة : « لقد خطر لي خاطر في هذه
اللحظة ، إن جارنا حسن الخباز يوقد فرنه الآن وبعد
ساعة يتبدى في إنضاج الخبز وإنضاج ما لديه من

الأطعمة للكثيرة الموضوعة في الأواني النشابة .
وإذا وضعنا هذا الرأس في « حلة » وأرسلناها
إليه فانه سيشويها في الآنية كالعادة ويتركها بين
مثيلاتها من الأواني حتى يأتي من يسأل عنها وليس
يعرف أحد من كل آنية من هذه الأواني لأن صاحب
كل آنية يأتي كالعادة فيستدل عليها «

فأعجب الزوج برأى زوجته ونفذ ما أشارت به
وبعد دقائق كان الرأس في « حلة » مغطاة
بين سائر « الحلال » الموضوعة أمام باب الموقد وأغلق
الزوجان عليهما باب المنزل وناما

وكانت الزوجة مسرورة بامتلاكها للشال
الكشمير الذي كان رأس القليل ملفوفاً به في
داخل السلة

وكان حسن الخباز وابنه محمود يشعلان النار
في الموقد بسرعة، وبالرغم من أنهما كهما في هذا العمل
فان محمود آوقف فجأة ونبه أباه إلى عواء غريب لكاب
بالقرب من الموقد وقال له إن هذا المواء يدل على
حدوث أمر غير عادي «

فقال الخباز : « لا شيء من ذلك يا محمود
فدعنا نستمر على عملنا »

لكن اللباح لم ينقطع ودخل الكاب فأخذ
يشم الاناء الذي جاء به الخياط ثم يثب على الخباز
ويعود إلى شم الاناء ، فارتاب الخباز ووقع الغطاء
عن هذا الاناء برفق . ولست في حاجة إلى أن أصف
مقدار الرعب الذي اعتراه عند ما رأى فيه رأس
إنسان يحملق إليه بيمينه ولكن الرجل كان قوي
الأعصاب فلم يتركه يسقط من يده كأكثر الناس
في مثل هذه الحالة بل وضعه كما كان ونادى ابنه
وقال : « إن الدنيا سيئة يا محمود وفيها كثيرون

سيئون . لقد أرسل إلينا بعض الكفار رأس إنسان
لنشويه ولكن بحمد الله لم تقع في هذه الخطيئة
ولا تزال نستطيع العمل في هذا القرن ونحن
صراحو الضمير . ولكن إذا عرف أنه كان عندما
رأس لنشويه فمن الذي يرسل إلينا خبزه بعد ذلك ؟
إنني أخشى إن يشهر هذا الخبر فنموت جوعاً لأن
الناس سيقولون إننا تمودنا طبخ الرؤوس الآدمية ؛
وإذا اتفق أن وجد في رغيف شمرة فأنهم سيقولون
إنها من لحية إنسان «

وكان محمود شاباً يبالغ المشرين من العمر وقد
أخذ عن أبيه الهدوء وسلامة الأعصاب وزاد عنه
أنه كان ذكياً ميالاً للفكاهة ؛ وبدلاً من أن يزعج
من هذا الحادث عده فكاهة عظيمة وضحك ضحكة
عالية من الأسنان البارزة والعينين المحمقتين في الرأس
الموضوع في « الحلة » وقال : « تمال نجباً هذا
الرأس في حانوت « خير علي » الحلاق الذي أماننا
عند ما بفتحته الآن . إنني أستطيع أن أفعل ذلك
دون أن يراني أي إنسان فأذن لي بذلك قبل أن
ينتشر النور «

وافق الأب فسار بخفة الطائر ووضع الرأس
على كرسي الخلاقة كأنه رأس أحد « الزبائن »
وعاد ابن الخباز إلى مخبزه لينظر ماذا يفعل الحلاق
الضعيف البصر بهذا الرأس عند ما يراه

وكان « خير علي » في ذلك الوقت يكسب الطريق
فلما عاد إلى حانوته الضيق المظلم أخذ يدور فيه لمسح
المرآة والكراسي فوقه نظره فجأة على هذا الرأس
وظن أن أحد زبائنه جاء ليحلق فقال : « السلام
عليكم يا أخي . لا تؤاخذني لأنني لم أرك ساعة حضرت
وقد جئت مبكراً جداً ومع ذلك فأرى رأسك

علوفاً وأراك قد نزعت عمامتك قبل أن آتي،
ألا تخاف أن تصاب بالبرد؟»

ثم سكت لحظة وعاد فقال : « يظهر أن صاحبنا
أصم فانه لم يجيني بحرف ومع أنني نصف أعمى فاني
سأحلق له »

ثم أخذ طستته النحاسي وأعد الصابون والموسى
ومشى نحو الرأس والطست في يد والموسى في اليد
الأخرى ، ولم يكذب بضع يده على ذلك الرأس البارد
حتى عاد بحركة عصبية كأنما لمست يداه النار وقال :
« ما شأنك يا أخى ؟ إن جسمك بارد كأنه قطعة
من الثلج »

ولكنه لما مسه للمرة الثانية سقط الرأس على
الأرض فوثب الحلاق المسكين صائحاً : « أمان !
أمان ! إذا كنت أنت الشيطان فخذ حانوتي وما فيه
ودع لي حياتي وأعفني من الحلاقة لك »

ولكن مضت لحظات لم يحدث فيها حادث
فاعتقد أن الشيطان لا يد له في هذا الأمر . ودنا
من الرأس فرفعه من شعره وقال : « ما الذى جاء
بك إلى هذا المكان ؟ هل تريد أن تفضحني ؟
إنني نصف أعمى ، ولكننى أعرف ما ينشئ على أن
أفعله . إننى سأذهب بك إلى حيث لا تضرين أحداً
لجارى اليوناني « بنى الكبابجي » بفرح بك ليصنع
منك « كباباً » لزيائنه الكفار »

ثم أخذ الرأس مغطى بمنديل في يد والغليون
في اليد الأخرى ومشى إلى مطعم جاره اليوناني
ووضعه في ركن منه دون أن يراه أحد لأن الصباح
كان لا يزال في أوائله وأصحاب الحوانيت لا يزالون
يستمدون ولما يبدأوا أعمالهم

ثم أشمل غليونه من موقد بنى وجعل ذلك علة

لزيارة حانوته إذا ما رآه أحد ولعله خشى ألا يكون
هذا السبب كافياً فناداه وأمره بأن يرسل إليه طبقاً
من الشواء ليفطر به

وبعد أن أوقد بنى النار وجد وهو يكفئ
الحانوت ذلك الرأس وكان بنى يونانياً أصيلاً كثير
المكر قوى الحذر علياً بضروب الخداع والمخائلة يتعلق
من هم أعلى منه ويظلم من هم دونه . وكان يكره العثمانيين
كراهية المقت ولكنه مع ذلك يتعلق أصغرهم قدرأ
وأضالهم منزلة

ولما أمسك بذلك الرأس بين يديه عرف أنه
رأس رجل مسلم فقال : « ليتنى أجد كل رؤوس
المسلمين مثل هذه الرأس فأصنع منها أحسن شواء
في الوجود . ليتني لا يبقى في الآستانة رجل على قيد
الحياة . وليت للنسور تتغذى بأجسامهم وليت كل
يونان بصادفه من حسن الحظ مثل الذى صادفني
اليوم »

ثم أتى بالرأس وركله برجله ولكنه عاد فتذكر
ورفعه في الحال وقال : « لو وجد هذا الرأس
هنا لوقعت للنكبة على رأسى لأن كل الناس لن
يمتقدوا إلا أننى قتلت تركياً » ووقف مدة طويلة
عاج فيها أشد ضرب من الحيرة وقال في نفسه :
« لقد تذكرت ! إن الحى اليهودى خير مكان لهذا
الرأس فان اليهود هم الذين يسرفون وخدم ما الذى
ينبنى عمله بهذه الرؤوس »

ثم وضع الرأس تحت ثوبه ومشى إلى الحى
اليهودى فوجد على باب جسم رجل يهودى مقطوعاً
رأسه وموضوعاً بين رجله وقد جرت العادة في
تركيا عند ما يقطع رأس رجل مسلم أن يضع الرأس
تحت ذراعه تكريماً له . أما اليهود والنصارى فتوضع

رؤوسهم بعد قطعها بين أرجلهم تحميراً لهم
ولما كان الطريق خالياً فقد أسرع بنى فوضع
رأس المسلم تحت ذراع اليهودى وعاد مسرعاً إلى حانوته
أما قصة اليهودى المقتول فإنه اتهم باختطاف ولد
مسلم وهذه تهمة توجه كثيراً إلى اليهود في تركيا
وفي إيران، وقد عوقب اليهودى بالقتل وبأن ترك
جثته في الطريق ثلاثة أيام . ولم يجرؤ أحد من اليهود
أو اليونان المقيمين بالقرب من هذا الحى على الدنو
منها ، فظلوا منتظرين أن يأمر الحاكم المسلم بدفنها
أو بإحراقها أو بأن يفعل بها ما يشاء . ومن أجل
ذلك تمكن بنى من أداء مهمته التى تقدم ذكرها دون
أن يراه أحد

ولكن لما اعتلى ضوء النهار شاع أن اليهود
قتلوا رجلاً مسلماً ووضعوا رأسه مع رأس اليهودى
انتقاماً ، وشاعت إشاعات أخرى متناقضة ، وازدحم
الناس حول الجثة . وقيل إن الله أظهر معجزة إذ ظهر
للإهودى رأسان ، وقيل إنه كان مسلماً فى السر
ويهودياً فى العلانية وإنه كان بريئاً من التهمة التى
وجهت إليه ولذلك ظهرت هذه المعجزة

ولكن اليهود كانوا فى أشد الحيرة والارتباك
لوقوع هذا الحادث ، وكان رؤساؤهم الديوبون
يروحون ويغدون أمام هذه اللجنة ويمقدون جلسات
للبعث فيما يدفع عنهم شر هذه النكبة

وبينما كان الناس يشاهدون هذا المنظر المنكر
ويردد كل منهم ما سمعه من الإشاعات إذ صاح أحد
الجنود : « هذا الرأس هو رأس قائدنا فلان رحمه
الله . فتعرف إليه سائر الجنود وعرفوه ، وهاج
غضبهم ، ومرعان ما اتصل الخبر بكل جنود الفرقة
لأنهم لم يكونوا يعلمون أن قائدهم الذى يحبونه قد

مات . وشاعت بينهم إشاعات مختلفة من سبب ذلك
ولكن كلهم جميعاً كانت متفقة على أن هذه الالهة
التي لحقت بهم لا يحجوها غير الدم ، وقيل إن الوزير
هو الذى قتله وأتى برأسه فى هذا المكان لتقع
الشبهة على الجنود . وقيل إن أحد السفراء الأجانب
هو الذى فعل ذلك . وأقسم الجنود برأس عثمان
وبسيف عمر أن ينتقموا لأنفسهم من القاتل أياً كان
وقبل أن نصف للتأج توجه نظر القارىء
إلى الحالة التى كان عليها اليهود فى ذلك الوقت
وإلى محاولتهم الاختفاء والفرار من غضب الأتراك ،
ونوجهه كذلك إلى منظر الجنود التركية وهى
تسير مسلحة فى الطرقات مقسمة أغلظ الإيمان
أن تنتقم باحثة عمن نصب فوق رأسه جام الانتقام .
ولكى نتصور هذا المنظر يجب أن نعرف أن المدينة
كانت على ازدهارها الشديد ضيقة الطرقات وكان
أهلها جميعاً لا يتكلمون فى حديث غير هذا
ولا يهتمون بشئ سواه وكأهم يتوقع حدوث
نكبة لا تخطر لأحد ببال

فى نفس الليلة التى دعى فيها الخياط إلى قصر
السلطان صدر أمر سرى بقتل قائد الفرسان وقد
كان ينسب إليه أنه رأس حركة التمرد التى قامت
أخيراً بين الجنود

ولما كان السلطان شديد الغيظ من هذا القائد
فقد أمر بأن يمرض عليه الرأس ساعة قطعه فجاء
به الجلاد إلى الغرفة فى الساعة التى كان فيها الخياط
جالساً على الكرسي الذهبى ينتظر الثوب الذى سيخيط
مثله ولأن الغرفة لم تكن مضاءة بالنور الكافى ولأن
الجلاد وغيره من الحاشية كانوا يخشون من النظر
إلى وجه السلطان — فقد وضع الرأس مافوقاً

تحت قدمي الخياط على اعتبار أنه السلطان . ثم
أخطأ الخصى فوضعه في السلة بدلا من الهدية التي
كان يجب تقديمها وقدمت تلك الهدية إلى السلطان
بدلا من رأس القائد

لما عرف السلطان أن الهدية هي التي قدمت إليه
بدلا من الرأس كان الخصى والخياط في طريقهما
إلى الحانوت

غضب السلطان وانتظر عودة المنصوري فلما عاد
أمره بالذهاب في الحال ليأتي بالرأس الذي أخذه
الخياط وتوعده بالموت إذا لم يمد به ، فذهب وهو
يكاد يجن لأنه يعرف حانوت الخياط ولكنه لا يعرف
منزله . وأخذ يدور في الطرقات لعله يرى رجلا
فيسأله عنه ومضت ساعة قبل أن يتذكر قول الخياط
إنه مؤذن في المسجد الصغير في سوق السمك

فلما تذكر هذه الكلمة جري مسرعا إلى ذلك
المسجد وكان قد اقترب وقت الأذان فانتظر وهو
مفقود الصبر تحت باب المسجد . ولم يمض وقت
طويل حتى رأى رجلا يقبل نحو المسجد فظن أنه
الخياط ، وبعد دقائق تبين أنه لم يكن مخطئا في ظنه
ولما وقع نظر الخياط على المنصوري ترك الواجب
الديني الذي جاء ليؤديه في المسجد وهو الأذان
وجري كالمجنون راغبا في الفرار . ولكن المنصوري
أدركه واستوقفه برفق أطمع الخياط فقال : « هل
أنت إنسان ؟ كيف تعامل مسكينا مثل هذه المعاملة
ما الذي أسألك به حتى تمطيني رأس رجل مقتول ؟ »
قال المنصوري : « تمهل أيها الصديق فاني
لم أرد بك سوءا وإنما وقمت غلطة يراد الآن
إصلاحها »

فقال الخياط وهو يرتعش : غلطة ؟ تقول غلطة ؟

أنضحك على ذقن بيضاء مثل ذقني وتفهمني أنني
أت لأخيط ثوبا ثم تمطيني رأس رجل مقتول ؟
إن البيت الذي قدتني إليه بيت جماعة من اللصوص
للسفاكي الدماء »

فوضع الخصى يده على فم الخياط وقال : « اسكت
فأنت لا تعرف عن تتكلم »

قال الخياط : « أيا كان هذا الذي تتكلم عنه
فانه كاذب كافر يستحق اللعنة »

فقال الخصى : « أهكذا تتكلم عن ظل الله
على الأرض يا أحمق ؟ قل لي ماذا فعلت برأس القليل
هاته وإلا قطعت رأسك بدلا منه »

لما علم الخياط حقيقة الأمر فتح فاه كالآبله
وقال : « أمان ، أمان ! لم أكن أعرف هذه الحقيقة
تعال معي إلى المنزل فأنت تسمدني بتشريفيه وترفع
رأسي إلى السماء »

فقال المنصوري : « لا أستطيع التأخر فالأمر
يدعو إلى شدة الاستعجال فقل لي أين رأس قائد
الفرسان »

وكان الخياط يسمع هذا اللقب ويذكر ما فعلته
زوجته فاصطكت أسنانه واضطربت ركبته وقال :
« ما أوقمني في ذلك غير القسمة وليس للانسان
أي مهرب منها »

ثم سكت . وانتظر الخصى كي ينطق بشيء فلما
لم يفعل . قال الخصى :

— « هل أحرقته ؟ »

— « كلا »

— « هل رميته في البحر ؟ »

— « كلا »

— « إذن فأستحلفك باسم النبي أن تخبرني

ماذا فعلت به ؟ هل أكلته ؟

— « كلا »

— « هل هو موجود الآن في منزلك ؟ »

— « كلا »

— « هل هو مخبوء في بيت آخر ؟ »

— « كلا »

فاشتد غضب الخصى وأمسك بلحية الخياط وصاح : « إذن فأخبرني ما الذي فعلت به ؟ »

فقال الخياط وهو يكاد يخنق لاحتباس الدموع في صدره : « إنه في القرن — إن الفران يشويه الآن »

دهش الخصى وقال : يشويه ؟ لماذا ؟ هل تريد أن تأكله ؟ »

فقال الخياط : « كلا ولقد أخبرتك بالحقيقة فإذا تريد ؟ إنه الآن في القرن والفران يشويه ثم أخبره بالأسر على حقيقته »

فقال المنصوري : « أرني حانوت الخباز . من الذي يظن أن رأس قائد الفرسان يرسل إلى القرن ليشوي ؟ لا إله إلا الله »

ومشى الرجلان إلى حانوت الخباز وكان إذ ذاك يخرج الخبز ناضجاً من الموقد، ولما علم غرضهما لم يتردد في إخبارهما بالحقيقة . وذهب الثلاثة (المنصوري والخياط والخباز) إلى حانوت الحلاق فسألوه عما فعل برأس القتيل فتردد مدة ثم أقسم أنه كان يظن الأمر حيلة من إبليس وأن ذلك برر ما فعله من تركها في مطعم اليوناني للكافر الذي لا بد أن يكون قدسها لأخوانه الكفار في جملة ما قدمه إليهم من الشواء فاستماذ الثلاثة بالله من غضبه وضموا إليهم الحلاق ومشوا إلى مطعم بنى اليوناني

انزعج المسكين عند ما رأى أربعة من المسلمين يدخلون حانوته في وقت واحد وشمر بأن حاجتهم ليست إلى الطعام بل إلى أمر آخر . ولما سأله عن رأس القتيل أنكر أنه رآه أو علم شيئاً عنه فأراه الحلاق الركن الذي تركه فيه

وأقسم بالقرآن أنه صادق وتولى المنصوري مهمة المحقق في القضية

وفي هذا الحين سمع الخصى ما كان الناس يتحدثون به من وجود رأس ثمان لجثة اليهودي القتيل . وسمع من جهة أخرى أن الفرسان هائجون في المدينة وأن لهذا الهياج علاقة بوجود الرأس الثاني فذهب مع الخياط والخباز والحلاق إلى المكان الذي فيه جثة اليهودي وهناك وجدوا الجثة التي كانوا يبحثون عنها

وكان بنى اليوناني مشتتاً عما سيصيبه فلم يضيع الوقت سدى بل جمع أمواله وهرب من المدينة ولما رأى الخصى الرأس قال : « أين اليوناني ؟ يجب أن يكون معنا ولنذهب جميعاً إلى السلطان » فقال الحلاق : « لا بد أنه هرب لأنه هو الذي منح اليهودي رأسه الثاني »

وكان المنصوري يحمل الرأس ولكنه لما رأى كثرة الجنود حوله ووجدهم يقسمون أن ينتقموا من المسئول أياً كان أحجم عن ذلك وأخذ شهوده معه وذهب إلى السلطان . ولما أخبر المنصوري السلطان عما حدث اضطرب السلطان لأن الحركة التي بدت من الجنود قد يتسع نطاقها فيصبح من المستحيل إخمادها وقد يؤدي ذلك إلى خله أو قتله فظل مدة طويلة في حالة من الشك وأخذ يقتل شاريه ويكرر بصوت خافت لفظة : « الله ! » ثم

الفصل السادس والأربعون

ما مضى بابا بصير رباً من أرباب الله
أخيراً سمع ميرزا أبو القاسم ما تناقله الناس
عن صلاحه وتقواه فعزم على مقابلي عند ما يزور
القبر الذي أنا لاجئ إليه .

ولقد كنت خائفاً من هذه الزيارة خوفاً شديداً
لأنه سيتضح منها جهلي الشديد . وقلت في نفسي
إن زعيماً دينياً مثل أبي القاسم لا بد أن يكون على
جانب كبير من العلم ولا بد أن يتمتع فيه رجلاً
مثل ذاعت شهرته ولم تتضح بعد حقيقته

ولم أكن أعرف من أمر ديني سوى أن كل
من لا يؤمن بالنبي محمد وبإبن عمه على فهو من حطب
جهنم ، وأنه لن يدخل الجنة غير المسلمين ، وأن
فريقاً كبيراً من المسلمين سيدخلون جهنم أيضاً
لأنهم فضلوا أبا بكر وعمر وعثمان على الامام علي ،
وأن الأتراك جميعاً لن يدخلوا الجنة ولكنهم ليسوا
بمسلمين مثل اليهود والنصارى

وكنت أعلم أيضاً أنه لا يجوز شرب الخمر ولا
أكل الخنزير وأنه يجب أن يصلي المرء خمس مرات
في اليوم ويجب أن يتوضأ قبل كل صلاة

ومنذ اللحظة التي سمعت فيها بأن ميرزا أبو القاسم
سيزورني ، أخذت أستعيد في ذهني ما تعلمته من
أمر الدين شأن الطالب الذي قرب وقت امتحانه
وبينا أنا كذلك إذ أقبل على صاحبي الدرويش
وأخبرته عن سبب اشتغالي فنظر إلى وقال : « هل
عشت في الدنيا هذا العمر ولم تعرف إلى الآن أنه
لا يمكن أداء أي عمل إلا بالوقاحة ؟ هل نسيت
القصص التي كنت أرويها لك مع صاحبي الدرويش
صفر في مشهد ؟ »

أمر باستدعاء الصدر الأعظم وشيخ الاسلام وقد
انزعج الرجلان عند ما دعيا في هذه الساعة المبكرة
فجاءا وهما يرتجفان ولكن لما أخبرهما السلطان عن
سبب استدعائهما عاد إليهما الهدوء والاطمئنان
وبعد أن تداولوا مدة قرراً أن يحال الخياط
والخباز والحلاق إلى المحاكمة بتهمة التآمر على حياة
القائد وأخذ رأسه ليشوى ويحلق ويصنع منه شواء
وأن يطلب الحكم عليهم بدفع الهدية . وأصدر شيخ
الاسلام أمراً بأهدار دم اليوناني لأنه رابع المتآمرين
وقد هرب وهو مسيحي لا تقبل منه الهدية عن مسلم
وبعد أن تداول السلطان والصدر الأعظم تقرر
أن يعين خلف المقتول من الدين يرضى عنهم الجنود
وأن يقام مأتم عظيم للقائد المقتول

وقد دفع السلطان للثلاثة التهمين الهدية سرّاً
فدفعوها وعوضهم تمويضاً حسناً عما تسبب لهم
من المتاعب . وتمت الجنازة وتمين خلف للقائد وعاد
الهدوء إلى المدينة والجنود . وبذلك نفذ كل ما تم
الاتفاق عليه إلا قتل اليوناني فانهم لم يمتثلوا له
على أثر «

هذه هي القصة التي قصها على الدرويش ولكني
اختصرتها خصوصاً في الجزء الذي أخذ فيه الخصى
يروى على السلطان ما عرفه عن أمر الجثة . ولو سردت
هذه القصة كما سمعتها من الدرويش لجاءت طويلة
جداً يحتاج تدوينها إلى سفر كامل . وفن القصص
يقضى بأن تكون القصة مختصرة بقدر الامكان وإلا
تفقد إمتاع القاري بسبب الإيجاز

ومن أجل ذلك قال لي الدرويش إنه يستطيع
أن يقص هذه القصة في شهر دون أن ينتهي منها
لأن مادتها تنسج لذلك

وبطلب راحته فأطال نظره إلى وسادت فترة صمت عميق ثم قال : أصبح أنك جئت إلى هذا المكان لا جئاً خشية أن يحمل بك المقاب ؟ إنني وأصحابي قد ودعنا الدنيا وودعنا نساءنا عن ذلك فضولاً ، ولكنني أردت أن أعرض عليك خدمتي إن كنت في حاجة إليها لأن رسول الله قال حديثاً شريفاً أوصى فيه البصر بأن يعد مساعدة إلى الأعمى وأوصى النبي بأن يساعد الفقير »

فتشجعت وقلت قصتي بمد أن حورت فيها حتى حسبني السامعون شهيداً من الشهداء وقال أبو القاسم : « متى كان الأمر كذلك فاني بأذن الله سأكون الوسيلة التي ترتفع بها مظلمتك وسيزور الشاه هذا القبر قبل نهاية هذا الشهر وهو لا يرد لي كلمة فسأطلب إليه أن يعفو عنك ويرد المدل معك إلى نصابه »

قلت : « إن تراب قدميك كمن ليعني وإنني خطي لا أستحق هذه الرعاية من مقامك المقدس . ولكن الذي تفعله من أجلى يتفق مع رفعتك لا مع اتضاعى ومع طهارتك لا مع خطيئتي » ويظهر أن أبا القاسم طرب من هذا المدح الذي كأنه جزافاً فقال : « كمانك وقصتك تدلان على أنك واحد منا يا حاجي بابا . والأتقياء يعرف بعضهم بعضاً كما يتعارف طائفة من الكفار يطلقون على أنفسهم اسم « الماسونية »

هنا صاح الطلبة إعجاباً بعلم الزعيم : « الله أكبر لا إله إلا الله » واستمر الزعيم يخاطبني فقال : « من هذا الدراويش الذي معك ؟ لقد سمعت أنه يقول عنك وعن نفسه إنكما جسمان لهما روح واحدة » فلم أعرف بماذا أجيب وترددت بين

قلت له : « إنني لم أنس حرفاً مما قلتهموه لأنني جلدت في ذلك المهد وليس في الدنيا شيء يقوى هذا كرة ويشحن الدهن مثل عصا الجلاد . ولكنني الآن لست مريضاً لما بل للرجم بالأحجار فقل لي يا درويش ما الذي أفعل ؟ »

فقال : « إذا كنت لا تستطيع أن تتبجح بالعلم وتتمكن إليه الوقاحة في الجدل فما عليك إلا أن تلزم الصمت فلا تجيب . ومن الذي يستطيع أن يعرف مع صمتك أنك حمار ؟ إنني أكاد أخدغ فيك أيضاً إذا أنت لم تتكلم »

قلت : « فليكن ما تشير به يا درويش ... الله كريم »

ثم أطرقت وتذكرت قصة من قصص السعدي ضمنها ذكر ما ينبغي على الدراويش أن يفهموه فتشجعت وعزمت على اتباع ما أوصى به السعدي في هذه القصة .

ولم تمض إلا مدة وجيزة ثم جاء أبو القاسم ومعه تلاميذه فأقاموا الصلاة في صحن المدفن ولما أحسست بعجزهم وقفت أصلي في خلوتي ولما انتهت الصلاة خرجت فرأيتهم جالسا بين تلاميذه فجلست معهم ورأيتهم ينظرون إليه نظرة تقديس فالزمت نفسي أن أنظر إليه تلك النظرة . وبدأ يلقى درسه ونحن جميعاً منصتون إليه . وفي وسط الدرس دعاني إلى الاقتراب من مجلسه والجلوس على طرف سجادة كاخلاصة من القربين إليه فجلست بمد أن قبلت طرف ثوبه في خضوع ورهبة فقال لي : « مرحباً بك ؟ لقد سمعنا كثيراً عنك وإن شاء الله بارك في خطوانك . زد دنواً مني »

فأجبت على ثنائه على باستغفار الله من ذنوبي

الاعتراف بصداقته وبين إنكارها لأنى لم أنبين
شعورهم نحوه . ثم قلت بعد تفكير قليل : « إنه رجل
فقير وقد سمحت له بالإقامة معى وهو أدى لى خدمة
يسيرة فلم أنسها له »

قال أحد الطلبة الجالسين بجنبى : « لا تنس
نفسك فإن هؤلاء الدراويش فيهم اللص والوغد
وصرتك كل جريئة »

فقال أبو القاسم وقد وضع يده على خصرته ،
وتلك علامة يعرفها تلاميذه فيه إذا أراد أن يتكلم :
« نعم إن هؤلاء الدراويش سواء كانوا من أتباع
نور على الشاهى أو من الدهبيين أو من النعشبنديين
فإنهم جميعاً من المناققين الذين لا يستحقون غير
الموت ، وأكثرهم يصل بغير وضوء رياء للناس
ويتظاهر بالصيام فى رمضان وهو مفطر . وفيهم
من يجاهر بأنه ما دامت العبدة بالقلوب فلا داعى
للأمور التعبدية ويكفى المرء إيمانه ، وفيهم من يؤمن
بأنقرآن ولكنه يكفر بالأحاديث ولا يتبع ما أمر
به النبي . وفيهم من يصبح بلفظة الجلالة حتى يخرج
الزبد من شذقيه أو يصبح بصوت منكر ويسد
ذلك من الدين . ومنهم من ينزع عنه الثياب ويمشى
حافياً ويزعى أن ذلك تعبد لله مع أن النبي
والصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك . وأصبح جماعة
فيهم للصوفية فأنهم أبعد للناس عن رسول الله
وإنما بمنه الله إنساناً يقتدى به الناس فلمنة الله
عليهم » فقال تلاميذه : « آمين »

واستمر يقول : لعنة الله على الشيخ المطار
وعلى جلال الدين الرومى . فقال تلاميذه : آمين
ونظر إلى تلاميذه ليروا تأثير هذا القول فى نفسى
وقد كنت أكثر حذراً منهم فلم يروا على وجهى

علامة للاشمئزاز أو الدهشة ولا للسرور أيضاً لأنه
لو بدا ذلك لعل على أننى كنت أجهل ما سمعته . وأخذ
الشيخ يلحن الصوفية متحمساً حتى خلت أنه لا يتردد
فى قتل أحدهم لو كان حاضراً فى هذا المجلس

ولما انتهت خطبة الشيخ استأذنته وتركت مجلسه
عائداً إلى خلوتى . ولما قابلت صاحبي الدراويش بعد
ذلك أعدت عليه ما سمعته خصوصاً عن الدراويش
وقلت له إن الشيخ لا يبعد أن يرجعه

فقال : « إنه وتلاميذه أولى بالرجم لأنهم سفاكو
دماء وليس يهمنى شئ من الخلاف بين السنية والصوفية
وأهل الشيعة مادمت أقيم الصلوات الخمس ؛ ومع ذلك
فانى سأترك لهم مدينتهم العاصرة بالرياء المجردة من كل
شئ سواء ولن أعود إليها طول الحياة »

وإنى لأعترف بأنى لم آسف لما أخبرني به الدراويش
من عزمه على ترك المدينة ووددت أن أقدم فأضع عصاه
فى يده وجرا به فوق ظهره وأشيعه إلى الباب مودعاً
ولم يطل عهد هذه الأمنية فانه فعل ذلك من تلقاء
نفسه فى اليوم التالى تاركاً لى الخلوة . وقلت فى نفسى
ساعة ذهب : « اذهب لا أرجعك الله من وغد
طروب ، أنت فى رؤسك أوفر حظاً من الأغنياء مادمت
قائماً بالسير إلى حيث تحملك قدماك كالدين أراهم أرقاء
لألف مطلب يتبعون أتباعهم حرصاً على الحياه »

الفصل السابع والأربعون

الدراويش يسمون حامى بابا

لم يكن يشغل ذهنى فى ذلك الوقت غير الوغد
الذى وعدنى به أبو القاسم بأن يستصدر أمرى للمفو
عنى من الشاه . وقلت فى نفسى ما دمت أرجو أن
يدافع عنى فلا بد من إرسال هدية إليه حتى يذكرنى

لأن الابن لا يكاد يذكر أباه في هذه البلاد حتى يرسل إليه هدية

وكنت حزيناً على المال القليل الذي جئت به إلى هذا المكان فدفنته بركن قريب من الباب حتى أصير في حاجة إليه فلما ذكرت الهدية ذكرت المال ففقت إلى ذلك الركن لأنفقته . ولا يسأل القاري عن مقدار دهشتي وجزعي وغضبي لما وجدت المال مفقوداً كله . وكأت اللعنات على رأس الدرويش الذي كان معي في هذه الخلوة لأنه لا يمكن أن تصل إلى هذا المال يد غير يده . ودعوت الله بأن نصير حياته مرة مرارة حزني لأنني ما كنت أطمع في شيء أحب إلى من فك أمرى . ولكن ذلك أصبح عديم الجدوى بغير المال . وماذا يمكنني أن أفعل إن ردت إليّ حريتي وليس معي قوت يومي سوى أن أصير شحاذاً ؟ واشتد جزعي من الموت جوعاً فذلك من شر ضروب الموت

ولما كان اليأس بطبيعته خير علاج للحزن فقد أنساني يأسي من ضياع حزني على موت زينب، ثم أنساني حزني من الاضطراب إلى لزوم هذا السجن الاختياري ونسيت في النهاية حزني على خسارة المال . وبلغت بي شدة اليأس في النهاية حداً احتقرت معه الحياة حتى أنه لو وصل إلى يدي سم في هذا الحين لما تأخرت عن تناوله

وفي ذلك الوقت زارني الطالب الذي كان قد حذرني من الدرويش فشكوت إليه أمرى ووجدت لعمري فرجاً من بث هذه الشكوى إليه فقال لي : « لا تحزن يا أخي فأنت تعرف أن الله يبذل الصالحين من عباده ليتبين الصابر من الجزوع فلماذا تترك الجزع بتمكن منك ؟ إن مالك قد ذهب ولكن

نفسك لم تزل باقية فاحمد الله لأن الحياة بعد كل شيء ليست بالنعمة الرخيصة »

قلت في نفسي : ما هذه التعزية الباردة ؟ إنني أعلم أن الحياة ليست بالنعمة الرخيصة ولكن هل ترد هذه المعرفة مالي الذي سلبه الدرويش ؟ وطلبت إلى هذا صاحب أن يبايع أمرى إلى أبي القاسم ويعتذر إليه عن تأخري في إرسال هدية إليه ، لأن ذلك لم يكن في وسعي ففارقني واعدأ إياي بأن ينقل إليه ما سمعه مني

وفي نفس ذلك اليوم علمت أن الشاه وصل إلى مدينة « قم » وفرش المدفن بأنخر السجاجيد بمد أن كنس وغسلت أرضه بالماء ، وكنت في ذلك اليوم على أشد حالات القلق لأن الساعة التي يتقرر فيها مستقبلتي قد دنت ، ولأن أمد غيبتني عن طهران قد طال وأصبحت حياتي في هذا المكان مملولة ؟ وكنت أجهل مقدار ما يشعر به الشاه نحوي من البغض ؟ وكنت في ساعة أظن أن الشاه لن يكتفي بشيء أقل من قطع رأسي . وكنت في حين آخر أندفع في سبيل الفرور فأرى أن الشاه لا يستطيع أن يأمر بقتلي لأن لي سنداً قوياً من ميرزا أبي القاسم

ولما دخل الشاه هذا المدفن أظهرت نفسي لحاشيته وسلمت عليهم فردوا سلامي فاطمان قلبي لذلك كل الاطمئنان . وأخبرني أصحابي بكل ما حدث بالقصر بعد غيابي عنه . وعلى الرغم من أنني كنت آليت على نفسي أن أتزهد وألا أعبا بشيء في الحياة فقد كنت أجده دوافع الرغبة قوية في نفسي لسماع هذه الأخبار

وأخبروني أن رئيس الجلادين عاد بعد المواقع التي دارت مع الروس وأحضر معه رأس رجل

ملك الملوك سيد العالم . أنا أطلب الرحمة باسم
فاطمة الزهراء .

فنظر الشاه إلى أبي القاسم وقال : « من هذا ؟
فقال أبو القاسم : « هو لاجئ إلى قبر فاطمة
وهو ينتظر أن يعفى عنه وفقاً للمادة التي جرت عليها
هذه البلاد مع اللاجئين إلى القبور المقدسة . وهو
ونحن جميعاً فداك يا جلالة الشاه ومهما أمرت
فأمرك نافذ »

قال لي الشاه : « من أنت وماذا فعلت حتى
لجأت إلى هذا المكان ؟ »

فقلت : « جعلني الله فداك . أنا كنت مساعداً
لرئيس الجلادين واسمى حاجي بابا وقد جعلني أعدائى
مجرماً في نظر مولاي الشاه . ولكنني في الحقيقة
بريء » ...

فنظر إلى الشاه نظرة طويلة ثم أطرق لحظة وقال :
« إذن فأنت حاجي بابا ! سواء كنت أنت المسئول
أو رئيس أطباء فان النتيجة واحدة وهي أن كرامة
الشاه قد استهين بها »

ثم نظر إلى أبي القاسم وقال : « بماذا تشير في
أمر هذا ؟ إن الشاه فقد جارية من جواريه ولها دية
يجب أن تؤدى عندنا حتى للروس واليهود فكيف
تضيق دية جاربتى بين الطبيب وبين مساعد الجلاد »
قال أبو القاسم : « حكم الشرع في ذلك أن تدفع
الدية إلا إذا نزل عنها ولى الدم وأنت يا مولاي ولى
الدم فلك أن تغفو . وأجدر بك وأنت في مقام الملك
أن تقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم فتغفو
والمغفو أفضل »

فقال الشاه : « فليكن كما أشرت » ثم التفت
إلى وقال : « لقد عفوت عنك ولكن لا ترني وجهك
بعد الآن . اذهب من هنا »

عبد النظيف الشاه

« يتبع »

ورأس امرأة فقبل الشاه منه هذه الهدية ورضى
عنه واستنابه عن شرب الخمر

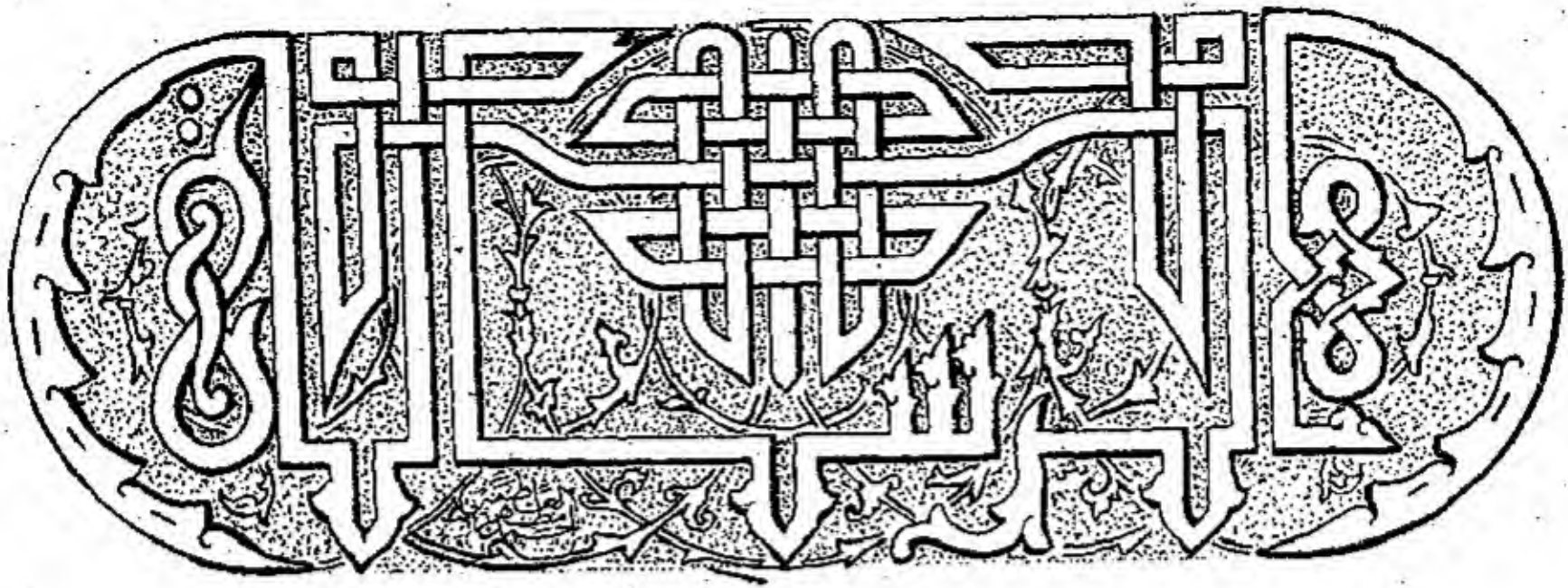
وأخبروني أن أمر حاجي لزينب قد اشتهر وصار
حديثاً للناس ، وأن سيدي القديم ميرزا أحمد وجد
جفوة من الشاه فاستمر يرسل إليه الهدايا لعله يجد
لديه عافاً ، وأن غضب الشاه لفقدان الجارية الكردية
قد قل كثيراً لأن رئيس الجلادين أهدى إليه جارية
أخرى وأنه افتتن بها . ووصفها بأنها أجمل جارية
رآها من عهد « طاووس » التي كانت تضرب
بجملها الأمثال .

وكان الشاه مقياً في خيامه خارج المدينة . ولست
أريد وصف استقباله لأنه لم يراع فيه الأبهة التي
تراعى في غير هذا المقام . أما والفرض من هذا
السفر هو زيارة قبر فاطمة الزهراء فقد ظهر الشاه
بمظهر التقي الورع الزاهد في مظاهر الحياة . وكانت
سياسته تقضى على الدوام بمسألة رجال الدين لأنه
لم يكن يجهل قوة نفوذهم على أذهان الشعب ، ولم يكن
من الفرور بحيث يتصور أن قوة جنوده تستطيع
التغلب على الشعب إن تار

وكان أول شيء فعله عند ما وصل إلى (قم) أن
ذهب على قدميه إلى منزل ميرزا أبي القاسم فزاره
فيه ومشى كذلك في طرقات المدينة وأرسل نذوراً
كثيرة إلى قبر فاطمة الزهراء

وكان الشاه يوم وصوله إلى المدفن مرتدياً ثياباً
سوداء وحوله رجال الدين في مثل هذه الثياب .
وكان مجرداً من كل حلية اعتاد أن يتحلل بها من
قبل حتى خنجره

وكان ميرزا أبو القاسم يعني وراءه بخطوة
أو خطوتين . وكان يتكلم والشاه يعني إليه .
ولما مر من أمامي سجدت وقلت : « أنا في حمية



مكتبة الادب الرفيع والثقافة العالية
تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبّر بإخلاص عن روح النهضة المصرية
الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية
الرسالة تصوّر مظاهر العبقرية للأمم العربية
الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية
الرسالة تحيى في النشء أساليب البلاغة العربية
الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق
الجديد، وسجل الآداب الحديث، ودائرة معارف عامة

لاشتران الدفلى ستون قرناً، والحاجى مابى سارى جينها مصرى، وللبدر العربية بمضم ٢٠٪

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك على سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الدارة

دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
حاديدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

البردية

مجلة أسبوعية للقصص والبريد

تصدر مؤقنا في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١٠ المحرم سنة ١٣٥٧ - أول مارس سنة ١٩٣٩

العدد ٥١

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	
١٧٠	الكورة
١٧٩	كاتب شانون
١٨٧	انتحار
١٩٠	الرجل الخفي
٢٠٣	ذكرى امرأة
٢٠٩	حاجي بابا أصفهاني
...	أقصصة مصرية
...	للكاتب الانجليزى آرثر كونان دويل
...	للكاتب الفرنسى جورج مورفير
...	للكاتب القصصى جلبرت كيث تشسترتن
...	أقصصة مصرية
...	للكاتب الانجليزى « جيمز موير »
...	بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
...	بقلم الأستاذ محمد لطفي جمعة ...
...	بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد
...	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...
...	بقلم الأديب عبد الحليم العشيري
...	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الكبر

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّة
بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

انفراده بوالده في اليوم الثاني
وسأله بلهجة تنم على الحق
والانكار:

« لماذا أجبرتني على العودة
ولما أتم تعليمي ؟ »

فتشهد الرجل حزينا أسيفا
لأنه لم يسمع هذه اللجة الوحشة
منذ أربع سنين ، ولكنه لم

يفضب لأنه كان أعلم الناس بمن يخاطبه ، ولم يرد أن
يستحث الصدام ، فتشغل بالنظر إلى بعض الأوراق
الموضوعة على مكتبه ، وضاعف عدم اكرامه من حق
الشاب فاستطرد يسأله بحدة :

— لماذا أجبرتني على العودة ؟ .. ولماذا هددتني
إذا لم أصدع بأمرك بمنع النقود عني ؟

ولم يجد الرجل بدا من القول ، فقال بهدوء :

— لأنني لا أريد أن تضيع أموالك في حانات

باريس !

فتظاهر الشاب بالدهشة وتساءل :

— ومن قال لك إن أموالك تضيع في حانات
باريس ؟

فخدجه الرجل بنظرة فاحصة وقال :

— جميع الذين سافروا لزيارة معرض باريس
هذا العام تشرفوا بمشاهدتك وأنت تراقص الفاجرات
وترنح ثملاً !

فقال حمدي بنضب :

— يؤسفني أن أقول إن معلوماتك كاذبة !
ولم يضب الأب لأن الحوادث علمته أن يعامل

في مثل ذلك اليوم بحق الفرح . كيف لا وكان
يوم عودة النجل المحروس من أوروبا بعد غياب
أربع سنين ذهبت في طلب العلم ؟ ... واحتفلت
أسرة الحلبي بالمواد الحبيد احتفالاً جمع أشقاتها البعثة
في أحياء القاهرة ، فسام فيه الأعمام والمهات
والأخوال والخالات ، وتبودلت فيه التهاني ودارت
أحاديث الأشواق والني ... ولكن — علم الله —
لم يكن حمدي الحلبي مسروراً ألبتة ، بل لا نفلاً إذا
قلنا إنه كان غاضباً محققاً مضيقاً ، لا يرغب في أن يرى
وجهاً من الوجوه التي تحييه بالابتسام والكلام ،
ويؤذيه غاية الإيذاء أن يضطر إلى مجاملتهم بالحديث
تارة وبالضحك تارة أخرى . ولعل التعبة الوحيدة
التي صدرت عن فؤاده كانت تلك التي حيا بها أمه ،
أما أبوه فكان يتمتع بأكبر قسط من سخطه أو كان
على الأصح العملة الحقيقية لحنقه وتبرمه ، ولذلك كان
يرمقه بنظرات تنطوي على الحقد لم يخف مرماها
على الرجل الرزين وإن خفيت عن أعين الحاضرين
ولذلك لم يدم بينهما الوداد — وهو ما يوجب
اللقاء بعد البعاد — طويلاً ، وانتهز حمدي فرصة

ابنه معاملة الأطفال أو المجانين وقع بأن هز كتفيه استهانة وقال :

— انتهى الأمر وفشلت التجربة
فصاح الشاب به غاضباً محتاجاً :

— لا تقل فشلت ... إنك تهديم مستقبل يديك .
فلم يعبأ الرجل بغضبه وقال بصوت أسيف :
أنت يا حمدي مثال للطيش والنزق ، والحق أنني
في أحيان كثيرة أخالك مجنوناً أو معتوهاً ... أتذكر
حياة تلمذتك الأولى المتعبة ؟ ... كنت آتئذ طفلاً
حدثاً ، ولكن ما كنت ترى ليلاً إلا في الحانات ،
والمواخير ، وكنت بين أصحابك جواداً كريماً تجود
عليهم بما تملك يدك ، أما أهلك الأقربون فكنت لهم
سوط عذاب فلم يسلم من أذاك منهم أحد لا إخوانك
ولا أمك ولا أبوك ، ومهما يكن فقد نجحت
في البكالوريا بمدى المحاولات وكانت معجزة
لا أدري كيف حدثت ، ولكنك منيت بفشل قاهر
بمد ذلك في كلية الحقوق حتى تخرج منهما أقرانك
وأنت ما تزال في السنة الأولى ، واكتشفت على حين
فجأة أن مستقبلك في فرنسا لا في مصر . وألححت
على في السفر لنيل أجازة الحقوق ، ويعلم الله أنني
ما وفتت بعودك قط ولكنني إزاء محاولتك الانتحار
وتضرع والدتك وافقت مغلوباً على أمرى على السفر
وقلت لنفسى : فلأجرب هذه المرة أيضاً لعل حسن
الخط ينجيب تقديري ولكن وأسفاه صدق تقديري
وخاب حظي ...

فزاع بصر الشاب وقال محتجاً :

— أنت نسيء بي الفطن هذه المرة بفروجه حق .
— كلا ياسيدي ، أنا أعلم كل شيء على حقيقته
وسأبين ذلك بالدليل القاطع إنك سافرت
للتحق بكلية الحقوق والتحق بها فعلاً في بادئ
الأمر ثم تحولت فجأة إلى كلية الآداب فلماذا
فعلت هذا ؟ ... أرجو ألا تسارع إلى تكذبي
فالذي أخبرنا بذلك صديق أخيك همام الهكتور
فهيم وهو كما تعلم كان زميلك في كلية الحقوق
وقد عاد هذا العام بمد أن نال الهكتوراه ... ! فقل
لماذا فعلت هذا ؟

وغلب الشاب على أمره ، وبدت على وجهه
الحيرة ، ودل مظهره حيناً على أنه يغالب الضحك ،
وقال : « رب إنسان لا يعرف حقيقة ميوله إلا بمد
للتجربة ، وهذا ما حدث لي بالضبط ، فقد نظمت
قصيدة أول عهدي بباريس في وصف السنين نالت
إعجاب أصدقائي جميعاً ، فحملني إعجابهم على التحول
إلى كلية الآداب ... فما الذي يغضبك في هذا ؟ »
فهز الرجل رأسه هائلاً وقال :

— أنت لا يمكن أن تعرف لنفسك ميلاً ، لأنك
متعدد الميول ، متقلب الأهواء ، هذه هي الحقيقة
التي تعلمتها من حياتك الغريبة . ألا تذكر — وأنت
طالب ثانوي — أنك كنت صادق النية على الالتحاق
بالقسم العلمي ؟ ... وكانت أعز آمالك أن تصبح
طبيباً فيما بعد .. ولكن حدث أن شملت محامياً بلقي
خطاباً في مجتمع عام فتغيرت آمالك دفعة واحدة
والتحقت بالقسم الأدبي وأيت إلا أن تصبح محامياً ...

ومع ذلك فهذا لا يعنيني كثيراً بقدر ما يعنيني أن تنجح في أي فرع من فروع الحياة ... فلم لم تتأثر على دراسة الآداب ما دمت اكتشفت في باطنك شاعرية مجيدة ... ؟

فقال الشاب بحماس مصطنع :

— إني أثار يا أبي ... ولولا أنك قطعت على طريق ...

ولكنه قاطعه قائلاً :

— كلا ... كلا ... لقد ثبت لدى أنك انقطعت انقطاعاً كلياً عن الجامعة منذ عام أو أكثر ... فقال بحدة :

— هذا كذب ...

— بل هذا ما قاله لي جميع من أوصيتهم بالاستعلام عنك من زائري معرض باريس ، وهو ما يؤكد الدكتور فهم وإن شئت واجهتك به ... لقد فشلت التجربة الأخيرة ...

وكانت المسألة بالنسبة إلى الأب لا تمنى سوى فشل تجربة نهائية ، أما بالنسبة إلى حمدي فكانت مسألة حياة أو موت ، أو هكذا صورها له خياله المجنون . ولم يكن الذي يزرع بنفسه إلى باريس أنه ودع بها آمالاً مخوفة بالمخاطر ، أو مستقبلاً يرجو أن يتممه بالجد والثابرة . ولكن الحق أنه ترك بها قلبه الفتون ، وجهه المضطرب ، وجنته المفقودة ، ودنيا أحلامه ، ومرتع جنونه ؛ حتى لكأنه ترك بها عالماً طليقاً لا يخضع لقانون طبيعي أو تقليد إنساني ...

وحمدى هذا إنسان غريب ، وربما أدى تعريفه خير أداء أن نقول إنه جهاز عصبي حساس تتحرك فيه غرائز وعواطف طليقة من أي عقل أو إرادة . أو أن نقول — إذا أردنا أن نرضى علماء النفس — إن عاطفته تسخر عقله وإرادته ، ولكأنه عربة ينطلق بها جواد جامع ومقعد السائق منها خال ، فهو دائماً منفعل ومتأثر إما لحزن أو لفرح كيفما تهب الرياح ، ولن تظهر في حياته بنظام مما يوصى به العقل ، أو بعمل أو إنتاج مما تحدته الإرادة ؛ وإنما تزدهم العواطف والأحاسيس في وجدانه كما تزدهم الأخيلة الشاردة في رأس الحالم دون أن تترك أدنى أثر ، ومن هنا جاء تناقضه وتقلبه اللذان جعلاه منه مخلوقاً مضحكاً يستدر الرثاء في كل حين ، فكان يتوهج انتباهه أحياناً عن ذكاء وقاد تخاله نبوغاً وموهبة ، ثم لا يلبث أن ينطفئ شماعة ويظلم نوره فتظنه عتياً وبلاهة ، وكان يندفع في أوقات كثيرة إلى العمل بهمة تبشر بالنجاح وسرعان ما ينقلب قبيل موعد الامتحان مزعزع الثقة مفرق المزيمه فيغر من صرامة الواقع إلى لذة الأحلام في الحانات ومواطن الريب ، وربما بلغت به الحساسية حد الثورة والنرد ، فيقود المظاهرات ، ويرى رجال البوليس بالحجارة ، ويحطم المصابيح وعربات الترام فيعد بحق من زعماء الطلبة ، ولكن إذا حدثته عن ثورته بمد يوم أو يومين هزي بك وب نفسه وبعبادى الوطنية والأخلاق جميعاً ؛ ومن هنا أيضاً تمددت مشروعاته وتنوعت مقترحاته وتوزعت الأحلام ، فتارة

يعد المدة لإنشاء ناد رياضي كبير ، وقارة يعمل فكره لإخراج مجلة أسبوعية ، وثالثة يدعو إلى تكوين جمعية تهذيب الأخلاق أو تشجيع التجارة الوطنية ، وربما خطا الخطوات الأولى لتأليف كتاب أو كتابة مقالة ، ولكنه لا يشار على شيء ولا يثبت على حال

على أنه كان شخصاً محبوباً ، يتمناه عارفوه ويمشقون محضه لخفة روحه وحضور نكته وغرابة أطواره ولكنه كان مع أصدقائه كما هو في حياته مثال التغلب والجنون ، فقد يلزمهم أياماً وأسابيع ثم يهجرهم هجراً طويلاً بلا أسف كأنه يعدم بعض قناته أو أهوائه أو مشروعاته ، ولكن ندر أن يجد عليه صديق لأنه في رأيهم جميعاً الطفل الطائش الذي لا تريب عليه مهما قال أو فعل ، ولأنه الإنسان الطيب الذي لا يعلق بقلبه مكر أو خبت أو سوء نية ، ومع هذه الطيبة البالغة والظرف النادر فقد حاول الانتحار مرة وضرب أباه بالكرسي في مرة أخرى وبهذه النفس الغريبة سافر إلى باريس طلباً للعلم الذي يثس منه في القاهرة ، وكان جاداً فيما اعتزم لأنه كان يود لو يختم حياته الدراسية ختاماً مشرفاً ، والتحق بكلية الحقوق بديجون وهو يتوقد حماسة ونشاطاً ، وزار باريس يوماً وشاهد السين فهاجت قريحته ونظم أبياتاً شعرية في وصفه كانت أول ما نظم في حياته من شعر ، وما كانت صادقة الوزن ولا ذات جمال أو رواء ولكن أثني عليها — لاملة — جميع من سمعها من أقرانه ، وأطربه الثناء

أيما طرب وسأل نفسه في حيرة ألا يجوز أن يكون شاعراً بالفطرة ؟ ثم أجاب نفسه قائلاً : بلى إنه لشاعر وإن مستقبله الحق في الأدب والفن لا في القانون. وتحول بلا أدنى تردد إلى كلية الآداب بالسربون وانتقل من ديجون إلى باريس ، وأقبل على دراسته الجديدة بمثل ما أقبل على دراسته الأولى من الحماسة والعزم واستمع إلى المحاضرات بشغف عجيب ، وما زال مثابراً مجتهداً حتى اليوم السعيد الذي التقى فيه بمرجريت ، للفتاة الريفية الحسنة ، التي جاءت باريس لزيارة أختها . فكان حب ، لأن عاداته المستبدة أن يحب كل امرأة يلقاها في طريقه ولكنه كان على أية حال أول غرام له في باريس فكان له في قلبه لحن جميل جديد ، واستبقى الفتاة في باريس ، وعاشرها على شريعة الهوى وسنة الطبيعة ونسى بها الدنيا والدين والشمو والآمال وأخذت حياة باريس تنعكس على روحه — خلل عيني مرجريت الساجيتين — جنوناً وفتونا وهياماً وإباحية. ولما كانت الفتاة فقيرة بائسة فقد آمن بالشيوعية ولم يحاول قط فهمها أودراستها ولكنها استقرت في قلبه ثورة على الأغنياء — ناسياً أو متناسياً أنه واحد منهم — وكفرا بالله وبرسلكه وازدراء للأخلاق والفضائل . واستسلم للغرام بين أحضان حبيبته وعاش حالماً كافراً مجنوناً حتى بفته أبوه برسالة حازمة خيره فيها بين العودة حالا إلى مصر أو الموت جوعاً في باريس ، وجن جنونه ونار وغضب ولعن وهدد وتوعد ، ولكن شيئاً من هذا لم يجده نفعا . واضطر في النهاية إلى

يعد المدة لإنشاء ناد رياضي كبير ، وقارة يعمل فكره لإخراج مجلة أسبوعية ، وثالثة يدعو إلى تكوين جمعية تهذيب الأخلاق أو تشجيع التجارة الوطنية ، وربما خطا الخطوات الأولى لتأليف كتاب أو كتابة مقالة ، ولكنه لا يشار على شيء ولا يثبت على حال

على أنه كان شخصاً محبوباً ، يتمناه عارفوه ويمشقون محضه لخفة روحه وحضور نكته وغرابة أطواره ولكنه كان مع أصدقائه كما هو في حياته مثال التغلب والجنون ، فقد يلزمهم أياماً وأسابيع ثم يهجرهم هجراً طويلاً بلا أسف كأنه يعدم بعض قناته أو أهوائه أو مشروعاته ، ولكن ندر أن يجد عليه صديق لأنه في رأيهم جميعاً الطفل الطائش الذي لا تريب عليه مهما قال أو فعل ، ولأنه الإنسان الطيب الذي لا يعلق بقلبه مكر أو خبت أو سوء نية ، ومع هذه الطيبة البالغة والظرف النادر فقد حاول الانتحار مرة وضرب أباه بالكرسي في مرة أخرى وبهذه النفس الغريبة سافر إلى باريس طلباً للعلم الذي يثس منه في القاهرة ، وكان جاداً فيما اعتزم لأنه كان يود لو يختم حياته الدراسية ختاماً مشرفاً ، والتحق بكلية الحقوق بديجون وهو يتوقد حماسة ونشاطاً ، وزار باريس يوماً وشاهد السين فهاجت قريحته ونظم أبياتاً شعرية في وصفه كانت أول ما نظم في حياته من شعر ، وما كانت صادقة الوزن ولا ذات جمال أو رواء ولكن أثني عليها — لاملة — جميع من سمعها من أقرانه ، وأطربه الثناء

ولكن الرجل كان ثابتاً كالجبل ، قاسياً كالصخرة ،
وقال له بحزم :

— لا تمد إلى هذا الحديث مرة أخرى !
وانفجر حمدي غاضباً وتلبسته حالة جنون غير
غريبة عنه وصاح بأبيه :

— لماذا تعرض سبيل نجاحي بقسوتك ؟ ...
لماذا تريد أن تستذلني لارادتك العمياء ؟ .. أنا أعلم
بالسبب الذي يجعلك تستهين بآمالي ومستقبلي ...
هو حرصك المقيت على مالك الذي لا يمد ولا يحمي ..
أنت رجل شحيح بخيل يقتل فيك حب المال الأبوة ..
ووجع الوالد وأخذ ، وانتفض قلبه غضباً ولكن
لم يبد على وجهه أثر مما يتقد في نفسه ، وقنع بأن
قال بهدوء ساخراً :

— يا لها من فراسة !
— أتسخر مني ؟ ... بلذ لك أن تهزأ بي في
بأسائي ... حسن ، سأعرف كيف أنتقم منك ...
سأنتحر ... نعم سأنتحر وسترى ...
فقال الرجل بهدوء غريب :

— افعل ما بدا لك
فنظر إليه بسين عنق مغيظ وقال :
— أيهون عليك موتي من أجل بضعة جنيهات ؟
فقال الرجل :
— نعم ...

هل يعني الرجل ما يقول ؟ ... هل أشقى منه
على اليأس حقاً ؟ .. أما هو فلم يهدد بالانتحار هذه
المرة وهو يعني ما يقول لأن للحياة عنده قيمة جديدة
لم تكن لها من قبل ... كيف لا وفيها مرجريت

هجر عشه السعيد وهو يعني نفسه وجيئته بمود
قريب ... ووجد نفسه أخيراً في القاهرة وفي البيت
القديم الذي رأى فيه الدنيا أول ما رأى . وعاد إلى
جو التقاليد والدين والهدوء واستقر في الملكة
الصغيرة التي يتولاها أبوه ويحكم ... وأحس بضيق
وسقم .. كيف يرضى بالقاهرة بعد باريس .. كيف
يطمئن إلى الظلام بعد النور ؟ ... كيف يخلو إلى
برودة الوحشة بعد حرارة الحب ؟ .. كيف يروض
نفسه على الظلم والدين والتقاليد بعد أن ذاق جنون
الحرية والاحاد والاباحية ... ؟

وما هو ذا والده يعرف الحقيقة من أفواه الميون
التي بثها حوله في باريس ويصر على أن التجربة
فشلت ، ويقسم ألا عودة إلى فرنسا بعد اليوم ...
فما العمل ؟ ... هل يتناسى مرجريت ؟ ... هذا
مستحيل ، بل هذا جور لن يسكت عليه أبداً
ولاح له أن يدعوها إلى مصر ، وفلا كتب
إليها يقترح عليها الحضور ، ووافقت الفتاة ولكن
برز لها عائق من ناحية السلطات التي أبت
عليها دخول مصر ولجأ في يأسه إلى آخر وسيلة
فأراد أن يعقد عليها ولكن ذلك لم ينفعه شيئاً
ونصح له رئيس (قلم الباسا بورتات) بالمندول عن نيته
وسوأها له ...

وسقط في شرك القنوط وتلفت يمنة ويسرة فلم
يجد سوى والده ، لماذا لا يعيد عليه الكرة ؟ عسى أن
يلين له بعد شدة ويرضخ بعد عناء ، وقأحه في مسأله
مرة أخرى وتضرع إليه وتوسل ووعدته ومناه ،

الحبيبة ؟ ... ولكن ما بال أبيه يقف حجر عثرة في سبيل سعادته ؟ ... ياله من رجل كرهه ! ... أيجوز أن يحيا شيخ كبير ليثقي بحياته شاب يافع مثله ؟ ... ولم لا يذهب ويخلى السبيل لغيره ؟ ... إنه أب يكره ابنه فينبني أن يكرهه ابنه كذلك ... هذا هو العدل ...

ولم ينتحر ولم يشرع في الانتحار ، وقنع بالتسكع في عماد الدين وبمراسلة مرجريت ، وبانتظار ما يأتي به القدر غير مستسلم كل الاستسلام إلى اليأس . وفي مرة - وكان انقضى على عوده شهر وأيام - قابل أخاه همام في عماد الدين وعلم منه أنه ذاهب لصرف سك لوالده بمبلغ خمسمائة جنيه ...

وابتسم حمدي ساخراً وتهد من قلب مكلوم ... لو عهد إليه الرجل بصرف هذا المبلغ لكشف عنه الكرب في دقائق معدودات ، ولكنه لا يثق به ولن يثق به أبداً ... خمسمائة جنيه ! ... ياله من مبلغ ... ترى لماذا سحبه الرجل البخيل ؟ ... إن عادته أن يضع في الصرف لا أن يسحب منه ، فلماذا غير عادته على كبر ... ؟ هل خرف ... ؟

وعند المساء عاد إلى البيت ، وكان أبوه في حجرة مكتبه بالطابق الأول ، غارقاً في بذلته ومطفئه ، ومكباً على الأوراق المبسوطة أمامه ، فألقى عليه نظرة سريعة وصعد إلى حجرته ... وخلع طربوشه وجلس على حافة فراشه يستريح

لا ريب أن والده تسلم الخمسمائة الجنيه ، وأنها الآن تسكن مكاناً في حافظته أو في درج مكتبه ...

ذلك الورق الساحر الذي يسيطر على المصائر ويتحكم في الأقدار ، وتعلق به آمال الانسانية ، ما أحراه أن يطير به إلى القلب الذي يخفق له على سيف البحر الأقصى ويلج به أبواب جنته المفقودة ومنية أحلامه : باريس ... يا محباً ... أيجمعه ومفتاح سعادته بيت واحد ... ؟ أنكون سعادة قريبة منه إلى هذا الحد ولا يستطيع لها طلباً ؟ ... ولكن كيف السبيل إليها ؟ ...

وكانت خواطره من قبيل الهذيان ولكنه ألقى سؤاله الأخير بشمور من يعنى ما يقول ، ومن يجد في الأمر جدداً : نعم كيف السبيل إلى الأوراق الساحرة ... ؟

هل يعاود الرجا والتوسل ؟ ... أم يستعين بوالدته ؟ ... وبدلاً له اليأس خلف هذين الرأيين فعدل عنهما وهو يتهد حسرة وألماً ...

لماذا لا يستولى على المال بنفسه ؟ ... ينتظر في حجرته حتى يصعد أبوه إلى غدعه ، ويهبط في حذر إلى حجرة المكتب ويمالج بابها ويفتش أدراجها ، ولكن ما العمل إذا وضع الرجل ماله في حافظته ؟ تمنع ولا شك المسألة وتتوافر الصعوبات ولكن لا يستحيل ابتغاء الوسيلة إلى غايته ، إن والده يملق ثيابه على مشجب قريب من الباب ، فإذا فتح الباب في سكون استطاع أن يبلغ بيده جيوب البذلة والمطف وأن يبحث فيها عن ضالته ...

وتحفر لتنفيذ أفكاره فوضع الطربوش على رأسه وأطفا المصباح ، ولبث ينتظر في الظلام سمود أبيه

عن سعادته ... سيقول له : أنا أريد مالاً ولا بد من الحصول على المال فأياك أن تعرض سبيلي ! وإذا تغلب في الرجل حب المال على حب الحياة فسيكون قاسياً مجرمًا ، لقد ضربه مرة بالكرسي في حالة غضب ولن يحجم عن ضربه مرة أخرى ولو احتاج الأمر إلى صرعه ... وطال الصمت والسكون ، وجثم سلطان النوم على البيت ، فأدار الأكرة وفتح الباب بهدوء وانسل خارجاً يسير على أطراف أصابعه ويبلغ في الحذر وهو يجتاز بحجرة والده ، وهبط السلم في تهيّب ، فلما أن انتهى إلى الطابق الأول تنفس الصعداء وسار باطمئنان لأن هذا الطابق يخلو في الليل ، ولما اقترب من باب حجرة المكتب رأى لدهشته النور يشع من أعلى بابها ، فاستولى عليه الانزعاج وهم بالعودة ... والظاهر أنه أحدث حركة لأنه سمع صوتاً يمرقه حق المعرفة يسأل من داخل الحجرة قائلاً بقوة :

— من في الخارج ؟

فتوقف عن الحركة وخائنه حيلته فرد بسرعة : « أنا حمدي ... » فقال الرجل « تعال .. أدخل .. » وعرض شفته من القهر وتقدم إلى الباب يائساً وفتحته ودخل ، ورأى والده جالساً خلف مكتبه متدثراً بمبائه المصنوعة من وبر الجمل ونخفياً رأسه إلى أذنيه في (الطابقية) فلم أن والده قد بسعد إلى غدعه ليفير ثيابه وأنه عاد ثانية ليستأنف عمله إلى هذه الساعة المتأخرة ... كم ذا يتمب المال ذويه ! .. ونظر إليه الرجل بعينه الدابلتين وسأله وهو يتشاءب :

وشاح في أطرافه الاضطراب والقلق وأنهك رأسه هوس الجزع ، ولكن لم يداخله أدنى تردد لأنه من طبعه إذا اندفع أن يندفع بلا ترو ولا تدبر ، ومضى يبرر نيته لنفسه فيقول ما من بأس في أن يستولى على بعض مال أبيه ما دام له حق ثابت في هذا المال ، وما له لا يلجأ إلى الحيلة أو القوة إذا كان أبوه يعترض سبيل سعادته بالقسوة والمدوان !؟ وطال انتظاره في الظلام ، وجعل يقترب كل دقيقة من الباب ويلصق أذنيه بثقبه يسمع وينصت ، ثم يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً ...

ثم سمع وقع أقدام آتية من نهاية الردهة الخارجية فأرهمف أذنيه وكنم أنفاسه ، هي أقدام والده بلا ريب ، وما هو ذا باب نخدعه بفتح ثم يعلق ، ما بقي إلا الانتظار جيناً ريثما ينام الرجل ، وكانت ضربات قلبه تشتد وتضطرب ، كلما تقدم به الوقت ودنا من تحقيق عزيمته الآتية

وسمع الباب يفتح مرة ثانية ويطلق ، ووصل إلى أذنيه المرهقين وقع أقدام خفيفة لم يستطع تبين وجهتها ، فقطب جبينه متحيراً ... ترى هل غادر أبوه الحجرة لحاجة ؟ أم هي أقدام غيره ؟ ... ينبغي أن ينتظر وقتاً آخر وإن كان الانتظار قاسياً مرعباً ... ولكنه لن يتردد عن غايته ، سيهبط إلى المكتبة ويفتشها وإذا لم يفز منها بطائل فسيقتحم نخدع أبيه ... ولكن ما عسى أن يفعل إذا تنبه النائم على حركته وهب يدافع عن أعز شيء في حياته ؟ ينبغي أن يكون صارماً هو الآخر في الدفاع

— لملك راجع الآن من السهرة ؟

فقال حمدي باقتضاب :

« نعم ... »

فسأله بלהجة نم على السخرية :

« سكران كالمادة ... ؟ »

فقال :

« كلا ... »

واعتدل الرجل في جلسته وقال بهدوء ورزاة :

« جئت في وقتك يا حمدي ، لأن عندي أخبار

تهمك ، وما يهمك يهمني بطبيعة الحال وإن كان

ظنك غير هذا ، اقرب مني واصغ إلى ... أتظن

يا حمدي أنني أبغضك وأسى إلى هدم مستقبلك ... ؟

أو أنني أوتر مالي حقاً على حياتك ؟ ... بس

الظن ... أنت طائش يا حمدي ولا تدري ما يفعمك

ولما يضرك ، وكنت دائماً مثال الطيش والرعونة ..

فأجبرني شذوذك على اليأس منك ، وها أنت ذاتي

أن أخويك اللذين يصغرانك يسيران في طريقهما

بنجاح فأحدهما مهندس وسيكون الآخر غداً طبيباً ،

وأما أنت ... ماذا أنت ؟ ... لا تدري لنفسك

مستقراً ولا مستقبلاً ، ومع هذا هل تظن أنني نفقت

يدي منك ؟ ... قل أن يستطيع ذلك أب مثلي ...

والآن فاسمع ... قابلني أمس للسنيور دافنس وكيل

شركة الجير لبعض الأعمال فانهزت الفرصة وحدثته

عنك وأكدت له إلمامك اللام بالغة الفرنسية

ورجوت منه أن يلحقك بوظيفة محترمة في الشركة ،

ولم يخيب الرجل رجائي ووعدني بتعيينك في وظيفة

راتب قدره عشرة جنيهات في البدء ولكنه اشترط على

أن أودع تأميناً للشركة بمبلغ خمسمائة جنيه كضمان

فوافقت وسحبت من رصيدي المبلغ المطلوب وهو في

حافظتي الآن ينتظر موافقتك .. فما رأيك يا بطل ؟

رأيه !

كيف يفكر في رأيه الآن ؟ إنه يفكر طويلاً

ويديم التفكير في الظنون السوداء التي ظنّها بالرجل

البائس الجالس إلى جانبه ، ويتذكر صنوف الأذى

التي بيّتها له في الظلام منذ حين قصير .. ثم يذكر

ما كان يفعله الرجل — في أثناء ذلك — من أجله

وغمرته نوبة عاطفية من النوبات التي يتعرض

لها وجدانه كل يوم عشرين مرة ، ووخزه ضميره

وخزاً أليماً ، وغلبه للتأثر فأجهش وبكى كالأطفال

وانتحب انتحاباً شديداً وهو يخفي وجهه يديه عن

غني أبيه أو يخفي صورة والده عن عينيه

وابتسم الوالد في حنان ، وربت يده على كتفه

وقال له :

« بس يا رجل ... بس ... أنت طفل بمد كل

شيء ... لم تكن يا حمدي شريراً قط ... أنا أعلم

ذلك ... بس ... بس ... كفك دمعك واصعد

إلى حجرتك واشبع نوماً لتستعد للكفاح الجديد

في ميدان العمل ... هيا يا رجل ... هيا ... »

ولم يستطع أن يقول شيئاً ، ولكنه أمسك بيد

أبيه ولتمها بشفتيه البلاتين وغادر المكان ... وارتدى

في حجرتة على الكنب في إعياء ، ولم يجد من نفسه

رغبة في النوم ، فجمد في جلسته كالتمثال وتامت

نظرة غيبية في أفق بعيد ثم أخذت عواطفه تسكن

ونأثرته تهاداً ووجدانه يمود إلى حالته الطبيعية ...

حتى صار انفعاله ذكرى ...

لقد فتح له أبوه باب الأمل والعمل ، وحاول

أن يجد له حياته ومستقبله ، وسيكون من النصد

موظفًا في الشركة الإيطالية ... فباله من تغير عجيب
لم يجر له على بال !
وذكر في حزن كيف أضاع على نفسه فرصة
ذهبية في فرنسا ، فلو أنه استمر في دراسة الحقوق
لكان يرجى منه الآن محام مقتدر أو وكيل نيابة
« قد الدنيا » ولأمكن أن يقف مع أخويه على قدم
الساواة ... ومهما يكن من أمره فالواجب أن
يشكر الله كثيراً ...

وسرجريت ! .. نعم وسرجريت !
أيها القاريء ، وددت لو أستطيع أن أختم
القصة عند هذه النهاية لأرضى عواطف الخير
في قلبك ولكن أرجو أن تذكر دائماً أن المؤلف
الحقيق للقصة هي أعصاب حمدي نفسه ...
لقد ارتجف قلبه لذكر سرجريت ، إنه يحبها حباً
لم يحبه امرأة من قبل ... وهي تبادلته حباً بحب
وعطفاً بمطف ، ولولا تشدد الحكومة لكانت الآن
بين يديه ناعمة البال هائثة للفؤاد فوالأسفاه !
كيف يرميها بخبر توظيفه وإقامته بمصر ؟ ...
وما عسى أن تفعل الحامسة البائسة ؟ ..

ويخيل إليه وهو يفكر في أمرها أنه يراها رؤية
العين بقامتها النعيفة وقدها الرشيق وشعرها الذهبي
وعينيها الزرقاوين . وتوهم أنه يسمع صوتها ذا الفنة
المطربة ... وذكر جلستها المزينة حيث كانت تقعد
على (الدبوان) ويستلقي هو على ظهره واضعاً رأسه
على حجرها ويروحان في مناغاة رقيقة ويدها تمسك
بشعره ... كم هي لطيفة جذابة ... فكيف يزهد
في هذه السعادة !؟

وتهد من الأعماق حزينا واستسلم لخوابه
الفائضة ... وكان كلما أوغل في التفكير كبرت عليه
حرقة الفراق وهاله البعاد ...

وتحول بصره دون أن يدري ناحية حجرة
أبيه ... وتساءل : « ... ما المانع ... ؟ »
واندفع وجدانه في هذا المجرى الجديد بمنف
كأنه نهر فائض فتح الخزان لتياره الفاص ... فماد
قلبه يندق بمنف ... وارتجفت أوصاله ... وتحفز
مرة أخرى ...

الساعة تدور في الواحدة بمد منتصف الليل ...
وأبوه ملازم لمكتبه كما غادره ... فما المانع ... ؟
الروءة ... والضمير ... والبر ... لا تساوى
شيئاً إلى جانب السعادة المنتظرة ...

وانتفض واقفاً وأطفاً الصباح ، وفتح الباب ،
وانسل خارجاً ، وسار إلى مخدع والده وفتح الباب
بحذر بالغ ودخل ، وفتشت يده بسرعة في جيوب
البذلة حتى عثرت على الحافظة المتفخخة ، وسلب
الأوراق الساحرة ثم ردها إلى موضعها وخرج
وأغلق الباب ، وقطع الردهة في خفة ، وانتظر لحظة
ينصت السمع عند مبتدأ السلم ، ثم خلع حذاءه
ونزل واجتاز الردهة ماراً بحجرة المكتب وهو يكم
أنفاسه ويكاد يتفرق أشعثاً من الخوف ، ثم وجد
نفسه أخيراً في الطريق الخالي ، فوضم قدميه في
الحذاء على عجل ، وتنفس تنفساً عميقاً يملأ صدره
المضطرم بالهواء الرطب البارد ...

وسار في طريقه بخطى مضطربة لا يلوى على
شيء
عجيب محفوظ

انتظروا عدد الرسالة الممتاز

في صباح ١٣ مارس

بخطاب شكر وثناء وأشادت
بوطنيته وعرضت عليه وساماً
فاعتذر في رقة وظرف وهو مخاطب
شخصاً من أكبر ذوي النفوذ
في البلاد

وإن الذي يعرف طبيعة هولز
وفرط حيائه وركونه إلى الخجل
والانزواء لا يدهش من نزوله عن

حقه في الشهرة وبعد الصيت وكان يقول لي دائماً :
« إياك والوقوف بملتقى الأشعة التي تظهرك للناس ،
فإنهم لا يلبثون أن يكشفوك ويعروك فتبدو كما بدا
آدم في فردوس النعيم ... »

إنه لرجل عجيب حقاً . كانت المؤامرة من محض
ابتكار عدونا الألد وعدو الوطن بروفيسور موريادتي
هل كان إنجليزياً ؟ هل كان إيرانياً ؟ هل كان روسياً
ثأراً أم محض فوضوى منتمياً بمذاهبه البغيضة عندما
إلى ذلك الثائر المتفاني باكونين ، أو صديقه
كوربوتكين ؟ لقد كانت مذاهب هذين الرجلين
لا تزال شائعة في إنجلترا والناس عليها جد مقبلين
لمجرد جدتها وطرافتها ولا سيما للفقراء منهم والمحايج
والموزين . لقد كانت حياتهم لا تطاق ولا سيما في
الشتاء . غير أن الذين كانوا يفكرون في غزو إنجلترا
كانوا أقوياء وأغنياء وكانوا على أتم نظام وأحكامه
وأدقه ، حتى بدأوا بتسجيل قوائم بأسماء الذين
يميلون إليهم ويتحفزون لتمريضهم ثم بدأوا يرسمون
خطة نادرة المثال ثم وقع اختيارهم على موريادتي .
فكان هولز يقول لي وهو يحتقن بآيرة المورفين .
وهو منكر لم أكن أملك أن أدفعه بيدي فاكثفت
بالإشارة دون التصريح :

كايتن شكانون

والعصابة ذات الرؤوس الحمراء

للكاتب الانجليزي سير آرثر كونان دويل
بترجم الأستاذ محمد لطفي جمعة

كتب دكتور وطسن مسجل حوادث شرلوك
هولمز وأخباره قال :

كان شرلوك هولمز متعباً منهوك القوى بعد
أن عدنا من سياحتنا في جنوب فرنسا . إن البعض
يطلقون على هذا القسم من فرنسا اسم شاطئ الذهب
أو ريفيرا تدليلاً وبجميلاً ولكني لا أحب التبرج
في أسماء البلاد . فإن البلاد المتبرج يمود كالمرأة المدللة
كأحدى تلك الراقصات الأندلسيات اللواتي بدققن
بأيديهن فوارغ الحمار ليحدثن سخياً بصم الأذن .
وكان مستر هولمز يسميه أبداً جنوب فرنسا ويعلمه
في قلبه وبلسانه . أي نعم ، لأن هذا القسم من العالم
لم يحو سوى المغاني والملاهي والفاسد كملاعب القمار
ومعاهد اليسر ، ومجالي الترف ومظاهر الاستمتاع
قلت : عاد مستر هولمز متعباً منهوك القوى .

وكذلك مسز وطسن (زوجتي) فقد كاد يحف
لبنها فيحرم طفلي العزيز رضاع لبن أمه وهو
خير ما يعطى الأطفال في عامهم الأول ، ولكن
هولمز قد استعاد نشاطه بسرعة فائقة كمادته . وكان
النصر الذي أحرزه على أعداء الوطن بالاستيلاء على
خرائط القدر ووثائق الحياة قد أنمشه وجدد همته
وقواها . وقد بعثت إليه وزارة الشؤون الخارجية

مستقر هذا المجرم الخطير .

ولكن نفسي حدثتني بأن الشخص الذي لقيه
اشندن لا بد أن يكون متنكراً وأن الصورة بلا أدنى
ريب مفتعلة ومصطنعة . وإلا فكيف يحدث أنهم ابعد
طبعها ونشرها بالملايين لا يهتدى إلى صاحبها رجل
واحد من الخاصة أو العامة أو رجال البوليس ...
بيد أنني في أحد الأيام كنت على ظهر مركبة
تجرها الجياد فصعد إلى الطابق الأعلى الذي كنت
أحتل أحد مقاعده رجل قصير عريض الأكتاف
ممتنع الوجه كبير الدماغ كأن رأسه لضخامته
واستدارته القبة الشام على قبر ضئيل . فرشني
بنظرة حادة كادت تخترقني ، ولكنني صمدت لنظرته
ولم أشعره باهتمامي بمقدمه ، فاطمأن إلى اطمئنان
الدواب والتمالب وجلس بجانبه لأنه لم يكن له مقعد
خال غير الذي يجوارى . فأحسست بتيار قوي كالذي
ينبعث من أهل الشر والمجرمين وهو يحدث شعور
بفضاء ونفور لا يعرف مداها إلا الذي أحسها ،
وكانت السحنة المجاورة لي تشبه الصورة شبحاً شديداً
في عرض الجبين وحدة العينين وضخامة الرأس ،
ولكن الرجل كان ملتجئاً والصورة تمثله حليقاً وهل
من الصعب اصطناع اللحي والشوارب في وقت
أصبحت الشهور المستمارة أبسط ما ينال ويستعمل
للتخفي وانتحال الشخصيات . إنما شيء باطن
وصوت قوى وجداني كان يناديني بأنه هو الرجل
الذي تبحث عنه الشرطة وتفتي أثره سكوتلانديارد
بل بريطانيا بأسرها ، ولقد طالما ندمت على أنني
لم أقبض عليه

إن العقل الوحيد الذي لم أستطع أن أهزمه
أو أقلب عليه هو عقل ذلك الرجل القدير . لو كان
ينفق بعض قوته في الخير ، إذن لأفاد العالم . ولكنه
جد خبيث ، مخلوق للشر يتلقاه ويلوكه ويمجنه
ويتغذى عليه ويميش به . فقلت له : لقد ألمت يوماً
إلى لقاء تم بينكما فكيف كان ذلك . فقال : إنها قصة
قديمة . كان موريارتي في أول مدارج حياته الاجرامية
وكنت أنا كذلك لا أزال طالباً بالطب فقرأت يوماً
في الصحف أنباء إلقاء القنابل على المباني . والاعتداء
المنكر على قصر العدل في دبلن واغتيال لورد كونجريف
في بستان العنقاء (فينيكس بارك) فهالني الأمر
ولكنه لم يسترع انتباهي كثيراً لأنني كنت أرى
أنهم على حق في طلب حريتهم ... ولكنني ما أقررت
قط الطرق غير المشروعة ولا الوسائل المباشرة . وقد
أبغضت الروس الذين لم يجدوا عملاً أجدي عليهم
من تقتيل ملوكهم وأسمائهم واغتيال الأعيان والنبلاء
بدلاً من تنقيف رجالهم ... لا عليك يا وطني من
نظرياً ، فأنني لأحب أن أكرر عليك . شاهد الحديث
أنني لمحت يوماً في الصحف اسم كابتن شانون فقرأت
وصفه ورأيت فعلاً صورته . ولا أدري كيف حصل
عليها رجال الشرطة في سكوتلانديارد ... لقد كان
في خدمتهم رجل شديد الكفاية نافذ الإرادة اسمه
اشندن . كان عماد قسم المخابرات السرية في الشدائد
والخاطر . وكان دائم السفر في الخارج لأنه قابض
على خيوط الأسرار الثمينة . فلمله هو الذي نجح في
الحصول على صورته وإن كان فشل في اقتفاء آثاره
لتعدد أسفاره وندرة ما يقيم في لندن ، وهي على الأغلب

قلت لهولز : ولو كان مسلحاً ؟

قال : ولو كان مسلحاً ، فأنى أنا أيضاً مسلح
بمئذ من الوزن الثقيل وكنت كذلك دائماً
لأننى أشعر بأحراس يزيدون على العشرة كلما
أحسست مسدسي يميني ، لا عليك

غير أننى خشيت أن أكون مخطئاً . فأصبح
سخرية للعالم ، ويفر الطير المقصود من قفصه في
الوقت المناسب لفراره ، وبينما كانت هذه الأفكار
تجول في خاطري ورأسي ينجلي كالرجل والمواطف
والانفعالات تتنازعني وتشدني يميناً وشمالاً ابتدرني
الوغد بصوت أجش وهو أيضاً مصطنع وقال :

— هل أنت أيها الشاب خال من العمل . إن
كنت كذلك ، فإن لدى عملايليق بك ، وظيفة مربحة
كتابة على الآلة من الرابعة إلى السابعة وتشرب
الشاي وتأكل الكعك وتقض ستين شلناً في نهاية
الأسبوع ، ولكن عفواً ، لملك تعمل فيذهب
سؤالاً هدرأ

فتصنعت البساطة ما أمكنني وقلت :

— محسوبك يا سيدي طالب طب

فابتسم عن أسنان صفراء كالعاج وأنياب محددة
كأنياب الضواري وفم ضخم يسع حدود فرس وقال :

— إلى السعد ! إلى السعد ! طالب طب ماشاء الله

كان . شاب عالم ينتظر مستقبل عظيم . ولكن
يمكنك أن تربح هذه الشلنات الستين في سهولة
إذا لم يمترض وقت دراستك فرصة تدريبك فيها
فكر ، وإليك عنواني واسمي . وأخرج من جيبه محفظة
بها بطاقات ، وناولني واحدة باسمه

مستر هامبشير در فالواليس

تاجر متنقل ووسيط أعمال

هادلورث جاردنز ٨٣ بلا كبوري ستريت

ثم ألقى على نظرة منكرة تنطوي على التهديد
والبنضاء والأمل في القبض على عنقي الخفي

وقد شعرت بحماسة شديدة لاقتفاء أثره وتمقب
خطواته بدلاً من أن أوافيه إلى بيته الذي قد ينصب
لي فيه فخاً . ولم يكن لدى سوى وسيلة واحدة وهي
أن أسبق هذا الوغد إلى العنوان الذي حددته في
هادلورث جاردنز ٨٣ بلا كبوري ستريت . ولم أكن
بعد قد تمكنت من امتلاك وسائل التخفي والتزيي .
غير أن الظروف كانت مواتية فقد وجدت نفسي
في اكسفورد ستريت . أتذكره يا وطني ؟

قلت لمستر هولز : كيف لا أعرفه ؟

قال : لو لم يكن يشفع في تذكرنا إياه إلا وصفه
في كتاب دي كوينسي الخالد لكفانا مذكراً
قلت : ونذراً .

فتجهم وجه هولز ودمدم وتمم وا كفهر
جبينه وانبتقت من عينيه أشمة قوية كالشرر الذي
يقذف من عيني الفهود والنمرات التي تدافع عن أشبالها
وقال : ألم أنبهك إلى أن تقديم النصيح في مثل هذه
السن غير جائز . ولعلها عادة تورث الأحفاد عند
غيري ...

وقد أدرك أننى ألح إلى تماطلي المورفين الذي
صار له عادة وكنت أخشى منه على صحته البدنية
والمقلية ..

وبعد أن اعتذرت وفسرت لمستر هولز أن

قصدي ينصب على دي كوينسي مؤلف كتاب
ذكريات « مزدرد الأفيون » الذي طالما فاح وأعول
في صفحات كتابه على ماري تلك الفتاة الحبيبة
التي ظهرت كالسراب في صحراء الحياة ، ثم اختفت
بسرعة الأشباح لدى اختفائها .

« آه ما أقسى قلبك يا ا. كسفورد ستريت هل
قلبك قد من ضحرة ؟ »

وبعد هنية عاد إلى هولز هدوؤه فقال :

— في ا. كسفورد ستريت وجدت نفسي حيال
« سالون حلاقة » لدرنيكوتر وشبرلان وهما من أشهر
محترفي صناعة الماكياج في بريطانيا المظلمى وكان
لهما صيت ذائع منذ أتقنا إخراج رؤوس الثور
الفرنسية في رواية الزهرة القرمزية .. وهنا ضحك
هولز وقال :

صحيح أن هذه الرؤوس جميعها سقطت قبل
أن يسدل الستار على الفصل الأخير من تلك الرواية
ولكن ليس اللب ذنب درنيكوتر وشبرلان .. لقد
كانت هذه الرؤوس حصاد الجبلوتين . فدفت باب
« الصالون » ورجوت عامل الشعور المصطنعة أن
يمطيني شعراً أحمر ولحية شقراء فلبستهما وتقدت
العامل ثمن ما أخذت وأسرعت إلى محطة ميتروبوليتان
الوودية إلى محطة كاركنويل جاردنز ومنها يأخذ
السافر سيمته إلى هادلورث جاردنز .

وكان في نيتي أن أسبق الرجل الذي انتحل
اسم هامبشير درفالواليس إلى المكان الذي عينه
قبل أن يتمكن من نصب فخ .

و كنت بعد أن أخذت هذه الصورة الجديدة

أقدم رجلاً وأؤخر أخرى ...

لم يتم هولز حديثه حتى استأذنت علينا مديرة
المنزل وقالت إن سيداً يريد لقاء مستر هولز . .
وإنه لشخص عجيب حقاً فبينما شعره أشقر كأشعة
للشمس المحرقة إذا عيناه سوداوان كفحم نيو كاسيل
فقال هولز : وهل هو ملتح أم حليق ؟

فصرت مسرعة تبرز صدرها بيدها وقالت :
أذكرني يا مستر هولز ، إن له لحية كشجرة جاي
فاوكس !

ثم خرجت وعادت وقد أشخصت رجلاً أشقر
تقشر الأبدان لدى رؤية حرته ، وترتعد الفرائص
من أثر نظره . فأجلسه مستر هولز حياه وتشاغل
عنه قليلاً . وأنتم حديثه مني قائلاً :

— كنت أقدم رجلاً وأؤخر أخرى خشية
أن يكون مشروعى خيالاً ولا أصل إلى غايي التي
تحررت بلوغها وتمتيت النجاح قريباً لها . على الرغم
من أنني أعتقد هذا للتخفي الذي لم يتقنه أيضاً حضرة
المفتش جيمستون الذي شرفنا بزيارته دون أن يحمل
إلينا بطاقة بتوصية من رئيسه فرانكفيل

فالتفتض ضيفنا ورفع عن رأسه تلك (الطاقية)
الشعرية المصطنعة ، وابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— لقد أحسنت يا مستر هولز . أنا جيمستون
من سكوتلانديارد . وقد جئت لاستشيرك فقد ثبت
لنا أن التآمرين الذين يلقون بالقنابل ويدسون
الآلات الجهنمية^(١) في المباني يؤلفون جمعية من
ذوي الرؤوس الحمر . فاضطرت أن أأخذ هذه

(١) في الأصل Infernal machines

— الحق بيدك يا مستر هولز ولكنني لا أملك
أن أغير هذا الزى الآن لأنني مقيد في الديوان بهذا
الوصف إلى آخر الألبوع ولم يبق بيننا وبين نهايته
سوى يوم ونصف يوم .

ثم نهض ليستأذن في الانصراف فقال له هولز
وهو يودعه : قد يكون حنف الفقى في ساعات
معدودة ...

ولكن جيمستون الذى عاد وجهه كالبرقالة
الاسبانية ورأسه كشال عجوز الجنوب ، لشدة
صفرتهن الضاربة إلى الحمرة ، لم يفهم هذه الإشارة
وسارع إلى الخروج

وبعد برهة قصيرة نهض مستر هولز وأشار على
بمراقبته إلى الطريق فلما بلغنا آخر بيكر ستريت من
ناحية الجنوب انحدرنا إلى النفق الأرضى الذى يؤدى
إلى محطة بيكرلو ستريت ولما بلغنا آخر النفق ركبنا
القطار الذى يصل بنا إلى محطة ترافلجار سكوير .

وكان القطار يصل إلى تلك المحطة في فترة من الزمن
لا تزيد على عشرين دقيقة . فلما وصلنا إلى المحطة
وجدنا زحاما شديداً من رجال الشرطة والمستظلمين
وخليط المسافرين . وسرعان ما وصل هولز إلى وسط
المحطة ثم عاد ممتقع الوجه منفعلاً وأخذ يبدى
ليخرجنى من المحطة فلم أجروا على سؤاله عما رأى .

وسرنا صامتين مسافة ليست بالقصيرة ثم عدنا أدراجنا
باشارة من هولز إلى المسكان الذى كنا فيه فكانت
الشرطة تحكمت من تفريق التجمهرين حول الجثة ...
نعم كانت جثة . ولم تكن سوى جثة المفتش جيمستون
نفسه . نعم جيمستون الذى أنذره هولز بالموت بأيدي

الصورة . لأنهم من متابعتهم والاختلاط بهم .
ولكنني علمت أنهم غيروا هذا الزى وأن زعيمهم
كابتن شانون قد أقسم أن يقضي علينا نحن رجال
سكوتلانديارد فرداً فرداً

فنظر هولز إلى هذا المفتش جيمستون نظرة
دهش وقال له : ومن أين لك أن زعيمهم هذا
السكابتن شانون الذى أنذركم بالفناء ؟ أعلم أن كابتن
شانون هذا ليس إلا ... ولكن قبل أن أقول لك ،
أيمكنك أن تدلى على عنوان ذلك الرجل أو ما تظنه
مقرآله ؟

فاعتدل المفتش جيمس في مجلسه وقد بدا رجلاً
عادياً بمد أن خلع غشاء الشعر المصطنع وأخرج
من جيبه كناشة صغيرة وقلب في صفحاتها ثم قال :
— إنه يسكن بيتاً في هادلورث جاردنز في
بلا كبرى ستريت

فضحك هولز ونظر إلي وقال :

— يظهر أن كابتن شانون جار عزيز لمستر
هامبشير درفالوليس

ولكن كلام هولز كان بمثابة اللغز باقى على
مسمع من هذا الضابط السليم النية فلم يفتن إلى
مقصد هولز وهو يريد أن يقول إن شانون وهامبشير
ليسا سوى اسمين لشخص واحد

وأخيراً نظر إلى المفتش جيمس وقال له : من
الخير أن تعود إلى حالتك الطبيعية مادامت تلك الطعنة
قد بدلت من استخفافها وغيرت ، فبقاؤك على هذه
الصورة يشركوكهم إذا لقيك واحد منهم ، خصوصاً
بعد أن أنذروكم بالقضاء عليكم . فقال جيمس :

هذه المصابة الخطرة ذات الرؤوس الحمراء .

فلما دنا مستر هولز من الجثة رأى أن نصف اللحية الشقراء منزوع عن وجه الرجل وقد دُمغت وجنته بحرفين G. I الجيم والآي . وكان القتييل مطبقاً يده على ورقة بيضاء فتناولها هولز . وقد أذن له الأحراس ، وهم يعرفون قدره ويعلمون مكانته الرقيقة في الفن الذي احترقوه حين أنه لا يزال فيه هاوياً .

ثم انحنى مستر هولز على وجه مفتش الشرطة القتييل وهو ينعم النظر في الحرفين المنقوشين على وجنته وعند ما حضرت زوجة المقتول وابنته وولده الصغير وأخذ هذا الأخير يمول : دادى^(١) ، كنت ألح دمة تجول مترددة في جفون مستر هولز ولكنها لم تفلت من مآق عذا الرجل للعجيب ، وكان أول عمله بعد أن نهض محاولته تمزيق تلك الشابة الترملة ومداعبة اليتيم الصغير ، ثم أخذني جانباً وقال لي : هل حدثت مدلول هذين الحرفين G. I فقلت : أبداً ولعله اسم القاتل أو الجمعية التي تضمه بين أعضائها . فهز هولز رأسه أسفاً . وإننا لذلك وإذا بصوت انفجار عظيم لم يسمع مثله من قبل وقد تلته أصوات صفير واستغاثات ودوى وصراخ وأجراس وقد كان هذا الانفجار قريباً منا بحيث خيل إلينا أن محطة الميترو پوليتان التي نحن بها سوف تدك دكا وتزول من الوجود ونحن معها . وقد أصاب العمال والجنود والمسافرين الداهيين والواصلين من الدهر ما لا يمكن وصفه . غير أن

هولز كان الرجل الوحيد الثابت الجأش .

وقد أخذ بيدي بمدان استولى على الورقة التي كان القتييل مطبقاً يده عليها . وقادني إلى سرداب يؤدي إلى مصنع صغير ملحق بتلك المحطة وهناك وجدنا العمال في هرج ومرج فقد وصل إليهم أثر الانفجار حتى أن أقذاح الشاي التي كانوا ملأوها وأعدوها للشراب حتى اهتزت ثم انقلبت وأفرغت ما فيها . فلم يشمرهم هولز بشيء من الدهر الذي انتشر على سطح الأرض في طبقة أعلى من الطبقة التي يعيشون فيها تحت مجرى نهر التيمز بأربعين متراً . غير أنه رجام أن يدلونا على أقرب طريق للصعود فقادنا رئيسهم إلى المصعد الكهربائي وكان الأول من نوعه فقد ارتقى بنا في خمس دقائق إلى ترافلجار سكوير وكان للناس يتجمعون ويتفرقون ويتهايمسون تارة وتارة يتبادلون الكلام بأصوات مرتفعة .

فقلت لهولز : ما بال القوم هكذا

فقال : اشتر لنا صحيفة . فسمت برأيه وعدت بمدد من جريدة « وبلي لايار » . فقال لي هولز : ألم تعلم تفسير حرفي G. I إنهما رمز لجرين إدوين أي إيرلاندا الخضراء فالقاتل تابع لجمعية الفوضويين الأيرلنديين . وهذا المنشور الذي كان القتييل مطبقاً يده عليه فيه بيان للناس . ولكن افتح لنا الجريدة . فإذا فيها :

سلسلة من الاعتداءات

الفاجعة في عاصمة

الأمبراطورية البريطانية

(١) تدليل للفظ والد عند الانجليز

الآيرلنديون ينسفون المباني

ويعرضون سلامة البلاد للخطر

دخلت البلاد الإنجليزية في الشهرين الأخيرين في أزمة سياسية لم تقع في مثلها منذ سنين بل منذ قرون ، فأفصنا كما أفاضت جرائد العالم المتحضر بأخبار المنازعة الهائلة التي يخشى أن تنتهي بحروب داخلية تعني مشكلة إيرلاندا ورغبتها في الاستقلال التام في تلك اللحظة مر بنا رجل أشقر يسير مسرعاً ويترك وراءه أوراقاً مطبوعة كما لو أنها وقعت منه عفواً دون أن يقصد إلى توزيعها بين الناس فلمت عينا هولمز وجري بسرعة الفزال والناس من حوله يتفرقون كأنهم يفسحون له الطريق دون أن يعلموا غايته . فتبعته بنظري أولاً ثم بساقي وقدمي حتى كدت أدركه فإذا معركة حامية على باب أشارنج كروس ستيشن أقرب محطات السكة الحديدية إلى ميدان طرف النار ولم تكن تلك المعركة سوى نزال عنيف بين هولمز والرجل الأشقر الذي كان قد أشهر مسدساً . ولكن هولمز أتى بحركة صراع ياباية من نوع الجيو جيتسو التي كان يتقنها . وزرع سلاح الرجل ثم سلمه يداً بيد إلى نفر من رجال البوليس الذين هرعوا إلى مكان الحادث ، وناول أحد الشرطين بطاقته وانقلت إلى وقادني بضع خطوات ثم قفزنا في عربة من طراز هانسوم كاب ميممين شطر هايد بارك فترجلنا عند ما ربل آرش وقال لي هولمز :

يجب علينا أن نبتعد عن منزلنا بضع ساعات فان هذه المصيبة قد عرفتنا . وتوجهنا توجاً إلى كوين آتري ما نشتره فدخلنا في بهو الشاي الذي ينتسب إلى

شركة ليونز ثم قدم هولمز إلى ورقة القليل فاذا بها منشور إيرلندي جاء فيه :

جرين ادين

السواد الأعظم من الشعب الآيرلندي ساقى الأصل يرجع نسبه إلى أوائل من توطنوا القارة الأوربية . ونحن وسكان مقاطعة بريتاينا الفرنسية (التي يفتخى إليها إريستيد بريان برمير ^(١) جمهورية فرنسا) المثلون الباقيون لذلك الجيش ، ونحن أصحاب خيال وعصبية وعنجهية وجاهلية . وفيما ميل طبيعي للبطش والحرب .

يدلك أيها القاريء الإنجليزي على ذلك أن أعظم القواد في جيوشكم إيرلنديون ومنهم ولنجتون ونلسون وكنتشر وروبرتس وفرنش ، وليس أسهل لدينا من أن نفقأ عيني خصمنا لأقل سبب وقد نلنا شهرة من هذا القبيل لا سيما في الولايات المتحدة حيث نهاجر كل عام زرافات فراراً من الجوع والفقر ، والجوع والفقر هما البليتان اللتان جلبتهما علينا انجلترا للفنية المتعممة التي بأكل أهلها خمس مرات في اليوم الواحد في حين أننا لا نجد قوت وجبة واحدة . إننا في حالة يرثى لها من الفقر نحن سكان مونستر ولينستر وكونوت ونحن في غاية البؤس ، وما تاريخ بلادنا منذ فتحها قبل سبعمائة عام سوى ثورات ومذابح متوالية . لقد كان أجدادكم يذبحون أجدادنا ويطردونهم إلى الجبال والقفار ويتملكون أراضيهم ويحلون محلهم أناساً من بني جنسهم ودينهم . فنحن لا ننسى معركة

(١) رئيس وزارة

وبعد أن شربنا الشاي نهضنا وقصدنا إلى شارع
كنجزواي الذي يتفرع على ريجنت ستريت وسرنا
كـمـض الناس لـانـلفت نظراً أحداً إلينا غير أننا لم نكد
نخطو بضع خطوات حتى سمعنا باعة الصحف يتنادون
بأرفع الأصوات :

« فرار المجرم في حادث القنابل المفرقة بعد
القبض عليه . ذهول رجال البوليس . توزيع
منشورات مثيرة للخواطر . اقرأ آخر أنباء المصيبة
الجراء »

فنظرت إلى هولز مستفسراً ، فقال لي :

— لقد انتصرنا وانهزم سكوتلانديارد !

محمد لطفي محمد

بوين التي فاز فيها الملك المنتصب الظالم ولبليام أوف
أورانج علينا . إن يوم الستر الذي ينعش ذكرى
هذه المعركة ينعشنا نحن أيضاً ويدفعنا إلى
الانتقام . لقد عانينا من نفاقكم ما عانينا ولم يبق
لدينا إلا الانفجار الذي يعقب للضغط فاستعدوا الحرب
شمواء في عقور داركم ، أو اعترفوا بحرية إيرلاندا .
إن النزاع المائل للقائم اليوم في لندن لن ينتهي
بدون أن ننال ثمرة جهادنا الطويل »

الامضاء

G. I

فدهشت من زكاته هولز وذكائه وتواضعه ،
فانه لم يتسم ولم يتكلم ولم يفتخر بوصوله إلى هذه
الحقيقة قبل أن يصل إليها أي رجل آخر في عاصمة
بريطانيا العظمى

هدايا الرسالة

من دفع اشتراك الرسالة على حسب الشروط التي نشرناها فان له الحق فيما يأتي :

الكتب المخفضة :

يشترى من ادارة الرسالة الكتب الآتية بالثمن المخفض		
قرش صاغ	قرش صاغ	
٢٠ بدلا من ٣٠	٢٠	كتاب الفصول والفتايات
٣٠ بدلا من ٤٠	٣٠	التصوف الاسلامي
١٣ بدلا من ٢٠	١٣	تاريخ الأدب العربي
٥ بدلا من ١٥	٥	النقد التحليلي
٥ بدلا من ١٥	٥	في أصول الأدب
٦ بدلا من ١٢	٦	رفائيل
٦ بدلا من ١٥	٦	آلام فرتر
١٠ بدلا من ٢٠	١٠	حياة الراقص

مجموعة السنة الواحدة من الرسالة		
قرش صاغ	قرش صاغ	
٦٠ بدلا من ٧٠	٦٠	مجموعة في جزأين
٢٠ بدلا من ٣٥	٢٠	مجموعة السنة الواحدة من الرواية
٢٠ بدلا من ٣٥	٢٠	مجموعة في جزأين

الكتب المجانية :

كتاب سياسة القدر لمرث بك بطرس غالي
رسالة المنبر لفلكس فارس
هكذا أغنى لمحمود حسن اسماعيل
قصة الأميرة لجيلة العلابلي

أجرة البريد في الداخل أو في الخارج على المشترك

انتحار

للكاتب الفرنسي جورج مورفير
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

ما أملك . وأفقت من نوى ذات
صباح كيلا أجد من سوى
اثني عشر فرنكا مع أني مدين
لصاحب المنزل الذي أقيم فيه
بخمسة عشر فرنكا ؛ لذلك
اختبرت مسدسي فألفيته يزخر
بست درصايات قوائل كانت في ظني
كافية لتمزيق رأس فارغ كراسي

وفتحت نافذتي . كان « صباحي الأخير »
رائعاً جميلاً فالسما زرقاء صافية والأمواج خضراء
هادئة والنسيم يسبق بشذى زهر البرتقال والبنفسج
وغادرت المنزل إلى الشاطئ لأملأ صدري
المنفعل بهذا النسيم النقي الفواح ... بيد أني كررت
عائداً بعد أن سرت قليلاً ، إذ أحسست جوعاً
شديداً ، وفي أثناء عودتي ابتعت صحيفة سان رومانو
الحلية ، وهي صحيفة مثيرة ، مجللة بالسواد كأنها
رسالة حزينة

ورحت أقلب صفحاتها إبان الطعام فاسترعى
نظري عنوان « انتحارات الأسبوع » فجال بخاطري
دون أدنى انفعال : « هنا سيعلم خبر موتي
أنا الآخر بعد أيام قلائل » بل وددت لو أشكر
سلفاً محرر هذا الباب الذي سيمتلئ نبي في هذه
الصحيفة .

وعلقت عيناى بخبر انفراد بعلامة الصليب في
صدره فقرأت فيه « وجدت بالأمس جثة جوسو
جا كوبسن - أمريكي الجنس - معلقة في إحدى
النخيل الذي ينمو على الشرفة - وقد وجد في
جيبه مبالغ ثلاثة آلاف فرنك - طبعاً »
جوسو جا كوبسن ؟ إني أعرفه . بل لقد

سان رومانو ! كم هو بلد جميل رائع ! فيه
يدرك الانسان المعنى الذي تنطوي عليه كلمات فلوير :
هنالك بقاع في العالم بود المرء لجمالها وروعها لو بضعها
إلى صدره ضمة الوجد والحنين ... بيد أن
سان رومانو وا أسفاه تشبه أيضاً ثمرة لذة قواحة
لا يجسر امرؤ على تذوقها مخافة الموت الذي يقطر
من عصيرها

ولسوء الحظ لا تستطيع مناظرها الساحرة
الخلافة أن تدخل السرور والبهجة على قلوب الناس
ففي جنبات المدينة تقابلك الوجوه الداخلة والملاح
البائسة والعيون الحيرة الآسفة ... وفي كل مكان
منها تظالمك كلمات السخط والتبرم : ألا ليتني وضعت
على رقم ١٧ ... آه ! هذا الأحمر الملون ، لقد كسب
عشر صرات متوللية ، وبالرغم من ذلك وضعت على
الأسود .

ولم يكن في البلد كله من ياقى أدنى التفاتة
إلى المناظر الساحرة الأخاذة التي تنبت فيه . كانت
الأرض عندهم « روليت » ضخمة ، والسما صفحة
كتب عليها أرقام ٣٠ و ٤٠ و ٥٠

وقد كنت أنا أيضاً ضحية هذا البلد الخطير ؛
إذ خسرت مبلغاً لم يكن جد كبير غير أنه كان كل

— بروية وإيمان — خطة السير في انتحار يهود
على برج وفير

وفي مساء هذا اليوم بعينه ذهبت إلى الكازينو
مرتدياً أجمل أثواب وقد أمنت للملا أتي جئت أجازف
بآخر ماتي لي .. وأني سأموت هنا وغداً إن لم أرح
وطارت المائة فرنك ... فبدأ على "الازعاج في
بادي" الأمر ... ثم انقلبت أتعلم غاضباً حنوقاً ...
وأخيراً بدوت كالدهال المأخوذ

ورثي لحالي شاب قامت بيني وبينه معرفة ،
وسألني ما الخبر فأنبأته بنبرات حزينة يائسة أنني
أفلس ، فأخذ يواسيني ويخفف عني ثم قال :
— لا تيأس فما زلت تملك نفقات السفر إلى
وطنك . إن الكازينو — في هذه الحال —
يتطوع بـ ... فقاطعته يأس قائلاً :

— إن السفر الذي أزمه لا يحتاج إلى «تذكرة»
فنظر إلى مشدوهاً وقال :
— لا أحسبك جاداً في هذا القول ... أمل
ألا تكون قد جننت

فظللت صامتاً ، ثم أدبرت له ظهري ورحلت
أجبل بصرى ذاهلاً في أرجاء المكان بضع دقائق ..
وقد لحث أصحاب «الكازينو» يراقبونني من طرف
خفي . وانفرد عقد اللاعبين في الساعة الحادية
عشرة ، فقفوت أثر الخارجين بوجه يحمل علامة
الدهول واليأس والتفكير

وكانت الليلة رائعة جميلة والقمر بدرأً باقياً بأشعثه
الفضية الناعمة على الأرض للشجر والبحر الأزرق
الساكن . وبلغ سمي أصوات كان حنون بنوح نوح
عاشقة يائسة . وجملت وجهي — وقد أجمت أمري —
حرساً قريباً من الكازينو ، بقعة هادئة تمدد بحق

خسرنا كل تقودنا جنباً إلى جنب . وبالأمن القريب
حينما خسر آخر فلس معه رأيتني يتهدد في عنف
وحسرة ، ثم أمسك بيدي وهزها بحرارة ونظر
إلى بحزن ثم ابتسم وقال بصوت خفيض « لقد
دمرت ... دمرت تماماً ... وداعاً يا صديقي ... »
ومن ثم ذهب فشنق نفسه

إذن ، كيف أمكن أن يمتروا في جيبه على
ثلاثة آلاف فرنك ... وماذا تعني بحق الشيطان
هذه الكلمة « طبعاً »

ولاح لي قبس كشف لي الأمر وأبان الطريق ..
يالي من غبي ! كيف لم أفطن إلى ذلك من قبل ...
لقد دس — ولا ريب — أصحاب الكازينو هذا
المال في جيبه لتضليل الناس وحلهم على الاعتقاد أن
انتحاره لا يرجع ألبتة إلى خسارته بل إلى أسباب
شخصية ودوافع نفسية

وعلى ضوء هذا الاكتشاف المفجأ رحلت
أفكر ! كم يترى يدسون في جيبى إذا حزمت أمري
وانتحرت على مقربة من الكازينو ؟ لقد خسرت
بقدر ما خسر جاكو بسن ... وسربت إلى رأسي
فكرة بأسرع مما كان مقدراً أن تسرب الرصاصة
ثم واصلت تناول الطعام بقلب ثابت أو يكاد
يكون ثابتاً ؛ وذهبت بمدنئذ إلى صاحب الفندق
وأكدت له أنني سأدفع له حسابه في المساء ثم أضفت :
— هذا إذا بقيت حياً ...

— إنا نشق فيك كل الثقة يا سيدي
— إذن فأقرضني مائة فرنك حتى المساء ...
إني أنتظر وصول مال من باريس
— بكل سرور يا سيدي
وقضيت سحابة النهار على الشاطئ حيث وضعت

— لتمكيري الأمن ؟ قول ظريف سيندو
ولا مرء حديث الموسم
قلت ذلك ثم أوليت المجمع ظهري واتخذت سبيلي
صاحبا من هؤلاء الناس الذين اجتمعوا بدافع الفضول
وحب الاستطلاع
وعدت إلى الفندق فسدت ديونى من الآلاف
الثلاثة التي أخذتها مقابل قياى بدور الانتحار . وقد
بذلت إدارة الكازينو أقصى الجهود لاستعادة المال ؛
ولكنى لم أكن قد فكرت قط فى إعادته ، إذ اعتبرت
أن هذا المال من حقى ، وأبقت فضلا عن ذلك أن
ثلاثة آلاف فرنك لا تبدو ثمنا كبيرا لاتتجارى
وقد عمدت إلى إغاضتهم ببقائى فى سان رومانو
بضعة أيام أخر أعيش عيشة الترف والبذخ ثم رحلت
بمدها إلى باريس ... وقد سمعت أن المبلغ الذى دُرس
فى جيبى قد رُد إلى الكازينو أضمافا مضاعفة .
عبر الفتح محمد

أصلح مكان لتمثيل الدور الذى أزمعته ؛ وكان ثمة تمثال
من الرخام لفانية من غوانى البحر بدا كأنه يتسم
وأنا أوشك أن أقوم بدوري
ودوت فجأة طلقان ناريتان ، وسقطت على أحد
المقاعد فى وضع مهمل وانتظرت . واقتربت منى أصوات
وسقطت على عيني السبلتين ظلال القبلين
— يا إلهى ! إنه هو ...

— يا المسكين ! لقد قضى على نفسه برصاصتين معا
وسمعت بعد ذلك أحد أصحاب الكازينو يقول :
— هلم ... أسرع قبل أن يرانا أحد . تبأ له
من شيطان ! أما وجد غير هذا المكان !
ثم انحنى فوق فشمريت كأنما اندس شئ فى جيبى
هنالك ارتعدت قليلا ... وتأوهت مرتين ،
ثم فتحت عيني ببطء شديد ، ونهضت من مضجعى
بمناية وحرص ناظرا فى تساؤل وعجب إلى الجمع الحاشد
حولى . وفى عدم اكتراث محينق أخذت قبعتى
والمسدس الذى كان مازال يلفظ الدخان من فوهته
وانتصبت واقفا

وكان المحتشدون ينظرون إلى كأنى حيوان غريب
الخلقة وقد امتزجت نظراتهم بالعجب والاستفهام ...
وقلت فى غضب :

— عجباً لكم يا قوم ! ألا يستطيع المرء قتل نفسه
بعيدا عن فضول الناس ؟ لم نسمع بمثل هذا والله
واقترب منى أحد أصحاب الكازينو بنفخ من
شدة الغضب وقال فى تلثم واضطراب :

— سيدى الفاضل ... أرجو ... هل ...
إذا ... ماذا تقصد بهذه المهزلة ؟ سأقودك إلى البوليس
لتمكيرك الأمن

رفائيل لشاعر الحب والجمال لا مرتين

مترجمة بقلم
أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثنى ١٢ قرشا

الرجل الحنفى

للكاتب القصصى جابر تكيث تشيترن
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

جذابة لأنظار الشباب من تجاوزوا
هذه السن الصغيرة ، فقد وقف
أمام الحانوت فتى لا تقل سنه
عن الرابعة والعشرين ، يحدق
بنظره فيما وراء الزجاج ، وقد
بدا الحانوت ، في نظره هو أيضاً ،
قطعة من الجمال الناري تحطف
الأبصار ، وقد لا تكون الشكولاتة

وحدها هي التي استرعت أنظار الفتى وإن لم يكن
هو على أي حال ممن يفضون هذا النوع من الحلوى .
كان الفتى طويل القامة جسيماً ، أحمر الشعر ،
تبدو على وجهه دلائل الحزم ، وديع الخلق وكان
يتأبط حافظة رمادية كبيرة تضم بين دفتيها عدداً
من الصور الفحشية ، التي كان يبيعها للناشرين
بأثمان لا يهمل أن تكون غالية أو رخيصة ، وذلك
منذ أن حرمه عمه (وكان من أمراء البحر) ميراثه
لخلاف بين رأييهما في النظرية الاشتراكية ، وكان
الفتى ، واسمه جون تيربل أنجوس ، قد أتى محاضرة
في هذا الموضوع

انتهت وقفة الفتى أمام الحانوت بدخوله واجتيازه
القسم الخارجى المروضة فيه الحلوى ، إلى الغرفة
الخلفية التي جعلت مطعماً تقدم فيه أنواع الفطائر ،
رافعاً قبسته نحية للفتاة المشتتة بتلبية مطالب رواد
الحانوت ، وكانت فتاة سمراء رشيدة متيقظة ترتدى
ثوباً أسود مرتفع للياقة ، سريمة الحركة سوداء
المينين ، وبعد الفترة التي تمقّب دخول الزائر عادة
لحقت الفتاة بالفتى لتتلقى أوامره

وكان طلبه من الطلبات المادية إذ قال :

— أرجو أن تجيئى بكملة صغيرة وفنجان

من القهوة السوداء

في ساعة المسق ، وقد رطب الجو ومال لون
الوجود إلى الزرقة القاتمة ، بدا حانوت الحلواني ،
القائم على ملتقى شارعين متقاطعين في بلدة « كامدن
تون » كأنه شعلة سيجارة وهاجة ، أو بمباراة أدق
في الوصف ، كأنه رأس عود من أعواد الألباب
النارية ، فقد كانت مصابيح مختلفة الألوان مشبك
بعضها في بعض ، تنكسر أشعتها على كثير من
الرائى ، وتماوج على كثير من الكمك والحلوى
الملوثة بألوان الذهب وغيره من الألوان البهيجة ،
وفي هذه الواجهة الزجاجية الوهاجة تلتصق أنوف
كثيرين ممن تنهرم الألوان الزاهية ، فقد كانت
قطع الشكولاتة ملفوفة في ورق ملون بالأحمر والذهبي
والأخضر إلى آخر هذه الألوان المعدنية التي تفضل ،
في نظر الصغار ، قطع الشكولاتة نفسها . أما كمكة
الثقاف الكبيرة البيضاء فكانت منظرها كافياً
لأن يرسم للعين صورة من القطب الشمالى وقد استحال
إلى مادة مما يأكل للناس . وكانت هذه المجموعة
من المزيات التي انتظمت ألوان قوس قزح كافية
لأن تجذب إلى واجهة الحانوت كل أطفال
الحى المجاور من سن العاشرة إلى الثانية عشرة .
على أن هذه النقطة من ملتقى الشارعين كانت كذلك

الترتيب الدقيق وضع الكمكة الكبيرة البيضاء التي كانت زينة الواجهة

فقال الفتاة مضطربة :

— أي شيء هذا الذي تفعل ؟

فأجاب :

— أعمل الواجب يا عزيزتي لورا

فصاحت الفتاة به :

— بالله قف لحظة ولا تخاطبني بمثل هذه العبارة

إنني أود أن أعرف معنى هذا كله ؟

— هي وليمة احتفاء يا مس هوب

فأشارت الفتاة إلى الكمكة الكبرى وقالت وقد

نقد صبرها :

— وما هذه ؟

فأجاب الفتى :

— هي كمكة الزفاف يا مسز أنجوس

فأخذت الفتاة الكمكة وأعادتها إلى مكانها في شيء

من الانفعال ثم عادت فأسندت حرفةها الجليل إلى

المائدة ونظرت إلى الفتى نظرة إن تجردت من معاني

البغض فقد جمت بمض معاني الفيض وقالت :

— إنك لم تترك لي وقتاً للتفكير

فأجاب :

— أنا لست ذلك النبي الذي يترك لك الوقت

للتفكير ، وهذه هي عقيدتي المسيحية

وكانت الفتاة لا تزال محدقة في وجهه وعلى فيها

ابتهامة انطلوت وراءها معاني الجسد ، فقالت في

صراحة :

— قبل أن تمضي لحظة أخرى في مثل هذا

السخف يجب أن أخبرك في اختصار عن شيء

يتصل بشخصي

ولم تكد الفتاة تلتفت لتأخذ طريقها إلى حيث

مخض له ما طلب حتى أضاف إلى جملة السابقة قوله :

— كذلك أريد أن تقبليني زوجاً

فجمدت الفتاة فجأة في مكانها وقالت :

— هذا مزاح لا أسيفه

فرفع الفتى الأحمر الشمر عينيه الرماديتين وقد

بدا فيهما من معاني الجذ والفرح ما لم يكن منتظراً

وقال :

— إنني أقصد ما أقول صدقاً وحققاً ، وأنا جاد

في قولي مثل جدتي في طلب الكمكة وما أطلبه غال

غلاء الكمكة ، فاني أدفع له ثمناً ، ثم هو عسير المضم

مثل الكمكة أيضاً وهو إلى جانب ذلك موجه . . .

لم تحول الفتاة السمراء عينها لحظة عن الفتى

في أثناء حديثه ولكن لاح عليها كأنها تفحصه فحصاً

دقيقاً تتجلى فيه معاني الأمل ، وما انتهت من هذا

الفحص حتى جلست على كرسي بالقرب منه

فقال أنجوس وهو شارد الفكر :

— ألا ترين أن من القسوة أكل هذه الكمكات

الصغيرة ؟ أليس من المحتمل أن تنمو فتصبح بمد

حين كمكات كبيرة ؟ لقد اعتزمت الامتناع عن هذا

النوع من الرياضة حتى تزوج

وقفت الفتاة وانجبت إلى الواجهة الموضوعة

فيها الحلوى وقد بدا عليها أنها منهكة في تفكير

عميق ولكنه غير كره . فلما عادت إلى حيث الفتى

وقد ظهر عليها أنها اعتزمت أمراً ، راعها أن وجدته

ينظم فوق المائدة ، في كثير من العناية ، مواد عديدة

أخرجها من واجهة الخانوت ، بينها هرم كبير من

الحلوى الملونة ، وكثير من أطباق السندوتش ،

وأغلي الفطائر المصنوعة بالفاكهة . وفي وسط ذلك

وحق هؤلاء لم يكونوا كثيرون للترويح على فندقنا ولكن كان بينهم اثنان عاديان في كل ناحية من نواحي الحياة .

كانا يعيشان على ما لديهما من مال وكانا كسولين كسلا يضابق الذي يماشرهما ، وقد تمودا أن يرتديا من الملابس أكثر مما تدعو إليه الحاجة . على أنني كنت أرثي لحال ذينك الرجلين ، إذ كنت أميل إلى الاعتقاد بأنهما لا يأويان إلى مشربنا الصغير الخالي إلا لأن كلا منهما مصاب بنوع من التشوه يضحك منه الأجلاف من الناس . على أن أستعمل كلمة « تشوه » في وصفهما قد يكون فيه شيء من التجاوز وقد تكون كلمة « شذوذ » أقرب إلى وصف حالهما ، فقد كان أحدهما صغير الجسم صفراً مدهشاً يكاد يكون قزماً أو على الأقل « ركيكاً » من أصغر « ركيبة » الخيل أجساماً . ولو أن منظره لا يتفق في قليل أو كثير مع منظر « الركيب » ، كان مستدير الرأس أسود الشعر معنياً بقص لحيته الكثة السوداء ، ذا عينين تشبهان في بريقهما عيون الطيور يحمل في جيبه كثيراً من النقود ويملق بصدره سلسلة ساعة كبيرة من الذهب ، ولم يحضر مرة إلا مرتدياً أنخر ما يستطيع أن يرتدي من ملابس ، على أنه لم يكن بالرجل الأبله وإن يكن كسولاً إلى أقصى حدود الكسل ، ولكنه كان من ناحية أخرى بارعاً في كثير من الأمور التي لا فائدة منها ، أكثرها ألعاب بهلوانية ، كأن يحمل خمسة عشر عوداً من الكبريت يشتمل أحدهما من الآخر على التوالي على غرار الألعاب النارية ، أو يقطع ثمرة الوز أو ما يشبهها على مثال العروس الراقصة التي يلعب بها الأطفال ، وكان اسم هذا الفتى إيزيدوراسم ، وإني لا أزال

بأجاب أنجوس في لهجة الجد :

— يسرني أن أسمع ما تقولين ، فقد تقولين كذلك في الوقت المناسب شيئاً عن شخصي أنا ... فأجابت الفتاة :

— بالله احفظ لسانك وأصغ إلى فليس فيما أقول ما ينجلني ، بل وإنه ليس بالأمم الذي آسف له على وجه أخص ولكن ما قولك في أمر ليس هو من عملي ولكنه الكابوس الذي يلازمني ؟ فقال الفتى جاداً :

— في هذه الحال أقترح أن تعيدي الكمية إلى هذه المائدة

فأجابت الفتاة في إلحاح :

— يجب أول كل شيء أن تصني إلى قصتي . وليكن أول ما أروي به لك أن أبي كان يملك الفندق المسمى « بالسمة الحمراء » في لودبري وقد تمودت أن ألبى طلبات العملاء في المشرب فقال الفتى :

— لقد كنت دائماً أعجب لماذا أشمر بروح مسيحي برفف على هذا الجانوت وحده ففضت الفتاة في حديثها تقول :

— ولودبري قرية صغيرة هادئة خاملة في المقاطعات الشرقية ، وكان العملاء الوحيدون الذين يفدون على فندق « السمة الحمراء » هم التجار المتجولون ، أما من عداهم فأبشع من يمكن أن ترى من الناس ، وفي اعتقادي أنك لم تر قط أحداً من هذا الصنف من المخلوقات ، فهم رجال مثال الأجسام معربدون لهم من الدخول ما يمكنهم من أن يعيشوا بين احتساء الخمر والراهنة على الخيل مرتدين أحقر الملابس التي تعد في الواقع أحسن ما يليق بهم .

أتمثل صورته وهو مقبل على الخزانة محركاً في يده خمس سجارات على مثال ابن آوى في قفزاته « أما الشخص الآخر فكان أكثر هدوءاً كما كان أقرب إلى الرجل العادى من صاحبه ، ولكنه قد أزعجنى بطريقة ما أكثر مما أزعجنى اسم الثنيل المسكين . كان مفرطاً في طول قامته نحيف الجسم ، خفيف الشعر ، أفنى الأنف لحد يسترعى النظر ، وكان من المحتمل أن يبدو حسن المنظر في عين من يراه لولا ما في عينيه من حول لم أر أو أسمع مثله في إنسان سواء ، فهو إذا نظر إليك مباشرة لم تعرف أين أنت واقف ولا عبء بالنقطة التي يكون محققاً فيها . وأظن أن هذا العيب كان يؤلم ذلك الفتى إلى حد ما . ولما كان اسم يمرض علينا ألعابه المختلفة لم يكن هذا الفتى ، واسمه جيمس ولكن ، يقدر على شيء غير أن يزرع غرفة المشرب جيئة وذهاباً أو يخرج إلى الخلاء فيطيل المشى لغير قصد معين . وفي اعتقادي أن اسم أيضاً كان يشمر بما في ضالة جسمه من عيب ولكنه كان دائماً يخفى ذلك العيب بخفة ورشاقة ، لهذا كان من أكبر بواعث اضطرابي وحيرتي أن تقدم لي الاثنان في وقت واحد طالبين يدي للزواج

والحق أنى قد أجبتهما ولا أزال منذ ذلك الحين أعد ذلك نوعاً من الحماقة ، ولكن كان هذان الرجلان على أى حال صديقين لي ، ولقد أزعجنى أن يتسرب إلي ظنهما أنى أرفض الزواج منهما لشدة قبحهما . لذلك أردت التخلص منهما بطريق لا تؤذى شعورهما فقلت إننى قد اعتزمت ألا أتزوج إلا من رجل يكون قد شق طريقه في الحياة بمجهوده فن المبادئ التي أدين بها ألا أعيش من مال موروث

من الغير كالل الذي بميشان منه . وبعد يومين من هذا الحديث بدأت المتاعب تتوالى ، فقد كان أول ما سمعته أن الفتيين قد غادرا القرية ليشقا طريقهما في الحياة كما لو كان الأمر قصة خرافية ومن ذلك التاريخ حتى هذه الساعة لم أر أحدهما . ولكنى تلقيت خطابين من الرجل الصغير الجسم المسمى اسم ، والحق أنهما كانا خطابين شائقين إلى مدى بعيد فسألها أنجوس :

— ألم تسمي قط شيئاً عن الرجل الآخر ؟

فترددت الفتاة لحظة ثم قالت :

— كلا، فانه لم يكتب إلي قط ... وكان الخطاب

الأول من اسم قاصراً على قوله إنه خرج من القرية مع « ولكن » ماشيين على الأقدام في طريقهما إلى لندن ، ولكن « ولكن » كان سريع الخطى صبوراً على المشى فلم يستطع هو أن يجاريه وسقط متعباً فجلس في جانب الطريق يستريح حيث التقطته فرقة من المهرجين الذين يفرضون ألعابهم على أنظار الجمهور ، فكان صغر جسمه الذي يجعله أقرب إلى الأقزام ومهارته في الألعاب البهلوانية الخفيفة سبباً في حله بين الفرقة محل المنايا حتى لقد أرسل بعد قليل إلى الأكواريوم لمرض بعض الألعاب التي نسيها . وهذا هو كل ما احتوى عليه خطابه الأول . أما الخطاب الثاني فكان أشد تشويقاً وإثارة من الأول ، وقد تلقيته في الأسبوع الماضي فقط

يجرع الفتى المسمى أنجوس ما بقي في فنجان القهوة ونظر إلى الفتاة بينين تجلت فيهما معاني الوداعة والصبر ، وما استأنفت حديثها حتى اقترنفرها عن ابتسامة خفيفة وقد قالت :

— أظنك قد قرأت في كل مكان أعد للصق الاعلانات هذه الجملة «خدمة اسمث الصامتة» والإفانت الانسان الوحيد الذي لم يقرأها . على أنني لا أعرف نوع هذه الخدمة ، وكل ما أستطيع أن أفهمه هو أنها اختراع أشبه باختراع الساعة يؤدي جميع الخدمات البيتية بطريق آلية مثلاً «اضغط الزر يأتك الساق الذي لا يشرب أبداً» و «اليد تحضر إليك عشر خدمات لا يمازان أبداً» هذا بعض ما نشر في الاعلانات فلا بد من أن تكون قد قرأته . على أنه مهما يكن من أمر هذه الآلات فإنها قد جمعت ثروة طائلة لذلك القزم اسمث الذي عرفته في لودبرس وما أستطيع إلا أن أشعر بالسروور لنجاح هذا الفتى السكين ولكن الذي يزعمني الازعاج كله هو أن يعود اسمث إلى هنا ليقول لي إنه قد شق طريقه في الحياة وإنه لقد فعل

فكرت أن أجوس - وائله وقد بدا عليه نوع من الهدوء المريب :

— والرجل الآخر ؟

فهمت لورا هوب فجأة واقفة على قدميها وقالت :
— إني لأظنك ساحراً يا سيدي . الحق أنك لعل صواب ، فاني لم أرفى حياتي سطرأ واحداً من خطا الرجل الآخر وليست عندي أية فكرة ولو غامضة عن كنهه ومكان وجوده ، ولكن هو وحده الذي أخافه ، فهو الذي يمترض طريقى دائماً ، هو الذي يكاد يذهب بمقلى ، بل في الحق إني لأظنه قد ذهب بمقلى فعلاً ، لأنى أشعر به حيث لا يمكن أن يكون ولقد سمعت صوته حيث لا يمكن أن يكون قد تكلم فقال الفتى وقد بدا عليه أثر الانسراح :

— حسن يا عزيزتى ، إنه لو كان هو الشيطان

نفسه فقد قضى عليه الآن نهائياً بعد أن تحدثت بأمره إلى شخص ثالث ، فان الانسان ليكاد يحزن إذا هو عاش منعزلاً عن الناس ، ولكن أنذكرين الوقت الذى خيل إليك فيه أنك شعرت بوجود صاحبنا الأحول وسمعت صوته ؟
فقلت للفنأة في غير تردد :

— لقد سمعت ضحك جيمس ولكن واضحاً كما أسمع حديثك الآن ؛ ولم يكن هناك من أحد - سوى فقد كنت واقفة خارج الحانوت على الناصية أستطيع أن أرى للشارعين في وقت واحد ، ولقد نسيت كيف ضحك ولو أن ضحكته كانت غريبة مثل حوله ولم يخطر ذكرك على بالى حوالى عام كامل ، ولكن ما لا شك فيه أنى شعرت بوجوده بعد ثوان من تسلى الخطاب الأول للذى جاءني من منافسه فسألها أن أجوس وقد بدا اهتمامه بمحديثها :

— هل حملت خياله مرة على الكلام أو الصراخ أو أى شيء من هذا القبيل ؟

فارتجفت لورا فجأة ثم قالت بصوت غير مضطرب :
— نعم إننى لم أكداً أنتهي من قراءة الخطاب الذى جاءني من ايزيدور اسميث والذى أعلن فيه نجاحه حتى سمعت ولكن بقول « وعلى الرغم من ذلك لن ينالك » وكان كلامه واضحاً كما لو كان جالساً معى في الغرفة ... وهذا أمر صرّوح وإنه ليخيل إلى أننى قد جنت

فقال الفتى :

لو أنك كنت حقيقة مجنونة لفكرت في أنك لا بد أن تكونى عاقلة . ولكن يلوح لي من غير شك أن هناك شيئاً عجيباً حول هذا السيد الخفى عن الأعين ، ورأسان خير من رأس واحد فلو سمحت لي أن آتى

بكلمة الزفاف مرة أخرى من الواجهة ...

وبينا التقى يتكلم سمع في الخارج صوت معدني رفيع ثم صوت محرك سيارة تجري في سرعة شيطانية حتى إذا وصلت إلى باب الحانوت وقفت واندفع منها كالسهم فتى ضئيل الجسم على رأسه قبعة عالية لامعة فوقف في وسط القسم الخارجى

فقطع أنجوس حديثه وخرج إلى حيث وقف القادم ووقف منه وجهاً لوجه . فكانت نظرة واحدة كافية لأن تشمره بأن هذا القادم الجديد رجل ملك الغرام عنانه ، وقد عرف فيه أنجوس ذلك الشاب ايزيدور اسمت الذى وصفته له لورا من قبل . هذا هو اسمت الذى جمع من صناعة الساقى الذى لا يشرب والجارية التى لا تفازل ملايين الجنيهات . هذا هو ايزيدور اسمت الذى يصنع العرائس من قشر الموز وأعواد الكبريت . وقف الرجلان لحظة ينظر أحدهما إلى الآخر نظرة الكرم الباردة الغريبة التى تنم عن روح المنافسة

على أن مستر اسمت لم يشر قط إلى موضع المنافسة بينه وبين الرجل الواقف أمامه ولكنه قال في شئ من البساطة المزوجة بالحدة :

— هل رأيت مس هوب ذلك الشئ المصق على الزجاج ؟

فكرر أنجوس قول الرجل في لهجة الاستفهام — على الزجاج ؟

فقال المليونير الصغير الجسم

— الوقت لا يتسع لشرح أمور آخر قهنا سخرية

حقاء تستدعى التحقيق

وأشار الرجل بنصاء إلى زجاج الواجهة التى أخرج أنجوس من لحظة أكثر محتوياتها فاذا بشريط

طويل من الورق ملصق على ذلك لزجاج ، فدهش أنجوس لذلك فما من شك في أن هذه الورقة لم تكن منذ لحظة موجودة حيث هى الآن ، وخرج إلى الشارع وراء المليونير للنشيط وفحص شريط الورق فوجد طوله يبلغ حوالى ياردة ونصف الياردة وقد دهن بالصمغ وألصق بالزجاج بعناية تامة ، وقد كتب عليه بخط مشوه : « إذا تزوجت من اسمت فسيموت » فدا أنجوس رأسه الأحمر الكبير داخل الحانوت وصاح :

— لورا . . . إنك لست مجنونة

فقال اسمت في شئ من الخشونة :

— هذا خط ذلك الرجل « ويلكن » ، إني لم أراه منذ سنوات ولكنه مازال يضايقنى ، ففي الخمسة عشر يوماً الماضية وجدت في مسكنى خمسة خطابات تهديد منه وصلت إلى البيت بطريق خفية . ولقد أقسم للبواب أنه لم ير إنساناً ممن يمكن أن توجه إليه أية شبهة قد دخل البيت . ثم هذا هو يلصق على زجاج الحانوت هذا النوع من التهديد العلى بينا للقوم الذين فى الداخل . . . فقال أنجوس فى تواضع :

— صدقت ! بينا القوم الذين فى الداخل كانوا

يشربون الشاي . الحق ياسيدى أننى ممحب بأسلوبك فى معالجة الأمور بمثل هذه الصراحة . ويمكننا أن نتكلم فى المسائل الأخرى فيما بعد . أما الآن فإن الرجل الذى ألصق هذه الورقة لا يمكن أن يكون قد ابتعد كثيراً عن هذه النقطة فاني أؤكد لك أن هذه الورقة لم تكن حيث هى الآن عند ما جئت إلى الواجهة منذ عشر أو خمس عشرة دقيقة على الأكثر . غير أننى أرى من ناحية أخرى أنه

والحق أن هؤلاء الخدم الصامتين ليقضون حاجاتك بأسرع مما يقضيها الخدم الأحياء لو أنك عرفت أي زر تضغط . على أني لا أنكر أنه كما لهذه الأدوات مميزات فإن لها أخطاءها أيضاً
فسأله أنجوس :

— حقاً ؟ أهناك ما لا تستطيع أن تفعله ؟

فأجاب اسميث في هدوء :

— نعم فإنها لا تستطيع أن تخبرني من الذي

ترك لي هذه الخطابات التهديدية في بيتي

كانت سيارة الرجل صغيرة وسريعة مثله وهي كأدوات الخدمة من صناعته ، فقطعت بهما في دقائق قليلة مسافات بعيدة في ذلك الركن من إنجلترا الذي يشبه في جمال مناظره الطبيعية ناحية ايدنبرج .

وأخيراً وصلا إلى هملايا مانسوتز ولا تزال في الوجود بقية من نور النهار ، وما اجتازت السيارة المنعنى حتى رأى الرجلان في إحدى ناحيتي الطريق رجلاً يبيع البندق وفي الناحية الأخرى جندياً من جنود البوايس ، وكان هذان كل من وجد في هذه الساعة على مقربة من بيت اسميث ، وكان شخصاًهما ساعة للفنق أشبه في نظر أنجوس بشبهين من أشباح التاريخ ...

وقفت السيارة فجأة أمام البيت ، واندفع منها صاحبها يسأل ساعياً طويلاً القامة يرتدى ملابس رسمية براقة ، وبواباً بلبس قصير الأكمام عماما إذا كانا قد رأيا أحداً يدخل إلى الدار أو أن شيئاً غير عادي قد حدث في أثناء غيابه . فأكد له الرجلان أن لا أحد دخل البيت وأن لا شيء حدث منذ رأيا آخر مرة . فدخل هو وأنجوس إلى البيت واستقلا الصعد الذي اندفع بهما صاعداً في سرعة للبرق إلى الطابق الرابع

أبعد من أن نستطيع اللحاق به لأننا لا نعرف الاتجاه الذي سار فيه . وإذا قبلت نصيحتي يامستر اسميث فاني أنصح لك بأن تعهد بهذا الأمر إلى رجل إخصائي في تقصي الأخبار وإني أفضل أن يكون رجلاً خاصاً على أن يكون من رجال الرسميين ، وإني أعرف رجلاً ماهراً جداً في هذه المهنة لا يبعد مسكنه عن هنا أكثر من مسافة خمس دقائق في سيارتك واسمه « فلامبو » وعلى الرغم من أنه كان في شبابه محوطاً بكثير من الشكوك فإنه الآن رجل شريف جداً أمين وآراؤه تساوي المال الكثير ، ومقره في لاكنو مانسوتز هامبستد .

فقال الرجل الصغير الجسم وقد تقوس حاجبه الأسود :

— هذا غريب فاني أنا نفسي ساكن في هملايا مانسوتز بمد المنعنى . واملك تتكرم بمرافقتي ، فسأذهب إلى بيتي لأعداد هذه المستندات المجهية التي جاءتني منه ولكن بينما تذهب أنت لاحظار صاحبك للبوايس السري الخاص .

فقال أنجوس في كثير من الأدب :

— أحسنت ، فكما أسرعت كان ذلك خيراً وحيا الرجلان الفتاة ثم استقلا السيارة ، فما كادت تجتاز منعنى الشارع حتى رأى أنجوس اعلاناً كبيراً عن « خدمة اسميث للصامته » وفيه صورة عروس كبيرة من الحديد من غير رأس تحمل في يديها وعاء كبيراً وقد كتب عليها « الظاهية التي لا تفضب أبداً » .

فقال الرجل المنعنى ضاحكاً :

— إنني أستعمل هذه المخترعات في بيتي للاعلان من ناحية وللخدمة الحقيقية من الناحية الأخرى .

وقال اسميث لصاحبه :

— أرجو أن تتفضل بالدخول والانتظار لحظة حتى أحضر لك خطابات وبلكن، وبمد ذلك تذهب إلى الناحية الأخرى من الطريق فتدعو صاحبك وضغط اسميث زراً مختفياً في الجدار فانفتح باب مسكنه من تلقاء نفسه ، وبنفتح الباب على ردهة صغيرة كل ما فيها من الأثاث صفان من الأشخاص الميكانيكية واقفين على الجانبين أشبه بنماذج الخائطين ، وهي مثلها بلا رؤوس وإن كانت بارزة الصدور مملوءة الأكتاف ، ولكل منها خطافان يعملان عمل الأيدي والسواعد في حمل الصواني ، وما كاد الباب يفتح حتى رأى اسميث في يد أحد هذه الأشخاص ورقة بيضاء مكتوبة بالخبر الأحمر لم يكن مدادها قد جف بمد . فاختطفها الرجل وناولها لآنجوس وكان هذا هو نص ما كتب فيها : « إذا أنت رأيتها اليوم فسأقتلك »

وسكت الرجلان لحظة ثم قال إيزيدور اسميث :
— أنتشرب قليلا من الوسكي فاني أشعر أن بي حاجة إلى القليل منه .

فأجاب أنجوس في شيء من الكآبة :

— شكراً ، ولكنني أفضل أن أرى فلامبو فهذه المسألة تزداد جساماً فلا أذهب لأحضره في الحال فقال الآخر وعليه من مظاهر الانشراح ما يدعو إلى الإعجاب :

— أحسنت فلتحضره إلى هنا بأسرع ما تستطيع ولكن لم يكد أنجوس يقفل الباب الخارجى وراءه حتى رأى اسميث قد ضغط أحد الأزرار فتعركت إحدى الجوارى الميكانيكية وتقدمت حاملة صينية فوقها معدات الشراب . فشعر أنجوس بشيء

من الخوف على الرجل الصغير أن يترك وحيداً بين هذه الهدى الميكانيكية التي دبت فيها الحياة على أثر إغلاق الباب

ولم يهبط أنجوس ست درجات من درجات السلم حتى وجد البواب منهما في بعض العمل فأوصاه وهو يناوله قطعة من النقود بأن يبق في مكانه إلى أن يعود وأن يرقب أى أجنبي يصعد السلم ، حتى إذا خرج من باب المارة أوصى الساعي الواقف أمام الباب بمثل هذه الوصية ، ومنه علم أن ليس للبنية باب خافى ، ولم يكتف بذلك بل دعا رجل البوليس الذى يمر في الشارع وطلب منه أن يرقب مدخل البيت إلى أن يعود ، وترك رجل البوليس إلى بائع البندق فسأله كم من الوقت يعتزم البقاء حيث هو ، وكان الرجل قد دفع ياقته مستمداً للذهاب لأنه يتوقع أن يتساقط الثلج . ولكن أنجوس رجاء أن يبقى في مكانه وأن يأكل كل مامعه من البندق وقال إنه سيمطيه جنبها متى عاد على أن يرقب المدخل ويخبره إن كان قد دخل البنية أى رجل أو امرأة أو طفل . فلما انتهى من إعداد هذه التحوطات سار ممجياً بعمله ناظراً نظرة أخيرة إلى الحصن الذى أحاطه بهذا الجصار المحكم وقال يحدث نفسه :

— لقد أحطت البنية بحلقة قوية ولا يمكن أن يكون هؤلاء الأربعة جميعاً من شركاء مستر وبلكن

كان مسكن مستر فلامبو في الطابق الأول من بناية لا كنو مانسونز ، وكان بسيط الياش ، فلما وصل إليه أنجوس تلقاه صاحب النار في غرفة فيها بضعة مقاعد وكل زينتها أنواع من السيوف والقطع الأثرية الشرقية ، وكان يجالسه فيها في هذه الساعة

قسيس كاثوليكي كان وجوده في هذا المكان في نظر
أنجوس في غير موضعه

فقال فلامبو :

— هذا صديق الأب برون ولكم وددت أن
تقابله . الجو جميل الليلة ولكنه بارد قليلاً بالنسبة
لرجل مثلي من أهل الجنوب

جلس أنجوس على أحد الكراسي الشرقية
وهو يقول :

— نعم الجو جميل وأظن أنه سيستمر محوياً

ولكن القسيس أجاب في هدوء :

— لا ، فقد بدأ الثلج يتساقط

وفعلاً كانت قطع الثلج الذي تنبأ بائع البندق
بسقوطها قد بدأت تصدم زجاج الشباك وتلتصق به
فقال أنجوس :

— الحق أني أتيت في مهمة خطيرة تدعو إلى
الاسراع . والأمر ، يا فلامبو ، أنه على مسافة مرمى
الحجر من بيتك رجل أشد ما يكون حاجة إلى
مساعدتك ، فهو ملاحق ومهدد بمذو غير ظاهر
وشقي لم يستطع أحد أن يراه

ولما بدأ يروي قصة اسميث وويلكن وعلاقة
لورا بهما والضحكة المزججة ، وفي الجملة تفصيل
ما سمعه ، بدأ الاهتمام الشديد على فلامبو في حين
جلس القسيس كقطعة من الأثاث لاعلاقة لها بالحديث .
فلما وصل أنجوس إلى التحدث عن قطعة الورق التي
وجدت ملصقة على واجهة الحانوت هم فلامبو واقفاً
وكأنه قد ملأ الغرفة بكتفيه المريضين وقال :

إذا كان لا يضايقك أن تروي لي بقية القصة
في أقصر طريق يوصل إلى بيت هذا الرجل كان
ذلك خيراً ، فانه يحيل إلى أن ليس لدينا متسع من

الوقت نضيمه في الحديث هنا

فوقف أنجوس وهو يقول :

— يسرني ذلك وإن كنت الآن مطمئناً على

صاحبي فقد أوقفت أربعة رجال لمراقبة المدخل
الوحيد المؤدي إلى مسكنه

نخرج الرجال إلى الطريق يتبعها القسيس
الضئيل الجسم كالكلب الأمين يتبع صاحبه ، وكان
كل ما قاله أثناء الطريق وقاله في أسلوب مرح هو :

— ما أسرع ما يتراكم الثلج على الأرض !

وقبل أن يصل الرجال الثلاثة إلى الشارع

الواقعة فيه للبناء كان أنجوس قد انتهى من سرد

قصته ، فلما وصل إلى قريب من البيت تطلع يبحث

عن الرجال الأربعة الذين عهد إليهم بالمراقبة ، حتى

إذا وجدهم حيث تركهم بدأ بسؤال بائع البندق الذي

أقسم مؤكداً قبل أن يتسلم الجنيه وبمداً أن تسلمه

أنه لم ير أي زائر قد دخل البيت ، وكان رجل

البوليس أشد من البائع توكيداً ، وقد قال إنه تمود

معرفة اللصوص من كل نوع لا يخدعه تخفيهم

وراء الملابس الثغالية والقبعات الممالية ، فهو لا يقتصر

في تعرف المشبوهين بما يبدو من أعمالهم التي توجه

للشبهة إليهم ، وهكذا وكداً أنه لم يدخل البيت أي

إنسان ... أما الساعي ذو الملابس للبراقة فقد كان

لا يزال واقفاً عند مدخل الباب ينتمس ابتسامته

المريضة ، وكان توكيده أشد من صاحبيه فقد قال :

— إن لي الحق في أن أسأل أي إنسان دوقاً

كان أو كناساً ، ماذا يريد من دخوله هذه البناية ،

وإني لأقسم أنه لم يحضر منذ خروج هذا السيد

أي إنسان يستدعي الأمر سؤاله

وكان الأب برون واقفاً لا يكثر أحد لوجوده

وهناك وسط الذي حيث وجدت قطعة الورقة رأي
أنجوس على الأرض بقعة حمراء كأنها بقعة مداد
انسكبت من دواة ولكنها لم تكن من المداد
فصاح فلامبو في لهجة جمعت بين الفضب وبين
الألفاظ الفرنسية قائلاً :

— جنابة قتل !

ثم انطرح على الأرض فاحصاً وبمد فترة كان
الرجلان يفتشان كل نقطة في البيت ليتمثرا على إيزيدور
اسميث حياً أو ميتاً فلم يجداه له أثرأ ، ثم تقابلا وجهاً
لوجه بعد البحث الدقيق ، فقال فلامبو متكلاً بالفرنسية
من شدة تأثره :

— يا صاحبي ... إن القاتل لم يخطف وحده
ولكنه أخفى القاتل أيضاً

فنظر أنجوس حوله في الغرفة المظلمة وأحس
برعشة خفيفة داخل نفسه ، فقد كانت إحدى الذي
واقفة بحيث يسقط ظلها على نقطة الدم وكانت
ساعدها مرفوعة قليلاً ، فخطر له أن تكون هذه
الساعده هي التي أصابت اسميث فقتلته وهكذا تكون
المادة قد ثارت وقد قتلت هذه المخلوقات الآلية خالقها
ولكن حتى في هذه الحالة يمترضنا هذا السؤال
الطبيعي : « ماذا فعلت هذه الذي بقتيلها ؟ »
فألقى الوم الخفيف في أذنه هذه الجملة في لهجة
الاستفهام :

— أكلته ؟

فساخت نفسه لمجرد التفكير في أن جسماً بشرياً
يتلاشى ويهضم في جوف هذه الآلات الميكانيكية
واسترد أنجوس ثباته بشيء من المجهود النفسي
وقال مخاطب فلامبو :

— نحن الآن أمام أمر واقع ، لقد تبخر الرجل

فلما شمع هذه الكلمات تدخل في الموضوع ، فقال
في لهجة فيها شيء من التهكم :

— إذن لم يصعد أحد الدرج ولم يهبطه منذ
بدأ الثلج في السقوط ؟ ولقد بدأ على ما أذكر ونحن
في بيت فلامبو

فقال الرجل الرسمي وهو يضعك نحية ذى النفوذ :

— لا يا سيدي ، لم بات أحد قط إلى هنا ،
وكن واثقاً من قولي هذا

فقال القسيس وقد نظر إلى الأرض بعينين
تشبهان عيون السمك :

— إذن إني لأعجب ، ما هذا ؟

فنظر الجميع إلى حيث ينظر القسيس فنلفظ
فلامبو بلفظة شديدة مشيراً إشارة فرنسية ، فقد
كان هناك بالفعل على الأرض وسط المدخل وبين
ساق هذا الساعى الكبير الجسم آثار أقدام غبراء
فوق الثلج الأبيض

فصاح أنجوس عن غير قصد :

— إلهي ... الرجل الخفي !

ودون أن ينطق بكلمة أخرى اندفع ساعداً
الدرج بقبعة فلامبو ، أما الأب برون فقد بقي واقفاً
حيث هو ينظر إلى الشارع المفتي بالثلج وكأنه قد
أهمل شأن الطريدة

وكاد فلامبو يكسر الباب بكتفه القوي ولكن
الفتى الاسكتلندي تحسس يده إطار الباب حتى
عثر على اللزد الخفي فضغطه فبدأ الباب يفتح على مهل
وكان المدخل والردهة على حالهما لولا أن اثنتين
من الذي الحديدية قد تحركتا من مكانهما لقضاء
بعض الأعمال على ما يظهر ، وكانت العتمة قد بدأت
تقيم داخل الدار لولا بقية من شمع الشمس الفاربة ،

المسكين كما تبخر السحب ولم يترك وراءه غير بقعة حمراء على الأرض . وهذا أمر لا يتصل بأمنا الديني .

فقال فلامبو :

— هناك شيء واحد يجب عمله فسواء أكان الأمر متعلقاً بهذه الدنيا أم بالآخرة، لا بد لي من أن أزل فأنكم مع صديق .

ونزل الرجلان فورا بالبواب الذي كان لا يزال منهما في عمله وقد أكد لهما مرة أخرى أنه لم يدع أي متطفل يدخل إلى الدار، ثم وصلا إلى الساحة في الملابس اللامعة فوجداه حيث تركاه وقد كرر توكيده أن إنساناً لم يدخل البيت ، وكذلك وجدوا بائع البندق الذي كرر هو أيضاً مثل هذا التوكيد ولكن عندما بحثا عن الحارس الرابع رجل البوليس لم يجداه فصاح أنجوس في حال عصبية :

— أين رجل البوليس ؟

فقال الأب برون :

— عفوا فقد أرسلته للبحث في أمر وجدته يستحق البحث والاستقصاء .

فقال أنجوس في لهجة قاطعة :

— حسن ولكننا أشد ما نكون حاجة إلى عودته فان صاحبنا المسكين لم يقتل فقط ولكنه قد اختفى وزال كل أثره .

فسأل القس :

— وكيف كان ذلك ؟

فقال فلامبو بمد قليل من التردد :

— إنني لأعتقد يا أبي أن الأمر أدخل في باب اختصاصك منه في باب اختصاصي . فان البيت لم يدخله صديق ولا عدو وعلى الرغم من ذلك قد

سرق اسميث كما لو تكون العفاريث قد اختطفته ، فاذا لم يكن هذا أمراً خارقاً للطبيعة فاني ...

وقطع الحديث وصول رجل البوليس في ملابسه الزرقاء جارياً يلهث حتى وقف أمام الأب برون وقال :

— صدقت ياسيدي فأنهم وجدوا جثة المسكين مستر اسميث ملقاة هناك في القناة

فلطم أنجوس رأسه بيده لكمة شديدة وسأل :

— هل جرى إلى القناة وانتحر غرقاً ؟

فقال رجل البوليس :

— إنني أقسم أنه لم ينزل من البيت ثم هو لم يفرق نفسه أيضاً ولكنه مات مقتولا بطمئة بالغة فوق القلب

فقال فلامبو في صوت خشن :

— ومع ذلك لم تر إنساناً يدخل البيت ؟

فقال الراهب :

— فلنمش قليلاً في الطريق .

فلما وصلوا إلى الجانب الآخر من الطريق قال

القس :

— ما أشد غباوتي، لقد نسيت أن أسأل رجل

البوليس إذا كانوا قد وجدوا كيساً رمادي اللون

فسأل أنجوس مندهشاً :

— ولماذا يجدون الكيس الرمادي اللون ؟

فقال الأب بروك :

لأنه إذا كان الكيس من لون آخر فيجب أن

تبدأ القضية من جديد . أما إذا كان الكيس رمادياً

فقد انتهت القضية

فقال أنجوس وفي لهجته تهكم صادر عن اعتقاد

— يسرني أن أسمع هذا الكلام ، فان القضية

فيما يتصل بملئ لم تبدأ بمد

فقال فلامبو في سذاجة متناهية كسذاجة الطفل :

— يجب أن نخبرنا بكل شيء

كان الرجال الثلاثة يسرون بخطى تزداد سرعتها عن غير قصد حتى قطعوا مسافة غير قليلة على الجانب الآخر من الطريق . وكان الأب برون يتقدمهم صامتاً وقد بدا عليه شيء من الوجوم . وأخيراً قال في غموض يسترعي النظر :

— الحق أني أخشى أن تظنوا الأمر جدم ممل فنحن دائماً نبدأ من الطرف الغامض في الموضوع ، وإنك لن تستطيعا بدء هذه القصة من ناحية أخرى « ألم تلاحظا قط هذا الأمر — إن الناس

لا يجيبون أبداً عما يسألهم الانسان عنه ؟ إنهم دائماً يجيبون بما تقصد أنت أو بما يتوهمون أنك تقصده .

ولنفرض أن سيدة سألت سيدة أخرى تسكن بيتاً من بيوت الريف : « هل يقيم أحد معك ؟ » فإن

السيدة لن تجيب : « نعم ، إن مي في البيت الساقى وثلاثة من الرجال وخادم من النساء » إلى غير ذلك

على الرغم من أن الخادمة قد تكون في هذه اللحظة واقفة في الفرفة والساقى قد يكون واقفاً وراء

كرسيها . ولكنها تقول : « لا يوجد مي أحد في البيت » وقصدها « أحد » فمن تمنى أيها السائل .

ولكن افرض أن طبيباً موكلاً باتخاذ بعض الاجراءات الصحية سألها : « من يقيم في هذا البيت ؟ »

عندئذ تذكر السيدة الساقى والخادم جميعاً لا تنسى منهم أحداً . واللغة كما تسير على هذا النمط ، فإنا

لن نحظى على سؤال توجهه لأي إنسان بجواب يتفق مع حرفة هذا السؤال حتى وإن كان الجواب صادقاً ،

فهؤلاء الرجال الأربعة الأمتاء عند ما قالوا إنه لم يدخل البناية إنسان ما لم يقصدوا في الواقع مطلق

إنسان ، ولكنهم قصدوا « الانسان » الذي يمكن

أن يشتهوا في أنه « الانسان » الذي تبحثان عنه فما من شك في أن إنساناً قد دخل البناية وقد خرج منها ولكنهم لم يلاحظوه

فسأل أنجوس رافماً حاجبيه الجراوين :

— رجل خفي ؟

فأجاب الأب برون :

— خفي معنوياً

وبعد دقيقة أو دقيقتين استأنف القس كلامه

في نفس اللجة المتواضعة فقال :

— إن الانسان بحكم الطبيعة لا يستطيع أن

يفكر في مثل هذا الرجل إلا إذا فكر فيه فعلاً .

وهذا هو مبعث مهارته . ولكنني استطعت أن أفكر

فيه من خلال أمرين أو ثلاثة أمور صغيرة في القصة

التي رواها لنا مستر أنجوس : الأول ما قاله من أن

ذلك الرجل ويلكن تعود أن يسير مسافات طويلة ،

والثاني الورقة التي ألصقت على واجهة الخانوت ،

ويأتى بعد ذلك المسألان اللتان ذكرتهما السيدة

الصغيرة واللذان لا يمكن أن تكونا حقيقتين

وهنا بدت من مستر أنجوس حركة فجائية فقال

القسيس وهو مستمر في حديثه :

— أرجو ألا يضايقك كلامي ، فقد اعتقدت

هي أنهما حقيقتان ولكنهما لا يمكن أن تكونا

حقيقتين ، فمن المستحيل أن يكون الانسان وحيداً

في الطريق قبل أن يصله خطاب ما يضع ثوان ،

ولا يمكن أن تكون وحيدة في الشارع في اللحظة

التي بدأت تقرأ فيها الخطاب ، فلا بد أن يكون على

مقربة منها إنسان ما ، وهذا الانسان لابد أن يكون

خفياً معنوياً

فسأله أنجوس :

— وماذا لا بد أن يكون هناك إنسان على مقربة منها ؟

فقال الأب برون :

— لأنه فيما عدا الحمام الزاجل لا بد أن يكون إنسان قد أحضر لها الخطاب

فسأل فلامبو وقد بدا عليه النشاط :

— أريد حقاً أن تقول إن ويلكن هو الذي حمل خطاب منافسه إلى خطيبته ؟

فأجاب الراهب :

— نعم لقد حمل ويلكن خطاب منافسه إلى خطيبته وكما ترى لا بد أن يكون قد فعل

فصاح فلامبو :

— إنني لا أستطيع أن أتحمّل أكثر من هذا ، فمن هو هذا الإنسان ؟ وما هو منظره ؟ وكيف يكون تكوين الرجل الخفي ممنوياً ؟

فأجاب القسيس على الفور وفي لهجة للتوكيد :

— إنه يرتدى ملابس أنيقة تجمع ألوانها بين الأحمر والأزرق والذهبي ، وفي هذا اللباس الجذاب بل والخادع دخل الرجل هيلايا مانسوز أمام ثمانية أعين ترقبه ، وقتل اسميث وهو نائب معلم ثم عاد إلى الشارع يحمل القتيل بين ساعديه ...

فوقف أنجوس جامداً وقال :

— أيها السيد المحترم ، هل جئنت أم أنا الذي جئ ؟

فقال الأب برون :

— إنك لست بمجنون ، ولكنك لست شديد الملاحظة ، لأنك مثلاً لم تر إنساناً مثل هذا ...

وخطا القسيس ثلاث خطوات واسعة للامام

فوضع يده على كتف رجل من سعاة البريد المادين صر إلى جانبهم تحت ظلال الأشجار دون أن ينتبهوا إليه

واستمر الراهب يقول وهو منهمك في التفكير — إن الإنسان لا ينتبه عادة إلى سعاة البريد ، على الرغم من أن لهم عواطف كغيرهم من الناس ومن أن في مقدورهم أن يحملوا أكياساً كبيرة لا يصعب أن يختفي داخلها جسم إنسان صغير الحجم وبدل أن يتلفت ساعي البريد تلقائياً طبيعياً مال ووقع على الأرض مرتطماً بسور الحديقة . وكان رجلاً نحيلاً خفيف شعر اللحية عادي النظر ، ولكنه حين أدار وجهها غمره الجزع أخذ الرجال الثلاثة بما في عينيه من حول شيطانى صرّع

عاد فلامبو إلى مسكنه حيث ينهمك بين سيوفه وأبسطنه القرمزية وقطعه المعجمي منجزاً ما لديه من أعمال ، وعاد جون ترنبول أنجوس إلى فتاة الخانوت التي بذل أقصى جهده في التلطف لها . أما الأب برون فقد مشى عدة ساعات صاعداً تلك التلال المغطاة بالثلج تحت نجوم الليل في صحبة قاتل ، ولن يعرف أحد ما جرى بينهما من حديث ...

عبر الحبر محمدى

أحسب مؤلفات
الاستاذ الشايبوي
وكش
الإسلام الصحيح
مكتبة التراث في شارع الفلكي بالدار
مكتبة التراث العربية

ذِكْرُ امْرَأَةٍ

أَقْصَوْصُهُ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ عَبْدِ الْحَكِيمِ الْعِشِيرِيِّ

وشمرت وهذه الذكريات
تتري على مخيلتي بشعور مبهم
مختلط... شعور من يعود فجأة
وبلا إنذار إلي ماضيه، ليحيا في
بعض أيامه مرة ثانية، ويزيل
تراب النسيان عما سلف من
حوادثه.

كانت تلك المرأة يوم عرقها
في الأربعين من عمرها، وإن كانت تبدو في الخمسين،
ذات جسد منهدم، ووجه ذابل تظهر في أضاعيفه
آثار جمال تولى، وكان أعجب ما فيها بسمه وهبتها
لها الطبيعة، بسمه ذاهلة حائرة لم تكن تخفى عن
شفتيها إلا قليلاً، وعيون ضيقة ذاوية تفصح أعماقها
عن الداء الرهيب الذي ورثته هذه المرأة عن أسرتها،
وداء الجنون والعتة.

ولم يكن لها زوج، كلاب كان لها هذا الزوج
وتوفي بعد أعوام قليلة من معاشرته لها، ولكن
كانت لها ابنة، ابنة في سن العشرين أو تزيد حلت
ضيفة على المارستان منذ بلغت سن الثانية عشرة.
وكان أكبر ما أدهشني مما عرفتته عن هذه
المرأة، أنها تشرب الخمر، وتضع منزلها كل مدة ما
تحت تصرف رجل تجتذبه إليها بما لها ليعاشرها فيه
معاشرة الزوج لزوجته دون أن تربطهما رابطة زواج
شرعي. حتى إذا شبعت من معاشرته نبذته ليأتي
دور رجل غيره...

وكانما خلق الله هذه المرأة مجموعة من التناقضات
والمعجائب، وكانما وضع فيها أشنع صفات مخلوقاته،
وأقذر غرائز المرأة وأخلاقها، وأشد طباعها.
وكننت في تلك الأثناء التي عرقها فيها أسمع

ما أحسبني كنت أذكرها بعد ذلك للنسيان
الطويل، لو لم أسمع في تلك القرية النائية من قرى
مصر، وفي تلك الأمسية الساجية من أمسيات
الريف النارق أبداً في الهدوء، هذا الرجل الربقي
وهو ينفى في صوت حزين (الموال) الشهور المنتشر
بين جل أهل الريف الذي مطلعته:

«يا عم ياللي بلا خال تعال اعملك خالي»

«واحط قلبي الملان على قلبك الخالي»

لقد كان ذلك (الموال) وهذا الرجل يغنيه
يسيد إلى ذهني ضروبا من الذكريات متباينة مختلطة،
إذ كان يرتبط بشيء نسيته منذ زمن بعيد، بقصة
امرأة عجيبه ماتت كنت أسممها تغنيه حينما كانت
تعيش...

لم يكن الصوت القديم، صوت تلك المرأة
وهي تغني ذلك (الموال)، قد بقي منه في أذني
سوى أثره العاقي، ورغم ذلك فقد جددته صوت
الرجل الربقي وهو يردد ويرجع (مواله). فعدت
أسمعه من جديد بكل ما كان فيه، بنبراته الباكية
الكئيبة، وأنغامه المضطربة النائمة، وكان كلما تجدد
في أذني جدد معه ذكريات تلك الحفبة من حياتي
التي عشتها وهذه المرأة تعيش وأراها وأسمع عنها.

عن طيشها ونصرفاتها وأعمالها قصصاً غريبة .
وأرى من هذا الطيش وهذه التصرفات والأعمال
أيضاً الشيء الكثير الغريب ...

قبل لي ذات يوم إنها شربت زجاجة خمر من
زجاجات الخمر الرخيصة التي يبيعها « ديمتري »
في دكانه الصغير بالقرب التي كنت أعيش بها وتعيش
بها ، فلما ذهبت الخمر بوعيتها انطلقت في دروب
القرية وطرقاتها سكري تفوح من فيها رائحة الخمر ،
وراحت تصيح بصوت ثمل وهي تضحك ضحكات
قارعة عالية مدوية :

— هكذا يجب أن تكون الحياة: خمر وطرب...
ثم ذهبت تسب من كانوا في طريقها من الناس ،
فاجتمع حولها الصبية وطفقوا يقذفونها بالطوب ،
وينمرونها بالتراب ، حتى لم تعد تحتل عيّنهم
فسقطت على الأرض تصيح بكلام غير مفهوم ،
ولم يرحمها الصبية عند هذا الحد بل ازداد تنكيلهم
بها ، حتى خمدت حركتها واستكانت في رقتها
على الأرض تنظر إليهم بعين ابتدأت تنى وتفهم
وتتألم ...

ولم تستطع المود إلى بيتها في ذلك اليوم
إلا بمساعدة بعض الناس ...

ورأيت أنا بعيني مناظر كثيرة لهذه المرأة وهي
تهان على هذه الصورة عقب شربها للخمر وتسلط
شيطان الخمر على عقلها .

وكأنما لم يكفها ما أصابها من جنون ورائي ،
فأصيبت أيضاً بجنون الخمر وهو شر جنون .
ولا أعرف لم لم تنقل هذه المسكينة إلى المارستان
ولعل السبب في ذلك هو بعدها عن عيون من في
استطاعتهم نقلها إليه ، وعدم وصول أخبارها إلى

أولى الشأن في هذا الشأن .
وقابلت هذه المرأة يوماً ، فرحت أنصحها بترك
الخمر وهجر الطيش ، فنظرت إلى بعين نفدت
نظرتها إلى أعماق وقالت ساخرة :

— عشنا لنرى أولادنا ينصحوننا ، يا صغيري
العزير احتفظ لنفسك بهذه النصائح الذالية . وظلت
على طيشها وجنونها بل تمادت فيهما .

وفي ذات مساء شهدتني وهي تتخلص من رجل
كان يعاشرها وتماثره فلتته ، كانت تقول له وهو
جالس القرفصاء في ركن من أركان إحدى غرف
منزلها الصغير ، وعلى وجهه دلائل الخوف ، وفي
عينيه وميض الشقاء المقبل الذي سيمود إليه بعد
أن استمتع بحلاوة الحياة ونعيمها وراحتها بجوار
هذه المرأة .

— في صباح الغد يجب أن تجمع ثيابك باطفي
الفر ، وتذهب إلى حياتك التي انتزعتك منها مدة ما
فلن أستطيع أن آويك أكثر من ذلك ...

فتلقى كلماتها ساكناً وهو ينظر إليها نظرة
المحروم ، أو المطرود من دار حلاوة ليس له حق المعارضة
في طرده منها

وعادت المرأة تقول وقد شاعت في وجهها فرحة:

— وسوف آتي في القريب برجل آخر من
نوع آخر أبوه مكانك ...

وظهر على الرجل أنه يكاد يبكي ، ولكنه تماسك
واستطاع أن يبدد ما ظهر عليه ..

وهكذا تخاضت من رجل بمن تتخذهم أزواجاً
أو بالمعنى الصحيح أشباه أزواج ..

وبعد أيام قيل لي إنها اتخذت زوجاً جديداً ،
وقد رأته ... وكان فتى ما يزال أخضر الشارب ،

مديد القامة في امتلاء ، على كثير من الوسامة وإن كانت تقاطيع وجهه تنبئ بنفس شريرة أئيمة وتلبست أخبار حياتها مع هذا الفتى مدة ما ، ثم شغلتنى شواغل الحياة عن ذلك بضعة أشهر قليل لي بعدها إنها تركته وإنها تبحث لها عن رجل آخر جديد ، ويشاء الله أن يوقعها في الحب فتفنى البحث عن هذا الرجل ...

ولم أصدق في أول الأمر أنها وقعت في شرك الحب ، ولكن الدلائل على ذلك كانت كثيرة فصدقت. ولقد يكون غريباً أن تحب امرأة كذلك ، والواقع أنى لا أزال أعجب من هذا إلى الآن ... ومن أحببت ؟.. أحببت ضابط (نقطة) القرية الذى طالما أتى بها في سجن « المركز » والذى طالما أمر عسكره بجلدها لانطلاقها في الطرقات سكرى. لكأنما لم تدع هذه المرأة شيئاً غريباً شاذاً دون أن تأخذ منه بقسط

وبدأت أهتم بالمرأة وبأخبار حبها ، وكثيراً ما كان يرسم في مخيلتى قلب امرأة في الأربعين من عمرها وقد عادت تجرى فيه دماء الحياة والشباب والحب بمد أن شاخ وهمم ، فأقول لنفسى إن الله قادر على كل شيء يحى المظالم وهو رميم وانقضت على هذا الحب تسعة أسابيع ، وزرت ضابط « نقطة » القرية ، وكانت لى به معرفة ازدادت أخيراً ، ورأيت أن أحدث معه فى أمر تلك المرأة المعجبية التى تحبه ، فقلت له :

— هل أملك نبأ تلك المرأة التى تحبك ؟
ففهم على الفور أى امرأة أعنى ، وتبسم وهو يقول :
— طبعاً . ولكنى أعجب كيف أحببتى هذه المرأة المجنونة ...

قلت : أوائق أنها تحبك ؟
قال : هذا ما يبدو لى ...
قلت : وماذا ترى فى ذلك ؟
قال : لا شيء . لقد قلت لك إنها امرأة مجنونة . ثم سمعت لحظة وأردف ضاحكاً :
— دعنى أحدثك عن حادث عجيب ، أو قل مضحك جرى لى معها منذ أيام ...
قلت على الفور : هات ما عندك . أسرع فراح يحدثنى :

— كنت مضطجماً على أريكة فى إحدى غرف منزلى لأستريح بعد أن قضيت يوماً كله عمل وكد وفجأة انفتح باب الغرفة ، ودخلت على تلك المرأة تترنح ثملة ورائحة الخمر تنبعث من فمها ، وحينما رأتنى اندفعت تجرى إلى ، ومالت على تدنى من فى جبينها المنضن للكريم وهى تنغم فى صوت لاهت ثمل مثلها :
« هيا قبلنى أيها الحبيب ، على جبينى هنا ، فانى أخاف أن تأنف من تقبيل فى فى الذى لوئته الخمر هيا فقد تشاجرت بسبب هذه القبلة مع الشرطى الذى يقوم على خدمتك ، حينما أراد منى من القدوم إليك ، واضطرت فى آخر الأمر إلى حبسه فى « المطبخ » وإغلاق يابه عليه بالفتاح ، هيا ولا تدعنى أنتظر فإن قواى تتلاشى من التمسب الذى سببه لى هذا الشرطى العنيد »

وكانت رائحة الخمر المنبعثة من فمها تضيق أنفاسى وكان جبينها بفضونه وقذارة شكله يثير فى نفسى الاشمئزاز ؛ فاستجمعت قواى ودفعتها بيدي بعيداً عنى ، دفعتها دفعة قوية أسقطتها على الأرض كما تسقط القطعة الكبيرة من الخشب ، وارتطم رأسها بالبلاط فخيل إلى أنه تحطم ، وسمعت صرخة خفيفة

— ابنتي ماتت .. أوه! لقد كدت أنسى هذه
البنت المسكينة ...

وسقطت قطرة من دموعها بين شفتيها فمسحتها
بأصبعها في سهوم وشروود ، ثم تكلفت الالبسام
وهي تقول :

— ولكن لاداعي للحزن ... فكلنا سنموت .
وكنت مع بضعة نفر من أهل القرية التفتوا
حولها قد عمنا الوجوم والصمت ، فنظرت إلينا
وهي تضحك في اضطراب وأردفت قائلة :

— لماذا صمتكم ووجومكم هذا ؟! هيا عودوا
إلى حالتكم التي كنتم عليها قبل الآن « فرفشو » .
ابتسموا ، أيؤلمكم منظر أم ماتت ابنتها ؟! ...

وظفقت تضحك ضحكات كأنها العويل والنواح
فلما وجدتنا لم نغير من حالنا انقطعت عن الضحك
فجأة ونظرت إلينا في دهش ، ثم في ابتئاس ، ثم
في ... ثم نظرت إلينا نظرة لم أفهم لها معنى ،
وتركتنا في خطوة منهثرة دافئة وجهها بين راحتها
تنحب ... !

محال أن تربل يد النسيان من ذهني هذه اللحظات
ومحال أن تسلبني منظر تلك المرأة فيها^(١) محال

ومن ذلك اليوم ابتدأت أسمع تلك المرأة وهي
تنفي ذلك الموال الذي يقول مطلعها :

« يا عم يا لى بلا خال تعال اعملك خالى »

« واحط قلبي الملان على قلبك الخالى »

وكانت تشرب الخمر حتى تتمايل سكرآ ، وتنطلق
في طرقات القرية تنفيه بصوت مضطرب ينص
بالحزن والبكاء ، وكان الصبية ينطلقون خلفها في
كثير من الأحيان يرمونها بالطوب ، ويحتفنون

(١) أعني منظرها في تلك اللحظات

انسابت من بين شفتيها كأنها عويل مخنوق ، ثم ...
ثم نهضت وتركت الأريكة والمنضب يأخذ منى كل
مأخذ ، فرأتها تنظر إلى في عتاب رحيم وتقول :
« في سبيلك أيها الحبيب » ولم تلفظ بغير هذه
الكلمات ، وخرجت فأطلقت الشرطى المسجون
في « الطليخ » وطلبت منه أن يذهب فيحملها ويأق
بها خارج المنزل . وقد كان

وصمت الضابط وهو يخرج من عتبة دكانته
دخينة وضمها بين شفتيه وتتم :

— لقد قلت لك إن هذه المرأة مجنونة ...

وأشعل الدخينة وراح يدخنها في صمت ،
واستأذنته في مبارحته ، ثم انطلقت إلى الطريق
وأنا أشعر بقلبي قد امتلأ شجناً

ولم تفارق خيالي في ذلك اليوم وليله ، صورة
امرأة في الأربعين سكرى ملقاة على أرض إحدى
غرف منزل تنظر في عتاب رحيم للرجل الذي أهانها
بالقائه لها هكذا على أرض الغرفة ... الرجل الذي
نحبه ولا يحبها ، وتهتف قائلة له « في سبيل حبك
أيها الحبيب ! »

وكانت الأيام تمضي وأنا أقرب عن كשב تلك
المرأة العجيبة واهتمامى بأمرها يتضاعف ويتضاعف
في كل يوم وفي كل ساعة ، وكنت معها ذات يوم
عندما أتاهما نيا موت ابنتها نزيلة البيارستان ، أبدأ
لن أنسى ما بدا على وجهها وما لاح في عينيها وقتذاك ،
لقد لاحت في عينيها نظرة حائرة تأهية ، وبدت على
وجهها جهامة وانقباضة وتفكير ، وظلت على ذلك
بضع دقائق ، ثم تندت عيناها بالدموع وهتفت
في خفوت :

— لقد خيل إلي في نومي أنه آت لي موطن ...
 ألا ما أفساه من حبيب ...
 وتلايلات في عينها دمة ...
 وبعد لحظة التفتت إلي تسألني :
 — هل قابلت ضابط « النقطة » منذ قريب ؟
 قلت : أجل ...
 فسألتني في إصرار وهي تكاد تذوب شوقاً ولهفة :
 — وكيف حاله ؟
 قلت : كما هو ...
 فأغمضت عينيها وظهر عليها أنها تستعيد شيئاً
 حلواً ، ثم عادت ففتحتهما والتفتت إلي قائلة :
 — هل رأيت في هذه الدنيا امرأة أشق مني ؟
 فنظرت إليها طويلاً ... ولكنني لم أجبها ...
 وتصرفت أيام . وفوجئت بخبر يقول إن ضابط
 « نقطة » قريبنا سينقل بعد يوم إلى « نقطة » أخرى
 في بلد بعيد ، وكانت صحة صريقتي قد ساءت وتدهورت
 فحاولت بكل ما وسعني أن أمنع هذا الخبر من الوصول
 إلى أذنها حتى لا يصيبها بشر جديد ، ولكن رجلاً
 ممن عادوها تدفعهم الشفقة أوجب الاستطلاع أوصله
 إليها دون أن أعلم ، فلما اختلت بي بعد ذلك وكنا
 في الصباح قالت لي وضوتها يرتعش :
 — سوف أذهب في المساء لأودع ضابط
 « النقطة » فقد علمت أنه سينقل إلى بلد آخر غير
 هذا البلد . فهل تستطيع مرافقتي إلى منزله ...
 قلت وأنا أعجب لها في نفسي وأخفي عجيبي
 — إنك الآن في أسوأ حالات المرض ، فلا
 ينبغي أن تكلفي نفسك مشقة ...
 — وهل تحسبني أستطيع تركه يذهب دون
 أن أودعه ؟

للتراب يافونه عليها ، وكثيراً ما أنقذها الناس ولموم
 يكاد يقضى عليها ...

مسكينة ... لقد كانت تعيش بقلب جريح ،
 وعقل مجنون ... كانت فريسة لحب يائس وجنون
 أليم ، وحزن تملكها بعد موت ابنتها . وعينها حاولت
 أن تجد ذلك الرجل الذي لا « خال » له لتضع على
 قلبه « الخالي » قلبها المملوء بالآلام والأشجان !

وانتابت البائسة في يوم من الأيام حمى شديدة
 نخرت على فراشها تمانى آلام هذه الحمى فوق
 ما تمانيه من آلام قلبها وعقلها ، والتفتت حولها
 تبحث عن يقوم على خدمتها في محنتها الأخيرة هذه
 فلم تجد أحداً سواي ، كان كل الناس قد هربوا منها
 إلا إياي ، فلقد كنت أعطف عليها وأرثي لها فلم أشأ
 أن أتركها تقاسي ألم المرض وحدها ؟ ونظرت إلى
 وهي تقول :

— ولكني أسأت إليك من قبل يا سيدي
 فقلت : ما فات مات ...

وكانت لي صلة بطبيب يقيم في « المركز » الذي
 تتبعه قريبنا فاستقدمته ليشرح على علاجها ، وأثر
 في المرأة هذا المعطف والاهتمام ، فراحت تدعوني
 بالسعادة وراحة البال وطول العمر

وقد خف جنونها في أيام هذا المرض ، ولكنها
 في أحيان كثيرة كانت تمن إلى البحر فلا تستطيع
 منعها من شربها ، وفي ذات مرة أخذتها سنة من
 النوم وأنا بجوارها ، فسمعتها تهتف باسم ضابط
 « نقطة » القرية ، وأثر في ذلك فاستعبرت وأنا أرنو
 إلى وجهها للشاحب وأهن رأسي في أسي وإشفاق
 ولما استيقظت نظرت حولها في دهشة وتبسمت
 في كآبة وهي تتمم :

طلبتها منه ، وأمسكت المرأة يده تفضظ على أناملها
في عصبية وهي تصبح

— أنت ... أنت ...

وبعد حديث ووداع دام بضع دقائق غادرها
الضابط ، وقد بدت على شفيتها وهي تشيعه إلى الباب
يصرها السكابل بسمة فيها حزن ووداع وبكاء
والتفتت إلى تقول بعد أن ذهب :

— إنى لأصدق. يخيل إلى أننى كنت فى حلم ...
وفى اليوم التالى سافر ضابط «النقطة» إلى البلد
البعيد الذى نقل إليه ، وبعد أيام من سفره ماتت
المرأة المريضة السكيرة المجنونة التى أحبته فلم تسد
بجها إلا مرة واحدة ، فودعت بموتها امرأة عجيبه ،
مرت بحياتى كما يمر بخيال النائم حلم عجيب !
عبد العظيم محمود العشري

— سوف آتى به إلى هنا فتودعينه وأنت على
فراشك ...

فهم وجهها الفرح وصاحت وهي لا تصدق
ما أقوله :

— أو يقبل الجيء إلى هنا ؟
فطلأتها ... وأكدت لها أنى سأجمله على الحضور
إليها ، وذهبت فرجوت الضابط أن يأتى مى إليها ،
وقد رق لها قلبه بعد أن وصفت له حالها ، فأجاب
رجائى وراقنى إليها

وحينا دخل عليها كادت المسكينة تموت من
الفرح ، واخرورقت عينها بالدموع وهي تنظر إليه
غير مصدقة أنه هو حقاً ...

ورق لها قلب الضابط أكثر ، فأنحنى عليها بضع
على جبينها قبله ... القبلة التى أهانها من قبل حيناً

بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادى

عاملوه ... وعاملوا شرفهم تكبروا ... النصر ليهودكم

حاجي بابا أصفرهاني

للكاتب الإنجليزي "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثامن والأربعون

ما جرى بابا يعود الى بيت أبيه في أصفهان

لم أنتظر سماع كلمة أخرى وخرجت في الحال من مدينة قم، وكان في جيبى دربهات قليلة تكفى لشراء اللقوت في أثناء الطريق. ولقد كان بودى أن أبقى في مدينة قم حياً وأن أنضم إلى تلاميذ ميرزا أبي القاسم؛ ولكن دفعنى إلى العودة نحو وطنى طول شوقى إلى أبى واعتقادى أن ما رأيته من الكروب والمصائب إنما يرجع إلى عقوبته وقلت فى نفسى: «أنا لو كنت ابناً باراً لما أهملت أبى فى أصفهان وتركته فى ضنف الشيخوخة مضطراً إلى محاولة حرفة الخلاقة لكي يكتسب اللقوت»

ولم أزل أسير حتى بدت لى أصفهان عن بعد، تخفق قلبى وانشغل فكرى بتصور الحالة التى سأجد عليها أسرتى، وتساءلت: هل أجد مملى لا يزال على قيد الحياة؟ وهل جارنا الببدال الذى كنت أشتري منه الحلوى لا يزال مقبلاً فى حانوته؟ وهل صاحبى بواب الخان لا يزال جالساً أمام الباب الذى اعتسدت الجلوس عنده طول ليله وطول نهاره؟ وهل إذا رآنى سيدكر زيارتى مع التركانيين لهذا الخان ومسرقتنا منه ما وصلت إليه أيدينا؟

ولما صرت قريباً من باب أصفهان وقفت خاشعاً

وأقمت صلاة الشكر، وقلت فى نفسى: إن أبى سيرانى بعد قليل وسيعرف أن ابنه لا يزال على قيد الحياة، ونذرت لسيدنا على نذراً بأنى إن وصلت، فوجدت أهلى بخير فسأذبح ذبيحة وأدعو إليها الفقراء، وكان خفوق قلبى لا يزال يعلو ويزداد

كلما اقتربت من حانوت أبى. وسرت فى الطريق التى كانت لا تزال كمهدماً وكانت معرفتى بها لا تزال حاضرة فى الذهن حتى وجدت نفسى بين حانوت أبى وبين الخان

وكان باب الحانوت مغلقاً، وجملنى الخوف من سماع جواب سى "أحجم عن السؤال عن أبى، ولكن لما ملكت روعى تذكرت أن اليوم يوم جمعة وأنه لا يمد أن يكون أبى قد جمل الصلاح دينه فى أخريات أيامه فترك العمل فى أيام الجمعة. وبعد قليل فتح باب الخان ورأيت صاحبى البواب يسير محاذياً للحائط وقد احدودب ظهره وصار يياض لحيته ورأسه ناصعاً، ولكننى عرفته من أنفه الأتى الذى أستطيع تمييزه بسهولة من بين ألف من الأنوف فحيته التحية المعتادة، فرد على دون أن ينظر إلى وجهى

فناديته باسمه وقلت: «ألا تعرفنى يا على؟» فنظر إلى وقال: «إن الخان أيتها الصديق معرض للدنيا، فى كل يوم أرى عشرات من الوجوه ولا تستطيع ذاكرتى أن تعيها كلها»

قلت: «لا بد أن تكون متذكراً حاجى بابا الذى كان يخلق لك فى الزمان القديم»، فقال البواب: «لا إله إلا الله! أنت حاجى بابا! لقد خلا مكانك منك مدة طويلة فهل رجعت فى النهاية؟ الحمد لله

على وجه البعوض ولكن الدهشة كانت بادية على
أوجه الجميع

وفتح أبي عبيدة اللتين كانتا منغمضتين وقد ومض
فيهما بريق السرور وظهرت عليه الرغبة الشديدة
في رؤيتي وأمسك بيدي والتفت إلي وقال: « الحمد
لله ! » ثم قال: هل كان حسناً منك أن تتركني كل
هذا الأمد ؟ أما كان يحسن أن تأتي قبل الآن ؟
« وكان يود أن يستمر في عتابه، ولكن الانفعال
الذي أحدثته هذه المفاجأة كان أكبر من أن تحتمله
صحته الضعيفة فخارت قواه وارتمى رأسه على الوسادة
وقال لي معللي: « اسكت يا حاجي بابا ! لا تقل شيئاً
حتى يفيق لأنه يريد أن يكتب الوصية »

وقال شاب كانت عيناه تنظران إلى نظرة شديدة
العداوة: « نعم . وعلياً أن نتحقق هل هذا هو
حاجي بابا أم لا »

وقد تبينت أن هذا الشاب هو أخو زوجة أبي
وكان بطمع أن يوصي أبي له بجزء كبير من تركته
كما كان معللي يطمع في مثل ذلك وقد تحققت أيضاً
فيما بعد أن أكثر الموجودين كانوا يطمعون في أن
يوصي لهم أبي بأجزاء من تركته ، وأن مجيئي كان
نكبة عليهم لأنهم حرموا جميعاً مما كانوا يطمعون
فيه . ولولا أن المعلم شهد بأنني حاجي بابا لاجتمعت
كلمة الباقين على طردى من هذا المجلس ولقد زال كل
شك في حقيقتي عند ما فتح الباب بمد قليل ودخلت
منه أي لأنها لما سمعت خبر مجيئي لم تستظم البقاء
في حجابها وراء الستور ودخلت للفرقة مبسوطة
الذراعين لتعانقني وقد نسيت أن تضع علي وجهها
نقاباً وصاحت: « أين ابني ؟ أين أنت يا حاجي بابا ؟ »
فلما أظهرت نفسي لها ارتمت علي وبكت بصوت

لقد أذن لكربلائي حسن بأن يرى ابنه قبل أن يموت
قلت: « ماذا تقول ؟ أين أبي الآن ؟ لماذا تذكر
الموت ؟ »

فقال: « لقد شاخ أبوك وهو الآن على فراش
الموت فلا تضيع وقتك سدى واذهب في الحال
لملك تدركه قبل أن تفارقه الحياة ... »

واستمر للبواب يتكلم ولكنني لم أقف حتى
أسمع بقية كلامه بل ذهبت تواء إلى المنزل فوجدت
بالقرب من باب شيخين يتسكمان فلم أسترح لرؤيتهما
لأنني عرفت أنهما من رسل الشؤم

ودخلت المنزل فوجدت فيه رجالاً كثيرين
قد أحاطوا برجل نائم فنظرت إليه وقد عرفت أنه أبي
ولم يعرفني أحد من الموجودين ولكن أحدهم
لم يعترضني لأن العادة جرت في هذه البلاد على أن
يدخل غرفة المحتضر من يشاء من معارفه دون
استئذان ، ووجدت في طرفي للفرقة رجلين أحدهما
الطبيب والآخر معللي السابق ، وكان المعلم يمزى أبي
بهذه الكلمات: « لا تيأس فقد يمد الله في أجلك
حتى ترى ابنك حاجي بابا ولكن الحزم يقضى بأن
تكتب وصيتك وتعين اسم وارثك »

فتشهد أبي وقال بصوت خافت: « لقد عني
ابني ولم يفكر في أمري فهو غير جدير بأن أجمله
وارثي »

فكان أثر هذه الكلمة شديداً علي ولم أستطع
مع سماعها إلا أن أعلن وجودي فقلت: « إن حاجي بابا
هنا وقد جئت يا أبي لتدعولي فلا ترفض » ثم ركمت
بجانب الفراش وأخذت يده فقبلتها وبكيت ، وكان
لما بدا مني تأثير قوي على جميع الموجودين وبدأ القلق

مرت بي في الحياة ، وكنت جالساً منفرداً في ركن من الغرفة أبكي بكاء صامتاً لا كالبكاء المتكلف الذي يكيه الباكون . وجاءني أحد الجيران فقال إن التقاليد تقضى بأن أمزق ثيابي لأدل بذلك على أني ابن بار فقلت له : « ألا يمكن أن أؤدي واجب البر وأحتفظ بالثوب الذي لا أملك غيره ؟ »

وقال لي أيضاً إنه يجب علي أن أترك رأسي عارياً وقدمي حافيتين حتى يتم الدفن فوافقت على ذلك . وعلمت فيما بعد أن هذه الموافقة أكسبني سيرة حسنة في موطني ، وكان حزن أمي عنيفاً فقد قطعت شعرها ومزقت ثيابها وكانت صرخاتها عالية تشق عنان السماء

وأخذ معلمى بيدي وقال لي ايمزبني : « لقد مات أبوك ولكن أليس الموت غاية كل حي ؟ لقد مات ولكن هل خلد إنسان قبله حتى كنت تطمع في أن يخلد ؟ إنك قد حللت في الدنيا محل . فأد ما كان يؤديه من الأعمال الصالحة . وأيقن أنه الآن بين حوريتين من حور الجنة يشرب اللبن والمسل الالهيين فهل هذا هو يكيك ؟ أنظر إلى النسم التي من الله عليه بها واحمد فقد كان من المحتمل أن يموت كافراً ولكنه بحمد الله مات مؤمناً . وقد كان من المحتمل أن يولد تركياً ولكن الله من عليه بأن جعله إيرانياً . وقد كان من المحتمل أن يفشاً سنياً ولكن رحمة الله قضت أن يعيش شيعياً . »

واستمر يمزبني على هذا النوال حتى سئمت فتركتني ليحدث غيري ، وحي رجال لم أر في الحياة أقدر منهم لينسلو أبي قبل دفنه . واستشاروني هل يستأجرون عدداً من حملة الأعلام والشارات ليسيرو أمام الجنازة كمادة الوجهاء أم يحملونها بسيطة

عال ونظفت بكل كلمة رفيقة أملتها عليها الداكرة في الحين . ونظرت إلى من الفرع إلى القدم نظرة محب مشتاق — لا ، بل نظرة أم ، لأن المواطن التي أبدتها لا تظهر إلا من الأمهات

وفي هذا الحين كان الطبيب يحاول أن ينبه أبي من الإغماء وأبدى أبي علامة سيئة لم يجسر الطبيب معها على إعطائه الدواء قبل أن تمر ساعتان وبعد ساعتين أعطى الدواء وبدلاً من أن يقوم فيملي وصية كما كان الكل ينتظر ، فإنه قد النطق والحركة . ولما فخصوه وجدوه قد مات ، فقال المعلم : « أوصل إليك باسم الله أن تفيق فانتا نريد أن تكتب الوصية »

وكان صوته وهو يقول ذلك أشبه الأصوات بالبكاء . وقام فمز رأسه ولكن بغير جدوى لأن الحياة قد فارقت . وبلوا قطعة من القطن فمصروها في فمه وأداروه نحو القبلة . ثم أخذ معلمى يرتل آيات من القرآن ، ووضع منديلاً تحت رأس أبي وربط فوق رأسه ، ثم ربط إبهامى قدميه معاً ونطق جميع الموجودين بالشهادتين . وبعد ذلك اجتمع النساء حول الجنة وأخذن في البكاء والنحيب ، وفي الوقت نفسه أخذ اثنان من حفظة القرآن يرتلان سورة من القرآن

ولما سمع البكاء في المنازل المجاورة هرع كل نساها إلى منزلنا لأن أبي كان محبوباً من أهل جيرته وقد حضر المأتم والجنازة من الرجال ومن النساء أكثر من الممد الذي يحضر عادة في مأتم أي خان أميرزا

وعلى الرغم من كثرة المزين فقد كنت أنا الحزين الوحيد لأن موته ذكرني بكل الحوادث المؤلة التي

وكانت قراءتهم في وقت واحد وبذلك تمت قراءة المصحف كله في وقت قصير

وعلى أثر ذلك ذهبت أمي وكثيرون من النساء إلى القبر وأخذن معهن مقادير من الفاكهة وأنواعاً من الطعام وفرن ذلك على الفقراء ثم عدن إلى المنزل نائحات بأعلى أصواتهن

وبعد أيام أخرى خلعت أمي حزنها وارتدت ثياباً بيضاء وصبغت شعرها وبديها بالحناء وبذلك انتهت كل إجراءات الموت وتركنا وشأني لأدبر تركة أبي ولأفكر في مستقبل

الفصل التاسع والأربعون

ماحي بابا يصبح رارناً لتركة غير مرمودة

مات أبي ولم يترك وصية فكنت وارثه بغير منازع وكان من الطبيعي أن يسرف في ذمى الدين كانوا يطعمون في أن تنتقل إليهم التركة بالوصية وأن يهتموني بالاسراف وبأننى عاق وبأنى غير متدين وبأنى جواب آفاق

ولما كان في عزى ألا أقيم في أصفهان فقد نظرت إليهم نظرة احتقار ولم أهتم بأى قول يقولونه ولما قابلت أمي على انفراد دار هذا الحديث :

قلت : « أخبريني يا أمي — فانه لا ينبغي أن يكون بيتنا سر — عما تركه أبي فقد كان يحبك ولا يمكن أن يكون أخفى شيئاً عنك »

فقالت باضطراب واشمزاز : « وماذا تريد من تركته ؟ » فاستأنفت قولي متظاهراً بأنى لم أسمع جوابها وقلت : « تعرفين أن الوارث ملزم في الشرع والقانون بأن يسدد ديون مورثه وتعرفين أن نفقات الجنازة لم تدفع بعد . وأنا الآن مجرد من المال كالיום

كالفقراء ؟ فأحلتهم إلى معلمى ليجيب بالنيابة عني . وكان جوابه أن أبى كان من المبروفين في المدينة الذين اتسمت شهرتهم ، وأنه لذلك يجب أن يدفن كما يدفن سائر الوجهاء . فحى بعدد كثير من هؤلاء وساروا بأعلامهم أمام النعش الذى تطوع كثيرون لحمله على أعناقهم فدلوا بذلك على أن أبى كان محبوباً . وكانت الجنازة كلما تقدمت مسافة في الطريق انضم إليها فريق من الناس حتى إذا ما وصلنا إلى المدفن كان عدد المشيعين لا يستهان به

وبعد أن أقيمت الصلاة جرت عملية الدفن وجلس حول القبر اثنا عشر قارئاً للقرآن فتلوا آيات معينة ثم قرئت الفاتحة ثم ودعنى المشيعون على أن يقابلوني فيما بعد بالمنزل

ولما صرت وحدي سألت نفسى : « هل النذر الذى نذرت عند باب المدينة أصبح واجب الأداء أم صرت في حل منه ؟ »

ولما لم أهتم إلى جواب عزمت على أن أستشير ولما عدت إلى المنزل وجدت كثيرين في انتظارى . وكان وقت المشاء قد حان ورأيت أن واجب البتوة في نظر أهل المدينة يقضى بأن أنفق عن سخاء ، فلم أجد بداً من الوفاء بالنذر فأصرت بأن تذبح ذبيحة وبأن يقدم الطعام إلى كل من في المنزل من المزين واستأجرت ثلاثة من حفظة القرآن ليقرأ واحد منهم ما تيسر منه في الغرفة التى مات أبى فيها وليقرأ الآخران عند القبر

وبعد أيام لا أعرف عددها جاء أناس كثيرون جلسوا في أكبر غرفة بالمنزل على شكل دائرة وكان في يد كل منهم جزء من القرآن وأخذ كل منهم يقرأ بصوت عال سورة غير التى يقرؤها الآخر

المسجد بين حلقة من تلاميذه. ولما رأى طرد تلاميذه
وقال : إن خطواتي إليه خطوات سميدة وإنه يسر
بأن يقدم لي كل خدمة أريدها

قلت : « لا تصعك على بهذه الكلمات . لقد
كنت أنتظر من القدر الذي حرمني من أبي أن
يمنحني ما أستحقه من ميراثه »

فرجع المعلم عينيه إلى السماء وقال : « الله كريم
هكذا يا بني حال الدنيا وعلى العاقل الحكيم أن يسد
عينيه عن كل المطامع الدنيوية فلا يتطلع إلى شيء
من ترائبها الفاني »

فقلت : « من أي عهد أصبحت صوفيا حتى
تتكلم بهذه اللجة ؟ إنني أستطيع أيضا أن أقول
مثل هذا القول ، ولكن أماننا أمورا جدية »

وطلبت إليه أن يخبرني عما تركه أبي
فتنحج وتظاهر بالجد والوقار وأقسم أغلظ
الأيمان أنه لا يعرف إلا ما سمعه من أبي ، وأن أبي
قالت له إن أبي مات ولم يترك شيئا من المال

وجت مدة طويلة ثم أبدت دهشة مما سمعته
لأن أبي كان رجلا متدينا وكان يملك بغير شك
مقدارا وافرا من المال . ويبدو أن يكون قد أقرضه
بالربا . وتذكرت قصة تدل على استحالة ذلك ، وهذه
القصة هي أن عثمان أغا أراد أن يقترض منه بالربا
فذهب أبي إلى أحد العلماء وسأله هل يبيع الدين
ذلك ، فتلا عليه العالم آية من القرآن تحرم التعامل
بالربا قطعا وقال لي أبي بعد ذلك إنه لن يقترض ولن
يقترض ما دام حيا ، وأوصاني بأن أكون مثله
في ذلك

تركت المسجد يائسا من الحصول على المعلومات
التي كنت أريدها وذهبت إلى خانوت أبي فجلست

الذي ولدني فيه ولا بد لي من الحصول على المال.
وإلا فاني أفتضح ويهان اسم أبي ويمكن مني أعدائي
وقد اشتهر أبي بأنه غني ويجب محافظة على سمته
ألا يظهر عكس ذلك على أثر وفاته فأخبرني يا أبي
كم ترك من المال وكم عليه من الديون ومن هم دائنوه
وهل له مدينون »

قالت أمي : « الله ! الله ! ما هذا الكلام الذي
تقوله يا حاجي بابا ؟ لقد مات أبوك فقيرا ولم يترك
مالا ولا عقارا وقد كنا لا نأكل غير الخبز الجاف
إلا في الأيام التي يكثر فيها زائرو هذه المدينة من
التجار فانه كان يأتي بطبق من الأرز وآخر من
الكباب . أما فيما عدا ذلك فان معيشتنا لم تختلف
شيئا عن معيشة الشعاذين فما هو المال الذي تسألني
عنه ؟ هذا هو المنزل أمامك فابحث فيه ما شئت وهذا
هو خانوت أبيك فانظر ما الذي فيه : لقد كان
وصولك في وقت مناسب فافتح خانوت أبيك واستمر
في صناعته وإن شاء الله جمع لك من الثروة ما ترجوه »
فقلت : « هذا الذي أسمعه يا أبي شديد الغرابة
فان أبي ظل يكتسب أكثر من خمسين عاما ويستحيل
ألا يكون قد وفر شيئا في خلال هذه المدة . وأريد
الآن أن نقسم ذلك الربح »

قالت في شيء من الاحتياج : « نقسم ؟ هل
تهم أمك يا حاجي بابا بأنها سرقت منك أو من أبيك
شيئا . إذهب وسل أسدقاء أبيك . إسأل معلمك
فهو يعرف إن كان أبوك ترك شيئا أم لا »

فقلت : « إن المعلم لو كان يعرف لما ألح قبل
موت أبي في كتابة الوصية . ومع ذلك فاني سأقابله
وأسأله »

وذهبت فوجدته جالسا في ركن من أركان

رأيت كثيرين من التجار استدلوا على أموالهم المفقودة بهذه الطريقة ولست أعرف حادثة لم يستطع المنجمون الوصول فيها إلى مال مفقود إلا حادثة اعتداء التركمان على الخان ، ولقد جلبت على هذه الحادثة ويلات عظيمة لأن بعض الناس اتهموني بأنى كنت شريكاً لهم لأنى أنا الذى فتحت الباب للصوص وقلت إن فيهم صديقاً لى اسمه مثل اسمك يا حاجى بابا »

ولقد كان من حسن حظي أن هذا البواب ضعيف البصر فخلت شبهة فى نفسه محل اليقين فى أمر هذه الحادثة ووعدتى بأن يرسل إلى أعظم منجم فى أصفهان وقال لى فى وصفه إنه يخرج قطعة الذهب من تحت أطباق الأرض

الفصل الخمسون

مهاجى بابا والنجم

فى صباح اليوم التالى جاء رجل إلى غرفتى قصير القامة هزيل الجسم أحذب الظهر كبير الرأس لم أر عينين أشد سطوعاً من عينيه فعرفت أنه النجم . وكان عليه ثوب من ثياب الدراويش . وقد بدأ يسؤالى عن كل شيء حدث لى خصوصاً بعد عودتى إلى أصفهان وكان يدقق فى البحث عن التفاصيل ويسأل عن كل رجل له معرفة بأبى . ولما كانت أوى فى ذلك الوقت متغيبه فى الحمام فلم أخبرها بعد ذلك عن مجئ النجم ولكنى رجوتها أن تدعو فى اليوم التالى كل أهلى ليتغدوا عندنا ... ولما اجتمعوا فى المنزل سلمت عليهم وقلت لهم إننى أريد الاستشهاد بهم على ما تركه أبى فنظر بعضهم إلى بعض وبدلاً من أن يشتركوا مع أوى

به وفكرت فى الوسيلة التى أحصل بها على رزق فى المستقبل وعزمت قبل كل شيء على ألا أقیم فى أصفهان وفكرت فى الذهاب إلى طهران لأنها خير بلد يعيش فيه رجل مثلى . وقام بنفسى اعتقاد أنه من المستحيل أن تكون أوى ومعلمى صادقين فيما زعماء من موت أبى مفلساً . فبدأ لى أن أحكم معهما إلى القاضى

وبينما أنا أفكر فى هذه الأمور إذ رأيت صاحبى بواب الخان ، ولما وقع نظره على أقبل نحوي وعزاني ولما رأى شدة انقباضى وشرود ذهنى قال لى : « لماذا تحمل كل هذا المم ؟ إن أباك قد مات ولكنه تركك فى سن تستطيع معها العمل وأنت وريثه ولم يكن رحمه الله فقيراً »

قلت : « نعم إننى وريثه ولكنى لم أجد شيئاً أرثه فيه إلا هذه اللطسوت النحاسية والمواسى وإلا البيت المبنى بالطوب الذى »

فقال : « ولكن أين ماله يا حاجى بابا ؟ لقد اشتهر أبوك بأن لديه مالا كثيراً . وكل إنسان فى المدينة يعلم أنه ما كان يمر يوم واحد على أهلك دون أن يزيد على المدخر عنده من المال مقداراً آخر »

قلت : « هذا صحيح . لكن أية فائدة لى من هذا القول ما دامت أوى تنكره ومعلمى يشهد لها ؟ إنه لم يعد أمامى غير أن أذهب للقاضى »

فقال البواب : « تذهب للقاضى ؟ معاذ الله أن تذهب للقاضى ! لا تذهب إليه فانك لن تستفيد منه شيئاً وهو لا يهب العدل ولكنه يبيعه بالثقال »

قلت : « وما الذى أفعل ؟ » فقال : « اذهب إلى النجمين فانهم يرشدون عن كل مال ضائع وقد

قال المنجم : « لا تتمتع بمعرفة ولا تثب هذه الوثبة فان الله سيظهر الحقيقة على يدي » ثم دار بنظره فينا مرة أخرى وقال : « هل تريدون أن أن تعرفوا الحقيقة ؟ » فقلنا : « نعم »
وعند ذلك نادي تلميذه وأخذ منه كيساً كان معه فأخرج منه ملء اليد من الأرز وقال : « سأعطي كلا منكم بعض هذا الأرز فامضوه . أما السارق فان يستطيع مضغه »

ودار على كل واحد فوضع في فمه مقداراً منه فمضوه وهم يضحكون لأن أكثرهم كان يمد الأمر فكاهة . ولم يعطى بطبيعة الحال مثل ما أعطى غيري لأنه لم تقع على شبهة وأنا الذي أشكو

وحاولت أي أن تخرج من هذه التجربة بانضمامها إلى جاني وتظاهرها بالسرور لظهور حق ولكن المنجم أبى عليها ذلك ووضع في فمها مقداراً من الأرز وفي لحظة كانت الأفواه مشتغلة بالمضغ وكان المنجم يقرأ في هذه الأثناء . وبعد لحظة أخرى كان الكل قد فرغوا من المضغ إلا المعلم وأي فانهما لم يستطيعاه وقال المعلم : « لماذا تعطيني هذا الحمص وأنا رجل هرم ضعيف الأسنان ؟ إنه يستحيل علي أن أجمع في هذه التجربة »

وقالت أي مثل هذا القول وزادت عليه : « ما هذه الألغاز الصبانية ؟ هل رأيتم قبل الآن ولداً يعامل أمه ومعلمه مثل هذه المعاملة ؟ إنه يتهمنا بالسرقة ولعله هو اللص »

فقال المنجم : « لم يقل أحد عنكما إنكما لصان ولكنكما تقولان ذلك وليس للنرض فضيحة أحد وإن كان في وسمي أن أقيم كل برهان على السارق . وفي وسمي أن أجمل لسانه يعترف عليه بركة خادم

في التكم أظهروا استعدادهم لمساعدتي في الوصول إلى الحقيقة . وفي هذا الوقت جاء المنجم بناء على اتفاق سابق معه وجاء معه أحد تلاميذه .

أطال المنجم نظره في وجه كل واحد من الموجودين ثم أجلس تلميذه أمامه وأملى عليه آيات من القرآن وهذه الآيات تتضمن الوعيد لمن يأكل أموال اليتامى بالباطل ثم جاء بفنجان فيه قليل من الزيت ووضع في كف التلميذ وظل يتلو آيات ويقول كلاماً بمضغه مفهوم والبعض غير مفهوم . ونظر إلى سائر الموجودين وقال : « ستظهر في هذا الفنجان سورة المكان الذي فيه أموال كربلائي حسن وصورة الشخص الذي لا يريد إظهار هذه الأموال » .

فنظر بمضغهم إلى بعض ، وبعد قليل نظر إلى الفنجان وقال : « ما شاء الله ! ما شاء الله ! لقد ظهرت الحقيقة فاتبعوني »

ثم مشى فتبعناه فدخل غرفة أخرى وحاولت سيدة أن تمنعه فزجرها ونظرت إلى هذه السيدة فاذا هي أي .

قال : « من ذا الذي يستطيع أن يمنع خادم الآية ؟ إنني لا أسير بقوتي ولكن بقوة هذا الخادم »

ومشى على الرغم منها ونحن وراءه حتى وصل إلى ركن من الغرفة فأزاح عنه الحصار . وظهر لنا جميعاً أن الأرض تحته قد حفرت حديثاً فرفع التراب عنها وأخرج منها قدراً مملوءاً بالذهب وقال : « هذا بعض ما تركه كربلائي حسن من المال .

أما باقيه فقد سرق » وتفرس في وجوهنا جميعاً فقال أحدها : « لقد وجدت السروق فأين هو السارق ؟ »

الآية وسافراً الآن قسماً وأذهب، وفي الصباح سأتى
ونأتون جميعاً فان وجدنا في هذا الركن في مكان
المال الذى وجدناه لليوم بقية الأموال التى تركها
كربلائى حسن فان ورثته سيقسمونها بالمدل
كما أمر الله في كتابه وإلا فان خادم الآية سيساعدنى
على إظهار السارق وعلى إقامة الأدلة القاطمة ضده
وفي هذا الحين ذهب النجم وتفرق المدعوون
ليعودوا في الصباح

الفصل الحادى والخمسون

نتائج أعمال الدرويش

كان من نتائج الأعمال التى قام بها الدرويش
أن حامت في نفسى شبهة مؤلة ضد أى وضد معلمى
ولكننى كنت أشك في القول الذى أبداه النجم .
وفي الصباح التالى جاء النجم ومعه تلميذه وعدد من
الذين حضروا حفلة الأمس . ولم يأت معلمى وخرجت
أى من المنزل مدعية أنها مضطرة إلى ذلك لتزور
بعض المرضى .

وقال النجم : « سئرى إن كانت الجن قد جاءت
بالمال أم لا ؟ » وأخذ يحفر في الأرض فأخرج منها
كبشاً مملوءاً بالذهب فسلمه إلى وقال : « الحمد لله
على وجود مالك ولا تنس إعطائى ما أستحقه »

واجتمع الناس حولي ليروا ما بداخل الكيس
الذى وجدته مختوماً بالجمع الأحمر بخاتم أبى وعددنا
ما فيه فاذا هو خمسمائة ريال فدفعت إلى النجم منها
خمسین وأقسمت أنى لو كنت غنياً لأعطيته أكثر
من هذا

شكرنى النجم وأبدى رضى واقتناعاً ولكننى
لم أكن مسروراً لا اعتقادى أن الذى حصلت عليه

لم يكن إلا جزءاً يسيراً من تركه أبى وأن التركة
لم تزل مسروقة وقلت ذلك لصاحبى البواب وأخبرته
بأنى لا أزال عازماً على رفع أصرى إلى القاضى .
فقال لى البواب : « اسمع أيها الصديق نصيحة رجل
حنكته الأيام والتجارب . اقنع بالمال الذى وصلت
إليه يدك واحمد الله على ذلك واعتقد أنك إذا رفعت
أصرك إلى القضاء فانك ستخسر الأربعمائة والخمسين
ريالاً وسيخسر خصومك مثل هذا القدر ثم لا يحل
الخلاف بينكم . ألم تسمع المثل السائر : « إن كل
إنسان قد خلقت أسنانه من الملح إلا القاضى فان
أسنانه مخلوقة من السكر »

وبعد مناقشة مع البواب عزمتم على أن أتبع
نصيحته لأن رفع قضية ضد أى ومعلمى سيزيد من
شتمة أعدائى ويقلل من المعطف على وربما آل الأمر
إلى أن يرجئى الناس بالأحجار وليس من المنتظر
بعد ذلك أن أكسب القضية وعزمتم على أن أغادر
أصفهان فلا أعود إلا إذا عدت إليها ذا سلطة ونفوذ
فوافقنى البواب على فكرة الرحيل وشجعنى
على تنفيذه . ولم أكن أعرف في ذلك الوقت أن الرجل
كان ذا غرض من نصيحته لأن له ابناً حلاقاً اشتغل
بعد سفرى من المدينة مساعداً لأبى في مكاني .
وكان هذا البواب يريد أن أخرج ليشتغل بدلاً منى
في حاوت أبى . واقترح على أن أبيع الحانوت بكل
ما فيه فوافقته على ذلك وبعث الحانوت . أما منزل
أبى فلم أرد بيعه . وبالرغم من شدة تأثرى من المسلك
الذى سلكته أى منى فقد عزمتم على تركه لها بكل
ما فيه من الأثاث

وكان الثمن الذى قبضته من البواب هو خمسمائة قرش
فارسى فبلغت جملة ما منى مائة طومان وعشرة طومان

خبأت بعضها في ثيابي والبعض في سرج بفسلة جديدة اشتريتها

وعزمت على أن أقلع عن حياة «صاحب شمشير» (صاحب سيف) التي كنت أعيشها قبل أن أنكب وأسافر إلى «قم» واخترت أن أقضى بقية حياتي (صاحب قلم)

و كنت إلى هذا العهد أعلق إلى جانبي سيفاً وأضع في حزامي مسدساً وخنجرأ وألبس على رأسي غطاء ضيقاً وأترك شعري منسدلاً حول رأسي إلى ما تحت الأذنين فعزمت على تغيير ذلك كله ، وعلى أن أضع في حزامي ملفاً من الأوراق وقلماً ودواة بدلاً من الخنجر والمسدس ، وعلى أن ألبس على رأسي بشال من الكشمير ، وعلى أن أمشي مطرق الرأس بخطوات غير قوية ولا سريعة . وعزمت على أن أنكلم على مهل وأن أظهر بمظهر الوقار والحكمة وقلت في نفسي إنني على قلة معرفتي أحسن للصمت في موضعه فإذا ما لقيت رجلاً من العلماء سكت واستغفرت من حديثه ، وإذا لقيت جاهلاً كنت المتكلم المنطوق . وقلت في نفسي إنني أعرف القراءة والكتابة وخطي جميل فإذا كتبت نسخة من المصحف الشريف كان ذلك شهادة لي بالعلم والمعرفة لا يمكن أن يدحضها أي اتهام

وفكرت في الطريق الذي أسلكه عند خروجي من المدينة فلم أجد خيراً من مدينة «قم» لأن بها ميرزا أبا القاسم وهو أحسن من أعتمد على مساعدته في هذا العهد الجديد ، وكان مقصدي أن يوصي على أحد أصحابه من الكبراء فيتخذني كاتباً أو تلميذاً له

ولما وصل بي التفكير إلى ذكر أبي القاسم

رأيت أن أشتري له هدية تدل على أنني شاكر لفضله، وفكرت في نوع الهدية فوجدت أليق ما يهدي إليه سجادة صغيرة فارسية يقيم عليها الصلاة حين يأتي به المصلون ويجلس عليها في وسط تلاميذه واشتريت هذه السجادة واستعددت للسفر ، ولكنني ذكرت أن نفقات الجنازة لم تدفع ، وحدثني نفسي بأن أهرب من المدينة دون أن أدفعها إيتال معلى وأمي هذا الشرف ، ولكن شعوري الجميل تنلب على هذه الفكرة فدفعت هذه النفقات قبل أن أسافر وقلت إن هذا أليق بي ولكيلا أعرض اسم أبي بعد الموت للمنة للآعين

الفصل الثاني والخمسون

هايمى بابا يصبر لثباتاً لرجل من رجال القانوم ودعت أمي وأنا غير آسف على السفر ولم تظهر هي نحوي أي شيء يدل على الشموخ بالأسف فقد كانت تدبر خطة لمستقبلها كما دبرت خطة مستقبلتي وكان كلانا يرى أن البعد خير وسيلة ركبنا بئلى عند انبلاج الصباح وكنت أسير مبسطاً وأنا في القرى التي أمر بها ، وفي اليوم التاسع رأيت قبة الشهيد الفاطمي وبعد أن تركت بئلى بمربط الخيل في خان المدينة وذهبت إلى بيت أبي القاسم وكان بابه مفتوحاً لكل طارق فخلعت نعلي وتركته عند باب الغرفة الأولى ، وتركت بجانبه السجادة التي اشتريتها ودخلت تلك الغرفة فوجدت في صدرها أبا القاسم خفيته وجلست قرب الباب

وقد عرفني ساعة رأني ورحب بي وأدنى مجلسي وسألني عن قصتي بعد ذهابي من مدينة قم وقال لي إنه مهتم بأمرني فشكرته وسردت عليه القصة

وشرحت له ما أجده في نفسي من الميل إلى الدين ورجاله وأنى أتمنى أن أكون في المستقبل واحداً منهم ففكر لحظة ثم قال : « لقد تسلمت في صباح اليوم خطاباً من « ملا » (عالم) في طهران يطلب إلى فيه أن أبحث له عن كاتب يكون لديه استعداد ليصير عالماً « ملا » في المستقبل وأخبرني أن هذا الرجل هو « الملا نادان » تخفق قلبي عند ما سمعت ذلك وقلت له إننى أحب أن يرسل معى خطاباً إليه ورجوته في ذلك فكتب خطاباً وطواه وسلمه إلى ، وقال : « اذهب بغير توان وسلم هذا الخطاب إلى الملا نادان وستجد عنده ما تريده »

تخفق قلبي وقبلت يد اليرزا وطلبت إليه أن يتفضل على بقبول هديتي وهي سجادة للصلاة وقلت إن سبب إهدائها إليه هو رغبتى في أن يذكرنى بدمعة سالحة بعد الصلاة، فدعاني وشكرنى وقال: إنه لولا هذا السبب لتأثر من قبول الهدية لأنه لا ينتظر هدايا الناس . وأوصانى بأن أتمسك بالدين ظاهره وباطنه وأن أكره الصوفيين ، وقدمت له الهدية فأخذها معيداً الشكر والدعاء وبلغ من تعجلى أمر السفر أنى لم أنتظر حتى أتمكن من زيارة أصدقائى في « قم » أو من زيارة المقبرة التى كنت لاجئاً إليها في أيام محنتى

ولما ذهبت إلى طهران تجنبت الباب الذى يستلزم دخولى منه المرور على قبر زينب . وصررت من باب آخر . وحمدت الله إذ لم يعرفنى الحرس الذين كانوا تحت رياستى عند ما كنت مساعداً لرئيس الجلادين وقلت فى نفسى إنهم معذورون إذ لم يعرفونى لأن الهيئة العسكرية التى كنت عليها وأنا فى ذلك المنصب غير الهيئة المتواضعة التى أظهر بها الآن

ولما رأيت أن تنكرى تام وأن أهل المدينة ان يعرفونى مشيت فى أسواقها مطمئناً فلم أجد أحداً يعرفنى وسألت عن بيت الملا فسهل على الاستدلال عليه لأنه رجل مشهور . وما كدت أن أصل إلى هذا المنزل حتى غدت فتذكرت أننا فى آخر النهار وأن الأليق أن أمام هذه الليلة فى خان وأذهب إليه فى الصباح . وقد كنت حريصاً على اتباع ما تقضى به اللياقة فى معاملة هذا الرجل لأمال عنده الخطوة فى حياتى المقبلة

وذهبت إلى الخان فاسترحت من وعناء السفر . وفى الصباح دخلت الحمام ومسحت ثيابى وصبغت لحيتى ويدي وقدمى جرياً على عوائد الفارسيين ، وذهبت إلى الملا وأنا أقول إن من كان مظهره كظهري فى هذا اليوم فهو جدير بأن تقضى حوائجه . وكان بيت الملا واقماً بين المسجد وبين سوق الجمال فى طريق قريب من القصر الملكى . وكان شكل المنزل من الخارج دالاً على الحقارة ولكن حديقته الصغيرة كانت منسقة تنسيقاً حسناً . ولما دخلت المنزل وجدته نظيفاً ورأيت غرفة الانتظار مفروشة بأثاث لا يدل على الثروة ولكنه لا يدل على الفقر وفيه رجل حسبته الملا ولكنى عرفت بعد قليل أنه واحد من أتباعه

حيثه وجلست ولم أكن قد عرفته ولكنى عزمت على أن أشارك معه فى الحديث ليملم أنى أكبر من خادم وحاول هذا التابع أن يعرف أمرى فألقى على أسئلة كثيرة غريبة ، قال :

— « يظهر أنك وصلت قريباً إلى طهران »

— « نعم »

— « يظهر أبلك تريد الإقامة هنا »

« لم يستقر رأيي إلي الآن »

فأطرق لحظة ثم قال : « إن إقامة المرء وحده متمبة حتى ولو كانت إلى أجل قصير فإذا كانت لك حاجة فاني أوديتها »

فقلت : « زاد الله فضلك فان حاجتي عند الملا »
قال : « أخبرني بها فلا فرق بيننا وإذا شئت فاني أسهل عليك أمرها عنده . وعندنا كل ما تريد بكل نعم »

فقلت : « إني لست تاجراً »

قال : « أنا لم أعن أنك تاجر ولكنك غريب عن هذه المدينة وقد تمكنت فيها عاماً أو شهراً أو أسبوعاً فلدنيا كل ما تريده في هذه المدة »

فزادت دهشتي من اللغة التي يتكلم بها هذا الرجل ولم أفهم ما يعنيه . وفي هذه اللحظة دخل « الملا نادان » . وكان هذا الملا في سن الأربعين وهو مستدل القامة وسيم الطامة حسن اللبس وعلى الرغم من أن قامته كانت أشبه بقامة رجال السيف منها بقامة رجال القلم فقد كان يميزها بالعلامم الدالة على الشجاعة . وكانت أجلى صفة تظهر على وجهه هي الكر

دنوت منه وحييته وقدمت إليه خطاب أبي القاسم فأخذه وقرأه . ولكنه لم يقل حرفاً عما فيه ثم أخذ يسألني عن صحة مرسل الخطاب وعن أحواله فصرت أجيبه متظاهراً بأنني كنت وإياه على اتصال وثيق ثم أمرني بأن أجلس ورحب بي وقال : إنه يأسف لأنه لم يكرمني على المادة الإيرانية بتقديم غليونيه لي وقال إنه لا يدخن وإنه يستنكر عادة التدخين ويرى لرجال الدين أن يتعففوا عن هذا النوع من الترف . وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن

شرب الخمر وإن التدخين ليس من المسكرات ولكنه قد يخدر في بعض الأحيان فهو عتده في حكم الخمر المحرمة . ثم أخذ يتحدث عن نفسه ويمدد فضائله حتى حسبت أن حياتي في هذا المنزل ستكون قاصرة على استماع البهاة والمفاخرة وأنا لن أتعلم ما كنت أريد تعلمه من الدين .

الفصل الثالث والخمسون

الملا نادان بهر فطنة للحصول على الاموال
ولإسعاد الناس

لما انصرف الشيخ الذي كان جالساً معنا في هذه الغرفة أخرج الملا كتاب أبي القاسم من جيبه وأطاد قراءته وقال : إنه يحترم هذه التوصية وسألني عن مؤهلاتي فأجبت بما أقتنه وأرضاه وقال لي : « لقد كنت أبحث عن رجل تتوافر فيه صفاتك فلم أتمكن من العثور عليه إلا الآن . وقد كان هذا الرجل الذي انصرف منذ لحظة يؤدي لي بعض الخدمات ولكنني أبحث عمن يرى مصالحى كأنها مصالحه وأريد من يأكل مني الخبز صامتاً ولا يطمع أن ينال أكثر مما يستحق »

فقلت : للملا إني بلوت الحياة ورأيت كثيراً من الحوادث وإنه لم تمر بي حادثة لم أستفد منها وإنه سيجد مني خادماً مطيعاً وإنني أريد أن أكون مسلماً كما ينبغي أن يكون المسلم

قال الملا : « مادام الأمر كذلك فسأكون نصيرك لأنه لا صفة أحب عندي من صحة الاسلام . وليس في الناس من يصلي أكثر مني مواظباً على صلاته وليس في ثيابي شيء من الحرير أو الذهب ولست أنام إلا وأنا متوضي ولست

أدخن ولا أشرب النبيذ ولا ألعب الورق ولا لعبة
الشطرنج وأنا أكثر من الصيام ولم أقطع قط عن
صلاة الجمعة »

وقد امتدحت كل هذه الصفات وتخلقت بها
أمامه في الأيام التالية فسر منى حتى كاد سروره في
يبدل سروره بنفسه وقال لي إنه لم يتزوج وإن ذلك
لا يعد مكرمة لأن النبي عليه السلام قد تزوج وإنه
إنما امتنع عن الزواج ليتوافر لديه الوقت للعبادة
واستفاض عن سنة الزواج بمساعدة الآخرين على
أن يتزوجوا

قلت له : « أرجو ألا تترك أمراً من أمور الدين
إلا علمتني لأنني في جهل بالدين كالكفار والأتراك »
فقال : « سأعلمك كل شيء تريد أن تتعلمه .
وأسر إليك أن الشاه وهو أتي الأتقياء شكاً إلى رئيس
العلماء « ملا باشي » من فساد الأخلاق وسريان
روح الفسوق والطغيان وكلفه أن يستأصل هذه
الصفات ولكن (ملا باشي) رجل حمار لا يعرف شيئاً
فطلب إلى أن أجيب الشاه عن أسباب الفساد للساري
في هذا الزمن وعن وسائل علاجه . وقد دلتني للنظر
إلى أمور الناس على أن من الميوب السائدة في هذا
المصر كثرة الطلاق فما يكاد الرجل يقيم مع زوجته
عاماً أو عامين حتى يطلقها ورأيت من جهة أخرى
كثرة الزنا والفسق فرأيت خير وسيلة هي أن أحصى
الطلقات وأزوجهن للزنا والفساق وبذلك يستقيم
الناس »

ولما أخبرت الملا باشي بهذا الرأي سر كل
السرور وأمر باستئجار منازل صغيرة يسكن بها
عدد عظيم من الطلقات، وصار بمقدور زوجهن على
كل خاطب ويأخذ من ذلك أجراً ، فكثر أمواله

ولم يقاسمني مع أني صاحب الرأي في ذلك، ومن أجل
ذلك رأيت أن أفضل مثله وأنا أحق منه بالانفراد
لأنني صاحب الاقتراح ولكنني أرى أيضاً أن يكون
ما أفضل سرراً وإلا استعان على بنفوزه لدى الشاه
ونفاني من المدينة »

كنت أصنى إلى ما يقوله الملا وأصعد فيه
نظري وأصوبه وأنا متعجب من فكرته . وقام
بنفسه الشك في أن يكون عمله هذا منطبقاً على
للشرع الذي يزعم أنه يحميه . وتمجبت أيضاً من
قول أبي القاسم عن هذا الرجل إنه طيب . وبدأ
لي أن الوصف الصادق الوحيد الذي يستحق أن
يوصف به هو الخبيث الشديد . على أنني ظلت أطري
أفكاره .

واستمر بقول : « وعندي الآن ثلاث من
النساء بمنزل صغير مجاور لهذا المنزل وأريد
استخدامك في البحث عن أزواج لمن ، فأذهب إلى
كل خان بالمدينة ولا حظ التجار والعرباء وتلطف في
محدثهم عن الزواج وقل لهم إن شروطنا أخف من
شروط الملا باشي ، وسأعطيك أجراً على ذلك بنسبة
المبلغ الذي تحصل عليه . وسيأتي يوم تكون فيه
ملا مثلي وتتفرد أنت بهذا العمل وبكل ما في منزلي
من مال وأثاث لأنه لا وارث لي ، ومتى كان عندي
ضيوف فأد في منزلي واجب الخادم وإذا ما انصرف
الضيوف فاجلس معي كما يجلس الصديق إلى صديقه
وسأعهد إليك ببعض أعمال كتابية »

لما فرغ الملا من كلامه لزم الصمت ليعرف بماذا
أجيب ولما رأيته واجهاً أدرك مبلغ ترددي فترك لي
مهلة دقائق للتفكير . ولقد كنت أنتظر أن أكون
في حيلتي الجديدة زاهداً في عظام الدنيا ما كفاً على

ولما رأيتني وضمن على أوجههم البراقع، فسلمت عليهن وأخبرتهن عن مهمتي وطلبت إليهن أن يرفعن البراقع حتى أراهن لأن مهمتي تستلزم ذلك. فحينئذ أحسن تحية وقلن إنهن يأملن الخير على قدومي وأسهرت اثنتان منهن إلى رفع النقاب فرأيت خدوداً قدودعت البياض والحرة من عهد قديم ورأيت عظام الوججات بارزة ورأيت عدداً من النضون والتجاعيد. أما الثالثة فأنها لم ترفع نقابها. قلت للسيدتين: «ما شاء الله! هذا الجبال جدير بأن يحملكما من زوجات «فرهد» نفسه. لا تعطيلان النظر إلى حتى لا أفقتن. ما أجل هذه العيون! ما أحلى هذه الشفاه! لكن لماذا لم ترفع هذه السيدة نقابها؟—وأشرت إلى السيدة الثالثة—لعلها تراني غير جدير بأن أتمتع بشمس هذا الحسن» فقالت صاحبتهما لها: «ما هذا الحياء؟ افعل كما فعلنا وإلا أصبحنا مضغة في أفواه للناس» فرفعت المرأة نقابها. وما كان أشد انزعاجي ودهشتي عند ما رأيت أنها زوجة ميرزا أحمد رئيس الأطباء

صحت قائلاً: «لا إله إلا الله! ما هذا؟ هل أنت بك الجن إلى هذا المكان؟»

فقالت لي بلهجة التحسر اليائس: «نعم يا حامي بابا، إن القدر عجيب ولكنك أنت يا قاتل زوجي كيف أصبحت عالماً من العلماء؟»

قلت: «هل قتل زوجك إذن؟ ولكن لماذا تكلميني بهذه اللهجة ولماذا ترعمين أنني قتلتك؟ لقد كان زوجك سيدي في وقت من الأوقات وأنا شديد الحزن على فقده

خبريني ماذا حدث له فاني أدور في عالم من الجهالة»

الصلاة والصوم عاملاً مجدداً للدار الآخرة فوجدت الأمر على عكس ما كنت أنتظر فإن كل طريقة خبرتها للارتزاق أعف عندي وأشرف من التي يدعوني إلى ضاوتها واحتقرت نفسي لاضطراري إلى قبول ما يعرضه علي. لكنني مع ذلك قبلت العمل معه وفقاً لشروطه وقال لي إنه سيعود إلى الكلام مني عن هذا الأمر في فرصة أخرى وإنه سيذهب الآن ليقابل شيخ العلماء ثم عاد إلى أسلوبه اللازم في المفاخرة فقال إنه يحقر مظاهر الدنيا وإنه لذلك لا يستبقى بمنزله من الخدم إلا ما تقتضي به الضرورة وليس عنده بالنزل من الخدم غير طباط وسانس ووصيف وبواب. وليس عنده من الركائب غير حمار أبيض وقال لي إنه سيشتري بغلاً في المستقبل القريب لأن ركوب البغال أدل على الوجهة من ركوب الحمار. وقد انتهزت هذه الفرصة فأخبرته أن عندي بغلاً لطيفاً وبعد أن تفاوضنا في ثمنه بتمه إليه وقال إنه سيستبقى الحمار لركوبه فكان ذلك أول ربح ربحته من الآلا

الفصل الرابع والجنسون

ماهي بابا وسيط في الزواج

أمرني الملا بأن أقدم نفسي إلى الطائفات اللواتي ينفق عليهن وأوصاني بدراسة صفاتهن حتى أستطيع التكلم فهن مع الرجال وأن أحمري منهن عن أعمارهن والبلدان التي ولدن فيها وعن مؤهلاتهن وبعد أن فعلت ذلك ذهبت إلى السوق فاشترت ثوباً من ثياب العلماء «ملا»

وكان هؤلاء النساء جالسات على حصير ممزق وهن في ثياب رثة ولكنهن كن مولعات بالتدخين.

فقلت : « لماذا تدعى الجهل يا حاجي بابا ؟ ألا تعلم أنك السبب في فرار زينب وأن فرارها كان سبباً في غضب الشاه عليه وتنف لحيته وأن ذلك كان سبباً في إلحاق الخزي به وأن خزيه أدى إلى موته حسرة » قلت : « ما هذه التهمة التي تهميني بها ؟ لو كان زوجك مات بتخمة فهل كنت تهمين الفلاح الذي زرع الأرض بأنه قتله ؟ » ثم طالت بيننا المناقشة وعادت المرأة فذكرت أن طول مناقشتها لي ليست في مصالحتها وأنها في حاجة إلى مرضاتي . وقد تبين لي بالرغم مما تبديه الآن من الحب لزوجها الأول وحزنها عليه أنها كانت تكرهه أشد من الكراهية العادية وأنها حمدت الله على موته

ولسكي أعم المهزلة التي جئت من أجلها بدأت بأرملة الطبيب فسألها عن مؤهلاتها الزوجية حتى إذا وجدت لها زوجاً استطعت أن أتحدث معه عنها فقلت لي : « تعلم أنني كنت في وقت من الأوقات من جوارى للشاه ، وكان جلالته بفضلي على زوجته وعلى سائر الجوارى اللواتي كن يخفن مني وترجف قلوبهن لدى ذكر اسمي . ولكن من الذي يأمن سولة الأقدار ؟ لقد كنت معززة مكرمة في القصر حتى شاء جلالته إكرام رئيس أطبائه فأهداني إليه . ولا تسلم عما قاسيته من الآلام عند ما انتقلت إلى منزله وتغيرت أحوال الميشة أمامي تغيراً ما كنت أقدره . ولست أريد أن أعيد عليك قصة زينب فأنت تعرفها . ولكنني حاولت أن أسترد عطف الشاه بعد ما مات زوجي فوجدت أذنيه مسدودتين واضطرت بعد المز والرقاقية والطمثان البال إلى البحث عن زوج آخر »

ثم أخذت تبكي وأخذت أعزبها عن سوء حظها وأؤكد لها الوعد بأنني سأبحث لها عن زوج ملائم ...

فقلت : أنت ترى أنني لا أزال جميلة وأن عهد شبابي لم ينقض . أنظر إلى عيني هل انطفأ وميض الحسن فيهما ؟ أنظر إلى جبينى الناصع وإلى خصرى النحيل . فأخذت أحلق فيها كما أرادت ولكن بدلا من أن أرى شاباً وجمالا رأيت قبحاً وتشوهاً وعددت موقفي هذا منها بمثابة انتقام إلهي لسوء معاملتها لزينب

ثم حدثتني السيدتان الأخريان عن تاريخ حياتهما فقلت إحداها إنها زوجة صانع مات. وقالت الثانية إن زوجها كان جندياً فهرب خوفاً من غضب الشاه وانضم إلى الروسيين وإن القاضي طلقها منه لهذا السبب. وقد حاولتا أيضاً إقناعي بأنهما صغيرتان جميلتان فتظاهرت أنني مقتنع بذلك وقالت لي إحداها : « تذكر أنني لم أتجاوز الثامنة عشرة وتذكر حاجي القروني الذين يظهران كأنهما حاجب واحد » فوعدها بأن أتذكر. ثم خرجت من عندهن. فلما ابتعدت عزيت نفسي عن رؤية أوجههن القبيحة بأن ضحكت ضحكة عالية .

الفصل الخامس والخمسون

مهاجى بابا يزاول عمله الجديد

بعد أن أدبت هذا الجزء من واجباتي ذهبت إلى خان من أكثر خانات المدينة ازدحاماً لعل أرى فيه رجلاً من الدين أبحث عنهم وفى أثناء الطريق وجدت زحاماً عظيماً مقبلاً من جهة باب من أبواب المدينة . وسألت فعلمت

على هذه الحال فوطن النفس على أن يقضى بقية العمر كأنه جل من الجلال التي يرعاها . ثم ظهر سني من التركانيين آمن به كل هؤلاء السذج لابتدائه أموراً عجيبية بهرت عقولهم البسيطة فتسلط عليهم وقوى نفوذه . وكان هذا الشعور كثير الصلاح أو متظاهراً بكثرة الصلاح فمرض عليه عثمان أفا نفسه وأقنعه بأنه سني وأنه من نسل الأشراف فأصر بإطلاق سراحه

وذهب عثمان إلى بخاري ، ولمرفته السابقة بالتجارة استطاع أن يجمع ثروة في مدة غير طويلة ، واشترى بضائع من بخاري وجاء بها إلى إيران فباعها وهو الآن في طريقه إلى الآستانة ليبيع بها بضائع من بخاري وسمرقند وقارس ، وفي عزمه أن يذهب إلى الآستانة فبغداد وهي بلده الأصلية

وأخبرني أن مدة إقامته في طهران قد تمتد إلى الربيع لكي يسافر منها مع القافلة ولكي يرفه عن نفسه في هذه العاصمة بمد أن طالع حياة الخشونة في أسر التركان ، ولما وجدت ميلاً إلى الترفيه عن نفسه كما يقول وكنت أعلم من معاشرته السابقة شدة ميله إلى النساء اقترحت عليه أن يتزوج إحدى المطلقات اللواتي أبحث لمن عن الزواج ولقد كان موافقاً بديعاً وأما أسى في أن أزواج أرملة سيدي المتوفى من سيدي الذي لا يزال على قيد الحياة ، وإنما اخترت تلك الزوجة لعثمان أفا لأنها أضخم المطلقات الثلاث جسماً ولقد وصفها له فأعجبه الوصف وقبل الصفقة اعتماداً على قولي

ذهبت بعد ذلك لأبشر الملا نادان بنجاحي وقصصت عليه قصتي مع هذا الصديق في الأسر فأصنى إليها باهتمام . وقال لي إنني سأكون وكيل

أن قافلة جاءت اليوم من مدينة مشهد حيث كان يقام مولد الامام علي الرضا ، فأخذت أنظر إلى وجه كل رجل من القادمين وأنفوس فيه لعله يكون من بني بني أو لملي أجد بعض الأصدقاء الذين عرفتهم في تلك المدينة ، واثني كان عهدي بها طويلاً فان ذاكرتي القوية تبي كل وجه رأيت فيها . ولما كدت أياس من رؤية صديق رأيت رجلاً ذا أنف خلق خلقة خاصة وظهر منحني يشبه الحدة فتعلقت نظراتي به وقلت في نفسي هذا رجل أعرفه . وكان يشبه عثمان أفا الذي أخذ مني في أسر التركان ، ولكن عثمان يجب أن يكون قد مات فمن عسى أن يكون هذا ؟ أما أن يكون غير ذي علاقة بثمان فذلك غير محتمل فان لم يكن هو فأخوه أو شيطانه . ودفوت منه فرأيت على وجهه انقباضاً وزاد ذلك من شكي لأن الانقباض أظهر خلة في صاحبي عثمان . ثم تكلم فسمعت ذلك الصوت الذي ألفته أذناي ، وقد كانت الجملة التي نطق بها هي التي سمعتها ألف مرة وهي : « أرجو أن تخبرني عن سمر الجلود في الآستانة »

وكان هذا السؤال موجهاً إلى تاجر معه ، فلم أنتظر جوابه بل قلت : « سيدي ، أأنت عثمان أفا ؟ » ثم عرفته بنفسه فلم يكذب يصدق أنني حاجي بابا الذي كان معه في الأسر

وبعد أن تناكرنا حوادث الماضي مدة ما أخذ كلانا يهني الآخر ، ثم روي لي ما حدث له بعد أن تركته وقال لي إنه لم يكن له عمل في أسر التركان غير رعي الجمال ، وإنه تبلاد هناك فلم يمد بتألم من الأسر ولا يفكر في النجاة ، وإنه لم يكن يتألم إلا من أسر واحد هو عديم حصوله على التبغ ومضت عليه سنوات

فلم أجد جواباً على سؤاله أليق من القول بأن
زوجته كانت في وقت من الأوقات نواره الفعصر
الملكي وأن الزواج قسمة ورزق

قال : « نعم قسمة ورزق ولكن هذا القول
يا حاجي بابا يصلح جواباً على كل نكبة . ولست
ألومك على أنني تزوجت فهذه قسمة كما تقول وإنما
ألومك على أنك وصفتها بأنها صبية وهي عجوز » .
ولقد خشيت بعد أن سمعت هذا القول أن
يطلقها ويطلبنا بما دفعه ولكن يظهر أن عقله غلب
عليه فتذكر أن مثله - في مثل سنه - لا يستطيع أن
يتزوج من صغيرة جميلة .

ونقل زوجته معه إلى الخان وظهر لي من قرائن
متعددة أنه لم يكن مسروراً منها ومن بين هذه
القرائن أنه دخل قبلها غرفته في ذلك الخان وقال
لها إنها تستطيع أن تتبعه إذا شئت .

« ينبع » عبر اللطيف النشار

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوتفريد فرانك

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تمد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ومنها ١٥ قرشاً

الزوجة، وعلى الزوج أن يستحضر وكيلاً عنه في عقد
الزواج . وأمل على شروط الزواج . وطلب مبلغاً
كبيراً من المال في مقابل وساطتنا هذه

ثم ذهبت إلى السيدة لأسمع منها كلمة القبول
بتوكيلي ولأبشرها بمجادة هذا الزوج اللغوي . وقد
كان سرورها شديداً عند ما أخبرتها وبدا الحسد
على وجه صاحبها . كما تبيئت على وجهها كل علامة
الزهر لأنها عدت هذا للنجاح السريع راجعاً
إلى جمالها

وذهبت إلى عثمان أغا ولشد ما كانت دهشتي
عند ما وجدته يتطيب بالمسك وقد اغتسل وصبغ
لحيته بلون أسود ويديه بالحناء الذهبية . وطلبت
إليه أن يرافقني إلى بيت الملائدان فثنى وهو يتكلف
مشية جديدة . ولا شك في أن منظره في ذلك اليوم
كان كمنظره قبل عشرة أعوام

وكان الخاطر الذي يحول بفكري ساعة انمقد
بجلس الزواج هو ما سألقاه من الويل إذا لم تمجبه
الزوجة . وتذكرت الخمسين « ووكات » التي كنت
أخذتها من ماله في مدة الأمر

وتذكرت كذلك سابق إحسانه إلى فاستكبرت
أن أعتقد أنني أسأت إليه

وأخيراً تزوجا . وذهبت للتهنئة فقال لي : « لقد
أفهمتنى يا حاجي بابا أن العروس صبية، فقل لي كيف
وجدت في جسمها مع حداثة سنّها هذه الغضون
والتنجاعيد التي قلما وجد أكثر منها في جسم أي
جل من الرجال ؟ »



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المشؤل
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك على سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الوزارة
دار الرسالة بشارع البدوي رقم ٣٤
طابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

البردية

مجلة أسبوعية لفن القصص والتاريخ

نصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٤ المحرم سنة ١٣٥٧ - ١٥ مارس سنة ١٩٣٩

العدد ٥٢

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	
٢٢٦	وحدانية الحب ... أقصوصة مصرية ... بقلم الأستاذ دريني خشبة ...
٢٣٩	صداقة الحب ... للكاتب الفرنسي هنري بورديو ... بقلم الأستاذ تاجي الطنطاوي ...
٢٤٩	أ كان يجب أن أخبرها ... عن الانجليزية ... بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...
٢٦٦	تاجي بابا أصفهاني ... للكاتب الانجليزي « جيمز موير » ... بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ...

— أنت تغالى فى تقدير هذا
الكائن يا فتواد
— لست أغالى... ألا تعترف
مى بأنه حاكم بأمره ؟
— هو ذاك ... لكنه فى
الوقت نفسه يجعل الانسان ...
أو يجعل القلب ... كالفراس ،
فهو يعطيه به على كل زهرة ، ويرف

وَحَلَّ النَّبِيُّ فِي الْبَيْتِ
أَقْصَوْصَ مِصْرِيَّةَ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ دُرِّي خَشَبَةِ

به فى كل بستان
— إن الفرّاش يفعل ذلك من أجل صالحه ،
ولسنا ماديّين فى الحب يا صديق !
— هذا هو غرور الانسان ...
— ليس غروراً ... فقد كرمنا الله خلق حبنا
من نور ... من كهرباء !
— وهذه فلسفة أيضاً !
— ليست فلسفة ، بل هذا هو الواقع !
— كل هذا تقوله عاطفتك المشوبة ، ولو حكمت
فيه عقلك لتبخر كله وعرفت حقيقة الحب وما هيته !
— يجب ألا تكون علاقة بين الحب والعقل ...
إن العقل شيء قبيح جداً ... إنه يتلف كل شيء !
إنه يشوه الجمال ويمسحه ...
— يجب أن نفهم أولاً هذه المسئلة : هل نحن
فى الحب نشبه الفرّاش أولاً نشبهه !
— قلت لك إن الفرّاش يتنقل من زهرة
إلى زهرة ليمتص الرحيق الحلو .
— والقلب ! ألا يتنقل من حبيب إلى حبيب
إلى حبيب ليرشف الثغور الحلوة ، ويقطف القلب
من ورد الحدود ؟
— هذا هو الفسق ، ليس هذا حباً ؟

— والله يا صديق أنا لا أدري كيف يفهم الحياة
هذا الشاب ! إنه أكثر ما يكون ساهم غار المبتدئين ،
له نظرات عميقة ممثلة نافذة لست أعرف كيف
أفسرها ولا أدري كنهما
— هذه حال المحبين يا عزيزى ... ألا يجب
صبرى ؟
— لا أظن أنه يجب كما نفهم نحن الحب
— ماذا تعنى ؟
— أعنى أنه لم يهب قلبه فتاة بمينها
— هذا لا يهم
— وكيف ؟
— قد يجب الانسان فتاتين وقد يجب ثلاثاً
وقد يجب أكثر من ذلك
— وماذا يكون هذا النوع من الحب ؟
— يكون مثل كل أنواع الحب !
— أكبر ظنى أنه يكون حباً حيوانياً
— ولماذا يكون الحب المتعدد حيوانياً ؟
— لأن الحب كائن أرستقراطى مستبد ، لا يرى
أن يشركه شيء فى صولته ، ولا أن يحكم معه أحد
فى دولته ... إنه حاكم بأمره يا عزيزى ... إنه
دكتاتور ! إنه يقصر مسلط على جميع الفرّاش يا عزيزى !

وأهن جميعاً قد عزون فؤادك ... هذا بشرط أن
تكون أنت فتى فينان الشباب دفاق الدم فوار الماطقة
وأن تكون فتياتك غيداً أماليد ذوات سحر وخفة
— إذن أنت تخلق ظروفا خاصة تبرر بتوفرها
التمدد في الحب ...

— يا صديقي ، الحب استجابات للظروف التي
تحيط بالقلب في فترة ما من الزمن .
— أراك قد أطلت في تحليل فلسفتك الجديدة ،
ولست أدري ما علاقة ذلك كله بصبري وما يمره
من وجوم وشروذ ذهن !

— علاقة ذلك بصبري أنني أو كذلك أنه يجب !
— وكيف وهو متزوج !؟
— أو كذلك أنه يجب ولو أنه متزوج !
— إنه متزوج من الفتاة نفسها التي كان يهواها
بل يبسدها !

— ليس يمنع هذا من أنه صبا إلى غير زوجته !
— وكيف يصبو إلى غيرها وقد وهبها حياته
وتفكيره وجهاده !

— في سؤالك عود إلى حديثنا السالف ...
وصديقك صبري يؤدي وظيفة للفراش في رشف
الرحيق من الأزهار ، وهو قد انتقل من روضة
إلى روضة ، وأؤكد لك أنه سينتقل إلى أخرى ،
وسيظل هذا حاله حتى يخدم جسمه ، وتنطق جذوة
شبابه ، ويفيق إلى الحقيقة ...

— وأية حقيقة يا غالب !
— حقيقة الحياة !

— وما حقيقة الحياة بعد هذه الجولات التي
بصورها لك خيالك في عوالم الحب ؟
— لا أستطيع أن أذكر لك ... ستعرف كل

— وما الحب إذن !
— الحب أن يفنى الحب في الحبيب ، أن يؤثره
بكل شيء ... ألا يشرك معه أحداً في قلبه !
— بل الحب الأثرة !
— وكيف يكون الحب أثرة ؟
— الأثرة : الأنانية !

— ما سألتك عن معنى الأثرة لتقول إنها
الأنانية ... كيف يكون الحب أثرة !؟
— يكون الحب أثرة لأنه يجعلنا أنانيين ...
فهو يجعلنا نتوهم أن الحبيب هولنا فقط وليس لأحد
سوانا ، فإذا رأيناه ينظر إلى شيء أو يمشي مع
شخص آخر ولو كان هذا الشخص من محارمه ،
ثرنا وتولانا الغضب ، فإذا حدث أنه غاب عنا بعد
ذلك تسلمتنا الشكوك واقتربتنا الغيرة وترادفت
في رؤوسنا حينذاك كلمات كثيرة حفظناها من
أنايتنا المريضة ... فمن ذاك كلمات الرقيب والمذول
والهجر والخصام ... وقد تذكر البكاء فنبكي ،
والدموع فتسفع الدمع الغزير ، وقد لا تقوى
على البكاء فنبتق ساهمين مفكرين مشردى اللب
عميق النظرات كما رأيت صديقك صبري ...

— وكيف يجب من تكون هذه حاله غير حبيبته ؟
— يجب غيره لأنه لا اختيار لأحد في توجيه
قلبه ... عينان تقمان على منظر حسن فيتأثر القلب
ويرقص ويضطرب ويمشق إذا كان هذا المنظر فتاة
حلوة ريانة ... هذا كل شيء !

— عجباً !
— أي عجب !؟ أنت أول من يكفر بالوحدانية
في الحب إذا وانتك الفرصة للخلوة بأكثر من فتاة
جميلة في يوم واحد فتراك قد مات إليهن جميعاً ،

شيء، ولكن من سجل الحوادث، فهل بنا تتجسس أخبار البطل ...

— أى بطل؟

— البطل الذى تمارين فيه.

— صبرى؟

— أجل ... صبرى ... صبرى

كان غالب أفندى عبد الرؤوف صادق الفراسة فيما ذهب إليه من تحليل وجوم هذا الشاب العجيب، صبرى أفندى نجيب . فلقد أحب صبرى زوجته حباً جاك قبل أن يصل أسبابها بأسبابه . ولقد كان يهواها ويسبدها كما زعم فؤاد فى حديثه الطويل الجليل مع الأستاذ غالب . وكانت قصة غرامهما درامة رائعة فياضة بالدموع جارية المبررات، فيها ألم وفيها عذاب، وفيها من تباريح الحب ما غمر قلبيهما وصهرهما وطهرهما، وفيها أقسام غليظة وعهود وثيقة أن يكون أحدهما للآخر وألا يشرك أحد منهما بصاحبه مادامت الأرض والسماء

وكان صبرى فتى جميل الحيا وافر الثروة أنيق الهندام يحب الغناء، مشغوقاً بالموسيقى ... وكانت له شبيعة فى ضواحي الزقازيق تأنى له بغلة عظيمة، وكان يحب منزله الرينى الشرف من ناحية الشرق على حديقة متوسطة أقام فيها كرمًا وارف للظلال يقسمها أربعة أقسام تلتقى عند عريش جميل كان صبرى معجباً به، فكان يجلس تحته يبنى أو يداعب عوده، أو ينظم أغاريد المصيرية للصافية ثم يلحنها، أو يقرأ فى ديوان، أو يتلو قصة، وشذا الورد وعبق الأزهار، والحديقة كلها، بل الدنيا جميعاً تتأرجح من حوله، فتكون بين يديه لحنا من أعذب

الألحان، أو روضة من جنات رضوان أما من ناحية الجنوب فكان المنزل مشرقاً على الحقول الممتلئة بالحياة المنبسطة تحت رحمة الله، تؤتى أكلها فى لين ويسر، فتملاً الأهرام كما تملاً الجيوب، وتفيض على الناس خيرات وبركات أما من ناحية الشمال، فكانت تتدفق مياه التربة القديمة الخالدة تحت أشجار الجيز والنبق، وفي ظلال النخيل الباسق، وكانت تحدث خيراً ما كان أحلاه وما كان أشجاء، لأنه غناء الطبيعة ونشيد الخلود

هنا كان يقم صبرى ... يبنى وينظم ويقرأ، ويتحد بالكون الرائع الهادى، ويسرى فى الليالى المقمرة نفحة جميلة ذات جرس فى أجواز الفضاء، ويستيقظ مع الشمس ملاكاً تقيا، يرف فوق عروش الشفق، ويتطرح فى ظلال الدوح فيتأمل فى قدرة الله الملى، ويملاً قلبه من جمال ما صنعت يده ثم يقضى أصائله مع منرب الشمس منحنيًا فوق عوده يستودعه أسرارته ويودح له بمكنون قلبه ...

ما أجل الريف المصرى وما أحسن انسجامه! هنا كل شيء فطرى، فلا مجازفات ولا مخاطرات ... قناعة ونفس مرسل على سجيته ... فلماذا آثر صبرى الساذج القانع أن يذهب إلى القاهرة؟ ماذا فى القاهرة أجل مما هو هنا فى تلك الضاحية الفطرية الرائعة؟ إن القاهرة كالقول الذى لا يفتأ يكشف عن أنيابه يفترس السجايا ويطعن الجيلات ... إنها مأوى الأبالسة ومرتع الشياطين وملعب الجنة، وإن تكن أكثر بلدان الله مساجد وكنائس وبيعا ... كل ما فى القاهرة مصنوع .. ليس فيها شيء لم تنفق على تطريته الألوف والألوف .. إنها حى من أحياء

تلك القلوب الرطبة بما حباها الله من رشاقة وخفة
وجمال

لم تكن سنية من هؤلاء الراقصات اللاتي يتجرن
بأجسامهن فيجعلن أثماناً للنظرة والابتسامة والكلمة
والجلسة والربطة بأطراف الأصابع ثم السهرة بما
يكون فيها من نصيب أوفى للشيطان ، فتكون القبلة
بشمن قدره كذا، والضممة بسمرورنه كيت، والرقصة
المارية المجرودة بكذا من القروش المدودات ...

لا... لم تمارس سنية هذه التجارة للقدرة وإن
تكن بحكم الصنعة تعرفها ، وكانت على اعتماد
لممارستها لو لم يدخل صبرى افندى نجيب في حياتها
بقأة ، فكان دخوله فيها كالنور الذي يقشع الظلام
ويبدده ، ويحل البشر والابتسامة محل التجهم الذي
هو مصدر جميع الشرور

لقد كانت سنية تسبح في حفلة الرقازيق الساحرة
في فيض من ضوء البرتقال في خفة ورشاقة وتثن ،
وكان جسمها الناضج الخصب المتلي بالشهوات
يروح فوق المسرح ويجى في حركات مضبوطة
متزنة ، وكانت تخذها المارية النساء الناعمة تنقبض
وتسترسل وتلف كاللوب فوق قدم صغيرة حافية
لها أصابع دقيقة أنيقة وعقب جميل مستدير ، كان
حامل النور الخبيث يسلط عليها ذوباً من الضوء
الأيض للناسع فيجعلها كزهرة الزينق للفضة
المنضوحة بخمرة اللؤلؤ

وكان ذراعاً سنية تستدقان عند الكفين ،
وتلتفان عند الساعدين ، وتبرزان قليلاً عند الكوعين ،
ثم تمتلئان عند المضد ، فكانتا بذلك أجل ذراعين
تقع عليهما عين شاعر وموسيق مثل صبرى ...

وكانت الفتاة تحمل إحداها في رفق وهودة
فوق صدرها الناهد ، فتفطى ثدياً وتكشف آخر

جهم انتقل من سواء الجحيم ليكون فتنة هذه الدنيا
والناس يتهاقنون عليه لكثرة ما فيه من المغريات ..
الملاعب ... المراقص ... المساهر ... الحانات ...
دور اللو ... نخاخ الشباب ... مصائد اللذات ...
الواخير ... أوه لهذه الواخير !

أحس صبرى ظمناً شديداً إلى القاهرة ، لقد
انتشرت الأبالسة تبعث عنه حتى وجدته يصل بريثاً
ساذجاً في صومعة الريف ، فنفتت في قلبه الرغبة ..
ووسوست إليه بضرورة التغيير ... لقد ضحكت عليه
وصرخت في صدره بأن الحياة التي يحياها حياة خاملة
متشابهة تبيت للنفس وتزهق للمواطف ، وتكبت
الروح ... والشباب الذي له مثل شباب صبرى
وقريحته ومزاجه لا يخلق به أن يحيا سجيناً هكذا
لا بد أن يؤدي رسالته في محيط شاسع واسع مختلط
بتغير كل ساعة ولا يبق على سنة واحدة أكثر
من يوم ...

ما هذا الريف الساكن الساكن الهادي الصامت
الذي لا تحس له ركزاً ولا تكاد تسمع له همساً !!
ما أبشع أصوات البقر والجاموس والجرير والأوز
والبط والكلاب الريفية وقطاط القرية !

ما أبشع أسراب الدباب تحط على كل شيء
وتفمر كل شيء ، وما أقسى لدغات البعوض !
هكذا ألحت الأبالسة على قاب صبرى ، وهكذا
بفضت إليه هذا الريف البار الذي لا يؤذى أحداً
ولا يلحق الضرر بأحد ، ثم حسنت إليه القاهرة
الساهرة المريدة التي لا تكاد تنام ...

وهكذا اتوى صبرى أن يتبع الفتاة القاهرية
الرائمة التي رآها في الرقازيق ترقص في ليلة ساهرة
مع إحدى الفرق الجواله ، والتي استطاعت أن تسحر

وهنا كان موضع فتنها وسحرها ... وايس يدري
الخيال أى اللذين أوفرتة وأ كبر نصيباً من الجاذبية:
المكتشفة ، أم المختبئة تحت الكف للثيرة المنداة ؟
أما ابتسامات سنية ونظرات سنية فكانت خير
رأس مالها فى دولة الجمال . فلقد كانت تقتر عن قم
حلو خللاب لم تعالجه إلا بقليل جداً من أحمر الورد
فاذا تبسم بدت ثناياها المذاب الرطاب ، وتضاحك
خداها فغازلا الأفواه الغامضة بالتقبل

أما عينها فكانتا نفاذتين أخاذتين ، لها شك
عجيب فى سويداءات القلوب ... فاذا لم يسلم الرأى
بنفسه ، غرق منهما فى لجنتين من السحر ، فلم بدر
لنفسه قراراً ولم يفز بنجاة

هذه سنية ... هذه هي الفتاة التى شقت فؤاد
صبرى شقاً عنيفاً فاستقرت فيه غير راحة ... هذه
هي الفتاة التى غيرت مجرى حياة الشاعر الهادى
للسا كن فجعلتها عريضة ساخبة مضطربة كالثورة .
تطلب كل شئ ، وتشتهى كل شئ ، ولا تقنع بشئ ،
ولا تسكن إلى شئ

لقد كان صبرى ينكر الجمال المصرى حتى رأى
سنية فأمن به ، وعرف أن الخير موجود بوفرة فى
كنانة الله ، وأن الجمال المصنوع فى شركات السينما
هو زيف وبهرج لا يعدل الجمال المطبوع فى هذا
الوادى للقديم المقدس

ولقد كانت سنية تحفة من آيات النيل طبعت
على غرارها تحف كثيرة نادرة ، لكنها وأسفاً تختبئ
فى مباءات الفقر وتهمل فى الأزقة والطرقات ،
ويندر أن يكتشفها قلب عاشق أو خيال فنان إلا
فى مرقص أو ملهى أو ماخور ، بعد أن تشوهها
يد اللعب ، أو تمزق عفافها يد الدنس ، أو تبذلها
الأفراض والشهوات ...

لقد كانت سنية تقف فى مفرق الطريق عند
ما ساق إليها القضاء صبرى ، وكانت موشكة أن
تردى فى الهاوية التى ابتلعت الألوف من أشباهها ،
لولا أن أشرق فى ليلاها هذا الكوكب الدرى فجذبها
إليه ليصنع منها قديسة !!

— بل الحياة فى الريف أجمل وأ كثر بهجة ...
إنك واهمة يا أختاه ... إن حديقى ستسحرك
بأزهار للبرتقال والندرج والخوخ والشمش ...
وستطربين إلى دوى النحل ... لا تخافى ، فنحننا
هادى ودبيع لا يؤذى أحبابه ، لقد تقف النحلة على
يدى فتقبلها كأنها تعرف من أنا !!

— كل هذا جميل وساحر ، وأنا أحب الريف
كما لا يحبه أهله

— كما لا يحبه أهله ؟

— أجل ...

— وكيف يا سنية ؟

— إنهم من طول ما امتزجوا به يودون لو
تخلصوا منه

— وإلى أين يذهبون ؟

— إلى المدن الساحرة ... المدن الكذابة !

— إلى هذا الحد لا تحبين المدن !

— أما لا أحب المدن لأنها ترهقنى

— وكيف ترهقك وكل من فيها صرعى هوالك !

— هذا هو الذى يضجرنى ... إن الناس

يهاجوننى بشهواتهم وكل منهم يريدنى لنفسه وإلى

الآن لا أدري لمن أكون

— لأحسنهم طبعاً !

— ليس فيهم أحسن وأردأ ... كلهم أبناء

- آدم ، والخطيئة تجري في أصلابهم بالوراثة
- إنك تظنين بالناس الظنون يا سنية !
- ليس هذا مجرد ظن يا عزيزي ... لقد درستهم وخبرت مكنوناتهم ... أبدأ لن أنسى ما تمرغ الشباب تحت قدي لأنيلهم إحدى ثمراتي ، فلما كنت أستدرجهم وأقترح عليهم سبيل الرحمن ، كانوا يمزفون ويفرون مني كأن طاعون !
- وي ! !
- هذا حق ... لقد كانوا يفرون حتى لا يصيبهم طاعوني ... لقد كانت شهوتهم تنطق بجأة عند ما أذكر لهم الزواج ...
- ولماذا كانوا يرفضون ؟
- كانوا يرفضون لأنني راقصة ... ومن حق الناس على الراقصة أن يتألوها بأيسر ثمن ... ليس للراقصة أن ترتفع إلى الأفق العلوي الذي يحيا فيه جميع الناس ... إنها مخلوق وضع ، فكيف تحسب نفسها من معدنهم !
- هذه مبالغة يا سنية !
- ليست مبالغة .. إن الناس يزدروننا ويزعمون أننا مجردنا من فضائلنا حين اضطرنا الموز إلى هذه الحرفة ... وليت شعري ماذا كنا نصنع ؟
- لهذا قلت لك إن الريف جميل !
- ماذا تعني ؟
- أنت تفهمين كل ما أعني !
- أتمنى أن أزل عليك ضيفه ؟
- حاشا لله يا سنية !
- إذن لماذا تعني ؟
- ألا تحسبن يا سنية أن كلا منا كان يفتقد الآخر من عهد بعيد ؟
- أخشى أن تكون حبيبا جديدا !
- ليكن ما تظنين !
- لكني لا أحب لك أن تكون في قائمة الآخرين !
- لن أكون في قائمتهم إن شاء الله !
- هذه إذن تكون تضحية عجيبة !
- ولماذا تكون تضحية ؟
- قبل أن أفسر لك ما أريد أود أن تصارحنى !
- وبماذا أصارحك ؟
- لماذا تريدني عندك في الريف !
- لتكوني أجل زهرة في بستانى !
- خيال شاعر لا يستطيع أن يبرهن !
- ليس ما أقول من خيال الشعراء يا سنية ، ماذا تريدن أن أقول لك ؟
- أنت تعرف ماذا ينبغي أن تقول ، ولكن ... لا تكن شاعرا أرجوك !
- أتكلمين للشعر ؟
- أكره الشعر الذي يكذب به قائلوه على سامعيه !
- وأي شعر تحبين إذن ؟
- وأي شعر ترى أن يحب العذارى ؟
- الشعر الذي تغسله الدموع !
- قد يكون هذا كذب الشعر !
- الشعر الذي يحس الإنسان حرارته !
- قد تكون الحرارة طبيعية في قلب الإنسان فيتأثر بأى أنواع الشعر ويحسبه حارا !
- الشعر الصادق الحى إذن !
- قد يكون الشعر صادقا حيا في حين يكون صاحبه لا صادقا ولا حيا
- وكيف ؟ أليس الشعر هو الشاعر ؟

- ليس في كل الأحيان ، فقد يكون الشر
صناعة ومع ذلك تكون فيه حرارة وصدق وحياة
— فإذا كان شمرى حقاً !
— أى !
— أى أنه ليس صناعة يزجها اللسان
ويزخرفها القلم !
— إذن فلماذا تريدني أن أكون عندك
في الريف ؟
— لتكوني لي وحدي فقد أصبحت لا غناء
لي عنك ولا حياة بدونك !
— أهذا هو الشر غير المصنوع ؟ !
— إى وحقك يا سنية !
— لشد ما أنتم أنانيون يا عشاق !
— لست أنانياً ... ولكن ...
— ولكن ماذا ؟
— لا أريد أن تقع عين عليك فتستمتع بجمالك
بعد اليوم !
— إغراق في الشر مرة أخرى !
— لست مغرقاً في شر كما تظنين !
— أنت تراوغني ، وأوشك أن أضيق بك كما
ضقت بالآخرين !
— ماذا الله أن أراوغك يا سنية ، أرفضين
أن تكوني لي ؟
— لست أرفض ولكن بأى سبيل ؟ !
— بأى سبيل كيف !
— هل تسألني ؟
— لا أفهم !
— لأنك تراوغني كما كان يفعل الآخرون !
— وماذا كانوا يفعلون ؟
- لقد ذكرت لك كل شيء
— آه ... فهمت !
— فهمت ماذا ؟
— لقد كانوا يريدون بمض ثمارك بأيسر ثمن !
— هو ذاك !
— وتحسبين أنني أصنع كما كانوا يصنعون !
— وماذا تصنع غير ذاك !
— كلا يا عزيز ... يا حبيب ... كلا يا سنية !
— لماذا ترتبك هكذا ؟ !
— أرتبك لأنك ترفضين أن يكون كل
ما أملك لك !
— إذن فاسمها منى ... أنا أرفض أن يكون
كل ما تملك لي .
— ولماذا ؟ أليس للميش مع شخص واحد
خيراً منه مع كثيرين !
— إذن أنت لم تفهمي ، ومن الخطر أن
تركن إلى ...
— من الخطر أن أركن إليك ؟ ولماذا ؟
— لأنى راقصة .
— وما في ذاك من الخطر على ؟
— سأحطم حياتك ... سأجعل سمادتك
أقاصاً ... لن تنظم بيتاً واحداً من الشر بعد أن
أدخل منزلك الربي ... لن تفنى ... لن تشكو
إلى عودك ... هل سمعت ؟ !
— أنت واهمة يا سنية !
— لست واهمة ، ولكنك الآن في فيض من
عواطفك فلا تستطيع أن تفهم ... ثق أنك سوف
تكون أشقى الأشقياء إذا آويتني في عشك الربي
الجميل ... فأتانا أنصحك ...

- تنصحيني بماذا ؟
— بأن تباعد عني ما استطعت ، فأنا خطر عليك
— أرانا قد ابتعدنا كثيراً يا سنية ... لقد
أسأت فهمي
— كلا ، لقد فهمتك جيداً ... ألسنت تريدني
لك وحدك ؟
— بلى ، أريدك لي وحدي ، فاق ذاك مما
أملك ؟
— لم يؤلمني شيء ، بل إنه قد سرنى أن أفهمك
كما فهمت الآخرين ، فلقد كان كل منهم يريدني له
وحده ... مثلك تماماً !
— لكنك ذكرت أنهم كانوا يهربون منك !
— كانوا يهربون مني كما يحاول أن تهرب أنت
الآن !
— وكيف أهرب منك وأنا أحاول أن أذو
منك أكثر من كل لحظة دنوت فيها منك ؟
— إذن أجب عما أسألك دون أن تلتوي هكذا :
كيف تريدني أن يضمني منزلك الربى إذا رحلت
مبك إليه ؟ أأكون فيه حبيبة ؟
— تكونين فيه آمن من حبيبة ؟
— أأكون ماذا إذن ؟
— تكونين مالكة متصرفة !
— أى أنك تنزل لي عن بيتك ؟
— ولم لا أقبل ؟
— بمقد مسجل ؟
— بآية طريقة تحبين !
— وماذا أملكه لأنفق على هذا البيت ؟
— ضيعة واسعة !
— تكون لي ؟
- تكون لك تتصرفين فيها كما تشائين !
— ثم يكون بيتنا بعد ذلك ما أمر الله أن يكون
بين كل امرأة يتصل بها رجل ؟
— ... ؟ ...
— لماذا لا تجيب إذن ؟
— ... ؟ ...
— ألم أقل لك إنك لا تفضل أحداً من أبناء
آدم !
— إنك تربكيني يا سنية !
— ولماذا أربكك ؟ ألا تطلب منك ما يطلب
الله من الرجال للنساء ؟
— أنا لا أمانع فيما تطلبين ...
— إذن لقد اتفقنا
— ولكن لي شرط
— وما ذاك إذن ؟
— أن تكتفي بخطاب أكتبه إليك !
— وشاهدين !
— لك هذا ...
— وما يخيفك من الطريق الذي يسلكه جميع
الناس !
— ليس يخيفني شيء !
— عجيب أمرك والله ! إذن نسلكه نحن أيضاً
ما دام لا ضير عليك فيه !
— لكن ...
— لكن ماذا ؟
— لا شيء !
— بل أنت تخشى أشياء كثيرة ؟
— أشياء كثيرة مثل ماذا ؟
— حتى ما نخشى منه تريدني أن أقوله لك !

أرأيت إلى هذا الحوار الطويل ؟ أرأيت كيف كان الفتى صبرى مثل كل الناس في مفاصلة هذه الراقصة للبريئة ؟ لقد أرادها كما أرادها غيره ، فلما استعصت عليه بهذه الوسيلة عرض وسيلة أخرى ... لقد أراد أن يقنعها بالمال ، لكنها أبت وصارحته أنها ترفضه ، فلم يجد بداً من أن يتقاد لها كما تريد ؛ وهو بذلك قد مسح حبه ومزق جماله وشوه العاطفة الكريمة التي سرت بين قلبه وقلب سنية ، ولو أنه كان قد أجاب صبيحة حبيته ولبى نداءها دون هذه المراقيل التي أقامها بينهما لكان أسعد خالاً مما انتهى إليه أمره

على كل حال لقد تزوجها وذهب بها إلى منزله الزينى الجميل ، ولقد سعد بها سعادة كانت منتهى أحلامه ...

وكانت سنية تنشد هذه الحياة الزوجية الهادئة البعيدة من المراقص والملاعب والحانات ودور اللهو ؛ ولم تكن مثل كل الراقصات تطرب لكلمات الثناء للكاذب التي يبعثها المشاق حول أذنيها كي يخدعوها ... لقد كانت تعرف الباعث على هذه الكلمات ، فكانت ترددها في صميمها ، وتحقر أصحابها ، وإن لم تبد لهم مكنون نفسها ، فكانت تجزيهم بابتسامة فائرة لا تنال فيها ، ثم تمضى في سبيلها تاركة في كل قلب لوعة وفي كل نفس حسرات ؛ وكانت لذلك تصلى لله أن يرزقها هذه الحياة الطيبة الوادعة ، وأن ينقذها من الميؤن الجائمة ، والنفوس السائمة ، والشهوات الوضيعة التي تنطق بالدرام في البؤر والمواخير .. فلما فازت بها هدأت واطمأنت ونسيت لصبرى هذا الالتواء الذى كان يضعه بينه وبينها أول الأمر ، ثم طأطأت نفسها لتجملن بيته جنة ، ولتملائه غناء وألحاناً

— لا وحقك ، ولكن قولى لي ...
— هذا أمر يسير جداً ... أنت تخشى أن يعرف الناس أنك قد تزوجت راقصة ؟ أليس كذلك ؟
— ما هذا الذى تقولين يا سنية ؟
— بل هذا هو الذى يخيفك ... وأنا لذلك أرفضك !

— هذه قسوة شديدة لا أحتملها !
— قلبك ليس شجاعاً ، فهو لا يحتمل كثيراً
— سأبرهن لك أنك فهمتى خطأ
— وكيف تبرهن على ذلك ؟
— سأطلب يدك إلى أبيك !

— أبى !

— أجل !

— وهل تعرف أبى ؟

— أسأل عنه !

— تسأل من ؟

— أسألك أنت

— خير لك أن تسأل غيرى فقد أ كذبتك !

— لا تستطيعين !

— ولماذا لا أستطيع !

— لأن من كان له مثل لسانك لا يكذب !

— إذن ...

— إذن ماذا ؟

— لقد مات أبى !

— فأنت يتيمة إذن ؟

— أجل ، ولذلك نشأت راقصة

— إذن هلى ...

— إلى أين ؟

— إلى القاضى ...

ومضت شهور والالاف مظهت إلى إلفه ، سعيد
به سعادة لا تشوبها شائبة ، ولا يكدرها مكدر
ثم جلس صبرى مرة في ظل شجرة عارشة فوق
دواره فسمع شابين يتناجيان خلف الجدار فيقول
أحدهما والآخر يجيبه :
— كلا يا سيدى ... لقد جاء بها من مصر ..
وكل الناس يقولون إنها راقصة !
— يا شيخ اتق الله، صبرى بك يتزوج راقصة؟
— والله لقد سمعت هذا من فم لا يكذب
— ومن سمعته يا صادق ؟
— من أعز أصدقاء صبرى بك ... من
غالب أفندى عبد الرؤوف
— وما دخل غالب أفندى عبد الرؤوف في أن
يتزوج صبرى بك راقصة أو غير راقصة ... الرجل
حر ، وهو الذى اختار لنفسه ، ورب راقصة خير
من نساء قريتنا جميعاً !
— مهما يكن الأمر فغالب أفندى يقول إن
صبرى بك سعيد جداً بزواجه وهى خير له من أى
زوجة أخرى .
— ولماذا ؟ لماذا يقول غالب أفندى هذا الكلام !
— قلت لك إن غالب أفندى لم يخطيء في حق
صديقه ...
— مجرد ذكر الزوجة التى لا شأن لأحد بها
خطأ يا صديق ، هكذا علمنا هذا الريف الذى نميش فيه !
— هذه مغالاة يا راغب .. الحمد لله غالب أفندى
رجل يحب صبرى بك ويخلص له ، وقد مدح زوجته
مدحاً طيباً وأثنى عليها ثناء صادقاً .

إذن فقد كان الناس يتحدثون عن صبرى أفندى

وعن زوجته ، وقد علم الناس أنها كانت راقصة ،
وقد تحدثوا بذلك طويلاً ، وتحدث به أصدقاء صبرى
وفى مقدمتهم غالب أفندى عبد الرؤوف صديقه
الأعز ، ولا شك في أن صديقه الأعز هو الذى
أذاع هذا الخبر . وإن يكن قد أذاعه مثلياً مادحاً
لا ذاماً ولا قاذحاً .. لكن النية معروفة على كل حال ..
لقد أراد غالب أفندى أن يقول للناس إن صبرى أفندى
نجيب صاحب هذا المنزل الجميل المنزل متزوج
راقصة ، وسيفهم الناس أن كلمة متزوج هذه كلمة
(تجوزية) فهم يقولونها ويريدون أن يقولوا إنه
يؤوى في بيته راقصة ... والناس في الريف وفى
المدن الصغيرة لا هم لهم إلا التحدث في شئون
غيرهم الخاصة ، يساعدهم على ذلك فراغهم الكثير
وعدم اتصال أشغالهم ... والانسان متكلم شغشاق
بطبعه ، لا يستطيع أن يخزن لسانه إلا على قلق ،
وهو إذا لقي إنساناً آخر جعل يفكر في ألف
حديث يقوم بينه وبينه ، فإذا ضاقت به الأحاديث
أرسل أى حديث والسلام ... فما يبالي أن يكون
هذا الحديث غيبة وهو عادة لا يقصد الغيبة ، إنما هو
يقع فيها وهو لا يدري ؛ ومن الناس من يقع في
الغيبة وهو متعمد لأن كثرة وقوعه فيها غير عامد
قد مهد لوقوعه فيها عامداً ، فهو يلقى الحادث الصغير
فما يلبث أن يحوكم له الأطراف ، وينمز له بالعين
والأنف وسائر أجزاء الوجه حتى تستقر في روع
السامع منه أشياء ليست من الحق ، وليس فيها من
الحق شيء ...

هكذا يعيش الناس في الريف وفى كثير من المدن
الصغيرة ... وقد سمع صبرى حديث الشابين
فأحس لساعته أن سحابة تنعقد في سماء سعادته ،

- وأن كاسامرة المذاق ترتفع إلى شفتيه ، وينسكب منها شيء في فمه
- وانقلب صبرى إلى منزله مفكراً مقطّب الجبين ساهماً ، فلما لقيته سنية لم تبال عبوسه وتقطيعه ، بل راحت تلف ذراعها حول عنقه ، وتسלט عينها الراضيتين في عينيه السادرتين ، ثم تغمره المرتجف بالقبل ...
- بيد أن قبلها لم تسحره هذه المرة ، وظل صبرى فاراً كالذى سرى في كيانه هم ، أو قاجانه نازلة ...
- فقال له وقال لها :
- ماذا ؟ هل ضاع كيس نقودك ؟
- لا ... أبداً ...
- هل خطف طفل طربوشك ؟
- ها هو ذا طربوشى
- هل حذفك فلاحه بقشاة ؟
- ... ؟ ...
- مالك مقطّباً هكذا ؟ ماذا حدث إذن ؟
- لا شيء ...
- أصريض أنت ؟ أتحمس تباً في رأسك ؟
- قليلاً
- إذن خذ هذا القرص المسكن
- ثم أذابت له القرص في قليل من الماء ومدت إليه الكوب بيدها الفتاة الرائعة فتناوله وشرب ، ثم تطرح على السرير أمام سنية
- أين كنت يا صبرى ؟
- كنت في الدوار
- هل لقيت أحداً ثمة ؟
- ما لقيت أحداً اليوم
- هل سمعت كلاماً ؟
- ما دمت لم ألق أحداً فكيف أسمع كلاماً ؟
- أوه ! صحيح ... أنا غبية
- عفواً ...
- هل أغنى لك ؟
- أكون سعيداً لو فعلت
- وعليك أن تأخذ للمود يا عزيزى
- لا أقدر
- إذن أقوم بالقضاء والموسيقى معا ... هل تقترح شعراً فأغنيه ؟
- ليس في رأسى كلمة واحدة فأقولها
- وأختار أنا مقطوعة من كلامك
- ثم تناولت سنية عود زوجها فرجمت بصوتها عليه ، فما راعها إلا أن ترى دمة تغالب عين صبرى ثم تنطلق على خذه حارة ساخنة ، فألقت بالمود ناحية وقالت له :
- ماذا ؟ أنت تبكى ؟
- لا ... أبداً
- وما هذه الدموع إذن ؟
- إنها نتيجة ما برأسى من ألم الصداق
- لا ... لقد سمعتها تقول شيئاً !
- الدموع تتكلم ؟ هذا هو الشعر الذى كنت تسيينى به
- وهذا هو الشعر الصادق الذى لم تستطع أن تضرب لى عليه مثلاً !
- غنى غنى
- لن أغنى حتى تذكر لى ما يبكيك
- عجيب والله ! أغنى أنا !
- ثم تناول المود فأمر أنامله على أوتاره فذهبت تملأ الغرفة رنيناً وأبيناً ... وغنى غناء موحجاً باكياً
- فقال له سنية :

— لقد نضكت عليه بنت من بنات مصر وربما
ذهب ليتزوجها !
— ومن قال لكم هذا ؟
— البلد كما تقول ذلك !
— كل البلد ؟
— كل البلد ... بلدنا لا نخفى عليها خافية ولا
ينام فيها بيت قبل أن يعلم أخبار جميع البيوت !
— هذا عجيب ... لكن صبرى لم يخبرنى بشيء
من ذلك !
— وهل قال لأحد إنه سيتزوجك قبل أن
يفعل ؟
— وماذا يقول للناس عنى يا ترى ؟
— كل خير ... كل خير يا أختاه
وجاءت القهوة فرشفت سنية رشفة ونهضت
مودعة شاكرة ، ثم انطلقت إلى منزلها وبها من
الهم والقلق أضاع ما كان يقيم صبرى ويقعده منهما
ترى أين ذهب صبرى ؟! أحقيقة ذهب ليتزوج ؟
ولم لا يكون هذا وقد لبث هذا الشهر واجماً ساهماً
حتى لحظ للكل ذلك ، وحتى لحظه غالب نفسه
ودليل هذا ذلك الحديث الطويل عن الحب والمحبين
بينه وبين فؤاد !!
لقد راهن غالب صديقه فؤاد على هذا ... لقد
راهنه على أن خبه لهذه الزوجة اوراقه لئلا يطول
أمدّه ، لأنه حب طارىء دخل قلبه من فوق السرح
وتحت فيض من الأضواء ، وبين تثنى الأذرع وتلوى
الأنفاد ، وهز الردف وتكوير الأنداء ... ثم إرسال
الابتسامات المصنوعة التى تزيد فى جاذبية الرقص
وإغلاء البضاعة ...
مكننا زعم غالب ، وهكذا حكم على وحدانية

— هذا اللغناء ترجان دمومك ... ألا تذكر
لى يا صبرى لماذا كنت تبكى ؟
— لم أكن أبكى ، وما كذبتك يا سنية !

وفتت بهجة المنزل بعد ذاك ، ثم مضى شهر
وصبرى لا يروح لزوجه بشيء مما يؤله ... ثم
أصبحت فلم تجده معها ... فبحثت عنه فلم تثر عليه
بالقرية ...
هنا ... قام طائف من الشك فى قلب الفتاة ...
فقد غربت الشمس وصبرى لما يمد إلى منزله ...
أين ذهب يا ترى ؟
وخطر لها أن تقصد إلى منزل غالب أفندى
عبد الرؤوف لتسأل عن بعلها ... لكنها لم تجد الرجل
نعم ، ولقيتها زوجة غالب أفندى فأكرمت لقاءها ،
وكان الأستاذ غالب يتحدث إلى زوجته بدافع
الفضول الرقيق عن صبرى أفندى وعن زوجة
صبرى أفندى ، فلما عرفت ربة الدار فم أقبلت سنية
وكان الوجد والقلق باديين على وجهها حزرت أنها
ناقة على صبرى وعلى الزمان الذى ربط جبالها بحباله
فقالت :
— لا أدري يا أختاه ماذا سرك من أمر هذا
الرجل حتى رضيته زوجاً لك ؟
وهنا عرفت سنية كيف تستغل سداجة هذه
الريفة فمدت لها فى الحديث قائلة :
— هذا نصيبى يا سيدتى !
— مسكينة ، إن صبرى رجل غنى وهو لهذا
لا عمل له إلا ضرب المود واللغناء والسفر بين مصر
والقازيق ... ألم تعلمى الخبر الجديد ؟
— أى خبر ؟

الحب بالفساد ، فيأترى ! أين ذهب صبرى !

لقد ظل شهرا بتمامه عابسا متجهما لا يتبسط ولا يفرج عن نفسه وعن أهل منزله ... وكان يصنى إلى غناء سنية في فتور وتكاثف ، ولم يكن يبادلها هذا الانشراح الذى كان طبيعة فيه ... فأين مضى ياترى ؟

ومكثت سنية أياماً ثلاثة وهي لا تدري أيا ن مضى ولا أيا ن يجىء ولا أين تلقاه فتنهض من فورها لتضى إليه .

وكانت كالذى ينتظر الحكم عليه من قاضيه ، فلم تكن تذوق الكرى طوال هذه الأيام الثلاثة ... بل كانت تفكر أفكاراً سوداً كقطع الليل ... وممت بالانتعار مررات ، لكنها لم تؤثر أن تموت قبل أن تسرف

إنها لم تخطى قط في هذا المنزل ... بل بالعكس لقد صيرته جنة وارفة الظلال ، وحاطته بالطهر ، لأنها عاشت حياتها تقية ظاهرة ... لقد ملأته غناء وموسيقى وبهجة ... لقد مثلت دور الأنثى كما تمثله حور الجنان ... ماذا كان يطلب منها صبرى غير هذا ؟

ووقف قطار الصباح في محطة القرية ونزل منه صبرى ومعه فتاة تاهد هيفاء ممشوقة القد ، بفيض بردها شباباً ويهتز جسمها الريان خصباً ... ولقيه غالب فخياه ثم سلم عليه مصافحاً ، وهتف به بالفرنسية قائلاً : « عسى أن تكون قد وفقت هذه المرة يا صبرى ! » فتبسم صبرى ابتسامة صريخة وقال لصاحبه : « إن شاء الله ... لقد وفقت يا صاحبي ! » وكانت هذه آخر كلمة وجهها صبرى إلى غالب مدى الحياة !

وذهب الفتى إلى منزله فلقبته سنية موهوبة

عظيمة كاسفة ، فلما رأت الفتاة الجميلة الزائمة إلى جانبه ، ذهلت ، وسكنت برهة ثم قالت له : « أهذه هى ! ؟ » فقال صبرى : « هذه من ؟ » فسالت دমে ساخنة على خد زوجته وقالت : « زوجتك الجديدة » فأسرع صبرى إلى زوجته فأخذها في ذراعيه مداعباً وقال : « أجل ياسنية ! هذه ابنة أخى يا أعز الناس على هلى هلى .. أعدى الحقايب قلن نعيش هنا بعدا ! » وكانما أفاقت سنية من حلم ، فنظرت إلى زوجها وقالت له :

— لن نعيش هنا ؟
— أجل ... ولا يوماً واحداً
— هذا محال !
— بل هذا واجب ... لقد استأجرت منزلاً جميلاً فى الزمالك ...
— ولماذا يا ...
— لأنى لا أريد أن أحرم من الجنة التى ما دخلتها إلا معك !
— ما ذا تقول يا صبرى ؟
— ألا تفهمين ؟ إنك كنز عظيم ياسنية ولن يضيع كنزى من يدي .

— ولماذا تهجر الريف ... إلى أحبه ...

— أما أنا فلقد ضقت به

وعاشا فى الزمالك الساحرة عامين كاملين ... لكن سنية علمت زوجها كيف لا يكثرث بالناس ... وما زالت تلح عليه فى العود إلى الريف حتى رضى كارهاً ...
ووقف ابنهما كامل الجميل فى حديقة المنب مأخوذاً بسحر الريف وهو يهتف بوالده ويقول :
« بابا . بابا ... حلوة يا بابا ! ! »

دسبى ممشية

صدايقنا الحبيب

للكاتب هنري بوردو عضو المجمع العالمي الفرنسي
بقلم الأستاذ ناجح الططراوي

وخلاصة ما ذكرته أن رجلا يدعى
بيير فالري، وكان مستخدما لدى
شركة البترول، نزل من القطار
الذي يخرج من محطة سان لازار
في الساعة ٢٠ والدقيقة ٢ قصد
بوا كولومب التي يصلها في الساعة
٢٠ والدقيقة ١١، وقصد في الحال

مدير المحطة وأخبره أن في عربة القطار التي كان
فيها، رجلا قتل نفسه أمامه برصاصة وجهها إلى قلبه،
وكان الرجلان وحيدين لآثا لهما، ولم يسمع من
في العربات المجاورة شيئا.

وبدا مدير المحطة أن إيضاحات هذا الشاهد
الوحيد مختلفة، وواقعه في اجتهاده هذا الشرطي
الذي دعا في الحال، فقرر إبقائه وحجزه، بعد
أخذ اسمه وعنوانه.

كانت سمعة بيير فالري حسنة في بوا كولومب،
وكان محترما بين مواطنيه، وعلى الأخص في هذا
الطريق، إذ كان يركب القطار كل صباح من باريس،
ويمود إليها مساء به، ولكن الاتهامات القوية وجهت
إليه منذ يوم القبض عليه، واكتشفت مأساة حقيقية
كاملة أفضت مضجعه: هجرته امرأته في العام السابق
لتميش — في شارع مجاور لشارعه — مع فيرناند
بورري هذا الذي مات تلك الموتة المحزنة المفاجئة،
والذي كان صديقا حميلا للمائلة. وبقي بيير فالري قاطنا

في مسكنه مع ابنة له صغيرة لم تبلغ ثمانية أعوام من
عمرها، وكانت أمها تأتي كل صباح لتراها وتمود
ثانية بانتظام ودقة، فارتبطت البنت بأمها وعشيق
أمها برابط منوي وثيق. ولا ريب أن الأب مل هذه
الحياة غير الطبيعية، ووجد نفسه في القطار وجهاً

خاطب مسيو هير، قاضي تحقيق الجنايات
كاتبه مسيو موتون قائلاً:

— ماذا تقول؟ أجرة عاطفية أخرى؟
ألا فليعلموا أن زمن الصفح والعمو قد انقضى.
وما إن القضية — وخاصة في برتانية الكبرى —
بدأوا يحكمون على المجرمين القاتلين بالموت شتفاً،
لن يبقى لدينا شيء اسمه جريمة عاطفية. هل أنت
مستعد؟ إنني سأمر بإدخال التهم، ولكن قل لي
هل وكل محامياً؟

— نعم ياسيدي القاضي.
— لا خير، إننا نستطيع استجوابه بهدوء،
لأن هؤلاء السادة الذين يمحامون ويدافعون بمقدون
الاستجوابات بصورة رهيبة.

— إن التهم ياسيدي، يدعي أنه ليس جانبياً.
— شيء طبيعي، وماذا تنتظر منه غير ذلك؟
— ويؤكد أيضاً أن القضية هي انتحار
وليست بجريمة.

— انتحار؟ فكر قليلاً، إن العمل الطبيعي
والشاهد دائماً هو أن الزوج يقتل الماشق، فكيف
نصدق أن الماشق هو الذي قتل نفسه وبحضور
الزوج أيضاً؟ لقد شغل هذا الخبر الغريب الصحافة،
وأنت على وصفه وتسجيله تحت عناوين ضخمة،

لوجه أمام عاشق امرأته بطريق الصدفة ، عائدًا في ذلك المساء إلى باريس ولم يركب القطار الذي كان من عادته أن يركبه . لقد كان مصممًا على الانتقام حتى اللحظة الأخيرة . ولقد ثبت أن السدس الذي وجد عند قدمي الضحية كان ملكًا له ، وسلم نفسه دون أن يبدى مقاومة

ورجا أن تؤخذ ابنته إلى أمها أثناء غيابه بقلة اكرثاظ ظاهرة ، وكان يردد في هذه الأثناء بصوت هادئ : إن هذه القضية انتحار وليست بجريمة ، ولكن لم يبد عليه أنه مقتنع بهذا الادعاء الخيالي ... ودعى للشول أمام قاضي تحقيق الجنايات

رأى القاضي أمانه رجلاً صغيراً متواضعاً ، ذابل النظارة ، لا يتجاوز الأربعين من سني حياته ذابرة وهيئة تدعوان إلى الانهزام ، ولم يك في وجهه غصون مميزة ، بل كانت تبدو عليه أمارات الكآبة والحزن ، وكانت عيناه غائرتين ذابلتين ، تشبهان عيني الجددي الذي ينتظر طلقة البندقية مودبة بحياته

قد يكون من الممكن أن يقال إن أمارات الحزن هذه قد ولدها فزع من القضاء وأله النفس الذي كان يكابده ، لو لم تكن متلائمة مع طبيعة وجهه ، ولكن ظهر للقاضي أن هذه الأمارات طبيعية في وجهه لا يمكن أن تزول منه ، وأيد اعتقاده هذا أن التهم كان يجيب على الأسئلة الأولى بكلمتي نعم أو لا بانفعال وتهيج ، ولقد أقر للقاضي بكل الأمور التي سأله عنها : الخيانة وهجر امرأته ، واقتسام الطفلة ، وامتلاك السدس ... ولكنه بعد هذا كله أنكر الجريمة !

فلم يتالك القاضي نفسه أن صاح به :

— إذن هل لك أن تقص علينا كيف كان الأمر

— آه يا سيدي القاضي ، ما جدوى ذلك ؟ إنك لن تصدقني ، وأنا لا يسوؤني أن أدان — إن كنت بريئاً كما تدعي ، فإن إدانتك تسوؤك كثيراً ، وإن كنت جانياً أمكن أن يكون في جنايتك ظروف مخففة

ولما صمت ولم يجب أردف القاضي قائلاً :

— وإن لك مع ذلك ابنة ، فإن كنت بريئاً لا ترضى أبداً أن تترك لها اسماً ملوثاً ملطخاً فتمم التهم قائلاً :

— آه لم أفكر في هذا

وكان هذا الجواب وحده حافزاً للقاضي لأن يلاحظ أمارات الوجه للبائس المخدول ، واعتقد أنه ليس بمحضرة مجرم . وأبدى القاضي الذي قضى حياته في هذا العمل حتى أصبح محنكا في تحقيق الجرائم مهارة في ملاحظة اللامع ، وقراءة الدلائل الوجهية والجسمية ، وعاود الكرة بلطف ورقة :

— تكلم بلا خوف ولا غضب ، وما نحن ذان مصنيان لك

— سأتكلم يا سيدي إذا كنت تمدني أن ... وبدت من القاضي حركة اعتراض . إنه لا يستطيع أن يتكفل بشيء ولا أن يرتبط بوعده مع منهم — ... ألا تذيب شيئاً مما أحدثك به ،

والآن كتب منه شيئاً ، وإن لم تقبل ذلك فلن أتكلم — إنك تعلم جيداً أن حادثتك يجب أن تسجل وأن من واجبي أن أعرف تفاصيلها إن كان في الأمر جريمة ، أما إذا كانت القضية انتحاراً كما تدعي فسيكون اعترافك مقبولاً ولن يصدر أي حكم عليك وكل ما في الأمر أننا يجب أن نطمئن وجدانتنا اطمئناناً مطلقاً

للقاضى والسكاتب اللذين كانا يتبادلان من حين لآخر نظرات مقرونة بالدهاء، وكان الاصفاء إليه يشجعه. كان يشكلم كأنه جالس وحده يناجى نفسه أو كأنه يرفع ستور الماضى أمام ناظره، وكان يقاطعه أحياناً قاضى التحقيق عند ما يعمن كثيراً فى التفاصيل.

— أجل ياسيدي القاضى، لقد كنا مسرورين نحن الثلاثة جداً — أنتم الثلاثة ؟

— نعم امرأتى وأنا وهذا المدعو فرناند بوبرى . كانت امرأتى بائمة ورود ، وكنت أصر أمام دكانها كل يوم فى طريقى إلى المحطة . وفى كل سبت كنت أشتري لها وردة أو قرنفلة أو باقة صغيرة من البنفسج أو غيره حسب الفصول ، ولكنى لن أطيل فى هذا . تركت دكانها وبقيت فى الدار تقوم بالأعمال المنزلية ، وكنت أعمل دائماً لأستطيع أن أقوم بأودها وأود ابنتنا الصغيرة . وكان فرناند رفيقى وصديقى يعمل فى شركة الكهرباء بينما كنت أعمل أنا فى شركة البترول . كان أكثر ثقافة منى وقد جاب بعض البلاد وزارها ، وكان ذا منطق عذب ، وكثيراً ما كان يتناول طعام الغداء عندى ، وكان بلاطف ويداعب جنيفيف الصغيرة . لم تكن اسرأتى فى بادى الأمر تنظر إليه بارتياح ، وكانت ترى أن صداقتى أوثق مما يجب أن تكون ، ثم أصبحت بعد حين تمتدل فى حكمها عليه وتلين ، وكنا متفاهمين تماماً . وفى بعض أيام الآحاد كان يخرج بنا إلى الريف للترهة . وفى بعضها الآخر كنا نبقى فى الدار نتسلى بلعب الورق شتاء وبالكرة صيفاً ولم نكن نذهب إلى المقهى لم يكن بداخلنى الشك فى أمر زوجتى إذ كنت

(٣)

وإذا كانت القضية خلاف ما تدعى ، وتضافرت الأدلة على ذلك ، تصبح حادثتك مرافعات وترسل إلى محكمة الجنايات الفاصلة ، وهناك ستسأل بحضور السادة المحلفين من قبل رئيس المحكمة ، وحتى آخر لحظة يسمح لك بإعادة إيضاحاتك ، والإيضاحات التى تفوه بها يوم الجلسة الكبرى هى وحدها التى تعتمد عليها المحكمة . هذا كل ما أستطيع أن أقوله لك وأنت تدرك ولا شك الفائدة الكبرى التى تسديها لنا بتخليصنا من إتمام العمل بدقة ونصب

كان التهم بصنى بصوبة وارتيك إلى هذه المحاضرة التى ألقىت عليه بصوت عذب تبدو فيه الرأفة والشفقة . وكان الشيء الوحيد الذى كدر صفو نفسه ومس شغاف قلبه هو التفكير فى مستقبل ابنته ، وقاض هذا التفكير على لسانه إذ قال فى نفسه :

— من أجلها ، نعم من أجلها !

— من أجلها ؟ من هى ؟

— من أجل جنيفيف

— جنيفيف ؟

— ابنتى . إنها ضعيفة لا تحتمل الضرب ولا تستحقه . أما أنا فقد ربيت على الجلد . وهذه الأشياء التى يسمونها الحياة والموت لا نهمنى كثيراً . ينبى أن أكر فى مستقبل ابنتى ، وأرى من الواجب أن تتمكن من الزواج برجل شريف لا يثلم شرف أبيها ولا سيرته .

وقال بعد فترة صمت قصيرة : ولا سيرة أمها أيضاً

— هلم إذن وتكلم من أجلها

وبدا التهم يسرد قصته مضطرباً متلعثماً ، ثم ما لبث أن تشجع وأصبح إلقاءه سهلاً هادئاً . كان يبدو عليه أنه لا يميز أدنى التفات إلى مستمعيه :

لديه دائماً كلام يقوله أكثر مني . كان يضع ربطات عنق جميلة زاهية ، وكان في وجهه عيناان تنكمان ، أما أما طبياً فلم أكن إلا إياي . إن الذي كنت أفضله به كان معنى لا يرى ، كنت أفضله بالشعور والاحساس ، وليس لدى اتهام أوجهه إليه

— ليس لديك اتهام ؟ لقد فضحتنا أنتما الاثنان — بالرغم منا يا سيدي ودون أن نريد . لم أعرف صديقاً ورفيقاً أخلص من فرناند ، إنه كان على استعداد لالقاء نفسه بالنار في سبيلي ، وكما وقعت في ضيق كان ينقذني ويخلصني منه . ولما كنت مصاباً بالحنق ، قبل زواجي ، مصاباً لدرجة الموت ، كان يسهر على ولا يخاف من العدوى . أوه ! لقد كنت واثقاً أنه لم يكن يريد أن يتعبني ويؤلني ، والدليل على ذلك أنه مات .

وسكت للمرة الثانية ... ثم تابع حديثه دون أن ينبه لوجوب متابته :

— ولكن ، لقد لحقني منه قليل من التعب . لقد بدأت أشك في بعض الأشياء . لم تكن امرأتى المسكينة معتادة على الكذب ، ولما كانت تبسح ورودها ، كان الناس يروون لها قصصاً واقعية مسلية فكانت تضحك دون أن تبدي لها اهتماماً . لقد عرفت سرياً أنني لست كسائر الرجال ، فلم تكن تضحك لي أبداً ، كانت تبدو محشمة عندما كنت أقف أمام دكانها . لقد كانت فتاة عاقلة ومفكرة ، وبعد زواجنا كانت مؤنسة لي ، تضحك بي وتغني أثناء قيامها بالأعمال المنزلية ، وكنت أسمع غناءها عندما أعود من عملي ، فكانت تؤثر في قلبي تار الحب ، ولكنها بعد حين لم تبد تغني قط ، فسألها عن سبب ذلك فأجابني قائلة : « لا أدري » .

واثقاً من حسن سلوكها ، وهي نفسها لم تكن تشك في ذلك . إنني لا أتهمها يا سيدي القاضي ولا أتهمه أيضاً . كانت هنالك أشياء تحدث بالرغم منا لم تكن نرضاها ولا نريدها ، كانت هذه الأشياء تمر وتلو بمضغها بعضاً ، وكان مرورها يحدث في حياتنا تبديلاً أشبه ما يكون بالاهتزاز الأرضي البطيء

— ولكن ما هي هذه الأشياء التي حدثت ؟ — لم يكن بيني وبين امرأتى خلاف ولا شجار . كانت نمانقني مودعة كل صباح عندما أتم بالدهاب ، وكل مساء عندما أعود إلى الدار ، آسفة صباحاً ، مبتهجة مساء ، ولم يكن ذلك مهزلة مقصودة . لم تكن نشعر بحاجة لأن نبادل كلمات المودة ، إذ كانت المودة متأسلة في أعماق نفسينا ، وكنا نشعر بها دون أن نظهرها ، ثم كانت هنالك البنت الصغيرة التي تربطنا ونجمع بيننا .

لم يكن للبنت إلا الأب والأم ، وكان يجب أن نفكر فيها دائماً ، ولكنتنا كنا نظوى نفسينا على أفكار وآمال أخرى ، والنساء على ما يدولي يضمنر آناً وأحلاماً أكثر من الرجال .. أنا خاصة لم أكن أحلم أبداً ، ولم أكن أغني شيئاً ، ولم أكن أفكر في شيء ، إذ كان تفكيري منصرفاً إلى زوجتي وابنتي وهو هو تفكيري في نفسي ، إذ كانا جزءاً مني . وأنتما تدركان ذلك بالطبع

ثم سكت كأن جملته الأخيرة أغرقته في خضم الذكريات

فسأله القاضي قائلاً :

— ثم ماذا ؟

— قلت لك إنه كان ذا منطق حلو عذب ، وكان يتقن التعبير عن مشاعره أكثر مني ، وكان

فأبدى الكاتب حركة اعتراض وشك في صحة القصة ، ولكن التهم لم يمر اعتراضه أدناً صاغية وأتم حديثه :

— لقد حاولا أن يخطيا ، ولم يكن هذا بالصعب كثيراً ، إذ أنني كنت أذهب إلى عمل كل يوم ، ولم يكن فرناند مقيداً بالعمل مثل فلقد كان يصلح هنا وهناك ببعض الآلات الكهربائية ، كان يذهب إلى باريس وبعض نواحيها ويمود منها . إنه لن الخيف أن يصبح المرء غيوراً . طالما حاولت أن أعلم شيئاً من أمرها ولكن لم أستطع ذلك وبيا للأسف واكتفيت بالتصور والتخيل . كنت أستيقظ في جوف الليل أحياناً ، وأصني لغير امرأتى . ويلاه أ كانت تسمع ما أفكر فيه وهي في نومها ؟ لقد كانت تستيقظ فجأة وتأخذ بيدي وتساألني قائلة : « ماذا بك يا صاحبي ؟ » فكنت أجيبها كما كانت يجيبني من قبل قائلاً : « أنا ؟ لا شيء » أو أقول مثلها : « لا أدري » وعدت للدار في إحدى الأمسي ، فوجدت زوجتي حزينة ، ولما اقتربت منها رأيتها غارقة في التفكير لدرجة أنها لم تشعر بوجودي فوضعت يدي على منكبي وقلت لها : « فيم تفكرين ؟ » فأجابت : « أنا ؟ لا شيء » وعاجلتها بقولي : « إنك تفكرين فيه أليس كذلك ؟ » فما كان منها إلا أن صعدت زفرة حارة ولم تجب ، وقلت لها وأنا أهم أن احتويها بين ذراعي : « إنني سأحبك يا عزيزتي ، إنه لن يمود قط ، وسيعرف كل شيء » فقالت ببساطة : « لقد تأخرت كثيراً » ولم أكد أسمع هذا الجواب حتى عرفت كل شيء ، وتركته ذراعى تهبطان بتراخ ولم أضربها ولم أطردها . فما راعني إلا أن رأيتها ترتدي ثيابها وتهم بفتح الباب فساتنها : « إلى أين

وظننت إذ ذاك أن ما أسكتها هو عدم ولادة طفل آخر لنا ، ولكني كنت غطئاً في هذا الظن إذ ظهر لي أنها كانت تحتشم عندما كان يزورنا فرناند ، وكانت تبدو عليها أمامه كل أمارات الغبطة والسرور فذكرت حالها وهيئتها عند ابتداء معرفتي لها ، وأفرغني الشبه بين الحالين ، وبدأت أتعذب وأنا لم هل كانت تحب سواي ؟ أ كانت تحب صديقي الذي يوشك أن يكون أخى ؟ لقد صممت على طرد هذه الفكرة من رأسي ، إذ وجدتها غريبة وفظيمة . إن اتهاى لها معناه شتمهما وإهاتهما . كلاهما كان عزيزاً على أثيراً لى ، أما هي فن أجلى وأجل طفلتنا ودارنا وحياتنا خارج الدار ، من أجل التعاون وتبادل الثقة ... ولكن لا ، لم يكن هذا فظيماً كما تصورت ، وما أرى هل نحن دائماً مصادر أعمالنا وأصحابها الحقيقيون ؟

— أما في الأفكار فاستطيع أن أجيبك بالنفي إذ لا نستطيع أن نمنع أنفسنا من الاعتقاد بأن بعض الناس غطاءون حتى القضاة أنفسهم ، أما في الأفعال فليس الأمر كذلك ، إذ نحن دائماً أصحاب أفعالنا والمستولون عنها

— دائماً ؟ هل نحن نراقب أنفسنا في كل حين يا سيدى القاضي ؟ إننا لا نرى غيرنا إلا عند ما نريد أن نراه ، إذن نحن ننسى أحياناً . إننا لا نرى إلا ما نحب ، ويختفي ما وراء ذلك عن أبصارنا ، يختفي عنها كل ما يضايقنا ويؤلنا ، ولذا فقد خفيت عن أعينهما كأننى لم أكن موجوداً . إنهما لم يفكرا في وجودى ولم يتنبها له إلا بعد لآى ، ولقد أخطأ في تنبهما إذ جلبا لنفسيهما الضيق والألم ، لأن عذابى الذى ولدها لي كان في الحقيقة عذاباً لهما

تذهبين؟ « فأجابتنى : « إلى أين تريد أن أذهب؟ »
فقلت : « إليه » فهزت رأسها وقالت : « نعم إليه »
فقلت : « حسن ، إذهبي »

ولما بلغت عتبة الباب التفتت وقالت بهدوء :
« وجنفييف ؟ » فقلت : « كان يجب أن تفكرى
فيها من قبل » قالت : « هل تريد أن تحتفظ بها؟ »
قلت : « إنها لى » قالت : « ولكنها لا تزال صغيرة »
قلت : « ستمتاد الحياة بجاني » قالت : « هل تدعى
أراها ؟ » قلت : « كلا » فرفعت يديها كالبنائسة ،
ثم خرجت باكية ولم أرها بعد ذلك الحين
— وابنك ؟ هل كانت تراها ؟

— كانت جنفييف تذكرها ، فكنت أقول لها
إن أمها سافرت في رحلة طويلة ، وكنت مضطراً
لأن أقول لها إنها ممتود . ولما كنت أذهب إلى
المصنع طول النهار ، عهدت بها إلى امرأة كانت
تدير مدرسة داخلية في بواكولومب ، ولكن للصغيرة
كانت تماند وترفض أن تبقى هناك ، وعلمت بعدئذ
أن أمها كانت تأخذها كل صباح بعد ذهابي وتسيدها
كل مساء قبل عودتي . لقد عرفت ذلك ولكنى لم أقل
شيئاً . ماذا تريدنى أن أفعل يا سيدى القاضى ؟
ماذا تريد ؟

فصدرت من القاضى وكاتبه حركة ظاهرها
الاستحسان والنصوب ، ولعلهما كانا يقصدان بها
موافقة التهم موقتاً ليستطيع أن يتم حديثه ويتكلم
عن الجريمة التى هى بيت الفصيد . وصمت بيير فالرى
كأنه تمب . فسأله القاضى :

— منذ كم هجرتك امرأتك ؟

— منذ عام على ما أذكر ، ولكن هذه المدة
كانت تبدو لى كأنها عشرة أعوام . لم يتبدل شيء

بعد . كنت لا أزال أركب القطار فى الذهاب
والإياب ، ولكن لم تمد لى عزيمة ورغبة فى العمل .
كنت أعمل كآلة للمصاء . وفى المساء كنت أرى
جنفييف الصغيرة وكنت أستطيع أن أدلها وأفرحها
بفضل أجرني التى كنت أألمها من عملى . لقد كانت
لبقة فى أحاديثها ملى وتتضابق أحياناً لحديثي . أظن
أن الأطفال عقلاء أكثر مما نعتقد يا سيدى القاضى .
إنها لم تكن تجرؤ على أن تحدثنى عما فعلته فى يومها
سوى دروسها وواجباتها . لقد كانت تمتد أنها
لا يجدر بها أن تذكر أمها ولا الرجل الآخر أبداً .
ولكنها مع ذلك سألتنى قائلة : أمن الممكن أن يكون
للعمه والدتان ؟ ثم أجابت من تلقاء نفسها : أما أنا ،
فأظن ذلك غير ممكن

لقد كان لها أيضاً أب هنا وأب هناك ، أب
فى النهار وأب فى الليل ، ولكن لم يكن لها ، ولن
يمكن أن يكون ، إلا أم واحدة . ومنذ تلك اللحظة
أصبحت لا أفكر إلا فى الانتحار لأترك المكان فارغاً
للرجل الآخر . لم أستطع إرجاع البنات لأبها ،
أما كان يجب على أن أردنها إليها ؟

— كان باستطاعتك أن تطالب امتلاك البنات
وإبقائها عندك ، مع بضع زيارات تقوم بها الأم فى
أيام محددة معينة

— صدقت يا سيدى القاضى . هذا هو العمل
الذى لم أكن أستطيع القيام به . لم أكن أريد
ذلك لزوجتى ولا لصديقى ، لقد كنت المجرم الأول .
لا ينبغي أن نسي إلى أحد ، وخاصة إلى المرأة الفاضلة .
لم أكن أعلم يومئذ أن كلا منهما يلوم الآخر ويخطئه .
إن الرجال يمتقدون دائماً أن نساءهم بأجمعهم لهم .
أما للنساء — وما إخالك تعرفهن جيداً — فانهن

في الحرب كسائر الناس. إن المرء يكون أكثر شجاعة عند ما يرى نفسه محاطاً بأصدقائه ، وأنا وحدي في داري لم أكن أستطيع العزم على الانتحار ، ولقد كنت متألماً جداً لعدم إرادتي الحياة . لقد كان كل شيء يسير في نظري على ما يرام ، جرمين ...

— جرمين ؟

— أجل ، جرمين امرأتى تزوجت فرناند ، واستطاع أن يعيش في وضع النهار مع جنيفيف ، وعندئذ أصبح للصغيرة أب وأم ، أما الأب الآخر فقد اختفى ، وأظنها نسيت ولم تعد تفكر فيه . لقد كان أباً حزينا لا يصلح لشيء . كنت أحدث نفسي بهذا كله ومع ذلك فلم أعزم على شيء .

— إذن ما دمت لم تستطع أن توجه سلاحك نحو جسمك ، فقد وجهته نحو خصمك .

— مهلا ياسيدى القاضى . نعم كان يجب على أن أقتل نفسى ، وهكذا تخلصت من المذاب الأليم .

— قد بلغنا إذن اليوم للفاصل .

— أجل بلغناه ياسيدى القاضى . كان يعرف فرناند عادتي وواجبات عملي وقطاري الصباح والمساء اللذين كنت أركبهما . ولقد نظم حياته على خلاف هذا الشكل فكان يتجنب مقابلتي ما وسعته التجنب ، ولم أصادفه في الطريق أبداً ، لا في بوا كولومب ولا في باريز . لقد كنت واثقاً من أنه لم يكن بالغافل أبداً عن الأمر الذى عذرت عليه . وفي مساء اليوم الذى وقع فيه الحادث ، أجبرت على البقاء في المصنع بعد انتهاء وقت عملي لغياب أحبد رفاقي ووجوب بقائي في المصنع عوضاً عنه ، وهكذا امتد عملي ساعتين أخريين ، واضطرت لركوب قطار الساعة ٨ والدقيقة ٢ الذى

يملك من العطف والحنان ما لا مزيد عليه ويظهرن ذلك لك كل يوم ، ولكنهن يفسينه عند ما يتزوجن . لقد تأملت لها كثيراً وتأملت له أيضاً . لقد كنت أعجب به طويلاً . لقد كان في نظري مخلوقاً سامياً سلبني أعز ما أملك وسحق بذلك العمل قلبي

— لقد كنت تعقته ، هذا واضح

— آه ، كلا ياسيدى القاضى

— ألم تكن تبغضه ؟ ألم تكن تريد أن تنتقم لنفسك ؟

— آه ، كلا . أنتقم ؟ هل كان يجب الانتقام ؟ لم يرد هو ، ولم ترد هي ، أن يحصل ما حصل . لقد نحابا ، هذا كل ما في الأمر . وكنت أنا واثقاً من أنهما يرثيان لي ويتألان من أجلى . فلم يبق لي إذ ذاك إلا دواء واحد ممكن ، ألا وهو الموت

— ولذلك صممت على افتراء الجريمة

— الجريمة ؟ أية جريمة ؟ الموت ؟ لقد كنت مجرمًا ولا ريب بتفضيلي الموت ، ولهذا الغرض اشتريت المسدس

فتبادل القاضى وكأنه النظرات ، وقال له الكاتب بصوت خافت : ألا يجب التسجيل الآن ؟ فأجابه القاضى قائلاً : دعه يتم كلامه . إذا رأنا نضطرب ، توقف ولم يتكلم . وسأستجوبه عند ما ينتهي من سرد قصته . ثم قال بصوت مرتفع :

— إذن اشتريت المسدس الذى يفيدك في اقتراب الجريمة

— اشتريته ياسيدى القاضى . لم يكن من السهل على تصور الموت . إن توجيه المرء الرصاص نحو صدره يتطلب كثيراً من الشجاعة ، ولم أكن مع الأسف وافر الشجاعة إلى هذا الحد ، رغم أنى اشتركت

لم يكن من عادتي ركوبه . وفي اللحظة الأخيرة التي سبقت سير القطار ، دخل رجل العربدة التي كنت فيها وحدي . لقد كان هو بعينه . وقف واجماً بهوتاً لما وقع بصره على ، ولم يجرؤ على الجلوس ولا على الحركة .

سار القطار ووجدت الفرصة سانحة للتخلص من حياتي ، فنهضت من مكاني متجهاً نحو النافذة واقتربت منه وأخرجت المسدس من جيبى ورأيتي مقبلاً نحوه فالتزم الباب ولم يبد حراكاً ، ولم يخفهِ سلاحى . ترى هل كان يعلم أنني لم أرد قتله ؟ قلت له مخاطباً :

— لقد جلبت لى كثيراً من الألم والشقاء ، أتوسل إليك أن تريحنى . إن الكلاب التي تموى كثيراً تراح من حياتها

ومددت إليه يدي بالمسدس ، فأخذه وتأمله هنيهة ، ثم ... فجأة ... وجه الفوهة نحو قلبه وأطلق النار ...

يا إلهى ، ماذا فعل ؟ لقد أذان نفسه وحكم عليها يا سيدى للقاضى . ولكن أنا ، أقسم لك ، لم أفكر فى أن أحكم عليه . لم أكن أشعر بنبض له كما ذكرت لقد كنت بأثماً شقيماً ، إننى لم أهتمهما يا سيدى للقاضى ، ولم تكن تلك غلطتهما بل غلطة مشاعرهما التي قادتهما برغمهما

كنت جائياً أمامه ، وتناولت بذارمى جسمه الحار ، وكان الدم يسيل منه يسطء ، ومع ذلك فإن عروقه لم تكن تنبض قط . لقد مات . كانت عيناه مفتوحتين وكان ينظر إلى بهما بألم وحزن . لقد كنا متعابين كثيراً . كنا صديقين وزميلين وأخوين لم أكن أذكر نفسى إلا من خلال حبنا . لقد بكيت

إذ ذاك كالطفل . آه ، لو كنت أوفر شجاعة ، أنا الذى كان يجب أن يموت لاهو ، كان يجب أن يمينا ويسعد فى حياته ، دون أن آخذ منه أو أعطيه شيئاً فتبادل القاضى وكاتبه النظرات . لقد طمان الحادث نفسيهما . لم يكونا يستطيعان أن يشعرا بأقل ريب فى صحة الرواية . إن ظروف انتحار فرناند وأسبابه كانت واضحة لا تدع مكاناً لاقتراض وقوع جريمة ، ولقد نجحنا بغير قارى بلا ريب وأصبح حراً قال له القاضى بصوت متزن واضح :

— لقد عدل صديقك ، كان يجب عليه أن يحترم صداقتك . والآن لم يبق على إلا أن أطلقك . ثم قال مرهقاً :

— انظر ، لن يطول الأمد . لدينا بعض الاجراءات القانونية التي لا بد من القيام بها وأمر بأن يقاد التهم الذى أصبح شاهداً بسيطاً ولما بقى للقاضى وحده مع كاتبه ، طلب منه قائمة أسماء الشاهدين الأخر الذين دعوا : رئيس القطار ، مستخدمو القطار ، محافظ بوا كولومب ، وقد أتى بهذا الأخير ليصف سيرة التهم الشخصية ، ثم مدام بيير قارى . فأمر بأن يسرح كل هؤلاء إذ ظهر له أنه لا يمكن معرفة شيء منهم ، وبأن يؤتى بـ مدام قارى . فأجابه الكاتب :

— إنها لا تعلم شيئاً عن الحادث فقال له القاضى :

— أرغب فى رؤيتها

فدعيت المرأة . إننا لا نستطيع فى غالب الأحيان أن نفهم حب غيرنا على حقيقته ، إن أية امرأة محبوبة حتى الجنون أو حتى الجريمة ، تبدو لنا خالية من الجمال أو من الظرف . هذه هى حال أكثر

زائرات المحاكم اللواتي يمتن الدهشة في النفوس .
والجواهر المكنونة في المحاكم لا تستطيع أن تقف
على سر فتنهن وسحرهن ، ربما استطاع هؤلاء أن
يقفوا على هذا السر إذا تأملوهن جيداً ، ولكن
ليس بينهم من يجد الوقت الكافي لذلك . لم تكن
جرمين جميلة ، كانت صغيرة ، دقيقة الأعضاء ، ذابلة
الوجه ، يلوح أنها لم تتجاوز الثلاثين من عمرها .
كانت منطبعة الملامح ، ذات شعر أشقر كامد ، يبدو
عليه شيء من الجلال ، ووجنتين ناعمتين ، وفم صغير
لطيف ، وعينين زرقاوين ساحرتين ، معتكرتين
قليلاً لأنهما مغرورتان بماء شفاف ، ولقد كانت
تحاول عبثاً كتم للفزع الذي أصابها وإخفائه .
ماذا يراد منها ؟ أية أسئلة ستاقي عليها ؟ إن هذا الرجل
الجالس وراء النضدة ، تبدو عليه المبوسة والصرامة
والحزم

قال القاضي موضحاً بعد فترة سمعت استطاع أن
يسمع فيها ضربات قلب المرأة المسكينة المرتعشة :
سيدتي : هل تعلمين أن زوجك متهم بقتل
حبيبك ؟

فاعتزنت المرأة مستميدة شجاعتهما وقالت :

— ليس هذا صحيحاً ؟

— ماذا تقولين إذن ؟

— لو أراد قتلنا لفعل ذلك حينما خرجت
من داره . إنه لا يفكر في الاساءة إلينا ، إنه طيب
القلب جداً

— ولكن طيبة القلب لها حدود تقف عندها

— هذا في غيره ، أما هو فلا . إنه لم يضربني

لما رأى سلوكي . لقد تألم مثلنا ، وتركني أعاود رؤية

للصغيرة

— لماذا خدعته ؟

قامت بحركة غامضة معناها : هل أعلم ؟

— كيف أغراك هذا المدعو فرناند ؟

— آه سيدي ، إنه لم يضربني

— ألسنت أنت التي قدمت نفسك إليه ؟

— ولكنني يا سيدي لست امرأة فاسدة ، لقد

كنت دائماً حسنة السيرة ، ولم أتهم قبل زواجي
بشيء

— هل كنت تحبين زوجك ؟

— بلاريب ، كنت أحبه

ثم أودف القاضي قائلاً بصوت خافت :

— والرجل الآخر ، هل كنت تحبينه أيضاً ؟

فتنهبت إذ ذاك وقالت :

— كنت أحبه حتى العبادة

— فانت ترين جيداً أنه أغراك

— كلا يا سيدي القاضي ، كنا نعيش معاً .

أقسم لك أنه لم يكن لدى فكرة سيئة . لقد نظر كل

منا إلى الآخر في أحد الأيام . آه لا أدري كيف

أقول . لقد نظر كل منا للآخر ، كأننا لم ير أحداً

الآخر قبل ذلك اليوم . وتم منذ ذلك اليوم كل شيء .

لقد عرفنا جيداً أننا لن نستطيع المقاومة ، إنه عمل

سيء ، نحن نعرف ذلك ولكن الحب كان أقوى منا

— وما قد رأيت إلام قادكما ذلك

— لقد قادنا إلى الموت . إنني واثقة من أنه

يتألم من أجل ... من أجل زوجي ، كان يتألم أكثر

مني ، وكنت آمل أن يزول ألمه على مر الزمن ،

والآن قد انتهى كل شيء

— كلا يا سيدي ، لم ينته كل شيء ، باستطاعتك

الآن تدارك خطتك والتكفير عن ذنبك
فرفمت رأسها المنخفض منتظرة ما يحدث

— نعم ، إنك أم

— جنيفيف

— يجدر بك أن تفكرى فى ابنتك وزوجك
أيضاً ، لماذا لا تسلكين الطريق المؤدية إلى دارك ؟

وتأمل الكاتب فى هذه اللحظة ، وجه القاضى
بدهشة منتظراً خاتمة هذه الرواية . وكانت المرأة
صامتة ذاهلة تنظر بعينها إلى الأفق البعيد ، وتفكر
فى هذا الاقتراح الجديد الذى سمعته ثم تمتمت قائلة :

— سيطردنى زوجى

— هل أنت واثقة من ذلك ؟ لقد قلت منذ
لحظة إنه طيب القلب جداً

— آه يا سيدى القاضى ، بفصل بيننا البيت

— إن زوجك لم يقف متفرجاً ، لقد ذرف
عليه الدمع منذ دقيقة لا أكثر

— كان يبكى عليه ؟

— هل تودين معرفة ذلك والتحقق منه ؟

— آه يا سيدى ، إننى لم أره منذ اليوم ...

— منذ هجرك إياه ... إننى سأدعوه الآن

— كلا ، كلا ، لا أريد ، بفصل بيننا البيت

— إن البيت يقرب بينك وبين زوجك ، أوكد
لك . لقد قتل نفسه من أجله ، ومن أجل الألم الذى
سببه له

ودعا القاضى التهم أو بالأحرى الشاهد . فوجد
بيير قارى نفسه فجأة وجهاً لوجه أمام زوجته ، ولم
يجزؤ أحد الزوجين على الكلام إذ كانا يتبادلان

النظرات بخوف وخجل .

قائلى القاضى قائلاً :

— بيير قارى ، إن امرأتك قد ندمت . وإذا

طلبت منك المودة للحياة الزوجية السالفة ، بعد هذا
الحادث المفجع ، فهل تقبل ؟ وهل ترضى بأن
تسامحها وتمفو عنها ؟

فأجاب المسكين :

— أسامحها ؟ إننى دائماً مسامح لها

— هل تأخذها معك ؟

— نعم ، إذا أرادت

وأردف قائلاً مثلها :

— ولكن يفرق بيننا البيت

فقال القاضى موضحاً :

— أجل ، إنه مات ليصلح بينكما ، ولم يمت

دون مقابل . لقد قاتلها قبل لحظة : فكري فى الطفلة
التي ليس لها إلا الأب والأم

فتقدم بيير قارى خطوة للأمام واقترب من

امرأته وقال لها :

— هلمى معى

ثم التفت نحو القاضى قائلاً :

— أأست متهما ؟

— كلا يا صاحبي ، أنت حر

ولما خرج الرجل والمرأة ، بمسك كل منهما

بيد الآخر ، التفت مسيو هير نحو كاتبه قائلاً :

— لقد اشتغلنا جيداً فى هذا الصباح ، هات

العمل التالى ...

ناهى الطنطارى

« دمشق »

مستقبل في الصورة التي تلائمني
ولقد تمودت أن أفضى أيام
عطلة الصيف في مزرعة خالي وهي
مزرعة وضع فوق بابها الخارجى
رمز يدل على أنها ليست من
المزارع المادية ولكنها منعلة
كيلى التي تنتج ألطف أنواع
العسل في العالم

أكان يجب أن أكتبها

(قصة منحت جائزة مائتي جنيه) عن الإنجليزية
بسم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« لقد أحبها حب اليأس ، وكان
في مقدوره أن يفوز بها لو أنه قال
الحقيقة : حقيقة أمر الرجل الذي اختارته
زوجاً لها »

كنت و « سالي » و « بارني » رفاق طفولة
وصبا، نعيش في بلدة صغيرة من بلدان التمدن في شمال
انجلترا ، يحتوى بيوتنا شارع واحد ، ونلعب جماعة
في الخلاء الخرب وراء بيت « بارني » ونذهب معاً
إلى المدرسة . فلما بلغنا سن المراهقة لم يكن أحداً
يفترق عن صاحبيه

وكان « بارني » المخاطر بطبيعته ينتظر اليوم
الذى يستطيع فيه أن يقتنى خطوات أيه فيعمل مثله
في المناجم ، وكانما بين طبيعته وبين عناصر الخطر
جاذبية لا تنقطع . أما أنا فكان أمرى على خلاف
ذلك ، أشعر دائماً بميل شديد إلى ضوء الشمس
وإلى الفضاء الفسيح ، بكفى مجرد التفكير في المال
داخل الكهوف المظلمة الفائرة في جوف الأرض
لأن يمتد الرغبة إلى أعماق نفسى

فكان من المقطوع به أن حياة العمل في مناجم
الفحم ليست هي الحياة التي أصلح لها ، وكان على
خالي « باتريك » أخى أمى الأعزب أن يشكل

وفي هذه المزرعة كان يرى الانسان في أية ساعة
من ساعات اليوم خالي « بات » منهمكاً في العمل
وسط صفوف عديدة من خلايا النحل وعلى عجايب معالم
الحاسة والذلة التي ترى عادة على وجوه هؤلاء الذين
يحبون أعمالهم . فهو يعيش بين محله ويدرس طبائمه
وحركاته ويفرس أشد الزهور جاذبية له . فكان من
الطبيعى أن يسر خالي وبفرح كلما رأى منى اهتماماً
بعمله ورغبة فيه ، ولقد كان يقول لى حينئذ :
— ليس هناك يا ولدى من عمل ألطف ولا أصح
من العمل في مملكة النحل ، فإذا أردت أن تقتنى
خطواتى قانئ أخصك في وصيتى بهذه المزرعة فانه
ليسمعنى أن أعلم أن نحلى سيصبح من بىدى وديمة
بين بىدى من بقدره ويحبه كما أحبه أنا
ولقد كان خالي يعقب هذا الحديث بتعليمى كل
ما يعرفه من أمر هذه المخلوقات الصغيرة كثيرة
الحركة شديدة الطنين ، وكان يبصرنى بالوسائل التي
أصرف بها العسل في الأسواق بأ كبر ربح مستطاع ،
ولقد قدم لى من المؤلفات كل ما كتب في موضوع
النحل ، وكان أنفس ما أهدانى في أحد أعياد الميلاد
كتاب « حياة النحل » لمؤلفه « مارتلنك »
أما « بارني » فكان شديد الاستغفاف بمطامى

الدم ساخناً ، فلا عجب إذا نشأت أنا وبارني على حب رفيقة طفولتنا الصغيرة متنافسين ، في مودة ، على مصاحبتها السارة

ولم يكن في نيتي قط أن أقضي أي وقت ظال أم قصر ، في تجربة العمل بالمناجم ، فلما مات والدي على أثر بلوغى سن الرشد طلب إلى خالي « بات » أن أصبحه إلى مزدرته ، ولكنني اعتذرت من عدم إجابة طلبه بأنني أود أن أفضي فترة قصيرة في تجربة العمل في المناجم قبل أن أغادر موطنى ، فلمحت في عين خالي النفاذة نظرة الدير فهم ما وراء هذا الاعتذار ، وقد قال :

— إنك لا تريد تجربة العمل في المناجم يا بني ولكنك تريد تجربة الوسيلة التي بها تفوز بقلب « سالى »

ثم استأنف حديثه في بشاشة ولطف فقال :

— حسن يا بني ، إنها فتاة جميلة تستحق التعب ولكن لك فيها منافساً وبارني فتى لطيف وله طريق ناجحة في كسب قلوب الفتيات

وعلى أثر ذلك اتفقت مع والدة « سالى » على السكن في بيتها وذهبت للعمل في المناجم المظلمة ، ولكن الأحلام للبراقة التي تغمر قلبي أنستني ظلمة تلك المغاور فلم أبال بها . فلما رأاني « بارني » هناك لأول مرة نظر إلى نظرة غريبة وقال :

— لقد ظننت أنك قد عقدت عزمك على أن تركز مستقبلك حول خلايا النحل ؟

فرددت عليه :

— وهل مما يخالف القانون أن يغير الإنسان رأيه ؟

فقال وعلى فيه ابتسامة طيبة :

وكان يقول لي في كثير من الازدراء والتحقير :

— ويك يا « ويل » ليس هذا من عمل الرجال ،

فهلا احتذيت حذوى لتصبح رجلاً قوى للبنية متين العضل ، فقد اعتزمت أن أشتغل متى كبرت في المناجم فلا تلبث عضلاتي أن تصبح مثل عضلات دنيس شلتون ، على أننى أستطيع الآن أن أصرع أى ولد في هذا الشارع ! فتعال أرك قوة ضرباتى وكان بارني يعقب هذه الكلمات بالتقدم نحوى قابضاً يده مهدداً ، فأتراجع إلى الوراء لأننى أكره القتال والشغب ، وكانت « سالى » هى حاميتى التحمسة ، فعلى الرغم من إعجابها كالطفلة الصغيرة بتحرش « بارني » كانت تقف بينى وبينه بحسمها الصغير وشمرها الأسود المتزوج وعينها الزرقاوين فتحول دون اعتدائه وتصبح به وهي تضرب الأرض بقدمها :

— دع « ويل » لا تتعرض له ، واعلم أننى لا أريد أن تكون مثل « دنيس شلتون » فكل إنسان يعرف أنه ليس إلا عريداً مشاغباً فكان « بارني » ينجل من كلماتها ويستدر بآه لم يقصد إلى أكثر من المازحة على صورة ما

على هذا نشأنا منذ عهد الطفولة حتى إذا بلغ بنا الزمن نهاية الحلقة الثانية أصبح « بارني » فتى طويل القامة عريض الأكتاف أسود الشعر أسمر الجلد خبيث النظرات مستهتراً بالفتيات . أما أنا فكنت ترابى الشعر نحيف الجسم خجولاً متحفظاً شديد الميل إلى حياة الريف الهادئة مبغضاً حياة المدن الصاخبة

ونمت « سالى » شابة ناهداً وكانت أجمل فتاة يبيض بحبها قلب الرجل ويبعث روحها في رأسه

— إنك لم تغير رأيك يا « ويل » فالحقيقة أنك وجدت قليلا من العسل هنا فسألته متحديا :

— وإذا كنت قد وجدت فإذا في هذا ؟

— فحدق بآرنى في عيني وابسهم ثم قال :

— اسمع يا « ويل » لقد كنا أنت وأما دائما صديقين مخلصين ، وأنا أود أن تستمر هذه الصداقة بيننا ، ولكن يجب أن نتفاهم فاني أعرف أنك تحب « سالي » ، فليكن ، ولكنني أنا أيضا أحبها ، وسأبذل كل ما يسهم جهدي وقوتي في سبيل الفوز بها ، ولن أتنحى عنها إشارا لك أو لأى رجل آخر على نفسه

فقلت وقد مدت يدي فتناولها بآرنى مصاحفا :

— وهذا هو شأني أنا أيضا

فقال بآرنى :

— أرجو أن يفوز بها خير الرجلين كما أرجو

ألا يقسو شعور أحدنا على صاحبه

كانت حياتنا بعد ذلك معركة بين « بآرنى » وبينى إن تكن قاسية في مظهرها فقد كانت سليمة الطوية في جوهرها . على أن موقف المسكينة « سالي » بيننا قد أصبح موقفا غاية في الدقة ، فقد كان ما في نفسها من الود لسكينا متعادلا ، وكانت تبغض أن ترد لأحدنا طلبا إذا هو دعاها للخروج معه

ووقف رفاقنا في المنجم على طبيعة ما بيننا من تنافس ، وسمعت أن بعضهم قد تراهن على أننا يفوز بالفتاة

وعلى الرغم مما كان بين « بآرنى » وبينى من تنافس في الغرام بقيت روابط الصداقة بيننا قوية لا يؤثر فيها مؤثر من حقد أو ضغينة . كنا نعمل

في المنجم أحدهما إلى جانب الآخر ، فإذا انتهينا من عمل اليوم الشاق عدنا إلى دارنا مترافقين ، ولكننا لم نكن نشير قط بكلمة إلى الفتاة التي أحببناها كلانا حبا مبرحا . ولقد كنت أعلم من أمر « بآرنى » أنه لن يتردد في مقابلة أى إنسان يسمى بأهون كلمات الاساءة ، وأنا من ناحيتي كنت أضع « بآرنى » من نفسي موضع الأخ الشقيق ، ولكننا في طبيعتنا كنا مختلفين اختلاف النهار والليل

كان « بآرنى » مغرما بالحياة المرحية ولم يكن ليمتنع أن يشرب خمرآ من حين إلى حين ، وكانت كثيرة تلك الليالي التي قضاها في حانة « الأسد الأحمر » أبهج حانات المقاطعة

تمود « بآرنى » الاكثار من زيارة حانة « الأسد الأحمر » ولم تكن هذه الزيارات لمجرد إطفاء شهوته من الخمر ولكنه كان يتمتع نفسه بقضاء بعض الوقت في محبة « نس » فتاة الحانة ذهبية الشعر ، ولكنه بعد أن بدأ يتودد إلى « سالي » هجر « نس » وحانة الأسد الأحمر ، وقد أکبرت منه هذا التصرف الحكيم . فلقد عرفت أن جميع الرجال على التقريب قد سلكوا الطريق المروج وقتكنا ، ولكن كان جيلا منه أنه الآن سار في الطريق المستقيمة الضيقة

على أنني لم ألبث أن تلقيت الصدمة التي بددت كل أحلامي وضمضت جميع آمالي . ففي صباح أحد أيام الآحاد لم أكد أعود مع « سالي » إلى دارها بعد أداء الصلاة الأولى وأقف معها برهة على عتبة الباب نستنشق النسيم النقي حتى مر بنا « بآرنى » في طريقه إلى الكنيسة لأداء الصلاة الثانية ، فلوح لنا بكفه في الهواء واستمر في سيره ، فلما تلفت إلى

وأخرى يسلك حلقه ليقول شيئاً ولكنه كان بعد التفكير يفضل السكوت فلا تخرج الكلمات من بين شفثيه . ولقد كنت أنا أول من فض هذا السكوت فقلت متصنفاً الانسراح :

— أظنني يا « بارني » سأغادر هذا المنجم بعد قليل فلم يبق لي هنا ما أحرص عليه فقال صاحبي في صوت أجش :

— إني لأسف لذلك يا « ويل » والذي أرجوه ألا يقسو شعورك نحوي فضحكت ضحكة مقتضبة وقلت :

— لك أن تثق أن شعوري نحوك ان يتغير ، فان « سالي » تحبك وهذا هو كل ما في الأمر ، تغير الرجلين هو الذي فاز يا « بارني » ولا كن أنا أول من يهتلك

— أشكر لك من أعماق قلبي هذا للشعور الكريم فانت خير صديق عرفته ، وإنه ليؤاني أن ينتهي الأمر إلى هذه النتيجة

— لتنس ذلك فلمل الخير فيما حدث اتفق الخطييان على أن يمقدا الزواج في الشهر المقبل ، ووعدت بمسد شيء من التردد أن أبقى بالبلدة إلى أن تنتهي حفلة الزفاف . على أنني بعد أن ضاعت جميع آمالي قد أصبحت راغباً في أن أترك المنجم في أسرع ما أستطيع من الوقت . وكان خالي « بات » قد كتب إلي يقول إن صحته تسير في طريق الانحدار وإنه أشد ما يكون حاجة إلى المساعدة للمرحلة . ولكن « سالي » ألحت عليّ في أن أبقى إلى يوم زواجها ، فلم يسمني إلا قبول رجائها . ولكن اغتبطت في السنوات التي أعقبت تلك الأيام بقبول ذلك الرجاء

سالي رأيت عينيها تبلمان قوامه الطويل وهما تشعان يبريق لطيف وعلى فمها ابتسامة ودبة . فأحسست كأن نفسي قد احتبس في حلقى وكان قلبي قد تحول صخرأ بشغل صدري

وقلت في كثير من التلطف :

— إذن هذه هي الحقيقة يا « سالي » ؟ فنظرت إلى جافلة وقد ارتسمت الشفقة في أعماق عينيها الزرقاوين وهي تهز رأسها وتقول :

— يؤلني يا « ويل » أن أقول أن ليس في العالم إنسان آخر أوده وأحترمه كما أودك وأحترمك ، ولكن ...

فأعمت عبارتها بقولي :

— ولكنك تحبين بارني فهزت رأسها مرة أخرى وقالت في صوت لا يكاد يسمع :

— أظن أنني كنت دائماً أحب « بارني » فتناولت يدها وضغطتها بين يدي وقلت :

— لقد فهمت يا « سالي » فهو رجل لطيف وسيكون لك زوجاً صالحاً ، وإنني لأتمنى لكاً جميعاً كل ما في الدنيا من سعادة

فقلت :

— شكراً لك يا « ويل » وإنني ... ولكنها لم تستطع أن تتم جلستها فضغطت يدي وجرت داخلة إلى البيت ؛ ولم ألبث أن أسرعرت أنا الآخر في المدخول ولكنني شعرت بأن ساقى قد أصابها من الثقل ما أصاب قلبي

وفي اليوم التالي بدأ التوتر بين (بارني) وبينى في أثناء العمل ، ولم يكن لدى أحدهما الكثير مما يفضى به إلى صاحبه ، ولو أن « بارني » كان ما بين فترة

وألقها متدهورة على الأرض، وبدون أن أفوه بكلمة أخرى التفت إلى « بارنى » الذى كان ينظر إلينا نظرة بلهاء فتأبطت ساعده فى شدة

وتخيرات الطرقات المظلمة وقده مسرعاً إلى البيت، وهناك أرقده فى فراشه فهمهم بضغ كلمات جمعت بين الشكر والتبرم، ولم يلبث أن استغرق فى النوم قبل أن أخلع نعليه ووقفت لحظة أنظر إليه وقد اضطرب رأسى بالانفعالات المختلطة

إذن هذا هو الرجل الذى سيتزوج من الفتاة التى أحببتها، أيمكن بعد كل هذا أن يسعدنا؟ وماذا تكون الحال إذا تكرر مثل هذا الحادث بعد زواجهما؟ ومن الجائز جداً أن يتكرر، أيجب أن تقف « سالى » على ما حدث؟ وإذا عرفت، ألا تفسخ الخطبة لشورها بما فى عمل خطيبها من إهانة لها وتحقير؟

دار رأسى بهذه الأسئلة وبكثير غيرها، فأغمضت عيني وتمثلت « سالى » فيما تنهى إليه حالها فى السنوات المقبلة، وهى تعاشر « بارنى » وترقبه إذ يمود كل ليلة إلى البيت سكران، تنألم لعلها أن هناك نساء غيرها يشغلن مكاناً من قلبه؛ ومن المحتمل أن تكون حياتهما إذ ذاك حياة فقر مدقع

لم تكن الصورة التى تمثلها صورة مبهجة ففتحت عيني ونظرت إلى الرجل النائم، وساءلت نفسى: أيجب أن أخبر « سالى » بما رأيت؟ ألا يكون فى ذلك منجاتها من آلام المستقبل؟

وسمعت « بارنى » يهمهم فى نومه: « يالك من صديق طيب القلب يا ويل ». فالت هذه الكلمات عقدة لسانى وقضت على موقف التردد. فقلت وأنا أشمر بالتخاذل مكرراً عبارته:

تركت عملى فى المنجم قبل يوم الزفاف بأسبوع واحد. وذهبت « سالى » إلى أبرشية أوكلاند لزور عمتها ولتبتاع جهاز المرس، ومضى يومان لم أر فيهما « بارنى »

وبعد يوم قضيته فى إعداد متاعى للسفر اعترمت أن أريض ماشياً فقادتني قدماى عن غير قصد إلى الطريق التى تمر مباشرة وراء حانة الأسد الأحمر. وحمل الجو إلى أذنى ضجة نزلء الحانة وضحكاتهم، ثم فتح الباب الخافى وخرجت منه امرأة تسند رجلاً يسير إلى جانبها مترنحاً ثملاً. فوقفت فجأة وقد تولانى الدهول والغضب لأن الرجل لم يكن غير « بارنى » وكانت رفيقته « تس » فتاة الحانة الطروب. ووقع نظرى عليهما تجذب وجهه إلى وجهها ثم التفت شفاههما فى قبلة طويلة ملتصبة

ثارت نفسى لهذا المشهد فخطوت نحوها وأنا لا أكد أدرك ما أقفل ودفعت المرأة جانباً فى كثير من الخشونة

فقبض « بارنى » كفه كما لو كان معتزماً أن يضربنى وقال فى لفظ متناقل:

— ماذا تعنى بمملك هذا؟

فأجبتته فى لهجة الأمر:

— سه وهيا إلى البيت قبل أن يراك أحد ويخبر « سالى »

فلوت « تس » أصابعها فى شكل وقع وهزت يدها فى وجهى وهى تقول:

— هذا « لسالى » أما أنت أيها الشاب فاهم بشؤنك الخاصة. وأما « بارنى » فسيتبقى معى

وهاجتنى حركة الفتاة فنسيت قانون اللياقة فى معاملة النساء ولكنها لكمة أصابت فيها المدهون

النجم أو شك ما فيه من الفهم أن يستنفد ، فكان من جراء ذلك أن دفن بعض عمال ذلك القسم أحياء ، وأن حيل بين البعض الآخر وبين طريق الخلاص .

وكانت النسوة يكرهن متوسلات إلى الرجال أن ينقذوا أقاربهن ، وكان الرجال قد شرعوا بالفعل يؤفقون من أنفسهم جماعات إنقاذ بإرشاد « بيل هاننج » أحد رؤساء العمال ، وكان الرجل يعرفني أنا وبأدنى منذ كنا طفلين ، ومنه علمت أن صديقي بين التكويين وقال الرجل أن ليس هناك من يعرف ما أصاب العمال فقد يكونون أحياء وقد لا يكونون ، وعلى كل حال يفرض أنهم أحياء فهناك خطراً اختناقهم بالغاز فيجب أن نعمل مسرعين لا نقادهم .

ودون أن أنبس يفت شقة انضمت إلى إحدى الجماعات التطوعة للأنقاذ وعمت معهم بأقصى ما في مقدوري من جهد ، وكنا جميعاً متجهمين نعمل صامتين نسأل الله ألا يذهب مجهودنا عبثاً .

قضينا في العمل ثلاثة أيام وثلاث ليال لم يكن يتقطع فيها العمل إلا لحظات ننامها غراراً ، وكنا كلما توغلنا في النجم أقننا عمداً ومساند خشية حدوث انهيار جديد وكنا نعمل صامتين ، فلم يكن لأحد منا ما يقوله وقد عرف كل مهمته . وما أنسى هذه الساعات الأخيرة التي قضيتها في النجم مع هؤلاء الأبطال الصامتين الذين أقفلت أفواههم ونطقت جياهم بما ارتسم عليها من أمارات العزم والجهد الجبار .

وكان الإنسان يسمع ما بين فترة وأخرى أحد الرجال يصيح « هيلو » « هيلو » عسى أن تصل أصواتنا إلى هؤلاء الساكنين الذين انطبق عليهم

« نعم ، يالك من صديق طيب القلب يا ويل ... إنك لرقيق الشمور يا ويل » فقد كنت أعلم أن ما بيني وبين بارني من ولاء وصداقة سيبتق سره بآمن في صدري . وانصرفت بعد أن أحكمت عليه النطاء .

وجدت « سالي » في البيت عند عودتي فلم أقف معها إلا ريثما رددت تحيتها وأخبرتها أن بارني بخير إلا من تعب العمل الذي أزمه الرقاد مبكراً ، ثم صعدت إلى مسكني حيث قضيت ليلة مشردة للنوم لم أخاطب بارني بعد تلك الليلة ، ففي اليوم التالي بينما كانت « سالي » تربي ما اشترت من أرشية أوكلاندا استمداداً للعرس اخترقت سكون الصباح ولولة جمدت لها قلوب كل أم وكل زوجة وكل حبيبة في البلدة ، فقد كانت رنتها منبثة عن وقوع كارثة في النجم ، فقبضت « سالي » على ساعدي وقد هرب كل أثر للدم من وجهها فأصبح يشبه وجوه الأموات . وقالت في جزع : « بارني ... إني لأشعر بأن فاجعة قد أصابت بارني » . وكأنما قد سمرت قدماي في الأرض فوقفت عملاقاً فيها بعيني حتى شعرت يديها تدقان صدري وقد أصابتها نوبة عصبية فصرخت بي :

— لا تقف هكذا ناظراً إلى يا « ويل » ... إني لأشعر بأن مكروهاً قد نزل بيارني ... فهلا تفضلت فعملت شيئاً ...

فاندفعت من البيت واندججت في الجوع التي كانت مسرعة في طريق النجم .

وكان كل إنسان يتساءل : ماذا حدث ؟ ولكن لم يكن أحد يدري شيئاً ، حتى إذا وصلنا إلى النجم علمت أن انفجاراً حدث فسد المدخل إلى قسم من

المنجم فيقوى ذلك في نفوسهم الأمل في الحياة .
ولكن أصواتنا كانت تذهب هباء في جوف هذه
المقبرة المخيفة .

وكان أشق شيء على نفسي أن أرى وجه
« سالى » الحزين وهى تسألنى كلما خرجت من
المنجم عن نتيجة بحثنا ، فكانت كلمات التشجيع
والمزاء التى أرددها عليها لا تصادف منها غير أذنين
صماويين ، وهى جالسة تشخص في الفضاء كالأخوذ
تتحرك شفناها في صمت مبتهلة إلى الله .

وأشرق صباح اليوم الرابع صافياً وضاء .
وكان اليوم الذى حددنا قد زواج بارنى وسالى ، ولكنى
كنت أعلم أن هذا الزواج لن يكون ، فقد اقتربنا
من البقعة التى كان يشتغل فيها هؤلاء النساء حين
انفجار المنجم ، ولم يكن هناك أى أثر للحياة في تلك
البقعة المشثومة ، فما شككنا ، وإن لم يصرح أحدنا
بما شعرنا به ، في أن الموت قد حصدهم جميعاً .

وصلنا آخر الأمر إلى الرجال وكانوا سبعة عشر
وجدناهم قد سحقوا سحقاً فقد أصابهم الضربة
القاضية قاسية عنيفة . فبالها من ساعات هول تلك
التي أخذنا ننقلهم فيها الواحد بعد الآخر إلى خارج
المنجم ، فكانت قلوبنا وأقدامنا تتناقل كلما اقتربنا
من مدخله . وبالهول اللحظة التى وقع نظرى فيها
على بارنى فتماثلته في رقدته التى تركته عليها في آخر
ليلة رأيته فيها ، وكأني أسمع كلماته الأخيرة : « يالك
من صديق طيب القلب يا ويل » . ما أقسى القدر
وما أتمس هذين المحبين اللذين أصابهما بهذه الضربة
القاتلة ! لقد كدت أختنق حزناً في ذلك الموقف
الرهيب ...

دفنا موتانا وأقمنا عليهم صلاة جامعة في الكنيسة

حتى إذا انتهينا من توديعهم الوداع الأخير ، شرعت
أعد عدتى لمغادرة البلد قاصداً إلى مزرعة عمى .
فقد أصبحت بعد ذلك الحادث أشد رغبة في الابتعاد
عن المنجم ، وقد يبدو غريباً أننى لم أشعر بشيء من
الأمل في الحصول على « سالى » بعد أن نزل الفضاء
بخطيئها « بارنى » ولكن لا غرابة في ذلك فقد
عرفت من أخلاق « سالى » ما أقنعتني بأنها من
النوع الذى لا يحب غير مئة واحدة ، فالوقت وحده
هو الذى يخفف من آلام قلبها ، فما كان ليخطر لي
على بال أن تصير الأمور إلى ما صارت إليه عندما
ذهبت إليها لأودعها .

وجدتها جالسة بجوار النافذة تنظر إلى الفضاء
الذى كانت هى وبارنى وأنا نقضى فيه ساعات لهو
ومرح نحدونا للسعادة وعذب الأمانى ، فلما رأته
نظرت عند دخولى وقد ارتسمت على شفتيها
ابتسامة قاترة .

فلما أدنيت أحد الكراسى إلى جانبها وجلست
عليه قالت منهدة :

— أظنك جئت لتلقى إلى بكلمة الوداع ؟

أجبت :

— نعم فاني لأشعر أن ليس هناك من شيء

أستطيع أن أعمله الآن

فقلت في كثير من الرقة :

— إني لأحسدك ، وما أشد رغبتي في أن

أبتعد أما أيضاً عن هذا المكان . نعم أود لو أستطيع

الذهاب فلا أعود أبداً . إنك ذاهب لتعيش حيث

النور والهواء وحرارة الشمس . أما أنا فسأبقى هنا

حيث لا يوجد غير الكريات السوداء

وهنا غص صوتها فلم تستطع المضي في حديثها

وانهمرت الدموع مطلقاً من عينيها ، فطوقت
كتفها بساعدي مواسياً وقالت :

— تشجى يا « سالى » وإنى لأعلم مبلغ ألمك
من خسارتك الفادحة ولكن اجتهدى فى أن تتمزى
فنظرت إلى بيمين مغمورتين بالدموع وقالت
فى تأن :

— أأظلمك يا « ويل » على سر لا تعلمه ؟
إنى لأعلم ألمك صدق وفى مخلص وأن حكمتك على
لن يكون قاسياً . وإنى لشديدة الحيرة والاضطراب
فنظرت إليها فى دهشة ، أسائل نفسى : ترى
إلى أية غاية ترى ؟

ومضت فى حديثها تقول :

— إن حزنى على « بارنى » ليس إلا نصف
السبب فيما أشعر به من حيرة واضطراب ، فبعد
سبعة أشهر سأصبح أمّاً . وهذا هو السبب الذى
حملنى أنا وبارنى على أن نستعجل يوم زفافنا فنحدده
بمسد أيام قلائل من إعلان خطبتنا . أما الآن ...
فانى لا أجد حتى الاسم الذى أسمي به طفلى . أواه
يا « ويل » ... ماذا عسانى أفعل ؟

إذا قلت إننى شعرت عند سماع كلمات « سالى »
كأننى قد صممت ، كنت متلفكاً فى التعبير .
فما كنت لأحلم بأن أسمع ذلك الذى سمعت ، ولم يكن
فى مقدورى أن أسدقه لأول وهلة !

على أننى أجهدت نفسى فى امتلاك عواطفى ،
فقد كانت الفكرة التى طفت على غيرها فى رأسى
هى أن « سالى » واقعة فى حرج شديد وأنها أشد
ما تكون حاجة إلى أن أعينها فى شدتها . ومن
الغريب أننى فى تلك اللحظة لم أشعر فى قلبى بشيء من
الضغينة أو الحقد على « بارنى » ، فقد كان شعورى

كله منحصر آفى الشفقة للشديدة والرغبة فى المساعدة .
وإذا كانت سالى من الطراز الذى لا يحب إلا مرة
واحدة فأنا أيضاً من ذلك الطراز ، وعلى الرغم من
كل ما حدث كنت أعبدها . وهذا هو السبب فى
أننى عند ما كنت أزرع أرض الغرفة ذهباً وجيئة
فى صمت كانت فكرة واحدة مستولية على رأسى .
لقد أبدت « سالى » رغبتها فى أن تترك البلدة ،
وإنه ليسرنى أن آخذها معى بأى ثمن كان . إذن
لقد وضع كل شيء وضوح ضوء للنهار ، فركمت
إلى جانبها وأفضيت بكل ما خطر لى ، قائلاً فى لهجة
الجد والتحمس :

— اصغ إلى يا « سالى » ! إنك لن تستطعى
البقاء هنا لمواجهة مخزسات الناس فلتقبلى مساعدتى
— وكيف ؟
— تزوجى منى

فشهقت « سالى » وابتمدت عنى وقد بدت
عليها الدلة ولكنى اندفعت أقول فى غير ترو :

— إننى لأعلم ما لا بد أن تشعري به حيال هذا
المرض . ولكن ألا ترين يا عزيزتى أن هذه هى
الوسيلة الوحيدة ، فأنت زوجة لى تستطيعين أن
تصحبنى إلى الزرعة دون أن يكون هنا ما يدعو
إلى علم أحد بأمر الطفل . ألا ترين أن هذا هو الشيء
الوحيد المقبول الذى يمكن عمله ؟ وما أشك فى أنه
لو تبسر أن يعلم بارنى بهذا الأمر لاستطاع أن
يدرك معناه

— أتقدم على هذه التضحية من أجلى ، عالمك بأننى
لن أستطيع أن أقدم لك شيئاً مقابلها ، عالمك
كذلك أن لا أمل فى شيء على الإطلاق ؟ ثم أنت
ترغب فوق ذلك فى أن تطلق اسمك على ابن رجل
غيرك ؟

فأجبت :

— ليس فيما أفعل تضحية على الإطلاق ، فأننا سنشارك في إنشاء بيت بأوى كلامنا ، وما أطلب شيئاً غير ذلك ، فإذا شعرت يوماً ما بأن في قلبك شيئاً من المطف على فسأشعر عندئذ بأنني قد كوفئت بمائة ضعف لما فعلت

فلم تستطع « سالي » أن تتكلم وأدارت وجهها عني ولكنني أدركت أنني قد نجحت فيما رميت إليه وشعرت أنني في هذه اللحظة الحرجة كنت أسعد مني في أي وقت مضى من حياتي

وبعد أسابيع قليلة وصلت و « سالي » إلى مزرعة خالي بات الذي امتلأ قلبه فرحاً باستطعائي عروسي معي ، وقد بذل منذ اللحظة الأولى كل ما في جهده ليشرها بأنها في بيتها ، وأخيراً عندما أصبحت حالة الحمل أكثر وضوحاً عني في أسلوب رقيق بأن يخفف عنها عبء العمل في البيت . وكان إذا لاحظ مرة أن العلاقات بيني وبين زوجي غير طبيعية تجنب في حكمة أن يقول شيئاً يرمي عما لاحظته وإني لوائق أن « سالي » لم تندم قط على قبولها الزواج مني ، فقد أحبت المزرعة ، وكان يبدو عليها بعض الأحيان أنها تشمر بكثير من السعادة ، ولو أنها أصبحت نادرة الانبسام . ولقد كان شاقاً على نفسي أن أكون قريباً منها محباً لها ومع ذلك لا أجرؤ أبداً على أن أمسها . ولكنني صبرت مؤملاً ألا يبعد جداً اليوم الذي تقبل علي فيه عن رغبة ورضا

وقلت في نفسي : إن الحال لا بد أن تتغير بعد أن تضع جنينها ، وستمود حياتها سيرتها الطبيعية يوم يصبح لها ولد محبه وتسهر على العناية به ، فستعود عندئذ تدريجاً أن تقبل علي أنا أيضاً ولا شمرنا أنا وخالي بأن عمل البيت قد أصبح

كثيراً علي « سالي » ، بعد أن تقدمت حالها ، استأجرنا فتاة من أهل القرية لتساعد في الطبخ وفي الأعمال البيتية الأخرى ، وقد برهنت هذه الفتاة واسمها مارجري جاميسون أنها تساوى ثقلها ذهباً ، وكانت فتاة وضاعة الجبين جذابة ، محبة للعمل أنيسة بيت وجودها في البيت روح البهجة والانشراح وقد توطدت روابط الصداقة بينها وبين سالي

وفي ذات صباح وجدت مارجري في المطبخ يبدو عليها أثر الحيرة والاضطراب ، فلما سألتها عن سبب ما بها أجابت :

إن الذي يشغلي هو أمر امرأتك ، فانه يبدو عليها أنها في حال غير طبيعية . إنها لا تتكلم أبداً عن الطفل المنتظر . فهي تجلس شاخصة إلى الفضاء كأنها تحلم ، وقد قالت لي أمس : « مارجري ، أتبعين هنا بعد ذهابي لتعني بأمر ويل ؟ إنني لأرجو منك أن تفعل ذلك »

فقلت في خشونة :

— كلام فارغ ، إنها غير مالكة نفسها ، فهذا أول طفل لها ، وكل ما عنك أنها خائفة وعلى الرغم من كلاي هذا شعرت بشيء من القلق والاضطراب

ولد الطفل في ليلة قارسة البرد من ليالي الشتاء وإذا أحست « سالي » بالآلام الأولى ساعدتها مارجري في الايواء إلى فراشها ومضيت أدعو الطبيب وكانت ليلة هول وجزع . فبذ اللحظة التي وصل فيها الطبيب أحسست بتوتر غير طبيعي يملأ جو البيت ، فقد كانت مارجري تروح وتجيء صفراء مقفلة الشفتين ، بينما كان الطبيب يؤدي مهمته وقد ارتسم للقلق على جبينه وانحماً

وبعد فترة كأنها الأبد نزل الطبيب إلى غرفة

واسم « بارنى » على شفيتها

وقفت كالحالم منحني الرأس عند ما غيبتوا نمش
« سالى » فى القبر غير مستطيع أن أصدق أنها
قد ذهبت حقاً . على أن الحقيقة لم تلبث أن صدمتني
بقوتها المرعبة عندما وصلت البيت عائداً من جنازتها ،
فقد كنت جالساً وحدى فى الغرفة الأمامية غارقاً
فى الذكريات الحزينة إذ أيقظنى من غيوبتى بكاء
ضعيف ... الطفل ... وكان الحزن قد أتساقى وجوده
فى هذا العالم ، فشيت متثدداً ونظرت إلى ذلك المخلوق
الأحمر الوجه الذى تركته أمه فى رعايتى . إنه ابن
بارنى ! كيف أستطيع أن أشرح أو أصف الانفعال
الذى تملك نفسى حين نظرت إلى الوليد الذى يبكى ؟
لقد تجسست البغضاء كلها والحزن الكين فى نفسى
فتجسست كرهاً مطلق العنان نحو ذلك الطفل . لقد
حظى أبوه بالفناء التى أحبتها وخاتها ، ثم هى قد
دفنت حياتها ثمناً لإخراج ابنه إلى عالم الوجود

وبكى الطفل مرة أخرى ، فأنحيت عليه وقلت
فى خشونة : « أنت ، إنها من أجلك ماتت ، وما ينتظر
منى مقابل ذلك إلا أن أقتلك ! ها ! ها ! يا لها من
مهزلة ! حقاً إنى أبغضك ، أيها الطفل الباكي
الحقير ! » ولم تلبث ثورة الغضب والحزن التى أقعدتني
كل عامل من عوامل العقل أن أحالتني رجلاً مجنوناً
تملاً قلبه شهوة الجريمة . سأنتقم من القدر بقتل
المخلوق البرئ الذى كان السبب فى كل هذا المصائب
وانجحت يداى فى بطاء إلى رأس الطفل وأطبقت
أصابعى على عنقه ، وبدأت أضغط ذلك العنق الصغير
متأنياً وأنا أضحك ضحكا وحشياً كلما ازدادت عينا
الضحية إجحاضاً .. ابن بارنى ! أظن أنه يستطيع أن
يتفلى ؟ سأريه ! أن « ويل للصديق الطيب القلب »
لن يكون الأضحوكة مرة أخرى

الطعام حيث كنت جالساً أنا وخالى بات منتظرين
فلما رأته سأله فى حال عصيبة :

— أهناك شىء غير سار يا دكتور ؟

فهز رأسه كثيراً وقال :

— أخشى أن يكون ذلك يا « ويل » إننا
نعمل كل شىء ممكن ، ولكن إصرأتك تسلك سلوكاً
غريباً ، فلا هي مكترثة بأن تعيش أو تموت ولا هي
تساعدنا فى أداء مهمتنا بأية صورة من صور المساعدة
وهى أحياناً تهذى وتكرر الهتاف باسم بارنى

ثم جاءت مارجرى فدعت الطبيب الذى خرج
وتركنى وخالى ينظر أحدهما إلى الآخر فى صمت
مشبع بروح الجزع . ولم تلبث أن سمعنا بكاء رقيقاً
ينبئ عن قدوم مخلوق جديد إلى عالم الكفاح الذى
نعيش فيه

وفى مطلع النهار كنت ناعساً فوق كرسي
إذ أيقظتنى نقرة خفيفة على كتفى فرأيت مارجرى
واقفة أمامى تقول هامسة :

— يريد الطبيب أن تسرع فى الذهاب إليه
فاندفعت ساءداً للسلم فى سكون وهناك لقينى
الطبيب على باب غرفة سالى ، وقال يحذرنى :
— اجتهد فى أن تكون هادئاً متجلداً

فحسبت أول الأمر أن سالى نائمة ، ولكننى
رأيت جفניה يهتران ثم يفتحان ، ثم التفتت
— وعلى فمها ابتسامة رقيقة — إلى المخلوق الصغير
الذى ضمته فى ساعدها ملفوفاً ، وبدأت تتكلم
فأنحيت لأسمع صوتها الخافت فقالت :

— ويل ... عزيزى ويل ... إننى تاركة طفلى
فى رعايتك ، وسيجيئ اليوم الذى يكبر فيه ويمشى
ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة ، فليبارك الله
عليكما وليحفظكما جميعاً

وانطبق جفناها فى بطاء ، وبعد دقائق قليلة ماتت

فانه لم يكن مهملاً . فقد كانت مرجري تبده ، وقسم خالي وقته بين فقير النحل وبين الطفل الذي سمي باسمه . وإذا لاحظنا أن سلوكي حيال « ابني » كان غريباً فانهما لم يكونا يحدداني بما لاحظناه . وبعضى الوقت بدأت آلف وجود الطفل في البيت كما آلف وجود عصفور عزيز من عصافير الكناريا ، مخلوق يطعمه الانسان ويأويه ويعني به ، ولكني لم أشعر في قلبي نحوه بأى أثر لماطفة الحب

ولما أتم الطفل « بات » السنة الأولى من عمره أصيب خالي بصدمة ألزمته الفراش ستة أشهر ، كنت خلالها شديد الإعجاب بمارجري لما أبدت من صبر وعطف في أداء واجباتها ، إذ كانت تمرض الرجل المريض وتعتني بالطفل الذي كثرت حركته حربصة كل الحرص على نظافة كل شيء في البيت ، مؤدية في الوقت نفسه عمل الطامى والخائض أيضاً . وكنت من جاني أعمل كل ما أستطيع لمساعدتها ، وقد علمتني أن أزداد كل يوم احتراماً لها وإعجاباً بها . لقد كانت الأم والطاهية ومديرة البيت والمرضة ، فلو شئت لتفاضت أضاف الأجر الضئيل الذي كنا تقدمه لها ، ومع ذلك لم تكن لتشكو من شيء وطراً على في الوقت نفسه شيء من التغير ، فإذا كنت أمضى في أداء عملي في هدوء منابر لما كنت عليه من قبل ، فلم يكن السبب في ذلك الحزن الذي كن في نفسي ، ولكن انحصار تفكيري كله في عملي . فقد شق الزمن جرح نفسي ، ولم تعد « سالى » غير ذكرى محبوبة تسكن أعماق قلبي . على أنني كنت أشعر دائماً أن شبح « بارنى » يلازمى دائماً في شخص ابنه الذي صار كلما تقدمت به الأيام يقترب شبهه من شبه أبيه ، فكانت له تقاسيمه وعيناه السوداوان الراقصتان وشعره الجمعد ولم أعرف قط إذا كان خالي قد أدرك الحقيقة

أبغضنى من هذه الثورة الجنوبية وقع خطوة على عتبة الباب وخلعت أصابعى من عنق الطفل محملاً إجمال المجرمين عندما دخلت مارجري الحجره ، وإذا لم تلاحظ شيئاً غير عادى ذهبت إلى فراش الطفل وحملته على ساعدها . وقالت :

— إنه جائع ... مسكين هذا الطفل اليتيم من أمه ، أخشى أن نكون قد أهملناه !

فلم أجب على قولها بشيء ، وقد أخذت أسترده قواى العقلية ، وبدأت أشعر بالمرق البارد يتدفق من جميع مسام جسمى . واستولى علىّ إذ ذاك الشعور بالشكر وعرفان الجليل لمارجري فقد أنقذتني من أن أصبح قاتلاً لمخلوق ضئيف برى . يجب أن أستجمع قواى ! فترنحت خارجاً من الحجره أشعر بالهواء البارد يصدم جبهتى

فلما خلوت إلى نفسى في حجرنى ذلك المساء لعنت ما بدا من حماقتى ، فما كان الطفل ياللوم على موت « سالى » ولكنى أنا اللوم

لقد قال الطبيب إنها ماتت لأنها لم تكن راغبة في الحياة ، وأنا وحدى الذى أعرف السبب في ذلك . كنت أعلم أن قلبها قد دفن مع بارنى . لقد كانت تستقد أنه محبها الصادق الأمين ، ولم يكن هناك من يعلم غير ذلك سوى . وكان في مقدورى أن أقضى على حبها له بوضع كلمات . فلماذا كتبت ما علمته من أمر بارنى والفتاة « تيس » ؟ لم يكن لهذا للتكم من سبب غير خوفى من أن أجرحها وأن أصور نفسى في عينها إنساناً دينثاً . لقد أظفقت شفقى وتركنت الفتاة التى أحبتها تصعب محباً خائناً إلى العالم الآخر . كانت هذه هى الأفكار التى مررت حياتى بضعة أشهر بعد موت « سالى »

وإجابة لطلب خالي بات سمينا الطفل « باتريك » وعلى الرغم من أنني لم أهتم بأمر ذلك المخلوق الصغير

عدت بذات كرتي إلى الثمانية عشر شهراً الماضية التي
عنيت فيها مارجرى بتربية الطفل وبتمريض خالي .
فساءت نفسي : تراها كانت تفعل كل ذلك مقابل
الأجر الضئيل الذي كانت تتقاضاه منا ؟ أم كانت
تشره هي أيضاً بأنها قد أصبحت أحد العناصر
الأصيلة في ذلك البيت ؟

أيمكن أن تكون قد شمرت بشيء من المطف
على رب البيت الفاتر للشعور الصامت الذي كان يروح
ويجيء مشغولاً عن كل شيء غير مكترث لأحد ؟
تذكرت بعض حركات صغيرة يمكن أن تدل على هذا
الذي افترضت ، وهنا شمرت كأن شرارة ملتهبة قد
سرت في مجموع كياني ، فكان من الأمور السارة
أن أشعر بأنني موضع اهتمام إنسان ما وما جرى على
وجه أخص ، فقد تعودت أن أنظر إليها نظرة
الصداقة الحارة . ولم يكن هناك من يستطيع أن يعلا
الفراغ الذي تملأه في بيتي . إذن يجب ألا تفاديه
وقفت إلى جانب مارجرى وهي ترقد الطفل
مساء في سريره ونظرت إليه وهو يرضع . وعلى
حين فجأة طوقت مارجرى بساعدي وضممتها
إلى صدري وقلت :

— إنك يا مارجرى لن تتركي مخلوقين عاجزين
تحت رحمة الأقدار ؟ ألا ترين أننا أشد ما نكون
حاجة إليك ؟

فقلت وقد دهشت لحركة التودد التي بدت مني
على غير انتظار :

— ولكن ماذا عساني أفعل ؟

قلت :

— اصنع إلى يا مارجرى ! إنني لا أنظر إلى امرأة
أخرى في العالم نظري إليك . وإنني لأعلم أن هذا
الامر مفاجئ ، ولكن أنظنين أنك تمنين بأمرى

أم لم يدركها فيما يتصل بنسبة هذا الغلام ، فقد كان
رجلاً ما كراً لا يتكلم كثيراً ولا ييوح بما يعلم .
وقد مات بعد ستة أشهر من مرضه . وعدت يوماً
إلى البيت بعد موته بأسبوعين فوجدت مارجرى
تبكي . فسألته في لهفة :

— ما الذي يبكيك يا مارجرى وأى سوء حدث ؟
فقلت متأللة :

— إن هناك دائماً أناساً متطفلين ينهزون
الفرص للخوض في أهراض غيرهم ، ولما كان خالك
على قيد الحياة يعيش معنا لم يكن هناك ما يشير تطفل
أمثال هؤلاء للناس . أما اليوم وقد مات ، فقد
شرعوا يتحدثون في أمرنا ويقولون إنه من غير
لائق أن أعيش معك وأنا فتاة شابة تحت سقف واحد
وليس معنا ثالث ، لهذا أرى من الحكمة أن أغادر
هذا البيت حتى أقطع السبيل على المتطفلين
فقلت مرثعاً :

— ولكن الطفل ! إن به حاجة لمن يربي
بأمره ، وأنت الأم الوحيدة التي تفتحت عيناه على
وجهها . إنك لا تستطيعين أن تتركينا يا مارجرى
وما نحن بقادرين على أن نميش بعيدين عنك
فزفرت الفتاة وقالت وهي تسرع بالدخول إلى
غرفتها :

— إنه ليكسر قلبي أن أفعل ذلك ، فقد كنت
عظوماً على ، وأنا أحب « بات » للصغير كما لو أحببت
ابني الذي من لحي ودي

شمرت عند سماع هذه الكلمات بشيء من
الاعياء يستولي على نفسي ، فلم يخطر لي من قبل قط
أن مارجرى يمكن أن تتركنا ، فقد كنت أنظر
إليها منذ الساعة التي دخلت فيها بيتنا ، على
أنها عنصر من العناصر الأصيلة فيه ، وكأن ذلك
كان أمراً مسلماً به ، فلما سمعت كلماتها الأخيرة

لحد أن تقبليني زوجاً لك ؟ أنا أنا فسابذل جهدي
في سبيل إسعادك

فلم تنطق الفتاة بكلمة ولكنها هزت رأسها هزة
الرضا وقد فاضت عيناها بالدموع ، فأنحيت وطبعت
على شفتيها القبلة التي لم أطبعها على شفتي امرأة
غير أي

لقد عرضت الزواج على مارجرى في ساعة انفعال
ولكنني لم أندم على ذلك قط ، فقد كانت صديقة
مخلصة ، ورفيقاً فرحاً مؤنساً ، وقد تمودت على الزمن
أن أحبا حباً قوياً

وكان « بات » كلما كبر أصبح من المستحيل
أن أتجاهله ، لقد كان طفلاً نشيطاً محتاجاً إلى الملاحظة
المستمرة ، إذ كان ميالاً للعبث بكل ما يصادفه ، فلم
ألبث أن لاحظت أنه لا بد من مراقبته خشية أن
يؤذي نفسه ، ولم يكن من طبعي أن أهمل عامداً أداء
واجبي ، وما دامت الأقدار قد ألفت إلى أمر العناية
بهذا المخلوق فقد وجب علي أن أحياه من كل خطر
يتعرض له

وبدا علي للطفل أنه يحبني حباً شديداً ، فكان
يقبني أين تنقلت في البيت وكان يتعلق بي ويقبلي ،
وكان حسنه واطفه جذابين لا يملك الإنسان نفسه
من التأثير بهما ، وكان يدعوني بلفظة « أبي » وما كان
ليستطيع أن يدعوني بغير ذلك

وما بلغ « بات » السنة الثالثة من عمره حتى
رزقت مارجرى بطفل هو ابني من لحمي ومن دمي ،
وما أستطيع أن أصف الشعور الذي استولى على نفسي
حين حملت المخلوق الصغير الجديد علي ساعدي ، فقد
تجمع الحب والمطف اللذان حرمتها « بات » وقاضا
دفعة واحدة على القادم الجديد
علي أن روح المدل الذي كنت أتمد في أخذ

نفسى به قد حملني علي أن أقسم في الحال وأنا أحمل
ابني علي ساعدي أنني مهما بلغ حبي لهذا الطفل ما بلغ
فلن أميزه بمجمل أحرم منه « بات »

ولقد وفيت بهذا القسم في أدق حدود الوفاء ،
وخصصت قسماً من دخلي لتربيتهما وتعليمهما ، وكان
علي كل منهما أن يؤدي واجباته المدرسية ، وإذا
لاحظت أن « فرانك » كان ميالاً إلى الكسل ،
أمرت « بات » في شدة ألا يساعده في أداء واجباته
عنه ، وكان الطفل ميالاً بطبيعته الخيرة إلى إسداء
هذه المساعدة لأخيه ...

ولما شب الطفلان أحزنتني أن ألاحظ الفارق
الكبير بين أخلاق أحدهما وبين أخلاق الآخر . فقد
كان « بات » دائماً يأساً سعيداً ، وكان كريماً
طموحاً غير أنه كان علي استعداد للمراك لأقل سبب ،
وكان يسلك حيال فرانك ، مسلك المحامي الذي
يدافع عنه غير سامح لإنسان أن يجسه بسوء .

وكان ابني علي العكس من ذلك فميالاً
إلى الأنانية ، فكان يستغل طيبة « بات » لمصلحته
كلما أراد ذلك . وإذا كانت الأمور تسير سيرها
الطبيعي كانت شخصيته تتميز بمجازية شديدة ، وكان
فوق ذلك متميزاً بذكاء عقله وقوة إدراكه وهما
أمران كانا يبشران بمستقبل عظيم .

وكان مما ضايقني بعض الشيء أن فرانك
لم يكن يكثر قط بغير النحل ، وكان « بات » هو
الذي يمني بها ويحفظ كل ما كنت أعلمه من شئونها
و كنت كذلك أتضابق حين أذكر أن « فرانك »
قد يرتفع شأنه في الوجود ، وأن « بات » قد يقنع
بالحياة في الزرعة علي مثال ما فعلت . علي أن هذا
هو ما كنت أرجوه علي كل حال ، فإن السنين وإن
كانت قد خفت ما كنت أشعر به من البعض نحو

الطفل الغريب الذي حملني مسؤولية أنا غير مرحب بها،
فإنها لم تقض على هذا البغض القضاء التام ، فكنت
أتمنى أن يتم كل شيء طيب لابني .

وكان « بات » أدق إدراكاً من أن بغوث عليه
ما في مسلكي من تميز ولكن لم يكن ذلك ليرتك
في قلبه الصغير أي أثر غير طيب . ومن الغريب أن
تكون مارجري هي التي لم يبد من ناحيتها أي نوع
من أنواع التفريق بين الغلامين ، فقد كانت تحب
الولد الكبير الجليل الطيب القلب الذي تعتقد أنه ابني
حبها ابنها على حد سواء .

وكان « بات » متقدماً على « فرانك »
في المدرسة عندما ماتت مارجري ، وقد شعرنا
جميعاً بالخسارة التي أصابتنا بفقدان عطفها وعنايتها
وكان « بات » أشدنا حزناً وتأثراً . فكانت هي
للشخص الوحيد الذي كان يقضي إليه بما في نفسه
ويركن إلى عطفه . وكان « بات » يدرس الصحافة
ويقول إنه سيؤلف يوماً كتاباً يحملنا جميعاً على
أن نفخر به ، وكانت مارجري هي وحدها التي
تشجعه ، أما أنا فكنت أهزأ بفكرته فما كنت
لأتصور أن ذلك الطفل الرقيق الكبير الجسم يصلح
لأن يجلس يوماً فيضمن أفكاره وآراءه كتاباً يقرأه
الناس ، ولما ماتت مارجري انقطع حديث « بات »
بآماله ومطامحه .

أما فرانك فكان يطمع في النفوذ وفي الثروة .
كان مفرماً بالمسائل المالية ، فكان كل مساء يدرس
الصحيفة الاقتصادية التي تنشرها الجريدة ، غير
ملتفت إلى شيء إلا أن هذا النوع من الأهتمام
قد ارتفع وذلك النوع قد تدهور ، وكان يدرس
الأسباب التي تؤثر في السوق مفاخرأ بأنه يستطيع
أن يتنبأ بما سيقع من ارتفاع أو هبوط ، وكان كلامه
منرياً حملني على أن أستخدم بعض أموال في سوق

الأسهم ، وزادني الرخ طمعاً فاستخدمت فيها جميع
أموالي وكان ذلك سبباً في أن تعرفت بمستر بالدوين
مدير البنك المحلي ، وكان الرجل ممن يهتمون بتربية
النحل فكان يزورني ويرقب ما يجري في الفغير .
فتوطدت بيني وبينه روابط الصداقة ، حتى إذا ترك
« فرانك » المدرسة عهد إليه وظيفة كاتب في البنك
فتساء ابني بذلك عجيباً . وكان يقول لي عن عقيدة :
إن بعض كبار رجالنا كانوا في أول نشأتهم كتاباً
في المصارف

وكان بات إذاً ذلك بعمل غريباً في الجريدة المحلية
وكان الأجر الذي يتقاضاه ضئيلاً ، ولكنه كان قنوعاً
به ؛ وكان يكفي لمبشته ، وكان يفضي أوقات فراغه
في كتابة قصص لم يوفق قط في بيعها ، فكان كل
ما يرسله منها يرد إليه ثانية ، وكنت أنا و« فرانك »
نهرأ منه لاضاعته وقته في ذلك اللبث . وقال له فرانك
في سخرية :

— ألا تهبط أيها القروي الكبير الجسم إلى
الأرض؟ ألا تعرف الوقت الذي أصابتك فيه الهزيمة؟
وكان « بات » ينقسم من هذا الكلام غير
مكثرث ويقول إن روما لم تبني في يوم واحد ، ثم
يغض في الكتابة

ولم يعض إلا قليل حتى دهشت أنا وفرانك
أكبر دهشة في حياتنا ، فإن إحدى قصص « بات »
لم ترد إليه بل جاءه بدلها « شيك » بمبلغ من
المال مصحوباً بكلمة تشجيع من محرر إحدى
المجلات الواسعة الانتشار . ولقد كانت هذه هي
الفرصة التي يستطيع أن يقول فيها : « لقد قلت
لكم ذلك » ولكن لم يقل شيئاً وأظن أن سكرة الفرح
أنسته أن يشكر ، فثنى وعلى فمه ابتسامة عريضة
راضياً بمحظه في الحياة ، وتوالت الشيكات بعد ذلك

خطاباتي عن مكان وجودي ، ولكن أرجو أن تجد في قلبك مكاناً للعفو عني . وما أخشى على صحتك وحياتك لأنني واثق من أن « بات » العزيز سيظهر عليك ويعني بأمرك . وقد أستطيع أن أعود يوماً ما ، وإلى أن أتمكن من ذلك سأبقى ... ولله الحب (فرنك)

صعقتني هذا الخطاب فجلست أنظر إلى الفضاء . إن هذا لا يمكن أن يكون صدقاً ، ابني فرانك لص لن يمضي زمن طويل حتى يقبض عليه كالوحش الضاري لا بد أن يكون هناك خطأ ما . ولكن لا . هذا كتابه وهذا خطه . أصبح لصاً ؟ ابني الذي أملت منه الكثير وهو الآن هارب يبحث عن مكان يأوي إليه حتى لا تقع عليه عين القانون

فكرت في الأيام التي كان فيها طفلاً وساءت نفسي : أقصرت في تربيته ؟ ألم أعلمه تعليماً حسناً ؟ ألم ألقنه مبادئ الأمانة ؟ سألت نفسي هذه الأسئلة ورددت عليها إيجاباً

إذن أين موضع الخطأ ؟ إنه في أعماق نفسي ، لقد أخطأت حين اعتمدت على نصائحه وعملت برأيه . لقد رأي أني أريح الكثير بأيداع القليل ، فتنازل الشره إلى نفسه ، وأراد أن يكون إنساناً ذا شأن . والمال يزود الإنسان بالقوة . لقد رأي كفي تقبض على مبالغ كبيرة من المال فأراد أن يحدو حذوي ويجمع المال لنفسه .

وإذ وصلت إلى هذا التعليل أخنيت رأسي حزناً وعاراً واعتمدت رأسي يدي وبكيت في صوت مرتفع ..

ولم أشرب بأن « بات » قد دخل الغرفة حتى أحسست بساعده يطوق كفي ، ونظرت فرأيتة يرمقي في عطف وحنان . وقد قال في كثير من اللطف :

وأصبح بات غموراً بمكاته وبثروته التي تنمو على الاستمرار .

وبدأ الناس يتحدثون بأمر الفتى المؤلف ، ويهتفون بابني للنايفة ، وأخيراً أدركت أن ليس هناك من يعرف حقيقة نسبه ، فلم أر ما يحول بيني وبين الاشتراك معهم في الحديث

ولم يحض عامان على اشتغال فرانك حتى حلت بالبنك كارثة مفاجئة ضاعت فيها أموال أرباحاً وأصلاً كما ضاعت أموال غيري ، على أن هذه الكارثة على شدتها كانت أخف هولاً من الكارثة التي لحقتها بعد ثلاثة أسابيع والتي فاجأتني في خطاب مكتوب على عجل بخط فرانك وفيه يقول :

والذي العزيز

عند ما تقرأ هذا الخطاب أكون قد بددت آميلاً عذبة عن الوطن . ولقد لاحظت أنت عند ما كنت في البيت في نهاية الأسبوع أنني كنت كثيرًا ، وقد نفيت ما أبدت لي من ملاحظة إذ لم تكن أعصابي لتحتمل مواجعتك بالحقيقة ، فأخبرك بأن ابنك ضرور ولص

وإنك لتعلم أنني كنت أشتغل بدفاتر البنك فترة من الزمن ، فلما وقعت الكارثة استولى على اليأس فكنت أرى أحلامي تتلاشى وما اقتصدت من المال يضيع هباء ، فلم أر أمامي غير سبيل واحد للخروج من ذلك المأزق ، فأخذت من أموال البنك مبالغ أربعةائة جنيه معتزماً بطبيعة الحال أن أردّها . ولكن هذا المبالغ ضاع هو أيضاً ، ولا بد أن يأتي اليوم الذي يطلع فيه مديرو البنك على ما حدث ، لذلك أنا أغادر البلاد قبل أن يكشف أمرى . وسأبدأ حياتي من جديد في أي مكان أستطيع للعمل فيه ، وآمل أن أتمكن يوماً من رد المبلغ الذي سرقته . ولا أكتب إليك بعد الآن خوفاً من أن تبني

— إنه لأمر قاس يا أبى ، ولكن هون عليك
ولا تبئس

فسألته فى صوت عال :

— أعرفت ما حدث ؟

— نعم فقد بعث إلى فرنك بخطاب

فسألته وقد شعرت بشيء من الارتياح لوجود
من يشاطرنى الأمرى :

— وماذا عسانا نعمل ؟

فأجاب :

— لقد عملت كل ما يمكن أن يعمل فما قرأت
خطاب فرنك حتى أسرعرت إلى البنك ومحدثت مع
مستر بالديون ، وحولت حسابى إلى البنك . ولما كان
مالى يزيد كثيراً على القدر المطلوب ، وافق مستر
بالديون رعاية لك أن يترك الأمر يجرى هدوء ويبقى
سراً مكتوماً

فقلت :

— أنت دفعت مالك الذى جنيته بمملك لتتخذ

اسم فرنك ؟

فأجاب الفتى :

— إنه اسمنا جميعاً

فلفت نظرى عنه صامتاً ، فقد ازدجت الكلمات
فى فى ، وغص بها حلقى فلم يخرج من بين شفقى .
لقد أردت أن أقول له إن الاسم الذى دنس ليس اسمه
ثم إذا بى كأني أسمع صوتاً من الماضى يهمس
فى أذنى ، وكان صوت « سالى » تكرر الكلمات
التي قالتها من قبل ، عند ما نظرت بعينين تفيضان
بالدمع إلى طفلها الوليد وقالت : « سيأتى اليوم الذى
يكبر فيه ويعيش ليرد إليك جزاء شفقتك العظيمة »

لقد استولى على شعور لا أستطيع وصفه ،
فغريب أن تصح نبوءتها بعد هذه السنوات الطويلة ،

وأن يدب رنينها فى أذنى ، وأغرب من ذلك أنه
خيل إلى أن الواقف إلى جانبي هى سالى نفسها ،
تعمل لا تقاذ اسمي كما أنقذت اسمها فيما مضى ، فكان
عرضا منها لا أستطيع رفضه . ولكن « بات »
لن يعرف ماذا قصدت حين قلت : « شكراً لك
يا سالى »

مضت ست سنوات على هرب فرانك ، وعلى
الرغم من أننى لم يصلني كلمة منه فأننى أشعر أنه بخير
وأننى لأرجو أن يعود يوماً ، ولكننى لست وحيداً
فإن حياتى أمتع وأكثرت انتماشاً مما كانت فى أى
وقت مضى من جراء التغام والمودة اللذين توطدا
بين « بات » وبينى

تزوج « بات » بعد ذهاب فرانك بوقت قليل
محضراً زوجها الجميلة إلى المزرعة كما أحضرت أنا أمه
من قبل ، ولا يزال دائماً على الكتابة مقسماً وقته بين
آلة الكتابة وبين قفير النحل

وقد رأيته منذ أيام — وأنا جالس فى الشرفة —
وهو يجمع الزهر الأزرق الذى تحبه النحل . وكانت
ابنته الصغيرة مارجرى سالى جالسة على ركبتى .
وقد غمرنى شعور بالرضا والقناعة عند ما ضممتها
إلى صدرى فنظرت إلى ورأتني أتبسم وقد سألتني :
— لماذا تبسم يا جدى ؟

فأجبتها بكلام فارغ ، إذ كيف أستطيع أن
أقول للطفلة إننى عند ما رأيت « بات » تصورت أن
الأيام قد دارت إلى الوداء وإننى أرى سالى وبارنى
ينسبان لى

أكان الأمر كله خرافة شيخ مضطرب ،
أم تراني قد سمعت حقاً « بارنى » وهو يقول :

« يالك من صديق طيب القلب ياويل فليجوزك
الله خيراً »

عبد الحميد محمدى

حَاجِي نَابَا اَصِفْهَا نَحْنُ

لِلْكَاتِبِ الْاَنْجَلِيْزِيِّ "جيمز مور"
بِقَلَمِ الْاَسْتَاذِ عَمْدِ الْاَلْفِيفَةِ النَّشَارِ

الفصل السادس والخمسون

مطامع مد ناداه

عرفت لما زادت صلاتي بملا نادان أنه شديد الجشع كبير المطامع وأن غرضه الأول هو أن يصبح شيخ العلماء في العاصمة الفارسية وأنه لم يترك وسيلة لتحقيق هذه الناية إلا اتبعها . وكان من وظائفه المتعددة التدريس في المدرسة الملكية . وكان يكثر من الدسائس والايقاع بين خاصة الشاه سراً ويتولى في الجهر حل ما بينهم من الخلاف ليشتهر بالكياسة والحزم . وكان في الأعياد والمواسم التي يجتمع فيها العلماء عند الشاه يقدم نفسه على سائر إخوانه بالظهور في الصف الأول ويرفع صوته المنكر في الدعاء لجلالته ويتكلم بالنبأ عنهم انقضى فصل الشتاء وبدأت باكورة الربيع وجاءت الأخبار بأن الأمطار كانت قليلة في جنوب إيران وأنها مهددة بالجماعة، فأمر الشاه بأقامة الصلاة العامة وتولى شيخ العلماء تنفيذ هذا الأمر فلم تفت الملا نادان هذه الفرصة لينتفع منها . وكان لا يجهل النفوذ الذي استفاده بين الشعب فأرسل دعوة إلى العامة من أهل المدينة ليتبعوه إلى مكان خال في الضواحي حيث يقيم صلاة عامة . ووصل خبر هذه الدعوة إلى الشاه فأمر كل أهل المدينة باتباعه فكان ذلك نصراً مبيناً له . وفي اليوم الذي تمهد لهذه الصلاة خرج كل من

في طهران سواء منهم المسلمون والنصارى واليهود وأقيمت الصلاة ولم ينزل المطر . ولكن الملا نادان لم ييأس بل وقف بين الناس خطيباً فقال : « أليس أمامنا شيء نعلمه يا أهل إيران لكشف البلاء عن الأرض المصاية بالجذب ؟ لقد ظهر مثل ظهور الشمس أن الله غاضب علينا لأن فينا من استنزلت خطاياهم نقمة الله علينا ، وهؤلاء هم الكفرة الذين يستقيحون شرب الخمر جهرة ويرتكبون المنكرات في كل مكان ، فلنذهب إلى حاناتهم ولنحطم كؤوسهم وقنانهم لعلنا ننال بذلك رضى الله » عند ذلك ثارت في الناس حمية الدين ووضع الملا نادان نفسه على رأس الجوع ومشوا إلى الحى الأرمنى في المدينة . فلما رأى أهل هذه الجوع الناضبة لم يعرفوا ماذا يفعلون فبعضهم أوصد الباب دونه والبعض هرب والبعض تجمد في مكانه . ولكن الجميع أدركوا نية المقبلين . وبعد قليل تحول المنظر إلى مذبحه عامة

ودخل الملا نادان يتبعه الأشداء من رجاله بيوت الزعماء من الأرمن فأخذ يبحث مجدداً عن الخمر ولما كان الأرمن كالمسلمين يحبون نساءهم قاتل أترك خيال القاري تصور الحالة التي نشأت عن دخول هذه الجوع الهائجة للمنازل وتكسيرها أبواب النساء وتفتيشهن خوفاً من أن تكون بعض زجاجات الخمر مخبوءة في ثيابهن

ووجدت هذه الجوع ما لم تكن تنتظره ، وما هو عندهم شر من الخمر ، وهو الكتب المقدسة والصليبان وصور المسيح والمذراء معلقة

على الحوائط فأخذوا يحطمون ما تصل أيديهم إليه ، وقويت في نفوسهم شهوة التخطيم فلم يتركوا شيئاً من الأثاث والرياش . ولو استمروا على ذلك مدة لحطموا المنازل كلها أو أحرقوها ولما تركوا أرضياً على قيد الحياة

ولكن رسولاً من قبل الشاه حضر في هذه الأثناء مع رئيس من رؤساء الأرمن فأبلغ الجمهور أن جلالة غاضب وأنه يأمر الجوع بأن تعود إلى رشدتها فتراجعت الجوع ولا تسل عن شعور الملا نادان في هذه الساعة فقد نظر إلى الجمهور ثم إلى نظرات لعله لم ينظر مثلها رجل ذو حية في العالم كله لأنها كانت دالة على الطفولة والبلاهة ، ثم أمره رسول الملك بأن يذهب معه إلى جلالة . وصاح بصوت يشبه للبكاء : « وما الذي فعلته بحق رسول الله ؟ أليس أعداء الدين جديرين بأن تظهر منهم المدينة ؟ »

ذهبنا إلى قصر الشاه فوجدنا رئيس الوزراء والملا باشي ينتظراننا في غرفة رئيس الجلادين وقال رئيس الوزراء للملا نادان : « ماذا فعلت يا ملا ؟ هل جنت ؟ هل نسيت أن في طهران ملكاً له ولاية الأمر ؟ »

ثم أشار إلى رئيس الجلادين وقال : « خذما إلى الشاه فانه ينتظرهما » . فقادنا ونحن إلى الموت أقرب منا إلى الحياة فثقلنا بين يدي جلالة وكان يقتل شاربيه كمادته عند ما يشتد غضبه

وطأ طأ رئيس الجلادين حتى كادت رأسه تصل إلى الأرض وقال مشيراً إلى الملا ثم إلى : « هذا هو الملا نادان وهذا خادمه »

فنظر الشاه إلى الملا وقال : « من أي عهد

أخذت على عاتقك أن تقتل رعييتي ؟ من الذي منحك هذه السلطة ؟ هل صرت نبياً ؟ هل تريد أن تكون ملكاً ؟ قل لي ما الذي فعلته ؟ »

وجم هذا الثرثار الذي لم تكن تفوز به إلا لفاظ كلاً أراد أن يتكلم ، ثم تهم بكلمات تافهة عن الكفار وعن شرب الخمر وعن نزول الأمطار . وكان في خلال هذه المدة مفقود الحركة كأنه تمثال

فقال للشاه الملا باشي : « أفهمت شيئاً مما يقول ؟ خبرني ما الذي يعنيه إن كنت قد فهمت ؟ » فقال الملا باشي : « جملني الله فداك يا جلالة الشاه ، إنه يقول إنه أراد الخير لرعييتك التي منع عنها الله المطر بسبب الخمر التي يشربها الكفار في طهران » فقال الشاه : « إذن فأنت تقتل جزءاً من الرعية لتصلح جزءاً منها يا ملا نادان . وهل أنت قد حلت محلي في هذه العاصمة التي تريد إصلاحها ؟ أي حلم هذا الذي كنت تحلم به ؟ »

ثم رفع رأسه متادياً جنوده : « تعالوا هنا فزقوا عمامة هذا الملا وجيته وانتفوا لحيته واربطوا يديه خلف ظهره وأركبوه حماراً جاعلين ظهره إلى رأس الحمار ، وصروا به في أسواق المدينة ثم اطرده منها . وليكن معه تلميذه هذا » وأشار إلى . فخدمت الله لأن الشاه لم يعرف أنني صاحب زينب ، وكان حظي أحسن من حظ أستاذي لأن لحيتي بقيت لي وبقي لي احتراي

أما لحية الملا فانها تنفت كما ينتف الطباخ رأس الدجاجة ثم صفعوه وأركبوه أقدر حمار رأوه في الطريق ومشوا به الهويني ، وكنت أمشي وراءه ، ولما وصلنا إلى باب من أبواب المدينة أنزلوا الملا الكبير الطامع عن ظهر حماره وطرده وطرهوني معه وكان

المطر لم يكن ممنوعاً إلا ريثما يحمل هذا المقاب بوغدين
من شر أوغاد المدينة فما كدنا نخرج من بابها حتى
هطل وسقى البرزة من أهلها كما سقى الأرمنيين

الفصل السابع والخمسون

هاجى بابا بنهر بأعجوبة

قلت لصاحبي لما لم يبق معنا أحد غيرنا : « إني
مدين لك بهذه السمادة يا ملا نادان، ولو كنت أعلم
أن هذه هي نتيجة التوصية التي أخذتها من ميرزا
أبي القاسم لما كنت أسى إلى التشرف برؤية وجهك
ما الذي كان يضرك لو لم تنزل الأمطار ، وما الذي
كان يعينك إن شرب الأرمنيون الخمر أولم يشربوها »
ثم رأيت حالة الملا محزنة لا تسمح بأن أزيد في
تمنيغه فسكت . ومشينا وكلانا صامت إلى أقرب
قرية هرجنا عليها فاسترحنا في خان هناك . ولما
تحدثنا عرف كلانا أننا لن نستريح حتى نعرف ماذا
كان من أمر ممتلكاتنا في المدينة فقد كان له عقار
ومنفول ونساء ، وكانت لي ثياب وبغلة ومال .
واتفق رأينا على أن أعود إلى طهران. فدخلتها في
المساء وذهبت تواء إلى بيت الملا فدلتنى أول نظرة
إليه على أنه لم تعد به بقية تصلح أن تقتنى

وكان أول إنسان رأيته في المنزل هو رسول
الشاء الذي استدعانا إلى القصر . وكان هذا الرسول
في هذا الوقت يخرج من المنزل ويركب بغلتي ويسير
بها وعليها ثيابي ومالي

ملاً هذا المنظر قلبي حزناً وكنت شديد الخوف
من أن يستكشف أمرى إنسان فأمرعت بالدهاب
وأنا لا أعرف إلى أين تقودني رجلاي ولم أزل أسير
على غير هدى حتى وجدت نفسي أمام حمام فدخلت

دون أن يراني أحد لأن المكان كان مظلماً ورأيت
أن الحظ قد ودعنى في هذه المرة الوداع الأخير ،
واستعدت في ذاكرتي حياتي الماضية فقلت : إني
ما كدت أذوق لذة الحب حتى صار الملك منافساً لي ،
وما كدت أسلو الحب حتى قتل الملك حبيبتى وطردنى
من وظيفتى . وما كدت أرث حتى اتضح أن مورثى
لم يترك ثروة . وما كدت ألقا إلى رجل كبير من
العلماء لأحتجى عنده حتى طردت وإياه من المدينة
وكنت أعتقد أن الحمام خال في هذا الوقت ،
ولكن لسوء حظى وجدت رجلاً يسير فيه على
مقربة منى وكان لا يزال في الحمام بصيص من النور
يتخلل الزجاج الملون ، فعرفت أن هذا الرجل هو
الملا باشى نفسه

مر ولم يلتفت إلى فحمدت الله ودخل أمانى
المنطس الساخن، وبعد دقائق سمعت وقوع جسم في
الماء ، فشيت على أطراف الأنامل حتى دخلت إلى
المنطس فوجدت الملا باشى غريقاً فيه . وأيقنت
بالهلاك لأننى سأتهم ولا محالة بأننى قاتله فالتاس كلهم
يعرفون أننى تلميذ الملا نادان ويعرفون أنه أشد
خصومه خصوصاً بعد نكبته

وكنت في هذه اللحظة عارياً لأننى لما رأيت
الملا باشى يدخل المنطس خلعت ثيابى ودخلت منطساً
آخر ، وقبل أن أعود لأتم الاستحمام أو لألبس
ثيابى جاء تابع من أتباع الملا باشى وحسبني سيده
فأخذ يدلك جسمى ؛ ولما كانت قامتى كقامة الملا باشى
وكان تابعه ضئيف البصر فانه لم يميزنى . ولما انتهى
الاستحمام لبست ثياب شيخ العلماء وتصنعت مشيته
ومشيت مع التابع إلى منزله . وكان من أصعب
الأشياء أن أستمّر في التمثيل إلى نهايته لأنه من

على من يظل من زجاج النافذة الملون أن يدرك أنني
لست بالملا باشي

ولما انتهيت من ذلك خطر لي أنه قد يمكن الوصول
إلى أمور أخرى غير ما كنت أظن أولاً وعزمت على
أن أبحث في جيوب الرجل وأخص الأوراق التي
في حزامه فربما وجدت ما أستفيد به في حياتي المقبلة.
وقد وجدت في الجيب الأيمن خطاين ومسبحة
وأختاماً ، وفي الجيب الأيسر دواة ومراة صغيرة
ومشطاً . وأما ساعته فكانت محفوظة مع كيس نقود
في جيب صغير تحت الابط الأيمن وبدأت بحثي في
كيس النقود فوجدت به خمس قطع ذهبية وقطعتين
فضيتين ، وكانت الساعة من الذهب ، وأما الدواة فكانت
منقوشة نقشاً بديماً ووجدت بها مبرة وأقلاماً
ومقصاً

نظرت إلى هذه الأشياء وغيرها نظرة المالك
لأنني عزمت على أن أسير في طريق إلى النهاية وبذلك
وضعت كل شيء منها في مكانه ثم بدأت أخص الخطاين
فوجدت أحدهما من غير توقيع وفيه ما يلي :

أخي العزيز
(وهنا قلت لنفسي هذا الخطاب من أحد
الأصدقاء) ، ثم قرأت « إنكم تملكون شدة احترامى
للكوكب المتألق في جبين الدهر وظل نبينا الكريم ،
وكل الذي أرى إليه أن يزداد حبي ويقوى على ضرا
الأيام . لقد أرسلت إليكم ست بطيخات انتقيتها
من بطيخ أصفهان مما لا يوجد نظيره كل يوم . وأرجوكم
أن تأذنوا لي بشرب النبيذ لأن الأطباء أكدوا لي
أنني إن لم أشربه فلن أقوى على مقاتلة أعداء الدين
واستئصال شائقيهم »

قلت في نفسي : « هذا ولا ريب من رئيس

الحتم أن يعرف السيدات أنني لست إياه ، وكنت
قد عرفت أنه قليل الكلام وأن بينه وبين زوجته
شجاراً مستمراً لأنه شديد الغيرة

وكنت قد ألزمت نفسي الصمت منذ وجدت
نفسي مضطراً إلى الظهور بمظهره . ودخلت المنزل
مجازفاً مستعداً للقاء أسوأ النتائج ؛ وكان أول شيء
حدث عند دخولي الباب أن تقدمني البواب فصاح
بالأرقاء في داخل المنزل أن يحضروا للنور فأحضروه
عبدان ومشيت فسمعت أصوات النساء ، ثم أضيئت
غرفة استطعت أن أرى من نافذتها سيدتين وخشيت
أن يقودني العبدان إليها . ولكن حسن حظي
واعتياد الخدم معرفة الحالة التي كان عليها شيخ
العلماء عند ما يخاصم زوجته قد حمل العبدان
عندما رأيتني منصرفاً عن دخول هذه الغرفة — إلى
المدول عنها إلى الخلوحة حمدت الله وانتظرت أن
يقودني حسن الحظ إلى الشخص من العبدان دون
أن أعرف . وكأنا إلى هذه اللحظة يسيران أمامي ،
فأخذت الشمعة من أحدهما وأشرت إلى الآخر
بيدي أن يذهب ، فذهب بشمعة وبقى الآخر في الظلام
وذهب العبدان متزحجين

وكنت إذ ذاك كالملق بين السماء والأرض
أفكر في حثلي الذي ساعدني على ارتكاب أوقع
حالة من حالات التنكر فأمر كل السرور وأفكر
لحظة أخرى في مصيري بمد أن خطوت هذه
الخطوة فأحزن كل الحزن

الفصل الثامن والخمسون

تقية الحادثة السالفة

ولما انفردت في الخلوحة أسرع إلى بابها فأوصدته
ووضعت المصباح في ركن بعيد فأصبح من المستحيل

خدمات وهي أن تمرني جواداً لأمر يدعو إلى المسجلة
وسأرده كما أخذته حين تنتهي حاجتي إليه «
ووقعت هذا الخطاب بخاتم «الرحوم» وعزمت
على أن أذهب به بنفسى في الصباح التالي . ورددت
على الخطاب الأول بما يلي :

عزيزى عبد الكريم

تسلمنا خطابك واطلعنا على ما تضمنته، وبحمل
إليك ردنا هذا من تلقى به وهو حاجى بابا فاعطه
ما عندك من نقود . أما الأمور الأخرى فسنكتب
إليك عنها قريباً . وفى أثناء ذلك استمر على ما أنت
فيه من أعمال السوط فى ظهور الطغاة أمانك الله «
وبعد أن انتهيت من كتابة ما تقدم انتظرت
إلى وقت مناسب لأهرب من المكان الذى كنت
فى شدة الخوف من أن يعرفنى أحد فيه فينتهى
أمرى إلى نهاية مزهجة . وبعد منتصف الليل كنت
أستعد للخروج من الخلوة فى سكون تام فشمرت
بأن يداً تهز الباب ؛ ولست أستطيع وصف ما نالنى
من رعب فإن ذلك فوق مقدورى .

توقعت أن أرى على الأقل « الداروجا » كبير
الشرطة مع ضباطه يدخلون ويستقلونى وانتظرت
النتيجة فى وجل غير أنى سمعت صوتاً نسائياً يهمس
بالفاظ حال ارتباكى دون فهمها .

ومهما يكن الفرض من تلك الزيادة فما كان
عندى غير جواب واحد وهو زارة شديدة تدل
على أن المقيم فى الخلوة لا يقبل بحال من الأحوال
أن تعلق راحته ؛ ولبثت زمناً حتى كان الصمت
والسكون قد شملا الدار فتسللت فى هدأة إلى الباب
الخارجى وفتحته بسهولة وجريت فى الخلاء ونجيت
الفرص المناسبة للسير فى الطريق متجنباً رؤية الشرطة

الجلادين إذ من غيره فى إيران يستطيع أن يهرب فى
هذه الكلمات القليلة عن تعلقه وعن عشقه للخمر
وعن خيالاته ؟ سأستفيد من هذا الخطاب فلا أنظر
فى الكتاب الآخر «

ثم فتحت الخطاب الثانى وقرأت فيه ما يلى :-
سيدى وأستاذى

إن العبد الخاضع الذى يميل لنصرة الحق
يتشرف بأن يخبركم أنه بعد جهاد طويل استطاع
أن يجمع من فلاحى الضيعة مائة طومان غير الخمسين
حاملين الغلال، وأن الرجل المسعى حسين على لم يستطع
أو لم يرض أن يدفع شيئاً رغم جلدته مرتين . وعلى
ذلك أخذت بقرنيه حتى يجهد نفسه ما استطاع
فلو أرسلتم أحد الأتباع إلى خادمكم سلمت إليه مائة
الطومان «

ثم انتهى الخطاب بالألفاظ المتادة من وضع
إلى سيد رفيع ، وكان موقفاً بخاتم صغير منقوش
عليه « عبد الكريم » وهو اسم كاتب الخطاب
قلت لنفسى : « هل يسعدنى الحظ فأجد
عبد الكريم وأعرف مكان للضيعة التى كتب منها
هذا الخطاب ؟ »

تركت هذا الأمر قليلاً لأفكر فيما يمكن أن أصنع
بخطاب النازا كشى باشى . وبعد تفكير قليل كتبت
هذا الخطاب :

« أخى :
تلقينا كتابك وفهمنا ما به ولا يشك أحد فيما
يجب عمله ضناً بصحتك وأنت حاضى الاسلام وسيف
الله قاترب ما أردت من النبذ وقاتل أعداء الدين
نصرك الله عليهم وليجزل الله لك الثواب
واسمح بتقديم خدمة أخرى غير ما قدمت من

وأخذ نور الفجر يظهر وبدأت الحوائط تفتح أبوابها ، فاجتهدت وأنا أسير بملابس الملا باشى ألا تبدو منى بادرة ثم عن حقيقتى أو تدعو إلى الشك فى أمرى . وتم لى ما أردت بنفقة قليلة فى حانوت ملابس قديمة . وقد حاذرت أن أخرج بشيء من الأشياء الثمينة التى وقعت فى يدي

وقصدت بمد ذلك إلى دار النازا كشى باشى وقدمت خطابى إلى خادم أجهله قائلاً له : إن الملا باشى يطلب جواداً سريعاً لأنه يريد مغادرة المدينة فى عمل هام . ومن حسن حظي أخبرت أن صاحب الدار فى مسكن الحرم وأنه سيرسل رده كتابة . ولكنه أمر فى نفس الوقت بإحضار جواد من جواده إلى ولقد سررت من رؤية الجواد الأعظم وهم يخرجونه من مربطه وعليه سرج موشى بالذهب وفى عنقه سلسلة ذهبية . وكانت تمرؤنى رعشة من الفرح كلما تصورت أن كل ما أراه سيصير ملكاً لى . ولكن كان يربى أن سعادة كهذه يستحيل أن تستمر طويلاً

وتعلمنى الخوف من استكشاف أمرى إذا تأخرت فأمرعت إلى خارج المدينة على ظهر الجواد . وفى زمن يسير تجاوزت أبوابها وابتعدت فى الخلووات ولم أزل أسير إلى الأمام دون أن أقف أو أنظر إلى الخلف حتى وجدت نفسى بين الوهاد التى خلفها مجرى نهر الكرج . وهناك ترجلت لأستريح

تذكرت أنى سمعت أن ضيعة الملا باشى تقع على طريق همدان فوليت وجهى إلى تلك الناحية . ولكن الحق أقول إننى حين وقفت لأستريح شعرت بالرهبة تدب فى نفسى من ذلك الانقلاب المريب

الذى طرأ على حتى لقد شعرت بما يشعر به المظل من حافة الهاوية يدفعه دافع مبهم إلى إلقاء نفسه فيها . وبصعوبة شديدة استطعت أن أمنع نفسي من الرجوع وتقديم نفسى إلى القضاء وقلت فى نفسى : « لست إلا لصاً لا أكثر ولا أقل ، ولو قبض على لمزق جسمى على آلة التمثيب ولكن من الذى سبب هذا ؟ »

الحق أنى لست الملولم إذا كان القدر أراد بى هذه الحالة . لأننى لم أسع إلى قتل الملا باشى ولكنه إذا كان قد قدر عليه أن يتلفظ للنفس الأخير أمانى وإذا كنت أنا — أردت أم لم أرد — سأتحمل عاقبة موته فان من الواضح الجلى أن القدر أراد أن أمثله وأقوم مقامه . وبما دمت محققاً فى كل ما أعمل فى دورى هذا فان ملابس الملا باشى تعد ملابسى ودراهمه دراهمى . وكل ما كتبت باسمه حق وعدل » وقد أنعمتني هذه النتائج فركبت جوادي وتقدمت إلى أقرب قرية لأستعلم عن ضيعة شيخ العلماء وعما إذا كان يقطن فى تلك الأنحاء رجل اسمه عبد الكريم

وكأنما كانت العناية تلحظني والحظ يلزمنى ، فأننى وجدت أن القرية للتالية ، والتى لا تبعد إلا مسافة قصيرة هى مقصدي ، وأن عبد الكريم هو شيخ فيها يقوم لسيدته القليل بجباية المال وجمع المحصول .

قلت فى نفسى : « إنه شيخ ، إذن يجب أن أغير أسلوب الخطاب وأن أخاطبه بما يستحق من الألقاب »

وسرعان ما جلست على الأرض وأخرجت الدواة من جيبى وأخذت قطعة من الورق الذى فى

فأجيبته وقد كدت أن أختنق من سؤاله :
« كلا فاني لست من أتباعه ولكنني تابع لرئيس
الجلادين . ويظهر على ما أعتقد أن بينه وبين الملباشي
بعض الأعمال المألوفة » وبذلك أخذت كل شبهة
في ضمير مضيق ، وقضيت على كل ظن جال مخيلته .
وكان لكل من الجواد والسرحد والذهب واللجام
المنقوش اللامع أثره في توكيد قولي . وبعد أن تسلمت
مائة للطومان ووضعتها في صدري امتطيت الجواد
وتظاهرت بالرجوع إلى المدينة وأنا أكاد أطير
سروراً ؛ غير أنني بعد أن غبت عن النظر أدبرت رأس
الجواد إلى الخلاء وجعلت أنحس جنبه راكناً دون
أن أقف حتى تصيب الزبد الأبيض على جسم الجواد
وتساقط للمرق عن جبينه

صممت على الذهاب إلى كرمانشاه وهناك أبيع
الجواد والسرحد واللجام وأواصل سيرى إلى بغداد
فأكون هادئاً مطمئناً .

وبعد أن سرت نحو خمسة فراسخ من طريق
رأيت شخصاً غريباً يسير أمامي بخطى سريعة رافعاً
صوته بالغناء . وكان يلبس ثوباً خفيفاً وعلى رأسه
عمامة وقد لف ذقنه بمنديل ، وفي قدميه خف ،
ولم يكن يبدو عليه أنه من قطاع الطريق . ولما اقتربت
منه ظننت أنني رأيته من قبل . وكان الرجل طويلاً
معتدل القامة عريض الكتفين نحيفاً . ولقد حسبته
لولا غناؤه اللامع ، إذ لم يخطر ببالي قط أن رجلاً له
ما للملا من الوفاق يمكن أن يحط من قدر نفسه
بذلك الغناء . ودنوت منه رويداً رويداً حتى رأيته
عن كثب ولم يكن قد رأى بعد فعرفت أنه هو بنير
شك . ووقفت جوادي لأندب فيما إذا كان حسناً
أن أريه نفسي . وكان من القسوة أن أنخطئه ولكنني

حزاني وكتبت الخطاب كما أريد من جديد . ثم
تقدمت في مهمتي مصمماً على اختيار أقرب الطرق
إلى الاستيلاء على مائة الطومان

الفصل التاسع والخمسون

مباشرة ما جرى يا بيا ، مائة المار ناداه وأعماله

أخذت أظهر بمظهر يليق بشكل الجواد الذي
امتطيته حين وصلت إلى « سيراباد » وهذا هو اسم
القرية التي ذكرتها . ودخلتها وعلى مظاهر السلطة
والجاء حتى كان الفلاحون يحنون رؤوسهم في خشية
وخضوع إذا رأوني

وحين ترجلت أعطيت زمام الجواد لأحد
الوقوف وقلت : « ابن عبد الكريم ؟ »

وفي لحظة أخذ كل واحد من الموجودين يجري
للبحث عنه إلى أن جاء ، فقلت بعد السلام المعتاد :
« لقد حضرت من قبل الملباشي لأمر لا ينبغي
عن فهمك »

ثم سلمته الخطاب . وكان لعبد الكريم عين
شرداء لم يعجبني شكلها خصوصاً وقد ظل طوال
الوقت يرمقني بلحظ منها

وتنفست الصعداء حين قرأ الخطاب وقال لي :
« إن المال موجود ولكن يجب أن تأخذ راحتك .
تفضل بالدخول »

تظاهرت بشدة الاستعجال ولم أرد أن أبقى
معرضاً لعينيه اللزابتين ، غير أنني قبلت أن أتناول
بعض الفاكهة واللبن مخافة أن أثير شبهة

قال لي وكنت قد فتحت فمي لأتناول قطعة من
البطيخ : « إنني لا أذكر أنني رأيتك في دار الأستاذ
مع أنني أعرف كل فرد من أتباعه معرفة تامة »

من جهة أخرى رأيت أنني إذا أريته نفسي اضطرت
إلى مرافقة من لا رغبة لي في مرافقته . ولو عرفني
ورآني أتجنبه فمن المحتمل أن يتهمني بسرقة أمواله
في طهران . ولئن نجوت منه الآن فاني سأظل أخافه
كما لو كان بيننا عداوة .

وكنا نقرب من قرية يجب أن نبني فيها فلم
أجد بداً من التسليم لأن جوادى كان في حاجة
إلى العناية والراحة إذ لا يزال أمامه مسافات طويلة
يقطعها، فلم يكن في الاستطاعة أن أحمله فوق طاقتي
واخترت أصراً وسطاً فقلت إن عرفني الملا نادان
كلنه وإن لم يعرفني تجاهلته . وأسرعت فلما قاربته
للتفت ونظر إلى من الفرع إلى القدم فلم يظهر عليه
أنه عرفني ، بل لعله خاف أن أكون قاطع طريق
فتوسل إلى أن أرحمه ولم أستطع أن أقاوم شمورى
إزاء هذا الاسترحام فانتظرت فترة لعله يقول كلمة
أخرى ولكنه ظل صامتا ، واشتدت علام خوفه
فأخذت أضحك ضحكا عالياً لم يكن له مبرر إذ لا يصلح
الضحك جواباً على اللقائ

دهش الملا نادان وتحير في أمرى غير أنه حين
بدأت أتكلم زال كل شك عنده وأسرع إلى فرحا
مسروراً وقال : « أهذا أنت يا حاجى بابا ؟ من
أى سماء هبطت ؟ ما هذا الزى البديع وما هذا الجواد
للكرام وما هذا الذهب وهذه الخلى ؟ هل صاحبت
الجن أو هام بك الحظ أم اختارك السم ؟ »

ظلت أضحك مسروراً بهذه الثموت وظل يقول :
« كيف استطعت بهذه السرعة أن تستبدل بيفك
هذا الجواد ؟ ألا تعرف ماذا فعلوا بممتلكاتى ؟
ألم تستبق لي حمارى على الأقل ؟ لقد أنهكتني السير
على الأقدام . حدثنى ! قل كل شيء بحق النبي »

وهنا لاحظت أنني إن لم أقل له ما يهدي من روعه
فقد يتهمني بالاستيلاء على ممتلكاته وتبديدها حتى
ظهرت بهذا المظهر الأنيق الذى أثار دهشته فوعده
بأن أقص عليه كل شيء ، ولكنى رجوته ألا يدع
في نفسه سبيلاً إلى الشك لأن ما سأقوله له قد يبلغ
من الغرابة ما يجعله يظن أنني اختلقته لأرويه فقط .
ووصلنا إلى القرية وأخذنا مضاجعتنا في الخان ولما
كان كل من له مثل مالى من المظهر الوجيه لا يلبث
أن يستلفت شكله الأنظار فقد وقف في خدمتى
صاحب الخان، وأعد لنا عشاء طيباً . وفي هذه الأثناء
قصص حوادثي على رفيقى ولم أخف عنه شيئاً من
دقائقها ، وقد كاد يذهب السرور والانشراح بعقله
حين علم أنني ابتعت أبهى ووجاهتى على نفقة عدوه
للقديم الملا باشى

جلسنا تتجاذب أطراف الحديث بملء الثقة
والانشراح ، والبائسون يسرهم ويخفف عنهم تبادل
الأحاديث ، وقد لاحظت لأول مرة أنني لم أكن قد
عرفت من كنهه صاحبي ما كنت أخال أنني أعرفه .
وقلت : « لاشك أنه كان في مظهرك ما خدعنى مدة
وجودي معك ، إذ كيف يمكن لرزين متكبر أن يكون
لطيفاً أنيساً كما أنت اليوم ؟ » فأجابنى : إيه يا حاجى
بابا ! الدهر قلب والأيام لا تدوم وإن حياتى ليست
على وتيرة واحدة بل هى فى انخفاضها وارتفاعها
تشبه تلك الأكرالتى يلعب بها المشموزون فى أسواقنا
فى عيد النيروز والى تظل ساعة هابطة بين السماء
وبين الأرض . وإننى لسوء حظى لست واحداً من
أولئك الذين يسرون على قاعدة : « لا تفرش بساطك
على أرض مبتلة »

قلت له : « قص على إذن حوادث حياتك ،

المنافقين من يهود ونصارى ووثنيين يبدون النار
والأصنام — كل هؤلاء شملهم كرهنا وأصبحت
تلك الماطقة التي كانت يدعيها في سبيل شهرته
وأطاعه شعوراً قوياً ثابتاً لا يقوى عليه أى شعور
أو إحساس . وقد شبت عائلته وأنا بينها على عقيدة
وتشربت مبداء حتى تغفل في نفسها وسرى في
عروقها .

وقد تغافلتنا في هذا المبدأ حتى صرنا حرباً على
الكافرين وأصبحنا من دعاة الشيعة ورافى لوائها .
وإذا علمت ذلك لم يدهشك الدور الذى لعبته في
تحطيم دنان التبليد الأرمنية في طهران . وليست
هذه الورطة هى الوحيدة فيما جرنى إليه دفاعى عن
الشيعة وغيرتى عليها . فقد أذكر أنى كنت طالباً
صغيراً في ممدان من مدة طويلة وأحدثت هياجاً
شديداً ، وذلك لأن مبعوثاً من قبل والى بغداد
وكان يسير مع أتباعه في طرقات مدينتنا بعد أن قام
بها نحو ثلاثة أيام وكان يقصد مجلس الشاه . وكنت
متعصباً لمبادئ والدى وتعاليمه توافاً إلى تطبيقها
عملياً ، فجمعت عصابة من الشباب المتحمس وجمعت
أخطبهم حتى أوقدت كامن شعورهم وحركت
حماسهم . وصممنا على إقامة احتفال يليق بمبادئنا
وعزمننا على مهاجمة ضيوفنا الأتراك وعلى مضارحتهم
بحقدنا على عمر ولعناتنا له ، ثم ندعومهم إلى مشاركتنا
في عقيدتنا الملوثة

ولم تكن نرى ذلك البموت سليان افندى
إلا عدواً للشيعة وشخصاً سنياً دون أن نفكر فيما
يجب للمبعوثين من احترام

ففى يوم من الأيام كان سليان افندى خارجاً
(٧)

فليس أحسن من القصص فى إضفاء الوقت وأرجو
أن تكون قد عرفت حقيقته الآن فلا تبخل على
بثقتك »

فأجابني : « إن تسمع من تاريخ حياتى إلا ما هو
عادى مألوف فى حياة كثير من الأتاجم الذين يصبحون
وهم أمراء ويمسون وهم صهاليك ، ولكن مادمت راغباً
فى معرفة ذلك للتاريخ فسأقصه عليك »

ثم بدأ يروى ما يأتى :

« أنا من أهالى ممدان وقد كان والدى شيخاً
عظيماً ذا سمعة وفضل حتى لقد أملى أن يكون مجتهد
إيران ، ولكن منافسيه وغالفيه فى بعض المعتقدات
خبيوا لسوء الحظ أطاعه وفوتوا عليه غرضه فألقوا
حزباً ضده سلبه ما كان يسمي إليه من رفعة ورقى .
وكان أظهر مافى طباع أبى كرهه للعثمانيين والسنين
على وجه العموم . ولقد قيل إن أحد أجدادى أوجد
الكراهية والحقد على السنين بشكل لم يكن معروفاً
قبله ببذعة بسيطة أحدثها فى تلقين أطفال الشيعة ،
فشب هؤلاء العصبية وأول ما يشمرون به كره
المعمرين »

وهنا قال لى الملا نادان مفسراً تلك البذعة :
« أنت تذكر بلا شك أن الطفل فى حال تعلمه إذا
أراد من أستاذه قضاء أمر شفع رجاءه بلعنة عمر .
وتذكر أنك لم تدس طول أيامك كما لم أنس أن تقرر
اسم عمر بكل خبيث من الأشياء وأنت قد كررت
هذه اللعنة التى تلقيتها أيام صغرك مرة على الأقل
فى كل يوم »

وقد صادقت على قوله فأخذ يقول :

« وقد امتد كره أبى لأتباع عمر حتى عم جميع

من داره لزيارة حاكم همدان فجمعنا أنفسنا وحييناه
بضيحاتنا العالية : « لعنة الله على عمر » فأغضبت
هذه النداءات أتباعه وقابلوها بالضرب فانهال قذف
الأحجار من أتباعي وانقلب الأمر إلى معركة هائلة.
وقد أُلقيت عمامة مبعوث الباشا عن رأسه وبُصق
على لحيتيه وشرقت ملابسه من الخلف . وإن هياجاً
كهذا لا يمكن أن يمر بسلام ، فقد كان المبعوث
يتحرق من الغضب وأخذ يهدد بإرسال الرسل إلى
الشاه . وكان على وشك الرجوع إلى سيده لولا أن
حاكم البلدة خاف عاقبة غضبه وأراد تسكين ثأرته
فوعده بالترضية التامة وبأن يقدم مثيري ذلك الهياج
إليه في أقرب وقت »

ولقد هزأت في أول الأمر من وعيد الأتراك
وتهديدهم معتمداً على مالوالدي من السكاة في المدينة
وجعلت أسمع بأنني كبيراً ، ولكن الحاكم كان يتوقع
الطرد من وظيفته إذا باغ الخبر إلى طهران . ولم يكن
بهمه أن يكون علي عليه السلام خليفة لرسول الله
صلى الله عليه وسلم أو يكون الخليفة أباً بكر أو عمر
أو عثمان فأمر بالقبض على علي وعلى اثنين من رفاق
وحملوا بنا أمام الأتراك الحائقين

وإن نسيت فلن أنسى ما كان يحول بنفسى من
المخاطر والمؤثرات حينما أصبحت وجهاً لوجه أمام
هؤلاء الذين ينفي صدري بالحق والموجدة عليهم ، ولم
يكن علي كل حال وقع الشياطين التي أخذوا يعذبونني
بها ولكنني تأوت وتألّت وكاد صدري يتفجر من
الغيظ والاحتقار

كان هؤلاء العثمانيون على أتم الاستعداد لاجابتنا

على كرهنا بكرم وسخاء ولم يدعوا الفرصة تمردون
أن يظهروا لنا هذه الماطفة . لكن ذلك لم يمنع أني
جلدت وأصحابي حتى ورمت قدماي ، وكان عزائونا
الوحيد أن عاطفة الكره كانت تزداد وتتقد في صدورنا
وبذلك رضى الرجل التركي وأطلق سراحنا . وقد أخذت
هذه الحادثة حيتي بضعة أعوام بالرغم من أن تعاليم
أبي كانت لا تزال تنمو بنفسى

فلما بلغت الخامسة والعشرين وظهرت لي لحية
جميلة ذهبت إلى أصفهان راغباً في تهذيب نقسى
ورياضتها بمصاحبة العلماء ، ولكي أزيد على المجادلة
والمنظرة . وقد تحقق معظم رغائبي في أصفهان ونلت
شهرة وصيتاً لا بأس بهما ولم يكن ينقصني غير فرصة
واحدة توجهنى وجهة خاصة . ولم تلبث الفرصة
أن حانت كما يظهر مما يلي :

« أقام الفرنجة في أصفهان من زمن غير بعيد
دوراً للتجارة ؛ وقد كان الشاه يحميمهم ويقدم لهم
المساعدات فأباح لهم العبادة ، وإقامة الكنائس
وإحضار القسس لها . وأشد من ذلك وأدعى لهدم
الدين أنه سمح لهم بدق الأجراس دعوة للصلاة .
وكان لهؤلاء الفرنجة رئيس عظيم كاخليفة عندنا
يلقبونه بالبابا . ومن وظيفة هذا البابا نشر الدعوة
الدينية في أنحاء السكونة . ولذلك أقام بعض
« دراويشه » وقسمه في أصفهان نفسها وفي « جولفا »
بين الأرمنيين ، وبني أديرة . وقد هجرت معظم
الأديرة وأهملت بفضل ما أيد بناء من الكراهية لها ،
غير أن واحداً منها وظيفته بعث التعاليم المسيحية
ظل قائماً فأخذت على عاتق مع بعض المشايخ

المتحمسين أن تقوم بتخريبه غير مباليين بأراء الحكومة التي كانت ترحب بالمسيحيين لمسلمهم على زيادة ثروة البلاد بمتاجهم . وقد خدم ذلك الدير درويشان كان أحدهما ذا خبرة واسعة بالعالم داهية لا يقاس به إبليس في مكره وخبئه .

وكان طويل القامة نحيفاً قوى البنية حسن الهندام له عينان تبرقان بريقاً مجيياً وصوت يشبه صوت الرعد لا تقوته فرصة في مناقشة أعظم علمائنا وأغترهم معرفة في مسائل الدين . وكان لا يجبن عن التصريح بأن نبيتنا العظيم محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم كان رئيساً لطائفة من البشر فحسب . بل كان يقول بقلب لا يهاب الموت إنه كان ساحراً وبالاختصار كان ذلك الدرويش الخبيث يسبح في بحر من الضلالات ولم يكنف بالكلام بل ألف كتاباً جعل يقيم فيه الحجج على دعواه الباطلة وآرائه الجنونية ، وعهد لسوء الحظ بالرد على ما جاء بذلك الكتاب إلى عالم من علمائنا لم يكن لديه مقدرة كافية على ذلك فأخرج كتاباً لا يقنع ولا يطفى غلة ولا يروي ظمأ . بل أساء إلى الاسلام بدل أن يعمل على إظهار فضله وعلى تبيان حكمته وعظمته

وكانت أصفهان تموج بهذه الأخبار حين وصلت إليها فعرضت على القوم أن يرسلوا دعوة إلى الدرويش الفرنجي لمقابلة مشايخ البلدة وجهاً لوجه في يوم معين في المدرسة الجديدة للمناقشة في الدين فإما أن يسلم هو بالحجة والبرهان ، وإما أن يتنصر المشايخ إذا انتصر هو عليهم — عرضت ذلك الأمر لأنني كنت أتميز شوقاً إلى إظهار مواهب

وبلوغ ما أستحقه من الرفعة وعلو الشأن وقد قبل الدعوة ذلك الدرويش حال وصولها إليه وكنا قد اعتزمنا فيما بين أنفسنا أنه يجب اقتلاع الشوكة من جانب الاسلام وألا ندع هذا البلاء في إيران وأن ديننا يجب أن يظل سائداً وممتداتنا صحيحة وألا نترك للأفاظ الجوفاء والأصوات المنكرة سبيلاً للحط من إيماننا . ولا يكون ذلك إلا بالتكاتف والتعاقد

وعلى الأثر أرسلنا دعوة سرية إلى كل معلم وكل ملتح للحضور في اليوم المعين فكان اجتماعهم لا نظير له يشمر بالقوة التي لا تقاوم والعزم الذي لا يتنازل وامتلات المدرسة بالحضور من المشايخ وغيرهم ممن حضر من الأهالي لرؤية المنتصر من الفريقين فنصت رجباتها بهم ، فكنت تري عمامة تتلوها عمامة في صفوف متكاثفة ورؤوساً تلور رؤوس في جموع متراسة . وقد جاء الدرويش الفرنجي بمفرده لا مساعد له ولا رفيق معه وأخذ ينظر إلى هذه الجموع بوجل وظهر عليه التأثر منها

وقد انتخب شيخان أو ثلاثة للمناظرة التي ستحدث وكنت أنا على رأسهم وأجاسنا في صدر المكان وكنا قد أعدنا أسئلة ليحجب عليها الدرويش . وعلى مقتضى إجابته يكون تصرفنا

أما هو فقد ظهر أنه لم يتسلح بغير لسانه وجلس أمامنا وعليه مظاهر الخوف الشديد مما رآه على وجوه الحاضرين من علام العداء والكره الشديدين . وقبل أن تترك له سبيلاً إلى التأمل بدأنا في أسئلتنا

قال واحد منا : « هل تعتقد أن الله جل شأنه
تشكل بشكل آدمي ؟ »

وقال آخر : « وهل تعتقد أن الله ثلاثة في فرد ؟ »
وقال ثالث : « هل أنت مقتنع بأن ما سمعتموه
بالروح القدس نزل على الأرض في صورة يمامة ؟ »
وقد أقيمت عليه هذه الأسئلة متوالية وبسرعة
فلم يعرف على أيها يرد حتى استجمع كل قواه ورباطة
جأشه وأجاب :

إذا كان غرضكم قتلي فافعلوا ما تشاءون ولكن
لن يفيدكم قتلي شيئاً . وأما إذا كان غرضكم
المنظرة فإن مهاجتي بهذه الجوع للتأثير في نفسي
ليدل على وضعكم الماطفة في موضع الدليل والبرهان،
وسيعلم العالم أني قهرتكم جميعاً »

ولما رأيت أن قوله ذو أثر على سامعيه وأنا
قد نفشل في غرضنا صرخت في الحاضرين قائلاً :
« أيها المسلمون ! أيها المسلمون ! إن ديننا أهين !
إن الكافر يريد تغيير عقائدنا ! الانتقام ! الانتقام »
وكان لكلماتي أثرها السريع ، فارتفع ألف
صوت . قال بعضها : « اقبضوا عليه ! » وصرخ
الآخرون : « اقتلوه » وتلاطمت الجوع كالبحر
الزاخر فحاول الدرويش أن يجد له مهرباً حين رأى
الخطر محققاً به . وقد ساعده شيخ أخذته به رافة
إذ خلع عباءته وألقاها على كتفي الدرويش »

وفي الوقت الذي كادت تصل فيه أيدي الثوار
إليه تسرب من وسط الجماهير وتمكن من الخروج
والوصول إلى منزل أحد الأرمنيين في أمان
وقد تقيظنا نحن المشايخ من إفلات الفريسة

فسرنا في جمعنا إلى منزل الحاكم بئسنا عدد لا يحصى
من الأهالي . وقد أحدثنا هياجاً عظيماً

وكان الحاكم رجلاً مسلماً متديناً فأملنا أن
ينضم إلينا من غير تردد . وقد اتهمنا الدرويش
بابتداع عقيدة فاسدة ونشرها ومحاولة إفساد عقائدنا
وقلنا للحاكم : « إن الرجل يسب نبينا ويرميه
بالخداع والكذب فنطلب تسليمه إلينا »

وقد ارتبك الحاكم فيما يجب عمله لأنه يعلم الخطر
الذي ينجم عن تدخله في شئون الأوربيين ، ومن
جهة أخرى فإنه لم يكن يقدر أن يرد عنا أو يثنينا
عن غرضنا بالقوة فقال لنا : « لماذا دعوتكم الدرويش
إلى مجادلتيكم إن كنتم لا تودون الاستماع إلى أقواله ؟
إن لم يكن عندكم ما تجادلونه به فإن القوة لا تنفعكم،
بل الأمر على النقيض إذ أنها تضر الدين، ولكن إذا
كان لديكم من الحجج والأدلة فوق ما لديه ولم يستطع
الاجابة على أسئلتكم فإنه يكون كافراً زنديقاً ويجب
قتله في شرعنا »

فلما وجدنا أننا فشلنا ثانية رجعنا والرغبة في
الانتقام تغلي في صدورنا . وإنني أعتقد اعتقاداً
لا ريب فيه أنه لو صادفتنا الدرويش في تلك اللحظة
لمزقنا جسمه إرباً ولقطعنا بدنه تقطيعاً . ولكنه كان
يحذرنا . وسمعنا بمدئذ أنه ترك المدينة سراً . وبذلك
تم لنا ما حاولنا إذ مضى زمن طويل قبل أن نرى
وجهه في المدينة، ولقد نبه شأني في هذه المسألة وظهرت
حميتي وحماسي في الدين في ظروف أخرى حتى لقد
صرت ممن يشار إليهم بالبنان . ولكنني لم أريج من
كل ذلك شيئاً فشمرت أن خير ما أفعل هو أن أبحث

شأنى وخاصة فى عين الشعب . وعددت رضاء الشعب
أول ما يطلبه الرجل الطموح . ولكنك عرفت ما
مساعدة الشعب إذا تعارضت مع إرادة ملك مستبد
فأنتى أضمت نفسى لأنى اعتمدت على نفوذى فى ذلك
لشعب وأنا اليوم كما ترانى بأئس أريد العودة إلى بلد
الأولى كما خرجت منها لا أملك شروى تغير »

الفصل الستون

تراير مابى بابا والمهر ناراه

عندما فرغ الملا نادان من سرد قصته اجتهدت
فى إقناعه بأن الإرادة التى خدمته فى الجزء الأول
من حياته والتى قضت بحييته وفشل به بعد ذلك
ستخدمه بلا شك فتبينه حتى يسترجع مكانته
وقلت له : « لقد رأينا كلانا الأمور فى إيران كثيرة
الاتقلاب لا تظل على حالة واحدة ، وما دامت
الحوادث تتوقف على إرادة رجل واحد فقد يأسر
باحضارك كما أصر بإمادك ، وإن للمصائب رد فعل
يبدلها مسرة ونجاحاً . ألم تر الحداد كيف يخمد لهيب
تنوره المتوقد ويحل الدخان محل اللب إذا هو ألقى
عليه شيئاً من الماء فيظهر كأنه خبا . ولكن أقل
حركة فى المتفاح تعيد النار إلى الظهور أعظم حرارة
مما كانت وأكثر اتقاداً »

فأجاب رفيق : « هذا ما كنت أفكر فيه وأعزى
نفسى به حين صادفتنى فى الطريق أغنى ، فإن الشاه
قد يكون - مرصاة للتجار المسيحيين واستمالة لهم - قد
تظاهر باقامة العدل وأداء الواجب فمأقبنى ولكنه
فى سريرة نفسه يقدرنى ويعتزم إنصافى وإنصاف
رافى لواء الدين وعندئذ تنجيه فكرته إلى عجة الشعب

عن مكان أعثر فيه على مركز يسد أطامى . وفلا
غيرت وجهتى إلى هذا السبيل فذهبت إلى « قسم »
وفى نيتى أن أستميل المجتهد ميرزا أبى القاسم وهو رجل
تقيدنى شهرته فوق ما تقيدنى صلاة عشرة أعوام
وصومها ، وقد نجحت كل النجاح فإن الشهرة التى
كسبتها من كراهة النافقين واللى فى أدام جعلت
المجتهد يستقبلنى بالبشر والابناس ويحظى من أحب
تلاميذه إليه ، وقد أخذت عنه مبادئه ضد الصوفية
وعملت بها بحمية لم يكن يقدرها فلم يمض زمن طويل
حتى التمت منه أن يوصى بى لدى مجلس العلماء فى
طهران ولدى رجال الدولة الرسميين ، فأظهر أسفه لفراقى
ولكنه قبل طلبى وبعد ذلك بقليل عينت عضواً
فى مجلس العلماء . وأعترف أنى لم أكن سعيداً لحظ
فى المجلس كما كنت أنتظر على الرغم من أنى لست
أقل من الباقيين قيمة .

وكان منافسى فى التقدم كثيرون وقد تدرجوا
فى شئون الحياة أكثر مما تدرجت . وحاكيتهم
فى تعظيم رجال الحكومة وتوقيرهم . وأيسح لى الجلوس
فى مجلس الحكم العالى وبذلك صرت ممن يحظون
برعاية رئيس الوزراء وكبير الأمناء ورئيس الجلادين
وغيرهم فكنت أظهر فى مجالسهم ومجتمعاتهم ، ولكنى
لم أكن مع ذلك إلا شيخاً فقيراً . وقد انتظرت فرصة
سائحة أدخل بها إلى بيت المال وشملنى رئيس الوزراء
بنظره فى بادى الأمر لأنى كنت أبكيت فى حفلة
لذكرى مقتل الحسين رضى الله عنه وكان قد أقام تلك
الحفلة فى قصره وجلت أنشد فيها وأذكر بحالة أثرت
فيه وفى جميع الموجودين ، ومن تلك اللحظة بدأ يرتفع

يا عزيزي لست أرغب في البقاء ولن أشعر بالأمن إلا إذ وصلت إلى الحدود التركية . وأرجو أن أصل إليها بعد بضعة أيام »

وعرضت عليه بعد ذلك جزءاً مما سلبته لأمنع عن نفسي غائلة لسانه وليكنم سرى وقد قبل مني عشرة طومانات وترك لي خمسة وتسعين ، وقال : إن ما أخذه يكفي . ووعد برده عند اليسرة

ولكنه بعد أن أخذ عشرة الطومانات رجاً ثانياً أن أصبحه إلى همدان وأخذ يبين لي الخطر الذي بنجم عن القبض على قبل أن أفارق بلاد الشام .

وقال : « في اللحظة التي يشيع فيها قتل الملبثين والتي بلم فيها الحاكم بضياح جواده سيرسل الخبر خلفك للبحث عنك والقبض عليك ولك من شخصيتك ما يسهل عليهم هذه المهمة ، فالأفضل أن تختبئ عندى ربنا يتقضى أمر هذه الحادثة وبعد ذلك تستطيع أن تواصل سيرك في أمان وسنجهتهد في تضليل من يسأل عنك . وإن لوالدى ضيعة سنقيم بها بلا خوف ونجمل جوادك ومتاعك في مكان لا يثير الشبهة . وحمدان ليست بعيدة فانتا إن بدأنا السير في منتصف الليل وصانا إليها في الصباح ، وفي استطاعتنا أن نفعل ذلك بأن نركب جوادك سوياً . وتذكر يا صديقي أن الحدود التركية بعيدة ولو عجز جوادك عن إصالك كان هذا أدعى إلى القبض عليك »

وقد أثرت كلماته هذه في أفكاري إذ كان ينطق عن صواب . وكنت أجهل تمام الجهل هذه الناحية من إيران وأدركت أنه لا يكفي أن ألتزم بالطرق الجبلية بل يجب أن أعرف طرقاً غير مطروقة وقد أدركت

وتقديره إياي . ثم إن لدى فكرة أخرى وهي أنني أرغب في خلع بردة المشايخ والعلماء وأن أكون تاجراً ولكنني سأتابع خطى السابقة وأعتمد على الحظ

ولدى فرصة للظهور بمظهر الشهيد وذلك أجدى على من كل ما أملك حتى جوادى ومنقولانى وحمارى الأبيض وكل شيء حتى المطلقات

فقلت له : « إذن ماذا اعتزمت صنعه ؟ هل في نيتك أن تصاحبني إلى بغداد أو تبقى في إيران قريباً للحوادث وانتظاراً للفرص ؟ »

فقال : « من رأيي أن أواصل سيرى إلى همدان بلدى الأصلية حيث أجد والدى الذى لا يزال حياً محترماً موقراً فأحاول بوساطته دخول العاصمة ثانية واسترجاع مركزى الذى سلب منى . وأما أنت فأى طريق تسلك ؟ إننى سأحتاج إن شاء الله حين أسترجع ما فقدت إلى خبرتك وذكائك لكي نستأنف مشروع المطلقات . فالأولى لك أن تبقى في همدان منى وأن تتبعني فيما أترسمه من سبل الميئس »

فأجبت : « إننى يا صاحبي بكل ما يبدو على من مظاهر الثراء والنعمة أشد منك تنافساً وأكثر شقاء ، فإن الحوادث توالى على غير ما أحب وأنت ترانى اليوم قد صرت لصاً . ويعلم الله أن ذلك على غير رغبتى وسأتم السير في الطريق الذى رسمه لى القدر الذى ألبسنى لباس شيخ العلماء وأغنانى بماله وأركبنى جواداً حاكماً ، هذا القدر يا صاحبي يدعوني إلى مفارقة الوطن إذ لا أستطيع البقاء به فأكون عرضة لمعرفة أمرى وقتلى والتمثيل بى على أبواب المدينة . كلا

مناسب وأدفع الثمن إليك »

أزجني هذا الاقتراح الذي أبداه الملا لأنني أيقنت أن وراء ما يطلبه من الثقة به لأودع عنده حاجاتي عرضاً آخر غير ما عبرت عنه ألفاظه، ولكنني أحسست في نفس الوقت صدق ما قال إذ من المستحيل أن أظل في القرية عشرة أيام أو أسبوعين بملابسي الفاخرة وجوادي الكريم دون أن أثير ظنون القوم فأدركت أنني أصبحت حقاً في قبضة الملا غير أن في السير على ما رسمه الملا اشتراكاً له في الجريمة إذ يصبح من المستحيل عليه أن يخونني دون أن يوقع نفسه مي . ولكن تصور أن نازا كشيأ استدل على الجواد فأى مصير يكون مصيرنا ؟ إنهم يقبضون علينا سوياً

فأجابني الملا : « دع أمورك لله فهو قادر ، وفوق ذلك فالتنا سرنا بسرعة عظيمة ، وقبل أن يصل أى ضابط إلى همدان سأكون قد وصلت إلى دار أبي وأحدثت ما أردت من تأثير . وسيكون من السهل على إذن أن أخفي الجواد بما عليه وأنا المستول عما يحدث »

لم أجده ما أقوله بمد ذلك فخلعنا ملا بسنا وتبادلتناها فأخذ هو قفطان الملا بائس وجبته وحزامه الكشمير وعبائه المصنوعة من الجوخ الأزرق وأخذت أنا ملابسه القديمة التي تمزقت على بدنه يوم طرده من طهران . وكذلك أعطيته عمامتي وقد لغفت عليها شال الملا بائس الذي لا أزال محتفظاً به ، وأخذت منه عمامته ولم أستبق مي غير كيس النقود

أن رحبلاً عاجلاً إلى الحدود ليس من السهولة بالدرجة التي كنت أتصورها . ولئن كان في عزم الملا خيانتى فإن ذلك ميسور له هربت أم بقيت فانبعت مشورته؛ وقد ظهر لي أن أسلم الرأيين هو أن أثق بالملا ولا أسي به الظن فقبلت أن أذهب معه . وفي منتصف الليل رحلنا وقد استرجع اللغداء والراحة ما ضاع من قوائنا فصرنا على مقربة من همدان قبل بزوغ الشمس، ثم علونا ربوة تشرف على المدينة لتتدبر موقفنا ونفكر فيما يجب عمله فأشار نادان بأصبعه إلى قرية على مسافة فرسخ وقال : « هذه هي القرية التي يجب أن نقيم فيها حتى ينسى الناس مقتل شيخ العلماء . ولكنك لا تستطيع دخول القرية بهذه الحجة الأنيقة وعلى مثل هذا الجواد الكريم من غير أن تثير الشبهة وتوقع الظنون . والرأى عندي أن نتبادل ملابسنا وأن تعطيني جوادك وبهذه الوسيلة تظهر في القرية كأنك من أتباع والدي وأحتفظ أنا بشخصيتي إذ أرجع إلى دار أبي في زي أنيق وثياب فاخرة . وبهذا الترتيب نضمن عرضنا ونخدم مصلحتنا المشتركة فتتجوز أنت من شر إثارة الشبهات وأنجوا أنا من شر زي الزرى . وفوق ذلك فإن قصتي المخجلة لا تلبث أن يسمع بها أفراد عائلتي فتكون مدعاة إلى خجلهم والخط من قدرهم؛ غير أنني أعرف عن هذه البلاد أنها لا تأبه إلا بالمظاهر الخارجية ، فتى رأني أهلها أرجع إليهم راكباً جواداً كريماً وفي يدي لجام مذهب ونحى مرج موثى وفي حزامي شال من كشمير فإن منزلة عائلتي ومنزلي تبقىان كما هما . وبعد أن أستعمل هذه الأشياء بضعة أيام فلن أعدم الوسيلة لبيعها بثمن

الذى وجدته في ثياب الملا باشى وساعته وخاتمه وما بقى من المال . وسمحت للملا نادان باستعمال الدواة والمرآة والمشط ، ووضع الملا نادان بعد ذلك لفائف الورق في حزامه واعتدل وامتنى صهوة الجواد فظهر في شكل الملا باشى نفسه حتى لقد دهشت من شدة الشبه بينهما .

وافترقنا على أحسن حال من الود ووعدنى بأن يوافينى بأخباره في القريب وأعلمنى بكل ما يتعلق بقرية والده تاركاً لفطنتى وذكاى أن أخترع قصة تناسبنى والوساوس تساورنى من وحدتى في هذا العالم وعدم وثوقى بما يأتى به القدر وشكوكى في حالى الحاضرة .

سرت إلى القرية مراتبكا أتساءل كيف أقدم نفسى إلى سكانها وقد كنت في الحقيقة كمن هبط من السماء إذ كيف يستقبل زجل حسن الطلعة من غير حزام ولا عباءة تستر ظهره وفي قدمه خف وعلى رأسه عمامة ممزقة ؟

وبعد تردد طويل عزمت على أن أدعى أنى تاجر وأن أزعج أن جماعة للكرد هجموا على ونهبوا ما كان مئى ثم أظهار بمرض يدعو إلى إقامتى بالقرية حتى يبعث الملا إلى بخبر يجعلنى قادراً على تحديد مدة الإقامة في بخى . ولقد نجحت في كل ذلك نجاحاً تاماً فإن الله كان قد وهب أهل القرية - لحسن حظى - نصيباً وافراً من النباء وسقم الفهم ، فصدقوا روايتى وقبلوني بينهم ، ولم أجد منمنصاً غير اضطرارى إلى تجرير ما كانت تصفه لى من الدواء امرأة عجوز أحضرها القوم لمعالجتي وهى طبيبة القرية (يتبع)

عبد اللطيف النشار

شركة مصر

لصناعة وتجارة الزيوت

إحدى مؤسسات بنك مصر

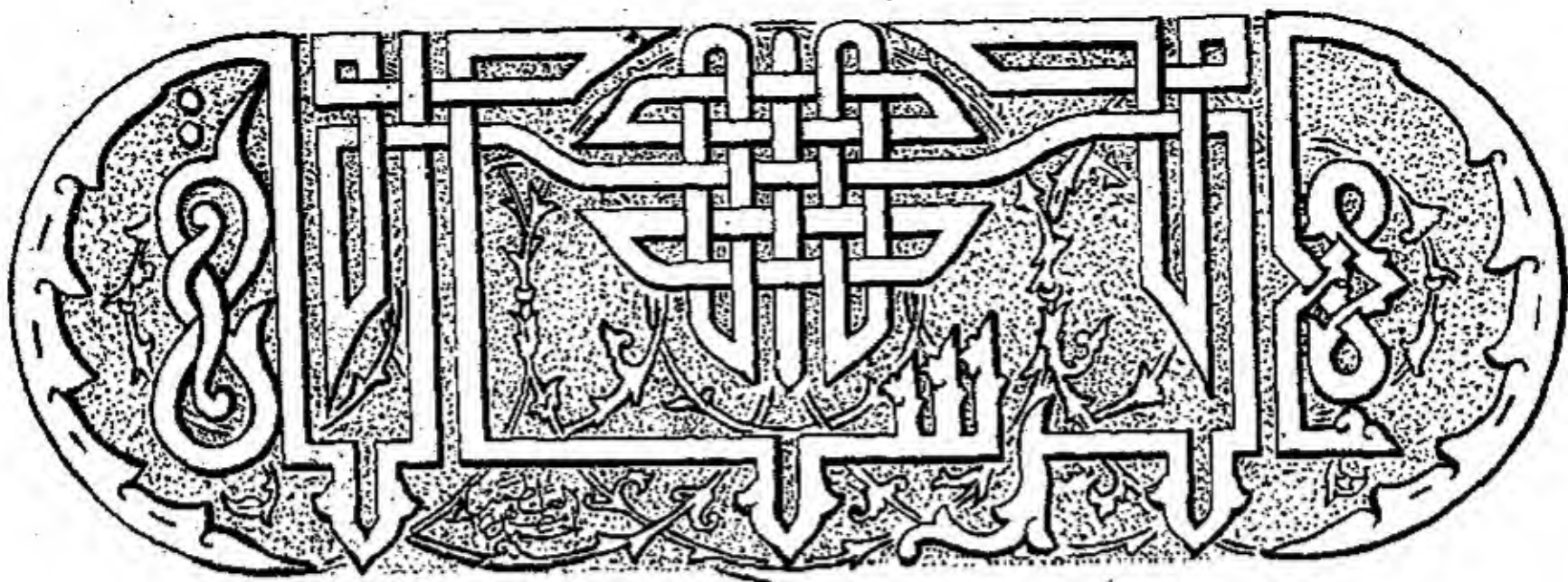
تنتج أجود زيوت الطعام

الملك - الممتاز - المصرى

أطلبها من :

مكتب بيع الزيت شارع الأزهر ، تليفون ٥٤٠٢٠ ومن جميع البقالين

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى - عابدية)



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْمِي فِي النُّشْءِ اسْكَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ، وَسِجْلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الْمَشْرِقِ الْإِخْلَاقِيَّةِ قَرْنًا، وَالْخَارِجِيَّةِ مَابَسَادِي جَنِينًا مَصْرِيًّا، وَلِلْبَيْتِ الْعَرَبِيِّ بِمَخْصَمِ ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة
دار الرسالة بشارع المبدولي رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الدرية

مجلة أسبوعية للقصص والروايات

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١١ صفر سنة ١٣٥٧ - أول إبريل سنة ١٩٣٩

العدد ٥٣

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة	الموضوع	المؤلف
٢٨٢	يقظة المومياة	أقصوصة مصرية
٢٩١	لماذا أبغضت زوجي	عن الإنجليزية
٣٠٩	المال	للقصص التشيكي كارل كايك
٣٢٠	يوم الوداع	أقصوصة مصرية
٣٢٦	حاجي، بابا أصفهاني	للكاتب الإنجليزي « جيمز مور »
		بقلم الأستاذ نجيب محفوظ
		بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي
		بقلم الأستاذ ابراهيم حسين العقاد
		بقلم الأديب عبد الحليم المشيري
		بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

يَقْظُ الْمَوْمِيَاءُ

أَقْصَصُ وَصَّةِ مُصْرِيقَةٍ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ نَجِيبِ مُحَمَّدٍ فَوْزِ

الذي خفق فيه قلب مصر خفقة
الحزن والألم ذهبت إلى زيارة المغفور
له محمود باشا الأرنؤوطى في قصره
المظيم بصعيد مصر ، وأذكر أننى
وجدت عنده جماعة من الأصدقاء
الذين كانوا يترددون عليه كلما
أسعدتهم الظروف ، منهم السيوف ومارو

ناظر مدرسة الفنون الجميلة المليا ، والدكتور بيير طبيب
الأمراض العقلية ، واحتوانا جميعاً (صالونه) الأنيق
البديع الحافل بآيات الفن الجميل من لوحات وتماثيل
كأنها احتشدت في تلك البقعة المتيقة لذوى تحية
المبقرية الحديثة إلى ذكرى عبقرية الفراعين الخالدة
للشأوة تحت أطلال الوادى ، بتوهج نورها خلل
ظلمات السنين مثل سنا النجوم المتألقة في السماء
السارى في تضاعيف الليل البهيم ...

وكانت المغفور له من أغنى أغنياء المصريين
وأوسمهم ثقافة وأسمم خلقا ، وقد قال عنه مرة
صديقنا الأستاذ لامبير إنه ثلاث شخصيات تجمعت
زجلا ، فهو تركى الجنس مصرى الوطن فرنسى القلب
والعقل ، فادى تعريفه أتم أداء . والحق أنه كان
أكبر صديق لفرنسا فى الشرق ، وكان يمد لها وطنه
الثانى ، وكانت أسعد أيامه تلك التى يعيشها تحت
شماها ، واتخذ أصدقاءه جميعاً من أبنائها سواء منهم
من يعيش على ضفاف النيل أو فى جنات السين .
وكنت أخال نفسى وأنا فى (صالونه) أنى انتقلت فجأة
إلى قلب باريس ، فالأثاث فرنسى والجالسون فرنسيون
ولغة الكلام فرنسية والطعام فرنسى ، وإن كثيراً
من الفرنسيين المثقفين لا يعرفونه إلا كهاوئذ من

أجد حرجاً كبيراً فى رواية هذه القصة ، لأن
بعض حوادثها يخرق قوانين العقل والطبيعة جميعاً ؛
ولو كان مردها إلى الخيال ما تخرجت ولكنها وقعت
فى عالم الحقيقة ، وكانت تخيبتها رجل من رجال
مصر الأفاضل المروفين فى الأوساط السياسية
والارستقراطية ، وراويتها الذى أنقل عنه أستاذ
كبير بالجامعة ، لا يجوز أن يرتقى الشك إلى عقله
أو خلقه ، ولم يعرف عنه قط ميل إلى الأوهام
والخرافات ، ولكنى - والحق يقال - لا أدري
كيف أسدقها فضلاً عن أن أحمل الآخرين على تصديقها ؛
وليس ذلك لندرة المعجزات فى عصرنا ، فما لاجدال
فيه أن عصرنا عصر المعجزات والخوارق ، ولكن
للعقلاء فى أيامنا هذه لا يقبلون أمراً بغير تعليل ،
كما أنه لا يستمضى شئ على إيمانهم مع التعليل
المقول . وإنى حبال قصة عجبية لها من دواعى
التصديق راية حكيم وشواهد ملووسة ، ولكن
للتعليل العلمى ما يزال يتأبى عليها ، فهلا أعذر على
شمورى بالخرج فى تقديمها ؟

ومهما يكن من أمر فإليك ما رواه جناب
البروفسير دريان « أستاذ الآثار المصرية القديمة »
بجامعة فؤاد الأول ، قال : فى ذلك اليوم الأسيف

هواة الفنون الجميلة أو كشاعر يقرض الشعر الوجداني الجميل بالفرنسية ، أما أنا فقد عرفته — إلى هذا — عجباً لفرنسا متمسكاً لثقافتها وداعية لسياستها ... أخذت مجلسي في ذلك اليوم إلى جانب الباشا وكان السيوسارو يقول وهو يتأمل بعينه الواسعتين الجاحظتين تمثالاً نصفياً برزياً لا نشتين :

— إن قصرك هذا يا صاحب السعادة يحتاج إلى تشيير طفيف لكي يصير متحفاً كاملاً وقال الدكتور بيير مؤمناً على كلامه وهو يتخلل لحيته بأنامله :

— صدقت فهو معرض دائم لجميع المبقرات والمدارس على السواء مع ميل ظاهر للفنانين الفرنسيين فقال الباشا :

— الفضل في ذلك يرجع إلى ذوق المعتدل الذي يساوي بين النزعات المختلفة ويمدل بين أهواء المدارس ، ويهوى تذوق الجمال سواء أكان بديمه براكتيليس أو رافائيل أو سيزان . مع استثناء البدع الحديثة المتطرفة ...

فقلت ، ناظراً بطرف خفي إلى السيوسارو وكان يحاول دائماً أن أداعبه :

— لو استطاعت وزارة المعارف أن تنقل هذا الصالون إلى مدرسة الفنون الجميلة العليا لاستغنت عن إرسال بعثات إلى فرنسا وإيطاليا ...

فضحك السيوسارو وقال موجهماً الخطاب إلي : — بل لعلها تستغنى عن ناظر المدرسة الفرنسي أيضاً ...

ولكن الباشا قال جاداً :

— إطمئن يا عزيزي سارو ، فانه إذا قدر على هذا المتحف أن يترك الصعيد فسيتخذ طريقه رأساً إلى باريس

فنظرنا إليه جميعاً نظرة استفهام ودهشة وكأنا لا نصدق آذاننا ، فالواقع أن مجموعة الباشا الفنية كانت تقدر بمئات الألوف من الجنيهات وقد تسربت جميعها إلى جيوب الفرنسيين ، فكان غريباً أن يفكر في إعادتها إلى فرنسا ؟ وكان يحق لنا أن نفرح ونبتهج ولكن لم أتمالك من أن أسأله متعجباً :

— أحقاً ما تقول يا أ كسلنس ؟

فقال الباشا بهدوء :

— نعم يا صديقي دريان ... ولم لا ... ؟

فقال السيوسارو :

— ياله من حظ سعيد حقيق باغتباطنا هو الفرنسيين ، ولكنني أقول لسعادتك مخلصاً إنني أخشى أن يسبب لك متاعب كثيرة ...

وقلت للباشا مؤمناً على رأي السيوسارو :

— نعم يا باشا هذا ما أعتقد أنا أيضاً

فردد الرجل عينيه الزرقاوين بيننا وقد لاحت فيهما نظرة ساخرة وسألنا متجاهلاً :

— وله ... ؟

فقلت بلا تردد :

— ستجد الصحافة في ذلك موضوعاً أي

موضوعاً

وقال الدكتور بيير :

— وما من شك في أن للصحافة الوطنية عدو

لك قديم ... وهل نسيت يا صاحب المال حملاتها الفرضة عليك واتهاماتها إياك بأنك تبذر أموال

الفلاح في فرنسا بلا حساب ؟

فصاح الباشا بانكار :

— أموال الفلاح !

فبادر الدكتور بقول معتدراً :

— معذرة يا باشا ... هذا قولهم !

فهز سعادته منكبيه استهانة وزم شفثيه احتقاراً وقال وهو يثبت نظارته الذهبية على عينيه :

— أنا لا آبه لهذه الأصوات المنكرة الوضيعة ، وما دام ضميري الفنى لا يرتاح لابقاء هذه الآيات وسط هذا الشعب الحيواني فلن تقبر هنا أبداً

وكنت أعرف رأى صديقى الباشا عن المصريين واحتقاره لهم . وعما يحكى فى هذا الصدد أنه تقدم له منذ عام طبيب مصرى نابغة حاصل على رتبة البكوية طالباً يد ابنته فطرده شر طرد لأنه فلاح ابن فلاح . على أن — مع موافقتى على كثير من التهم التى بكيلها الباشا لبنى وطنه — لم أكن أتبعه فى رأيه إلى النهاية ، ولذا قلت له : سعادتك شديد النقد

فقهقه الباشا ضاحكاً وقال :

— أنت يا عزيزى دريان رجل وهبت حياتك الثمينة للماضى البعيد ، وربما لاحت لك فى غياهبه لمع عبقرية خلقها القدماء لا تفتأ توظف غطفك وحنينك على أحقادهم ولكن شتان ما بين الفراعين والفلاحين ، لا يجوز أن تنسى يا صديقى أن المصريين شعب قول ...

فضحكت وقلت له :

— عفواً يا صاحب السعادة ، ألا تعلم أن السير ماكزى أستاذ آداب اللغة الانجليزية بكية الآداب صرح أخيراً بأنه أصبح بفضل الفول على البودنج ؟ فضحك الباشا ، ونحك الحاضرون جميعاً وقال سعادته :

— أنت تفهم ما أعنى ولكنك تحب المزاح ، المصريون حيوانات أليفة طبعها الدل ، وخلقها للتذل ، وقد عاشوا عبيداً على فئات موائد الحاكين

منذ آلاف السنين ، ومثل هؤلاء لا يحق لهم أن بأسفوا على إهداء هذا المتحف إلى باريس ... فقال للمسيو سارو :

— نحن لا نتكلم عما يحق أو لا يحق ، ولكن عن الواقع والواقع أنهم سياسفون (ثم قال بلهجة ذات مغزى) وستأسف معهم صحافتهم ... « ولكن لم يبد هل الباشا أدنى اكتراث ، وكان بطبعه يتعالى على ضجيج الجماهير وصرخات الصحف المفتلة ، وربما كان لأصله التركي دخل كبير فى تشبثه بآرائه وعناده واحتقاره للمصريين . ولم يرد أن نترسل فى ذاك الحديث فأغلق بلباقته النادرة باباً ، وانشغلنا ساعة باحتساء القهوة للفرنسية اللذيذة التى لم أذق مثلها فى مصر ، ثم نظر الباشا إلى باهتمام وقال :

— ألا تعلم يا مسيو دريان أنى بدأت أنافسك فى اكتشاف الكنوز ؟

ف نظرت إليه مستفهماً وسألته :

— ماذا تعنى يا أكسلنس ؟

فضحك الباشا وقال وهو يشير إلى حديقة القصر من نافذة الصالون

— على بعد أذرع منا تجرى عملية حفر جليلة للشأن فى حديقة قصرى !

فبدأ علينا الاهتمام جميعاً ، وتوقفت سماع خبر مثير ، وكان لكلمة حفر تأثير خاص فى نفسى ، لأنى قضيت شطراً كبيراً من عمرى — قبل أن أشتغل فى الجامعة — أحفر وأتقب فى أرض مصر اللثية الساحرة

وقال الباشا وهو ما يزال يتنسم :

— أرجو ألا تسخروا منى يا سادة ، فقد فملت

— أحقاً ما تقول يا سيدي الأستاذ ؟

قلت :

— نعم يا باشا ، لقد دلتني يوماً شيخ مثل الشيخ جاد الله على بقعة من الأرض في وادي الملوك وقال لي : إنه استدل بكتبه وعلمه على وجود كنز فيها ، فضربنا فيها بماولنا ولم نلبث أياماً حتى اكتشفنا مقبرة قننا ... وهذا ولا شك من عبقریات المصادقات

فضحك الدكتور بيير وقال متهاكاً :

— ولماذا تطل ذلك بالمصادقات فتجحد فضل العلم للقديم ؟ ... ألا يجوز أن الفراعنة يورثون أحفادهم أسرارهم الخفية كما يورثونهم سحتهم وكثيراً من تقاليدهم ؟

ومضيتا نتفكك بأمثال هذا الحديث وطرقنا غيره أحاديث كثيرة ، ومضى الوقت لذيذاً ممتناً ، وعند الأصيل استأذن الضيوف في الانصراف ، وأما أنا فأعلنت عن رغبتني في مشاهدة عملية الحفر التي يجريها الشيخ جاد الله ، وغادرتنا جميعاً الصالون إلى الحديقة وسرنا إلى الباب الخارجي لتوديع الأصدقاء ، ولم نكد نقطع خطوات حتى وصلت إلى مسامنا خيمة عظيمة واعترضت طريقنا جماعة من الخدم رأيتهم يحسبون بتلايب سيدي ويوسعون ضرباً ولسكاً ، ثم ساقوه بشدة إلى سعادة الباشا وقال له أحدم :

— يا صاحب السعادة ضيظنا هذا اللص وهو

يسرق طعام ييميش

و كنت أعرف ييميش حق المعرفة ، فهو كلب الباشا المميز وآثر مخلوقات الله بقلبه بمد زوجه وأولاده ، وهو ييميش في قصر الباشا منما مكرماً ، يقوم على خدمته خدم وحشم ، ويكشف عليه طبيب

ما كان يفعل الملوك الأقدمون مع السحرة والشمودين ولا أدري كيف رضخت وأذعنت ؛ ولكن لا داعي للأسف قليل من الخرافة يريح العقل الكلف بالحقائق والمعلوم. ومجل الحكاية أنه جاء قصرى منذ يومين رجل معروف في هذا البلد يدعى الشيخ جاد الله ، يحترمه العامة ويقدمونه ، وكم ذا بمصر من المقدسين ، وألح في طلبى وأذنت له وأنا أعجب لشأنه ، وحياني الرجل على طريقته وبشرني بأنه استدل بعلمه الروحاني وبكتبه القديمة على وجود كنز عمين في باطن حديقتي ، وطلب إلى بتوسل أن آذن له في الكشف عنه تحت إشرافى ، وثنانى بالذهب واللاآلى في مقابل أن أعده بالحلوان ، وضقت به وهممت بطرده ولكنه ضرع إلى وتوسل حتى استعبر وقال لي : لا تهزأ بعلم الله ولا تستهن بعباده القريين. فضحكت طويلاً ، ثم خطر لي خاطر سريع فقلت لنفسي لماذا لا أجارى الرجل في وهمه وأسأره على اعتقاده ؟ لن أخسر شيئاً وسأفوز حتماً بنوع من التسلية ، وقد فعلت يا أصدقائى ، وأذنت للرجل ، وأنا أنظاهر بالجد ، وما هو ذا يحفر في حديقتي ويماونه في عمله الشاق اثنان من خدي المؤمنين ، فما رأيكم ؟

قال ذلك الباشا ونحك عالياً ، فضحك الجميع ، أما أنا ففكرت بي الذاكرة إلى الماضى إلى حادثة مشابهة فقلت : « طيبى أنك لا تؤمنون بعلم الشيخ جاد الله ، ولا أنا أستطيع أن أومن به والأسفاه ، ولكنى لا أستطيع كذلك أن أنسى أنى اكتشفت قبر الكاهن قننا بفضل خرافة كهذه »

فبدت الدهشة على وجوه الحاضرين وسألنى الباشا :

الأثرية في المقاطف ويلقونها جانباً ، وكان الشيخ جادا ، تلمع عيناه بيريق حاد يدل على اللمز والأمل ، وتنبعث في ساعديه التحيلين قوة غير طييبة ، كأنه يدنو حقاً من هدفه الذي هداه إلى سبيله عمله الإلهي ، فتمثل لي في شخصه للمعجب الإنسان بنشاطه ، وإيمانه وأوهامه ، والحق أننا نخلق لأنفسنا آلهة وأوهاماً ولكننا نؤمن بها إيماناً محجياً ، فيخلق لنا إيماننا عوالم غاية في البداعة والجمال ، ألم يخلق أجداد الشيخ جاد الله — الذي يذكرني وجهه بتمثال للكانب المروف — الحضارة الأولى للإنسان ؟ .. ألم يبدعوا الجمال على سطح الأرض وفي بطنها على السواء ؟ ... أوالم يستوحوا في عملهم وتفكيرهم أوزوريس وآمون ؟ ... وما أوزوريس وآمون ؟ .. لا شيء في الغالب ... أما حضارتهم فكانت شيئاً وأى شيء ... بل هي أم حضارتنا الراهنة ...

وقفنا نشاهد الشيخ المؤمن ، أما الباشا فيدبسم ابتسامة ساخرة ، وأما أنا فاستغرق في أحلامي ، وكلانا لا يدري بما يجتثله له القدر تحت آكام ذلك التراب ، وكان العمل يبدو عقياً فتعامل الباشا واقترح على أن نجلس في القرائدا فاتبعت صامتاً ، ولكننا لم نكد نصعد السلام الأولى حتى لحق بنا الشيخ جاد الله عدوا وصاح بغمه المزم : « مولاي ... مولاي ... تمال انظر ... »

فالتفتنا إليه بحركة أثوماتيكية ، وكان قلبي يخفق خفقاناً غريباً على أثر نداء الشيخ وذكرني بشيبه له قديم كان يفصل في حياتي بين الفشل والنجاح واليأس والأمل ، وهبطنا السلم دون إبطاء لأن الرجل كان قد عاد أدراجه ، وتبعناه وكلانا بفأل بالغربة في العدو ...

بيطري مرة كل شهر ، ويقدم له كل يوم لحم وعظام وابن وثريد ، ولم تكن هذه أول مرة يسطو فيها الصمائدة على غذاء ييمش ... وكان السارق صعيداً قحاً ، يتميز بالسحنة المصرية للعتيقة ، ويسدو على هيئته الرثة البؤس والفقر ، وقد حدجه للباشا بنظرة قاسية وقال له بمنف : —

كيف سولت لك نفسك انتهاك حرمة بيتي ؟ فقال الرجل بتوسل وهو يلمث من أثر الجهد الذي بذله في مقاومة الخدم :

كنت جائعاً يا صاحب السعادة ورأيت اللحم المسلوق مبثراً على الحشائش فخانتني قوتي ولم أكن ذقت اللحم منذ عيد الأضحى ! قالت للباشا إلى وقال هازئاً :

— أرايت الفرق بين بائسنا وبائسكم ؟ ... إن بائسكم دفعه الجوع إلى سرقة رغيف ، أما بائسنا فالرغيف ليس عسيراً عليه ، ولكنه لا يرضى إلا باللحم المسلوق ...

— ثم التفت مرة أخرى إلى السارق ورفع عصاه وضربه على كتفه بشدة وصاح بالخدم : — خذوه إلى الخفير ...

ونحك الدكتور بير وهو يسلم وقال للباشا : — ماذا تفعل غداً إذا شم الصمائدة رائحة الذهب المكس في كنز الشيخ جاد الله ؟ فقال الباشا فوراً :

— سأحيطه بسياج من الخفراء كخط ماجينو . وعدنا — أنا والباشا — وتبعته صامتاً إلى حيث يشتغل الشيخ جاد الله الذي يشك أن يصير أثرياً عظيماً ، وكان الرجل منهمكا في عمله هو ومعاوناه ، يضربون الأرض بقووسهم ويرفعون

فعاد الشيخ يقول :

— فتح الكنز عمل عسير ، فهذا الباب لا يطيع
ويرضخ إلا بقراءة طويلة أبدأها الآن وأستغرق فيها
حتى مطلع الفجر ... هل أنتم مطهرون ؟
وتأثر بأقواله الخادمان ونظروا إلى مولاهما بارتباك
لأنهما اعتقدا أنهما على وشك الثول في حضرة القوة
الخفية ، ولم يكن في الوقت متسع للتطهر والقراءة
فقلت للشيخ بحزم :

— إننا لم نباغ هذا الباب بقراءة فيذني أن
نقتحمه بمثل ما اقتحمنا الذي قبله ...
وعم الشيخ أن يعترض ولكن لم يجده اعتراضه
وانتهره الباشا فصمت وهو يرمقني شزراً ، واستأنفوا
العمل من جديد ، وتيقظت غريزتي فعملت معهم ،
حتى أزيحت المقبة الكؤود ، ووجدنا أماننا منقذاً
إلى مثوى حوز الأبدى ...

وكنيت خبيراً بتلك الأعمال ، فأصرتهم أن
يتريشوا في أما كنهم وقتاً قصيراً ريثما يتجدد الهواء ،
وكانت ساعة انتظار شديدة الوقع علينا جميعاً ، وكان
الباشا صامتاً ذاهلاً كمن هو في حلم عجيب ، وكان الخادمان
بنظران بعينين ساهمتين إلى الرجل الذي يؤمنان به ،
وكان الشيخ يحملني تبعة ما قد يحدث لاستهانتي
برأيه ، أما أنا فكنت أحلم بما عسى أن يقع عليه
بصري ، وساءلت نفسي ترى هل من المستطاع أن
أفوز بتحفة أثرية أزين بها عقد متحفنا الخالد في
باريس ... ؟

ثم دخلت ، ودخل خافي الأرنأؤوطى باشا ثم
الشيخ جاد الله ، وآثر الخادمان أن يلبثا في الدهليز
الخارجي فلما اختفى عنهما نور المصباح وأظلم المكان
اندفعا إلى الداخل وانكشبا في ركن ، وكانت حجرة
تابوت كما يدل مظهرها ، وقد شاهدت أمثالها مرات

ووجدنا الرجال الثلاثة يزحزحون صخرة
كبيرة ، مساحتها متر مربع على وجه التقريب ،
فدنونا منهم فرأينا الصخرة تكشف عن فوهة في مثل
اتساعها ، فنظرت إلى الباشا ، ونظر إلى بعينين
تنطقان بالدهشة والدهول ، ثم نظرنا إلى داخل
الفوهة فرأينا سلماً قصيراً ينتهي إلى دهليز يتجه
إلى الداخل موازياً لسطح الأرض ، وكانت الشمس
تؤذن بالغيب فقلت للباشا « إلينا بمصباح » فأرسل
الباشا أحد الخادمين لاحتضار مصباح ، وعاد الرجل
بالمصباح فأصرته أن يتقدمنا ، ولكنه تردد وانكش
فهممت بأخذه منه ، ولكن كان الشيخ جاد الله
أسرع مني إليه فأمسك به بيده ومضى يتلو من
القرآن وتماويز غريبة ثم نزل بقدمين ثابتتين فتبعته
وتبمنى الخادمان المضطربان ...

ووجدنا أنفسنا في دهليز مستطيل لا يتجاوز
طوله عشرة أمتار ، ويملو سقفه عن هامتنا بمدة
أشبار ، وكانت أرضه متربة أما جدرانها فن الجرانيت
وتقدمنا جميعاً في خطوات بطيئة حتى اعترض
سبلنا باب حجري يأخذ على المفتحمين طريقهم ،
ولم يكن منظره غريباً على ولا الرموز المحفورة
في وسطه ، فجري بصري عليها ثم التفت إلى الباشا
وقلت بصوت متهدج :

— لقد اكتشفت يا صاحب السعادة مقبرة
أثرية ... فهنا يرقد القائد حوز من عظام الأسرة
الثامنة عشرة

ولكن الشيخ جاد الله قال بمنف وغضب :
— بل وراء هذا الباب كنز ... هكذا يقول

الكتاب الذي لا يكذب
فهزئت كتفي قائلاً : « سمع كيف شئت ،
المهم أن نقتحمه ... »

— رأيت مصفوراً يرف بجناحيه فوق التابوت
فالتفتنا إلى التابوت ولكننا لم نر شيئاً وكان من
البعث أن نسأل الخادمين فقلت للشيخ :
— دعنا من أوهامك يا شيخ جاد الله
ثم ضحكت وقلت للباشا بالفرنسية :
— عسى أن يكون المصفور روح البيت (كا)
جاء لزيارته معنا ...

ثم عدت إلى مطالعة الصناديق والجدران التي
تحدث قلبي بلغة سامنة لا يعيها سوى ، ولكني لم
أستطع التأمل بتاتاً لأناسمنا الخادمين يصيحان بدمر :
— يا سعادة الباشا !

فالتفتنا إليهما بسرعة وقد امتلأت غيظاً وحنقاً
ولكنني شاهدتهما في حالة غريبة من الرعب ، وقد
التصق كل منهما بصاحبه ، واتسمت عيناها وجعلتا
وأرسلتا نظرة صلبة جامدة ميتة إلى ناحية التابوت ،
وتصلب الشيخ جاد الله في وقفته ويده قابضة على
المصباح وعيناه لا تتحولان عن نفس الهدف ...
فنظرت إلى التابوت وقد نسيت غضبي ... فرأيت
غطاءه مرفوعاً والمومياء ممددة أمامنا في لفائفها ...
ما هذا ... كيف فتح التابوت ؟ ... هل أثر
في إقامتي الطويلة في الشرق فندت عيني تتأثر إلى
هذا الحد المضحك بأوهامه وسعره ؟ ...

ولكن أي سحر هناك ؟ ... إني أرى المومياء
أمامي ، ولست الوحيد الذي يراها ، فها هو ذا الباشا
قد تحول إلى تمثال ، وهام الرجال الثلاثة يكادون
يموتون من فرط الملح والدهر ... فأى وهم هذا ؟
والحق أنني أحس بالخجل كلما اضطررتني الظروف
إلى سرد ما حدث بعد ذلك ، لأنني أحدث في المادة
أناساً عقلاء مثقفين درسوا تيلور وليني برول ودركيم
ولكن ما حيلتي ؟ ... إن ديكارت نفسه لو كان

عديدة ، وكان التابوت موضوعاً في مكانه وعلى غطاءه
صورة ذهبية لصاحبه وإلى جانبه تقوم ثلاثة تماثيل
بالحجم الطبيعي أحدها الرجل — من المرجح أنه حور
نفسه — والآخر لامرأة يستدل من وضعا إلى جانبه
أنها زوجته ، وأمامها تمثال صغير لفلان ، وفي الناحية
المقابلة وضعت صناديق مغلقة وآنية ملونة ومقاعد
ومناضد وعدد حربية ، وكانت الجدران ملأى
بالرسوم والنقوش والرموز ...

ألقيت نظرة سريعة مفهمة بالروعة على ذلك العالم
المبعوث ولكن الباشا لم يدعني لتأملاتي فقال لي ولم
أكن أعلم أنها آخر أقواله في هذه الدنيا :

— الأوفى يا أستاذ دريان أن نباغ الأمر إلى
الحكومة في الحال ...

فأحسست بخيبة أمل وقلت :

— انتظر قليلاً يا باشا ريثما أتى نظرة مجلى ...
ودنوت من الصناديق والأثاث والباشا يسير
إلى يميني ومضيت أخصها بعين خبيرة مشوقة ،
ونفسي محدثني بفتحها ومشاهدة ما بداخلها ، وكنت
أؤمن بأنها تحوى طعاماً وثياباً وحلياً ولكن أنى
لنلي أن يملك إرادته حيال تلك الخلفات الجليلة التي
تستحوذ على منبض النأثر من قلبي ووجداني ...
ثم لا تنس التابوت والتماثيل والمومياء ... يالها من
مفاتيح ... !

وقطع على تأملاتي أن سمعت صوت الشيخ
جاد الله القبيح وهو يهتف « هس » فالتفت إليه
مزججاً منضجاً لأن أقل همسة آتت كانت تثير أعصابي
ولكن الشيخ قال لي بيلاهة « مصفور ! »

فأنهرته قائلاً :

— أي مصفور يا شيخ ... أهذا وقت هزل ؟
فقال الرجل :

في مكانى تلك الساعة ما أتنه الشجاعة على الهزم
بحواسه ...

ماذا رأيت ؟

رأيت المومياء تتحرك وتقدم في التابوت في
حركة خفيفة لا يقدر عليها المخمور أو المثقل بالنوم
فضلا عن البعث من عالم الأموات ، ثم قفزت قفزة
غاية في الرشاقة وانتصبت قبالتنا أمام التابوت ...
و كنت موليا ظهري الخادمين والشيوخ جاد الله
فلم أر ما حل بهم ولكن ارتماش للنور الذى يضى
الحجرة دل على كهرة اليد التى تمسك به ، و كنت
في حالة يتمذر وصفها ، وأعترف بأن مفاصل تفككت
من الرعب الذى لا يوصف ، وذعرت ذعرا لم أحس
بمثله في حياتى على الإطلاق ، ولا تكاد تذكر إلى
جانبه أهوال الأيام الشديدة التى قضيتها في الجهة
الشرقية وممركة المارن ...

يا للعجب ! ... ألم تكن حيال مومياء ؟ ...
أو حيال جثة ردت إليها الحياة بطريقة خفية ؟ ...
أو أمام قائد مصرى كان يرتجف هولاً وخشوعاً
إذا اجتاز عقبة القصر الفرعوني ؟ ... ولكن هل
كان من الممكن أن يخالج نفسى في تلك الساعة فكر
من هذه الأفكار ؟ ... بل هب أنه خالجه فهل كان
يستطيع أن يهذى من رعبها شيئاً ؟ ... فزعت
فزعا قاتلا ... على أن عيني استطاعت أن تريا
كما استطاعت ذاكرتى أن تحفظ ما رأت عيناى ..
ولم أجد أمامى مومياء بل رجلا حيا كامل
الرجولة والحياة ، وكانت هيئته تذكر بتلك الصور
التي ترى بكثرة على جدران المعابد ، فكان يرتدى
ثوبا أبيض ووزرة قصيرة ويفطى رأسه الكبير
بقنسوة أنيقة ، ويحمل صدره المريض بنيشين
كثيرة زاهية وكان مهيباً رهيباً متعالياً ، ولكنى
بالرغم من جلاله خيل إلى أنى رأيت من قبل وذكرت

بالفعل الصميدى الذى ساقه الخدم إلى الباشا وأتهموه
بسرقه غذاء الكلب ييميش ، كان شها غريباً
ولكنه اقتصر على الطول واللون والقصبات دون
الروح والحياة ، ولولا ما كان يبدى المائل أمامى من
النبل والتعالى لربما خالجتى شكوك ...
وكان يمدج الباشا بنظرة قاسية لا يحولها عنه
كأنه لا يرى سواء ...

ماذا أقول يا سادة ؟ ... لقد سمعته يتكلم ...
أى والله لقد تكلم حور بعد أن صمت ثلاثة آلاف
من السنين ، وتكلم بتلك اللغة القديمة التى طواها
الموت منذ آلاف السنين .. وسوف أنسى كل شيء
في دنيائى قبل أن أنسى كلمة واحدة مما نطق به
لسانه ...

قال لصديقى الباشا السبى الحظ بصوت لم أسمع
مثله جلالة لأنى لم أتشرف بعد بمخاطبة الملوك

— ألا تمرقنى أيها العبد ... ؟ لماذا لا تبحثو
ساجداً بين يدى ... ؟

ولم أسمع للباشا صوتاً ولا استطاع بصرى أن
يتحول إليه ، ولكنى سمعت العظيم ذا الصوت العظيم
يقول مرة أخرى :

— لم أشمر بقهر أمر الموت إلا حين شاهدت
روحى هذه المعجائب التى تحدث في الدنيا وأنا مقيد
بأصفاد الأبدية لا أستطيع حراكاً ، ولم أقدر أن
أذهب إليك لأن حياتى انتهت كما قضى أوزوريس ...
ولكنك سميت إلى بقدميك ... وإنى لأعجب كيف
سولت لك نفسك هذا الفعل الأحمق ... أبلغ بك
البطر الجنون ... ؟ ألا تحمد الآلهة أن حالت بينى
وبينك بالموت ... ؟ ماذا جئت تفعل أيها العبد ... ؟
ألم يقنعك أن تنهب أبنائى فأتيت تنهب قبرى ... ؟
تكلم أيها العبد ...

ولكن أنى للمسكين أن يتكلم ... إنه لا يفقه

بفتة كأنى أتقى ضربة قاتلة لا أدري من أين تقع
على رأسى ، وحملت في الظلام وأنا أنتفض فرقا
وذعرا ، ثم خارت قواى ، وشاء حظي الحسن أن
أفقد شعورى وأغيب عن العالمين ...

سادتى ... إنه لتأتى على أوقات يصيبني فيها
ذهول وتخاصرنى شكوك فأسائل نفسى مرتابا : هل
كان حقاً ما رأيت أم كان وهما ؟ ... وربما ملت
أحيانا إلى تكذيب نفسى ، ولكنى كلما أميل إلى
الشك تصدمنى حقائق لا قبل لى بها ... فاقولكم
مثلاً فى شهادة الشيخ جاد الله وهو حى يرزق
ويستطيع أن يبيد لكم ما حكيت ؟ ... وما قولكم
فى جنون الخادمين التمسين ... ومقبرة حور ...
والقصر المهجور ؟ ... بل ما قولكم فى حادثة موت
المفجور له محمود باشا الأرنؤوطى التى ما يزال يذكرها
جميع قراء الصحف ويمجبون لها أشد العجب ... ؟
يجب حفظ

صدر كتاب

قافله الأيام

مجموعه من القصص المصري الحديث

تأليف

عبد اللطيف كيت

يباع بخمسة فروش بجميع المكتبات بالعالم العربى
و بمكتبة النهضة المصرية

شيئا ... ولا يبدى حراكا ... لقد دبت الحياة فى
المومياء ... وفارقت قلب الباشا الحى
أما المومياء فعادت تقول :

مالك لا تتكلم ؟ ... ألسن حور ؟ ... ألسن
عبدى شتى ؟ ... ألا تذكر أنى جئت بك من الشمال
فى إحدى الفزوات الظاهرة ؟ ... أنتجاهلنى
أيها العبد ؟ ... إن جلدك الأبيض الذى يرمز إلى
العبودية يفضحك مهما تنكرت .. ما هذه الملابس
المضحكة التى ترتديها ؟ .. وما هذه الأبهة للكاذبة
التي تحتفى وراءها ؟

وظن حور أن الباشا لا يريد أن يتكلم فانتفخت
أوداجه وتقطب جبينه وصاح غاضبا :

— ما الذى دهاك ؟ ما الذى دهمى الأرض فجعل
أعزتها أذلة وأذلها أعزة ، وخفض السادة عبيدا
ورفع العبيد سادة ؟ كيف تمك أيها العبد هذا القصر
ويعمل أبنائى فيه خدما ؟ أين التقاليد المتوارثة
والقوانين المقدسة ؟ ما هذا البعث ؟

واشتد الغضب بحور فاستحالت عيناه جريتين
بتطير منهما الشرر وصاح بصوت كالرعد :

« كيف تتجاسر على ابني أيها العبد ؟ لقد سمته
القل بقساوة دلت على العبودية التى تنضج بها نفسك
ضربته بمصاك لأنه جائع ودفعت إخوته إلى ضربه
أيجوع فى مصر أبنائهما ؟ الويل لك أيها العبد ...
ولم يكذبتم كلامه حتى تقدم نحو الباشا مزجرا
كأسد مصور بهم بفريسته

ولكن الباشا التمس لم ينتظره ، لأنه كان قد
فقد قوة الاحتمال ، فسقط على الأرض لا حراك به
وكان تهديد حور قد أشاع فى الحجرة رهبا جديدا
أتى على البقية الباقية من التماسك فى النفوس ،
فألبث الشيخ جاد الله أن سقط على وجهه وسقط
معه الصباح فانطلقا نوره وساد الظلام ، وانكشفت

مِلَاذُ الْبَغْضِ زَوْجِي

عن الانجليز
بقلم الاستاذ عبد الحميد حمدى

وكانت سوزان ابنتنا
الكبرى على العكس من أختها
بليدة ساذجة كأما ، فكانت
هى وأما على خير ما يكون
الصديقان تبادلًا للمواطف
وتسلطت امرأتى على ماريانا
وظنت أن من واجبها أن تسهر
على مراقبتها مراقبة دقيقة .

وما بلغت الفتاة الثامنة عشرة من سننها حتى أصبحت
جذابة الملامح فتاة ، وكانت دائماً تتحدث عن
الذهاب إلى المدينة والسعى للحصول على عمل
في المسرح ، وكان طبيعياً أن ترفض أمها
كل فكرة من هذا القبيل ، فقد كانت تعتقد اعتقاداً
راسخاً أن الفتاة إذا دهنت وجهها وشففتها بالأصباغ
فقد انحدرت في طريق الفساد ، ولم يكن في مقدور
أية قوة أن تنزع من رأس امرأتى هذه الآراء
العتيقة التي تدل على ضيق العقل

كان من أثر هذه الحالة أن نشأت بينى وبين
ماريانا رابطة غريبة ، فقد ذكرتني على وجه ما
بأخت لى أصغر منى سنًا ، هزيت منذ سنوات
للتلحق بفرقة من الراقصات . فقد كان لماريانا مثل
طبيعة أختي للقلقة ومثل لهفتها على العمل وراء
أنوار المسارح

على أن ابنتى كانت فتاة مستقيمة الخلق وكانت
مراقبة أمها لها أمراً مضيقاً لاتدعو إليه حاجة ، وكان
في البلدة الصغيرة التي نعيش فيها من بلاد الولايات
المتحدة مصانع كبيرة للصفيح ، فكانت امرأتى
تلج على ماريانا في أن تسي إلى عمل في أحد هذه
المصانع ، ولكن ماريانا لم تخلق لتعيش عيشة العزلة
في المصانع ، وإنما كانت لها في الحياة وجهات أخرى .

وكان مستعداً لأن يضحي بحياته ليحول دون
زواج هذا الرجل من ابنته المحبوبة ، ولكن هذا
الزواج قد وقع فإذا يستطيع الآن أن يفعل ؟

كنت طوال حياتي الزوجية على ما أذكر زوجاً
لين الجانب مطيعاً لامراته ، وكانت زوجى امرأة
طيبة القلب ولكن من النوع المتصلب المتحكم ،
فكانت دائماً تستسلم لموامل الغضب والثورة ،
وكنت أتركها في استسلامها إلى أن تهدأ نفسها
وإذا أحسست بأن غريزة الغضب والثورة ستتحرك
في نفسى رثيت لحال امرأتى وكبحت جراح هذه
الغريزة . كنت أذكر أنها لم تألف غير العمل للشاق
منذ طفولتها ، إذ كانت نشأتها في مشرفة لا تؤلف
فيها الحياة الناعمة . ولم يكن أى اعتراض من جانبي
على النمط الذى تجرى عليه شؤوننا البيتية ليؤدى
إلا إلى زيادة متاعب كل فرد من أفراد البيت

على أننى — مع ذلك — كنت أستنكر أسلوبها
في معاملة ابنتنا الصغرى ماريانا ، وماريانا فتاة صغيرة
جميلة قوية الحيوية ، وقد خيل إلى على صورة ما أن
أما تتأذى من ملاحمها الجميلة ، لأننى لم أجد تعليلاً
آخر للأسلوب السيئ الذى كانت تعامل الأم به
ابنتها ...

و كنت كلما أحضرت جريدة المساء إلى البيت استعارت ابنتي مني قلم الحبر و كتبت في أثناء الليل عدة خطابات نجيب فيها على ما تقرأه من الاعلانات عن الوظائف الخالية ، وكانت تدس هذه الخطابات في جيبى دون أن تشعر أمها بشيء ، لأضعها بنفسى في صندوق البريد في الصباح .

وكان انتصار سوزان لأمها وعطفي على ماريانا منشأ نزاع صامت مشؤوم بين أفراد العائلة . ولم يكن يسمح لأحد من الشبان بدخول البيت لزيارة الفتاة . وقد عارضت في ذلك وبخاصة منذ أصبحت ماريانا تلك الفتاة اللطيفة الراضية في حياة المجتمع . ولكن ماريانا لم تلبث ذات مساء أن أراحت بالى من هذه الناحية . فقد طوقتني بساعديها ضاحكة وقالت : إن أمها تجهد نفسها في منع شبان البلدة من غشيان دارنا ، ولكن ماريانا كانت تتطلع إلى شاب من طراز كلارك جابل أو وليام باول ، ومن الصعب جداً أن يجد هذا الطراز بين شبان البلدة ، فليس في الجهد الذى تبذله الأم من هذه الناحية ما تكثر له الفتاة في كثير أو قليل . فشاركت ماريانا الضحك ، ولم نستطع إلا أن نتفكه بأمر ذلك النشاط الذى تبذله الأم عبثاً لطرود الفتيان من طريق ابنتنا .

ومن حسن الحظ أننى كنت أتغيب أكثر النهار عن البيت فقد كنت أملك « جراجا » ومحطة بترين صغيرة على الطريق الرئيسى ، فكنت إذا عدت مساء إلى البيت متعباً قرأت جريدة المساء ، وقطعت فترة من الوقت في لعب (الداما) مع ماريانا أو أصغيت إلى الراديو .

و كانت ماريانا ترجونى دائماً أن أحضر لها عند عودتى إلى البيت بعض المجلات السينمائية ، فكنت أبتاع لها ما أجده عند بائع الصحف الذى أمر به في طريقى وأدس لها ما أحضرت تحت صحيفة المساء ، وكانت هى بدورها تحمل هذه المجلات سرّاً إلى غرفتها حيث تقرأها بعيداً عن أعين الرقباء ، ولو أن امرأتى عرفت مرة أننى أنا الذى أحضر هذه المجلات بنفسى لجلعت حياتى عذاباً لا يطاق ، فلقد كانت تصر دائماً على القول بأن المجلات السخيفة التى تعثر عليها أحياناً في غرفة الفتاة هى التى قلبت رأسها . على أننى كنت أعمل كل ما أستطيع لأرفه حياة ماريانا ولكن مهمتى لم تكن سهلة في هذا الجو المدانى الذى كانت تخلقه أمها وأختها .

وفي ذات مساء تلقى ماريانا عند عودتى مبتهجة طروباً وأخبرتني أنها تسلمت رداً على أحد خطاباتنا التى أجابت فيها على بعض الاعلانات عن الوظائف الخالية ، وفي هذا الرد يمرض عليها معهد للتصوير الفوتوغرافى في المدينة عملاً تنقضى عليه أجراً ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه في الأسبوع ، على أن تتقدم قبل ذلك إلى إدارة المعهد لإثبات كفايتها للنهوض بهذا العمل . وقد هيأت لي عند ما شمت أقوال ماريانا وشهدت ابتهاجها أن روح الفتاة محلقة في السماء العليا ، وعلى الرغم من أننى كنت متعباً في تلك الليلة ، اعتزمت أن أقف وقفة شديدة مدافماً عن ماريانا إذا عارضت أمها في قبولها هذا المركز ، لقد كنت أتطلع إلى مستقبل ماريانا خير من هذا ، وكان في مقدورى أن أفهم لماذا كانت ترغب في مفارقة البيت والذهاب إلى المدينة .

وعاء من القرن فخرت ساعدها ، فكانت حالتها النفسية في هذه اللحظة أسوأ ما تكون

فما سمعت الخبر حتى هاجت وصاحت في غضب قائلة : إنه لا يجوز لماريانا أن تخالط شبان المدينة ، وأنها لا تسمح لها بأن تحضر أحداً منهم إلى البيت . وكنت أود أن أتصر لماريانا لولا أن لاحظت أن أمها كانت في حكم المريضة ، فاعتزمت أن أرجى انتصارى لها إلى فرصة أنسب من الفرصة الحاضرة . والشئ الذي لا يستطيع الانسان فهمه حقا هو أن تمارض امرأتى في مقابلة الشبان الذين تمجّب بهم ماريانا . فلقد كنت أنا راغباً أشد الرغبة في مقابلتهم والتحدث معهم ، فن الطيبى أن فتاة لها جمال ماريانا لا بد أن تكون موضع إعجاب كثيرين من شبان المدينة . ولما كانت الفتاة قوية الارادة متصلة فان أسلوب والدها في معاملتها قد يضطرها إلى سلوك الطريق الخطأ في التمتع بمباهج الحياة ، وهذا هو الذى كنت أخشاه ، وكنت دائم القلق من ناحيته على أننى لزممت للصمت في تلك الليلة عند ما أمرت امرأتى ماريانا بالآ تصاحب هؤلاء الغامرين من شبان المدينة ، وقد خيل إلى أن مثل هذا الأمر يكفى لمنع ماريانا من عمل ما تريد .

وبعد بضع ليال من ذلك الحديث أصبت بحادث أزعجني ، فقد بقيت في عملي بمحطة البنزين إلى ما بعد الوقت الذى كنت أتهى فيه من العمل عادة ، وما أطفأت الأنوار وشرعت أوصد الباب حتى وصلت إحدى السيارات في طلب البنزين ، وبينما أنا أفرغ البنزين في خزان العربة أقبلت سيارة صغيرة خضراء من النوع المكشوف ووقفت بجانب السيارة الأولى ،

وبالفعل عارضت امرأتى في قبول ماريانا المركز المروض عليها ، ونشبت بيننا مشادة عنيفة بعد العشاء ، ولكننى ذكرت المرأة الطيبة بأنها كانت تلح على ماريانا فى أن تسمى إلى عمل في أحد مصانع الصفيح حيث لا يزيد أعلى أجر للعامل غير المدرب على جنبيين في الأسبوع ، إذن لماذا تمارض في أن تتولى الفتاة عملاً محترماً تتقاضى عليه ثلاثة جنيهات ونصف الجنيه في الأسبوع ؟ فأصابته هذه الملاحظة الهدف الذى رميت إليه ، وبعد كثير من المناقشة رجحت ماريانا المعركة ، ولقد ارتحت لذلك ارتياحاً شديداً لأننى لم أكن أتوقع أى مستقبل حسن للفتاة إذا هى بقيت حبيسة في بلدتنا الموراء

وكانت لى ابنة عم أرملة عجوز تسكن المدينة فانفقت معها على أن تقيم ماريانا عندها فلا تحضر إلى البلدة إلا في نهايات الأسابيع

لم تحب ابنة عمى « نيل » امرأتى قط ، وكانت تقول عنها إنها ضيقة العقل بليدة . لذلك ساء امرأتى ألا تكون العلاقة بينها وبين « نيل » حسنة ، وألا تستطيع أن تعرف ما عمله ماريانا في أثناء الليل في المدينة الواسعة الأرجاء . ولكننى كنت مراقباً كل شئ امرأتى إلى التقارير التى تجيئنى من ابنة عمى وكلها تدل على أن ماريانا سعيدة بحياتها الجديدة وأن لا شائبة على الإطلاق في سلوكها

وحضرت ماريانا ذات مساء على عادتها في نهاية كل أسبوع ، وأخبرتنا أنها ستصحب معها يوم الأحد المقبل ، صديقاً اسمه روى تردواى للغداء معنا . ومن سوء الحظ أن الفتاة أعلنت هذا الخبر في لحظة غير ملائمة . فقد حدث بعد الظهر أن أمها كانت تخرج

وبعد هذه الحادثة القصيرة انصرف العميل ولم يكن بد من أن أدعو أحد الأطباء ليضمده لي مكان الإصابة، ولكي لا أزعج امرأتى وسوزان عند عودتى إلى المنزل معصوب الرأس، أخبرتهما أنني أصبت نفسى بالدائر الحديدى لأحدى المجلات فى أثناء نزحى له، وقد قبلتا منى هذا الكلام، على أنني تأملت ألماً شديدة من أثر الضربة وشمرت بالدوار. ولما كان اليوم نهاية الأسبوع فقد فضلت عدم الذهاب إلى العمل والالتزام الراحة، وكان من المنتظر أن تصل إلينا ماريانا فى المساء، وكنت أتشوق إلى رؤيتها فقد شمرت بوحشة لنياها، وكان كل شيء ثقيلًا مملًا في غير وجودها

ولكننى عند ما قابلت ماريانا فى محطة سكة الحديد لاحظت تغيراً فى خلقها، فلم تكن على عادتها، فقد ألقت منها أن تجيئنى فى حماسة وألا ينقطع حديثها فى الطريق بما كانت تعمل طوال الأسبوع فى المدينة أما فى هذا اليوم فقد وجدتها صامتة صمتاً يئم عن مأساة خفية فاضطربت لذلك نفسى، على أنها لم تلبث آخر الأمر أن أفضت إلى بأن لديها أمراً تريد أن تحدثنى به، وأعقبت ذلك بقولها إنها تحت تأثير حال عصبية قد تزوجت من روى تريد أوى أمس ذلك اليوم فقط

وغنى عن البيان أن هذا الخبر قد أزعجنى فقد وقع ما خشيت أن يقع نتيجة لتصلب أمها، فقد أدى هذا للتصلب بما رايانا إلى أن تتولى أمرها بنفسها فنذ أسبوع واحد كانت ماريانا ترجو أن يسمح لها باسطحاب روى تريد أوى إلى البيت، فمارضت أمها فى ذلك، فهل أخطأت التصرف بصفى والدأ؟

وخرج منها شاب من الأشقياء فاندفع نحو عميلى مهدداً وأمره بأن يعطيه حافظة نقوده، فأطاع العميل الأمر ظناً منه أن الشقى يحمل مسدساً، ولكننى حين تلفت أستطلع الأمر تبينت أن للشىء الذى يحمله الشقى فى يده لم يكن مسدساً كما أراد أن يوم ولكنه مفتاح أنجليزى، واستظمت كذلك أن أتبين وجهه على ضوء مصباح الطريق، فأسرعت بالمهجوم عليه ولكن كان الهجوم متأخراً، فقد ضربنى على صدغى ضربة شديدة أفقدتنى توازنى فسقطت مترنحاً، واندفع الجانى واثباً إلى سيارته الخضراء؛ ولما نهضت من سقطتى وجدت عميلى قد سلم الشقى محفظته وفيها مائة من الجنيهات

وكان طبيعياً أن أغضب وأتضايق مما حدث لأنه وقع أمام متجري، ولكن العميل الذى ظهر أنه رجل ظريف هداً من غضبى وقال إنه لا ذنب لى فيها حدث، وكان الرجل تاجراً يمر بهذه الطريق مرة واحدة كل ثلاثة أشهر ولكننى لم أره قط قبل ذلك المساء، وتكلمنا كلاماً بالتلقون من الجراج فأبلغنا البوليس خبر السرقة

وقال عميلى إنه رأى جيداً وجه الشقى وإنه يستطيع أن يعرف ذلك الأنف الدقيق الدبيب فى أية ناحية من نواحي العالم

ولقد ضحكت عند ما سمعت ذلك لأننى قد اشتغلت أيام شبابى بأعمال البوليس السرى لحساب إحدى الوكالات فى شيكاغو، وكان أعظم ميزانى عندها قدرتى على تذكر الوجوه وتمرفها، فقلت لعميلى إننى أنا أيضاً موهوب من هذه الناحية، وإننى رأيت وجه الشقى وسأعرفه إذا ساعدنى الحظ بمقابله مرة أخرى،

على أنني كنت متأهباً لخوض هذه المعركة . وقد قالت امرأتى إن الفلطة هي غلطى أنا لأننى أنا الذى سمحت لماريانا بالذهاب إلى المدينة ، وها هي ذى قد تزوجت من رجل لم تره الأسرة قط قبل هذا الزواج . ولكنى لأول مرة طرحت ما كنت أجا إليه من مجاملة امرأتى حرصاً على عدم جرح شعورها ، ولتها في لهجة ناعمة عنيفة ملقياً عليها مسؤولية هذا الزواج المفاجئ

ذكرت امرأتى برفضها مجيء روى تريدواى إلى بيتنا عند ما اقترحت ماريانا ذلك ، وذكرتها بالرقابة البلهاء التى كانت تفرضها باستمرار على الفتاة وقلت لها إن رد الفعل الفجائى الذى ظهرت به ماريانا لم يكن إلا أمراً طبيعياً تحت تأثير هذه الظروف

كانت مفاجأتى امرأتى بهذا الكلام سبباً فى أن تعود إلى نفسها ، فاعترفت بالفعل بأنها ربما كانت قد أخطأت ، وقد رجونا كلانا فى حرارة أن تكون ماريانا قد وفقت فى اختيارها وأن يكون زواجها سعيداً ، فإن الناية التى كان يرى إليها كل منا هي سعادة ابنته

ولأول مرة تنهت زوجتى إلى أن ماريانا قد أصبحت شابة نامية لا طفلة صغيرة فبدأت تعاملها بشيء من التقدير والاحترام ، وحتى سوزان مالت إلى تغيير أسلوب معاملتها لأختها . وهكذا لم تنته إذاعة خبر زواج ماريانا إلى النتيجة السيئة التى خشيت أنا وهى أن تنتهي إليها . وتم الاتفاق بيننا جميعاً على أن نحزم العروس حقائبها المدة لرحلة هافانا وتنتظر فى البيت ، وأن يحضر زوجها روى تريدواى ليأخذ الحقائب بنفسه ، وبذلك يتمكن أفراد الأسرة من مقابله . وكتب ماريانا إلى روى مؤكدة

أكان يجب على الرغم من مرض امرأتى أن أناصر ماريانا وأصر على وجوب استصحابها الفتى الذى اختارته معها إلى البيت ؟ الحق أننى اضطربت وشعرت بالتماسة وتحيرت فيما أقوله لابنتى رداً على هذا النبأ الذى فاجأتنى به

وسألت ماريانا كيف عرفت روى تريدواى فقالت : إنه من أهل انديانا وأنها قابلته فى حفلة كوكتيل وأنها ما كادت تراه حتى عقدت بينهما أواصر الصداقة فى الحال ، وهى واثقة من أنها تحبه حباً شديداً ، على أنها إذا كانت مخطئة فى تقدير عواطفها فإن هناك شيئاً واحداً لا يتطرق إليه للشك ذلك أنه هو مجنون فى حبها وقد طلب منها فى رجاء شديد أن تقبل الزواج منه

وقالت فى وصف حببها إنه فتى رشيق عصري الآراء جميل الملامح جداً ، وإنه سمسار أوراق مالية ناجح فى عمله ، ووكدت لى أنني سأحبه وسأزداد حباً له كلما ازدادت معرفة به ، وقد وعدتها روى بأن يقضيا شهر العسل فى سياحة إلى هافانا . ولولا خوفها الشديد من إبلاغ خبر الزواج إلى أمها لما شابت مساعدتها العظيمة شائبة ما . ولقد كانت تتطلع إلى هذه السياحة البحرية تطلع الأطفال إلى الشيء المحبوب لأنها لم تركب البحر مرة فى حياتها

لم يكن أمانى حين سمعت هذا الكلام إلا أن أبذل أقصى ما أستطيع من جهد لأوجه الأمور خير وجهة مستطاعة . وبعد المشاء أخذت على عاتق أن أستعين بكل ما فى مقدورى من لباقة وكياسة على نقل خبر زواج ماريانا إلى أمها . وكان من المستحيل ألا تنشب بينى وبينها معركة حامية من جراء ذلك ،

مولياً ظهره نحوى فاستطعت أن أرى رجلاً طويلاً
القامة عريضاً كثافاً، يلبس رداءً رمادياً، ضاحكاً
مكثراً من الحديث مع ماريانا . وما رأيته ماريانا
مقبلاً حتى حينئذ وقالت منشرحة تقدمنى إلى روى
الذى التفت ناحيتى :

« هذا أبى ! »

وخيل إلى عند ما وقع نظر الفتى على رأسى
المصوب أننى قد رأيت فى عينيه نظرة خاصة ، فقد
ضاعت فتحتها وبدا فيهما معنى الانزعاج ، وصاحنى
الفتى هازاً فى شئ من التملق يدي التى بقيت ممدودة له
لحظة قبل أن يراها .

واعتقدت ماريانا أن سلوك زوجها الغريب
ليس له من سبب إلا أن رأسى كان لا يزال ممصوباً
فأمسكت بذراعه فى عطف شديد وقالت :

« لقد جرح أبى رأسه إذ صدمه بإطار عجلة
إحدى السيارات فى الجراج فى أثناء نزعه »

فقدم روى بضع كلمات فيها بعض التألم لهذا
الحادث ، وفى طرفة عين بدا لى أن فى هيئة الفتى
شيئاً غير غريب عنى . فرد الفعل المصعب الذى
بدا عليه حين رأى والحركة التى هز بها رأسه
لينظر من النافذة كن يفكر فى الحرب ، كل
ذلك أحدث شيئاً من التوتر فى الغرفة ، ثم تلك
الغنة فى صوته التى ذكرتني بغنة الصبيحة التى سميتها
منذ بضع ليال عند ما اقتربت من شاب شق
يحمل فى يده مفتاحاً إنجليزياً ، أيمكن أن تكون
هذه هى الحقيقة ؟ لقد كانت الفكرة حوشية غير
قابلة للتصديق ، ولكن عند ما أدار روى تربدووى
وجهه إلى الشباك ورأيت صفحة خده ورأيت تلك

له أنه سيقابل مقابلة حارة ، وأخبرته بما تم الاتفاق
عليه من قضاء الليل معنا قبل السفر فى رحلة شهر
العسل ...

وتكلمت فى الوقت نفسه مع ابنة عمى تليفونيا
فسألته عما تعلمه من أمر روى ولكنها أجابتنى بأنها
لم تره قط . وقالت إنه تكلم كثيراً مع ماريانا تليفونيا ،
وإنها تعرف أن ماريانا كانت تخرج مع رجل اسمه
روى ولكنها لم تفكر قط فى أن الأمر بينهما جد ،
لذلك كانت دهشتها شديدة عند ما أخبرتها بزواج
ماريانا ، ولكنها لم تدهش حين أخبرتها كيف كان
هذا الزواج مفاجئاً لأنها تذكرت أنها قضت أغلب
أيام الأسبوع على شاطئ البحر

وانهمكت ماريانا فى تجهيز معدات السفر منتظرة
قدوم روى

ومن الطبيعى أننا جميعاً كنا متطلعين إلى رؤية
سمسار الأوراق المالية الشاب ، وقد أعدت له امرأتى
غداء حسناً ، وكانت ماريانا مبتهجة تهلل بشراً .
ولأول مرة لم تعارض الأم فى مظاهر ابتهاج ابنتها
وإن يكن قد بدا عليها أثر الصدمة التى أصابتهما من عدم
إفضاء ابنتها إليها بأمر زواجهما قبل وقوعه

لم يخطر لاسرائى قط على بال أن ماريانا كانت
تعلم أن أمها ستعارض فى زواجهما من أى إنسان
حتى لو جاءت معلنة أنها ستزوج من رئيس الجمهورية
ولو أن هذه الأم كانت من النوع للمادل الذى يحسن
التفاهم لأخبرتها الفتاة بما اعتزمت

تركت ماريانا وأما فى عملهما وقصدت إلى
مكتب البريد فلما عدت إلى البيت وجدت أن روى
تربدووى قد حضر فى أثناء غيابى
لما دخلت غرفة الجلوس كان روى تربدووى

الدقن وذلك الأنف الدقيق اللذين رأيتهما لحظة
طارئة على الضوء الأحمر ارتجفت ركبتي . لقد كان
الشبه بين صورتى الشخصين أخاذاً ، فهل يمكن أن
تكون ماريانا بحيلة غريبة من حيل الحظ قد تزوجت
من ذلك اللص الشقي الذى سرق للتاجر على باب
جراجي ، والذي ضربني تلك الضربة الشريرة بالفتاح
الانجليزي ؟ لقد وقعت في حيرة شديدة !

لم يلاحظ تريدواي أنني شككت في أمره ،
فقد كان الوقت الذي وقع فيه الحادث ظلاماً وكان
ضوء الطريق الذي رأيت عليه وجهه لحظة مريبة
ضوءاً ضئيلاً ، ثم هو لا يعرف شيئاً عن قدرتي على
تذكر الوجوه . ولكن كان ظاهراً أن هذه المقابلة
المفاجئة في بيتي قد هزت أعصابه ، حتى أنه عند
ما نظر من الشباك إلى الخارج وقد دس يديه في
جيوبه لم يسمع صوت ماريانا إذ كلمته إلا بعد أن
كررت ما قالته مرتين ، الأمر الذي دل على أنه
كان شديد الانهماك في التفكير . ولم ألبث أن نظرت
من النافذة لأرى إذا كان قد حضر في نفس العربة
الخضراء المكشوفة التي رأيتها من قبل ، ولكنني
وجدت بدلها عربة سوداء مقفلة لا تزال جديدة .
فن الجائر أن أكون قد أخطأت في ظنوني . ومن
المحتمل أن يكون الشبه بين الشخصين شديداً جداً
ولكنهما ليسا بـ رجل واحد

ولكن لماذا سلك الرجل ذلك السلوك الغريب
منذ رأي ؟ من المحتمل أن يكون ذلك أيضاً من
نيات خيالي ، ولقد دعوت الله فعلاً أن أكون قد
أخطأت فيها توهمت . على أنه إذا كانت ابنتي قد
تزوجت من لص شقي فاني أود أن أعرف ذلك ،
وكانت ماريانا قد ذهبت إلى غرفة أخرى لتحضر

غطاء جديداً لمائدة الطعام ، وكانت سوزان قد ذهبت
إلى غرفة الجلوس لتتحدث مع تريدواي ، ودخلت
أنا مصادفة إلى الغرفة التي كانت فيها ماريانا ورأيتها
مشغولة في عد القوط

وما رأي ابنتي حتى سألتني وفي عينيها وميض
الحب ؟

— كيف وجدته يا أبي ؟

وكانت وهي تاتي هذا السؤال صورة مجسمة من
صور السعادة ، وكان من المستحيل أن تحلم بالأفكار
الغريبة التي كانت تملأ رأسي في تلك اللحظة ،
ولا بالخوف المزعج الذي استولى على نفسي
وكان صوتي أجوف كأنه آت من أميال بعيدة
عند ما أجبتها :

— أظنه شاباً ظريفاً

فاسمعت مني هذه الكلمات حتى طوقتني بساعديها
وقبلتني ، وكنت لا أزال أدعو الله أن أكون قد
أخطأت في تصوراتي ، وقلت وقد نظرت من النافذة
— إن عربة زوجك هذه الصغيرة جميلة
فقالت ماريانا :

— أليست غاية في الجمال حقاً يا أبي ؟ لقد
ابتاعها روي أمس ليجعل منها مفاجأة سارة لي
فقد تحطمت سيارته الخضراء المكشوفة !

لقد كانت هذه الكلمات الثلاث : « سيارته
الخضراء المكشوفة » كافية ! لقد قاومت في عنف
صدمة الشلل الذي كان خليقاً أن يصيبني عند سماع
هذه الكلمات ، وقد اقتنمت الآن اقتناعاً لا سبيل
إلى التشكك فيه ، بأن تريدواي واللص الشقي ليسا
إلا شخصاً واحداً

فإذا أنا فاعل ؟ أأحطم حلم سعادة ابنتي بأن

وسال منه الدم ، ولكن الصداق لم يكن من الجرح
إنما كان من التفكير ، وما كان لي أن أنام في غرفتي
مثلاً

وكما سمعت صوت أسرتي وهم يتحدثون على
المائدة ازداد اضطرابي وساءلت نفسي : أم يطعمون
الآن مع لص شقي ؟ وقد سمعت أكثر من مرة
ضحكة تريدواي المصيبة وهي تخرق الجو واصله إلى
أذني تذكرني بتلك الصبيحة المزجة وتلك للضحكة
التهمكية اللتين سمعتهما ليلة ضربني بالفئاح الانجليزى
على صدغى قبل أن يهرب بسرقتة ، ولم ألبث أن
ركزت في رأسى ما حدث ليلة السرقة ، وهنا ظهر
لى واضحاً شخص تريدواي وبخاصة أنه كان يملك
عربة خضراء . صحيح أن هناك سيارات خضراء
كثيرة ولكن كل هذه الاتفاقات بين الشخصين
لا يمكن أن تكون مجرد مصادفة

وبعد الغداء حضرت ماريانا إلى غرفتي
مستفسرة عن حالتى وأخبرتني أنها صاعدة إلى غرفتها
حيث تلحق بها سوزان لمساعدتها في إعداد حقائبها
فمرت أن روى سيكون وحده في غرفة الجلوس
إذ لا بد أن تشتغل امرأتى بنسل أدوات الطعام في
المطبخ ، إذن جاءت الفرصة . فقات لماريانا : إننى
أشعر بتحسن في حالتى وإننى لذلك سألحق بزوجهما
فأحدثت معه بعض الوقت . فطلبت منى وهى ضاحكة
أن أسرع لألحق به قبل أن ينصرف لأنه كان يقول
إنه سيخرج لابتاع كمية من السجائر

كان هذا كافياً لتوكيد شكوكى ، فقد كان الفتى
يرسم خطة الحرب ، ولمسل تنبى عن الغداء معهم
قد أقلق نفسه . إذن لن أتركه يذهب ، وبدل أن
أقصد إلى غرفة الجلوس اندفعت إلى خارج الدار

أبت في رأسها الشك من ناحية ذلك الرجل ؟ لقد
أصبح الرجل زوجها وانتهى الأمر ، وإذا ظهر
فيها بعد أننى مخطئ في ظنوني فهل يمكن أن تغفر لى
يوماً ما أقوله لها الآن ؟ اضطرب تفكيرى وأنا أحاول
حل هذا الاشكال ولكننى فضلت أن ألتجأ كمادنى
إلى الصبر وأن أتحمى في وقتى فلا أتسرع

وكان من المستحيل على وقد اضطرب شعورى
هذا الاضطراب أن أجلس معهم على مائدة الغداء ،
فأخبرت ماريانا أننى أشعر بشيء من الصداق لكثرة
حركتى منذ وقع لى حادث الإصابة ، وأننى سأوى
إلى غرفتي طلباً للراحة ، وأقنعتها بأننى لن أصلح
لجالستهم وأنا أشعر بذلك الألم ، وأننى على كل حال
لن أستطيع أن أطمع بنير فنجان من عصير الطماطم
ووعدها بأننى إذا تحسنت حالى بعد الطعام فسألحق
بهم وأؤكد معرفتى بزوجهما . فقبلت ماريانا عذرى
كما قبله الآخرون ، وانصرفت إلى غرفتي لأفكر
فيها أفمل

إذا لم أكن مخطئاً في أمر هذا الرجل فيجب
أن أسرع في العمل ، وليس يحتاج الأمر لأكثر
من أن أبلغ البوليس خبره فيقبض عليه وفي الوقت
نفسه يفسخ زواج ماريانا

ولكن للفضيحة التى تنشأ من ذلك التصرف
ثم لنفرض أننى كنت مخطئاً في ظنى ، ألا يجوز أن
يقبض على "بتهمة البلاغ للكاذب ، وبأننى تسببت
في القبض على رجل برى" وبغير ذلك من التهم ؟
إذن يجب الاحتراس والحذر . ولو أننى استطعت
أن أدخل الرجل بضع لحظات لأمكننى أن أستقر
على خير الطريق التى يجب أن أتبعها في أمره ،
لقد كان رأسى مصدعاً حقاً كما لو كان الجرح قد فتح

بنظر إلى ولكنه جلس عابساً كأنه يتحداني أن أستمر في حديثي ، ولم يكن ممثلاً بارعاً فأى إنسان غيري كان يستطيع أن يفصح أمره من موقفه ، وقد شجمني ما رأيته منه على أن أواجهه بهذه الكلمات :

— ولقد كنت أنت أيها الشاب حاضراً للسرقة ، وتعرف كل ما يتصل بأمرها

فوثب الفتى واقفاً صارخاً صرخة شريرة مزعجة شبيهة بالصرخة التي شهدتها ليلة الحادث ، والتوت شفته العليا للتواء الشر فكانت أشبه بشفة حيوان يموى . ولقد أدرك أنه فصح نفسه بتصرفه فلم يبق هناك فائدة في الإنكار

وشمرت عندما ألقى على نظرة خاطفة أننى قد أصبت بجنون فظيع وخيل إلى أننى سائب عليه فأخنقه حتى أقضي عليه انتقاماً أولاً من الجرح الذى أصابني به ، وفوق ذلك تهوره في الزواج من ابنتي الصغيرة . ولكنى بمجهود فوق القدرة البشرية ملكت عواطفى ، فلما لاحظت الفتى هدوئى وتبين أننى لن أجا لشئ من العنف زال عنه هو أيضاً المظهر الشرير الذى بدا عليه عندما سألنى في صوت مضطرب : ماذا اعتزمت أن أفعل

فقلت له : إن أسهل الطرق أمامى هي أن أبلغ البوليس خبره . وهناشهدت في غرفة الجلوس منظراً غريباً ، فتريدواى اللص الوحشى انقلب حلاً وديماً يتوسل إلى كما يفعل الطفل الصغير ، فقل إنه هو أيضاً يحب ماريانا وإنه يجب أن تفكر في أمرها ، فلقد أراد أن يسعدها ، فقد أحبا حباً لم يشعر بمثله من قبل لأى مخلوق ، وإنه كان خالياً من العمل الثابت وكان مصدر رزقه المراهنة على الخيل ، وكانت ماريانا

آملاً أن يكون قد ترك مفاتيح السيارة فيها ، ولقد كان من حسن الحظ أن تحقق رجائى ، فلم أتردد في أخذ المفاتيح ودسها في جيبى ثم دخلت إلى غرفة الجلوس . وكان تريدواى عند دخولى على أهبة أخذ قبضته المعلقة على المشجب . فسألته كأنى لا أعلم شيئاً عن عزمه :

— أخرج أنت ؟

فلم يرفع قط نظره إلى وهو يجيب على سؤالى مدمماً بضغ كلمات تفيد أنه ذاهب ليلتاع علبة سجاير . فقلت له :

— إنك تستطيع أن تخاطب مخزن للسجاير تليفونيا فيرسل لك ما تريد

وأظن أننى تبينت رعشة عصبية في صوته عند ما أجبني بأن ذهابه شخصياً قد يكون أسرع من الكلام بالتليفون . فقلت متطوعاً :

— إذن سأذهب معك

وكانت اللجة القاطمة التي نطقت بها هذه الكلمات كانت صاعقة قد انقضت عليه ، فبدل أن يخبرني بأنه يسره أن أحبه تردد واضطرب ، وعقد لسانه فلم يتكلم . وعندئذ توكدت أنه هو نفسه اللص الذى ضربني ، فقلت آمراً :

— إجلس ولا تتسرع

فجلس واضماً قبضته على ركبته بينما أصابعه تعبت بها في حال عصبية ، فقلت له في غير مواربة :

— إنك تعلم أن هذه الإصابة التي في رأسى ليست من إطار حجلة ، ولكنى لم أرد أن أزعج أسرته فاختبرت هذا السبب ، والواقع أننى أصبت بضربة من مفتاح أنجليزى

وهنا بدأ الفتى يتحرك حركات عصبية ، ولم

تعتقد أنه يحسار أوراق مالية

وبعد أيام من خطبته ابنتي اعترفت في أن يجتهد في ربح مبلغ كبير من المال فوضع كل ما عنده من النقود على جواد كان من المؤكد أنه سيربح ولكن الجواد خسر وبذلك أفلس الفتى واستولى عليه اليأس وكره أن يخبر ماريانا بأنه خالي الوفاض وتحير فيما يفعل ، وكان جالساً في أحد المقاهي بطعم بعض الزاد إذ دخل رجل لا يعرفه وجلس على المائدة المجاورة له

ويقول تريدواي إنه رأي الرجل وهو يدفع الحساب للخادم قد أخرج رزمة كبيرة من الأوراق المالية ثم عاد قدسها في حافظة نقوده ، فقرر الفتى أن يتبعه دون أن يرسم في رأسه خطة معينة

وكان تريدواي ، على ما وري ، قد استولى عليه اليأس لحاجته الشديدة إلى المال بعد الخسارة التي حلت به ، فتبعت سيارته الخضراء سيارة الرجل الآخر لمسافة عدة أميال ، ولم يدفعه إلى هذه الملاحقة الجنونية للسخيفة غير عامل اليأس وحده ، ولم يكن يدري كيف يستطيع أن ينتزع حافظة النقود من صاحبها ولم يكن كذلك مسلحاً . وكان عقله يمود إليه ما بين لحظة وأخرى فقرر أن يرجع عن هذه المطاردة . ولكنه حين رأى السيارة الأخرى تغيب عن عينيه دفعت الحاجة الملحة من جديد إلى استئناف اندفاعه الأحمق ، على أنه لم يلبث أن انتهى آخر الأمر إلى الاقتناع بأنه مقدم على مضامرة شديدة الخطر ، فعدل عن مواصلة المطاردة ووقف ليبتاع علبه من السجائر ويشرب شيئاً خفيفاً

ولما رأى أن السيارة التي كان يلاحقها قد غابت في الأفق نهّد نهّد الارتياح ، وزال من نفسه في

تلك اللحظة عامل الاغراء الجنوني . ولكنه حين استأنف السير في الطريق الرئيسي غير قاصد إلى مكان معين رأي من جديد السيارة التي كان يلاحقها وقد وقفت أمام جراجي

هنا استولى عليه عامل الاغراء مرة أخرى ، ورأى أن الفرصة قد هيأت له نفسها ، وكان الطريق خالياً ، وقد اعتقد أن سبب وقوف السيارة خلل أصاب إحدى عجلاتها ، ولم يخطر له أنه كان يتزود بحاجته من البنزين ، ولما كنت على وشك إغلاق المحل عند وصول عميلي فقد أطفأت جميع الأنوار ، ولما كنت أعرف موضع خزان البنزين في السيارة ، فقد كنت أفرغ فيه البنزين في الظلام ولذلك لم يرني تريدواي عند ما هاجم العميل وإلا فانه لو علم أنه هناك شخصاً آخر لما أقدم على مجازفته الخطرة . وهذا هو الذي يفسر الرعب الذي فاجأه عند ما رآني مقبلاً عليه على غير انتظار ، وهذا هو السر أيضاً في أنه عاجلي بتلك الضربة القاسية عن غير عمد لأنه كان يفكر في الهرب أسرع ما يستطيع . هذه هي قصة الفتى في تفاصيلها رواها لي في بساطة وإخلاص

وطبيعي أنني قد تبينت أن الرجل الذي أُمّى ليس باللعن اليائس ولكنه شاب أحمق أغرته الظروف بالاثم ، وقد استطاع أن يقنعني في أثناء سرد قصته بأن مركز اليأس الذي وجد فيه نفسه لم يكن له من سبب إلا أنه لم يرد أن يحزن ماريانا التي كان قد وعداها بأن يقابلها في اليوم التالي بدار البلدية لمقعد زواجهما . استعرضت كل ما حدثني به الفتى ورأيت أن الأمر يتصل بابنتي وماترنو إليه من سمادة المستقبل فلت إلى التسامح والمطاف

على أنني وجدتني قد وقفت في الحيرة وقد

وأن هذه الناحية الخيرية لا تلبث أن تظهر إذا عرف الإنسان طريق الوصول إليها ، وأن فتاة طيبة مثل ماريانا تستطيع أن تحمل زوجها على أن يسلك سبيل الاستقامة فلا يحيد عنها .

وتحت تأثير هذه المواقف تقدمت للفتى باقتراح ملخصه أنى ، وكل يوم يمر تتقدم بى السن خطوة إلى الشيخوخة ، يحسن أن أستمع بمساعدة لي في الجراج ، فليكن هو مساعدى ، وإذا برهن على كفايته للعمل أخذه شريكا ، وفي يوم ما يصبح الجراج ملكا له ، وعرضت أن أقرضه مائة جنيه لقضاء رحلة شهر العسل إلى هافانا إذا وعد بالاستقامة وبقبول العمل مئى في الجراج ، فما سمع الفتى هذا الاقتراح حتى غمر السرور نفسه . وإننى بتهيئة هذه الفرصة له إنما أبرهن على أننى أميز بين الرجال ، واتفقنا على نسيان أمر السرقة فلا يذكرها أحدهما بعد الآن وتصالحنا على هذا المهد .

أحسست كأننى ماصرى طبيب القلب وشمرت بعد أن أنعمت هذا الاتفاق بالهزة التى يشعر بها المصلح الذى ينقذ الأرواح من الالم . وبدأ لى أن ما فعلته هو أحكم ما يمكن أن يعمل . فأنى عند ما فكرت لأول مرة أن هذا الفتى لص يجب أن أرسل به إلى السجن أرشدنى التفكير التزن إلى أننى لن أجنى شيئا من وراء ذلك ، ولكن ستكون نتيجة سلوك هذه السبيل جلب الحزن والشقاء لابنتى . كذلك فكرت في حالة امرأتى الشاذة وفي طبيعة سوزان وفيما أهرقه من كبرياء ماريانا فأدركت أن الفتاة لن تمش إذا منحت لأمها وأختها فرصة تذكيرها بالزيجة الفاسدة التى عقدتها من وراء ظهرهما ،

واجهتنى مشكلة صعبة الحل ، فقد ألقى الفتى بأمره بين يدى ، وأصبحت سعادة الفتاة التى نجحنا نحن الاثنين معلقة على الخطوة التى سأخطوها بعد ذلك لقد كانت عقيدتى في الطبيعة البشرية ثابتة دائما لذلك اعتزمت أن أعالج الأمر كله بنفسى ، فقلت لتريدواى إنه يجب عليه أول كل شيء أن يسلمنى الحافظة التى اغتصبها من التاجر حتى إذا عاد الرجل إلى أعدتها له وقلت إن اللص قد شمر بتأنيب ضميره فأرسلها إلى في البريد دون أن يذكر اسمه

فلم يتردد تريدواى في تسليمى الحافظة قائلا : إنه أنفق مما فيها أربعة جنيهات ، فوعده بأن أعوضها من مالى ، ثم قال الفتى في لهجة الحزين المتألم إنه الآن لا يملك المال الذى يسينه على اصطحاب ماريانا إلى هافانا في رحلة شهر العسل وهى الرحلة التى تتطلع إليها الفتاة في لهفة وشوق .

فسألته : ولكن ماذا بعد هافانا ؟ وكيف اعتزم أن يمش إذا ما انتهت رحلة شهر العسل ؟ فأجاب في استخفاف بأنه يستطيع دائما أن يحصل على رزقه من طريق المراهنة على الخيل ، وليس من شك في أنه حين يصل إلى هافانا سيلعب على السباق في حذر واحتياط وسيجنى بذلك بعض المال .

ولكن لم أحجب ذلك فليست هذه هى الحياة التى تناسب ابنتى الصغيرة ، ورأيت أنه لا بد من عمل شيء ما . لقد ظهر على الفتى أنه جاد في قوله وأنه قد تاب من ذنبه الذى دفعه اليأس إلى ارتكابه ، وكان ذلك واضحاً في حديثه وسلوكه المتواضع . وظننت أننى إذا هبات له فرصة حقيقية للعمل المفيد فقد يصبح رجلا صالحاً في الحياة ، وإننى أعتقد اعتقاداً ثابتاً أن هناك بعض الخير حتى في نفوس شر الرجال

جداً إذ قالت إنه في صحة جيدة وإنه يرسل تحياته واحتراماته للأسرة

وعاد للمروسان إلى البيت مساء أحد أيام السبت، وإذا كانت ماريانا قد نعمت بأيام طيبة كما قالت في خطابها فإن نظراتها تكفيان هذا القول، فقد ظهرت تحت العينين دائرتان سوداوان، وبدأ عليها كأنها كانت تعاني آلاماً نفسية شديدة. وقد تصنعت السرور والانشراح فهدعت مظاهرها أمها وأختها ولكنها لم تخدعني مطلقاً وقد أدركت أنها تخفي في نفسها أمراً لا تبوح به على أنني لم أحاول أن أسألها شيئاً.

وتأخر روى في النوم صباح الأحد وانفردت بماريانا على مائدة الفطور إذ كانت سوزان وأمها قد ذهبتا إلى الكنيسة، ولم تتكلم ماريانا كثيراً في أثناء الطعام، ثم تناولت جريدة يوم الأحد وبدأت أنظر إلى محتوياتها

وعلى حين فجأة سألتني ماريانا هذا السؤال :
— أظن يا أبي أن الرجل الذي ينش في لعب الورق بعد لصا ؟

أدهشتني هذا السؤال ولكنني أجبت عليه في لهجة قاطمة :

— الرجل الذي ينش في أية لعبة من الألعاب لص ما في ذلك ريب

فلم ترد ابنتي شيئاً على ما قالته، ولكنها اكتفت بأن تنظر إلى الفضاء نظراً تأملاً، على أنني أحسست بأنني سأسمع أمراً غير سار، فسألت ماريانا عرضاً :

— ومن هو الشخص الذي تعرفين أنه ينش في لعب الورق ؟

لذلك لم أتردد في حل الاشكال الذي واجهني على الصورة التي حللته بها

وبعد لحظات من هذا الاتفاق كنت أنا وروى نشرب معاً كأسين من الجعة وقد ساد نفسنا روح الصداقة المتبادلة، فلما دخلت ماريانا علينا الغرفة خبرتها بأن روي سيمعمل معنا في الجراج بعد عودتهما من رحلة شهر المسل، فأمن روي على كلامي مغتبطاً، ولم تعارض ابنتي في هذا الاتفاق ومن حسن الحظ أن روي كان قد أخبر ماريانا قبل يومين أنه اختلف مع أصحاب بيت الأوراق المالية الذي يعمل فيه وأنه فقد مركزه في ذلك البيت، أخبرها بذلك ليُعدها بقبول اشتغاله بعد عودتهما من الرحلة بالراهنه على الخيل، ولم تخبرنا ماريانا بهذا الخبر لأنها خشيت أن تعترض أمها على إنفاقهما المال في رحلة بحرية في الوقت الذي أصبح فيه زوجها عاطلاً من العمل

على أن ماريانا — على كل حال — لم تهتم بفقدان زوجها عمله في ذلك البيت المالي ولم تقم لذلك الحادث كبير وزن، لأنها كانت شديدة الثقة بروى وبقدرته على أن يجد لنفسه عملاً جديداً على أثر عودتهما من الرحلة. فلما عرضت عليها الاتفاق الذي تم بيني وبينه قبلت ذلك بارتياح ولكنها اشترطت شرطاً واحداً هو أن تقيم هي وزوجها في بيت خاص بهما

مرت بعد ذلك بضعة أسابيع مرأً سريعاً، لم أتسلم في أثناءها من ماريانا غير تذكرة بريد واحدة وخطاب مكتوب على عجل، علمت منهما أنها كانت مسرورة من رحلتها إلى هاافانا وأنها تقضى فيها على ما يظهر أياماً طيبة، ولم تقل عن زوجها إلا القليل

ولكن ابنتي كانت واثقة من أن زوجها قد غش بالفعل في الورق، وكذلك كنت أنا واثقة من ذلك، وقد اضطربت ماريانا اضطراباً شديداً لذلك الحادث الذي عكر عليها صفاء شهر العسل، ومن الطبيعي أنني تأذيت من سماع ذلك الخبر لأنه كان مقررًا أن يبدأ روى عمله في الجراج يوم الاثنين المقبل، فإذا كان الرجل لصاً حقاً فإن الأمر سيكون مشكلاً لم يمحض على عمل روى في الجراج غير أسبوعين حتى أدركت أنني قد أخطأت في عدم إرساله به إلى السجن عند ما كشفت أنه لص. فلقد ولد الفتى لصاً يجري دم الجريمة في عروقه، فقد وجدته يغش الزيت فيعطى عملائي زيتاً رخيصاً بثمان مئة، كذلك كان يغش في بيع البنزين إذ يتقاضى من العميل ثمن عشرة جالونات ولا يعطيهم غير ثمانية ولكن الضربة الأخيرة كانت عند ما غير عملة إحدى السيارات ثم أخفى بعض الأدوات الرئيسية الخاصة بالسيارة، حتى إذا سار العميل بسيارته قليلاً وكنت قد كشفت السرقة جريت وراءه وصحت به أن يعود لأنه قد نسي بعض أدواته

فنظر الرجل إلى روى نظرة قاسية وقال :
— أظن أنك أخبرتني أيها الشاب أنك قد وضعت جميع أدواتي في مكانها من مؤخر السيارة فقدمم روى بكلمات تفيد أنه قد نسي، وسار الرجل متبرماً بعد أن شكر لي أما أنا فكنت واثقة من أن روى كان يقصد طامداً أن يسرق هذه الأدوات. ورأيت أن الأمر قد وصل إلى حد يتطلب أن أتحدث معه، فأخبرته بأنني قد لاحظت ما كان يفعله، وقلت له : إنني عشت طوال عمري رجلاً أميناً وإنني معترم أن أسلك

فلم تجب لأول وهلة. ثم أقبلت نحوى فجلست على ساعد الكرسي الذي كنت جالسا عليه وخبرتني بتجربة محزنة مرت بها. فقد كان روى يلعب الورق مع بعض الرفاق في الباخرة كل مساء وفي ذات ليلة كان واقفاً على ظهر الباخرة مائلاً على الحاجز ينظر إلى الماء وكانت ماريانا جالسة على أحد الكراسي فوق إلى جانبها سيدتان لا تعرفان أن روى زوجها وجري بينهما الحديث، فقالت إحداها وهي تشير إلى روى :

— أترين هذا الرجل الواقف هناك المرتدى ملابس التيل الأبيض ؟ لقد قال زوجي إنهم طردوه الليلة الفائتة من على منضدة اللعب لأنهم ضبطوه وهو يغش

فعلت حمرة الخجل وجهه ماريانا عند ما سمعت ذلك الحديث وشمرت بأنها قد أهينت وحقرت، وكان شراً من ذلك أنها وثقت من صدق ما تحدثت به السيدتان، لأن روى عاد في الليلة التي ذكرتاها إلى غرفتهما مبكراً على غير عادته، وبدأ يحرق عدداً كبيراً من أوراق اللعب على شجرة مشملة، فلما سأله عن السبب فيما يفعل أجاب بأنه لم تعد به من حاجة إلى هذه الأوراق بعد الآن. ولم يقل شيئاً عن طرده من غرفة اللعب

ثم قالت ماريانا :
— فلما سمعت حديث السيدتين أدركت أن روى كان يحرق بعض (الآسات) الزائدة التي كان يدهسها في حزم الورق التي غش فيها وأخبرت ماريانا زوجها بما سمعت فلم يزد على أن ضحك وقال لها : أن لا تهتم بما سمعت فإن رفاقه في اللعب قد هاجهم أن حظه كان موافياً

مسالك الأمانة إلى نهاية أيام حياتي ، واتهمته بأنه
كان يريد سرقة هذه الأدوات

فهاج للفتى هياجاً شديداً وصاح هازئاً بأمانتي
قائلاً إنها هي السبب في أن أعمالي لم تتقدم تقدماً
كبيراً . وقال أيضاً إنه كره حياته في الجراج وإنه
قد اعتزم العودة إلى المدينة متى توافر له شيء من
المال يستعين به على ذلك . فذكرته بوعده الذي تعاقدا
عليه ، وقلت له إنه يستطيع أن يذهب إلى المدينة
إذا أراد ولكنه لا يستطيع أن يأخذ ماريانا معه .
وهنا تجدد هياجه في صورة وحشية شريرة وتحدثني
أن أ منع ذهاب ابنتي معه إذا استطعت قائلاً إنها امرأته
وأنه ينصحني بأن أهتم بشؤوني الخاصة ، وترك
المكان في وسط الحركة قاصداً إلى البيت للغداء

ومن حسن الحظ أنني كنت أعلم مما سمعته من
ماريانا عن سوء خلق زوجها في الأسابيع الأخيرة
أنني أستطيع أن أقنعها في سهولة بالألا تذهب معه
إلى المدينة . ولقد علمت منها أنها في الواقع لم تحببه
قط حباً حقيقياً فسررت لذلك سروراً شديداً .
وظهرت لي أنها كانت قد أخذت بمظاهره الجذابة ،
ولما كان المساء لا يمتزج بالزيت فقد أدركت ماريانا
حتى قبل أن تكشف ما كشفت من عدم أمانته ،
أن هناك هوة واسعة تفصل بينهما ، وأنهما ليسا من
فصيلة واحدة . فلقد نشأت ماريانا في بيئة متشددة
ضيقة التفكير ولكنها كانت أمينة شريفة بطبيعتها .
أما روي فكان شاباً عديم الخلق ظهرت نقائصه
حتى في الأمور التواضعية كالنفس في ورق اللعب . وقد
كان من أثر هذا التفاوت بين الزوجين أن انصرف

نفس ابنتي عن الرجل الذي ساقته الأقدار إلى طريقها...
وإذ علمت ذلك كله ازدردت غداً مسرعاً وعدت
إلى الجراج حيث تركت روي في هياج شديد ولست
أدري ماذا يمكن أن يفعل

ولما عدت إلى الجراج وجدت أمامه سيارة
عليها لوحة من لوحات ولاية بنسلفانيا ، وتبينت
أنها سيارة للتاجر الذي سرقت حافظة نقوده أمام
عيني ، فسررت لذلك لأنني أستطيع الآن أن أرد
له الحافظة . ولكنني عند ما خطوت إلى الداخل رأيت
مشهداً غير عادي في انتظارى ، فقد كان للتاجر
شاهراً مسدسه على روي متحدثاً في الوقت نفسه
تليفونياً مع مركز البوليس . فأن توسطت الجراج
حتى أمرني الرجل أن أرفع ساعدي وأن أقف إلى
جانب روي . وكانت لهجته قوية ثابتة ، وكان طبيعياً
أن أشعر بأنني قد صممت ، فقلت له إن حافظة نقوده
مني وإنتي أريد أن أردّها إليه
فقال للتاجر في تهجم :

— ليس ثمة ما يدعوك إلى التسرع ، فإني
سأخذها من يد البوليس .

فاعترضت على هذا الكلام وقلت له : إنه غطىء
فيما تصوره وإني مستعد للإيضاح . ولكنه ضحك وقال :
— لقد سمعت من الإيضاحات ما يكفي
لهذا المساء .

فالتفت إلى روي تريدواي ، فرأيت على وجهه
أمارة ارتياح غريبة ورأيت شفثيه ملتويتين التواء
إجرامياً في ابتسامة صفراء . ولم يقل للشي كلمة
واحدة في صالحني على الرغم من علمه ببراءتي ، بل

من مشادة قبل ذهاب إلى البيت للفداء . ولكن ما حيلتي وقد وقعت في هذا المأزق الحرج !

وحضر البوليس واعتقلنا نحن الاثنين !

وكان اعتراف روى في مركز البوليس كافياً لانهائى اتهاماً شاملاً بالاشتراك معه في الجريمة اشتراكاً تاماً ، فقد روى قصة شيطانية وصف فيها طريق تدبيرنا خطة الجريمة قائلاً : إنه أعطاني الحافظة على أثر ابتعاد التاجر بسيارته عن نظرنا

ومن حسن الحظ أن رئيس البوليس كان رفيقاً ماسونياً في المحفل الذي أنتمى إليه ، وقد اشتهر رائحة الكيد في اعتراف روى تريدواي . وكان الرجل يعرفني منذ سنوات عديدة ويعلم أنني رجل شريف مستقيم ، وقد اعتقد أن تريدواي يكذب في اعترافه ولكن كيف السبيل إلى إثبات ذلك ؟ فهو حبال شكوى للتاجر واعتراف تريدواي الذي يتهمني فيه مضطرب لأن يبقيني في الاعتقال إلى أن تثبت الوقائع التي تبرر الافراج عني . وبدأ البوليس في الحال التحريات عن حياة تريدواي فظهر أنه قبض عليه عدة مرات في مدن مختلفة بتهمة تزوير أوامر صرف من بعض البنوك ، وأنه كذلك اتهم في كثير من السرقات ، وهو فوق ذلك متزوج بامرأة تقيم في نبراسكا وقد هجرها منذ سنوات . إذن زواجه من ابنتي باطل بطبيعته ثم هو جريمة بما قب عليها

أما ملف سوابقي فكان نظيفاً ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن بد من أن أبقى سجيناً حتى يتم التحقيق وتقديم للقضاء . وقد رويت لرئيس البوليس كل ما حدث علي حقيقته وأظن أنه قد تبين خطر

(٤)

لقد كان على المكس من ذلك متبسطاً بإشراكى في تهمة .

ولم يحول التاجر مسدسه عنا لحظة واحدة ، بل بقى مصوبه نحونا حتى انتهى من حديثه التليفوني مع البوليس ثم تلفت إلى وقال :

— لقد كانت لعبة محكمة جميلة ، ولم يخطر لي قط على بال أنكما أعددتكماها معاً ، على الرغم من أنني لم أكن رجلاً غيبياً ، ولكن من حسن الحظ أن الجريمة التي وقعت على مكنتي من الحصول على رخصة بحمل المسدس ، ولقد أخبرتك من قبل أنني لا أنسى أبداً الوجوه التي أراها مرة ، فلم يقع نظري على هذا الرجل حتى تذكرت كل ما حدث

فقلت في شيء من الضعف :

— إنك مخلي يا سيدي فانا لم تكن لي يد فيها حدث

فقال الرجل في هدوء :

— الآن سأقول : واحد

وهنا تلفت إلى تريدواي وقلت :

— قل له الحقيقة فانك تعلم أن لا يدلي في السرقة فخدجني روى بنظرة خبيثة وقال في لهجة المراء والتعدي :

— لا فائدة في أن تنكر أننا كنا متفقين يا أبي فليس الرجل أباه ولا غيباً

وهنا شعرت بدوار شديد يستولي على حواسي فهكذا كان أسلوب ذلك اللص الشقي في مكافأتي على إحساني إليه وشفتي عليه : لقد أشركني في تهمة . إذن كان هذا هو انتقامه مني لما كان بيننا

القول الحق ولكنها ابتسمت ابتسامة أشبه بالفرح وقالت :

— إنه لا يعرف مقدار بنفسي له ، فقد لُزمت الهدوء في حياتي معه ولم أشتبك معه قط في نزاع ، فأنا أعرف كيف أنزع الحقيقة منه ، وها أنا ذى ذاهبة لأفعل ذلك

وبهذه الكلمات تركتني ماريانا أسائل نفسي كيف تستطيع حمل ذلك الشرير على الاعتراف بالحق وأنا أنقل هنا ما حدث بعد ذلك عن لسان رئيس البوليس واثنين من المفتشين فيظهر أن ماريانا قد ذهبت مباشرة إلى الرئيس وارن فأخبرته أنها تريد مقابلة روى تريبواي لتحصل منه على اعتراف بجلي الحقيقة في موقف أبيها . فأجابها الرئيس بأنها تتعرض لمهمة شاقة لأن تريبواي منشبت بأقواله وليس في مقدور أحد أن يزحزحه عنها .

ووكد الرئيس لماريانا أنه عارف بأنني مظلوم في هذا الاتهام وأن عملياً ما هو أستطيع أن يظهر الحقيقة أمام القضاء . ولكنها رجته في أن يسمح لها بالمقابلة وأن يسمح لاثنتين من رجال البوليس بالوقوف في سجن مجاور لسجن روى ليسمعا ما يجري بينها وبينه من حديث . فوافق الرئيس على طلبها وهو قليل الرجاء في نجاح مهمتها ، لأنه بالطبع لم يدرك أحد مبلغ مهارة ابنتي وحذقها ، فان قراءتها لجميع صحف السينما التي كنت أحضرها لها لم تذهب عبثاً ، ثم هي كانت دائماً راغبة في أن تلتحق بالمتفرج ولما دخلت ماريانا على روى في سجنه وجدته جامداً مغموماً ، ولكنها لم تلبث أن أنمشته في مهارة

مركزي في الاتهام على أنه عجب من وضي كل ما وضعت من ثقة في لص ، ومن رأيه أنني أستحق الوقوع في هذا المأزق لأنني لم أسلم تريبواي للبوليس في الحال عند ما عرفت أنه لص

ومن الطبيعي أن نجزع سوزان وامراتي عند ما اتصل بهما خبر سجنني ولم يفكرا إلا في المار الذي يلحق بهما من جراء ذلك وأن تكونا متحققتين من بطلان التهمة الموجهة إلي ، وبدأنا نحملان ماريانا مسؤولية كل ما حدث ، فواجهنا من تريبواي ، ولكنني تدخلت في الأمر بحزم وطلبت منهما ألا تريدا في متاعب ماريانا بمثل هذا اللوم

وجاءت ماريانا لزيارتي في سجن المقاطعة وكان قلبها يتقطع حزناً على ما أصابني ، وقد رويت لها كل ما حدث ، فانقلب فتورها نحو تريبواي إلى بغضاء شديدة حين عرفت كيف جعد جيلي وتنكر لاحساني وشفقتي عليه ، وقالت إنها مسرورة لملها أن لذلك اللص الشقي امرأة على قيد الحياة فان ذلك يجعل زواجه منها باطلا بطبيعته دون حاجة للاتجاء إلى قضايا الطلاق المتعبة

وطلبت من ماريانا أن تتصل بمحام كبير للدفاع عنني لخطر الاتهام الموجه إلي وللظروف الخاصة المحيطة بالقضية من جراء اعتراف تريبواي ولكنها وفتت رأسها طلياً وقالت في لهجة حازمة :

— ليست بك يا أبي من حاجة إلى محام وتبطلقون متراحك قبل المحاكمة فسأجل أنا ذلك اللص على الاعتراف بالحقيقة

فوكنت لها أن لا أمل هناك في عمل روى على

الفرصة التي تطلعت إليها في رحلة هافانا ، فأية مخلوقة
أكون أنا إذا لم أقف إلى جانبك بعد أن علمت بذلك؟
على أنه إن كان هناك ما يحزنني قليلا فهو أن أبي
قد اشترك معك في هذه المغامرة ، لقد كنت أود
أن تكون أنت وحدك الذي عرضت نفسك للخطر
في سبيل إرضائي وإسعادي

ومسمع تريدواي هذه الكلمات حتى اندفع في
غير وعي إلى الشرك ، فقد قال على مسمع من رجل
البوليس الواقفين في السجن المجاور لسجنه يسجلان
أقواله :

— أصنى إلى يا ماريانا . إننى قدم تشاجرت مع
أيك حين أراد أن يفرق بيننا ، لذلك أشركته في
الهمة مى ، ولكن الواقع أنه لم يشترك مى في السرقة
قد غارت هذه المغامرة وحدى ، ولكننى أريد
الانتقام منه . لذلك سأتركه يشاركنى العقاب

ودفعه الفرور إلى البهاة بمقامته في سبيل
إرضائها ثم قال :

— وموضع الفكاهة في هذه القصة أننى لم
أكن أحمل مسدسا عند ما هاجت الرجل ، ولم يكن
في يدي غير مفتاح انجليزى ، وقد اضطرت أن
أضرب به أباك على صدغه ، على أنه بقى في يدي عند
ما هربت ولا يزال عندي إلى الآن

كان ذلك كافيا ، فلم ينته تريدواي من هذه
الكلمات حتى دخل رجلا البوليس إلى سجنه
فطوقاه . ثم التفتا إلى ماريانا وقالا :

— لقد أحسنت كل الاحسان أيتها السيدة
الصغيرة

ومفهوم بالطبع أن تريدواي لم يكذبين البور

تامة إذ طوقته بساعديها وأخبرته أنها آسفة لعدم
استطاعتها زيارته قبل هذا الوقت ، فقد حبستها أمها
في غرفتها منذ اليوم الذي قبض فيه عليه وعلى أبيها .
والحق أن روى كان شديد الحاجة إلى من يحوطه
بشيء من المظف وقد سقته ماريانا جرعة وافية
من عطفها وحنانها .

ثم بدأت الفتاة تلبس دورها ، ومن حسن الحظ
أن روى لم يكن قد عرف بأن البوليس قد تحرر
عن سوابقه ، وأن ماريانا قد علمت بأن له زوجة
شرعية على قيد الحياة . وكان الفصل الأول الذي
مثله إظهارها الغضب على ، فقالت إنها عاركتنى
عمرها كاشديدا لأننى رفضت أن أسمع لها بمرافقتها إلى
المدينة بعد تركه عمله في الجراج . ثم أردفت
ذلك بهذه الكلمات :

— كأنه يستطيع أن يفصلنا أحدهما عن الآخر ،
وبودى أن أرى ذلك المخلوق الذي يستطيع أن يفرق
بيننا . لقد قلت لأبى إننى مستعدة أن أذهب مع زوجى
إلى أى مكان يريد الذهاب إليه ، قلت إن روى هو
زوجى الذي أحبه ويحبني وإنى واثقة أن ليس في
الوجود من أحد يمكنه التفريق بيننا

وابتلع غرور تريدواي كل هذا اللق ، ثم مضت
ماريانا تنفذ بقية خطتها ، وكان روى قد تأثر تأثرا
شديدا بأخلاصها وولائها فقال إنها ملاك في وقوفها
إلى جانبه

فقال ماريانا قالبة أوراقها الأخيرة :

— ولم لا أقف إلى جانبك ؟ ألم تعرض نفسك
للخطر بارتكاب جريمة السرقة حتى لا تقطع على

الذي مثله ماريانا ويرى نفسه قد اندفع في بلاهة إلى الشرك الذي نصبته له ، حتى هاج وثار داخل السجن رامياً ماريانا بكل ما في القاموس من ألفاظ للسباب مكرراً : خائنة خائنة ..

لقد كان ما حدث لماريانا محنة وتجربة من تجارب القدر ولكنها خرجت منها ظافرة . وقد أفرج عني في الحال بعد هذا الاعتراف الجديد الذي سجله أحد رجلى البوليس وشهد عليه زميله

وروى تويدواى يقضى الآن مدة الحكم الذي صدر عليه في سجن الولاية . على أنى بعد الذي حدث لم أفتقه ثقتى في الطبيعة البشرية ، ولا أزال مستمداً لأن أهيء فرصة الإصلاح لأى إنسان ،

ولكنى قد أدركت شيئاً آخر هو أن من المستحيل إصلاح مجرم متمود الاجرام مثل روى تويدواى

أما فيما يتصل بماريانا فاني واثق من أن بعض المخرجين لا بد أن يكون في حاجة إلى مثلها ، فقد برهنت على كفايتها النادرة في تمثيل المأساة ، وقد وفرت على نفقات المحامي الكبير ووقتي عار الوقوف أمام المحكمة . وإنى لأتساءل غالباً : أليست ابنتى أرق طبيعة من أن تحتل التجربة التي مرت بها في الحياة وإذا لم أكن أنا بعد كل الذي حدث قد أصبت في عدم إخبارى ماريانا بما عرفته من أمر زوجها قبل سفرهما في رحلة شهر العسل !

عبد الحميد محمدى

بنك مصر

انعقدت الجمعية العمومية العادية لمساهمي بنك مصر بتاريخ ٢٥ مارس سنة ١٩٣٩ بدار البنك بالقاهرة . وبعد التصديق على تقرير مجلس الادارة لسنة ١٩٣٨ اعتمدت الحسابات عن السنة المذكورة . ووافقت على صرف مبلغ اثنين وثلاثين قرشاً أرباحاً لكل سهم مقابل تقديم الكوبون رقم ١٨ ابتداء من يوم الاثنين ١٧ ابريل سنة ١٩٣٩ إلى مركز البنك الرئيسى بالقاهرة أو فروعها بالأقاليم .

وبما أن الكوبون المشار إليه هو آخر كوبون ملصق بالسهم فترجو حضرات من يحفظون لديهم أية كمية من أسهم البنك أن يقدموها لمركز البنك الرئيسى بالقاهرة ابتداء من يوم ٣ مايو سنة ١٩٣٩ - لالصاق كعوب جديدة بكوبونات أخرى .

وستحجز من قيمة الكوبون ضريبة الحكومة بواقع ٠.٧٪ مضافاً إليها خمسة مليات عن السهم الواحد نظير إلصاق الكعوب الجديدة .

عضو مجلس الادارة المنتدب

محمد طلعت حرب

الملك

للقصصى التشيكي كارل كابل
بقلم الاستاذ ابراهيم حسين العقاد

وراح يذرع حجرة جيئة
وذهباً واللقاق يسود نفسه لفساد
برنامج أعدده لقضاء ليلته... لقد
أراد أن يقضيها مضجماً على المقعد
الطويل والكتاب في يده وضوء
المصباح الهزيل يداخل نفسه
روح من الهدوء والاستقرار..
يا للمجب ! لطالما برم بهذه

الضجمة وكرهها في نفسه ولكن... لآى سبب
تراه قد أحبها الآن ؟ ! أى سر غامض جعل هذا
الاحساس يسوده فيحب وحدته ويفضلها على كل
شئ وبخاصة في هذه الليلة التى وصلته فيها البرقية
التى أمسك بها في يده وهو تحت سلطان الفكرة
الجديدة الطارئة فقلبتة رعوة من طفولته القديمة
وسرعان ما كان يمزقها إرباً ؟ !

ما أسرع ما يغيرنا الزمن . وما أقصرها فترات
تلك التى يجعلنا فيها تتحول من حال إلى أحوال ! !
لقد تغير إحساس الشاب عند ما كان ينتظر في ذلك
الجو الرطب مقدم الفاترة التى تأخرت عن موعد
وصولها ... ساد إحساس من الأسى والراء إذ كان
كل ما حوالبه يوحى بالفاقة والفقر والبؤس ... تلك
أشياء لمسا مجسمة في وجوه أولئك المنتظرين هباء
أو القادمين وقد مستهم الضراء وعبث الكلال
بأجسادهم الهزيلة المرهقة

ووسط زحام جموع القادمين استطاع أن يتعرف
كيان شقيقته الضامر وأن يلمح وجهها الشاحب
وعينها الشاردتين وهى تسير متهاكة تجر وراءها
حقبة كبيرة، جملة مرآها يستقد أن شيئاً ما قد دم
شقيقته المزيرة

غلبه الناء ثائية وهو يتناول غدائه وأحس
برأسه يكاد يتفجر فأسنده إلى راحة يده في الوقت
الذى انسحبت فيه مدبرة البيت رائية له وقد آثرت
تركه مضجماً على المقعد الطويل ناعماً — كما خيل
لها — براحة كانت في الواقع عذاباً كابد المسكين
قسوته . فقلبه غير منتظم الضربات ومعدته قد
استعالت في ثقلها حجراً ، وشمر وقد خارت منه
القوى برغبة في النوم ولكن ... آه ! لو أن الكري
واتاه وكمل السهاد عينيه !

ومرت ساعة عادت بعدها مدبرة البيت تدق
بابه لتعطيه برقية فضها مسرعاً وقرأ :

٤٠ — ٧ × ١٠ — ١٩ أصل الليلة

« روزا »

أية ليلة تراها هذه الليلة ؟ ! تلك كانت الفكرة
التى شغلته والتى وقف حياها في حيرة والبرقية
في يده محاولاً أن يفسر طلاسم أرقامها ؛ وبعد جهد
استطاع أن يفهم أن شقيقته الزوجية روزا ستصل
في قطار الليل وعليه أن ينتظرها فربما حضرت
لشراء بعض حاجاتها ولكن ... لمن الله تقيصة
للتسرع في خلق النساء ! إذ حرمته دون مبرر بعض
راحة كان ينشدتها

واستقل الشقيقان حربة أسرعتهما إلى البيت دون أن ينسى خلال الطريق أن يمرض عليها البيت في فندق يستأجر لها إحدى حجراته إيماناً في توفير راحتها ولكنها لم تجبه إلا بسيل من الدموع علقته بعض قطراته بأهدابها فأمسك يدها الضامرة بيديه وراح في حنان يربت عليها . ولكن كانت سمادته عظيمة عندما اكتسى وجه المسكينة بإبتسامة مشرقة وهي تنظر إليه نظرة الممتنة الشاكرة ولكن سرعان ما تغير كل هذا عندما وصلا المنزل وجلست روزا على المقعد الطويل فحوطها الوسائد ... كانت بادية الرجفة شاردة النظرات تاربها مرتعشة للشفتين مما روع شقيقها فأقبل عليها مستفسراً طالباً منها أن تكون في حديثها أكثر هدوءاً خشية أن تمزق مسكينة الليل وهي تكلمه في عصبية قائلة :

— أقول لك إنى فررت ... هربت من زوجي ... آه ! لو أنه كان في وسعك أن تتصور مدى آلام فقال كنت أنوء تحتها ولكن لا ... إنك لن تستطيع أن تصدق كم كان يكرهني ... أخى ... لقد فررت ... هربت من بيت الزوجية وأتيتك طالبة نصيحتك وإرشادك ...

وانفجرت المسكينة تبكي بدموع غزيرة بينما تجهم وجه شقيقها جورج، وراح يخطو داخل الحجرة في عصبية نائرة تصور خلالها حياة أخته مع زوج لا خلاق له يتمدد تقربها وإهانتها أمام الخدم ... لا يعرف غير ملاهيه وملاذه يجول فيها ويصول ثم يقترب وينزل يده إلى عنقه إذا ما طالبت زوجته المسكينة ببعض ضروريات الحياة ... أية قصة تراها تلك التي

أرغم على سماعها خاصة بطريقة الزوج المعيشية وكيف يتناول الطعام ويقابل بالشر ما تسديه زوجته إليه من الخير، وإذلالها الدائم وتحقيرها والمشاغرات التي تنشب بينهما في وحشية ! وأحس المسكين بموجات من الاشفاق تغلي عليه غليل إليه معها أنه من الغبن أن يتحمل كل هذا دون أن يحتج أو يحرك ساكناً ونظر من خلال أساه إلى تلك للشابة المسكينة المهذبة التي غلبها الضنى وأذوى عودها المم وهي التي ما عرفت الخنوع ولا رضيت المهانة وعاشت مدالة محبوبة ثورية ذات كبرياء وأنفة ... هذه الفتاة التي كانت تناقش ولا تخضع لأى ، والتي كانت عيناها تتوهجان بيريق لامع يعبر عن الداء ... المسكينة ! تجلس الآن وقد جرقها سيول الحزن وفاضت مدامها وتهدج صوتها الطروب حتى كانت تتكلم بصموية لم تحتلها أعصاب جورج الذى صاح يريد إسكاتاً وهو يضال أحاسيسه الرائية :

— كفى ... إننى أعرف كل شيء وخارت قوى المسكين ولم يستطع إتمام حديثه في الوقت الذى زاد فيه نشيج روزا وهي تقول :

— لا تقل هذا ... إننى ضالة في هذه الحياة ، وليس لى في هذه الدنيا سواك

واتسع المجال للبكاء فعلا صوتها وهي تقص مأساتها وما حدث لها وصوتها يتلون مع رهبة الحوادث وقسوتها ... وجأة توقفت عن البكاء وسألت شقيقها :

— وأنت جورج ... كيف حالك ؟
— بالنسبة إلى أعترف لك أنى لا أستطيع

للشكوى ولكن .. بالنسبة لك .. هل تنوين العودة إليه ثانية ؟

— أنا .. محال ... هذا مستحيل لن يحدث بل إن أوتر الموت على ذلك ... آه ! لو أنه كان في وسعك أن تتصور أى حياة كنت أحياها !

— حسن ... ولكن انتظري ... في هذه الحالة ما الذى تنوين عمله ؟

لقد فكرت في هذا قبلا ... سأقوم بمهمة التدريس أو ألتحق بأى عمل ما ... لا تعجب فان الزمن كفىل باقناعك أنى مستطيلة النجاح في عمل وبأنى سأكون سعيدة إذ أريح قوتى بنفسى ... لست أطلب إلا نصيحتك وتشجيعك .. أما مسكنى فسأجده سريعا في أى مكان ولكن فكر منى قليلا .. ونهضت من مكانها في عصبية وراحت تذرع الحجرة إلى جانب جورج وهى تمحده قائلة :

— إن المنقولات القديمة التى تركها أبوانا ستكون من نصيبى ... لا تنظر إلى هكذا حتى أتم حديثى ... لست أريد شيئا ولكنى أريد أن أعيش في هدوء وسلام غير عابثة بكوني فقيرة ، لأن أقل شيء سأجد فيه كفايتى ما دمت بميدة عن ذلك الجو ... إن العمل هو غاييتى وإليه أصبو ... سأغنى فقد مر زمن طويل لم تردد فيه شفتائى أى لحن .. بجورجى ... آه لو تعلم !

— تطرقين أبواب العمل ! ! إننى في شك من تحقيق ذلك بل إنى أوكد لك أنك لست مستطيلة هذا لأنه شيء لم تمتدده نفسك ... ستجدين العمل سهبا ... صعبا جدا يا روزى

— كلا ... أنت لا تعرف كيف كنت أعيش ... أى آلام كابدت حزازتها وأى تقريع كان يوقر أذنى ويضنى جسدى من أجل اللقمة التى كنت أتبلغ بها أو للكساء الذى كان يسترنى ... لا أستطيع أن أعمل ! ! كلا أنا واثقة من قدرتي على العمل وسترى بنفسك كيف سأخطو بنجاح وكيف سأكون سعيدة في حياة أتخيلها مظلة بالهدوء والأمن ... سأجدراحة النفس في كسرة جافة أمسك بها رمقى وهدوء الضمير في مكان خشن آوى إليه ... شجعتى بكلمة ... قل إنه باستطاعتى أن أصبح إحدى النساء اللاتى يعملن ويجاهدن من أجل العيش ... وحتى لو ما كسنتى الظروف سألتحق بأحد المصانع .. ها أنت ذا ترى أنى عدت للأمر عدته تماما ... أيتها السموات الرحيمة ! ! أى أمل براق هذا الذى جملته يداخل نفوساً عظيمة ! ! لقد أحس جورج بالخجل يجلله إذ كان ينظر إلى العمل نظرة غريبة حورتها هذه الفتاة الشبوبة الحماس ... هاهى ذى تمودأعواما إلى الوراء .. إلى أيام طفولتها .. إنها لا بد مصيبة كل نجاح ... بل كيف يقدر لمن لها مثل هذا الروح أن تلقى الفشل ! !

واستطردت روزا ثانية تقول :

— سأغامر وإنك لترانى مقدمة على هذه المفامرة ... لن أقبل مساعدة من مخلوق وسيكون في وسى أن أريج وأن أزين مائدة طعامى ببعض الأزاهير ... وحتى هذه الأزاهير إن عز على نيلها سأكتفى بأن أراها وأن أجتاز الطرقات ... أية أحاسيس طاغية غمرتني بالهدوء عند ما استقر رأيى

على الحرب ... للفرار من ذلك الجحيم الذي كنت أعيش فيه، وما أبعد الفرق بينه وبين حياة بدأت الآن أراها طالما احتلت خيالي وتفكيرى ... كم أنا سعيدة!!
— أيتها المجنونة الصغيرة، إنه ليس بالأمر السهل ما تفكرين فيه ... سنفكر سوياً ولكن ... عليك أن تريحى الآن جسدك المرهق على ألا تتحدثى فى هذا الأمر واتركينى إلى وحدتى فلدى بعض أفكار . وحتى إذا ما طالعنا الصباح الجديد بأضوائه سارحتك برأى فى الأمر الذى تنتوين ... اذهبي الآن لتنامى .

كان من المبعث إقناع روزا باحتلال فراش أخيها إذ صممت على قضاء ليلتها نائمة على المقعد الطويل وهى فى كامل ملابسها ، الأمر الذى لم يجد جورج معه إلا موافقتها، فدثرها بكل ما لديه من غطاء دقء ثم أطفأ المصباح، فساد الهدوء المسكن إلا من تهذجات صدرها التى كانت كمن تستصرخ للثناء مطالبة بالرحمة .
وفى دعة فتح جورج النافذة لتنمر الحجرة نسات هذه اليلة الهادئة من ليالى أكتوبر وقد صفت السماء وراحت النجوم تلمع على صفحتها ... وجرت به الذكريات إلى الماضى أشواطاً بعيدة ...
تذكر ليلة ما وهما صغيران : هو وروزا ، وقد وقفا مثلاًصقين إلى جانب النافذة فى إحدى الليالى الباردة يرقبان للشهب وهى تنتقل من بروجها وقد جعل جسد روزا يهتز إثر عبث رياح الليل به ... إن صوتها للساذج الحنون ما زال يتردد فى سمعه وهى تهمس قائلة :

« عند ما يهوى نجم ساقنى على الله أن يجعلنى

ولها وأن يشد أزرى لأقوم بعمل عظيم » .
كان الأب فى تلك الليلة غارقاً فى نوم عميق بينما كان الأخ يستشعر المعظمة فى نفسه فضم الصغيرة إليه ليحميها فى صدره إذ كانت ترتعد من برد الليل وحى أحلامها ... وهوى نجم من السماء إلى الحديقة وعلا صوت الصغيرة روزا تقول « جورج ... » وأجابها أن نعم وهو يفكر فى نفسه فى ذلك للعمل العظيم الذى تمنى للقيام به ... أيتها المخلوقة المسكينة النعسة ... أى عمل جليل هذا الذى تحملين به ؟ إنك إذ تحملين بالجد تنبذين الراحة وتحملين كتفيك الرقيقتين من الأثقال والهموم ما لا قبل لهما بحمله ..
نعم إنك لست بالقادرة على شيء وحتى لو أردت أن تمدى يدك لصرعى البؤس لجرتك أيديهم إلى الهاوية .. وسمع وهو فى وقفته تلك همس الصغيرة وهى تناديه ثانية : « جورج » قالتفت إليها قائلاً :
« أنصتى إلى ... لقد فكرت فى الأمر فلم أجده من الأعمال ما يليق بك ... إن هناك أعمالاً كثيرة ، ولكنك لست مصيبة منها الرمح الذى تبينين . »

وأجابته وهى فى هدوء :

— سأرضى بالقليل

— كلا ... انتظري لحظة لأنك لا تعرفين معنى قولك .. ها أنت ذى ترين أنى سعيد بعملى قانع بمرتبى ، بل وفى وسى أيضاً أن أحصل على عمل آخر « بعد الظهر » ولكنى لا أريد لأنى لا أعرف أى عمل سأمارس ولذا أعرض عليك بمصر المال

— أى مال تمنى ؟

— سأتنازل لك عن نصيبى فى أرباح شركة

والدى ... إنه مبالغ فحصلين منه على إيراد سنوى
بمبلغ خمسة آلاف جنيه
وهبت الفتاة صارخة :

— هذا مستحيل

— أوه ! لا تصرخى ... إنها الأرباح فقط
فاذا لم تريديها فبوسمك عدم صرفها

— وأى شيء سيتبقى لك أنت بعد ذلك ؟

— لا تهتمى بهذا ... كثيراً ما غلبنى الخجل
على أمرى من العمل « بعد الظاهر » ... والآن ...
هذا المال يضايقنى وجوده فهل تريدينه أم لا ؟

واقتربت الشابة من شقيقها ثم طوقت عنقه
بذراعيها وقربت من وجهه وجهها الندى بالدموع
وقالت والفرح غالباً :

— جورج ... لقد قبالت ما عرضته على وهو
شيء ما فكرت فيه ... أقسم لك أنى لم أكن أنتظر
منك أى مساعدة ولكن ما دمت أنت تريد ...

— دعى هذا الآن فليست له الأهمية التى
تظنين ... إن هذا المال يا روزا ليس بذى الأهمية
بالنسبة إلى ... يجب على الرجل أن يعمل ... إلا أنى
أعود لأسألك : وماذا عسى أن يصنع رجل واحد ؟
إن الطوائف والتجوال مهما طال به أمرها فانه
لا بد عائد مرة أخرى إلى نفسه ... إنه لأشبه
ما يكون بإنسان تحوطه المرايا من كل جهة بحيث
لن يرى إلا صورته التى تنطق بالوحدة ... آه أيتها
المريزة لو أنك تعرفين المعنى الحقيقى من كل هذا ؟
لا . لا يا روزا، لن أجعلك تتصورين كل هذا الهول
بل أرى أنه من واجبي أن أعترف لك بأنى سميد

بمقدمك ... أنظرى إلى السماء الصافية رسمتها لآل
النجوم الدرية ... ألا بعيد مرآها إلى خيالك ذكرى
ليلة وقفنا فيها صغيرين إلى جانب نافذة بيتنا نرقب
النجوم وهي تهوى ؟

وحولت وجهها عنه وقد عمرته صفرة رهيبة ،
ونظر إليها فروعه ذلك البريق الخفيف الذى انتقدت
به عينها وسممها تقول :

— كلا ... لست أذكر شيئاً مما تقول ، بل
لا أعرف للآن أى شيء يجمل هذه الذكرى خفية
إلى نفسك !

وغلبته الفرحة وهو يقترب منها سميداً وقد
جمل عمر براحة يده على شعرها الأملس وهو يقول :

— دعى الآن حديث المال ... ما كان أبرك
عند ما فكرت فى الحضور إلى هنا ... أيتها السموات
كم أأأسعيد لأن النافذة انشقت من بين المرايا
المديدة ... هل تتصورين هذا ؟ لم أكن أهتم بنير
نفسى حتى لقد برمت بها ... أتذكرين ؟ أتراك
تذكرين ليلة تساقطت النجوم فيها ... ما عساها
كانت أميتك التى أردت ؟ وهذه الليلة ... أية
أمنية تجول بخاطرك لو هوى نجم .. أى شيء
تطلبين ؟

— شيء لى ... لا ... وأطلب شيئاً لك ...
حادث تمناء ، أطلب من السماء أن تحققه لك

— ليست لى مطالب ولا رغبات ، وإنى
أشكر الله على ذلك يا روزا .. والآن .. هل فكرت
فى شيء ؟ انتظرى حتى الغد فأستأجر لك مسكناً
يشرف على مناظر بهجة ... إنك لن ترى من هنا
(٥)

عينها على ثقب في البساط ونظرت إلى جورج فجري
دم الخجل في عروقه وهي تسأله :

— وإذا روزا هنا ؟ لقد تركت بيت زوجها
لأنه كما تقول يعتمد إهانتها ... قد يصح وقوع هذا
ولكن ... لا بد لكل شيء من سبب ... لقد كان
زوجها ملء الحق في كل شيء فعله ... إن روزا ...
لست أدري بم اسمها ... إنها ليست بالصالحة لكي
تكون زوجة ... لا أولاد لها ولا عمل ولها لا تراها
تهم إلا ... بنفسها ... إنها مبذرة جعلت المسكين
زوجها يفرق في الدين ثم تركته ... ألم تلاحظ
نوبها ؟

— لا ...

— إنك لا تعرف كم يساوي ... إنها تشتري
للقرء بآلاف الجنيهات لتبيعه ببعض المئات كي تشتري
بها أحذية ثم تخفي قوائم المطالبة بالدفع فتصلهم
الانذارات ... ألم يصلك نيا هذا ؟

— كلا . فالك تسلمين أنه لاصلة تربطني بزوجها
— إنه مخلوق عجيب ... يشور عند ما تترك
نوبه دون إصلاح وتتفنن هي في زينتها حتى لتبدو
كأحدى الدوقات ... تنشى المجتمعات وتصابح
الرجال و ...
— كفى ...

— ربما تكون قد أقنعتك بأنها ستقوم بتدبير
شئون منزلك فجعلتك تترك مسكنك إلى آخر أكثر
سعة ... إنها ليست في حاجة إلى كل هذا لأنها
أحضرت معها إلى هنا ... ضابطها ... لقد صدر
أمر بنقله إلى براغ ولهذا هربت من بيت زوجها

سوى فناء البيت ، ولكم يحز في النفس ألا تنم
دواماً برؤية السماء وما على صفحتها من نجوم لامعات
وغادر الحجرة وقد غمرته أحاسيس غريبة بين
صور باسمة للمستقبل وسعادة مواتية ، ثم عاد إليها
ثانية فأتى روزا وقد داعب الوسن جفניה وهي تنظر
ناحيته قريبة هادئة ، فراح في نشوة من غبطته
يتصفح الصحف لعله واجد فيها مسكناً جديداً
يرضيها ... وهكذا ظل حتى طالعه الصباح وهو
بأفكاره جد قدير ...

وبدأ جورج حياة جديدة وانتقل إلى مسكن
جديد واعتاد أن يؤدي الكثير من الأعمال الإضافية
التي أرهقته بادي ذي بدء ولكنه اضطر إلى احتمالها
إذ كان يسمع صوتاً داخلياً يقول له : « تحمل لأنك
لا تمش لنفسك فقط بل من أجل غيرك » . حقاً
لقد كانت تلك حياة جديدة بالنسبة إليه ...

وحل على جورج في يوم من الأيام ضيف جديد
كان أخته الأخرى تيلدا المتزوجة من أحد أصحاب
المعامل القريبة من المدينة والذي لم يصب في عمله
نجاحاً كبيراً . وقد اعتادت كلما حضرت إلى براغ
أن تزور جورج فتقص عليه من سيرتها وسيرة
أبنائها الثلاثة الصغار الشيء الكثير حتى لكان
العالم قد أقفر ممن فيه إلا أطفالها ... ولكن زيارتها
هذه كانت غريبة روعته ، فصدق قلبه هلعاً ورهبة ،
إلا أن الهدوء داخله سريعاً عند ما علم أن الأولاد
الثلاثة بخير ، وأن العمل يسير من سيء إلى أسوأ
وأنها حضرت إلى المدينة لتبحث عمن يقبل أن
يشتره ... ونظرت حوالها نظرة غريبة ثم استقرت

وحضرت إلى هنا مع عشيقها ... إنها دون شك
لم تخبرك بشئ من هذا

— تيلدا ... إنك تكذبين

— حقق بنفسك هذا الأمر ... إنك طبيب

القلب ولولا حبى لك ما سارحتك ... إن روزا لم
تهتم بك في يوم من الأيام حتى إنها قالت عنك إنك ...

— كفى ... اذهبي ... اذهبي أتوسل إليك
واتركيني أنعم بهدوء أنطلبه

— سأذهب ولكن ... إن المكان هنا قدر
وجدير بك أن تبحث عن آخر أ أكثر ملاءمة لك ...
إنك لترى الظلمة تسوده ... هل أرسل لك ...

— لا ... لست أريد شيئاً

— حسن ... أنا ذاهبة ... إلى اللقاء يا جورج ...

واعتورت الرعدة بدنه المحموم وجف حلقومه

وحاول دون طائل أن يؤدي أى عمل فلم يجد سوى

أن يحطم القلم ويمزق بعض الأوراق، ثم غادر مسكنه

ذاهباً إلى البيت الذى اتخذ من أحد أقسامه مسكناً

لشقيقته روزا، ولكن مدبرته أخبرت جورج أن

السيدة الصغيرة قد خرجت منذ الصباح ولم تعد وإن

كان لديه خبر فستحمله لها، ولكن الشاب الثائر

تركها دون كلمة وعاد يجر نفسه كمن يحمل على كتفيه

أثقل الأحمال حتى وصل مسكنه فوجد باباً وجلس

إلى نضده محاولاً أن يعمل ولكن للساعات مرت

دون أن يفرغ من الصحيفة التى أمامه كما أن الليل

خيم دون أن يفكر وهو فى جلسته أن يوقد الصباح.

وأخيراً دق الجرس دقات مرحة ولم تمض لحظات

حتى كانت روزا أمامه تبسم فى حنان وهى تسأله :

— فأنتم أنت يا جورجى ؟ كيف ... ما أكثر

ظلمة هذا المكان ... أين أنت ؟

— كنت مشغولاً ...

— أنصت إلى ... لقد فكرت أن آتيك هنا

مباشرة ولكن فكرت فى أنك ربما لم تعد إلى البيت

— لماذا ... وأين تظنينى أكون ؟ أظن

أنك أنت لم تكونى فى بيتك

— أى مكان تظنى كنت فيه ؟ ما أجل مسكنك

هذا وما أشد فرحى لأنى معك ... تعال ... تعال

واجلس إلى جانبي ... إننى سعيدة ...

وأسند وجهه إلى فرائها الذى تندى برطوبة

الخريف وقال يحدث نفسه « لعلها ذهبت إلى مكان ما

فما شأنى أنا بذلك ؟ » ، ولكن ذلك لم يكن داعياً

ليدخل الهدوء نفسه إذ جعل قلبه يدق مرتعاً

فأخاف روزا وقالت له :

— ما الذى حدث ؟

— لا شئ ... لقد زارتنى اليوم تيلدا ...

— تيلدا ... وتحدثت عني ؟ ما الذى نقلته

إليك ؟ تعال ... تكلم ... إنها ولا بد سببت لك ...

ما الذى قالته ؟

— لا شئ قلت لك ... بعض أخبار صغيرة

وانفجرت الشابة باكياً معوجة وهى تقول :

— المحلقة للقدرة التى ما أحست طوال حياتها

نحوى إلا بالغيرة. وماذا عساي فاعلة إزاء هذه الظروف

التي تناصبني العدا ... إنها ولا بد قد أتت عند

ما عرفت ما فعلته من أجل وما قدمته لى من المال،

وإنى أقسم لك أن لو كانت هى وزوجها فى محبوبة من

الرزق ما فكرت في طرق بابك أو التحدث عنك
كانسان تربطك بها وشيجة الرحم... إنها تريد كل
شيء لها... لأولادها... هؤلاء الملاعين الصغار...
— لا تطرق لهذا الحديث بابا وكفى عن ذكر
هؤلاء جميعاً ...

— بلى، إنها تريد أن تفسده على كل شيء وأن
تطمح حياتي بل إنها لم تكذب تعلم بما أصبته هنا من
هدوء بال وراحة حتى أنت تنفص على عيشي ...
صارحني ... هل صدقت ما قالته لك ؟!

— كلا ...

— أنا لم أكن أطلب من شيء سوى أن
أستثمر حربي ... أوليس من حق أن أنشد
السعادة ؟ ما أردت شيئاً ولكن نلت بمض ما كنت
أبني وها هي ذي قد أتت ...
— لا تهتمى بذلك .

وقام من مكانه ثم ذهب إلى الصباح فأوقده
وعاد يطيل النظر إليها وهي مطرقة الوجه وشففتها
ترتعدان ... ما أجملها وأبدع هذا الثوب من
الشباب اللقائن يزيدا روعة ! كانت في رداء قشيب
وققازين صغيرين أفصحا عن محاسن بديها وجوارب
حريرية ... كانت مضطربة الأعصاب فتركت يدها
المرتجفة تمسك بخيوط القعد الكبير ... وتهد
ثم قال لها :

— هل تسمحين ... إن لدى بعض أعمال
تتطلب الانجاز .

— حسن ...

وقامت من مكانها وقد تجسست في هيئة تمثال

خائف مشبك الذراعين على صدره وهي تنظر إلى شقيقتها
الذي رفع إليها وجهه، ثم تغمض ألا تجزعي وعاد
ثانية ليواصل عمله . وكان العمل المستمر هو سلوكه
الوحيدة في غده إذ ظل منكباً على أوراقه من مطلع
النهار إلى غروب الشمس عند ما أتته ثانية روزا وإذا
نهض ليتبينها طلبت منه في همس أن يستمر في عمله
لأنها ستجلس قبالة ... وحاول جورج أن ينفذ
طلبها دون جدوى إذ كان يحس أن عينها النافذتين
المتلثنتين بشئ الأحاسيس والمواقف ما انفكتا
تنظران إليه وتديمان التطلع إلى وجهه ... وفجأة
سمعها تقول :

— لم لم تأت اليوم لزيارتي وقد انتظرت مقدمك
دون أن أبارح البيت ؟!

ووضع جانباً القلم ثم التفت إليها ... كانت
في ملابس سوداء رشيقة وقد اكتسى وجهها صفرة
وشحوباً ... وأجاب :

— يخيل إلي أن الجو أكثر برودة هذه الليلة
— لا شك أنك تعرف ما آل إليه حال تيلدا .

إن زوجها رجل ساذج تفره الظواهر ولذا لم يعرف
كيف ينظم أعماله فسادت ... كان له عميل سرقة
وغرره بالأمان فسادت المراقبة ... إنه على شفا
الافلاس، وها هم أولاء مقبلون على مصير غامض وقد
كان جديراً به أن يفكر قبل تورطه في مصير أولاده
— لا أعرف عن هذا أي شيء ...

وسكنت روزا على مضض ولكنها لم نبأس ثانية
من مهاجمته وآثرت أن ترى آخر سهم في جعبتها
فقالت منعمة :

فيتشرد الأطفال ويصبح أكبرهم شارل الذي يحلم
بالمستقبل شحاذاً منبوذاً... وأنا واثقة أنك ستحضر
لانتقادنا وأنتك سوف تحب الأطفال

لك حبي أنا ... أختك التمسمة : (يلدا)
حاشية : — « أما ما قلته لك عن روزا
وأكدت أنت لي كذبه فأخبرك أن زوجي سوف
يحضر إلى براغ ومعه حجج دامغة تثبت صدق
ادعاءاتي ... إن روزا لا تستحق حبيبك وعطفك
لأنها لطخت بالعار هاماتنا ؛ ولخير لها أن تمود إلى
زوجها، وإنه لصافح عنها كي تترك لأولادى الصغار
لقمة العيش التي بها يتبلغون »

أي ضيق هذا الذي يحسه ... إنه من المبعث أن
يستمر في عمله على هذه الصورة من الارتباك الذهني،
وإنه لخير له أن يئادر مسكنه إلى الخارج عساه
يستطيع أن يروح عن نفسه ... واعتزم الذهاب
لزبارة روزا ... وصل إلى مسكنها ولكنه لم يكد
يقدم على دق بابها حتى سمع من الضمير صوتاً نهائياً
فعاد أدراجة متلصصاً، وإذ هو في الطريق أبصر شابة
تنشع بالفراء متعلقة بذراع أحد الضباط فحث
الخطي خلفهما كماشق تبت الغيرة به ، ولكنه
لم يجدها روزا ... كانت فتاة أخرى فاتنة متبرجة
فيم شطر مسكنه ولم يكد يلججه حتى ألقي روزا
المسكينة مستلقية على المقعد الطويل غارقة في بحر
من مدامها وبمقربة منها سقطت رسالة تيلدا التي
تركها جورج عند مغادرته المسكن ... وأحست
بمقدم أخيها فقالت له متوسلة بصوت خنفت الدموع
نبراته :

— يا شقيقى المسكين ... رأيت هذه الخلوقة

— ولما ساء حال زوج شقيقتي تيلدا إلى هذا
الحد لجأ إلى زوجي ملتصقاً عونه ولكنه رفض إذ كيف
يسقى وزوجته على مال وقد كان لهما منه ثلثائة ألف
أضاعها

— وهل هناك من سر جمالك تصارحيني
بما قلت ؟

— رغبة مني في أن أجعلك تقف على الحقيقة
لأنك طيب القلب وتحب مساعدة الآخرين ...
— هذا لطف منك

لم يحول عينيه عنها وهي في مكانها وقلبه يدق
مضطرباً بين جنبيه ... لكم كان في شوق إلى سماع
كلمة حنان منها تصارحه فيها بأنها تود أن تبحث
عن عمل ولا تمشي عالة على الآخرين . تقوم بخدمته
النزلية ... تترك مسكنها الفخم إلى آخر ولكنها
لم تفعل بل راحت تطيل النظر إلى النافذة ثم بدأت
حديثاً آخر

وفي اليوم التالي تلقى جورج من شقيقته تيلدا
الرسالة التالية :

عزيزى جورج :

لكم أسفت إذ تركتك في مثل حالتك ولكنها
الظروف ... هي أيضاً ما حدا بي إلى الكتابة ثانية
إليك لأصارك أنه قد ساءت حالنا ولن تستقيم
إلا بعد أن ندفع خمسين ألفاً نحن زعيان بأنها لا بد
عائدة ، لأن المستقبل لصناعتنا وبوسى أنا وزوجي
أن نمطيك الضمان الكافي للتسديد في ظرف عامين
لو أنك دفعت ديننا وأنقذتنا من هاوية الفقر ...

إننى أعرف فيك طيبة القلب وهي التي ستدفعك
إلى مساعدتنا وإلا ساءت الماقبة وعشنا الدهر بنابه

النعمة التي تريد أن تسرقك علانية؟ لا تعطها شيئاً ولا تصدق كلمة مما قالته ... إنك لا تعرف أى نوع من النساء هي ... ألم تر إلى تهجها كيف نصبها كذباً على؟ ما الذي فعلته لها؟ ما أروع هذه الأفكار ... إنها لا تريد شيئاً سوى المال وعن طريق سلبك . مالك تعدت الاساءة إلى ...

— إنها أم لأطفال باروزا .

— تلك هي ذريتها الأبدية ... لطالما سرقتنا وما كانت لهم سوى المال .. تزوجت من أجل المال . ألا تذكر أن أمانيا وهي طفلة كانت تنحصر في تخيلها الفنى واليسار ...؟ إنها مخلوقة شرسة ، فهل لك أن تدلى على ذلك الشيطان الذي تقمصها ؟؟ إنها تريد الآن أن تسرقني فهل أنت يا جورج معطيها هذه الفرصة ؟؟ هل ستخلص مني ؟؟ خير لي أن ألقى الموت غرقاً من أن أعود ثانية

وكان جورج يسممها وهو يحني الرأس ... أجل .. إن هذه الفتاة تقا تل من أجل كل شيء .. تقا تل تيلدا .. بل تقا تل هو نفسه إن حاول أن يسلبها شيئاً ... المال ... ودوت في أذنيه هذه الكلمة وجعلته ينصت مرة أخرى إلى روزا وهي تقول :

— لقد كان منحك إياي المال أشبه الأشياء بالمعجزات إنك أنت الذي وهبني هذا المال وكان جديراً بك ألا تهيه مادام للتفكير في استرداده كان يراود خيالك

— إنه مالي ... ملكي الخاص وإنى سأفكر في هذا الأمر

تلك كانت أول مرة يهين فيها روزا فلمت حينها يذب من الكراهية ولكن صرامته البادية

أسكتتها فأحنت رأسها وانصرفت وفي اليوم التالي طرق باب زائر ... كان زوج تيلدا الضخم الجثة الذي يشبه الكلب في ملامحه .. ولقيه جورج متجهماً ولم يقم احتراماً لمقدمه كي يتركه واقفاً ثم سأله في لهجة آسرة :

— ما الذي تريده ؟؟

وروع الحديث المفاجئ للضيف القادم فأرجح عليه وقال :

— أنا ... أنا ... إن تيلدا هي التي أرسلت هذه الأوراق التي طلبتها أنت ...

— أنا ما طلبت شيئاً

— لقد كتبت تيلدا إليك أيها الأخ وشرحت ظروفنا ... فإن كنت تريد مشاركتنا العمل ، وإني أوكد لك أن المستقبل ...

وفي هذه اللحظة انفرج الباب في بقاء وأطلت روزا التي روعها أن ترى زوج تيلدا ... وقال جورج لها :

— ماذا حدث ؟

— جورج ...

— لدى أعمال وزائر كثيرين ... هل تسمحين ؟؟ وفي رهبة قدم زوج تيلدا الرسائل وهو يقول :

— وهذه يا سيدي هي الرسائل التي كتبها لنا زوجها وبمض أوراق أخرى ...

وتهاكت النعمة وأمسكت بالباب إذ خانتها للقوى في الوقت الذي نعمت فيه شقيقها يطلب من القادم أن يسلمه الرسائل ، فلما أخذها لم يكلف نفسه عناء تصفحها بل أعطاها أخته وهو يقول :

— خذي هذه ... واسمحي لي أن أقول لك

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الغائب

ابي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي الملاء إنه عارض به القرآن . ظل
طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

مصححة وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زمانى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائیل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
التمن ١٢ قرشاً

لا تذهبي إلى المصرف من أجل المال لأن قهَابَكَ
لا فائدة فيه ... والآن يا سيدي ما هي مهمتك ؟
— المسألة تنحصر في ... رأس المال ...
— اصغ إلى يا سيدي ... لست أراك كما تدعى
رجل أعمال

— ساعمل جهدي و ...
— كيف أستطيع أن أوليك تقى وتكون
أميناً فى نظرى ؟ !

— اعدك بذلك ... إن لدينا أطفالا ...
— كفى ... يمكنك أن تأتيني بعد عام
— بعد عام !
— وداعاً يا سيدى ...

ومادت الأرض تحت قدمي التنفس وغشت عينيه
 معجبة من الكدر واستدار مغادراً الحجرة وهو يقول
 — وداعاً و... شكراً لك

وأحسن جورج هدوء الوحدة وساده ضعف
حبيب فقام يرتب الأوراق المبعثرة على النضد ثم نادى
مديرة البيت التي ما إن أتت حتى كان قد نسي
ما اعتمده قوله لها .. وأرادت السيدة أن تعود ولكنها
سكنت صوته

... قفى ... إفا أتت اليوم ... أو فى الند ...
أو فى يوم من الأيام شقيةتى روزا فقولى لها إنى
معتكف و ... إنى لا أستطيع أن أقابل أحداً ...

وخرجت السيدة وشملته الوحدة ثانية فاستاق
على القعد الطويل وهو ينظر إلى عنكبوت بدأ نسيجه
في ركن الحجرة الواقع فوق رأسه

... اراهم في حسين المقاد

الفتاة - (ناثرة) تخاف ...
 أتكررها للمرة الثانية ؟ إني لا أفهمك ،
 لقد تغيرت كثيراً يا صاحبي
 الفتى - يؤسفني هذا أيضاً و ...
 الفتاة - ويجب أن تصمت إذا كنت
 تريد أن تجعل كل كلامك على هذه
 الوتيرة ...

الفتى - (في حيرة) لو عرفت ما بي لما قلت
 هذا الكلام ، ولما ثرت هذه الثورة ...
 الفتاة - (تتكلم الهدوء) وما بك يا عزيزي ...؟
 الفتى - إني خائف ...
 الفتاة - (في صوت منغل) قلت لك تكلم كلاماً
 مفهوماً . إنك تخلع قلبي ...
 الفتى - يؤسفني هذا أيضاً ... و ...
 الفتاة - (في صوت منغل أيضاً) أف منك !
 إنك تغيرت كثيراً جداً ...
 الفتى - (في حيرة) قد أكون تغيرت حقاً ،
 ولكن يجب أن تهدي من فأثرتك بعض الشيء ،
 إن ما بي فيه الكفاية ...
 الفتاة - وماذا بك ؟ لبتك تجيب هذه المرة ..
 الفتى - (في عزم وهو يستجمع قوته) أجل
 سأجيب ... إني ... إني ... إني ...
 الفتاة - إنك .. إنك .. إنك ، إنك ماذا ؟
 لقد أصبح من الواجب عليك أن تصمت ...
 الفتى - لقد كنت أود هذا ، لولا أنه من
 الضروري أن أنكلم ...
 الفتاة - حسن . تشدد يا عزيزي هذه المرة
 أيضاً وحاول أن تتكلم ...

يَوْمٌ وَكَأَنَّ
 أَقْصَوْصَ مِصْرِيَّةَ
 بِقَلَمِ الْأَدِيبِ عَبْدِ الْحَلِيمِ الْعَشِيرِيِّ

د فتى وفتاة في سن الشباب يسيران جنباً إلى
 جنب في شارع مفترق موحش ، وفي يوم من أيام
 الشتاء التي تحمل معنى الشتاء ،

الفتاة - كم هو قبيح هذا اليوم ! جو رطب
 مشبع بالضباب ، سماء ملبسة بالغيوم تنبي بمطر
 قريب ، صمت ووحشة ، تري لماذا استدعيتني في مثل
 هذا اليوم يا حبيبي ؟

الفتى - حسبتك أحسست ...
 الفتاة - (في خوف وهي تلتفت إليه) ماذا تقصد ؟
 الفتى - (يهم بان يحكم ثم يتردد ويطبق فيه ثانية)
 الفتاة - لماذا لم تجب ؟
 الفتى - إني خائف ...
 الفتاة - مم ... ؟
 الفتى - عليك ... على قلبك ...
 الفتاة - (في حدة) إني لا أفهم كلامك ،
 ليس هكذا كنت تكلمني ...
 الفتى - يؤسفني هذا ... ولكن يجب أن
 تعذريني . فاني ... فاني ...
 الفتاة - قل ما ستقول ... إني لا أرتاح لهذا
 التردد ...
 الفتى - ولكنني خائف ...

الفتاة — (ساخرة ضاحكة) هل تستطيع للفتاة
إخراجها ؟

الفتى — بل هي تمنعها أكثر من الخروج

الفتاة — (متصنعة الجدة) يا لها من كلمة !

الفتى — نعم، يا لها من كلمة. إنها الحد الفاصل
بين حياتين، بين قلبين .. بين ..

الفتاة — (مائة) اصمت. اصمت. إنك تؤذيني

الفتى — ألم أقل لك ...

الفتاة — بل تكلم ... قل كلمتك ...

الفتى — لا ...

الفتاة — (تنظر إليه في خوف)

الفتى — الود ...

الفتاة — (تنظر إليه في خوف)

الفتى — الوداع. أشهد أن لا إله إلا الله، هذه
هي الكلمة التي استدعيتك لأقولها لك ...

الفتاة — (تنظر إليه في دهش ورعب)

الفتى — (في حزن) ألم أقل لك . ألم أقل لك
الدين ذنبك ...

الفتاة — إني . إني لا أفهمك ...

الفتى — وهذا ما اعتقدته ، ولكن حاول ،
حاول أن تفهميني ...

الفتاة — سأحاول ... وضع صرناك ...

الفتى — إذن سأكرر كلمتي أتريني أستطيع ؟
والفتاة — ...

الفتى — ولكن يجب أن أستطيع (يتشدد)
استدعيتك لأودعك ...

الفتاة — (كأنها تعلم) استدعيتني لنودعني ...
(٦)

الفتى — (في مزم وهو يستجمع قوته) أجل
سأتكلم هذه المرة ، إني ... إني استدعيتك لأقول
لك ... لأقول لك ... لأقول لك ...

الفتاة — (برافو) . لقد زدت على كلامك
السابق ثلاث كلمات ، حاول أيضاً حاول بقوة ...

الفتى — إني استدعيتك لأقول لك كلمة واحدة

الفتاة — وما هي أيها الحبيب ... ؟

الفتى — هي ... هي ... إني خائف ...

الفتاة — خائف .. خائف .. يا صاحبي يجب
أن تنزع عنك هذا الخوف ...

الفتى — يخيل إلي أني لا أستطيع ذلك

الفتاة — بل تستطيعه بقليل من العزم . هيا ..
هيا قل كلمتك ...

الفتى — (يتلع ريقه ويحاول أن ينزع عنه خوفه)
الفتاة — كن قويا ...

الفتى — كلمتي هي ... « يتردد »

الفتاة — كن قويا تشجع ...

الفتى — هي ... (يتردد)

الفتاة — (مائة) إن صبري فرغ .. بودي
لو أصفمك ...

الفتى — (في جد وهو يقدم لها خده) أوه هذا
قليل والله اصغى ...

الفتاة — (ضاحكة) إنك بطل ...

الفتى — تكذابين ، فأنا والله أضعف خلق الله
اليوم ...

الفتاة — دع هذا ، ما هي كلمتك ...

الفتى — أجل كلمتي . يا الله ... لو أتمكن
من إخراجها من في ...

نفسك... والحقيقة أن الجو لا يزال على برودة...
الفتاة - على أي حال... يجب أن تخبرني بكل
شيء الآن وعلى أنا تحمل تبعه ما يحدث إذا طال
مسيرنا...

الفتى - ولكن يا عزيزتي...
الفتاة - « منطمة » اسمع كلامي...
الفتى - حسن . سأخبرك بكل شيء...
« يردد »

الفتاة - قل . قل . لا تكن بطيئاً هكذا في
إخراج الكلام من فمك...
الفتى - الحق أن الأمر يؤلى . ولكن ما حيلتي
سأقول . سأقول كل شيء فاسمعي .

الفتاة - إني منصتة إليك بكليتي...
الفتى - إن لي ابنة عم تحبني حباً لا غاية بعده ،
كنت أحبها قبل أن أعرفك وأعدها زوجتي المقبلة
وتعدني زوجها المقبل . هذه ابنة العم هي السبب
في أنني سأودعك اليوم . قولي لم . لأنها كادت
تقتل نفسها حينما علمت أنني متصل بك . كانت
ستشرب السم لو لم ننتقدها في اللحظة الأخيرة .
إنها مسكينة هذه الفتاة ، وبعد أن خلصناها من الموت
التفتت إلى تقول في صوت كله إصرار « لملك عرفت
الآن كم أحبك .. فعليك أن تعرف أيضاً أنني سأعاود
ما كنت أريد أن أفعله بنفسى إذا لم تقطع علاقتك
بتلك الفتاة التي شغلتك عني » . تخفت يا عزيزتي .
خفت عليها من الموت فقد وجدتنى لا أزال أحبها ..
أجل وعلى الرغم من أنني أحبك . وقلت في نفسى
إن قتل قلب ليس كقتل نفس ، وعزمت - وكلى

استدعيتنى ل... (تقطع كلامها وتلفت إليه جادة) هل
تدنى أننا منفترق ... ؟

الفتى - هو ذاك ...
(صمت)

الفتاة - (بعد قليل) يخيل إلى أنني لست معك
حقيقة . فهل ترانى أحلم...
الفتى - بل أنت معى...
الفتاة - إذن فأنت تهذى ، تسخر...
الفتى - ولا هذا...

الفتاة - ولكن كلامك...
الفتى - ولكن كلامى يدعو للشك . هذا
ما أوافقك عليه...
(صمت)

الفتى - (بعد بضع دقائق) هل كنت تحبيننى
يا عزيزتى ؟

الفتاة - (غضبانة ومى تكاد تبكى) ألم تعرف ذلك
بعد ؟ أنتنا منى الماضى... يا لخطى المائر ؟
الفتى - لا تنظي . اعذرينى . إني غطيت .
ولكن... ولكن...
(يصمت و تصمت)

الفتاة - « بد غيبة » ولماذا تودعنى
يا عزيزتى... ؟

الفتى - هذا أمر يحتاج إلى شرح طويل...
وأخاف عليك من برودة الجو إذا طال بنا السير وأنا
أمرحه لك...

الفتاة - لا تخف . فاني أحسن الآن حرارة
في الجو ، يخيل إلى أن برودة زالت...
الفتى - « منسولا » هذا كلامى الأليم في

ألم وحزن وأسف — على قتل القلب الذي ستجيا
بموته هذه النفس البائسة

الفتاة — ولذلك استدعيتني ؟

الفتى — أجل ...

الفتاة — (تضحك في تكلف والدمع ينحدر من
عينها على خديها) واخترت هذا للشارع الفقير
الذي لا يكاد يرى فيه رجل من رجال الشرطة ،
أو حتى بعض الناس ؟

الفتى — لقد يكون . ولكنى على كل حال لن
أخاف من القبض على متلبساً بجريمتي ...

الفتاة — يا لك من مجرم شجاع ...

الفتى — ليس هذا وقت هذه السخرية .
خبريني هل تمفين عني .. ؟

الفتاة — لا أدري . ربما ...

الفتى — هذا مؤلم . كنت أطمع في عفوك ...

الفتاة — سأحاول أن أعفو عنك . فقط بعد
أن تقوم بجريمتك ... « ست »

الفتاة — (بعد قليل عائدة إلى سخريتها) ولكن
خبرني أى سلاح ستستعمله في قتل قلبي المسكين .
إنني أفضل البندقة لأنها تقتل بسرعة فلا يتألم
المقتول بها إلا مرة واحدة ...

الفتى — ما زلت على سخريتك . ترى هل
تقدرين موقفك الآن ؟

الفتاة — (تفيق قليلا قليلا وتنظر إليه نظرة من أخطاء)
إنني آسفة لقد خيل إلى أنني أستطيع الترفيه عن
نفسيتنا بهذا الكلام .. (ست)

الفتاة — (بعد قليل) وإذن سنفترق حقاً . ؟

الفتى — ألم تصدقى بمد كل هذا ... (ست)
الفتى — (يقطع الصمت) إن أيام الحب تمر
دائماً كالأحلام ، وما أكثر من يشقون بالحب بمد
أن تمر أيامه هذه التي كالأحلام ...

الفتاة — ...

الفتى — لقد فكرت حينما استدعيتك اليوم
في حينما الكبير الذي سيموت ، فكنت أعجب هل
يمكن أن يموت حقاً وهو في ريبه ...

الفتاة — ...

الفتى — وفكرت أيضاً في قلبك الذي سيقتل ...
فسميت هل يمكن أن يقتل قلب يحيا بحياتين ...
حياة الحب ... وحياة هو ؟

الفتاة —

الفتى — وفكرت أخيراً في أمر هذه الدنيا ،
التي تأتي أن تبقى للسعيد سعادته بينما يكون في أشد
الحاجة إليها . فرحت ألينها وألينا

الفتاة —

الفتى — وحينما انتهيت من تفكيري ثرت على
نفسى لأنها كانت السبب الأول في كل هذا

الفتاة —

الفتى — وطمعت في عقرانك . ولكن يظهر
أننى لن أناله ...

الفتاة — (تقارب الصمت) ولم لا تناله ؟ إنك
مجبور فيها تفعل . سوف أعفرك يا صاحبي ... بل
ليخفرك الله ...

الفتى — (يفرح) الآن أنا سعيد . وسوف
أقوم بما استدعيتك من أجله . ولكن دعينا أولاً

نمش لحظة في جو حينا ... لحظة أخيرة ...

الفتاة — كلا ...

الفتى — عجيب . ولكن لا يجب أن نفترق هكذا . على الأقل يجب أن أقبلك ...

الفتاة — كلا لن تقبلني (نستدرك) بل قبلني عشر قبلات على ذكراها تساعدني على الحياة عشر سنوات

الفتى — وبعد عشر السنوات ؟

الفتاة — أوه، سأشكر الله لو استطعت أن أعيش عشر سنوات ...

الفتى — إنك تزعميني . بل سيطول بك العمر أكثر باذن الله ... وهاتي الآن فك ...

الفتاة — كلا ليس بهذه السرعة . يجب أن نجلس أولاً في مكان بعيد عن الميون إذا كانت هناك عيون ، لا تنس أننا في شارع ...

الفتى — حسن . بعد خطوات سنصل إلى حديقة صغيرة على جانب الشارع يمكننا أن نجلس بين أشجارها فلا يرانا أحد ...

(يوسمان الخطي نمو المدينة والصمت سودما)

الفتى — (بعد أن جلس بجوار الفتاة على أحد المقاعد الخفية عن الأنظار بالحديقة التي قصدها) : والآن هل يمكنك أن تفضلتي بإعطائي فك ؟

الفتاة — (باسمه وهي تقرب منه) بالطبع

ها هو ذا يا عزيزي ... فلتطبع عليه عشر قبلات كاملة طويلة ...

الفتى — (وهو يهم بتقبلها) ولنفس كل شيء الساعة

الفتاة — (ضاحكة) ولكن حذار أن تقتهر هذه الفرصة فتقتل قلبي

الفتى — (في استعطاف) أرجوك ، دعي هذا الآن وإلا أفسدت جو هذه اللحظة (يقبلها)

الفتى — (بعد أن قبلها عشر قبلات) انتهت القبلات العشر ... (يريد أن يبعد فيه عن فيها فتتسبب برقبته ونذني فيها من فيه ثانية)

الفتاة — قبلاني أيضاً . اعطني على العشر قبلة (تبسم) أو نصف قبلة إذا كانت القبلة كثيرة (يقبلها) الفتى — (وهو يستدل في جلسته بعد أن قبلها) ، والآن ...

الفتاة — أ ... أقتل قلبي ...

الفتى — (يستمر في قول ما كان سيقوله) والآن دعينا نستمع شيئاً من ذكريات حينا

الفتاة — (تصمت في تفكير ثم تبسم وهي تغالب دموعها) حسن . هل تذكر يوم كنا نسير بجوار إحدى الزرع الصغيرة بقرية (النصرية) وأنت تقرأ لي شمرأ منتوراً قلت لي إنني أنا التي أوحيت به إليك ، فلما أخذت منك الحاسة مأخذها وأنت تتلوه ذات قدمك فسقطت في التربة ، وطارت الورقة التي كتبت فيها شمرك في الهواء

الفتى — أوه، أذكر هذا جيداً ، ولقد خاصمتك يوم لأنني عند ما خرجت من ماء التربة ظلمت تضحكين على طول الطريق ...

الفتاة — وهل تذكر يوم جذبتني من أنفي لتقبلني قبلة . قلت لي يوماً إنها ستكون : « فتحة » جديداً في عالم القبلات »

الفتى — أذكر هذا تماماً ...

الفتاة — وهل تذكر يوم (قرستى) فى أذنى بشدة جعلتنى أصرخ من الألم حينما طلبت منك أن تعطينى درساً فى قواعد اللغة العربية . فلم أفقه مما تقول شيئاً ...

الفتى — أجل أجل . وأعتقد الآن أنى كنت قاسياً على أذنك يومذاك . فلقد احترت من أثر (القرصة)

الفتاة — وهل تذكرت يوم مثلت معى دور الزوج ، ومثلت معك دور الزوجة (تصمت عنيفة وهي تبسم فى تحسر وحنين) حينما كنت تأمرنى أن أفعل كذا ، أو أترك كذا ، فاذا رفضت اتخذت هيئة الزوج الغضبان على زوجته وهددتنى بالضرب أو الطلاق

الفتى — (ييسم فى تحسر ولا يجيب)

الفتاة — (تهم بأن تستمر فى ذكرياتها ثم تردد فجأة) بحسبك هذه الذكريات ، هيا اقتل قلبى الآن
الفتى — (يتأهب) حسن . (يقف) . الوداع .
الفتاة — (صارخة فى ضراعة) كلا . . . كلا . . .
انتظر ...

الفتى — لقد طال الانتظار يا عزيزتى ...

الفتاة — لحظة أخرى ...

الفتى — كلا . . . ولنفترق ونحن على أحسن ما نكون من الصفاء . . . إذا كان ما بيننا الآن صفاء ... وداعاً ...

الفتاة — آه ... قلبى ...

الفتى — قتيل ؟ أليس كذلك ؟ حسن . الذنب ذنبك فأنت التى طلبت الإسراع فى قتله (يتلطم ريقه)

ولكن يجب أن تعرفى أن قلبى هو الآخر قتل .
أو كما هو الواقع قتلت منه قطعة ، والرصاصه التى قتلت قلبك وقتلت تلك القطعة من قلبى واحدة ...
(للمرة الثالثة) الوداع . سوف تذكرينى بخير . أليس كذلك ؟ كلا ، بل انسىنى ...

الفتاة — (فى غير وعى وهي تضم إلى صدرها اليد التى قبلها وبصرها تائه) وداعاً . . . وداعاً يا حبيبى
(تردد للمرة الثانية وهي ذاهلة ساهمة) . يا حبيبى .

(الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

(يتقدم إليها ويتناول يدها ليقبلها)

الفتاة — (تمنعه من تقبيل يدها) بل انتظر حتى أقف لأودعك بدورى ...

الفتى — لا . إنك لن تستطيعى الوقوف وما زال الثقب الذى أحدثته فى قلبك الرصاصه التى أطلقتها عليه ينبثق منه الدم . ودعيني وأنت جالسة
الفتاة — (دهشة وكأَنَّها أفادت من غيوبة) إذن سنفترق ؟

الفتى — (مندحفاً) إلى الآن لم تصدق ؟ عجيباً !
الفتاة — (ساهمة ذاهلة وهي تعطيه يدها) حسن قبل يدى . (يقبل يدها)

الفتى — وداعاً ...

الفتاة — (فى غير وعى وهي تضم إلى صدرها اليد التى قبلها وبصرها تائه) وداعاً . . . وداعاً يا حبيبى (تردد للمرة الثانية وهي ذاهلة ساهمة) ... يا حبيبى ... (الفتى يهم بأن يسير ثم يلتفت إليها فجأة)

الفتى — كلا (يا حبيبى) لا تقولى يا حبيبى

الفتاة — (وهي تبسم والدمع على خديها يتلألأ)

وأنت أيضاً يا حبيبى لا تقل يا حبيبى !

عبد المولى محمد العسبرى

حاجي بابا اصفهاني

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الحادى والستون

غربة ماهى بابا تقع على ناراه

أقمت في مخبئى عشرة أيام طوال متعبه دون أن يصلنى خبر عن ملا نادان وقد خشيت أن يكون حظه المأثر قد لازمه أو أن الأمور لم تجرى فى المجرى الذى كان ينتظره . ولم يكن بين همدان والقرية التى أنا فيها اتصال كبير . وقد بدأت أياس من رؤية جوادى وما عليه من مرجع عمن ويئست كذلك من رؤية ملابسى ، إلى أن حدث فى مساء أحد الأيام أن فلاحا كان قد ذهب أخيراً إلى همدان ليشتغل فى الحقول وعاد منها عابسا ، وألقت كلماته التى رواها بصيصاً من النور على مخاوفى فقد قال : إن قلقاً عظيماً حدث لقدوم نازا كشى وقبضه على ابن صاحب الضيعة وأخذ الجواد وحمله أسيره إلى الماصمة منهما إياه بقتل شيخ العلماء فى طهران . وإننى أترك للقارى الحكيم على ما شمرت به عند سماعى هذه القصة فقد أدركت السر فى سمع الملا نادان . ورغم أنى شعرت بأن لا خوف على فى ذلك الوقت فأنى كنت أشك فى دوام هذا الشعور وأعلنت فى القرية أنى استرجعت كامل محتى واستأذنت مضيئى وأسعرت إلى همدان لأتحقق مما رواه لى الفلاح

وكان والد نادان معروفاً فى المدينة فلم يصعب على أن أهتدى إلى داره وقد أحجمت عن دخول

الدار والاستفهام عما تم فى أسرنادان ، ولكنى ذهبت إلى حلاق مجاور للدار لفرضين الأول أنى أردت أن أقصر شعر رأسى ووجهى ، والثانى وثوقى أنه هو الذى يمكن أن يروى لى حقيقة ما حدث بمخافيره . وقد صدق ظنى فأنى وجدت الحلاق ثاراً ، ولم أك دأساً له عن أخبار اليوم قائلاً له إننى أجهل تلك القصة العجيبة التى حدثت أخيراً والتى يتحدث عنها القوم بلء الدهشة حتى تراجع خطوتين إلى الوراء متمججاً وقال : « من أين أتيت إذن حتى خفيت عليك قصة ذلك الأبله الملا نادان ؟ إنه لم يكتف بقتل شيخ العلماء حتى لبس ثيابه ولم يكفه كل ذلك حتى سرق جواداً من أكرم جواد الحاكم ، ياله من نذل خسيس بأ كل المال الحرام ! »

فرجوت من محدثى أن يقص على كل تفاصيل القصة التى تظاهرت بجهلها جهلاً تاماً فسررد لى ما بأتى من غير انتظار لتكرار السؤال :

« منذ ثمانية أيام تقريباً جاء هذا الملا إلى بيت أبىه راكباً جواداً مطهماً ولابسا حلة تليق بمظلم من المعطاء أو قائد من القواد ، وليس برجل من رجال الدين فقد كان عليه شيلان من أجود الأنواع وكان يشبه حقيقة شيخ العلماء . وأحدث ظهوره بهذه الحلة الأنيقة وهذا الشكل البديع تأثيراً عريضاً إذ من مدة وجيزة قبل حضوره كان قد شاع عنه أنه أتى بعمل أغضب الشاه فطرد من طهران طرداً قبيحاً

وقد ترجل عن جواده فى تيه وعجب ، وحين سئل عن طرده من الماصمة لم يأبه للأمر كثيراً وقال : إنه أخبر بصفة سرية أن غضب الشاه عايه وقتى وأنه للتقليل من وقته أهدى إليه هذا الجواد

الأمور التي رواها لي الحلاق وحزنت حزناً شديداً على فقدي للجواد والملابس الغالية ولكنني حمدت الله على سلامتي حين فكرت في أنني لن أسأل عن حوادثي الأخيرة إذا قطع رأس الملا نادان، وشمرت أنني لا أزال في حفظ العناية وصفاء الحظ بينما قدر على الملا أن يكون شقياً منكوداً، وإلا فلماذا استبدلتنا ملابسنا؟ ولماذا أخذ جوادى في وقت لم أجد فيه بداً من الخضوع لما طلبه منى؟

ولكن شمورى بأن الملا سينال عقاب ما لم يجن بدلاً منى جعلنى أحس ولو مؤقتاً بالخطر ما دمت في إيران. ولذلك صممت على أن أتابع خطى الأولى وأن أترك إيران دون إبطاء؛ وعزيت نفسى عن فقدان الجواد والملابس بما بقى لي من المال وهو الخمة والتسعون طوماناً. وهذا المبلغ كاف لما أحتاج إليه الآن. وبعد ذلك تذكرت أن الله قادر على كل شيء فأملت في المستقبل. وقد يما كانت هذه الثقة بالله تمزية وسلواناً لكثير من التمساء أمثالي وشمرت أنها ستقبنى ما حيت من مصائب خفية

الفصل الثانى والستون

ماجى بابا. سمع بقبض نعمة الخمام فيزعم

عزمت على أن أترع ثوب المشايخ إذ لم يتلى منه خير وتزيت بزى التجار ولحقت بقافلة كانت ذاهبة إلى كرمان شاه واتفقت مع رئيسها على استئجار بغل هزيل مقابل أجر تافه. ولما لم يكن لدى من البضائع غير ما أحمله على ظهري فقد اقتنمت به. ووصلنا إلى كرمان شاه في اليوم السابع من رحيلنا وهنا كان لابد لي من البحث عن قافلة أخرى. ولما سألت قبل لي إن ذلك يستدعى شهراً من الزمن

وسدق كل إنسان روايته واستقبل في منزل أبيه بالاجلال والاحترام، ولكن لسوء حظه أنه كان في اليوم التالي يتأهب لركوب الجواد وإذا بتنازا كشي يدخل المنزل وكان قد وصل من طهران ثم أخذ ينظر إلى الجواد ويفحص اللجام والسرّج المذهبين ثم استفهم عن اسم صاحب الجواد فأخبروه أنه الملا نادان

قال مغضباً: «الملا نادان! من هذا الكلب الذى تقولون عنه؟ إن هذا جواد سيدى الحاكم ومن يقول بغير ذلك فقد كذب سواء كان ملا أو غير ملا»

وفي تلك اللحظة حاول الملا أن يختبئ عن أنظار الناذا كشي وهو أحد الدين أجلونا عن العاصمة يوم عاره وفضيحتته، وكان في اابس ملابس شيخ الملء وعمامته ما أظهر أمام عينيه فظاعة جرمه. ولحته عين الضابط فصاح بأعلى صوته: «اقبضوا عليه! أزهقوا روحه! إنه هو نفس الرجل! أقسم برأس على أن هذا قاتل شيخ الملء»

وكان الناذا كشي في تلك اللحظة قد ترجل وقبض على الملا بمساعدة أتباعه والحضور الذين أدركوا أنه يعمل تنفيذاً لأوامر الحكومة وقد أخذ الملا يبرى نفسه بالقسم يتلو القسم على أنه لم يقتل ولم يسرق وأنه مستعد أن يحلف على المصحف الشريف أنه برىء

وقص الحلاق ما دار بين الملا وبين الناذا كشي بصديق وأمانة، وكانت النتيجة أن أخذ الأخير الملا معه إلى طهران رغم توصلات والده ورجاء أصدقائه ومساعدتهم. وقد شمرت بما لم يشمر به إنسان من الحسرة والحزن على ما ألم بصاحبي من

نقلها إلى كربلاء، وقال لي قائد القافلة وكان رجلاً كثير الكلام زكي للقلب كمادة رجال القوافل من أمثاله

« يظهر لي أنك غريب وإلا لما سألت عن أمر معروف مشهور. إننا نحمل أشياء عزيزة إلى كربلاء » فأجبت: « نعم إنني غريب قادم من جهة بعيدة ولا علم لي بشيء مما تقول فحدثني بالله ماذا تنقلون إلى كربلاء »

فقال محدثي: « ما هذا؟ ألم يصل إلى علمك شيء عن مقتل الملا باشي؟ أما سمعت كيف فارق الحياة في الحمام وكيف ظهر شبحة بعد ذلك ممتطياً جواداً ثم ظهر في منزل الحرم وكيف أن ذلك الشبح اختفى على جواد من جياد الحاكم؟ أين كنت تعيش أثناء وقوع هذه الحوادث؟ »

قال ذلك وهو يشير بيديه ويهز كتفيه أرعبني ما قاله الرجل فتظاهرت بالجهل وطلبت إليه أن يشفي غليلي عن تلك الأمور التي تحدث عنها، فأجابني إلى ما طلبت بحالة لولا أنني كنت متورطاً في نفس تلك الحوادث لأنارت عيني ودهشتي، قال: « ثق أولاً أنني أقص عليك أموراً حقيقية لا مجال للريب في صحتها لأنني كنت في مكان وقوعها في الوقت الذي وقعت فيه. ذهب شيخ العلماء في مساء أحد الأيام بعد أن أدى فريضة المغرب إلى الحمام ثم رجع إلى داره محاطاً بأتباعه ودخل إلى خلوة لينام تلك الليلة في جناح الحرم

ولست في حاجة إلى إخبارك بأن معظم حمامات إيران تفتح أبوابها للنساء أول النهار إلى ساعة معينة منه وبعد ذلك يخص للرجال في صباح اليوم التالي لليوم الذي استعمر فيه

لأن اللصوص الأكراد ينفرون على الحدود فلا تقدم قافلة على اجتيازها إلا إذا كان عدد أفرادها كبيراً ولكن قيل لي إن قافلة من الحجاج قامت قبل وصولنا بيوم واحد إلى كربلاء وأنه يمكنني بقليل من الجهد أن ألق بها قبل أن تصل إلى المنطقة التي يهددها الأكراد فلم أتردد في اختياري، ولحقت بالقافلة بعد ما خبات مالي في حزامي ولم يكن معي غير عصا غليظة ...

وفي مساء اليوم الثالث وبعد أن أنهك التعب قواي رأيت عن بعد نيراناً يتصاعد دخانها فشرحت صدري رؤيتها وقصدت إليها وتبينت حين اقتربت منها بظلالاً وماشية ترمي في السهل المنبسط فأدركت أنني لم أكن مخطئاً حين حسبت للقافلة قريبة

وشاهدت حين اقتربت من الوهاد التي تكدست فيها الأحمال خيمة صغيرة بيضاء منصوبة في ناحية غير بعيدة وقد دلفي شكها على وجود حجاج من ذوى السكاة بين أفراد القافلة وأنهم يصحبون نساءهم لأنني رأيت هودجاً على مقربة من الخيمة فتقدمت من رئيس القافلة كأحد الحجاج، ورأيت منه استعداداً تاماً لأعطائي بغلاً يحملني في سفري وأردت ألا يتنبه أحد لوجودي نظراً لحالتي الميئة التي كنت فيها غير أن الخمسة والستين قطعة ذهبية التي في حزامي جعلتني لا أستطيع حبس خيالي وكظم زهوي كمادة مواطني الإيرانيين وشاهدت بين الأحمال على مقربة من مكان أكياساً عديدة خيبت على أجسام مستطيلة منتشرة على الأرض أزواجاً بشكل يدل على أنها كانت محمولة على ظهور الرجال. ولما كان منظرها لم تألفه عيناى فقد سألت عنها فقيل لي إن بالأكياس جثثاً يراد

فقد رأيته بعيني رأسي يمود من الحمام سالماً وأصلحت له الفراش وأنا على يقين أنه نام بعد ذلك فيه . وليس من الممكن أن يكون نائماً في فراشه في نفس الوقت الذي يكون فيه ميتاً في هذا الحمام . كلا ! هذا إنسان غيره بلا رب »

وقد زادت هذه الملاحظة من رعب النسوة وذعرهن عن ذي قبل لأنهن تصورن أن من رآه الخادمة كان بلا شك عفريت الملا باشي

وكانت زوج الملا قد عادت إلى رشدها فقالت مشيرة إلى وجه الجنة : « أنظروا إلى هذا الخدش الذي أحدثته في وجهه بالأمس فقط » وقالت إحدى الخادومات : « وهذا مكان خصلة الشعر التي اقتلعتها من ذقنه »

وسببت هذه الذكرى اللذيذة إهمال الدموع من عيني السيدة الأرملة فلم يوقفها إلا تأكيد الخادومات بأن الملا باشي لا يزال على قيد الحياة . وقالت لها خادمة : « من إذن الذي أوصد الباب من الداخل وأمرني بالانصراف ؟ ومن الذي سمعنا غطيظه ؟ »

وقد اقتنعت الخادمة بصحة قولها فلبست ملابسها وأسرعت إلى الخارج لترى سيدها نائماً في حجرته دون شك ولا ريب

وهنا قالت إحدى الخادومات مشيرة إلى الجنة : « ولكن إذا كان سيدي نائماً في منزله فلن هذه الجنة التي نراها »

فقالت أخرى : « يجب أن يكون هذا عفريت سيدي إذ لا يعقل أن يكون الإنسان ذا بدنين يمشي بواحد ويموت بالآخر »

وقالت ثالثة ذات صوت أجش : « هذا غريب »

(٧)

الملا باشي ذهبت زوجته بين أتباعها وعبيدها إلى نفس الحمام ، وكان ذهابها عند شروق الشمس وكانت هي ومن معها أول من دخل الحمام في ذلك اليوم

ولشدة احترام أتباعها لها لم تستطع إحداهن أن تتقدمها إلى مغطس الماء الساخن ، وكان لا ينير قبو الحمام غير شمع الفجر ، فنزلت زوج الملا باشي إلى المغطس في ظلام دامس ، فتخيل رعبها وخوفها حين تقدمت خطوتين في الماء فوقت يدها على جسم من اللحم العائم

ولم تستطع السيدة إلا أن تصرخ صرخة حادة وإلا أن تسرع إلى الخروج من الماء ثم أغشى عليها من فرط ما نالها من الرعب

وتخيل ذعر الخادومات مما حدث فقد كانت كل واحدة منهن تتقدم وفي يدها مصباح لترى السبب في رعب سيدتهن ثم لا تلبث أن تصرخ صرخة وترتد مذعورة مرتمية إلى الوراء ، ولم تتحقق واحدة منهن ذلك الجسم العائم في الماء ، وأخيراً تشجعت رئيسة الخادومات المجوز ونظرت متجولة إلى المغطس . ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أن الجسم العائم جثة رجل ثم تبس ذلك صرخات عديدة وصياح حاد أعاد رشاد زوج الملا إليها وجعلها تشارك خادوماتها ، ولكنهن لم يعرفن الجنة التي انتفخت وتغير لونها ثم جرى بمصباح ونظرن إلى وجه الجنة فصرخن جميعاً : « إنه الملا باشي ! إنه الملا باشي » وعادت السيدة إلى إغمائها وبدأ الرقيقات في سراخهن ، واختلط حابلهن بالنابل حتى ظن من رآهن أنهن في يوم القيامة . غير أن إحدى الخادومات قالت في وسط ذلك الصراخ والمويل الذي اشترك فيه جميع النسوة : لا يمكن أن يكون هذا سيدنا

مدمش لا يتصوره العقل»

وكان قد دخل الحمام في ذلك الوقت نسوة أخريات للاستحمام . وبينما كان نسوة شيخ العلماء يفكرن في أمر سيدهن ويفرضن الفروض إذ بالجارية التي كانت قد ذهبت لتتحقق من وجود الملابش في منزله قد عادت وأخبرتهن بأنها لم تجده ولم تجد غير آثار نومه على الفراش فتعالت للصراخات وارتفع صوت العويل ، ونما الخبر إلى خارج الحمام فتجمع حوله عدد كبير وطلبوا السماح بدخول المكان . وقبل أن يتمكن النساء من لبس ملابسهن وستر أجسادهن العارية امتلأ الحمام بالرجال ولم يحدث قط أن حماماً في طهران اختلط فيه الرجال بالنساء كما حدث ذلك اليوم

وكان النظر محجياً من نسوة بندين . ويمكن ، وأخريات يصرخن ويلطمن ويبحرن فزعات من رؤية الرجال لمن وهن حاربات . ثم جاء أقارب الرحوم وأصدقاءه ومعهم للناسلون الذين أخذوا الجثة إلى مكان آخر ففسلوا وحفظوها وأعدوها للسفر إلى كربلاء حيث تدفن فيها كما تقرر من ذي قبل . وأبنت زوج القتييل رغبته في مراقبة الجثة . واستأجر القوم بنالاً لهذه المهمة . ففي هذه الخيمة التي تراها هناك زوجة القتييل مع جواربها ، وأما الجثة فهي بين تلك الأكياس . وأما الجثث الأخرى التي تراها فهي جثث من ماتوا في طهران وفي البلدان التي مرزنا بها أثناء السفر . وقد جرى بها لتدفن في كربلاء في كرامة شيخ العلماء إذ قد يشفع فيها يوم القيامة ليدخل أصحابها الجنة »

وهنا سكت محدثي وكنت قد أجم لسان الخوف الذي استولى على أثناء سرد القصة فلم أنكم ،

وفكرت في أنني قد أردت الخلاص من خطر دام فألقيت بنفسي في ذلك الخطر ، إذ قد يعرفني خادم من خدم شيخ العلماء . ومنهم من كان بيني وبينه معرفة وصحبة فيستكشف أحزى ويظهر تنكري وأردت أن أعرف هل لاحظ القوم ملابسي التي كنت تركتها في ركن من أركان الحمام ، فقلت لرئيس القافلة : « ماذا تم بعد إخراج الجثة من الحمام ؟ »

فأجبنى : « لست أذكر ما حدث ، على أنني أعلم أن الروايات اختلفت وأن الاشارات تعددت وأن كل رجل كان له رأى يخالف رأى الآخر ، فقال البعض : إن شيخ العلماء بعد أن قتل غرقاً رأى في خلوته وبعد ذلك نام في فراشه . وقال البعض : إنه ظهر في الصباح التالي في منزل رئيس الجلادين وذهب محتطاً جواداً من خيرة جياده . وقد أظهر رئيس الجلادين نفسه ورقة عليها خاتم الملباش وفيها إذن بشرب النبيذ . وبالاختصار فإن اختلاف الروايات وتمدها جملاً المرء لا يعرف أيها بصدق ، غير أن القوم ارتبكوا ونهروا في تحليل خروج الملباش حيّاً من الحمام (وبذلك شهد جميع خدمه وشهد صاحب الحمام) ثم وجدوه بعد ذلك في المنطس غريقاً ، وكما ازداد الناس في البحث وأكثروا من التحليل زادت حيرتهم وكثر ارتباكهم إلى أن استكشف أمر ألقى على تلك الظلمات قبساً من النضياء إذ وجدوا بعض الملابس الممزقة في ركن مظلم من أركان الحمام ، واستدلوا في غير عشاء على صاحب تلك الملابس وهو شيخ مأفون يدعى حاجي بابا كان تابياً للاندان عدو شيخ العلماء اللدود والذي اشتهر بأثرة الشعب والهيلاج .

كنت أحسد كل ذى سحنة منكبة وملابس خلقة وهيئة رثة تخوف أن يكون حسن ظمقى شيئاً في اتجاه الأنظار إلى . وقد خفت الاقتراب من خديم السيدة زوجة المرحوم خوفاً شديداً فكنت أدير وجهي إذا ما نظروا إلى الجهة التي كنت فيها وذلك رغم شوقى إلى أن أعرف هل فيهم أحد من معارفى .

ومر اليوم الأول من رحيلنا دون حدوث أمر فوضعت رأسى على وسادة من الأمتعة التي كنا نحملها ونمت الليل كله نوماً هادئاً . وكذلك مر اليوم الثانى وحلنى اعتقادى بحسن حظى على أن أبحث عن رفقاء فى المسير أفضل من سائقى البغال والحالين وأخذت أحادث أسقفاً أرمنياً وأتبسط معه حتى جعلته يشمر بواجب الشكر والامتنان لرجل مسلم يميزه شيئاً من اهتمامه . ومر فى هذه الأثناء بجانبى أحد الخدم الملاعين فوجف قلبى خوفاً من أن يعرف حقيقتى . ولو أن الملا باشى نفسه ظهر فى هذا الحين لما كان انزعاجى من رؤيته أكثر من انزعاجى عند ما رأيت هذا الخادم . وأدبرت وجهى إلى جهة أخرى غير أن الرجل مر ولم يتنبه لوجودى وأعادت هذه الحادثة إلى نفسى الحذر الذى كدت أتجنبه فمزمت على أن أرجع إلى موقفى الأول بين البنالين وتركت الأسقف يفكر فى شئونه

وكنا سنمر فى اليوم التالى بالجهة غير المأمونة التى تقيم فيها عصابات الأكراد، وسيكون كل فرد فى شغل من خوفه على نفسه عن أن يفكر فى . ومتى اجتزنا تلك الجهة أصبحنا فى أرض غير أرض إيران . ويمكننى إذا عرف أمرى أن ألتجأ إلى حامية الأتراك

وجاء ذلك اليوم المخيف : اليوم الذى لن أنساه

ولما علموا ذلك صاح كل واحد من الموجودين : « حاجى بابا هو القاتل ! لا ريب فى أنه هو الذى قتل العالم الأكبر ويجب أن ينال القاتل جزاءه » . وأخذ جميع سكان المدينة يبعثون عن حاجى بابا وقد قال كثيرون إن نادان هو القاتل .

وأرسلت الرسل للبحث عن نادان وحاجى بابا وإحضارهما إلى طهران حين أو ميتين ، ولست أرجو أكثر من أن أصادف واحداً منهما فأنال مكافأة تعادل أجرة جميع هذه البنال المسافرة إلى كربلاء . أترك لكم جميعاً أن تتصوروا ما كنت أشعر به عند سماعى ذلك الحديث إذا علمتم أننى لم أعود مقابلة المخطوب والكاره بقلب جرى وأننى ظالماً فضلت سرعة قدسى وخفتى فى الفرار على أية وسيلة أخرى من وسائل الأمن والسلامة . ولكننى أدركت أن للتقهقر فى موقفى الحاضر لا يجدينى نقماً بل هو شر من الثبات والتقدم إذ لم يبق بينى وبين حدود إيران غير مسافة قليلة أصير بمدى فى أرض حكومة أخرى فمزمت على أن أخفى نفسى ما استطعت وأن أسير فى طريقى بحذر من يعلم أنه يحاط بالخطر من كل ناحية

الفصل الثالث والستون

ماهى بابا يستكشف أمره ويقبض عليه
غير أنه مسمى مظهر بمكنه من الموصى

تابعت للقافلة سيرها فى الصباح التالى . ولكى أتجنب الأنظار اخترت أن أسير بين البنالين والجمالين وتقدمتنا زوجة شيخ العلماء فى هودجها ومنها أتباعها ومن خلفهم الجمال التى تحمل الجثث وبعد ذلك باقى القافلة من بنال محملة تسير فى خط متعرج طويل فى طريق كربلاء

و كنت على وشك الترحم على نفسى غير أن
الدليل خفف من جزى وقال : « لقد كنت آخر
رجل التحق بالقافلة وقد تستطيع إخبارنا عن المكان
الذى يظن أن اللص على خان موجود فيه على الحدود »
فأجيبته قلقاً مضطرباً ، بيد أنى جمعت أطيل النظر
إلى عبد الكريم وكذلك أخذ هو يحدق فى بعينه
الذين ترسلان النظر حاداً نفاذاً فكادت تنخلع
أضلاعى ويثب فؤادى من الرعب .

وظل عبد الكريم ينظر إلى كمن كان يشك
فى أمر بينما كنت أحاول للفرار من أمامه . غير أنه
لم يلبث أن استجمع أمره وصاح : « وجدته ! وجدته !
إنه هو بعينه ! إنه الرجل الذى ضحك على ذقنى
وسلب مائة الطومان » .

ثم وجه الخطاب إلى الواقفين حولنا وقال :
« إن كنتم تريدون لصاً فها كم هو اللص . اقبضوا
عليه بحق للنبي الكريم ! »

فبدأت أحتج احتجاجاً شديداً وأنكر التهمة
التي ينسبها إلى عبد الكريم وكان من المحتمل أن
أنجح فى إقناع الواقفين حولى بأننى اتهمت ظمناً
وعدواناً وأننى برىء لولا أن جاء لسوء حظى فى تلك
اللحظة المأذون الشرعى وعرفنى لأول وهلة ونادانى
باسمى فافتضح أمرى واتهمت بقتل شيخ العلماء
وشغلت هذه الحادثة كل من كان فى القافلة وأحدثت
لفظاً شديداً وجلبة وضوضاء حتى نسي الخوف من
قطاع الطرق الأكراد إلى حين ، وأقبل على كل
فرد فى القافلة ينظر إلى سحنتى ويحدق فى وجهى .
قبض على وربط يداى إلى ظهري وأوشكت
أن أسحب على وجهى فأعرض أمام زوجة شيخ

طول عمرى والذى سأظل أذكره مادمت أذكر
شيئاً من حوادثي . وذلك أن القافلة مشيت مشية
مسكرية وشهر كل من كان معه سلاح سلاحه .
وذكري ذلك المنظر بمنظر آخر يشبهه وقد قصصته
فى جزء آخر من هذا الكتاب حينما كنت فى حجة
عمان أغا ولاقينا جملة التركمان . وما أشبه خوفى
ورعبى فى هذه الحادثة بخوفى ورعبى فى تلك . وإنى
أصدقكم القول أن الزمن لم يغير من عزمى ولم يقو
أعصابى ولم يسكن فؤادى

سارت القافلة فى نظام وعلى استعداد لكل
طارىء تحت قيادة جاویش وتقدمها الدليل فكون
هو وأتباع زوجة الملا باشى ما يشبه طليعة الجيش
وأما أنا فقد كان لخوفى على نفسى أكثر من
سبب واحد . وذلك اختلطت برجال القافلة وحدث
الله على أن ليس منى من المتاع غير المال الذى أحمله
فى حزامى

وكنائس فى سكون تام فلم يكن يسمع إلا صوت
أجراس القافلة . وسبحت فى بحر من الخيال
وجملت أفكر فيها سأفعل بالخمسة والتسعين طوماناً
عند ما أصل إلى بغداد إذ حانت الثغاة منى فرأيت
دليل القافلة قادماً إلى بصحبه أجمعى حسن الهندام
وقد أشار الدليل بيده نحوى وقال لرفيقه : « هذا
هو الرجل نفسه »

فقلت لنفسى : « ورأس على لقد قلب الحظلى
ظهر الجن وتنكر لى القدر بمد أن صلفانى » .
نظرت إلى رفيق الدليل ولم ألبث أن تبينت فيه
شخص عبد الكريم الذى استوليت منه على مائة
الطومان فى قرية سيراباد بواسطة الخطاب الذى كتبته
وبصمت عليه بخاتم المرحوم الملا باشى .

العلماء وإذا بالخط يساعدي والقدر يمهّد لي سبيل الخلاص

سمعت نفاة صرخة عظيمة دوت عن بعد ، ورأيت كوكبة من الفرسان تنعدر إلينا من جانب التل المجاور فأدركت وأنا أبهل فرحاً أن هؤلاء الفرسان هم الأكراد الذين ألقوا الرعب في القلوب وخشيتهم القوافل

سرى الخوف والدهر في القافلة كلها وحل فيها الاضطراب والارتباك فلم تستطع المقاومة ، إذ كان يموّزها الاقدام والقوة فهرب راكبو الدواب وخاف البغالون على بناتهم فقطعوا حبال الأحمال وتركوها منتشرة في السهل في متناول يد اللصوص وتمت رحمتهم ، وكذلك أتى ما كان على ظهور الجبال من الجثث فكانت ترى مبثرة في كل مكان وقد لاحظت أن الكيس الذي فيه جثة الملا باثني سقط في نهر هناك وكأنما القدر لم يكتف بإغراق شيخ العلماء حتى أغرق جثته . وبالاختصار فقد عمت الفوضى في القافلة وانتشر الهياج وبذلك انفردت بنفسى فخلت وثاقى بسهولة ولاحظت أن الأكراد وجهوا جل اهتمامهم إلى الهودج ومن حوله من الأتباع لأنهم توقعوا أن يجدوا به من هو خليف بالأسر من ذوى الكفاة ، وسرني وأثلج صدرى أن أجد من كانوا منذ لحظة يسيرة يدبرون لي وسائل الخراب والدمار وينظرون إلى كمن قضى عليه أصبحوا هم أنفسهم في نفس الحالة التي اختاروها لي وحل بهم الخطب الذي كنت فيه والمصاب الذي نجوت منه

ولقد ذهب تهديد أتباع الأرملة ووعيدهم سدى ولم تجد مقاومتهم ولم يمنع مهاجمهم غلاظ الأكباد متخجري القلوب ، مانع عن السلب والنهب وأمر

من ينتظرون له فدية . وعلمت أن نجم حياتى قد عاد إلى تألقه وإشراقه ، لأن من يملك متاعاً أو بلبس ثياباً ثم على نعمة وثرأ قصد إليه اللصوص ، أما أنا وبغلى الحفير فكنا في حالة لا تسترعى أنظارهم ولا تستدعى أى اهتمام ، فسرت بلا مشقة ولا عناء في طريقى إلى مقصدي وليس دونى عائق إذ لم يكن لي بين الجثث المنتشرة هنا وهناك قريب أو صاحب أدفع عنه فدية ، وكنت حراً كالهواء طليقاً كالإماء ، فتأملت طريقى حتى تخلصت من تلك الأخطار ونجوت من المصائب التي كانت تحيط بي بمسجزة هي أشبه بالسحر قائلاً : « يارك الله في قدر يرعاني وحظ يخدمنى وتوفيق ليس بعمه من توفيق »

الفصل الرابع والستون

الوصول إلى بغداد . مقابلة هاجى بابا لسيده الأول
انجاء نظره للنجاة

تركت أرملة الملا باثني وعبيدها وأتباعها بين أيدي الأكراد وأسرعت في طريقى لأولى على شىء محاذراً أن أحدث أحداً بعد الذي حدث أخيراً بل اتبعت في سبرى خطة لا تسترعى الأنظار ولا تثير الاهتمام

رأيت في طريقى بعض من أفلتوا من الأكراد ولكنهم لم يبتعدوا عن مكان الحادثة كثيراً إذ كان لكل منهم بنية في القافلة فحاموا حولها رجاء التمكن من متاع أو مساعدة صديق

وكنت أنا الوحيد الذي لا فاقة له في القافلة ولا جل قبعد أن سرت فرسخين أو ثلاثة أمنت الطريق الذي لم يشاركنى فيه أحد وسرت بخاطرى حوادث حياتى كلها واستعرضت أمام غيلى

ما شاهدت وما فاسيت وانتهيت إلى النتيجة الآتية:
قلت في نفسي : « مادمت بخدمة الحظ
ويساعدني القدر فلأسمين إلى مطامى ولأجرب
وراء أغراضى ورجوت أن يكون فشلى الأخير
مقدمة لتحقيق آمالي وإدراك ما أطمع فيه من نعمة
وراء »

وقلت : « في حزامى خمسة وتسعون طوماناً
وطريق العمل مفتوح أمامى فلو أن الملا نادان تقطع
جسمه على آلة التنذيب وأرملة شيخ العلماء قبض
عليها الأكراد وقتلوا فساداً بمنعنى من المعجب
في مشيتى ولتبه في مسيرى كأحسن رجل في
إيران ؟ »

وأخيراً رأيت قباب بغداد ومبانيها ثم وصلت
إليها فدخلتها غريباً جاهلاً أحياءها، وكنت أعلم أننى
أستطيع اللشور على خان في كل بقعة من المدينة
ولكننى تركت البغل يقودنى حيث شاء

وكان البغل على دراية تامة بطرق المدينة
وشوارعها فوصل بى إلى خان كبير لاشك أنه كان
معتاداً أن يبيت فيه في رحلات القوافل . وعند
اجتيازه عتبة الخان نهق بضع نهقات منتظراً سماع
الجواب من رفاقه فى اصطبل الخان

وكنى أشعر بضيق واقتباس صدرى وزاد فى
اغتيابى وسعادتى، إن سح أن يسمي ما كنت أشعر
به سعادة أننى أبصرت جماعة من مواطنى فى رحبة
الدار، ولم ألبث أن أدركت أن الخان مكان تلاقهم
جعلت أخفف عن نفسى بقولى إن مظهرى
لا يدعو إلى الالتفات ولا يجلب النظر وكم كانت
خبيتى حين ظهر أن الأمر على عكس ما ظننت
إذ ما كنت أترجل حتى وجهت إلى آلاف من

الأسئلة فقد كان قوم ينتظرون القافلة من آوة لأخرى
وكان التجار ينتظرون وصول بضائعهم بفارغ الصبر
وظن الجميع أن فى إمكانى الإقضاء إليهم بما يودون
أجبت إجابات تناسب المقام غير أننى عازمت
على أن أترك قوماً فضولين لا يفرغون من أسئلتهم
كهؤلاء القوم وأن أرحل عنهم إلى مكان آخر
أختفى فيه

وعلى ذلك تركت بغلى تحت رحمة الأقدار معللاً
النفس بأن صاحبه لا يلبث أن يحضر ويأخذني ويمت
ناحية أخرى من نواحي المدينة

بدأت باتمام تنكرى فغيرت قلفسوتى المصنوعة
من جلد النعم بما يضمه أهل المدينة على رؤوسهم
وهو كيس طويل أحمر اللون من قماش بتدلى أعلاه
إلى الظهر . وربطته على رأسي بقطعة ملونة من الحرير
وابتعت ثوباً قديماً من الثياب التى يلبسها الأتراك
عادة . ولما لبسته فوق قفطانى ظهرت كالتمايين سواء
بسواء ثم أكلت هندامى بمخاضين لونهما أحمر

وبعد ذلك فكرت فى أن أقدم نفسى إلى عائلة
سيدى القديم عثمان أغا لأننى بواسطتها أستطيع
أن أتصل بمعارف فى المدينة وأن أتقدم فى ميدان
التجارة

وانطلقت فى المدينة أسير فى أسواقها لأسأل
عن ضالتي وكنت أقف على كل بائع جلد إذ كنت
أذكر أن صاحبي مكرم بتجارة الجلود، وذكرت أيضاً
كل ما كان يقصه على أثناء رحلاتنا حتى تصورت
أننى أصل إلى باب داره من غير سؤال

وأخيراً انتهت حيرتى هذه بأن وقفت أمام
حانوت كبير من حوانيت البخاريين وسألت أصحابه
عما إذا كانوا يعرفون شيئاً من رجل اسمه عثمان أغا

من بغداد ، فسمعت صوتاً تعرفه أذناني حق المعرفة
يجيبني : « من يريدني ؟ أنا عثمان أغا »

وتصور أيها القاري مقدار سروري ودهشتي
فقد كان التكلم هو نفس عثمان أغا ذلك الشيخ
المهرم ... دهشت غاية الدهشة من مقابلتي إياه كما
دهشت سابقاً من رؤيتي له في طهران ، وكذلك
دهش هو من مقابلتي وقصصت عليه من حكاياتي
مارأيت أن أقصه عليه ضرورياً وروى لي هو الآخر
حديثه الآتي :

ترك عثمان أغا طهران وفي عزه مواسلة السير
إلى الآستانة لجمعها مركزاً لتجارته ولكنه سمع أن
أخطاراً عظيمة تهدد المسافرين بين أديفان وأرضروم
إذ لا يسلم المار في تلك الجهة من السرقة ففكر في
زيارة بغداد ووصل إليها وهي موطنه الأصلي بعد
غيابه عدة أعوام ، وقد وجد أن ابنه قد كبر وباع
مبلغ الرجال بعد أن أقام مآتم والده للضائع واتخذ
في الأسرة مركزه بين والدته وأخته . ولكنه بعد
أن رجع والده لم يظهر أي امتعاض بل امتثل كسليم
صحيح الاسلام للآية القرآنية الشريفة التي تحض
على البر بالوالدين ووجب ألا يقول لهما أف ولا ينهرهما
ويقول لهما قولاً كريماً

ثم أضاف محدثي إلى ذلك أنه وجد زوجته حية
ترزق وابنته في سن يؤهلها للزواج ، وبعد أن انتهى
الرجل من سرد حواده على التفت ونظر إلى نظرة
شرراء لم أعهد لها فيه من قبل وقال لي : « يا حاجي بابا
قل لي بحق نبينا محمد ما الذي دفعتك إلى تزويجي
من تلك الشيطانة الخبيثة في طهران ؟ هل أردت
أن تجعلني أنسى متاعبي وهمومي أم أجدها بين
ذراعي تلك المعجوز القبيحة ؟ وحق ما بيننا من ألفه
قديمة وصداقة متينة لقد كانت أيامي معها أمتع
وأحسن من الأيام التي قضيتها في أسر التركان .

هل يلقى بك أن تعامل صديقاً قديماً هذه المعاملة ؟
فأكدت له أنني لم أكن أسمي إلا إلى سمادته ،
ولم يكن في الأمر غاية أخرى ، وأنني حسبت أن
تلك السيدة التي كانت جارية للشاه ذات جمال ومحاسن
تسبقها إلى آخر أيامها ، واعتقدت أنها بذلك فوق
ما يمتنى رجل مثلك قضى أعواماً عديدة في رفقة الجلال .
فصاح صاحبي : « جمال ! أتقول الجلال ؟ إن
تلك الجلال لو قورنت بالشيطانة التي أتيتني بها لكانت
مثل اللائلة . ليتك زوجتني من ناقة بدلاً منها ،
فقد كان في مكنة ذلك الحيوان النمس أن يكون
هادئاً في عشرين ما كنا في مصاحبتي ، وأن يتركني
أذهب حيث أشاء ، وأفل ما أريد . بيد أن تلك
الحية الخبيثة لم تجد ما يقطع وقتها من غير الترم
بأنها أسمدتني وشرفتني . لأنها كانت تقود الشاه
من ذقنه وتضطره إلى إجابة رغائبها بخفة روحها
ورشاقة قدما ودلالها وغنجها . وكان لا يمضي الشاه
أمرأ إذا داعبته بلطمة خفيفة »

ثم قال محدثي وقد لطم خده بيده : « أمان !
أمان ! إنني أكاد أشعر بوقع تلك اللطعات الآن »
وأخيراً اقتنع الرجل بأنه لم يكن لي دافع إلى
تزوجها منه غير الرغبة في إسعاد . ثم دعاني إلى
ضيافته ، وأن اتخذ مقامي في بيته مدة إقامتي في بغداد
قبلت منه ذلك مسروراً بلا تردد

حدثت هذه المناقشة بيني وبين عثمان أغا في
الحجرة الخلفية من حانوت التاجر البخاري ، وقد
سقاني عثمان أغا مقداراً وافراً من القهوة التي كان
يستحضرها من شرب جاره ، وبعد انتهاء الحديث
عرض على الذهاب إلى حانوت والده في نفس السوق
بعد بضعة حوانيت

وكان اسم ابنه سليمان ، وكان سليمان هذا في

أخصص وقتي وأقصر جهدي في المستقبل على الحصول على عيش ناعم بواسطة التجارة . وقلت كذلك إن كثيراً من الناس أدر كوا للفنى وجمعوا أموالاً طائلة رغم ابتدائهم بحالة أصغر من التي أريد أن أبتدىء بها ووافقني عثمان أبا وولده على هذا الرأي ، وعند ما انتهينا من أمر الثروة التي ساجمها قال عثمان أبا بيت الشعر الذي وعاه أثناء رحلته وهو :

« يسقط الماء من بين الصخور نقطة فنقطة حتى يصير في النهاية بحراً » .
وحين وصلنا إلى هذه النتيجة أخذنا وجهتنا عثمان أبا ونجمله وأنا إلى المنزل الذي كان يقع على مسافة غير بعيدة من السوق .
« يتبع » عبر اللطيف النشار

أثناء غياب أبيه قد تزايدت التجارة ، وعاش عيشة طيبة ، جالساً طول يومه — عدا أوقات الصلاة — على مصطبة دكانه ، ومن حوله بضاعة مرسومة رسماً بدسياً على رفوف مرسومة على الحوائط وكان سمياً قصير القامة يشبه أبا أتم الشبه وحين علم أنني حاجي بابا رحب بي وهش في وجهي وزرع غليونه الذي كان يدخن فيه من فمه وناولني إياه

وقد رجوت أن أتمتع بعيش رغد ومقام طيب في بغداد في محبة هؤلاء القوم الأخيار ولكي لا أظهر بمظهر الغالة عليهم أخبرتهم بأن لدى خمسة وتسعين طوماناً واستشرتهم في أنجح وسيلة أنبعها لأربح منها في التجارة وقلت لهم إنني قد تبعت من حياة التجارب وكثرة الطواف وإنني عزميت على أن

بنك مصر

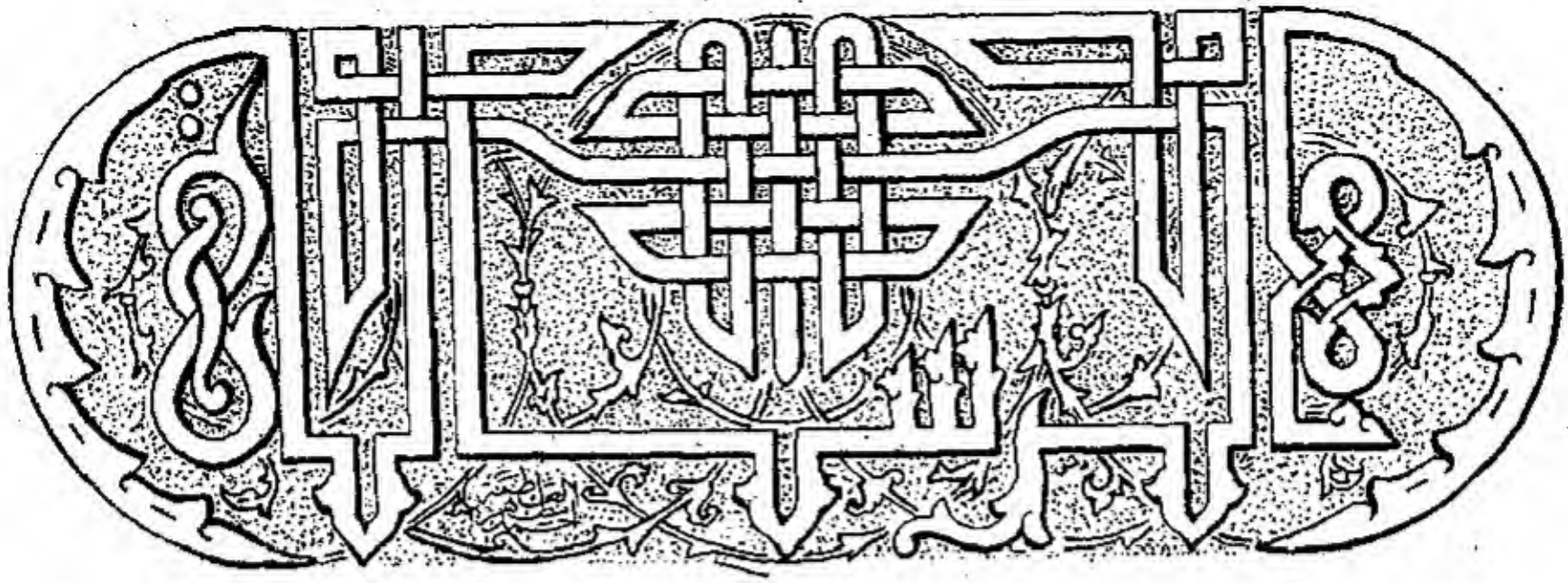
أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادي

عاملوه . وعاملوا شرفاً . . . انصر لبلدكم

(طبع بمطبعة الرسالة بتارح المبدول - عام ١٩١٧)

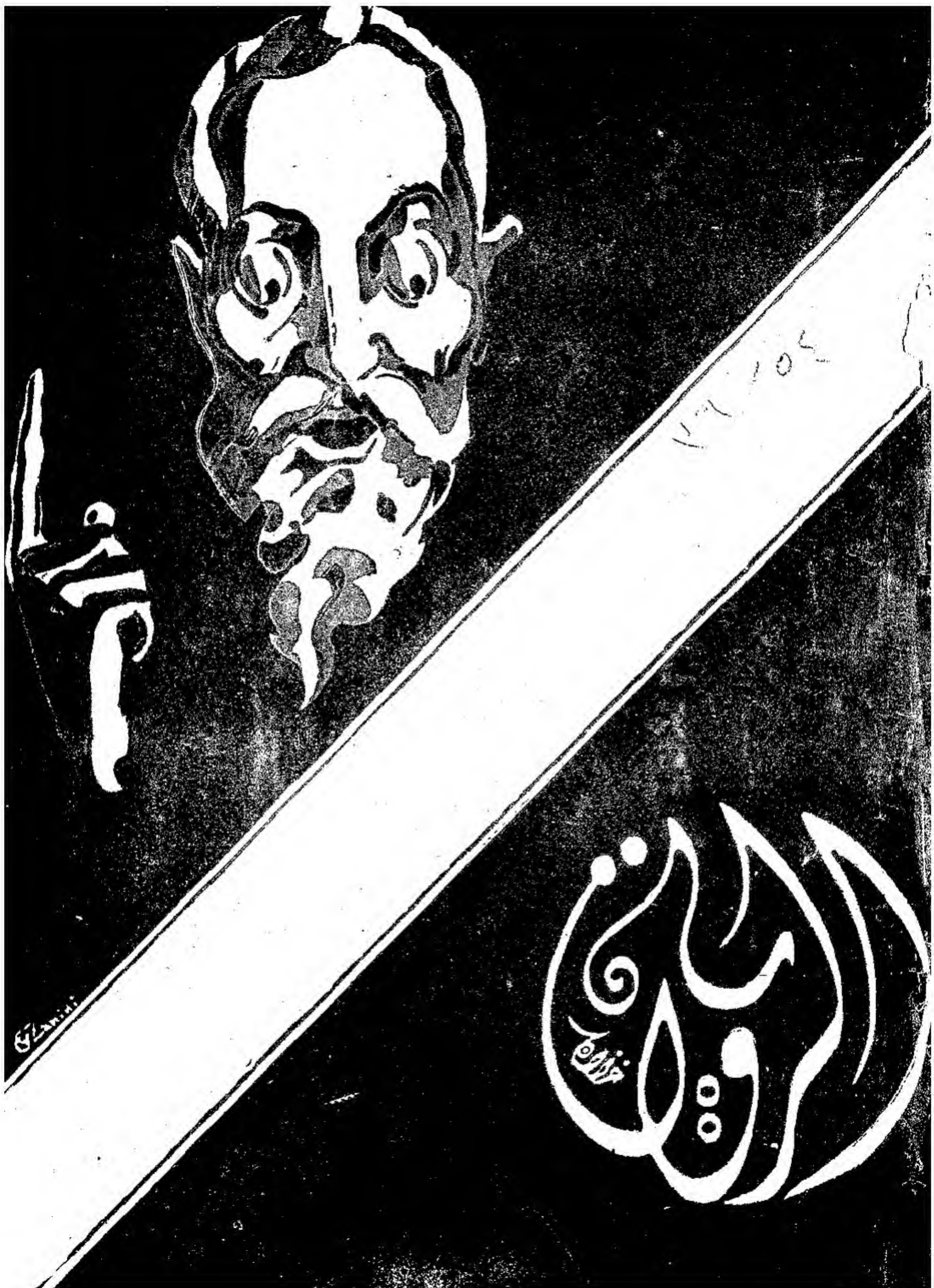


مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النِّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْمِي فِي النِّشَاءِ اسْكَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ النُّظُورِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ ، وَكِتَابُ الْمَشْرِقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفَ عَامَّةٍ

الاشتراك الداخلي سنون قرناً ، والخارجي ما يساري جنيهاً مصرياً ، وللبلاد العربية بمخضم ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الدرية

مجلة أسبوعية للقصص والسير

تصدر مؤقناً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٥ صفر سنة ١٣٥٧ — ١٥ إبريل سنة ١٩٣٩

العدد ٥٤

من لحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	الموضوع	القلم
٣٣٨	انتقام	بقلم الأستاذ محمود الحفيف ...
٣٤٩	صندوق النذور	بقلم الأستاذ دريني خشة ...
٣٥٦	المارد الذى يحب نفسه	بقلم الأستاذ نغرى شهاب السعيدى ...
٣٥٩	تعب القلب	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...
٣٧٠	عذرية	بقلم الأستاذ عبد الفتى على حسين ...
٣٧٦	حاجى بابا أصلهانى	بقلم الأستاذ عيسد اللطيف النشار ...
...	أقصصة مصرية	...
...	أقصصة مصرية	...
...	لكاتب الانجليزى أوسكار وايلد	...
...	عن الانجليزية	...
...	أقصصة مصرية	...
...	لكاتب الانجليزى « جيمز مور »	...

ونظرت إليه نظرة صارمة فيها
الزجر والاستخفاف والغضب ، وفيها
كذلك التهديد بأنها لم تعد تطيق منه
هذه الحال التي جعلت عيشهم ما نكدًا
على نكد ؛ وفهم الرجل مغاى نظرتها
فأطرق يخشى أن ينطق فزيده كلماتها
ضيقة على ما به من ضيق

من صور الريف أنفثا أقصوصة مضمرة للأستاذ محمود الجحيف

وكانت امرأته في الخامسة والأربعين من عمرها
لا تزال تحتفظ بقسط كبير من جمالها السابق ، فما
يزال في وجهها بقية من ملاحظته وصباحته ، وما زال
يحمل جسدها نصيباً من سالف نعومته وطراوته ،
وعيناها الواسعتان اللامعتان ما يزال يختلج فيهما
قبس من ذلك الإغراء ، ثم من ذلك السلطان الذي
طالما تحكمت به في فتیان القرية أيام الشباب والحب ،
ذلك السلطان الذي أذعن له عثمان وبرهن على إذعانه
بما أنفق في سبيله من مال حصل عليه ثمناً لفدان
من أجود أرضه باعه في غير تردد ولا إبطاء
وانتهرت زوجها قائلة :

— فيم هذا الغم كله يا رجل ؟ دائماً تجلب لنا
النكد من غير سبب ... ماذا جرى ؟ في هذه السن
تسمع كلام الكاذبين ؟
— لا شيء ... لا شيء ... الحر شديد ... أنا
أشكو الحر ... أنا تعب

ووصلت في تلك الساعة إلى الدار ابنتها نبوية
تسحب البقرة والجاموسة ، ورفع إليها أبوها بصره
وفي عينيه مثل ما يكون في عين نمر غاضب يكاد يتميز
من غضبه ، ولكنه عاد فأطرق مسرعاً خشية أن
تقع عليه عينا امرأته ، وإنه ليحاول أن يخفي ما تركه
في جسده مرأى ابنته من رعشة بلغت حد الانتفاض

جلس أمام داره وقد غربت الشمس وأخذت
تتلاقى في سماء القرية ظلال المساء ، وتشيع في زرقة
الأفق حمرة الشفق ، كما أخذت تنسم أنفاس الليل
فتستروحها الأنفس الضائعة التي كاد يزهقها حر
النهار ...

ودار الشيخ عثمان بوجهه يستقبل النسمات
الوانية التي كانت تنساب إليه متقطعة من ذلك الفضاء
الذي يمتد أمام بصره من موضعه إلى حيث تنبسط
الحقول البعيدة ، وكان ذلك القروي الشيخ يفتح
صدره لتلك النسمات وينشق منها ملء رتقيه ، وكان
يبدو من تبرد وجهه وقلقه وما يختلج في عينيه
الذابلتين أنه يلتبس فيها فضلاً عن طراوتها روحاً
لنفسه من همومه التي بات يؤوده حملها

كان الشيخ عثمان يدلف للستين ، ولكنه كان
يبدو مما يثقل قواده من هم كأنه أربى على الثمانين !
فقصد اخترم ذلك الهم جسده أكثر مما اخترمته
السنون ، وترايدت في وجهه التجاعيد حتى ليعجب
الناظر إلى ذلك الوجه كيف كان خلوا منها في يوم ما !
ودنت منه امرأته فسمعتة يتهد تهداً عميقاً ،
ويئن أنيناً لا يكاد يطلقه حتى يكتمه مستسلماً تارة ،
برماً ضائقاً بالحياة تارة أخرى ؛ ولما ألفاها إلى جانبه
تظاهرا أنه إنما يشكو الحر

تكتمه عني ولسكنك تقول إنك تثق بذلك الرجل ،
فإن كان ما جاءك به لا يصدق فاطلب إليه أن يحلف
بيمين الله »

ومضى الشيخ عثمان منصرفاً إلى داره وكانما
خفف ما أشار به عليه الإمام بعض آلامه ، فهو
في سيره خفيف الخطى ، لا يتوكأ كثيراً على عصاه
كما كان يفعل في ذهابه إلى المسجد أو كما كان يفعل
منذ نفي إليه ما كدره وأحزنه

أسفر الصبح وأفاق الناس من نومهم ولما بيد
وجه الشمس ، وعاد الشيخ عثمان من المسجد ، فما كاد
يصل إلى عتبة داره حتى كانت ابنته خلفه قد عادت
في سرب من صاحباتها يحملن من التربة جرارهن
ويسرن بها خفيفات في وجوههن بشر ونور من بشر
الصباح ونوره ، وفي وجهها دونهن كدرة وشحوب
لم تقو على إخفاءهما

وأسند أبوها عصاه إلى جدار الدار ، ومد يده
تحت إبطه فأخرج شيئاً ملففاً بورق ؛ وفص الورق
فتبينت بنته مصحفاً صغير الحجم عرفته لأنه شبيه
بمصحف أخيهامصطفى الذي طالما شدد عليها ألا تمسه
إذا هي فتحت صندوقه ؛ ولقد دق قلب الفتاة دقاً
عنيفاً حتى لقد سمعت أمها تلك الدقات وهي تعاونها
على وضع جرتها فوق المصطبة ، ذلك أنها ظنت أن
أباها ما جاء بهذا المصحف إلا لتقسم هي به .

ولكن الرجل كان يدور بعينه بين الفينة والفينة
نحو مدخل حارة من الحارات القريبة ينتظر مقدم
شخص يريد ، ونظر بعد هنيهة نظرة تمشت على أرضها
صفرة في وجهه المسنون المتفرض ، فما هو ذا حسن
يسير نحوه .

ودخلت نبوية فعلفت الماشية ، وألقت بعض
الماء في أواني الطير لتجدها مملأى إذا أصبح الصبح ،
ثم ذهبت لتهيء الطعام لأخويها فقد عادا من الحقل
وجلسا ينتظران بالباب

غص بمسجد القرية قبيل العشاء بأهلها من كل
ناحية ، وما حان موعد الصلاة حتى كان الناس
في ذلك المسجد الكبير صفوفاً خلف صفوف من المنبر
إلى البابين الكبيرين ، وقد نهضوا على تكبير الإمام
يقيم الصلاة في صوت رنان يسمع واضحاً في أركان
المسجد كأنما يحمله مكبر صوتي ، وركع الناس وسجدوا
ثم سلموا وخرجوا من صلاتهم يريدون دورهم
إلا الشيخ عثمان فقد سار مسرعاً نحو المحراب حتى
جاء الإمام فدنا منه وسلم ثم تناول يده فلقمها على كبره
وسأله : « يا سيدنا الشيخ كيف تتبين ؟ سمعت
في الصلاة ما أفهم منه أنه يجب علينا أن نتبين
إن جاءنا ... »

وأجاب الإمام « إن جاءكم فاسق نبأ فتبينوا
أى انظروا في هذا النبأ أهو نبأ صحيح أم كاذب »
— ولكن كيف أتبين ؟ أخبرني رجل بشيء
لم يره غيره فكيف تكون البينة ؟

— وهذا الرجل هل تثق به ؟
— نعم إنما هذا شيء لا يصدق وإن كان ليأكل
الهم بعده قلبي

قالها الرجل والدموع تنحدر من محجريه فتجري
في أخايد وجهه ، وكان في ذلك الوجه لوعة وجزع
لم يتمالك الإمام لهما دمة فتندت عيناه ولكنه ابتدر
الرجل قائلاً :

« على أى حال لست أفهم ذلك الشيء الذي

— كفى كفى يا بني.. أهنتني في شرفي وأهمتني في عرضي... الحمد لله أنك كاذب وإلا فهو العالم ماذا كان يحدث لها أولى .

لاحظ الناس أن الشيخ عثماناً يفلق باب داره عليه بعد الغروب، وأنه هو وابنيه يستروحون نسيم المساء على السطح بدل مدخل الدار، وعجب الجيران أن أصبحوا يرون حسناً يدير وجهه مغضباً كلما مرّ بتلك الدار، وأنه لا يلقى التحية على الشيخ عثمان إذا صادفه في الطريق . وكذلك عجب الجيران أنهم لم يعودوا يرون أحمد يجلس لدى الباب مع مصطفى وعبد الصمد وقلما كان يتخلف ليلة في الصيف عن ذلك ...

وظل هذا شأن الشيخ عثمان وأهل داره إلى أن كانت ليلة قراء يهب فيها النسيم غير وان ولا متقطع، فكأنما جذب المكان لدى مدخل الدار الشيخ عثمان جذباً حينما وصل من المسجد فجلس وفي نفسه ألا يطيل، ولكنه لم يكد يجلس حتى مر به الشيخ مبروك فسلم وجلس، وماهى إلا برهة حتى مر الشيخ عبد المطلب، فجلس ثم مر من بعدهما الشيخ عمر واثنان غيره من الجيران فمن هم دون هؤلاء سناً وها الليثي وعبد الفتاح فجلسوا جميعاً حول الشيخ عثمان وسأله الشيخ مبروك قائلاً :

ياشيخ عثمان إيه حكاية الخلاف بينك وبين حسن أبو سالم؟

— لا، مسألة بسيطة، لا خلاف ولا غيره وتجههم وجه الشيخ عثمان وأحست نفسه الضيق فلا بد أن الجيران قد نجي إليهم سبب القطيعة بينه وبين حسن، ولعل فيهم من يفهم الأمر على غير

— السلام عليكم يا عم الشيخ عثمان، ما هذا؟ هل نويت أن تصبح فقيهاً؟
— عليكم السلام . اجلس يا حسن أنا عاوزك . لا، قم بنا إلى داخل الدار .

ودخل حسن الدار وراءه، ونظر الرجل فلم يجد أحداً قربه وأنصت فسمع صوت امرأته في الحظيرة فأدرك أنها وابنتها مشغولتان في حلب الماشية فعول على انتهاز الفرصة، وأخذ يد حسن قائلاً :

« هات يدك، ضعها على هذا المصحف، قل أحلف بكتاب الله ... »

وجذب حسن يده متمجباً وقاطعه قائلاً : « فيم هذا؟ ماذا جرى يا عم عثمان؟ »

— احلف على المصحف أن ما قلته لي بخصوص أحمد والبنت صحيح؟

— أحلف أنها تحبه وتتودد إليه وأنه يتودد إليها ويعطيها أشياء يشتريها لها من ماله .

— إذن أنت الآن يا بني تغير ما سبق أن قلته . يا بني هذا حرام لا يرضى الله . تهتم بنتاً في عرضها؟ حرام عليك، حرام على كل من له ولاية ... أهكذا يا بني تحرمي النوم وتسخر من ذقتي؟ دا أنا أكبر منك أبك، منك لله .

— ما هذا؟ قلت لك أحلف أنه ...

— هل تحلف على ما سبق أن ذكرته؟

— لا أحلف على شيء نسيتته .

— لا لا يا حسن، الله يجازيك بذنبك، يا بني

كفى ما جرى، من اليوم لا تدخل داري وكل واحد منه لله .

— أنا يا عم عثمان أدخل دارك من اليوم أو من البارحة؟ أنا أدخل دارك منذ سنين حصل مني إيه؟

هذا أن يهمل جانب هؤلاء أو يفرط في صحبتهم .
ولقد خشي الناس كذلك على الشيخ عثمان أن
يمسه شيء من غضب حسن ؛ ولكن الشيخ عثمان
نفسه كان لا يعبأ بذلك . وكثيراً ما كان يقول لمن
يجاوره في هذا الأمر إن كل شيء عنده يهون
في سبيل محافظته على شرفه ، وإن الأمر كله بيد الله ؛
ثم يتمم في يقين قائلاً : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب
الله لنا »

ولقد أحسن الشيخ عثمان صنعا بأن أشار على
أحمد كذلك ألا يدخل داره ؛ وإن كانت امرأته قد
خالفته في ذلك وجادلته فيه جدالاً شديداً ، لأنها
كانت تحب أن يكون هذا الشاب زوجاً لابنتها وإنها
لتعلم ما بينهما ... ولكن الرجل أصر ولم يعبأ هذه
المرّة بإرادة امرأته مهما يترتب على ذلك العصيان
وكأنه أراد أن يثبت لها سلطانه ولو مرة ...

ما كانت نبوية لتقدر أن تتسلى عن صاحبها ،
وكذلك ما كان يقدر أن يتسلى هو عنها ، وهيهات
لقلبين يربط بينهما الحب أن يفرق بينهما إلا الموت !
لذلك كانا يتلمسان السبل لللقاء وهما أشد ما يكونان
خوفاً وحذراً أن تراهما عين فيصل خبرهما إلى أبيها
أو إلى حسن فتكون الكارثة

كانت نبوية في العشرين من عمرها كالزهرة
في ريعان الربيع اكتمل نفاؤها وتمت روعتها
وتوافى لها من معاني السحر والفتنة ما تتمنى لو كان
لها بعضه الكثيرات من فتيات القرية ؛ ترى الأعين
في وجهها الصبوح ملامح أمها وترى في عينيها ذلك
الإغراء الذي أخذ يتلاشى في عين الأم ، والذي
يأمر ويتحكم اليوم وينبث من مقلتي الفتاة كما
تنبث السهام

وجهه كما هي العادة في كل الإشاعات ، أو لعل فيهم
من يصدق ما افتراه حسن على أحمد من حديث ،
والأمر بالهم يعيرون الأمر هذا الاهتمام فيسألوا ؟
وراح الشيخ عثمان يتهد تهداً عميقاً ويعقب
كل مرة من تهده بقوله : « يا الله يا لطيف ... »
وما درى أنه بذلك إنما يزيد هؤلاء المتسائلين شكاً
ويستثير فضولهم . ولكنه لم يكن يستطيع كتمان همه

تفكر الفتیان أحدهما للآخر يريد أن يثار منه
لنفسه ؛ أما حسن فقد كان يضرر السوء لأحمد
منذ عرفا نبوية ، ذلك أنه كان يعتقد أنه يغريها بالفاظه
المعسولة ووعوده الخلابية ، ولكنه كان يداريه حتى
لا يصل إلى الناس أمر خلافهما ؛ وأما أحمد فقد كان
يمقت حسناً لأنه يخشى أن يأخذ الفتاة من أبيها
قسراً بما كان له من بطش لا يجهله أحد في القرية
لم يكن من إعلان الخصام بد بعد أن طرد حسن
من بيت الشيخ عثمان فليس في رأيه من أوغر صدر
هذا الشيخ حنقاً عليه إلا أحمد . وبات من يعلم نبأها
مشفقين أن ينال أحمد من بطش خصمه ما لا قبل
له به . ومنذا الذي يستطيع أن يفلت من هذا الفتى
إذا اعتزم الكيد والانتقام ؟ ليس في المتفتين في القرية
والمتممرين من يدانيه في إشعال الحرائق وتسميم
الماشية ، وقيادة الأشرار إلى إتلاف الزرع . وليس
في المجرمين من يفوقه في سعة الحيلة وإحكام الجريمة
والقدرة على الإفلات من سطوة القانون

على أن أحمد على الرغم من ذلك كان مطمئناً
بعض الاطمئنان ؛ ذلك أن وشائج النسب قد ربطت
بينه وبين كثير من أسر القرية على نحو غريب ،
وفي عصبية حسن نفسه بعض ذوى قرابه ولا يستطيع

وتجنب كل من الفتيين مجلس الآخر وكره لقاءه حتى ما تقع عين أحدهما على الآخر إلا وفيها من معاني البغض وأمارات الشر ما يندر بالويل والخطر وانطوت الأيام على هذا الحال ونعم الشيخ عثمان زمناً بهدوء البال وحلت في وجهه محل القطوب والعبوس بسمة الرضا والدعة والاطمئنان ، فلقد استراح من بواعث الخوف ودواغى الهم وأسباب القيل والقال

وظل احمد يتلمس السبل للقاء فتاته دون أن يعلم بذلك أحد إلا أمها واثنتين من صاحباتها ، إلى أن كان ذات صباح من أصباح (هاتور) وقد بعث الربيع في إقباله الحياة في كل ناحية من نواحي الحقول ، وأوحت إلى النفوس براعمه الوليدة معاني الأمل والبعث والقوة ، وحدثت أزهاره قلوب الفتيان والصبايا أحاديث الهوى والسحر والجمال ، وألهمت شواذى الفصون من طيره المحيين سر المرح والخفة والانتشاء ، وذكريتهم العشاش المأهولة أن هذا هو زمان الوصل والمناجاة والألفة والبناء

في هذا الصباح خرجت نبوية تسبق الطير قاصدة إلى التربة لتملأ جرتها وسارت وحدها وإن نفسها لتفيض بمعاني الحبور والجدل والنشوة كأن هامساً يهمس في سمعها بأحاديث النوى ويبشرها بما طال انتظارها إياه من نعيم وسكن ؛ وكانت ترى في هذه البكرة أروع ما تكون جمالاً وفتنة ، وأعذب ما تبدو رشاقة وملاحة ودلالاً ، وقد اتسق جمالها في جمال الكون من حولها حتى ما يعرف على وجه التحديد أسرت إليها من الربيع الفتنة والحسن ، أم ألفت هي محاسنها ومفاتها في محاسن الربيع ومفاته فأضافها إلى معانيه وزاد بها في مسراته ومباهجه ؟

ولقد نشأت نبوية مدللة يحنو عليها أبوها كأنه لم يرزق من البنات والبنين غيرها ، وتوليها أمها حنان الأم ومحبة الأم كأعظم ما يكون الحنان والحب ، ثم ترى فيها صورة منها فيحملها شعورها أن مرد هذا الجمال إلى جمالها هي على العجب والزهو ، وتستشعر نفسها الغبطة والسرور أنها بابنتها تحيا اليوم في ماضيها ؛ فلئن كان لها أمس السلطان والدلال بما وهبت من جمال فإن لها اليوم الفخر والزهو بما أنجب ذلك الجمال وما كانت تختلف نبوية عن أمها في اعتدال قوامها ودقة خصرها وبضاضة جسمها ، ولكنها كانت تختلف عنها في لون بشرتها فكانت شديدة البياض إلى حد غير مألوف في قرى مصر ، يتجلى لك ذلك البياض على طبيعته إذا شممت عن ساعديها أو إذا كشفت عن ساقها ، أما وجهها ونحرها فقد طبعت شمس الريف عليهما لون الورد الأحمر حتى لتحسب أن عليهما طلاء وما مسهما الطلاء يوماً ... وإذا انحسر منديلها إلى أعلى قليلاً عن جبينها المستدير السطح ، رأيت في موضعه من البياض فوق هذه الحمرة ما يشبه الغرة تسيل فوق جبين مهرة جميلة ... أما صفائرها الذهبية فما يدرك مبلغ سحرها إلا تلك القلوب التي طالما هفت إليها وأحست كأنما علقبت بها : قلوب الشباب في أنحاء القرية ، وقلوب الشابات التي كانت تحس لديها مع الإعجاب معاني الحسد والغيرة والتمنى

تصرمت الأيام وانقضى الصيف ولم يعد يرى أهل القرية حسناً ولا أحمد يساعدان الشيخ عثمان في حقله كما كان يفعل كلاهما من قبل ، كذلك لم يعد يراها الناس عند داره كما تعودوا أن يروها ...

خالطت لفحات الصيف شيئاً فشيئاً أنفاس
الربيع الرخية ، ونضجت سنابل القمح وراحت
عيدانها الذهبية توحى بمنظرها وخشختها إلى
المزارعين بأغاني الحصاد ورنين المناجل وسحر العشايا
والبكر وروعة القمر في تلك الليالي التي تشيع البهجة
في النفوس وتحى الزهاء في القلوب ، وتمنى كثيراً
من الشبان والشواب بتحقيق الآمال المنشودة
وحلول الأيام الموعودة .

وعاد مجلس الشيخ عثمان سيرته الأولى أمام داره
عقب صلاة العشاء كل ليلة حافلاً بأهل الناحية من
الشيوخ والشباب . أما الشيوخ فقد أحبوا عشرته
وأولعوا بحديثه ؛ وأما الشباب فقد توثقت بينهم
وبين ولديه أواصر المودة . ولكن السر الحقيقي
في اجتماعهم حول داره لا يكاد يخفى على أحد ، فلقد
كان كل من هؤلاء الشبان يعنى نفسه أن تكون له
نبوية ، ولولا ما كانوا يخشونه من بطش حسن
لراحوا جميعاً يتنافسون في طلب يدها

وطال الحديث ذات ليلة وتشعب ، فن ذكريات
قديمة يستعرضها هؤلاء الشيوخ عن حياتهم في القرية ،
إلى الكلام فيما وعوه عن آبائهم من أحاديث
« كالعلمية » في عهد سعيد و « هوجة » عرابي
ومنهم من شهداها ، إلى غير ذلك مما طوته الأيام ؛
وكان الشبان ينصتون إلى حديث الشيوخ في اهتمام ،
فإذا تكلم أحد الشيوخ ناعياً على شباب اليوم أحوالهم
تهمس الشباب ساخرين أو تفاضوا بالأحداق ،
وقد منعهم احترامهم لهؤلاء الشيوخ أن يردوا عليهم
بما يخالف آراءهم

وانفض السامر والشيخ عثمان يرد على المسامرين
نحية الإسلام ودخل ابنا الدار ، وبينما كان هو يهيم

وصلت إلى التربة وكانت غير بعيدة فوقفت إلى
جانب شجرة من أشجار التوت قد رد عليها الربيع
رداءها جديداً رائع الخضرة فأمسكت جذع الشجرة
يسراها ووضعت رجلها اليمنى على حجر في الماء قرب
الشاطئ ثم أدلت جرتها حتى امتلأت وهي تنصت
إلى ضحكات الماء في فوهتها ثم جذبتها بكليتي يديها
فأخرجتها وأسندتها إلى الشجرة وأصلحت حويتها
فوق رأسها ودارت بعينها تبحث عن فتاة قادمة
أو غلام أو رجل يعينها على حملها . ولكن عينيها
الجميلتين لم تقعا إلا على حقول الفول الداكنة وحقول
القمح التي أخذت تمشي صفرة النضج في خضرتها ،
فجلست على حافة التربة تنتظر ، ثم بدا لها فكشفت
عن ساقها وأخذت تلمس عليهما الماء وتغسل عقبها
كأنما تأبى أن يعلق التراب بهذا المرمر الناصع الذي
تدل به وترهى

ورفعت عينيها ولكنها لم تكد تلتفت حتى التفت
تأنك العينان بعيني أحمد وألفت نفسها بين زراعيه
القويتين فأنعت وغالبت ، ولكن أنى لها أن تدفع هذا
الهيام أو أن تكبح هذا الشوق ؟ وراح هو كالجنون
يلقى على ثغرها قبلاً مختلفة الطول ، فعشرة متقطعة
في زمن واحدة ، وواحدة متصلة في زمن عشرين .
وذهلت عن نفسها برهة ثم أفاقت فعادت تدفعه
وقد دب الخوف إلى قلبها أن تراها عين ، ونهض
على رغبته ونهضت فتناولت حويتها وأعانها على حمل
جرتها وجرى إلى حيث كان بين شجيرات الفول ،
وسارت هي نحو القرية ينتفض جسدها انتفاضاً .
وتتنازع محياها الأبلج صفرة المفاجأة وحمرة النشوة ،
وتختلج على شفثتها بسمات الرضا حيناً وسمات الخوف
والقلق أحياناً

ما يحسه من مرض ، وهي تحاول أن تسرى عنه حتى نام أو تظاهر أنه نام .

وتراحت في رأسه الوسوس والأوهام حتى صار مخبولاً أو كالمجنون ، وكان يطلب إلى الله ضارعاً أن يريحه بالموت أو أن يصيب ابنته بكارثة من غرق أو حريق أو علة تودي بحياتها ... ثم تزججه تلك الأفكار فينتفض جسده ويتصبب عرقه ، وتكاد ترهق روحه .

وأخذته سنة فرأى فيما يراه النائم أنه صعد فوق مشنقة والجلاد يوشك أن يضع الحبل في عنقه ، وبنته على مقربة منه وهو يتوسل إليها أن تعفيه فلا تجيب ؛ وظل على هذا الحال برهة ، ثم تقدم الجلاد فهم به ليشنقه ، ولكنه أفاق قبل أن يموت على تلك الصورة !

وراح يسأل نفسه أهى مظلومة ؟ وإنه ليرجو الله أن تكون كذلك ، ويسأله أن يبين له الحقيقة ... ولكن الشك لا يلبث أن يستولى على نفسه فيحس كأن ناراً حامية تمشى في جسده كله حتى ليهب واقفاً ثم يهذى كأن به جنة .

ونامت الدار فلا تسمع فيها حركة إلا ما تأتيه الماشية في حظيرتها من حركات وأصوات ، وكانت نبوية تنام وحدها على سطح الدار تتوسد حضيراً وتلتحف بعلاء خفيفة ، وكانت في تلك الليلة تعظ في نوم هادئ ووجهها إلى السماء يقابل ملك الليل فيكون من وجهيهما قران أحدهما حالم في نعاسه ، والآخر حالم في سهره

ونهبض الشيخ عثمان فشى في فناء الدار كأنه شبح من أشباح الليل لا يسمع لوقع أقدامه أى صوت كأنه لا يبطأ بهما الأرض ، ودخل حظيرة الماشية

بالدخول استوقفه شبح يقرب منه فنظر فإذا هو حسن ، فأربد وجه الشيخ عثمان وأخذته ربكة اهتزت لها أوصاله ، وأخرج حسن مصحفاً من جيبه فناوله إياه ثم وضع يده عليه وراح يقسم على ما رآه بعينه وهو مختبئ بين شجيرات الفول قائلاً إنه إنما سكت هذه المدة لأنه كان يجتهد أن يتحرى مبلغ الصحة في إشاعة علمها ولكنه لا يستطيع أن ينطق بفحواها . ولم يجب الشيخ عثمان بكلمة ودخل داره يجر رجله جراً وإنه ليكاد يهدم من الضعف . ولم يقرب النوم من جفنيه طول ليله ولم تفارقه الوسوس لحظة ؛ وإنه ليوشك مما بلغ به من الضيق أن يلفظ النفس الأخير كلما صورت له هواجسه ما عسى أن تكون فحوى تلك الإشاعة التي أشار حسن إليها

وعجب الناس أن رأوا الشيخ عثمان في اليوم التالي يكاد يسقط من الإعياء ، وها لم أن يذبل وجهه وتنطق غيائه ، وقد كان بينهم بالأمس موفور المرح بادى العافية ، وراح هو يوهم السائل أنه إنما يشكو مرضاً في صدره هو سبب ما هو فيه .

وصبر حتى جنة الليل فذهب كعادته إلى المسجد . ولما صلى العشاء ذهب إلى حيث كان يجلس الإمام فدنا منه وسلم ثم سأله هل يكون جزاء القاتل جهنم مهما كانت دوافع ارتكاب الجريمة ؟ وكيف يساق إلى جهنم من يقتل حفاظاً عن نفسه أو دفاعاً عن عرضه ؟ وأجابه الشيخ إجابات زادت حيرة على حيرته . فأنصرف وفي نفسه شك من كل ما يقول به ذلك الإمام ...

فعاد من المسجد فشرب بعض الماء وعافت نفسه الطعام فأوى إلى مضجعه مبكراً شاكياً إلى زوجه

يعوض علينا ربنا في عقلك . خلاص بقيت زى اللعبة
في أيدي العيال . انزل . الله ينتقم من اللي كان السبب »
وانهمرت دموعها ساخنة على خديها فتمسحها
بكفيها ، وجرو زوجها فالتفت إليها قائلاً :
« الله ينتقم منك أنت ومن بنتك ... يا رب عجل
بالوت ... ما ذنبي يا ربني حتى أصاب بهذه الفضيحة
التي تعلق بشيبي ... الله يصيبك بالعجز والعمى
يا نبوية يا بنتي ... أنا برىء منك إلى يوم الدين »
ولما نزلوا إلى فناء الدار أخذت الأم تنتخب
وزوجها صامت لا يجيب ؛ ثم قالت وهي تشهق من
فرط الدمع : « سأخذ ابنتي وترك لك الدار لتسريح »
ووقعت هذه الكلمات في نفس ذلك الشيخ
وقعاً أليماً ، فهو لا يطيق أن تبعد زوجته عن الدار
ساعة ، ولحبت هي أثر كلماتها في نفسه فاستطردت :
« حكاية عيال من أولها إلى آخرها ... وإذا كنت
تريد أن تطمئن على شرف ابنتك ففي الصباح تقسم
لك على المصحف وأمرنا الله »

— أى نعم أريد أن تقسم على كتاب الله أنها
ما فرطت في عرضها

— يا رجل ، استغفر الله ! هل يصح الكلام ده
على ابنتك ؟

— أقسم لي حسن على المصحف أنه ...

— أعرف هذا كله ... وما قيمة يمين واحد

فاجر زى ده ... يا رجل افهم ، واحد ما يخفشني من

ربنا يقوم يخاف من المصحف ؟

— وهل أنت تنكرين أن ابنتك تحب أحمد

وأحمد يحبها ؟

— وإيه يعني ... داشي يحصل بين كل

شابة وشاب

فأخذ منها شيئاً ، ثم صعد على السلم إلى حيث تنام
ابنته ، وجلس إلى جانبها في رفق ، وقد ارتعش جسمه
وجدد ريقه ، ثم مد يده المعروقة فوضعها على بطنها
وراح يتحسسها في هواة ، ووسوس له الشيطان أن
في بطن ابنته علو ألا يكون في بطن الأبكار ، فارتفع
الدم إلى وجهه وهانت الدنيا في نظره ثم عقد النية
على تنفيذ ما اعزم ، وواتته وقتئذ جرأة عجيبة حتى
ما يفكر في شيء ... وغشيت القمر في تلك اللحظة
سحابة فكأنما راح يتوارى من سوء ما يرى ، وتناول
الشيخ عثمان الحبل الذي أحضره معه وقد أعده على
شكل مخنقة ليشد طرفيها حول عنق ابنته ورفع
يسراه رأسها من فوق الوسادة . وبينما هو يتأهب لوضع
عنقها في المخنقة أفاقت مذعورة وقد خرج القمر
من خلف السحابة بغتة فوقعت عيناها على وجه أبيها
وعلى الحبل في يده فصرخت صرخة دوت في السطح
وشاعت في فناء الدار ، ولطمها أبوها لطمه قوية على
وجهها وقد سقط الحبل من يده ثم أمسك عنقها
وشد عليه بكلتا يديه وصاح بها : « يا فاجرة »

وهرعت الأم إلى السطح وقد ألتى في روعها

ما حدث وأقبلت على زوجها فدفعته في عنف فألقته

على ظهره وراحت تكيل له الشتائم ، ثم أخذت بنتها

بين ذراعيها وراحت تهددها وهي من فرط ذعرها

في غيبوبة شديدة يعلو صدرها ويهبط ، ويدق قلبها دقاً

متوالياً ينذر بالخطر حتى لقد كادت تصرخ الأم

لولا أن خشيت أن توقظ الجيران ...

ولما ذهب عن ابنتها الروع وضعت رأسها على

الوسادة وألقت على جسدها ملاءتها ، ثم جذبت بعلمها

من يده فطاوعها ومشت تجره حتى السلم فدفعته دفعة

كادت تلقيه على وجهه وهي تقول له : « انزل يا رجل

جميعاً حباً لم تستشعره نفسه من قبل ؛ وما كدر عليه صفوه ما تحدث به الناس عما عسى أن يفعل حسن ، فلقد ملك الفرح عليه شعوره حتى صار لا يفكر إلا فيما هو مقبل عليه ، ولكن حدث أن جرى بينه وبين سليمان أحد لداته حديث ذات يوم فاستطال ذلك عليه وآله حتى لم يطق أحمد صبراً فهدده وتوعده ؛ ولولا أن تدخل بعض الشبان فباعدوا بينهما لعظم شرهما وتفاقم أمرهما ..

أما حسن فقد تظاهر بعدم المبالاة لا يشير إلى هذا النبأ في أحاديثه ولا يلتفت إلى أحاديث رفاقه عنه ، فإذا خدته أحدهم عنه حمل محبته في دهاء على أن يصدق أنه لا يحفل به وأنه انصرف عن تلك الفتاة ولو أن له فيها رغبة ما وقف في سبيله أحد وفي ذات ليلة روع أهل القرية بمنظر النار على بعد تجرى في حقل من حقول القمح ، وقد صعد النسوة على أسطح الدور ينظرن ويتبين الجهة وكل تحسب النار في حقلها أو حقل قريب لها ويعلم صراخها ، وجرى الفتيان والرجال نحو الحقول ولكن أتي لهم أن يدركوا شيئاً وقد كانت النار تجرى في ذلك الهشيم في سرعة هائلة مروعة ؟ وعاد الناس بعد قليل يعلنون أن النار لم تترك في قمح سليمان عوداً واحداً . . . ولم تنحصر الشبهة أول الأمر في أحد فما كان يسمع على ألسنة الناس إلا قولهم : « ربنا يعوض عليه » أو قولهم : « ربنا يؤذي أولاد الحرام » . ووجد رجال الشرطة من معاينة الحقل عدداً من الكرات القماشية المحشوة بالبارود وتترات الصودا والكبريت ، تلك الكرات التي اخترعها الفلاحون ليحاروا بها زوح العُصْر في التجديد ! ولهم ليجعلون لها فتيلاً يغمس

— عال قوی ! شیء يحصل بین كل شابة وشاب ؟
— اسم الله على عقلك ، هوه ما حصلشی بینی و بینک ؟ افتكر یا رجل الی عملته علشان تأخذنی .
وهو أنا يومها فرطت لك في عرضی ؟ یا راجل حرام عليك دانت من الی بیصلوا الفجر ، والبنت علی كل حال تطلع لأمرها

ولاحظت المرأة شيئاً من الاطمئنان يخالط نفس الرجل لهذه العبارة ، فأقبلت عليه وأخذت بيده وقالت : « قم یا شیخ بكره تستريح فستحلف لك ابنتك علی كلام الله »

وذهب الرجل إلى فراشه وصعدت الأم إلى السطح فوجدت ابنتها ما تزال تبكي ، فما زالت بها حتى اطمأنت ثم رقدت إلى جوارها حتى أصبح الصبح ***

وثق الشيخ عثمان من براءة ابنته فصحت عزيمته على أثر ذلك أن يزوج نبوية من أحمد في أقرب فرصة ولتكن في موسم القمح هذا . وسرعان ما ذاع هذا النبأ فعرفه جميع أهل القرية . . . وجزع من كانوا يمنون أنفسهم بنيل يدها من الشبان ، وأشفق كثيرون على أحمد من كيد جنس حتى لقد أخذ بعضهم يؤكد أن هذا الزواج لن يتم وفي جسد حسن عرق ينبض . ونصح بعض من أشفقوا للشيخ عثمان أن يرجع عن هذا قرفض في شدة ما عرفوا عنه مثلها من قبل ، وعاد يتمم بتلك الآية التي كان يتمثل بها أبداً « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا »

وفرحت الفتاة فرحة جاءت مضاعفة بعد ما كانت فيه من بلاء وغم ، أما أحمد فقد أصبح من فرط ما سره هذا النبأ في شبه ذهول يتقبل تهاني أقرانه فتقع كلماتهم على قلبه برداً وسلاماً ، وكأنما هو يحبهم

يقفوا فلا يتبعوه ، وتوسل إليهم أحمد أن يفعلوا ، وكانت أمه وأختاه يبكين بكاء يفتت الأكباد كأنما كان يساق فتاهن إلى الموت ، وهذا هو آخر عهدهن به ولم ينقطع دعاؤهن أن ينتقم الله ممن ظلمه .

واقرب أحمد من دار الشيخ عثمان فذق قلبه ووهى جلده ومشى يجر رجله ، ومر بالدار فلم يلتفت إليها كأنه لا يعرفها فلقد كره أن تقع عينه على نبوية وهو هكذا مغلول اليدين يساق على رغبه إلى حيث يساق المجرمون .

وسار أحمد يتبعه الشرطي على جواده في الطريق المؤدية إلى الحقول ليسلكها إلى طريق العاصمة ، وقد اشتدت حرارة الشمس حتى كانت لفحاتها في الوجوه كأنها ألسنة من اللهب ! وكان أحمد مطرقاً في مشيه يقاسي نارين : نار الشمس في وجهه ، ونار الغيظ في صدره ... ورفع عينه وقد اقترب من شجرة عند منعطف الطريق ، ولم يكذب ينعطف حتى وجد نفسه أمام نبوية ! فافتر ثغره عن ابتسامة ما لبثت أن انطفأت فيما شاع في وجهه من شحوب وكدره ؛ فلقد رأى فتاته تحاول حبس دموعها فلا تقوى فتجشش وتشهق وتئن أنه مكتومة نفذت إلى أعماق قلبه ، وحاولت الكلام فلم تنفجر شفاتها ، وحاول هو أن ينطق فاستعصى عليه الكلام كأنما انعقد لسانه . وأخذت الشرطي الشفقة فاغرورت عيناه ودار بوجهه ليدع لها حرية الكلام ولكنهما ظلّا جامدين . ثم إن الفتاة تقدمت فدست في جيب الفتى بعض دريهمات وألصقت صدرها بصدره فراح يغالب الحديد في يديه على غير وعى منه ، والتفت نحو الشرطي فلما وجده لا يراه قبل فتاته بين عينيه ... وانطلق بعد ذلك في سبيله ، ووقفت هي إلى جانب

في الزيت ، ومتى مست النار ذلك الفتيل سرت فيه على مهل حتى تمس تلك المواد فتنبعث النار وتشب ، وفي تلك الآونة يكون ملق الكرة في هدفها قد بعد تمام البعد عن مكان ذلك الهدف ...

وسرعان ماجرى اسم أحمد على ألسنة أهل القرية وأخذ الناس يتهامون بالآتهام ، وما لبث سليمان أن أتهمه في غير تردد ، وقام الشرطة بتفتيش داره فوجدوا فيها بعض الكرات وكان قماشها من نفس قماش تلك الكرات التي وجدت متناثرة قرب الحقل كما كان حشو هذه كحشو تلك لا تفرق عنها في شيء وتقدم بعض الشبان فشهدوا بما ثبت الجريمة على المسكين ولم يغن عنه إنكاره ودفاعه ... وصدق الكثيرون من الناس أنه هو المجرم ، وإن كانوا ليعجبون لذلك أشد العجب فما عهدوا عليه شيئاً من هذا ، وما كان الشر من طبعه أبداً ... أما القليلون فقد كانوا يتسمون لهذا ابتسامة الألم والسخرية ، وفي عيونهم أمارات الخبث التي تنطق بأنهم يعلمون كل شيء ولكنهم على عادة أهل القرى في مثل تلك المواقف لا يستطيعون أن يفصحوا عن شيء وإلا لحقهم هم أيضاً مثل ما لحق هذا البائس من كيد وغدر ، وما أيسر أن تدس الكرات أو غير الكرات في أية دار من الدور !

فرغ المحقق في مركز الشرطة من تحقيقه ، ووضع الحديد في يدي أحمد وسار مغلولاً أمام شرطي على جواده يسوقه إلى عاصمة المديرية ، وكان الوقت بعد الظهر بساعة ، وقد حبس القبط الناس في دورهم فلا يرى أحد في دروب القرية كأنما كان الوقت منتصف الليل ؛ وأمر الشرطي أهل التهم أن

الشجرة تشيعه بنظراتها في جزع يتقاصر عن وصفه
أى كلام

مضت أيام كان لا حديث لأهل القرية فيها
إلا ذلك الحادث ، وبات الناس يرجون أن يقف
الأمر عند هذا فلا ينال الشيخ عثمان من بطش
ذلك الغادر الفاجر حسن ما يجعل به إلى القبر .
ودخل أحمد السجن ليقضى فيه ستة أشهر طويلة ،
وتلقت نبوية ذلك النبأ في صمت كان في الواقع صمت
اليأس ، وظلت على صمتها هذا يتمشى السقم في بدنها
ويغشى الحزن وجهها فيلبس جمالها روعة على روعة
ويترك على محياها طابع الشكوى الدائمة والضراعة
وحصد الناس قمحهم وامتلات البيادر والأهراء
وسعد من سعد من الفتيان والصبايا إلا نبوية فقد
حيل بينها وبين ما اشتتت نفسها ، وحل محل الأمل
في قلبها الضراعة والمسكنة والمذلة . وجعل الشيخ
عثمان يصبر نفسه وأصبح لا يختم صلاته إلا بطلب
الانتقام من الله ، على أنه ما تسرب إلى قلبه خوف
بعد ما حل بأحمد ، حتى لقد دهش الناس من بسالته
وثباته على رأيه وإصراره على أن يزوج ابنته من
صاحبها مهما حدث وهو في تلك السن
ولم يمض شهر حتى وقع في القرية حادث تلقاه
أهلها بمزيج من الدهشة والرهيبة والاعتبار ، وكان
جانب العبرة فيه أقوى تلك الجوانب ، يخالط أتعس
القرويين إزاء شعور الراحة والنبطة والاطمئنان ، فينما
كان حسن في طريقه إلى حقله ذات صباح رأى
غلاماً يسحب دابتين ربط حبل إحداهما بحبل الأخرى
فأسرعت الدابتان لأمرهما وجذبتا الغلام فتقدم حسن
لنجدة وأمسك بالحبل المتصل من وسطه واتجهت

إحدى الدابتين إلى اليمين والأخرى إلى الشمال فكان من
الحبل مخنقة دارت بعنقه ، والدابتان تمنعان في الابتعاد
إحداهما عن الأخرى وتجريان معاً إلى الأمام في وقت
واحد فتجران هذا الذي علق بينهما ... وما هي
إلا لحظات حتى كان جثة هامدة وقد كسرت ذراعاه
عند مفصل الكتف !

وهكذا كانت المخنقة من نصيب هذا الفتى ،
وقد كانت بسبب ما اقترى ودس ستدور حول عنق
آخر ضعيف هين لا يستحق إلا أن يدور حوله عقد
العرس

الخفيف

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطنب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقداً أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زغالي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكتبات الشهيرة

وكانت المهامة الكبيرة البارزة
الملتفة بالكشمير الثمين تلقى في
القلوب رهبة، وكانت عينا محمد أفندي
عبد الغفور لا تريحان عنها . لكنه
كان يتسم أو يخفى ابتسامة خبيثة
ضابقت صديقه الشيخ على عبد الواحد
الجالس إلى جانبه يتمم بأدعية خافتة

صندوق النذور

اقصص مصرية
بقلم الأستاذ د. محمد خبطة

وصلوات طيبات .

وكان اليوم يوم جمعة، وكان الوقت ضحى، وكان
زائر المقام الكريم قد أخذوا يقبلون أفراداً أفراداً،
أو أزواجاً أزواجاً، أو جماعات جماعات، لكن
الرحام كان نادراً وخفيفاً على كل حال، لأنه لا يكون
على أشده إلا بعد أداء صلاة الجمعة حين يقبل الناس
متراحمين متدافعين لنيل البركات والتماس النفحات
وأقبلت فتاة ناهد ذات جمال وذات رواء تثب
كالجمامة فوق السجاد السميد، فجعلت تطوف بالضريح
سبعاً وكلاً أتمت مرة وقفت عند صندوق النذور
فدست فيه قطعة كبيرة من النقد كان يسمع رنينها
في الداخل حين تدفع أخواتها في الصندوق لتحقل
مكانها بينها ... فلما أتمت الفتاة طوافها وقفت عند
رأس الشيخ الذي تحسبه قاراً تحت المهامة الكبيرة
الخضراء، ثم راحت تتعم وتهمهم، ثم تسر وتغمغم،
ثم وقفت لحظة ساكنة صامتة، ثم انحدرت من
عينها دموع تفرقت فوق خديها الجيلين الأسيلين،
وشبهت شهباء عميقة حارة ثم انصرفت ذاهلة
أو كالذاهلة ...

وقد ذعر قلب محمد أفندي عبد الغفور عند ما لمح

كان مقام العارف بالله رضى الله عنه وأرضاه
هادئاً ساكناً فيه روعة وفيه جلال وفيه خشوع .
وكانت القبة السامقة الشاهقة تعكس فوقه أخيلة
رفافة يزيد بها البلور الملون، والقاشاني العجيب،
وألواح الرخام والمرمر والبليز، وقاراً فوق وقار،
وجلالة فوق جلالة، ونوراً دنيوياً فوق ما يفيض
عليها من نور الآخرة، وسناء التقوى، ولألاء الثوبة
ووضاءة الرضى ...

وكان أراج المسك يعبق في أرجائها، وريحان
التقى يملأ بشذاه أجواءها، وكانت شبائيك الضريح
النحاسي تلمع وتزهى وتبتسم، والثريات من فوقها
تتألق وإن لم تكن مضاءة، وبيض النعام المعلق فوق
الضريح يروح مرة ويمجى مرة، وما هزته ريح،
ولا جركته ... وكانت السفينة المعلقة بين بيض
النعام تهتز قليلاً فتكون كأنها فوق موج رفيق بها
حذب عليها يهددها في أمن ودعة إلى بر السلام .
أما الضريح فكان مكسواً بغطاء أخضر زيتوني
نقشت عليه آيات من القرآن الكريم خيطت فيه
بخيوط من حرير وعملت بصنعة دقيقة باهرة برزت
فيها سلوك الذهب والقضة فجعلت تتألق وتعكس
ريقاً هادئاً خفيفاً .

- الفتاة ، وعند ما شهدتها تخطر ربانة فينانة بارعة المحاسن
حجة المقاتن ، فلما تنبه إليه صديقه على ، وهو يوشك
أن يلتهم الفتاة بعينيه الجائعتين اعتدل في جلسته ،
وترك أدعيته وصلواته وقال له ، ثم قال محمد له :
- إتق الله يا محمد فأنت هنا في حرم حرام
ومكان مقدس ... غض من طرفك يا صديقي وانظر
أمامك !
- أنظر أمامي لأرى ماذا ؟
- لرى هذا الضريح يكاد ينشق فيلهمك !
- يا حفيظ ! وكيف ينشق يا أخانا الشيخ على ؟
- لقد رأيته يتحرك تأفقاً من فعلك !
- يتحرك تأفقاً من فعلى ؟ وماذا فعلت ؟
- لقد كنت تهم يبصرك في إثر الفتاة !
- وكيف لا أفعل وقدماهما جيلتان ناصعتان
كأنهما خلقتا من صرصر يتدفق فيه دم ؟
- ما هذا الكلام يا أخى ؟ إتق الله يا شيخ ...
أنت هنا في مكان طاهر له حرمة وله قداسته !
- لكن الجلال الذى زار هذا المكان الآن
أفتك بالنفس وبالقلب وأشد تأثيراً فيهما من قدسية
هذا المكان !
- استنحى يا شيخ ! تأدب في حديثك هنا !
- هذه لهجة شديدة يا شيخ على فهذب
حديثك قليلاً !
- أقسم لك لقد شهدت الضريح يتحرك
تبرماً بك !
- الضريح يتحرك ؟
- أجل ... ولا شك في أنك قد رأيته !
- وكيف يتحرك الضريح ، ولماذا ؟
- ماذا أقول لك وأنت رجل رقيق العقيدة
ضعيف الإيمان !
- ولماذا كنت عندك رقيق العقيدة يا شيخ
على ؟
- لأنك تنكر ما وقع أمامك الآن من كرامة
هذا الشيخ المبارك !
- أية كرامة يا صديقي ؟
- اهتزاز الضريح من السخط عليك
والضيق بك ؟
- أنا لم أر الضريح يهتز ... إنك واهم ...
لقد تركت الخيال يستولى على نفسك والوهم يغشى
ناظريك
- إتق الله يا شيخ ... أسكت ... أسكت
واتق الله !
- أنا أشد لله تقوى منك ... ما هذا الذى
تقول ؟
- بل إبليس أشد لله تقوى منك يا عزيزى ...
إنه لو رأى الفتاة التى خلبتك لما حاول أن يأكلها
مثلك !
- وأنت ؟ ألم تصب إليها عمرك الله ؟
- إخصاً ... إبنى أعرف منك بقداسة هذا
المقام الكريم ... أنظر !
- أنظر ماذا يا شيخ على ؟
- بيض النعام !
- ماله ؟
- إنه يهتز !
- وما ذاك يا عم ؟

- هذه علامة سخط الشيخ !
— أى شيخ ؟
— سيدى شمس الدين ... سيد العارفين بالله !
— سيدنا شمس الدين ساخط ؟
— إنه ساخط لا شك !
— وفيم يتسخط أو لا يتسخط ؟
— ساخط عليك
— وماذا بينه وبين بيض النمام ؟
— بينهما سر !
— بينهما سر ؟ ماذا تقول ؟
— أجل ...
— وكيف ؟
— نعم أنه إذا غضب غضباً هيناً اهتز البيض ،
فإذا غضب أكثر اهتزت هذه الثريات ، فإذا اشتد
غضبه اهتز الضريح ، فإذا حنق وامتلأ غيظاً رأيت
هذه السفينة تهتز وتعلو وتهبط وتروح جيئة وذهاباً
كأنها فوق سطح اليم المضطرب !
— يا حفيظ !
— هل تسخر ؟
— كلا ... لست أسخر
— بل أنت رجل لا عقيدة لك ولا أدب عندك !
— عوّد إلى العقيدة والأدب ...
— أنصحك يا محمد أفندى !
— وبم تنصحنى ؟
— قم فتوضاً وصل ركعتين لله عسى أن يغفر
لك الشيخ ؟
— وهل يملك الشيخ أن يغفر أولاً يغفر ؟
- يا شيخ ! إتق الله يا مسلم !
— من منا يجب أن يتق الله ؟ أنا ؟ أم أنت ؟
— بل أنا !.. عجيب والله !.. بل أنا يا سيد محمد
فلا تحزن !.. أنا لأننى لا أستحي من النظر إلى
ما حرم الله وأفضل هذا المنكر فى مقام سيد العارفين
بالله ... !
— على كل حال أنا لم أكفر بالله مثلك !
— إخساً قاتلك الله ... أنا أكفر بالله !
لا بارك الله فيك !
— وكيف تذكر ذلك وقد جعلت لله شركاء ؟
— أنا ! غفرانك اللهم !
— أجل أنت ! ألم تقل إنه يجب أن أتوضأ
وأصلى عسى أن يغفر لى هذا الشيخ الذى اتخذتم
ضريحه وثناً ؟
— نحن اتخذنا ضريح العارف بالله وثناً ؟
— أجل ...
— نحن ؟ المسلمين المصلين !
— أجل ... إنكم اتخذتم منه ما هو شر من
الوثن !
— ماذا تقول يا محمد ؟ وهنا تقول هذا الكلام ؟
— أقوله هنا لأنه منكراً ؟
— قاتلكم الله يا شباب ! مقام سيدى شمس
الدين منكراً ؟ أى كفر هذا ؟
— يا لهذه الهامة ويا لهذا الكشمير ! ماذا
يكون الوثن إن لم يكن هذا الضريح وثناً ؟
— ثم ماذا أيضاً ؟
— ثم هذا البيض الملق الذى يفيض على

وأراد محمد أفندي أن يتخذ من هذا الأمر دعابة
فنهض وعمم شطر الشيخ على ، ولما وجدته يصلي
تبسم ثم قال له : « عجبت لكم كيف تتخذون من
مقابر موتاكم مساجد وقد نهاكم النبي صلى الله عليه
وسلم عن ذلك ... أليس هذا منكراً ؟! ... »

وسمع الشيخ هذا الكلام ولكنه كبر تكبيرة
ثم ركع ، ثم قام ، ثم أهوى إلى الأرض ، ثم ظل
ساجداً سجوداً طويلاً خاشعاً

ثم تلفت محمد أفندي فلمح الفتاة ... بعينها ...
الفتاة الجميلة الأسوانة جالسة في رهط من أترابها
في الركن الغربي من أركان المقام ، فأثر أن يجلس
حيث هو ليطالع القمر السافر الذي يحيل مقبرة
العارف بالله جنة وارفة من جنان الحب ... لكنه
ما كاد يفعل حتى رأى شيخ المسجد يقف حياله ،
ويتفرس فيه ، ثم يمد يده فيقبض على ذراعه ،
ويدعوه إلى خلوة معه ... وما كاد يستقر بهما المقام
في خلوة الشيخ حتى يدوى المؤذن بأذان الظهر ،
فتتردد في جنبات المسجد الكلمتان العظيمتان اللتان
فتح الله بهما للإسلام فتحه المبين « الله أكبر ... »
الله أكبر ... »

وتنهي الصلاة ...

وبلتفت الشيخ إلى محمد أفندي ويطلب إليه ألا
ينصرف لأنه سيريه من آيات العارف بالله عجبا ...
ثم يقصد وإياه إلى مقام شمس الدين ، فما يبلغانه
إلا بعد جهد وبعد طول عناء ، لأن الزحام يبلغ
أشدّه عقب الصلاة حينما يتدافع الناس نحو الضريح
ليطوفوا به ، وليأتمسوا من بركات الولي الكريم ،
ولتشملهم نفعاته ...

عقولكم شعبدات ، ماذا هو ؟!

— ألا تقصر يا محمد أفندي ؟

— حدثني عن تلك السفينة ؟ أسفينة نوح هي ؟!

— أأنت أعقل من الدولة إذن ، وأهدي ممن
وضع هذه الآثار ؟!

— الدولة لم تعلق هذه الآفات ، وليس من
وضعها بمن هدى الله !

— أليست الدولة هي التي شيدت هذا المقام
الشاهق ؟

— بلى ، لقد شيدته الدولة التي كانت تفكر
كتفكيركم !

— واليوم ؟ أليست الدولة هي التي تقولي صيانتها ؟

— كل هذا منك سبيده الله !

— ولماذا تبقى عليه الدولة ما دام منكراً ؟!

— تبقى لأنها تخشى الرعاع ، ولن نكون بخير
حتى باتيننا الله بدولة تهدينا السبيل ولا تخشى
في محاربة الأوثان لومة لائم !

— السلام عليك إذن ... هداك الله أيها الأخ .

إن كلامك شيء لا يطاق ... مسكين ! ... أي بلاء
سيحل بك ... اليوم أو غداً ... ومن يدري ؟ فلعله
يحل بك الساعة ... قاتل الله المدينة وقاتل الله شباب
العصر !

ونفض الشيخ على وحمل معه خفيته ، ثم
ذهب إلى ناحية أخرى قصية في المقام واستقبل
القبلة وكبر ، ثم راح يصلي لله ركعات يعجوبها
الرجس الأثيم الذي علق بأذنيه من حديث محمد
أفندي عبد الغفور

ودخل الشيخ ... ووقف محمد أفندي عبد الغفور
إلى جانبه ... وجعل رئيس المسجد يتمم بصلوات
ودعوات ، وجعل الناس يتدافعون نحو صندوق
النذور يدسون فيه قروشهم

وكانت سيدة وقور تجلس عند الصندوق ، فاراع
الناس إلا أن تقف فجأة وتأخذ مقصاً صغيراً
ثم تتناول غداًرها الذهبية فنقطع كل (محمودية)
وتدمسها في ثقب الصندوق وتصنع هذا سبع مرات
ثم تجلس قليلاً ، ثم تعود فتقف وتعمل المقص
في غداًرها ... فعلت ذلك سبع مرات ، ورئيس
المسجد واقف يتمم ويؤذ ، ثم يسبحل ويحوقل ،
وهو بين هذا وذاك يتفصد جيئنه بالعرق فيدع
جباة تترقق فوق وجهه المشرق النير ...

ثم يتدافع الناس فجأة فيفسحون طريقاً لرجل
فقير أشعث الشعر خلق الثياب عارى القدمين نابي
الهيئة ، قد علق في ذراعيه حلقاً ثقيلاً من حديد ،
وجعل في رجليه سلاسل وأغلالاً ، وأغرب من كل
ذلك وأعجب جعله في شفتيه قفلاً ثقيلاً من فولاذ ،
وفي يمينه سيفاً مفلولاً من خشب له غمد زري
كثيب ...

وقف هذا الفقير حيال ضريح الولي ، ثم أخرج
مفتاحاً قدسه في القفل المتدلى من شفتيه ، وكواه
فانفتح ، وسلك اللسان الطويل من ثقبين كبيرين
في شفتيه ، وراح يصلي صلاة خافتة أول الأمر ،
ثم جعل يغمغم مرة ويهمهم أخرى ، ثم راح بمص
بصوته ويقصف ، ويججل كالرعد ، ويقول :

يا سيدى يا شمس الدين ... مدد

يا سيد العارفين بالله ... مدد
مدد ، مدد يا نور العين ، مدد
يا أبا الكرامات يا ولى الله مدد
يا سارى فى الليل مدد ، مدد
يا كاشف أسرار الناس ، مدد
خذ بيدى يا شمس الدين ، مدد
هز الهلال يا زين ، مدد
أنت المقصود يا زين ، مدد
مدد ... مدد ... مدد ...

فى القلب شجون ، وشجونه فنون ... مدد
حبك بضنيه ، وهواك دواء ... مدد
عرش الرحمن ، لك فيه إيوان ، مدد
الح ...

وكان الرجل ينشد هذه الهتافات فى صوت
متهرج ، وفى لساننا الدارج ، ثم يزنها وزناً سليماً
مستقيماً مع أنها ليست شعراً

ووجم الناس ... ووقفوا لا ينبس أحد منهم
بكلمة ... ووقف السيد محمد عبد الغفور مسبوهاً
مشدوهاً ... فقد خلبه ذلك الإخلاص الحلو الذى
كان يتدفق من فم الرجل فيحل برداً فى قلوب
الناس ، ويستولى على مشاعرهم ... فلما قال الرجل :

— الشك حرام ... مدد ... مدد !

— عبد الغفور ... اسمه محمد ... مدد مدد !

— يا رب اهدية ... مدد مدد !

— يا شمس الدين .. إشفية إشفية .. مدد مدد !

شعر محمد أفندي بفيض من الشعور المعجيب

يسرى بارداً فى دمه ، وأحس كأنما الأرض تسوخ

(٢)

من وجناتها وهي تصنع ذلك ...

وخلا المقام من الزائرين إلا قليلاً .

ثم شعر محمد أفندي بيد تقبض على ذراعه من خلف ، وسمع صوتاً يقول :

— ألا تستغفري يا محمد أفندي !

والتفت محمد أفندي فبصر بالشيخ على عبدالواحد فدار الحديث بينهما ، واشترك فيه رئيس المسجد :

— أستغفر الله يا شيخ على !

— ألا تلتمس الصفح من سيدي شمس الدين ؟

— بلى ... ألتمس منه الصفح بمد أن شهدت بعيني وسمعت بأذني !

ثم قال رئيس المسجد :

— حقاً ! لقد أتلفت المدينة قلوب شبابنا ، وأضعفت ثقتهم بأولياء الله ... ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ...

فقال محمد أفندي وهو يستعبر :

— أجل ... لكننا معذورون ... فتأله إن هذا أول يوم أرى فيهم كرامة لولي ، وتأله لا كون خادماً بعد اليوم لسيدي شمس الدين ... وتأله لأحملن إلي مقامه تحمفاً وآيات من الآيات ...

ودعا له الشيخ الفقير ، ثم أخذ قفله فجعله في شفتيه ، وذهب يجلجل بسلاسله ، ويضرب في الهواء بسيفه الخشبي .

ونظر محمد أفندي في الركن المبارك حيث جلست الفتاة في رهط من أهلها ، وكان فيهم رجل شيخ كبير ، فاستأذن رئيس المسجد في أن يمضي معه إلى الرجل ، فلما لقياه سأله محمد أفندي إذا كان هو

تحت قدميه ... وخيل له أن القبة ترقص مع الرجل وتهبط وتعلو وتروح ذات اليمين وذات الشمال . . ثم نظر إلى الناس فوجدهم جميعاً يرقصون على نغمات الشيخ ، ويفغمون بهتافاته

ثم هلل رئيس المسجد فجأة وكبر ... فسكت الرجل الفقير وصمت الناس ، ووقف الهواء وأمسك الحاضرون أنفاسهم ... ورفع الرئيس يديه نحو الممامة الكبيرة المكورة ، فاهتز بيض النعام ورجفت الثريات ، وتأرجحت السفينة يمنة ويسرة ، ثم مضت لحظات على هذا الحال ... ثم اشتد الصمت وظل الناس مأخوذين بروعة المشهد العجيب ... لكنهم هلّلوا في سوت واحد وكبروا ، حينما لمحوا الممامة الكبيرة الهائلة تهتز وتتحرك ، ثم يتحرك الضريح كله حركة هينة لينة لكنها ملحوظة لأنها حدثت مرتين أو ثلاثاً ... ثم خرجت أصوات جميلة من داخل الضريح تقول :

« الله ... الله ... لا إله إلا الله ! »

فما كادوا يسمعونها حتى تدافعوا بالجنوب والناكب نحو صندوق الندور ... وكان عجيباً أن يسبقهم الرجل الفقير فينثر فوقه كثيراً من الريالات المصرية الكبيرة كان الخادم يجمعها ثم يقذف بها في الصندوق كما يقذف القروش والملايم والبرائر وأنصاف البرائر وأخماسها ... وحاولت السيدة التي كانت تقطع الذهب من غداثرها أن تدس في الصندوق إحد (محمودياتها) ، لكن الخادم (رجاءها) أن تستأني حتى يفرغ الزوار ، ومع ذلك فقد استطاعت أن تدس (محموديتين) ، وكانت فرحة يطفح البشر

هذه الجمعة قلات الصندوق وهديت الضال وزوجت فتاة ... فاذا صنعت أنت الجمعة السالفة ؟
فقال له صاحبه : « حقاً إنك لشيطان ! ...
لكن الذى ساعدك هذه المرة هو الشيخ أبو السلاسل ! » فقال الأول : « لقد لقننه الرئيس دوره فأداه على خير وجه ... لشد ما كنت أفزع أن يضيع أحد الريالات ! »
ولم يكن الخادمان يريان محمد افندى وهما يتناجيان هكذا ... فلما ربت على كتف أحدهما وأبصرابه ... فزعا فزعاً هو أقرب إلى الخجل والحياء
لكن محمد افندى عبد الغفور كان أشد استحياءً على كل حال ... ومع ذلك فقد تزوج الفتاة ، لأنها وقعت من قلبه موقعاً عظيماً ...
دربنى فشب

والد الفتاة . فقال الرجل : « نعم يا بك ! » . فقال له محمد أفندى : « وابنتك هذه متزوجة ؟ » . فقال الشيخ : « كلا يا بك ... سهّل الله لها » . فقال له محمد أفندى : « فهل تزوجني إياها وأنا لها كفء وهؤلاء شهودى ؟ » . فقال الرجل : « أنظرني أياماً يا بنى ! » .
فقال محمد : « وأرجو أن أنال القبول إن شاء الله » فقال الرجل : « القبول إن شاء الله »
ثم عرف نفسه إلى الشيخ وعرفه ، وقرأ الجميع الفاتحة ...

وما كاد يخطو محمد وصيد الضريح حتى سمع خادماً خبيثاً من خدم المسجد يقهقه ويقول لصاحبه : هل رأيت ؟ أنا أم أنت ؟ ... لقد دخلت الضريح

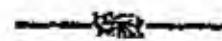
آلام فرتر

للساعر الفيلسوف جون اودمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد



تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونحنها ١٥ قرشاً

صدر كتاب

قافله الأيام

مجموعه من القصص المصري الحديث

تأليف

عبد اللطيف كركي

ياع بخسة قروش بجميع المكتبات بالعالم العربى
وبمكتبة النهضة المصرية

إدراكه كل إنسان ؛ ولست أسمح
لأحد غيري باللعب فيه أبداً !
ثم قام فصنع له جداراً رفيعاً سور
به بستانه ، ورفع لوحة كتب عليها
هذا الإعلان :

سَيُجْزَى المخالفون
بنس الجزاء

المارد الذي يحب نفسه

للكاتب الإنجليزي أوسكار وايلد
بقلم الأستاذ فخرى شهاب السعيد

فياله من مارد لا يؤثر أحداً بالحلب سواء !
ولم يبق حينذاك للأطفال الساكنين ملعب
يرتمون فيه . لقد حاولوا أن يتخذوا لهم من الشارع
ملعباً ، ولكنهم زهدوا فيه حين وجدوه مليئاً بالآتربة
والأحجار ، وظلوا كذلك يحومون حول الجدر
الرفيعة — حين ينتهون من دروسهم — لاهين
بجمال ذلك البستان الذي وراء تلك الأسوار ، وبأيام
سعادتهم التي انتهت ، يقولون :

— ألا ما كان أسعدنا هناك !

ثم قدم الربيع وانتشرت بمقدمه الأزهار
والأطيار في كل ناحية على الأرض غير بستان هذا
المارد اللثيم الذي لم يبرحه الشتاء . إن الأطيار
لم يعمها أن تغرد فيه حين غاب عنه الأطفال ؛ وإن
الأشجار قد أنسيت أن تورق أو تزهر ...
ولقد أخرجت إحدى الأزهار الجميلة مرة رأسها من
بين الأعشاب فهاها وأحزنها أن ترى لوحة الإعلان
تمنع الصغار من غشيان البستان ، وانسلت هاربة
لتستأنف نومها العميق الذي كانت مستغرقة فيه .
ولم يكن في العالم أحد قد استولى السرور عليه غير
« الثلج » و « الجليد » اللذين قالوا في نفسيهما :
— إن الربيع قد أنسى هذا البستان ،

كان الأطفال قد اعتادوا دخول بستان المارد
واللعب فيه حين يعودون من المدرسة عصر كل يوم .
وكان بستاناً واسعاً ، رقيق الحواشي ، قد اكتست
أرضه بالعشب الأخضر الطرى ، وانتشرت في أرجائه
الأزهار الجميلة كأنها النجوم . وكانت فيه اثنتا عشرة
شجرة من أشجار الخوخ التي تتفتح في الربيع عن
أزهار رقيقة زاهية الألوان كأنها اللآلي ، تتحول
في الخريف إلى ثمار يانعة سائغة . وكانت الأطيار
فيه تعلى غصون الشجر وتغرد في عذوبة تصرف
الأطفال عن ألعابهم وتستوقفهم مأخوذين ،
فلا يملكون أن يعبروا عن نشوتهم بغير هذا القول :

— ألا ما أسعدنا في هذا المكان !

غير أن المارد عاد يوماً من زيارة أحد أصدقائه
الغيلان ، بعد أن لبث معه سبع سنين ، أنهى
في خلالها كل ما أراد أن يحدثه به — فإن محادثته
كانت محدودة تنتهي ولا شك — عاد العملاق إلى
قصره فرأى الصغار يلعبون ويمرحون في البستان !
فصرخ فيهم بصوت خشن غليظ قائلاً :

— ماذا تصنعون هنا ؟

فانطلق الأطفال من فورهم هارين ! ثم استأنف
المارد صراخه قائلاً :

— إنما هذا البستان ملكي ، وذلك ما يستطيع

— ما أحسب إلا أن الربيع قد جاء أخيراً .
وقفز من فراشه ، فذا رأى !
إنه لمنظر جد جميل !
أولئك هم الأطفال الصغار ، قد دخلوا البستان
من خلال ثقب صغير وجدوه في أحد الجبلين واعتلوا
الأغصان وبقوا هنالك جالسين . وقد ابتهج الشجر
بمقدمهم فأورق ، وناس على رؤوسهم في حب وحنان ،
وكان الطير يشدو حيناً ويطير حيناً في جذل وابتهاج .
والزهر يرنو إلى ذلك بسام الثغور من بين الأعشاب
— إنه حقاً لمنظر بهيج !

ولكن الشتاء لما يبرح تلك الزاوية القصية التي
وقف فيها أصغر الأطفال يعول طوراً ، ويطوف
بما حوله طوراً آخر ، والشجرة المسكينة التي بقربه
ما تزال شاتية .. إن ذلك الطفل لم يتمكن من الوصول
إلى الفن لصغره ؛ وكانت الريح الشمالية تعصف حوله ،
والشجرة تنحنى له ما استطاعت وتدعوه قائلة :
— تسلق أيها الصبي الصغير ... ولكنه ما يقدر
على شيء من هذا !!

... وأدركت المارد عليه الشفقة حين رآه فقال :
— ألا ما كان أشد إشاري لنفسي ! لقد عرفت
الآن سبب انقطاع الربيع عن المجيء إلى هنا ..
سأذهب إلى ذلك الطفل فأضعه على الشجرة ، ثم أنثني
على الجدار فأهدمه وأجعل من بستاني هذا ملعباً
وفقاً على الأطفال حتى الأبد ... واشتد أسفه على
ما كان بدر منه

ثم إن المارد نزل وفتح بابه في هدوء وسار
في بستانه ؛ ولكن ما إن رآه الأطفال حتى أوغلوا
هرباً ، وعاد الشتاء إلى البستان من جديد ؛ ولكن
صبيّاً واحداً منهم لم يهرب ، ذلك هو الصغير الذي
ملأت عينيه الدموع لما رأى المارد قادماً إليه
وتسلل المارد إلى الطفل ورفعه بلطف فأجلسه

ولذلك فإننا سنحيا هنا طوال العام !
وكذلك طنى « الثلج » على الأعشاب وأسبل
عليها طرف رداءه السابغ ، وانتشر « الجليد » على
الأشجار فكساها حلة من الفضة ازدانت بها ؛ ثم
إنهما أمرا ربح الشمال أن تبقى معهما فلبت أمرهما ،
وجاءت ملتفة بالفراء تصفر طوال النهار خلال
البستان والمداخن ، فرحة بهذا المكان البهيج
ثم إنهم قرروا دعوة « البرد » فنزل وأنشأ
يتحدر كل يوم ثلاث ساعات بشدة حتى يكسر
بلاط القصر ، فإذا تم منه هذا أمعن هرباً حول
البستان يطوف بأقصى ما أوتيته من سرعة ! لقد
كان برداً عجيباً أغبر ، وكانت أنفاسه بيضاء كالثلج !
وقد جلس المارد اللثيم ذات يوم في الشباك المطل
على البستان الأجرد الشاق ، وقال يحاور نفسه :
— ما أقدر أن أفهم سبب تأخر الشتاء حتى
الآن ! وما أظن إلا أن تغيراً قد طرأ على الجو .

ولكن الشتاء لم يأت ، ولا جاء بعده صيف
ولا خريف ... بل إن الخريف نفسه جاء وأنضج
الثمار في كل بستان إلا في بستان هذا المارد الذي
كان يعرفه الخريف لثماً لا يحب أحداً غير نفسه !
وإن المارد لمضطجع ذات صباح في فراشه
إذ سمع أنغاماً شجية تطرق أذنيه خيلاً إليه لعدوبتها
أنها من فرقة موسيقى الملك حين كانت تجتاز في
الطريق ، ولم تكن تلك الأنغام الشجية غير صدح
طائر صغير كان يشدو على بعد من نافذته . لأنه ما كان
سمع من أمد بعيد شدو طائر ، فظن أن ما طرق أذنيه
أعذب ما في العالم من ضروب الألحان !

ثم إن البرد وقف تهنأته من حوله ، وريح الشمال
قطعت هزيزها ، وجاءت المارد من النافذة نفحة
من أريج عبق جميل . فقال المارد في نفسه :

على الشجرة فما كان أسرعها حين أوردت وأزدهرت ، وما كان أسرع الأطيّار حين تساقطت عليها مفردة حائمة حول الصبي الصغير الذي كان يحولها عنه إلى عنق المارد مسروراً . ثم انحنى الطفل على المارد قبله ، فلما رأى أصحابه ذلك أمنوا المارد وعادوا وعاد معهم الربيع ، فقال المارد مخاطبهم :

— إنه بستانكم أيها الصغار الآن . ثم تناول ممولاً كبيراً فهدم به الجدر القائمة حول البستان . فكان الناس إذا صرخوا به في طريقهم إلى السوق في منتصف النهار رأوا المارد يلعب الأطفال في أجل بستان تقع العين عليه !

وظل دأب الأطفال كذلك ، يلعبون طوال النهار ، حتى إذا أمسى المساء وخيم الليل ، جاؤوا إلى المارد فخيروه وانصرفوا ...

وقد سأله المارد مرة عن صديقهم الصغير الذي كان رفعه على الشجرة ، فأجابوه بأنهم لا يدرون عن أمره شيئاً ، فإنه ذهب ولم يعد ... إنهم لم يروه من قبل ، ولا رأوه من بعد ، ولا يعرفون أين يسكن . لشد ما حزن المارد على ذلك الطفل الصغير الذي قبله !

بقي الأطفال على هذا : يختلفون إلى البستان عصر كل يوم بعد انتهاء دروسهم ، فيلعبون مع صديقهم المارد ... غير أن الطفل الصغير وحده كان المتخلف من بينهم أبداً . ولكم كان المارد يشتاقه ويحبه ، ويتحدث عنه ويتمنى أن لو رآه .

ومضت على ذلك السنون تبعمها السنون ، فشاح المارد وعجز عن مشاركة صغاره اللعب . فكان يجلس على مقعد وثير ليتفرج عليهم هائناً مغتبطاً . وكان يقول في نفسه :

— إن في هذا البستان لكثيراً من الأزهار

الجميلة . ولكن أجل منها في نظري هؤلاء الصغار وفي صباح يوم شات .. وقد أصبح الشتاء الآن لا يفرع المارد ، فما هو الآن عنده غير إغفاءة قصيرة لا يلبث الربيع بعدها أن ينهض بأزهاره ونهاويله . في صباح ذلك اليوم ، بينما كان المارد يرتدى ثيابه إذ بصر بشيء هاله ، فكذب نظره وكذب نفسه ... إنه منظر مدهش عجيب ! أفي الإمكان هذا ؟ شجرة حالية بالنور الجميل في تلك الزاوية القصية وتحتها طفله الصغير الذي أحبه واقفاً ؟

هرول المارد نازلاً يستخفه الفرع ، وجاز أرجاء الحديقة مسرعاً حتى جاء إلى الطفل ؛ وما كاد أن يقترب منه ويراها حتى طأ غضبه وارتد وجهه ، وسأله قائلاً حين بصر بأثر مسمارين على يديه ومثلها على رجليه :

— من ذا الذي تجرأ فجرحك ؟ قل من ذا الذي تجرأ عليك ففعل ؟

فأجابه الطفل الصغير :

— كلا . ما تلك بجروح حقيقية . إنها جروح الحب !

وهنا استولت على قلب المارد الرهبة والخشوع فخر ساجداً أمام قدمي طفله وسأله قائلاً :

— من أنت إذا ؟

فأجابه الطفل باسمًا : أنا الصبي الذي سمحت لي مرة باللعب في بستانك هذا ، جئت لأخذك معي إلى بستانى الذي هو الفردوس

وحينما جاء الأطفال عصر ذلك اليوم كما دأبهم وجدوا المارد ميتاً في مكانه تحت تلك الشجرة ، وقد نثرت على جثمانه الأزهار والنور الأبيض الجميل

« بغداد » : فخرى شهاب السعيدى

تعجب القلب

عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

الدكتور جون سيمور إحدى مريضاته؟
أجابت حنا في لهجة الجد :

— لأنه زارها صباح اليوم ،
ولست حالتك الصباحية بداعية إلى
زيارة ثانية

— ولكنني مريضة بقدمي . فهل
تظنين أن الطبيب لا يحضر إلا لزيارة

مريض يحتضر ؟ إن هذا هو السخف يا عزيزتي !
والآن هاتي علبة الزينة ، وسأريك في الحال لماذا
يهم الدكتور جون هذا الاهتمام بمريضته ؟
فأجفلت حنا وقالت منكراً :

— علبة الزينة ؟ ولكن لا يجوز أن تصبني
وجحك ولو الآن على الأقل
— ولماذا ؟

— لأن الطبيب قد يخدع بلون الصبغ عن
لونك الطبيعي .

فغمرت فيث بعينها لمرضتها وقالت :
— إن طبيبي لن يخدع ، وعلى كل حال لقد
تحسنت صحتي ، وليس بي ما أشكو منه . والحق أنني
لا أدري لماذا يقضي عليّ بأن أؤزم الفراش هذا
الوقت الطويل . إني لأرى أن المسألة كلها مؤامرة !
فقالت حنا متلطفة :

— يجب أن تتحملي فترة أخرى قصيرة .
— واه ! لا تلجئي إلى هذا الأسلوب الذي
يخاطب به المرضى يا أخت حنا ! ولتعطني الشط إذا
كنت لا تسمحين بأحر الشفاء . ولتعلمي أن الرجل
العزيز إنما يحضر ليراني لا ليزور المريضة رقم ٩٩
فنظرت حنا في سكون إلى جسم مريضتها الجميلة
الرشيقة . فرأيتها جذابة في مرضها كما هي جذابة

« إذا كان الطبيب شاباً شديداً الجاذبية فانه خلق
بأن يجد كل مريضة يزورها مصابة بتعجب القلب »
* * *

صاحت المريضة الشابة الراقدة على السرير في
لهجة ساخرة :

— أيتها الأخت حنا ! يا أخت حنا ! من عساك
ترين من الشباك ؟

فتلفت حنا مبتعدة عن الشباك وقد التهب
خداها بحمرة الخجل ، فلقد أصبح عادة لها أن تقف
في الشباك مترقبة كلما دنا موعد ساعي البريد
وسارت الممرضة حتى دنت من مريضتها فأنحنت
عليها ناظرة إلى وجهها الجميل الشاحب ، وقالت عن
غير قصد :

— لا أرى أحداً غير الدكتور سيمور ، وما
أظنه قادماً إلى هنا
فضحكت فيث ميرتون ضحكة خفيفة مستهترة ،
وقالت :

— ولم لا ؟ لم لا يحضر إلى هنا يا أخت حنا ؟
فأجابت حنا منبهة المريضة في شيء من الرقة :
— أنا لست أختك إن أنا إلا ممرضة عادية .
— ولكنك تقطين وقت فراغك كله في رقب
إنسان ما أو شيء ما ، إذن يجب أن تكوني الأخت
حنا . ثم أحب أن أعرف لماذا لا ينبغي أن يزور

في صحتها حين تجرى من مكان إلى مكان مع أصدقائها
المرحين . فلا عجب إذا رأى الدكتور جون سيمور
أن الضرورة تقضى بزيارتها .

وحبت حنا في صدرها زفرة كادت تخونها ،
إذ من المؤلم أن يرى الإنسان سعادة غيره من الناس
وقصص غرامهم ، في حين لا يشعر هو بالسعادة ،
ولا ينعم بقصة غرامه أو على الأقل في حين تتجه
سمادته وقصة غرامه اتجاهًا خاطئًا .

فقد مضى عليها الآن أكثر من خمسة عشر
يومًا منذ تسلمت آخر رسالة جاءتها من روبن ، فليس
بعيداً أن تكون صحيحة تلك الإشاعات التي اتصلت
بها عن العلاقة بينه وبين الفتاة روت . فكيف
السبيل إلى التأكد من الحقيقة ؟! فهذا الشك
الفظيع هو الذي كاد يفتتها .

وابتسمت فيث لمرضتها بعد أن أصلحت
شعرها وقالت :

— أنظري الآن يا أخت حنا ! هل ترييني
أعجب من يراني ؟

فأومأت حنا برأسها إيماءة إيجابية وقالت :

— إياك لفتانة ياسيدي .

فقلت فيث وفي عينها معنى الخبث :

— هذه هي الفكرة ، فقد أعد المسرح ونحن
الآن في انتظار دخول البطل

وفي هذه اللحظة سمع نقر على الباب ففتحته
حنا وتنحت مفسحة الطريق للدكتور جون سيمور

وكان الطبيب شاباً طويل القامة ، أسمر اللون ،
تبدو على فيه إمارة الجد وفي عينيه معنى الإنسانية ،
وكانت حنا تراح لمنظره .

فقدت « فيث » للطبيب يدها البيضاء النحيلة
وقالت :

— مرحى يا دكتور جون ! هل جئت لتوقع
ورقة الوفاة ؟

فوقف الطبيب أمام السرير وانحنى ينظر إلى
المریضة وقال :

— أظن أنني أستطيع أن أرجي ذلك إلى ما بعد
يوم أو يومين

ثم وجه الطبيب الحديث إلى المريضة وقال :

— سأعير الدواء للمسمى ميرتون يا حضرة المريضة .
فلوت فيث وجهها وقالت :

— إنك تحسن لو منجرت بالدواء نوعاً يقرب
طعمه من طعم الكريز ...

— هذا الطلب يذكرني بأن أقول لك إنه بعد
شفائك يجب أن تستمرى فترة من الزمن منقطعة

عن الكوكيتيل والتدخين والسهر الطويل
فقطبت فيث وجهها وقالت :

— ليس لأحد من الرجال أن يتدخل على هذه
الصورة في شؤوني الخاصة فإن الحياة تفقد مباحها

في نظري يا دكتور إذا أنا كلفت نفسي كل ما تسألني
أن أكلفها من حرمان ! وإنه ليجميل بي عند ذلك

أن أضرق حذائي في الحال

فلم يجب الطبيب على هذا الكلام ولكنه أمسك
بالمصم النحيل بين أصابعه ونظر إلى مريضته نظرة

الجد . وانتهزت المريضة حنا هذه الفرصة لتنظر
إلى صفحة وجهه نظرة المختبر الدقيق . وما من شك

في أن الطبيب كان جميل الوجه ، فلا عجب إذا أحبته
مريضاته وأغرم من به ، ولا عجب إذا أرادت فيث

ميرتون أن تتجمل وتتخذ من أسباب الزينة ما يزيد لها
فتنة وجاذبية استعداداً للقاءه

وحدثت المريضة نفسها وهي تنظر إلى المريضة
وطبيبها بأنهما إذا تزوج أحدهما من الآخر كانت



الرغم من أنه يعلم كما تعلم فيث وكما تعلم حنا أن حالة مريضته لا تدعو إلى القلق . بل هي على العكس من ذلك قد وصلت إلى مرحلة النقاهة . ولكنه استمر جالساً وأطال الجلوس

وقالت فيث على أثر انصراف الطبيب تخاطب المريضة :

— أئذ كرين ما قلته لك ؟ هل هناك من رجل يبدى من دلائل الحب العميق أكثر ...

فقطعت المريضة على مريضتها الحديث بقولها . — لقد حانت الساعة التي يجب أن تنأهي فيها

لننوم ...

فغبت فيث وقالت :

— لا تكوني هكذا كالقط المشاكس ! ألا أستطيع أن أحدث عن الدكتور جون إذا أنا أردت ذلك ؟ يجب أن تعترفي بأنه جميل إلى حد مريع .

فصاحت حنا في حدة :

— إنه لأجل جداً من أن يكون طبيباً

(٤)

زيجتهما صفقة رابحة ، فإن أموال فيث تساعد طبيباً قروياً مثله على النهوض بعمله الضئيل وتوسيع دائرته ، وحزم الدكتور جون كفيل بأن يكبح جماح هذه الفتاة المرحلة الفارغة الرأس التي ظنت أن خير ما في الحياة هو اللهو والعبث . فإن الأصدقاء تستطيع دائماً أن تحسن العمل إذا سارت جنباً إلى جنب واستمر الدكتور جون جالساً وقتاً طويلاً على

فقلت فيث منهمكة :

— أحسب أنني كنت أتقدم في طريق الشفاء بأسرع مما تقدمت لو أنه كان ذالحية وخطها الشيب يسير متكئا على العصا ! حسن ! إنني لن أفعل ذلك، وسألتسكا في طريق الشفاء وسأكون مريضة تسترعى اهتمام طبيبها مادام يريد هو ذلك . عجبا ، إن الرجل المسكين لا بد أن يكون معذورا في إطالة قبضه على يدي ! ألم تلاحظي أنه اختبر سرعة نبضي ثلاث مرات هذه الليلة ؟

بلى ، لقد لاحظت حنا ذلك

وألقت فيث رأسها على الوسائد مسترخيا وقالت وهي تنظر إلى حنا :

لقد كنت أخشى أن يصبح هذا المرض عبئا يثقل عليّ حملي ، ولكنني أرى الآن أنني لا أبالي به مثقال ذرة ، ففي حضرة طبيب جميل يحمل قلبه على كفه ، ووجود ألطف وأرق ممرضة في العالم ، لا أجد موضعا للشكوى على الإطلاق

فتأثرت حنا تأثرا فجائيا وانحنيت على مريضتها فقبلتها ، فقد كان في تكوين فيث شيء يجذب إليها الناس ، وكانت على بينة من شعور الدكتور جون ، كما كانت تعلم أن الحب هو أحسن علاج في الوجود ، وقد أحدث العجائب في مرض فيث . وعما قريب تصبح في غير حاجة إلى ممرضة

وساءلت حنا نفسها بعد أن طافت هذه الأفكار برأسها :

وماذا عسى أن يحدث لي عندئذ ؟ أأبحث عن مريضة أخرى أمهر عليها أم تراني أتزوج من روبن ؟ لقد كانت الفتاة منذ سنتين على استعداد للزواج من روبن ، وقد أنهت — في غيبتها — كل غرزة في جهاز العرس ، كما ربت في عناية أناث كل غرفة من غرف بيتها الخيالي

غير أن « روبن » كان دائم الاعتذار . فهو مرة غير مطمئن إلى البقاء في العمل الذي يشغله ، ومرة لا يجد بيتا يستأجره ، وتارة يقول إن الوقت صعب والمال شحيح ، وطورا يقول : خير أن يتزوج الإنسان في سعة من أن يتسرع ثم يندم ساعة لا ينفع الندم !

فلم يكن أمام حنا إلا أن تستمر في التمريض بينما « روبن » مستمر في الاعتذار

وما تشك الفتاة في أن خطيبها يحبها ، لقد كانت من ذلك جد واثقة وكل هذه الإشاعات التي أثبتت حول علاقته بالفتاة « روث » لا تستند إلى أساس من الحقيقة ، فإن هي إلا تقولات بليدة سخيفة يختلقها أناس بلقاء سخفاء . وقد اعتزمت الفتاة ألا تصدقها وألا تصني إلى مروجيها

صاحت المريضة تدعو الأخت حنا مكررة النداء وكانت حنا واقفة في مرقبها من الشباك تنظر إلى الطريق على عادتها . وكان ساعي البريد قد اعتاد في الأيام الأخيرة أن يبطيء في الحضور ، بينما اعتاد الدكتور جون أن يكر في مواعيد زيارته . ورأت حنا عربة الطبيب العتيقة ذات المقعدين تقف أمام مدخل الباب ، فردت على نداء المريضة :

— ها هو ذا قد أقبل يا عزيزتي

فصاحت المريضة :

— أسرع بالمرآة إليّ ، فاني لأكاد أشبهه

الغراب !

كان من العادة أن تعفى حنا من العمل ساعتين كل يوم بعد الظهر ، وأن تنغيب نصف يوم كل أسبوع ، وكانت الخادم يحمل محلها لدى المريضة في أثناء راحتها أو غيابها ، فلما عادت في أحد الأيام بعد عطلة نصف اليوم ، وجدت سيارة الدكتور جون واقفة أمام الباب ، فصعدت السلم مسرعة خشية أن تكون

روبن ! فهو لا يزال يحبها ، أما الفتاة روث فلا تشغل أية ناحية من نواحي تفكيره

قضت حنا غلاف الخطاب في لهفة فلم تجده خطاباً طويلاً ، ولكن الإنشاء لم يكن من مواضع قوة « روبن » وجملة واحدة تكفي لكشف غرضه من الكتابة ... وهذا ما جاء في الخطاب :

« في نفسي شيء أريد أن أسر به إليك ، ولكنني لا أعرف كيف أصيغه كتابة . فهل لك أن تقابليني حيث تشائين في يوم عطلتك من الأسبوع المقبل ؟ على أنني أنتهز هذه الفرصة لأبلغك أنني قد تحسن مركزي على غير انتظار ، فقد دعاني الشيخ تشارلتون يوم أمس إلى مكتبه وأخبرني أنني قد ارتقيت إلى مركز شريك أصغر ، فما رأيك في ذلك ؟ »

لقد أدركت حنا معنى هذا الذي قرأته ، وليس معناه إلا أن أيام عملها ممرضة ولياليها المضطربة قد أوشكت على نهايتها . قروبين يريد أن يتحدث معها في المستقبل وما يجب أن يعدا له . ولقد حال الخجل بينه وبين أن يكتب ما يريد أن يقول ، ولكنهما حين يجتمعان ... وهنا التهبت وجنتا حنا بحمرة الانفعال السعيد ...

ولما عادت حنا إلى غرفة المريضة فاجأتها هذه بقولها في لهجة الناقد الدقيق :

— إنك أيتها الأخت حنا أجمل جداً من أن تكوني ممرضة

فاحمر وجه حنا حياء ومضت فيقول في لهجة التأنيب اللطيف :

— ويجب أن تزوجي
فلم تستطع حنا أن تجيب على هذا الكلام بأكثر من قولها :

مريضتها قد ساءت حالها على حين فجأة ، ولكنها اطأنت حين سمعت صوت الدكتور جون الحنون يصل إلى أذنيها من خلال الباب نصف المفتوح ، وهو يقول :

— إننا لن نتناقش في ذلك مرة أخرى إذا كان الأمر يضايقك ، وما أريد منك في هذه اللحظة أن تقطعي برأى في الموضوع ، فالوقت لا يزال متسعاً أمامنا ، وما زلت أنا شاباً ؛ ولا يزال في مقدوري أن أكيف مستقبلي على ما أريد ، ولكنك تستطيعين أن تساعديني إذا أنت أردت ، وإني لمحتاج إلى إنسانة مثلك .

وما سمعت حنا هذه الكلمات حتى انصرفت تسير على أطراف أصابعها ، فلم يكن مثل هذا الحديث بالذي يقصد به إلى أن تسمعه ، واستمر الطبيب بعد ذلك عشر دقائق في حضرة المريضة ، ثم انصرف ، وارتدت حنا ملابس التمريض وذهبت إلى مكانها في غرفة فيث ، وكانت فيث لأول مرة مستلقية ساكنة هادئة يبدو عليها الانهماك في التفكير ، فقالت الممرضة :

— آسفة لأنني كنت في الخارج عند ما حضر الطبيب

فدمدمت « فيث » :

— لا بأس في ذلك ؛ فقد كان لدينا ما يحسن أن نتناقش فيه منفردين

واتجهت حنا إلى الشباك وأطلت منه فرأت سيارة الطبيب قد بدأت تتحرك في الوقت الذي وصل فيه ساعي البريد على دراجته . فطارت الفتاة إلى الدرج تهبط عليه في سرعة البرق وقد اشتد نبض قلبها ، وهي تقول في نفسها : هذه المرة ... بالتوكيد هذه المرة ...

وسلمها الساعي خطاباً وكان من روبن ! فحدقت فيه كأنها لا تصدق عينها فيما تريان . إذن لم ينسها

— قد أتزوج يوماً ما . وقد يكون هذا اليوم قريباً ...

الزواج ! هو الحلم الذى يشغل رأس حنا ! إنها لترنو إلى اليوم الذى يصبح لها فيه بيت خاص بها ، إلى اليوم الذى تستطيع أن تنفق فيه المال ، وتبتاع الملابس ، وتعنى بحديقته ، لا يقلق نومها صوت الجرس الذى يدق فى منتصف الليل ، وأنبات المرضى المتوجمين ، والواجبات التى تصدع الرؤوس . اليوم الذى تتحرر فيه من قيد مواعيد قياس الحرارة ، ومن إعداد قناني الماء الساخن ، حرة فى أن تعيش كما يجب أن تعيش ، حرة أن تمتع نفسها بما تصبو إلى التمتع به .

وترقية روبن التى أنبأها خبرها هى الوسيلة إلى تحقيق هذا الحلم السعيد ، لأنها تمكنهما من الزواج بعد هذا الانتظار الطويل .

وبعد أسبوع قابلت حنا خطيبها روبن فى مقهى الطير الأزرق فى كلثون ، فلما مدت إليه يدها مصافحة ضغط أصابعها ضغطاً مؤلماً وهو يصيح :
— مرحى ، يا حنا !

فلمعت عينا الفتاة وهى تقول :

— إنه لمن السعادة أن أراك ثانية يا روبن ؟

فرد الفتى على هذه التحية بقوله :

— ألا تشعرين بحاجة إلى فنجان من الشاي ؟

فضحكت حنا وقالت :

— هل عرفت فى حياتك ممرضة لا تحتاج

إلى الشاي ؟

وجلس الاثنان على مائدة فى أحد الأركان .

وشرعت حنا تفرغ له الشاي فى فنجانه ، غير ناسية أنه يضع دائماً ثلاث قطع من السكر فى الفنجان الواحد ، وأنه يحب الشاي القوى ، وشمرت بأن

صب الشاي لروبين أشد إثارة للنفس من صب قطرات الدواء للمجائز المصابات بالروماتزم . وعمّا قريب ستكثر من مشاركة روبن مجلس الشاي .

ونظرت حنا إلى صديقها بعين مستحبة وقالت :

— لقد كان عظيماً نبأ ترقيتك يا روبن !

فتناول روبن طبقاً فيه نوع من الفطير وقدمه إلى حنا وهو يجيب على قولها السابق بعبارة مضطربة إذ يقول :

— آه ... آه ... نعم ... ألك فى شيء من هذا الفطير ؟

فقال الفتاة :

— أنسيت يا روبن أنى لا أستطيع أن أطمع هذا النوع من الفطير ، إنى أفضل قطعة من الخبز العادى المحمر

ومضى الفتى يتحدث فى شؤون مختلفة كالأشرطة السينمائية التى شهدا والروايات التمثيلية التى حضرها والكتب التى قرأها . فأصغت حنا لهذا الحديث متجعدة كما لو كانت تصنى إلى حديث مريض مشاكس ولكنها لم تلبث أن تنبهرت إلى أن روبن ليس بمريض ممن تسهر عليهم . فسألته :

— متى تبدأ يا روبن عمالك الجديد شريكاً أصغر ؟

فبدأ على الفتى شىء من الحيرة وقال :

— المتعب فى الموضوع يا حنا ... هو ...

هو أننى لن أشتغل هنا بعد الآن ، فقد قررت الشركة إرسالى إلى نيويورك

فصفت الفتاة طرباً وصاحت :

— مرحى ! لقد كنت أصبو دائماً إلى الحياة

فى أميركا . ألا ترى يا روبن أن الحياة هناك ستكون مثيرة لمواطنى ؟

ولكن روبن لم يجب على هذا الكلام ، وسادت

— هل بضايقتك أن أستعير هذه التسمية من المس ميرتون؟ فقد كانت هي التي تناديك هذا النداء أم ترينى مخطئاً؟

فأجابت حنا وهي تجلس إلى جانبه :

— نعم يا دكتور هي التي تناديني بهذا النداء فحرك الطبيب العربة وهو يقول :

— هذا حسن جدا ... وعلى فكرة لقد كنت أراك دائماً تظلين من الشباك على الطريق ...
فعمضت حنا شفتها ، وقالت في نفسها : إنه لن يراها في الشباك بعد الآن ، فلم تعد بها من حاجة إلى الترقب ، ولم يعد أمر ساعي البريد ليهما في كثير أو قليل

وجرى الحديث بين حنا والطبيب في أثناء الطريق على المريضة فقال الطبيب :

— ستفادر مسس ميرتون الفراش بعد قليل ، وقد لاحظت أن لهؤلاء الفتيات الحديثات تكويناً عجيباً . وهي في الواقع أصبحت في غير حاجة إلى ممرضة

فقالت حنا في شيء من المكر :

— ولا إلى طبيب أيضاً !

فقطب الطبيب جبينه وقال :

— ولكن لا بد لي من أن أزورها بضع مرات أخرى فالأمر كما ترين ...

ثم حبس الطبيب الكلام في فمه وعاد فقال :

— آسف فقد كدت أفشى لك سرّاً ، وقد

طلبت مني فيث أن أحتفظ به لنفسى إلى حين

فلم تقل حنا شيئاً ، فقد كانت على علم بما يرمى

إليه ، فليس من المفروض أن يقع الأطباء في غرام

مرضاهم ، ولكن من ذا الذي يستطيع أن يملك

نفسه دون الوقوع في حب فيث ؟ وفيث نفسها

الجو فترة سكون طويل عميق غامض انزعجت له نفس حنا ، فلم تلبث أن نظرت إلى وجه روبن وقد علته حمرة الخجل ، فأدركت الحقيقة على حين فجأة وسأله في هدوء :

— إذن كان صدقاً ما شاع عن العلاقة بينك وبين روث يا روبن ؟

فهز روبن رأسه إيجاباً وقال :

— أخشى أن يكون ما شاع صحيحاً ، ولقد كنت أحاول منذ جلسنا هنا أن أخبرك ولكنى كنت أجن من ...

فقطعت حنا عليه الحديث قائلة ، وقد ملكت عواطفها :

— ولا شك في أنك تكون أجن من ذلك إذا أنت تزوجت من امرأة لم تحبها . وإنى لأستطيع أن أحتمل هذه الصدمة يا روبن ؛ وأتمنى لكما السعادة في الحياة

إنها لمهزلة أن تجلس حنا في ذلك المقهى تصب الشاي لروبن متذكراً ما يحبه وما لا يحبه من قوة الشاي وقطع السكر ، وعجبت إذا كانت روث تعلم أيضاً بهذا الاجتماع وما يجري فيه

لم تدمع عين حنا من أثر الصدمة التي أصابتها ولم تعتب على صاحبها ، واقتصرت على أن صاغت مودعة ، وانصرفت تمشي الهويناء في شارع هاى استريت ، بينما عاد روبن مسرعاً إلى محطة سكة الحديد ووقفت سيارة الدكتور جون على حين فجأة إلى جانب حنا فقال الطبيب :

— هل أستطيع أن أوصلك أيتها الأخت حنا ؟

فوثبت حنا إلى العربة وكانت هذه هي أول مرة يدعوها فيها الدكتور جون بعبارة « الأخت حنا » وضحك الطبيب لما بدا من إجفال الفتاة وقال :

كانت تداعبه في خلاعة حتى في حضرة حنا نفسها !
ووقف الطبيب سيارته أمام البيت وقال :

— لن أدخل الآن ولكن أرجو يا حضرة
المرضة أن تتصل بي إذا احتجت إلى .

فقال حنا مبتسمة :

— سأفعل يا دكتور

فقال الطبيب :

— وعلى فكرة ! أيتها الأخت حنا ...

ثم تردد لحظة عاد بعدها يقول :

— أرجو متى انتهت مهمتك في هذا البيت أن
تحضري لزيارتي فسأجد لك عملاً عند مريض آخر

فأجابت في هدوء :

— أشكرك يا دكتور .

وقالت الفتاة في نفسها وهي تصعد السلم :

« مريض آخر ! لقد تعبت من المرضى والسهر عليهم

إني لأصبو إلى النعيم والخيال والحب ، وكل شيء

مثل الذي تنعم به فيث ! »

وكانت فيث الآن في دور النقاها ، فهي تجلس

وتنتقل من غرفة إلى أخرى وتخرج قليلاً إلى الشرفة .

وأدركت حنا أن أيامها في ذلك البيت قد قاربت النهاية

فلا بد لها من أن تغادره قريباً وأن تبحث عن عمل

آخر .

وبعد قليل كانت فيث في الحديقة تقود سيارتها

وتستقبل أصدقاءها ؛ وكانت حنا تحزم حقيبتها

استعداداً للرحيل .

ولم تكن الفتاة راغبة في ترك ذلك البيت الذي

كانت تنعم فيه بشيء من الراحة والسعادة على الرغم

من جناية روبن ... وستشعر بعد رحيلها بوحشة

لا تبعادها عن فيث وما يحيط بها من مظاهر المرح

والأنس ، ولحرمانها الصداقة الوفية التي بدت من
جانب الدكتور جون

فكرت الفتاة فيما عسى أن يكون المستقبل مخبئاً
لها ، فقد تجد عملاً عند مريض آخر وقد يكون

شيخاً مضطرب الأعصاب ، يتعبها بطلباته فلا تقف

لها قدم عن الحركة طوال الليل والنهار ... فهي غير

راغبة في مغادرة هذا البيت

شفيت فيث ، وجاءت ساعة الوداع فعانقت

ممرضتها وهي تقول :

— سأشعر بوحشة للأخت حنا ! ولا بد لي من

أن أتزوج سريعاً ، وسيكون لي كثير من الأطفال

وسأعيدك إلى بيتي مرة أخرى يا عزيزتي

فابتسمت حنا وقالت :

— أرجو أن تتزوجي منه قريباً ، وإني لو ائقعة

من أنك تستطيعين أن تحيطيه بأجل مظاهر السعادة

فحملت فيث بنظرها في حنا وقالت :

— أتزوج منه ؟ من هو الذي تقصدين ؟

فحملت حنا بدورها في فيث وقالت :

— أقصد بالطبع الدكتور جون !

فضحكت فيث ضحكا عالياً متصلاً وقالت :

— هل جننت يا عزيزتي ؟

فجلست حنا مندهشة وقالت :

— ولكنكما متحابان !

فهزت فيث رأسها وقالت :

— يجوز أن يكون قد أحبنى ، ولكنني ما زلت

طليقة القلب ، ولا شك في أنني أعترف بأنه مليح

صفحة الوجه ، وله شعر متماوج جذاب ولكنني أطلب

من الزواج شيئاً أكثر من ذلك ، وأخشى أن يكون

ذوق منصرفاً إلى البحوث البخارية والسيارات

والطائرات وما إلى ذلك ، وإنه ليحزنني يا عزيزتي

محمل الجد . ولا بد أننى كنت فى ذلك المساء جد بلهاء
عند ما أجيئك « بنعم » ولكننى على كل حال لم أعن
ما قلت

فلم يزد الطبيب على قوله : « صحيح » وكان
صوته غاضباً وقد خرج من الغرفة وأغلق الباب وراءه
فى عنف ثم اندفع إلى الدرج بهبط عليه مسرعاً .
فلحقت به حنا مسرعة فأدركته فى الردهة وأمسكت
بساعدته وقالت :

— أوه... دكتور، أرجوك العفو إذا كنت
قد سمعت شيئاً من حديثكما فقد كان صوتكما عالياً ،
ولكنى أرجوك ألا تسيء الظن بفيث، وتذكر أنها
كانت مريضة فلم تكن مالكة أعصابها ، وسيأتى
اليوم الذى تدرك فيه الحقيقة ، وأنا أيضاً أعرف
صدمة الفشل فى الحب ... فأرجوك ...

وقطع الحديث صوت فيث وهى تنادى :

— الأخت حنا ! الأخت حنا !

فأسرعت حنا فى الصعود وهى تقول :

— ها أنا ذى حاضرة يا عزيزتى

ووقف الدكتور جون لحظة ينظر إلى الفتاة
الصاعدة السلم وقد بدت عليه أمارات الدهشة

ولآخر مرة سمعت حنا صوت فيث يناديها فى
لهجة التهكم ضاحكة :

— أيتها الأخت حنا ! يا أخت حنا ! من عساك
ترين من الشياك؟ هذا ساعى البريديعود إلينا والدكتور
جون يذهب !

فتلفت حنا بحفلة وهى ترى من غير الطبيعى أن
الطبيب يغادر البيت على هذه الصورة . وقد أنساها
التفكير فى الطبيب وما أصابه أمر ساعى البريد الذى

ألا أستطيع أن أمثل لك الرواية الغرامية التى تخيلتها
فنظرت إليها حنا نظرة قاسية وقالت :

— إذن كان يجب ألا تشجعيه

فنظرت إليها فيث بدورها مندهشة وقالت

— أشجعه ؟

— وقالت حنا وقد شعرت بصدمة من
تصرف فيث :

— نعم ... لقد كنت تحاولين أن تظهرى
فى أحسن صورة كلما زارك

— ولكن ما أظنك يا عزيزتى كنت تريدين
أن أظهر كما حدى العجائز المقعدات ، والحق أن المرض
ليصبح حملاً ثقيلاً لا يطاق إذا لم يستطع الإنسان
أن يداعب طبيبه قليلاً

جزعت حنا لهذا الموقف وأدركت أن فيث
لم تكن إلا عابثة . ولكن ماذا يكون وقع هذا
الأمر فى نفس الطبيب ؟ إنه أكبر جداً من
أن ينظر إلى الحب هذه النظرة الطائرة . لقد حضر
فى ذلك المساء ليرى فيث فلما صاحبتة حنا إلى غرفتها
قال :

— أريد أن أرى المس ميرتون على انفراد فى أمر
خاص فإن كان ذلك لا يضايقك فأرجو ...

فاكتفت حنا بهذه الإشارة ومضت ، ولكن
صوت المتحدثين كان يصل إلى أذنيها غامضاً . وأخيراً
فتح الباب وسمعت صوت الطبيب يقول فى صوت
مرتفع ولهجة غاضبة :

— ولكن لماذا شجعتنى هذا التشجيع كله
إذا كنت لا تقصدين إلى تحقيق ما وعدت به ؟
إنى غاضب منك أشد الغضب يا فيث !

فأجابت فيث فى طلاقة :

— إنك تحمل كل شيء يا دكتور جون على

— كنت أظن أن هناك مسألة شاب وخطبة
فأجابت حنا في ثبات :

— لقد كان ذلك ، ولكن لا وجود لهذا
الشاب في نظري بعد الآن ، ولقد مهد لي فرصة
جديدة للعودة إلى ماضى ، ولكننى أفضل أن أجد
عملاً آخر

فقال الدكتور جون في هدوء :

— أريد أن أعرف منك يا حنا ماذا كنت
تظنين على وجه الدقة ، فيما يتصل بالعلاقة بينى وبين
مس ميرتون ؟

فاخمر وجه حنا وقالت له متلعثمة ...

— ولكن ... أألم تكونا ... أنت ... وهى ...
فهز الطبيب رأسه وقال :

— لقد كنت جد مخطئة فى ظنك . فالأمر كله
أننى كنت أحاول إغراءها بأن تنزل عن شىء من
مالها الكثير الذى تبخره فى الهواء لبناء مستشفى
قروى . وقد وعدتني بذلك ثم أخلفت الوعد

فتهدت حنا وقالت فى دهشة :
— أوه ...

فخدق الطبيب فى الفتاة وقال :

— ولكن ما الذى حملك على أن تظنى غير ذلك ؟
فأجابت حنا فى لهجة الجد :

— لقد كنت أنت تعلم وكنت أنا أعلم أن حالة
المريضة لم تكن تدعو إلى أن تزورها مرتين فى اليوم
فابتسم الطبيب وقال :

— ولكننى لم أكن أحضر لزيارتها ، إنما
كنت أحضر لأننى لم أكن لأستطيع الانقطاع
طويلاً عن رؤية الأخت حنا الصغيرة وهى تنظر
من الشباك ودبابة فتاة

وصل فى ذلك الوقت ، إلى أن جاءت الخادم بخطاب
جاء به هذا الساعى

إنه خطاب من روبن ... فضت حنا غلافه
وقرأت فيه ما يأتى :
« عزيزتى حنا ...

أرجو أن تغفرى لى ! فقد كنت أبله سخيلاً !
فأنا أعلم الآن أنها أنت وأنت فقط ، لقد هزئت روث
بفكرة الذهاب إلى نيويورك ، وفسخت خطبتنا ،
فهل تتفضلين بمقابلتى مرة أخرى يا حنا ، ناسية
الماضى مغترة لى ذنبى ؟ حبيبك (روبن)
وما انتهت حنا من قراءة الخطاب حتى سألتها
فيث عرضاً :

— أخبار طيبة يا ممرضتى ؟

فعلت الحمرة الشديدة وجه حنا وقالت :

— لا أدري ... على أنى أظن أن الوقت قد
حان لذهابى

وهبطت الفتاة إلى الطابق الأول وطلبت من
« كارثر » أن يحمل متاعها فى السيارة إلى محطة
سكة الحديد وخرجت إلى الطريق ماشية

وكانت الساعة ساعة العمل فى عيادة الدكتور
جون سيمور ، لذلك اضطرت أن تنتظر حتى ينتهى
من عمله . حتى إذا دخلت عليه الغرفة نظر إليها
منعماً وقال :

— خير ؟ أرجو ألا تكونى مريضة ؟

فجلست الفتاة أمام الطبيب وقالت :

— لقد قلت لى منذ أيام يا دكتور جون إنك
مستعد أن تجد لى عملاً إذا أنا احتجت إلى ذلك .
والآن جئتك أطلب العمل

فنظر الطبيب إليها نظراً مستقيماً وقال :

نخفضت حنا نظرها وقالت :

— أوه ... عجيباً !

فضى الطبيب يقول :

— وكانت ترقب على ما أظن مجيء ساعي البريد

يحمل لها رسالة من جيبها

فقلت حنا :

— نعم كان ذلك أول الأمر . ولكنها لم تكن

في الأيام الأخيرة لتهم بأمر ساعي البريد حضر أولم

يحضر . وعند ما انصرف الدكتور جون من البيت

هذا المساء ... أحست هي ... هي ...

ثم رفعت الفتاة رأسها ومضت تقول :

— لقد نسيت ما جئت من أجله ، فأنا إنما

جئت أطلب منك العمل الذي وعدتني به ، فأين

هو هذا العمل يا دكتور ؟

فتظاهر الطبيب بأنه يفحص بعض الأوراق

على المكتب وقال :

— آه ... نعم ... إنها حالة محزنة حقاً . حالة

شاب في مستقبل الحياة ، أمامه مستقبل حسن يشر

بالنجاح ، وبكل شيء طيب ، ولكنه يشكو من

تعب القلب ، وكان يظن أن مرضه غير قابل للشفاء .

ولكنك إذا توليت أمره يا عزيزتي حنا ...

فسألته حنا في هدوء :

— وما اسم هذا الشاب ؟

أجاب الطبيب :

— جون سيمور

عبد الحميد محمد

التأمين ضمان المستقبل

أمنوا على أموالكم وأرواحكم

لدى :

(شركة مصر لعموم التأمينات)

تحافظوا على مقتنياتكم ضد :

والنقل بأنواعه ...

كوارث الحريق ...

وأخطار السيارات ...

— هل السيدة موجودة ؟

الخادم — أية سيدة ؟

الآنسة — ...

الخادم — من حضرتك ؟

الآنسة — ...

فتردد الرجل برهة ثم تركها وخف

إلى الداخل فغاب حيناً ثم عاد فدعاها

إلى الدخول . ومشى أمامها على طنفسة بنفسجية
في ردهة صقيلة تكاد حوائطها تضيء ولو لم يضيئها
مصباح ، وأدخلها حجرة رحبية يشيع فيها ضياء
هادئ وردي اللون جميل ، وجلست الآنسة ففاصت
في نخل وحرير

وخرج الخادم موثقاً الباب وراءه . وبعد حين
سمعت الآنسة وقع أقدام مسرعة ، وفتح الخادم
الباب إلى أقصى اتساعه ووقف ممسكاً به في احترام .
وخطرت إلى الحجرة ربة القصر ، سيدة نصف
في العمر ، قد ضمت الحسن من أطرافه مجلوبه وغير
مجلوبه ، جمعت الأنوثة الكاملة الناضجة والعقل الراجح
المتقف ، في عينيها سيال حنان ، وفي فمها كنز
محبة ، يتقدعها أريج كأنه نفح من جنات الخلود

جلست السيدة والآنسة متقابلتين . قالت السيدة
بعد سكوت : « خير يا عزيزتي ؟ » قالت الآنسة
في تكرار وعثار « علمت أنكم ... يا سيدتي ...
بحاجة إلى فتاة متعلمة لتربية الأطفال ... فجئت ...
أطلب الخدمة ... فنظرت إليها السيدة في دهشة
وقالت : « من أنباك هذا ؟ » قالت الآنسة في ارتباك
ظاهر : « ... عرفته ... »

كان للسيدة أطفال قامت على تربيتهم إلى اليوم
بنفسها دون استعانة بمربيات ، فقد ارتأت ألا تعهد

عزيزتي

أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ عبد المغني علي حسين

في أحد الأحياء المترفة بمدينة القاهرة ، وفي
طريق أقفرت من المسارة في ليلة من ليالي الشتاء ،
مشت آنسة نحيفة المود ، شاحبة اللون ، تلبس على
عينيها عوينات وتحمل يمينها حقيبة ثياب ، يبدو
عليها الإعياء الشديد ، وتنظر أمامها في شبه ذهول
ووقفت الآنسة فجأة والتفتت نحو مبنى أنيق
من طابقين ومشت إلى باب سوره بخطى وثيدة
ومدت يداً نحيلة فمالجت الباب الحديدى فطاوعها
وانفتح ، وأسفر عن روضة بديعة التنسيق . مشت
الآنسة إلى درج من الرخام الأملس ، على جانبيه
صفان من أصص الرياحين . وتوقفت حائرة وهمت
أن تعود ثم عدلت ، ومضت ترقى الدرج في بطء
شديد كأنما تجر بقدميها طنّ حديد ، ووقفت أمام
باب نفخ عريض قد من أئمن البلور وازدان بإطارات
لجينية . ومدت يداً مرتجفة إلى ضاغطة عاجية
فمستها فازّ الجرس وتلا الأزيز وقع أقدام خفيفة ،
ثم انفتح الباب وأطل منه خادم نوبى في قفطانه
الناعم ، وحزامه القانى ، وخفه المعقوف

تفرس الخادم في الطارقة المجهولة ووقف برهة
صامتاً وأرتج على الآنسة فوقفت هى أيضاً صامته
ثم تملكت نفسها وقالت :

بل تقول إنها تعرف ...!! « قال البك : « أدخلي على هذه الزائرة إذا سمحت » فأرسلت في استدعائها . وأقبلت الفتاة وجلة صفراء ، خياها البك متلفاً ودعاها للجلوس . ثم قال بصوته الجهورى : « من قال لك أننا بحاجة إلى مربية ؟ » قالت الأنسة : « هذا يا سيدى يحتاج إلى شرح ، وأنا متعبة جداً الآن ، وستعرفون ذلك منى بعد استخدامى » فنظر إليها البك بارتياح . قال : « أتعرفين أحداً من خدم هذا المنزل ؟ » قالت : « لا » فنظر إليها بارتياح أشد . وسكت قليلاً ثم قال : « هل سبق أن اشتغلت مربية ؟ » قالت : « لا » قال : « أتعرفين أحداً يمكن أن يعرفك إلينا ؟ » قالت : « لا » قال : « اسمى يا آنسة ! لا يمكننا أن نستخدم شخصاً لا نعرفه ، ولم يقدمه إلينا شخص معروف أو جهة معروفة .. متأسف ! » ودار بكرسيه ليواجه أوراقه

فنهضت الفتاة واقفة ، واغرورت عيناها ، وبعثت نحو الباب . ثم توقفت وقالت : « أيمكننى يا سادتى أن أبيت هنا الليلة ؟ » فنظر البك محزجاً ثم قال : « أليس لك مسكن ؟ » . قالت : « لقد طردنى أخى » وأجهشت بالبكاء . قال البك : « من هو أخوك ؟ » فلم تجب . قال : « أليس معك نقود ؟ » فلم تجب . فأخرج من جيبه نقوداً ومد يده قائلاً : « خذى هذه واقضى الليلة فى فندق ... و ... تعالى إلى فى الغد ، وأنا أنظر فى أمرك » . فأبث الفتاة أن تأخذ النقود وغادرت الحجرة

عندئذ نادى سيدة الدار قائلة : « إدريس ؟ » ، فجاء الخادم النوبى . قالت : « لا تدع الزائرة تخرج ... أدخلها حجرة الاستقبال ... أغلق الباب » . ثم التفتت إلى قرينها وقالت : « ماهذه القسوة يا عزيزى !

إلى غيرها بأول واجباتها وأسمى وظائفها . ولكن حدث أن دعيت للاشتراك فى جمعيات نسوية فلبت داعى الجهاد فى ميدان النفع العام . ولم يكن ذلك فى المبدأ ليشغلها عن أطفالها ، أو يستنفد من وقتها إلا يسيراً . ولكن نشاطها الاجتماعى نما وتشعب ، وصار يشغل من وقتها بضع ساعات فى أكثر الأيام . تضطر فيها إلى ترك بنيتها فى رعاية خادمت جاهلات . لذلك رغبت فى استخدام مربية متعلمة تنتقيها بعناية وتشرف على عملها ما استطاعت .

أما موضع الدهشة فهو أن هذه الرغبة لم تخطر ببالها إلا يوم أمس ، ولا يعلم بها أحد سوى قرينها الذى لم تفتح فيه إلا ليلة أمس ، ولم يتفقا بعد على التنفيذ . فمن أين جاء الفتاة علمها ؟! أكررت السيدة على الأنسة السؤال ، ولجت الأنسة فى الارتباك .

قالت السيدة : « اسمحى لى ... برهة ... » ثم غادرت الحجرة ، ودخلت على قرينها فى حجرة مكتبه ، وهو مكب على أوراق يستعرضها ، فقد كان مديراً لشركة هندسية وزعيماً اقتصادياً كبيراً .

قالت : « عزيزى ! ... هل أعلنت عن حاجتنا إلى مربية ؟ » قال : « لا » قالت : « ألم تخاطب أحداً فى هذا الشأن ؟ » قال : « لا » قالت : « شئ غريب ! ! » قال : « ماذا ؟ ! ! » فروت له حديث الفتاة .

فتبسم البك وقال : « لا بد أنك حادثت أحداً فى هذا الأمر ولا تذكرين » فهزت رأسها بالنفى المؤكد ، وكان البك يعرف أن قرينته تعنى دائماً ما تقول .

قال البك : « لعل الأنسة طرقت بابنا مصادفة للسؤال عن عمل » قالت : « إنها لم تسأل ...

جثت السيدة بجوار الأنسة تقلب فيها وتمجس نبضها ، ووقف البك لا يفعل شيئاً . بل لقد خطر له أن الأمر كله رواية مدبرة وهذا فصل منها . قال إدريس : هل أدعو الإسعاف يا سيدي الباشا ؟ . و (الباشا) هو اللقب الذي اعتاد إدريس أن يمنحه لسيده . فلم يجبه سيده بشيء ، وأشارت إليه سيده أن احملها ، وتقلوها إلى حجرة نوم ، وطفقت السيدة تسعفها بما في مقدورها دون أن تفيق

قال إدريس : « هل أدعو الإسعاف يا سيدي الهانم » . قالت سيده : « لا... بل استدع الدكتور فلان ... بالتليفون ... أسرع ... »

وحضر الطبيب ، فلما فحص المريضة هن رأسه في يأس ، ثم طفق يعالجها بالحقن والأشربة المقتوية والمنبهات والتدليك وقتاً طويلاً دون أن تفيق . قال الطبيب : « لا أملك ياسادتي أن أمكث أكثر من ذلك ، ولكن أرى المريضة بحاجة إلى عملية فنية متواصلة مما لا يتيسر إلا في مستشفى ، وحيث أنها زائرة مجهولة لكم فالرأي عندي أن تنقل إلى قصر العيني بواسطة الإسعاف »

فتقدم إدريس ليلتقي الأمر باستدعاء الإسعاف . ولكن الطبيب مضى يقول « غير أنني أصرحكم القول بأن نقلها شديد الخطر على حياتها . والحل الآخر هو أن أذهب أنا ، وأبعث إليكم بمرضة مزودة بما يلزم من التعليمات والأدوية فتسهر عليها حتى الصباح » قالت السيدة : « ليكن ذلك يادكتور » وذهب الطبيب ، وجاءت الممرضة .

وهم السيدان بالذهاب إلى الفراش فقالت الممرضة « أرجو يا سيدي الهانم أن يكون أحد الخدم على مقربة مني طول الليل ، فقد أحتاج بعض أشياء » قالت

فتاة ضعيفة ، نحيلة الجسم ، رقيقة الثياب ، مشردة في هذه الليلة الباردة ، تهيب بنا أن نؤويها ، فندفع بها إلى الشارع ولدينا سعة لميت عشر مثلها ؟ » قال قربنها : « مهلاً يا عزيزتي ! ألا ترين في أمر هذه الفتاة ما يدعو إلى الريبة ؟ نحن لا نعرف من أمرها شيئاً ألبتة ، وهي تأتي أن تقول أي شيء عن أمرها ، وكل احتمال بشأنها جائر عندي . وحتى لو صدق ما قالت من أن أخاها طردها فأكبر الظن أنها أنت أمراً إذاً حمل أخاها على طردها في هذه الساعة من الليل »

قالت : « قد يكون شيء من ذلك . ولكن ألا يجوز أن الفتاة سليمة النية ؟ »

قال : « هذا جائر أيضاً . ولذا قدمت إليها نقوداً لتأوي إلى فندق ، ودعوتها للعود في الغد لأتعرّف أمرها في فسحة النهار » . قالت : « قلبي يحدثني أن هذه الفتاة تستأهل العطف . إن لي حاسة سادسة تمكنني من الحكم على الأشخاص حكماً صحيحاً دون استدلال منطقي » . فتبسم البك وقال : « أنا يا عزيزتي لا أعرف شيئاً عن هذه الحاسة السادسة ، وليس لي إلا خمس حواس فقط بعضها في غاية البلاهة وليس لما جزم مثلي إلا التعويل على المنطق والمقول . أنا لا أرتاح مطلقاً لميت هذه الفتاة هنا الليلة »

وفي هذه اللحظة انبعث من الردهة صوت رضى ثم طرقت باب الحجرة بلهفة ، وفتحها الخادم إدريس قبل أن يؤذن له ، وصاح : « النجدة يا سيدي ... الزائرة سقطت في الردهة مغشياً عليها »

فنهض السيدان وخفا إلى الردهة . ومشى إدريس في إثرهما يقول : « دعوتها إلى حجرة الاستقبال فأبت ، وظلت واقفة ، ثم سقطت هكذا »

الهانم : إدريس ! إمسهر مع السيدة إلى الصباح ،
وناولها ما قد يلزم » ثم انصرفت .

ومضى إدريس مهموماً ، فجاء بكرسيه الخشبي
ووضعه على باب الحجرة ، وهو يزجر بلهجته النوبية
قائلاً : « ليلة طويلة بتاعتو . چاي منين البلاوى دى »
وأصبح الصباح فبادرت ربة الدار بالسؤال عن
المريضة . قالت الممرضة : « إنها كما هي ، ولكنها
تنهت بضع دقائق أثناء الليل ، فأردت أن أحادثها
فلم أجد ما أقول إلا السؤال عن اسمها ، فقالت إن
اسمها عذرية ، وهو اسم لم أسمع به قبل اليوم ياسيدتى
الهانم » .

وفي مساء ذلك اليوم اجتمع بحجرة المريضة
ربا الدار ، والطبيب . قال الطبيب : « إني متحير
في مرض هذه الأنسة ، وأرى عرضها على فلان باشا »
وأسمى نطاسيا مشهوراً ، وأستاذاً كبيراً . فوافقت
ربة الدار على استدعاء الباشا ، وأصرت عليه .

وجاء الباشا ، فلما فحص المريضة قال « هبوط
عام ، ولكنه ليس خطيراً ، وسأصف لها دواء أعتقد
أنه سيشفيها » وبينما هو يكتب الدواء رنا إلى الأنسة
وقال : « لقد رأيت هذه السحنة مرة ، ولكنى
لا أذكر متى ولا أين » وأنتم وصف الدواء ، ثم سأل
عن اسم المريضة فقالوا : « عذرية » قال رب الدار
« اسم غريب ياسعادة الباشا » قال الباشا : « نعم
غريب ، ولكن الأغرب منه أنى سمعته مرة ورأيت
هذه السحنة مرة ، ولكنى لا أذكر متى ولا أين »
وظفق بفرك جبهته مكرراً « متى ١؟ . وأين ١؟ »
ثم قال « لا أذكر » ونهض مستأذناً في الخروج .
ورجاه رب الدار أن يتناول القهوة ، وكان
الخادم قادماً بها ، ثم جلسا يحسبانها ويتحدثان في
شئون عامة .

وجاءه وضع الباشا قدحه في الطبق قائلاً :
« تذكرت ... تذكرت تماماً ... أتعرف يا سيدتى
البك فلاناً الأديب الشاعر الذى توفى منذ بضع
سنين ؟ ... جاء إلى عيادتي ذلك الرجل الفاضل رحمة
الله عليه ، منذ نحو عشرة أعوام ومعه ابنة له فى نحو
الخامسة عشرة ، وقال إنها مصابة بمرض عصبي ،
ففحصتها ، فلم أجد بها مرضاً عصبياً ، بل وجدت
ضعفاً عاماً فقط ، وعالجتها حتى شفيت ، وكان اسم
الفتاة عذرية ، وهى هذه بعينها ، فقط كانت تلبس
على عينيها عوينات » فأشار رب الدار إلى عويناتها
وكانت على نضد بجوار الفراش

وتعجب الجميع من هذه المصادفة

قال البك : « وما الذى حمل أباها على الظن بأن
مرضها عصبي ؟ » قال الباشا : « سألته فى ذلك ،
فقال إنها تذهل أحياناً ، ثم يبدو كأنها حجب الغيب
تكشفت أمامها ، فتقول مثلاً : إن فلاناً قريبنا فى
مكان كذا يعمل كيت وكيت ، أو ترشدنا إلى شىء
نبحث عنه ، أو تنصحننا فى بعض الأمور » قال :
« فطأنت الرجل وأفهمته أن مرضها قد زال ،
أما هذه الحال فلا خوف منها وهى طبيعية »

قال البك مندهشاً : « ... طبيعية ! »

قال الباشا : « نعم . هى خاصة نفسية معروفة ،
تتجلى واضحة فى بعض حالات النوم المغنطيسى ،
وتنشأ ذاتية عند بعض الناس ، ويمكن إرهافها
بالتصوف ، وقد عرفت فى كل العصور ، وبلغت
أوجها فى الأنبياء »

قال البك : « اغفر تطفلى يا باشا ولكنى بحاجة
إلى زيادة إيضاح »

قال الباشا : « أنت تعرف يا سيدتى البك أن
ماندركه بحواسنا الخمس وبالأجهزة العلمية التى اخترعت

في مدى قرنين أو ثلاثة ، لا يعد قطرة في محيط هذا الوجود ، فاعلم ياسيدى أن في الناس شواذ يستطيعون الحس ببعض ما لا ندركه بالحواس ولا بالأجهزة العلمية المعروفة حتى الآن ، كأنما وهب هؤلاء الناس حاسة سادسة أو امتداداً في حواسهم الخمس »

قال البك : « إن قولاً كهذا من عالم كبير مثلك ياسيدى الباشا يفتح الباب واسعاً أمام الدجالين والشعوذين » قال الباشا : « إني أقرك على هذا مع الأسف الشديد ، فادعاء هذه الخواص للتغريب بالجمهور أمر ميسور ، والذين يرتزقون من هذا السبيل في مجموعهم محتالون أدياء ، ولا حيلة إلا أن يبطش بهم القانون بلا استثناء » قال البك : « ألا ترى أن الأولى إنكار هذه الخواص كلية لقطع السبيل على الدجالين ؟ » قال الباشا : « قد يكون ذلك ولكن الحقائق الثابتة لا تنكر ، ثم إن إنكارها لحماية الناس من الدجل قد يجر إلى ما هو شر من الدجل فهو يمهّد للهزء بكرامات الأولياء واعتبارها خزعبلات ، ثم إلى إنكار النبوة نفسها واعتبارها دجلاً ، ثم إلى الإلحاد المطلق »

قال الباشا ذلك ونهض مستأذاً ، وودعه رب الدار إلى سيارته بالتجلة

تمثلت المريضة للشفاء بسرعة بفضل دواء الباشا وتولت مهمتها في المنزل كريمة ، وأنس أهل البيت فيها الدكاء وسمو الخلق والتقوى ، فازدادوا اطمئناناً إليها يوماً بعد يوم

قال البك ذات يوم لقرينته : « ألم تروك الآنسة شيئاً من ماضى حياتها ؟ » قالت السيدة : « لم أفاتها في ذلك فقد يكون فيه ما يؤلمها » فاستدعاها البك وقال : « نحن لم نعهد عليك سوءاً فما الذى أغضب أخاك عليك ؟ » فأطرقت الفتاة قائلة : « عفا الله عن

أخى » ومضت تقول : « لما توفي أبواي كنت في مرحلة التعليم الثانوى ، وكان أخى قد نال شهادة عالية وألحق بوظيفة حكومية هامة ، ولم يترك والداي أى مال ، فانقطعت عن الدرس ، وعشت من مال أخى في منزله . ثم وسوس الشيطان لأخى فبدأ يستغل سلطة وظيفته في الحصول على منافع مادية ، وأحسست إحساساً خفياً بأن الرزق غير نقي ، وكان والدى منذ وفاته يتمثل لى في بعض غفواتى وأشاهده مشهدة أشد وضوحاً من مشاهدات اليقظة ، وجاءنى أبى يوماً فقال : « نبهى أخاك إلى سوء المصير الذى ينتحدر إليه . إنه سيفلت من بطش القانون في حياته الدنيا ، وهذا من سوء حظي ، فالويل الذى ينتظره في أخراه لا يوصف »

قالت : « فأبلغت ذلك لأخى حرصاً على صالحه ولكنه غضب ، وحقد على حقدٍ شديداً ، وتغيرت معاملته لى . إلى أن كان فجر اليوم الذى جئتكم فيه فتمثل لى أبى وأخذ يبدى ، وقال : « تعالى مئى » ثم أحسست أننا ننتقل ، وإذا بنا نخلق في أجواء منعشة ، وأنوار بهيجة ، ونشرف على رياض ناضرة وأشجار صافية ، ومساكن طيبة ، ومشاهد لا تصور جمالها ريشة أى فنان ، ولا تتسامى إليها أحلام أى شاعر ، وثمة رجال ونساء كلهم في ميعه الصبا ، وعلى أقصى غاية الجمال . قال أبى : « هنا الفردوس ، وإلى هنا يأتى كل من قضى حياته الدنيا عاملاً لإسماد البشر ، ساعياً بنفسه وبهم إلى التسامى . إني أقيم هنا يا ابنتى ، وما كنت أحلم أن جهودى المتواضعة تستحق عشر معشار هذا الأجر » قلت : « يا أبى هذا العالم حقيقى محسوس ، وهو موجود في سماء الوجود ، فما بالنا على الأرض ننظر فلا نراه ؟ » قال : « إنه في الآثير . إن كل أشياء هذا الكون

حالا أفضل من حاله فيا لطول حسرتة وعذابه وبعد الشقة التي تنتظره حتى يصعد إلى أرض النعيم»

وأشار إلى ناحية وقال : « أنظري ! هنا يقبع الذين كانوا يرتشون ، يخونون الأمانة ويفسدون الخلق ، ويمطون الحقوق لغير أربابها ويفوتونها على أصحابها . وأشار إلى أحدهم فرأيتة يلطم خده ، ويمزق جلده ويقطع شعره ويبكي بدمع سيخين ويندب قائلاً : « ويلي ! ويلي ! والله لو أوتيت ملء الأرض ذهباً لافتديت نفسي به ولو ساعة واحدة مما أنا فيه »

ثم أخذ بيدي وأحسست أننا نصعد ، وإذا بي في حجرتي ، قال أبي : سأتركك الآن على أن تصفي لأخيك ما رأيت . إن كلامك قد لا يفيد ولكن افعل ... ثم اختفى وعدت إلى نفسي

قالت الآنسة : فانتظرت حتى عاد أخي في المساء وقصصت عليه ما رأيت . فعبس وبسر ، ومن على إعالي وإطماي ، وأقسم عينا غليظة ألا أمكث في منزله بعد ذلك لحظة واحدة . فجمعت ملابسي وخرجت حائرة لا أعرف أين أذهب . وإذا بهاتف يقول : أنظري أمامك ، فنظرت فرأيت هالة من النور ، قال الهاتف : تنبئ هذا النور ، فتبعته حتى صرت أمام هذا المنزل ، وافتقدت النور فوجدته على باب سور الحديقة ، ثم سمعت الهاتف يقول : « ادخلي هنا فهم بحاجة إلى صربية أطفال »

وسكنت الآنسة ثم أطرقت وعيناها تدمعان فمضت الشهور والسنون والآنسة كأنها فرد من أفراد الأسرة وأحبها كافة من المنزل ، حتى أن إدريس نفسه بدأ يشعر نحوها بحب واحترام خالصين . ولم يعد يسميها « البلاوي » بل تعلم أن يقول « السيدة عذرية »

عبر المفتي علي حسين

حتى المادة التي تحسونها إنما هو موج في الأثير ، ولكنكم لا تحسون إلا صنفاً واحداً من الموج وهو المادة

ثم أخذ بيدي . وأحسست أننا نهوى في سرعة وإذا بنا على أرض جرداء لا نبت فيها ولا شجر ، مظلمة الأجواء ، فيها أكواخ عاطلة من كل زينة ورجال ونساء عليهم سيما الفقر والقنوط ، قال أبي : « نحن بالقرب من سطح الأرض ، وإلى هنا يأتي الذين لم يهتموا في حياتهم الدنيا بغير نفوسهم ، ولم يصب العالم منهم خيراً ولا شراً . إن حوامهم الروحية ميتة ، وكيانهم الروحي كثيف » قلت : « وهل يظنون هكذا ؟ » قال : « نعم . إلا من بدأ يشعر بما فوت على نفسه من فرص فيعضه الندم وتحرقه الحسرة ، وهذا العذاب يوقظ من خواسه الروحية ، وينقص من كثافته ، فيرتفع في بطاء وعناء إلى عالم النور »

ثم أخذ بيدي ، وأحسست أننا نهبط ، ولكن في صعوبة وبطاء ، فقد كان الجو كثيفاً قائماً وازداد الجو كثافة وقتاماً ، وصار حاراً كريهاً خانقاً لا يطاق قال أبي : « أنعمي النظر » فإذا بي أرى أشباحاً مروعة ، ليس فيها من الصورة الأدمية إلا أثراً ، وجوه شوهاء وأطراف طويلة وعيون جاحظة وأجسام من ظلام ، فيها المنبجج حتى التكور والأعجف حتى العظام . قال أبي : « هنا الذين اجترحوا السيئات قد رسبوا إلى الحضيض ، وحشدوا معاً ينهش بعضهم بعضاً ، ويسخر بعضهم من بعض ، ويوسوس بعضهم إلى بعض وإلى من على شاكلتهم من أهل الدنيا . أكثرهم لا يؤمن بالله ، ويعتقد أن ليس في الوجود إلا هذا الذي هو فيه . أما من أحس منهم بخيئته وبواره ، وأدرك أن في الوجود

حَلَجِي بَابًا إِصْبَهَانِي

لِلْكَاتِبِ الْإِنْجَلِيْبِي جَمْرُ مُورٍ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ عَبْدِ الْطَيْفِ النَّشَارِ

الفصل الخامس والستون

تجارة الفلانيين . حب ابنة عثمان أغا

كان منزل عثمان أغا يقع في حارة ضيقة تتصل بالشارع الموصل إلى سوق من أكبر الأسواق في المدينة، ورأيت أمام باب المنزل كثيلاً من القاذورات عليه عدد من الدجاج وبعده كتيب آخر عليه كلاب صغيرة تحرسها أمها، وكان عواء هذه الأجراء خليقاً بأن يمنع الطمانينة والهدوء عن النفس، وبين هذين الكتيبين باب منزل عثمان أغا الذي دخلنا منه، وكان المنزل بناء صغيراً يحتوي على حجرات قدرة لا أثر للنظافة فيها ولا يتم شكلها عن نعمة وثرأ . ولم يكن لدى من المتاع غير سجادة صغيرة فانتقلت من الخان الذي نزلت فيه إلى منزل الأغا، وجعلت مقامى في ركن من أركان حجرته الخاصة ووضع هو فراشه بجانبى ونام بجوارى

ولكى يحتفل بي عثمان أغا ذبح لي كبشاً وسواه وأحضر لي صحناً من الأرز وأضاف إلى ذلك بلحاً وجبناً وبصلًا، وقد جهزت ذلك الطعام زوجته نفسها وابنتها تساعدانها جارية ليس في المنزل سواها من الخدم؛ ولم أكن إلى تلك اللحظة قد رأيت واحدة منهم إذ وصلنا إلى المنزل في الظلام . ولم يكن من حسن الخلق أن أسأل عثمان عنهن إلا بقدر ما يسمح هو بإخبارى

وشاركنا في المأدبة تاجر جلد دعاه عثمان أغا للحضور، وكان قد عرفه في رحلاته في بخارى . ودار الحديث في الشؤون التجارية التي كنت أجهلها ولذلك لم أشترك فيه إلا ما ندر، فرغم إرادتى الشديدة في التحدث مع الرجل عن تلك الشؤون اكتفيت بأن أنصت إلى كل ما يقال، وجلست أسمع مناقشة في التجارة تدور بينهما وقد حذراني من الاتجار في الجلد وشجماي على شراء الفلانيين للتبغ لأن سوقها في ارتفاع ولأنه لا ينتظر هبوط أسعارها

انتهت الوليمة وذهب الضيف وقد شغلنى ما سمعت حتى لم أعد أفكر إلا في الفلانيين وفي الاتجار بها . وجلست طول اليوم في ركن هناك أحسب كم غلبونا بتبائعها طومانانى وكم أربح من بيعها في الآستانة . وحين وصلت بخيالى إلى تلك الثروة التى ستهبط على من تجارة الفلانيين قلت في نفسى : « ما أربحه منها أبتاع به تيناً من أزمير وأذهب به إلى أوربا، وهناك أبيعها بأثمان باهظة أحصل منها على ربح وافر، ثم أشتري طرايش أحملها إلى القاهرة وأبيعها هناك فيجتمع لدى مال كثير أضعه في أكياس وأذهب به إلى الحبشة فأشتري منها عبيداً وإماء أبيعهم بأثمان غالية في اليمن ومنها أشتري بنات وأعود به إلى إيران فأنال ربحاً كثيراً ثم أستريح في موطنى الأصيل إلى أن أتمكن من شراء منصب من مناصب الدولة قد ينتهى بي مع الزمن إلى رئاسة الدولة في حكومة ملك الملوك

وحين رتبت أمورى على هذه الكيفية شرعت في تجارتى بعزيمة ونشاط، وبعد أن تخيرت أحسن

ورغم ما أصبت به في وجهي من التشويه فقد رأيت أنني أصبحت فتنة في نظر « ديلارام » وفي قلبها . و « ديلارام » الجميلة هذه هي ابنة عثمان أغا التي لم تترك وسيلة إلا اتبعتها لتفهمني شعورها بحوي . وكانت هي وأمها على دراية تامة بعلاج هذا المرض الذي أصبت به ، فأخذتا تعنيان بي وتمرضانني وكأنما كانت قرحتي وحب ديلارام لي . كأنما كان الأمران على موعد فقد ظهرا معاً وتقدما معاً . وفي الوقت الذي بلغ فيه مرضي أشده بلغ حب ديلارام درجة لا تطاق . والحق أقول إن عدوى ذلك الحب لم تصبني إذ كانت فانتني صورة صحيحة من والدها وكنت لا أستطيع أن أميز وجه أحدهما من وجه البعير . وكنت كلما نظرت إلى وجه « فانتني » انقبض صدري وتدفقت إلى مخيلتي الأفكار السوداء . ولذلك تلقيت خبر اجتماع القافلة للذهاب إلى القسطنطينية بسرور وانشرح . وجمعت غلاييني وربطتها ودفعت أثمانها واشترت ملابس السفر . وكم كان سروري حين أعلن أن القافلة ستتحرك عند أول فرصة . مسكينة تلك الفتاة ديلارام ! لقد جعلت تنظر إلى خدي المصاب نظرة يأس ، وما كاد يذهب الورم عن خدي وفك آخر الأربطة عنه حتى حسبت أنها فكت كل قيد كان يمنعها من الابتهاج والسرور

الفصل السادس والستون

في طريق القسطنطينية

بدأت القافلة مسيرها في طريق القسطنطينية في صباح يوم من أيام الربيع وجلست فوق حمل من أحمالي ومساثرها حولي ، وكنت أنظر إلى القافلة نظرة ارتياح وأصني إلى أجراس البغال كما لو كنت أصني إلى نغمات الزمار

الطرق وأفضل الوسائل تعاقدت مع خطاب على أن يذهب إلى جبال « لور » وهناك يجد غابات من شجر يصنع منه الفلايين فيتخير منها أصلحها ثم يعود إلى بغداد حيث تجهز وتصنع لها المباسم وتصدر إلى تركيا وعلى هذا النظام سرت ولكن في أثناء انتظاري رجوع الخطاب أصبت بمرض لا يسلم منه المقيم في بغداد فضلاً عن الغريب الزائر ، وانتهى بي ذلك المرض إلى قرحة حين تجف تترك وراءها أثراً خبيثاً في الجلد يطلقون عليه اسم « أخت بغداد »

وكانت قرحتي في وسط الخد الأيمن فوق نهاية شعر اللحية . وهناك تركت أثرها الخبيث بعد أن نخلت جزءاً من الشعر وتركت بقعة قبيحة الشكل زرية المنظر . وتحملت تلك البلوى بصبر وجلد رغم ما كنت أشعر به أحياناً من الضغينة على القدر والحد على الحظ لاختيار ذلك المكان من وجهي وكان لها أن يختاراً من جسمي أي مكان آخر . ثم تنهدت وقلت لنفسي : « فليكن ما أراد الله ؛ فلو خير كل حجر لا اختار أن يكون ماساً ، ولو استشير كل رجل في مكان قرحته لما رأيت وجهاً قبيحاً في بغداد

ثم عزيت نفسي قليلاً بأن وجه عثمان أغا لا يعدله وجه في الدمامة والقبح رغم أن قرحته لم تصبه في وجهه . وقد سر عثمان أغا من مصيبتى بدلاً من أن يعزبني ويشاركني في الألم فقد قال لي : « إذا لم يصبك في حياتك يا حاجي بابا غير هذه القرحة في وجهك فعدّها نعمة من الله . نعم لقد شوّهت نصف الوجه ولكن النصف الآخر بقي سليماً بحمد الله »

فقلت في نفسي : « بئس هذا الرجل ! إن قبيح الصورة لا يطبق رؤية الحسن كما لا يطبق خيار الناس أشرارهم »

موطني الأصلي فإذا بي أرى ما لا عداد له مما يفضل
النظر فيه . ولئن كانت أصفهان نصف الدنيا فهذه
المدينة هي الدنيا بأجمعها ! وأين من هذه المباني الفخمة
مباني أصفهان ؟ هنا مبان مقامة على ساحل متعرج
جميل وهي تطل على الماء الأزرق الزجاج ، وهناك
مبان أحاطت بها الجبال الجرداء

ولاتساع المدينة وجمالها ووقوعها على ضفاف
البحر تظهر كأنها منعكسة على سطح مرآة فيتضاعف
اتساعها ويكثر رونقها وجمالها . ولئن أردت وصف
كل ما في المدينة من جمال يسحر النظر ويغلب اللب
فلست بمتمته أبداً ... آلاف من القوارب المختلفة
الأشكال والأحجام تسبح على سطح الماء ، وبوارج
لسارياتها شكل الغابة ملأت ذلك المرفأ الجميل وجعلت
للميناء شكلاً رهيماً

قلت لواحد ممن كانوا حولي : « والله هذه جنة
فليتني لا أفارقها ! » ... غير أنني ما فكرت فيمن
بأيديهم هذه الجنة ولا في العداوة التي بين قومي
وبينهم ؛ ولما فكرت في ذلك ذكرت أنهم قوم
لا تصلح لحام مكانس لأبناء وطني ، وشعرت بتزلي
العظيم وبوضعي من قدر نفسي باختلاطي وإقامتي مع
هؤلاء القوم . وخرجت من تأملاتي بتعزية واحدة
تعزيت بها ، وهي أن هؤلاء القوم الذين أراد الله أن
يتمتعوا بتلك الجنة ويمرحوا في جنباتها في هذه الدنيا
لهم يوم رهيب تصطك منه القرائص وتنخلع من
هوله القلوب وهو آت لا ريب فيه

بعد أن انتهينا من الأعمال التي لا بد منها
في الجرك ركبت أنا وأصحابي زورقاً أقلنا من
أسكوتاري إلى دار السعادة ونزلنا بمناجرتنا وأمتعنا
في خان يؤمه تجار إيران واقع في الجزء المتوسط من

وكان فراشي معقوداً إلى سرجي وقد حسبت
نفسى تاجراً عظيم القدر مغبوط الحال . ورافقتني
في رحلتي عثمان أغا وصاحبه تاجر الجلود البخاري
الذي تشرفت ببقاءه في الولية وتاجر أو تاجران من
تجار بغداد . ورأيت فضلاً عن هؤلاء كثيراً من
مواطني من بلاد مختلفة يقصدون إلى الآستانة في
أعمال تجارية وفيهم من كنت أعرفه من قبل

وكانت قصتي مع المرحوم شيخ العلماء قد نسيت
تماماً ؛ وقد جعلتني ملابس التي اخترتها لهذا السفر
والمرض الذي أصاب خدي أظهر بمظهر أهل بغداد
حتى لم أعد أخشى كثيراً أن يتم شكلي على أنني
إيراني . ولا أريد أن أتعب القاري بوصف مسهب
لما حدث أثناء مسيرنا في تركيا وهو يتلخص في خوفنا
من اللصوص وزراعنا مع البغالين ونزولنا في الخانات .
ويكفي أن أقول إننا وصلنا إلى مقصدنا في سلام ، غير
أنني لا أستطيع إخفاء شعوري عند مشاهدتي
للآستانة

إنني كإيراني أصفهاني كنت معتاداً أن أحسب
بلدي الأصلية خير بلاد العالم وأرقاها فلم يخطر ببال
قط ولا دار بخدي أن بلدة أخرى يمكن أن توازن
بها حتى لقد كنت أضحك مستهزئاً ممن يصف عاصمة
أرضروم بما يفوق بلدي حسناً . ولكن أية دهشة
استولت على وأي ذهول شملني حين رأيت لأول مرة
تلك المدينة الضخمة

كنت أحسب أن مسجد أصفهان الشاهاني
البنى في الميدان الأكبر أضخم مباني العالم وأحسنها
فإذا بي أرى هناك مائة مسجد أعظم وأفخر مما كنت
أحسب وكل مسجد يفوق الآخر حسناً وبهاء
لم أكن أظن أن مكاناً أوسع وأرحب من

عن صداقة الأتراك؛ ولكن مواظني من الإيرانيين كانوا فضوليين وكانوا يشعرون بالإهانة عند أقل إعراض عنهم فلم يلبثوا حتى عرفوا من أنا ومن كنت . ثم جعلوا ينظرون إلي نظرة لا تنطوي على شيء من الاحترام . وعلى أية حال فقد اجتهدت أن أعيش على وفاق معهم ، وتركوني أسلم من شرهم ما دمت لا أنازعهم في أي شأن من شئون التجارة وكنت أعلن عن نفسي في محال اللهو العامة أنني من أغنياء بغداد وقد أكد قولي وألبسه ثوباً من الصحة أثر العلة التي انتابتنى والتي كنت أعدها مصيبة عظمى قبل أن أجنى بسببها الريح

ولم أجد أسهل من غش الأتراك وخداعهم بالمظاهر الخارجية ، وحاكيهم في سلوكهم ووقارهم وفي سلوكهم الهادي الرصين حتى وفي مشيتهم البطيئة وألفاظهم المرتبة ؛ وقد رجوت أن أتقن كل ذلك في وقت قصير حتى إذا ما تم لي ذلك اندمجت فيهم وكنت أكثر من ذكر الله بصوت خافت ضعيف ومن عد المسبحة حتى كنت أستقبل في المقهى الذي كنت أرتاده بكل احترام وتمظيم

وكان صاحب المقهى يصنع قهوتي بيده ويصحبها بحركة فنية ولم ينس مرة أن يرحب بي ويلقبنى بلقب أغا . وقد بلغ من نفوذي على القوم وعظم قدرتي في نفوسهم أنه إذا حدثت مناقشة حادة أو جدال عنيف في المقهى عن الخيل أو الكلاب أو السلاح أو التبغ (وهي الأشياء التي تدور حولها مناقشاتهم) كان يشار إلي بالبنان ويكنى أن تلفظ شفتاي كلمة « نعم » أو « لا » لكي أنهى الجدل فيعود الحديث إلى ما كان عليه

المدينة وعلى مقربة من أسواقها ، وقد شعرت أنني ضئيل لا قيمة لي عندما فكرت في أنني لست إلا فرداً واحداً بين تلك الجموع الهائلة التي تنساب في طرق المدينة ليل نهار من غير انقطاع ، وحين شاهدت النفائس الغالية تملأ المخازن ، والملابس الفاخرة يرتديها كل ساكن ، والنبلاء والأغوات على صهوات الجياد الطهمة لا ينقطع لهم مرور ولا يقف لهم تيار ، ونهدت محدثاً نفسي : « أين من عظمة القسطنطينية وجلالها وأبهتها وغناها فقر إيران المدقع وفاقها الشاملة ؟ »

ثم استأجرت مع عثمان أغا حجرة في الخان الذي أودعنا فيه بضائعنا وجعلت أثناء النهار أفرش غلاييني على أحد الأرصفة ، ولجودة بضاعتي ورخص أثمانها أخذت أبيع كميات وافرة وأحصل منها على ربح عظيم ، وجعلت لما رأيت المال يعود إلي جيبي ثانية أمتع نفسي بملاذ لم تكن تخاطر لي على بال من قبل : جعلت نفسي بملابس أكثر حسناً وهنداماً وابتعت شُبُكاً جميلاً ونحزمت بشال له ألوان زاهية

واشترت كيساً حريراً للتبغ ولبست حذاء أصفر لامعاً وحملت خنجرأله بريق يخطف الأبصار كنت محاطاً بكل ما يدعو إلى الإنفاق ويفرغ بالتبذير ، وبدأت أنظر إلى ما في الحياة من مباحج وملاذ - نظرة المتعلق المشغوف ؛ وكان بالمدينة محال كثيرة أستطيع أن أظهر فيها أمام الجماهير بشكلي الأنيق ولم أحجم عن ارتياد المقاهي الغاصة بالناس أجلس على دكة عالية وأتكي على وسائد ناعمة وأدخن في غليون وأرتشف القهوة كأحد أفراد الطبقة العليا وقد علمتني الحوادث وما قاسيت في إيران أن أحذر أبناء جلدتي وأتجنبهم فتجنبتهم وجعلت أبحث

الفصل الخامس والستون

حادثة هاجي بابا مع أرملة الأمير

ظلت أعيش كما وصفت مدة من الزمن إلى أن لاحظت في ثلاث ليال متوالية حوالى الغروب أثناء خروجي من المقهى أن امرأة عجوزاً تقف في ركن من زقاق ضيق تجاه المقهى وتحدق في وجهي وتظهر عليها الرغبة في محادثتي، وكانت بين كل آونة وأخرى تنظر إلى نوافذ المنزل الذي اتخذت بأسفله المكان الذي تقف فيه ثم تدعى بعد ذلك أمراً في طريقى . لم أعرها شيئاً من الاهتمام أول مرة فإن وقوف سيدة عجوز في ركن من أركان زقاق صغير ليس بالأمر الذي يدعو إلى الاهتمام أو الملاحظة، ولكنني دهشت في المرة الثانية وانتهت إلى نفسي، وأثارت المرة الثالثة عجبى وريبتي، وصممت في رابع ليلة إن أنا وجدتها في مكانها أن أعرف مقصدها . وعلى ذلك لبست أنفخ ملابسى معتقداً أن جمال طلعتي وحسن حظي كفيلاً، بوقايبي ثم خرجت من المقهى ومشيت متمهلاً مختلاً إلى جهة تلك السيدة الغريبة، وكنت على وشك لقاءها إذ فتحت نافذة من نوافذ المنزل فجأة ورأيت وجهاً نسائياً ساحراً أمام ناظري وكان آية في الجمال والحسن وفي يد صاحبتها وردة أدنتها من وجهي ووضعها على فؤادها ثم ألقتها إلى وأغلقت النافذة بسرعة مدهشة حتى لقد ظننت أن ما حدث كان خيالاً ظهر ثم اختفى

ظلت واقفاً فاتحاً في ناظر آ إلى النافذة حتى شعرت بيد العجوز تجذبني من كمي وقد التقطت الوردة وناولتها لي فالتفت إليها وقلت لها : « ما هذا بالله عليك ! أمن الإنس ذلك الوجه الصبيح أم من الجن ؟ »

فأجابتنى تلك العجوز : « ألا تزال غراً فلا تعرف معنى إلقاء هذه الوردة إليك ؟ إن لك ذقناً طويلة ولست غلاماً ؛ ويظهر أنك سافرت كثيراً وتغربت ولكنك إن كنت لا تعرف ماذا تقصد السيدة من إلقاء وردة إليك فقد سافرت بلا نتيجة ولم تعلمك الاغتراب والتجارب شيئاً »

فقلت لها : « بلى، إنني أعرف أنها تريد القرب وتعني المحبة والائتلاف وتشير إلى أن رأسينا يجب أن ترفعهما وسادة واحدة : تعلمت هذا من أسفاري وتجاربي ولكن الأسفار والتجارب علمتني فوق ذلك أن أمثال هاتيك الحوادث لها مالها من خطر وضرر وأن رأسينا قد تقطعان بدل رفعهما على وسادة واحدة »

فقلت محدثتي متأثرة منفعلة : « لا تخف شيئاً . أقسم لك بجرمة نبينا الكريم إنه لا خوف عليك ولا ضرر . إننا قوم عظام وقد تفوتك ثروة إذا لم تقبل ما أعرضه عليك . هل وصل بك الحق والغبابة أن تخشى الأوهام وتخاف الظلال ؟ إن خوفك لا أساس له »

فقلت لها : « حدثيني من هذه السيدة التي رأيتها وماذا يجب أن أصنع ؟ » فأجابتنى : « لا تتعجل كثيراً . لا يمكن أن يتم أمر في هذه الليلة وعليك بالصبر فإن الوقت والمكان غير ملائمين . قابلني غداً وقت الظهيرة عند مقبرة أيوب وستعرف كل ماود معرفته . سأكون جالسة على قبر أول أمير على يمينك ويمكنك أن تميزني عن سائر النساء بشال أحمر تراه على كتفي الأبيض فاذهب الآن والله معك ! »

وافترقنا على ذلك فرجعت إلى حجرتي في الخان أفكر فيما حدث ولم أشك في أن خيراً ينتظرني، غير

أننى كنت أسمع عن غيرة الأزواج الأتراك قصصاً عجيبية وخفت أن أصير ضحية غيرة شديدة وأن يقتلنى زوج على مذبح غضبه ، ثم توالى على مخيلتى ذكرى كل حب عاثر ، وحادثة كل غرام ضائع ، فذكرت زينب وبرحها ، ومريم ويوسفها ، وديالارام وقرحها ، فحفت كل رغبة كانت عندى فى مجارة عواطفى ، وخفت أن تكون النتيجة شؤماً على .

غير أن دم الشباب كان لا يزال يجري فى عروقى فمزمت على أن أقبل كل ما تطلبه . وفى ظهر اليوم المعين ذهبت إلى مقبرة أيوب وبحثت عن أول قبر للأمير فرأيت ، ولهذا القبر شاهد عليه عمامة خضراء . ووجدت هناك المعجوز بوشاحها الأحمر ، وتجنبت معها الطريق العام واتخذنا مجلسنا فى ظل شجرة عالية فى جانب المقبرة ، وهناك جلسنا وأماننا منظر الميناء البديع وبدأنا نتحدث فى موضوعنا . بدأت السيدة بشكرى على احتفاظى بميعادها ثم أخذت تؤكد لى أن ما ستعرضه على لا خوف منه . وكان للسيدة حكمة المعجزة ومكرهن . وأخذت تكلمنى بحث ودهاء دون أن تقترب كثيراً من موضوعها وصرحت لى بميلها إلى ورغبتها فى قضاء الأوقات معى .

وكنى أخشى أن يضيع معظم كسبى من الغلايين فلم أتركها تسترسل كثيراً وأوقفها عند ذلك الحد ، وطلبت إليها أن تخبرنى عن قصة الغادة الجميلة التى رأيتها فى النافذة فحدثتني الحديث الآتى قالت : « إن السيدة التى رأيتها والتى أخدمها هى ابنة أحد التجار فى حلب . وكان لأبيها خلفها ولدان ، ومات الوالد من زمن ليس بالبعيد فخلفه فى تجارته ولدها وهما الآن تاجران لها ثروة طائلة ، ويقمان فى نفس هذه المدينة .

وتزوجت سيدتى واسمها « شكرليب » أى « معسولة الفم » من أمير هرم واسع الثروة ، وكان أبى أن يكون له أكثر من زوجة واحدة لأنه عرف من تجاربه أن بيته لا تحمل فيه الراحة ، ولا تزوره السعادة إن هو سمح لنفسه بالإكثار من الزوجات معتمداً على إباحة دينه جواز التعدد .

وكان مغرمًا بالسكون والراحة العائلية ، وظن أنه باقترانه من فتاة صغيرة السن يستطيع أن يعودها طباعه ويمرئها على ميوله فلا تعارض له رغبة ، ولا تعصى له أمراً . ونجح فيما أراد إذ لم يخلق الله من هى أرق طبعاً ، وألين جانباً من سيدتى . ولكن أمراً واحداً ظل منشأ الاختلاف ومصدر النزاع بينهما فلم يكن فى استطاعة الزوجين أن يتفقا عليه . وكان ذلك الأمر من العوامل التى أدت إلى موت الأمير فيما بعد .

وكانت سيدتى تحب الفطائر المحشوة بالزبد ، ويحبها الأمير محشوة بالجن فظلاً خمس سنوات يتشاحنان على مائدة الإفطار كل يوم إلى أن حدث منذ ستة شهور أن الأمير الهرم تناول كثيراً من الفطائر المحشوة بالجن والتى يحبها فأصيب بتخمة ومات على الأثر تاركاً لزوجته حسب الشريعة الحمديدية ربع أملاكه من عقار ومنقول وعبيد وغير ذلك

وقد رغب فى سيدتى الكثيرون لشبابها الفاضل وجمالها الفتان وثروتها الطائلة ، ولكنها أوتيت ذكاء وحكمة نادرين فيمن هو فى مثل سنها من النساء فلم تقبل أن ترتبط بعقد جديد وآلت على نفسها أن تصبر حتى تتاح لها فرصة الزواج من رجل تحبه حباً حقيقياً ولا يكون الدافع له ثروتها أو مركزها ولوقوع منزلها أمام مقهى من أعظم المقاهى

في المدينة أخذت تراقب من يرتادها من الزوار .
ولست في حاجة إلى إخبارك أنها رأتك أجمل من
وطئت قدماء المقهى ، ورأت فيك الرجل الذي كانت
تحلم به »

ثم قالت العجوز بعد ذلك : « وأخي هو صاحب
المقهى فطلبت إليه أن يستعلم عنك ويعرف من أنت
وما شخصيتك . وقد أطربت سيدتي إجاباته واجتهدا
بعد ذلك أن نلفت نظرك إلينا وأن نتعرف عليك
إن أمكن ، وأنت تعلم كيف كلل مسعانا بالنجاح .
ولك أن تحكم الآن هل تراني قدمت لك خدمة
عظمى أم لم أقدم »

وقد شعرت بأني كمن أفرج عنه بعد الحكم
عليه بالموت إذ لم أكن أتصور في أول حديثي مع
تلك العجوز أننا سنصل إلى هذه النتيجة . واختفى
من أمام ناظري ما كنت أتخيله وأخشاه من عجائب
وأسرار ومن تسلق للحوائط وقفز من النوافذ ومن
مؤامرات تركية وخناجر ودماء . وحل محل ذلك
كله تصور الثروة والراحة من عناء وكد . ورأيت
باب السعادة مفتوحاً أمامي على مصراعيه

لم أتردد ولم أحجم بل قلت لها : إنني سأكون
لسيدتها محباً متفانياً في الحب إلى الأبد واستعملت
كل ما وهبني الله من كلام معسول ، وقول خلاب
وأقسمت لها أنني سأجزل لها العطاء مكافأة على
خدمتي

فقال العجوز : « إن أمراً واحداً طلبت مني
سيدتي أن أستوثق منه قبل أن ترضى بك وتقبلك
وهو مركز أسرتك وقيمة ثروتك إذ يجب أن تدرك
أن أخويها وأقرباءها متكبرون فإذا ما أقدمت على
زيجة لا تليق بمركزها كان ذلك مدعاة لمعاملتها بكل

قسوة وخشونة وسبياً في إساءة زوجها إن لم يكن
في ضياعه »

ولم أكن مستعداً لمثل هذا السؤال . ولكن
سرعة البديهة التي أدركت بها مقدار ما ينتظرني من
جاء وثروة كانت عوني في الإجابة من غير تردد ، وقلت :
أسرتي ! أتقولين عائلتي ؟ من في العالم لا يعرف حاجي بابا ؟
سلوا إن شئتم من أول حدود اليمن إلى آخر حدود
العراق ومن بحار الهند إلى شواطئ قزوين فستجدون
اسم حاجي بابا أشهر من نار على علم

فقلت : « ولكن من يكون أبوك ؟ »

قلت بعد أن سكت برهة : « أبي ! أأبي تعنين ؟
لقد كان أبي صاحب سطوة وجاه عظيمين وكم من
رؤوس خضعت لإشارة من أصبعه وكم من رجال
أحت أمامه رؤوسها وسحبها من ذقونها وفعل بها
ما لم يفعله رئيس الوهايين »

وكنت في أثناء قولي هذا قد وجدت من الوقت
ما يكفي لخلق قصة مناسبة في مخيلتي وظللت أقول
للسيدة ما يدهشها فأطالت التحديق في وجهي ، وقلت :
« إن كانت سيدتك تريد دماً نبيلاً وأصلاً كريماً
ومنتبهاً فاضلاً فإني يجب أن تتجه نظراتها ، وإلى يجب
أن يكون مصيرها . إنها وإخوتها مهما بلغ من أمرهم
فلن يفوقوني حسباً ولا نسباً . كان جدي المنصوري
من بطن نجد في جزيرة العرب وقد أقامه الشاه اسماعيل
شاه العجم العظيم مع قبيلة في جهة من أخصب مراعي
العراق فأقام فيها منذ ذلك الحين

وكان جدي لأبي يدعى خاطر بن خور بن أسب
ابن المدين من قبيلة قريش وهو شريف من سلالة
النبي عليه الصلاة والسلام »

فصاحت المرأة : « ماشاء الله ! كفي ! كفي !

قطعتين ذهبيتين أخذتهما بغير اعتراض . ثم تركتني في تأملاتي وسارت .

الفصل الثامن والستون

نواجح حاجي بابا من شكر لبيب

لم أبق في موضعي تحت شجرة الصفصاف كثيراً إذ كان يجب أن أؤدي جملة أعمال قبل أن يحين موعد التلاقي ، وعدت لألبس لباساً يدل على النعمة وينم على الثروة والجاه ، ولأجل كيس دراهم مملوءاً ، ولأظهر بمظهر يليق بمركزى الجديد . وفوق ذلك فقد سرني أن أجعل شخصي ما استطعت بأن أذهب إلى الحمام فأغتسل ثم أتعطر وأتطيب ، وجعلت أثناء مسيرى أحدث نفسي مسروراً : « إيه يا حاجي بابا ! لقد برهنت هذه المرة على ما بين العاقل والنبي من فروق ... لقد أحسنت وأجدت يا ابن المنصوري ويا ريب قريش ! »

وصلت إلى الخان وأنا أسبح في لجة من الأفكار وبحر من الآمال . رأيت الشيخ عثمان أفا جالساً في ركن من أركان الحجرة يعد ما ربحه من بضائعه ، ورأيت في الركن الآخر غلاييني وقد وازنت بين هذه التوافه وبين ما يجول بخاطري من عظيم الآمال حتى ظهر على تأثير هذه الموازنة وشمرت بكبرياء وعظمة لم أشعر بمثلها من قبل . ولست أدري إن كان عثمان أفا قد لاحظ شيئاً من ذلك ، ولكنه ذعر حين طلبت منه أن يعطيني بغير إهمال خمسين قطعة ذهبية على أن أودع بضائتي رهينة لديه ضماناً لماله

قال لي : « ما هذا الذي تطلبه يا بني ؟ ماذا تريد أن تفعل بمثل هذا المبلغ الكبير وبمثل هذه السرعة ؟ هل جنت أم أصبحت من ضحايا اليسر ؟ »

إن كنت أنت من وصفت فسيدتي لا تطمع في المزيد ؛ ولئن كانت ثروتك تتناسب مع شريف أصلك فليس لنا بعد ذلك أي قول »

فأجبتها : « أما من جهة ثروتي فإني لا أنخر بما لدى من مال عيني وثروة مجموعة فأى تاجر لديه مال أو ثروة من نقد ؟ لكن مال التاجر في بضائعه المنتشرة في كثير من بقاع العالم والتي لا تلبث حتى تعود بريح عظيم . إن حرائري وبضائتي الأخرى من قطيفة وديباج في طريقها إلى خراسان وسأستحضر بدلاً منها جلوداً من بخاري وعملائي اليوم في مشهد بما معهم من ذهب وعطر لشراء شيلان الكشمير وأحجار الهند الثمينة . وفي استراخان يستبدلون بالسمور وأنواع الزجاج بضائتي الهندية أما بضائتي في حلب فسترد إليّ بدلها طيالس وشيلان على أنني لا أحدد ثروتي ولا أحصيها ولو أردت ذلك لكنت كمن يريد عد حبات القمح في المزرعة . وإنما قولي لسيدتك في غير مبالغة إن الرجل الذي وقع عليه اختيارك لو جمع ثروته لأذهلك وأذهل أسرتك مقدارها »

فقلت المرأة : « حمداً لله وشكراً ! هذا ما كنا نتمنى ولم يبق إلا أن أجمعكم معاً فلا تنس أن تكون في ركن من الزقاق عند ما يخيم ظلام الليل حتى أقدمك بكل حيلة وحذر إليها . وإذا رقت في عينها لم يخل حائل بين زواجكما وسعادتكما . ولم يبق إلا أن أنصح لك نصيحة وهي أن تحب الفطائر المحشوة بالزبد وأن تبدي نفورك من المحشوة بالجبن وأما فيما يتعلق بأي موضوع آخر غير هذا فسيدتي لا تعلق أهمية ولا تبدي اعتراضاً »

ثم سلمت عليّ متأذنة بالذهاب فوضعت في يدها

فأجبتة : « غفر الله ذنوبي ! لست مجنوناً ولا مقاصراً ولا يزال عقلي مهيأ وقد أقبلت على الدنيا بعد إدارها ، فأعطني المال أولاً وسأقص عليك خبري بعد ذلك »

ولم يتردد الرجل طويلاً في إجابتي إلى رغبتى إذ كان يعلم قيمة بضاعتي ويعلم أن الصفقة رابحة ، فأخرج المال وعد خمسين قطعة ناولها لي ، فأخذتها وتركته وخرجت فاشترت ملابس في غاية الواجهة وأسهرت إلى الحمام فاغتسلت وأتممت كل ما كنت أريد من زينة وحسن زى وخرجت كأحد الأغنياء وكان في أثناء ذلك قد حل ميماد المقابلة فسرت بقلب يخفق وينبض إلى المكان المعين ، ووجدت العجوز في الانتظار . وبعد أن نظرت حولها لترى هل من أحد يلاحظنا تقدمتني إلى باب في مكان مخفى في المنزل ودخلت فدخلت وراءها ، وسررت من السكون والهدوء الشاملين للمنزل إذ كنت أنظر إلى نفسي كأني صاحب المنزل ، وسيد من فيه .

ذهبنا إلى الجناح المخصص للسيدات وكان حذرنا واحتراسنا كما لو كان الأمير لا يزال حياً يرزق . دخلنا من الباب إلى ردهة كبيرة فيها نافورة ماء . ثم صعدنا سلماً خشبياً فرأينا في نهايته ستاراً متعدد الألوان ونحطينا الستار إلى حجرة أخرى لم أر فيها من المنقولات غير أحذية نسائية وغير مصباح معلق تركتني قائدتني في هذه الحجرة ، وذهبت تخبر سيدتها بقدومي ثم سمعت أصواتاً عديدة من الحجرات المجاورة فظننتها لصاحبات تلك الأحذية . وأخيراً فتح باب في طرف الحجرة — وكان بالحجرة أربعة أبواب غيره — وأشير عليّ أن أتقدم .

أخذ قلبي يخفق في عنف ، وأنا أتقدم إلى ذلك

الباب . وأردت أن أظهر في شكل الرجل الوقور فلففت نفسي بأطراف عباءتي ودخلت حجرة يضيئها مصباح واحد يلقي نوره على ما بها من متاع . وكان بالحجرة إيوان عليه غطاء من أطلس ثمين لامع أزرق اللون ، ورأيت في زاوية منه بقرب النافذة من أتيت لرؤيتها .

لم أتمكن من رؤية شيء منها غير عيني سوداوين ظهرتا كأنهما تضيئان في سماء حياتي . وأشارت إلى يديها أن أجلس ، فأيت احتراماً لها ، ولكنني حين وجدت أن الإباء لا يجدي خلعت نعلي وتربعت على البساط وأدخلت يدي في أكمام ردائي وتكلفت حياءً وخجلاً لأزال إلى اليوم أضحك حين أذكرها .

جلسنا متقابلين بضع دقائق لم نتحدث في غير المؤلف من ترحيب وتسليم ، وبعد ذلك أصرت السيدة خادمتها عائشة (وكان هذا هو اسم التي قادتني إلى المنزل) أن تترك الغرفة وتخرج ثم تظاهرت بالليل تريد أخذ مروحتها المصنوعة من ريش الطاووس وكانت على الوسادة فسقط ثقابها ورأت عيناى أجمل وجه خلقه الله وكانت حركتها هذه دليلاً على انعدام الكلفة فأخذت أنظر إلى معبودتي نظرة هائم مدله مظهرها لها شدة إخلاصي وإعجابي بجمالها وشوقي وهيامي بها حتى لا أجعلها تتردد لحظة واحدة في الاعتراف بركة فؤادي ونبل شعوري ودقة فهمي وسلامة ذوقي ، ولم تمالك أرملة الأمير من أن ترى في الرجل الذي تتمناه في أحلامها ، وعلمت أنني أرضيتها وفلت ثقتها حين ائتمنتني على أسرارها وأطلعتني على دوائل نفسها وقالت : « إنني في مركز حرج وحال مرتبكة فقد فعلت عيون الحساد فعلها في حياتي وأنت تعلم أن زوجي أسبغ الله عليه رحمته

وغفرانه ترك لي مالا كثيرا فأصبحت بإضافته إلى مالي الخاص على درجة من الغنى تحرك الأطلاع وسيت لي ثروتى الطائلة متاعب وآلاما كادت تذهب بعقلي

ادعى كل من أقربائى حقوقا لا أصل لها وطلب كل من يمت إليّ بصلة طلبات كأننى أنا جزء من بيت المال وكأن ثروتى ثروة عامة . وأظهر أخوإي أفكارا خاصة ورغبات معينة فى اختيار زوج لي كأنما الزوج الذى اختاره يجب أن يوافق مزاجيهما قبل مزاجى، ويجب أن يرتاحا إليهما دون نظر إلى عواطفى وميولى، وكان لزوجى ابن أخ من رجال القانون وقد ادعى أن التقاليد القديمة تخول لقريب الميث حقاً على زوجته وأن فى استطاعة ذلك القريب أن يظهر رغبته فى التمسك بحقه ليلقى عباءته على أرملة قريبه المتوفى وادعى قريب آخر أن لا حق لي فى كل ما ورثت وما أملكه الآن وهددنى بأخذ ثروتى . فساورتني الهموم والمتاعب ولم أجد فى ظروفى التى ذكرتها لك من ينقذنى ويمد لي يد المساعدة غير زوج اختاره أنا وقد أرسلك القدر إلىّ فالحمد لله على ذلك » ثم أعلمتنى بكل ما أعدت لمقد زواجنا العاجل

وأشارت فى حديثها إلى رجل من رجال الشرع اختارته لكتابة الوثائق وقالت : إن الرجل موجود بالمنزل وعلى استعداد لإتمام العقد فشعرت باضطراب عنيف إذ لم أكن أنتظر مثل ذلك الانتقال من حالى التى كنت فيها إلى سماء العز والغنى ؟ غيرأتى لم أنس أن أظهر لها الحب الكامن فى صدرى وقلت لها : إن حبي سيكون أبدياً وإن عاطفتى لا تزول ما بقى فى عرق ينبض وفؤاد يخفق ، ولم أقل عن نياتى ومقاصدى إلا كل ما تطرب له ويرقص فؤادها لدى

سماعه . ولقد خافت التأخير فأسرعت بفداء خادماتها المعجوز عائشة وأمرتها أن تقودنى إلى المأذون الذى حدثتنى عنه والذى كان ينتظر أوامرها فى مكان آخر من المنزل . ورأيت مع الرجل إنساناً آخر أحضره معه ليكون الوكيل عنى فى العقد . وقال لي المأذون الشرعى إن ذلك واجب من جانب الرجل كما هو لازم من جانب المرأة ثم عرض سجل العقود وكان قد قيد فيه ما تملكه العروس من مال وضياع ومتاع وطلب إليّ أن أخبره بما يقيد ليضيفه إلى ما كتب

وهنا أخذت وذعرت، غير أنى لم أجد خيراً من أن أجيبه بمثل الذى أجبت به عائشة من قبل فقلت : « إن التاجر لا يستطيع تحديد ثروته المتفرقة فى مختلف الجهات وشتى البلدان بضاعة ومتاجر إلا أننى أهب كل ما أملك لزوجتى فزواجنا أبدي لا افتراق بعده ولا طلاق »

قالت العروس : هذا حسن غير أننا نريد ذكر شئ محدد فقل لنا ما تملكه هنا فى دار السعادة على سبيل المثال . إنك لم تحضر طبعاً إلى هذه المدينة إلا لأعمال هامة فاذا ذكر لنا ثروتك التى تحت يدك وذلك يكفى مؤقتاً

فتظاهرت بعدم الاكتراث وقلت : « ليكن ذلك ! فليكن ما تريدن ! اصبرى قليلاً » ثم سكنت كأننى أحسب ما مئى من بضائع . وبعد لحظة قلت فى ثبات وجراءة : « إننى أعطى زوجتى عشرين كيساً من الذهب وعشر حقائب من الثياب »

ودار بعد ذلك حديث بين أرملة الأمير وبين المأذون . وبعد مفاوضة قصيرة انتهى الأمر برضاء وقبول وبصمنا جميعاً على وثيقتى الزواج والهبة بعد (٧)

أن انتهى المأذون من خطبة الزواج . وبذلك تم العقد على حسب الشريعة وهناكى الحضور وشكرت لهم ولم أنس أن أ كفى الشيخ وابنه وأن أعطى الخدم وأرسلت مبلغاً ليقيم على المقيمين بالقصر جميعاً . وبدلاً من أن أرجع إلى عثمان أغا وأنام على وسادة من غلايين دخلت إلى مكان الحرم تحف بى مظاهر العظمة والجلال وأحس كفى رجل آخر غير الذى تعرفه أيها القارى

الفصل التاسع والستون

من تايير غمويين الى أغا عظيم
مناعبه من شخصيته المستعارة

سرعان ما أدركت أن أمانى طريقاً وعمراً وأننى مقابل عقبات كثيرة . ولقد قيل إن فيلسوفاً صينياً قال مرة : إن عملية الأكل لو اقتصرت على ما يحدث بين الفم وطبق الطعام لكانت أسهل العمليات وأطيبها ، ولكن هناك المعدة وأجهزة الهضم بل هناك بقية أعضاء الجسم كله وهى التى تحكم إن كانت عملية الأكل طيبة أم خبيثة

وكذلك الحال فى الزواج فلو اقتصر الأمر فيه على ما بين الرجل والمرأة لكان الخطب ولكن هناك الروابط العائلية وعلاقات القرابة تقرر سعادة الزواج أو شقاءه وراحة العروسين أو تعاستهما

أخذت عروسى الفتانة بعد زواجنا تحدثنى أياماً متوالية وليالى طوالاً بآتفه الأحاديث وأخبرها عن أفراد أسرتها وتنازعهم وغيبتهم وبفضهم وعن كل ما يشعرون به نحوها من شر وما يريذونه لها من أذى حتى ظننت أنى إنما دخلت وكرثمايين وعش عقارب ولقد فضلت زوجتى أن تستعمل نهاية الاحتياط

فى إخبار أخويها بزواجنا وقالت : إن الزواج وإن كان شرعياً إلا أن دوامه متوقف على إرادتهما إذ هما من أغنياء التجار ولهما نفوذ كبير فى المدينة فيجب ألا تدخر جهداً فى مرضاتهما

وكانت عروسى قد رأت أن تخطو خطوة فى سبيل غرضها فى حذر وانتباه ، فأعلنت أن فى عزمها أن تزوج من أكبر تجار بغداد غنى وجاهاً ، ولكنها لم تقل إن الزواج قد تم

وكان لإشهار زواجنا يستدعى أن نولم ولية ندعو إليها كل أفراد أسرتها ، ونسذل عن سعة لتكون الولية أنخر الولاثم ، ولكى يقتنع أهلها بأنها لم تلق بنفسها بين أحضان فقير أو محتال

وقد وجدت منى مليباً لرغباتها مطيعاً لأوامرها وسرت بسنوح فرصة سريعة يذيع فيها أمر ثروتى وبدأت فى استحضار مرب من الخدم كل منهم له عمل خاص ولقب يناسبه . واستبدلت بقصبات التدخين التى أحضرها الأمير المرحوم قصبات أخرى أحسن منها وأغلى ثمناً وأحدث طرازاً . وكذلك أحضرت طفلاً جديداً للقهوة بديع الصنع غالى الثمن بعض قطعه موشى بالذهب والبعض الآخر مطعم بالمعاج وفيه طبق أو اثنان طعماً بالأحجار الكريمة لاستعمال خاصة

ثم اخترت من أحدى الأمير ما راقى فى نظرى وكان الأمير مغرمًا بانتقاء فاخر الملابس وغالبها من عباءات وقفاطين وقراء تصلح للملوك ، وقد أخبرتنى زوجتى أن تلك الملابس من آثار عائلة الأمير ومخلفاتها الثمينة فلم أحجم عن اتخاذها لنفسى ووجدت قبل أن يحين يوم الولية من الوقت ما يكفى لإعداد ما يليق بأغا من أعظم الأغوات . وإنى أعتقه رغم كونى

أخوى زوجتى عاملانى بلطف ورقة ورجباني قائلين :
 لأننى زدت أسرتهما شرفاً ونخاراً باقترانى من شقيقتيهما
 ولاشتغالهما بالتجارة تحول مجرى الحديث إلى الشئون
 التجارية فاجتهدت أن أدخل فى روعهما أننى تاجر
 عظيم ، وأن تجارتى منشرة فى أنحاء المعمورة .
 فتدقت فى الحديث تدفق الماء على أنهما أخذا يسألان
 عن تجارة بغداد ، وعن المتاجر فى جزيرة العرب ،
 والهند ، والصين ، وأخذا يطلبان إيضاحاً دقيقاً عن
 الحاصلات ، وأحوال السوق فأسرعت إلى اقتضاب
 الحديث ، وتحويل وجهته إلى المعلومات العامة .
 وأجبت إجابات لا تفيد شيئاً وحين انتهيت شعرت
 بأنه لا يزال ينقصنى شيء ، وهو أن يرى عثمان أغانى
 ما أنا فيه من سعادة ، وأن أخبره بأمر زواجى ،
 وأدعوه إلى الوليمة .

ولكن هل أنا سعيد حقاً ؟ هل أنا صاحب
 هذه الثروة الطائلة ؟ إننى أشعر بأنى أمثل دوراً
 لا حقيقة له . وهنا خفت أن يفتضح أمرى وتظهر
 حقيقتى ولم أجرؤ على الثقة حتى ولا بعثمان أغانى لثروته
 ولعلمه بحقيقة حالى

وصممت على ألا تكون لى به ولا بأى إنسان
 من مواطنى علاقة ما ولو إلى أجل موقت إلى أن
 أشعر بأنى فى أمان وأنى قد ثبتت أقدامى فى مركزى
 الجديد فلا أخاف الافتضاح

الفصل السبعون

نزاع الزميين

انقضت الوليمة على أحسن حال وأحسب أننى
 نجحت فى إقناع الضيوف بأنى نفس الرجل الذى
 زعمت أننى هو وأن شخصيتى حقيقية لا ريب

ابن حلاق أن ليس لأحد من الشكل والأخلاق
 وحسن التصرف ما يؤهله لإتقان دورى هذا الجديد
 خيراً منى ، ويجب أن أذكر أننى قبل ذلك الاحتفال
 العظيم لم أنس أن أزور أفراد عائلتى الجديدة كما يقضى
 الواجب . .

كنت أحسب لتلك الزيارة ألف حساب متخوفاً
 من نتيجة مقابلتى أفراد الأسرة ولكنى حين سرت
 فى شوارع المدينة راكباً جواداً من جياذ الرحوم
 يحيط بى جمع غفير من الخدم والحشم ذهب عنى
 الخوف وشعرت بالطمانينة والانشراح . وإن من ينظر
 إلى الجموع السائرة وهى تفسح لى الطريق وتقطع
 إلى ثم تضع أيديها على صدورهما عند مرورى ، وإن
 من يرى جوادى وهو يضرب الأرض بحوافره
 ويتبختر فى مشيته نخوراً بمن يحمل على ظهره ، وإن
 من يتنعم بما كنت أنعم به من جلسة على ظهر جواد
 كريم بينما يمشى الآخرون على أقدامهم - كل من
 يرى ويشعر بما كنت فيه ولا يأخذه الدهول ويملكه
 العجب فليس آدمياً

ويجب أن أضيف هنا أننى حين خرجت فى شكلى
 المتقدم وقعت عينائى على بعض مواطنى وأبناء بلدتى
 « الأعراء » ممن رافقونى فى القافلة من بغداد وكانوا
 فى أسمال بالية وحال زرية وكأنما كان ظهورهم أمامى
 فى شوارع المدينة باعثاً على ذكر ما أنعم الله على
 وشكر ما أعطانى

ولم أعرف إن كانوا قد تبينوا حقيقتى أم جهلوا
 أمرى فإننى أدت وجهى وسرت مجتهداً أن أخفى
 ملامحى فى ظل عمامتى الكبيرة ولحيتى الطويلة
 وكانت نتيجة زيارتى فوق ما كنت أتصور ،
 ولست أعرف ماذا كان شعور أصهارى غير أن

في صدقها ، ومن ثم بدأت أطمئن على نفسي وأخذ
شبح الخوف يغيب عن عيني فأنصرفت إلى اللذات
والتعرف على أصحاب الله وإخوان السرور وأن
ألبس أنعم الثياب ، وكان منزلي موضوع الأحاديث
ومطمح الأنظار في المدينة ، ولست أستطيع أن
أنكر أنني كنت أزداد كل يوم شعوراً بأنى مدين
بكل ما أملك لزوجتي وآلتي ذلك الشعور ونقص
على عيشتي ، وقد أدركت أن ستقوم بيننا منازعات
عديدة على موضوعات أخرى غير فطائر الزبد وفطائر
الجبين حتى لقد قلت في نفسي : « ما كان أحسن
حظ الأمير الشيخ لقد استطاع أن يعيش مع هذه
الزوجة ثم لم يختلف معها إلا على أمر واحد مع أننا
نختلف على كل أمر حتى لست أجد ما لسننا نختلف
عليه »

و كنت قد عللت نفسي بأمنية غريبة وهي أن
أظهر أمام مواطني في الخان الذي يقيمون فيه
بشكلي وأبهتي . وأن أمتع نفسي بما يظهر على عثمان
أغا عند رؤيتي من الدهول والارتباك ؛ فلما رأيت
أن لا خطر عليّ وأنني أصبحت آمناً مطمئناً لم أرد أن
أقاوم تلك الرغبة فلبست أحسن ثيابي وامتطيت خير
جياذى وسار حولي كل خدعي وأتباعي وسرت
في ذلك الموكب في أكثر ساعات النهار حركة إلى
الخان الذي كنت قد أقمت فيه باسم تاجر غلايين
أول مجيئي إلى الأستانة

لم يعرفني حينما تخطيت باب الخان أحد بل اجتهد
السكر في خدمتي واحترامى ظانين أنهم سيجدون
منى شارباً لكل ما لديهم من البضائع ، وجاء خدعي
ببساط ثمين من أنفس الأبسطة وأغلاها وفرشوه
لأجلس عليه . وناولوني كذلك شبعاً غالى الثمن

أدخن فيه فجلست وسألت عن عثمان أفا فجاء الرجل
وجلس على طرف بساطي بكل خشوع واحترام
دون أن يعرفني أو يخال . وأخذت أكله في غير
اهتمام مدة ما . وقد لاحظت أنه كان ينظر إلى نظرة
التشكك ثم صاح : « بحق النبي الكريم ألسنت
حاجي بابا ؟ »

قال ذلك بعد أن عجز عن ضبط نفسه وإخفاء
ما كان يدور بخلد

وضحكت كثيراً من منظر الرجل ومن قوله ثم
تعارفنا وقصصت عليه مجمل أمرى وكيف تحولت
الخمسون قطعة ذهبية التي اقترضتها منه إلى تلك
الثروة التي يرى علاماتها بعيني

ولا حظت أن عثمان أفا لم يتأثر من انتقال
الفجائي إلى ما كنت فيه من نعمة وثرأ ولم يحركه
منظري وقصتي كثيراً إذ كان له عقل فيلسوف قليل
الاهتمام . غير أنني لاحظت أن مواطني حينما علموا
أن لابس تلك العمامة الكبيرة والثياب الغالية
وراكب ذلك الجواد وصاحب هؤلاء الخدم إنما هو
حاجي بابا الذي كان بائع سلع مثلهم لم يستطيعوا كظم
غيطهم ولا إخفاء حسدهم فأدركت ولكن أخيراً
جداً أنني أخطأت خطأ جسيماً في ظهوري بذلك
المظهر أمام أبناء بلدي وأردت أن أنسحب في سكون
من غير جلبة أو ضوضاء وإذا بأحدهم يقول :

« ماشاء الله ! أهذا حاجي بابا ابن الحلاق الأصفهاني !
دنس الله قبر أبيه وفضح أمه ! »

وقال آخر :

« أجدت وأحسنيت يا ابن الأعجام ! لقد هزئت
من ذقون الأتراك فليمت الله إليك من يهزأ بك ،
ويسخر منك »

وقال ثالث :

« أنظروا إلى عمامته الكبيرة ، وسراويله الطويلة ، وجليونه الثمين . والله إن أباه لم ير مثل هذه الأشياء حتى ولا في أحلامه » .

وظل آل بلدتي يوجهون إلى الكثير من هذا التقريظ إلى أن استجمعت كل ما أملك من عظمة ووقار بعد الذي كان ، وقت من مجلسي فامتطيت جوادى ، وتركهم يشيعونني بالنكات الريرة والضحكات المزرية والسخر والاحتكار .

حنقت أول الأمر عليهم ثم حنقت على نفسي بعد ذلك حنقا شديدا . وقلت : « لقد جوزيت يا حاجي بابا جزاء عادلا ! وحق رأس أهلك كربلائي حسن الحلاق لقد كوفئت على رعونتك ، وغبائك ! هل يجرؤ يوما كلب أن يمشى بين ذئاب مفترسة ؟ هل قدر غبي من أغبياء المدن أن يسير بين وحوش العرب بدون أن يسرقوه أو ينهبوه .

قد يصير حاجي بابا عاقلا حازما في يوم من الأيام ولكن يجب أن يذوق مرّة المذاب ويتجرع كؤوس الألم قبل أن يصل إلى تلك الغاية

ثم قبضت على لحيتي بيدي وتأوهت قائلاً : « ماذا أفادتني هذه اللحية وماذا أكسبتني شعراتها الطويلة ! لقد أصاب من قال : إن المرء لا يسره أبداً أن يرى ابن وطنه في ارتفاع وارتقاء اللهم إلا إذا كان مرتفعاً إلى المشنقة ! »

وبقيت أحدث نفسي بأمثال هذه الخيالات إلى أن وصلت إلى منزلي وهناك دخلت إلى محل الحرم محاولاً أن أجد الراحة من عناء اليوم ومتاعبه غير أني لم أصب ما أردت فإن زوجتي زادت في كربى وبلائي كأنما كانت تدفعها الشياطين وتحرضها أبالسة الجحيم إلى مضايقتي

طلبت إلى أن أقدم لها حالا كل المبلغ الذي ذكرته في وثيقة زواجي . وظلت تلح في طلبها وتردده بحالة لم أتحمّلها مع ما كنت فيه من غيظ وضيق صدر بسبب ما حدث بيني وبين أبناء بلدي ولم أشعر إلا وقد انفجرت انفجاراً شديداً وجعلت أهذى هذياناً مريماً مصحوباً بالإشارات العنيفة وأمطرت أبناء بلدي وزوجتي وابلاً من اللعنات والشتائم القبيحة والسباب البذي حتى غدوت أنا الذي كنت وديماً لطيفاً أكثر شراسة من الوحوش الضواري

ذهلت زوجتي مما أبديته وتفوهت به وتراجعت قليلاً إلى أن وقفت ومن ورائها خدما وعبيدا وأتباعها تتقدمهم عائشة منتظرة فرصة تستطيع فيها الكلام

وأخيراً تكلمت وتكلمت حتى بدا ثغرها أصغر من أن يسع كل ماتفوهت به من ألفاظ وما خرج من فمها من كلام

ولم يمنع عائشة ومن معها من الخدم والأتباع ما كانت تقوله سيدتهم من الكلام فتكلمن حتى كأنما هبت في الحجرة عاصفة من ألفاظ عنيفة وشتائم متوالية كلها موجهة إلى

كنت أرغب في المقاومة غير أني لم أستطع فقد كانت الحجرة كأنها ساحة ضجيج وسوق شتائم وصراخ وضائق الحجرة عن أن تسعنا جميعاً . وكنت أول من فكر في التقهقر والهرب فانسحبت من مسكن الحرم بين اللعنات والسباب والضجيج والتدافع والتلاطم وعلى رأس الجميع زوجتي العزيزة فكانت هذه المخلوقات اللطيفة أشبه بالشياطين منها بالحوار التي وعد الله بها عباده المتقين في الفردوس المنشود .

أويت إلى حجرتي منهوك القوى مضعضع العزم
خائر النفس مما حدث في يومي من أرزاء وخطوب
وأوصدت باب حجرتي وجلست فيها وأنا أشعر بأنني
أتعس مخلوق دب على الأرض رغم ما يحيط بي من
عز وأبهة ورغم أنني صاحب كل هذه الرياش والنفائس
وجعلت أندب سوء حظي متوقفاً ما يجيء به الغد .
وشمرت بما يشعر به المسجون من الظنون والريب
وكان من الواضح أنني لو حاولت أن أخفف من بلوأي
باختلاق أكاذيب جديدة فإن آخرتي ستكون شر
آخرة ومصيرى أقبح مصير

ثم قلت لنفسي في ألم وحيرة : « رحم الله أياماً
كنت فيها حراً طليقاً فلو كنت لم أرتبط بمقود
وأختام لتركت زوجتي تفعل ما تستطيع دون أن
أحفل بما تفعل ، ولكنني الآن تقيدت بكتابات
رسمية عليها توقيعى وسأظل أمام العالم كذوباً محتالاً
الفصل الحادى والسبعون

ماجى بابا يستكشف أمر اختياله ويفقر زوجه
بت ليلتي قلقاً مسهداً لازمني فيها الأرق فلم تذق
عيناي الكرى حتى سمعت المؤذنين يعلنون انقضاء
الليل وبزوغ الفجر ويدعون الناس إلى الصلاة .
وكان استيقاظي إذ ذاك قبل أن تمر ساعة واحدة
على اغتماض عيني ، على صوت ضجة غير عادية في
رجبات المنزل . وأخبرني أحد خدمي أن أختي
زوجتي قد حضر إلى المنزل يصحبه قوم آخرون .
فأصابتنى رعشة شديدة أفقدتني كل ما كان لدى
من عزيمة وقدرة . وقام في ذهني خمسون خاطراً
كل منها يزيد على الآخر أهمية وخطورة ، وبدأت
أشعر بأصابع قدمي قد أصابها خدر شديد فلم تقو
السنون التي مضت على إضاعته ، وذكرت في تلك

اللحظة الدرس الذي تعلمته في مشهد
ثم فكرت في حالي قائلاً : « ولكن أليست
شكريب زوجتي رغم كل ما حدث ؟ إنها زوجتي
شرعاً مهما يكن ما حدث أو ما سوف يحدث ، ولئن
كنت قد بالغت قليلاً في مقدار ثروتي فإنني لم أفعل
لذلك غير الذي يفعله كل أبناء آدم »

ثم التفت إلى خادى وقلت له : « بحق النبي دع
القوم يأتون إلى هنا وأحضر لنا القهوة والغلايين »
رفع الخدم فرائشي ونظفوا حجرتي ودخل الزوار
واحداً بعد الآخر في صف طويل وجلسوا على إيواني
وهم أخو زوجتي وأخو زوجها الأول وابنه ورجل
آخر متجههم الطلعة شرس المنظر لم أكن قد رأيته
من قبل

جلس هؤلاء ورأيت غيرهم سرباً من الخدم
والأتباع وقوفاً في آخر الحجرة وبينهم رجلان بشما
الشكل قد تسلحا بالمصمى الغليظة ووقفوا أمام الخدم
ينظران إلى نظرات تنطوي على الشر ولا تدل على
صفاء ولا خير . اجتهدت أن أكون ساكناً رزيناً
وآلاً أظهر بمظهر الخائف ما استطعت وتظاهرت
بالبشر والارتياح لتلك الزيارة ورجبت بالزوار فلم يكن
جوابهم على ما أبديت غير تتممة لم أفقه لها معنى

أمرت بإحضار القهوة والغلايين ورجوت
أن أعلم السبب في تشريفي فقلت لشقيق زوجتي
الأكبر : « أسعد الله صباحك يا عزيزي . هل
أستطيع أن أؤدي لك أية خدمة في هذا الوقت المبكر
من النهار ؟ ليس عليك إلا أن تأمر فتطاع »

فقال بعد أن لزم الصمت برهة : « حاجي بابا !
أنظر إلى ! هل تظننا حيوانات لا تفقه ولا تنفع ؟
هل تعد نفسك رجل اليوم فلا قرين لك ولا نظير
فتضحك من ذقوننا وتعبث بكرامتنا ما شئت وشاء
لك عقلك ؟ »

فأجبتة بقولي : « ما هذا الذي تقوله يا سيدي
الأغا ؟ إنني لا أدعي أي دعوى ولست إلا رجلاً
وضيعاً لا وزن قبضة من التراب »

فقال أخوه الثاني في حماس وحدة : « أيها الرجل
كيف تزعم أنك لا تدعي الدعوى العراض ؟ ما الذي
صنعت بنا إذن ؟ هل حسبنا أغناماً حتى نتحمل
مشقة الحجى من بغداد إلى هنا لكي تسخر منا ؟ »
فصحت متألماً : « يا الله ! يا الله ! ما هذا ياسادتي ؟
لماذا تتحدثون بهذه اللهجة المرة ؟ ماذا صنعت حتى
أستحق منكم كل هذا ؟ تكلموا بحق السماء
وأصدقوني ! »

فقال عم زوجتي وهو يهز رأسه وخطيته البيضاء :
« ما أخبثك يا حاجي بابا ! ما ألام طبعك !
لقد صاغك الله يوم صاغك من خبث ورياء فظننت
أن خبثك يجوز علينا ورياءك ينطلي على عقولنا .
كلا كلا ! إن ذلك لن يكون »
فقلت له : « ولكن بحقك يا عماء ماذا جنيت ؟
تكلم ! »

فقال ابن عم زوجتي : « ماذا جنيت ؟ أتقول
ماذا جنيت ؟ إنك قد كذبت وسرقت وتزوجت
امرأة بعد أن خدعتها . ألا يرضيك كل هذا ؟ أنك
لا تستحي ولا ماء في وجهك . هل تظن أنك لم تأت
أمراً ؟ »

وهنا قال صهرى الأكبر : « ربما ظننت أنك
أكسبتنا شرفاً عظيماً وأن ابن حلاق أصفهاني
قد تواضع فرضى بالزواج من ابنة أميرة من أغنى
أسر الآستانة ! »

وقال آخر : « ربما خطر ببالك أو صور لك
الوهم أن بائع قصباب التدخين تاجر عظيم يستحق
أن يعقد له على شقيقتي »
وقال عمهما ساخراً : « نحمد الله ونشكر

فضله ! إن حاجي بابا تاجر لا نظير له فإن حرائره
وديباجه في الطريق إلى بخاري لتستبدل بها جلود ،
وإن شيلانه في طريقها إلينا من كشمير وإن سفنه
قد حجبت سطح البحار ما بين الصين وبوشهر ! »
وقال ابنه متمماً : « ونسبه وأصله ! هل قلت
إنك ابن حلاق ؟ حاشا لله ! اللهم رحمتك وغفرانك
فإن نسبه ينتهي إلى قريش وليس هو من قريش
فقط بل هو شريف من الغرة النبوية . من ذا الذي
يوازي أسرة المنصوري ؟ »

وكنت قد لاحظت أن العاصفة على وشك
المهبوب فجعلت أكرر : « ولكن لماذا كل هذا ؟
إن كنتم تريدون قتلي فافعلوا يا قوم ولا تنزعوا
جلدي قيراطاً قيراطاً بقارص كلامكم »

فقال الرجل المتجهم الوجه العبوس الطلعة بعد
أن ظل صامتاً أثناء كل هذه الأحاديث : « أنا أتولى
إخبارك عما ترى وتسمع أيها الكافر المنافق . إنك
خسيس نذل لا تستحق أن تعيش فإن لم تترك
ادعاءك ومظاهرك الكاذبة وتترك زوجتك وهذا
المنزل وكل ما يحتويه بغير إبطاء فأنت ترى هذين
الرجلين (وأشار إلى المتشردين الواقفين أمام الخدم
بالعصى الغليظة) وهما ينزعان روحك من جسدك
النجس كما تنزع بقايا التبغ من الغليون . لقد
أخبرتك بما سيكون وتركت لك الخيار فاختر لنفسك
ما يحلو »

وكأنما أثرت ألفاظه في جميع الموجودين فأطلقوا
لأنفسهم العنان وصبوا على اللعنات والشتائم دون
مبالاة ولا احترام . وظللت صامتاً في تلك العاصفة
الثائرة لم أنبس بينت شفة ووجدت من صمتي فرصة
للتفكير .

رأيت أن أتبين ماذا تكون نتيجة المقاومة فقلت
لصاحب الوجه العبوس : « ولكن من أنت حتى

« نعم نعم بحق النبي ! أتركوه يذهب إلى سبيله .
بالله عليكم أرحمونا من طلعتة »

صدرت هذه الكلمات وآلاف من قبيلها عن
ناحية الباب فنظرت إلى جهة الصوت من مسكن
الحرم فرأيت عند بابه زوجتي على رأس جماعة من
النساء كأنما أحضرت لتشهد ضدي ولتبدى رغبتها
في الانفصال عني

وأخذ النسوة يصرخن ويلعنن ناقيات نادبات
كأنما لبستهن روح عفريت وكأنني كنت رجساً من
عمل الشيطان ويجب تنظيف المنزل منه
وجدت نفسي وحيداً غريباً في بلدة لا مساعد
لي فيها ولا معين ، ورأيت أن لا حيلة لي أمام قوة
عظيمة لا أستطيع الوقوف أمامها فتجلدت قليلاً
وقت من موضي وأنا أقول :

« إن كانت هذه هي رغبتكم فليكن ما تريدون
إني غير راغب في شكر ليب ولا في مالها ولا في أخويها
ولا في عمها ولا في أي شيء مما يملكون ما داموا
جميعاً لا يرغبون في غير أنني أقول اليوم إنهم عاملوني
معاملة لا يعاملها مسلم لأخيه ، ولو أنني كنت كلباً
بين جماعة من الكفار لعولت بأحسن مما أعامل به
الآن . وفي يقيني واعتقادي أن العذاب الذي سيناله
من أساءوا إلى النبي سيناله يوم القيامة من أساءوا
إلى واضطهدوني »

ووقفت في وسط الحجرة بين الموجودين وقد
تشجعت وتحمست بسبب ما ألقته عليهم من الكلمات
وخلمت جميع ما كان علي من الملابس التي اشتريتها
أو أخذتها من مال زوجتي ورميت بذلك على الأرض
في احتقار وعزرة نفس كأنما هي وباء يخشى منه
ثم طلبت حبة قديمة كانت لي ووضعتها على كتفي
وانطلقت إلى الخارج وأنا ألعن كل من تركت

عبد اللطيف النشار

(ينبع)

تجرو على دخول بيتي ومعاملتى كما يعامل الكلب
الأجرب ؟ إن هؤلاء أصهارى ، وهم في منزلهم ،
وأهلاً بهم ومرحباً ، ولكن أنت ماذا تكون
قربتك من زوجتي ؟ لست بأبيها ، ولا بأخيها ،
ولا عمها فماذا تصنع هنا ؟ إني لم أتزوج ابنتك
أو أختك فماذا يهمك ؟ »

وكان أثناء حديثي بحتدم غيظاً وغضباً ، ونظر إلى
كما ينظر الأسد إلى فريسة بهم بالهجوم عليها . وقال
وصوته يتمثل فيه الغضب والحق : « إن أردت
أن تعلم من أنا فسل الذين أتوا بي إلى هنا . إني
ورجالي نعمل بأمر الحكومة وسلطة القانون ، فإن
قاومت كان الأمر وبالأعلى عليك وخسرانا » .

فأدركت أن الرجل وأتباعه من رجال الشرطة
فقلت وقد خفضت من لهجتي وألنت من ألفاظي :
« ولكنك إن أردت أن تفرق بيني وبين زوجتي
التي تزوجت بها على كتاب الله وسنة رسوله فأتك
لي فرصة أستشير فيها رجال الشرع إذ كل مسلم
تحميه نصوص القرآن الشريف وأظنك لا تأبى على
استعمال هذا الحق . وفوق ذلك فإن زوجتي لم تبد
رغبتها حتى الآن في الانفصال أو قبول ما تعرضه
علي أنت ... إنها هي التي بحثت عني ولم أكن
الباحث عنها ورضيت بي بعللاً وأحببتني دون أن تفكر
في أي أمر مادي مما تشيرون إليه . وحين قبلت أن
أقترن بها لم أكن أعلم من أمرها شيئاً ولم أكن
أعلق أية أهمية على غناها أو مركز أسرتها . لقد
كانت إرادة الله السابقة هي التي جمعتنا وأنتم مسلمون
فهل تمارضون تلك الإرادة ؟ »

فقال أكبر أصهارى سناً : « لا تجهد نفسك
في الكلام عن إرادة شكر ليب ورغبتها فإنها تتمنى
الانفصال أكثر مما نتمناه نحن »

وسمعت في هذه اللحظة جملة أصوات تصيح :



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

المروية

مجلة أسبوعية للقصص والروايات

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

السنة الثالثة

١١ ربيع أول سنة ١٣٥٨ - أول مايو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٥

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	
٣٩٤	هذا القرن أقصوصة مصرية بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
٤٠٣	لم يرغب أحد في وجودي عن الإنجليزية بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...
٤١٥	زئير الصين للآنسة منيرة سيم شاه بقلم الأديب إبراهيم ت. ج. ما
٤٢٢	الحب أقوى من الموت للكاتب الروسى ديمترى ميروجكوفسكى ... بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد
٤٣٣	حاجى بابا أصفهانى للكاتب الانجليزى « جيمز مور » ... بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

جسمه الدقيق صورة صليب
متساوى الأطراف على وجه
التقريب ...

ولم ير السائق بداً من إيقاظ
سيده فقال بصوت خافت :
— سعادة الباشا ... سعادة

الباشا ...

فلم يبعث نداؤه فيهما أى أثر للحياة ، فرفع
الرجل صوته قائلاً :

— سعادة الباشا ...

واستطاع نداؤه في هذه المرة أن يوقظه فتحرك
رأسه ، واضطرب شاربيه كأنه جناح نسر يخفقان ،
وقال بلسان ثقيل متلعثم :

— من ... ؟

— وصلنا يا صاحب السعادة ...

— وماذا تريد ؟

— عفواً يا صاحب السعادة ... تفضل بالنزول
لتصعد إلى مخدعك

ففتح الباشا عينيه المحمرتين وكأن النور اللطيف
الذى ينير المسكان آذاهما ، فأغمضهما بسرعة وتحسس
بيده ذراع زوجه العارى كأنه قرينة مملوءة بالمياه وقال
بصوته الثقيل :

— يا هائم ... زينب هائم ...

فشهقت المرأة شهقة قوية لو أصاب تيارها الباشا
لابتلعته ، وقالت بتبرم وسخط :

— من ... ؟

— وصلنا ...

— وماذا تريد يا باشا ؟

— تفضلى لتصعد إلى مخدعنا

هَذَا الْفَرْزُ

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ نَجِيبٍ مَحْفُوظٍ

انتصف الليل ؛ وخيم السكون ، وشمل الصمت
الدور والطرقات ، وانتشرت أنوار المصابيح الباهتة
كأنها تؤنس وحشة الأشجار الغروسة في الأفاريز
وقد مزق السكون الآمن بوق سيارة أتت
مسرعة من مبتدأ شارع العباس ، ثم وقفت أمام
الباب الحديدى المغلق لفيلا آية في الأناقة والجمال ،
ونفخ السائق في البوق مرات ، فخرج البواب من
كوخه الخشبي وفتح الباب ، واندفعت السيارة إلى
داخل الحديقة التى لا يبدو منها إلا أشباح الأشجار
ودارت دورة غير كاملة ، وصعدت منحدرًا ثم وقفت
أمام الباب الداخلى للقصر ، ونزل السائق مسرعاً
وضغط على مفتاح كهربائى على كشب من الباب
فأضاء مصباح وأرسل نوراً أزرق هادئاً ، ثم فتح
باب السيارة ووقف كالتمثال ...

وانتظر لحظات وثوانى ودقائق ، ثم أخذه العجب
فأرسل ناظره إلى داخل السيارة ، فرأى الباشا
وزوجه مستغرقين فى نوم ثقيل ، وكانت السيدة ملقمة
برأسها إلى الركن ، وجسمها الضخم الهائل ممدداً ،
يسدو فى الفستان اللامع الملتصق به ، كفرس
البحر ، وكان الباشا مسنداً رأسه إلى كتفها يحسبه
من رآه لفضالة جسمه ونحافته وقصر قامته — غلاماً
صغيراً . لولا شاربه الغليظ الطويل الذى يرسم مع

- أصد ؟! ... أنا لا أستطيع أن أتحرك
فكيف لي بالصعود !
- ما العمل ... هل نقضى الليل في السيارة ؟
— ولم لا ؟ ... المقعد وثير لين كالفرش ،
وهذه ضجعة مريحة فما معنى التعب ؟
- فقال الباشا للسائق وهو ما يزال منغمض الجفنين :
— يا حسن ... إذهب أنت .. سننام ها هنا
فارتبك السائق وقال بتحرج :
— العفو يا صاحب السعادة ... هذا غير طبيعي .
وسيرى البواب في الصباح ويرى الخدم ...
فأثنى الباشا إلى زوجه قائلاً :
— يا هانم هذا غير طبيعي وسيرى البواب في
الصباح ويرى الخدم !
— من الذى يكلمك ؟
— السائق
— أف ... لاتضايقنى ... ماذا همنا من البواب
أو الخدم أو السائق ؟
فقال الباشا للسائق بنفس اللهجة :
— أف ... لاتضايقنى ... ماذا همنا من البواب
أو الخدم أو السائق ؟
فسكت الرجل ولكن لم تطاوعه نفسه على
الذهاب فوقف ينتظر ، أما الباشا فأخرج منديله
وجفف عرقه ، وقال وهو يفك ربطة عنقه :
— الدنيا شديدة الحرارة ...
فاعتدلت المرأة في جلستها ، ولم تلبث أن صاحت :
— يا لطيف !
— مالك ... ؟
- المقعد يمد بي كأنى فى أرجوحة !
وأرادت أن تمسك بشيء ، فوقعت يدها
المتخبطة على شارب الباشا ، فتألم الرجل ونزع
شاربه من كفها وهو يقول ضاحكاً :
— دعى شاربي ... هل تحسبينه جبل
الأرجوحة ؟
— أنا فى غاية التعب
— شربت كثيراً يا زينب هانم ... شربت
أكثر مما ينبغى لك !
— وماذا كنت أستطيع أن أفعل سوى ذلك ؟
الكل كان يشرب رجالاً ونساء ... أنت نفسك
شربت كثيراً يا باشا
— أنا متعود على الشراب يا هانم ... أنا
أستطيع أن أشرب جانة كاملة فى ليلة واحدة !
— ومع هذا لم تهلك أعصابك الليلة ...
وعلا صوتك بالضحك على غير عادتك ، بل وضحكت
منى أنا يا ناقص !
— كيف ذلك ؟ ... هذا مستحيل
— مستحيل ! ... ألا تذكر ساعة خروجنا
من البوفيه ؟ ... كنت تسير ورأى فنظرت إلينا
عديلة هانم تلك المرأة الوحقة وقالت : « كان الله فى
عون إبراهيم باشا فهو زوج ومروض » وضحك
جميع المدعون وضحكت أنت أيضاً !
— أنا لا أذكر هذا !
— طبعاً لأنك لم تكن فى وعيك ، ومع ذلك
فأنت تزعم أنك تستطيع أن تشرب جانة فى ليلة
واحدة ... أليس كذلك ؟ ولكنى انتقم منك

- فضحكت منك مع الضاحكين بعد ذلك مباشرة
— وكيف كان ذلك ؟
— كان جماعة من الحاضرين يتعجبون لنحافة
قدك فاعتذر الأمير الالاي فتحي بك عن صغر حجمك
بقوله « إن شاربك الثقيل يعوق جسمك عن النمو »
فضحكت مع الضاحكات والضاحكين ... وواحدة
بواحدة
— ياله من ضابط وقح !
— أنت المسئول عن جعلنا أضحوكة في كل
مكان ... لماذا لا تقص شاربك ؟
— أقص شاربى ؟ ... هل جنت يا هانم ؟ !
— وما وجه الجنون في هذا ؟ ... إنه حمل
ثقيل على جسمك الرقيق
— لا يكون الرجل رجلاً بجسمه !
— أيسكون رجلاً بشاربه ؟
— معلوم ! أنظري إلى مثلك ، فانت امرأة
ولك جسم فيل .. ولكن هل توجد امرأة بشارب ؟
— الحق أقول لك إنى هممت مرة بقص شاربك
في أثناء نومك ... لولا الخوف
— وما الذى أخافك ؟
— أشفت من أن يصبح زواجنا لاغياً
— وله ؟ هل أنت زوجى أنا أم زوج شاربى ؟
— الحقيقة أنك بغيز هذا الشارب تغدو غلاماً
لما يبلغ السن القانونية للزواج !
— هذا هذر سكارى والأولى بك أن تنحني
جسمك الهائل ، فضخامته الشادة هى المدعاة الحقيقية
إلى السخرية ... ألم ترى صديقاتك الليلة ؟ .. كلهن
- نحيفات اللحم إلا راضية هانم وهى على كل حال لا تزن
نصف وزنك ...
— أنت المسئول عن وزنى
— أنا !
— نعم ... لأنك كنت دائماً تؤكدى أنك
تحب اللحم العجالي والبقرى ... وأنتك تحتقر الوزن
(الهايف) ! ... وها أنت ذا تملص من تبعاتك
كما كنت تفعل وأنت وزير !
— ما شاء الله !.. هذا قول أعدائى السياسيين ،
وأرى أنى أجد فى بيتى كما جحدت من قبل فى ميدان
السياسة الملعون وأنى خسرت الدنيا جميعاً
— بل ربحت شيئاً مؤكداً ...
— وما هو ؟
— أنك صاحب مقام رفيع !
— يا هانم أنت فى سكر كالحشاشين ، والحق
أنك تستأهلين رتبة ولكنى لا أدرى أى رتبة
تناسبك ... فلا أفكر قليلاً ... ما رأيك فى لقب
الصدر الأعظم ؟ !
... وهنا قطع حديث الزوجين طرق عنيف
على باب القصر الخارجى ، وشق الصمت المخيم صوت
منكر يصيح :
— يا بواب ... يا عم محمد ...
فسكت الزوجان دهشة واعتدلاً قليلاً فى جلستهما
وأرهما السمع ، وخف السائق مسرعاً إلى الباب
ليرى ما هنالك ...

كان الشرطى المكلف بالحراسة الليلية يسير

- المهيني في شارع العباس ، ولما بلغ قصر الباشا سار بجذائه وعرج ملازماً للسور إلى شارع الإلهامى وانقبه من سهوة إلى حركة في أعلى السور فنظر إلى مصدرها فرأى رجلاً يقفز من الحائط ويسقط على بعد ذراع منه ، وقد تولاه الذعر لظهور الشرطى المفاجئ فتسمرت قدماه بالأرض .. وأمرع الخارس إليه وقبض على ذراعه بقسوة وهو يصيح به :
- يا ابن الملعون ! أتحسب البلد بلا حكومة ؟ وكان المقبوض عليه أفندياً ، أنيق الملبس ، كشف نور المصباح الخافت في وجهه عن ملامح وديعة ونظرة أدنى إلى الرقة والجبن منها إلى الشر أو التحدى ، ففحصه الشرطى بنظرة شديدة وهو يتحسس جيوبه وقال له متهمكاً :
- إخالك لم تسرق سوى هذه البذلة ! فقال الشاب وهو يلهث من الإضطراب والخوف :
- أتركنى يا حضرة الشاويش أنا لست لصاً كما تتوهم
- عفارم عليك ... فمن تكون يا مولانا ؟
- أقسم بالله العظيم أنى لست لصاً ... ولم أسرق في حياتى قط وهاك جيوبى فتشها كما تشاء
- آه ... هل كنت فى القصر زائراً إذآ ؟
- أنا ... أنا من أهل القصر
- فهمت يا سيدى فهمت ... أنت ابن الباشا بلا شك وما قفزك من السور إلا رياضة بدنية كنت تقوم بها فى هذه الساعة المتأخرة من الليل !
- بل أردت أن أخرج بسرعة
- وما الذى يدعوك إلى الخروج بعد منتصف الليل ؟
- سفر لا يقبل التأجيل
- أو ليس للقصر باب ؟
- لم أجد وقتاً لإيقاظ البواب
- يا مغيث ... هذا حقاً عصر السرعة ... وليس ببعيد أن أرى غداً من يقفز من نافذة الطابق الثالث أو الرابع لأنه ليس لديه متسع من الوقت يهبط فيه السلم ... عوفيت يا سيدى عوفيت ...
- أراك لا تصدقنى يا حضرة الشاويش ...
- أؤكد لك أنى من أهل القصر ... غير أنى استسهلت أن أقفز على هذا السور القصير
- معلوم ... معلوم ... ليس الذنب ذنبك ... ولكنه ذنب من يحتم تعليم الألعاب الرياضية والتدريب العسكرى ... على أنى أجد نفسى مضطراً إلى تأخيرك يوماً أو عدة أيام وربما عدة أشهر
- قال ذلك ودفعه أمانه .. ولكن الشاب ألصق قدميه بالأرض وقال بتوصل :
- لست لصاً ... لست لصاً والله ... أنا من أهل القصر
- إذا كان ما تقواه حقاً فما عليك إلا أن تدخل القصر ثانية فأصدقك
- حسن ... أترك ذراعى وسترى ...
- أدخل البيت من بابه ... تعال
- وساقه إلى باب القصر وطرقه ، وهو ينادى البواب ...
- وأنى السائق على صوته مسرعاً وأيقظ البواب فقام الرجل ساخطاً وفتح الباب ، وأحدث ظهور الشرطى والشاب المقبوض عليه دهشتهما ، ونظرا

إليهما متسائلين ، فقال الشرطي :

— قبضت على هذا الشاب وهو يقفز من سور القصر ، فادعى أنه من أهل الدار فهل تعرفانه ؟
فأضاء البواب المصباح الكهربائي ، ونظر السائق إلى وجه الشاب الشاحب وقال مسرعاً :

— هذه هي المرة الأولى التي تقع عليه عيناى ...
وسأل البواب الشرطي :
— هل وجدت معه شيئاً ؟
— سيفتش فى القسم

وفى تلك اللحظة سمع صوت الباشا الثمل يصيح فى سكون الليل :

— يا حسن . من عندك ؟
فهرع السائق إلى الباشا ، وطمع الشرطي فى سماع كلمة ثناء من صاحب السعادة فساق الشاب أمامه وتبع السائق ، وقال حسن لسيده :
— قبضوا يا صاحب السعادة على لص يقفز من سور القصر .

فقام الباشا واقفاً وغادر السيارة ، وهو يقول :
— كيف ؟ دى لولو كانت فى البيت وحدها
وهرع نحو الباب الداخلى وتبعته زوجته فى تعثر ظاهر وكان الباشا يصيح : لولو .. لولو !

وفتح الباب وظهرت غادة جميلة فى لباس النوم الأبيض الشفاف ، أشرقت فى الظلماء كالشمس ناشرة فى الجو عطراً يفعل بالأعصاب فعل الموسيقى العذبة . فصاح الوالدان :

— الحمد لله .. هل أنت بخير يا لولو ؟
فأجاب بصوت له فى الأذن وقع كالعطر فى الأنف :

— نعم يا ماما ... ماذا حدث ؟
فقال الباشا :

— قبضوا على لص يقفز من سور القصر .
نفق قلب الفتاة وقالت بصوت متهرج :
— لص !

— ألم تسمعى حركة ؟
— كلا ...
— الحمد لله ...

وسار الباشا إلى حيث يوجد اللص والشرطي والسائق والبواب وتبعته زوجته ولولو ، ورأت الفتاة وجه المقبوض عليه على ضوء المصباح الهادى فاشتد خفقان قلبها ، وزاغت عيناها ، وخفضت بصرها ذاهلة مضطربة ...

وقال الشرطي :
— يدعى هذا المجرم أنه من أهل البيت
يا صاحب السعادة
فأنعمت زينب هانم النظر فى وجه الشاب بعينين أطفأت الخمر نورهما وقالت :

— كذب ... هذا لص جرىء
ولكن ساورها شك فى صحة بصرها فالت إلى زوجها وسألته بصوت خافت :
— أليس كذلك يا باشا ؟

فنظر الباشا إلى الشاب بعينين ذاهلتين كعيني زوجته وقال :

— بلى ... بلى ... هذا لص ولا شك
ثم مال على أذن لولو وسألها :
— أليس كذلك يا لولو ؟
ولم تجب الفتاة أو على الأصح لم تسمع السؤال .
فسأل الباشا السائق :

إصلاحه بالهروب فوقعت في يدي الشرطي .. لست
لصاً ... قتشوني فلن تعثروا على شيء

— وماذا شربت ؟

وكان السائق في حالة سيئة من الغيظ والجنون
فقال :

— هذا لص كذاب يا صاحب السعادة وينبني
أن نسوقه في الحال إلى القسم

ولكن الباشا انهره قائلاً : لا تقاطع التحقيق
وسأل الشاب وهو يهز رأسه بدهاء :

— ماذا شربت ؟

— ويسكي يا صاحب السعادة

فسأله زينب هانم :

— بالصودا ؟

— نعم يا سيدتي

فالت المرأة على أذن زوجها وهمست :

— معذور ...

فرد عليها قائلاً بصوت خافت :

— نعم ... الويسكي بالصودا شراب ملعون

ثم دنا من الشاب وهو يقول : دعنا نفتشك

أولاً ... فاستسلم الشاب إليه ، ودس الباشا يديه

في جيوبه ولم يجد سوى حافظته فأراد تفتيشها ،

ولكن الشاب لم يمكنه منها ، وأثارت مقاومته

شكوك الحاضرين ، فقبض الشرطي على يديه بقسوة

وأخذ الباشا الحافظة ، وكانت لحقت به زوجته وابنته ،

وأخرج محتوياتها وكان بها ورقة من ذات الجنيه ،

وعدة بطاقات وصورة صغيرة ، ولاحظ منه نظرة

عارضة إلى الصورة ، فأيقظت انتباهه وشجذت بصره

— هل تعرف هذا الشاب يا حسن ... ؟ هل
هو من أهلنا ؟ !

وكان السائق حسن يخلتس من لولو نظرات
ملتفة ويراقبها بارتياح ، فقال بانفعال :

— هذا لص مجرم يا صاحب السعادة

فقال الباشا للشاب بلسان متلعثم ثقيل :

— كيف تسول لك نفسك ادعاء قرابتي ؟

— لست لصاً يا صاحب السعادة

— فماذا كنت تفعل هنا ؟

— لا أدري يا صاحب السعادة

— ما شاء الله ... هل سقطت من طائرة في

حديقتي ؟

— كلا يا سعادة الباشا ... ولكنني وجدت

نفسى بقتة في الحديقة ... لا أدري كيف ساقطني

قدمي إلى هنا !!

فقال الشرطي :

— ستجد نفسك بقتة في السجن إن شاء الله

وغضب الباشا لمقاطعة الشرطي وقال له بعنف :

— يا عسكري ... لا تقطع على التحقيق ...

فقال الشرطي بسرعة :

— حاضر يا أفندم

وسأل الباشا الشاب :

— كيف تدخل إلى الحديقة وأنت لا تدري ؟

— أنا آسف يا صاحب السعادة ، كنت سكران

وقادتنى قدمي إلى هنا من غير أن يراني أحد ونمت

على الحشائش بضع ساعات ، ثم استيقظت في حالة

أدنى إلى الوعي والانتباه ، فأدركت خطئي ، وحاولت

— لا أقبل منك كلاماً يأسفني ، لقد قضت
سفاهتك على أسباب رزقك في هذا البيت . يا عسكري
دع هذا الشاب لي الآن ، وخذ هذا الوقح خارجاً ...
وصدع الشرطي بما أمر ، وخلا المكان إلا من
الباشا وزوجته والشاب .

قال الباشا للشاب بلهجة تم على التهديد والوعيد
— ألا تعرف من أنا ؟

— أعرف طبعاً يا صاحب السعادة ...
— فكيف إذاً تسول لك نفسك انتهاك حرمة

بيتي ؟

— أنا غايي شريفة يا صاحب السعادة ...

— وهل يوجد شرف بعد منتصف الليل ؟
وسألتها السيدة :

— ما صناعتك ؟

— موظف ...

— هذا يعني أنك صعلوك ...

— صعلوك !

— نعم ... إن الكاتب الحقير الذي لا يجد
له وظيفة تشرفه يطبع على بطاقته كلمة موظف وهي
لا تعني في الواقع إلا أنه كاتب حقير ... أليس
كذلك ؟ ...

— ... !

— في أي وزارة ؟

— المساحة ...

— ما شاء الله ... وما هي مؤهلاتك ؟

— ... !

— ما هي مؤهلاتك .. أجنبي ؟ !

فنظر إليها يامعان فرأى صورة لولو ، لولو بذاتها ،
هل يصدق عينيه ؟ ... أم أنها الخمر ؟ ... ونظر إلى
زوجه يستعين بعينها فرأى بهما دهشة وإنكاراً ،
والتفت إلى لولو فرآها تنسحب بخفة وتعود إلى القصر
تسير بخطوات متزنة متتدة غير مبالية بشيء ...

وسمع الشرطي يسأل بصوته الغليظ :

هل وجدت بها مسروقات يا صاحب السعادة ؟
فرد محتويات الحافظة إلى موضعها وأعادها إلى
صاحبها وهو يقول بلسانه المتلعثم :

— كلا ... ما بها يخصه دون غيره ...

وكان السائق على بعد قريب من مولاه فاستطاعت
عيناه الحادتان أن تريا ، فارتد إلى حالة جنونية من
الغضب والغليظ وقال لسيدة بصوت متهدج :

— إن عدم العثور على شيء معه لا يبرئه بحال
وهو ولا شك قد حاول السرقة فلم يفلح .

فقال الباشا :

— سأتحقق مما إذا كان سكران ...

وبال على فم الشاب يشمه ثم قال :

— الآن حصص الحق ... هذا الشاب سكران
بغير شك ...

فكاد السائق يجن وقال بغضب :

— العفو يا صاحب السعادة ، العادة أن الإنسان
إذا كان شارباً لا يشم الخمر في أفواه الآخرين !
فاتفجع الباشا غضباً ، وقتل شاربه بغطرسة
وصاح بالسائق :

— إنه شارب يا كلب !

— العفو يا صاحب السعادة ... أنا أغني ...

فوقعت في غرام صعلوك متشرد ممن يسمونهم بالموسيقين !

— لا تتكلم عن صهرك بمثل هذه الألفاظ ،
فليس هو الآن بالصعلوك ولا بالتشرد ، ولكنه
مفتش موسيقى محترم بوزارة المعارف !
— أنا الذي عينته في هذه الوظيفة التي هو غير
أهل لها بحال ... أنا الذي خلقتة

— اخلق هذا أيضاً من أجل لولو
ولكنه غير قابل للخلق ... لقد كان الأول
مغنياً فاستطعت أن أصنع منه مفتشاً للموسيقى وإن
كان لا يفقه شيئاً في الموسيقى ، ولكن ما عسى
أن أصنع بهذا وكل مؤهلاته البكالوريا ؟ ... الأوفق
أن نطرده !

— ليت ذلك كان ممكناً ! ... ولكنك تعلم
أن لولو عنيدة صلبة الإرادة ، فلنوار سواتنا ونصنع
منه شيئاً ...

— مهما فعلت فلن يكون أكثر من كاتب
— حنانيك يا باشا ، هل شح الزمان حتى
تزوج ابنة واحد باشا مثلك ووزير سابق (وزير
لاحق إن شاء الله) من كاتب ؟ !
— وما ذنب الزمان إذا كانت ابنة الباشا مجنونة
مثل لولو ؟

— دع أحاديث الغضب جانباً ، وقل لي ألا يمكن
إلحاقه بأي وظيفة في مفوضية أو قنصلية ؟

— مفوضية أو قنصلية ! .. أهذا كلام يقال
على واحد كل مؤهلاته البكالوريا ؟
— أف .. أنا أعلم جيداً أنك متعب ومهما
(٢)

— البكالوريا ...

— بس يا خبر أسود .. وماهيتك ؟

— ... !

— وماهيتك .. أتوسل إليك أن تجيبي !

— ستة جنهات !

— عال .. ولماذا تحب ابنة باشا ؟

— سيدتي ..

— لماذا لم تحب ابنة كلب من طبقتك ؟

وتهد الباشا من قلب مكلوم وقال للشاب :

— تفضل مع السلامة ..

وصعد الزوجان إلى مخدعهما وقد نال التعب
منهما كل منال فارتقى الباشا على « الشيزلنج »
واستلقت السيدة على الفراش وكانا واجهين
حزينين ...

وتهد الباشا وقال لها :

— أيعجبك هذا ؟

— أنت دائماً تلتقي على تبعة كل شيء ..

— أنا رجل ينوء منكباه بعبء ثقيل سواء
في الوزارة أو مجلس الشيوخ أو الشركات ، فأنت
وحدك المسئولة عن فساد أخلاق بناتك !

— لا تتكلم يا سيدي عن بناتي بهذه اللجة
التي لا أقبلها بحال ... إني أعلم أنهن أشرف النساء
جميعاً !

— إذا أنت ترضين عن هذه الأفعال

الشائنة ؟ ...

ألا ترى أن مأساة الأخت الكبرى تتكرر؟ تلك
الفتاة البائسة التي أردت أن أزوجه من طبيب كبير

يكن من أمر فينبني ألا تكون درجته أقل من السادسة وألا تقل ماهيته عن خمسة عشر جنياً ... وأمامك أصدقاؤك الوزراء فليختره أى واحد منهم سكرتيراً له ..

— ليس الأمر سهلاً يا هانم كما يبدو لك فالصحف تقف بالمرصاد للمحسوبيات والاستثناءات — وهل يرضى الصحف أن تزوج ابنة واحد باشا من كاتب بسة جنهات ؟

— إن للصحافة هموماً لا تدع لها وقتاً للتفكير فى مسألة زواج لولو !

— وإن مستقبل لولو لفوق الصحافة وهووما فينبني أن تخلق هذا الشاب من جديد ...

— هل كتب على أن أخلق كل يوم شاباً من جديد ؟

— أرجو أن تذكر أنك كنت موظفاً بائساً حين تزوجتك وأنه لولا المغفور له والدى ...

— إن أباك لم يخلقنى ولكنه أتاح الظروف المناسبة لعظمى الكامنة !

— صه .. لولا أبى لكنت الآن موظفاً بالدرجة السابعة على أكثر تقدير ؟

— أبهذا الكلام تدافعين عن ذوق بناتك القدر ؟

— معلش يا باشا، إني ورثت عنى ذاك الذوق الذى حملنى فيما مضى على الزواج منك !

وكان السائق هائجاً غاضباً ، يلحن ويتوعد ، والشرطى يهدى دوعه ويعزبه عن « قطع عيشه »

بكلمات لا تغنى وقد قال له :

— أنت مخطئ يا حسن ... لماذا تتداخل فيما لا يعينك ؟

فقال محتدماً :

— أهذا رجل ؟

— وما الذى يغضبك أنت ؟ ... إنها ابنته لا ابنتك !

ثم غمز بعينه وتساءل :

— أم هنالك سبب آخر لهذا الغضب ؟ ... أهو غضب أم غيرة يا شيطان !؟

فلما لم يرد عليه الجواب قال له وهو يودعه :

— معلش يا حسن ... فالحق أن الباشا لم يعرف ربى غير شنبه !

بجيب محفوظ

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف مونة ابو طاني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً

المشوهة من عمل السنوات
العديدة، بقطعة الصوف الزرقاء
المطروحة على ركبتى وقد بلغت
في ذلك اليوم السادسة والسبعين
من عمري فالיום هو عيد
ميلادى ولكن أحداً لم يذكر
ذلك ولم يشعر به ، لا ابنى هارى
الذى أعيش الآن معه ولا امرأته
الينور الذكية الجميلة ولا ولداها.

قضيت اليوم كله أدأب أملاً حياً حزيناً في أن
يتذكر أحدهم فيحضر إلى ويقبلنى ويقول لى :
« عيد سعيد يا عزيزتى ! » . ولكن لم يكن هذا
الأمل إلا حماقة ، فقد كانوا جميعاً مشغولين بشئونهم
الخاصة . لذلك نسينى هارى والينور وحفيداى ،
وكذلك نسينى أبنائى الآخرون : توم وهو محام
في برمنجهم ، وآلان الطبيب في نورثامبتون وجورج
الذى كان يحرر جريدة في مدلاندرز ، وجين التى
تعيش في لندن وتكتب لإحدى المجلات النسائية
مقالات تتقاضى عليها أجوراً عالية وقد قضيت عندها
جزءاً من شتاء العام الماضى

ولكن لا بأس ! فأنا امرأة شبيخة وأبنائى
جميعاً جد مشغولين ولهم من نجاحهم في الحياة ما يلهيهم
عن الاهتمام بأمر عجوز مثلى . ولم يعرفوا بعد الشقاء
الذى يشعر به الإنسان عند ما يشيخ ويرى الحياة
تمر به مندفة وتتركه وراءها . إنهم لا ينتظر منهم
أن يدركوا ما فى الشيخوخة من قسوة ووحدة .
يا لهول ما فى الشيخوخة من وحشة وخوف !
لقد كان كل شىء قبل ثلاث سنوات ، مخالفاً
فيما يتصل بحياتى لما هو كائن اليوم ، إذ كان زوجى
جون لا يزال على قيد الحياة فلم أكن أبالي بالشيخوخة

لمرغاك في جوجوى

الى الآن
عن الانجلىزى
بقلم الاستاذ عبد الحميد حمادى

« هل هناك مأساة أعظم من أن يكون
الانسان غير مرغوب في وجوده ؟ هنا قصة مثيرة
عن امرأة واجهت هذه المشكلة وما زالت تواجهها
الى أن ... »

جلست إلى جانب شباك غرفتى الوحيدة التى
فيها أنام وفيها أجلس ، فى خط رفيع من شعاع
الشمس المائلة إلى الغروب ، وقد طرحت على ركبتى
قطعة القماش التى كنت أحيكها

ونظرت بعينين كليتين إلى الجدران العارية
القائمة على الجانب الآخر من الطريق ، وهى كل
ما يمكن أن تقع عليه العين من شباك غرفتى ونحن
الآن فى شهر مايو من فصل الربيع وقد تفتحت
الزهور وعطر شذاها الجو

وقد مضى على الآن ثلاث سنوات لم تقع عيني
فى خلالها على زهر الخزامى الجميل ، وهو يستقبل
الربيع باسمًا جذاباً ، ولا شممت شذى الليلق المنعش
للصدور . مضى ثلاث سنوات على اليوم الذى مات
فيه زوجى جون ، فاضطرتني موته لأن أعيش متنقلة
بين بيوت أبنائى ثلاث سنوات طويلة جوفاء قضيتها
وحيدة فى عزلة عن الناس !

جلست إلى جانب الشباك تعبت أصابعى الخشنة

تنزل بي وهو إلى جاني . لقد كان حبه وقربه مني يملآن نفسي شجاعة ويحيطان حياتي بالهدوء والسعادة والآن قد ترك جون هذا العالم وتركني وحيدة تكتنفي الحيرة والخوف في عالم هو في عيني شديد الاتساع والحدأة وسرعة الحركة

ولقد عزاني عما أنا فيه أن جون لا يستطيع أن يعلم الحقيقة ، فلقد كان واثقاً من أنني سأكون هنية وفي خير بعد ذهابه . لقد قال لي وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة :

— سيعني بك الأولاد يا ماري ولن تكوني وحيدة يا عزيزتي ، سيحبك أبناءنا ويرفون حياتك نعم ، فبعد أن انتهى كل شيء وبعد أن رأيت جون يوضع في مقبره الأبدى بمقبرة البلدة الصغيرة أخذني أبنائي معهم . فأقمت أول الأمر مع آلان ثم مع توم ، وبعد توم أخذتني جين فقضيت معها فترة من الزمن وأنا الآن مقيمة مع هاري . لقد أدى الجميع واجبهم ، ولكن يبدو لي على صورة ما أنهم أصبحوا لا يشبهون أبنائي الذين من لحمي ودمي . فهم يعاملونني كأنني غريبة في بيوتهم ، غريبة لا تتصل بهم ولكن يجب أن يتحملوا عبئها

لقد أزعجني ذلك وشعرت في أعماق قلبي بشيء صغير جازع يصيح بهم طالباً الحب والراحة والتفاهم ويرجوهم أن يقطعوا من حياتهم الملوثة حركة فترة وجيزة يقولون لي فيها إنهم لا يزالون يحبونني ويحتاجون إلي ويرغبون في وجودي إلى جانبهم ، كما أحبوني واحتاجوا إلي ورغبوا في وجودي عند ما كانوا أطفالاً

ولكنني لم أنطق قط بهذه الصيحة الدفينة ،

فقد علمتني هذه السنوات الثلاث ألا أقول شيئاً وأن أبتعد عن طريقهم . لقد كان لهم من مشاغلهم وضيق وقتهم وشدة ملهم ما يحملني بعاطفة الأمومة على أن ألتبس لهم في أعماق قلبي العذر من عدم إقبالهم علي

كانوا يتبرمون بطراز ملابسهم ، كانوا يكرهون القماش المطبوع الذي أخيط منه الملابس ، والمثير الأبيض الذي كنت ألبسه فوق ثوبي . فابتاعوا لي رداء من الحرير الأسود لبسته إرضاء لهم ، ولكنني كنت أشعر أنني فيه غريبة غير مرتاحة ، أشعر بالوحشة إلى جلايبي القطنية القديمة الطراز

كذلك كانوا يتبرمون بأسئلتني إذا خطر لي أن أسألهم سؤالاً ، ولقد سمعت لندا امرأة «آلان» تقول في كثير من الضجر :

— إن أمنا متعبة تشبه الأطفال في أسئلتها ذكرت هذا كله في جلستي هذه فسرى الجزع إلى نفسي

وذكرت أن جين انتهرتني مرة إذ قالت غاضبة : — إنك تثيرين أعصابي يا أمي بكثرة كلامك على أمور قد مضت . ألا يمكن أن تفهم ابنتي أن الماضي هو كل ما أملك في الحياة ؟ لقد سرت نظرة التأذي على وجهي عند سماع هذه الكلمات وامتلات عيناى الكيلتان بالدبوع البطيئة ولكن جين لم تلحظ شيئاً من ذلك

لقد تبين لي الآن أنني كنت دائماً عقبة في طريقهم ، كلما حاولت المساعدة في بعض الأعمال المنزلية ، وما كنت أقصد بذلك إلا أن أجعل لنفسي بينهم قائدة وأن أملأ فراغ ساعات أيامي الطويلة

الفارغة . كنت أود أن أذهب إلى المطبخ فأسوي من حين إلى حين بعض الفطائر ، كما كنت أحب أن أصلح ملابس أحفادي أو أنظف غرفة الجلوس ولكني لم أكّد أقدم على عمل من هذه الأعمال لأول مرة حتى عبست الينور وقالت وهي تلوى رأسها :

— إنني أفضل أن تترك ذلك للخادم

وطلبت مني لندا ألا أتدخل في شؤون بيتها قائلة في صراحة :

— إنه (بيتي) كما تعلمين وأنا أفضل أن أرتبه على الطريق التي أراها

وشعرت من جراء عدة أمور صغيرة كهذه أنني قد جرحت وأنني لم أكن في بيوت أبنائي إلا غريبة طفيلية . وهكذا تعلمت أن أكتف ساعدي وأن ألزم غرفتي وإن كنت أشعر فيها بالوحدة والفراغ

وحدث مرة في بيت آلان ولندا أن كان هناك بعض الضيوف لتناول الشاي ، فلبست ردائي الجديد الأسود ، وجعدت شعري الأبيض الرفيع ، وشبكت بنيقتي بدبوس رأسه من حجر الأمايست كان زوجي جون أهدانيه في الذكرى الثانية لزوجنا ، ثم نظرت إلى المرأة الناقد لأرى إن كان في منظري ما يدعو إلى النفور ، ومهرت بلطف بكفي على ردائي وعلى شعري ، ثم هبطت السلم إلى غرفة الاستقبال حيث كان الضيوف جلوساً ، على أنني عند ما وصلت إلى الباب وقفت لحظة مترددة .

وأحسست في وقتي بارتجاف يدي من التأثير العصبي كما أحسست بقلبي ينبض بشدة . ترى أكان في منظري ما يدعو إلى الاشمئزاز ؟ لقد سألت نفسي هذا السؤال غير مطمئنة إلى الجواب . وسألت نفسي

أيضاً : ترى ترحب لندا بقدمي ؟ وهل تبسم عند ما أقبل عليها وتقدمني لضيوفها ؟ من يدري ، ولعلها أيضاً تسمح لي بمساعدتها في تقديم الشاي والفطائر الصغيرة . لقد كنت أرجو من أعماق قلبي المهجور أن تسمح لي بأن أجالس المدعوين

فتحت الباب في استحياء ودخلت ، فتلفتت . لندا وإذا رأيتني قطبت جبينها علامة عدم الارتياح لوجودي . ثم قالت في جفاء :

— لقد حسبتك ستبقين في غرفتك فأجبت :

— لقد أتيت لقضاء فترة وجيزة يا لندا وكانت عيناى وأنا أتكلم تتوسلان إليهما في أن تسمح لي بالبقاء وأن تشفق علي

فتهدت لندا ثمهد المقهور وأشارت إلى كرسي في ركن بعيد من أركان الغرفة فجلست عليه في هدوء وأخبأت يدي المرتجفتين في حجرى حتى لا يلاحظ الضيوف اضطرابي .

وتكلم النسوة في أمور لا أعلم من أمرها شيئاً وتجاهلن محاولاتي المتواضعة التي كانت تنم عن رغبتى في الاشتراك في الحديث ، فشعرت بأنني قد زجرت وأننى وحيدة لا موضع لى في ذلك المكان . لذلك وقفت في الحال ، وتركت الغرفة في سكون ، مقفلة ورأيت الباب في بطاء ، ثم تسربت إلى غرفتي فترعت ثوبي الأسود ، وفككت دبوس الأمايست ، وبقيت فترة طويلة ممسكة هذه الهدية الزوجية العزيزة في يدي النحيللة المرتجفة ، بينما سالت الدموع على وجنتي المجمعتين .

ولم ألث أن قلت لنفسي :

— إنني لشيخه حمقاء إذ أبكى .

لم يبق من أثر لأشعة الشمس حيث جلست على الكرسي الواطي في غرفتي ، ولم تلبث عتمة الفسق أن ملأت الجو ، على أنني ما زلت جالسة في مكاني مطبقة جفني مطلقة لفكري العنان يسبح في ذكريات الماضي السعيد الغامض .

عاد الخيال إلى مزرعتنا الصغيرة في كورنيش ، تلك المزرعة التي لا تنفك عواطفني تحن إليها كلما شعرت بالفراغ الذي يكتنفي وسط المدينة الآهلة فارتسمت أمام عيني صورة العريشة والحقول والبيت الأبيض الخشن المنظر الذي ولد فيه أبنائي الخمسة وشبوا ، ورأيت غرفة النوم الكبيرة وقد بهت ورق جدرانها ورأيت السرير الخشبي الكبير المزخرف الذي كنت أعاني عليه آلام الوضع كلما أخرجت أحد هؤلاء إلى عالم الوجود .

رأيت نفسي بعين الماضي شابة صغيرة رشيدة سريعة الحركة لا عجوزاً بطيئة كما أنا الآن ، ورأيتني منتقلة في خفة من مكان إلى مكان أنجز عمل البيت وأربي الصغار . رأيتني أغسل الملابس والآنية ، منحنية على الوجاء متعبة شاحبة ، مشغولة في الحديقة في أشعة شمس الصيف الحارة ، معدة نار الشتاء بيدين خشنهما وشققهما الصقيع ، معنية بتغذية الأطفال وتنظيفهم وتنشئتهم على الصدق ومعرفة الحقائق ، مجتهدة في إفهامهم معنى الشرف والصبر والكرم ، ولا أذكر أنني أهملت في ناحية من هذه النواحي ، وإنني لأسمعهم الآن كما كنت أسمعهم أطفالاً يرتلون صلاتهم كل مساء .

إنني لأذكر كيف كنت أنا وجون تقتصد ونقتصر على نفسينا لنستطيع أن نبتاع للأطفال أحذية جديدة ولنسدد لهم نفقات التعليم في المدارس ، ولنمكّنهم من أداء مدة التمرين للمهن التي أعدتهم لها دراساتهم وإنني لأسمع جون وهو يكرر قوله :

— إن أبناءنا هؤلاء ياماري ليستحقون كل هذا العناء والتعب فسيأتي يوم نفخر بهم فيه ، وسيكونون مبعث رفاقتنا في شيخوختنا .

ولقد صدقت زوجي حينذاك ، وتطلعت إلى الزمن الذي يصبح فيه أبنائي رجالاً ونساء ناجحين في الحياة يؤلفون بيوتاً هنية سعيدة نزورها أنا وجون ، فنجد فيها أحفاداً لنا أعزّهم وأذلهم وأهزّ مراجيحهم لأنهمهم

مرت بي هذه الذكريات وأنا جالسة في مكاني ساعة الفسق فابتسمت ، فإن أبناءنا لم يدعوني وأبائهم لزيارتهم إلا نادراً ، وبعد أن غادرونا الواحد بعد الآخر بقينا نحن الاثنين في مزرعتنا زوجين شيخين وحيدتين منسيين

أما الأحفاد ، فقد كانوا في الحق أطفالاً من الطراز الحديث فلم يسمح لي بأن أدلهم أو أهزهم ، بل إنني حتى لم أرقط « آن » ابنة جورج ، فقد كانت في المدرسة التي ألحقها بها أبوها في سويسرا ، عندما مات جون ، ولم تحضر جنازة جدها

نظرت إلى يدي الجافتين المشوهتين المبسوطتين على ركبتني ، وذكرت كيف كانت هاتان اليدين تتسابقان في سرور في سبيل العناية بالأطفال ، فأصبحنا الآن معديمتي الفائده شيختين مشوهتين لا يرغب فيهما أحد .

وفي هذا اليوم يوم ذكرى ميلادى هيات لى
الحفاة أنهم سيحضرون إلى مهنئين معبرين عن حبهم
لى وعطفهم على !!

أحنيت رأسى فى بطاء وأطبقت جفنى
وفى صباح اليوم التالى بكرت فى الهبوط إلى
الطابق الأول لأستطيع الاجتماع بهارى وحده ، فلما
وجدته فى غرفة الطعام ابتسمت ابتسامة مرتجفة
وقد جهدت فى تملك أعصابى والتزود بالشجاعة ،
وقلت وقد بدا فى صوتى الرفيع أثر الاضطراب على
الرغم منى :

— لقد كنت أفكر فى أمرى يا بنى وقد
وجدت أن بى حاجة إلى تغيير الهواء ، وإننى لأحب
أن أبقى هنا معك أنت وإلينور ، ولكنى أرى أن
أسافر الآن إلى جورج ، فهل لك أن تكتب إليه
لتخبره بأننى ذاهبة إليه فى الحال ؟

لم يكدهارى يسمع هذه الكلمات حتى بدا أثر
الارتياح على وجهه ، فوخر ذلك نفسى ، وآلمنى أن
أرى ابنى أيضاً مسروراً للتخلص منى .

فرد جورج فى شىء من التذمر يقول إنه مستعد
لاستقبالى إذا كان من الضرورى أن أذهب . فأجابته
إلينور برسالة تلغرافية إن ذلك من الضرورى جدا .
وهكذا أعددت حقيقتى العتيقة وأر كيتى هارى القطار
وقبلنى قبلة وداع عاجلة معتذراً بأنه مضطرب
يسرع فى الذهاب لإرتباطه بوعده هام يتصل بأعماله ؛
على أننى لم أكده أشعر بما فى عمله من إهمال لشأنى ،
لأنى بعد أن علمت أن ليس بين أبناى من يرغب
فى وجودى لم يبق ما هو أشد من ذلك إبلاماً لنفسى .

وبينا أنا غارقة فى هذه الأحلام إذا صوت إلينور
الحاد يخترق غشاء رأسى ويقطع على أحلامى ، متسرباً
خلال باب غرفتى نصف المفتوح ، كانت مقبلة من
الردهة ، وكان كعبا حذائها العاليان يقرعان الأرض
بشدة تبعث فى الجوصدى عالياً ، يسير هارى إلى جانبها
فى خطوات بطيئة ثقيلة ... سمعتها تقول له :

— أقول لك إن صبرى قد فرغ يا هارى !
ويجب أن تبعدها عن هذا البيت ، إنها تتدخل لحد
بعيد فى ترتيباتى الاجتماعية

سألت نفسى متحيرة : ترى من هى التى تريد
إلينور إبعادها عن هذا البيت ؟ أمى الخادم الجديدة
أم لعلها الطاهية ؟

ثم سمعت صوت هارى بطيئاً تبدو فيه الحيرة
وهو يقول :

— ولكنها أمى يا إلينور ، صحيح أنها عجوز
كالأطفال ومتعمية قليلاً ، وأنا أيضاً لأحب بقاءها
هنا ولكن ماذا أستطيع أن أعمل ؟
فقلت لإلينور فى حدة :

— يجب أن تعمل شيئاً ، وبحسن أن ترسلها
إلى جورج ، فإنه لم يتحمل قط نصيبه من هذا العبء
وليس يهمنى أين ترسلها ولكن يجب أن تبعدها عن
هنا فى أمتع وقت

سمعت صوت إقفال باب غرفتهما وجلست فى
الظلام مصعوقة لا أستطيع حراكاً

لقد كنت أنا التى بدور الحديث حولى أنا التى
يراد إبعادها عن البيت أنا « العجوز كالأطفال
المتعبة قليلاً » كما قال هارى

فقد أصبح قلبي كسيراً يذمى كما يذمى كل قلب عجوز كسير ...

كان كل ما أملكه هو أن أحاول الترفيه عن نفسى بأن جورج يعيش في بلدة صغيرة على مقربة من المزرعة التي أحببتها وتعودت حياتها وفي ذلك بعض الغراء . غير أنني كنت أضطرب كلما ذكرت أنني ذاهبة إليه عبر مرغوب في وجودى .

نزلت من القطار فوقفت على إفريز المحطة دائخة متعبة من الرحلة غريبة بين الناس حائرة فيما أفعل ثم سمعت ورائى خطوات تجرى بسرعة ؛ وشعرت بيد تمسك بساعدى فى لطف وسمعت صوتاً يقول :
— هل أنت جدتى ؟

فتلفت فرأيت أماً فتاة طويلة رشيقة بنية الشعر مرسلته لها عينان واسعتان صافيتان ، تبدو على فيها العذوبة والرزاة . فقلت :

— نعم أظن أنني لا بد أن أكون جدتك فظوقتني بساعديها الفتيتين القويتين وقبلتني قبلة حارة ، هي أول قبلة حقيقية تمتعت بها منذ ثلاث سنوات . وقالت :

— أنا « آن »

وقادتني حفيدتى إلى سيارتها الصغيرة الزرقاء فساعدتني فى الصعود إليها ، حتى إذا أدارت المحرك ابتسمت لى وقالت :

— حقاً إننى لسعيدة يا جدتى بقدمك !

وقعت هذه الكلمات من نفسى موقع الغذاء من نفس الكلب الجائع ، وكالكلب الجائع اختطفقت هذه الكلمات متلهفة : لقد وجدت أخيراً من يسعد

بوجودى إلى جانبه ! وجدت من يرى أنه محتاج إلى لقد كان ذلك معجزة ! كان إجابة لصلواتى ودعائى . فأطبقت عيني المتعبتين لأخفى الدموع التى غمرتهما فجأة ، والإنسان إذا كبر كانت دموع الفرح أسرع إلى عينية من دموع الألم والبكاء .

وكانت « روث » امرأة جورج تنتظرني فى البيت ، ولم أكن قد رأيته غير بضع مرات منذ زواجها من ابنى ، وأذكر أنها كبيرة الجسم شقراء معتدة بنفسها زرقاء العينين قاسيتهما مرتفعة الصوت . ولقد رأيته الآن قد تغيرت قليلاً ، إذ أصبحت أقل نشاطاً مما كانت وأشد تحكماً ، ولكن صوتها كان كما عهدته مرتفعاً ، وكذلك كانت عيناها على عهدى بهما قاسيتين

رحبت بى امرأة ابنى فى فتور وقبلتني قبلة باردة وإنى لأظن أن « روث من هؤلاء النسوة اللواتى يحسبن أن الشيوخ من الآدميين كالخيل التى أتلغها العمل الشاق يجب قتلها متى أصبحت عذيمة النفع » نظرت إلى « آن » نظرة تفيض بالجزع والرعب ، فابتسمت لى ابتسامة تبعث الاطمئنان إلى النفس الحائرة وقالت :

— لقد غادر أبى البلدة اليوم لحضور اجتماع سياسى ، وسيعود إلى هنا صباح الغد ، فهلمى إلى غرفتك المجاورة لفرقتى ، وسأفك لك حقيبتك لأننى أعلم أنك متعبة يا جدتى

ثم تأبطت ساعدى ومضت بى وشعرت وأنا أصدق معها السلم متباطئة بماطفة الشكر تغمرنى وقلت فى نفسى : « مهما حدث الآن

فإنني سأجد « آن » إلى جانبي »

لقد صدق ما توقعته ، ففي الأشهر التي تلت ذلك اليوم ، كانت « آن » هي المستعدة دائماً للدفاع عني في حماسة وغيرة ، وهي التي كانت تغمر أياي بضوء الشمس وبالسعادة ... كانت تجيب على أسئلتى المتواضعة وتحديثي بأخبار أصدقائها وما همهم به من الشئون ... كانت تعرض على مسائلها طلباً لنصيحتي ، كانت تعاملني على أنني إنسانة حية ، لا على أنني عبء ثقيل عديم الفائدة ، فكنت أقابل هذه المعاملة بأرق ما أستطيع من مظاهر الشكر وعرفان الجميل

ولولا « آن » لكانت حياتي في بيت جورج كثيفة موحشة كما كانت في بيوت أبنائي الآخرين . ولم يكن في تصرفات جورج ما يدل صراحة على عدم شفقتة ، وكل ما هنالك أنه لم يكن ليهم بي على نوع ما . فقد كان كل همه محضوراً في الصحافة والسياسة

وكان اهتمام « روث » منصرفاً إلى عملها الاجتماعي وإلى تدبير زيجة طيبة « لأن » ، ولم ألبث أن أدركت أن « روث » إنما قصدت « بالزيجة الطيبة » أن تزوج « آن » من ستيوارت با كستون ابن أحد مديري البنوك

وكنت قد التقيت بهذا الفتى على أثر وصولي إلى بيت جورج . وإذا كنت تعودت ملاحظة وجوه الناس منذ خمسين سنة وأكسبتني التجربة صدق الحكم على أخلاقهم الكامنة وراء مظاهرهم ، فقد دققت في وجه ذلك الفتى القصير النحيل ثقيل الحركة التي رأيت فيه « روث » الزوج الصالح لابنتها ،

نظرت إلى عينيهِ الصغيرتين الزرقاوين الماكرتين ، وإلى فمه الرقيق الضعيف الذي يدل على القسوة فلم أحسب ما رأيت ، لقد كان وجهه مجرداً من أمارات القوة والشفقة وكرم النفس ، وهذا هو الرجل الذي تخبرته « روث » ليكون زوجاً لابنتها !

شعرت عند ما رأيت هذا الفتى برعشة الخوف تسرى في نفسي ، ورجوت ألا تكون « آن » قد أحبته ، فقد كنت أشفق عليها من ذلك الحب لغامي بأن الشباب متلف إلى الخيال تعميه في سهولة الهالة التي تحيط بالثروة والمركز العالي

ثم قابلت « كن ادامن » فلم تلبث أن تلاشت جميع مخاوفي فيما يتصل باستيوارت با كستون وعلاقته « بأن » ، ففي مساء يوم من أيام شهر يونية بينما كنت جالسة في الحديقة أقبلت « آن » ومعها فتى طويل القامة قدمته لي بقولها :

— هذا هو « كن » يا جدتي

قالت هذه الجملة في صوت متهدج ، فنظرت إلى الفتى نظرة حادة عند ما تناول يدي المجددة وألحني عليها مقبلاً

كان « كن » ذا عينيْن واسعتين رماديتين ضاحكتين ، في وجهه الأسمر بساطة ، شعره أسود سميك ، فمه واسع سار . ابتسامته شيء ذكرني بزوجي جون وقد أحببته حباً شديداً لأول مرة وقع نظري عليه . وكان رداؤه قديماً رثماً وكان هو النحيل الجسم ، وعلى الرغم من ذلك قلت في نفسي : « هذا هو الرجل الذي يليق بأن » ولكن هذا إذا أمكن أن تحبه الفتاة

ثم رأيت «آن» تنظر إلى «كن» نظرات ملتهبة، ورأيتها تبسم له ابتسامة حية مضطربة، فعلمت كما لو كانت هي التي خبرتني بأنها تحبه من أعماق قلبها حباً يدوم إلى الأبد

ولكن الأمر عند أم «آن» كان على العكس من ذلك، فقد كانت تبغض «كن أدامر» بغضاً قتلًا لا يرتكز على سبب معقول. فقد قالت لي مرة في لهجة غاضبة:

— إنه رجل أفاق لن يصلح لها بحال، فإنه لا يحصل حتى على مرتب محترم! والحق أنني لا أدرى أى شيء فيه يعجب «آن»!

فنظرت إلى «روث» في دهشة، فقد أعلم جيد العلم ما الذي يعجب «آن» من «كن» فقد أعجب بمثله من زوجي جون، فيه الطيبة والبهجة والقوة والشرف والركة في معاملة المرأة التي يحبها، وهذه هي الخلال التي تحمل الفتاة على أن تعمل وتتجمل المتاعب من أجل رجلها وتشعر في الوقت نفسه بأنها تلقي الجزاء الذي يعوض عليها المشقة والتعب.

لن تكون له «كن» يوماً ما مثل ثروة «ستيوارت باكستون» ولكن الحياة مع «كن» ستكون أغنى من نواح أخرى، نواح عظيمة هامة كالضحك والحب والسلام والموانسة

ولكن «روث» لا تستطيع أن تفهم ذلك، فقد كانت مصممة على أن تزوج «آن» المال والثروة ومعنى ذلك أن تزوج من ستيوارت باكستون. فلم تسمح لـ «كن» بوضع قدمه في البيت وأمنعت

«آن» من مقابلته في أى مكان آخر. وكان ستيوارت باكستون يزور البيت كل ليلة على التقريب وكان الجميع، ما عداي وأنا، يقابلونه بالترحيب القلبي الحار

وفي مساء يوم من الأيام خرجت لأبتاع بعض الحاجات فلقيني «كن» في الطريق، فرأيتها قد ازداد نحولاً وشحوباً عما كان من قبل، وقد استوقفتني إذ رأيتني وقال:

— خبريني يا مسز مارتن ماذا عسانا نستطيع أن نفعل «آن» وأنا؟ إنني أحبها حباً شديداً وأبواها لا يسمحان لي بأن أراها، وإني لأعلم أنني غير كفء لها لأنني رجل فقير، ولكن سيأتي يوم أولف فيه كتاباً يعود عليّ بالريح، وعندئذ أستطيع أن أقدم لها كل ما تحتاج إليه، وإلى أن يحى هذا اليوم أعطيها كل ما في نفسي من الحب

فابتسمت لما في حديثه المتحمس من لهجة جادة وقلت:

— إنني أظن أن حبك كاف «لأن» فلا تفقد الأمل يا «كن» فسينتهي الأمر بنهاية طيبة على وجه من الوجوه

واجتهدت أن أساعد «آن» بتبنيها «روث» إلى عدم ارتكاز بغضها «كن» على أساس معقول، ولكنني بذلك قد زدت الأمر سوءاً. فقد أجابتنني في جفاء:

— أرجو أن تهتم بشؤونك الخاصة، وكفى تدخل في شؤون «آن» فإن ما تسببه لي من المتاعب كاف بدون تدخلك

وسمعت روث بعد ذلك تتحدث مع جورج في
أمرى فتقول في لهجة الغضب :

— إذا كنت لا تريد أن تزوج ابنتك من
هذا الأفاق المفلس فيجب أن ترسل هذه العجوز
إلى أحد إخوتك ، فإنني لا أريد بقاءها في بيتي !
وفي هذه الليلة نفسها نشأ بينها وبين « آن »
شجار عنيف ، حتى إذا انتهى تسلك « آن »
إلى غرفتي ، وكان جسمها يضطرب لشدة انفعالها ،
وكانت تبكي بكاء شديداً وركعت في الظلام إلى جانب
سريري فوضعت يدي في لطف على شعرها الأحمر
المجعد ، وقد قالت لي هامة :

— ماذا أعمل يا جدتي ؟ إنهم لا يريدون أن أرى
« كن » وأنا أحبه حباً شديداً ! وسيرغمني أمي وأبي
على الزواج من ستيوارت ، ويقولان الآن إنك
سترحلين من هذا البيت ؟

فربت على وجنتها المبللة بالدموع وقلت :
— إسمي يا عزيزتي ! قد أكون مضطرة لمغادرة
هذا البيت إذا هما طلبا ذلك مني ، ولكنهما لا يستطيعان
أن يرغماك على الزواج من إنسان لا تحبينه .

— سيفعلان ! نعم أعرف أنهما سيفعلان ذلك !
إنك لا تعرفين كيف يتصرفان إذا هما اتفقا على أمر ،
وتشبها به فإن أمي ستجعل حياتي كلها شقاء إلى أن
أتزوج من ستيوارت ، ولكنني أبغضه .

فنظرت إلى خط من ضوء القمر على نهاية
سريري ، ثم قلت في تأن :

— إنني عندما كنت في مثل سنك يا « آن »
أحببت شاباً كما تحبين أنت « كن » فهربت معه ،
وتزوجت منه بعيداً عن أهلي ، ولم أندم على ذلك

قط . لقد كنا فقيرين ، كما ستكونان أنت و « كن »
في أول الأمر ، ولكننا كنا سعيدين . إنكما صغيران
وفي نفسيكما شجاعة ، ويجب أحكما الآخر ،
فلا تسمحا لأي شيء بأن يحطم حبكما .
فرفعت الفتاة رأسها ، ورأيت الدموع تنحدر
على وجنتها ، وقد بدا في عينيها بريق لطيف ،
وقالت هامة :

— شكراً لك يا جدتي ، فاني الآن أعرف
ما يجب أن أفعل ، وسأهرب الليلة مع « كن »
فباركينا يا عزيزتي .

فضممتها إلى صدري وقبلتها ، ثم تناولت مفتاحا
من فوق مائدة إلى جوارى ، وكنت قد وضعتة عليها
استعداداً لما توقعت أن سيكون ، ثم وضعتة في يدها
وقلت :

— هذا مفتاح بيتنا القديم في المزرعة ، والمزرعة
في كورنوال على مسافة خمسة أميال من ليسكيد ،
وستجدينها على خريطة الطريق ، والدار لا يسكنها
الآن أحد ، فتستطيعان أن تقصداها وتعيشا فيها
إلى أن يجد « كن » ما هو خير منها ، وعلى الأقل
إلى أن يؤلف الكتب التي ستجعل منه رجلاً ذائع
الصيت

وهنا ابتسمت لنفسي في الظلام ثم أتممت حديثي
في رقة :

— وليبارك الله لكما يا عزيزتي .
ثم هممت من فراشي فلبست ردائي الصوف ،
وتسللت أنا وآن إلى المر الخارجي ، ثم مررنا
متلصحين في الظلام بباب الغرفة التي يرقد فيها جورج
وروث ، وهبطنا بعد ذلك السلم إلى ردهة الطابق

الأرضي حيث آلة التليفون ، فأضاءت « آن »
مصباحاً كهربائياً في الجدار

وتبينما وقفت عند قاعدة السلم أرقب وأنصت لأية
حركة تبدو أدارت آن رقم تليفون « كن » ، وفي
هذه اللحظة سمعنا صوت تشقق لوح من الخشب
فوق رأسينا ، فنظرت كل منا إلى الأخرى جاحظتين
فماذا نفعل إذا كان جورج أوروث قد سمع حركتنا
وجاء يستطلع الخبر ؟ ! ومضت لحظة سكوت مخيفة
ثم إذا كل شيء في البيت نائم في هدوء

وبخافة جمعت آن نفسها على آلة التليفون التي
حملتها في يدها وسمعتها تقول مستفهمة في صوت
خافت :

— « كن » ؟ أنا « آن » أريد أن أقول لك
إنك كنت على حق حين قلت إننا يجب أن نهرب ،
وسنهرب الليلة ونزوج أسرع ما يمكن ! نعم سنهرب
في اللحظة التي تصل فيها إلي . . . نعم ! نعم ! أنا
أقصد ما أقول !.. إنني أحبك يا عزيزي !

وإنني لأستطيع أن أتصور النشوة والجلد اللذين
غمرنا « كن » عند سماع هذه الكلمات

وأعادت « آن » سماع التليفون مكانها في هدوء
وعانقتني بكل ما فيها من قوة ، وكانت عيناها تبرقان
من شدة الانفعال ، وقالت :

— شبكي أصابعك من أجلنا يا جدتي إلى أن
نبتعد عن هذا المكان

وعدنا فصعدنا السلم متصلصين ، وساعدت « آن »
في سرعة صامته في إعداد حقيبتها ، ثم حملنا الحقيبة
إلى الطابق الأرضي ، وفتحت « آن » رتاج الباب
بأصابع مرتجفة ، ولم تكذب تخطو إلى العتبة حتى وثب

« كن » فعانقها في شدة كأنه يخشى أن تفلت من
بين يديه وهو لن يسمح بذلك أبداً

وابتسمت وأنا واقفة في ضوء الردهة الضئيل
متذكرة الماضي — لقد كان ساعدا جون فنتيتين
قويتين كساعدي « كن » وكان قلبي ينبض شوقاً
وعيناي تشعان يريق الأحلام السعيدة شأن عيني
« آن » في هذه الساعة

وقبلاني قبلة الوداع ثم جريا ممسكا أحدهما بيد
الآخر إلى حيث كانت سيارة « كن » العتيقة
في الانتظار عند الباب الخارجي

وأقفلت الباب وأوصدت رتاجه ، وأطفأت
مصباح الردهة الضئيل ، ثم تسلمت في هدوء إلى
غرفتي ، ولم ألبث أن نمت نوماً عميقاً هادئاً ، وأنا
لا أزال أشعر بعدوية قبلة آن على وجنتي المجددة
العجوز ، عالمة بأن هذين الصغيرين يسرعان في الظلام
في طريق الحرية ، ولم أعد أبالي بما قد يصيبني بعد
أن مهدت « لأن » الطريق إلى السعادة

وبعد أيام قليلة تسلمت تلفرافاً جاء فيه :
— لقد تزوجنا ونحن سعيدان ونحب المزرعة
والحياة فيها ، شكراً لك يا جدتي وتقبلي حبنا
وكانت الرسالة موقعة في كبرياء باسمي « آن
وكن آدامز »

وعندئذ هبت الزوبعة ، فهبت روث هذياناً
جنونيا ونطق جورج بمبارات شديدة لا تقبل
الغفران . وحملني كلاهما مسئولية هرب « آن »
وزواجهما وقالوا إنهما لن يغفرا لي ذلك أبداً ، وقد
نغصا على حياتي في الأسابيع القليلة التي تلت ذلك
الحادث ، رافضين أن يبادلاني الحديث إلا إذا دعت

وقد قال في لهجة منفعلة :

— لقد وجدنا معدن الصفيح في الحقل الجنوبي .
وجدنا معدن الصفيح ، فهل تفهمين معني ذلك ؟
ستصبحين غنية يا جدتي ! فأخضري في الحال
تركت سماعة التليفون فوجدتني أنا أيضاً اضطرب
انفعالاً ، وحضر جورج وروث إلى الردهة ونظرا
إلى محملتين وتساءلا :

— ماذا هناك ؟

فأجبت :

— لقد أخبرني « كن » الآن أنهم قد وجدوا
معدن الصفيح في المزرعة
فنظر جورج مبهوراً وقال :

— الصفيح ! ... مرحي مرحي يا أمي إنك
ستصبحين غنية
واندفعت « روث » نحوي فطوقتني بساعديها
وصاحت :

— يا للعجب ! لا تفكري في مغادرة هذا البيت
أيتها الأم العزيزة ! يجب أن تفكي رباط حقيبتك
في الحال ! وإنك لتستطيعين أن تنتقلي إلى غرفتنا
فهي أحسن غرفة في البيت . وسيذهب جورج
إلى المزرعة ويتولى الإشراف على العمل بنفسه ،
ألا تذهب يا جورج ؟ والآن يجب أن تكلّي إليه
كل شيء

ولكنني ابتعدت عن روث وقلت في فتور :
— لا ، وشكراً لك فإن « كن » و « آن »
في انتظارى وسأذهب إليهما ، فالمزرعة مزرعتي
والصفيح صفيحي وسأتولى الأمر بنفسى
فبدا الحزن على روث وقالت :

لذلك ضرورة ملحة ، فأشعراني بذلك أنني ازددت
عن أى وقت مضى بأننى غريبة في بيوت أبنائى
وكتبت آخر الأمر خطاباً إلى ابنتى جين أسألتها
فيه في تواضع إذا كنت أستطيع أن أزورها ،
فأجابتنى بأنه يستحيل عليها أن تقبلنى في دارها قبل
انتهاء فصل الصيف

وكانت خطابات « آن » هى الشعاع الوحيد
الذى يضيء ظلام حياتى . حتى إذا جاء شهر أغسطس
تلقيت منها خطاباً تقول فيه :

« إحزمى حقيبتك يا عزيزتى واحضرى إلى
المزرعة . إننا هنا سعيدان كل السعادة ونشعر بالحاجة
الشديدة إلى وجودك معنا . فكل بيت يحتاج إلى
جدة ترعاه ! و « كن » يشتغل بالفلاحة في النهار
وفي الليل ينكب على تأليف كتبه . وهو راغب أشد
الرغبة في حضورك . ويمكنك أن تخبرى بقية العائلة
أن ليس بأحد منهم من حاجة في إيوائك فأنت لنا
دون غيرنا ! لقد مهدت طريق السعادة « لكن »
ولى فنحن نحبك من أعماق قلوبنا »

قرأت هذه الكلمات العذبة من خلال الدموع
التي ملأت عيني ، ففاض قلبي بشعور عظيم من
الراحة والرضا . فقد أيقنت أن الحياة لن تكون
بعد اليوم حرباً على ، فقد وجدت من يحببني ويحتاج
إلى وجودي معه ، وقد أصبحت ملكاً لأناس
يحبوننى . إننى لن أكون وحيدة بعد اليوم وستصبح
الحياة عذبة سعيدة

وفي ساعة مبكرة من الصباح قبل بضعة أيام
من الموعد الذى حددته للسفر إلى المزرعة تكلم
« كن » معى تليفونياً ، وكان صوته يهتز انفعالاً ،

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطاب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طرقة ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمد حسن زنائي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لا مريتين

مترجمة بفلم

أحمد مصوع الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

— ولكنك لا تستطيعين أن تذهبي ، بل يجب
أن تبقى هنا معنا يا عزيزتي وهذا البيت بيتك ...
ونحن ... نحن محتاجون لوجودك معنا ...

فابتسمت في نفسي ... فصحيح أن روث محتاجة
الآن إلى وجودي معها ، فقد أصبحت شبيخة غنية
بعد أن كنت عجوزاً مفلسة . هذه هي أخلاق روث
كذلك كان أبنائي الآخرون على شاكله جورج
وروث ، فلم يكذبوا ولم يسمعون الخبر حتى
حضروا ليبارتي ، وقد حملا دعوتين ملحتين من
زوجتيهما الماهرتين ترجوان فيهما أن أعيش معهما
وكذلك أرسلت لي جين تلغرافاً تسألني فيه أن أذهب
في الحال إلى لندن ، ويظهر أن وجودي قد أصبح
خفيفاً عليها فلن يقلق راحتها في شيء

وجاءني أيضاً تلغراف من هاري وإلينور يؤكدان
فيه أن الوقت مناسب جداً لعودتي إليهما ، فابتسمت
مرة أخرى ابتسامتي الخفيفة . وقلت في نفسي :

— إنهم جميعاً يفكرون في أنني سأموت بعد
قليل ، ويتطلعون إلى الثروة التي سأتركها .

كان هذا شأنهم جميعاً ما عدا « آن » و « كن »
فهما اللذان احتاجا إلى عند ما لم أكن إلا جدة .
لم أزد على أن كنت شبيخة ضئيلة الجسم متواضعة
حنونا أحببتهما من كل قلبي .

فالآن سأذهب إليهما ، وستكون الثروة التي
يدرها علي منجم الصفيح ثروتهما بالغاً ما بلغ مقدارها .
لقد كان الله رحيماً كريماً يواسي القلوب الكريمة
بأسلوبه الحكيم ، لقد أفاض تعالى نعمته على عبادة
الحائرين صفاراً وشيوخاً ... نعم لقد كان الله كريماً
رحيماً . . .

عبد الحميد محمد

نَبِيُّ الصِّينِ

مَسْرُوحِيَّةٌ فِي فَصْلِ وَاحِدٍ

لِلْآنَسَةِ مُنِيرَةِ سَيِّمِ شَاهٍ
بِقَلَمِ الْأَدِيبِ إِبْرَاهِيمِ ت. ب. ج. مَا

منيرة سيم شاه محررة : مجلة الكتلة
الاسلامية . وقد وصفت فيها المؤلفات
مشهداً صغيراً من مشاهد مقاومة
السكان المدينين المسلمين في الصين
للمعتدين . والقصة المفصلة في هذه
المسرحية حقيقة واقعة ، فهي جذيرة
إذن باهتمام القراء

الزمانه : أول أيام سقوط
تسيننج في يد اليابانيين (٤ أبريل
سنة ١٩٣٨)
المكانه : في الجامع الأكبر بمدينة
تسيننج . ولاية ساتونج بالصين

نوطته للمترجم

صحت الشعوب من سباتها العميق على دوى المدافع في البلاد
المتعدنة الجديدة ، ولم تشذ عن هذه القاعدة بلاد الصين
التي يبلغ عدد سكانها ٤٥٠ مليون نفس منهم ٥٠ مليوناً
من المسلمين . لقد عرفت الصين المدنية منذ أقدم العصور ،
حينما كانت سائر الشعوب غارقة في ظلمات الوحشية ، وحملت
مصباح الحضارة فأضاءت الطريق للأمم بواسطة فلسفتها
السلمية . وأخيراً درجت بخطى سريعة في سبيل التقدم
والنهضة منذ اتحادها في سنة ١٩٢٦ فبرهنت للأمم الصديقة
أنها تستطيع التسج على منوالها والسير على مثالها والحياة معها
على أحسن ما يرام من الوفاق والوئام

لكن هذه النهضة المباركة التي نالت إعجاب الأمم والشعوب
لم ترق لبلد كانت تربطه بالصين صلات الأخاء والجوار ،
بل كان أول من ورث عنها المدنية والحضارة . فقد اعتقد
هذا البلد أن تقدم الصين سيكون خطراً عليه . إلا أنه أخطأ
كل الخطأ ، لأن الشعوب المقيمة في الجمهورية الوسطى ليست
من سلالة جنكيز خان أو تيمورلنك

وفي ٧ يوليو سنة ١٩٣٧ بدأ الهجوم على هذا الشعب
الآمن السالم ، إذ هجم أعداؤه دون مبرر معقول على بلاده
المستقلة مبتدئين باحتلال قنطرة لوكو (المعروفة عند الأوروبيين
باسم قنطرة ماركو بولو)

كم تحمل الشعب الصيني من صنوف الاهانات والاعتداءات ،
وأخيراً عيل صميره وهو الشعب الذي اشتهر في التاريخ
بتحمل المكاره دون أن يشكو . فرج الصينيون
على حب السلام ، مما جعلهم ينفرون من تسوية الأمور
بالسيف والنار . أما الآن فقد غيرت صروف المقادير طباعهم
فأصبحوا شعباً مجاهداً ، مولماً بالحروب ، شجاعاً مدافعاً عن
نفسه ، فنال بذلك إعجاب العالم وتقديره

وفيا بلي مسرحية قصيرة في فصل واحد ، بقلم الآنسة

الشخصيات : الشيوخ : —

الامام وانج (في الصين يسكن الامام عادة في الجامع
ويتولى عدا الشؤون الدينية الجزء الأكبر من شؤون بني
دينه وهو شيخ بلحية طويلة)

المؤذن ما : رجل مسن بلحية طويلة

الوجيه يانج : رجل مسن بلحية طويلة

أشخاص أصغر منهم سناً : —

الوجيه لي

المرأة أ

الشبان : —

سينجتان يانج (ابنه الوجيه يانج)

أنشيانج يانج (ابن الوجيه يانج)

الرجل آ

الجموع : —

اثنا عشر رجلاً وامرأة لاجئون في الجامع

اثنا عشر جندياً يابانياً

المشهر : وجهة قاعة كبرى . نظيفة جداً . آية في

نخامة البناء . حوائطها مدهونة باللون الأخضر ومزينة

بنقوش باللغة العربية على شكل أهلة بيضاء . وإلى جانبي

القاعة بابان . وبجوار الباب الأيسر لوحة مزينة بالرسوم

والخطوط العربية . وقد علفت في هذا المكان لآخفاء

مخرج مغلق

وفي القاعة منبر ولوحات صغيرة محلاة بالخطوط العربية ،

وأرضها مفروشة بالبسطة الثينة ، من صناعة سينتياج ،

والقاعة منقسمة قسمين بحاجز خشبي متنقل (باراقان)

رفع الستار : صوت مطر يسمع من الخارج ، فيحدث

ارتباكاً في النفس ، وجو ساكن محزن في الجزء الأمامي

من القاعة يشعر بقرب وقوع كارثة فادحة . الامام وانج

يسير ذهاباً وإياباً مضطرب الأعصاب . ويتنهد حيناً بعد حين

تم هذا جميعاً مداعبا لحينه بحركة عصبية . والوجيهان وانج ولي جالسان على مقعدين في حالة وجوم ، ويلقيان بين وقت ووقت بنظرهما على الامام وانج . ثم لا يلبث أن ينقطع صوت المطر ويتغلب عليه دوي المدافع الرشاشة .

الامام وانج — (يقف فجأة) اسمعوا . لقد دخل اليابانيون المدينة

الوجيه يا انج — (مرتعداً) آه !

الوجيه لي — (رافعا يديه إلى السماء) اللهم إليك نسلم أمورنا ، لقد قطعنا ستة لا تسمح لنا بحمل السلاح ، للدفاع عن المسجد ، وعن حياة الآلاف من إخواننا . اللهم نسألك معونتك (ثم أطرق برأسه بينما أخذت أصوات المدافع الرشاشة والبنادق تزداد وضوحاً)

الامام وانج — (واقفاً أمام الجدران ، وقد وضع يده على جبهته كأنه أدرك شيئاً) كلا . إن الله لا يحب الجبناء وبرغم تقدمنا في السن ، يجب علينا أن نسير إلى الأمام ونواجه الحوادث ، حتى نتقذ الآلاف من إخواننا . لنقل لليابانيين إن هذا هو المسجد فيتعين منحنا امتيازات وحمايتنا . (المؤذن يدخل من الباب الأيسر بخطى سريعة ناجمة وهو يرتدي جلباباً أسود)

المؤذن ما — أصبت يا سيدي الإمام وسأذهب معك لمفاوضة هؤلاء اليابانيين ، والإصرار خير من الانتظار ، لأن مئات من الناس أسلموا لنا أرواحهم فأويناهم في المسجد فهل يمكن أن يظلوا إلى ما شاء الله في الظلام . (اقتربت طلقات الرصاص . وسمع من خلف اللوحة التي تخفي باب الخروج طرقات قوية متوالية)

الامام وانج — (مشيراً إلى اللوحة ومخاطباً ما)

كيف الحال هناك ؟

المؤذن ما — (أخرج مفتاحاً من جيبه) الحالة حسنة ، والباب مغلق بالمفتاح ؛ لكن الظلام جالك وعددهم كبير

الامام وانج — (مخاطباً انج ولي وهو يتهدد)

ما رأيكم في أن نذهب لمقابلة اليابانيين الوجهيه لي — أظن أن هذا هو الحل الوحيد ، سنفهمهم أننا رجال مثلهم ، وأنه يجب أن يكون عندهم شيء من الرحمة (استؤنفت الطرقات بشدة خلف اللوحة وساد الوجوم في القاعة)

من خلف اللوحة (صوت رجل) : أيها المؤذن ما ! افتح الباب ودعنا نخرج . إننا لا نستطيع البقاء مختبئين في هذا المكان . نريد الخروج . إن الحالة لا تطاق هنا

المؤذن ما — (مقترباً من اللوحة) إلزموا الهدوء قليلاً ، تحملوا الظلام بصبر . ألا تعلمون أن اليابانيين قوم لا رحمة في قلوبهم ؟

من خلف اللوحة (صوت امرأة) : دعنا نخرج . نريد أن نحدثك في أمر مهم

الوجيه يا انج — (متجهاً نحو اللوحة) : منجنتان !

بنيتي منجنتان ! إن اليابانيين هنا . إنهم في الشوارع المجاورة . أصغى قليلاً إلى دوي المدافع الرشاشة والبنادق (تسمع أصوات المدافع) . إبقى في مكانك ولا تتحركي . إصبري قليلاً في الظلام . فقد ينقذ حياتك وحياة أخيك وزملائك من الهلاك المحقق

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : سمعنا

كل شيء يا أبتاه ، لكنني لا أستطيع تحمل الظلام أكثر من ذلك ... يا للعار ! واخجله من الشباب الصيني !

من خلف اللوحة — (صوت رجل) : احترس

من الذهاب للقاء اليابانيين أيها المؤذن ما . إنهم

أناس لا رحمة في قلوبهم . إنهم شياطين لا يتحدثون

عن العدل ولا يدركون له معنى . فإذا ذهبت فلن

تعود بالفشل تحسب ، بل تعرض حياتك للهلاك

المحقق . ألم يأتك خبر ما ارتكبوه من المذابح في البلاد

الإمام وانج - على أنه لو نزل بنا مكروه لما
أسفنا على ذلك أمام خالقنا وبني ديننا .

المؤذن ما - هذا صحيح يا سيدي الإمام .
سنبذل أقصى جهودنا لمحدثهم، وإن أخفقنا فنسوى
الأمور بهذه (مثبداً إلى قبضة يده - الجميع يضحكون
بصوت عال)

من خلف اللوحة (صوت رجل) : علام عولتم
هل تواجهون اليابانيين ؟ إنه جنون . ستلاقون
حتفكم جميعاً . دعونا نخرج ، فمن واجب الشباب
أن يذهب لتسوية الحساب مع العدو . (صوت امرأة) :
لا . لا . أتوسل إليكم . لا تذهبوا . إذا وعدتم
ببقائكم كففنا عن المطالبة بالخروج ، ولزمنا الهدوء
ولم نضايقكم (صوت تهد)

الوجيه يانج - وهو كذلك . الزموا السكينة
فالشيوخ لن يخاطروا بحياتهم (بصوت خافت) ومع
هذا .. من خلف اللوحة (صوت رجل) : لا حرية
بلا قوة .

(صوت امرأة) : إذا لم نعتصم بالقوة ، فلن
يأتينا العدل من السماء .

الوجيه يانج - (بصوت مرتعج) : هل نذهب
لناق ختفنا بظلفنا : كلا .

الإمام وانج - (بصوت متهدج) : لم يبق لنا
إلا هذه البارقة من الأمل .

الوجيه يانج - إهدأوا يا أولادى سنفتح لكم
من خلف اللوحة - (صوت امرأة) : حقاً .
ما أسعدنا : إذا ستبقون هنا معنا .

الوجيه يانج - نعم يا أولادى
من خلف اللوحة (صوت رجل) : هيا بنا لنخبر
الآخرين يا منجنتان . إنه لنبا عظيم (وقع أقدام ونشيد
وطي حماسي ... المقاومة . المقاومة ... اقتراب يوم
(٤)

التي فتحوها ؟ ألا تدري أنهم يجهلون البادى
الإنسانية ولا يفهمون إلا فلسفة الدم ؟ ... إنهم
وحوش ضارية يفترسون بني الإنسان ...

الوجيه يانج - (مقاطعاً) : حسن جداً ، كلنا
نعرف اليابانيين على حقيقتهم . فالزموا السكينة انتظاراً
لقرارنا ...

من خلف اللوحة - (صوت امرأة) : يا أبتاه
قل للمؤذن (ما) إننى لا أستطيع الانتظاراً أكثر من
ذلك ، أريد الخروج بل أفضل الموت على البقاء هنا .
إن اليابانيين بين يدينا . أريد الدفاع عن نفسى
والهجوم عليهم باسم أمتى ودينى وشرفى . أنت تعلم
أننى كنت دائماً سريعة التأثر قليلة الصبر ، فهل
يرضيك أن أختنق هنا حية ؟ ... أبتاه ... أبتاه ...
دعنى أخرج ... (صوت رجل) : ماذا ننتظر هنا ،
الموت أم الحياة ؟

الوجيه يانج - وا حسرتاه ... ولكن ...
(متجها إلى المؤذن في حرة عصبية) إفتح الباب ودع
أولادى يخرجون . لا مانع لدى ما داموا يريدون
التضحية بحياتهم في سبيل الأمة والدين . بل إنه
أشرف عظيم .

الإمام وانج - (اجتذب إليه الوجهه يانج وممس
في أذنه) لا تتسرع في الأمر . واعلم أن اليابانيين
لا يرحمون الشباب ، فالأفضل أن نذهب نحن ومحدثهم
بهدهوء ، لن ينزلوا بنا أى عقاب ، أو كد لك ذلك .
(ظل الوجهه يانج صامتا واكتفى بالإيماء برأسه ثم تبع الإمام)
الوجيه لى - أنظر إلى لحانا الطويلة . إنهم لن
يلحقوا بنا أى أذى ، وسيحترمون بلا شك الرجال
المتقدمين في السن ، أو يتساحون معهم على الأقل .
ومع ذلك فهل يهتموننا أحياء وياكلوننا لحماً وعظماً ؟

جريح . وقد بدأ أصغر سنا برغم الدماء المخبض بها جسمه .
بينهم ابتسامة مرة . ويئسى جرحه . فيحاول النهوض ،
ولكنه يسقط مغشياً عليه . صمت دقيقين على المسرح ، ثم
تسمع أصوات الطلقات على مسافة بعيدة للدلالة على أن الهدوء
لا وجود له تحت الأحذية الحديدية التي تغطى بها جيوش
الامبراطورية اليابانية أرض الأعداء)

من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : أخى .
أتظن أن مصاباً حل بأينا ؟

— (صوت رجل) : إلفهمي جيداً يا منجتان .
إن مئات الألوف يذبحون بسيف اليابانيين الماضية
فن ذا الذي يضمن أنه لن يحدث شيء لأبى ولنا
أيضاً ؟ لقد أمرنا الله عز وجل أن نصدهم ههنا العدو .
فلماذا نبقى مختبئين هنا . إن هذا الجبن يؤلم نفسي .
أكاد أجن من شدة الأسى . وأتساءل : لماذا لجأنا
إلى هذا المكان ؟ يا للعار ! ألا يفتح لنا المؤذن ما
هذا الباب لنخرج ؟ ... نعم يا أختاه ، لقد أصبت
في قولك . إن اليابانيين بين أيدينا . فيجب أن نلقى
عليهم درساً قاسياً ، احتراماً للأمة وللدين ولأنفسنا
— (صوت امرأة) : نعم يا أخى ، لقد فهمت
ولو كان أبى ... فيجب أن أفكر فى بنى وطنى
الذين يتألمون .. لا .. لست مريضة .. (تخرج الباب)
افتح لنا . أيها المؤذن ما ... نريد أن نخرج لنقتل
اليابانيين (طرقات قوية جداً)

الوجيه لى — (يستيقظ ويئن أثنى مؤلماً) آه !
آه ! إني أتألم .. أتألم ألماً شديداً (تكب الطرقات)
آه ! آه ! يا لهول المصاب !

من خلف اللوحة (صوت رجل) : أسمعين ؟
ترى من هذا ؟

— (صوت امرأة) : من أنت ؟ هل أنت أبى ؟
من أنت ؟ أجب !

الوجيه لى — أنا ... أنا ... لى ...
من خلف اللوحة — هو العم لى . ماذا حدث
لك ؟ أن الآخرين ؟

الاتصار والمجد ... ثم يتمد صوت النشيد) ... (أما
الأشخاص الظاهرون على المسرح فيلزمون الصمت ... ثم
يضرب المؤذن ما الأرض بقدمه متحمساً غاضباً)

المؤذن ما — لقد آن أوان الاستشهاد يا إخوانى
لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى

حتى يراق على جوانبه الدم
فالدم هو الطريق الوحيد للحياة الأبدية الخالدة ،
أليس من واجبنا أن نشيد صرح السلام فى هذا العالم
الغارق فى الدماء ؟ لقد نشدنا الحق فوجدناه . أنظر ،
إنه شاخص أمامنا . الله أكبر . الله أكبر .
(ارتسم السرور على جميع الوجوه)

الإمام وأنج — (وقد رفع الأربعة أيديهم مبسوطة
إلى السماء أمام صدورهم) الحمد لله رب العالمين الرحمن
الرحيم . اللهم سدد خطوات جميع محبي السلام ، آمين .
(ثم يخرجون من المسرح وتسمع خطواتهم من خلف اللوحة)
من خلف اللوحة — (صوت امرأة) : أبتاه .

(صوت رجل) : أيها الإمام وأنج . (صوت امرأة) .
أيها المؤذن ما . (تسمع طرقات شديدة خلف اللوحة ثم
تخف الطرقات شيئاً فشيئاً . وبقية تسمع طرقات نارية
على مسافة قريبة من المسجد . وتليها ضحكات عالية وحشية)
(صوت امرأة) : آه إني أشعر بضيق فى صدرى .
قلبي يحدثنى بأن الكارثة على وشك (صوت جسم يسقط)
(صوت رجل) : منجتان . استيقظي . استيقظي

أنهضى (وقع أقدام وأصوات كثيرة متضاربة) شكراً
ياسيدأتى وسادتى . لقد تحسنت صحتها الآن بعد أن
أغشى عليها فزعاً من أصوات الطلقات النارية .

(صوت امرأة) : هل تعلم يا إنشياج أن أبى
وزملاء ذهبوا للملاقة اليابانيين ؟ ترى هل أصيب أبى
ورجال الدين بمكروه ؟

(صوت رجل) : لا . لا أظن ذلك . أغمضى
عينيك واستريحى قليلاً يا منجتان

(تخف الصرخات وكذلك طلقات النار وبعود صوت
المطر . يدخل من الباب الأيمن رجل زاحف على بطنه مخيف
المكل مبللة ثيابه بالماء والدماء . هو الوجه لى ويظهر أنه

— (صوت امرأة مضطرب) : إني خائفة يا أخى ..

خائفة جداً

الوجيه لي — إهمم ... إهمم ... آه آه آه
ما أشد آلامى !

من خلف اللوحة — (صوت رجل) : سنأتى
إليك فى الحال يا عم لى ... إننا على استعداد ...
(ركلات أقدام قوية على الباب الذى تخفيه اللوحة ، حتى
كادت تسقط من شدتها)

الوجيه لي — تمالكوا قليلاً .. لا يوجد شئ هنا
(لكن ركلات الأقدام على الباب تشتد فيصبح صوت الشيخ
غير مسموع) لا .. لا شئ ... إن الذين يريدون
السلام راقدون الآن فى سلام ... لا تخرجوا
(يزحف على الأرض متناسياً آلامه المبرحة) أنا ...
لم أصب بشئ ... لكننى أخشى عليكم (وأخيراً
تسقط اللوحة من شدة الضربات وتخرج جوع من الرجال
والنساء كالسيل الجارف بعد كسر الباب . وقد بدا على
وجوههم الهول والفرع وأثر السجن الطويل . وتظهر فتاة
« فى المقدمة » . ثم تملكهم الدهشة عند ما يرون الوجه لى
غارقاً فى دماؤه)

منجتنان يانج — (تقترب بسرعة) عمى (لى)
انشياي يانج — (يبحث مع أخته) الدم يسيل
من جبهته (يبحث فى موضع آخر) لا ... لا شئ
فى موضع آخر (يمزق قميصه ويعطيه أخته) خذى
ضمدى الجرح هنا

منجتنان يانج — (تضد جرح لى) إنه لفخر
عظيم أن تسقط جريحاً يا عماء ... والآخرون ؟
(ترتعد) وأبى ...

انشياي يانج — (يرفع لى ويسنده إلى صدره) عماء
الوجيه لى — (عيناه مغمضتان . يفتحهما قليلاً
وينظر إلى الشبان) أما أنتم ... أما أنتم ... فاخرجوا
من هنا (مشيراً إلى الباب الأيمن)

الرجل أ — نعم (يضم قبضة يده بشدة) سنخرج
لنهمز أولئك اليابانيين الشياطين

الوجيه لى — هيا . إذهبوا ... إذهبوا ...
(تبدو على شفاهه ابتسامة مرة وحركة تدل على محاولة
إخفاء الألم) هيا ... إذهبوا ... إن الذين أحبوكم
راقدون فى ركن الشارع الغربى . أنقلوا إلى هنا
هؤلاء الشيوخ الأجلاء (يغمض عينيه) اللهم اشلهم
ببركتك واجعل جنة النعيم مأواهم !

الرجل أ — باسم الله وباسم الدم الذى ورثناه
عن أجدادنا ، لن نخاف شيئاً وسنكافح إلى النهاية .
هيا بنا . هيا بنا ...

الجوع — هيا بنا . هيا بنا (اختفت الجوع
من المسرح ، وقد حاولت منجتنان يانج أن تمنض للدمع
بهم ، ولكن الوجه لى منعها)
الوجيه لى — لا . لا . إبقى معى ، إننى فى حاجة
إليك . إبقى معى قليلاً !

منجتنان يانج — أمرك يا عماء (تنظر لى لى الذى
كان يبدو عليه ما يدل على رغبته فى الكلام ، بيد أنه صمت)
انشياي يانج — ننقلهم إلى هنا (مخاطباً لى)
إذن فأبى والآخرون جرحوا أيضاً وحالتهم خطيرة
جداً ، ولا يستطيعون السير على أقدامهم (منجتنان
يانج تحديق فى أخيها)

الوجيه لى — لا .. نعم .. إهمم .. (تدمع عيناه)
منجتنان يانج — عماء . إهمم ...

الوجيه لى — (مضطرباً) ستعلمون ذلك فيما بعد
(ممسكاً بيد انشياي يانج) يا ولده لم نشأ الاستماع إلى
نصيحتك ، فكانت النتيجة أن الإمام وانج والثوذن
ما ووالدك كلهم ...

انشياي يانج — (يحرق فى لى بهدوء تام وقد
امتنع وجهه ...)

منجتنان يانج — (مضطربة) ماذا ؟ كلهم
يا عماء ؟ ماذا حدث لهم ؟

الوجيه لى — أصنى يا بنيتى . لقد اعتقدنا أن
إخفاءكم فى ركن مظلم من المسجد ليس بالوسيلة

مبالاً بالماء أم بالدم، وفي بادىء الأمر كنا معاً وحاولنا النهوض، ولكن جهودنا ذهبت سدى. كان بعضنا يصرخ من شدة الألم، وبعضنا يئن ويذكر اسم الله... وبعد دقائق قليلة سكتوا... وأصبحوا لا يتحركون. ثم سمعت ديبب أحذية حديدية صرت بجوارنا تتخللها ضحكات سخرية. حاولت أن أقف فاستطعت، وبعد جهد جهيد اقتربت من زملائي ومسست أجسامهم فوجدتها باردة كالثلج. نعم. لقد رقدوا في سلام..

انشيأ نج يانج - حسن! سرود إلى أعدائنا تلك الطلقات النارية، سننتقم، سننتقم (ضحك مر مؤلم، الوجيه لى - (مخاطبا منتجان يانج) إني متألم لمصابك، وبكاد قلبي يتفتت من شدة الأسف. لكن صبراً جيلاً. فقد كان أبوك وزميلاه رجالاً صالحين في هذه الحياة الدنيا. واستشهدوا في سبيل أمهم. وهم الآن في جنات الخلد حيث ينعمون بالجزاء الحق ورضا العلي العظيم. (يسود السكون السريع ويدخل انتعاب متجانج يانج. تتعدد أصوات الطلقات النارية ويلدخ رجال يحملون ثلاث جثث مضرجة بالدماء، تجثو متجانج يانج وتبكي) انشيأ نج يانج - (يترك الوجيه لى وينهض): أبتاه. يا أيها الإمام. يا أيها المؤذن أقسم بالله أننى سأخذ بثأركم (يحاول الخروج فيمسك بثيابه الوجيه لى) كلا. يجب أن أذهب (يمنعه الوجيه لى مرة أخرى) سأواجه الموت للانتقام. من أولئك اليابانيين اللعونين. إن وجهي يحمر خجلاً أمام بنى وطني. على أن الوقت مازال متسعاً للانتقام (بكاء) الوجيه لى - (يكف عن عبارته) هيا انقلوا جثث المتوفين إلى غرفة الأموات (رجال يحملون الجثث ويخرجون من باب آخر. مخاطبا أنشيأ نج يانج) ساعدنى على النهوض، لأننى أريد الاضطجاع على سرير لأسترخ (انشيأ نج يانج يساعده على النهوض... مخاطبا

المثلى لإنقاذ حياتكم. وكنا نعلم حق العلم أيضاً أن لا جدوى من التحدث في العدل والإنصاف مع اليابانيين. ومع هذا فلم نتردد في الالتجاء إلى محاولة أخيرة، عسى أن نجد في قلوب أولئك القوم شيئاً من الشفقة والرحمة. نعم إننا أدركنا ما في نصائحكم من سداد الرأي، لكننا ظننا أن اليابانيين سيحترمون سننا المتقدمة ولحانا الطويلة... وأنهم... أنهم... فهل هناك من يتصور أن الشيوخ الكبار لا يمكن أن ينجوا من يرثى هذه الذئاب الضارية؟ نعم. وأأسفاه. هذه هي الحقيقة المؤلمة. لقد ذهبنا برغم ذلك. كانت الطرقات مقفرة كأنها قبور موحشة، أو ميدان الوغى غداة الموقعة. خرجنا إلى الشارع. سمعنا أزيز... زرز... (وأشار إلى الجهة الغربية بصوت خفته العبرات... على حين تبدو منتجان يانج في أشد حالات الاضطراب) وأصابنا رصاصة.. أصابت.. أصابت... أباك...

منتجان يانج - لكنه لم يمت.. أليس كذلك؟ الوجيه لى - مات... وأأسفاه. منتجان يانج - آه. آواه. واحسرتاه عليك يا أبى (بكاء) وأأبتاه نقسم بالله العلي العظيم أننا سننتقم لك! (يستمر الوجيه لى في الأبن من شدة الألم... وتكف منتجان يانج عن البكاء شيئاً فشيئاً)

انشيأ نج يانج - سندكر إلى الأبد عدونا اللدود يا شقيقى. أسمعني ما أقول؟

منتجان يانج - (تسأف البكاء)

انشيأ نج يانج - خبرنا يا عمى (مخاطبا الوجيه لى) ماذا حدث للإمام وانج وللمؤذن ما؟ هل قتلوا أيضاً بأيدي أولئك الشياطين. (منتجان يانج مطرقة الرأس تستمع باهتمام)

الوجيه لى - لقد أصيبوا جميعاً لسوء الحظ. أصيبوا بطلقات الرصاص وقتلوا لساعتهم وجرحوا أيضاً ثم سقطت إلى جانبهم. لم أعرف هل كنت

ضحكا عاليا ... تنهقر منتجان يانج قليلا نحو الباب الأيسر)
ها ... ها ها ... لا تهربي منا يا آنسة (تحضر المرأة
الأخرى مضطدة فيجلس عليها الجنود اليابانيون ويقذفون
بقبعاتهم على منتجان يانج . قهرت من الباب الأيسر وتفر
المرأة الأخرى من الباب الأيمن وبركض الجنود للاحقتهم .
تسمع من خلف الأبواب أصوات : أمسكوا بهم .. أمسكوا
بهم . وبعد لحظات يظهر الجنود الستة موتقة أيديهم وأرجلهم
ويسبقهم على المسرح انشيانج يانج ومنتجان يانج وفي يد كل
منهما بندقية يابانية

انشيانج يانج — (يبحث في جيوب الجنود ويتزج
منها المسدسات وأكياس الرصاص . ثم يعثر على حلي ثمينة
وغيرها من النفائس التي تزين بها السيدات) لا تخافوا ،
سنرد إليكم هذا الرصاص في الحال (ضحك سخريه)
الرجل أ — لنذهب بهم داخل الحجرة ليروا
الدين اغتالوهم وليؤدوا ثمن ما جنت يداهم

انشيانج يانج — سنقضى على جميع الذين يأتون
إلى هنا باحثين عن الهلاك !

الجموع — لن يخرجوا من هذا المأزق (يقذفون
بالجنود نحو الباب الأيسر . ثم تسمع ست طلقات نارية ...
وتعود الطرقات على الباب الأيمن . فتفتح المرأة نفسها ويظهر
على المسرح ستة جنود يابانيون آخرون . تستدرجهم منتجان
يانج إلى الباب الأيسر ، وتخرج بهم موثقى اليدين والقدمين .
ثم يقذف الجنود الستة إلى الباب الأيمن خلف المسرح ...
وأخيراً يعود الجميع وقد حمل كل منهم بندقية يابانية)

انشيانج يانج — الآن وقد أصبح لكل منا
بندقية يابانية سنرد لهم رصاصهم (ثم يصطف الرجال ثلاثة
ثلاثة ويخرجون من المسرح وهم ينشدون النشيد الآتي :)
هل تسمعون دوى مدافع الأعداء التي تخرب
حقولنا ومنازلنا ؟

هل تسمعون أزيز الطائرات التي تلقى بقنابلها
فتحرق مدننا الآهلة ؟

فلننهض ! فلننهض !

سنكافح إلى آخر قطرة من دمنا لحماية وطننا
العزیز !

ستار

منتجان يانج : ضعى القفل في الباب (الوحى لى بسير
يسطء متكئا على كتف انشيانج يانج . وتضع منتجان القفل
في الباب)

منتجان يانج — (واقفة بجوار الباب تنظر إلى الدم
المختضبة به الأرض) : الدم ... الدم ... هذا دم أبى ...
هذا دم بنى وطنى ... لقد سقطت مدينة تسنينج
في يد الأعداء . لقد هزمت جيوشنا القوية ... هذا
هو اليوم الأول الذى أصبحنا فيه بلا أهل ولا أب .
اغتيال الإمام وزملائه . أين بنى وطنى ؟ هل هربوا
أم قتلهم العدو ؟ ... هذا هو اليوم الذى دخل فيه
اليابانيون بلادنا . ترون ماذا سيحدث بعد هذا ؟
إلى أى مصير نحن مسوقون ؟ هل سنعيش إلى الأبد
عبيداً أذلاء ؟ اللهم ارحم عبادك . لقد سئمت الحياة ،
ولا أقبل الدل (ينخفض صوتها ... ثم يرتفع فجأة) :
كلا . أريد أن أقتهم ... أريد أن أقتهم ... أريد أن
أثار لأبى ولبنى وطنى . نعم . نعم . لقد قررت هذا
(تختفى من الباب الأيسر ... ثم يسمع ديب أحذية حديدية
من الباب الأيمن يتخلله ضحكات عالية)

منتجان يانج — (فى يدها سكين مطبخ) الانتقام
الانتقام (تتقدم من الباب الأيمن فتسمع طرقات وضحكات
وصراخ من الأعداء) آه (دهشت ثم وقفت وفكرت
وفكرت وفهمت كل شيء ... عادت أدراجها واصطعبت
معها امرأة أخرى .. طرقات بقبضة اليد أولاً ، يليها
طرقات بفوهة البنادق)

منتجان يانج — من الطارق ؟
من خلف الباب — ها ها ها (ضحكات عالية)
إفتحوا يا آنسات . إفتحوا لنا الباب ، نحن عشاقكن
منتجان يانج — (تضحك ضحكة فاترة) : هيه .
(ثم تجرى إلى الباب ، وتنفهم بعض كلمات بصوت منخفض
ثم تخرج وتشير إلى المرأة الأخرى بفتح الباب) : إفتحى
الباب .

المرأة — (تفتح الباب يظهر على المسرح ستة جنود
يابانيون سكارى) : آه ... (ثم تنهقر عدة خطوات)
الجنود اليابانيون — (يرون منتجان يانج فيضعكون

من أصل القصص

الحب أقوى من الموت

للكاتبة الروسية ديمتري ميريجكوفسكي
يقسم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

وما من أحد يستطيع أن يتبادل
النكات المرحية وبقايا الملح الطريفة
على السابلة ، أو الجيران ،
أو المشترين في حذق ومهارة كما
كان يفعل ألمرى القصاب ،
وما من أحد كان يقدر أن
يتحدث بمثل تلك الزلاقة والإلمام
عن الأحداث السياسية للشعب

الفلورنسي أو عن تاريخ سلاطين
آل عثمان أو عن مؤتمرات ملوك
الفرنسيين

وما كان يسوء مزاح القصاب
وهزله من الناس إلا قليلاً؛ وكان
يطبق عليهم المثل « إن المزاح
لا يسوء الجار الطيب، وإن اللسان
لحاد مرهف في المزاح كاللوسى »
وكان أخوه ماتيو - تاجر
الصوف - على خلق مختلف :
كان حاد الذهن في دهاء ومكر،
سياسي الطباع، صموئعاً عبوساً، وقد
اُطرد بنجاح أعماله أكثر من جيوفاني
المهمل المهذار ، وكان له مراكبان -
ينادران - كل سنة - ميناء
« ليفورنو » محملين بالصوف إلى
نهر القسطنطينية. كان وثاباً طموحاً
سلك في سبيل إخماء ثروته سلوك

تعريف بالقصة

كان ديمتري . س . ميريجكوفسكي
أحد كتّاب الروس الحديثين الذين
كتبوا فيما وراء بلادهم ، وربما
فعل هذا لأنه كان أقل عصبية من
زملائه الروسيين . ولا رأى أن أدب
بلاده آيل إلى الانحطاط والتفكك ،
لفت نظر الكتاب إلى الرمزية
الفرنسية كوسيلة لانعاش الأدب
واحياؤه ، ولجأ لهم إلى الأسلوب
الحزن الكئيب الذي يصورون به
آراءهم وأحاسيسهم نحو حياة هذا
الوقت ، وقد أحس سحر الخلفات
القديمة ، ولذت ما في القصص التاريخية
من تفاصيل غريبة ونصاوير دقيقة
تناسب عبقرته ونبوغه ، وما هو ذا
يقدم لنا في قوة وبراعة « الحب أقوى
من الموت » ، ومرجع هذه القصة
إلى الأصل الإيطالي لقصة جنيفر كما
ظهرت في : « The Novellæ Do -
menico Manni » من آثار القرن
الثامن عشر الفلورنسي . وقد عهد
ميريجكوفسكي إلى كتابة القصة من
جديد متمسكاً على أسلوبه الخاص
المترجم

كانت أسرة « ألمرى »
السالفة - من أهالي فلورنسا -
في قديم الزمن تتجر في نوعين
من التجارة مختلفين ، فقد راح
البعض منهم يقدس « سانت
أنثوني » حامي القصابين ، على حين
اتخذ الآخرون شعاراً رسم عليه
صورة سمحله إذ كانوا يتجرون
في الصوف

وقد احترف الاخوان جيوفاني
وماتيو ألمري - كسلافهم الأولين -
هاتين التجارتين ، فامتن جيوفاني
تجارة اللحوم في مكان السوق
القديم The Marcato Vecchio
واتخذ ماتيو مصنعاً لنزل الصوف
في « آرنو » ، وكان الناس
يتقاطرون على محل جزارة
جيوفاني ، لا لأنهم يجدون لديه

السييل إلى منصب في الدولة كبير ، وقد انخرط
في سلك الطبقات الراقية والجامع الأرستقراطية
أو « الناس السمان » كما كان يطلق عليهم آنشد

أحسن اللحوم من خنزير طازج ومجل طري وأوز
سمين فحسب ، ولكن لأنهم - إلى هذا - يحبون صاحب
التجر لطباعه المرحية البهيجة ولسانه الحلو المعسول

وكان الراتب الذي أفرد له لأرملة أخيه كل شهر
جد ضئيل؛ حتى أنها قاست أسباب الحرمان والفاقة
لا سيما وهي ليست وحيدة، إذ كان لها ابنة صغيرة
عزيزة محبوبة اسمها جنيرفا. وما كان أحد من طلاب
الزواج في ذلك الوقت يقبل على العذارى اللواتي
بدون صداق، كما هو الحال الآن. بيد أن
اليأس لم يتسرب إلى قلب مونا أرسولا المؤمنة الورعة
إذ أخذت تصلي بحرارة وإخلاص لكل قديس الله
ورسله خصوصاً « سانت أنتوني » حامي الفصاين
في الدنيا والآخرة. كان أملها قوياً في أن الله
- نصير الأرامل واليتامى - حتماً سيرسل إلى ابنتها
التي لا تملك بائلة، زوجاً صالحاً ثرياً

وكان ثمة سبب آخر يشرها بقرب تحقيق ذلك
الأمل، هو جمال جنيرفا وسحرها. حتى أنه
لما يصعب تصديقه أن جيوفاني البدين المذار ينبغي
تلك الابنة الطرية الفينانة. وكانت جنيرفا دائماً
ترتدي ثوباً أسود فضفاضاً وتضع حول عنقها الطويل
الجميل قلادة من اللؤلؤ تتوسطها ياقوتة أثرية صفراء،
وتربط رأسها بعصابة من الموشلين تصل حتى منتصف
جبينها شفافاً حتى أن المرء يرى خلالها خصللات
شعرها الذهبي الباهت؛ وكان وجه جنيرفا هو وجه
العذراء التي صورتها ريشة الرسام قبلي لي، العذراء
الطاهرة التي تبنت للقديس برنارد في الصحراء،
وبأصابع كالشمع قلبت صفحات كتابه...

كانت شفتاها اللتان كشفتي الطفل، ونظراتها
المهذبة الحزينة وحاجباها الخفيفان العاليان، كان
كل أولئك يحمل أقصى معاني البراءة والطهر.
ومع أنها كانت ندية كالزهرة شابة كالربيع إلا أن
منظرها كان يدل على ضعفها وقصر عمرها كما لو كانت
لم تخلق للحياة

في فلورنسا. وقد أمل أن يسمو بأسرة المرء إلى
أعلى مرتبة اجتماعية. بل ربما يرى اسمه محلقاً على
أجنحة شهرة خالدة وصيت باق، ومضى ينصح لأخيه
أن يهجر مهنة الجزارة لأنها مهنة ليست راقية وأن
يضم أمواله إلى رأس مال ماتيو، بيد أن جيوفاني
أبى أن يأخذ بنصيحته إذ كان يخشى أخاه بقدر
ما يجب بمقدرته، وراح يقول لنفسه دون تصريح
« إنسان معسول وقلب خثون »

وفي يوم قاطظ عاد جيوفاني إلى مشواه من دكانه
تعباً مكدوداً، ومن ثم أترع بطنه بعشاء ثقيل كعادته
وجرع كما كبيراً من خمر مثلوجة؛ فأصابته فجأة
سكتة قلبية، إذ كان بدين الجسم في إفراط، غليظ
العنق في قصر. قضى نحبه ايلاً دون أن يجد الفرصة
لإشهاد أحد أو كتابة وصية. فسلمت مونا أرسولا
أرملته - وهي امرأة طيبة القلب في سداجة وبلاهة -
مقاليد تجارة زوجها إلى أخيه ماتيو الذي عرف
كيف يخدعها بدهائه وكلماته المعسولة؛ إذ استطاع
أن يقنع المرأة الساذجة أن زوجها قد ترك « دفاتر
حساباته » مضطربة نتيجة إهماله وتقصيره وأنه مات
وهو على شفا الإفلاس وأنها إذا أرادت أن تنقذ
البقية الباقية فعلها أن تغلق دكان اللحوم في السوق
القديم. وقد تناقلت أقاويل السوء أن ماتيو الداهية
قد خدع الأرملة دون رحمة ليدير برأس مال جيوفاني
مصانع الصوف تحقيقاً لرغبته القديمة. على كل،
شيء واحد كان واضحاً جلياً، هو أن أعمال ماتيو
قد تقدمت تقدماً كبيراً منذ ذلك الحين، وبدلاً من
مركبين اثنين مضى الآن يرسل إلى القسطنطينية
خمسة أو ستة مشحونة بأنواع الصوف التوسكاني.
ومرغان ما أضحى صاحب أكبر مصنع للصوف
في فلورنسا

وعند ما كانت ابنة القصاب تتخذ سبيلها إلى الكنيسة في هدوء واحتشام بأعين مسبلة وبكتاب الصلوات في يديها كان الشبان السرعون إلى وليمة أو رحلة صيد يوقفون خيلهم وبعلو وجوههم توأ أمارات الاهتمام ، ويختفي هزلهم وضحكاتهم ويمضون يتبعون جنيرفا الجميلة أبصارهم

وعند ما سمع العم ماتيو كلمات المديح والإطراء تنصب انصباباً حول أخلاق ابنة أخيه الفاضلة ، حزم أمره على أن يزوجه من فرنسكو ديلا جولانتي أحد سكرتيري الجمهورية وكان رجلاً شيخاً ، ولكنه كان محترماً من الجميع يرتبط بصلات وطيدة مع عطاء المدينة البرزين في ذلك الحين ، وكان فرنسكو أحد تلاميذ المدرسة اللاتينية الكبار ، وقد دأب على أن يكتب تقاريره ومضبوطاته بالأسلوب الفلسفي الذي كان لليفي وسألوست ، وكان بطبعه عبوساً متجهماً ؛ بيد أنه كان أميناً (كرومانى قديم) لا يحمل سلوكه منفذاً للوم والتعنيف ، وكان وجهه كوجه أحد أعضاء « السناتو » أيام الجمهورية ، وقد عرف كيف يرتدى عباءة موظفي فلورنسا الطويلة الحمراء القائمة كأنها « روب » روماني حقيقى « Areal Roman Toga » وكان يحب اللغات القديمة جداً جداً حتى أنه حينما كانت اللغة الإغريقية شائعة في توسكانيا وحينما جاء المعلم البيزنطى « عمانوئيل كروزو لوراس » من القسطنطينية يحاضر في قواعد اللغة الإغريقية في الاستديو (اسم الجامعة آنذاك) لم يستنكف أجولانتي بالرغم من سنه المتوسطة ومركزه كسكرتير في الجمهورية الفلورنسية أن يجلس جنباً إلى جنب مع الصبية الصغار على المقاعد المدرسية ، وقد أتقن اللغة الإغريقية حتى استطاع أن يقرأ النسخ الأصلية

لفلسفة أرسطو ومحاورات أفلاطون . على الجملة لم يكن يأمل تاجر الصوف (وهو الداهية الطموح) في شخص ينتسب إليه أكثر نفعا وأسمى مركزاً من هذا . وقد تعهد ماتيو أن يهب ابنة أخيه بائنة كبيرة على شرط أن يرتبط اسم أجولانتي باسم المرى

وقد صادف ذلك طبعاً هوى في فؤاد فرنسكو ؛ غير أن جنيرفا مضت تمهل عمها وتؤجل موعد الزفاف من سنة لسنة ، وحينما سألتها عمها حزم أمرها أعلنته بأن ثمة رجلاً آخر تحبه أكثر من أجولانتي . وبالرغم من خوف مونا أرسولا ودهشتها ، فقد صرحت باسم أنتونيو روندنيللى المثال الشاب الذى يقوم مصنعه في أحد الشوارع الضيقة في « بونت فيكيو » وقد تعرف أنتونيو بجنيرفا في بيت أمها منذ أشهر قلائل . فقد استأذن أن يصنع تمثالاً من الشمع لرأس الفتاة الصغيرة ابتغاء بث جمال جنيرفا في صورة بارزة للشهيدة المقدسة باربارة أوصاه بها راهب ترى بشوى في إحدى ضواحي المدينة . ولم تشأ مونا أرسولا أن ترفض للمثال الشاب طلباً كهذا لوجه الدين . وإبان العمل وقّع المثال في حب نموذجة الجميلة ، ثم تلاقيا في المحافل الشعبية والمجتمعات الشتوية حيث كثيراً ما كانت تدعى جنيرفا بحرارة وإلحاح ، إذ كان جمالها من أقوى أسباب الترحيب بها في كل حفل أو وليمة

ولما أن جهرت مونا أرسولا - مع إبداء أسفها واعتذارها - إلى ماتيو بأن جنيرفا لها خطيب آخر تحبه ، وحينما ذكرت اسم أنتونيو روندنيللى ، تمالك نفسه وكبح جماح غضبه المتضرم وسدد إلى مونا أرسولا نظرات وادعة وقال في لين وهدوء :

- لو لم أسمع ياسيدتى ما قلته الآن بأذنى

عنها . يقدسها أكثر مما يبارك صور القديسين ،
والرسل الخالدة . . وقد حدثني بعضهم أنه ،
وتلاميذه بشرحون الجثث التي يبتاعها من حراس
المستشفى بأهبط الأثمان ليدرس عليها خفايا الجسد
البشري من أعصاب وعضلات ادعاء التثبت من فنه
والتضلع فيه ؛ ولكنه في الحقيقة يفعل كل هذا
إرضاء لمساعدته وناصحه ، عدو مخلصنا القديم ، الشيطان
الذي يوصي إليه بالشموعة السوداء . لقد أغوى ذلك
الضال بنتك الطاهرة واجتذب قلبها برقته الزائفة ،
وسحره الجهنمي وأساليبه الشيطانية »

بمثل هذا الحديث مضى ماتيو يخيف مونا أرسولا
ليحملها على الاعتقاد أنه على حق . ولما أن أنبات
ابنتها أنها في حالة رفضها الاقتراح بفرانسكو
ديلاجولانتى سيكف عمها حتماً عن إعطائهما راتبهما
الشهرى . أزع الحزن واليأس قلب الفتاة ؛ بيد أنها
رضخت لحظها وجمعت أمرها على إطاعة عمها

وفى أثناء تلك السنة انقضت على فلورنسا رزية
فادحة ، مصيبة تنبأ بها النجمون من قبل ، لأن
كوكب المريخ دنا منه كوكبا زحل والعقرب دنوا
كبيراً . كان عدد كبير من تجار الشرق قد أقبلوا
بمحمولون بين طيات أقمشتهم الهندية ميكروبات الطاعون
وتقدمت المواقب الرهيبة في الطرقات يرددون
المزامير حاملين صور جميع القديسين ، وسُنَّتْ
القوانين تحرم تفريغ القمامات في المدينة وحرم على
المدابغ والمذابح تصريف فضلاتها في « آرنو »

وضرب نطاق حول المرضى خشية اختلاطهم بالأصحاء
وخوفاً من التعرض لعقاب الغرامة أو السجن بل
الموت أحياناً ، حرص الناس ألا يتركوا في بيوتهم
أولئك الذين ماتوا أثناء الليل إلى شروق الشمس
(٥)

لما كنت أصدق أبداً أن امرأة حكيمة فاضلة مثلك
تغير شاباً أرعن قليل الاختبار مثل هذا أدنى اهتمام .
لست أدري كيف يحدث مثل ذلك في هذه الأيام ؛
ولكن في عصرنا لم يكن للبنت أى رأى وليس لها
أن تلفظ أى كلمة في اختيار زوجها . في كل شيء
كن يطمئن آباءهن ، وأولياء أمورهن . تبصرى قليلاً
في الأمر . من هذا الأتونيو التي شرفته ابنة أخى
باختيارها ؟ . أيمكن أن تكونى غير عالة أن المثالين
والشعراء والممثلين والمطربين الجوايين إنهم إلا أناس
لا يمكنون ما يفعلون غير هذا ، ولا يصلحون البتة
لأعمال مثمرة مفيدة ؟ . إنهم أخف الناس عقولاً ،
وأكثرهم وهمًا وخيالاً في هذه الدنيا الواسعة . إنهم
سكبيرون بوهيميون ، كسالى ملحدون ، مترفون
مبذرون لأموالهم وأموال غيرهم . أما عن أنتونيو ،
فلا إخالك لم تسمعى بكل ما تعرفه فلورنسا عنه .
وسأذكر لك ببساطة إحدى ميزاته . تلك السلة
المعلقة بجبل في دكانه ، في تلك السلة يضع أنتونيو
كل انال الذى ينزع دون حصده ولاعد . وكل من
يرغب ، سواء أكان تلميذاً له أم أحداً من معارفه ،
في استطاعته أن يأتى وينزل السلة دون أن يعلم صاحبها
أو يستأذنه ، ويأخذ ما يشاء من المال ، نحاس أو فضة
أو ذهب . فهل تحسبن يا سيدتى أنى أضع مالى
- البائنة التي وعدت ابنتك - في يد مثل ذلك المعتوه ؟
« وليس هذا كل ما في الأمر . ألا تعلمين

أن أنتونيو ينطوى على إلحاد خفى وإباحية مستبدة
غرسهما الشيطان في قلبه ، فجعله لا يذهب إلى الكنيسة
ويسخر بالسر المقدس ولا يعتقد في الله . لقد أنبأنى
بعض الأخيار أنه يبعد تلك التماثيل والأوتان الرخامية
التي تمثل الآلهة والأرباب ، والتي أبشدى يكشف

حتى ولو كان سبب الموت أدواء أخرى
وانبث لذلك مفتشون يحرسون خلال الطرقات
والسبل قارعين الأبواب سائلين عن مرضى في البيوت
أو موتى . بل قد يفتشون البيت بأنفسهم إذا ساورتهم
الشكوك والريب . وكانت ترى هنا وهناك العربات
الملطخة بالقار بين دخان المشاعل يحف بها رجال في
ثياب سود صامتين ملثمين يحملون الخطاطيف التي
يلتقطون بها ضحايا الطاعون ويلقون بها في العربات
اتقاء مسها . وكان ثمة إشاعات أن هؤلاء الطغاة
العتاة الذين يطلق عليهم الناس لقب « الشياطين
السود » كانوا يلتقطون الأجساد التي ما زال بها
رمق كيلا يعودوا إلى المكان عينه مرة ثانية

وظل الطاعون الذي انتشر في أواخر الصيف ،
منتشراً حتى وقت متأخر من الخريف ، بل حتى
فصل الشتاء الذي أقبل مبكراً هذه السنة ، ولم يح
آثاره ولم يقتل جراثيمه . وهرع أغنياء فلورنسا
الذين لا تربطهم مهام قوية بالمدينة إلى بيوتهم الريفية
حيث الجو طاهر نقي من جراثيم الطاعون

وخوفاً من أن تغير جنيرفا رأيها تعجل العم
ماتيو يوم الزفاف بحجة أن مونا أرسولا وبناتها يجب
أن ترحا المدينة بأسرع ما يمكن ، وأن فرنسكو
ديلاجولانتى قد عرض أن يأخذ جنيرفا وأمها إلى
جوسقه الجميل عند سفح « مونت ألبانو »

كانت هذه رغبة ماتيو ، وقد تحققت ، إذ تم
الاتفاق على أن تكون ليلة العرس بعد أيام قلائل .
فأقيمت الحفلة دون جلبة ولا ضوضاء كما كان سائداً
في تلك الأيام الحزينة . وفي ليلة العرس وقفت جنيرفا
كالخيال ممتعة شاحبة يملو قسما وجهها هدوء
رهيب . بيد أن عمها أمل أن تزول تلك الأوهام ،

أوهام الشباب عقب الزفاف . وأن فرنسكو سيعرف
كيف يكتسب حب عروسه الصغيرة
ولكن آماله لم تكن لتتحقق . فعند ما غادرت
العروس الصغيرة الكنيسة ودخلت بيت زوجها
بدأت تحس دواراً . وفجأة سقطت على الأرض كأنها
ماتت . وبلغ ظن الكل أولاً أنها في غشية وحاولوا
أن يثيخوا إليها رشدها ؛ بيد أن عينيها ظلتا مسبلتين
وأخذ تنفسها يضعف ووجهها وسائر بدنهما يتحولان
إلى صفرة الموت ، وسرت البرودة في أطرافها . وجاء
طبيب بعد بضع ساعات (في ذلك الحين كان الناس
يستدعون الأطباء رغماً عنهم وفي طي الخفاء كيلا
يتسرب في المدينة خبر وجود مريض بالطاعون في
البيت) ؛ ولكنه عند ما أدنى مرآة من فم جنيرفا
المسلوبة الحياة لم يبد عليها أى أثر لأخف نفس

هنالك اعتقد الجميع والحسرة تملأ نفوسهم
والحزن يحيم على رؤسهم أن جنيرفا قد ماتت حقاً
ولفظ الجيران أن الله قد صب جام عقابه على المرء
لإقامته الزفاف في مثل ذلك الوقت غير اللائق . وأن
عروس فرنسكو الصغيرة نالها الطاعون فماتت عقب
عودتها من الكنيسة . وقد انتشرت هذه الاشاعات
سريماً لأن أهل الفتاة كانوا في خوف من زيارة
« الشياطين السود » لذلك كتموا خبر غشية الفتاة
وموتها حتى اللحظة الأخيرة . ولكن عندما أقبل
المساء أتى المفتشون الذين وقفوا على دقائق الحال من
الجيران وطلبوا إلى أهل الميت أن يسلموهم جثة
جنيرفا أو يدفنها توما ؛ بيد أنهم حينما أخذوا
« رشوة » جسيمة ، قبلوا أن يتركوا الجثة في بيت
فرنسكو حتى مساء اليوم التالي .

لم يبق أحد من الأهل في سرية من موت جنيرفا

وقد حدث بمض الاضطراب في أخريات الحفل حينما حمل النعش من الكتدرائية إلى الرمس لتوديعها بالقبلة الأخيرة . إذ شق رجل شاحب الوجه في عباءة حريرية طريقه إلى الفتاة المسجاة ، ورفع عن وجهها غطاءه ، وبدأ يحدق فيها بنظرات ثابتة . فطلب إليه أن يتنحى ويبتعد ، وأخبر أنه عار عليه — وهو غريب — أن يدنو من جنيرفا ، ولما يتركها أهلها بعد . فلما سمع الرجل الممتنع أنه وُصف بالغريب ، وأن ماتييو وفرنسكو قد نُعتا بالأهل ، ابتسم في صراحة وقبل الفتاة الميتة في ثغرها وأعاد الغطاء على وجهها ، ثم ابتعد عن الجمع دون أن ينبس . فدار الهمس بين المحتشدين ، وأشاروا إليه مرددين اسم انتونيوى روندنيللى ، الرجل الذى أحبته جنيرفا ، والذى ماتت في سبيل حبه .

واختفت بقايا الشفق وانتهت الجنازة ، وبدأ الجمع فى الانصراف . فرغبت مونا أرسولا فى قضاء الليل بجانب النعش ، فعارضها المم ماتييو . إذ أنها بلغت من الحزن مبلغاً كان يخشى على حياتها من قسوته . فقط بقى الأخ ماريانو — وهو راهب دومنيكانى — بجوار القبر ليقرا الصلوات على الميت وتقضت بضع ساعات . وفى هدوء الليل الشامل لم يكن يُسمع سوى صوت الراهب ودقات الساعة من أعلى برج « جيوتو » من حين لحين . وأحس الأخ ماريانو بعد منتصف الليل بظلاً شديداً . فسحب زجاجة من الخمر فى عنف وأمال رأسه إلى الوراء ، وتناول بضع جرعات قليلة بسرور ولذة . ثم خيل إليه أنه سمع زفرة ، فأرهدف السمع فبلغت سمعيه زفرة أخرى . وفى تلك المرة بدا له كأن غطاء وجه الفتاة قد اهتز وارتعش . فتملكه رغب شديد بعث

إلا صريتها المعجوز التى يرمىها الجميع بالجهل والغباء . فتوسلت إليهم فى بكاء مؤلم ألا يدفنوا جنيرفا مؤكدة أن الطيب مخطيء فإن جنيرفا لم تمت ، بل أنها فى نوم عميق . وأقسمت أنها حينما وضعت يدها على قلب عزيزتها (أحست أن القلب يخفق فى ضعف ، فى ضعف ، بل أضعف من رفيف جناح فراشة) وتصرم اليوم ولم تبد جنيرفا أى دليل على حياتها فطويت فى أكفانها ووضعت فى نعشها ، ثم حملت إلى الكتدرائية . وكان القبر الجاف الخشن مرصوفة أرضه بالآجر التوسكانى ، جاثما بين بابى الكنيسة فى إحدى ساحات الجبانة تحت ظل أشجار السرو الشماء العالية ، بين قبور أشرف فلورنسا وأعيانها . وقد دفع ماتييو فى ذلك القبر عنماً باهظاً . ولكن المال أخذ من البائنة التى كانت ستدفعها جنيرفا . وكانت عملية الدفن يحف بها المهابة والوقار . إذ أضيئت الشموع وأعطى كل فقير — لذكرى جنيرفا — كيلاً من زيت الزيتون مقابل نصف « صولودو ^(١) » . وبالرغم من برودة الجو وهول الطاعون كان فى الجنازة جمع غفير . ولم يستطع البعض — حتى الغرباء منهم — حبس دموعهم حينما سمعوا قصة موت العروس الصغيرة ، وراحوا يتمتمون بجملة بترارك الحلوة

« يبدو الموت جميلاً على وجهها الجميل » .

وقد ألقى فرنسكو على قبرها رثاء مقتبساً ليس من اللاتينية فحسب ، بل من الإغريقية لأفلاطون وهو ميسرس ، وقد كان ذلك حدثاً جديداً فى هذه الأيام ، أخذ بالباب جميع المنصتين إليه حتى أولئك الذين لا يفهمون الإغريقية .

(١) « الصولودو » عملة إيطالية

في هيكله الرجفة . ولما كان قليل الاختبار في مثل تلك الأمور ، ويعلم جيداً أنه حتى من خبروا هذه الحالات تطفئ على أذهانهم خيالات وأوهام ، حين ينفردون بجثة أثناء الليل . فقد عوّل على ألاّ يلقى بالآ إلى الأمر ، ورسم علامة الصليب ثم مضى يردد الصلاة بصوت جهورى طنان .

وانقطع صوت الراهب فجأة ، وتصلب مكانه ، وثبتت عيناه الجاحظتان على وجه الفتاة الميتة ، لم تكن هذه المرة زفرة ، بل أنين أتى من بين شفقتها . ولم يبق لدى الأخ ماريانو أدنى شك بعد ذلك ، إذ رأى صدر الفتاة يعلو ويهبط يبطء ، فيهر الغطاء الشفاف الذى على وجهها ، كانت تتنفس ، فرسم علامة الصليب وهو يرتعد من الرأس إلى القدم . ثم اندفع نحو الباب ، وقفز فصار خارج القبر . ولما استعاد نفسه بفعل الهواء البارد حمل ما حدث على الوهم والتخيل وعاد إلى الباب مستعيذاً بالمدراء ، ونظر إلى جوف المقبرة ؟ فانفجرت من بين شفقيه صرخة مفزعة . كانت الفتاة الميتة قد استوت جالسة في نعشها بعينين مفتوحتين ، فأصرع الأخ ماريانو يعدو عبر الجبابة دون أن يلتفت خلفه . ثم عبر ساحة سان جيوفانى ثم طريق « ريكاسولى » . فقط كان يُسمع وقع (سندله) الخشبى على الشارع المرصوف المغطى بالثلج في سكون الليل الرهيب .

وعندما أفاقت جنيرفا المرى من نومها ، أو من غيبوبتها التى تشبه الموت ، راحت تفحص نعشها بعينين يشع منهما الخجل ، وانبت فيهما الرعب حينما أدركت أنها دفنت حية . وبقوة يائسة قامت من نعشها وأحكمت أكتافها حول جسدها . ثم اتجهت إلى الباب الذى تركه الراهب مفتوحاً ، وخرجت إلى

الجبابة . ثم إلى الساحة أمام البكتدرائية . وكانت أشعة القمر تنساب من بين السحب السريعة التى كانت الرياح تمزقها شراً ممزق ، وبدأ برج « جيوتو » الرخامى في ضوء القمر منتصباً في صلابه وشم . وكانت أفكار جنيرفا مرتبكة مضطربة ورأسها يتمايل ويترنح وقد خيل إليها أنها والبرج سيحملان إلى السحب المغمورة بضوء القمر . لم تدرك تماماً إذا ما كانت حية أو ميتة ، إذا ما كان هذا حلم أم يقظة .

وسارت على غير هدئى في شوارع مقفرة ساكنة . واسترعى بصرها بيت تعرفه ، فتوثقت ثم سارت إليه وطرقت الباب ، كان يت عمها ماتيو وبالرغم من هذه «ساعة المتأخرة» ، لم يكن تاجر الصوف قد آوى إلى فراشه . كان في انتظار رسول من القسطنطينية إثر إخطار أتاب . وقد كانت بضع إشاعات قد بلغت العم ماتيو تدور حول غرق سفن كثيرة على مقربة من ساحل « ليفورنو » وخشى أن تكون سفينته ضمنها ، وأحس وهو في انتظار رسوله بالجوع . فأمر خادمه « نينسيا » . - وهى فتاة جميلة ذات شعر أحمر وثنايا بيض سواحر - أن تجهز له ديكاً محمراً . وكان العم ماتيو غريباً عجوزاً وفى تلك الليلة كان يجلس فى المطبخ بجوار النيران حيث كان البرد شديداً فى بقية الحجرات . وكانت نينسيا تجهز الديك بوجه مورد وذراعين بمشمرين . وكان لهيب النار ينعكس على الخبز البراق والأباريق المنسولة والصحون التى استوت على الرفوف . وقال ماتيو وهو يرهف السمع :

- نينسيا . أما سمعت شيئاً ؟

- إنها الريح . سوف لا أذهب . لقد أرسلتني إلى الخارج ثلاث ضرات .

إنك ترتعد كما لو كنت ذاهباً إلى الآخرة ... هيه ؟
ليس ثمة فائدة من ذهابك . إبقى هنا واحمد الله
أن لم يحدث لنا أسوأ من هذا
وأخذت نينسيا زجاجة ملأى بالماء المقدس
ورشت منها على الباب الخارجى وعلى أرض البيت
والسلم والطبخ ، وعلى ماتيوى نفسه ... وأطاع
الخادم ولم يُخَيِّب رجاءها ، زعماء منه أنها أكثر
معرفة فى التصرف مع الأرواح . واستحلفت نينسيا
الروح بصوت مرتفع قائلة :

— أيها الروح المبارك . اذهب بربك .. الموتى
للموتى جعل الله مثواك دار الحق
فلما أن سمعت جنيفاً أنها خوطبت كأنها ميتة
أدركت أنه ليس ثمة داع لبقائها هنا ، فهضت من
جلستها على مدخل البيت حيث كانت قد سقطت
إعياء ، وضربت فى الطريق تبحث عن مأوى
سارت بقدميها المتجمدتين فى تم وإرهاق
حتى وصلت إلى الشارع المجاور حيث يقوم منزل
فرنسكو ديلاً جولانتي
كان سكرتير جمهورية فلورنسا فى هذا الوقت
يكتب رسالة فلسفية باللاتينية إلى صديق له فى ميلانو
يدعى ميشيو ديللو برتى كان مولعاً هو أيضاً بالملاحم
القديمة . كانت رسالته فى اللاهوت عنوانها :
« خطاب لذكرى الروح التى ارتبطت برابطة الموت ،
روح زوجتى الحبيبة ، جنيفاً ألى » . ومضى
فرنسكو يقارن بين مذهب أرسطو ومذهب
أفلاطون ، مُفَنِّداً وجهة نظر توماس أكويناس
الذى يجزم بأن فلسفة أرسطو تتفق وتعاليم الكنيسة
الكاثوليكية من ناحية الجنة والنار ، بينما زاح
فرنسكو يدلل فى براعة ومنطق سليم أن أرسطو

— وما ذلك بريح . امرؤ يطرق الباب . إنه
الرسول . اذهبي وافتحي الباب حالا .
فبدأت نينسيا المكتنزة تنزل الدرج الخشبي
فى تراخ وكسل بينما وقف العم ماتيوى على رأس السلم
ممسكاً بمصباح ينير لها السبيل . وسألت الخادم
— من هناك ؟ ... فأجاب صوت خافت من
وراء الباب :
— إنه ... إنه أنا جنيفاً ألى ... فتمتمت
الخادم فى دعر :

— يسوع .. يسو ...
وابتدأت ساقاها ترتعدان ، ولتغذ نفسها من
السقوط تشبثت بسيج السلم ...
واصفر وجه ماتيوى وسقط المصباح من يده .
وتوسلت جنيفاً قائلة :

— نينسيا . نينسيا . افتحي الباب . أسرعى .
دعيني أدق . نفسى . إبنى مقرورة أنبئى عمى أنه أنا
وبالرغم من بدانة الخادم ، اندفعت نحو السلم تجرى
عليه صاعدة حتى سمع للدرج صرير تحت قدميها :
— هو ذا رسولك الذى تنتظر . لقد أنبأتك
أنه خير لك أن تذهب وتنام كسيحي مؤمن ...
أوه ! أوه ! يطرق ثانية ... أسمع ؟ إن الروح
المسكين يئن ويتألم . كم هو مؤلم أنيته . آه يا إلهى !
أنقذنا وارحمننا نحن المذنبين صل من أجلنا أى قديسنا
لورنس ... فقال ماتيوى فى تردد :

— اسمعى يا نينسيا . سأذهب لأرى ماذا هناك
من يدري ... ربما ... فصرخت نينسيا وهى تشبك
يديها :

— ماذا ستفعل أيضاً ... فكر فيه فقط ...
يا للرجل الشجاع ! أو هل تظن أنى أدعك تذهب ؟

كان في الخفاء شاكاً ملحداً وأن «أفلاطون»
المعجب الكبير بالآلهة هو الذي كان يتمشى مع تعاليم
الكنيسة المسيحية

وكان مصباحه الزيتي المثبت على مكتبه إلى جانب
عدد كبير من الأدراج ، وأقسام الورق والخبر ،
والأفلام ، يحترق في لهب هادئ لطيف . وكان
المصباح عبارة عن تمثال صغير «لتريتون»^(١) يعانق
إحدى غواني البحر ، وهذا يدل على ولع فرنسكو
طوال حياته باقتناء التحف التي على هيئة النماذج
القديمة وكان على المكتب أيضاً تماثيل من ذهب
تمثل رقص كيوييد ، وملائكة تحمل أكاليل من
زهور الجنة ينعكس بريقها على صفحات القراطيس
الناعمة كالحرير ، الصلبة كالعاج .

وكان فرنسكو بهم بتحليل نقطة لاهوتية
من مذهب تقمص الأرواح . ويُلمح في حذق ،
ومهارة إلى مذهب «البيثاجوريان»^(٢) الذي يحرم
أكل البقول زعماء أنها تحتوي على أرواح الأولين -
عند ما سمع فجأة طرقة على الباب . فقطب حاجبيه ،
إذ كان لا يطيق أى إزعاج إبان عمله . على أية ، فقد
ذهب إلى النافذة وفتحها ، ثم أطل منها إلى الشارع
وعلى ضوء القمر الشاحب رأى جيتراً ملتفة
في أكفانها .

فنى فرنسكو أفلاطون وارسطاليس وأغلق
النافذة في سرعة حتى أن جيتراً لم تستطع أن تنبس
بكلمة واحدة . ثم ابتداء يردد صلاة العذراء ، ويرسم
علامة الصليب في رعب هائل مثل نينسيا ؛ بيد أنه

(١) تريتون : نصف إله ، أحد ثانفي البوق من أتباع
نبتون إله البحار .

(٢) بيثاجوراس : فيلسوف إغريقي قديم عاش سنة
٥٢٢ ق . م

تمالك نفسه سريعاً . وخجل للرب الذي ران
على قلبه حينما تذكر ما قاله بلوتونيس الأسكندري ،
وبروكس عن ظهور الموتى ، تمالك نفسه توا وأطل
من النافذة وقال في صوت ثابت :

— إذهب سواء أ كنت روحاً سماوياً أم روحاً
أرضياً . إذهب إلى حيث كنت لأنك تحاول عبثاً
أن تخيف ذلك الذي استنار عقله بالفلسفة الحقة .
قد تستطيع أن تخدع عيني الظاهرتين ؛ ولكن عبثاً
تحاول خداع عيني عقلي وإدراكي . إذهب بسلام .
الموتى للموتى .

ثم أغلق النافذة جامعا أمره ألا يفتحها ثانية
حتى ولو أقبلت فرقة بأكملها من الخيالات والأطياف
البائسة تقررع الباب .

فشرعت جيتراً تضرب في السير . ولما كانت
على مقربة من السوق القديم فقد ألقت نفسها عند
مأوى أمها .

كانت مونا أرسولا جاتية أمام الصليب وبجوارها
وقف الراهب جيا كومو صاحب الوجه ضعيفاً واهناً
من أثر الصيام . فرفعت عينيها الجزعتين إليه وقالت :
— ماذا أصنع يا أبت ؟ ساعدني . لا أحس
صبراً ولا خضوعاً . ولا أشعر في نفسي برغبة إلى
الصلاة . يبدو أن الله خذلني ، واجتوانى وهجرني ،
وقضى على روحي بالهلاك . فقال الراهب يحشأ على
الصبر :

— أطيعي الله في كل شيء حتى النهاية .
لا تندمي . هدى من صوت جسدك المتمرد . فإن
حبك المحض لابنتك إن هو إلا حب جسدي
لا روحي . ليس الحزن لأن جسدها مات . بل الحزن
لأنها مثلت أمام الله ولما تلب توبة صادقة . خطيئة

وهمت الأم مرة ثانية ومدت ذراعها نحو ابنتها
بيد أن الراهب ، في شحوب كالقوتى ، وقف حائلاً
بينهما ...

فسقطت جنيرفا على الأرض وأحست البرد يكاد
يقتلها . وعقدت يديها حول ركبتيها ونكست رأسها
ثم عقدت النية ألا تقوم ثانية ولا تتحرك حتى
تموت ... ومضت تفكر « ليس للموتى أن يعودوا
إلى الأحياء » ثم ذكرت أنتونيو فقالت في نفسها :
« أيمحتمل أن ينبذنى أيضاً ؟ » ... لقد فكرت فيه
من قبل ؛ ولكنها شعرت بالحجل يطنى عليها ،
إذ أنها لم تشأ أن تذهب إليه ليلاً بمفردها وهي
ذات بعل ... ولكنها الآن ميتة أمام الأحياء

واختفى القمر ، واكتست الجبال بالثلج ،
وانتصبت شاحبة أمام الصبح السافر . ومن مجلسها
في مدخل بيت أمها وقفت جنيرفا ، ثم انجذبت إلى
بيت غريب بعد إذ ضاقت بها بيوت الأهل والأقارب
وكان أنتونيو قد قضى الليل كله في صنع تمثال
من الشمع لجنيرفا . لم ينتبه إلى مرور الوقت وكيف
تسرب الضوء البارد ، ضوء صباح الشتاء الأزرق ،
إلى الغرفة من خلال النافذة . وكان يساعده في عمله
تلميذه المقرب بارتولينو وهو شاب في السابعة عشرة
من عمره ذو شعر ناعم ووجه كوجوه الفتيات

وكان وجه التمثال هادئاً . خيل إليه أنه يعيد
الحياة إلى المائتة ويهبها بقاء جديداً . وبدت الجفون
كأنها ستتهز وتنفتح ، والصدر كأنه سيعلو ويهبط
وكان الدم الحار يتدفق في عروقها الجميلة
وانتهى من عمله ؛ وبينما كان يحاول أن يرسم
على شفتي التمثال جنيرفا ابتسامة طاهرة ، إذ سمع
طرقاً على الباب . فقال دون أن يترك عمله :

— بارتولينو ! افتح الباب

فذهب التلميذ إلى الباب وسأل :

كبرى وذنب عظيم . وفي تلك اللحظة سمع طرق
على الباب :

— أمى . أمى . افتحى سريعاً . إنه أنا . دعيني
أدخل . أسرعى
— جنيرفا !

قالت لها مونا أرسولا في دهشة عنيفة وهمت
بالاندفاع نحو بنتها . ولكن الراهب تصدى لها :

— أين تذهبين ؟ إن ابنتك الآن في قبرها

ميتة ... ولن تقوم حتى يوم الحساب . إن هذا
إلا الروح الشريرة لمخدعك بصوت ابنتك . بصوت
جسدك ودمك . توبى وصلى . صلى قبل أن يفوت
الأوان وتولى الفرصة . صلى من أجل نفسك وروح
جنيرفا الخاطئة . هذا ما ينقذكما من الخسران المين

— أمى . ألا تسمعين ، ألا تعرفين صوتى ؟
إنه أنا . إني على قيد الحياة ... لست ميتة !

— دعنى أذهب إليها ، أى أبى . دعنى
— اذهبي . ولتعلمى أنك بذلك لا تعرضين

نفسك للهلاك فحسب ، بل روح جنيرفا أيضاً ...
عليك لعنة الله في الدنيا والآخرة

وامتلاً وجه القس بآيات البغض الشديد وتوجهت
عيناه يريق من النار غريب ، مما جعل مونا أرسولا
تقف خائفة وجللة . ثم شبكت يديها وجثت تحت
قدميه تصلى

فأبحه الراهب جيا كومو نحو الباب ورسم إشارة
الصليب وقال :

— باسم الأب والابن والروح القدس ...
أستحلفك بدم المسيح الذى صلب أن تختنى ... أن
تذهبي أيتها الملعونة . إنها أرض مقدسة . أى إلهى
لا تقدنا إلى الغواية والضلال بل خلصنا من السوء
والوبال ...

— أمى ... أمى ... رحمة نى ... إني أموت

— من هناك ؟

فأجابه صوت كصوت نسيم المساء لا يكاد يسمع :

— أنا جنيرفا أرى

قفز بارتولينو إلى أقصى مكان في الغرفة شاحباً
مرتعداً ، وراح يهمهم وهو يرسم علامة الصليب :
« الميتة ... ! »

يسد أن أنتونيو عرف صوت حبيبته فاندفع
إلى بارتولينو وخطف منه المفتاح خطفاً فعاجله التلميذ
قائلاً وأسنانها تصطك :

— فكر في نفسك يا أنتونيو . ماذا أنت صانع ؟
فأسرع أنتونيو نحو الباب وفتحه ؛ فالتى جنيرفا
ملقاة على عتبة كأنها جثة هامدة ، وقد تجمد الطل
على خصلات شعرها الناعم ، ولكنه لم يحس أى
خوف إذ كان قلبه مفعماً بحنو شديد . انحنى فوقها
تتناثر كلمات الحب من فيه . ثم حملها وغاد إلى مثواه .
أرقدتها على بضع وسائد وغطاها بأحسن غطاء
لديه ، ثم بعث بارتولينو إلى السيدة المعجوز التي
استأجر منها غرفة عمله . ثم أوقد ناراً في الموقد وأدفاً
عليها بعض الخمر وسقاها منه قطرات . فتنفست بعد
ذلك في راحة وسهولة وهي وإن كانت لم تستطع
السكلام ، إلا أنها فتحت عينيها . فامتأ قلب أنتونيو
بالفرح ، وقال لها وهو يذرع الغرفة غدوا ورواحا :
— ستقبل المرأة حالاً ، لقد دبرت كل شيء .
فقط اغفري لى تلك القوضى التي ترين ياسيديتى جنيرفا
وأزل أنتونيو السلة خجلان حيران وأخرج
منها بعض المال ناوله بارتولينو وأخبره أن يسرع
إلى السوق ليشتري لحماً وخبزاً وخضراً لطعام الإفطار .
ولما أقبلت المرأة المعجوز ، أمرها أن تهيب حساء
فروج ساخن

وأسرع التلميذ إلى السوق بأسرع ما في مكنته ،
بينما ذهبت المعجوز تذبح فروجاً وبقي أنتونيو مع جنيرفا

وحده . فنادته ، فلما جثا بجوارها حدثته بكل ما مر بها
من حوادث ، ثم عقيبت قائلة :

— أوه يا عزيزى ! أنت وحدك الذى لم تخف
حينما جئتك ميتة . أنت وحدك الذى يحبني حباً صادقاً
فسألها أنتونيو : هل أستدعى أهلك ؟ عمك ،
وأهلك ، أو زوجك ؟

— ليس لى أهل . ليس لى زوج ولا عم ولا أم .
إنهم جميعاً غرباء إلا إياك . إننى ميتة فى نظرهم ...
ولكننى على قيد الحياة فى نظرك أنت ... وأنا لك .
وبدأت أشعة الشمس الأولى تنصب فى الحجرة
فتبسمت له جنيرفا . وكان لون الحياة يقىء إلى خديها
كلما ترجلت الشمس . وجرى الدم حاراً فى عروقها
وحينما انحنى أنتونيو عليها ، وضمها إليه وقبلها
فى ثغرها ، أخست كأن الشمس تعيد إليها الحياة ،
وتهبها حياة أخرى خالدة . وهمست تقول له :
— أنتونيو ! تبارك الموت الذى علمنا الحب .
تبارك الحب . إنه أقوى من الموت .

محمد عبد الفتاح محمد

صدر كتاب

قافلة الأيام

مجموعة من القصص المصرية الحديثة

تأليف

عبد اللطيف السيد

يباع بخمسة قروش بجميع المكتبات بالعالم العربى
وبمكتبة النهضة المصرية

حاجي بابا اصبه هاني

للكاتب الانجليزى "جيمز مور"
بقلم الاستاذ عبد اللطيف النشار

الفصل الثانى والسبعون

حادثة فى الطريق - حاجي بابا يمر
فى نصبة عثمان اغا تعزية رسلوانا

خرجت من المنزل لا ألوى على شيء وأسهرت
فى مشيتى وظللت مدة لا أشعر بشيء ولا أسمع حتى
ولا وقع قدمى إذ كنت مشوش الأفكار مهموماً
محزوناً أحس باللوعة تكاد تمزق صدرى وبالأسى
يوشك أن يفتت كبدى . وحين وقع نظرى على البحر
جملت أقول : « إن من الحكمة أن ألقى بنفسى فيه »
غير أنى أثناء اجتيازى ميداناً فسيحاً من ميادين المدينة
رأيت حادثاً كان له رغم تفاهته أثر عظيم فى نفسى
إلى حد أنه غير مجرى أفكارى وأنقذنى من الانتحار
وقفت أشاهد معركة من معارك الكلاب
مما يكثر وقوعه فى شوارع الأستانة فقتل كلب
إلى حظيرة جماعة من الكلاب واعتدى على حقوقها
بأن سرق قطعة عظم وجرى بها . وتبع ذلك عواء
شديد ونباح وانطلقت الكلاب جميعاً وكادوا يصلون
إليه . وهنا تصادف أن قابل الكلب السارق بعض
رفاقه فطلب منهم المعونة ورجع بهم إلى مهاجرة
مطارديه وبذلك بدأت المعركة

وقد خطر لى خاطر أثناء وقوفى أشهد هذا المنظر
فقلت : « يارب ما أعظم قدرتك وأحكم إرادتك

وما أقل عقل من يندم على شيء أنت أردته
وقدرته ! يارب لقد شامت قدرتك أن أمر
من هنا لأتعلم درساً ولأعلم الطريق الذى
يجب اتباعه . إن المعونة والمساعدة فى تناول
الذى يطلبها . ذلك هو الدرس ، وإنى لتبعمه
إن شاء الله رغم أن الكلب هو الذى
علمنيه . نعم يجب أن نعتجب من حكمة تأتى بها
الحيوانات ويفوت الآدى إدراكها ، فلن أدع اليأس
يتسلط على وسأبحث عن صديق أجد العزاء والسلوان
فى تجاربه كما رأيت هذا الكلب يفعل الآن
وانجهت خطواتى إلى حيث كان صديق الأمين
ومرشدى وناصحى الشيخ عثمان اغا فهو على الرغم
من كونه تركياً كان يعاملنى كما لو كان مواطناً لى
ومشاركاً لى فى عقيدتى

استقبلنى فى سكون وهدأة كمأدته ، وحين قصصت
عليه بلاوى صعد نفساً طويلاً من غليونه الذى لا يفارقه
وتهد قائلاً : « الله كريم ! » ثم قال لى : « اعلم
يا صديق أنك حين حضرت إلينا بكل ما عليك من
مظاهر النعمة ودلائل الثراء والغنى ورآك مواطناً
كذلك تنبأت لك منذ تلك اللحظة بضربة تصيبك
ومصيبة تحمل بك ... إنك لا تزال صغيراً ولم تحمل
على كتفك من الأعوام الطويلة والتجارب القاسية
مثل الذى أحمل ، فأنت لا تدرك أثر النعمة الحادثة
فى نفوس الأشقياء المناكيد ... أ كنت تتصور
أن قوماً من طبقتك فى الحياة يرزحون تحت ما يعانونه
من العمل المتواصل والكد العنيف لا يعتمدون
فى رزقهم إلا على قسبة تبغ يبيعونها أو كيس تبغ
شيرازى يتجرون فيه ، أ كنت تحسبهم يطيقون
أن يروا زميلاً عليه من مظاهر الغز والغنى ما لم يتصوروه
(٦)

فقلت له : « قد يكون حقاً ما ظننت ، وقد يكون الأمر قد انتهى ونفذ السهم وليس لنا غير السكون والصبر ؛ غير أنني مسلم يا صديقي أعتقد في عدل الله ولم أسمع قط أن امرأة طردت زوجها من بيتها وإن كان العكس كثير الشيوع . ولست أعلم ولا أستطيع أن أعلم بأي حق تقبلني هذه السيدة زوجاً ثم لا تليث أن تطردني من منزلها في هيئة تخجل الكلاب . إنها امرأة خبيثة سرها أن تعاشرني في الصباح ثم تهجرني في المساء »

إن في المدينة قضاة وشيوخ إسلام كما هي الحال في كل بلد إسلامي فلماذا لا أرفع مظالمتي إليهم ؟ إنهم يقبضون مرتباتهم لإقامة العدل ورد المظالم فكيف يجلسون مطمئنين إذا سمحوا بمثل مظالمتي ولم يردوا العدل إلى نصابه ؟ إنني باحث بإذن الله عن حق »

فقال صديقي عثمان أغا : « هل جنت يا حاجي بابا حتى تطلب مقاضاة أرملة أمير من أعظم أمراء الإسلام ، بينما يحميها أخوها وها تاجران من أغنى تجار الآستانة ؟ أين عشت كل حياتك حتى لا تعلم أن الذهب والمال هما الحق والعدل ؟ إنك لو ظهرت أمام المحكمة تطالب بحقوقك ومعك ما شئت من حجج وبراهين ووقف أمامك صهرك بماله وجاهه ، هل تشك في أن الحق يكون في جانبه ؟ »

فقلت متأوهاً : « إرحمني يا أرحم الراحمين اهل ضاع العدل وفقد الناس الدم ؟ بلئس عالماً هذا شأنه ! إنني لا أستطيع أن أنزل عن حقوق وسأطالب بها » وجعلت من يأسى وحسرتي أبكي بكاء مرأ وأنتحب نحيماً شديداً وجلست من يأسى وحسرتي أبكي وأنتحب ونزعت بعض شعرات من لحيتي فحاول عثمان أغا أن يهدي من روعي ويسكن من هياجي

في أحلامهم أو بتخيلوه طول أيامهم ؟ إنك لو كنت تفوقهم حذقاً أو تبرهم مقدرة وعزماً ثم ظهرت أمامهم بلباس أحسن من لباسهم وحال أنعم من حالهم ، أو رأوك تمتطي الجياد وقد اعتادوا ركوب الحمير لهان الأمر ولما أوغرت صدورهم وأثرت حزازات نفوسهم . ولكن الذي أوقد نيران الحسد وأشعل لهيب الضغينة ظهورك بملابسك الأنيقة وجليونك المذهب وجوادك المطهم بين خدمك وحشمك وما كنت فيه من عظمة وكبرياء وعجب وخيلاء . وإن ذلك كله كان مفاجأة لم يسبقها امتياز لك عليهم ولا تدرج في التفاوت بينك وبينهم فأذلتهم بذلك وحطمت عزائمهم فلم يحتملوا الأمر وحقدوا عليك ووطدوا العزم على إرجاعك - إن أمكنهم - إلى حالتك الأولى ، فن الجلي أنهم هم الذين أسروا إلى أصهارك أنك لست بالتاجر البغدادي ولكنك ابن حلاق في أصفهان وأنك بائع سلع حقيرة

ولم يشك أصهارك في صدقهم بسبب الريبة التي كانت تحوم حولك وتلاعبك في عقد الزواج وحيرتك في تحديد ثروتك . ومن الواضح أيضاً أن أصهارك أدركوا كذبك فيما ادعيت من شرف الأصل وكرم المنبت وسعة الثروة ، فن متاجر في بخارى إلى مراكب تسبح في بحار الصين . ولو كنت ظهرت أولاً في غير جلبة ولا ضوضاء بمظهرك الحقيقي لكنت نصحت لك وحذرتك من الظهور أمام أبناء بلدك بشيء يدل على النعمة أو ينم على الفنى . ولكن الأمر انتهى ووقع المقدور ولا حيلة لنا اليوم فيما حدث . وكل ما أوصيك به الآن أن تتعلم من ماضيك ما ينفعك في مستقبلك »

وبعد أن انتهى الرجل من حديثه عاد إلى غليونه

ولما تكلمت معهم أدرکوا أنني واحد منهم رغم
ملايبي التركية ، ووعدوني أن يدخلوني إلى سيدهم
من غير عناء .

غير أنني كنت أريد قبل أن أدخل إلى السفير
أن أعلم شيئاً من طباعه وأحواله حتى أستطيع أن
أظهر أمامه بالشكل الذي يريد ، وأحاطه باللغة التي
يحب .

لذلك تحدثت مع أحد الأتباع من غير حذر
أو مواربة عن كل ما أستفهم عنه ، وكانت نتيجة
حديثي أنني علمت أن السفير اسمه فيروز ، وقد ولد
في شيراز من أبوين محترمين ، ولو أنهما ليسا من
علية القوم خلا أمه التي كانت شقيقة وزير قديم
ذی سطوة وجاه ، والذي كان السبب في ارتقاء الشاه
إلى العرش .

وتزوج السفير من ابنة خاله الوزير المذكور ،
وساعده ذلك الزواج أن ينال مركزاً في الحكومة
وكان قبل ذلك قد مارس عدة شؤون جعلته يزور
كثيراً من الممالك ، ونتج عن ذلك أن اختاره الشاه
وزيراً لشؤنه الخارجية .

ثم قال : « إنه رجل ذكي القلب سريع الخاطر
جبار العقل سريع الغضب غير أنه مع غضبه كثير
التسامح ولو أنه حين يغضب لا يسلم المرء من شدته
وقد وهبه الله ملكة الخطابة والتأثير ، وبها
استطاع أن ينجو في مركزه من أية ورطة يقوده
إليها مركزه وحدة طبعه ، وهو يعامل خدمه
وحاشيته بالحلم والرفقة أحياناً وأحياناً بالشدّة والقسوة
فيسمح لهم في بعض الأحيان أن يقولوا ما يشاؤون
في حضرته ، وفي البعض الآخر لا يجرؤ أحد أن
يقرب منه ، ولكنه يفلب عليه التبسط في الحديث

فأخذ يذكّرني بحياتي الماضية وبحوادثنا وما شاهدناه
أثناء سجننا لدى التركمان وقال لي : « إن الله قادر
وحليم وكل ما يصيننا في حياتنا فهو مكتوب مقدر
فليس لنا إلا الرضوخ لما قدر علينا »

فخطر لي خاطر جديد وقلت : « ولكنني إراني
فكيف أقبل ظمناً من تركي ؟ إننا أمة عظيمة لها
تاريخها وعظمتها من عهد جتكير خان وتيمور خان
ونادر خان الذين رفعوا شأننا وأذاعوا فضلنا بين
العالمين ، والذين قتلوا رجال الترك ونهبوا ديارهم أينما
وجدوهم . سأسى إلى سفيرنا وأقص عليه الأمر .
فإن كان رجلاً شهماً رد لي حقوق من مقتصبها .
نعم . نعم . إن السفير سيرد زوجي إليّ . ما أحسن
هذا الخاطر وأطيبه ! ثم سئري من يستطيع أخذها
مني ثانياً » .

وكنت قد تشبعت بهذا الخاطر ، وامتلاّت به
نفسى حتى لم أقف لأسمع ما يقول عثمان أغا في الموضوع
وانطلقت ممتلئاً نشاطاً وإقداماً أسى إلى ممثل ملكنا
الأعظم الذي كان لحسن الحظ قد وصل قريباً في
شأن من شئون الدولة مع الباب العالي .

الفصل الثالث والسبعون

عثره على صديق - بعض أعيان ميرزا فيروز
علمت أن السفير يقطن في حي اسكوتاري .
فيممت ذلك الحي ، وجعلت أرتب أفكاري وأنظم
خواطري لأقدم للسفير مظلة جديدة بالاهتمام .
وبعد أن نزلت من القارب سألت عن منزل السفير .
فلما وصلت إليه رأيت حديقة حافلة بالأتباع والخدم ،
وقد ذكروني بموطنى الذى يختلف كثيراً عن البلاد
التركية بما بدا لي من ملاحظهم وسرعة حركتهم .

والرقة واللين وحب المزاح .

ذلك هو الرجل الذي قادوني إليه . وقد رأيته جالساً في أحد أركان الغرفة كمادة أهل إيران ، وبسبب جلوسه لم أعرف أطويل هو أم قصير ... غير أن وجهه كان من أجمل الوجوه ، وهو عريض الكتفين ، عريض الصدر ، أفتى الأنف ، واسع العينين متألقهما ، جميل الفم جذاب ، له لحية يحسده الراؤون عليها . وكان مثلاً للجمال الفارسي ، وبعد أن تبادلنا السلام قال لي : « هل أنت إيراني ؟ » فقلت : « نعم » .

قال : « إذن لم تنزى بالزى العثماني ؟ إن لنا بحمد الله ملكاً ودولة لا ينجل من الانتماء إليهما أي إنسان » .

فأجبت : « لقد قلت حقاً . ولما لبست ثياب الأتراك وتشبهت بهم صرت أحقر من كلب ورأيت أيام بؤس لا توصف ، وتفتت كبدي أسي حيث اختلطت بهؤلاء القوم الملاحين ، وليس لي من حام غير الله وغيرك » .

فقال لي : « وكيف ذلك ؟ تكلم ! هل نال أحد الأصفهانيين ، إذ يظهر من لهجتك أنك أصفهاني ، ضرراً أو أذى من تركي ؟ عجيب هذا والله ! إننا ما حضرنا إلى هنا ، وما قطعنا كل هذه المسافات الشاسعة إلا لنذيقهم العذاب لا لكي يعذبونا » .

قصصت عليه كل أمري منذ البدء إلى النهاية وكنت كلما تقدمت في الرواية ازداد هو إقبالاً على وانشراحاً بحديثي إلى أن وصلت إلى قصة زواجي فأخذ يضحك ضحكا عالياً متواصلاً من الرواية التي رويتها عن زوجتي ، وقد سره ما أخبرته به من أمر الولية التي أقمها والاحترام الذي قوبلت به وأبهتي

وعظمتي اللتين ظهرت بهما ، وكنت كلما ذكرت شيئاً من خديعتي لمجول الأتراك (كما كان يسميهم السفير) وغشي لهم زاد سروره وانشراحه وكثر ضحكه وأخذ يقاطعني بقوله : « بارك الله فيك يا أصفهاني ! بارك الله في ذكائك أيها المفلس ! والله لو كنت في مكانك ما صنعت خيراً مما تصنع »

ولكنني حين قصصت عليه ما فعله مواطني من حسدهم وضغينتهم وما تم أخيراً في منزلي ، والشتائم التي أنهالت عليّ من النسوة وأقارب زوجتي . وحين مثلت له حالتي حين خرجت من المنزل رأيته بدل أن يظهر الشفقة والأسى لما نالني أخذ يضحك ويتمايل من شدة الضحك وقد احمر وجهه وانتفخت عروق جبهته ولم يلبث أن استلقى على وسادته من تأثير الضحك الشديد

فقلت له : « أتوسل إليك ياسيدي أن تفكر في مركزي الحاضر . لقد كنت أنام على فراش من ورد فأصبحت لا أجيد ما أتوسده . وكنت أمتطي خير الجياد فأصبحت أتمنى أن يكون لي حمار حقير

إنني حين أنصور ما كان لي من ثروة وغنى ، من ثياب فاخرة وخدم وحشم وحمامات من رخام وغلايين وفناجين وكل ما يمكن أن يشتهي المرء ، ثم أرى نفسي اليوم لا أملك ما أتباع به ؛ حين أنصور ذلك أعاني حسرة أية حسرة وأكابد لوعة لوعة ! إن هذه الذكريات لتثير كل شعور في نفسي إلا السرور ، وتحدث كل شيء بنفسى إلا الضحك مهما يكن تأثيرها في نفسك »

فصاح السفير ضاحكاً : « إن هؤلاء الأتراك معانيه وإنني أتخيلهم الآن باحمام الطويلة ورؤوسهم الصلعاء ، وقد انطلت عليهم رواية الإيراني الخبيث وأكاذيبه . ولولا أن أبلغهم الأمر فارسيون من

كثير الهم والتفكير، فأمالى من حيث الحياة الناعمة والعيش الطيب قد ذهبت أدراج الرياح ورأيت نفسى مضطراً إلى الكد والنصب لأحصل على ما يقوم بأمورى

وأخيراً قلت لنفسى : « لئن فقدت المنزل فقد عثرت على صديق وليس من العقل أن أرفض حمايته ولا شك أن العناية التى حفظتنى والقدر الذى سدد خطواتى سيتمهداننى فى مستقبلى وقد أصل يوماً من الأيام إذا شاءت المقادير إلى حالة لا أقلق معها على الحياة »

وصممت على التقرب من السفير ، وسرنى أن رأيت أن البشاشة التى أظهرها عند أول مقابلة قد زادت ، وكثر عطفه علىّ مع توالى الأيام . وقد استفاد السفير منى إذ جعلنى أستطلع له الأخبار ، وأودى له خدمات حكومية ، وأخرى خاصة بمهمته التى جاء من أجلها .

وشغلتنى عن البحث فى مستقبلى الاهتمام بالحوادث العامة ، والأمور الخارجية ، وكنت لا أعرف عن الأمم من قبل غير أمتى وأمة الترك ، وأسماء بعض الأمم الأخرى مثل الصين والهند والأفغان والتاتار والكرد . وكنت أعرف العرب كذلك ، وأعرف من الأفريقيين بعض أجناس كنت أراهم يخدمون فى منازلنا .

وعرفت من الفرنج الروسين (إذا كان هذا هو اسمهم) وقد كنا كثيراً ما نرى بعض رجالهم فى إيران . وسمعت عن الإنكليز والفرنسيين .

فلما دخلت إلى الآستانة دهشت إذ سمعت بوجود أجناس أخرى من الفرنج غير الثلاثة الأجناس التى ذكرتها ، ولسكننى كنت مشغولاً بأمورى الخاصة

جنسه لظلوا فى عمايتهم ولا خامرهم شك ولا ريبة . ثم قال لى : ماذا أستطيع أن أعمل ؟ لست والدك ولا عمك لآتدخل فى أمر زواجك ، وأقنع أهل زوجتك ، ولست قاضياً ولا مفتياً لأفصل فى موضوعك » .

فأجبت : « نعم . لست واحداً ممن ذكرت غير أنك حامى هنا ونصيرى ، وأنت تمثل ظل الله على الأرض فلا تتخلّ عنى ولا تسمح باضطهاد يصيب مسكيناً غريباً مثلى »

فقال لى : « هل ترغب فى استرجاع زوجتك على أن تظل عرضة للقتل فى كل لحظة ؟ ماذا يفيدك الغنى والثروة والجاه والسطوة إذا وجدوك قتيلاً فى صبيحة اليوم الذى تستردها فيه ؟ كلا ! كلا ! كن عاقلاً وأصغ إلى قولى واستمع لنصيحى . ألق كل ما عليك من ملابس الأتراك وارجع كما كنت فارسياً . فإذا ما استعدت شكلك الأول فكرت فى أمرك ، وفيما يجب أن أعمل من أجلك . لقد أطربتنى قصتك وأعجبنى ذكاؤك وفطنتك وصدقنى أن فى الحياة ما يفوق النوم على فراش من ورد ، والتدخين طول اليوم فى قصبة تبغ أو ركوب جواد ضخم فالبت هنا وإذا اشتقت يوماً إلى اللهو والضحك أحضرتك لتقص علىّ قصتك ثانياً » .

وعند ذلك قمت فقبلت أطراف ثيابه شاكرآ فضله . وتراجعت غير عالم بما يكون من أمرى فى حالتى هذه .

الفصل الرابع والسبعون

هابى بابا بموزقة السفير

لقد قيل إن الحاجة كجواد يعدو براكه فيصل إلى ما لا يصل إليه الجواد السابق . وكنت قلقاً

فلم ألتفت كثيراً إلى ما يختص بهذه الأجناس . فلما انضممت إلى أتباع السفير ، وصرت في معيته سمعت عن أشياء لم تكن تخاطر بيالي من قبل . وصار السفير إذ علم أنني أسى إلى مرضاته ، وانتهى أمره بأن منحني ثقته التامة .

ففي صباح أحد الأيام بعد أن تسلم رسائله الرسمية ، أرسل في طلبي وقال : إنه يريد محادثتي على انفراد في أمر هام . وأمر كل من كان موجوداً بالانصراف وأجلسني . ثم قال لي بصوت منخفض : « يا حاجي بابا . إنني أريد أن أحادثك . فإن القوم الذين تتكون منهم معيتي لا يفقهون ما أريد . وهم فارسيون أذكاء إلا أنهم لا يدركون من شئون الدولة شيئاً ، ويمطلون الأعمال التي حضرت من أجلها أكثر مما يساعدوني على إنجازها . غير أنني والحمد لله قد وجدت فيك الرجل الذي أطلب . فأنت فوق هؤلاء الرجال خبرة ودراية ، وقد رأيت من العالم وحوادثه وتجاريه فوق ما رأوا ، ويمكن الاستفادة بك . إنك تستطيع أن تضحك من الذقون ، وتستخرج لباب الأمور من غير أن تلمس ظواهرها . وأنا في احتياج إلى رجل مثلك . فإن أخلصت لي وللشاه ملك الملوك كان ذلك سبباً في رفعتنا سوياً ، وفي ارتقائنا وعظمتنا » .

فقلت له : « إنني وما أملك من قوة ونشاط رهن إشارتك . فإنا غير عبدك وخادمك ، وليس على سيدي السفير إلا أن يأمر فيطاع أمره على الرأس والعين » .

فقال السفير : « قد يكون وصل إلى سمعك مما تتداوله الألسن أن مهمتي التي قد جئت من أجلها هي شراء الرقيق للشاه من نسوة بارعات في الرقص

والعزف على آلات الطرب وغير ذلك من الشئون المنزلية ، وأن اشترى للحزم الملكي حرائر ورياشاً وبذائع وطفانس ... لقد أشبعنا ذلك لتضليل الجمهور وإخفاء غرضنا الحقيقي ، فلم يرسلني الشاه لأمثال هذه السخافات بل حضرت في غرض أهم وأشرف مما ذكرت . حضرت في مهمة فوق ما تتصور ، ولا ينتخب الشاه لثلها إلا الذي الحصيف ، وقد وقع اختياره عليّ فأرهب سمعك لما أقول . منذ بضعة أشهر وصل إلى طهران عاصمة إيران سفير من أوربا قال : إن الذي أوفده هو امبراطور اسمه نابليون بونابرت شاه الفرنسيين . وقال إنه يحمل رسالة وهدايا للشاه وتحدث ذلك السفير كثيراً عن قوة الامبراطور وأعماله وصفاته ، وأكد رغبة سيده في عقد محالفة مع الشاه . وقال السفير : إن لديه من التعليلات ما يخوله عقد المحالفة ، وظهر في كلامه وحركاته بمظهر عظيم حقاً ، وصرح بأن باقي الأمم الأوربية أي أمم الفرنج ليست إلا مواطني تقدمه لا تستحق منه أي اعتبار ووعدنا السفير بأن يتخلى لنا الروس عما فتحوه في جرجان ، وأن يعيد إلى الشاه تفليس وغيرها من المدن التي كانت للفرس في الزمن الماضي وقال إنه سيفتح الهند ويطرد منها الانكليز ، وأنه يهبنا كل ما نطلبه ونصبو إليه نفوسنا .

وقد كنا سمعنا عن الفرنسيين أنهم يحيدون غزل الأقمشة وبضع صناعات أخرى غير أننا لم نكن نعلم أن في استطاعتهم تنفيذ ما كان يدعيه ذلك السفير . وسمعنا فوق ذلك شيئاً من أخبار هجومهم على مصر إذ ارتفعت على أثر ذلك الهجوم أثمان البن والحناء . وذكر أحد العظماء سفيراً فرنسياً من قبل ملك فرنسا لويس ولكن أجداً منا لم يعلم أن ذلك البونابرت

عرشي ويقبل على أهل الشمال والجنوب وسكان الغرب والشرق ويقدمون إلى الهدايا والنفائس ، لأسمح لهم بالمقاتلة تحت قدمي فليتقدم منهم من يتقدم وليفد على منهم من يفد فآله معنا »

وعند ما تركت باب الشاه كانت فارس تنتظر قدوم سفير الإنكليزي . والخطابات التي تسلمتها الآن تنبئ بأخبار طلبه السماح له بالمقاتلة والمحاربات الدائرة بهذا الشأن غير أن الشاه لا يستطيع البت في الأمر قبل أن تصله أخباري لأنه حين علم أن في الآستانة كل الأجناس الأوربية وأن لكل أمة سفيراً فيها رأى جلاليته بما له من الحكمة وسداد الرأي أن يبعثني إلى هنا لأحصل له على المعلومات التي نحن في حاجة إليها حتى يزول من فارس كل ريب يتعلق بالفرنسيين والإنكليز وحتى أعلم إذا تمكنت حقيقة ما قالوه عن أنفسهم .

وقد رأيت يا حاجي بابا أنني رجل واحد هنا والعمل الذي كلفت به يحتاج إلى أكثر من خمسين رجلاً فالفرنج أمة مختلفة وأجناس لا عداد لها كما لاحظت هنا من تباين اللغات واختلاف السحن واللهجات ، وقد أخبرتك أن رجال حاشيتي لا خيريهم ولا منفعة منهم في مثل أبحاثي فوق اختيارى عليك . وهأ نذا أنتظر نتاج مجهودك وثمرة أبحاثك ويجب أن تتعرف على بعض هؤلاء الكفار . ولعرفتك باللغة التركية تستطيع أن تستعلم منهم عن كثير ممن نود . وسأنقل لك نسخة من تعليمات الشاه في هذا الصدد ويجب أن تحفي هذه التعليمات في أبعاد مكان من عقلك غير أنك تسير على مقتضاها فاذهب الآن إلى أن أستحضر لك هذه الأوامر واجلس في مكان منفرد وفكر طويلاً فيما يجب أن تتبعه من الطرق وتتخذ من الوسائل »

قد صار ملكاً على فرنسا . وعلمنا من تجار الأرمن الذين طافوا بلاد العالم بوجود رجل بهذا الاسم وبأنه مثير هياج ومسبب شغب وقلق . وقد قبل الشاه بسبب ما علمه من هؤلاء التجار وبسبب ظروف أخرى أن يسمح للسفير بالثول بين يديه . غير أن أحداً من الناس لم يستطع أن يعرف إن كانت الرسائل التي أحضرها ذلك السفير مكتوبة بخط يمكن تفسيره أو لا يمكن وأن ما قاله السفير كان حقاً أو باطلاً ، فأعيا الأمر وزراءنا كبيرهم وصغيرهم ولم يستطع الشاه أن يدرك شيئاً رغم علمه الواسع بكل ما تقع عليه أشعة الشمس وإذا استثنينا « الخواجه عبيد » الأرمني الذي كان قد وصل إلى مرسيليا وهي بلدة في فرنسا وظل فيها سجيناً أربعين يوماً ، وإذا استثنينا كذلك « تاسيس » القس الفرنجي الذي تلقى العلم مع الدراويش في جهة من جهات تلك الممالك المجهولة . إذا استثنينا هذين الرجلين لم نجد ياب الشاه من يستطيع إرشادنا أو يلقى على ظلمات عقولنا شيئاً من النور أو يستطيع على الأقل أن يخبرنا إذا كان هذا البونابرت وسفيره محتالين أو صادقين ؟ وهل جاءنا السفير لينهب بلادنا أو ليرفع من شأننا ؟ ثم لم تطل حيرتنا فإن الإنكليز الذين كانوا يتجرون بين الهند وإيران ويقطن بعضهم في « بوشير » حين علموا بمجيء ذلك السفير أرسلوا إلينا الرسل والرسائل وبعثوا بعاقل منهم يحثنا على عدم السماح لذلك السفير بالتقرب منا وحاولوا كثيراً أن يمنعوا تقدمه ونجاحه حتى أدركنا أننا نستطيع الاستفادة كثيراً من هذا النزاع بين الإنكليز والفرنسيين

وقد قال الشاه : « وعزتي وتاجي إن العناية الإلهية هي التي أحدثت ما حدث . إنني أجلس على

وبعد ذلك أمرني بالانصراف فتركتته وخرجت
وقد فتح أمامي طريق جديد من طرق الحياة

الفصل الخامس والسبعون

ميهود ماهي بابا في الحياة العامة ورفع لمهمه

خرجت بعد أن أعطاني السفير صورة من تعليمات
الشاء ويمت مقبرة مجاورة لأتلوها على انفراد بهدأة
وسكون وقد أبقيت الورقة ملفوفة في طيات عمامتي،
ولأن هذا العمل كان أول عمل لي في الحياة العامة
فقد ظلت محتوياتها منقوشة في ذهني ثابتة في مخيلتي
وكان أول أبحاث السفير متجهاً إلى معرفة
حقيقة تلك المملكة التي تسمى الفرنجستان وهل
ملكها الذي يلقبونه في فارس بشاه الفرنج موجود
حقاً وأين عاصمته إن كانت له عاصمة ؟

وكان السفير فوق ذلك يريد أن يستعلم عن عدد
قبائل الفرنجستان وهل هم ينقسمون إلى سكان مدن
وسكان صحراء كما هي الحال في إيران ومن هم رؤساء
قبائلهم وكيف يحكمونهم ثم يستعلم بعد ذلك عن
فرنسا وعن اتساع أنحائها وهل هي قبيلة من قبائل
الفرنج أو مملكة مستقلة ومن هو ذلك البونابرت
الذي يلقب نفسه امبراطور تلك المملكة ؟ وأمر
السفير أن يوجه كثيراً من التفاته إلى معرفة حقيقة
هؤلاء الإنكليز الذين يعرفونهم في فارس بأقمشهم
العريضة وساعاتهم وخناجرهم، ويعرف من أي طبقة
من طبقات الكفرهم ؟ وهل يقيمون طول العام
في جزيرة من غير أن يكون لهم مصيف ولا مشتي
وهل يعيش معظمهم في المراكب ويقتصرون في
قوتهم على الأسماك ؟ وإن كان هذا هو أمرهم فكيف
استطاعوا الاستيلاء على الهند . ثم يبذل جهده في

كشف مسألة حيرت ألباب الفارسيين وشوشت
عقولهم وهي كيف أن انكلترا ولوندر قد اختلطتا
واشتبكنا فهل انكلترا جزء من لوندرا أم لوندرا
جزء من انكلترا ؟

ثم أمر السفير أن يستعلم فوق ذلك عن حقيقة
الإمبراطورية ومن أو ماهي وكيف وجدت العلاقة
بينهما وبين انكلترا وهل الإمبراطورية امرأة عجوز
كما يتردد على بعض الألسنة أم تتكون من جملة عجائز ؟
وهل ما يروى عن عدم قابليتها للفناء مثل (لأما التبت)
خرافة أم حقيقة ؟ ثم يستكشف حقيقة بعض أمور
غامضة خاصة بالحكومة الإنكليزية ونظمها

ومن مهمة السفير أيضاً معرفة بعض أبناء الدنيا
الجديدة . وأخيراً أمر السفير أن يكتب تاريخاً عاماً
عن الفرنجستان وعن أحسن الوسائل المؤدية إلى
تنفيرهم من شرب الخمر وأكل الخنزير وإلى اعتناقهم
دين الإسلام

وبعد أن قرأت هذه التعليمات وفكرت ملياً
رأيت أن خير من يجيب عليها هو كاتب في خدمة
(الريس افندي) كنت قد تعرفت به إبان الزمن
القصير الذي كنت فيه أنيق المظهر

وكنت أعرف القهي الذي اعتاد أن يجلس فيه
والساعة التي يذهب فيها وكان من عادته ألا يكتر
من الحديث ولا يسترسل في الكلام غير أن رجوت
أن تشرح نفسه ويحدثني عما يراه في هذه المسألة
إذا ما شرب قهوته ودخن غليونه كما كان يحدث من
إقباله علي بالحديث في بعض الأحيان

ولما اقتنعت بهذه الفكرة أخبرتها السفير الذي
سرمها واعتبط إلى حد أنه غراها إلى نفسه وقال لي :
« ألم أخبرك بهذا ؟ ألم أقل لك إنك ذكي القلب

عديدة لكل منها اسم خاص وحاكم وهذه القبائل رغم ذلك تكون أمة واحدة »

فقال : « لك أن تقول أمة واحدة إذا أردت وقد تكون هذه هي الحقيقة إذ كلهم يخلقون ذقونهم ويرسلون شعورهم ويلبسون القبعات على رؤوسهم ، وكلهم يرتدى الملابس الضيقة ويأكل لحم الخنزير ويشرب النبيذ ولا يؤمن برسول الله . غير أن من الواضح أن لهم ملوكاً كثيرين . ألا ترى هؤلاء السفراء العديدين الذين يتوافدون على الباب العالي ؟ إنهم لا عداد لهم حتى لا يسع المرء أن يحصيهم »

فقلت له : « تكلم ! تكلم بحق رسول الله ! وسأكتب ما تقول . أشهد الله أنك رجل واسع الاطلاع غزير العلم »

فسرح الرجل شعر لحيته وأخذ بقتل شاربيه ويستجمع أفكاره ليحصى أمم الفرنجستان ، بينما كنت مشتغلاً بإخراج الدواة من حزامي والاعتدال أمامه استعداداً للكتابة

وبدأ الرجل حديثه بقوله : « ولكن لماذا تشغل نفسك بهذا الأمر ؟ إنهم جميعاً ملاعين من منبت نجس ومخرج دنى ، ويوم القيامة سيصلون ناراً حامية »

ثم قال وهو يحصى على أصابعه : « أولاً هناك النمساويون جيراننا وهم قوم كثيرون التدخين يرسلون إلينا الأقمشة والصلب والزجاج ، ويحكمهم شاء من أعرق عائلات الكفر وأقدمها وله ممثل عندنا نطمعه ونكسوه . ثم هناك طائفة المسكوب وهم أمة قدرة لعينة مملكتهم كثيرة الاتساع حتى قيل إن لها طرفاً تغطي الثلوج الدائمة والطرف الآخر نار القيظ الملتهبة . إنهم أعداء ألداء لنا وقد طالبنا حاربناهم

حاضر البديهة . اعترف إذن بأن لي بصيرة نفاذة ونظراً ثاقباً ، وأنه يجب أن يكون المرء متوقد الذكاء والفضيلة ليفرق أقدار الرجال ويميز الكنايات ! لولاى لما اتجهت أنظارنا إلى هذا الكاتب ولما فكرنا فيه . سيخبرنا ذلك الكاتب بكل شيء ويساعدنا على انتشار الإسلام في جميع أنحاء الكون »

ثم أخبرني السفير بأن في إمكاني أن أعد ذلك الكاتب بالهدايا إذا وجدت صعوبة في الاستعلام منه وإن استعصى على الكاتب أمر فله أن يستفهم عنه من نفس الريس افندى

وذهبت في الوقت المناسب إلى المقهى فوجدت الكاتب هناك ودنوت منه مظهر البشاشة والترحاب والود ثم دعوت الساقى وطلبت أن يحضر لنا فنجانين من القهوة اللذيذة التي يصنعها من البن اليمني . وجلست أمام الكاتب وقد تصادف أنه أخرج ساعته فوجدت الفرصة ملائمة للبدء في مأموري . وقلت : « هل هذه الساعة من الفرنجستان ؟ »

قال : « هذا صحيح فليس في العالم من يستطيع عمل الساعات غير الأوربيين »

قلت : « عجيباً ! يظهر أنهم قوم غير عاديين » فقال : « أجل غير أنهم كفار »

فقلت وقد أخرجت الغليون من فمي وناولته إياه : « بالله عليك يا صاحبي أن تخبرني بشيء عن هؤلاء الفرنج . هل الفرنج مملكة عظيمة ؟ أين يقيم ملكهم ؟ »

فأجابني : « ماذا تقول يا صديقي ؟ أتقول مملكة عظيمة ؟ نعم ممالك كبيرة لا يخكمها ملك واحد بل ملوك كثيرون »

فقلت : « ولكنني سمعت أن الفرنج قبائل

صارخين بأعلى أصواتنا «الله أكبر! في سبيل الله!»
ويحكم الرجال والنساء على حد سواء . ولكنهم
يماثلوننا في قتل حكامهم والثورة على ولاية أمورهم .
ثم يحجى بعد هؤلاء من طوائف الكفر طائفة
البروسيين وليس غير الله يعلم لماذا يرسلون إلينا سفيراً
لا حاجة لنا به ولا منفعة؛ فإننا أبعد من أن نهتم بمثل
ذلك الحقيق؛ غير أن الباب العالي مفتوح على مصراعيه
يلججه النجس والحقير كما يدخل منه المؤمن الوقور
فتشمل الجميع عنايته

ثم ماذا أقول بعد ذلك بحق رسول الله؟ توجد
طائفتان أخريان من طوائف الكفر تسكنان في شمال
العالم وتقيان في آخر حدود الأرض، وهما طائفتا
الدانركيين والسويديين وهؤلاء قبائل صغيرة رجالها
قصار القامة لا يذكرون بين الرجال رغم ما قيل من
أن شاه الدانركيين من أكثر ملوك الفرنجستان
اطمئناناً على ملكه وراحة في عيشه لا يزججه مزعج
ولا يخيفه منازع بينما شاه السويد مشهور بالحماسة
والجنون فقد أثار مرة في أوربا حرباً شعواء لم ينظر
فيها إلى البلاد التي يحاربها بل كانت الحرب غايته
ومقصده، وقد أدى به جنونه وساقته حماقته
إلى اختراق حدودنا التركية . فأسرناه كما يؤسر
الوعل الشارد .

وكانت هذه الحادثة سبباً في معرفتنا تلك الأمة .
ولولا ذلك لكنا ظللنا إلى ما شاء الله لانعم من أمر
هذه الأمة حتى ولا وجودها .

وسأذكر لك قوماً آخرين يقال لهم أمة الفلمنك،
وهم كفار أغبياء يقال الظل باردو الطبع ينظر إليهم
الفرنج كما تنظر نحن إلى الأوربيين لا يفكرون
إلا في جمع المال، ولا يطمعون إلا في الثروة والفني

وهؤلاء يرسلون إلينا سفيراً خاملاً يقوم بشئون
تجارهم وتصرف صادراتهم من جبن وزبد وسمك
محفوظ . غير أن حكومتهم قضى عليها ظهور بونابرت
وبونابرت هذا رجل في مقدمة الرجال حليق بأن
نضعه في صف نادر شاه الفارسي وسليمان القانوني
التركي دون أن نخجل أو نحط من قدر أنفسنا .
وهنا لن أتمالك أن قاطعت الكاتب وقلت حين
سمعت اسم بونابرت : « بونابرت » . هذا هو اسم
الرجل الذي أريد معرفة شيء عنه فقد سمعت أنه كافر
لا نظير له مقدم شجاع ، وأرجو أن أسمع منك
شيئاً عنه »

فقال صاحبي : « هل تظنني أستطيع أن أحصى
أخباره ؟ لقد كان جندياً بسيطاً من عهد قريب ،
وهو اليوم سلطان أمة عظيمة ، وهو الذي وضع
لبلاده قانونها، وحاول جهد استطاعته أن يقضى علينا
باستيلائه على مصر فأرسل جيوشاً جرارة لفتحها .
غير أنه نسي سيوف المجاهدين وقتال المؤمنين فاضطره
المصريون إلى العودة بعد أن خوف بضمة ممالك ،
وأرغم الأعراب إلى الالتجاء للصحراء »

فسألت الكاتب : « ألا يوجد بين الكفار
قبيلة اسمها الانكليز ؟ لقد قيل إنهم أقل القبائل
عدداً وإنهم يقيمون في جزيرة ، ويصنعون الآلات
الحادة » .

فقال مجيباً : « أجل ذلك صحيح ، وقد حظي
الانكليز منذ قرون بما لم يحظ به غيرهم من أمم
الفرنج لدى الباب العالي فنالوا ودهم ، وهم قوم
بحريون لهم أسطول كبير، ولا يماثلهم أحد في صناعة
الساعات ، ونسيج الأقمشة »

فقلت له : « وماذا تعلم من أمر حكومتهم ؟

« ألا تتكون من شيء آخر غير الشاه »

فأجابني : « كيف يمكنني أو يمكنك أن تفهم عقلية هؤلاء القوم المجانين ؟ لست أنكر أن لهم شاهاً ولو أنه من المضحك أن ندعوه بالشاه إذ لا ينطبق عليه هذا الاسم فهم يطعمونه ويكسونه ويسكنونه في القصور الشاهق ويقررون له مرتباً سنوياً ويحيطونه بكل مظاهر العظمة وأبهة العرش بل ويلقبونه أضخم الألقاب وأعظم الأسماء سخرية منهم لأن الأغا البسيط من أغواتنا يملك من النفوذ أكثر مما يملكه هذا الشاه الانكليزي الذي بلغ من ضعفه أنه لا يستطيع حتى جلد أحد وزرائه مهما كانت جنايته . بينما يستطيع الأغا عندنا إذا أراد أن يصلم آذان نصف المدينة ولا يجازي بغير التشجيع والكفاة . ولهم محال مملوءة بالمجانين المحق مجتمعون فيها للجدل السخيف والتطاحن والتراشق بالألفاظ إذا قال فريق منهم عن شيء هذا أبيض اللون قال الآخر لا بل هو أسود ، ويشيرون ضجة عظيمة من مناقشات وردود وخطابات حول أية مسألة عادية يكفي أن يقطع فيها بالرأي أي مفتٍ عندنا فتفرض على قطر بأسره . وجملة القول فإن أمراً واحداً لا يمكن أن يقرر في تلك المملكة دون أن يثير الشعب تلك الضجة الحقاء والمناقشات الجوفاء مهما بلغ من تفاهة هذا الأمر كقطع رأس أغاناثر أو مثل ذلك من الأمور البسيطة . إن الله جلت قدرته وعظمته قد أعطى العقل لبعض الأمم وحججه عن البعض الآخر ، وليس لنا إلا أن نخضع لما أراد وعلينا أن نشكره تعالى على أننا لم نخلق بين هؤلاء

الانكليز المجانين ، وعلى أنه أوجدنا في أمة راقية رزينة ندخن غلاييننا مطمئنين آمنين على ضفاف البوسفور

فقلت : « ما أغرب ما تقص علي وما أعجبه ! لو لم أكن قد سمعت منك هذه الأمور لما صدقت منها حرفاً واحداً ؛ غير أن شيئاً واحداً بقي وهو مسألة الهند فكيف استطاع الانكليز أن يحكموها مع أن حكامهم نساء عجائز »

فأجابني : « لا يدهشني والله أي أمر أسمع عن هؤلاء القوم فليس لهم عقول . ولكن لم يصل إلى علمي أن الهند تحت حكمهم . قد يكون ذلك وقد لا يكون والله وحده يعلم . وكم للمجانين من أفعال شاذة وأمور غريبة »

فقلت بعد برهة ضمت : « والآن هل قصصت علي كل ما تعلم أم لا يزال عندك علم بكفار آخرين ؟ قل لي بحق الصداقة إذ من كان يعلم أن في الدنيا الغريبة التركيب والتكوين أمما بهذا الشكل ! »

فقال بعد أن فكر قليلاً : « أجل لقد نسيت أن أذكر أثنين أو ثلاث أمم ، غير أن ما نسيت أن أذكره غير جدير بالحديث . هناك غير ما ذكرت الأسبانيون والبرتغاليون والإيطاليون وهؤلاء أقوام يتغذون بالخنازير ويمبدون الأصنام وليس لهم أية قيمة حتى بين الفرنج . وقد وصل علمنا إلى أولام بسبب تقودم الفضية المتداولة بيننا ، ويفد من الثانية بعض اليهود ، وتبعث الثالثة إلينا دراويش يدفعون مبالغ طائلة لبناء الأديرة ودق الأجراس . ويجب أن أذكر لك شيئاً عن البابا خليفة الفرنج فهو يقيم

وقد سر السفير من التقرير الذي قدمته إليه مما قصه على الكاتب . وظل السفير بعد ذلك مدة إقامتي في الآستانة يرسلني يومياً في شئون أخرى واستعلامات شتى إلى أن حسبنا سوياً أن في استطاعتنا بما لدينا من المعلومات أن نكتب تاريخ أوروبا الذي كلفه مليكه بكتابه عند عودته . فأخذت أشتغل بمجد في وضع ذلك التاريخ وبعد أن فرغت من كتابة مسودته عرضتها على السفير لتنقيحها وتصحيحها لتوافق أغراض الشاء فنقحها وزاد فيها ما رآه لازماً وحذف منها ما يجب حذفه ، وحين انتهى منها سلمت إلى كاتب نقلها بخط جميل فأخرجها مجلداً قيمياً مرتباً ترتيباً بديعاً ووضعها في كيس من الحرير قال السفير إنه حري ببد الشاء ، واعتقد السفير أنه أتم مأموريته التي جاء من أجلها وأعلن أنه سيأخذني معه إلى إيران بل زاد على ذلك أنني سأستمر في خدمة الحكومة بعد رجوعنا إلى طهران ، وقال إن رجلاً له مثل هذه الدراية والخبرة الواسعة بأحوال الفرنجستان سوف ينفعنا نفعاً كبيراً في معاملة السفراء الموجودين في إيران »

ولم أكن أتمنى فوق ما عرضته على السفير إذ أن سوء المعاملة التي لقيتها من الترك جعلتني أكره الإقامة بينهم فلم أعد أرى في مدينتهم ما يجملها في عيني ، وكنت كلما ذكرت شكرليب غلي صدرى بالغيظ والحقد الشديدين

وكان قد مضى زمن طويل على حادثتي مع شيخ العلماء في طهران ، وكنت قد علمت أن الملا نادان قد مرق جسده على آلة التعذيب وأن أرملة شيخ العلماء التي تركتها بين أيدي قطاع الطريق لم ترجع

في إيطاليا ولا يني عن السعي في نشر دينه ، غير أننا لانهم به وقد توقفنا إلى هداية كثير من تابعيه وهذا لا يمنع من العذاب الذي يصيبهم على ما قدمت أيديهم قبل اعتناقهم الإسلام ديناً »

فقلت لصاحبي : « لم يبق غير سؤال واحد ليس لي بعده سؤال وشكراً لك على ما قدمت ، هل تذكر لي شيئاً عن الدنيا الجديدة فقد سمعت أخباراً متناقضة حيرت عقلي . كيف وصل الناس إليها أمن تحت الأرض أم بأية وسيلة ؟ »

فقال الكاتب : « ليس بيننا وبين من ذكرت علاقات كثيرة ، ولذلك لا أستطيع أن أقص عليك كثيراً من أخبارهم غير أن المرء يستطيع الوصول إلى الدنيا الجديدة على سفينة إذ رأينا هنا كثيراً من سفن الدنيا الجديدة وكلهم نصارى ضالون »

ثم تابع حديثه مشهداً : « كلهم نصارى مثل سكان الدنيا القديمة وسيكون مقامهم في جهنم وبئس المصير . هذه إرادة الله وحكمته »

ورأيت بعد ذلك أن الكاتب بدأ يتدمر ويتضجر فلم أسأله عن شيء آخر ، وكنا قد مضى علينا وقت طويل ونحن نتحدث فلم أطلب قهوة ولم أدخلنا وافترقنا بعد أن توعدنا على المقابلة ثانياً

الفصل السادس والسبعون

مباحي بابا يكتب تاريخ أوروبا

ويرجع مع السفير إلى أيراه

عدت إلى السفير فرحاً طروباً بما مضى من الأخبار وبنجاحي في أول مهمة كلفت بها في حياتي السياسية

التي لا نهاية لها . وكان الذي يسمعونهم في احترامهم هذا وتعظيمهم لا يخطر بباله أنني نفس الرجل الذي ضحكوا منه وشهروا به منذ أقل من شهرين بل يعتقد أنني رجل بلغ من سلطانه وقوته أن حياتهم أو موتهم يتوقفان على إشارة من بنانه

غير أنني لما استأذنت من عثمان أفا لم ألاحظ عليه أي تغيير ، ودلني كلامه على أن عاطفته نحو ابن حلاق أصفهان هي لم يطرأ عليها أي تبديل وقال بلهجته المادية حين اقترعنا : « إذهب يا بني . إنني سأصلي وأبتهل إلى الله أن ينيلك ما تصبو إليه نفسك من رفعة ونجاح ، وأن يسدد الله خطواتك أينما ذهبت وفي أية حالة — سجيناً عند التركمان ، أو عالماً من العلماء ، أو بائع غلايين ، أو أفا تركياً أو سفيراً فارسياً — كن ما شئت وسأدعو الله لك في صلاتي »

وترك السفير اسكوتاري بعد أن انتهى من حفلات الوداع ، واستأذن الحكومة في الرحيل ، وصحبه كثير من الفارسيين في مسيره وظلوا معه نحو فرسخ ثم استأذنوه في العودة

وكانت رحلتنا هادئة لم يحصل فيها ما يستحق الذكر من يوم أن بدأنا السير إلى يوم دخولنا فارس وسمعنا في « أريفان » أخباراً مبهمه غير واضحة عما يشغل بال القوم وعما يحدث في البلاد إلى أن وصلنا إلى تبريز التي يحكمها عباس ميرزا فعلمنا أهم المسائل التي تشغل بال القوم وأهمها التشاحن بين السفيرين الفرنسي والإنكليزي وسماح الشاه لأولها بالثول بين يديه وعدم استطاعة الثاني الثول أمام جلالته بعد وسمعنا أخباراً عدة عما يبذله السفيران من الجهد

قط إلى فارس فاستنتجت من كل ذلك أن في مقدوري أن أعود إلى الظهور في فارس دون خوف

وقلت في نفسي : « وإذا عرفت وظهرت حقيقتي فمن الذي يجرو أن يمسن بأذى وأنا في حماية رجال الحكومة ذوى النفوذ والجاه ؟ لقد استرد رئيس الجلادين جواده ومتاعه عند القبض على الملا نادان ، وأغلب الظن أن الشيخ عبد الكريم قد لقي ما لقيته سيده أرملة الملا باشي إذ لم يسمع عنه أي خبر فلست أخشى أن يعود إلى مطالبتي بالمائة الطومان ، وأي شيء أخشاه بعد ذلك من العودة إلى طهران ؟ »

لم أر ما يجب علي أن أخشاه إذ يكفي أن يعلم القوم أنني في خدمة الشاه لأسير مطمئناً في تيه وعجب واختيال في كل أنحاء البلاد الفارسية مهما يكن من ذنوبي ، وشجعت عزيمتي هذه الأفكار فأخذت أجهز نفسي للرحيل مع السفير . غير أنني عقدت النية على أن أزور قبل رحيلي الخان الذي فيه أبناء وطني لأتمكن من الظهور أمامهم بمظهر ذي النفوذ والسلطان بعد ما لقيت من الخزي والعار في حادثتي الأخيرة

وقد تعبت في إقناعهم بأنني من موظفي السفارة ثم لم أخش بعد ذلك أن يهزأوا بي ويسخروا مني إذ لم يكده يستقر في عقولهم أنني من أتباع السفير المقربين حتى كنت محل عنايتهم واحترامهم ، وكانت الكلمات التي يوجهونها إلي لا تقل عن : « إذا تفضلت » أو « إذا قبلت مكارمكم » أو « نرجو من مكارم حضرتكم » ، وغير ذلك من كلمات التبجيل والاحترام التي لا تنقطع وخطابات التعظيم والإجلال

لكم طريقاً في أرضنا أو نعاذ أصدقاءنا القدماء :
الانكليز .

وقال سفير الانكليز من جهة أخرى : « ليس
للفرنسيين أى غرض فى المجئ إلى فارس إلا مضايقتنا
ومنازعتنا فريد ألا تقبلوهم فى فارس » .

فقال الشاه : « كيف تريد أن نفعل ما تأباه
قوانين الضيافة ؟ إن أبواب قصرنا مفتوحة لكل
قاصد »

فقال السفير الانكليزى : « ولكن يجب أن
تتخيروا صداقة أحدنا وعداء الآخر ، فإما أن تستمروا
أصدقاء لنا فتطردوا السفير الفرنسى وإما أن تقبلوه
فتكونوا أعداءنا »

فأجابه الشاه : « ولم نعاذ الناس لنسركم ؟
إننا نريد أن نكون أصدقاء الجميع » .

فقال السفير : « ولكن فى استطاعتنا مساعدتكم
على نمو قوتكم وإعطائكم ما يلزمكم من المال »

فأجاب الشاه : « عافاك الله ! هذه مسألة أخرى
فأخبرنى ما قدر المال الذى تدفعونه فينتهى كل أمر ؟ »

كانت هذه هى الحال عند وصولنا إلى تبريز . ولما
كان وصول متبوعى السفير إلى طهران منتظراً بفارغ

صبر فلم تترث فى سيرنا ولم نلبث كثيراً عند الأمير
عباس بل أسرعنا فى السير . ووصلنا إلى مقر السلطان

فى صباح أحد الأيام فشهدنا فى طريقنا صفاً طويلاً
من الفرسان معهم أمتعتهم ولا حظنا أنهم ليسوا

فارسيين وقد تبينا عند الاقتراب منهم أنهم من الفرنج
وكان يصحبهم ضابط فارسى من قبل الشاه

أخبرنا أن هؤلاء هم رجال السفارة الفرنسية راجعين
إلى بلادهم بعد أن أرسل إليهم الشاه خطاباً رقيقاً

فى الوصول إلى أغراضهما ، وقد وصل التعجب
والاندهاش من الفارسيين مبلغهما عند رؤيتهما
النصارى يتركون بلادهم متجملين كثيراً من المشقة
والتعب ليتشاحنوا ويتنابدوا أمام شعب كامل يحتقرهم
ويتمنى لهم الهلاك والموت العاجل .

أخذ السفير الفرنسى لى يحصل على مطالبه
يذكر ملكه وعظمة مملكته وسيادتها فى جميع أنحاء
أوروبا وعدد الجيوش الجارية التى يمكن أن ينزلها
امبراطوره إلى الميدان ، وقد أجابه الشاه عن كل
ذلك بما يأتى :

« قد يكون ما قلت صحيحاً ، ولكن مالنا نحن
ولقوتكم وعظمتكم ، وأية علاقة بين فرنسا وبين
إيران ؟ أى غرض لكم تسعون إلى تحقيقه ؟ »

فقال السفير : « غرضنا أن نفتتح الهند ونخرجها
من يد الانكليز ، ونرجو أن تسمحوا لنا بطريق
نمر منه فى بلادكم » .

فقال الشاه : « وماذا نستفيد نحن ؟ قد تكون
رغبتكم فى الهند قوية ، ولكن أى شأن لنا فى هذا

ولم نسمح لجيوشكم بالمرور من أرضنا ؟ لا رغبة لنا
فى ذلك » .

فأجاب السفير : « صبراً . فسنفتح لكم جرجان
ونملككم تفليس ، ونحميكم من اعتداء الروس على
أرضكم فى المستقبل ! » .

فقال الشاه : « هذه مسألة أخرى فحين تبرهنون
لنا على صدق أقوالكم ، ونرى نتيجة أعمالكم ،

ونسلم أنه لم يبق روسى على جوانب القوزاق تتعاقد
معكم ، ولكن قبل ذلك الوقت لا نستطيع أن نفتتح

في فهم كلمة واحدة مما يرطنون به . وكل ما حسبت
نفسى قادراً على تذكره أو رسمه ثلاثة ألفاظ سمعتهم
يكثرونها ، ويعيدونها كثيراً في حديثهم . وهي
« سفير » و « باريس » و « الأمبراطور » .

وخطر ببالى أن هؤلاء الفرنسيين لن يغيروا
شيئاً من مرحهم أو ضحكهم ويجوزهم يوم يحتويهم
نار جهنم في الدار الآخرة ، وأن حالهم فيها ستكون
مثل حالهم التي رأيناها عليها في مقر السلطنة . واقترعنا
في الصباح التالي فساروا ضاحكين صاخبين في طريقهم
وسرنا نفكر خائفين مما عسى أن يستقبلنا به الشاه
ملك الملوك

الفصل السابع والسبعون

وصف الامتثال باستقبال سفير الفرنجستان

استقبل رئيسى ميرزا فيروز في قصر الشاه
بالخفاوة والإكرام ، وسر الشاه من الإجابات الحاضرة
التي كان يتلقاها من سفيره على أسئلته المتعددة
الخاصة بشئون أوروبا فأظهر السفير بذلك أنه خليق
بمركزه جدير بعناية مولاه وأن أحداً غيره لم يكن
ليقوم بما قام به في المهمة التي انتخب لها

كان لا يتوانى لحظة في الإجابة على أسئلة الشاه
ولا يتلعثم ولا يتلجلج ولم يبد عليه الجمل ولا وقفت
أمامه عثرة ولم ينطق أمام الشاه بكلمة « لا أعرف »
قط فقد كان يعلم أن هذه الكلمة مما لا تحتمل آذان
الملوك

وكان يرسل الكلمات في رصانة ورزانة وثبات
ويبعث القول قوياً مقنعاً حتى لا يمكن أن يخطر

يرجوم فيه مغادرة البلاد . وأخبرنا ذلك الضابط
أن السفير الإنكليزى وأتباعه سيحلون محل الفرنسيين
قريباً . وأستنتجنا مما رأينا مجمل سير الأمور في
حكومة إيران وأن الشاه أیده الله بنصر من عنده
قد استفاد من النزاع والشحناء بين الفرنسيين
والإنكليز . وقد دهش السفير الذى أحبه من تلك
النتيجة ومن البت في الأمر بهذه السرعة وعدم
انتظار الشاه له مع ما يحمل من أخبار أوروبا ، ولكن
سرعان ما فسر هذا تأثير المال الذى لا تقف أمامه
عقبة مهما عظم شأنها

سنحت لنا هذه الفرصة لملاحظة الفرنسيين
الذين سمعنا عنهم كثيراً في الأيام الأخيرة . ولم يعدم
السفير الفارسى وسيلة يتعرف بها بالسفير الفرنسى .
وانتظرنا أن نجد الفرنسيين منقبضى الصدور
منحلى العزيمة بسبب طردهم من حضرة الشاه ولكن
دهشتنا كانت عظيمة حين رأينا الأمر على نقيض
ما ظننا . لم تر إيران قبل هؤلاء القوم قوماً أكثر
مجوناً ولا عبثاً ولا جنوناً فقد كانوا يرقصون ويغنون
ويضحكون طول اليوم ، وكانوا يتحدثون جميعاً
في وقت واحد بأصوات تختلف في العلو والارتفاع
من غير فارق في المراتب إذ يظهر أنهم جميعاً من طبقة
واحدة في نهاية الانحطاط .

وكانوا يدوسون أبسطتنا بغير احترام مما أثار
عواطفنا وحرك نفوسنا . وإذا كنت أحسب نفسى
ذا خبرة واسعة بأحوال الفرنجة لما قاسيته في الاستعلام
عنهم فقد حاولت أن أعرف إن كان يوجد تشابه
أو مشابكة بين لغتنا وبين لغتهم ، غير أننى لم أجد

على بال سامعيه خاطرة شك في قوله، وإن من أصنى إليه وهو يتكلم عن أوربا ليخال أن السفير إنما ولد ونشأ وترى بينهم

سبق السفير وحرصى على أن أظهر دونه علماً ومنزلة فكنت بين عاملين عامل الخوف من الظهور بمظهر الجاهل ومحاذرتى أن أظهر بمظهر العالم

وشاع بين القوم أن السفير استخدمنى في تصيد أخبار الأوربيين وفي كتابة تاريخ أوربا فتلت شهرة في معرفة العالم والعلم بأحوال الناس، ولم يكن لى مثل ما للسفير من قوة الحجج والمقدرة على الإقناع غير أننى عزمتم على أن أعمل ما فى وسعى فى الإجابة على الأسئلة التى تلقى على بسرعة رغم خوفى من

وعلى أية حال فقد نظر إلينا الفارسيون أبناء وطننا كما ينظرون إلى أصحاب المعجزات إذ لم يكن بينهم من يستطيع نقض ما نقول. وذكرنى ذلك بحكمة رددتها الألسن وهى: «إن أى صوت يظهر كأنه النعمة اللذيذة فى بلاد البكم، ولو كان الصوت صوت حمار»

(ينبع) عبد اللطيف النشار

شركة مصر للملاحة البحرية

شركة مساهمة مصرية

خط رطب فاخر وسريع بين الاسكندرية - جنوى - مرسيليا وبالعكس

أسعار الصيف ابتداء من ١٥ مايو إلى ٣١ أكتوبر سواء للسفر من مصر أو من أوربا

(من الأسكندرية إلى جنوى أو مرسيليا أو بالعكس)

البخرة النيل - البخرة كوتر

جك

١٦

—

١٠

—

٥

٣

جك

١٧

١٢

—

٩

—

—

درجة أولى

درجة ثانية

درجة ثانية : مخفضة (سياحة)

» ثالثة : (خصوصية)

درجة رابعة

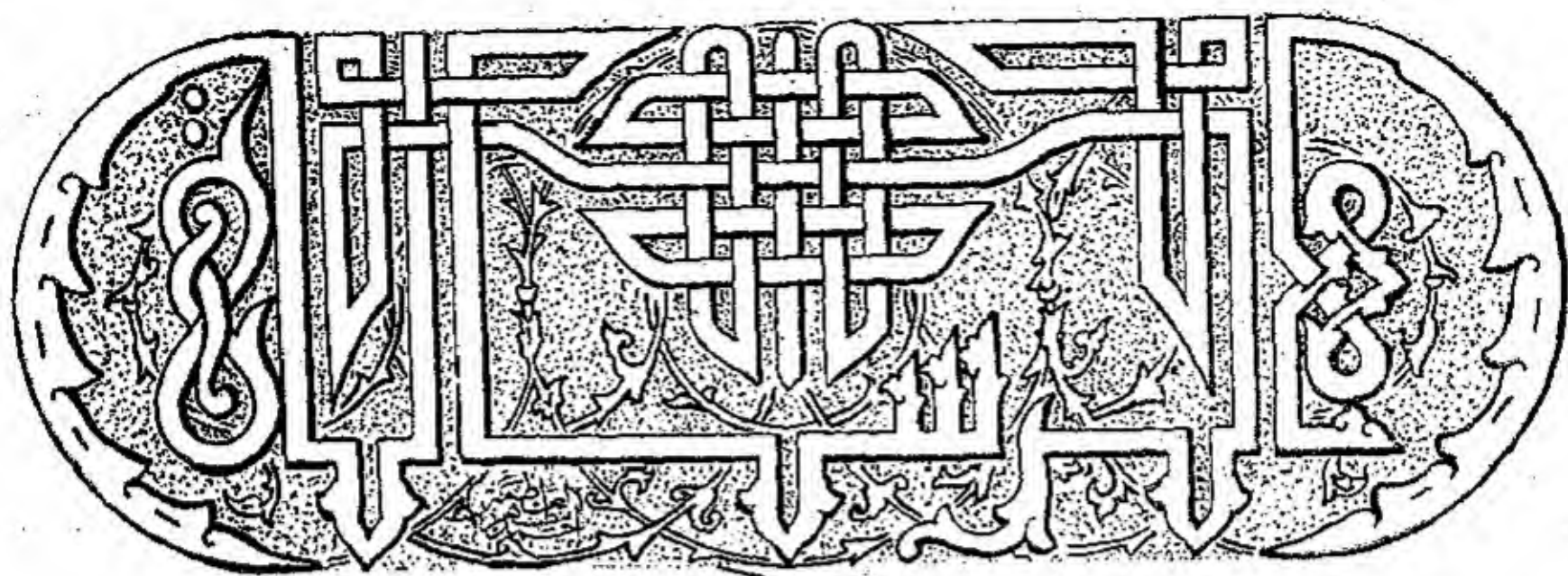
كويرت

ورمى للذين يستخرجون ثدا كره الذهب والاياب معا خصم ٢٠٪ على قيمة تذكرة الاياب .

والأجور المينة أعلاه بالعملة الانجليزية تحصل بواقع ١٧ ١/٢ قرشا للجنيه الانجليزي .

مواعيد السفر من الأسكندرية :		البخرة النيل	
٤ مايو	البخرة كوتر	٢٢ يونيو	البخرة كوتر
١٨	» النيل	٢٩	» النيل
١ يونيو	» كوتر	٦ يوليو	» كوتر
٨	» النيل	١٣	» النيل
١٥ يونيو	» كوتر	٢٠	» كوتر
	» النيل	٢٧	» النيل

طبع بمطبعة الرماله بشارع الجبرولى — عابديه

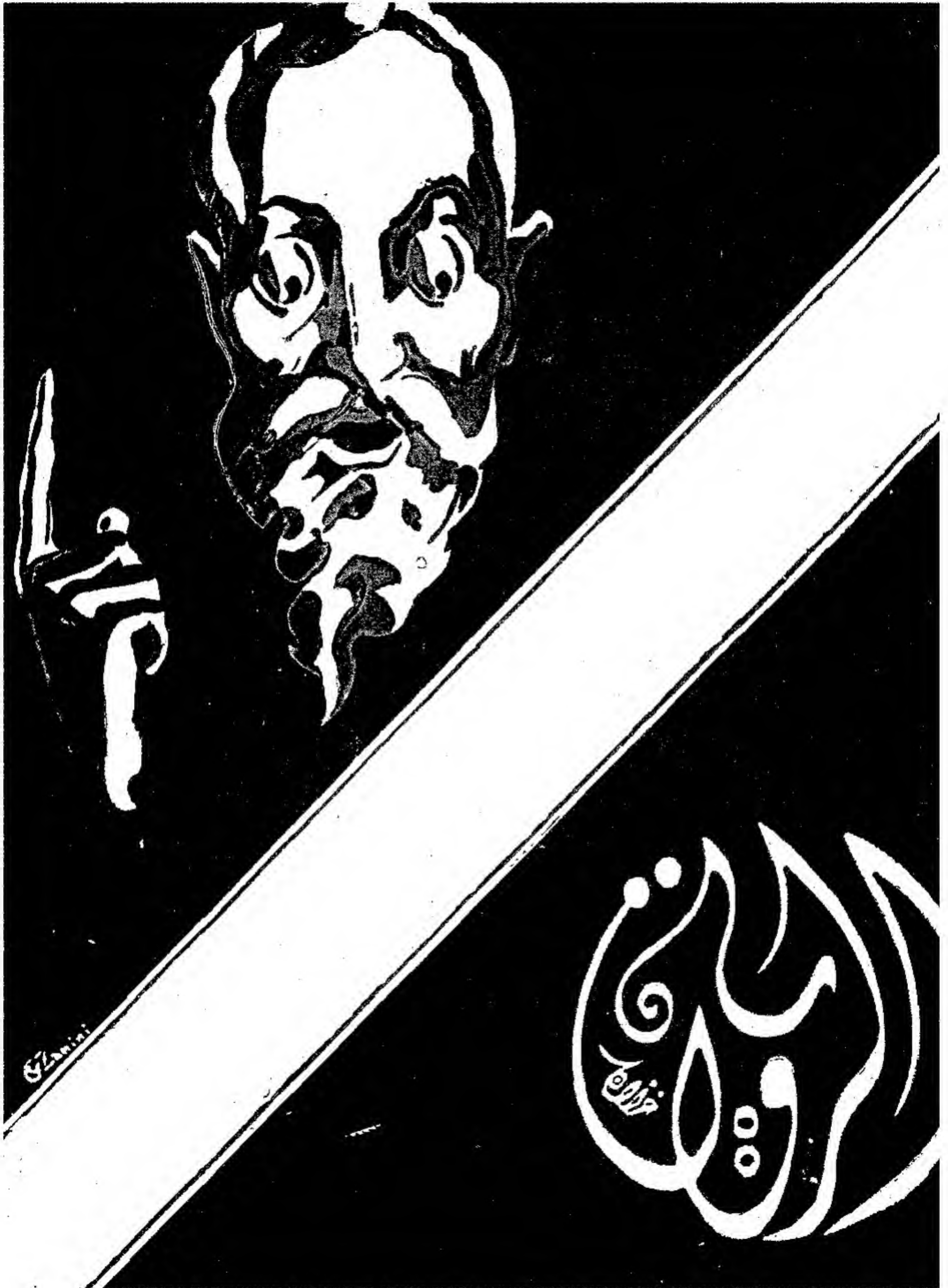


مَجَلَّةُ الْأَدَابِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَة	تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَة	تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةِ أَبْنَاءِ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَة	تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعُبُقَرِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَة	تَسْجِلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَة	تَحْيِي فِي النَّشْءِ اسْكَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَة	تَرصُدُ ظُوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْتَرِكِ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجِلُّ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

لاشتران الداخل ستون قرشا، والخارجي ما يساوي جنيها مصرية، وللبيوت العربية بمخضم ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ عن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع البدولي رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

البردية

مجلة أسبوعية للفن والفكر والتاريخ

نصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

٢٥ ربيع أول سنة ١٣٥٨ — ١٥ مايو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٦

من إحصاء القصص



فهرس العدد

صفحة		
٤٥٠	الذي أحبته أمي ...	عن الإنجليزية ...
٤٦٥	سر السنونو ...	أقصصة مصرية ...
٤٧٢	البعث ...	للكاتب الفرنسي جي دي موباسان
٤٧٦	الراعية ...	قصة مسرحية في فصل واحد ...
٤٨٢	عندما افتتح البساب ...	للكاتبة الإنجليزية ساره جراندي
٤٨٨	فراق ...	للكاتبة ماركسونال وجورج مونتيلاك
٤٩٦	حاجي بابا أصفهاني ...	للكاتب الإنجليزي « جيمز موير »
	بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي ...	
	بقلم الأستاذ دريني خشبة ...	
	بقلم الأديب عادل الجبال ...	
	بقلم الأنسة جميلة العلايلي ...	
	بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد	
	بقلم الأستاذ ناجي الطنطاوي ...	
	بقلم الأستاذ عبد الطيف النشار	

الحياة ويرفها علينا ، فإذا
أحس منا أقل رغبة في شيء
من الترف والكاليات أسرع
بتحقيق رغبتنا ، حريصاً على
أن نعيش في مستوى عال من
الحياة

الْحَبْلُ الَّذِي أَحْبَبْتَهُ أَحْمَى

قصة استحققت جائزة مائتين جنيه
عن الإنجليز
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

ولعل شعورنا نحو هذا

الأب الكريم كان أقرب إلى الاحترام منه إلى المحبة،
فلقد كنت أنا وأمي في جسم الأسرة كالمضوين
الآليين وكان أبي هو الرأس المدبر الناجح فيما يعمل.
فلما قتل في حادث تصادم في سكة الحديد - وكان
في الثالثة والأربعين من عمره - شعرنا بالخسارة
التي أصابتنا شعور البحارة بالخسارة التي تصيبهم
بموت ربان السفينة ، وازدادت الرابطة بيني وبينها
توتقاً في سبيل المضي في الحياة بغير قائد

ولم يكن في خياتنا ما يشغلنا من الناحية المادية
فقد ترك لنا أبي وثيقة تأمين على الحياة بمبلغ كبير ،
فضيت في حياتي المدرسية على ما كنت في حياته .
وقضت ظروف التعليم بأن ننقل من البلدة الصغيرة
التي ولدت فيها بمقاطعة وورشسترشير إلى مدينة
كبيرة من مدن ميدلاند حيث التحقت بالجامعة ،
ولما كنا غريبين في تلك المدينة فقد كان الكثيرون
ممن يروننا يحسبون أننا أخوان ، وكان البعض
يتسمون لنا ابتسامات لا تخلو من معنى التساؤل
عن نوع العلاقة التي بيني وبين السيدة التي
ترافقني على الدوام . ولقد كنا نترك هؤلاء
التساؤلين يقيهون طويلاً في خيولهم قبل أن نطلمعهم
على الحقيقة

هل يستطيع أن يفهم يوماً ما كان يشعل
قلب أمه وزوجها ، تلك الأم الجميلة التي لا يمكن
أن يتم منظرها عن غير فتاة عذراء لم تدخل
بعد دور الأمومة ؟

لا أستطيع أن أذكر الوقت الذي بدأت فيه
العلاقة بيني وبين أمي تتشكل في صورة صداقة
بين رفيقين متقاربين في السن . وحتى في حياة أبي
- وقد كنت في الثانية عشرة عند موته - كان
سلوكي مع أمي سلوك الأخ مع أخته . ولعل السبب
في هذه العلاقة غير العادية بين أم وابنها أن أمي
تزوجت وهي فتاة صغيرة من رجل يكبرها بأربعة
عشر عاماً ، ولم تكن سنها يوم ولدتني تتجاوز
السابعة عشرة . وحين شبيت وبدأت أتعرف ما يدور
حولى في العالم الذي خرجت إليه ، أخذت أدرك
أن متاعبي ومشاغلي الصبانية من الأمور التي يمكن
التفاهم عليها وحلها مع أمي الشابة الرقيقة الشعور
بأسهل مما يمكن ذلك مع أبي السكهل الذي تلزمه
طبيعة السكهوة نوعاً من العبوس الجدى

وما أقصد بذلك إلى أن أقول إن أبي كان رجلاً
عسير المعاشرة فالأمر على العكس من ذلك ، فلقد
كان يسند على الدوام كل ما في جهده ليسهل لنا

نادرة بين الأمهات والأبناء

وكان يحدث أحياناً أن أرافق شاباً من سنى
في بعض الجولات ، وأن تخرج أمى وحدها لبعض
الأغراض الاجتماعية ، ولكن لم يكن أحداً يسأل
الآخر عما عمله أو عن الأشخاص الذين التقى بهم
فلم تكن تمت من حاجة إلى مثل هذا السؤال . فقد
كنا صريحين في أن يفضل كل منا في بعض
الظروف ما يلائم ذوقه من الترتيبات التي تتصل
باجتماعه ببعض الأصدقاء أو المعارف

وإني لأذكر جيد الذكر مناقشة جدية نشأت
بينى وبين أمى على مائدة العشاء على أثر عبارات تفوهت
بها عن مركزنا الاجتماعى إذ قلت :
— أحسبك تعلمين يا أمى أنه يجب أن نعمل
شيئاً في هذا الموضوع . فسألتنى :
— أى موضوع تعنى ؟

فاحتبست الكلمات لحظة في حلقى ثم قلت :
— لقد سألت اليوم إحدى الفتيات أن تخرج
مى مساء يوم السبت المقبل ، فرفضت طلبى دون
أن تبدي أول الأمر سبباً لهذا الرفض ، ولكنى
حين ألححت عليها في تعرف السبب أجابتني صراحة
بأنها لن تشبك نفسها بأى رجل متزوج ! ولقد
اقتضانى الأمر نصف ساعة لإقناعها بأن السيدة
الجميلة التي يرانى الناس معها أحياناً ليست امرأتى
فلم تجب أمى بشيء على هذا الكلام ولكن
بدت على وجهها نظرة غريبة
وبعد لحظات قالت أمى ، وقد انتقلنا من غرفة
المائدة إلى غرفة الجلوس :

كانت هذه الغلظة العامة في تقدير العلاقة التي
بينى وبين أمى من أكبر بواعث تسليتها ، فكانت
تسهر دائماً بروح الشباب والمرح ، وكان ذلك مما
يقوى رغبتها في الحرص على جمال شبابها ، أما فيما يتصل
بشخصى ، فقد كان انهماكى في تكوين نفسى
يحملنى على التفكير فيما سأضطلع به في المستقبل
حين أصبح رب أسرة ، وكنت أشعر بشيء من
الكبرياء والفخر حين يرانى الناس في صحبة «أختى»
الجميلة ...

وحدث في ذات ليلة عند ما خرجنا آخر الليل
من حفلة ساهرة كنا من حضورها أن دنا أحد
الضيوف من أمى وقال لها إنه قد سره أن يلتقى بزوجها.
فارتبكت لحظة — عند سماع كلماته — ولكنها
لم تلبث أن أدركت أنه كان يقصدنى بما يقول ، ولم
تلبث أن تبادلنا الابتسام ، وفي أثناء عودتنا إلى البيت
ضحكنا لهذا الحادث من أعماق قلوبنا
وقلت لأمى مازحاً :

— لقد بدأت أشعر بالإهانة في أن يحسبنى
الناس زوج سيدة عجوز مثلك !
فردت على بدورها برد لعل لم أتبين معناه على
حقيقته قالت :

— وما ظنك بشعورى حين أراى مضطرة
لأن أسلك سلوك تلميذة بلهاء ؟
نعم . لقد ازددنا ارتباطاً وتلازماً على مر السنين .
كنا نحضر الحفلات معاً ، وكنا شريكين بأسباب
اللهو والمرح ، وكنا نرحب مشتركين بأصدقائنا ،
وفي الجملة ننعم بجميع مباحج الحياة على صورة

قط في أن تحيطى نفسك ببعض الأصدقاء ؟
قالت :

— ولكنك تعرف يا « تيمى » أن لى أصدقاء
وأنتهم كثيرون ... وأننى ...
فقاطعتها بقولى :

— أقصد أصدقاء من الرجال ! فإنك ما زلت
صغيرة وفيك من الجاذبية ما يلقى أى رجل على قدميك
ولا يزال أمامك نصف حياتك تنعمين به ، ويستطيع
بعض الرجال أن يهيئ لك حياة بالغة السعادة حقاً .
إذا أنت سمحت له بذلك

فضحكت أسمى ضحكة غير متزنة وقالت :
— دع عنك هذا البله يا « تيم » إذ أية حاجة
تدعونى لأن أطلب الزواج مرة ثانية ؟
قلت :

— ألا تريد أن يكون لك بيت خاص ؟
ألا تحبين أن يكون إلى جانبك رجل يحمل المتاعب
المالية عن كتفك ؟ وإنك لتعلمين أننى لن أفيدك
أبداً من هذه الناحية ، فما أنا إلا طفل كبير مدلل
لا فائدة منه ... وأنت المسئولة عن ذلك !

وطالت المناقشة بيننا عنيفة مشبعة بروح المحبة
ولكننا لم ننته إلى نتيجة ، فحُت برجاجة من النبيذ —
المعتق الذى تحتفظ به عادة لبعض الظروف الخاصة ،
وشربت نخب الاستقلال الجديد الذى لم يعترف أحد
منا بأننا محتاجان إليه

وبقيت أسمى لحظة بعد هذا الحديث مشغولة البال
وقد ظهر لى أن المناقشة أقلقها قليلاً . وبدأ لى أننى
عرفت السبب فى ذلك . فلقد قضينا عدة أعوام

— لم يا « تيم » لا تكثر من اصطحاب
الفتيات ؟

فضحكت وقلت :

— ولم أكثر من ذلك ولم يبق فى الوجود
فتيات من ذوات العقول ، فكل ما تستطيع الفتيات
أن تعمله الآن هو صبغ الوجوه وارتداء الثياب ،
واحتساء الكوكيتيل بغير حساب ، وهذا هو السبب
الذى يحملنى على أن أفضل الخروج معك يا أسمى فلقد
جمعت كل شئ : الجمال والذكاء
فقلت أسمى :

— إننى جادة يا « تيم » فيما أقول ، فهذا هو
الوقت الذى تبدأ تنظر فيه إلى الأمام ، فبعد قليل
ستحصل على إجازتك العلمية ، وستجد لك مركزاً
تشغله ، ثم تشعر بحاجتك إلى الاستقرار ، والأيام
الطيبة التى قضيناها ولا تزال نقضيها معا هى من
الأوقات السعيدة حقاً ، ولكنى أحسبك تعلم أنها
لن تدوم إلى الأبد ، لأننا كلينا يا بنى نكبر مع الزمن
وأنا الآن فى السادسة والثلاثين
فقلت مازحاً :

— طفل فى الغاية !

ولكنها قالت ملحة وقد بدت عليها سمات الجد :
— إن عليك أن ترسم خططك فى حياتك
الشخصية ، وأنا أريد منك أن تكثر من الخروج
وأن تقابل أناساً من سنك وأن تتعرف بأهل
عصرك ..

فقلت أناقشها :

— فليكن ، ولكن ماذا تفعلين أنت ؟ ألم تفكرى

وكنت أسائل نفسي : ترى ما شأن هذا الرجل أو ذاك ، وهل يمكن أن تكون أُمِّي قد أحبت واحداً من هؤلاء الأصدقاء ؟ وهل يمكن أن يصبح هذا الذي أحبته زوجاً لها صالحاً وأباً لي طيباً ؟ على أنني كنت أشعر بأن في كل منهم نقصاً في نوع ما . ويدولي أن رأي أُمِّي في هؤلاء الأصدقاء كان متفقاً مع رأيي فيهم . فقد كنت أرى على وجهها بعض الأحيان إشارات واضحة تنم عن نفس منكسرة يغالبها اليأس ، كأنما قد روعتها سرعة مرور الزمن وهي وحيدة لا شريك لها في الحياة . وأردت في يوم من الأيام أن أستعيد فترة من فترات مرحنا الماضي فقبلتها في شوق وقلت :

— لا فائدة يا أُمِّي في هذه الحياة الجديدة . فما أستطيع أن آلف هؤلاء الفتيات اللواتي أخرج معهن . فما أجد فيهن من الفطنة والذكاء ما يحببني في عشرينهن

فابتسمت ابتسامة المستفهم وقالت :

— أي شيء تشكو الآن يا تيمى ؟

— لقد خرجت مرة أخرى ليلة أمس مع جوديت كارتر فقطعنا مرحلة في السيارة ، ثم وقفنا حيث أكلنا قطعتين من الساندوتش وشرينا فنجانتين من القهوة ، وبعد ذلك استأنفنا السير . فما فعلت في أثناء ذلك غير أن لعبت العواطف بنفسها على حين فجأة ، فبدأت بقولها إننى شاب مدهش ، ثم انتهت بأن خطبتني إلى نفسي بالفعل ، أليس عجيباً أمر هؤلاء الفتيات ؟ !

فضحكت أُمِّي ضحكة بدا فيها أثر التصنع وقالت

متلازمين في معزل عن الناس وكناراضيين بحياتنا . أما الآن وهذا العالم الخارجى حولنا منتظر أن يدعونا لنفسه منفردين وأن يسلبكنا في حياة الأمر الواقع فإن الخوف قد بدأ يستولى على أُمِّي ، وكذلك شعرت أنا بالقلق من التغير الذي يتعارض مع أسلوب حياتنا ومن ذلك المساء سارت حياتنا على نمطها الأول مع فارق أنني بدأت أزيد من اختلاطى بالفتيات والفتيان من سنى ، وأن أُمِّي أخذت تكثر من دعوة الأصدقاء إلى بيتنا بدل أن كانت تكثر من الخروج . كذلك أكرت أنا من الخروج في غير صحبتها ، ولكنى كنت في كل مرة أخرج فيها من غيرها أزداد شعوراً بعدم الاستقرار في نفسي . ولم يكن في مقدورى أن أتصور ما هو طارىء على من تغير ؛ وكنت أتحير في أمرى في لحظات غريبة فأنا الآن إذا نظرت إلى الماضي أرى أنه لم يكن من الأمور العادية المألوفة . إن الحياة تتحدانى بما في نفسي من رغبة ملحة في العمل ، وبما فيها هي من مغريات مطالبتها وقضاياها الكبيرة . فما أنا بعد بالصبي ولكنى قد أصبحت رجلاً وبدأت أدرك إدراكاً تاماً ما على من المسؤوليات

كذلك أصبحت أُمِّي تظهر اهتماماً متزايداً برجال مختلفين ممن كانوا يأتون إلى بيتنا ليصحبوها إلى الخارج أو ليقضوا بعض الوقت في التسامر معها ، ولقد أحبت أنا أكثرهم ، وكنت أتحدث معهم وأساجلهم فيما يتصل بلعبة الكريكت أو حفلات بطولة الملاكمة المقبلة أو الحوادث الجارية . وكنت في كل مرة أشعر بوجود أُمِّي وبأهمية هذه الزيارات

— يخيّل إلى أنك قد أكثرت من الاجتماع
بجوديت أم ترانى مخطئة ؟

— بل أظن الأمر كما ترين . فإني أجتمع بها
مرتين في الأسبوع ولكن ليس بيننا شيء جدى
— قد يكون ذلك من ناحيتك ؛ ولكن لعل

الأمر في نظرها أكبر مما توهمته أنت يا تيم . فإن
المرأة لا تخرج مع الرجل مرتين في الأسبوع فترة
من الزمن دون أن تحمل الأمر بينه وبينها على محمل
الجد ؛ وجوديت فتاة قد عثرت على الرجل الصالح
في رأيها ؛ فأى شيء أقرب إلى الطبيعى من أن تبدأ
تحلم بالبيت ، بالسعادة الدائمة ؟

فأنجفت عن سماع هذا الكلام ، وشعرت على
حين فجأة بالحيرة والقلق يستوليان على نفسى وحاولت
أن أضحك من كلام أمى فقلت :

— كلام فارغ يا أمى ! إنك لا تستطيعين أن
تتخلصى منى بمثل هذه السهولة ، فأنت وأنا ملتصق
أحدنا بالآخر ويجب أن نستغل ذلك على خير الوجوه
وهنا روعت مرة أخرى بما بدا على وجه أمى
من أثر الاضطراب النفسى والشعور باليأس والوحدة
فهل يمكن أن تكون قد وقفت فى لحظة من لحظات
الانفعال من أحد الرجال مثل موقف جوديت منى ؟
لقد خطرتلى هذا السؤال فتمنيت أن تكون هى أيضاً
قد وقعت على الرجل الصالح فى رأيها !

نظرت إلى أمى نظرة الناقد الدقيق فرأيت كما
رأيت فى ظروف عديدة أنها حقاً جد جذابة . والحق
أنها لم تبد يوماً فى نظرى كامرأة جاوزت الخامسة
والعشرين من عمرها . كان شعرها غزيراً لونه نحاسى

يضرب إلى السواد ، غضة الحيا لا تكاد العين تقع
فى وجهها على أثر خط من خطوط الزمن ، ولم أملك
أن ساءلت نفسى إن كانت جوديت ستبدو حين تبلغ
السادسة والثلاثين فى مثل جمال أمى ونضارتها ؟
ثم دخل فى حياتنا عنصر جديد ، ذلك هو
ميخائيل رديج

ومن اللحظة الأولى بدت لى عدة أمور : الأول
أن ميك — وقد بدأت أدعوه بهذا الاسم المصغر
فى ناك مرة لزيارته بيتنا — كان رجلاً محبوباً لدرجة
غير عادية . والثاني الأسلوب الذى انتهجته أمى فى
معاملة هذا الرجل الطويل الحى الهادى الصوت .
فقد ظهر عليها فى اللحظة الأولى التى دخل فيها ميك
الغرفة ، أنها قد دخلت فى حياة جديدة وأن شرارة
جديدة قد سرت إلى نفسها

تعرفت أمى بميخائيل فى أحد الاجتماعات ،
واشتد ميل أحدهما إلى الآخر عندما تبينا أن بينهما
ميلاً متبادلاً إلى الشعر ، وعلى وجه أخص شعر أحد
شعرائنا الحديشين . وأحضر ميخائيل فى إحدى زيارته
كتاباً قدمه هدية لأمى فوطد ذلك دعائم الصداقة
بينهما ...

أصبح ميك بعد ذلك زائراً لبيتنا مواظباً ،
وأصبحنا جميعاً نتطلع إلى العشاء معاً ، وإلى تبادل
الأحاديث وإلى التروض جماعة فى سيارته

ومضت فترة من الوقت قبل أن أبيع لنفسى
الاعتقاد بأن بين أمى وبين ميك حباً متبادلاً ،
وحتى بعد أن اعتقدت وجود ذلك الحب لم يكن فى
مقدورى أن أحلل المركز تحليلاً دقيقاً . فقد كانت

— هلم يا ولدى « تيم » ستصبح ولك أب جديد

فأرايك في ذلك ؟

ولكن هذا اليوم لم يأت ، ومرت الأيام ثم لحقت بها الأسابيع وتبعها الأشهر ، وشعرت بأن في الجو توترا غير طبيعي ، ولم أستطع كشف السر في ذلك ، واستمر ميك جاعلاً من بيتنا مركزه الرئيسي ، أما فيما يتصل بجميع المظاهر الخارجية فقد تقدم حبه أمي في طريق جديدة ، وقد بدأ يظهر في عينه ما ينم عن التخاذل والتعب ، كذلك بدا لي أن أمي تروح تحت عبء نفسي ثقيل فقد أصبحت تستسلم على غير عاداتها للانفعال أحياناً ، وعلى الرغم من أنها كانت تسرع فتعتذر من انفعالها ، فإني كنت ألحظ أن هناك شيئاً غير طبيعي .

واستقر رأيي في يوم من الأيام على أن أكشف الحقيقة وقد وجدت أمي مشغولة بكى الملابس فجلست على مقربة منها وأشعلت سيجارة ثم قلت :

— متى تزوجين من « ميك » يا أمي ؟

وقد حاولت أن أبدو في صورة من خطر له هذا السؤال عرضاً .

ولم تدهش أمي لسؤالي ولم ترد علي أن ابتسمت وقالت :

— لست أدري يا تيم ، فإن ميك يقول : إنه لا يرجح من المال ما يكفي لحياة الزوجية . فقد أصابه سوء الحظ في السنوات الأخيرة وتآبى عليه كرامته النفسية أن أمد له يد المساعدة !

إذن ، لقد تكلمنا معاً في موضوع الزواج ، وإذن كنت مصيباً فيما ظننته ، فشعرت في آن واحد

أني حتى ذاك تبدو متعالية فوق شؤون الحب وتنظر إليها نظرها إلى هنات من أعمال الفتيات الصغيرات لا من أعمال أمهات لهن أولاد في سن التاسعة عشرة على أنني احتفظت بأرائي في نفسي واعتزمت أن أترك الأمور تسير في مجراها الطبيعي ، فهما يكن من أمر ، وسواء تزوجت أمي من ميك أم لم تزوج منه فليس ذلك من شأني . وصحيح أن هذا الزواج سترك شيئاً من الأثر في حياتي ، ولكن لما لم أكن أظن في الرجل إلا كل خير فقد شعرت بأنني لن ألبث أن آلف التغير الجديد في حياتنا

وعلى كل حال كان من الحسن أن أشهد حياة جديدة وأن أرى شعاع النبضة يبدو من عيني أمي ، ولقد شكرت للأقدار أن هيأت لها قطرة من السعادة ورجوت ألا تندم يوماً على اختيارها

ومشت قصة الغرام سريعة الخطى ، فكانت نادرة تلك الليلة التي لا تجتمع فيها أمي بميخائيل ، فكانا دائماً يخرجان معاً في السيارة ويوران أصدقاءهما معاً أيضاً ، وكانا أحياناً يختلفان إلى دور التمثيل أو إلى الحفلات الموسيقية . أما أنا فقد تركت لغرياني التي لا تمتني إذ بدأت أزداد اهتماماً وتعلقاً بجموديت كارتر فقد كانت فتاة ماهرة نشطة ، لم تعبت الخلاعة بأخلاقتها ، ووجدت أنني أستطيع بقضاء سهرة معها أن أنعم بخير مما كنت أتصور أنني مستطيع أن أنعم به

وكما مرت الأيام ازدادت تعجباً لتأخر النتيجة التي كنت أتوقعها ، فقد كنت كلما عدت إلى البيت ووجدت أمي مع صديقها انتظرت أن أسمع منها قولها :

بالسرور وبالأسف وقلت :

— وعلى فكرة أيمكن أن تقولى لى بم يشتغل ميك ، فإنى لم أعرف قط شيئاً يتصل بعمله فى الحياة .
أجابت أى :

— إنه يشتغل مركز كاتب فى أحد المصانع الكبيرة بالمدينة ، فقد أضاع كل ماله وخسر عمله السابق ، فاضطر أن يقبل هذا المركز ليستعين به على الحياة .

ميك — كاتب صغير !

لم يكن الأمر أمر المركز الذى يشغله الرجل ولكن ما كان يبدو على ميك من مظاهر الثقة الهادئة وحسن الجرثومة كان ينم عن كفايته وعن استعداداته لأن يكون الأمر المطاع ... ولقد كان يخيل لى أنه على أقل تقدير من السامسة أو المديرين المالىين ...

وبدأ ميك يكتر من شرب الدخان ولست أدري إذا كان الباعث على ذلك رغبته فى أن ينسى ما أخذ يحيم على مجتمعنا الثلاثى من العبوس والوجوم ، أو إن كان هناك باعث آخر لا أعرفه . وكل ما أعرفه أنه أصبح الآن يأتى إلى البيت مسلحاً بقنبنة من الوسكى ، كان يخلط به أنواعاً أخرى من المسكرات كذلك بدأت أى تشرب الخمر من حين إلى حين وقد أقلقنى ذلك ، وإذا كنت عصرياً فى كل شيء حتى فيما يتصل بالخمر ، فإننى لم أكن أعارض فى شرب كأس من الكوكتيل فى بعض الظروف ، ولكن أى كانت دائماً محافظة فى كل شيء ، تكتفى بشعر مثل تجريدية من الحياة هنا وهناك : أما الآن

فقد بدا لى أن هناك نوعاً من الضجر الغريب يشغل نفسها ، كما لو أن هناك حاجة ملحة تدفعها مرغمة فى الطريق التى تسلكها .

ولاحظت فى إحدى الليالى — بعد انصراف ميك — أن خطوات أى لم تكن على ما عهدتها من الثبات والاتزان ، ولم ألبث أن صعقت إذ تبينت أنها كانت منتشية من الخمر ، فاستولى الغضب فجأة على نفسى . ثم بدأت أقول :

— ألا تظنين يا أى أنك قد اندفعت أخيراً فى طريق الحياة اندفاعاً قد يكون شديداً بعض الشيء ؟

— فأزاحتنى من طريقها وغطت عينيها بكفيها وقالت :

— إذهب إلى فراشك يا تيم واركبى وحدى ولكنى أصرت على موقفى وقلت :

— يخيل لى أن ميك الذى يرى أن موقفه المالى السئ لا يسمح له بالزواج ، ينفق فى الوقت نفسه مالاً كثيراً فى ابتياع الخمر

ولأول مرة فى حياتى رأيت أى تغضب غضباً حقيقياً ، فاقتربت منى ووقفت إلى جانب كرسى ، وكانت عيناها ترفقان غير مستقرتين وقالت :

أريد منك يا تيم ألا تقول مرة أخرى مثل هذا الكلام . فإننى أملك وأنا ... على كل حال إن ما نعمله هو من شئوننا الخاصة ، وأريد منك ألا تتدخل فى أمرنا .

كانت هذه هى المعركة الأولى بين أى وبينى ، فأحرق كل منا لحظة فى وجه الآخر ، ثم تلفتت

من الآلات المبعثر، وكانت آلة الراديو تذيع في أعلى درجاتها نغمات موسيقى «جاز» من النوع الواطي، وكان الجو مشبعاً برائحة الوسكي ودخان السجائر وكان ميك وأمي مشغولين أحدهما بالآخر، وكانا يتبادلان الضحكات الفاترة المستهترة فلم يشعرا بدخولي

وشعرت بدافع جنوني يدفعني إلى الوثوب على الرجل والقبض على عنقه، واستولى على الخوف من الانفعالات الشديدة التي بدأت تغلي في صدري وتقدمت إلى آلة الراديو فوقفت حركتها، ومضت لحظة لم يصل فيها أثر السكون الذي طرأ على الغرفة إلى عقليهما اللذين غيبتهما الخمر، ولكن يظهر أهمهما قد تنبها على حين فجأة إلى أن الراديو لا يمكن أن يكون قد سكت من تلقاء نفسه، فالتفتا وأحدقا في وجهي

وأظن أن أمي لم تدرك في الثواني الأولى القليلة لشدة ذهولها، الخطر الحقيقي لحضوري في ذلك الوقت.. فجلست في مكانها وقد التصق شعرها بكل ناحية من وجهها، ونظرت إلى نظرة بلهاء. ولم أستطع أن أنظر إليها فحشرت نظري في ميك، وما رأيت عينيه المحمرتين ووجهه الملتهب حتى انقلب شعور الغضب والعنف الذي استولى على إلى احتقار واشمئزاز! أياكون ميك الذي وثقت به واعتقدت فيه أخلاق السادة هو المجرم الذي يرتكب هذا!

على أن مخيلتي لم تلبث أن طمستها ثورة مفاجئة فتقدمت خطوة نحوه، ولكنني مع ذلك لم أمسه (٢)

وانجهمت إلى السلم فصعدتها، وإذا شعرت بشغل في قلبي وجزعت فجأة من شيء لم أستطع أن أتبينه، فقد أويت إلى فراشي وحاولت أن أنام، ولكن النوم لم يعرف طريقه تلك الليلة إلى جنوني

وبعد ليال من هذا الحادث خرجت مع جوديت في سيارتي، وسألها أين تريد أن نذهب، فأجابت بأنها لا تفضل مكاناً على آخر، فقلت وأنا أشعر بشيء من الانقباض:

— لست أشعر برغبة في الذهاب إلى السينما، فهل توافقين على أن نتجول بعض الوقت في السيارة؟

فوافقت الفتاة على رأيي

استقر في نفسي أن العمل بهذا الاقتراح هو خير الوسائل لتخلصي من التفكير في أمور معينة، فقلت لجوديت:

أظن أنه يحسن بنا أن نعود إلى البيت لآتي بصديري من الصوف فإن سرعة السيارة تزيد شعورنا بشدة البرد

وأدرت السيارة في طريق البيت حتى إذا وصلنا أمام الباب الخارجي وثبت من مقعدي تاركاً جوديت في انتظاري وأخرجت مفتاحي الخاص وفتحت الباب، وتذكرت أن أمي وميك لا بد أن يكونا في هذا الوقت لا يزالان في البيت ... فأنجهمت إلى غرفة الجلوس ...

وما أحسب أن المنظر الذي وقعت عليه عيناى سيفارق مخيلتي ما حييت، فقد كانت الغرفة مجموعة



بيدي . لقد كنت أكبر منه جسماً وأقوى عضلاً
غير أنني رأيتني غير مستطيع أن أمد إليه يداً بالأذى
فابتعدت عنه كما يبتعد الإنسان عن الأفعى
ووجدتني بعد ذلك أتحرك كاللعبة المرنة التي
تحركها يد اللاعب بخيط متصل بأجزائها ، فإذا يدي
تبحث عن أحد أدراج المكتب ففتحته وأخرجت
منه مسدساً كان لأبي ، فحركت مفتاح الأمان ،
وصوبت فوهة المسدس إلى ميك . ، وقلت في نفمة
جامدة :

— ميك ... قف بعيداً فسأقتلك !

ولسكنه جلس في مكانه مترنحاً محاولاً أن يلتقي
نظره بنظري ، وقد أخذ خطر المركز يتبين له في بطاء
فرفع يداً مضطربة وقال :

— لا تطلق النار يا تيمى ! وضع جانباً هذا
المسدس قبل أن ينطلق !
فقلت :

— إنه سينطلق ، فقف وانتقل إلى هذه
الناحية ولا تحاول أن تبتعد عنها ، فإنك لن تخرج

أبدأ من هذه الغرفة حياً

عندئذ صاحت أمي صيحة وحشية يائسة ردت
إلى رأسي كل ما أطاره المنظر من صواب . ولم تلبث
أن وثبت من مكانها فوقفت حائلة بيني وبين ميك .
وقد تجسم الرعب في عينيها وأخذ أثر الخمر يتلاشى
مسرعاً ، وقالت :

— تيمى ! تيمى ! لا تطلق النار ! تيمى إنك
لا تدري ما أنت فاعل !

كنت في هذه اللحظة أرتجف من قمة رأسي
إلى إخص قدي ، وأحسست بجسمي كله يهزه

الغضب الذي ملكني هزاً عنيفاً . وشعرت بثقل شديد في معدتي . وفجأة رأيتني مندفعاً اندفاع اليأس لإنهاء هذا الموقف أسرع ما أستطيع

وخرجت الكلمات من بين أسناني المتقلصة بطيئة قتالة

أهتمت الرجل - أهتمته بكل ما استطاع عقل الشاب أن يتصوره ، فايض وجه الرجل من قسوة التهم وحقارتها ، ولكن لم يبد في عينيه أى أثر للخوف . وكأني به وهو يبحث عن الكلمات التي قد تعيد إلى هذا الموقف الجنوني شيئاً من الهدوء والسكون ، ولكنه لم يهتد إلى هذه الكلمات وسألتني أمي في صوت ضعيف متهدج :

- ماذا أنت فاعل يا تيم ؟

فلم أنظر إليها ولكنني أجبت على سؤالها ، وقد جززت على أسناني وصوبت مسدسي وقلت :

- سأقتل ميك

فقال ميك في صوت هادئ هدهء غريباً :

- لا ، يا تيم ! إنك لن تقتلني قبل أن تصنى إلى اللحظة

قلت غاضباً :

لن يكون فيما يمكن أن تقول ما ينجيك

فاستمر في حديثه كأنه لم يسمعي وقال :

- إني أحب أمك يا تيم ! أحببتها منذ اللحظة

الأولى التي رأيته فيها ، وأعتقد أنها هي أيضاً تحبني ، وقد اعترفت أن أتزوج منها ، ولكن الناحية المالية هي التي جعلت هذا الزواج حتى الآن مستحيلاً

وليس لدى يا تيم ما أعتذر به مما حدث الليلة ، وإني متفق معك في أنني أخطأت ، وأفهم جيداً كيف يبدو الأمر في نظرك ، وكل ما أستطيع قوله هو أنني آسف لرؤيتك لنا في هذا الموقف ، ولست أتمس لنفسى العذر من استسلامي للضعف ، ولكنني ضعفت أول الأمر في مقاومة الخمر فلما خضعت لها زادتني ضعفاً على ضعف

فقاطعتني في عنف قائلاً :

- أسرع وأوجز يا ميك فلم يبق أمامك في الحياة غير لحظات فتهد الرجل تنهداً طويلاً وقال :

- إن ما قلته يا تيم ، عن أمك منذ لحظة صدق كله ، ولا يزال صدقاً ، ففي كل الوقت الذي عرفتها فيه لم أسمع منها كلمة نائية ولم أشهد منها عملاً حقيراً ، ويجب أن تثق بأن هذا هو شأنها الحق - سواء أصدقت مثل ذلك فيما يتصل بشخصي أم لم تصدق ، ولكن اسمح لي يا تيم أن أسألك سؤالاً واحداً ، فقد حدث أنك شربت شيئاً من الخمر ، وما من شك في أن الخمر قد أثر في رأسك أحياناً ، كذلك لا بد أن تكون قد شربت الخمر مع بعض الفتيات ، فهلا توافقني إذا قلت إنه قد يسهل أحياناً حين ينتشى الإنسان بالشراب ، أن يندفع غير مدرك إلى الشطط في تصرفاته ؟

ما سمعت هذه الكلمات حتى شعرت فجأة بشيء من الضعف والدوار يستولي علي . فأغمضت عيني وأسندت يدي إلى المائدة لأحفظ توازني . ثم فتحت

— ما هذا يا تيمى ؟ لقد بدأت أظن أنك
إنما تنسج الصديري نسجاً ، ولكنك مع ذلك
لم تأت به !

ولكنها لم تكذب ترى وجهي حتى قطعت حديثها
ونظرت إلى نظرة استفهام فقلت :

— هل يضايقك يا جوديت أن أوصلك إلى
بيتك مباشرة ؟ لقد حدث شيء لا أستطيع الآن
شرحه .

ولاشك في أنها لاحظت ما أنا فيه من اضطراب
فقد أجابتنى في صوت خافت :

— فليكن ما تريد يا تيمى .

بقيت أسبوعاً كأنني في حلم مرعج ، أحاول
ما استطعت أن أصرف عن مخيلتي ذلك المنظر الذي وقع
عليه نظري في تلك الليلة المشثومة . ولم أحاول قط
أن أتصل بأى ، واستأجرت غرفة في أحد الفنادق ،
ولم أقرب مرة من البيت

وفي نهاية الأسبوع وجدتني قد أصبحت هيكلاً
محطاً مضطرب الأعصاب ، أقضي الليالي في أرق
فلا تندوق عيناى طعم المنام ، وفي النهار لا تفارقني
صورة ذلك المنظر الشنيع . واجتهدت أن أختلط
بالناس لأنسى ، فكانوا يتلقونني في بشاشة وترحيب
ويسألونني عن أى . وأخذت شيئاً فشيئاً أعود
الحياة الجافة ، وقد خيل إلى أنه من المستحيل أن أجد
في الحياة لذة بعد الآن

واستقر عزمي آخر الأمر على أن أهرج البلد ،
وصممت أن أبحث عن عمل وأن يكون عملاً شاقاً

عيني مرة أخرى ونظرت إلى ميك ... ميك الذى
كان واقفاً أمامي مستقيماً أبيض الوجه . ومع ذلك
كان شعور الاحتقار يملأ قلبي ، وما من شك
في أن ميك قد لاحظ ذلك في عيني فغمز بعينه وهو
يدمدم :

— والآن إذا كنت لا تزال يا تيمى منصماً على
قتلى فاضغط هذا الزناد واقض أمرك !

فحدقت في الرجل ، وشعرت فجأة بأن جميع
أعصاب التوتر ترتجى في كل ناحية من نواحي جسمي
وبعد أن كان كل همى أن أقتل أصبح كل ما أطلبه
الآن أن أهرب . أردت أن أندفع خارجاً من الغرفة
فلا يقع نظري بعد ذلك عليها ، ولا على الشخصين
الذين فيها . أردت أن أستبدل برائحة الوسكى ،
والدخان المطبق في جو الغرفة نسيم الليل الرطب النقي
في الخلاء .

فالتفت إلى أى وقلت :

— ليكن ما تريد ، ولتندفعا في طريقكما
على ما تشتهيان وسواء أتزوجكما أم لم تزوجا فإن
الأمر عندي سواء . ولكن لا تنتظري أن ترينى
مرة أخرى ما حيت ! لا تحاولي أن تبجحي عني ،
فإني لم أربى من حاجة لأن أنظر إلى أى منكما
بعد الآن !

ثم التفت وخرجت من الغرفة فشعرت بنسيم
الليل كنفحة من نفحات العطر الزكى ، وقصدت
إلى السيارة فتلقنتى جوديت بصحبة قصيرة مريحة
وقالت :

لا تخلص من الحال التعسة التي أخذت تكتنفني
واتصلت تليفونيا بالبيت معترماً أن أغير صوئي
إذا تصادف أن ردت على أمي ، ولكن مضت فترة
لم أتلق جواباً على الدق المتواصل فعلمت أن ليس من
أحد في البيت ، فأسرعت إلى سيارتي ومضيت بها
إلى هناك ، منتهزاً فرصة غياب أمي لأنني لم أكن
أريد أن ألتقي بها ، وقد اعتزمت أن أنفذ تهديدي
بقطع كل علاقة بيني وبينها

وجدت البيت على الحالة نفسها التي تركته عليها
فشعرت لحظة بالحنين إلى الدار ، فلقد كانت هذه
داري ، وهذا هو مربى الذي ألقته ، فما الذي أصاب
السعادة التي نعمنا بها حيناً ؟!

تسللت إلى غرفتي وبدأت أحزم حقائبي ،
حتى إذا انتهيت من عملي وأصبحت على استعداد
لمغادرة البيت فتح الباب ودخلت أمي تحمل على
ساعديها كثيراً من أنواع البقالة . فلم تكذ تراني
حتى وقفت فجأة وحقق أحداً في الآخر . ولم تلبث
أن طرحت أحمالها وقذفت بنفسها عليّ وهي تزفر
زفيراً هستيرياً وتصيح :

— تيمى ! تيمى ! أين كنت ، لقد بحثت عنك
في كل مكان . آه يا تيم لقد خيل إلى أن نهاية العالم
قد حلت بنا

لم أدر ما أقول ، ولكنني أحسست أن عزيمتي
أخذت تتلاشى . فمن العجيب أنني شعرت بشيء
من السعادة إذ وجدتني مرة أخرى على مقربة من
والدتي ، وأحس ساعديها يطوقان عنقي . ولم أستطع

أن أفكر إلا في أننا قد اجتمعنا معاً مرة أخرى ،
وفي أنني لسبب سخييف قد أعددت حقيرة ملائي
بأمتعتي كما لو كنت ذاهباً إلى سباحة طويلة ،
أو ما يشبه ذلك :
وقلت مدمنماً :

— لقد ... لقد كنت أعزم الذهاب
فتنهت وتعلقت بي وقالت :

— لا تذهب يا تيم ! فسيكون كل شيء على
ما تحب . لقد انتهيت من ميك وهجرته . وقد قلت له
إنني إذا خيرت بينه وبينك فإنني أختارك . وها أنا ذى
لم أره من ذلك اليوم

وحاولت أن أستمع بجميع الأسباب التي
تمكنتني من التمسك بعزمي الأول ، ولكن كل
ما استطعت أن أحس به هو الشفقة على هذه المرأة
التي هي أمي . لقد كانت تتعذب عذاباً شديداً وهي
تتوسل إلى الشخص الوحيد الباقي لها في الحياة ليغفر
لها ويسامحها . فكان كل ما قلته :

— لا بأس ، ستنسى ! ستنسى كل شيء ،
ولن تذكر اسمه بعد ذلك أبداً !

وخيل إلى أن الأمر سيصبح بعد ذلك سهلاً .
ظننت أننا باتفاقنا على أن نخرج ميك من محيط
حياتنا مستطيعان أن نستأنف سعادتنا الماضية .
ولكن لم يكن ذلك إلا وهماً لم يتحقق

فلم أستطع أن أنسى . فقد كنت إذا جلسنا
إلى المائدة أو تمددنا في غرفة الجلوس أختلس النظر
إلى أمي من حين إلى حين فأراها محدقة بي تقابل

بيدها ، وحاولت أن يكون صوتي رقيقاً مداعباً وأنا أقول :

- يا أمي ! إن بنيك الصغير تيمى سيضرب الصخر برأسه إذا لم تعودى إلى مداعبته
فقلت :

- حسن يا تيمى ، وسأجهد ، سأجهد ..
ثم اختنق صوتها . فنظرت إليها متألمة وقلت :
- ما هذا يا أمي ؟
فقلت :

- لا شيء يا تيم ، كل ما هناك أننى كنت
تعيسة شقية ، وإنى لسرورة أن أراك فى البيت
بت تلك الليلة يقظان أفكر وقد غمر اليأس
نفسى إذ تبينت أنه على الرغم من المظاهر التى تبدو
على حياتنا فإن شيئاً غريباً قد أصابنا ولن نكون
أبدآ كما كنا من قبل أمآ وولداً . فهناك دائماً
ذلك الرمز ، ذلك الشيء الذى لم نستطع أن ننساه ،
هذا الشيء سيطر علينا دائماً هازئاً بنا يشمرنا
بالتعاسة والشقاء

وفى يوم من أيام الآحاد بقيت وحدى فى البيت
واستقلت أمى السيارة لزيارة بعض صديقاتها وقالت :
لها لن تعود إلا متأخرة

فلما وجدت نفسى وحيداً خطر لى أن أجدول
فى غرف البيت لغير غاية معينة ، ثم شرعت أقرأ
الصحيفة اليومية فلم أترك فيها سطرآ لم أقرأه .
ولما انتهيت منها اضطجعت ودخنت عدة سجائر
مجتهدآ فى أن أجد طريقاً للخلاص من الموقف الذى
بتنا فيه

نظرتى بابتسامة حزينة أقابلها بابتسامة متكلفة ،
ولكن كان كل منا يعرف ما يفكر فيه الآخر ،
لقد كانت ذكرى مزعجة تلك التى تلازمنا فى كل
مكان : أم مدنسة فى نظر ابنها ! أوجد شيء يستطيع
أن يطمس معالم هذه المأساة ؟ !

لقد أجهدت رأسى فى البحث عن الوسائل التى
أستطيع بها أن ألين ذلك التوتر الذى أصاب حياتنا
فابتعت لها كثيراً من الهدايا ولكن الهدايا
لم تكن غطاء للغفران الذى لم أستطع أن أسبله عليها
وحاولت أن أدخل فى حديثنا الملح والنكات على
ما تعودنا قبل أن تفارقنا السعادة ، ولكنها كلها
كانت تبدو مبتذلة جوفاء . وأخذت أعصابنا تزداد
كل يوم تضعفأ ، وعلى الرغم من أننا كنا نحاول
أن تكون لهجاتنا هادئة لا يتخللها شيء من الغضب
والانفعال فقد كنا نشعر أن لابد من نهاية لهذه الحال
غير الطبيعية .

عدت ليلة إلى البيت فوجدت أمى تنظر من
النافذة جامدة ، وكانت الغرفة مظلمة . فلما أدت
مفتاح الكهرباء رأيت عينيها محمرتين كما لو كانت
تبكى ...

وأحسست طوفاناً من الندم يغمرنى وتمثل أمام
عيني رمز الأسف والحسرة يحول بين أمى وبينى ،
وكان يسخر منا فى موقفنا العاجز ، وليس فى يدنا
ما نستطيع أن نعمله للتخلص من برائته .

كان يبدو على أمى الانكسار والضعف والشعور
بالعزلة المؤلمة فلم أتمالك أن ركعت إلى جانبها وأمسكت

ولم أتمالك نفسي من التفكير فيما رأيت من إهمال أمي في ارتداء ملابسها وهي تستعد للخروج ، ولا في المظهر الحزين الذي بدا عليها وهي تجتاز عتبة الباب

ولم يلبث نظري القلق أن وقع على كتاب فوق المائدة ، وكنت قد رأيته عدة مرات من قبل ولكني لم أفتحه قط ، أما في هذه الليلة ففتحته ، ونظرت متكاسلاً إلى غلافه ، لقد كان ديواناً من دواوين الشعر ، وهو الديوان الذي أهداه ميك إلى أمي ، منذ زمن طويل ، وقرأت في الورقة البيضاء التي تلي الغلاف هذه الكلمات : « تحيات إلى صديق جديد من ميخائيل دوج » ويرجع تاريخ هذه الكتابة إلى عشرة أشهر مضت

حدثت في الاسم مندهشاً كيف لم يعد يؤثر في نفسي ، ترى هل ضعفت ذاكرتي ؟ كم تراني دخلت في دور الجود وعدم الاكتراث ؟

قلبت صفحات الديوان فوق نظري على كثير من الأبيات التي رسمت تحتها خطوط بالحبر الأحمر ، وكان جلياً أن ميك هو الذي رسم هذه الخطوط وقد قرأت فوق أحد الأشعار هذه الكلمات : « لعل هذا يفسر لك بأسهل مما أستطيع ما حاولت أن أشرحه لك في الليلة الماضية

وقرأت الشعر فتأثرت بما في فكرته من جمال ورقة أدركت إذن أن ميك قد أحب هذا الشعر وقد أوصني أمي بقراءته ، لقد كنت نسيت أن مثل هذه الأفكار قد خطرت يوماً برأس ميك ونسيت

كذلك أنه أهدى أمي هذا الكتاب وعلى حين فجأة خطر لي الحل الذي أبحث عنه ، فكان كالشعاع الذي ينبثق فجأة في زاوية مظلمة ، إن الحياة بين أمي وبينى لن تعود سيرتها الأولى حتى نعالج السبب الذي أدى إلى ما نحن فيه ، ولم نكن حتى الآن قد عملنا شيئاً غير محاولة النسيان . فكان مجهودنا في استرداد سعادتنا الضائعة مجهوداً رجعياً والحياة لا يمكن أن تعود إلى الوراء . لقد حاولنا أن ننسل إلى الكن الذي كنا نعيش فيه قبل أن تحل بنا المأساة ، ولكن منذ ذلك اليوم وقع من الأحداث ما يترك في نفوسنا أثراً دائماً يحول دون ما نبغيه ما لم نحول هذه الأحداث إلى الطريق التي تلائمنا . وهناك أمر واحد ما فيه من شك ذلك أن أمي قد أحبت ميك وهي لا تزال تحبه !

شعرت فجأة بالحرارة والافتقار يملآن نفسي فوثبت مندفعاً إلى آلة التليفون ، وأدبرت رقفاً واصل إلى أذني صوت ألفته من قبل حتى شعرت كأن شرارة كهربائية سرت في كل جسمي وقلت :

— ميك ... ! ميك ... ! مرحي ... ! هذا تيم الذي يخاطبك ... ليسألك إذا كان لديك ما يحول دون مجيئك إلينا هذا المساء ؟ أرجو أن تحضر فالأمر جد هام ... فأنا ... أنا أريد أن أعترف من عدة أمور ... أود أن أصالحك ... وأسألك إذا كنت ترغب في مساعدتي في رد السعادة إلى أمي ؟ ماذا تقول ؟ ستحضر ؟ أشكر لك يا ميك ! بقيت في البيت وكأن في حلقى سداً يكاد يخنقني

والوحدة وأشباح الذكريات السوداء التي كانت
تملأ حياتنا ...

لما وقفت بعد شهر من هذا اليوم ، أنا وجوديت
في بهو الكنيسة الصغيرة المزينة بالأزهار وشهدنا
التيسيس يعقد زواج أمي وميك ، ساءت نفسي
مندهشاً كيف يستطيع ابن أن يرير اتهامه أمه ،
لأى سبب من الأسباب ، إذا هو لم يكن أهلاً حتى
لأن يفهم الأمور التي يمكن أن تحتفظ بها أمه سرّاً
في قلبها ؟

أما جوديت فقد أبدت إعجابها بحفلة الزواج
وجالها ، ومن رأيها أنه يكون جميلاً أن تتزوج في
الكنيسة نفسها ... في الخريف المقبل
هدر الحبر ممدى

إلى أن جاء ميك . فتلقفت يده ، ودفعته إلى أحد
الكراسي ، وساد السكوت بيننا فترة طويلة كنت
في أثنائها أطل من الشباك محاولاً تملك نفسي ،
ولم ألبث أن سمعت صوت الرفيق المتعب من ورأى
يقول : « هنا فلنتظاهر ياتيم بأنني كنت هنا طوال
هذا اليوم . فقيم كنت أنت شاغلاً نفسك كل هذه
الساعات ؟ »

وهكذا نجح ميك حيث فشلت أنا ، في وضع
الأمور على أساس متين .

ترى هل بي من حاجة لأن أصف مظاهر
الدهشة والسرور التي ملأت وجه أمي عند ما دخلت
البيت فرأيتني ألعب الورق مع ميك ؟ أبي من حاجة
لأن أصف كيف تلاشت هباء جميع المتاعب

المجموعة الأولى للرواية ١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
المصر لموسيه ، والأديسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
ومنقولة .

الثنى ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالانعام الاثنية

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة
والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش
في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون
قرشاً في الخارج عن كل مجلد

سِرُّ السُّنُوفِ

اَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ مِصْرِيِّ خَشَبَةٍ

يكون ملك الموت الكريم
ما يزال يرف على القصر وينظر
في حزن إلى الزهر الأسوان
والشجر الكاسف أو أن يكون
قد قبض الروح هناك، وشهد
ذاك الغدر هنا، فيحمل إلى الله
على رسالة البشرية الظالمة مع
رسالة الموت الحق في آن،
والله بكل شيء عليم...

لقد علقت الملكة أخت الملك وهويته كما هويت
زوجة العزيز نبي الله في مصر، وكما هويت أنتايا
بليروفون في اليونان

لعلك لا تعرفين هذه الأسطورة! إنها بعينها
قصة يوسف، تلك القصة الرائعة التي تمثل على
مسرح الزمان في كل زمان ومكان

علقت الملكة أخت الملك الذي شغفها حباً؛ وقد
تردد أخو الملك أول الأمر، وجعل يصارع جبروت
الحب، لكن الملكة كانت جميلة وساحرة، وكان
لها جسم ممشوق يشير النداء القديم في القلوب المحيطة
به... لقد كانت تلمس كالظبي، وترنو بعينين مثل
عينيه، تمهد لها ابتسامات الفم الجميل الدقيق المشتعل
كل سبيل إلى كل قلب... لذلك لم يستطع أخو
الملك أن يقاوم طويلاً... فاستسلم، وجرفه تيار
الحب، وقامت العلاقات الأثيمة بينه وبين الملكة

ولما كانت الملكة هي التي تطارد عاشقها بمحبها
فلم تكن تخشى شيئاً في سبيل لقائه والانفراد به...
لقد كانت تنسرق في ظلام الليل من مخدع الزوج
الوفى المريض لتتقلب في أحضان خليلها المسكين،
حتى إذا بلبت أوام قلبها الشرير عادت دون أن تستشعر
(٢)

كانت تصفى إلى حديثه في انتباه شديد وذهول،
وكانت الحمرة الفاتنة التي طالما تأججت بالغزل الملهب
في خديها قد استحالت إلى شحوب وصفرة، وكانت
عينها النجلاوان قد أخذتا ترتعشان، وقد بدا فيهما
أثر البكاء الصامت

وكان نعمان يروي لزوجته الجميلة الهيفاء أسطورة
ساذجة مما يطالعها الناس عفواً في بطون الكتب
ولم يكن يدور بخله أن حديثه يتدفق في قلب فتاته
فيثير فيه الهم ويمكر عليه الصفو، ويتزعجها من
أحلام الحاضر الجميل فيقذف بها في عالم الذكريات
— فلما مات الملك صفا الجو لأخيه الذي غاث
الشياطين في فؤاده، ورقصت الأبالسة في رأسه،
فلم يطق على لقاء الملكة الفاجرة صبراً، بل انطلق
في جنح الليل البهيم للقاءها... وكأنما كانت وإياه
على موعد، فقد تركت جثة الزوج الراحل الوفي
مسيجة على سريرها، وذهبت دون أن تذرف عليها
دمعة لتتبادل البشريات والتهاني هي وعشيقتها الآثم
وهناك... تحت الدوحة الخزينة الباكية التي
شهدت غرام الملك، وسمعت عين الملكة، أهوى
العاشق الجديد على الفم القادر بقبلة، غير مبالي أن

وخزة من ضميرها الميث ، فتجد زوجها يبكي ويشكو من علته ، ولو درى لبكى وشكا من زوجته ولم تمض أيام حتى كان العاشق وصياً على العرش وقائماً مقام الطفل الصغير ولى العهد ، وراعياً للطفلة البائسة التي فقدت أباهما أشد ما تكون في حاجة إليه ومضى عام أو نحوه ، ثم قيل إن ولى العهد مريض ، وإن علته قاسية قاتلة ، وإنه في حاجة إلى الشمس المنعكسة من الثلج فوق قمم الجبال . ترين ، هل كان مريضاً حقاً ؟ أم أراد الوصى على عرشه حاجة في نفسه فهو يخفيها حينها ؟ !

وذهبوا بالطفل البرى إلى قمة جبل منيف شاهق في مملكة مجاورة ، وخصصت له طائفة من الخدم من بطانة الوصى

ولم تمض أشهر حتى جاء نعى ولى العهد ، ولكن ليس كما يحبى نعى أحد من الناس . لقد قصوا في ذلك قصة عجيبة لو صدقت لكأنت أسطورة في أسطورة ذكروا أن العلة اشتدت بالغلام الذى كان يضيق بالدواء وبالخدم ، فتغفل حراسه وانسرق في غابة قريبة ، فلم يزل يتغلغل بين الأشجار حتى أمن الأنظار ثم انتحر ...

— أجل ، سأقص عليك كيف فعل ، فإنهم يروون في ذلك قصة هى إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة ...

يقولون إنه ما زال منطلقاً في الغابة لا يدرى أين يستقر ولا ماذا عساه يفعل ، وكان الطقس بارداً والريح زمهريراً ، فلما غربت الشمس أو كادت ، تطرح الغلام عند جذع شجرة هائلة ، ثم أخذت جفنيه سنة من النوم فاستغرق في سبات عميق

— انتظري ، فسأروى لك كل شيء ... ثم

يقولون إن سرباً من الكراكي وعصافير السنونو كان آيماً من رحلته الطويلة إلى الشمال فشهد الغلام مستلقياً عند جذع الشجرة ، فذهب رائد الطير ليتحسس الخبر ، ثم عاد إلى السرب ، فهاهى إلا لحظة حتى أقبل الطير كله يحمل الزهر الجميل فجعل يلقيه فوق الطفل ، ثم أخذ الطير يرف فوق الغابة ويعود بالزهر ليصنع منه مهاداً وثيراً لولى العهد ... وانطلقت العصافير والكراكي ... وأصبح الصباح وأرسلت الشمس أشعتها كخلل الأفنان فسقط منها شعاع فوق الطفل الذى لم يستيقظ بعد ...

وأقبل كركى جميل فجعل ينفى ويهتف بالطفل ، لكن الطفل ظل نائماً ولم يستيقظ ... وأقبل كركى آخر وأخذ ينشد وينرد ، ويقف على الجبين الباهت الناصل الشاحب ... لكن الجبين الباهت الناصل الشاحب ظل ساكناً ولم يتحرك

وهنا وصل العسس الكثير ، ووقف الحراس مسبوهم مشدوهين ... وتقدم رئيسهم فأنحنى فوق الجثة الهامدة فحملها ، وجعل يطرها بدمعه الكريم الحزين ...

وحزنت الملكة أياماً ثم فامت إلى هواها فأخذت فيه من جديد كأنه لم يحدث هذا الحادث المؤلم لولى العهد .

— انتظري فسأروى لك حديث الطفلة ... فهم يذكرون أنها ظلت أياماً تبكى ، وتسأل أين ذهب أخوها ، وكانوا يقولون لها إنه ذهب ليحضر لها باقات الورد من الغابة ، وإنه لا يلبث أن يعود ... فلما مضى العام أو تصرم معظمه ولم يعد ولى العهد ، أخذت وحشة الفتاة اليتيمة تتضاعف ، وبدأت تحس حرارة العيش بعد أبيها الملك وأخها ولى العهد ... وبدأت

الذكريات والموتى ترقص في هواء الحديقة الخائقة الكريه ... وأخذت قبلات الغرام الأثيم ترقص مع الذكريات سافرة متهمكة مطلة على الملكة من حديق النوار ومقل البنفسج وأعين النرجس ، وآماق البنسيه . وكانت هذه القبل تسقط كالسهم في حشاشة الملكة لأنها كانت تنشر رائحة الماضي كأنها تنشر رائحة صارخة من قبر قديم ... ومضت سنوات قلائل ... ولم يعرف أحد أين ذهبت الأميرة الصغيرة التي لم تكن قد بلغت السابعة من عمرها بعد ووقعت الجفوة بين الوصي الذي أصبح ملكاً وبين الملكة التي لم تصبح شيئاً ... ولم يكن الملك يجهل ما يقوم بنفس صاحبه من غيظ وحنق فكان يحوطها بالجواسيس ويرصد لها العيون كل مرصد ، وكانت هي تحس بهم يحدقون بها ويتعرفون كل حركة من حركاتها ، ولم تكن تجهل أنهم يفعلون ذلك بأمر الملك ، وينقلون إليه خبر كل نفس من أنفاسها ، وعدد الخطوات التي تخطوها في كل حجرة وفي كل مكان

عرفت ذلك الملكة فحفظته وأضمرته وتظاهرت بالسكون ، وآثرت العزلة ، ثم راحت تدبر خطتها للقضاء على غريمها

وقد عاونتها في ذلك خادمة عجوز من خدمها اللواتي أقصين عنها بأمر الملك ، فما زالت تتملق بعض عيونه عليها وترشوه وتغمره بالأعطيات والهدايا واللى ، حتى أصبح أطوع لها من بناتها ، فلما وثقت به أسرت إليه بما يحاوله من إنقاذ الملكة من عسف الملك ، فارتعدت فرائصه أول الأمر ، ثم لان قليلاً قليلاً ، ثم وعدها أنه سيعمل بما ترسم له حتى تنجو الملكة ...

الدنيا تنقلب في عينيها وفي قلبها ظلاماً حالماً برغم مباحج الملك المحيطة بها ، وبرغم الموسيقى التي تبكي كل صباح ، وكل مساء في حدائق القصر ، وبرغم الأنوار الخاطفة المتألقة التي تحارب ظلمات الليل ، فتطني عليها الظلمات ، وتنشر على لآلئها ظلال الحداد والحزن ... لأن ظلمات الليل وحدها تعرف كل شيء ولأنها شهدت كل شيء

— ثم أصبح الصباح يوماً وجاءت وصيفة الفتاة إلى الملكة وهي تصرخ وتندب وتشق جيها ، لأن الفتاة فرت ، ولأنهم بحثوا عنها في كل مكان فلم يلقوها لها على أثر !!

هل ذهبت تسأل الناس عن الغابة لتلقى أخاها ؟ إن الغابة في أرض مملكة أخرى غير هذه المملكة فيا ترى أين تذهب الفتاة ، ومن يدها على مكان أخيها ، وهل يذكرها أحد أنه جثة هامدة ، أورقات سحق في قبر ضيق مظلم ... ؟

والجديد اليوم أن الملكة أخذت تستيقظ من أحلام هواها ، لقد كان حزنها الجديد أمض على نفسها من كل حزن ، لأنه حزن متجمع متمكن ، ولأنه حزن صادف ما تفتح في نفس الوصي على العرش من أمانى وآرب .. لقد شعرت الملكة أنه يريد أن يتخلص من كل الأشخاص الذين يضايقونه ليخلص له الملك ، وليصبح الأمر الناهي ، وليكون السيد المطلق ... ولقد شعرت أيضاً أن دورها قد جاء مثل دور زوجها الملك ، ودور ابنها ولي العهد ودور ابنتها البريئة الضعيفة التي أبت لأنها لم تستطع ذلك البعد القاهر المرير عن أخيها

جلست الملكة وحيدة فريدة تحت الدوحة المعهودة تفكر ثم تفكر ... وأخذت أطياف

وقد أفلح تدير العجوز ، وكان الرأي على أن تفاجئ الملك عصابة من الرجال الأقوياء ممن لم يقرأوا تصرفاته في الوصاية ، ومن شمو رائحة الجريمة تنتشر في كل تصرفاته منذ وفاة الملك ، فعقدوا الخناصر على القصاص منه لسيدهم وولى عهدهم ، وإن كانوا يعلمون أن الملكة في كل ما تم يداً مجرمة تستحق القطع مثل يد عدوهم وأشد تنكيلاً ...

وفي هدأة ساكنة من ليالي أغسطس ، كانت أشباح ملثمة تنهذى كالظلال في حديقة القصر ، وتقفز من شباك هناك إلى حجرة الملكة

وقبل أن يتنفس الفجر صغقت هذه الأشباح كلها ، لأنها سمعت صوتاً مدوياً في ردهة العرش المجاورة لخدع الملك ينذرهم فيقول : « مكانكم أيها الأشقياء وإلا قتلتم جميعاً ... لترك كل منكم سلاحه على الأرض وليتقدم نحو السور ، ثم ليقف هناك حتى يؤذن له ... »

والتقى المتآمرون أسلحتهم ، ثم نظروا فرأوا أشباحاً ملثمة أخرى تصوب نحوهم سهاماً لو طارت عن قسيها لنفذت في صدورهم فقضت عليهم قضاء مبرماً

وأشرقت الشمس واستيقظت المدينة ، ومادى الناس إلا أن يروا شوارعهم تعج بجنود كثيرين يهتفون باسم ولى عهدهم الذى زعموا أنه انتحر بالورد منذ عشر سنوات ... أو الذى زعموا أن عصفير السنونو قد قضت عليه بالورد حين قصبت أن تمهد له منه فراشاً

وظل الجنود يهتفون للمكهم الشرعى ويطوفون في المدينة برأس الطاغية ، وعرف الملك الفتى ما كان ينتويه الرجال الملتصمون فعفا عنهم ...

أما أمه ... نعم ... أمه ... يا لهول اللقاء ! لقد وضع فوق وجهها لثاماً حتى لا يراها وهو يكلمها ...

— أجل ، هي لذتك البهيمية التى حسنت لك قتل أبى ، ثم ائتمارك بى لألحق بوالدى حتى يخلو لك الجو أنت وخليك

— إعف عني يا بنى واصفح ما دام الله القادر قد حرسك ، وإنى لأقسم لك إن صدقت لى قسماً أننى كنت أريد به ما صنعتته أنت أمس !

— ولم لا تريدن له ذلك وفي طبيعتك الشر ... إن مثلك لا يفكر إلا في الجريمة لأنه فطر عليها

— يا بنى إنه الشيطان قد أضلنى فلا تقتلنى بكلامك ألف مرة قبل أن تقتلنى بسيفك مرة واحدة ! — الشيطان ! ويلكن يا بنات حواء ! دائماً

تهمن الشيطان بما ليس بحسن شيئاً منه كما تحسنه إطمئنى ، فلن أقتلك ... لقد خسرت قيمتك لأنك شهدت عقبي تدير

— حقاً يا بنى ! وإنى على كل ما كان لآسفة ! — أحب أن أسألك قبل أن تفرق إلى الأبد لماذا عاشرت أبى وأنت لا تحيينه ؟

— ترفق بى يا ولدى ! — لا بد أن تجيبى ؟ — أقسم لك إذن أننى لم أحبيه ، و ...

— إذن لماذا تزوجته ؟ — لأنه ملك وللتاج بريق يخلب ألباب العذارى — أى أنك آثرت بريق الملك على منى القلب — هذا هو ! ولو كان لى عقل ناضج ما فعلت ذلك ! !

— وماذا كنت تحسبن نحوى باعتبارى ابنتك الوحيد البكر ؟

— ألا أراها؟

— لن تريها على أنك أمها ، فقد أخبرتها منذ
ثمانى سنوات أنك ميت ، ففرحت ، ولم تذرف
عليك دموعاً كما تفعل البنات الصغيرات إذا
توفيت أمهاتهن.. وثق أنها إذا علمت أنك ما تزالين
حية فإنها تنقلب إلى طبيعتك الإجرامية وتقتلك ..
أنا بالطبع لم أذكر لها شيئاً عن جرائمك لأن مثل
هذا لا ينبغي أن يقال للصغار
— إذن مررتُ أن أراها مرة واحدة قبل أن
أموت ...

— سترينها ، وإن كنت أكره لها ذلك ،
لأن نظراتك تدنس كل إنسان تلحقه
— ما أقساك !

— جاء اليوم الذى تعدين فيه كلمة قاسية أشد
من قتل زوج وإزهاق روح ابن ، وهدم سعادة
أسرة وتقويض مملكة ... إسمى ... احذرى أن
تذكرى لها شيئاً ، فإنك إن فعلت فإنها سوف
تسفهك ولن تصدق من دعواك شيئاً ...
ثم لقيت الفتاة أمها دون أن تدري من هى ،
وإن تكن قد عجبت للدموع التى كانت تنهمر من
عينها ... وعاشت الأم بعد ذلك فى شبه دَيْر تصلى
لله وتستغفره ، ثم ماتت ... ومن يدري ، عسى
أن يغفر لها الله ...

— انتظري فسأروى لك كيف فر ابن الملك ،
وكيف كانت أسطورة عصافير السنونو والورد كذباً
مفترى ، وكيف نشأ الفتى فى بلاط أحد الملوك من
أصدقاء أبيه ...

ولكن عزيزة لم تشأ أن تصنى إلى الحديث

— ألا تترقبى يا بنى ؟

— قلت لك لا بد من أن تجيى قبل أن نفرق
إلى الأبد ، وأحب أن تصدق
— كنت أحس نحوك بكل محبة وعطف إلا
إذا ذكرت أباك

— فإذا كنت تحسبن إذن ؟

— كنت أمقتك ، لأنك ثمرة زواجنا الذى
لم يقيم على دعائم من الحب
— وأختى ؟ !
— أختك ؟ !

— أجل ... أختى التى فرت من عسفكم

— إني أجد ريحها فى كلامك ... أصدقنى
يا بنى كما صدقتك ، هل تعرف أين هى أختك ؟
— وماذا يهمك منها ؟

— يهمنى منها أننى كنت أحبها حباً لم أشعر
به لا نحوك ولا نحو أبيك ... لقد قتلتى بعدها عني
إن الواقعة التى تمت بينى وبين عمك كان سببها بعد
ابنتى ... لقد كرهته وكرهت الدنيا كلها حين قيل
لـي إنها فرت !

— عجيب أن توجد هذه القطرة من الخير
فى نفسك !

— ألا تقول لى إن كانت ما تزال على قيد الحياة ؟

— إذن فاطمئنى ...

— إذن هى عائشة

— إنها عائشة

— وهل هى قريبة من هنا ؟

— بل هى هنا ... فى هذا القصر !

— بنى ! ...

— ماذا ؟ ..

أكثر مما فعلت ... لقد كان القلق باديًا عليها ،
وكان الوجوم يشتد بها ثم يشتد كلما أوغل نعمان
في قصته المؤسسية المشجية

لقد نهضت وقد راح الدمع ينهمر من عينيها
المحزوتين ، ثم ذهبت إلى مخدعها ، فهب نعمان
في إثرها وقد ظن أنه سبب لها الألم بروايته تلك
الأساة ... هب ليلاطفها ويرفها عنها ، ويذهب عن
فؤادها الحزن ... لكنها أغلقت الباب وراءها ، ثم
قالت له حينما هتف بها : « انتظر قليلاً أرجوك ... »
وهتف بها ثانية فلم ترد عليه ، فجلس على كرسي ذي
مستدين ، وراح يفكر فيما آلت إليه الحال من أمر
تلك القصة ...

وبعد قليل انفتح باب المخدع ، ثم برزت منه
عزيزة في ثوب ضافٍ أسود ، وليس في وجهها أثر
من دمام (تواليت) وفي يدها حقيبة صغيرة منتفخة
قليلاً ، ثم قالت :

— بلى ، ولقد غفرت لك ونسينا كل شيء ...
— إذن فاعلم أن أحداً من الناس لم يغفوني ،
بل إنى كنت متزوجة زوجاً لم أحبه ، فلما عاشرت
ضقت به ثم هربت ، وقد لقيتني أنت فعمطت عليّ
عطفاً جعلني أحبك بل أعبدك حتى نسيت السنوات
الثلاث التي عشتها مع الرجل الأول
— وما في ذاك ؟

— نعمان ... الوداع يا عزيزي !

— الوداع ؟ عزيزة ! ماذا تقولين ؟

— أقول لك الوداع ... إنى ذاهبة !

— رباه ماذا حصل ؟!

— لا شيء ...

— أصدقيني يا عزيزة ... أأست زوجتي ؟

— بلى ... أنا زوجتك ، ولسكني أرجوك

أن ترسلني ...

— رباه ... أكاد أجن ... أريد أن أعرف

ماذا حدث !

— لم يحدث شيء ... الأفضل لنا معاً أن

— ألا تدري ؟

— لست أرى في كل ذلك شيئاً !

— كلامك غريب يا نعمان

— ليس غريباً كما تظنين !

— عجيب !

— أي عجيب ؟

— كيف أكون لك زوجة وأنا زوجة رجل

آخر ؟!

- مشكلة !
- ألا ترسلني يا نعمان ؟
- لا قيمة لكلمة الطلاق لأن زواجنا باطل !
- إذن وداعاً ... وداعاً أيها الرجل الذي
حامي ومد ظله عليّ ... وداعاً برغمي يا أعز الناس
عليّ ... ماذا أعمل ... لقد ذكرت نجيباً وصفية
فدارت الأرض بي ، وضاق عليّ بما رحبت ...

هذه هي القصة التي رواها لنا نعمان أفندي
عبد الجليل عند ما قابلناه مرة يتردد على مستشفى
المجاذيب حيث كان يزور زوجته عزيزة ، وقد ذكر لنا
أنها جنت لأن زوجها طردها لأن ابنها نجيباً ، وصفية
كانا قد اختارهما الله ، ولأنه كان قد طلقها منذ
زمان بعيد .

دريتي خيبة

الأم فرتر

للساخر الفيلسوف جون الوطاني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعنا ١٥ قرشا

- وما العمل إذن ؟
- سأذهب إلى زوجي الأول
- وأنت لا تحيينه ؟
- أجل !
- وكيف يكون هذا ؟
- لأنني لا أريد أن تكون آخرتي مثل آخره
الملكة بطله قصتك ؟ !
- ماذا تعنين ؟
- أعني أن لي طفلين مثل الطفلين في قصتك !!
- تعنين أنك تفضلين أن تعودى إليهما !
- أجل ... هو ذاك !
- وعبد الحميد !
- أوه ! عبد الحميد ! مسكين !
- هذه مشكلة يا نعمان !
- مشكلة وأي مشكلة !
- لكنه ما يزال صغيراً ، وسينسى !
- أتدعينه بغير أم ؟
- هذا من غير شك عزيز عليّ ، لكنها
مصيبة ذات شطرين ، ولا بد ...
- لا بد ماذا ؟
- لا بد أن تقسمها معاً .
- وهل تضمنين أن يقبلك رجلك الأول ؟
- من غير شك سوف يقبلني ، لأنه كان
يعبدني ...
- وإذا لم يقبلك فما العمل ؟
- سأرى أولاً ...
- وكيف أقدمت على الزواج مني وأنت متزوجة ؟
- هذه زلة ، وإن تكن كبيرة ، لكنك
ستغفرها لي

البعث

للكاتب الفرنسي جى دى فوباسان
بقلم الأديب عادل الجسّال

في عينيه حين ارتشف كأسه
الأولى ... فما كاد يأتي على
الثانية حتى كان يلثمها بعينيه
في نشوة وشراهة .. واستقرت
محتويات القدر الثالث في جوفه
فتعمّ قائلاً دون أن يتم جملته :
« لو كان في إمكانك فقط
أيتها الأنسة ديزيرية ... »

ومع فراغ القدر الرابع كان باتان ممسكا بثوب
الفتاة وهو يحاول تقبيلها
وتعددت الكؤوس ... واكتملت عشراً ...
وحينئذ أرسل أوبان المجوز ابنته إلى الخارج وراح
هو بنفسه يشرف على خدمة البقية الباقية من زبائنه
الساهرين . كان أوبان رجلاً حاذقاً لا تخفى عليه
خافية ... فكان يترك ابنته تنقل برشاقها بين الموائد
لإغراء الزبائن حتى يستزيدوا من خمره تاركاً لها
مطلق الحرية في توزيع ابتساماتها الرائعة وإرسال
سهام عينها إلى أفئدة الخمورين وهو واثق منها كل
الثقة دون أى محاولة من جانبه لاكتشاف سر ذلك
البرق الذي كان يشع من عينها .. البريق الغامض
الذي كان ينعكس في أغوارها كلما حاولت امتحان
عواطفها إزاء رجل من زبائن الحانة

وأصبح وجه ديزيرية مألوفاً لدى باتان من طول
تردده على حانة أوبان ... فكان يراها ماثلة أمامه وهو
في مركب صيده ناشر أشباحه في المياه المسداة
أو الصاخبة على حد سواء ... أو كان يتخيلها تومي
إليه في حلقة الليل الساجي . أو تحت ضوء القمر
الفضي الساهر ... فكان يطيل التفكير فيها ...
وكم كان يهنا بذلك التفكير وهو في جلسته عند

— ١ —

لم يكن هناك في قرية « فيكامب » من يجهل
تاريخ الأم « باتان » الحافل بألوان الشقاء ...
كما لم يكن يختلف اثنان في الحكم على قسوة معاملة
زوجها لها طيلة حياته

أخذها باتان زوجة له منذ عدة سنوات حين
كانت في نضارة الصبا وقد حباها القدر بقسط وافر
من الجمال والجاذبية ... في حين كان هو بحاراً
ماهرًا عملاقاً اعتاد الذهاب إلى حانة المجوز « أوبان »
لتناول أربع أو خمس كؤوس من الكحول .
ولم يكن ذلك هو الحد الأعلى للفرغ معدته ...
بل كثيراً ما ارتفع ذلك الرقم إلى ثمانى أو عشر
كؤوس ... ربما زادت على ذلك قليلاً إذا ما كانت
صفقة صيده رابحة . وكانت ابنة أوبان هي التي
تشرف بنفسها على خدمة رواد الحانة الذين أسرهم
عينها الحالكتا السواد، وامتلكت أفئدتهم بقوامها
الرائع المشوق

ويوم جاء باتان إلى تلك الحانة للمرة الأولى ...
اكتفى بإطالة النظر إلى الفتاة في شوق وحنين
وهو يشير إليها من طرف خفي . وازدادت فتنها

بحرف . بل راح يكيل لها ألفاظ السباب الحادة ...
فقابلتها الفتاة بأحد منها ، إذ كانت طبيعة والدها
الهمجية متأصلة فيها . وكان ذلك مما يزيد في غضب
زوجها وإيلامه . ولكن تلك الآلام لم تبلغ الذروة
إلا في تلك الليلة التي اعتدى عليها فيها بالضرب
وخلال السنوات العشر التي تعاقبت بعدئذ ..
لم يكن هناك من حديث يدور بين أهل الميناء إلا عن
تلك المعاملة القاسية التي كان يتبعها باتان مع زوجته ،
لا شيء إلا لأنه كان موهوباً بالسليقة بلهجة في
سبابه لم يكن هناك في فيكامب من يضارعه فيها
وعاشت المرأة المسكينة في جو من الخوف والرعب
عشر سنوات كاملة اعتادت أثناءها الوحدة والسكون ،
عشر سنوات كاملة كان فيها الكفاية لتجعل منها
هيكلاً هزياً يشبه هيكلاً سمكة صغيرة جافة .

— ٢ —

استيقظت المرأة فجأة ذات ليلة على صوت أنين
الرياح وهمهمة رياح البحر ... فجلست على فراشها
وراحت أفكارها تتجمع في نقطة واحدة حتى تركزت
في ذكرى زوجها الغائب في مركبه وسط ذلك البحر
الثائر ، وسكن الصوت ... فاستلقت على فراشها
ولكنها لم تكد تغمض عينيها حتى هبت فزعة
وقد روعها صوت العاصفة ، وقفزت من الفراش
ثم هرولت نحو الميناء التي كانت قد امتلأت
بجموع النساء وقد حملن في أيديهن المصابيح ينرن
بها الطريق للرجال الذين هرعوا بدورهم إلى هناك
لمحاولة نجدة من يحتاج إليهم من الصائدين ... وظلوا
محدقين في المياه السوداء الممتدة أمامهم في جلال
وروعة وقد بدت أشباح مراكب الصيد الصغيرة
وهي ترتفع وتنخفض فوق الأمواج الصاخبة ،

(٤)

مؤخرة المركب ، ويده مستقرة على مكانه ... بينما
ارتكزت رؤوس بحارته الأربعة على أيديهم ، وقد
راحوا تحت تأثير نومة استسلام هادئ لذيذ بعد
إجهادهم اليومي المرهق ... وفي كل تلك الحالات
التي كان يتخيلها فيها ... كان يراها تبسم إليه وهي
ترفع يدها لتملأ كأسه بالرحيق الملون هامسة وهي
تأهب للاعتماد عنه :

— أليس ذلك هو كل ما تطلب ؟ —

وأحس أخيراً أنها أصبحت تشغل حيز تفكيره
كله ... فلم يستطع كبت تلك الرغبة التي كانت تلح
عليه في أن يتخذها حليمة له . وطلب يدها من أيها
وأجيب باتان إلى مطلبه : فقد كان يمتلك مركباً
وشباكاً ، علاوة على منزل بالقرب من الميناء ...
في حين كان أوبان المعجوز لا يمتلك شيئاً ... وتمت
معدات الرزاق دون تأخير .

وانقضت ثلاثة أيام استيقظ بعدها باتان من الحلم
الذي كان يعيش فيه ، وهو يعجب كيف أنه اعتقد
 يوماً أن تلك الفتاة ديزيره تختلف في شيء عن غيرها
من النساء . وابتدأ ينعت نفسه بالجنون ، ويميب
عليها ضعفها وخضوعها لذلك القيد الذي قيدت نفسها
به ... القيد الأبدي الذي استسلم إليه تحت تأثير
الخمر ... نعم ! لقد كانت الخمر هي السبب في ذلك
الزواج ... الخمر التي كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن
الفتاة قد مزجتها ببعض العقاقير السحرية للإيقاع به
ولم يكف باتان عن سب نفسه طوال ذلك
الوقت ... وما كاد يصل إلى ذلك الحد من التفكير
حتى ألقي فضلات التبغ المتبقية في غليونه ، وراح
ينقل أسماك الواحدة إثر الأخرى ، وهو يغمغم غاضباً
وعندما وصل إلى منزله وجد زوجته — ابنة
أوبان المعجوز — قابعة هناك كمادتها . فلم يحبها

وأخيراً... انتقلت ملكية البيغاء وقفصه لديزييه
بعد أن رفعت ثمنه لأربعة فرنكات وخمسين سنتياً
وتمتعت المرأة قائلة بغضب لما رأت نقطة
من الدماء تلوث يدها حين لامست رقبتة وهي تضع
له شيئاً من الطعام في حجرتها

— يا لله... لم أكن أعلم أنه جريح
وتوجهت إلى فراشها بعد أن وضعت للطائر
شيئاً من الطعام وإناء صغيراً مملوءاً بالماء

ولم تكن أنوار الفجر الوردية قد بدت بعد، حين
تعالى إلى أذني مدام باتان صوت واضح جلي يقول:
— ألم تستيقظي بعد أيتها المنكودة؟

لقد رجع زوجها أخيراً... فذلك الصوت
صوته وتلك عادته في مناداتها إذا ما استيقظ في
الصباح. وأحست برعشة تسرى في عروقها فدفنت
وجهها تحت الوسادة بينما راح جسدها يرتجف
ارتجافاً واضحاً وهي تتمتع قائلة لنفسها:

— يا إله السموات... لقد رجع ثانية
وها هو ذا... يا لله

ومرت بضع دقائق دون أن يعكر صفو السكون
الشامل صوت... فأخرجت رأسها من تحت الوسادة،
كانت متأكدة من وجوده بالقرب منها يرقبها وهو على
أتم استعداد للانهيال عليها بالضرب كما كان في الماضي
البعيد... ولكنها لم تر شيئاً غير أشعة الشمس التي
ابتدأت تحترق زجاج النافذة، فهمست قائلة لنفسها:

— لا بد أن يكون مختفياً في مكان ما
وظلت تنتظر... وطال انتظارها فعاودها
بعض هدوئها وغفمت:

— إنني لم أره... إذا... لا بد أنني كنت
أهيم في وادي الأحلام

وأغمضت عينيها مرة أخرى في اللحظة التي
ارتفع فيها صوت باتان كالرعد قائلًا:

ودامت العاصفة خمس عشرة ساعة
وكان من نتيجة ثورة الطبيعة أن أحد عشر
صائدًا قدر عليهم ألا يعودوا إلى منازلهم قط...
وكان باتان من بينهم

وقذفت الأمواج بحطام سفينة باتان « أميلي
الصفراء » إلى أحضان شاطئ « سان فاليري ».
ولكنها لم تظهر أي أثر لجسد باتان

كان من الممكن أن يكون قد أصبح طعاماً
للأسماك... كما كان من الممكن أن يكون قد انتشل
من المياه وأبحر مع متفديه إلى حيث يقصدون

وعودت المرأة نفسها الحياة كأرملة... ولكنها
إلى جانب ذلك لم تكن تتمتع عن استقبال سائل
أو مسافر أو بحار داخل مخدعها

وانقضت أربعة أعوام على اختفاء رجلها
ومالت الشمس إلى الغيب... وهبت نسيم
باردة تنذر باقتراب الليل... وفزعت الأطيار إلى
أوكارها... في حين كانت المرأة تسير في شارع

« اليهود » وقد لفت نظرها منزل قبطان عجوز...
كان يقف يبابه « دلال » ينادي على أمات المنزل
لبيعه... وفي تلك الآونة كان الرجل ممسكاً بقفص
قد استقر فيه بيغاء وهو يهتف:

— ثلاثة فرنكات... طائر يتكلم كرجل
القانون... فقط ثلاثة فرنكات

وتمتعت ديزييه لصديق كان يتأبط ذراعها:
— يجب عليك شراءه فسيكون لك نعم السمير.

إنني واثقة من أن ذلك الطائر يساوي ثلاثين فرنكا
تقتي من أنك تستطيع بيعه ثانية بعشرين أو
خمس وعشرين فرنكا

وارتفع صوت الدلال مرة أخرى قائلًا:
هيا... أربعة فرنكات أيها السادة... أربعة
فرنكات... إنه يستطيع الترتيل، فياله من أعجوبة نادرة.

ألا زلت نائمة أيتها المملونة ؟

وقفزت من فراشها وقد انتابها فزع المرأة الطبيعية التي ظلت أربعة أعوام كاملة وهي ترزح تحت عبء الذكري الآلية ... ذكرى العذاب الذي كان يسببه لها صوت ذلك الرجل الكريه ... وهتفت :
— ها أنا ذى يا باتان ... ماذا تريد ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتلفتت حولها فى دهشة ... ثم أخذت تبحث فى كل مكان ... ولكنها لم تجد أحداً ... وتهالكت على مقعد بالقرب منها وهي تحس بروح باتان ترفرف فوق رأسها ... وأخيراً تذكرت الحجرة الصغيرة الإضافية الواقعة فوق حجرة الطعام .. لا بد وأن يكون مختبئاً هناك فى انتظار مفاجأتها ... ثم ... ثم العودة إلى نفس الحياة القاسية التي كانت تحياها من قبل ... ونظرت إلى سقف الغرفة وهي تقول متسائلة
— هل أنت فوق يا باتان ؟

ولم يكن هناك من جواب

وتسللت إلى الخارج فأحضرت سلماً تسلقته ونظرت فى الحجرة الصغيرة لترى ... لتراه ... ولكنها لم تعثر عليه ... فجلست على الأرض وابتدأت تبكي وهي ترتعد. ومن أسفل جاءها صوت باتان يقول :
— أى جو وأى رياح ..؟ إننى لم أتناول وجبة الصباح بعد

وصرخت المرأة من أعلى قائلة :

— إننى هنا يا باتان .. ها أنا ذى فى طريقى إليك لإعداد طعامك فلا تغضب .. ها أنا ذى آتية. وهبطت السلم بسرعة فائقة. ولكنها لم تجد أحداً بانتظارها وأحست بضعف مميت يغمرها من رأسها لأنحصى قدميها. وفكرت فى أن تهرغ إلى الخارج مستغيثة حين ارتفع صوت باتان قائلاً :
— إننى لم أتناول طعامى بعد أيتها الـ ...

كان البيغاء فى قفصه يتابع كلماته ، وهو يحدق فيها بعينين كجمرتين .

ونظرت إليه والدهشة تغمرها ثم تمتعت :
— إذا ... إنه أنت . وتكلم البيغاء ثانية وهو يحرك رأسه :

انتظرى ... انتظرى قليلاً ... فسألتى عليك درساً لتكونى أشد كسلاً منك الآن .

أى أحاسيس شعرت بها المرأة فى تلك اللحظة ؟ لقد شعرت تماماً أن الرجل الميت قد بعث مرة أخرى ... بعث حياً فى هيئة ذلك البيغاء .

إذا ... سيعود مرة أخرى لإهانتها ... كما كان فى الماضى ... وسوف لا يمر يوم بهدوء ... وجيرانها ... سيعودون حتماً للزء بها والسخرية منها وأسربت المرأة نحو القفص ففتحتة . وأخرجت الطائر الذى راح يدافع عن نفسه بمخالبه فيدمى يديها ... ولكنها لم تتعبأ به ... وتهالكت فوقه على أرض الغرفة ... وراحت بكل قواها تضغط على رقبتة حتى سكنت حركته .

لم يعد يتحرك ، لم يعد يتكلم . ولكنه كان مستكيناً استكانة الأبد بين ذراعيها . وجمعت الريشات الخضراء المتناثرة هنا وهناك بيد من تجفة ووضعها مع الجسد المسجى على الأرض فى لفافة صغيرة ... ثم هرولت إلى الخارج عارية القدمين ... وقذفت بالحزمة الحاوية لا ... للشئ الميت فى مياه البحر الهادئة ... فبدت كحزمة من البرسيم الأخضر طافية فوق المياه الزرقاء .

وعادت إلى حجرتها فركعت على ركبتيها أمام قفص الطائر الميت ... وراحت تبكي .

كانت تشعر أنها ارتكبت إثماً ... إثماً هائلاً كأكبر الجنايات وحشية ... فابتدأت تدعو الله أن يغفر لها .
عادل المحال

إيزيس (منهدة وقد خانتها
مدامها) — ما زلت أجهل
يا أختاه الفارق بين اليقظة
والحلم ، نحن نحلم دائماً حتى
في يقظتنا ، لذلك أعتقد أن
اليقظة هي الحلم الصريح والحلم
هو اليقظة المتحركة

كاميليا (تجلس بجانبها

حانية) — أراك في هذه الأيام تحنين إلى العزلة ،
عزلة سكان الأرض (تشير إلى مفزلها) حتى شغلوك
يثبت أنك لاهية عنه ... ما الخبر ؟ هل من جديد ؟



إيزيس (في هدوء) — كاميليا ... (يغونها

لحساسها اللهم الغامض فتبكي بصوت خفيض)

كاميليا (في حرارة) — رباه ، أي شيطان

يراودها ؟ إيزيس هيا قومي إلى محرابك ليعود إليك

الراهبة

قصة مسرحية في فصل واحد
بقلم الأنيسة جميلة العلايلي

المشهد : إيزيس راهبة عذراء جميلة ساحرة في الخامسة
والعشرين من عمرها ، جالسة تحت ظل شجرة
كثيفة بعيدة عن بناء الدير وحديقته في طريق
أشبه بالصحراء الموحشة ترمى المفزل في بطنه وتسند
رأسها الجليل إلى يدها البيضاء محدقة في الأفق يبصر
سارح وذهن شارد ، ثم تحول بصرها لترق
طيراً رف عليها ثم حلق بعيداً ، وأخيراً تفيض
الطرف لتخفى دموعها التي بدأت تقبل وجنتيها في
استحياء ولا تجد من قلبها غير بسمه شاحبة صريرة

تفاجئها زميلة لها راهبة دميعة قد جاوزت الأربعين من
عمرها ، عليها طابع العقل الرصين ، تمشي في هواده حتى
تقف بجانبها فتضع يدها على كتفها في حنو قائلة بصوت
خفيض بطي :

— إيزيس ، طال بك المكث هنا والجو مكفهر

غير بهيج

إيزيس (تنظر إليها في بطنه ثم تقول بصوت أشبه
بنغم الحلم العميق) — بالعكس ، ما رأيته أبهج منه
اليوم .. أنظري إلى هذا الغمام تأمليه . تأمليه جيداً .
ألا ترين اليقظة الحارة تسري في شرايينه لتحبو
الكون حلماً يحمل خلاصة الرجاء والحنين ؟ ...

كاميليا (بلهجة التخاضة) — ما عهدتك هكذا
تحلمين بمآني الدنيا وتخرجين من يقظة الحقيقة
القدسية ؟

اليوم أعمق فكراً وأغزر إحساساً... لقد خلقني
الله لأقدم رسالة الكل إلى الكل ، ولشد ما أعجب
كيف يمنحني الله حقاً ويحرمه على البشر !

كامليا (تقاطمها بوضع يدها على فمها) — كفى
كفى لقد ازددت شططاً . خذار أن تسمعك الأم .
إنها لا ترحمك مطلقاً وإذا غضبت لا ترضيها صلاة
أعوام طوال ... لأنها تغضب ليسوع المهان ...
قوى لنصلي معاً وليغفر لك الرب ، وليشفع لك
يسوع

إيزيس (بصوت البقن) — الرب يعلم حقيقة
السرائر ويسوع يدرك الحقيقة . أما نحن فجهلاء
آثمون .. نحارب الإثم بالإثم ونقول ذاك هو الإيمان .
ما أقطع هذا ! قوى إلى محرابك يا أختاه ، لأن من
يخاف لهب الشمس وبرد الشتاء ويفر من الوحوش
لا يبلغ عمق الحقيقة أبداً ... أبداً

كامليا — أى حقيقة يا بلهاء ؟ الحقيقة
هناك ... تنتظرك في معبدك القدسي تحت مصباح
العذراء . أنظري (تشير إلى الصليب المعلق على صدرها)
هذا علامة الحقيقة

إيزيس (تهز رأسها مستنكرة ... يترامى إليهما
صوت ناقوس الدير)

كامليا — الصلاة ... هيا
إيزيس — دعيني ... لا يمكنني الصلاة
الآن ...

كامليا — عفوك يارب .. شد أزرها يا يسوع .
إهربي من الشيطان يا أختاه ... وتعالى مى لتستردى
إيمانك المفقود

إيزيس — من قال لك إننى فقدت إيماني ؟
ومن أنت حتى تعرفي خفايا الضمائر ؟ الله وحده يعلم
سرائر القلوب ... ألا يحتمل أن يكون الشرير

صوابك فلا شك أن الشيطان قابع في هذا المكان
الذى ملأه بعبير السحر الكاذب والحلم الموهوم
(تحاول إيقانها)

إيزيس (تتنح عن القيام) — كامليا .. إستمعي
إلى . تعلمين أننى لجأت إلى الدير هرباً من أضاليل
الجوع ، وتخلصاً من الذئاب البشرية التى تجرى
وراء الفريسة النسوية في كل مكان ... هربت لأن
الله بقدر ما منحني من جمال ، وهب الآخرين جشع
الجسد وضعف النفس . وقد نزعني عنى كل رغبة
بشرية وتحررت من قيود كل شعور دنيوى لا اعتقادي
أن السعادة في خلو البال وتحرر الجسد من النزعات .
أجل فررت من الرياض النضرة العاصرة بالأمانى
والأحلام ولجأت إلى الصحراء المقفرة مهبط الحقائق
والسلام ... ولكننى أدركت أخيراً أن كل حياة
مهما تنوعت صورها ناقصة مبتورة — كامليا —
أصدقيني ... ألا تشعرين بحاجة ماسة إلى شيء
مجهول . ألا تحسّين في أعماق صدرك بعذاب الحرمان ؟
ألا توسوس لك نفسك أحياناً أن تدفنى ما تبقى من
عمرى لقاء بضع أيام هنيئة مليئة بأعذب الآمال
كامليا (متنهدة في حرارة) — ولكن هذا
الأمل عبث يا إيزيس ، لقد وهبنا أنفسنا للعذراء ،
وليس من حقنا أن نسترد الهبة .

إيزيس (في شبه ثورة) — العذراء لا تحلل
الباطل أبداً ... هذا وهم ... توارثته الأجيال .
لا يمكن أن تكون العذراء أنانية وهى أطهر من
الطهر ... كيف نحرم علينا حقاً مشروعاً ؟
لقد تمتعت العذراء بحب وخيدها وتنعمت به إلى
حين ... ذاق الحب والأمومة ...

كامليا (متكلفة منطق الحكمة) — اغفر لها يارب
(تشير إلى الصليب) يا يسوع رد إليها صوابها
إيزيس (في هدوء) — لست مجنونة . بل أنا

كاميليا - لا شك أنه أصابك مس من جنون
لا بد من مخافة الأم (تنصرف)

الراهب - (بصوت لطيف) يا أختي الحسنة
أراك غاضبة ثائرة، علام؟ ...

إيزيس - بدأت أفهم الحياة .

الراهب - خلقت الحياة لكي تكون خادمة لك
وأعتقد أن الرب يوم ولدت خلقتك على مثال العذراء
جمالاً وطهرًا، لا أكنتم عنك أني أزداد إيمانًا وقوة
كلما لحت وجهك النضير ... آه ليت الدين حل
للراهب أن يأتس بالجمال كما يأتس به ابن الحياة .
إيزيس - (متخافتة) هل تعني أنك تحبني ،
وتشبهيني .

الراهب (في ثورة وحاسة) - كل الحب والشهوة
إيزيس (في دهاء المرأة) - وإذا طلبت منك
الفرار من هنا لنعيش سويًا كأبناء الحياة ، أتعقل ؟
الراهب (يتردد ويطلق مفكرًا مليًا ثم يقول) -
ولم لا نجمع بين الدين والمتعة ؟ ... لم لا أقنع
بأخوتك مع تادية رسالتي الدينية ...
إيزيس (متأكدة) - تريد أن تتمتع بي وأنت
في لباس الراهب ؟

الراهب - متعة بريئة طبعًا

إيزيس - وهل تفرق بين النظرة النهمة
والاستمتاع الدني ؟

الراهب (خجلًا) - هناك فرق شاسع بين
نظرتي العاطفية إليك وبين استمتاعي بك
إيزيس (في جد) - لا أفهم هذا أيها الراهب ؟
والذي أفهمه أنك أصرح ما عرفت من الرهبان ...
هم يحبسون شهواتهم وقد يتنفسون في خفاء ونفاق

السفك أكثر إيمانًا من رجل يتزيا بمسوح الراهب ؟
كاميليا (تحفف مدامها) - إيزيس .. حسبك .

قوى واعتمدى على ذراعي

إيزيس - سأصلي هنا ... كل بقعة في الأرض
يجب أن تنال حظها من عبادة الله . لأنه موجود في
كل مكان وهو يشرف على المحراب القدسي كما يشرف
على دار البني ، يمنح الأول رضاه ، ويهب الثاني حكمة
الأناة ...

(يتكرر دق الجرس)

كاميليا (في ثورة الغاضبة) - عجلى يا إيزيس
الصلاة تدعونا ...

إيزيس - اذهبي أنت ...

(يترامى إليها نشيد الراهبات ، يبدو طيف راهب يتمنى
في طريقهما حتى يلفهما ... ويفهمهم عن مشيئة أنه كان
بنشدما) .

المشهد الثاني

كاميليا . إيزيس . الراهب

الراهب - طال بحثنا عنكما ... ألم يلفكما نداء
الصلاة ؟

كاميليا - التوت ساق إيزيس فصعب عليها
السير ، وها نحن تان نتأهب للذهاب إلى الصلاة .
إيزيس - (عتدة) لم الكذب يا كاميليا ؟

كاميليا - (تنظر إليها عابسة غاضبة) قلت الصدق
يا إيزيس ... أيجعلك أن يعلم الأخ أنك طفلة
لا تحسن السير ...

إيزيس - (متهمكة) أعرفت أننا لا نمتاز
عن أبناء الدنيا بغير قوة الكبت ، وبراعة التلفيق .
الراهب - ما معنى هذا ؟ لم أفهم شيئًا .

إيزيس - معناه أننا نكذب أيضًا وقد نسرق
وقد نقتل ونظلم . ولكن بأسلوب غير أسلوب الناس .
(تضحك في شبه جنون وسخرية)

الراهبة — آه، تريد أن تترهب لتتعلم الحقيقة
من الدير وتعتكف في المحراب لتطهر من الرجس
الذى تظنه يقطن في كل بقعة من بقاع الأرض؟
خير لك يا سيدى أن تبحث عن الحقيقة في هذا
المكان المظلم فإن فيه معنى لها. إبحث عن الحقيقة
في النور وفي الضوضاء، وابحث عنها في المراقص
والملاهي ودور المفاسد... هناك النفوس عارية
تعيش بحقيقتها الأصلية وإن أسموها حياة الكذب
والخداع...

الخداع والنفاق هنا حيث يتستر الإنسان بالدين
ليقف الألسنة وينمض العيون
المس كل شيء... وذق كل شيء... فإذا
زهدت أخيراً فأنت من المؤمنين المتطهرين...
أما أن تجيش نفسك بين جدران الهيكل لتتقى
الشر وتصون نفسك من إغراء الحياة... وتظن
نفسك قاضلاً فأنت أضعف الضعفاء وأكذب
الكاذبين. إن استطعت أن تعيش وسط الظلم صابراً
وبين المجنون طاهراً وفي أعماق الأضاليل زهيراً فأنت
مؤمن قديس. أما أن تحبس نفسك في الدير فأنت
بالحرمان المطلق تعيش في كنف عبودية مراسيم
لا تفقه لها معنى ولا حقيقة فأنت أشبه بالكافر...
وما الذى تجنيه من الدير؟ عقلك يصاب بالشلل

وقلبك يبلية السقم، وأخيراً تموت

الرجل — سأموت عاجلاً أو آجلاً ولكنى
أريد الموت على الصورة التى تحبب إلى ظلمة القبر
وتهوّن على وحشة الآخرة

الراهبة (متهمكة) — أى صورة؟

الرجل (يتأملها طويلاً) — فى صوتك حنانها
وفى لمحاتك معانيها وفى معانيك فلسفتها ووحشيتها

أما أنت فقد استطعت أن تكون أكثر شجاعة
وجراً... ميزة طيبة على كل حال... تقدرها
المرأة... لكن فى غير المعبود... لأن الرجل الذى
يمجز عن كبت شهوته فى العبد أكثر خطراً على
المجتمع من الرجل الذى يقضى طوال النهار والليل
فى دور البغايا

الراهب (يحمر وجهه وتبرق عيناه ويتمتم) —
أراك أسأت فهم مرماي؟

إيزيس — ظن ما شئت
وتركته فى مكانه بعد أن رمته بنظرة شذراء
وراحت تسير الهوينى... تسمع صوت ناي بعيد
يقترّب منها رويداً... رويداً... فتتابعه...
تقف بغثّة وهى تشدّ حبل صليبها وتقول: يا يسوع...
ما هذا الصوت؟ كأنه صوت الشيطان جاء ليردنى
إلى حظيرة الذكرى المريرة... آه...

(يقترّب الصوت حتى تبتين أنفامه وتراى لها صورة الطيف)
(تقول بذعر) إنسان هنا.. تحاول الفرار (الصوت
يستوقفها) ... يا أختاه... يا أختا إيزيس (تقف)
من ينادينى؟ ... يواجهها رجل فى زى رعاة الغنم
سقيم الجسم شاحب الوجه فى صوته رنة حزن عميق
دفين...

المشهد الثالث

الراهبة . إيزيس . الرجل

الرجل — أنا

الراهبة — أظلمى أنت أم جائع أم تائه تبحث
عن الطريق؟

الرجل — ظلمى إلى الحقيقة، راغب فى الموت
ولكن بعد أن... (يتهدج صوته تحت تأثير اضطراب قوى
فيتلثم ويسكت ثم يقول بعد عناء أهدأ الذى أراه هو الدير؟

الرجل (متمناً) — بالضبط منذ عشر سنين ...

هل تعرفين راهبة دخلت في ذلك الوقت ؟

الراهبة — وماذا يهمك من هذه الراهبة ؟ هل

تعرف أن الراهبات تناسين أبناء الدنيا ؟ وهل تظن

أنها تسمح بمخاطبتك لو تقدمت إليها اليوم ... ؟

احفظ ماء وجهك !!

الرجل — أريد أن أستغفرها

الراهبة — (مقاطعة وقد أحست بشعور مبهم)

علام ؟

لقد غدرت بها من أجل فتاة غنية صورت لي المجد

والعظمة في الثراء ؛ فأنستني المطالع المادية الحب

والوفاء . تركتها بعد أن تقبلت قلبها ... وتنحيت

عنها في جبن ونذالة، وآثرت فتاة اللغو بثرائها، عن

فتاة الحب بشرفها، فذهبت المسكينة المظلومة إلى

الدير، وكأنها ذهبت لتكون دعواتها أقرب إلى الله

فانتقم مني لها !

عبثت المرأة الغنية برجولتي، وهتكت شرفي

وكرامتي، وأخيراً لم يستطع بريق الذهب أن يهون

على المصاب فيما بذلته من دماء شرفي، ولم يستطع

الجاه المزيف أن يرد على مجد الكرامة

ولما ثارت كرامتي لرجولتي ... لعلمتني المرأة —

وطردتني كلما يطرده الكلب غير المرغوب فيه ...

أدركت للتو أن الله انتقم للمسكينة البائسة .

فجئت أبحت عنها راجياً أن أموت تحت قدميها

الراهبة — (بصوت منكسر حزين محاولة أن تخفي

مدامعها) جئت بعد فوات الوقت . لقد ماتت !

الرجل (مدغوراً صارخاً) — ماتت !

الراهبة (وقد ملكتها الدهشة) — صورة من ؟

الرجل — (متلعثماً) صورة ... آه صورة .. من

أبحث عنها .

الراهبة — عمن تبحث يا سيدي ... ؟

الرجل — كأن حقيقتها سكنت فيك .. ؟

الراهبة — آه، تبحث عن الحقيقة .. تضحك

منهكة ... كل الناس يبحثون عن الحقيقة ...

والحقيقة ظل كل شيء في الوجود . هي الضوء والنور،

وهي الأمل واليأس، وهي الفرح والحزن ؛ وأخيراً

هي الرجل والمرأة (تعاود الضحك) أي حقيقة تنشد

يا سيد والحقيقة هي الصورة الرمزية للقدر، هي القوة

والضعف، هي العدل والظلم، هي الرحمة والرجاء ...

وأخيراً هي الحب

الرجل — (مبهوراً) كأنك هي .. أكاد أجزم .

قلبي نبأني ... (يرتع على الأرض في شبه إعياء)

الراهبة — (وقد ملكتها الرحمة) إلى هذا الحد

أنت تعب ... مسكين ... (تساعد على الجلوس) ...

أنت جائع بلا ريب ... تعال معي إلى الدير لتأكل

وتسترخ

الرجل (محاولاً أن يسترد قواه) — يا أختاه هل

تسمحين لي بسؤالك ؟

الراهبة — سل !

الرجل — أمتصلة أنت بكل راهبات الدير ؟

الراهبة — بالتأكيد

الرجل — متى جئت الدير ؟

الراهبة — منذ عشر سنين (تنهد) قبل أن

يكتمل صباي ... كنت أخطو نحو الصبا في عجالة ..

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطائب

ابن العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمد حسن زياتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثنى ١٢ قرشاً

الراهبة - (في اختناق) أجل ماتت فتاتك
المحبة ...

الرجل -- إذن يجب أن أموت ... فأين قبرها
لأموت أمام بابي ، وأصلب نفسي على صليبه فأموت
شهيداً ... ؟

الراهبة (مشيرة إلى شجرة بعيدة) - هناك ...
حيث كانت دائماً ، وقد أوصت أن تدفن هناك
الرجل (يركع تحت قدميها) - باركيني يا أختاه
واذكركيني عند ربك بأنني مت شهيداً إذ كفرت عن
ذنبي - باركيني يا أختاه قبل أن أموت - ولتشهدني
موتي لتذكركيني عند ربك بأنفاسك الطاهرة .

الراهبة - (تباركه) غفر الله لك .

الرجل (يمشي مولياً وجهه شطر الشجرة التي أشارت
إليها وهي تتبعه في صمت رهيب وحزن قاتل حتى يبلغ
الشجرة) - هنا دفنت ؟

الراهبة - أجل

الرجل - باركيني مرة أخرى

الراهبة (تشير بلامة الصليب) - غفر الله لك

الرجل (يخرج الخنجر ويصوبه إلى صدره متمتماً) -

متمتماً ... إيزيس ... إيزيس ... هاأنذا أجيبك
مفتسلاً بدمي لأبلغك طاهراً

الراهبة (تأخذ الخنجر من يده صارخة) -

زكي ... ماتت إيزيس الساذجة ... وعاشت إيزيس
المتحصنة الماكرة ... وستحيا للحياة بعد اليوم ...

الرجل (صارخاً في بصر وطلاقة) - إيزيس !

الراهبة - زكي !

إلى الحياة ... إلى الحقيقة ...

مجلة الصليب

الريحة والنهاية السارة القنعة .
وقد لا نخلص من ضيق يسببه
لك استطلاع آثاره قصة براء
على حين تكون قد أنسيت
من القصص الكاملة كما
كبيراً

فقد ركب القطار في طريق
العود إلى مشواي من إحدى

الضواحي ، وكان أن جلست في ثوبى به أشخاص
ثلاثة : رجل أسود الشعر قسم الوجه وسيمه يحوم
حول الأربعين ، وزوجان فصلت بينهما السن فالرجل
كما يبدو يكبر زوجه ، وكان يلوح أن نزاعاً حل
بينهما قبل أن أجد الثوبى ، فقد كانت سحب الغضب
والحدة تظلل وجه الزوجة ، بينما كان الرجل حزينا
مهموماً

وقد بادل الزوج جاره الغريب كلمات قلائل
بلهجة المتعارفين من قبل حتى يسدل على ما حدث
ستاراً . أما السيدة — فعلى النقيض — لم تحاول
أن تخفى شعورها فقد استوت سامة كأن على رأسها
الطير ، مقنعة رأسها تحديق في الظلام ، حتى إذا
ما وقف القطار ومد لها زوجها ذراعه ، غادرا الثوبى
فأمسيت مع الثالث وحدى

وأنشأنا رقب الزوجين إذ يسيران سوياً ، وكان
طبيعياً أن يستأنفا التشاحن قبل أن يسيرا بضع
خطوات ، وكان رفيق السفر يواجهنى ، فلما أن
اختفى الزوجان تلاقت أعيننا في نظرة كلما تقام
وإدراك ، وهن كتفيه هزة خفيفة ساخرة فرأيتنى
أقول على رغم منى :

من روائع الأدب الإنجليزي

عندما انفج البواب

للكاتبة الإنجليزية سارة جرايد
بقلم الأديب محمد عبد الفتاح محمد

لطالما التمت في الحياة بارات لوامح ، وقعت
لدينا حادثات خوارق ، دون أن نلقى إليها السمع
أو نجد البصر . حادثات بارات تضطرب في قاموس
الحياة الهادرة ، وتتوارى في رحبات الدنيا الصاخبة ،
وتضيع وسط العجيج واللجب ، حادثات غامضات
ترف أمام الناس في المدينة الزاخرة ، والركبات
الفارحة ، وفي السيارات العامة ، تتوالب على طوار
القُطُر ، في عربات تقف وتمر ؛ تتراءى في أعمال
الناس صغيرة درجت عليها حياتهم رتيبة نافهة طوال
الليل والنهار

وفي الحياة قصص أى قصص : قصص بنته
شقى العواطف وألخلق ونسجته مختلف الشاعر
والأحاسيس : نبالة وبذالة وبطولة ، حب ومقت
ورذيلة ؛ وقصص يتوالى فيها تصاوير الأفراح وتهاويل
المآسى والآلام

ولو كان بين يديك قصة تقتصر على بداءة
خسب ، فأى شوق يحدوك إلى معرفة النهاية ؛ وإن
كانت نهاية فأى نصب تلقاه في تصوير البداية ؟
وإنه لما يثير الغيظ أن يكون في القصة البراء من
الروعة ما تقتصر عنه القصة الكاملة ذات البداية

— كم كان بودى أن أحضهما النصح .. فتهد الرجل وقال :

— آه ! وأنا أيضاً ، ولكن ليس من اليسير السهل أن يفعل المرء ذلك في هذه الحال

— أحسبك توقن بأن الناس يعلمون من أمرهم أكثر مما يعلم الآخرون

— كلا ، فليس هذا من رأي ، فالنظارة ترى أكثر مما يرى اللاعبون كما تعلمين ، ومع ذلك فمن المبعث أن يحض المرء زوجين على خلاف وتنازع نصيحة خاصة إذا كان كلاهما صلب الدماغ خاطئ الرأي ، وحتى العاقل الرزين من الناس ذو القلب الطيب والرمي الشريف نراه يأتي أحياناً بأخطاء فاحشة شنيعة على إدراكه فداحة هذه الأخطاء وجسامتها . والآن هذا الرجل — كان هنا منذ لحظات ، كان يقرب زوجه ويحملها على السكوت ويلزمها الصمت ، أو على الأقل يريد أن يبسط عليها حمايته كما لو كانت تجهل كيف تسوس نفسها وتملك قياد أمرها . في يقيني أنها ستحمل له الكره والسخط والشحناء وسيحملها — ولا ريب — على انتهاج سبيل يربأ بها أن تسلكها ، ويتحاشى أن تضرب فيها . أراني عاجزاً عن أن أفهم لم يبيع الرجل لنفسه أن يتخذ من زوجه عبداً بطبيعته ولا يعصى له أمراً ، فأنا أؤثر أن أمنح المرأة حرية غير موكوسة إلا في حالات خاصة

— ولكن غالباً ما يكون لهذه الحرية المطلقة عواقب وخيمة ، وكيف يميز المرء هذه الحال الخاصة ؟

— أوه ! لا صعوبة ألبتة في ذلك . إن أخلاق النساء كتاب مفتوح في سنهن الباكورة ، وفي وسع

كل من يقرأ أن يقرأه . ومن رأي أنه إذا انعدمت الثقة بين الزوجين فلا يجديهما الشجار شيئاً ، ولا تخلق الشحناء بينهما هذه الثقة المفقودة . غير أنني لا أجزئ ترك الحبل على الغارب لفتاة صغيرة رعناء . إن ما تريده المرأة رفيقاً لا ولياً ، صديقاً لا قسماً ، وكثيراً ما يأتي العقلاء — كما أسلفت — في حياتهم الزوجية بأخطاء جسيمة منكورة . لقد تزوجت بفتاة تصغرني بسنوات عشر ولا أظن أن هذا الفرق في العمرين جد كبير إذا كان بين الاثنين توافق في الطبع وامتزاج في الخلق ؛ غير أننا كنا على طرفي نقيض . إذ كنت أهتم بالحياة الهادئة الساجية المفعمة بالفنون والأدب ، وأمقت ترجية الوقت بالثرثرة في الحفلات والولائم مقتاً كبيراً ، وكانت زوجي تضيق بكل ألوان الفن ، وليس ثمة شيء يدخل على نفسها أسباب المرح والسرور أكثر من وجودها بين جمع صاخب وحفل جياش . وقد أجمعت أمري على أن أدعها وما تهوى فلا أسألها مرة البقاء معي في البيت على أن تدعني هي أيضاً وما أبني فلا تطلب إليّ مصاحبتي إلى حفلاتها ومآذبها . وبالرغم من ذلك الحب الكبير الذي يجمع بيني وبينها لم أستطع أن أدرك لماذا جهد كل منا في العمل على توحيد أمرجتنا المختلفة وأخلاقنا المتباينة . إن الزواج لموفق ناجح إذا كان أساسه التجانس في الأخلاق والتجاذب في الطبع . وليت شعري لم يجلب الزوجان المختلفان في المزاج المتناقضان في الطبع على نفسيهما الشقاء والبؤس بالسمي في توحيد أخلاقهما ، وفي وسع كل منهما أن يتخذ سبيله التي يحب على

أن يرقب بعض الفرص السانحة فيسمع دوينهم برفيقه؟
إنني موقن أن هذه هي السبيل الوحيدة المؤدية إلى
السعادة في الحياة الزوجية القائمة على أساس متباين
الأركان من الأخلاق والطباع. ألا ترين مي أنهما
يدعمان حياتهما بالتلاق من حين لآخر يتناقلان
الكلمات الحلوة ويتجاذبان الأحاديث المسولة

أقول قد تركت زوجتي تضرب في طريقها كما
اتخذت أنا أيضاً سبيلي. وقد أجدت هذه الطريقة
وسيرت دفعة حياتنا على خير ما نرجو. وكانت أحياناً
تبدى رغبة أن أرافقها إلى الحفلات والولائم.
كذلك كنت أحياناً أُلح لها برغبتي أن تبقى معي
في البيت. وبذلك استطعنا قليلاً أن نوفق بين رغباتنا
وأخلاقنا. ولكني لا أستطيع الجزم بأن إنكار
الذات على هذه الصورة قد صادف في حياتنا نجاحاً
كبيراً...

وكان ثمة حفلة مقنعة أصرت على أن تذهب
إليها. وأظن أنها لمحت برغبتها في أن أرافقها؛
ولكنني تجاهلت تلميحتها ليقيني أنني سأضيق بالحفلة
وضييجها

وقد ذهبت إلى الكرنفال في ثوب قشيب على
هيئة أحجار الدومينو موشى بخطوط قرنفلية باهتة،
ومفوف بشرائط بيضاء ناصعة، وأخذت معها
« مروححة » من ريش النعام الأبيض الثمين. وتبدلى
من قناعها شرائط حريرية هفهافة غطت فيها الخمرى
الدقيق. كانت رغبتها قوية في الذهاب؛ ولكن
رغبتها ضعفت حيناً رأت أنني لن أرافقها. غير أنها
ذهبت لارتباطها بموعد مع أصدقاء لها. ولما أنبأها
أنى سأبقى بالبيت وعدت ألا تقنّب في الحفل كثيراً
وران على السأم والملل عند ما ذهبت وتركنتي

وحدى، فأمسكت بكتاب وأشعلت سيجاراً؛ ولكن
تبدل ذهني وعزب لبي حينما حاولت القراءة فنحيت
الكتاب جانباً، واستويت في جلستي أدخن وأسرح
الخيال المضطرب في أجواء شتى

وبدأت أفكر: ترى ماذا تصنع زوجي في
الكرنفال الآن؟ وهل قابلت أصدقاءها؟ وجل
بخاطري أنها ربما لا تلتقي بهم. وقد يسبب لها
ذلك شيئاً من الارتباك والحيرة. وإن مثل هذه
الحفلات العامة لتجمع خلقاً كثيرين من
شتى الطبقات والأجناس. وهناك بعض الحرية
والإباحية لا سيما والوجوه ملثمة مقنعة. وزوجي
حتى في هذا الثوب — ثوب الدومينو — تبدو جميلة
ساحرة. وقد يزعمها من لا أخلاق لهم من الذين
يفشون هذه الحفلات كثيراً. وقد تكون الآن
تراقص امرأة راغبة عنه زاهدة فيه. أتراني أصبت
في تركي إياها تذهب وحدها؟ وفجأة ألقيت سيجاري
في الموقد وفزعت واقفاً ولما أهتد لأمر. وأعملت
فكري قليلاً: آه! إن لدى ثوباً تنكرياً ذهبت به
مرة إلى إحدى حفلات الكرنفال عند ما كنت
عزيباً. كان ثوب «دون إسباني» من الخمل الأسود
من عهد فيليب الرابع. وقد كان بحق زياً جميلاً
اقتبس من صورة وأحكم صنعه. وقد كنت أعجب
بنفسي أى إعجاب وأنا أرتديه. وذهبت إلى غرفتي
التي جعلت منها «استديو» وفي إحدى الخزائن
ألقيت الثوب وقناعه

كان الوقت مبكراً. لماذا إذن لا أرتديه وأذهب
إلى الكرنفال؟ لقد استقلت زوجي المركبة، بيد أنه
بجوارنا اصطبل للمربات. ثم استدعيت الخادم
وأرسلته في طلب عربة

وعند ما كفت الموسيقى عن العزف طلبت إلى بعض
المرطبات وأرتنى الطريق إلى المقصف. ولما أن نالت
منها كفايتها - وقد كانت كما كبيرا - تأبطت
ذراعى ، وراحت تدور بي في المكان. كان يبدو أنها
تعرف منه المداخل والمخارج ، وتلم بكل غرفة فيه .
وقد أدهشنى ذلك كثيرا ، إذ كنت أعلم أنها لم تزر
هذا المكان من قبل ، وقد سألتها في ذلك فأجابت :
- أحضر هنا كثيرا ؟ إني أحضر عند ما
يحلولى .

وهل تملين زوجك ؟

فتمجبت قائلة :

- أوه ! زوجى ؟ ومن أدراك أنى ذات بعل ؟

- إن حسناء مثلك ، ولها ظرفك ، وسحرك

لا يمكن أن تغفلت من قيود الزواج .

- وأى فرق بين العشاق والأزواج ؟ أليس

من الجنون أن تزوج المرأة وفي مكنها أن تلم
حولها العشاق المعاميد ؟

وشدت بيدها على ذراعى ، ثم رفعت إلى من

تحت قناعها عينين تشعان فتنة وإغراء ... وعجبت ،

أهذه المرأة زوجى ؟ أم هى غانية قارحة تبحث عن

القوت من هذا السبيل ؟ كلا ، لا أعتقد . وحملت

نفسى على الظن بأن ذلك الأسلوب فى الحديث وتلك

المواطف الحارة الجامحة التى تبديها زوجى ، إن هى

إلا من مستلزمات الكرنفال ، تحت ستار الأزياء

الغريبة والأثواب الشاذة ... ولكن المرأة لا تتقن

ذلك الضرب من الغزل إلا عن اختبار وتجربة ،

وها قد اعترفت أنها تنشى المكان كثيرا ، مما يبدو

لى أنه تصنع منها وتمثيل أن لم ألحظ عليها غشيان

وكان مكان الحفلة يزخر بالناس ، رجالا ونساء
حين دلفت إليه . ولكن لحسن الحظ وقع بصرى
لأول وهلة على زوجى بزيها ، ومروحتها ، وشرائط
الحزير المتدليلة من قناعها على فمها . عرفتها دون
صعوبة فالتذت سبيل إليها قدما . بيد أنى تنبتهت
حينما اقتربت منها إلى أنها سوف لا تعرفنى بزي هذا
إذ لم ترنى فيه أبدا . بل ربما لا تعلم عنه شيئا . على أية
حال لم أستطع أن أرتد ، وقد رأتنى أمشى إليها . وقد
أدركت أنى أقصدها فلم تمرض ، ولم تشج بوجهها
أوه ! أيمكن أن تسمح لرجل غريب أن يحادثها ،
أو حتى تشجعه على الدنو منها ؟ وساورتنى الريب
والشكوك . فازمعت لأبلون إخلاصها ووفاءها .
وبدون أن أهتم باللياقة والتقاليد ، قلت لها فى رقة :
- يخيل إلى أنك فى انتظارى ، هلا أجيبت
بنعم ؟

- حسن ! إني فى انتظار متعة وهو .

قالت ذلك فى لهجة رقيقة هى أيضا كأنما آتت
مرماها من هذا التطفل البغيض إذ كان فى وقوفها
هكذا وحيدة شىء من المرض والإغراء

ورانت على عيني غشاوة ، فلم أر ولم أسمع من

الحفل شيئا ، ولكنى تماكنت نفسى . وبدأت

الموسيقى تعزف ألحانها الطرية الحنون فسألتها أن

تمنحنى هذه الرقصة فقالت وهى تهبنى بسملة مضيفة :

- كم أسر بذلك !

ثم تناولت ذراعى ، وقادتني إلى حلبة الرقص ،

وأنا ذاهل مأخوذ . لا ريب أنها غامرت قبلى مع

كثيرين . ولكن هل يتأتى لقنصاع على وجهى

أن يسدل على شخصيتى كل هذا التستر ؟

كانت فى الرقص بارعة كأنما خلقت لترقص .

هذه الحفلات أبداً . ألم تتمسك بالذهاب إلى
السكرنقال بحجة أنها لم تر حفلاً له من قبل ؟ وإني
أقرر لثالث مرة أنني كنت مجنوناً إذ تركتها تذهب
وحدها . وإني وإن كنت أعلم عنها الرعونة والطيش
إلا أنه لم يدر بخلدني قط أنها مستهترة قارحة ليس
في عينيها ملح . كنت أعتقد أنها أمينة على عهدي
حافضة لشرفي في كل مكان تغشاه ، وكل حفل
تحضره ، ولكنني عرفت هذه الليلة ما انطوت عليه
نفسها الخبيثة الآثمة

ولا صرية أن أصدقائي قد عرفوها أجمعين
وأشفقوا عليّ من تبذلها واستهتارها . كانت
صدمة قاسية . كنت مشقت الذهن عازب البال
طوال الوقت . كنت أتهمها بالخيانة والغدر حيناً ،
ثم أنلس لها المآذير وأبعد عني شبح اتهامها
حيناً آخر . كانت كل القرائن ضدها . بيد أنني لم
أستطع أن أتحرر من حبي لها واحترامي إياها في
مدى لحظات قصار . ومع كل ، فماذا صنعت لتستحق
أن أؤاخذها وأرميها بالغدر والخيانة . حقاً لقد اتبعت
في الحديث سبيلاً ملتوياً مبتذلاً ، ولكنني لم أوغل
معه فيها ، ولو أوغلت لأبدت ولا ريب استياءها
واستنكارها . أتراها تفعل ؟

وكانت يدها مستقرة على ذراعي . فترددت قليلاً
ثم أخذتها وضغطت عليها ، فضحكت لشروء ذهني
ثم بادلتني الضغط على يدي وقالت :

— ها قد صحوت أيها الدون العبوس . إنك
بارد العاطفة ، حليف الجهامة والكآبة . ألا تراني
أبمت الحياة والشعر ، وأنفت الحب والسحر ؟ وسوف
أبمت كل أولئك فيك

فقل الدم في عروقي لهذه الكلمات . ومضى

وقت ليس بقصير قبل أن أملك زمام نفسي . لقد
أترع اليأس قلبي ، وتخطمت الآمال في فؤادي .
وددت لو أتنحى ركناً مهملًا وأبكي كطفل صغير .
وقد ران عليّ لا غضبٌ وثورة ، بل حزن وأسى
فليس ثمة غضب حين ينعدم الأمل . كنت
كالقاصر الذي يلقى بآخر درهم معه ، وطُفْتُ
النفس أن أوغل في ذلك الغزل فأعطيها فرصة أخرى ،
قلت :

— لقد سباني سحرٌ . وأصباني جمالك ودلك
الامر الذي لا أطيق معه فراقك وهذا الزحام يرهقني
فهلمني نفاذ المكان . إن العربة في انتظاري . هلا
أتيت معي ؟

فقلت ضاحكة كأنما تحدث نفسها :

— وعلام الرفض وهو عصبي المزاج ؟ والآن .
هذا حسن . صدقني أيها « الدون » الكتيب . ينبي
وجهك أنك لم تتعود أن تجييك امرأة بلفظة « لا »
— وله ؟ ... حسن جداً ؟

— إن مزاجك العصبي يدل على توقد عاطفتك
واضطرامها ، فإني أراك جامداً بارداً ؟ الحق
أنني لا أهضم هذا البرود الذي تشتعل به

— إذن فعلى أن أبمت فيك السرور والبهجة
أما وقد أحسست ذلك فسأبذل كل ما في وسعي .
هلا أتيت معي ؟

فضحكت ثانية ... يا لله ! هل يدل ذلك منها
على الخضوع والاستسلام ؟ وقدتها إلى مخرج المكان
برغبة الشاب المفتون فلم تتمنع . بل قالت إني نافذ
الصبر . وقد كنت حقاً نافذ الصبر . كانت كل دقيقة
تمر عليّ كأنها ساعة مترعة بالألم والمذاب إلى أن
انتهت المهزلة . ولم يكن بوسعي أن أعجل بإنهائها ،

ثم سقطت على أحد المقاعد. كانت المرأة التي أمامي غريبة ، مخلوقة بشعر فاحم جمعد وعينين سوداوين وأهداب مصبوغة ووجه ملطخ . امرأة من النوع الذي لا يشرف المرء مسابقتها في أى مكان ، أو مصاحبته إلى أى حفل . وددت لو أجتو عند قدميها فأقبل طرف ثوبها . هكذا كان شعورى حينما تحررت من الوسواس والظنون ، وتمطل ذهنى فلم أستطع شيئاً سوى التحديق في وجهها مبتسماً . وغرتها هيئتي إذ حسبت أن ذلك منى إعجاب صامت بعث في الدهول من جمالها وحسنها ، فوقفت صامته في هيئة مسرحية تمثل الحجل المصطنع والدّل الزائف ؛ وظلت الحال كذلك حتى ثبتت إلى نفسى . كان أول ما خطر ببالى هو أن أخلص منها ؛ ولكن كيف أفعل دون أن أخدش كرامتها وأجرح غزتها؟ كان عقلى يعمل بسرعة في انتحال عذر مقبول . ولكن قبل أن أهتدى إلى شيء ، سمعت صوت عربية تقف بالباب ، ثم سمعت صوت المفتاح وهو يدار في القفل ، ثم حفيف ثوب من حرير ، ثم خطوات خفيفة تصعد السلم .

لقد بكرت زوجى بالعودة كما وعدت . وأقبلت خطواتها نحو غرفة الاستقبال ، وهمت يدها بإدارة مقبض الباب ...

وكف عن الحديث ثم أطل من النافذة . كان القطار قد وقف منذ لحظات دون أن نحس به . قال الرجل في دهشة :

— « هال ها » لقد بلغت طيقي . وقفز من القطار عندما تحرك ثانية يواصل السفر

ولم أراه مطلقاً منذ ذلك الحين . وأحسبني لن أراه أبداً ، لذلك سأظل طوال حياتى أكدح ذهنى في تصوير ما حدث له عند ما انفتح الباب

محمد عبد الفتاح محمد

فقد كان الأمر جد خطير . وكان لا مندوحة عن الذهاب بها إلى البيت . وتسالت إلى الخارج بنفسى أبحث عن المركبة ، إذ خشيت أن يعلن اسمى أمامها وأمرت الحوذى بالعود إلى البيت بينما كنت أساعدها على الركوب .

ولشد ما خشيت أن تنبته إلى حقيقتى في ذلك الحفل العام . وكأنما مرّ دهر طويل على بدء تحرك العربى في طريق الرجعة إلى البيت .

ابتعدنا عن جلبة الحفل وضجيجهِ ولكنى ظلت صامتاً بضع دقائق حتى بدأت تنازحنى كرة أخرى حول وجوى واكتئابى، وارتعت على مجسدها؛ ولست أدري أكان ذلك لاهتزاز المركبة أم عن فجور منها وفسق . على كل حال ، فقد طوقت خصرها بذراعى فلم تعترض ، بل سألتنى وقد اقتربنا من طينتنا :
— أين تقيم ؟ إن هذه الشوارع جد متشابهة ولا أستطيع بحال أن أعرف أين نحن الآن .
— على أية حال لقد وصلنا .

ووقفت المركبة فساعدتها على النزول ثم فتحت الباب الخارجى بمفتاحى ، ودلفنا إلى الردهة حيث كان الضوء خافتاً ضئيلاً . فأمسكت بيدها وقدمتها إلى غرفة الاستقبال ، وكان الظلام يطمئن في جو الحجرة ، بيد أنى بددته بأن أشعلت السراج ، ثم واجهتها، فرأيتها تضحك عالياً، ولكنها بدت كأنها لم تعرف أين هى !

قلت بلهجة شديدة :

— الآن قلترفع اللثام يا سيدتى

وما ترددت ، بل أماطت لثامها ونضت عنها ثوب الدومينو .

فشهقت شهقة حادة وجحظت عيناى حتى كادتا تقفران من عجزيهما .

— (نظرة عملة) ثوب الأنسة

إيليان ؟ نعم يا سيدتى . لقد عملت فيه أنا وعمتى حتى أنهيناها برغم الأعمال المزدحمة لدينا الآن ، وقد أمرتني أن أسلمه إليك — (أخذت العلبة) — نعماً

صنعت عممتك . إن باستطاعة إيليان

أن ترديه الآن حالاً (تدخل إيليان من ناحية اليمين بيزة حسنة ولباس بسيط متواضع) هاهى خذى قد أتت (تخاطبها) أيتها الأنسة خذى ثوبك الجميل

إيليان (فرحة) — ما أسعد حلى... هاتيه حالاً يا أمى... أرجو أن يكون ملائماً لى

بوليت — لا تخرج الأبواب من بين يدي مدام بوفيت إلا حسنة وملائمة دائماً

إيليان — حسن ، سأرديه باعتناء وسأبدو به كأننى إحدى نجوم السينما (تخرج من ناحية اليمين) مدام إيدوان (تخاطب بوليت) — تفضلى بالجلوس قليلاً

بوليت (تجلس) — إن أجتلك ظريفة جداً

— إنها ليست ابنتى

— سمعتها تدعوك أمها

— إنها تدعونى أمها منذ أن تسلمها من لجنة المساعدة العامة

— المساعدة العامة ؟

— أجل ، وضعت عندى منذ أن كانت رضيعة وكل الناس يعرفونها عندى ، ألم توضح لك مدام بوفيت الأمر ؟

— كلا، إنها تعمل بسرعة لإتمام الثياب وليس لديها وقت للكلام ، ولولا ذلك لحدثتني ... إذن فالآنسة إيليان ؟

فراوانى

للكاتبين : مارك صونال وجورج مونتيالك
بقلم الأستاذ ناجى الطنطاوى

الروايتان : مدام إيدوان ٣٥ سنة ، إيليان ١٦ سنة ، الكونتس ميرفيل ٤٠ سنة ، بوليت ٢٠ سنة . في العهد الحاضر قرب بلدة تور الفرنسية ، غرفة ذات أثاث بسيط ، باب في منتهى الغرفة وبابان آخران على طرفي الممرح .. إلى اليسار تظهر أريكة ومنضدة شغل .. إلى اليمين مقاعد وأرائك .

المشهد الأول

مدام إيدوان — ثم بوليت — ثم إيليان

عند رفع الستار تظهر مدام إيدوان وهي ترين قبعة جميلة بشرطة زاهية . سكون وضعت ، تنظر إلى الساعة في يدها لتعرف الوقت

مدام إيدوان — الساعة الآن تبلغ الثانية والنصف ... ستم قبعة إيليان عند ما تستيقظ من قيلولتها (تنهد) بعد أيام ثمانية في مثل هذه الساعة (تسلم للعقد) يجب علينا أن نوطن أنفسنا على تحمل ما لا مفر منه (يرن الجرس في داخل الغرفة) من ذا يا ترى ؟ إننى لا أنتظر زيارة أحد الآن (تذهب لفتح الباب)

(صوت بوليت في الزدمة) — هل أنا الآن بحضرة مدام إيدوان ؟

— أجل يا سيدتى ، تفضلى بالدخول

بوليت (تدخل) — إننى قادمة من دار عمتى مدام بوفيت

— الخياطة ؟ حسن ، هل أتيت بالثوب ؟

— ما هي إلا يتيمة أتتني من لجنة المساعدة العامة ، وأنا كما تعرفين يدعونني بالرضعة — فهمت ...

— إن بي ميلاً شديداً إلى الأطفال وليس عندي أي طفل . كان زوجي قد سبقني إلى فكرة تبني الأطفال ، فأودعوا عندنا حسب طلبه طفلاً كان أصله مجهولاً لم نستطع معرفته . ولقد سألناه فما أجدي سؤالنا إذ أنه لا يذكر شيئاً ، وقد نشأ هذا الطفل شديد الذكاء طول حياة زوجي ، وبعد وفاة زوجي لم يعد في إمكانني أن أشرف على تربيته فأصبح كثير الشغب وحقاً سفيهاً قاسياً محطاً كل شيء ، عاصياً كل أمر — يعلم الله ما أصله —

— فأدركت أن في ذلك خطراً علي ، وبعد عدة حوادث رهيبية حدثت لي معه وأبقت له في ذاكرتي صورة غير حسنة ، طلبت استبدال بنت صغيرة به — ألم تخاف أن تنشأ البنت كالولد ؟

— كنت أشعر برغبة ماسة لأن أرى بقربي مخلوقاً يودني وأوده ، طفلاً أهبه قلبي وأربيه وأعني به حتى أراه ينمو ويكبر أمام ناظري ، وأنا أعلم أن التجربة التي قمت بها لم تكن ذات نتيجة حسنة ولكن خسارتي ستكون أقل مع طفلة صغيرة ، وسيكون تدريبها وتهذيبها أسهل علي ... ولقد أصبت في ظني إذ أنني وجدت في إيليان الحبيبة الطفلة التي كنت أنشد لها بل وجدتها أسمى مما كنت أتخيل ... كانت سنها عند ما عهد بها إلي أربعة أعوام ، وهي تبلغ الآن من العمر ستة عشر عاماً ، لقد قضيت بقربها اثنتي عشرة سنة كلها مسرة وسعادة وجور

— ويمدولي أنها من أيضاً تكن لك من الحب مثل ذلك

— نعم لأنها تحبني كثيراً (تضطرب) وبعد ثمانية أيام علي الأ كتر سرت ... — يد ثمانية أيام ؟

— ستترك منزلي وهو منزلي لتذهب ... — إلى أين ؟

— ستذهب لتقطن قصر ريكور وهو علي بعد ثلاثين كيلومتراً من هنا — مستخدمة ؟

— كلا ، إنها تتركني إذ لا يحق لي — حسب القانون — أن أبقها عندي ما دمت أحيا هذه الحياة البسيطة ، فلقد قدست لها ثروة كبرى وعرضت عليها حياة نفحة

— إنني لا أفهم ما فتيت — أعني أن الكونتس مرفيل هي مالكة قصر ريكور ، وهي أرملة ليس لها أولاد مثلي ، طلبت مني أن أكون بقربها وأن أتبنى إيليان شرعاً

— مادامت المسألة مسألة ثروة فباستطاعتك .. — كلاً لا أريد . إنني لم أبلغ بعد السن المخصصة للتبني ، ولا أملك المال الكافي لأنفق علي إيليان حسب رغبة اللجنة وتعليماتها ، ولم يعد هناك مجال للمفاضلة بين حياتي التواضعة البسيطة وحياة الكونتس الفخمة الثرية

— لا ريب في ذلك

— ومن أجل هذا ستأتي الكونتس مرفيل بعد أيام ثمانية لتأخذ إيليان وتدعني وحدي في هذه الدار أرى ببني آثار إيليان وذكرياتها دون أن أستطيع عمل شيء (تدفئ يديها من عيها لتسحبها

(من الدموع) أستميحك عذراً . إن هذا ليس من اللياقة ...

— لا تقولى هذا يا مدام إيدوان ... أتظنين أن البكاء من فرط الألم ليس من اللياقة ؟ ولكن أما كنت تعاملينها معاملة حسنة وتعطفين عليها ؟ يجب أن يخفف هذا من ألمك ، ويجب أن يعزيك علمك أنها مسرورة وسعيدة عند الكونتس

— صحيح ولكن ... (متأله) ذهبت إيليان لتتلقى دراستها الابتدائية في مدينة تور ، وفي دار إحدى صديقاتي اجتمعت بالكونتس فشعرت هذه نحوها بم عاطفة قوية وذكرتها بابنتها الوحيدة التي ماتت منذ ست سنوات ... وبعد أيام قلائل زارتني ، لتعرض على مشروعيها في التبنى وهو حقها الذي يخولها إياه القانون ، فلم أستطع أن أقابل ذلك إلا بالخضوع والتسليم ، وأنا أفكر في مستقبل إيليان ومستقبل بعد إيليان ...

(تدخل إيليان مرتدية ثوبها الجديد وهو على أحدث زى ومخيط باعتماد ودقة)

إيليان (تسلم وهي ضاحكة) — أقدم لكما نفسى إننى إحدى نجوم السينما !

مدام إيدوان (تنظر إليها) — حسن جداً وموافق ... ألتفتى يا ابنتى ، إن هذا الثوب ذو جمال باهر (تغامب بوليت) أرجو أن تبلى شكرى مدام بوفيت وتهنئتي على نجاحها في الخياطة

بوليت (وهي تهضر) — سأبلغها ذلك وأعتقد أنها ستسر

إيليان — خبريها أن الحزام طويل

بوليت — لا خير ، سأصلحه لك الآن في بضع دقائق

مدام إيدوان — (تشير يدها إلى منضدة الشغل) تجدين هناك كل ما يلزمك ... سأتركك قليلاً تهبة طعام الغداء (تخرج من اليسار)

المشهد الثانى

إيليان — بوليت

إيليان — أأزع الثوب ؟

بوليت — لا حاجة لذلك فإن العمل لن يطول (تأخذ خيطاً وإبرة وتبدأ العمل)

إيليان — لا تسرعى بالعمل فإننى لست مستعجلة وأرجو أن يعود الحزام ملائماً .

— سيكون ملائماً وعلى حسب رغبتك .

— (تتأمل الثوب) أراه قاتناً أليس كذلك ؟

— جيد ، سيمثلوك طرباً وابتهاجاً ، حقاً إنه من ثياب القصور !

— آه ... أحدثتك أمة بشيء ؟

— قالت لى إنك ذاهبة بعد ثمانية أيام لتسكنى قصر بريكور .

— نعم ، وإنه جميل جداً ... لقد تناولت فيه طعام الغداء مرتين . إنه قصر ساحر ، فيه روضة كأنها إحدى روضات قرساي

بوليت — (بسذاجة) وفيه مياه كثيرة ؟

— يمكن أن يكون كثير الماء . لم يكن لدى الوقت الكافى لأرى كل ما فيه .

— إن حظك عظيم .

إيليان (بابتهاج) — أليس كذلك يا عزيزتى ؟ لقد رأيت غرفتى فيه ، إنها فاخرة : نافذتان كبيرتان وقطعة من الديباج ملأى بالورود ، وسرير جميل مذهب ، وآرائك بفصوص الجالس فيها ، ومنضدة من الخشب الثمين ، وأخرى للزينة ، و... و... ماذا أحدثك !

بدأته هذا الصباح (تخرج من اليمين ، وتخرج بوليت
من أقصى الغرفة . وتدخل مدام إيدوان من اليسار)

المشهد الثالث

مدام إيدوان — بوليت

مدام إيدوان — (نظن أن إيليان موجودة) لقد
سمعت الجرس يرن مرتين

بوليت — (داخلة) مدام الكونتس مرقييل

مدان إيدوان — (في ذهول) مدام مرقييل ؟

وفي هذا اليوم ؟

بوليت — (بصوت منخفض) يمكن أن تكون
هناك بعض تبديلات في القصر .

— أدخلها بصورة لبقة وباحترام

بوليت — (خارجة) هل تفضل سيدتي
الكونتس بالدخول .

(تخفي بوليت وتدخل الكونتس وهي امرأة في الأربعين
من عمرها ، ذات مظهر أرستقراطي قليلا ، تتجافى في أول
الأمس)

المشهد الرابع

مدام إيدوان — الكونتس

مدام إيدوان — (في دهشة وتحفظ) تفضلي
بالدخول يا مدام كونتس

الكونتس — أنعمى صباحاً يا سيدتي العزيزة ،
— يديولى ألك دهشت لرؤيتي .

— نعم ، أعترف بذلك (تقدم لها أريكة)

— (تجلس) لماذا دهشت ؟

— (تواصل كلامها) ذلك لأنك أتيت اليوم ...

يمكن أن ... تكوني عدلت عن مشروعك

— عدلت ؟

— نعم عن مشروعك

— ما أجل هذا القصر !

— وفي الروضة بركة بها قارب أخضر اللون

— هل تحسنين التجديف ؟

— كلا ، ولكني سأتعلمه (تلعب يديها) كم

يسليني هذا !

— أكل ذلك بعد ثمانية أيام ؟

— نعم .

بوليت (وقد أتمت عملها) دونك الحزام فالبسيه

إيليان (تضع الحزام) — موافق جداً ، أشكرك

حقاً إن هذا الثوب جميل ... أراني مضطرة للصعود
على درجات القصر بتؤدة كيلا يفسد

— سيكون تحت إمرتك خادمة بلا ريب

إيليان (مسرورة) — طبعاً (تمثل دوراً هزلياً)

هل عادت مدام مرقييل من زيارتها للكاهن أيتها الخادمة ؟

بوليت (تمثل دور الخادمة) — إن سيدتي

الكونتس عادت يا آنسة —

— خبريها أنني في غرفتي

— أمرك يا آنسة

— سأنزل لأراها بعد قليل .

— أمرك يا آنسة (تنفجران من الضحك ، ويسمع

رنين الجرس من الداخل)

إيليان — ألا تسمعين الجرس يرن ؟

— إحدى الزائرات ولا ريب .

— يمكن أن تكون الزائرة ثقيلة . ماذا يحدث

إذا رفضنا أن نفتح ؟ ولكن لا ، إن أمي لا ترضى

بذلك (يرن الجرس ثانية)

— لا تبدلي شيئاً ، سأفتح الباب ، وسأعلم

مدام إيدوان .

— أصبت ، وأنا ذاهبة إلى غرفتي لأنهم كتاباً

— أى عن تبنى إيليان ؟

— نعم

— كلا ياسيدتى العزيزة ... لقد نضج مشروعى
بعد أن فكرت فيه طويلاً ، ولقد تمت كل المعدات
ولم يعد هناك أى داع للمدول
— (بحزن) آه ، حقاً أن ...

— سأشرح لك بكل بساطة سبب زيارتي الآن
قبل أن آتى إلى هنا . كنت فى زيارة المرأة التى علمت
إيليان حتى خرجتها ، وقد زرتها حسب وعد
قطعته لها إثر كتاب عاطفى أمانى منها ، ولما خرجت
من عندها عزممت على أن آخذ إيليان معى اليوم دون
أن أكون بحاجة للعودة بعد ثمانية أيام
— (بحزن) اليوم ؟

— كيف صحة الطفلة ؟ (مدام ابدوان لا تجيب)
سألتك هل صحتها جيدة ؟

— (تمتلك عواطفها قليلاً) نعم يا سيدتى

— هل تنام القيلولة بعد كل غداء ؟

— دائماً

— حسن ، هل فكرت فى تصويرها ؟

— نعم ، وإن صورتها الآن عند صانع الأطر

— هل نجح التصوير ؟

— نعم

— ستبقى لك هذه الصورة ذكرى جميلة ،

وستعطيني طبعاً تكاليف التصوير

— كلا ياسيدتى إننى لست غنية وأنت تعرفين

ذلك

— حسن إذا كان هذا يسرك فلست أدرى

لماذا أريد أن أعارضك به ، ولكنك قلت لى ذلك

بلهجة معادية قليلاً

— معادية ؟ كلا ياسيدتى ... إن لمحتى كانت

حزينة جداً

— ذلك لأننى أتيت قبل مضى ثمانية أيام ،

ولا أراك تصافينى الود

— سواء صافيتك أم لم أضافك إن هذا لا يبدل

شيئاً ... أرجو أن تعلمى أننى أعد هذه الأيام الثمانية

دقيقة بعد أخرى ... وأراك اليوم بحاجة تقولين إنك

ستأخذينها (تخفض صوتها) وتوحين إلى بصورة غير

إرادية أنك آتية لتسرقها !

— (مالكة زمام نفسها) ولكنك يا سيدتى

العزيزة قد نسيت أن القانون كان باستطاعته أن

يسرقها - على حد تعبيرك - منذ ثلاثة أعوام لكى

يضعها تحت التمرين ويسمح لها بأن تعيش حرة .

فأنت إذن قد ربحت أموال ثلاث سنين وهى أكثر

من ثمانية أيام فيما أظن !

— إننى لآن أناقشك فى هذا الموضوع الذى

يؤلمنى ، بل أبقى ألى فى شغاف قلبى

— لقد كانت دهشتك أقل منها الآن عندما

أتيت أعرض عليك مشروعى ، أذكركن ؟

— هذا صحيح ، لم أكن أنظر إلا لسعادة

إيليان التى عزممت على أن تضمنى لها مستقبلها ، ولكن

تبقى أن هناك قلب أم حنون يتلوى من الألم ، لقد

قلت ذلك قبل ساعة لابنة عمتى مدام بوفيت

— مدام بوفيت ؟

— نعم الخياطة التى صنعت ثوب إيليان الجديد

— (رأت موضوعاً تتكلم فيه) هل انتهى الثوب

هل رأيته جميلاً ؟ كيف بدت فيه ؟ أجيبينى بسرعة !

— لقد اتبعوا فيه تعليماتك (صمت) آه لو أننى

تنهت إلى نفسي ، إنني منذ اثنتي عشرة سنة أنتظر
حزناً عميقاً .

— ألا تفكرين في امتلاك البنت وتبنيها ؟

— كلا .

— أما أنا فأقول لك يجب أن تقول نعم لأنك
منذ اثنتي عشرة سنة تشربين بالفرح لوجود هذه
الطفلة إلى جانبك ، وإنك مصيبة في ذلك لأن هذا
الفرح أشمر به أنا أيضاً عندما أكون أما دون أن
أفكر في الألم الذي سيحدثه لي فقدان ابنتي التي أحبها
حب العبادة .

— إنني لم أكن أبداً أما ، ومع ذلك فإنني
أفقد اليوم ابنة لي في الوقت الذي تجدني فيه أنت
ابنة . إنني لا أحسد أحداً ، ولكنني لا أستطيع
أيضاً أن أمنع نفسي من التألم والحزن لحياتي الفقيرة
التي لا تسمح لي باستبقاء إيليان

— حياتك الفقيرة ... ؟ إنك تعالين

— كلا . إنني أقول الحقيقة !

— سيدتي العزيزة ، إنني أكون تحت تصرفك
إذا ...

— (بلا جفوة) أواه يا سيدتي ، إنني لا أطلب
صدقة ، ولقد أردت فقط أن أقول إن دخل لو كان
كافياً للدرجة التي يطلبونها ، لم أتردد قط في استبقاء
إيليان ، إن الحظ يكون في بعض الأحيان رهيباً
— لقد كان رهيباً لي قديماً عندما أفقدت ابنتي .

إننا لا نستطيع إلا أن ننحن أمامه كبيراً وصغيراً .
إن أوامر الله ومقدراته نافذة على الجميع (تدخل إيليان
حاملة يدها كتاباً ، ويدعو عليها السرور) هذه هي
الطفلة العزيزة

المشهد الخامس

مدام إيدوان — الكونتس — إيليان

إيليان — سيدتي الكونتس ؟ لشد ما أنتظرك !

مدام إيدوان (بحماس) — أنظري إلى ثوبها !

الكونتس — (بعد أن تماقت إيليان وتقبل جبينها) :

— جميل جداً ، لقد زادك جمالاً

إيليان — أرايت ياسيديتي ؟ إن أمي قد أحسنت

بإعطائه للخياطة (تخاطب مدام إيدوان) سأقرأ لك

الكتاب الذي انتهيت الآن من كتابته لأرسله إلى

أليس فاينيه (تخاطب الكونتس) : هل تسمحين

ياسيديتي ؟

الكونتس (ضاحكة) — أسمح

إيليان (تقرأ بصوت مرتفع) — « أعذريني

يا عزيزتي أليس إذا تأخرت في إجابتي على كتابك

الأخير الذي تسألينني فيه عن الحادث الجديد بانتقال

إلى قصر بريكور الذي وصفته لك »

الكونتس — (مستحسنة) جيد جداً

إيليان (تتابع قراءتها) — « هذه الحياة الجديدة

بكل معنى الكلمة توقظ في في هذه اللحظة أفرأخاً

ليست كلها صبيانية ، ولكنها مع الأسف متبوعة

بلحظات ألم . ذلك عند ما أفكر في الذكريات التي

سأتركها في هذه الدار التي عشت فيها سعيدة بقرب

التي وهبتني خالص حبها دون أن تعرف عني شيئاً ،

كما تحب الأم الحنون ابنها الوحيد ، وأظهرت لي

من العطف والود ما لا يفهمه شكر »

مدام إيدوان (تفرق بالدموع) — إيليان !

إيليان (تم) — « إنني أشعر أن ذكرى

هذه الأعوام ستبقى منقوشة في أعماق قوادي .

ثم إنك تعلمين يا عزيزتي أليس أنني لن أغادر هذا

السكان دون أن أشعر بحزن قاتل « (تطوى الكتاب وتغالب الكونتس) أظنك فهمت عواطفى يا سيدتى الكونتس — (بهشة) نعم . نعم . ولكن ما الوسيلة لحل مقبول ؟

مدام إيدوان (تمسح دموعها) — إننى أشكر يا إيليان من أعماق قلبي إيليان — بل أنا التى يجب على أن أقدم لك شكرى الجرم بعد ثمانية أيام مدام إيدوان — لم يبق هناك ثمانية أيام وأسفاه — كيف ذلك ؟

— إن مدام مرفيل قادمة لتأخذك معها — (فزعة) اليوم ؟

الكونتس — نعم يا ابنتى العزيزة إيليان — هكذا فجأة ؟

الكونتس (بهدوء) — نعم . لقد وضحت السبب لمدام إيدوان

إيليان (بعد صمت قصير) — إذن أنا متهيئة للذهاب معك يا سيدتى

الكونتس — لا تتعجل يا ابنتى ، لن نذهب الآن ...

إيليان — ماذا يجب أن أدعوك منذ الآن ؟

الكونتس — بوسعك أن تدعينى بكلمة قصيرة وجيدة : ماما

إيليان (تضطرب) — ماما ؟

الكونتس — نعم ماما ، إذا أننى احتلت مكان ...

إيليان (صائحة بحزن) — كلا ، إن هذا لن يكون

(ترغى على عنى مدام إيدوان) ماما ، ماما

مدام إيدوان (تضمها) — يا عزيزتى

إيليان — لا أريد أن أتركك ، استبقينى عندك

مدام إيدوان — لشد ما أود ذلك ، ولكنك تعلمين جيداً أن هذا غير ممكن الآن . الكونتس (تخاطب إيليان) — إننى أشاطرك حزنك يا إيليان (تهدئها بعطف) ولكن يجب على أن أذكرك أن أمر مستقبلك قد وكل إلى وأنا مضطرة لتأمين سعادتك ، وثقى أننى لن أرد لك طلباً . إمسحى عينيك يا ابنتى العزيزة واذهبى لتتهينى ، وسأبقى مع مدام إيدوان (تأخذها نحو اليمين) حالاً يا ابنتى إيليان حالاً (تخرج إيليان)

المشهد السادس

مدام إيدوان — الكونتس — ثم إيليان

مدام إيدوان — أرجو أن تعذر بها

الكونتس — بل إننى أستحسن ذلك منها

— إننى أخاف أن ...

— لقد عجبت لصيحتها

— إن ذلك شيء طبيعى فى فراق كهذا ، إذا أننا سنفترق لغير لقاء .

— فكرة جميلة . إنك ستريتنا غالباً هنا أيضاً .

سأتى بها إليك كل وقت أستطيع فيه ذلك بالسيارة

— يمكن ذلك فى الشهر الأول .

والثانى أيضاً وكل الأشهر التالية ، لم لا ؟

— لأن الزمن يسير ، ويأتى معه النسيان .

إننى لا أشك أبداً فى عاطفتك الحسنة ولكننى أخاف .

لقد عشنا معاً اثنتى عشرة سنة ، الواحدة منا قرب

الأخرى . إنك ستأتين بها ، هذا صحيح ولكنها ستأتى

زائرة ثم إنها ستنسأنى ، وأنا أيضاً سأنسأها بحكم العادة

الكونتس (تفكر) — إلا إذا ...

مدام إيدوان — ماذا قلت ؟

— قلت ، إلا إذا

— بامتنان (ترتدى بين ذراعى الكونتس المدودتين ، تدخل إيليان)
 إيليان — لقد تهيأت ، لا ينقصنى إلا قبعتى
 (تأخذ القبعة من على المنضدة وتلبسها)
 الكونتس — أأنا ذاهبة لأرى المائق (تخرج من أقصى الغرفة)
 إيليان — إننى لست واهمة ، لما دخلت رأيتك
 تماثين الكونتس
 — (مسرورة) كلا، إنك لست واهمة يا عزيزتى
 إن مدام مرفيل طيبة القلب وكريمة ورجيمة
 — نحوى . أما نحوك ؟
 — نحوى أيضاً إذ ستأخذنى معها
 — إلى قصر بريكور ؟
 — إلى قصر بريكور لأساعدنها فى إدارة الدار
 وسأكون معك منذ أن أنقل أثابى من هنا فى
 وقت قصير
 إيليان — أأنا أحلم ؟
 — إياك لا تحلمين يا ابنتى . سترى كل منا
 الأخرى كما كنا هنا تماماً
 — (مسرورة) : كم أنا فرحة ومسرورة !
 الكونتس — (تظهر) سيؤخذ الأثاث إلى
 غرفتك فى القصر يا عزيزتى وسنذهب معاً
 — لقد قالت لى أمى كل شىء ... إننى سعيدة
 جداً ، وأشعر بنحوك بحب عظيم
 الكونتس (تأخذ بيدها بحنو) — لقد أصبتُ
 فيما فعلت ، أسرعى الآن (تخرج)
 إيليان — (ترجع إلى مدام ليدوا فرحة) سادعوها
 أمى إذا أردت ، ولكن أنت لا أدعوك إلا ماما ...
 دائماً ماما
 (دمق)
 نأبى الطنطاري

— (يظهر لها بريق أمل) إلا إذا ؟
 — هناك ... من الممكن ... وسيلة ؟
 — أية وسيلة ؟
 — إننى أفكر ... ليس بعيداً عن بريكور ...
 لى صديقة عزيزة ذات قلب رحيم ... أستطيع
 أن أطلب إليها ... إنك تبيعين أقمشة جيدة
 أليس كذلك ؟
 — بقدر المستطاع .
 — (تريها القبعة التى نسقتها مدام ليدوا)
 وهى راقية .. أنظري قبعة إيليان الجميلة هذه ، إنها
 خرجت من عندك كما أظن ...
 — نعم .
 إذا طلبت من صديقتى أن تأخذك لتبى الأقمشة
 عندها وتلاحظى الخدم وما يتطلب المنزل ، أرضين ؟
 — إذا كان وجودى لديها يسمح لى برؤية
 إيليان بسهولة وفى غالب الأحيان فإننى أوافق
 — إذن مسترकिन هذه الدار وتنقلين إلى
 صديقتك ... وسترى إيليان متى شئت
 — أذهب من هنا ؟ إننى مستعدة لذلك ،
 ولكن هل لى أن أسألك ...
 — عن اسم هذه الصديقة ؟ هل قبلت ؟
 — نعم وبامتنان عظيم ولكن ما اسمها ؟
 — احزرى
 — لا أستطيع
 — (ضاحكة) تدعى الكونتس مرفيل
 — (بفرح زائد) أنت يا سيدتى ؟
 — (ضاحكة) نعم أنا بكل بساطة
 — (بفرح عظيم) أستطيع أن أرى إيليان
 دائماً ؟ اسمح لى أن أعاقبك ؟

خاتمة بابنا إصفيه ثاني

للكاتب الأعليّ جهر مؤيد
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(تمة)

وكان السفير الإنكليزي قد وصل إلى طهران قبل وصولنا إليها بضعه أيام واستقبل بأعظم ما يمكن أن يستقبل به كلب من كلاب النصارى لدى خليفة رسول الله . وأثار الاحتفال به ضجة في المدينة وصرح بعض كبار علمائنا بأننا قد ارتكبنا بعض الإثم باحتفالنا بكافر هذا الاحتفال العظيم وأنا سنعذب من أجل ذلك يوم الحساب عذاباً أليماً وذهبت الدبائح من عجول وأبقار تحت حوافر خيل السفير الإنكليزي ، ونثرت الأزهار في كثير من الطرق ، وسمح له بأن يدق رجاله الطبل يوم دخولهم المدينة ، وهذا لعمري فضل كبير لم ينله أحد غير أمراء إيران

ثم بدأت الضيافة كأحسن ما يمكن أن تكون فأعد خان كبير لنزول السفير ، وفرشت الأوسطة الثمينة ، وأخذنا من الجيران ما احتاج إليه الخان وألحقنا به حديقة بديمة . وأمر خازن المال الأعظم بإطعام السفير ومن معه من يث المال ما أرادوا الإقامة في المدينة وأرسلت الملابس والشيالان بعد أن جمعت من رجال الحكومة إلى السفير . وأعلن الشاه في جميع المدينة أن السفير ومنعته في ضيافة جلالتهم الخاصة فلم يكن ، والحالة هذه ، بد من ملاطفة هؤلاء الأغراب والاحتفاء بهم خشية غضب الشاه

ويمكن أن يقال إن كل هذه التعطفات كانت أكثر مما يجب للترحيب بهؤلاء الكفار وإكرامهم ومنحهم وسائل الراحة ولكن حين حل موعد الرسميات نشأت صعوبة مهمة الأسباب دلت على جمود هؤلاء الضيوف ونكرانهم للفضل ، وكان السفير أكثر خلق الله جموداً وعناداً ، فأولاً عند ما مثل بين يدي الشاه أبي أن يجلس على الأرض وطلب كرسيًا يجلس عليه فأحضر له كرسي وضع في مكان بعيد عن العرش . وثاني الأمور التي دلت على عناد السفير مسألة الحذاء فلم يقبل ذلك الكافر أن يخلع نعليه أو أن يلبس جواربنا الحمراء . وثالث الأمور أن السفير أبدى رغبته في رفع قبعته عن رأسه أثناء انحنائه أمام الشاه رغم محاولتنا إقناعه أنه ليس من الأدب أن يكشف رأسه . ثم نشأت عن اللباس مشكلة كبرى ، فقد كانت أعدت للسفير ورجاله ملابس يرتدونها تغطي جميع أجسامهم فيمكنهم بها أن يظهروا أمام الشاه بمظهر لائق ، وأعلن ذلك للسفير فأباه إباء شديداً وقال : إنه سيظهر أمام الشاه الفارسي بما تعود أن يظهر به أمام ملكه الإنكليزي من الثياب

ظهرت هذه المشكلة عسيرة الحل إذ لم يحدث أن أحد الفارسيين وجد يوماً في بلاط ملك من الملوك الأجانب ليعرف الملابس الواجب ارتداؤها أمامه . ففى وسع السفير ما دمنا نجعل عادات بلاده أن يرتدى ثياب نومه ! ويقابل بها الشاه إذا أراد . غير أنني فكرت ملياً في الأمر فتذكرت أن من بين الصور الموجودة في القصر ذى الأربعين عموداً في أصفهان توجد صور بعض الأوربيين الذين كانوا

يفدون على الشاه عباس الكبير وبينهم من أقام في المدينة

وتذكرت أن بين الصور صورة ظهر فيها نفس الشاه عباس فلا شك أن الثياب التي تمثلها تلك الصورة والتي ارتداها الأرييون أمام الشاه عباس هي الثياب الواجب أن يرتديها كل أوربي أمام رأس متوج

فأسرعت بإخبار رئيسي بما رأيت . ونقل هو حديثي إلى الوزير الأكبر وهذا أمر بأخذ نموذج من تلك الصورة بواسطة أمير صناع أصفهان في أقرب وقت ممكن . وعند ما وصلت الصورة إلى طهران أرسلناها إلى السفير الإنكليزي وقلنا له : إن الشاه قبل أن يراه في ثيابه التي اعتاد السفراء لبسها في البلاط الفارسي ، وإن نموذجاً منها مرسل إليه ليرتدى هو ورجاله على مثاله وليقابلوا الشاه بهذا الزي . ولم يكذ الأشقياء الملاعين أن يروا الرسم ويسمعوا خطابنا حتى علا ضحكهم وكثر صياحهم بشكل لا يمكن وصفه ، ثم قالوا لنا : « إننا لن نضع هذه الثياب على أجسامنا » . وأصرروا على البقاء بزيهم المعتاد واضطرونا أخيراً إلى الإذعان لرغبتهم ساد السكون والهدوء بين القوم الذين حضروا اجتماع السفير بالشاه بشكل لم يكن ينتظر من قوم جهلاء لم يتمدينوا ، وعجبنا ودهشنا من قوم هذه حالهم من الجهل بأحوال العالم ثم يستطيعون ضبط شعورهم والسيطرة على إرادتهم في مثل هذا الاجتماع فلا يحدث فيه ما يكر الصفو

وجلس الشاه على عرش من ذهب وعليه حلة مزركشة بالياقوت والأحجار الكريمة ذات البريق الذي يخطف الأبصار والوميض الذي يبهير الأنظار

وجعلت رعيته تصيح : « من حشيد ؟ من دارا ومن أنوشروان أمام شاهنا العظيم الجالس على العرش ؟ »

ووقف الأمراء على يمين العرش وعلى يساره فكانوا أبهى وأجل من الأحجار التي تتألق على حلة أبيهم ، ووقف على مسافة من العرش وزراء الملكة الثلاثة ورجال الحكمة وأصحاب المشورة ، واصطف غلمان الشاه من كل أصبح الوجه أسود الطرف معتدل القد أمام الحائط يحملون تيجاناً في أيديهم فكانوا كالملائك يحملون الأنجم الزاهرة ليرسموا بها قبة السماء

وأخذ الفرج مقاعدهم في وسط الجمع وأخذتهم في أرجلهم وعليهم أرديتهم التي ترتفع إلى خصورهم وذقونهم حلقة فكانوا كالطير الذيح المجرد من ريشه أو القردة الربضة التي تساقط شعرها أو أي شيء آخر خلا بني آدم إذا وازنتهم بمن حولهم من السادة الأتجاد ، وقد تجلدوا وتماسكوا فلم يرههم هول الموقف ولم يزعمهم وجود الملك حتى خلنا أنهم مثلنا نباتاً وجلداً في هذه المواقف

تكلم السفير الإنكليزي فعدد مناقب الذين يمثلهم ، تكلم على مثال لهجة قومه وعاداتهم في الكلام فلم يجمل من لفظه ولم يحسن من قوله ، ولولا حذق المترجم وذكرؤه لما لقب الشاه فيما نقل إلينا من حديث السفير بملك الملوك وقبلة العالم

وإني لأحاول مستحيلاً إذا حاولت أن أصف ما بين أخلاق القوم وأخلاقنا وعاداتهم وعاداتنا من الفوارق التي لا تحصى والفارقات العديدة ، وحاول بعض فلاسفتنا أن يلموا بشيء منها أو يدرکوا مبادئ القوم فعزوها إلى أن مناخ بلادهم قائم رطب وإلى (٧)

أن الشمس لا تظهر على ربوعها : « كيف يمكن أن يشبه قوم يحيط بهم المياه ولا يشعرون بحرارة الشمس قوماً لا يمر بهم يوم لا ينعمون فيه بأشعة الشمس ويكادون لا يعرفون ما هو البحر — غير أن العامة أرضاهم وأقنعهم قول بعضهم : « إن كفر القوم وجحودهم أنزلا عليهم اللعنة حتى في دنياهم، ولو أسلم السفير وأتباعه وأمتة أيضاً واعتنقوا الدين الصحيح لتغيروا جميعاً في لحظة عين وأصبحوا مثلنا ولزال عنهم ما هم فيه من نجاسة وأقذار ولكان ما لهم الجنة في الآخرة يوم يسكنها الله عباده الصالحين

الفصل الثامن والسبعون

هاجى بابا تلحظ غناية كبير الوزراء

كان ما تقدم مساعداً لى على التقدم مميماً على النجاح فقد عهد إلى بمعظم ما يتعلق بالأوربيين في فارس من الأعمال نظراً لما ظن في من العلم بأوروبا والخبرة بشئونها وأدى ذلك إلى أن أصبح معروفاً عند كبير الوزراء وزملائه الوزراء وذوى النفوذ والقوة في الدولة

ولم يكن ميرزا فيروز صاحب ثروة، وانقطع عنه ما كان يعطى له نظير قيامه بأمور الدولة بعد عودته إلى طهران فلم يستطع وهذا أمره أن يمدنى بما أحتاج إليه للعيش، وقد سره أن رأى قادراً على كسب قوته والعمل لنفسى في الحياة . غير أنه لم يترك فرصة تمر إلا وامتدحني فيها معدداً مناقبي وكفايتي ذا كراً جدي واجتهادي، وقد برهنت على صدق ما قال عني فلم أهمل ولم أهاون حتى أكسب رضا الكل وأن أحول نظرهم إلى مسلمين وغير مسلمين فهجرني بحس الطالع وتركني الشؤم

كان الوزير الأكبر هو الرجل الوحيد في فارس الذى له تأثير على الشاه لما اتصف به من الحذق والمهارة وحضور الدهن وقد شغل منصب الوزارة على حكم الشاه لم ترعرعه التقلبات عامة كانت أو خاصة ولم تضعف نفوذه التغيرات فأصبح ألزم لفارس من أى رجل آخر

فأريت أن أول ما يجب أن أحاوله هو كيف أزال رضا الوزير الأكبر عني وحايته لى . وبدأت بالظهور أمامه يومياً، وإذا كانت مسائل الأوربيين قد شغلت كثيراً من اهتمامه فقد كان لا يرانى إلا سألنى عن شىء من شئونهم ، وأدى ذلك إلى أن الوزير الأكبر كان يعهد إلى برسائل إلى السفير الإنكليزى أعود إليه بالإجابة عليها مضيفاً من عندي مديحاً للوزير وإطراءً وإعجاباً به وبقدرته العظيمة وتدخلت بين الأحزاب وغدوت محبوباً مقرباً من كبير الوزراء

وكان أحب ما تصبو إليه نفس الوزير أن تهدي له الهدايا، فجعلت هذا الأمر قبلتى في علاقتى مع سفير الإنكليز وبذلك جهدى في الحصول منه على شىء يقدم للوزير فيرضيه ويكون مساعداً لى على نيل الخطوة لديه، ولم يكن تبادل الهدايا إلا أمراً عادياً لا يجلب مظنة ولا يثير شبهة فألقيت كل اعتمادى في خدمة نفسى على هذا الأمر . وكنت قد نجحت مرة أو مرتين في المفاوضة لصالح أمتى ووطنى، فكان الوزير الأكبر ينظر إلى بإعجاب وسرور

وكان في النية عقد محالفة مع الإنكليز وعين رئيس الوزارة مفوضاً من قبل الشاه فأخذت أحوم حول المفاوضات والمفوضين ككلب يبحث عن قطعة عظم، رغم أنه لم يكن لى أى عمل في المفاوضات، وكنت أشعر بين آونة وأخرى بأنى على باب النجاح

ما لا يمكنني أن أقوله . هل فهمت ؟ »
 فقبلت يده باحترام ورفعتها إلى رأسي قائلاً :
 « اطمئن ياسيدي وأقسم إنني إن شاء الله حامل إليك
 أحسن الأخبار ، ومبيض وجهي عندك »
 وانصرفت من لدن الوزير وقصدت إلى دار
 السفير الإنكليزي ، وكلّي آمال طيبة في حسن
 المستقبل . ولست أريد أن أذكر ما قلت وفعلت
 لأقنع السفير بموافقة رئيس الوزارة على آرائه غير
 أنني نجحت نجاحاً باهراً ، وعدت أحمل في يدي
 كيساً مملوءاً بالذهب .

ذهش الوزير الأكبر عند ما رأيته ألقى بالكيس
 أمامه ، وجعل ينظر إلي ثم إلى الكيس مدة قبل
 أن ينطق بحرف ثم انطلق يمدحني ويقرظ ذكائي ،
 وقال : « حاجي بابا ! إنك أصبحت لي وحدي ولست
 أتركك دون أن أكاثك فتمن علي ما شئت »

فجعلت أذكر له أنني خادمه الأمين وتابعه المخلص
 وأني لم أفعل غير ما يحتمه علي واجبي وأني لا أطلب
 غير سماحه لي بالوقوف أمامه . فظهرت بمظهر من
 الإخلاص للوزير والأمانة لا يمكن أن تتطرق إليه
 الريبة ، غير أنه فهم ما وراء هذه الكلمات وقال لي :
 « لا تسترسل في كلامك علي غير جدوى . لقد كنت
 أبحث عن رجل مثلك بحث اليأس حتى وجدتك ،
 وأنا أعرف قيمة الخدمة التي أديتها . تقدم يا بني
 في طريقك الذي بدأت به تحت حمايتي ورعايتي ، وعليك
 بالفرح فاسلب منهم ما تشاء فإن الذهب مقدس
 في خزائهم ، وهم فوق ذلك محتاجون إلينا . وماذا
 أقول لك أيضاً ؟ إن أهل إيران كالأرض العطشى
 يفعل فيهم الذهب ما يفعله الماء في الأرض . يتظاهرون
 بالفرح بالشعور القوي والإحساس الوطني ، وإنهم

وأخيراً أرسل إلي كبير الوزراء يطلبني في صباح
 أحد الأيام بعد جلسة استمرت طول اليوم السابق
 في المفاوضات . وأمرت أن أقابل الوزير في حجرته
 الخاصة التي لا يدخلها أحد غير الأخصاء من أتباعه
 وجدته لا يزال في فراشه ولم أجد معه أحداً
 آخر ، وحين رأيته قال بصوت لطيف : « حاجي بابا !
 اقترب مني واجلس بجانبك إذ لدي من المهام ما أريد
 أن أحدثك به »

عند ذلك شعرت برهبة وخجل غير أنني لم أستطع
 إلا الركوع بجانب الفراش إذ كان كلام الوزير
 بصوت منخفض جداً لا يكاد يصل إلي . لم يبدأ
 الوزير كلامه بمقدمة ولم يستهل أي استهلال بل قال
 إنه في مركز حرج جداً إذ طلب السفير الإنكليزي
 مطالب لا يمكن قبولها ، وقال إنه سيغادر طهران
 إذا لم تقبل مطالبه

ثم قال الوزير : « وقد هددني الشاه بقطع رأسي
 إذا سمحت للسفير بترك طهران ، ومن جهة أخرى
 فإنني والمفوض الآخر الذي يشاركني مقتنعان تقريباً
 بأن الشاه لا يمكن أن يوافق على مطالب الإنكليز
 فما العمل ؟ »

فقلت بخضوع وكأنا كان لسكياتي معنى آخر
 غير ظاهرها : « ألا يمكن أن نرشوه ؟ »
 قال الوزير : « نرشوه ؟ من أين تأتي بالرشوة ؟
 هذا إلى أن الإنكليز قوم أغبياء فلا يقبلون الرشوة .
 ولكن أصنع إلي . إننا لا نشاركهم في هذه الغباوة .
 والسفير يريد أن ينال مطالبه بأي ثمن . وأنت
 بلا شك تعلم أنني ما تناولت أمراً إلا وأبجزته ، فأنطلق
 إلى السفير وكلمه بما لك من حق صداقته . قل له
 إنني مرسلك ، وإن في استطاعتك أن تقول له

الأجسام وخبت الأرواح وبأن مصيرهم جهنم وبئس المصير .

وليس من شأنى أن أبحث فى طبائع هؤلاء الناس ولا فى أذواقهم بل كان بحثى منصرفاً إلى كيفية الحصول منهم على المال . وقد أنتج عملى وأثمر وعاد على بالمال الوفير فلم يذهب تعبى سدى

ويذكر القراء عموماً أننى تحدثت فى جزء سالف من هذا الكتاب عن طبيب أجنبى كان يحاول أن يوجد فى فارس طريقة لعلاج الجدرى بالتطعيم

لم تنجح طريقته نجاحاً كبيراً وظللنا نعالج أطفالنا المرضى كما كان آبائنا بما لجونا . ولكن الطبيب كان يظهر شغفاً شديداً بتحقيق فكرته ونشر طريقته .

وكان يخاطب بنفسه كل سيدة يتمكن من رؤيتها فى وجوب التطعيم بمصل الجدرى حرصاً على حياة أبنائها . وقد رأيت أن فى تقربه من النساء بهذه الوسيلة خطراً عظيماً على الآداب مهما كان السبب الذى يثدرع به فأقنعت رئيس الوزارة بأن يجعل جندياً على باب هذا الطبيب لمنع كل امرأة من دخوله وكان هذا العمل قاضياً على كل أمل للطبيب فأدخل اليأس على نفسه

فذهبت إلى هذا الطبيب الأحمق وقلت له : ما الذى يدعوك إلى الحزن مع أنك لم تستفد مالا فى مقابل تعبك ؟ »

فقال لى - وكان قد تعلم لغتنا - ويلك إنك لا تعرف معنى لما تقول . إن طريقة التطعيم يجب أن نعم فى جميع البلاد لإيقاظ الأطفال من الموت »

فقلت : « وما الفائدة من ذلك ؟ لماذا لا يموتون وهم أطفال وأى نفع جنيناه من حياتهم ؟ »

قال : « إذا كنت تريد النفع والفائدة فإنى أدفع

إنما يخدمون مصالح بلادهم فى كل عمل أو قول أو حركة ، وهذا لعمري ما لست أفقه له معنى . من يدرينى بعد موتى أو موت الشاه أن إصلاحاتنا باقية وأعمالنا لا تذهب بها الأيدي المابثة ؟ إن للوطن رباً يحميه وبقية كيد الكائدين ، فعبث ما يقول المكابدون إنهم يخدمون أوطانهم إذ ليس لفرد أن يفهم ما هى هذه الخدمة فكيف يقوم بها ؟ »

وكأنما أزال كلمات السفير حججاً كان فوق عينى ، وفتحت لى طريقاً جديدة للكسب ورتت فى أذنى كلمات الوزير : « إن الذهب مكسب فى خزائن الفرنج وهم محتاجون إلينا » وإلى هذه الغاية وجهت عنايتى ...

الفصل التاسع والسبعون

لا قيت صعوبة كبيرة وبذلت مجهوداً عظيماً إلى أن توصلت إلى الإعلان عن نفسى فى المدينة أننى صاحب الوزير الأكبر المقرب إليه ونشرت بين الفرنج أن أمراً واحداً لا يمكن لإنجازه من غير وساطتى ، وسرعان ما أنتجت هذه الشهرة نتائجها وأثمرت ثمرها . وأخذت تكثر لدى الطلبات بما يتبعها من الأجر والمنفعة . وكان أظهر ما فى طباع ضيوفنا الإنكليز ميلهم الشديد إلى منفعتنا رغم إرادتنا غير مباليين بما يصرفونه فى هذا السبيل ورغم ما نقوله نحن عنهم

وكانوا يشعرون نحونا بما لم نشعر به نحو أنفسنا من الود والمنفعة . ولم نستطع رغم ما بذلناه من بحث وتفكير أن نستكشف السر الذى حدا بهؤلاء القوم إلى السعى فى مصلحتنا ذلك السعى الشديد - نحن الذين لم ننقطع قط عن رميهم بالكفر والإلحاد ودنس

لك المبلغ الذى يتطلبه وتركنى أعود إلى نشر العمل الذى لم تكن ترى فيه فائدة قبل الآن »

هنا بدأت مفاوضات مع وأظهرت له مقدار المخاطرة التى أمحمها بالتكلم فى شأنه مع رئيس الوزارة ثم اتفقت معه فى النهاية على المبلغ وبعد أيام عاد الزحام على بابه ولم يقل أحد أى شىء عن مخالفة الآداب بمقابلة الطبيب للنساء

ومن حماقات هذا الطبيب أنه طلب تشريح الجثث الآدمية فقلت له : « هل تدعى فى هذا الموضوع أيضاً أن العالم سيستفيد من تقطيعك أجساد المسلمين ؟ » فقال : « يستحيل أن تقدر الفوائد التى تعود على الإنسانية من علم التشريح ويستوى عندى تشريح المسلمين والنصارى واليهود »

ثم عرض على مبلغاً كبيراً لأسمح له بذلك فهدت له الطريق وصرت أشقى غيظى من الكفار بتقديم جثثهم إلى الطبيب لتشريحها وفى الوقت نفسه أجمع ثروة طائلة من هذا الطريق

ولقد كان السفير نفسه يزعم أنه يريد الإصلاح لبلادنا وأنه سيخدم الإنسانية بتنفيذ مشروعاته فى هذه البلاد ، وكانت لهجته كلهمجة الطبيب وقد طلب إلى أن أساعده على عمل آخر عند رئيس الوزارة ووعدنا بهدية كبيرة جداً ، ولما كان من عادات رئيس الوزارة أن يظل أنفه عالياً مادام فى الجو هدية فقد استمر يسألنى كل يوم عن هذه الهدية بعد أن قصصت عليه الحديث الذى دار بينى وبين السفير وقد علم أن السفير أحضر من بلاد الإنكليز مقداراً عظيماً من المنسوجات الغالية وكان الوزير شديد الشغف بالثياب الفاخرة

لكن الهدية التى أرسلها السفير من تلقاء نفسه

كانت من الأطعمة التى تزرع فى بلاده ولا يوجد مثلها فى فارس ، وقد قال إنه يريد مساعدته على تعريف الناس بها لتكون أساس تجارة واسعة بين البلدين فامتعض رئيس الوزارة وكلفنى أن أذهب إلى السفير وأخبره بأن الأرض الفارسية ممتلئة بالخيرات وأنه لا يقبل مثل هذه الهدية بل يريد هدية من القماش الثمين الذى لديه

ولما أبلغت هذا القول إلى دار السفارة ضحك الشبان الذين فيها والذين ليس لهم لى ولا شوارب وقالوا : « هل يريد رئيس الوزارة أن يحيل أغذية يستفيد بها الشعب إلى كساء يضعه على ظهره ؟ » وضحكوا ضحكات عالية منى ومن الذى أرسلنى ولكن السفير نفسه كان أعقل كثيراً من هؤلاء الشبان فقابلنى بمنتهى الأدب وأمر بتسليمى ما طلبته من الثياب ، وفى الوقت ذاته أبى أن يسترد البطاطس الذى أرسله وطلب توزيعه على الشعب قائلاً إن هديته إلى الوزير علامة على الصداقة وهديته إلى الشعب برهان على الاحترام والتقدير

ولما عدت فى ذلك اليوم إلى رئيس الوزارة أطرانى وامتدحنى وقال إن منزلى عنده أكبر منزلة وإننى سأظل أقرب أخصائه ما بقى على قيد الحياة

الفصل الثمانون

الخاتمة

كادت تنتهى المفاوضات التى بيننا وبين الكفار على أن يرسل الشاه سفيراً من قبله إلى بلاد الإنكليز لتقوية الروابط بيننا وبينهم . وكان كل يوم يمر يزيد فى إقناعى بكبر المنزلة التى نلها عند رئيس الوزارة وكانت حاجته إلى مساعدتى تزداد ظهوراً بمرور الأيام

وفي اليوم التالي لتوقيع المعاهدة مع انكلترا استدعاني إلى غرفته الخاصة وقال لي : « أصغ إلى يا حاجي بابا فإن لدى حديثاً هاماً أريد أن أحدثك به ولما كنت واثقاً منك فإني مقدر ما ستبديه من الاهتمام »

فأظهرت له أنني عند ظنه وأكدت له ولأني وطاعتي فقال : « سواء أكانت المعاهدة بيننا وبين الإنكليز حسنة أو سيئة فإنها قد تمت وقد قرر الشاه أن يرسل من يمثله في لوندرا . وأنت تعرف الفارسيين كما أعرفهم وتعرف أنهم لا يحبون مغادرة بلادهم وسنجد صعوبة كبيرة في اختيار من يصلح لهذه السفارة ممن يقبلون السفر إلى بلاد الإنكليز . وإني واضح نصب عيني اسم رجل خاص أريد أن يفارق البلاد الفارسية بأسرع ما يمكن وأريد أن تبذل كل ما في وسعك لإقناعه بقبول هذا المنصب »

فهمت لأول وهلة أنه يريد إرسالاً وتقليدي هذا المنصب ، ولكنني لم أفهم لماذا يريد إخراجي من فارس . وعلى كل حال فإني لم أشأ أن تفوتني هذه الفرصة فأظهرت أنني فهمت وأني شاكر ودعوت له ودنوت منه وقبلت يده وقلت له : « إنني عبدك الخاضع وسأبرهن في كل موقف على خضوعي لك وولائي . مرني وستجدي مطيعاً ولو أدى ذلك إلى موتي »

قال : « هذا كلام حسن يا حاجي بابا والرجل الذي أعنيه هو ميرزا فيروز »

فظهر التجهيز على وجهي وبدأت على علام اليأس واستمر رئيس الوزارة يقول : « لقد وجدت نفوذه لدى الشاه آخذاً في الازدياد ، وهو رجل قادر على الكلام والإقناع ، وهو داهية في الرياء قادر

على الكذب والاختلاق . وقد أظهر الشاه من السرور به أكثر مما أظهر من السرور بأي إنسان . وقد سمعت أنه يضمر لي عداً شديداً وإن كان يتظاهر بأنه خادم مطيع ولم يجرؤ إلى الآن على إعلان عداوته لأي إنسان أو على الدس ضد أي أحد . ولكنني لا أزال خائفاً منه حتى يرحل عنا ، فتي بعد عن وجه الشاه بالسفر إلى بلاد الكفار استرحت من أكبر مسبب لتعابي وسأدير في غيابه الخطط حتى إذا ما عاد ظافراً من مهمته (وأسأل الله ألا يعود) لم يجد مثل ما له الآن من النفوذ »

وافقت رئيس الوزارة دون تردد وإن كان ضميري غير مستريح إلى أي عمل أقوم به ضد هذا السفير الذي كان أصل نعمتي

وقال لي الوزير : « إنني لم أطلعك إلا على جزء من مشروعي فإني أريد غير ما أخبرتك به — أن تذهب أنت أيضاً مع السفير بوظيفة السكرتير الأول وأنت جدير بهذا المنصب لما لك من الإخلاص والمعرفة الثامة بما أريده ، والخبرة بمختلف الشؤون » ولقد سرتني تقلدي هذا المنصب ، ولكن لمرضه في وقت واحد مع منصب أكبر منه ، واختياري لأصغرهما امتعزت ، وكنت من جهة أخرى أفضل البقاء في إيران ما دمت لن أنال منصب السفير فإن مجال

الكسب والعمل فيها أكبر من مجالهما في المنصب الذي اختاره لي . وكنت لا أزال أذكر ألم الغربة ، وأخشى أهوال البحر في رحلة طويلة إلى بلاد الإنكليز التي سمعت عن ظلامها وبردها ما بغضني فيها وعلمت من جود أهلها وثقلهم ما جعلني أتصور الإقامة بينهم فوق الطاقة . وعلى أية حال فقد أجيبت

والمخاطر؟ وهل سأقطع السنة الذين كانوا يشتمون بي ويعيرونني بأنني ابن حلاق أم سأزيدهم شامة بي؟ وأخذ فكري يحوم حول هذه الخواطر ومشيت في الطريق منتفخاً بحالة تستلقت الأنظار. وكنت أحلم بمسيرى على جواد مطهم في أصفهان وتحتي سرج موثى بالذهب وفي يدي لجام مذهب وحولى الجنود يحرسوننى. وصلت إلى بيت ميرزا فيروز فوجدته مستعداً للكلام معى في شأن السفارة وظهر لى أن السفير الإنكليزى كله في نفس الموضوع الذى كافئى رئيس الوزارة بالكلام معه فيه، وقد سهل على موقفى الذى كنت أستعصبه أن ميرزا فيروز أظهر سروراً شديداً واغترباطاً بمنصب السفير فى لوندرة، وقد سألنى هل أريد بعد أن استعدت مكانتى أن أعود إلى زوجتى شكرليب، فتخرجت من الجواب على هذا السؤال لأننى كنت أكره الذكرى السيئة.

وفى اليوم التالى أعلن الشاه أنه اختار ميرزا فيروز ليكون سفيراً فى انكلترا. وصدر أمر رئيس الوزارة بأن أذهب إلى أصفهان لجمع الهدايا من هناك ولست أريد أن أجهد القارى بذكر التفاصيل عن هذه المهمة ويكنى أن أقول لى سافرت إلى أصفهان كما يسافر إليها رجل كبير الأهمية وإننى كنت مغمى النفس بشعور من العظمة والجلال لا يمكن أن يدركه إلا أمثالى من الإيرانيين، وقد ظهر لى أن سوء الحظ فارقتى فصرت فى مأمن منه ودلتنى كل الظواهر على أن صفحة جديدة من حياتى قد فتحت ليكتب فيها القدر سطور السعد.

ودخل حاجى بابا مدينته باسم ميرزا حاجى بابا نائب الشاه، وهل أريد بمد ذلك أن أقول شيئاً؟

بكلمة القبول التى تجدها حاضرة على لسان كل فارسي مهما كان شعوره الحقيقى، وقلت له لى قابل أمره على العين والرأس، وإننى سأظل خادمه. ثم سكت سكوت الحجر الأصم ففهم الوزير سريعاً ما عنيته وقال لى: «إذا لم تكن تحب ما عرضته عليك فعندى مناصب أخرى ليس بالصعب تعيينك فى أحدها، ولكننى آثرت صالحك ولا يزال موعد السفر بعيداً فاذهب الآن إلى أصفهان مندوباً من قبل الشاه واجمع من أهلها ما تستطيع جمعه من الهدايا لتقدم باسم إيران إلى البلاط الإنكليزى. ولك من هذا العمل مورد كبير للكسب»

لم أدع الوزير يتم قوله فقد كان اقتراحه بأن أعود إلى مدينتى فى مثل هذه المهمة مغزياً لى وقلت بلهجة من استخفه الطرب: «أقسم بالخبر والملاح الذى أكلته عندك وأقسم بحياتك وبرأس الشاه إننى مستعد لتلبية ما تأمر به وسأذهب إلى أى مكان تأمرنى بالذهاب إليه ولو أمرتنى بالذهاب تحت أطباق الأرض لآتى بشيطان من الشياطين»

وقال الوزير: «حسن ما تقول فاذهب أولاً إلى فيروز خان وأخبره إنه هو الرجل الوحيد الذى يصلح من بين الفارسيين لمنصب السفارة وأقنعه بالفوائد العظيمة التى تعود عليه من قبول هذا المنصب. وقل له إن رجلاً آخر يزاحمه عليه وأنه أعقل من أن يضيع هذه الفرصة فيغتنمها منافسه. ومتى قلت له ذلك سهل إقناعه»

تركت رئيس الوزارة وأنا لا أعلم هل أنا مساعد إلى السماء أم هابط إلى الأرض وهل تحققت كل أطامى أم سأعود إلى حياتى الماضية المملوءة بالأخطار

وهنا يقول واضع القصة باللغة الانكليزية إنه قد اتبع نصيحة الدرويش الفارسي فلا يعود إلى سرد القصص إلا إذا أعجب بها السامعون، فإن شجعه القراء وضع قصة أخرى يسرد فيها حوادثه بعد ذهابه إلى انكلترا وما حدث بعد عودته من انكلترا إلى إيران بعد أن عرف عن الغرب وشئونه ما ليس يعرفه الإيرانيون . وواضع هذه القصة في انتظار تشجيع القراء يستأذنيهم في إتمام قصته

آخر عنوانه حاجي بابا في انكلترا وقد ترجمناه ونشرناه في مجلة الرواية في العام الماضي . وقد أعجبنا أيما إعجاب بطريقة المؤلف في استعراض مظاهر الحياة في إيران فحاشا كيناه في طريقته ووضعنا على غرار كتابه كتاباً نستعرض فيه الحياة المصرية العصرية وعلاقتها بالشرق والغرب وجعلنا بطل القصة « الدكتور مبارك السنتريسي الملقب بحاجي بابا بولاق وأخباره في مصر وفرنسا والعراق »

ويقول مترجم القصة إلى اللغة العربية إن واضع القصة باللغة الانكليزية قد وفى بوعده فوضع كتاباً وسنوافي به القراء بعد حين

عبد اللطيف النشار

شركة مصر للملاحة البحرية

شركة مساهمة مصرية

خط رباب فاخر وسريع بين الاسكندرية - مينى - مرسيلا وبالعكس

أسعار الصيف ابتداء من ١٥ مايو إلى ٣١ أكتوبر سواء للسفر من مصر أو من أوروبا (من الاسكندرية إلى جنوى أو مرسيلا أو بالعكس)

الباخرة النيل - الباخرة كوتز

جك

١٦

—

١٠

—

٥

٣

جك

١٧

١٢

—

٩

—

—

درجة أول

درجة ثانية

درجة ثانية : مخفضة (سياحة)

ثالثة : (خصوصية)

درجة رابعة

كوتز

ويمنح للذين يستخرجون تذاكر الذهاب والاياب ما خصم ٢٠٪ على قيمة تذكرة الاياب . والأجور المبينة أعلاه بالعملة الانجليزية تحصل بواقع ١/٢ ٩٧ قرشا للجنيه الانجليزي .

مراعيه السفر من الاسكندرية

٢٩ يونيو

٦ يوليو

١٣

٢٠

٢٧

الباخرة النيل

كوتز

النيل

كوتز

النيل

١٨ مايو

١ يونيو

٨

١٥ يونيو

٢٢ يونيو

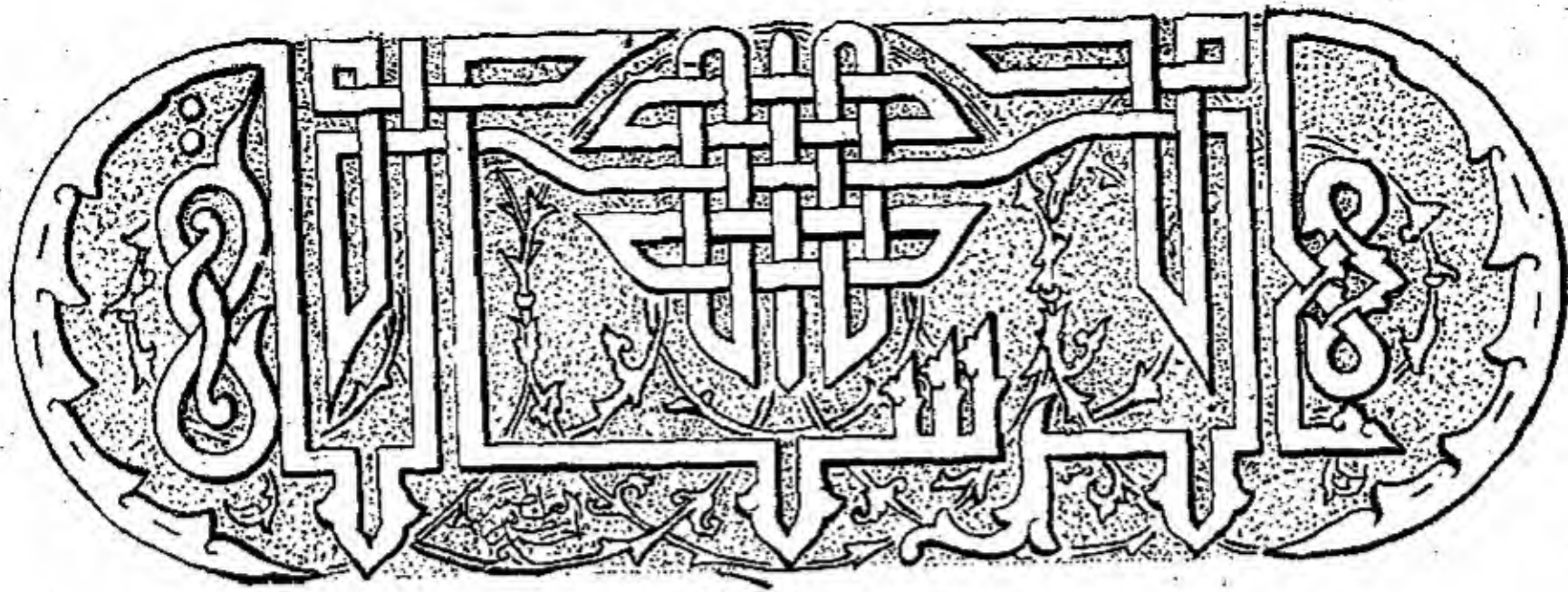
الباخرة النيل

كوتز

النيل

كوتز

طبع بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى - عابدية



مكتبة الآداب الرفيعة والثقافة العالية
تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب
على هدى وبصيرة

الرسالة تعبّر بإخلاص عن روح النهضة المصرية
الرسالة تجمع على وحدة الثقافة أبناء البلاد العربية
الرسالة تصوّر مظاهر العبقرية للأمم العربية
الرسالة تسجل مظاهر التجديد في الآداب العربية
الرسالة تحيّي في النشء أساليب البلاغة العربية
الرسالة ترصد ظواهر التطور في الحركة العلمية

مجموعة أعدادها ديوان العرب المشترك، وكتاب الشرق
الجديد، وسجل الآداب الحديث، ودائرة معارف عامة

الاشتراك الداخلي سنوي قرناً. والمخارجى ما يساوى جنيهاً مصرياً، وللبلدان العربية بخضم ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

جلد الاشتراك عن ستة
ض
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة

دار الرسالة بشارع البدولى رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الشرقية

مجلة أسبوعية للفقه والنشر

يصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصفه

السنة الثالثة

١٣ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ - أول يونيو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٧

من لحسن القصص



فهرس العدد

صفحة		
٥٠٦	الشريرة	أقصصة مصرية ...
٥١٦	وحيدة	أقصصة عراقية ...
٥١٩	رثاء	للفصلى الروسى أنطون تشيكوف ...
٥٢١	مقامرات فناء	أقصصة مصرية ...
٥٤٠	الباب المفتوح	للكاتب الانجليزى الكبير «الساقى» ...
٥٤٤	ما ذنبها ؟	أقصصة مصرية ...
٥٥١	فقدان الذاكرة	عن الانجليزية ...
٥٥٧	الشرطان	للكاتب الفرنسى جى دى موباسان ...
		بقلم الأستاذ نجيب محفوظ ...
		بقلم الأديب ناجى محمود الزاوي ...
		بقلم الأديب فيصل عبدالله ...
		بقلم الأستاذ دزبن خشيبة ...
		بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...
		بقلم الأنسة جميلة الملايلى ...
		بقلم الأستاذ عبد الطيف النشار ...
		بقلم الأديب عادل الجمال ...

ولكن وبما لأنها كانت
أتمسهن جميعاً ولأن تعاستها
هذه كانت السبب الخفى فى
سعادتى بها زمناً طويلاً لن
يعود أبداً

ويرجع عهد معرفتى
بها إلى يوم من أيام عام ١٩٢٠
وكنت آنذاك طالبة فى السنة

الأولى بمدرسة الزراعة العليا ، استيقظت ذلك اليوم
فى الصباح المبكر كما دتى فجاءتنى والدتى وقالت لى :
— حسونه ... أرى أن أخبرك أن ضيفه نزلت
بيننا ، وأنها ربما أقامت بيننا إلى أجل غير مسمى ...
فنظرت إليها بغرابة وقلت لها :
— من هى ...
— زينب هانم زوج اليوزباشى محمد راضى جارنا .
فاستولت على الدهشة وقلت :
— لكنها ما زالت عروساً فى شهر العسل ...
أليس كذلك ...؟

— هو ذلك يا بنى ، والظاهر أنها تمسه الحظ
لأنها اضطرت إلى هجر بيتها والالتجاء إلى فى الصباح
المبكر ، وزوجها ولا شك رجل غليظ فقط لا تسهل
معاشرته ، وإلا ما تركها تهيم على وجهها وهو يعلم
أن لا أقارب لها فى القاهرة ...

وكانت والدتى شديدة التأثر فقلت :

— مسكينة ...

فقلت بانفعال :

— كانت أم هذه الشابة صديقة صباى ، وإلى

الشربكة

أقصوصة مصرية
بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

الغالب على أحداث الشبان فى هذه الأيام أن تتجه
نحو غرضين : النساء والسياسة ، وحول هذين
الموضوعين دار الحديث فى مجتمع من الأصدقاء كان
من حظى المشاركة فيه محدثاً ومنصتاً . وقد بدأ الحديث
فاتراً مبتدلاً فلم يستطع أن يجذب إلا بعض انتباهى ،
حتى تكلم ذلك الصديق البارع وتدفقت الذكريات
على لسانه الدرب فالتفت إليه بانتباهى كله ، لأن حديثه
كان قصة مستوفاة العناصر ، ومثل هذا الحديث
يستبد بمشاعرى استبداد المال بقلب اليهودى الشجيح
وإليك ما قصه صاحبه — قال :

لا يكاد يخلو تاريخ شاب من امرأة ، ولكنه
قد يخلو من المرأة المؤثرة التى ترك وراءها شاهداً
عميقاً لا ينال منه طمس السنين كالوشم فى اليد
أو الصدر . وقد عرفت نساء كثيرات لا أذكر منهن
إلا أثرأ ذاهباً من اللذة أو الألم ، أو أطباقاً غارقة
فى الغلام والنسيان ، إلا امرأة ، بدت فى فترة من
حياتى كالسكوكب الدرى ينير أبداً ويضى ما حوله ،
فلا أنا أنساها ، ولا يفمر النسيان حياتى التى غمرتها
بروحها الرقيق ... لماذا ... لأنها كانت أجمل من
عرفت ؟ ... أو أحبهن إلى قلبى ؟ ... لا أعتقد هذا

أرجو صادقة أن تعيش بيننا سعيدة ...

ثم أردفت بلهجة ذات مغزى

— وأن تكون لها يا حسونة أخاً كريماً ...

وبادرت قائلاً :

— طبعاً ... طبعاً ... يا أمه .

وذهبت إلى المدرسة وأنا أتذكر كلمة والدتي الأخيرة واللهجة التي قالتها بها :— وأحسست بمزيج

من الحجل والغضب . ترى هل تشفق والدتي من سلوكي على ضيقتنا ؟ ثم خطر لي أن أتساءل — هل

هي جميلة إلى حد تبرير والدتي ... حامت أفكاري حول ذلك طول الطريق من مصر الجديدة إلى الجيزة .

والحق أن كلمة والدتي البريئة أوجدت في نفسي منذ البداية الاستعداد الذي كانت تشفق منه أيماء إشفاق .

وكان جو يبتنا غاية في الهدوء، فوالدي كان حينذاك قاضياً بمحكمة طنطا الأهلية، وكان يقيم نصف

الأسبوع في القاهرة ونصفه الثاني في محل عمله ؛ وكان أخي علي في المدرسة الحربية ، وأخي عادل

في بعثة مدرسة الطب بالتمسا . وفي ذلك الجو المغمور بالهدوء والسكينة عرفت زينب هانم المروس

التمسة ... وقد خيل إليّ وأنا ألقى عليها النظرة الأولى أنني أرى صبية صغيرة . نعم كانت بضعة ممتلئة

بادية الأنوثة ، ولكنني قرأت في عينيها المسليتين نظرة براءة وسذاجة . بل طفولة كاملة لولا ما يلوح

فيهما بين العين والعين من الحزن العميق الذي لا تعرفه الطفولة الحقة ...

وكان الشباب في ذلك المعهد غيرهم الآن كانوا

أعظم استقامة وأدنى إلى العفة والطهر ، وأدعى

عهداً للثقاليد ، وكانت المرأة المصنوعة تبدو دائماً وكأنها

محاطة بسياج من الأسلاك الشائكة . وكان الحب

بعيداً نسبياً عن الهتك والابتذال اللذين صرعا

أخيراً وأورداه الإباحية والجنون ، فكانت العواطف

تردهر في القلب وتنبت الآمال والأمانى ، وتنصر

في العقل وتخلق الأخيلة والأخلام ، وتكسى بحلى نادرة من صنع الأوهام والأطياف ...

فكان يقنعني من زينب نظرة أختلسها من وجهها الحسن أو جسمها البض ، لتكون زادي

في النهار والليل وفي اليقظة والنوم ، وأصبحت وأمست في عالم أثيري جميل بث في وجداني حياة

ناضرة كالحياة التي ينشرها الربيع في الحقول والبساتين . على أن الأمر لم يقتصر على ذلك فجري

الحديث بيننا مرات ، ولعبنا الورق مرة والنرد أخرى ... وغالبتي عواطف فوسوست إلى نفسي

أن أتشجع وتساءلت بخبت لماذا لا أجرب حظي . لماذا لا ألس أناملها في أثناء اللعب مثلاً ؟ أو أهدي

إليها مجولين فتكون فاتحة حديث لذيذ لا يعلم ختامه إلا الله ... ولكنني لقيت من التردد الشيء الكثير،

ولم تسعفني الجرأة التي تعلمتها فيما بعد ، وضاع الوقت هباء حتى رجعت يوماً إلى البيت ، فوجدت والدتي

وحدها ... وكنت تمودت أن أراها إلى جانبها ، فأحسست بوحشة وضيق ، وكنت رغبة تلج على

بالسؤال لأن تلوث نفسي أفقدني صراحة الأبرياء ، وظننت السؤال فاضحى ، ولم تدعني والدتي فريسة

العذاب فقالت لي :

— شكراً لله فقد جاء جارنا الضابط واعتذر

لزوجته وعاد بها لأنه نقل إلى أسبوط وقد كلفتني أن
أهدي إليك تحياتها ...

وأحسست في الحال إحساس الطالب الذي
يعنى بالسقوط في الامتحان وهو يحلم باختيار الوظيفة
اللائقة به . وضاق صدرى ذلك اليرم بالبحث ففررت
إلى الخارج لأخلو إلى نفسى بعيداً عن عيني والدتي .
على أن الصبا دائماً قادر على جرف الأحزان والهموم
فاستطعت أن أبرأ في مدة وجيزة ونسيت في غمرة
الحياة والآمال تلك الحسرة التي عصرت قلبي أياماً
فكانت مثل « الزكام » الذي يفقد الإنسان طعم
الحياة حينما يزول سريعاً فكأنه لم يكن ...

ودارت الأيام وانتهت من الدراسة وحصلت
على الدبلوم ، ووظفت في وزارة الزراعة سنة ١٩٢٥ ،
ثم انتقلت إلى تفتيش الإسكندرية بعد ذلك بخمس
سنوات . وفي الأيام الأولى لهبوطى إلى الإسكندرية
آثرت أن أنزل بفندق لأستريح من وعناء السفر
وأبحث في هدوء عن مسكن مناسب ؛ ووقع اختيارى
على فندق (ريش) لحسن موقعه من البحر لأننا كنا
في سبتمبر وهو من الشهور المحبوبة في الإسكندرية
يطيب فيه الجو ويهدأ البحر وينصفو ؛ فحملت حقيبتى
إليه ونزلت في حجرة من حجرات الطابق الثانى .
وأذكر أنه لم يكذب تركنى الخادم ويغلق وراءه الباب
حتى سمعت طرقة . فدخلت إلى الباب وفتحته ورأيت
لدهشتى صديقنا الدكتور أحمد شلبي ، واستقبلته
يشوق وأجلسه إلى جانبى وكان يقول لى :

— أحقاً هو أنت ...

نعم أردف :

كنت تاركاً باب حجرتى مفتوحاً فلمحتك

وأنت تتبع الخادم وعرفتك في الحال ...

— هذه فرصة سعيدة

— يا حظك ...

— أى حظ تعنى ... أنت تعلم أن موظفى
الزراعة لا حظ لهم يحسدون عليه
فقال ضاحكاً :

— أنا لا أتكلم عن السكادر ... ولكن عن
فوزك بهذه الحجرة ... فيا حظك ...

— وما الداعى إلى هذا الحسد ... هي حجرة
دون حجرات الصف المقابل التي تطل نوافذها على
البحر ...

— هذا حق ، ولكن شرفها تمس شرفة
الحجرة رقم ٢٤ التي إلى يمينك ؛ وحسبك هذا ...
— وما شأن الحجرة رقم ٢٤ ... ؟
فقال وهو يتنهد :

— تقيم بها امرأة حسناء وحيدة ...

— وحيدة ... ؟

— نعم ... وإلى هذا يعود السبب في أن
حجرات هذا الطابق مأهولة كلها

— لعلها ممثلة أو راقصة ...

— هو ما يظنه الرقم ٢٧

فقلت مستفهماً :

— الرقم ٢٧ ... ؟

— أعنى زميلى الدكتور الصواف المقيم في
الحجرة رقم ٢٧ ، ولكنى لم أوافقه على ظنه ، لأنى
خبر بالصالات والمراقص جميعاً . والأعجب من هذا
أنها تبدو محتزمة ولا ينقصها إلا زوج لتكون من
المصونات حقاً

فابتسمت وقالت :

— عند الامتحان يكرم المرء أو يهان

— أوه... كل الأرقام تطاردها مطاردة عنيفة

— ألم يفز أى رقم منها بظائل ... ؟

— فى الظاهر لا ، والله أعلم بالسرائر

وجالسى الصديق ربع ساعة ، تحدث فيها ما شاء له الحديث ، ثم ودعنى وانصرف إلى حجرته .

وكنت تبعاً منهوك القوى فنمت ساعة نوماً عميقاً

واستيقظت عند الفجر ، وفتحت شرفتى وجلست

فيها أستروح هواء البحر النعش . ولاحت منى

نظرة إلى الشرفة التى إلى يمينى ، فتذكرت ما قال

صديقى الدكتور ، وأدمنت النظر إليها باهتمام وشغف ؛

ولكننى استرددت نظرى بسرعة لأنى سمعت صرير

بابها وهو يفتح ، ونظرت أمامى ، ولحظت بروز

شخص ، ونخيل إلى أنه امرأة ، وتأكد ظنى

عند ما عطست ، وحافظت على جمودى وتظاهرت

بعدم الاكتراث ... وغالباً ما يفيد البرود وهو

إن لم يفد يعز عن الخيبة ...

ولكننى لم أثبت طويلاً ، ونازعنى الشغف إلى

النظر فألقيت ببصرى إلى جارتى . ورأيت امرأة أول

ما راعنى منها شعور بعدم الغرابة سرعان ما تحول

إلى يقين بأنى رأيتها من قبل ، وأنا أتمتع بهذاكرة

لا تخيب قط فى حفظ الصور فلم ألبث أن ذكرت ...

ذكرت جارتنا القديمة ... التى عاشت معى فى بيت

واحد بضعة أيام كانت كافية لإنضاج وجدانى ...

وتملكتنى الدهشة والاهتمام ...

ولاحت منها نظرة إلى قالت عينا ، وتوقع

بقلب خافق أن أطلع فى وجهها آية التذكر ، وتحفرت

للسلام ولكن خاب رجائى ، لأن نظرتها كانت جامدة

لا حياة فيها ولم تلبث أن ولتنى ظهرها وعادت

من حيث أتت . والأسفاه لقد نسيته بغير شك ...

وما من شك فى أنها هى جارتنا القديمة وهى ما تزال

تحافظ على جمالها وأنوثتها ، ولكن مالها تعيش

وحدها فى هذا الفندق ... وما الذى يحملها على هذه

الوحدة الغريبة ... وأين زوجها يا ترى ...

وطال تفكيرى فى شأنها حتى قت لارتداء

ثيابى وغادرت حجرتى ، وشاءت المصادفات أن يفتح

باب حجرتها على أثر خروجى مباشرة ، فتباطأت

فى خطاى حتى حاذتنى وهبطنا الأدراج معاً ووجدت

فى نفسى رغبة شديدة فى محادثتها ولم أكن أحجم

فى مثل ذلك الموقف فقلت لها بهدوء غريب :

— سعيدة يا هانم ... لعلك تذكرينى ...

نخدتجتنى بنظرة إنكار ، ولعلها ظنت أنى أتذرع

بالحيلة لاستدراجها إلى محادثتى ، وأسرعت الخطا

فلحقت بها عند باب الفندق وقلت لها :

— أهكذا تنسين جيرانك بسرعة ...

ألا تذكرين حرم حسن بك هانم القاضى ؟ ..

فألت على نظرة غريبة ولاحت فى عينيها

الأحلام وسمعتها تنتم :

— عدالات هانم ... شارع الزقازيق ...

فقلت بفرح :

— نعم ، هذه والدتى ... وهذا شارعنا ...

فهشت لى وسارت إلى جانبى وهى تقول :

— أنت ابنها ؟ ... تذكرت ... كيف حال

عدالات هانم ؟ ...

- فقلت بسرور وقد أيقظ صوتها وجدى القديم بها:
- والتقى بخير ... كيف حالك أنت يا هانم؟
- عال ، ولكن أين عدالات هانم ؟ ...
- هل أنت هنا وحدك ؟ ...
- نعم ، الأسرة في رأس البر لأن والدى يحبها ويفضلها على الاسكندرية ، وأنا هنا بحكم عملى
- نسيت اسمك ...
- حسونة ...
- وكنت نسيت اسمها كذلك ولكنى نفرت بطبعى من سؤالها عنه ، فشيت إلى جانبها صامتاً وكان وجدانى في بقطة قوية ، وأصارحكم القول بأنى من الذين لا يملكون عواطفهم إذا خلوا إلى امرأة أيا كان جمالها ، وأن رغبتى فى النساء عامة لا تعرف التخصص ، وقد كنت قبل نحو عشرين عاماً ذا استعداد للحب، ولكنى فقدت بمرور الزمن واطراد التجارب وكثرة الأهواء تلك الموهبة الجميلة ودنوت كثيراً من الحيوانات الراقية . وكنت فى ذلك الوقت خاطباً ، وكنت اخترت خطيبتي من بين عشرات الفتيات ولكن ذلك لم يمنع قلبى — ذلك اليوم — من التعلق السريع بتلك المرأة ومعاينة الرغبة والطمع ، قلت لها :
- أنت وحدك هنا ؟ ...
- فقلت بلا اكتراث :
- نعم !
- وزوجك ... ؟
- فى السلم
- ولماذا تعيشين وحدك ... ؟
- فضحكت ضحكة رقيقة وقالت :
- لا ينقصك إلا أن تفتح محضراً للتحقيق وتطالبني بالشهود ...
- فخجلت من فضولى ، وضحكت أدارى خجلى ، ولم تكن عواطفى تكف عن الطغيان فقلت :
- ألا يحسن بنا أن نبحث عن مكان صالح للجلوس ...
- فهزت رأسها وقالت بمناد ظريف :
- كلا أنا أفضل المشى لأنى أريد أن أنحف فنظرت إلى جسمها البض الممتلئ نظرة معذب ووجدت فى كلامها فرصة ذهبية لا ينبغي أن تفلت منى فقلت بإعجاب :
- وما جدوى هذا التعب ... إن جسمك كامل الفتنة ...
- فألقت على نظرة جمعت بين الانتقاد والدلال وقالت وهى تشير إلى جسمها :
- هذه موضة قديمة
- فقلت بحماس :
- هذا جميل وكفى ... وما عدا ذلك فلا وزن له عندى
- وعند الناس ... ؟
- نعم وعند الناس ... كدت أنسى هذا ، إذ خيل إلى الوهم الساحر أنى صاحب الشأن الأوحى ، وعلى أنها قالت ما قالت وهى تبسم إلى ياغراء ، فاستخفى الوهم مرة أخرى واشتد بى الطمع فقلت :
- أنت لم تتغيرى فى هذه الفترة الطويلة وكان التى أراها الآن هى السيدة الجميلة التى أشرقت بعنته

فتسددت وتعمدت أن أسمعها تنهدى ثم قلت :
— فليكن ... ألا ترين من الحكمة أن
(ترك) فندق ريش ... ؟

— ترك ...

— نعم ... أنا أعني ما أقول ، وأعرف فندقاً
هادئاً في لوران فما رأيك ؟

ولم تجبني ، ولزمت الصمت حيناً ، وبدأ على
وجهها الاهتمام والتفكير ، نفق قلبي وساورني
الخوف والقلق ؛ ولكنني أحسست فجأة بذراعها
تلتف بذراعي وسرنا مشتبكين كالمشاق أو الأزواج ؛
فألتج صدرى وغمرني الفرح والفوز ، وقنعت بذلك
جواباً ...

وفي مساء ذلك اليوم افتتحنا معاً مأدبة الحب ،
فعدنا إلى ريش وأخذنا حقائبنا ورحلنا إلى لوران
ونزلنا في فندق اكس لاشابل ، وهو فندق هادئ
منمزل يقوم على شاطئ البحر كزاهد عازف يولى
ظهره ضجيج الحياة ويستقبل أفق الأبدية والأحلام
وعشت أياماً أذكرها دائماً كما يذكر السقيم
عهد الصحة والعافية ؛ كان الحب فيها الحاكم القاهر
المستبد الطاغى الذى لا يترك لشيء مكاناً من عقولنا
أو نفوسنا ، وكنت أعلم أنها أيام وإن طالت قصار ،
وإن صفت فإلى انتهاء مريع ؛ فأقبلت عليها بنهم
وجشع ، أملأ من حسناتها قلبي وحواسي ، كيلا أدع
زيادة لستريد ، غير مؤجل متعة إلى غد أو مبق على
لذة إلى حين ، أو تارك ثمرة بلا قطف والهام ... وكانت
شريكتي سعيدة راضية يسكرها الحب وتستحقها
آيات المطف ، فتستريد منها كما يستريد المثل من الطرب
وتبين لي بغير كبير عناء أن آمالنا متباينة ،

في بيتنا بمصر الجديدة منذ عشرة أعوام ، وغربت
بفتة كذلك فتركتني أحلم بها أياماً وشهوراً
فنظرت إلى يخبث وقالت :

— يالك من ما كر ...

فقلت ضاحكاً :

— ما وجه الغرابة في ذلك ... من يرى هذا
الحسن ولا يتمناه ؟

— الظاهر أنى سأجد من الواجب أن أفارقك
لأنجو من أمانيك ...

— حاشا أن تفعل ... بل حشاي أن أتركك
تفعلين . إن فوزى بلقائك بعد هذا الغياب الطويل
نعمة من البطر الشرير الكفر بها ...

— إنك تحدثني كما لو كنا عاشقين افتراقاً ثم
تلاقياً ...

— هذا شعورى بحق ...

— هو أدنى إلى الوهم

— أما من ناحيتي فلا ...

— وأما من ناحيتي فنعم ...

ولكنها قالت ذلك بدلال ورقة ، وهى تبسم
ابتسامة عذبة تسيل إغراء (فعلت أن يمينها لم تخرج)
ولم أدهش لما تبدى من استسلام لأن حالتها في الواقع
كانت تدعو إلى الريبة ، وتذكرت ما قال صديقي
الدكتور شلبي فقلت :

— إنى أعجب لماذا تقيمين وحدك في هذا الفندق ؟

— أراك تعود إلى التحقيق ...

— كلا لا داعي للتحقيق ... ولكنى علمت

أن المقيمين بالطابق الثانى يضايقونك ...

— أبدأ لعلمهم يضايقونك أنت ...

والإ يمكن أن يظهر بغتة في أفقنا الهادئ فتكون الطامة التي لا تدفع ...

وكانت هذه الأفكار تساورني خارج الفندق بعيداً عن ظلها الخفيف ، ولكنني وجدت نفسي مسوقاً إلى مفتاحها بهذا الحديث وقد فعلت ، فسألها يوماً :

— أما من أخبار عن زوجك ... ؟

فا كفهر وجهها وأظلمت عيناها وقالت :

— دع هذا الحديث جانباً ...

فاضطرت - ساعتئذ إلى السكوت ، وفي نيتي أن أعيد الكرة مهما كلفني ذلك . وكانت تتحاشى هذا الحديث وتهرب منه ، ولكنني قلت لها يوماً بإخلاص وحزم :

— ينبغي أن تعلمي أنه ليس الفضول الذي يدفعني

إلى معاودة السؤال ، ولكنه الاهتمام بشخص أعزّه وأحبه وأرجو دائماً أن يفتح لي صدره وقلبه ...

كم فرحت لكلامي هذا ... لقد التصقت بي بوجد وحنان وتهدت بسعادة وقالت :

— يا للسعادة ... طالما ضرعت إلى الله أن يهبني قلباً حنوناً محباً ...

فداعبت خصلة من شعرها الأسود بيدي وقلت :

— إذا-هيا- وصارحيني بكل شيء

— ولكنه حديث مؤلم كريحه

فقلت :

— أنا لا أدري شيئاً ، لأنك لم تريدي أن

تطلعي على شيء ، ولكنني كنت أرجح دائماً أن

حياتك الزوجية غير سليمة . ومهما يكن من أمر

فينبغي أن أعلم كيف يتركك زوجك هكذا ...

فكنت لا أفكر إلا في حاضري ، وأود لو أمتص ما فيه من حلاوة في رشقة واحدة ... أما هي فكانت تنظر إلى بعيد ولا تفتأ تذكر المستقبل وترغب رغبة صادقة في أن تطمئن إلى دوام السعادة والحب . وقد عجبت لذلك وعلمت أنني لم أفهم بعد تلك المرة ؛ وقد ظننتها حيناً امرأة مستهترة متقلبة الأهواء ، تجوب البلاد بعيداً عن زوجها طلباً للحب الآثم وانتهاباً للذات ... ولكنني وجدتتها هادئة الطبع ، عظيمة المودة ، لا تسيطر عليها النزوات العمياء التي توردها أصحابها مهالك الفتن ...

وكانت أيامنا الأولى أيام حب خالص ، فلم يكدر صفوى مكدر ، إلا أن إفراطى الشديد ردني إلى شيء من اليقظة والانتباه فاستطاع فكري أن يتناول أموراً غير الحب ...

فكرت في أنني أعتدى لأول مرة على حرمة الزوجية ، ولم يكن سبق لي أن اقترفت هذا الإثم المنكر فوخزني شكة الألم وأحسست بخوف غامض ، وزاد من ألي أنني كنت على عتبة الحياة الزوجية وساءلت نفسي في رعب ألا يجوز أن يقتص الله مني ويصيبني يوماً في المقتل الذي طعنت فيه الآخرين ؟

— وهنا قاطعه أحد المستمعين قائلاً :

— وهل صدقت مخاوفك فيما بعد ... ؟

وضحك البعض ونظر محدثنا إلى مقاطعه شزرراً ثم استأنف حديثه قائلاً :

ثم فكرت في أمر آخر لا يقل عن سابقه خطورة . فكرت في أمر الزوج الغريب الذي يترك لزوجته الحبل على الغارب . ما الذي عساه يفرق بينهما ؟ وكيف يرضى عن هذه الحياة الغريبة ... ؟

فهزت منكبيها باستهانة وقالت :

— إنه لا يعرف مقرى على وجه التحقيق ...

— ما أعجب هذا ... أستطيع أن أفهم أنكما

غير متحابين ، ولكن الذى لا أستطيع فهمه هو أن تبقيا زوجين بعد ذلك ...

— إنه لا يطلقنى لأنه لا يستطيع الاستغناء

عن مالى ... وسوى ذلك فلم يكن زوجاً قط وهو

لا يطبق أن يكون زوجاً فى يوم من الأيام ... على

أنى فى الواقع لا أرغب فى الطلاق ...

فحدقت فى وجهها دهشاً وقالت :

— هذا أعجب !

— لا تعجب لشيء . ألا ترى أنى هكذا مالكة

لحريتى ؟ ... ولو كنت مطلقة ما استطعت أن أذهب

إلى حيث أشاء . ولو كان لى من يهيمه أمرى ويحنو

على بصدق لتغير مصيرى من بادية الأمر ، ولكنى

وحيدة ، وحيدة فى هذه الدنيا الواسعة . أنت

لا تدرى ما الوحدة ... أما أنا فقد تجرعت مذاقها

المرطوال هذه السنين ... مات أبواى والتحق أخى

الأوحد بوظيفة فى قنصلية اليونان ، ونبذنى زوجى ..

فليس لى مكان آوى إليه أو قلب يعطف على ...

أنا منبوذة فى هذه الدنيا ...

فوجئت صامتاً وغلبنى التأثر الشديد ، ورأيت

وجهها الجميل محتقناً كقطعة من الجمر ولحت دمة

حبيسة فى عينيها فقلت :

— إنك جميلة وغنية فاذا كان يريد هذا الأحمق ؟

— إنه وحش ضار وقاس جحود ، لم أستطع

أن أعاشره كزوجة إلا أياماً معدودات ثم اضطررت

إلى حياة التشرذ والهيام ... ولو وهبى الله طفلاً

لاستعنت به على الصبر والرضا ولكنى حرمت حتى

من هذا العزاء ...

وكانت تتكلم بتأثر شديد نخيل إلى أنى سأتبعتها

إلى البكاء ، وثرى فى نفسى على الحظ التعس الذى

ضيق عليها الخناق ، وخطرت لى فكرة فقلت لها :

— ألم يكن فى وسعك إصلاح ما أفسد الحظ ؟

فضحكت ضحكة مريرة وقالت :

— الحظ التعس لا يصلحه شيء وأنا ما قصرت

قط ، وأصارحك القول بأنى كنت أحبه وما وافقت

على الزواج منه إلا لأنى أحببته يوماً ، ولكنه مضى

بعد الأسبوع الأول من زواجنا يقضى الليل خارج

البيت ولا يعود إلا قبيل الفجر ، وكنت إذا انبريت

لإصلاحه ومدافعة الشقاء الذى يهددنى به سخر منى

وهزأ بمحاولاتى ، ولما ضاق بى ترك السخريه والهزء

وعمد إلى الخشونة والفظاظة ...

وسكنت عن الحديث دقائق وهى مستسلمة إلى

الشعور الأليم الذى أحدثته الذكريات ، ثم أردفت

بصوت أعمق ووجه أشد اكفهراراً

— وأدركنى اليأس منه ، ولما أتم شهرأ كاملاً

فى بيتى الجديد ، وكان ذلك لحادثة همجية لا يمكن

أن تمحى من ذا كرتى أباستنى من الخير ودمرت

كل فضيلة فى نفسى . فى ليلة من ليالى شهر العسل

كنت مستغرقة فى النوم بعد سهاد حزين ، وإذا

بهزة عنيفة توقظنى من نومي فاستيقظت فرعة صارخة

ونظرت بعينين مرتعبتين فرأيتة جالساً إلى حافة

الفراش ، وهممت بتعنيفه ، ولكن لسانى لم يتحرك

فى فى لأنه كان فى حالة سكر شديد كما تبينت ذلك

من نظرتة الذاهلة ووجهه المحتقن والرائحة التى تنبعث

على أن يعطيني حريتي ، وقد كان ... وغدوت حرة
أقيم حيث أشاء وأفعل ما أشاء لا أسأل عما أفعل ...
وهالني الأمر فقلت :

— وهل عشت سعيدة بعد ذلك ؟ ...

— فتهدت وقالت :

— ليت ذلك كان ممكناً ... ما تمنيت على الله
من شيء مثلما تمنيت أن يسلبني حريتي هذه في لقاء
أن أحظى بالسعادة التي أحلم بها والعطف الذي أتمرق
إليه ، وأنا مستعدة دائماً أن أتنازل عن حريتي بائنة
لن يهبني قلبه وإخلاصه .. كم تعبت وكم بحثت ...
وكم ضقت بحريتي ...

الآن علمت كل شيء ... لقد صرفت هذه المرأة
التعسة عشرة أعوام في البحث عن العبودية السعيدة
فهل ياترى وفقت إلى ما تريد ؟ ... كلا ... هي
لم توفق ولا ريب ، ولو أنها وفقت إلى الحبيب الصادق
ما رثمت نين يدي أنا بهذه السهولة . لقد انصرفت
السنوات العشر في خيبة مريرة وخدع أليلة ، وما من
شك في أن الكثيرين تلقفوها بشراة وجشع كما
أفعل الآن ، ثم ردوها قهراً بعد شبع إلى حريتها
البغيضة . وهكذا فالحرية نفسها تهون وترخص أحياناً
وتعني في طلب المستبد الغاصب ..

ولما انتهت من سرد قصتها نظرت إلى بطلان نينه
واستسلام ، ثم ألصقت جبهتها بجبهتي وسمعتها تهمن
في أذني قائلة :

— وأخيراً ...

وفهمت مدلول تلك الكلمة وعلمت أنني ألعب
في روايتها البائسة دور الأمل الأخير ، فإما أن أقوم به
كما تمنى أحلامها وإما أن أشفي بها على اليأس القاتل

من فمه ، وكان هنالك ما هو أدهى من ذلك ، كانت
تقف قريبة منه امرأة غريبة في مثل حالته من السكر
الشديد . كانت تنتظر بلا ريب أن أوسع لها مكاني
من فراش العرس ، ولم يمهلي حتى أفيق من فرعي
ودهشتي فقال لي بلسانه الثقيل الملتوى : (تفضلي
خارجاً) ولم تنتظر صاحبته ، فذنت من الفراش وارتمت
إلى جانبي ، ولم أتمالك نفسي ففزعت من مكاني
إلى أرض الغرفة وفقدت رشدي ؛ فانفجرت غاضبة
وانهلت عليه سباً ولعناً ، ولكنه هن كتفيه استهانة
واستلقى إلى جانبها ففادرت الحجر في حالة جنونية ،
وأحسست برغبة لا تقاوم في هجر البيت ، وكانت
ثيابي في الدولاب داخل الحجر ، فأخذت غطاء
المائدة القطيفة وتلفعت به وفتحت الباب ووليت
خارجاً ، والديوك تصيح معلنة طلوع الفجر ،
وهرولت في الطريق الموحش لا ألوى على شيء حتى
انتهت قدماي إلى البيت الوحيد الذي تعودنا الذهاب
إليه ... بيت والدتك ... ولعلك تذكر الأيام القلائل
التي قضيتها عندكم ... إني لا أنسى تلك الليلة أبداً ...
ولن تزال قائمة في نفسي بجميع تفاصيلها ... وقد
كانت فاصلة في حياتي بين عهدين ...

إني أذكر تلك الأيام بلا ريب ... ولكن كم
كنت أجهل ما تخفي من التماسه والبؤس ...

واحترمت فترة الصمت التي تلت ذلك ثم سألتها :

— كيف عدت إليه بعد ذلك ؟ ...

فهزت رأسها باشمئزاز وقالت :

— في تلك الليلة انتهت حياتي الزوجية في الواقع
ولكني كنت بلا مأوى وبلا معين فاذا أصنع ؟ ...
عرض علي اتفاقية فقبلتها ، وهي أن أعطيه من مالي

نتجاهل كل شيء... لماذا لم تصارحنى بشعورها؟...
ولماذا لم تهب للدفاع عن سعادتها الموهومة...
لم يحدث شيء من هذا
وقد عدت ظهر يوم من عملي بالتفتيش فوجدت
حجرتنا خالية، وبحثت عيناي عن آثارها اللطيفة
التي تعودت رؤيتها كالفساتين التي كانت تعلقها على
المشجب أو الحقيبة التي كانت تضعها على المائدة فلم أر
لها أثراً، وأسرعت إلى الدولاب وفتحته على مصراعيه
فلم أجد سوى ثيابي، وناديت الخادم وسألته عنها
فأخبرني أن الهانم تركت الفندق الساعة العاشرة
صباحاً وأنه أحضر لها بنفسه التاكسي...
وبحثت هنا وهناك عن خطاب أو ورقة لأنني
كنت أتوقع أن تترك لي كلمة، ولكني لم أعثر على
شيء...

لقد تركتني دون كلمة وانتهى كل شيء
وجلست صامتة واجماً تتنازعني العواطف،
ولم أشعر براحة للخلاص الذي جاءني بدون مشقة،
وأحسست بنجل وألم ووحشة ثقيلة، ولم أجد رغبة
إلى الطعام فقامت من فوري أبحث عن مسكن جديد،
لأنه كان يتعذر علي أن أبيت ليلتي في تلك الحجرة
المهجورة...

وسكت الراوي لحظة ثم أردف:
ومضت سنوات لم أرها فيها؛ ثم رأيته منذ
عهد قريب تسير شاباً أنيقاً في ميدان المحطة؛ ولكني
لا أدري إن كانت ما تزال تبحث عن الحب والعطف
أم أنها استنامت إلى القنوط...!

تجيب محفوظ

وأحسست بثقل تبعني ورائ على صدري هم
عظيم وتساءلت حيران ترى ماهي أحلامها؟...
أن تدوم هذه العشرة... وكيف لي بدوامها وأنا
على قاب قوسين أو أدنى من الزواج... ومضى تأثري
الشديد لتعاستها يهدأ نوعاً، وأخذت أفكر في نفسي
وأنظر إلى علاقتي بها بعين متشائمة، وأتساءل في قسوة
وأسفا عن طريقة للخلاص... وكانت تأتي على
أوقات أعجب فيها من أنانيتي وأتساءل في اشتزاز
— إذاً كيف كان شأن من لم يشعروا بنحوها بغير
الشهوة والطمع؟... الحق أن عالمنا الإنساني عالم
شديد القسوة، وما أضيع الفلسفة التي تعب أصحابها
في الدعوة إلى القسوة وتحقيق تنازع البقاء، فهي
في الحق تحصيل حاصل وجهد ما كان أحرى بأذليه
بالضن به...

على أن الذي أزعجني هو أن زينب فطنت لشاعري
الخفية من غير أن أصارحها بها، وبدأ لي ذلك في
وجومها وبرودها وقنوطها. ولم أدهش لذلك فإني
من الذين لا يدرون كيف يخفون ما بنفوسهم،
وتفضحهم أعينهم وإيماءاتهم. ولم أكن يئس قط
نية مصارحتها بعاطفة مما يعتلج في صدري أو بفكر
مما يحترق في رأسي، وقد كنت أفكر في حالتها بعطف
ومودة، ولكن العطف شيء والحب شيء.

وكنت أتوقع في خوف وإشفاق أن تفاتحنى
بما يقوم في نفسها من الوسواس، وكان ذلك يضاعف
آلامي النفسية ورجوت أن تنقش تلك السحابة
من سماء حياتي دون أن تترك وراءها أثر الحزن أو ألم
أو تأنيب ضمير. ولانقلبت حياتنا تمثيلاً ثقيلاً، وكان
كل منا يعلم ما يشعر به صاحبه نحوه ولكننا كنا

إكراماً وإرضاء لها ، ولكن
سريعاً ما ذبلت الزهرة وطواها
الردى ، وخلفت له ابنة سماها
وحيدة !

ولقد كانت هذه تشبه
أمها كل الشبه ... عينان
متألفتان ، جبين منبسط ،
أنف دقيق ، شعر ذهبي غدير
جسم بض حلو شهي ، كلها آيات توحى الرقة
والإبداع ...

نشأت وحيدة في كنف والدها الذي أحاطها
بمطفه وحنانه حتى أنساها موقع الأم التي فقدتها !
وكان يتحفها بشتى الهدايا لمناسبة أو لغير مناسبة .
وما كان أسعده عندما يرى شبح ابتسامة تلوح على
ثغرها البديع !

ولما بلغت السادسة عشرة من عمرها السعيد
أخت كأنها الزهرة النضرة : فتاة ممتلئة بالحياة
ويوحى جسدها المشتعل أن فيه روحاً متوثبة مرحة ،
وفيه حياة تندفق كأنها الشلال الصاخب لا يكف
لحظة عن الاندفاع ... سهلة الضحك ، تحب أن تقضى
النهار كله في الحديث والمسامرة ، لا مع أيتها الذي
كانت تتضايق كل المضايقة من صمته الممل وسكونه
الدائم ولكن مع ابن خالتها « أمين » الطالب
في كلية الطب !

كان جميل الطلعة ، برى التقاطيع ، صافي
العينين ، دقيق الأنف ، يجمع بين نشاط الرجولة
ورقة الأنوثة

من صميم الراقع وحيدة ...

أقصوصة عراقية
بقلم الأديب ناجي محمود المزراوى

« مهداة إلى الأستاذ الكبير الزيات اعترافاً
بفضله على الأدب والأدباء ... » ن . م

السيد كامل بك وهذا هو اسمه المعروف والذي
تنبى عنه بطاقته ذات الحروف البارزة ، رجل قارع
الطول ، عريض المنكبين ، يعجزك تقدير سنه ،
فهى ثمانى عشرة سنة أو خمس وخمسون أو ما بينهما ،
وهو من صنف الرجال الذين لا تذويهم الأعمار
لأنهم قط ما أزهروا^(١) ... !

لم يكن كامل بك من ذوى المناسب العالية ،
والوظائف الكبيرة ، وإنما هو من أصحاب الثروات
الضخمة والمال الوافر الذى جمه بالسعى الدائب ،
والتدبير المعجز ، والربا الفاحش ، والشح الدنى ،
والتقدير المهلك^(٢)

وقد تيسر له بهذا الغنى العريض أن يناسب
إحدى العائلات ذات الحسب الغالى والشرف العالى
والصيت البعيد . فأحب زوجة الحب كله وبسط يده
المغلولة إلى عنقه ، فساد القصر الضخم وأثته بالآثاث
الفخم ، واشترى السيارة المريحة : كل هذا وغيره

(١) برنارد شو

(٢) أحمد حسن الزيات

ألا نفكر صفو مودتنا بالتحدث في هذا الموضوع
مرة أخرى !...

ومضى عام ... وعام ، وفي الربيع زفت وحيدة
إلى الباشا !

كان زوجها قصير القامة ، ناحل الجسم ، أسمر
الوجه بارده ، لا يثير عاطفة ما في نفس المرأة ، ولهذا
بدأت تحس بانتفاض في صدرها وبوحشة في نفسها ،
وظنت أنها أصبحت حقاً وحيدة !

ولقد أثر فيها في البدء عطف زوجها وحده
عليها ، لأنه دائم الحرص على راحتها ، وتوفير أسباب
الهناء لها . وما من مرة لمحت بحاجتها إلى شيء
إلا أسرع فكفله لها ، وإذا حدث وأحست مرضاً
أو توعكا فإنه يفنى راحته في سبيل راحتها ،
ويغمرها بعطف وحب كثيرين . كان يسرف
في خدمتها ويمده جيلاً منها لو أنها كلفته بالقيام
بأي عمل من أجلها ؛ وأحاطها بجيش من الخدم
يلبون نداءها لأول إشارة ، وما عليها إلا أن تأمر
فتطاع ، ومع ذلك فهي تشكو وتتذمر !

أما أسعد الأوقات عندها فهي حينما يأتي «أمين»
لزيارتها ، فيتسامران ويتمازحان ، ويقرأ لها أشعار
الحب والغزل ، وتحدثه أحاديث الغرام والوجد !
لقد رأت فيه رجلاً جديداً يختلف تمام الاختلاف
عن زوجها . وجدت في نفسه الرقيقة الفياضة
بالعاطفة ، صدى لنفسها المتعطشة إلى الحب ،
وتأكدت أنها لو تزوجته لعاشت حياة كلها مرح
وسعادة ، تختلف تمام الاختلاف عن حياتها

ففي إحدى الأمسيات ... كان يسير معها ...
وكان الجو صحواً والنسيم عليلًا ، والهواء معطراً
بشذى الزهور ، والقمر العاشق يغمر بأشعته الفضية
أطراف المحبين الدنفين ... فتحركت عواطفه وقاض
غرامه ... واعترف بحبه ، وقبل أن تفيق من دهشتها
كان قد احتواها بين ذراعيه وسجل غرامه بقبلة
على شفيتها !

ووقفت الفتاة أمامه مضطربة ، مرتجفة ...
وقالت :

— ولكن ... لم يكن ينبغي أن تفعل هذا ...

وترقرقت الدموع في عينيها وأردفت :

— لو رأنا أبى ...

فقاطعها بلهجة الواثق :

— لا يهم ، سأفأخ والدك بالأمس ...

وقصد إلى غرفة أبيها وفأتمحه في الأمر ، ولكنه
قال في لطف إنه وعد ابنته رجلاً آخر ...

— رجلاً آخر ؟ كيف ؟ لماذا ؟ أأستأحق

الناس بها ؟

ومع ذلك فهي تبادله الحب ، وما قالت لي
إنها مخطوبة ؟

— لعلها لا تعلم ، ولعلك نسيت أن تقاليدنا

في الزواج لا تجعل للفتاة أهمية في هذا الموضوع !

— ولكنها تبادله الحب !

— اسمع يا أمين : إنك شرفتي بطلب ابنتي .

ويحزني أنني لا أستطيع إجابة طلبك ، ومن الخير

التي تحياها مع زوجها الباشا !

ومضى عام ... و « أمين » العاشق المغرم يرى بأن وحيدة ضرورية لسعادته كما هو ضروري لها ! ولم يكن يستطيع أن يتصور أن وحيدة في كنف زوج مغرم بها وعليه أن يتركها ليسلو وينعمى وتنسى !

والمعجب من زوجها الباشا أنه ماشك يوماً في نية أمين . والحقيقة أن « أمين » ما فكر يوماً أن يمت بقرينته وينتهك حرمة الزوجية وقديسيها ، ولم يكن يخطر على بال وحيدة أنها ستسلم يوماً ما لأمين التي تعبد عبادة أو ستعمل المستحيل للزواج به ثانية ! ولكنها امرأة ، ولكنه إبليس !

وفي إحدى الأمسيات المدهمة خرج الباشا لزيارة صديق له فلم يجد . وفي ذلك الحين همت عين السماء بمطر كأنه أفواه القرب ، وازدادت الوحول واشتد زفيف الريح قتاله من البرد والطر ما لم يتحملة جسمه الواهن فوق فريسة الحمى والمرض ، واشتد عليه المرض فجاء الطبيب ووصف الدواء محذراً الزوجة من أن تعطيه أكثر من عشر قطرات في كل وقت وقامت في نفسها فكرة ... شرب زوجها الدواء فنام إلى الأبد ، وانتهت حفلة الدفن ورجع الناس يعدون خصاله ويترحمون عليه ، وترك زوجته ثروة لا تعد ولا تحصى ، ملايين من الأصفر الرنان !

وهنا تقرب من الخاتمة ، فبعد العدة بشهرين

زُفَّت وحيدة إلى زوجها الجديد الدكتور « أمين » الذي لم يكن يعلم مادبرته وحيدة للخلاص من زوجها والزواج به

ولقد كان من سوء حظها أن تكتب يومياتها في مفكرة صغيرة عثر عليها أمين فقرأ فيها ما كان ، فماله الأمر وتجاهل أنها فعلت ذلك رغبة فيه . فخرج جاءت وحيدة فمالها أن تجد مذكراتها ممزقة ، مبعثرة تتطاير من هنا إلى هناك ، وأن أمين قد خرج ...

وقضت ليلة أرقه مسهدة فيها محنة وفيها عذاب ، فضاقت في عينها الدنيا ورمت بنفسها من النافذة فإذا هي على الأرض كومة من العظم واللحم والدم ! ...

نابض محمد العزاري

كتاب النقد التحليلي

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

هو أول كتاب في اللغة العربية عالج النقد الأدبي بالطرق العلمية المؤدية ، والمقاييس المنطقية المنتجة . بناء المؤلف على نقد كتاب (في الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين ، ولكنه استطرد لدرس مسائل مهمة في قواعد النقد وأصول الأدب ومناهج البحث حتى جاء الكتاب مرجعاً في هذا الباب ونموذجاً في هذا الفن . وهو في الوقت نفسه يغني القاري عن كتاب (في الأدب الجاهلي) لأنه لخصه تلخيصاً وافياً .

يبلغ في ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط

وتمنه ١٢ قرشاً خلاف أجرة البريد

ويطلب من إدارة الرسالة

دون ما مراثٍ تلقى أو خطب
تقال ...

فتشاءب زابوكين وقال :

— الأمين ؟ آه . أتعني

ذلك السكر ؟

— إنه هو ... ولكن

لا تنس يا عزيزي أن مائدة

عشاء ستؤذّب ، وأجر العربية

سيدفع ، هيا يا صاح فما عليك

إلا أن تلقى بإحدى خطبك على القبر ... وستلمس

بعينيك مدى إعجاب المشيعين بك وتقديرهم لك ...

فأجاب (زابوكين) طلبه دون ما تردد

ولا إحجام ... وتكلّف الحزن العميق تأهباً

لما سيلقى . ثم قال لصاحبه : إنني أعرف (الأمين) ..

ذلك الوغد الزنيم .. عليه رحمة الله ! وأدركا الموكب

وقد بلغ المقابر ، وحط النعش على الأرض ، ووقفت

أم الفقيد وزوجه وأختها تذرفان الدمع الهتون —

تبعاً للعرف — وما إن أُنزل النعش في القبر حتى

أعولت زوجه وصاحت بأكية : دعوني أرحل معه .

إلا أنها لم ترحل معه ؛ مع أن أحداً ممن حولها لم

يحل دون ذلك . ولعلّ ما حال دون أن تشاركه رمسه

ذلك الراتب التقاعدي الذي ستتناوله . أما (زابوكين)

فقد سكت حتى شمل الجمع السكون ، فأدار بصره

في الحاضرين وبدأ خطبته قائلاً :

يا ترى أبصري وسمي صادقاً ؟ أم إنني أشهد

حلماً مرعباً يبدو لي فيه هذا الرمس المظلم الرحيب

وهذا الحشد الباكي الحزين ... وأأسفاه ... إنها

الحقيقة . فليس ما أراه حلماً ، وليست أبصارنا

— وبالأأسف — بخادعة .. إن من كان حتى

الأمس يفيض صحة ونشاطاً .. قد مات وووري في

التراب وأصبح ذكرى تستدر الدمع الساخن الغزير .

لقد سلبه الردى منا ، وهو لا يزال في عنفوان قوته

من روائع الأدب الروسي

مرثاة ...

للقصصيّ الروسي أنطون تشيخوف
بقلم الأديب فيصل عبد الله

في صبيحة يومٍ صاح مشرق مات « عضو
التحكيم » (كيريل أفانوف بايلونوف) صريع
الداءين اللذين كثيراً ما أوديا بحياة الروس :
إدمان الخمر وقظاظة الزوج ... وكان الناس
في شغل بتشيع موكب جنازته الذي كان في طريقه
إلى القبر ... إلا أن (بولافسكي) وهو صديق حميم
للفقيد ، أسرع فامتطى عربة أدت به إلى صديق له
يدعى (زابوكين) . ولزابوكين هذا قدرة على ارتجال
الخطب فائقة ، فهو يقولها أنى كان وحيثما يدعى ،
فلا تموقه سنة ولا حمى ولا سكر عن ارتجالها ...
سواء أكان في مأتم يرثي ، أو في حفل يلهج ويشيد ،
كانت الكلم تتدفق من فيه كالماء غزيراً سلسالاً ...
وكان هذا ما حدا ببولافسكي أن يسرع إليه ،
ولا سيما والخطب الذي ألمّ يحتاج إلى خطيب يعدد
مناقب الراحل الفقيد كزابوكين ... وقال بولافسكي
لزابوكين حينما لقيه :

— إنني آت لأدعوك ... فهيا يا صاح ارتد
معطفك واتبعني . لقد مات اليوم أحد زملائي ،
وموكب جنازته في طريقه الآن إلى القبر . وليس
لنا في مثل هذه الخطوب غيرك ... ليس لنا من
خطيب راشر مفعو ، سواك ... ثقي يا صاح أنه
لو كان الميت وصيماً مركزه لما أزعجتك . ولكنه
(الأمين) ... فلا يليق بنا أن نوسده التراب

وبهائه .. وأوج فتوته ونشاطه .. وإن يك متقدماً في السن ... أية خسارة منينا بها ... من ذا الذي يستطيع أن يحتل مكانه في قلوب عارفيه ... لدينا أيها السادة كثير من الموظفين .. إلا أن (بروكوفى أوزبتش) كان جوهرة بتيمة فيما كان يزدهى به ويفخر . وكان - أيها السادة - المثل الأعلى للرجل الكامل الرفيع بخلقه ، السامى بنفسيته . لقد كان الفقيد يأبى الرشوة فلم يرتضها يوماً . وكثيراً ما كان يبدى مقتته واحتقاره لمن كان يلج عليه في أخذها وتقبلها . لقد كان يرفضها كل الرضى ويزدري ضعاف النفوس ممن كانوا على تقيضه . كما لا أظنكم تجهلون أنه كان يهب راتبه التافه على مشهد منا لزملائه الموزين . وها أنكم الآن تسمعون بأذانكم نجيب الأرامل والآيى اللأى كن يعشن من فيض إحسانه . لقد ذهب ذلك الذى وهب حياته للبر ، ونذر نفسه للخير ، وإنكم لا تعلمون بلاشك - أيها السادة - أنه كان أعزب ولم يزل كذلك حتى وسد التراب ... إننى لأتصوره الآن بوجهه الشرق الحليق ويسماته الحالة المذاب ، ويخيل إلى أننى أكاد أسمع صوته الرؤوف الذى كان يفيض حناناً ويقطر رقة وإخلاصاً . فإلى رحمة الله يا (بروكوفى أوزبتش) ... إلى الجنان الخوالد أيها العزيز ... وداعاً أيها الراحل الكريم ...

وكان الخطيب مبدعاً حقاً في إلقائه فأحرز بهذا إعجاب السامعين ... إلا أن العارفين منهم بالميت أدهشهم مما قاله أشياء . ذلك أنهم لم يفقهوا علة ذكر الخطيب اسم الميت على أنه (بروكوفى أوزبتش) مع أنه كان (كيريل أفانوفتش) . وثانياً أن الكل كان لا يجهل أن الميت قضى حياته في تمكيد صفو حياة زوجه ، فكيف يقول الخطيب إنه كان عازباً عن الزواج ؟ وأخيراً لقد كانت للميت لحية حمراء كثة ولم يك بحليتها ... فلماذا يصفه الخطيب بأنه كان حليتها ؟ ... واشتد عجب السامعين وتبادلوا

الهمس والنظرات ... وهزوا أكتافهم ساخرين وتابع الخطيب كلامه : « إى (بروكوفى أوزبتش) لقد كان وجهك شاحباً مرعباً ... إلا أننا كنا نعرف أن وراء ذلك قلباً طاهراً نبيلاً ونفساً كريمة » . وما لبث السامعون أن لحظوا على الخطيب دهشة بلغت حد الدهول . فقد انجبه بصره إلى ركن من الحشد ، ثم التفت إلى بولافسكى زائغ البصر ، وقال تهديج : إنه حى ! - من معنى ؟ !

- بروكوفى أوزبتش . إننى أراه واقفاً عند القبر - ومن قال لك إنه الميت ... ؟ إن الذى مات هو (كيريل إيفانوفتش) أيها الأبله ... - ولكنك قلت لى إن (الأمين) قد مات - لقد كان (كيريل أفانوفتش) أميناً أيها الأحمق ... لقد حل محل (بروكوفى أوزبتش) بعد أن نقل هذا ككاتب فى مستهل العام المنصرم - وأنى لى أن أعرف هذا ولم يسبق لى به علم ؟ ! - ولماذا توقفت عن خطابك ؟ استمر أيها البليد فأدار زا بوكين وجهه شطر القبر وواصل رثاءه وعينا (بروكوفى أوزبتش) عالقتان به تحديقاً فى حلق وغضب ... وما إن انتهى من الدفن وعاد المشيعون حتى أخذ زملاء (زا بوكين) يلفطون ... لقد دفنت رجلاً حياً ... وأسرع (بروكوفى أوزبتش) إلى الرأى حاتقاً ساخطاً : « لا بأس أيها النبى الأحمق بخطبتك إذا كانت رثاء لميت .. أما أن ترثينى وما زلت حياً فإنها سخريه بى بليغة وتهكماً يخلق فظيع ... لقد قلت إننى لم أقبل الرشوة ولست بذى أغراض ومنافع ... ومثل هذا القول لا يقال عن موظف حى إلا بقصد إدانته واتهامه ... لم يطلب منك أحد أن تصف وجهى بالخيف المرعب ... إنها إهانة فظيمة سوف ترى منى العقاب عليها »

فبصل عبد الله

« بغداد »

— وأختي سيده؟ أتبيكين

يا سيده؟

ولكن سيده لم تكن تبكي
فحسب... إنها كانت تذرف
روحها من عينيها الجيلتين
المحزوتين.

لقد حاولت الفتاة أن تخفي
ما بها لكنها لم تستطع... لقد

انهمرت دموعها بشدة فقالت لها وداد:

— كلا يا سيده! كلا يا أختاه! إننا لسنا بهذه
الدرجة من الشقاء التي تنكأ في فؤادك مثل هذا
الآلم... يجب أن نصبر... إن الله القدير ينظر إلينا
وهو بنا لطيف خبير... افرضي أننا جلسنا حول
هذا المعجين نبكي طول الليل، فماذا يكون حالنا؟ هل
تخبره دموعنا؟

فنظرت إليها سيده، وهي تكفكف دموعها،
وراحت تقول:

— أما والله لا أبكي لحالي يا أختاه... إنما يبكي
ما يقاسيه أخي من الجوع...
فضحكت وداد ثم قالت:

— أي جوع وقد تغدى منذ ثمان ساعات فقط!
فقالت سيده:

— ثمان ساعات! وكيف؟ إن لنا يومين لم نذق
خلالهما طعاماً!

فقالت وداد:

— يومان، كيف؟ وحيات الأرز والعدس التي
سفها طاهر بمد الظهر؟

وتبسمت الأم المحزونة، ثم أومأت إلى سيده
أن تشعل النار في الفرن.

(٣)

مُعْظَمُ الْفَتَاتِ

أَقْصُوصُ مِصْرِيَّة
بِقَلَمِ الْأَسْتَاذِ دُرَيْخِ خَشَبَة

كان المنزل حزيناً واجماً... وكانت الأم الرؤوم
قد نخلت مسحوقاً أسمر اللون جافياً وأخذت تمعجنه،
وبحثت ابنتها (سيده) عن علبة الثقاب طويلاً،
ثم لم تجد بها غير عود واحد... عود واحد من
الكبريت في هذه الليلة الهائلة من ليالي أمشير
القمطرير... وصعدت وداد فوق السطح تجمع أعواد
الحطب المبللة، وعليها أسمال لا تقي من البرد الذي
كان يشك المسكينة كما تشك الإبر... وكان الطفل
الصغير طاهر يبكي ويئن ويتلوى من الجوع والبرد،
وكان يغافل أمه فيلهم قطعاً صغيرة من عجينة السن
يعالج بها بطنه الخاوي، فلما شهدته أمه يصنع ذلك
جرت من عينيها دموع غليظة كانت تجاهدها مجاهدة
عنيفة، وكانت تحرص على ألا تذرف حتى لا تفجر
أحزان العائلة البائسة... لكن الدمعة غلبت الأم
الضعيفة الواهية فجرت على خدها الشاحب الممتقع...
ولمحتها سيده فتفجرت بالبكاء الذي كانت تحبسه،
فلما نزلت وداد ورأت هذا المنظر قالت ضاحكة:

— أنت تبكين يا أماء!

— كلا يا ابنتي. إنها دموع تغلبنى من البرد.

يا لها من ليلة!

لشده ما كانت الريح تعصف هذه الليلة ! ولشد ما كان البرد والصقيع يلفحان هذه الدار الواهية ! يا الفقراء !

توفي الشيخ محمد (الفقي) عن هذه الأسرة الشقية ، ولم يترك لها ما يقيم أودها إلا بر أصدقائه وعطف عارفه إن كان بر الأصدقاء وعطف العارفين بقيان في هذا الزمان أودا أو يسدان رمقا أو يستران عورة ، أو يمسخان تلك الدموع التي فجرها ألم البرد وأنين الجوع وزمهرير أمشير في تلك العيون الشقية البائسة !

لقد كان المغفور له يشتري بآيات الله ما يتصدق به الرزؤون عند المقابر ، وما يشترون به رحمة الله يستزلونها فوق الأجداث بالعيش والكمك والملايم وأوصال القصب ... وكان المغفور له محبوباً من الناس لأنه كان يخدم جميع الناس ، ويقضى لهم حوائجهم ، ويحمل أطفالهم ، ويحميهم مكر الطريق وأذى الكلاب ... وكان قنوعاً لا يساوم في أجر ولا يلحف في طلب ولا يشغل في سؤال ... وأحسب هذا هو الذي حجب الناس فيه ... فهم كانوا يستغلون قناعته البائسة في نقصه أجره ، وهذا من ألأم طباع الناس ...

وكان الشيخ محمد يحرص على إعزاز عائلته حرصاً شديداً رغم هذا العوز الذي كان ملاقيه ... فلم يكن يسمح لزوجته أو ابنتيه بالذهاب إلى منزل أحد من أعيان المدينة في حاجة مما يدفعهن الفقر إلى سؤالها ... ورفض ألف مرة ما عرضته عليه زوجته من الخدمة في منازل الأغنياء « لأنه ابن أصل وحامل لكتاب الله » ، كأنهم قالوا إن زوجة ابن الأصل وحامل كتاب الله لا يجوز لها أن تخدم

الناس ولا أن تساعد نساء الأغنياء في النسل والخبز ولوازم المنازل . فتساعد بهذا زوجها الشقي بما يؤثرها به عملها ، وتخفف من ضغط ما يصنع الفقر بأبدان أبنائها وما يشيع فيها من مرض وجوع ووصب ...

على كل حال ... هذا قانون تصنعه العزة ويشرعه التعفف ومصدره الفضيلة والحياة في نفوس الفقراء ... وهذه هي الفرائز التي فصلت بيننا وبين الحيوانات فجعلت لنا تيارات من التفكير تدفع ثمنها برغمنا أحزاناً ودموعاً وشكويات

وكانت سيدة ابنة الشيخ محمد فتاة ممتلئة الجسم بضمة الظهر ، لها ابتسامة يحسبها الراي مفتاح القنص ... وكانت تلفت الأنظار إذا خطرت في الطريق بقدميها الحافيتين الجميلتين البيضاوين ، وبجسمها المشوق الملتف في الملاء السوداء الساحرة . وكان للشيخ محمد صديق حدث السن ابن تاجر غني يسمى خالد ، وكان هذا الصديق مولماً بسيدة ولماً شديداً ، وقد دخل غرامه بها إلى فؤاده عن طريق قدميها . فكان غراماً قذراً لأنه نشأ من التراب وتغرغ في الطين ، ولم يكن كهذا الغرام الذي تبثه العيون النجل فتطهره بالنار وتصره بالسحر وترفعه إلى السماء .

وقد ظن خالد أن موت الشيخ محمد سوف يسهل عليه قضاء لبائاته من الفتاة التي خلبتة وسلبت فؤاده وأقامته وأقمته في هوى مبرح وغرام متقد وفكر سابح في جسمها البض ، وقدماها النض ، وجالها الغينان

وكانت سيدة تعرف ما ينطوي عليه خالد من حبا لكنها كانت تعرف أيضاً أنه يريد لها للشيطان

في الهواء فتحسبها موسيقى تنزل من السماء كالحيا
يهتز له الروض وتراقص تحته الأزاهير

كانت وداد بارعة في مضغ كلامها ومطه وإرساله
سهلاً هيناً ليناً ، وإمالة وترصيعه بطرف لسانها
أو بحس شفيتها ... وكانت ترنه إذا شاءت فيجلجل ،
أو تخطفه فينقطع كالنغمة الصامتة التي تقف حين
تقف أغلة الموسيقى على أحد أوتار العود

ما كان أجدر وداد بجنة من زهر وطيور وأنهار
من لبن وخمر وعسل مصفى تعيش فيها مع الملائكة
الأطهار الأبرار !!

ما كان أجدرها بجنة من سحر وشعر وموسيقى
وغناء وحب !

ما أكثر وداد على هذا الفقر اللئيم اللعين !!
ولكنها ليست كثيرة على هذه الأم المفتودة ،
والأخت المنكودة ، والأخ الطفل الضعيف اليتيم ...
ليست كثيرة على هذه الأسرة البائسة التي غال الموت
عائلة فقضى عليها بالصبر والجور والحرمان ... إنها
ضحكة مكبوتة في صدر مكروب حزين ... إنها بارقة
الأمل في حلك اليأس وليل الشقاء البهيم ! ...
فلتصبر أحزان أمها سعادة إذن ، ... ولتلعب
في مأساة أختها الناشئة بينها وبين خالد دور البطل ..
ولتنظر كيف تعبت بعثت الزمان ، وكيف تبدد هذه
الآلام والأحزان ... وكيف تحمل محل والدها الفقيه
فتبتر السكك وتحتال للرغفان ، وتربي الطفل المسكين
بملاليم الحزاني وصدقات الشكالي وقروش المجانين !

كان الحطب مبللاً ، وقد حرصت سيدة لذلك
ألا يذهب عود الكبريت سدى فلا يكون خبز
ولا يكون أكل ولا يكون دفء ، ويكون عكس
ذلك جميعاً

وليس يريد لها الله الرحيم الرحمن ، فكانت تشيح عنه
دون أن تقطع جبل أمه ، وكانت تصلي لله أن يهديه
إلى سواء الحب ، فيثور على تقاليد البيثة ، ويتفتح
لها بقلبه ، كما تفتح لها بحسده ، فيتقدم إليها خاطباً
لا أن يقعد لها بكل طريق خاطباً ... على أنها مع
ذاك لم تحبه قط ، بل إنها لم تمل إليه ولو أقل الميل
وأهونه ...

أما وداد فكانت فتاة مريحة لا ترى أن يكون
الفقر سبباً لهم أو طريقاً إلى ألم ... لقد كانت تشدو
شيئاً من التعليم حصلته في كتاب القرية ، وكانت
لذلك تشدو كثيراً من آيات الله وقليلاً من القصص
الديني ... وهذا الكثير من آيات الله والقليل من
القصص الديني إذا صادفا ذهنًا مستنيراً كانا غناء
لفتاة في مثل ظرف وداد وفي مثل طلاقها وإيناسها
وحدة ذكائها

وكانت مع ذلك جميلة ولو لم تبلغ من ذلك جمال
أختها ، لكن جمالها القليل كان أخطر من جمال
أختها الكثير ... لقد كان جمالها خطراً عظيماً على
كل قلب غريب ونفس خالية ... لقد كان لها عينان
تحسنان الغمز وتجيدان التكلم وتعرفان طريقهما
إلى سويداءات القلوب ... فإذا أرادت أن تثير فيها
الرحمة عرفت كيف تفجر فيها الألم ، فيهمر من العيون
دموعاً ... وإذا أرادت أن تفرقها في لجج الغرام
فلا نجاة لها ولا خلاص سلطت عليها سهاماً مراشاة
تدي شفافها بل تمزقه ، بل تشب فيها ضراماً لا ينفع
فيه طب ولا حيلة معه لدواء

هاتان عينا وداد !
أما مصرتها فكان سلاحاً لا يقل خطراً عن
مهلكات الغرام جميعاً ... لقد كانت ترسل نبراتها

القش، فتصاعد الدخان الكثيف يملأ أرجاء المنزل، وقبل أن تنطفئ أشعلت الورقة الثانية وقد علا ضحكها وأغربت فيه حتى نهرتها أمها وصبت عليها جاماً كاملاً من الشتم واللعن والسباب... ولكن ذلك لم يمنع الورقة من أن تحترق وتطوى سرها معها إلى الأبد كما طوت سرها الورقة الأولى آخر الدهر

وسألها سيدة ماذا كان يضحكها، وكيف سرها أن تضحك على ما هم فيه من هذا الكرب.

فقال لها ودا: « خمني ! »

فقال سيدة: « وكيف أخمن ؟ »

فقال ودا وهي (تبط) الرغيف و (تخدعه):

« يجب أن تخمني ! »

فاستشاطت سيدة، ووجدتها بنظرة محنقة ثم سكنت

وأكلوا لا هنيئاً ولا مريئاً... وكان طاهر يتربص بالرغيف الأول الذي خرج من الفرن فالتهمه بقليل من الملح؛ ثم نام فوق الفرن وتغطى، وأخذ يرسل في أرجاء المنزل غطيطة مزحجاً

وانطلق المؤذن يرسل في سماء المدينة أذان الفجر... فهضت العائلة المقدسة تتوضأ وتصلى، وتنهياً لزيارة المقابر، وكان اليوم يوم الجمعة المبارك الذي تتردد فيه الأرواح على رموس الموتى كما يزعم الجزاني من أهل سكان القبور

وبدت لوداد فكرة خاطفة فلم تتردد في تنفيذها

قالت لأمها:

— اليوم الجمعة يا أماء، فبم تتصدق على روح المرحوم؟

فقال لها الأم الموهونة:

— تتصدق؟ ولم تتصدق يا ابنتي، وبم؟

وذهبت تبحث عن ورقة تشعلها تحت الحطب، ولكن عبثاً حاولت أن تجدها... فلم يكن في البيت من كتاب غير كتاب الله القدير، وغير الكتب الدينية القليلة التي كانت تقرأها ودا في الكتّاب... وقد حاولت أمها أن تجعلها تأتي بورقة منها لا لزوم لها فتشعلها لتشتعل النار وليخبزوا ويأكلوا ويستدفئوا... لكن ودا دافعت عن كتبها النافهة في دعاة وحزم، وأبت أن تنزع منها ولو غلافة داخلية لا تؤثر في بهجة كتاب الديانة، إن كان لكتاب الديانة القديم الرث بهجة — ولا تنقص من كتاب التهذيب شيئاً، إن كان للكتاب كله وزن في هذه الليلة الليلية التي اشتد قهرها وفدح صررها واشتد الأخذ والرد بين الأم وسيدة من طرف وبين ودا من طرف آخر... وعبست الأم، لأنها كانت تضيق بمزاج ودا ذرعاً... ثم فاضت كأسها فزجرت وراحت تسب وتشتم وتلعن الكتب والكتّاب وبنات المدارس... والحمد لله فلم تكن ودا منهن، وإن تكن من بنات الكتّاب

وخشيت ودا أن تتناول الأم كتاب الديانة كله فتشعله بالثقاب لكي تأخذ في عملها... وفي الحق لقد أوشكت الأم أن تصنع ذلك... لولا أن تضاحكت ودا ثم طمأنت أمها وأكدت أنها ستأتي لها بورقتين جيدتين يبني أن تحرقا جالاً، ويبني أن تتخلص منهما الدنيا بأسرها لا هذا البيت الحزين وحده... وذهبت إلى غرفة النوم والاستقبال وتربية الكتاكيت والخزن، وفحت صندوق الملابس والأطباق والبقايب، ثم عادت تحمل الورقتين الكبيرتين وهي تضحك ضحكات ساخرة، ثم أشعلت عود الثقاب، ودب اللهب في الورقة الأولى تحت

— إذهي وأنا غير راضية ... واذكري أننا
فقراء إلا من الكرامة يا ابنتي
— إطمئني يا أماء
وهنا قالت سيدة :
— وماذا لو أتيت معك يا وداد ؟
فقلت .

— لا ... لا أريد أن يأتي معي أحد ... بل
إن لكم موعداً فلا تخلفوه ...
وانطلقت وداد في ملاءتها السوداء الشاحبة ،
وراحت تطوى الطريق الموحلة تحت قطرات الطل

المدينة ما تزال نائمة ، ولم يستيقظ من أهلها
إلا عباد الله الصالحون ... وهؤلاء عادة هم الطاعنون
في السن الذين ينظرون إلى شبابهم المولى فيطمعون
في شباب مثله يكون لهم في جنة عرضها السموات
والأرض ؛ فيعملون له بالصوم والصلاة وإدمان
التفكير والضراعة إلى الله .. وهذا شيء محمود منهم ،
وكان محمد لهم أكثر لو أنهم فعلوه في فتوة العمر
وشرح الشباب وعنفوان الصبا ... حين محمد للمرء
مجاهدته للنفس الثائرة والقلب الجروح والفرزة الشابة .
أما هذه التقوى التي تأتي عن عجز الجسم وموت
القلب وعزوف الرغبات فهي تقوى الطمع والبكاء
على ما فات ... على أنها تقوى محمود ، وهي برغم
ما قامت عليه من نقص خير من شية تصر على البني
وتمرح في الضلالة ولا تأبى أن تمصى الله ...

كانت تنهادي وداد في غبشة الفجر بقدمين
رشيقتين كقدمي دمية ، وكان الشيخ سيد أحمد قد
خرج من المسجد بعد صلاة الصبح يسبح ويحمد الله
ويسأله أن يمد في عمره حتى يعمل عملاً صالحاً يرضاه

— لم تتصدق ؟ ألا تعرفين لماذا يتصدق الناس ؟
— أعرف لماذا يتصدقون ... ولكن الناس
كلهم لا يتصدقون !
— أجل ، ولكن يتصدق خيارهم !
— وهل الذين لا يتصدقون هم شرار الناس ؟
— وماذا يكونون إذن ؟
— يكونون إما قادرين على الصدقة ولكنهم
لا يفعلونها ، وإما معوزين فهم بالصدقة أحق ...
أليس كذلك ؟ !

— ومن أيهم نحن يا أماء ؟
— نحن من الناس الذين لم يكن عندهم أمس
غير عود واحد من الكبريت ، وغير قدحين من
النخالة ...

— ولكننا أكلنا ودفننا والحمد لله !
— الحمد لله ... هذا ما لا شك فيه ! وهل يحمد
على المكروه غير الله ؟
— ونستطيع أن نتصدق أيضاً !
— ولم لا نستطيع إذا كنا أغبياء مثلك ؟
— مثلي أنا ؟ ...
— والله يا ابنتي أنا لا أدري بأي أجزاء جسمك
تفكرين ؟ !

— أفكر يرأسى طبعاً !
— إذن تترك لرأسك المدير المفكر الحصول
على ما نتصدق به
— إذن دعوني أنطلق إلى القرافة وحدي ،
ولا تلحقوا بي إلا بعد الشروق ...

— وماذا تصنعين ثمة ؟
— لا أستطيع أن أذكر لك هذا الآن ...
ولكن أرجو أن تطمئني إلى ما أنا صانعة

- وقبل أن ينحني ليربط حذاءه حانت منه الفتاة إلى هذه
الأنثى السارية وحدها في هدأة الصبح ، وقد شددت
ملاءتها حول ردفها شداً وثيقاً فجعل يهز ويرج ويغازل
الأبالسة والشياطين ، ويطلق الأفاعى والشهوات ،
ويسلط الفتنة على أمثال الشيخ من الصالحين الأوايين
ونسي الشيخ صلاته وتسبيحه ، وهرول وراء
الفتاة دون أن يعنى بربط الحذاء ، فالتصقت الأربطة
بالوحد ، وفي سبيل الشيطان ما يلقي الفؤاد الهيمان
وجعل السيد أحمد ينحنج ويرسل في الهواء
بعض ما كان يتقنه من لغة المغازلات أيام الدنيا شباب
والعمر فينان والقلب مشبوب ... وكانت وداد تعرف
ما أصاب فؤاد الشيخ وما انطوت عليه أخالعه ،
فكانت تتخلع في مشيتها أكثر فأكثر لترى ماذا
يصنع المدنف المتصابى ... وهكذا كانت وداد خبيثة
صرحة في طريقها إلى الموت !!
- وهرول الشيخ سيد أحمد ، وأسرعت وداد ...
ثم برز من الظلام فتى عريض الكتفين مشدود
المعضل طوال يبعث في القلوب رهبة ، ويثير في
النفوس حالاً من الوهم لا تدرى مصدره ... فانطلق
في إثر الشيخ حتى إذا حاذاه قبض على قفاه بيد جبارة
عاتية وقال له :
- إلى أين أيها الوالد !
— ومن أنت ؟
— ألا تعرفني ؟
— كيف أعرفك وقد أرخيت هذه العبادة على
رأسك كاللصوص والقتلة هكذا ؟
— أي لصوص وأي قتلة يا شيخ سيد أحمد ؟
— عجباً ! أتعرفني ولا أعرفك ؟
— إذن فاطمن لمعرفتي إياك على الأقل
- من أنت بالله عليك ؟
— ليس من شأنك أن أذكر ذلك لك ...
— ومن شأنك أن تكسر رقبتى يا ولدى ؟
— وما قيمة رقبة تخرج من المسجد لتنتقل
وراء امرأة كالكلب المسعور هكذا ؟
— أنا يا ولدى ؟ أستغفر الله ... أستغفر الله !
— أحقاً تستغفر الله يا شيخ سيد أحمد ؟
— أستغفره وأتوب إليه ... لقد تركنا هذه
الصناعات لكم يا شباب العصر
- إذن أين كنت معتزماً أن تذهب ؟
— أزور مقابر المسلمين
— وماذا لك في مقابرهم أيها الأب !
— عظة وعبرة لمن لا يتمظ ولا يعتبر يا ...
ما اسمك إذن !
— أنا ... أنا عزرائيل !
— أعوذ بالله منك يا سيد عزرائيل ... أترك
رقبتى جعلت فداك !
— لن أتركها حتى تصدقنى ... ألم تكن تتبع
هذه المرأة الرذاح ؟
— والله إنك لا ذوق عندك !
— وكيف ؟
— لا أنت تركتني في سبيلي ولا أنت الذى
تسرع حتى ...
— حتى ماذا يا سيد أحمد ؟
— حتى لا تفوتنا يا خبيث !
— إذن هلم ...
وانطلق الشيخ والفتى في إثر وداد ، وكانت
قد ابتعدت كثيراً عنهما ، بيد أنهما لحقاها بعد
جهد ، وكان الطريق قد انمرج ناحية المقابر ، وكانت

سكان هذا العالم الثاني ؟ لا أحسب أن الفراق هو الذى يبكي الناس . إنه الفزع من ظلام القبر وديدانه . الفزع من أن يأتى اليوم الذى نغيب فيه فى ظلمات التراب وتأكلنا ديدانه ... نحن نخاف على أنفسنا ؛ ولذلك فنحن نبكى علينا لا على ذويتنا . وإن يكن منا قليلون سيكون على أحبائهم !

أية فلسفة فارغة هى هذه الفلسفة ؟ أين وداد ؟ آه ! ها هى ذى جالسة على الثرى تلو آيات من الكتاب ! حقيقة إن فى الدنيا جمالاً هو الذى يحب الناس فيها حتى ليؤثروها على كل شيء ، حتى على الحياة الباقية ... !

ما أجل ما يرتل القرآن قبل الشروق بضوت ساحر هادى رقيق مثل صوت وداد ؟ ! هذا هو القرآن الشهود ... قرآن الفجر !

لقد اجتمع الناس من كل صوب ليسموا إلى هذا الترتيل كأنه ينطلق فى آذانهم من مزمار داود ... ثم سكنت وداد ، فدست الأم المحزونة الجالسة فوق ترى ابنها قطعة فضية من ذات القرشين فى يدها ، وأقبل الناس يدسون فى اليد نفسها قروشاً كثيرة تهلت لها أسارير المقرئة الجريئة . ولما انتقلت فى صف آخر من المقابر القريبة وجدت أخانا الشيخ سيد أحمد عند قبر منقرد يتحدث إلى صاحبه الذى يسمى نفسه عزرائيل ، فلما شاهداها صمتا ... ثم رأى الشيخ أن يحزج كأن فرصة المزاح كانت مؤاتية ، فقال لها وقالت له :

— ألك فى صورة تقرئينها على موتانا يا ست الشيخة ؟

— ولم لا ... أنا مستعدة يا شيخ سيد !

— يا خبر ! أنت تعرفيننى ؟

رهبة الأبدية تشر ظلالها ثمة ، وأشباح الموتى ترف فى فجر أمشير ، لكنهما لم تكن تثير الرعب فى قلب وداد اللعوب ، ولا تردع الرجل والشباب عن متابعة الفتاة .

قال الشيخ وقال الفتى له :

— هل صليت الصبح يا ... سيد عزرائيل ؟

— صليته ما فى ذلك شك ...

— وماذا أفادتك صلاتك ، وقد جعلها الله لتنتهى

عن الفحشاء والمنكر ؟

— إنها إن لم تنهى هذه المرة فإنها سوف تنهى

يوماً ما ... لكنك أنت ... هل صليت ؟

— إني أغالب نفسى على الصلاة فلا أستطيعها

وأسال الله أن يهدينى قريباً

— ومتى تنتظر أن يهديك الله يا سيد عزرائيل ؟

— أحسب أننى لن أهتدى قبل أن أتزوج

— وماذا يمنعك من الزواج ؟

— لا يمنعنى شيء ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— أخشى ألا أهتدى بالزواج كما لم تهتد أنت به !

— ستمود إلى رذالتك من جديد ... أسرع ..

أسرع يا مغفل ... لقد فانتنا الفتاة ...

وكانت وداد قد فاتهما بالفعل ، وكانت قد غابت

عن أنظارهما كأنما ابتلعها المقابر

ماذا هنا فى هذا العالم الثانى ؟ !

لماذا يبكي الناس كثيراً هنا ؟

هل هو الفراق الذى يفجر دموعهم وعللاً

أفقدتهم أجزائاً ؟ !

هل نحن فى هذه الدنيا الخاتلة أحسن حالاً من

— وكيف لا أعرفك وقد كنت صديق والدي!

— والدك!

— أجل والدي! هل نسيت؟

— ومن والدك يا ست الشيخة؟

— يا للوفاء ويا للأوفياء!

— لست أذكر! من أنت؟

— ألا تعرفني؟

— لي الشرف!

— ما دام لك الشرف فاسمعي أقرأ لك أولاً

— تفضلي!

— آمل أن يروقكما ترتيبلي ... أليس كذلك

يا سيد خالد؟

— خالد؟ ومن خالد؟

— صديقك هذا ... أليس هو خالد أفندي

عبد النبي؟

وجذب الشيخ سيد أحمد الغطاء عن رأس

صاحبه فإذا هو خالد عبد النبي حقيقة ... وقد عجب

عجباً شديداً كيف لم يعرفه وقد ماشاه كل هذا

الوقت من مسجد ولي الله إلى هذا العالم الثاني!

ولكن كيف عرفت وداد خالد؟! المسألة

بسيطة جداً ... إن هذا الجسم الممتلي الذي اكتنز

عضله ليس لأحد في البلدة إلا لخالد ... وقد كان

خالد المدنف بسيدة بنت الشيخ محمد يحوم حول حمى

حبه في مثل هذا الوقت من كل فجر ... وكانت

وداد تعرف هذا الأمر، وكانت غيرة خفيفة تدب

في قلبها من أجل أن القنص ليس قنصها، فلما

خرجت هذا الفجر قاصدة إلى القرافة كان خالد يقطع

الطريق أمام المنزل الفقير جيئة وذهوباً ... وقد

عرفته برغم العبادة الكبيرة التي كان يخفي في ثناياها

رأسه ... أما هو فقد تبعها بعد أن عرفها ليرى إن

كانت الفرصة تسنح ليخاطبها عن سيدة؟ لكنها

كانت خبيثة، وكانت تعرف أنها ذاهبة إلى المقابر

لترى إن كانت تستطيع أن تصل عمل المغفور له

والدها العزيز الراحل ... لذلك لم تتلصك ليكلمها

خالد، حتى كانت أمام المسجد، وكان ما كان من

لقاء الشيخ سيد أحمد للسيد عزرائيل ...

وتربعت وداد على الثرى المبلل وأخذت في ترتيل

آيات الذكر الحكيم ... فلما رتل: (قل للمؤمنين

يفضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ...) جعلت

تردها في خشوع وخشية، وكان الأفق الشرقى

قد بدأ يصطبغ بأمواء الورد والبنفسج، وكانت

حواشي السحاب الرائع تنشر في الشرقيين أذيالها

فتضاعف جلال الترتيل، وتترج بالصوت البكر

والقراءة العذرية، ثم تترقرق جمالاً وتقوى في قلب

خالد وفؤاد سيد أحمد، الذي عرف من صاحبه أن

الفتاة هي ابنة صديقه الشيخ محمد رحمه الله

وختمت وداد آياتها، ثم همت بالانصراف،

فد خالد يده بقطعة فضية كبيرة، وكذلك صنع

الشيخ سيد أحمد، ودست وداد القطعتين في جيبها

ثم ذهبت من طريق، وذهب الرجلان من طريق

آخر، كما ذهبت الشياطين كلهما من طرق شتى وفي

وجوهها حسرة، وفي أفئدتها تلدد، لما أصابها من

الفشل في أداء مهمة الشر التي أبقت من الجنة

بسببها؛ والتي من أجلها قاسمت الله العلي أن تقعد

للناس صراطه المستقيم.

— لماذا لم تحضروا لميعادكم؟

— كان أخوك نائماً فخشنا أن نتركه وحده ...

عسى أن يكون الله قد فتح عليك يا وداد ! !

— الحمد له حمداً حتى يرضى !

— وما هذا الذى فى (طرفك) إذن !

— خير كثير ومال !

— مال !

— ولم لا يكون مالاً ؟

— ومن أين لك المال يا ابنتى !

— كما كان أبى يصنع صنعت !

وجاست وداد تمدد الرغفان والكعك، وأقبلت

سيدة وأقبل معها أخوها على أوصل القصب بمصانها

بشغف ، وهما بين الفينة والفينة يقضمان كعكة

أولاً كلان قطعة من المعجوة المقشورة اللبسة بالسهم

وكلاً أبدت الأم انتقاداً لما صنعت وداد راحا يجادلانها

ألا سبيل إلى (السَّتر) إلا هذا السبيل ! !

أما النقود فقد أربت على الخمسة وعشرين قرشاً

فكانت وحدها أكبر برهان على عبقرية وداد وصحة

براهين سيدة ، وعقم مرارة الأم وفساد انتقاداتها

اشتهر أمر وداد القرنة ومحبة ليالى المولد النبوى

فى كل القرى المجاورة ، وأخذت أنهار الخير تنصب

فى البيت البائس الفقير حتى عمرته ، وحتى بدلت

أتراحه ، وما راع الناس إلا هذه العمارة التى جددت

شباب المنزل وكسته بالملاط ودهنت بابه وشبابيكه

فأصبح (فيللا الشيخ محمد) ، كما كان الخبثاء من

أهل المدينة يسمونه ! !

تُرى ! ماذا كان يختبئ فى أعماق وداد من

الآمانى والآمال ! ! إن الله قد وهبها مسحة من الجمال

الساحر للغامض تكفى لأن تكون رأس مال امرأة

تريد أن تلعب دورها فى الحياة بمهارة ... فما بالها إذا

كان الله العلى قد زودها بهذا الصوت الساحر الذى

أخذ يلعب بألباب الجماهير ويخلب أفتدسهم ، والذى

لا تنقصه إلا صنعة قليلة وإلا عود مُرِن ، أو وتر

مرتان لينطلق مدوياً بين أصوات الفنانين !

وبعد ، فلقد ضاقت البلدة الصغيرة بعبقرية الفتاة ،

وأخذ الطائر المختبئ فى صدرها يهفو إلى جنات

أخرى ... إنها تسمع إلى راديو المقهى البلى القريب

من منزلها فتعجب كيف اشتهرت هذه الأصوات

المفكرة وكيف تدوى فى آفاق العالم على حساب

شهرة أصحابها ، فى حين تتوى هى فى هذه البلدة

الصغيرة المجهولة كيوسف المحبوس وهو النبي الوفى

الأمين ! !

ولكن أين تذهب وداد وفى عنقها هذه العائلة

المقدسة ؟ ! إن القاهرة قرية حقاً ، لكن كيف

السبيل إليها ، وبينها وبين مدينة الملك هذا الملاك

الحارس الذى هو أمها ؟ ! ثم ماذا تصنع فى القاهرة

الفاروقية التى لا تعرف فيها أحداً ؟

ولكن لماذا لا تجازف ؟ هل كانت تعرف أنها

ستبرع تلك البراعة فى ترتيل القرآن وإحياء المولد ؟

إن كل مشروع مفتقر قبل كل شيء إلى المقاحمة .

وكم أمل طويل عريض قضى عليه التردد ، ولوسنده

قليل من الإقدام لطار بصاحبه بجناحي نسر فى سموات

المجد والشهرة .

— سأسافر غداً يا أماء إلى القاهرة ؟

— القاهرة !

— أجل ... القاهرة العظيمة

— ما هذه المفاجأة يا ابنتى ؟

— لا مفاجأة ، ولا شيء ... لقد عزمتم

أن أجرب حظى هناك !

- يا ابنتي لقد كبرت ، فكيف أطمئن عليك في بلاد الغربة ؟!
- القاهرة بلاد غريبة !
- ألسنت ستكونين بعيدة عني ؟
- ولماذا أكون بعيدة ؟
- لا أفهم !
- ستلحقون بي بعد قليل
- كلنا !
- كلكم
- وماذا تصنعين هناك وليس في القاهرة أحد يعرفك !
- سيعرفني الكثيرون بعد قليل .
- وكيف تعرفين هذا !
- هاتف يا أماء ! هاتف جميل ما يزال يدعوني وپوسوس بالأماني البراقة في صدري . لابد أن أتبعه لابد أن أتبعه !
- ألا تسمعين نصيحتي يا ووداد !
- وبم تنصحين يا أماء ؟
- بالأ تفادري بلدتنا هذه
- ولماذا ؟
- لأنها درت علينا أخلاف الرزق
- وهل لا تدر القاهرة أخلاف الرزق ؟
- إن القاهرة يا ابنتي بلدة عظيمة شاسعة ، وبناء الشهرة فيها من المضلات ... وليس أشأم في حياة الإنسان من ترك ما هو فيه مما عرفه وخبره من وسائل الرزق إلى ما لا يعرفه من وسائله ، خصوصاً في بلد مثل القاهرة . وقد كنا في حال من الضيق قبل أن يفتح الله عليك ، فبدل الله ضيقنا سعة وشقاءنا نمياً ودعة ، فإذا سمعت نصيحتي فامكثي هنا والبثي
- في تلك البلدة فهي الأهل والوطن والمحيا والمات ...
- ولماذا لا أجرب يا أماء ؟ إن لدينا من النقود ما لا نخشى معه مغبة التجربة !
- هذا كلام جميل ... لكن ...
- لكن ماذا ؟
- لكني أخشى عليك من القاهرة يا ووداد !
- ولماذا نخشين على منها يا أماء ؟
- إنها فتنة يا ابنتي ... وصنعتك أقرب ألوان الصنعة إلى فتنة القاهرة وضلالاتها ، فإذا كان الهاتف الذي يدعوك ويجذبك إلى القاهرة قوياً مغرياً ؛ فإن هاتفاً أقوى منه قد قذف في قلب الرعب من مشروعك هذا !
- ليس هاتفاً هو الذي قذف في قلبك الرعب من أجلى !
- إذا ماذا عساه أن يكون ؟
- إنه قلب الأم
- ليكن هو الذي تقولين !
- من كان يصدق يا أماء أنني أحفظ هذا الكثير من الكتاب ، ثم أحترف هذه الحرفة التي تريدن أن تربطيني ببلدتنا من أجلها ؟
- لم يكن أحد يصدق ... هذا صحيح !
- فلماذا لا أطلب المزيد من الشهرة والمال ؟
- الشهرة والمال !
- أجل ... الشهرة والمال ... أليس هذان هما أكثر جوانب الحياة بريقاً ؟ أليس كل الناس يطلبون الشهرة والمال ؟ فكري يا أماء في حالنا قبل أن يطير ذكرى في هذه القرى وقبل أن تمتلي أيدينا بالمال ... هل كان حال يسر ؟ أتذكرين ليلة

لملكاته ، لأنها سرعان ما تبلى وبأكلها الصدا وتقلب
حسناتها إلى سيئات ربما دفعت الدولة أموالاً طائلة
لتتق غوائلها ...

— لقد أسرفت في مدح المال يا وداد
— ولماذا لا أسرف في مدحه وهو عندى كل
شيء في هذه الحياة !

— كل شيء !
— أجل ، كل شيء ، لأننا أصبحنا في عصر
تبدلت فيه الظروف القديمة؛ فتحول الناس عن صوفية
الفقر إلى صوفية الغنى

— ومع ذلك ، فأنا أخشى عليك من القاهرة ؟
— وماذا تخشين على منها يا أمى ؟ أتخشين أن
يحرفنى تيارها ؟

— كدت أقول هذا !
— إنه تيار جميل رخی لمن يحسن السباحة فيه
— ومن ذاك الذى يحسن السباحة فى تيار
القاهرة

— أنا !
— أنت ؟
— ولم لا ؟
— لأن التماسيح تسبح فيه بكثرة ، وهى كما
تعلمين تسبح أحسن منك !

— إطمئنى ... فسأحمل بندقية صيدى دائماً

لم تستطع الأم الربوم أن تثنى غريزة ابنها عن
السفر إلى القاهرة ... لأن إرادة وداد كانت إرادة
فولاذية لا تلين ، وفى الحق ، لقد كانت وداد تسمع
هاتفاً قويا يناجيه ويلون لها الأمانى ويهرج لها
الأحلام ، ويتبدى بها جالسة على عرش عظيم ممرد من

أمشير ؟ أما زلت تذكرين أخى طاهراً وهو يلهم
قطع المعجين ؟

— أذكر هذا كله يا وداد ، لكن الشهرة
والمال ليسا شيئاً قط ما لم يكن تحتهما دعائم من
السعادة !

— وماذا يصنع السعادة كما يصنعها المال ؟
— المال وحده لا يصنع السعادة يا وداد
— هذه أقوال الفلاسفة النظريين يا أماء ،

أو هى أقوال المساكين والفقراء ، وهم يقولونها
ليسوا أنفسهم ... إنها علالة يملأون بها أدمغتهم
الفارغة .. إن الرجل الذى لا يسنده المال لا يستطيع

أن يعرف ما هى السعادة ! يشقى الفقراء فيقولون
وماذا ينفع المال إذا أصابت الإنسان مصيبة فى صحته
أو فى عرضه أو فى ولده ؟ ! كأن الفقير بنجوة من
أن نصيبه المصيبة فى صحته أو فى عرضه أو فى ولده ،
وهى إذا أصابته فى شيء من هذا كانت مصيبته أفدح

من مصيبة ذى المال ، لأن مصيبة الفقير تصادف
قلباً مكتظاً ويدا فارغة أما مصيبة الغنى فتصادف
عكس ذلك . إنها تصادف قلباً فارغاً ويدا مكتظة
وشتان بين الحالين ... لا تصدق يا أماء أن للفقير

قيمة فى عالم الحقيقة ... إن أكثر قيمته ناشئ من
عطف الناس المصطنع ... وهم يقولون إن للفقير
ملكات قد لا تكون للغنى ، ولست أدري لماذا
لا يكون للغنى أحسن وأكثر من ملكات الفقير ؟

على أنه إذا كان للفقير ملكات فماذا ينمىها إلا المال ؟
إن الفقير محتاج لكي ينمى ملكاته إلى ملجأ أو جمعية
خيرية أو غنى من أهل البر أو حكومة منصفة عادلة
كي تأخذ بيده وتعينه بالمال حتى تنضج ملكاته ،
فإن لم يجد معينه الذى يسنده بالمال فلا قيمة مطلقاً

- المجد والشهرة إذا هي ذهبت إلى القاهرة ، وقد
استجابت لندائه ؛ فذهبت إلى المحطة بعد أن ودعت
العائلة المقدسة ، وركبت القطار للمرة الأولى في حياتها
ولقيها الشيخ سيد احمد فحياها وحيته ، وجلسا
على مقعد واحد من مقاعد الدرجة الثالثة :
- إلى أين إن شاء الله يا ست الشيخة !
— ست الشيخة ؟
— يا ست وداد !
— هذا أفضل !
— وله ؟
— أنا ذاهبة إلى القاهرة ، فكيف أكون
الست الشيخة ؟
— زيارة لأهل البيت أم ماذا ؟
— سأزور أهل البيت إن شاء الله ، ولكن
ليس لهذا اعتزمت السفر إلى مصر !
— لعله خير إن شاء الله !
— خير ... خير عظيم إن شاء الله
ثم أخذ الشيخ يداعب ويمزح ، وذكر الفتاة
بفجر أمشير ، فقالت له :
— وبمناسبة فجر أمشير يا شيخ سيد ، هل
أعجبك صوتي يوما ؟
— أعجبني صوتك ؟ الله أكبر ؟
— لم أفهم !
— ما هذا السؤال يا ست وداد ! لقد سحرتني
صوتك وهو ما يزال يرن في أذني إلى اليوم !
— وهل سمعتني بعد ذلك ؟
— سمعتك كثيرا !
— وما رأيك في صوتي بصفتك من موازين
الفن في بلدنا ؟
- رأي !
— أجل ... أنا أسألك عن رأيك الحق ، ودع
عنك محاولة إرضائي
— رأي أنك لم تخافي لبلدتنا الصغيرة يا ست وداد !
— ولأى البلدان خلقت إذن ؟
— أقول لك الحق !
— هذا هو ما أطلبه منك
— لقد خلقت للدينيا بأسرها يا وداد ، واعذرني
إذا خاطبتك هكذا
— أنت تبالغ يا شيخ احمد ... يا شيخ سيد ...
لا تؤاخذني فقد ربكتني
— والله إنك مخطئة في البقاء هناك ! طيري
يا شيخة ! طيري إلى القاهرة فهي مهد الفن ، وهي
وحدها التي تتسع لك
— وماذا أصنع هناك وأنا لا أعرف فيها
إلا قليلين من أقاربي !
— ماذا تصنعين ! أركي لي هذا الأمر أدبره
وأنا أضرب بك كل فنانى مصر والشرق !
— يا رجل ...
— أقسم لك يا وداد لو سلمتنى زمامك لغدوت
ملكة الغناء في مصر ؟
— ملكة الغناء ؟
— أى نعم ، ملكة الغناء ... - إلى أرى -
ألا تقصرى حياتك الفنية على ترتيل القرآن وإحياء
الموالد ... إن صوتك المطاط الرنان هو أليق الأصوات
للغناء ، فلودرست الألحان وشدوت شيئا من الموسيقى
لغدوت ملكة الغناء كما قلت لك !
— كلامك جميل ولكنه لن يخدعنى
— ليس إلى خديعتك أردت يا وداد ... ثقي
أننى أقول لك الحق !

البال والصحة والحياة الهادئة في كسر بيت حقير .
 فهؤلاء في رأيها معذورون لأنهم لا يملكون أن
 يقولوا إلا هذا . وهم يقولونه وهم يعرفون أنهم يغالطون
 أنفسهم ويغالطون المنطق ، لأن الصحة في الغالب
 لا تتوفر إلا للغنى ، وراحة البال كذلك هي من
 نصيب الغنى قبل أن تكون من نصيب الفقير والحياة
 الهادئة إن كان في هدوء الحياة شيء من الفضل ،
 هي أقرب متناولاً للغنى منها إلى الفقير ، لأن الفقير
 يخشى الجوع دائماً وهو من خشية الجوع ينسى
 كثيراً من فضائل الإنسانية العالية ، فهو دائماً
 يتملق من هو أعلى منه ، وهو دائماً ذليل يغضى
 على الهوان ، ثم هو مع ذاك شديد الحقد شديد
 الحسد ، ثم هو منبع دائم للجرائم . فإذا عفا عن
 الجريمة فإنه قلما يعف عن الحقد وحسد الأغنياء ؛
 والدولة التي يشتد الفقر بين أفرادها هي أشد الدول
 انحطاطاً وأكثرها عكوفاً على الموبقات ؛ والدولة
 التي لا تعالج فقراءها بإصلاح أحوالهم المعاشية وفتح
 أبواب الرزق لهم ، لن تستفيد كثيراً بالمستشفيات
 والملاجئ والسجون التي لا تبنيها إلا للفقراء ، ومثل
 هذه الدولة معرضة دائماً للحسد الأكبر ، والحسد
 الأكبر هو البشفية ، لأن البشفية هي ثمرة حسد
 الفقراء للأغنياء ، ثم هي ثمرة غريزة حب التملك ،
 لأنه ليس صحيحاً أن البشفية تأتي بالتملك ، فلقد
 أراد معتقوها بادی الرأي حرمان الأغنياء من
 أملاكهم ليملكوها هم باسم الدولة ، والملكية هنا
 وإن لم تكن حق التصرف فإنها تعني قائدتها الكبرى
 وهي الانتفاع
 استطاعت وداد هذه الفتاة الفتية المحدودة
 الثقافة ، التي ازدهرت عبقريتها أول ما ازدهرت

— وكيف لي أن أتعلم الألحان والموسيقى ؟
 — هذا من أيسر الأشياء عليك إذا رضيت
 أن تأخذى برأى !
 — إذن ماذا نصنع !
 — صدقى الشيخ زكريا !
 — الشيخ زكريا ؟
 — أجل ... إنه يعلمك الألحان والموود في
 ثلاثة أشهر
 — ثلاثة أشهر فقط !
 — بل في أقل من ثلاثة أشهر يا وداد !
 — هذه مبالغة لا شك
 — ليست مبالغة ، لأنك فنانة بطبعك ، والطبع
 كالأرض الخصبة التي لا ينقصها إلا البذر لتعطى
 أكلها
 — إذن ...
 — اتفقنا ...
 — اتفقنا يا شيخ سيد !
 — وعلى ذلك نقصد من محطة مصر إلى منزل
 الشيخ زكريا مباشرة !
 * * *

المال !!

هذه هي الأنشودة الهائلة التي كانت تملأ خيال
 الفتاة الفنانة وداد ! المال هو كل شيء في هذه الحياة ،
 إنه محور السعادة في نظرها ... والسعادة في نظرها
 هي القصور والبساتين والسفر وتعلق الفقراء للأغنياء ،
 وشعور القدرة على قضاء الحاجيات ، والتحكم في
 مقادير الخلق ... المال هو كل شيء في حياة الأفراد
 كما هو كل شيء في حياة الدول ... أما المفلسون
 الذين يذمون المال ويشتمونه ، ويفضلون عليه راحة

مرض وضعف ، ثم إن أمها لم تحس عليها من القاهرة إلا الفتنة ، وما هو من باب الفتنة من حب وغرام وضلالة أخرى

وكانها عاهدت نفسها قبل أن تركب القطار إلى القاهرة إلا أن تحقق رجاء أمها فلا تنهزم أمام أبالسة العاصمة ، وشياطين الضلالات فيها ، فكانت دائماً تذكريها حذرتها أمها منه ، فلم تكن تأبه كثيراً لنظرات العشاق الطائرة ، ولا لكلماتهم المصنوعة ، ولا لأشاراتهم الفاسقة التي لا يريدون بها غير وجه الشيطان ، وغير إشباع اللبانات والشهوات .

برعت وداد في الغناء الفنى براعة هائلة ، واستطاعت أن تبكر ألواناً جديدة من الغناء التمثيلي نارت بها على عرف التخت الشرقى الجامد ، ولم تبال أن تمزج بين الغناء وبين الرقص التوقيى ، ولم تزل بأختها سيدة تطن فى أذنيها بالأمانى الجميلة والآمال المسولة حتى حبت إليها الحياة الفنية ، وجعلت تغمسها برفق فى أجواء المسارح والسينمات ، وكان أكثرهما أن تشاركها أختها فى عملها ، فقد أوتيت سيدة من الجمال نصيباً لم يتوفر لوداد ، وجمال ريات الفن هو نصف رأس مالهـن ... فإذا اقتسمتا العمل فستكون وداد للغناء وستكون سيدة للرقص ، وجسم سيدة كفيل باجتذاب الجماهير ، لأنه جسم مرمى سليم له بشرة وردية يترقرق فيها عطر ليست فيه رائحة ، ولكن فيه مغناطيس يكسبه زغب العذرية سحراً وقوة

ولكن الرقص ما زال معدوداً فى مصر خلاعة إن لم يكن فجوراً ، والناس - أو أكثر الناس - لا يعرفونه فناً من أرقع الفنون التى لا تقل قيمة عن الشعر أو الرسم أو التصوير أو الموسيقى ، بل

بين القبور وترى الموتى ، وفى بيت والذها الفقير البائس المعوز المغفور له الشيخ محمد ، استطاعت أن تفكر كل هذه الأفكار ، لأنها أفكار خفيفة سطحية تدور بخلد كثير من الناس فيما يتعلق بدولة المال ، لكنها امتازت عن هؤلاء الناس بإقدامها وحسن استغلالها لما زودها به الله من جمال قليل لكنه غامض ، وهنا مقدار فتك الجمال إذا أُجيد استخدامه ، ثم هذه الحنجرة الغالية التى اكتشفها وداد فى فجر أمشير ، وعرف قيمتها الشيخ سيد أحمد فاقترح تقويمها بالألحان والموسيقى لتكون صاحبها ملكة الغناء فى مصر .

وقد صدق الشيخ سيد أحمد ، فقد مضت ثلاثة أشهر ثقفت فيها الفتاة عقد الموسيقى العملية ، واستطاعت أن تلمب على العود فتأتى بنغم كان له الفضل الأكبر فى تقويم صوتها ، لأنه كان كلاماً والسماد صادفاً أرضاً صالحة فأنبثت من كل زوج بهيج وقد أعجب الشيخ زكريا بوداد ، وراعه منها حسن استعدادها وتوفرها على دروسه ، وكان يربكه منها جمالها الغامض ، واستطاع أن يقاوم مغناطيس الحب فى فؤاده شهرين متتابعين طويلاً ، وفى الشهر الثالث صرعه التيار العنيف فباح بحبه ، ولكن ليس بلسانه بل بدموعه ، ولم تسأله وداد لماذا يبكي ، فقد كانت أذكى من تلك المنزلة لكنها داعبته بكلمات ظريفة نسي بها تباريحها ، ثم ظلت تحاصر هواه وتعبث به حتى برعت فى الألحان وألمت بدروس العود ...

وحينئذ ... أخذت تقف منه موقف الفتاة التى لم يفتح قلبها للحب بعد ، لأنه قلب يشغله أمل أوسع من الحب دولة وأقوى منه سلطاناً ، ذلك هو أمل المال .. المال قبل الحب ، لأن المال صحة وقوة والحب

التي أعقبت الانتهاء من عرض المنظر الأول، والتي أطلقوا فيها أكتفهم وحناجرهم تصفق وتدوى بالتحية والإعجاب، وكانت باقات الورد والرياحين تنتثر فوق السرح تحت قدمي وداد، ووداد تبتسم ابتسامة رقيقة محتشمة، وتنظر نظرة واجفة نحو أختها سيدة لتتأمل ماذا تم من أثر هذا العرض في نفسها

وانتهت الحفلة، ونالت نصيبها اللانهائي من النجاح، وفي اليوم الثاني، بدأت طائفة من أكرم الهدايا تصل إلى وداد من شخصيات مصرية كريمة لا يمكن أن يكون تقديرها لما رأت من رقص وسمعت من غناء تقديرًا شائهاً إبليسياً كما تمود الآخرون أن يفعلوا؛ وقد انتقت وداد من الهدايا حلياً غالية وضعتها بيدها على جيد سيدة وفي رأسها وإصبعيها ...
— أرايت يا سيدة !

— ... ؟ ...

— هل أصابني سوء مما فعلت يا أختاه ؟
— أنت جريئة ... جريئة جداً يا وداد !
— ولم لا تكونين جريئة أنت أيضاً يا أختي !
— أعني أن أكون كذلك ... ولكني لا أستطيع الآن !

— بل تستطيعين ... فقط ...

— فقط ماذا ؟

— تتعلمين

— وماذا أتعلم

— تتعلمين ما تعلمت ... الأستاذ صادق فنان متقدم في السن، حميد الحاصل موفور الأدب طيب السيرة، وهو الذي تولى تلقيني هذه الدروس في الرقص، وهو الذي سيتولى تلقينك أيضاً !

يعدونه من تجارة تكسب المال بالأجسام، فهو عندهم باب الزنا. ولذلك فهم يعدون كل راقصة فاجرة تتجر بجسمها أمام الناس وتوزع محاسنها بالقروش على أبصارهم يأكلونها ساعة أو ساعتين ثم ينصرفون وقد تأججت شهواتهم بين أضالعهم، وفي خلداهم صورة الراقصة المسكينة ما تزال تيمس وتدلل وتتأود وتثني ...

هكذا ينظر الناس في مصر إلى الرقص والراقصات، وقل منهم من ينظر إليه نظرة أرفع من هذه النظرة وأسمى، ولذلك فقد وقعت وداد أمام مشكلة هائلة وهي تحاور أختها كي تقنعها باحتراف الرقص، وكانت وداد قد تلقت دروساً في الرقص التوقيمي على يدي فنان عظيم، فلم يسمعها يوماً إلا أن تدبر حيلة لتحارب في نفس أختها النفور من تلك الحرفة الجميلة، فدرت حفلة مجانية في صالة من أكبر صالات القاهرة؛ ثم دعت إليها طائفة كبيرة من عليّة المصريين الذين سمعوا بغنائها وعرفوا ما فيه من أسرار القوة والنبوغ، فلبوا الدعوة جميعاً، ولما حان موعد الغناء تجردت وداد من ثيابها المادية ثم أضفت عليها ثياب الرقص للمنظر الأول الذي أطلقت عليه اسم « أمل فتاة ». وكانت صور المنظر قد نقشت على ستائر المسرح بأيدي كبار الفنانين المصريين الذين أوتوا في هذا السبيل نصيباً عظيماً من العبقرية وسلامة الذوق في أداء المعنى وإضفاء الروح الشعرى على المنظر المطلوب ... وبرزت وداد بعد إطفاء الأنوار وأخذت في الغناء وتوزيع الرقص في غمر جميل من الأشعة ذات الألوان المختلفة ... لله ما كان أجملها وما كان أروع ثنائها وهي تتأود في فيض أشعة البرتقال ! لقد كان الناس معذورين في هذه النوبة الجنونية

المال الكثير والثروة المديدة ، واستطاعت أن يكون لها مسرح خاص أصبح قبلة رواد محبي الفن الخالص المجرد الذي لا يستعين في استغواء الشباب بالأرداف والأنخاذ والنجوى المخشّة والخلوة التي يطير فيها الميراث وتبديد الثروات ... وكان لذكرى برغم صدود وداد منزلة الملحن الأول في المسرح كما كان لصديق برغم صدود سيدة منزلة مخرج أدوار الرقص ... وقد طال حب البطلين للبطلتين ، لكن الفتاتين لم تفتحا قلوبهما لأحد ... لقد أصبح جمع المال وتنمية الثروة طبيعة لهما ... فهما لا تعرفان حباً كحب الذهب ولا غراماً كغرامهما بالأسهم والسندات والدور والقصور والزارع والضياع ... لقد أصبح لهما من ذلك الشيء الكثير ... لكنهما مع ذلك صابتا عفافهما ، ولم تجمعا مما جمعتاه ملياً واحداً حراماً ، ولو قد التفتتا إلى جمع المال من طريق حرام لاجتمع لهما هرم كهرم خوفو من الذهب . . . لقد كان غناء وداد دروساً في الوطنية وأغاريد في الحب والجمال وحفز الهمة إلى العالي ، وكان غناؤها يمتزج برقص سيدة فتكون حولها جنة كلها إعجاز وكلها حور ومياه دافقة وزهر وشجر وطير وثمر يانع جناه دان ودوح غصونها حوانى ... لقد كان فهما شيئاً جديداً في الفن المصرى ... لأول مرة شهد الجمهور المصرى رقصاً لا يثير شهوة ولا يتملق الفريزة الجنسية ، وإن يكن جسم سيدة جسماً يانعاً يافعاً فيناً وإن يكن لهذا الجسم اليانع اليافع الفينان ثديان يقلقلان الفؤاد الخلى ، وساقان ناعمتان مستويتان ، وخصر لطيف نحيل وذراعان لدنتان ، تنهيان بأصابع عاجية تكاذ تنعقد من لين وطراوة . . . أما وجهها فهو دولة كاملة من الباهج والمفاتن ، وحسب الغم تلك الابتسامة الغريبة البريئة التي لم تعرف الختل ، وحسب العينين

— وأمى يا وداد! آه لو رأيتك الليلة الماضية !!
— أمى ! وما دخل أمنا إلا في المحافظة علينا من أن نزل !!
— هي تعتقد أننا في حياتنا هذه أدنى إلى الخطيئة — لتعتقد ما تشاء ، أما نحن فنسأل الله أن يقينا مصارع الزلل
— وكيف نسأل الله أن يقينا مصارع الزلل ونحن نلقى بأنفسنا مكتوفين في الميم ؟
— هذا وهم كاذب ... إنك يا أختاه ستقومين بأداء أدوار من الرقص التوقيعى التمثيلى إما بمفردك وإمامى ، ولن يشترك معنا أحد ... إن آمالى الواسعة في عالم الفن مفتقرة إلى جسمك الخصب أشد الافتقار ... إن جسمك المشوق الممتلى لم يخفق لشهوات الأزواج فقط يا سيدة ! إنه خلق للكفاح في دنيا الفنون ، وثق أن الله سيحفظنا من شياطين الإنس ما دمنا لا نقع في حباثلهم ولا ننغمس في خباثتهم ... فهلمى ... أعينى يا سيدة ... يجب أن نعيش سعداء وأن نهض بتربية أختينا الصغير ، ونضمن لأمتنا آخرة سعيدة هانئة . أما نحن .. أما أنا وأنت ، فسترين كيف يصطرع العشاق تحت أقدامنا فنختار منهم زوجينا ، فإذا ولى الشباب ، ولم يعد لنا رونقه الذى هو أول ضرورات الفن ، اعتزلنا الرقص والغناء ، وأقمنا في قصرينا المنيفين إن شاء الله ، نكلأنا عينه ، ويسندنا ما ادخرناه لهذا الغد المحتوم

آه لو كان للرجال مثل إرادة وداد !
لقد تألق نجمها في عالم الغناء كما تألق نجم أختها في عالم الرقص ... وقد جنّ الأستاذ صادق بسيدة كما جنّ الأستاذ ذكرى بوداد ... لكن الأختين التزمتا الحفاظ أعواماً ثلاثة استطاعتا خلالها اقتناء

تلك النظرات الهادئة التي لم تتلفها الصنعة ، وحسب
الجبين تلك الأشرقة التي تملأ القلوب نوراً ووضاءة ،
أما شعرها فقد كان فاحماً ساجياً يغدودن على الكتفين ،
ثم تطير خصلة منه غير مصفوفة على الجيد ، في حين
تنثر أخرى في الهواء ، حسب ما يتفق التثنى في
الرقص وكانت سيدة مع كل هذه المفاتن لا تثير الحيوان
في اصلاص النظارة ، بل كانت تبث في أفئدتهم
روعة الفن ونعمة التلذذ به ممتزجاً بسحر التصوير
وجمال توزيع الضوء ... ثم ... سمو الفناء الجميل
الذي كانت وداد تبعثه مع النسيم من فوق القمم
ومن صميم الوديان أو من بين السحب !

وتبسم الحظ الوافر للفتاتين

لكن زكريا لم يعد يطيق صبراً على حاله المبرحة
من هيامه بوداد ؟ ولا الأستاذ صادق بمطيق التجلد
على هوى سيدة

— لست أدري يا صديقي زكريا لماذا أرسلك
القضاء إلى بهذه الفتاة ! لقد أورثني حبها السقام ،
وصرت من غرامى بها في جحيم وفي نعيم ، وأخشى
أن يحرق جحيمي جنتي !

— أسكت يا صادق ! أسكت يا عزيزي ! والله
إن قصة حبنا لتثير الشجون ... إن كنت أنت
في جحيم وفي جنة ، فأنا في علة دائمة لا أحسبها
تنتهى إلا بميتي ... عجيباً لهذه الفتاة عجيباً ! إنها لغزا
إنها سر غامض .. أتصدق أنني لم أستطع إلى اليوم
أن أنتزع منها تصريحاً أو تلميحاً بأنها تميل إلى
ولو بعض الليل ، ولو كصديق ، ولو كرجل لقنها
ألحانها جميعاً وعلمها أسرار الموسيقى ! أنا ؟ لشد
ما يحزنني أنها هزمتني ! أنا الذي لا أعلمها إلا أحاديث
الحب وكلمات الغزل وآهات الغرام ! أعلمها كل ذلك
وأعجز عن ابتعاث شيء ولو تافها من الحب في قلبها !

— ألا أقول لك يا زكريا ؟

— تقول لي ماذا ؟

— لقد صرنا هرمين يا صديقي ، والبناتان
في شبابهما الريان ، ثم لا تنس أنهما أصبحتا من
الغنى بمكان يبعدهما عنا كثيراً ... إنهما تطمحان
إلى من هم أكفأ منا وأعلى مقاماً ...

— ماذا تقول يا زكريا !

— أقول الحق يا صديقي ... والرأى أن نظل
عائشين في ظلهما نسعد ونشقى في وقت معاً ...

وأطرق صادق رأسه ، ثم نظر إلى زكريا وفي
عينه عبرة مترقرة توشك أن تنهمر ، ولم ينبس بكلمة
ثم نهضا ليذهبا إلى منزل وداد ... أو قبلا
وداد بمصر الجديدة ، فقد كانا على موعد معها لشأن
من شئون العمل

— أهكذا يكون جزائي يا آنسة وداد !

— أى جزاء يارجل ؟ إن كنت في حاجة إلى
نقود فأنا أعطيك ما تريد !

— نقود ؟ أنا لست في حاجة إلى نقودك يا آنسة !

— إذن ماذا تريد ؟

— ألا تعرفين ؟

— ومن يدريني ؟

— إذن أريد قلبك .. أو أريد قلبي يا عزيزتي !

— لغة لا أفهمها ... إسمع يا شيخ سيد أحمد ،

لا تظن أنك تكلم مطربة ممن تعرفهن في عرض
الطريق

— طبعاً ... أنا أكرم الآنسة الفنانة الكبيرة

وداد بنت الشيخ محمد الفقي الله رحمه الله

— رحمه الله رحمة واسعة ، وهل في ذلك

ما ينقص قدرى !

— ومن قال إن ذلك ينقص قدرك !

— إسمع يا شيخ سيد ! كم سنة عمرك ؟

— خمس وأربعون

— وكم سنة عمري ؟

— خمس وعشرين !

— كذاب !

— بل أكثر من خمس وعشرين !

وكانت أمها حاضرة هذا اللقاء ، وكانت أمها تود

من قلبها أن تزوجه ابنتها وداداً ، لأن الرجل ليس

طاعناً في السن كما تحسب الفتاة ، ثم هو في سعة

من العيش ، ولم يكن أحد يظن أن مثل الشيخ سيد

يرضى أن يتزوج بنت الشيخ محمد الفقي ، فلما جاءت

مسئلة السن تدخلت وادعت أن وداداً لا تزيد عن

عشرين أو إحدى وعشرين ، ثم قالت : إن شهادة

ميلادها موجودة وكذلك شهادة ميلاد سيدة ، ومع

أن الموقف لم يكن موقف هزل ، فقد تضاحكت

وداد فجأة ، ثم بالفت في الضحك حتى استلقت على

كرسي الذراع القريب ، وهي ما تكاد تملك نفسها

من شدة الضحك

— ماذا أضحكك يا وداد ؟

— لا شيء يا أمي ...

— لا يمكن ... لا بد أن أعرف !

— لقد ذكرت شيئاً ...

— وماذا ذكرت ؟

— شيئاً قديماً ... قديماً جداً !

— تكلمي يا وداد

— أمّا كدة أنت أن شهادتي ميلادي وميلاد

سيدة عندنا ؟

— طبعاً ... ! إلى محتفظة بهما

— إذن توثق بهما

— ولماذا ؟ هل أنا كذابة !

— أستغفر الله أن تكوني يا أمي ... ولكن

لأراها وليقتنع الشيخ سيد

وكان خالد أفندي عبد النبي قد أقدم مع الشيخ

ليخطب سيدة فتتحنج ثم قال إنه لا يظن أن الأنسة

وداد تزيد عن ثمان عشرة سنة ، وكان تعلقاً ثقيلاً

ما كان أغناه عنه ... وذهبت الأم ثم عادت بورقتين

دفعتهما إلى وداد التي أغرقت في الضحك إغراقاً

شديداً ، لأن الورقتين كانتا ورقتي عقد إيجار ...

ثم ذكرت وداد ليلة أمشير التي لا تنسى ، وأنها

جاءت لأمها بورقتي الميلاد لتستعين بهما في إشعال

النار ... فكانت تسلية ظريفة أضحكت الجميع ...

ولما هدأت العاصفة قال خالد :

— وأنا يا ست سيدة !

— وأنت ماذا يا سيد خالد ؟

— إنه ليسعدني أن تقبليني زوجاً

— أمّا ؟

— طبعاً أنت ؟

— أنا لا شأن لي في هذه الأمور يا عزيزي

— ولن الشأن إذن ؟

— سل وداد !

— أسأل وداد وأملك حاضرة !

— أمي لا تجيد هذه الأمور كثيراً !

وهنا ثارت الأم وزجرت ابنتها فقالت وداد :

— تريد أن تقول إني وإياها شريكتان في عمل

لا نستطيع أن نتركه ، وعمل وعملها لا يسمحان

بالزواج يا أماء ، وإذا كان لا بد من زواج ...

وهنا دخل الأستاذان زكريا وصديق فجأة فقالا :

— فنبأ ... أليس كذلك يا آنسة وداد ؟

- ثم قال زكريا :
 — ألسنا أحق من هذين ؟
 وقال صادق :
 — ألسنا أحق يا آنسة سيدة
 فقالت وداد :
 — إذن كنما مختبئين ؟ وسمعتما كل شيء ؟
 فقال زكريا :
 — أى والله !
 فقالت وداد :
 — إذن فابشرا
 فقال زكريا :
 — بورك الله بكل خير يا ... يا حبيبتى !
- إذن فابشرا أننا لن نتزوج أبداً يا أستاذ زكريا
 وهنا وجم الجميع ، ونهض الشيخ سيد احمد
 فجاء فقال :
 — ومن يرضى أن يتزوج مطربة ؟
 وقال خالد :
 — ومن يرضى أن يتزوج راقصة ؟
 ثم انطلقا غير مأسوف عليهما
 قالت وداد :
 — أسمعتم يا زكريا ؟ أعرفت لماذا نرفض أن
 نتزوج ؟ أليست حياة الفن شقاء فى مصر ؟ ! وأنت
 يا سيدة ! هل عرفت أن المال لأمثالنا هو كل شيء ؟ !
 دبرنى فضيحة

سبرى سبرى
 لا تخشى على مجوهراتك لا تخشى على مستنداتك

اودعوها

خزائن بنك مصر الحديدية

فهي فى الحفظ والأمان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة

الباب المفتوح

للكاتب الانجليزى الكبير "الساقى"
عقلم الاستاذ عبد الحميد محمد

الأعصاب المفروض أنه مصاب به ... فقد قالت له أخته وهو يتأهب لرحلته الريفية :

— أنا عالة بما ستكون عليه رحلتك ! فلسوف تدفن نفسك حيث لا تحدث إلى مخلوق من الأحياء ، وعندئذ

تضاعف الكآبة مرض أعصابك ؛ وها أنا أكتب فى الحال خطابات توصية أقدمك بها إلى جميع الأشخاص الذين أعرفهم هناك . ولقد كان بعضهم ، على ما أذكر ، وديعاً ظريفاً »

تذكر فرامتون كلمات أخته وتساءل فى نفسه : ترى مسز سابلتون التى سيتقدم إليها بعد لحظة بأحد خطابات التوصية التى يحملها ، تدخل فى نطاق هذا البعض الوديع الظريف »

ولإذ لا حظت الفتاة الرقيقة أن فترة السكوت قد طالت بينها وبين الزائر الغريب سألته :

— أتعرف كثيرين من أهل هذه الناحية ؟

فأجاب :

— أكاد لا أعرف أحداً هنا . ولقد كانت أختى كما تعلمين ،

مقيمة هنا فى الأبرشية منذ حوالى الأربع سنوات ، وقد أعطتني خطابات توصية لفريق من أهل هذه الناحية ...

تعريف

« الساقى » أو « ساكى » كما تنطق بالانجليزية هو الاسم المستعار الذى تخيره الكاتب الانجليزى الكبير هكتور هيوينج مونرو لتوقيع مقالاته وقصصه العديدة التى نشرت فى الصحف والمجلات الانجليزية . وقد تغير هذا الاسم من إحدى رباعيات عمر الخيام التى يخاطب فيها (الساقى) بقوله : « إذا سررت أيها الساقى بالرفاق المنتثرين على الأعشاب انتثار النجوم ... الخ »

« وقد ولد مونرو فى بورما سنة ١٨٧٠ ومات أمه وهو فى السنة الأولى من عمره فنقله أبوه هو وأخوه إلى نورث ديفور ليعيشوا بين جدتهم وعمتهم . وقتل مونرو فى فرنسا سنة ١٩١٦ فى إحدى معارك الحرب الكبرى . وله كثير من القصص القصيرة والمفالات النقدية البارعة . وقصة « الباب المفتوح » التى نرهبها هنا هى إحدى قصصه القصيرة الطريفة »

— ستحضر خالتى فى الحال

يامستر « نتل » ، ولكن يجب فى الوقت نفسه أن تجتهد فى إنهاء حديثك معى

بهذه الكلمات بادرت الفتاة ضيفها عند عودتها إلى غرفة الاستقبال ، حيث كانت قد تركته ريثما تذهب لإخبار خالتها بقدمه : وقتان صبية رزينة لم تتجاوز الخامسة عشرة من سنها

وحاول فرامتون نتل أن يتخير الكلمات اللائقة التى يستطيع أن يرضى بها ابنة الأخت المائلة أمامه دون أن يكون فى هذه الكلمات ما لا يرضى بغير مقتضى ، الحالة التى ستحضر بعد قليل . وقد شك الفتى بينه وبين نفسه أكثر مما شك فى أى وقت مضى ،

فما إذا كانت هذه الزيارات الرسمية التى يتقدم بها إلى سلسلة من العائلات التى لا تربطه بها أية رابطة على الإطلاق ، سيكون لها أثر فعال فى علاج مرض

وصاغ الفتى كلماته الأخيرة في لهجة تم عن الأسف فتابعت الفتاة الرزينة حديثها قائلة :
— إذن أنت تكاد لا تعرف شيئاً إطلاقاً من أمر خالتي ؟

فأجاب الفتى :

— لا أعرف غير اسمها وعنوانها فهو لا يدري إذا كانت متزوجة أو أرملة . ولكن شيئاً في الغرفة لا يستطيع أن يتبينه على التدقيق كان يوحى إليه بأن في البيت رجالاً ... على أن الصبية لم تلبث أن قالت :

— لقد نزلت بخالتي مأساتها الكبيرة في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنين كاملة ، ووافق ذلك الوقت الذي غادرت فيه أختك هذه الجهات

فسأل الفتى الذي لم يكن ليتصور أن الناسى تجد طريقها إلى مثل هذا المكان الهادئ المطمئن :
— تقولين مأساتها ؟

فقالت الفتاة وهي تشير إلى أحد الأبواب المطلة على الشرفة وكان مفتوحاً :

— قد يدهشك أن ترى هذا الباب مفتوحاً في مساء يوم من أيام شهر أكتوبر كيومنا هذا ؟ فأجاب فرامتون :

— إن الجو دافئ بالنسبة لهذا الفصل من السنة ، ولكن هل لهذا الباب أية علاقة بالمأساة التي تشيرين إليها ؟

فشرعت الفتاة تحكي القصة الآتية :

— في مثل هذا اليوم منذ ثلاث سنوات خرج من هذا الباب زوج خالتي وأخوها الأصغر منها سناً ليصيدوا الطير على عادتهم اليومية ، ولكنهم لم يعودوا

من رحلتهم ، لأنه عند اجتيازهم المستنقع للوصول إلى الميدان المفضل عندهم لصيد البكاشين ساخت أقدامهم في بقعة خادعة من الأرض اللينة ، حدث هذا في ذلك الصيف الذي كثرت أمطاره ، على ما تعلم حتى إن الأماكن التي كانت مأمونة في السنوات الأخرى لم تقو على الثبات فانهارت ، وقد اختفت أجسامهم ولم يقف لها أحد على أثره ، وهذا هو أفظع ما في المأساة

وما وصلت الفتاة إلى هذه النقطة من قصتها حتى فقد صوتها ما فيه من رنة الثبات وغلب عليه التأثر ، ثم مضت تقول :

— ومسكينة خالتي لا تنفك تتصور أنهم سيمودون يوماً ما ومعهم كلهم الأسود الصغير الذي ساخ معهم أيضاً ، وأنهم سيدخلون إلى البيت من هذا الباب كما تعودوا أن يفعلوا كل يوم . وهذا هو السبب في تركه مفتوحاً كل مساء إلى أن يهبط الفسق . وما أتس خالتي العزيرة فلسم كررت على سمي قصة خروجهم ، إذ كان زوجها يحمل معطف المطر الأبيض على ساعده ، بينما روني أخوها الأصغر ينشد أغنية : « لماذا تذب يا برقي » ، كما كان يفعل دائماً ، ليفيظها فقد كانت تقول إن هذه الأغنية تهز أعصابها ، ولا أخنى عليك يا سيدي ، أنتى في بعض الليالي الساكنة الهادئة مثل هذه الليلة ، يتسرب إلى نفسي غالباً شعور خفي بأنهم جميعاً سيمودون إلينا من خلال هذا الباب ... »

ووقفت الفتاة فجأة عن الكلام مضطربة بعض الشيء ، وأحس فرامتون بالفرج عند ما دخلت الخالة إلى الغرفة تسوق أمامها سلسلة من المعاذير

لتأخرها في إصلاح زينتها وقالت :

— أرجو أن تكون « فيرا » قد سلتك
بحديثها ؟

فقال فرامتون :

— لقد كان حديثها جد شائق

وقالت مسز سابلتون في نشاط وخفة :

— أرجو ألا يضايقك فتح هذا الباب ، فإن
زوجي وأخوي على وشك أن يعودوا من الصيد ،
وقد تعودوا أن يدخلوا دائماً من هذا الباب ، ولقد
خرجوا اليوم لصيد البكاشين في البرك ، وما من شك
في أنهم متى عادوا تركوا على سجاجيدي المسكينة
آثار ما تحمل أقدامهم من الأوحال ، وهذا هو
شأنكم أيها الرجال ؛ فهل توافقني على ذلك ؟ »

ومضت تتحدث في انشراح عن الصيد وعن
ندرة الطيور ، وبخاصة البط في فصل الشتاء ، ولقد
بدا هذا الحديث لفرامتون مزججاً فظيماً ، فحاول
جاهداً أن يحوله إلى مجرى أقل فظاعة وهولاً ،
فلم ينجح في ذلك إلا بعض النجاح ، وقد تبين أن
مضيفته لا توليه من عنايتها إلا جزءاً جد يسير ،
ولكن نظراتها كانت تتخطاه إلى الباب المفتوح
وإلى ما وراءه من حقول ومستنقعات . فما من شك
في أن زيارته هذه الأسرة في مثل هذه الذكرى
المؤلة لم تكن إلا مصادفة جد سيئة

وصور الوهم لفرامتون أن القوم الغرباء الذين
يجتمع بهم والدين هم معارف الصدفة ، عطاش إلى
تعرف أقل ما يمكن من التفصيل عن مرضه وعلمته
ووسائل شفائه فقال :

— لقد اتفق الأطباء في أمرهم لي بأن ألزم الراحة

التامة وأن أتجنب الانفعالات النفسية ، وأن أبتعد
عن كل شيء يتصل بالجهود الجسمي ، ولكنهم غير
متفقين اتفاقاً تاماً فيما يتصل بمسألة الغذاء

فقال مسز سابلتون :

— ألم يتفقوا ؟

وكان صوتها في هذا السؤال صوت الذي جاهد
التثاؤب في اللحظة الأخيرة . ثم لم تلبث أن ابتهجت
بجأة وبدا عليها مظهر التنبه الشديد ... غير أن هذا
التنبه لم يكن لحديث فرامتون . ثم صاحت :

— ها هم قد عادوا آخر الأمر في الوقت
المناسب لشرب الشاي . ألا يبدو عليهم أن الأوحال
تغطيهم إلى رؤوسهم ؟

فارتجفت الفتى ارتجافاً خفيفاً ، ثم نظرت إلى ابنة
الأخت نظرة تحمل معنى الإشفاق . وكانت الطفلة
تحقق من خلال الباب المفتوح ، وفي عينيها معنى
الرعب الخاطف . فدار فرامتون في مقعده وقد أحس
بصدمة مرعشة من جراء خوف لا يدرك معناه
ونظر إلى حيث تنظر الفتاة

فرأى خلال النسق الهابط ثلاثة أشخاص
يجتازون الحقل متجهين إلى الباب المفتوح ، وكانوا
جميعاً يحملون البنادق على سواعدهم ، وكان أحدهم
يحمل ما عدا البندقية معطفاً أبيض من معاطف
الطر ألقاه على كتفه ، وكان يتعقب أقدامهم كلب
صغير أسود تبدو عليه مظاهر التعب . واقترب هذا
الجمع في سكون من البيت ، وإذا بصوت فتى أجش
يغني في النسق :

« إني أسألك يا برقي لماذا تلب ؟ »

لم تكده عين فرامتون تقع على هذا المنظر حتى

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطاب

أبي الغلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقذو أبي الغلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمد حسن زغاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثنى ١٢ قرشاً

أمسك في عنف بعصاه وقبعته ، وفي أسرع من
لمح البصر كان قد اجتاز باب الردهة والمر المرصوف
والباب الخارجى كأنه السهم المارق ، حتى أن رجلاً
مقبلاً على دراجة لم يتق التصادم به إلا في اللحظة
الآخيرة منحرفاً فجأة إلى السور

ودخل القادمون من الباب المفتوح وقال حامل
المطف الأبيض :

— ها نحن يا عزيزتى قد عدنا ملوثين بالأووال
ولكن أكثرها جاف . ولكن من هو هذا الرجل
الذى تلاشى لمجرد ظهورنا ؟
فقلت مسر سابلتون :

هو رجل غريب الأطوار جداً اسمه مستر « نكل »
لا يستطيع أن يتكلم إلا عن مرضه ، ولم يكذب يوماً
حتى اندفع إلى الباب خارجاً دون أن يلتقى بكلمة
وداع أو عبارة اعتذار ، حتى لكأنه قد رأى شبح
عفريت مخيف

فقلت ابنة الأخت في هدوء :

— أظنه قد خاف الكلب ، فقد خبرنى أن
بعض الكلاب الضالة هاجته مرة وطارده حتى
أزيمته الهرب منها إلى مقبرة في ناحية ما على ضفة
نهر الجنج ، وقد اضطر أن يقضى الليل في قبر جديد
لم يدفن فيه أحد بينا الكلاب من فوقه تتلبح
مكشرة عن أنيابها ، وفي ذلك ما يكفى لهز أعصاب
أى إنسان

لقد كانت خاصة فتاتنا الرزينة اختراع الروايات
على البدهاة !

عبد الحميد محمدى

مَا ذَنْبُهَا؟ ...

أَقْصُوصُ صَدَةِ مُصَرِّتَةٍ
بِقَلَمِ الْأَنْبِيَةِ جَمِيلَةِ الْعَدْلِ

متقطع محوم ...

وشكت الممرضة في أمره ...

واستطاعت أن تفهم بحكم غريزتها

أن أمام ناظره خيال امرأة ، قد

تكون سبب هذه الصدمة أو سبب

هذه الحمى ... الله يعلم

وانتهزت فرصة غفوة العميقة

فانسلت خفية إلى غرفته تبحث

في محفظته ... حتى رأت بين أوراقه رسالة موجزة

من فتاة تقول فيها :

أخي الفاضل

لا أحب أن أكون أ كذوبة هائلة في تاريخ

حياتك ، إذن يجب أن نسدل الستار

واستمع إلى بعقلك ولعلك لا تكون من الظالمين .

لقد تعارفنا على غير ارتقاب ، ونحايينا لغير غاية ...

ولعلك تذكر يوم لقيتني في منزل الخالة وقدمني إليك

زوجها ... وكان ذلك في عيد ميلاد ابنته ...

وانتهزت فرصة خلو المكان إلا منا فحدثتني عن

نفسك في صراحة مطلقة أكبرتك من أجلها ...

وصورت إلى في مرارة ما تعانيه من حرمان وآلام

من جراء يتمك ... ولم تكذب تصل إلى هذا الحديث

الحزن باكياً في هدوء حتى أحسست أن دموعك

خرجت من قلبك لتسكب في قلبي ، ولذا أوكد لك

أن دموعك وحدها هي التي جذبتني ... ثم عرجت

في حديثك على حياتك الخاصة فأفهممتني أنك تلهو

بالحسان وتقضي طوال الليل خارج الدار مع جمهرة

من الشبان وعقلت على ذلك بأنك مضطر إلى هذا

الفساد لخلو قلبك من الحب ولعدم توفيقك إلى امرأة

تحميك وترعاك ...

صعق الرجل عند ما بلغه خبر خطبتها وكان على

يقين من أنها لن تزوج غيره ، لأنها أحبته بدليل

أنها بادلت له الحب وارتضت به زوجاً ، والآن ما عساه

يفعل ... هل ينتقم ؟ أم يتناساها ويحب غيرها ؟

أم يسى إليها علها تعود إليه ... ؟

وارتمى الرجل على مقعده مهموماً مفكراً يتخيلها

بجملها الرائع وروحها الساحرة وعواطفها الطاغية

وعقلها النابه ...

استعاد كل ماضيه وما يحمله من ذكرى جامحة ،

فأحس أن خسارته بفقدانها لن تموض أبداً ...

أبداً ... وأنه لن يعثر على فتاة تماثلها عفة ورقة

وسحراً وذكاء ...

فما أعظم المصائب !

بكي فلم يرفه الدمع عنه !

وخرج إلى الشارع يتمشى كالشارد فاصطدم

بسيارة حمل على أثرها إلى المستشفى ... وظن الأطباء

أن الحمى التي انتابته من أثر الصدمة . ولو أنهم كانوا

بخفايا القلوب عالمين لعرفوا موضع الداء الدفين ،

ولأدركوا أن الحمى في قلبه ، وصداها في مخه !

خائنة ... غادرة ... مجرمة ...

لم يكن لديه سوى ترديد هذه الألفاظ بصوت

ولكننى اتخذت الحب وسيلة إلى إصلاحك
لأنك أفهمتنى أنك لا تردع عن الإثم إلا إذا أحبتك
امرأة ...

ولم أمقتك بل كنت أشفق على شبابك الذى
يذويه الفجور وكنت أتمنى أن أخلق منك الرجل
الكامل ، ثم أدع الطبيعة بعد ذلك تدنبنى منك
أو تقصينى عنك ...

نوهت لى عن الزواج فلم أمانع ... لا حباً فيه
أو فيك ... بل رغبة فى أن أصل بك إلى مستوى
أرفع من مستوى الرجال ... فحيت فى سبيلك بمالى
ووقتي وجعلتك محور تفكيرى وحسى ... على أمل
أن تصلح ولكنك كنت تقول ولا تفعل ... كنت
تصارحنى بأنك ستمعمل كذا وكذا ... وقد عملت
كذا وكذا ... فإذا اكتشفت الحقيقة واستوضححت
الأمور ... ظهر كذبك ونفاقك ...

رباه ... لشدة ما عذبنى هذا وكنت أصبر راجية
أن تكون من المهتمين ...

كانت رسائلى وحدها كافية لإصلاحك وكان
حنوى وعطفى كافيين لإشباعك ... ولكنك
فى الواقع خلقت لغير الحب الأكيد - صدقنى -
لم يكن فى نيتى أن أحب غيرك أو أتزوج سواك؛
إذ كنت أريد أن أشعر بالتيه الخالد، لأننى خلقت
رجلاً ... وعجيب أن يكون للعاطفة شيطان يحولها
من الفضيلة إلى الرذيلة ومن الأمل إلى اليأس ومن
الحب إلى الكراهية ...

وكان شيطان حبي ... كذبك ... فطنى عليه
وحوله إلى بأس مرير

ولطالما صارحتك بذلك وقلت لك إن الرجل الذى
يكذب مرة لا يصدق مرة. وأخشى أن تفقدنى بسبب
(٦)

وافترقنا على أمل أن نكون كصديقين أو أخوين،
ولم أر غضاضة فى قبول صداقتك ما دامت تدفع عنك
الضر والشر كما دعت ...

تراسلنا وتقابلنا وحاولت جهدى أن أتخذ من
رسائلى أداة لإصلاحك وأن أسيطر على عواطفك
كلما قابلتك لأوجهك إلى الطريق المستقيم ...
فلم أدع صغيرة ولا كبيرة تدفعك فى طريق المجد
إلا لفت نظرك إليها ...

أغريتك بكل ما فى قلبى من رحمة وبكل ما فى
عقلى من ذكاء لانتشلك من البؤرة الدنسة وأرفعك
من الأحوال إلى سماء الطهر والكمال ...

فكنت تكتب لى بأسلوب رائع لتوهمنى أنك
تسير فى الطريق المرجو فى غير هواة ... وأنت على
خير ما أتمنى لك من خير وفضيلة

وبرغم تصرفاتك الخاطئة التى كنت أكتشفها
بالمصادفة ... كنت أتسامح وأقول لنفسى من العسير
أن يتحرر من قيود المجتمع دفعة واحدة ...

وفى الواقع يا أخى أنت بارع فى تلفيق الأكاذيب ..
بدرجة أننى كنت أثق فيك مع أن البراهين تؤكد
بسوء تصرفك .. والكذب عندك غريزة. أوه ..
لطالما ضايقتى كذبك وأرقنى وأسلمنى إلى أمر الآلام
وأظلم الأحلام ... ورغم ذلك كنت أريد أن أجرب
قدرتى فيك ...

فكنت أتجاهل وأتسامح غلى أنجح فى تأدية
مهمتى ...

ولكن عبثاً ...
كيف أنجح وأنت بعيد عنى تعيش هناك
كما يحلو لك ... مطمئناً إلى تسامحى وحبي ...
فى الواقع لم أحبك ...

هذا الكذب مخاذر ... فكنت تدافع في براعة
المحامين ولباقة السياسيين حتى أضطر للسكوت لأعن
إيمان وتسليم بل عن جد ورجاء ...
أخيراً ...

أجل أخيراً أيقنت أننا لو تزوجنا لا يمكن أن
نتفق أبداً ... أبداً ... وسنكون وصمة في جبين
التفاهم الروحي الأكيد - فأثرت أن أقف بجانبك
موقف الأخت البارة ترعاك من بعيد بقدر المستطاع
مرحبة بالخطيب الحبيب لما بيننا من تفاهم وتآلف ...
وأحمد الله الذي وحد بين قلوبنا وروحينا ...

والذي أريده منك الآن ... أن تعود إلى رسائلي
وأن تستعيد ذكري كل ما قلته لئلا أنسى أخلصت
لك يوم ظننت أنك تصلح لأن تكون مثلي الأعلى ...
فلمسا واجهتني بحقيقتك تنبه وجداني ، فإذا بالحب
كظلك الذي تلاشي عندما اختفيت عن ناظري
في آخر لقاء ...

يا سيدي ... أو يا أخي إن شئت : الحب
كالبنيان تندك قوائم عرشه بالثقة ويزعزع الهشك
وأخيراً يحطمه الكذب والبهتان
ونصيحتي إليك أن تحب المرأة صادقاً وتفهمها
صادقاً وتكشف لها عن مساوئك صادقاً ، ثم حاول
إصلاح نفسك صادقاً. إنها تدفع دمها ثمناً لهذا الصدق.
والشيطان يسخر منك عندما ما يحلل لك الكذب
مخاذر ...

فهمت المرضة كل شيء ... فأشفقت على الرجل
وفكرت ، أترى المرأة أخطأت ؟
وكانت المرضة ذكية فلم تشأ أن تحكم لها
أو عليها حتى تراها ...

ولكن كيف ؟
آه ... ها هو عنوانها في الرسالة ...
إذن فلتكتب إليها فالمرض يحتضر ويدعوها ...
وظل المرض يهذي :
خائنة ... غادرة ... مجرمة ...
اندمل جرح الصدمة الطارئة ولم يندمل جرح
القلب الدامي ...
حتى جاءته
مريض يحتضر يدعوها ؟ ... ولم تجد غضاضة
في عيادته .

وأفهمتها المرضة في حكمة ودهاء ... أنها بمشت
إليها رحمة به لأنه يهذي باسمها وقد فهمت من هذيانه
كل شيء .
فشكرتها الفتاة وولجت باب المريض في هدوء
ولحفة ... ونادته ...

فرفع بصره في بطاء ، وقد اربد وجهه فجأة ...
ثم غص طرفه ملياً ، وأخيراً ابتسم في سرارة وقد
انطلق وجهه وغمغم ... كوتر ...
قالت : ساء في مصابك. لكن المرضة طمأننتني
فالحمد لله

قال : وهل تهتمك حياتي ... خير لي أن أموت
قالت : كيف لا تهمني حياتك وأنا أرجو لك
كل خير وتوفيق ...

وهنا أحس الرجل بانتعاش غريب ففسي ما كان
يشغله من الهواجس القائمة ، واعتدل في مقعده ثم
اقترب منها ليمتزج أنفاسها العبقية بأنفاسه الحري
قائلاً : أوتدكرين يا كوتر ما صر من حلو الأيام ...
فلم تشأ أن تغير مجرى خياله وقالت : طبعاً أذكر
فابتسم وأعقب : أتدكرين يوم اجتمعنا في غفلة

يا قرة العيين بل يا منسية القلب المذنب
تفديك روحى يا حبيبى فى حضور أو غياب
ما العيش بعدك فى الحياة سوى بريق من سراب
خذنى إليك ونجنى مما أعانى من عذاب
أنا إن أعش فلاجل أن ألقاك عنوان الشباب
أنا إن أعش فلاجل أن أدنيك من كل الرغاب
أمودى عند المساء وتاركى لضنى ارتقاب
أخطبى ؟ مهلاً لعل أن أعود إلى صوابى
يا مهجتي الحرى حنا نك قد سمعت من العتاب
ماذا على إذا فتحت له لدى الترحيب بابى
ووهبته ما شاء من عطى وحبى المستطاب
يا ويح نفسى، هل أطيق غيابه بعد اقتراب ؟
أطيق وهو هو المضي بخاطرى مثل الشهاب ؟
يا من هدته عواطفى فى كل مختلف الشعاب
أبدأ أحن إليك يا رمز الأمانى المذاب
وهنا انشرح ملياً ثم عاد يتأملها فى لهفة بادية
قائلاً : غنى يا كوتر ... أعيدى على مسمى هذا
النشيد ... إن كلامك أعذب من أغاريد البلايل ...
غنى غنى ...

فأغتصبت بسمة وقالت بصوت تشيع فيه المرارة :
— عند ما تعاودك العافية كاملة أسمعك أجمل
الأنشيد ...

فانتصب واقفاً قائلاً :
— أنا بخير ... انظرى ... هأنذا أتحرك ...
وأسير أيضاً ... فى مقدورى أن أخرج الآن ...
ولا بد أن أخرج منك ... لن أتركك تخرجين وحدك
فأشفقت عليه لأن آثار الحى كانت ما زالت
ظاهرة عليه وقالت :

القدر تحت خيمة فى إحدى الحدائق النائية وكنا
أشبه بمصفورين اليفين ضمهما الوكر فى حى الصفاء ،
وأحسست يومئذ رغم حاجر العفة الذى كنت تحرسين
دأماً على إقامته بيننا أننا التحفنا بغطاء واحد —
لا أذكر كيف كان — أكانت ماديتنا هى التى
تغطى روحينا ، أم أنور الحب هو الذى كان يكتنفنا حتى
بتنا كأننا نور من نوره . لقد كنت أجهل موضعك
منى وموضعى منك ... ولما سألتك : أين أنا منك ؟
أجبتنى : وأين أنا منك ؟

ولم يكن كلامنا بهذه الحروف المهودة بل كان
بلغة الصمت الجليلة التى تنساب من قلب إلى قلب
كما ينساب النور فى الأفق . ولما قلت لك : تخيل
إلى لو أننى جردت نفسى من العفة واعتصرتك
لما ارتويت أبداً ... أبداً ...

فأشحت بوجهك عنى حياء وابتعدت عنى ثم
قلت : لأنك بقدر ما تسلب منى أسلب منك !
فأنهرت دموعى من فرط النشوة وقالت : كل
يوم يزداد حسنك كأن فى معينك كنزاً من الجاذبية
لا يفنى

قلت برأسك دلالاً قائلة : من عند ربى . ولما
عاودنى السهوم وأنت حيالى وبدا على وجهى ظلال
أحلامى ...

أهبت بى إلى مكائلك ... ولكنى كنت متفانياً
فى نفسك سارحاً فى جنبات قلبك
وظل قلبى يخفق ، ونظرك ينطق
وما زلت أذكر نشيدك الذى كنت أتغنى به
دأماً كأنه تمويدتى الخالدة :

أخشى عليك من العباب يطنى عليك بلا حساب

— لأعودك في الغداة وأصحبك إلى الخارج ...
والآن يجب أن أخرج ...

وحاول أن يستعملها فاعتذرت وانصرفت وتركته
واجماً ساكتاً لا يبدى حراكاً كالطفل الصغير الذي
تركه أمه فيمجز عن اللحاق بها أو استبقائها بجانبه

مرت الأيام وهي تعود ... حتى عوفي وترك
المستشفى ... وطلب إليها أن تزوره في منزله فوعده
وانتظر في الميعاد فلم تحضر، ومرت الأيام تباعاً
ولم تعد ...

وعثر الرجل على الرسالة وكان نسيها، أو لعل
الحى هي التي أنستة إياها فقرأها ...

تذكر كل شيء ... فثار جنونه واشتعل وجدانه
مفكراً فيما يصح أن يعمل، حتى صبح عزمه على أن
يبحث بجميع رسائلها إلى خطيبها، وهي مجموعة موفورة
من الحب المشبوب المتأجج، وفيها ميثاقها على ألا تتخذ
منه بديلاً ...

قد يتخيل المحب أن في مقدوره أن يصفح
ويغفر وأن ينسى الإثم والبهتان

وقد يسهل ذلك على المحب العاقل النبيل إلى
حد ما ...

وقد يعتقد المحب أن حبيبه كان يحب من قبل
غيره ... ولكنه لا يسير هذا الاعتقاد إذ ليس لديه
ما يشبهه ... حتى إذا حدث ما يؤكد هذا الزعم
حدث ما لم يكن في الحسبان؛ فإما هجر لا لقاء بعده،
أو شك يظل يعذب صاحبه على طول الأيام ...

وخطب الفتاة كان رزيناً حكماً ولكنه إنسان

له غرائز البشر وخصائص الحب ...

لطالما قالت له الفتاة إنها عرفت كثيراً وجاملت
بعض المحبين، وسارت أحياناً في طريق الحب إذا تراءى
لها عفا بريئاً حتى إذا تكشف لها عن خدعة تنحت
عنه وابتعدت ... وكان يستمع إليها ويسامرها دون
أى عبث أو ملام ...

ولكنه اليوم بعد أن تسلم رسائلها ساوره الشك
واعترته الريبة؛ وفاجأها نائراً لائماً وكأنها تبدلت من
ملائكتيتها إلى شيطان رجيم أمام ناظره فاهتاج وراح
يرمىها بأبشع التهم وهي ساكنة هادئة باسمه ...

حتى إذا انتهى قالت له : كلاتا خدع في الآخر
يا سيدي ... أنت ظننتني ملكاً كريماً فأحببتني
وأنا ظننتك النمل الأعلى للرجولة الكاملة فأحببتك.
والآن ... ليس ثمة ما يدعو للغضب ما دمنا في أول
الطريق ... فليبحث كل منا عن شريكه ...

فاغتاض وفاض شكه وقال : آه في الطريق
أكثر من رجل ينتظرك لأنك رميت شبكة الخداع
على كثيرين ... أصدقيني هل أحببت هذا الرجل ؟

قالت : أجل ، كما أحببتك قبل اليوم . فدهش
الرجل لجرأتها، ولكنه ظن أنها تهاجمه فعاد يقول :
ولماذا لم تزوجيه ؟ قالت : إذا خاب المحب انتصر
العقل بما يكتسبه من التجارب والأهوال ...

أما الزواج فخياته موت لا حياة بعده مهما تجدد
بظل طابع الخيبة على جبين المرأة مدى السنين ...
وصممت ملياً ثم قالت : يا سيدي إن الرجل إذا أحب
صدقاً يغفر للبني إثمها ... وأنت كما زعمت تحبني ...
فكيف تريد أن تحاسبني على تصرف لا تدري كيف
فعلته ولماذا ؟

إذا صعب عليك أن تغفر ذنبي في ماضى فقد
صعب عليك أن تغفر ذنوبي في حاضرى والإنسان
لا يسلم من الخطأ ... إذن ابحت لك عن فتاة لم تتعرف
على أى رجل ، وأنصحك أن تأخذ طفلة لم تبلغ
الرابعة من عمرها ... وتركته وانصرفت
يا للشيطان ... إنه يلعب على مسرح العقول
بمهارة ...

خرج الرجل وانقطع عنها فوطنت النفس على
أن ترفضه وتسأله ...

وحاول الرجل أن يسألها فلم يستطع لأن ثقته
بطهرها من اختباراته كانت أشد تأثيراً في نفسه
من شكه فيها ، ولكن يعاوده من حين إلى حين وقع
رسائلها في نفسه فيأرق ويتألم ، وظل كذلك ...
حتى ذلك اليوم الذي بعثت فيه أخته إلى كوثر رسالة
تدعوها لزيارتها لأمر هام ...

قذهبت كوثر ، وفي نيتها أن تضع حداً للعلاقة
بينها وبين أخيها وتعلن له رفض يده ...

وهناك قابلتها أخته ، ودخل الخادم يطلب الأخت
لمقابلة الوالد ... فخرجت وغابت ... ثم دخل الرجل ...
دخل الرجل الحبيب الأول ... مفاجأة لم تكن
متأهبة لها . كيف حضر إلى هنا . ولماذا ؟

لم يترك لها الرجل فرصة لمخاطبته إذ قال :
كوثر ... يدهشك أن ألقاك في منزل خطيبك ،
وبعد أن عرف علاقتنا القديمة ... ولكنه نبيل
كريم كما يدل تصرفه ... إذ لم يشأ أن يحطم قلبي
فأباح لي لقياك هنا لنجدد العهد وقد تنازل عنك لي
فضحكت الفتاة متهمكة وقالت : ها ها ها .
أترانى سلعة وأنا لا أدري !

لم تعد لي صلة بك أوبه ...
فقاطعتها : أنسيت حبي يا كوثر ... لقد أحببتني
حباً لم تحبه امرأة لرجل وكذلك أحببتك أنا ...
فمادت تضحك ، ثم قالت : لقد أحببت طيفاً
بجهولاً فيك ... أما أنت فلم أحبك ... أحببت
الإنسان الذى أنشده فيك وله كنت أكتب وعليه
أحنو ؛ فلما وجدت ذاتك غير قادرة على حفظ الروح
الذى أهفوا إليه تنحيت عنك باحثة عن مقر ذاك الروح
لقد كنت تحاول أن تخدعنى بالحب لتباهى بحبي
تخدعتك بالحب أيضاً لأعرف حقيقتك ؛ فلما
عرفتها ارتفعت إلى سماءى ... ولعلك لاحظت فيما
مضى أننى كنت أحاول دائماً أن أرفعك إلى الأفق
الذى أعيش فيه موطنه النفس على القناعة بك
لو استطعت الصعود إلى ... فلما فشلت وعجزت عن
السمو بنفسك إلى مستواى ... تركتك في الأوحال
وحدك وحلقت في عالمى النورانى هناك ... فما ذنبى
أريد أن أهبط إلى الأرض لأعيش معك لا أكون
محبة وفيه بينا في عمق هذه المحنة الذلة والهوان ...
لماذا لم ترتفع بإنسانيتك إلى سماءى مادمت تهوانى
كما كنت تزعم ...

إن الرجل الذى يعجز عن السمو بنفسه في سبيل
الحب لا يقدر قيمة الحب ولم يكن محباً أبداً ...
أفهمت ما ذنبى إذا استغفلت الحب في سبيل الإصلاح
فإذا عمّر الخراب به أجل به من حب ، وإن عجز
عن البلوغ بصاحبه إلى الغاية المثلى فليذهب في ذمة
التاريخ الضائع ...

ماذنبى إذا ابتسمت ساخرة من عفتك في التعبير
بى ظناً منك أن كل الفتيات أسيرات الحكم المعسول
والحب المصطنع !

لأى غاية ولن أحبك أيضاً لغاية ... بل أحبتك
لأصلحك ...

إذن لم أكن أنا التي أحبتك ... إنما هو الحب
الذي سخرني لهدبك ... فكفرت به

قال : سأكون كما تشائين ... صالحاً تقياً
مؤمناً محباً وفياً ... إن قبلتني زوجاً ؛ وإن أبيت
فلأمت ، ولتنزل عليك نعمة الله ...

فقلت : الله يعلم كيف أضحي في سبيل الإيمان به
فحسبى ...

وهنا دخل خطيبها ملتفتاً إلى الرجل مصوباً إليه
نظرة شزراء ، ثم قال : كفى يا صاحبي . لقد فهمت كل
شيء ... إنها ملك .

مجملة العبد

« النصورة »

المجموعة الأولى

للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
العصر لموسيه ، والأديسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
ومنقولة .

الثن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

ما ذنبي إذا تغنيت بمذنب النشيد مناجية الإلف
المجهول ، فتظنك المعنى بذاك القصيد ؟!

ما ذنبي إذا صعب عليك تفهم الحقيقة لتدرك
معنى الحب ؟!

وما ذنبي إذا عجزت عن إصلاح نفسك لتدعيم
حياتك كما ترجو ...

فقاطعها : أنت الجانية . كان في مقدورك إصلاح
ورعايتي ... لقد تركتني وسط أعاصير الحياة الهوجاء
فقلت : أكنت تريد أن أحبس نفسي في دارك
لأرعاك ...

فقال : كنت أريد أن أتزوجك ...
فضحكت متهمكة ثم أعقبت : هيه ... آه ...
كان يجب أن أتقدم إليك لأعقد عليك ... أليس
كذلك ؟! ... معذرة يا سيدي ... كان يجب أن
أفعل ذلك ...

فقال : لقد لوحث لك كثيراً فكنت تماطلين
فأجابته جادة : اسمع . الرجل الذي يريد المرأة
ويتمناها لا يسألها رأيها ، ولا يستشيرها ماذا يفعل
لنيلها . إنه يقتحم الطريق الشائك في سبيل الوصول
إليها ، بل يختطفها من بين ذراعي القدر إن تحدها ،
أتفهم ؟

أما هذه التعاويذ الشيطانية التي يلجأ إليها
الرجل ليخدر بها أعصاب المرأة ليطيل من عمر الحب
لينعم ويتسلى فلا أجيزها ولا أفهمها

أنت تعرف جيداً أنني دفعت الثمن غالياً من
عواطف لا نقاذك ... ولكنك أبيت إلا أن تعيش
في الظلام فما ذنبي ...

ولقد أكدت لك أكثر من مرة أنني لم أحبك

فقدت الذكورة

عن الانجليز
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

يصدق فيهما وأجاب : « ذلك
لأنني لا أثق بأنني أستطيع أن
أفعل شيئاً يسرك »

ثم قال بصوت منخفض :
« ولا أثق بأنك تحبيني ،
ولذلك أفضل الظهور معك
في مثل هذا المكان على الظهور
معك في الأماكن المزدحمة »

فتنهت الفتاة تنهداً يدل على الحزن وقالت :
« إنني أتمنى من أعماق قلبي أن أحبك فأنت عزيز
عندي ، ولكن أعطني مهلة فربما ... »
فقاطعها بقوله : « إنني لا أستمتع بك ، وإنني
مستعد لا نتظارك سنوات »

ثم ابتسم ابتسامة ذات معنى وقال : « أنا لست
راغباً في الانتظار سنوات ولكن إذا لم يكن بد
من ذلك فسأنتظر »

قالت الفتاة : « لقد ناقشت نفسي كثيراً في هذا
الأمر ولا أرى من حق أحد أن يطالب الآخر
بالانتظار ، على أنني أجد نفسي أفعل ذلك وهكذا
أكثر النساء »

وعادت الفتاة إلى ابتسامتها الحزينة فأجابها
في رقة : « ولست أراغب في الانتظار ، وأنا مكثف
بما ترين إعطائه لي ، وكل ما أتمناه أن تنسى بطرس
والزمن كغيب ... »

فهزت الفتاة رأسها وعض الفتى شفتيه ثم قال :
« وهل ترين أنه من انصاف نفسك أن تستمرى
في طريق أنت تعرفين أنه لا أمل فيه ؟ إنه لم يعد
شك في أنه قد مات ، وأنت قد نرعت خاتم الخطبة ،

« ما أغرب هذا المكان يا جيمي ؟ »

ونظرت الفتاة إلى جوانب المطعم نظرة استخفاف
فقال لها صاحبها : « إياك أن يسمعك فرانسو وأنت
تقولين ذلك فيطلب إليك الخروج من المطعم »

وكان فرانسو هو رئيس الخدم وقد وقف من هوأ
بين الجالسين كأنه يعتقد أنه ليس في لوندرا مطعم
آخر غير مطعمه ، ومشى نحو هذين الصاحبين وقال
بلهجة انكليزية مشوبة بلهجة فرنسية : « من زمن
لم تأت أيها السيد ، وأنت يا آنسة هذه أول مرة
تورين فيها المطعم » في اسباه ؟

فقالت الفتاة وهي تبتسم ابتسامة رقيقة : « ولكن
أرجو ألا تكون آخر مرة »

قال النادل : « إن الذين يزورون هذا المطعم
مرة يعودون دائماً إليه لأنهم يعرفون مزاياه »

ضحكت جيمي وطلب الشاب الذي معها أصناف
الطعام فذهب فرانسو ، وقال الشاب لصاحبه :
« أظنك تضايقت من هذا المطعم ولكنني أحبه
وأفضله على كثير من المطاعم »

قالت جيمي : « ولماذا تظنني أتضايق منه ؟ »
ثم نرعت قفازيها فبدا تحتهما كفان جيلتان أخذ

أليس الأولى بالإنسان أن يواجه الحقائق ؟
ضحكت الفتاة ضحكة خفيفة ثم قالت بصوت يشبه
البكاء : « نعم ذلك هو الأولى بالطبع ، ولكن
ألا تستطيع أن تقنع بالصدقة في البداية يا جورج ؟ »
فقال : « نعم أستطيع أن أقنع بها »
قالت : « إنني أشعر بأنني فقدت جزءاً من نفسي
وأظنني عاجزة عن أن أحب مرة أخرى أى رجل
وأنا أميل إليك يا جورج ، ولكنني لا أعرف هل
أحبك كما كنت أحب بطرس ؟ »
فقال : « أنا أعرف أن ذلك هو الذى سيكون
ولهذا أخطر »

قالت جيمى : « أنت تستحق كل شيء يا جورج
ولن أقوم بنفسي في حبك إذا استطعت »
فقال : « إن أقل ما تهيئته لى أحب من أكثر
ما تهيئه امرأة أخرى أيتها العزيزة . ولست أريد
استمجالك ولكن ها هو الفندق فوق هذا المظم
فهل تقولين نعم ؟ إنك لن تنسى هذه الليلة وأقسم
إنك لن تندى عليها »

فسكتت الفتاة لحظة ثم ابتسمت ابتسامة خفيفة
وقالت : « نعم » . فقال : « هل أنت راغبة يا جيمى ؟ »
فهزت الفتاة رأسها وقالت : « إننى أعنى ما أقول »

بعد ساعتين عادت جيمى إلى غرفتها وأغلقت
الباب ، وكانت لا تزال ترن في أذنها قبلاته وهمساته
ووقفت لحظة بجانب الموقد وهي تبسم ابتسامة حزن
ثم ذهبت إلى الحائط فوقفت أمام صورة ضابط في
فرقة الحرس ثم جثت أمام هذه الصورة خمس دقائق
خالت في أثنائها إن الصورة تفتح شفتيها وتتكلم ،
فقالت : « إنه سديك يا بطرس فأرجو أن تسامحني

أستحلفك بالحب أن تسامحني يا بطرس »
وخالت أن الصورة تبسم ابتسامة رفيق ثم مدت
يدها إلى المنضدة فتناولت خاتم الخطبة الذى أهدها
إليها بطرس فقبلته وهي تبكي
وقضى جورج شهرين وهو سعيد ولم يبق غير
أسبوعين على زواجه من جيمى حينما حدث هذا
الحادث الفجائى الذى لا يكاد يحتمل التصديق فوجد
أمامه بطرس
وكان اسم بطرس قد نشر منذ ثلاثة أعوام في
قوائم المفقودين في الحرب . واعتقد الجميع أنه مات
لا تقطاع أخباره طول هذه المدة

وأحس جورج بدوار شديد ثم مشى إلى بطرس
وقال بصوت يهدج : « أين كنت يا عزيزى بطرس
وما الذى تفعله هنا ؟ »

وقبل أن يجيب بطرس على هذا السؤال لاحظ
جورج أن بجانب بطرس امرأة من نساء النور
الفجريات فدهش وأعاد سؤاله : « ما الذى تفعله
هنا يا بطرس وما الذى جاء بك ؟ »

وكانت الفجرية وبطرس يحملان بعض الألاعيب
التي تلعب بها قبائل النور في المدن الكبرى . وقال
بطرس : « خفض من صوتك حتى لا يسمعك
البوليس »

وقالت الفتاة : « إنه لا يريد أن يُعلم رئيسه
السابق في الجيش بأنه عاد إلى إنكلترا »
قال جورج مخاطباً بطرس : « ولكن لماذا لم
تخبر أصدقائك بمودتك ؟ »

فقالت الفجرية : « إنه لا أصدقاء له غيرى »
قال جورج في نفسه : « إذا لم يكن الأمر غير
مفهوم ألبتة فلا بد أن تكون قصة بطرس إنه نجح

من الحرب بأعجوبة وإنه فقد ذاكرته فنتسى كل شيء
يتعلق بالماضي

وقال مخاطباً بطرس : « ومن أى عهد تلمب
هذه الألعاب الممنوعة ؟ » فقالت الفتاة بمحبة :
« هذا ليس من شأنك ولا علاقة لك به فإني أتولى
شؤنه »

لم يتردد جورج لحظة واحدة وكان صوت خفي
يهمس في نفسه قائلاً : « لا تكن أحمق وتجاهله فإن
جيمى لن تعلم شيئاً عن أمره »

ثم قال : « لقد كان الأمر غلطة منى وقد حسبته
سديقاً لي كنت أظن أنه مات » فقال بطرس : « إننى
لا أتذكرك ، إننى فقدت ذاكرتى وهذه ليزا تنظر
في شؤنى »

قال جورج في رقة : « أنا أعرف ذلك وألف
شكر لك يا ليزا . ولكنى أدعوكا إلى زيارة منزلى
وهذا عنوانه »

ثم كتب عنوان منزله في ورقة وسلمها إلى الفتاة
وهو يقول : « إن تركه على هذه الحالة مؤلم باليزا
وأريد أن أعرضه على أحد الأطباء »

قال بطرس : « شكراً لك ولكنى لا أريد أن
أرى طبيباً . فقالت ليزا : « بل خير لك يا بطرس
أن يراك طبيب ويظهر أن هذا الرجل رقيق القلب »
ثم التفتت إلى جورج وقالت : « ألا تأخذه منى
إذا تم شفاؤه ؟ »

قال جورج بلهجة جدية : « إننى أعدك بالألا
أحاول أخذه منك . ولكن عدينى أنك ستأتين إلى
منزلى . إننى أطلب ذلك لمصلحته فقط »

نظرت ليزا إلى جورج نظرة بين الرجاء وبين
الخوف وبعد تردد لحظة قالت : « إننى سأأتى به .

ولكنه لى ولا أريد أن تنسى ذلك »
وتركهما جورج وهو يمشى متباطئاً وقد انطبعت
في مخيلته صورة ليزا وهي تنظر إلى بطرس نظرة الأم
الرحيمة إلى ابنها المريض

ولم يزل يسير حتى وصل إلى حي بيكاديللى ، وليس
يشغل ذهنه إلا خاطر واحد هو أن بطرس لا يزال
على قيد الحياة . وكان يقول إنه من المستحيل على
جيمى أن تعرف الحقيقة ما لم يخبرها بها ، وأن بطرس
في حالته هذه سعيد مع ليزا وليزا سعيدة معه . وأنه
من المحتمل ألا تعود ذاكرته إليه . وما فائدتها ؟
ولماذا أكثر من الكلام مع ليزا ؟ ولماذا دعاها إلى
منزله ؟ ولماذا لا يقول إن هذا الرجل ليس هو الذى
كان يعرفه ، وإنه لا شأن له معه ؟ إن تغيير حالة
بطرس تضر كثيرين ولا تفيد أحداً حتى ولا بطرس
نفسه ...

وتقابل مع خطيبته جيمى فلاحظت عليه التغير
الشديد فقال : إن حادثاً حدث فشغله عن كل شاغل
وقال : « إذا رأيتنى أبكى فلا تعلق أهمية على ذلك »
ثم استدرك فقال : « إنه لا يريد إخبارها » وتظاهر
بالضحك وقال : « إنه لم يجد هدية مناسبة ليقدّمها
في المرس ، وأن هذا هو الذى يشغل خاطره »

سكتت جيمى وسكت جورج أيضاً . وكان
شارد الدهن . ثم قال : « أريد منك جيلاً هو أن
تمطينى صورة بطرس التى عندك »

فوقفت جيمى وهي مندهشة وكادت تنقطع
أنفاسها وقالت : « ألهذا علاقة بهدية المرس ؟ »
فقال : « أريد شيئاً شبيهاً بذلك »

قالت : « ما أعزك يا جورج ! ما أعزك ! لقد
كنت أفكر في ذلك منذ عدة شهور أننى سأعطيك
الصورة »

فنظرت إليه نظرة خوف ، وكان أول ما فعله الطبيب أن عرض على بطرس صورته في ثوبه الرسمي مشيت ليزا إلى جانب بطرس ووقفت معه أمام الصورة وكانت هي البادئة بالكلام فقالت بلهجة الأم حين تخاطب ابنها المريض : « هذه هي صورتك يا بطرس . هل كنت ضابطاً بهذه الرتبة ؟ »

ثم بدت على وجهها علامة الزهو وهي تنظر إلى حبيبها وإلى صورته وهو ضابط . وقال بطرس : « لست أتذكر ، وهذه الصورة تصيب رأسي بالصداع » وبدأ عليه الغم فغضبت ليزا وقالت : « وما فائدة ذلك ؟ هذه سخرية بنا . إن هذه الصورة كادت تبجته فلماذا لا تتركه وشأنه ؟ » فقال : « لأنني أحاول أن أنبهه »

فوضعت المرأة ذراعها حول عنق بطرس وقال الطبيب : « إنني أريد أن أخصه في غرفة أخرى وأن أكون معه على انفراد »

فصربت العجيزة برجلها الأرض وقالت مخاطبة جورج : « هل تريد أن تترك ليزا ؟ »

قال جورج برفق : « إننا لا نريد أن نأخذه وقد وعدتك بذلك »

نظرت المرأة إليه نظرة ألم وقالت : « هل تقسم على ذلك ؟ » ؛ فلما قال إنه صادق في وعده قالت :

إنها ترى أموراً غريبة وأنها لا تفهم شيئاً مما تراه — قال لها الطبيب : « كيف وجدته ؟ » فقالت

العجيزة : « وجدته ضالاً في المجاهل التي فيها خيام قبيلتنا ، وهو لا يمي شيئاً فأخذته وعنيت به وعلمته

ألعاب الفجر ، ونحن سعدان معاً ، وهو لا يتذكر أي شيء في عهد مضى على مقابلتي إياه »

وقال جورج : « إن هذا طبيب من أكبر

ثم صعدت إلى غرفتها وأتت بالصورة وأوصته بالعناية بها . ثم وضعت يدها على كتفه وقالت : « لا أظن الآن أنك ستنتظر مكتفياً بالصدافة مدة طويلة » .

وفي اللحظة التالية كانت وحدها . وبعد لحظة كان جورج مع الطبيب ، وكان الطبيب يقول : « هل تقول إنه فقد ذاكرته تماماً ؟ »

فأجابه : « إنه لم يعرفني » ثم نظر الطبيب إلى الصورة وقال : « أهذه صورته ؟ » فقال : « نعم »

— وهل علم أهله ؟

— لم يعلم أحد إلى الآن غيري وغيرك ،

وقد حصلت على الصورة اليوم من جيمي دافترى قال صديقه الطبيب : « تعني أنك حصلت عليها من خطيبتك ؟ »

فأجابه : « نعم وقد كانت خطيبة لبطرس وهي تظن أنه مات . وهذا هو السبب الوحيد الذي جعلها تقبل خطبتي »

ومضت فترة في صمت وكلا الرجلين ينظر إلى الآخر . وقد كانت نظرة الطبيب مزيجاً من الدهشة والإعجاب ثم قال : « ولكن ما رأيك إذا نجحت العملية ؟ »

فقال جورج : « وهل تظن في العالم هدية في العالم أفضل من العريس الذي تحبه الفتاة ؟ »

قال الطبيب : « وإذا لم تنجح العملية ؟ » فقال جورج : « الله أعلم ! إننا لم نصل إلى تلك الغاية »

وفي هذه اللحظة دخل بطرس تقوده ليزا وسألت عن الرجل الجالس إلى جانب جورج فقال : هو الطبيب

يراقبها وهو مطرق فقالت : « إننى لا أريد شفقتك ولكننى أريد رُجلى »

ولما رآته يتأمل فى صورة الفتاة قالت « تذكر الخسارة التى تخسرها بسبب هذه الشفقة . وإنى طالما كنت أفكر من زمن طويل فى أن بطرس ليس بالرجل الذى أصلح له ، ولكننى ألفتة وألفتى »

قال جورج : « وهل أنت حسنة الحظ يا ليزا ؟ » فقالت : « لقد كنت سعيدة ولكننى أخذت نصيبى من السعادة عاماً »

قال : « ما الذى تفعلين الآن ؟ » . فقالت : « ليس هذا شأنك ولكنه شأنى » . ثم خرجت مندفعة من الباب ...

وقال الطبيب بعد أن فحص بطرس إنه يمتقد أن العملية ستنتج تمام النجاح ، وأنه سيجريها فى صباح الغد ، وأرسل الخدم فأعدوا ليزا ، وطلب إليها الانتظار مع المريض ، وأن تجعله ينام ؛ فبقيت وهى تنظر إلى المريض نظرة الإنسان إلى أعز ما يملكه

ونجحت العملية بمعاونة ليزا . وفى الصباح التالى وجد جورج ورقة كتب عليها : « لا تبحثوا عني — ليزا »

فلم يكن فى وسعه أن يفعل أى شئ لأنه لا يعرف عنوانها . ولو كان يعرفه لكتب إليها أن بطرس قد استرد ذاكرته ، ولكن عهداً واحداً قد اختفى من ذهنه تمام الاختفاء ؛ فهو لا يعرف أى شئ عن الأعوام الثلاثة الأخيرة . وكان من أوائل الأسئلة التى ألقاها كيف تسير الحرب الآن ؟ ونسى ليزا وعهدا !

الأطباء باليزا ، وهو يمتقد أن إجراء عملية جراحية له يشفيه من مرضه ، ويعيد إليه ذاكرته .

فقالت العجربة : « وبذلك يعرف أنه كان ضابطاً » وقال جورج : « نعم ويتذكر حياته الماضية كلها . وبطرسك هذا يا ليزا هو السير بطرس سفوندون الذى كنا نحسبه مات فى الحرب »

ثم عرض عليها صورة فتاة وقال : « وقد كان مخطوباً إلى هذه السيدة » . فقالت العجربة : « إنه لا ينظر إلى أى إنسان إذا رأى صاحبة هذه الصورة » قال جورج : « وهى تحبه جداً يا ليزا ، وهو أيضاً يحبها ، ولا أعرف أن فى العالم اثنين يحب أحدهما الآخر مثلها ومثله . وهذه الفتاة مخطوبة لى الآن » فقالت ليزا : « وإذا شفى بطرس فإنها تتركك » قال بطرس : « نعم هذه هى الحقيقة كما يظهر لى الآن » .

ثم ضحكت العجربة ضحكة أدل على الحزن من الدموع وقالت : « والعمل الذى تريده الآن يجعلنى ويجعلك من أتعس الناس »

فقالت جورج : « نعم يا ليزا وإنما أقول ذلك لتعلمي أن التضحية ليست من جانبك فقط بل أنا مشترك معك فيها . والطبيب يريد أن يبقى بطرس هنا هذه الليلة ليجرى له العملية غداً فانتظري معه إذا شئت »

نظرت ليزا إلى صورة جيمى وقالت : « وفى غد تأخذ هذه الفتاة . لماذا قابلتنا ولماذا تريد أن تأخذ منى ؟ إنه سعيد ، وإننى سعيدة . لقد قلت لك إنه سعيد منى .

وقد بكت العجربة كما يبكي الطفل وظل جورج

قالت: « لست أفهم ماذا حدث ولا أعرف إلا أن بطرس قد عاد »

فقال جورج: « هذا يكفي ! أليس يكفي يا عزيزتي ؟ » ثم أمسك بيدها اليسرى وأخرج خاتم الخطبة الذي كان قد أهداه إليها وهو يقول: « لا تضي الخاتم في هذا الأصبع ولكن احتفظي به لديك تذكراً لي »

وهنا سمعت صوت بطرس فقالت: « ادخل فكلمه فهو ينادي ». فقال: « كلا يا عزيزتي فهو لا يريدني وسأخرج الآن من المنزل »

ثم خرج من منزله فلم يكن المحبان في حاجة إليه ولا إلى ليزا

ولكن كلاهما أخذ نصيبه من السعادة عاماً كما قالت العجربة .

عبد اللطيف النشار

آلام فرتر

للساعر الفيلسوف جون الـوانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وعنها ١٥ قرشا

في هذه الأثناء استبطأت جيمنى صاحبها جورج فجاءت لزوره في منزله . ولكن لما وقع نظرها على النائم في السرير اصفر وجهها وتحركت شفتاها وصارت يداها تنقبضان وتنسضان . وصاحت: « لقد جننت ! لقد جننت ! إننى لا أصدق نظرى فهل هذا هو بطرس يا جورج ؟ »

وسمعا بطرس فالتفت ورآها وقال: « أنت جيمنى ! تعالى يا عزيزتي »

فصاحت صيحة فرح ، وجثت على ركبتيها عند سريره . فأغلق جورج الباب وخرج من الغرفة . فجلس وخواطره سابحة في العالم المجهول . فلم ينبه إلا بحى ليزا . وقالت: « لقد رأيتها وهي تأتى »

قال جورج: « لقد استرجع ذاكرته يا ليزا ، ولكنه نسي الثلاثة الأعوام الأخيرة »

قالت وشفتاها ترتعشان: « هل نسينى ؟ » فقال: « نعم يا ليزا ، ونسى ألباب الفجر ، ونسى كل شيء في هذا المهد . وهو يظن أنه لا يزال في الحرب »

قالت ليزا: « وهل هي معه الآن ؟ » . فقال: « نعم هي معه »

قالت: « الأفضل أن أذهب فلا أريد أن أراه معها ، إن ذلك يكسر قلبى ، لقد أخذت نصيبى منه عاماً ودعته بالأمس »

ثم ذهبت فراقبها من النافذة فرآها تقف كلما خطت خطوتين وتلفت إلى المنزل

قالت جيمنى لجورج: « أهذه هي هديتك ؟ » فأجابها وهو يتسم وعينه مغرورتان بالدموع: « نعم فهل أحببتها ؟ »

الشَّيْطَانُ

لِلْكَاتِبِ الْفَرَنْسِيِّ جِي دِي مُونَابِسَان
بِكَلِّ الْأَدْيَبِ عَادِلِ الْجَمَالِ

وضرب الطبيب الأرض
بقدمه محققاً وهو يهتف :
— ما أنت إلا وحش
غليظ القلب ... ولكنني
لا أسمح لك أن تفعل ذلك ...
هل فهمت ؟ إن كان عليك
حقاً أن تحصد حقل الحنطة
فلا أقل من استدعاء المرأة

« رابت » للعناية بأمك وأنا أصر على ذلك ...
أما إذا لم تفعل ما أشرت عليك به ... فسأتركك
تموت وحيداً كالكلب الأجير إذا ما افترسك
المرض بأنياه وحانت منيتك ... فتذكر ذلك
أي أحاسيس وجلة خالجت غيلة أونوريه في تلك
اللحظة ؟ لقد كان يخاف الطبيب الوحيد في القرية ،
ولكنه إلى جانب ذلك كان يعبد المال ويقدسه ؛
وتردد قليلاً قبل أن يسأل الطبيب في النهاية قائلاً
بارتياب :

— وكم تطلب المرأة رابت أجراً للعناية بأبي ؟
وتعم الطبيب :

وأني لى أن أعلم .. إنها تتقاضى أجرها بالنسبة
للزمن الذي تعمل فيه ... فما عليك إلا أن تتفق
معه شخصياً ... وإني أنذرك أنني أريد أن أراها
هنا قبيل مرور ساعة واحدة

— حسن .. يمكنك أن تطمن أيها الطبيب ..
هأنذا ذاهب إليها
وغادر الطبيب الغرفة بعد أن قال للشاب بلهجة
تهديدية متوعدة :

— مرة أخرى ... إنني لست هازلاً في تحذيري
إياك ...

كانت المرأة المعجوز مسجاة على فراشها وهي
تعالج سكرات الموت، وترقب من بين أهدابها الزهقة
ابنها وهو منتصب أمام طبيب القرية وتحاول بكل
ما أوتيت من قوة وإحساس أن تتبين ماهية الهمس
الذي كان يدور بينهما . كانت هادئة ساكنة رغم
ثقتها من أنها ستموت عن قريب ... ولكنها كانت
مستسلمة للواقع الملموس . . . فهي قد أكلت الثانية
والثلاثين من عمرها ... وهذا يعني أنها قد أتمت
رسالتها في الحياة

وتخللت شمس يوليو النافذة ... وغمرت أشعتها
المتهبية أرض الغرفة وارتفع صوت الطبيب قائلاً بشدة :
— إنك لا تستطيع أن تترك أمك وحيدة
يا « أونوريه » وخصوصاً وهي في مثل تلك الحالة
فهي قد تموت بين آونة وأخرى
وأجاب أونوريه بقلة اكتراث :

— مهما يكن الأمر ... يجب على أن أذهب
لحصاد الحنطة ... وما هو ذا الجو الملائم لذلك ...
ماذا تقولين في ذلك يا أماء ؟

ورغم شعور المرأة برغبة الموت وهي تسرى
في جسدها ... فقد أشارت إلى ابنها بالموافقة وهي
تحت تأثير جشعها وعبادتها للمال

يأتسون من التحسن كما تعلمين ... وأنا أشفق على النساء اللاتي يشتغلن بأنفسهن .. يا لآمي السكينة .. لقد كانت تعمل كفتاة في العاشرة رغم بلوغها الثانية والتسعين .

وأجابت الأم رابت في اقتضاب وتحفظ :
- إنني أتقاضى سمرين .. فلأغنياء .. فرنكان لليوم وثلاثة ليل ... أما للفقراء ... ففرنك واحد لليوم واثنان ليل ... وسأعملك كالفرق الثاني : واحد واثنان ...

وراح أونوريه يفكر .. إنه يعرف أمه تماماً .. ويعرف مقدار مقاومتها للمرض ... فربما عمرت أسبوعاً آخر رغم زعم الطبيب بموتها العاجل فأجاب المرأة قائلاً :

- كلا إنني أريد أن أ كافئك إجمالاً لإتمام المهمة .. إنه نوع من المقامرة .. فلقد أكد الطبيب أنها ستموت حالاً ... فلو تم ذلك فسيكون ربحاً لك وخسارة لي . أما إن عمرت يوماً أو اثنين . فسيكون ذلك أقل ربحاً لك وأقل خسارة لي ..

ونظرت إليه الأم رابت بدهشة ... فلم يسبق لها أن عاملت محتضراً بمقد ... وترددت لحظة ... وجأة ... راودتها فكرة الخداع فأسرعت قائلة :

- لا يمكنني الموافقة على ذلك حتى أرى أمك - إذن ... هيا بنا لرؤيتها

وجفت المرأة يديها ثم تبعته صامتة طوال الطريق ، وحين مرورهم بالحقل المجاور للمنزل صرا بجموع الماشية وهي ترحى الكلاً الجاف ... فغمغم أونوريه : « اطمئنوا ... فستأكلون القمح الجديد عن قريب » .

ولم تكن المرأة المعجوز قد ماتت بعد ... بل كانت مستلقية على ظهرها ، وقد امتدت يداها فوق

و حين انفرد الشاب بأمه التفت إليها قائلاً بلهجة المغلوب :

- إنني ذاهب لاستدعاء الأم « رابت » كما أصر على ذلك هذا الغر ... فكوني هادئة حتى أعود ، ودون أن ينتظر إجابتها غادر الغرفة

كانت الأم « رابت » امرأة عجوزا تشتغل بكي الملابس وتنظيفها ... وإلى جانب ذلك كانت تعمل كمرضة لقاء أجر معلوم ، وكان وجهها مجمداً كتفاحة مُمرة ... وهي حقود حسود ... ذات طبع حاد لا يمكن أن يمت للرحمة البشرية بصلة

و حين استقبلت أونوريه في منزلها ... كانت منهكة في مزاج بعض الألوان لصبغ ثياب بعض فتيات القرية فبادرها قائلاً :

- كيف حالك أيتها الأم رابت ؟ هل تسير الأمور في طريقها العادي ؟

والتفت إليه المرأة مجيبة :

- نعم . نعم ... شكرآ ... كيف حالك أنت ؟

- على أحسن حال ... إنها أمي التي تشكو

- أمك ؟

- نعم أمي

- وما خطبها ؟

- إنها في طريقها نحو الأبدية وهذا كل ما هنا لك

- هل بلغ بها سوء الحال إلى ذلك الحد ؟

- لقد قال الطبيب إنها لن تعمر حتى الضحى

- إذاً لا بد أن تكون انتهت الآن ؟

وتلعم أونوريه قليلاً ... فلقد أراد أن يهون المهمة التي جاء من أجلها ... فكانت المرأة أشد

منه دهاء .. فلم يجد بداً من مفاحتها مباشرة بقوله :

- كم تأخذين للعناية بأمي حتى النهاية ؟ إننا

وعادت معه وهي تضطرب إلى الإصرار غير عابثة
بدهشة الرجال الذين كانوا ينظرون إليهما باستغراب،
ولا بنظرات النساء اللاتي كن يرسمن علامة الصليب
على صدورهن. ورآهن أونوريه عن بعد... فتساءل
عن سبب إصرار القس، وما كان أسرع جاره
في الإجابة عليه قائلاً:

— إنه سيتلقى اعتراف أمك دون شك
ولم يساور أونوريه العجب لذلك... بل واصل
الحصاد في هدوء.

وتلقى القس اعتراف مدام بوتيمبس، ثم غادر
السكان.. ومرة أخرى أصبحت المرأتان على انفراد،
وابتدأت الأم رابت تفقد صبرها وهي تعجب كيف
أن المرأة لم تمت حتى الآن

وشحب لون النهار... وازدادت برودة الجو.
وراحت فراشات الليل تحوم حول النافذة تحاول
التحرر من أسرها كروح المرأة المعجوز التي كانت
راقدة دون حراك وعيناها محمقتان وكأنها في انتظار
رؤية شبح الموت... بينما كانت أنفاسها تتدافع من
صدرها بطيئة ذات صفير خافت أليم.

وعاد أونوريه... فوجد أمه ما زالت على قيد
الحياة... فتساءل دهشاً عن كيفية إمكان ذلك...
ثم ودع الأم رابت بعد أن أوصاها أن تعود في تمام
الخامسة من صباح اليوم التالي... وفعلت الأم رابت
قبل انبثاق الفجر وأسرعت بسؤال أونوريه قائلة:

— ألم تمت أمك بعد؟

وأجابها وهو يسير نحو الحقل:

— كلا وأظنها أحسن حالاً

وضاقت الأم «رابت» ذرعاً، فتوجهت توا
إلى حجرة المرأة المحتضرة فوجدتها كما كانت بالأمس
تماماً... هادئة ساكنة مفتوحة العينين، ويدها

غطاء الفراش الملون وقد بدا عليهما الضعف والهزال.
وانجذبت الأم رابت نحو الفراش ثم حدثت في المرأة
المحتضرة وتحسست بنفسها ثم مررت يديها على صدرها
وهي تصني لصوت تنفسها الخافت الذي يشبه النزع،
وألقت عليها بضع أسئلة حتى تتأكد من ضعف
صوتها؛ ثم غادرت الغرفة بعد ذلك الامتحان يتبعها
أونوريه. كان رأيها الشخصي أن المرأة لا يمكن
أن تستمر على قيد الحياة حتى المساء
وسألها أونوريه بلهفة:

— والآن؟

وأجابته المرأة بنجبت:

— ستمبش يومين وربما ثلاثة أيام... وسأتقاضى
منك ستة فرنكات.

وردد أنوريه قولها:

— ستة فرنكات... يا لله... ست فرنكات
كاملة؟؟ هل جنت أيتها المرأة؟؟ سوف لا تعيش
إلا خمس أو ست ساعات على الأكثر

واشتد الجدل بين الرجل والمرأة.... وأصرت
المرأة على الرحيل... فتخيل أونوريه حنطته في انتظار
الحصاد، فلم يجد بداً من الخضوع وتتم مستسلماً:
— سأعطيك المبلغ على أن ينتهي الأمر كلية
مهما طال أمد.

وأوسع خطاه نحو الحقل... في حين رجعت
الأم رابت إلى حجرة المريضة وهمست قائلة لها:

— لا شك أنك تريد الاعتراف يا مدام

بوتيمبس؟

وأشارت مدام بوتيمبس برأسها إيجاباً...
فنهضت الأم رابت بسرور ونشاط وهي تهتف:

— يا إله السموات... سأذهب لإحضار القس

وأسرعت المرأة في طريقها نحو القس...

فبدت مضطربة حائرة ، لا يستقر رأسها على الوسادة في مكان واحد .

واختفت الأم رابت حينئذ وراء الستار المسدل بجانب الفراش . وتناولت من صندوق بالقرب منها ملءة بيضاء ألقها فوق رأسها فحجبها من قمة رأسها إلى أخمص القدم . ثم وضعت على رأسها قدرا بدت أرجلها الحديدية كثلاثة قرون مدية . ثم أمسكت بيدها مكنسة مستطيلة ، وما كادت تنتهي من كل ذلك حتى صعدت فوق مقعد مرتفع .

وفجأة رفعت الستار وبدت بهيئتها أمام المريضة وصرت لحظة فزع ورعب ... وحاولت المرأة المسكينة بكل قواها أن تهرب من الشيطان ... شيطان الموت الرهيب ... ولكنها ما كادت تتحرك حتى خانتها قواها وارتجت على الفراش مرة أخرى وانتهى كل شيء .

وبكل هدوء ودعة ... أعادت الأم رابت بضاعتها إلى أما كتبها ... ثم أغلقت عيني المرأة الميتة ... العنيتين الفزعيتين المحدثتين في خوف وفزع ... ثم ركعت على ركبتيها جانب الفراش وابتدأت تصلي على الراحلة بحكم المادة

وحين عاد أونوريه من الحقل عند الغروب ... وجد الأم رابت راكعة على ركبتيها تصلي ... فتأكد أن روح أمه قد صعدت إلى باربيها وابتدأ يفكر

لقد استمرت المرأة في خدمة أمه ثلاثة أيام وليلة .. أي أن أجرها كان يجب أن يكون خمس فرنكات .. ولكن ... يجب عليه الآن أن يدفع ستة وغنم قائلا بغضب :

— يا للحظ السيء ... لقد خسرت فرنكا عادول الجمان

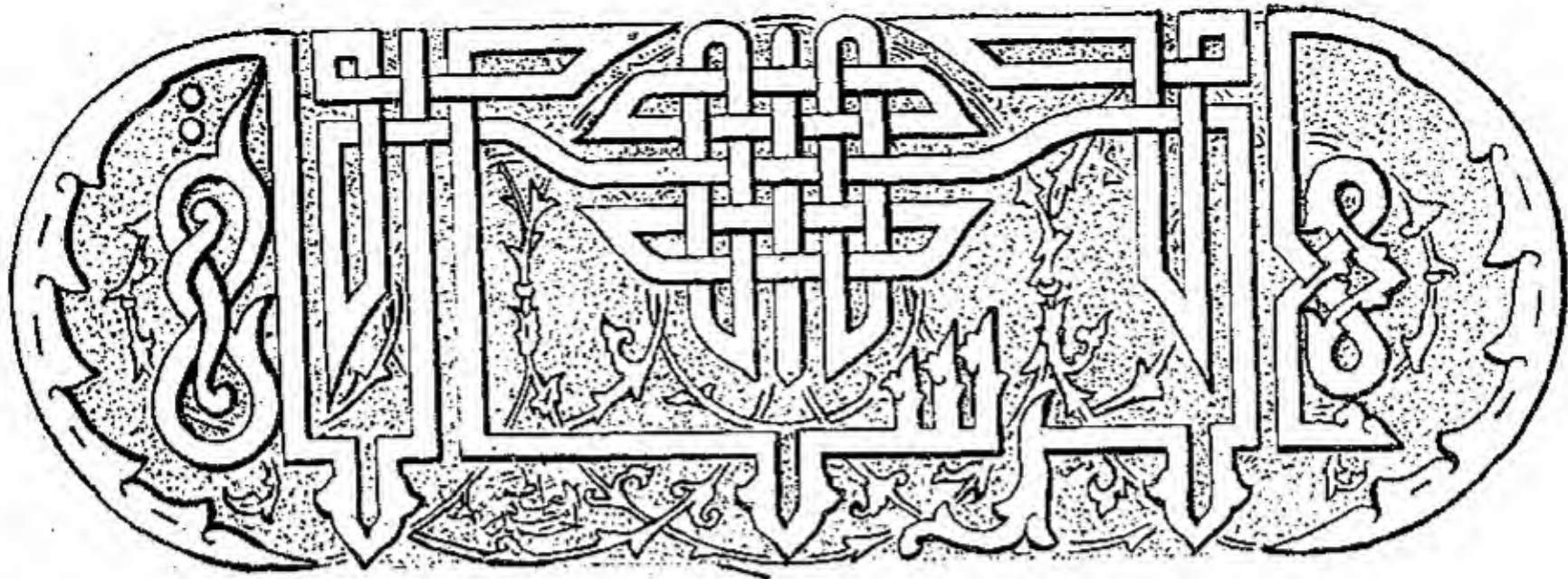
ممدودتان فوق غطاء الفراش الملون ... يبدو عليهما الضعف والهزال ؛ ورأت الأم رابت أن المرأة يمكن أن تظل هكذا يومين أو أربعة .. بل ربما عاشت أسبوعاً آخر ... فأحست بانقباض يسود نفسها ... وبمقد هائل نحو ذلك الذي خدعها بأمه التي لا تريد أن تموت . وظلت عيناها محدقتين بمدام بوتتمبس طيلة هذا الصباح حتى عاد أونوريه للغداء . ثم رجع إلى حقله لإكمال حصاد حنطته .

وكادت الأم رابت تفقد شعورها . فلقد خيل إليها أن كل دقيقة تمر إنما هي زمن مسروق منها ومن حقها أن تتقاضى عليه أجراً .

وأحست برغبة قوية . رغبة مجنونة في أن تضغط على ذلك العنق الهزيل فتخمد أنفاس المرأة التي كانت تسلبها وقتها المقدس ، ولكنها استطاعت حينئذ أن تتصور بشاعة جريمتها .

وراودتها فكرة أخرى . واقتربت من المرأة المحتضرة ، وهمت تسألها — ألم ترى الشيطان بعد ؟ فأجابتها مدام بوتتمبس هامسة : — كلا

وابتدأت الممرضة تالقي على مسامعها بعض القصص الخرافية المخيفة . فقالت : إن الشيطان يظهر عادة لهؤلاء الذين على وشك الموت قبل موتهم بدقائق معدودات ... ثم راحت تصف لها شكل الشيطان ، فادعت أنه يحمل في يده محصداً كبيراً وعلى رأسه قدر مملوءة بسائل يغلي مسمر به ثلاث قرون . واستمرت في حديثها الرهيب ، فعددت لها أسماء من زعمت أن الشيطان قد ظهر لهم قبل موتهم . وفعل ذلك الحديث فعل السحر في مدام بوتتمبس .

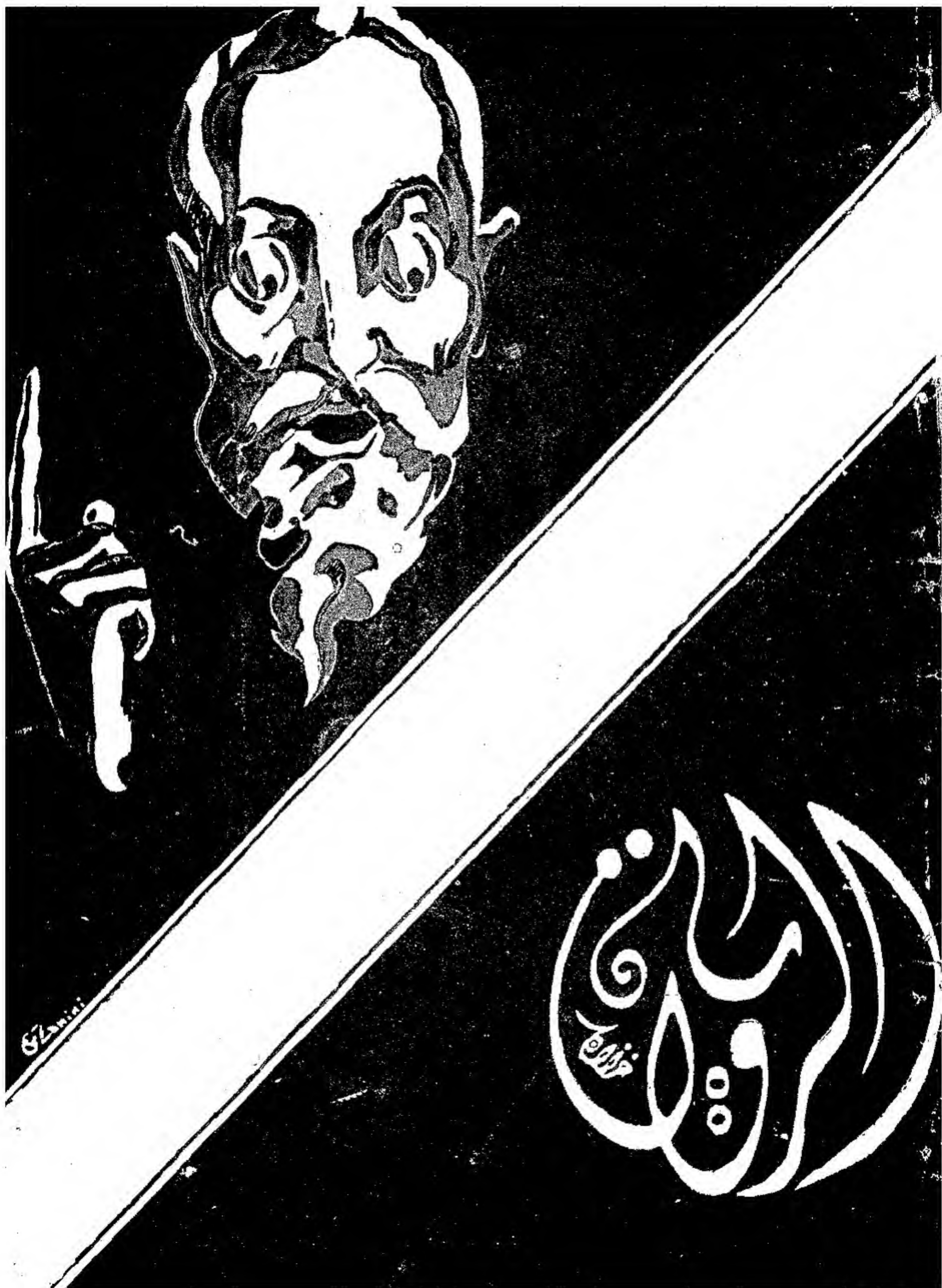


مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النُّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجِلُ مَظَاهِرَ التَّجَدِيدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظُوْأَ هِكْمِ النُّطُورِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ ، وَكِتَابُ الْمَشْرِقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجْلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الدَّيْشَانِ الدَّاخِلِيَّ سِتْرَ قَرْنَاءَ ، وَالْخَارِجِيَّ مَا بَيْنَ مِصْرِيَا ، وَالْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِمَجْمَعِ ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك على سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للقصص والسير

نصدر مؤقنا في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

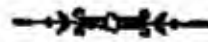
٢٧ ربيع الآخر سنة ١٣٥٨ - ١٥ يونيو سنة ١٩٣٩

العدد ٥٨

من أحسن القصص



فهرس العدد



صفحة	
٥٦٢	إختبار زوجة ... عن الانجليزية ... بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى ...
٥٧٩	دموع قديمة ... قصص مصرية ... بقلم الأستاذ دريى خشبة ...
٥٩١	زوجة ... قصص مصرية ... بقلم الألسة جيلة العلايلى ...
٥٩٩	الأعمال والآمال ... عن الانجليزية ... بقلم الأستاذ عبد الطيف النشار ...
٦٠٥	الورقة الثالثة عشرة ... للكاتب القصصى فيليبس أوبنهم ... بقلم الأديب عزت السيد ابراهيم ...
٦١١	نصيحة ... عن مجلة تروستورى ... بقلم السيد ناصر عزيز ...

على بقعة مرتفعة إلى الشمال ،
ولم يكن يفصله عن فناء السجن
غير « الطريق الكبير »
مات أبي وأنا في العشرين
من عمرى ، وبعد شهر من
موته تزوجت من جون
هارداواى وهو الحبيب الوحيد
الذى عرفته

الخبيثان زوجه

(قصة منقصة جازرة ما تسمى جنبه)

عن الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

وكانت مزرعة أبي جون مجاورة لمزرعتنا ،
وقد اتفقنا على أن نعيش في بيتنا لأنه كان أكبر
من بيت جون وأتم استعداداً

ورغب أبو جون في أن يعيش معنا وكان
كما يصف نفسه « قد ولد مزارعاً » فأشرف بنفسه
على خدمة أرضنا وأرضه

وكان جون أشد ميلاً إلى الماشية منه إلى الأرض
وكذلك كان شائى ، لهذا ربط بيننا نوع من الشركة
الطبيعية ، فكان جون يرعى القطيع الذى تركه
لى أبى

وجرت أمورنا سهلة هنية مرضية إلى أن ساءت
الأقدار هابل كيليون إلى طريق حياتنا

وكانت الفتيات من صاحبائى يقلن لى إننى جميلة
وإننى لو عنيت بمظهرى وبترتيب شعرى لأصبحت
فى طليعة الجميلات ، على أن جمال وجهى لم يدخل
إلى نفسى شيئاً من الغرور الذى يبعثه عادة مثل هذا
الإطباب

وكان جون أجمل رجل فى المقاطعة ، طويل
القامة مستقيم الصدر قوى البنية ، أسود العينين ،
له شعر فاحم متماوج تحسده عليه جميع الفتيات .

أحقاً كانت هذه الزوجة غير ودية ؟ وهل
كانت أية امرأة أخرى تسلك غير سلوكها
إذا هي فوجئت بـ ... ؟

كنت فى الثانية والعشرين من عمرى عند ما وقع
هذا الحادث . وكانت عشرون سنة من هذا العمر
قد انقضت مفعمة بكل أسباب السعادة . كنت محبة
لعيشتى ولكن فلسفة حياتى كانت بسيطة فالرجال
فى نظرى إما خيرون وإما سيئون . والسيئون منهم
كانت تحبسهم عن العالم تلك السجون الغبراء القائمة
كذلك السجن الذى يقع فى الوادى القريب منا .
والحياة عندى شىء يجب أن يعيشه الإنسان ويتم
به ، ولم تكن الأيام فى نظرى من الطول بحيث
تتسع لجميع مباحج الحياة . وكانت لغيرى من الناس
أحزاهم ولكن أجنحة الحزن العابسة لم تهو ناحيتى
مرة من المرات ، ولقد كنت طليقة فرحة ككل
شئ صغير فى مزرعة أبى

كان اسمى إلين دراكوت وكنا نعيش منذ
ولادتى فى الولايات المتحدة على رمية حجر من سجن
الولاية . وكنا إذا ذكرنا السجن أشرنا إليه بأنه
البناء الواقع هناك فى المنحدر ، لأن بيتنا كان قائماً

وكان من الناحية الخلقية مثله من الناحية الجسمية شديد الاستقامة ، وكان مبدؤه ألا ينفى نظره أمام أى مخلوق وألا يدين لإنسان

لقد وهبت جون هارداواى من الحب كل ما تستطيع زوجة صغيرة سليمة الجسم أن تهب الرجل الذى تحبه ، وكنت كذلك أحيطه بنوع من حب الأمومة الذى لم ينعم به قط ، فقد ماتت أمه وأبى ونحن طفلان ، ويظهر أن هذا العامل المشترك كان من الروابط التى جمعت بين قلوبنا

ولقد بلغ من حبي جون أننى حين كنت أراه يكاد ينزلق فى طريق خطرة متقاداً لبعض الرجال ، الأكبر سنّاً والأكثر تجارباً ، لا أتردد فى أن أصارحه برأى ، ولكنه لم يكن يصنى إلى نصائحي . على أننى لم أكن بطبيعى لحوكة ولم أكن ميالة إلى مضايقة الناس بتدخل فى أمورهم لذلك كنت أكتفم حزنى فى نفسى عند ما كان يتركنى الليلة بعد الليلة ليذهب إلى المدينة مع هايل كيليون

وكنت بعض الأحيان أتوسل إليه أن يترك هايل وأن يبقى منى فى البيت إذ كنت وحيدة منقطعة ولكنه كان يجيبنى على ذلك بقوله :

— ولكنك لست وحيدة يا عزيزتى فإن أبى معك ولكن أباه كان يعمل كثيراً ، وكانت حاجته شديدة إلى التمتع بساعات نومه ، فلم يكن لى من عمل إلا أن أجلس فى الطابق الأول وحيدة أو أضعد إلى فراشى فأبكي حتى أنام ، ولم يكن كل ما يهمنى أننى وحيدة فقط ولكننى بدأت على مرور الأيام أشعر بالخوف من سلطان هايل على جون

وقال لى حى مرة وهو يحاول أن يواسينى :

— لا تخافى فليس هايل بالشديد الذى تتصورين

إنما هو عصبي المزاج عنيد ، فهو يميل إلى مخالطة الجماعات غير المستقيمة فى المدينة ، ويشرب قليلاً ولكنه لم يقع قط فى ورطة ، وقد راقبه أبوه مراقبة شديدة فى طفولته . لذلك قد أبطأ فى الاستفادة من تجارب الأيام ، ويخيل إلى أن جون يشعر بشيء من الخيلاء فى أن يصطحبه رجل أكبر منه سنّاً مثل هايل ، فمليك يا ابنتى بالصبر ، ومتى وضعت مولودك فسيصبح جون رجلاً غير الذى ترين الآن

بعد هذا الحديث غالبت مخاوفى وشرعت أسلى نفسى بأشياء آخر خارج البيت

وكانت الدراسات الخارجية للكلية قد شاعت فى تلك الأيام فسجلت اسمى فى درس التاريخ الانجليزى ، ووجدت أعظم اللذة فى المذاكرة التى كانت تشغل ليلالى طوالاً لولاها لكانت ليلالى وحدة مملة مزعجة .

وقد ضحك جون من أن زوجته أصبحت طالبة تشمخ بأنفها ولكنى تركته فى تهكمه ومضيت فى درسى .

وفى يوم من الأيام سمح جون لهايل أن يأخذ قطعاً من الماشية إلى السوق على غير إرادتى ، وكان كل شيء فى هذه الأيام ينقل على قطارات سكة الحديد ، وكان من المألوف أن يصحب القطيع فى العربة أحد الرجال ، وقد أردت أن يذهب جون بنفسه على عادته ، ولكنه رفض أن يسمع أى معارضة فى ذهاب هايل بدلاً منه ، ولما عاد هايل نقدنى فى الحال نصيبى من ثمن القطيع ، وكنت لا أزال غاضبة ، فسلمته صكاً بالمبلغ دون أن أنطق بكلمة واحدة فقد لاحظت أنه سكران .

ولما ذهبت إلى البنك لإيداع المال علمت أن جون

إلى جانبه . واستعان جو بما يحمل من الخمر على إفاقة
جون من غيبوبته . وكان جوادا المتعاركين قد اختفيا،
ولكن جو قال إنه سمع ركض الخيل في طريق
المدينة في أثناء مجيئه منها

وعادوا بجون إلى المدينة؛ ولم يكن في وسعه أن
يخبرهم بأكثر من أن هابل غلبه من أول لكمة
فأفقدته الرشيد . وأودع الشريف جون سجن
المقاطعة حيث وجده أبوه في صباح اليوم التالي
وقال لي حمى عند ما عاد إلى البيت :

— يريد جون ألا تهتمى بما حدث فهم
سيحققون معه التحقيق الابتدائي بعد ظهر اليوم
وسينتهي كل شيء على خير

فلما بكيت صارخة في حال عصبية قال حمى :
— لا تخافى يا إلين واذا كرى أن في أحشائك
جنيئا يجب أن تفكرى فيه

ولاحظت في عيني الرجل نظرة غريبة فبذلت
جهداً عنيفاً لأخفف من ضربات قلبي الهاشجة وصحت :
— ولكن يا أبى إذا كان هابل ميتاً وليس
هناك شهود على ما حدث فماذا يكون موقف جون ؟
فقال الرجل في حزم :

— نعم يا إلين إني أرى المركز دقيقاً حرجاً
ولكنى واثق من براءة ابني

وبدأت محاكمة جون في اليوم التالي للتحقيق
الابتدائي، ولقصر الوقت بين التحقيق والمحاكمة رفض
طلب إطلاق سراحه بكفالة فبقى في السجن

ولما كانت حالتى الصحية لا تسمح لي بحضور
المحاكمة فقد اكتفى بسماع شهادة قصيرة أدليت بها
ولم أرى جون بعد ذلك إلا عندما أحضره الشريف إلى
ليودعنى الوداع الأخير، فقد حكم عليه بالسجن المؤبد

لم يودع نصيبه ، وكانت قد مضت عدة أيام بعد عودة
هايل وتسديده ثمن القطيع ، فلما جلسنا إلى مائدة
المشاء ذكرت ما علمت من البنك لجون وقلت له
محدرة :

— يجب ألا تحمل هذا المبلغ الكبير من المال
معاك يا جون حيثما ذهبت فقد يهاجمك بعض الأشرار
فأجاب جون في شيء من الكآبة :
— ليس عندي من المال ما أودعه ، فقد ادعى
هايل أن المال كله له

ولكن جون دافع عن صديقه عند ما رى
أبوه هابل كيليون بعبارة تحقير وازدراء ، فقال :
— سأحصل على مالى يا أبى عند ما يفيق هابل ،
وإني لأظنه قد وقع في أيدي عصابة هناك في ميدان
السوق فصحبوه إلى اجتماع أعدوه . ولتثق يا أبى
أن هابل رجل مستقيم

وقضت الأسرة بقية وقت العشاء في صمت .
وبعد قليل وصل هابل إلى فناء البيت راكباً وخرج
جون معه متجهين إلى المدينة على عادتهما . أما ما حدث
بعد وصولهما إلى المدينة فقد علمناه من غيرهما على
الصورة الآتية :

تمارك جون وهايل أمام قاعة البليارد عندما أعلن
هايل أنه غير مدين لجون بشيء من المال . وكانت
المركة حامية جداً قاتل كل فيها أخاه قتالاً عنيفاً عند
ما حاول المشاهدون أن يفرقوا بينهما . على أنهما بعد
ذلك تركا المدينة عائدين وهما في أعين الناس على خير
ما يكون من المودة والصداقة ، ولكنهما في الواقع
قد استأنفا القتال على مفترق الطريق

ورآهما جو استامسى في أثناء عودته وكان جون
فائد الوعى ، أما هابل فكان جثة هامدة وبندقية

النفس والجسم ، ولكن الأمل في محاكمة ثانية شجعتني على احتمال الصدمة ، على أن هذا الأمل لم يكن ليتحقق ، ولكنه على كل حال قد قواني على الهوض يوم أحضر الشريف كلم هاوكتز زوجي إلى البيت لتوديعي قبل الذهاب به إلى السجن فك الشريف القيد الحديدي من يدي زوجي لجرد دخولها إلى البيت ثم أدار لنا ظهره وأطل من الشباك ، فماتني جون وقال :

— إلين . ثق بأنني بريء من قتل هايل ثقتك بأن الله موجود في السماء

قال جون هذه الكلمات في ثبات وخشوع كما لو كان يقسم قسماً عظيماً ، ولأول مرة زال من نفسي كل شك في براءة زوجي . فماتته وأنحنيت عليه فقال :

— لم يكن بد من أن أراك يا إلين لأقول لك هذه الكلمات لأنني أعلم أنك كنت تشكين في براءتي . لقد قرأت أفكارك يا عزيزتي ، وكنت دائماً قادراً على قراءتها ، والآن أطلب منك أن تعديني بالآتي حتى أبدأ إلى السجن لرؤيتي . فإني لا أطيق أن تربني أنت أو طفلنا سجيناً . ولا تكتبي لي فإن ذلك يصعب على البقاء هناك ... وسيتكفل أبي بزيارتي . والذي أرجوه منك يا إلين هو ألا تخبري طفلنا أن أباه سجين . عوديه علي أن يحسبني ميتاً . وثمة شيء تستطيعين أن تعمله من أجلي . فسأنتظر في الساعة السادسة من كل مساء أن أسمعك تقولين : « إني أحبك يا جون » كما كنت تقولين كلما كنت بعيدة في الكلية وسأسمع كلماتك وسأرد عليك بمثلها »

وكنت أنا وجون نمتقد بالإيماء وقد أقمنا الدليل على قوته في كثير من الفرص .

بنى الحكم على جون على شهادة القرائن ؛ فقد روى قصته على حقيقتها في غير تردد ، ولكن القاضي والمحلفين لم يقيموا لها كبير وزن . قال إن هايل كان لا يزال تحت تأثير السكر عند ما غادر المدينة ، ولم يستطع أن يقول أين ذهب بمال جون ، فتشاجرا وكان هايل هو الذي ضرب الضربة الأولى مدعياً أن جون قد وصفه بأنه لص ، على أنهما لم يلبثا أن تصالحا وضحكا على ما كان منهما ، ولكنهما في أثناء عودتهما إلى البيت استأنف هايل القتال

وفي مفترق الطريق ترجلا عن جواديهما وقررا أن يتقاتلا بقبضاتهما عارية عن القفازات ، وألقيا ببندقيتيهما على الأرض وأجفل الجوادان فركضا هارين . وضرب هايل الضربة الأولى فكانت ضربة قاضية أفقدت جون وعيه فلم يعرف شيئاً بعد ذلك إلى أن استيقظ فوجد أستاى منحنيًا عليه

وقال جون :

— لقد كانت ببندقيتانا ملقيتين على الأرض إحداها إلى جانب الأخرى فابحثوا عن ببندقيتي فحيث وجدتموها وجدتم القاتل

ولكن القرائن ضد جون كانت من القوة بحيث بدت كلماته عديمة القيمة ، وكان الشعور العام متجهاً إلى أنه بعد أن قتل هايل ألقى ببندقيته بعيداً حتى إذا شعر باقتراب أستاى اصطنع الغيوبة والإغماء . واعتقد آخرون أن البندقية التقطها أحد الباحثين عن الأشياء الغريبة عند ما ازدحم الناس حول الجثة ليلة ارتكاب الجريمة . ولم يصدق براءة زوجي إلا نفر قليل من شهود المحاكمة

ولما وصاني خبر الحكم على زوجي شعرت بأن الحياة لا تساوي متاعها ، وأحسست بأنني مريضة

وقد سألتني جون !

— أو ستفعلين هذا الذي أطلب منك يا إلين ؟
فوعده في كلمات تقطعها الزفرات :

— نعم يا أعز الناس على نفسي لا بد أن أفعل
ذلك ولن أنسى أبداً ، وإني لأصدقك ، وأعتقد
ببراءتك وبأنك لم تقتل هايل كيليون . لن أنسى
ذلك ما حييت .

وكانت عينا جون جافيتين عند ما قبلني ، وكان
صوته ثابتاً رزيناً عند ما ألقى إلي بكلمة الوداع .
وكان ظاهراً أنه قد غالب نفسه وشعوره قبل حضوره
لوداعي ، ولكنني تعلقت به في عنف عند ما أعاد
الشريف القيد الحديدي إلى يده وقال : « هلم بنا
يا جون فلا بد من أن نذهب » .

فقال جون :

— ابق مع إلين يا أبي وحافظ عليها ، واعن
بأمرها واحضر لرؤيتي كلما استطعت الحضور .
وكان من نعمة الله على أن أصابني الإغماء ؛
فحملني حمي إلى فراشي . وفي المساء شعرت بأنه
يفضل وجهي ، وكان الطبيب قد غادر المنزل في
هذه اللحظة ، وسمعت حركة في المطبخ بالطابق
الأول .

وقال حمي :

— يجب على الإنسان أن يحتمل الحياة يا إلين .
ولیکن طفلك أول ما تفكرين فيه ، وسأحضر لك
الآن شيئاً من الحساء الساخن ، وقد حضرت ماري
جوتز وفرانك لمساعدتنا ، وقد عنيانا بكل شيء
في البيت ، وإني لو اتق من أنك ستزودين بالشجاعة
في حياتك المقبلة . ومن المحتمل أن نصل إلى محادثة
جديدة كما تعلمين .

ونطق حمي العبارة الأخيرة بلهجة المواساة
الرقيقة . فغالبت حزني واستويت جالسة في فراشي
وكانت الساعة قد اقتربت من السادسة مساء .

تذكرت وعدى لجون فصليت لله ضارعة وقلت
بينما ذهب حمي لإحضار الحساء :

— اللهم مكنه من أن يسمعني .

فلما دقت الساعة السادسة قلت :

— إني أحبك يا جون .

وبعثت هذه الرسالة بكل ما في نفسي من قوة
معنوية .

واضطربت إلى أعماق نفسي عند ما سمعت الرد
يدب في أذني .

— إني أحبك يا إلين .

كانت هذه الرسائل فاتحة رسائل إبحائية عديدة
بيننا فلم أنس قط أن أرسل كل يوم هذه الرسالة
الطارئة التي كان جون ينتظر وصولها إليه وهو جالس
هاديء في سجنه الصخري .

وكان حمي يذهب بنظام لزيارة جون في المواعيد
المحددة للزيارة ولكنني لم أعرف قط ما كان يجري
بينهما من حديث . على أنه كان يبلغني أموراً تتصل
بجون كالفرقة التي كان زوجي يعملها في أيام الأحاد ،
وهي مؤلفة من جماعة لم تكن من قبل تهتم بأي شأن
من شئون الدين ، وأخبرني أيضاً أن إدارة السجن
عهدت إلى جون بالإشراف على الحركة الرياضية
الجديدة التي أدخلت على نظام السجن .

وأخبرني مرة أن جون أقنع فريقاً من المسجونين
بالعدول عن الحرب من السجن ، وسلم الأسلحة التي
صنعوها بأيديهم إلى أولى الأمر دون أن يذكر لهم
أسماء المتذميرين . وفي مرة أخرى أخبرني أن جون

من يشهد منوع غرامنا غير النجوم والقمر أو ربما خيالات الشتاء القارس .

وكان في مرعانا المجاور للتل على مقربة من مزرعة السجن أكمة صغيرة ، فكنت أقصد إليها غالباً بعد انتهاء عملي ، وكان يلذ لي أن أجلس فوقها وأرقب مصاييح السجن حين تضاء . فكان المنظر أشبه بقصر من قصور الجان بأضوائه البراقة التي تبعث بأشعتها إلى غسق الوادي النحدر . فلم يكن السجن في هذه الساعات ليشبه في شيء مأوى الآمال الضائعة وبيت العقاب .

كان يحلولى أن أجلس هناك وأفكر في جون فأرسل له وأتلقى رسالتي حينما الصامتتين . وكان يخيّل إلى في بعض الأحيان ، عندما يكون ضوء النهار لم يغب بعد عن الأرض المرتفعة ، أن بناء السجن وحش رابض في ظلال الوادي ، فكنت أبغضه لأنه قد ألهم حبيبي .

وفي مساء يوم من الأيام أتيت بروني معي في هذه الرحلة اليومية ، وكان قد بلغ السنة الخامسة من عمره . فلما وقفنا هناك مولين ظهرينا ناحية الشمس القارية ، رأينا فريقاً من المسجونين في عربة محملة بالحشائش الجافة تسير بهم مبطنة في الطريق الموصل بيننا وبين السجن ، وكانوا عائدين من أحد الحقول البعيدة وقد استطعت أن أرى هؤلاء الرجال الصامتين رؤية تامة ، ولكن بعد المسافة لم يمكنني من تمييز قسما وجوههم . وعلى حين فجأة وقف واحد منهم ورفع قبعة السجن ، وبقي على ذلك إلى أن غابت العربة عن نظري . فسألت نفسي: أيمكن أن يكون هذا الرجل هو جون ؟ وذكرت عندئذ أن حمى قد أخبرني أن جون كان يشرف على الفرقة من

اعترف له بالقيادة والشجاعة لإخماده حريقاً في نبات القنب .

ولم يدهشني ما علمت من صفات الشجاعة والقيادة التي تميز بها جون ، ولكنني دهشت عندما سمعت أنه قد اختار العمل في المناجم مع أشد المسجونين تهوراً . وقد قال الحارس لحى إن جون اختار هذا العمل لأن هؤلاء المسجونين كانوا بحاجة إليه لأنه يستطيع أن يقودهم إلى حياة أفضل من حياتهم الحاضرة إذا هو فضل هذا النوع من العمل على الدرس الديني الذي كان قد عهد إليه بإلقائه أول الأمر . ولقد شعرت عندما سمعت هذا الكلام بشعور الفخر بزوجي . فكان من النادر أن يغيب ذكره عن رأسي واحتفظت بصورة جون الفوتوغرافية على مائدة زينتني ، وكنت أقول لابني الصغير :

— هذا هو أبوك ، ونحن نحبه وهو يحبنا ، وما نستطيع أن نراه أبداً ، ولكننا نعلم أنه يفكر فينا على الدوام .

وكنت قد وضعت ابني بعد شهرين من دخول أبيه السجن ، وكان طفلاً جميلاً قوياً ، وقد سميت به رونالد كاسم أبي ، ولكن اسم روني كان أكثر انطباقاً عليه ، وتعودت أنا وحى أن ندعوه بهذا الاسم الصغير . وقبل أن يتكلم بوقت طويل تعلم أن يهز يده مرسلاً في الهواء بقبلة إلى صورة أبيه وكانت أول كلمة نطق بها هي كلمة « أبي » .

وكتبت في بعض الأحيان خطابات مطولة لجون أصف له فيها ابنتنا الصغير ، ولكنني لم أرسل قط هذه الخطابات .

حافظت على وعدى لجون بالبقاء بقميدة عن السجن ، وكنت في كل ليلة أتحدث إليه ، وليس

المسجونين التي عهد إليها أن تعمل في الزراعة هذا الصيف . فمرفت أن جون هو ذلك الرجل الذي وقف وحياني أنا وولدنا هذه التحية الصامتة .

ولم أخبر حمى بما حدث فقد كان هذا الحادث أمراً مقدساً احتفظت به لنفسى ، ولكنه عند ما عاد إلى البيت بعد يوم الزيارة من الأسبوع التالى قال لى :
— لقد غرمت يا إلين ألا آخذ روني منى مرة أخرى إلى المرعى ، وأظن أننى أنا نفسى لن أذهب إليها ، فهناك مغريات لا تقوى الطبيعة البشرية على مقاومتها . وجون رجل برىء ، فنفسه خالية من الشعور بمدل ما ينزل به من عقاب ، هذا الشعور الذى من شأنه أن يحمل كثيرين من الرجال على أن يخضعوا لأحكام السجن ممثلين . ولقد كان جون حتى الآن مثلاً طيباً فى السلوك ، ولكنتنا جميعاً معرضون للتأثر بالمغريات

فصحت :

— ولكن أليست لى يا أبى حقوق ؟ أيجب على ألا أشعر أنا أيضاً ؟

فأجابنى حمى :

— تذكرى يا إلين أن جون لو هرب من السجن لموقف كما يعاقب أى سجين آخر ، وهو حتى الآن قد حصل على أحسن تقرير يحصل عليه السجن فإذا هو أضع سمعته هذه فقد كل ثقة فيه إلى الأبد لم آخذ روني منى بعد ذلك ولكننى كنت أذهب وحدى وأجلس مفكرة فى جون آملة أن أراه مرة ثانية ، ولكننى لم أسمع صوت عربة السجن قادمة إلا مرة واحدة بعد ذلك ، فطرحت نفسى على الحشيش حتى مرت بى

وإذا كنت قد رويت هذه الحوادث المحزنة

فليس معنى هذا أن الحياة كانت كلها متاعب وأحزاناً فلقد أصبحت فى تلك الأيام امرأة كثيرة المشاغل ، فقد غيرت طبيعة مزرعتى من البيع بالجملة إلى الاتجار فى الألبان ، وقد ارتفعت سمعة قطمان هارداواى فى جميع أرجاء الولاية وحصلت على الجوائز الأولى فى المعارض ، وصرت من العملاء الدائمين مع مخازن ألبان الحكومة ، وتلقيت كثيراً من المحاضرات الخارجية فى كلية الزراعة الحكومية

واشتركت فى كثير من النوادى وهذا هو الميدان الذى أتمج إليه نشاطى ووجدت فيه العزاء من الأحزان التى كادت تدفننى فى الظلام . وكان حمى ابنى أكبر عامل فى شعورى بالانشراح والسعادة فقد قضينا معاً أوقاناً هنية حقاً ، وقابلت كثيرين من أطف الرجال وكان فى مقدورى أن أتزوج إن أردت ، ولكن لم يكن هناك غير رجل واحد يحتفظ له قلبى بالحب والولاء هو جون هارداواى وفى أحد أيام الشتاء من العام السابع لسجن جون عاد حمى إلى البيت مصاباً ببرد شديد ، وكان قد ذهب لزيارة جون وقد بدا عليه أنه يشعر بهبوط فى حاله النفسية ، ولما ذهب روني إلى فراشه حملت حمى فى إصرار على أن يقص على ما حدث

قال : إن جون قد أصبح بطلاً فى السجن ، وقد شب حريق فى مصنع المراتب أودى بحياة كثيرين من المسجونين وأحد الحراس ، وأنقذ جون أرواحاً عديدة بسرعة تفكيره وحسن قيادته ، وقد لحقته بعض الإصابات ولكن أباه لم يقف على ميلنها لأنه اضطر أن يغادر السجن قبل أن ينتهى الطبيب من عمله ، فقد أمر جون على أن يتولى الطبيب إسعاف جميع المصابين سواء وأن يتركه

هو إلى أن ينتهي منهم جميعاً

وأرقدت حمى في فراشه بعد أن وضعت على صدره « اللصقة » التي يحبها ، ولكن أعراض البرد اشتدت عليه وساءت حاله ، وحضر الطبيب لميادته ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئاً . وفي اليوم التالي توفي حمى وتركنى أنا ورونى وحيدتين ، فكانت وفاته صدمة شديدة لى فقد كانت منزلته في نفسى بعد منزلة أبى مباشرة ، وكان الرفيق الذى لا يفارقه رونى وعلمت بعد مدة طويلة أن الحروق التي أصيب بها جون كانت شديدة ، وكان أفضلمها ما أصاب يديه ، وقد فقد أحد إبهاميه من جراء ذلك الحادث فكان كل ما استطعت أن أعمله هو أن أزيد في رسائل الإيحاءية إليه حاملة له حبي من فوق تلك الأكمة التي لم أقطع يوماً عن زيارتها

وبعد وفاة حمى انتقل فرانك ومارى جوتز للإقامة معنا في البيت ، وقد كانا حتى الآن يساعدانى في أعمال مصنع الألبان ، ولكنى أصبحت محتاجة إلى مساعدتهما في أعمال الزراعة أيضاً . لذلك أصلحت بيت جوتز ليسكنه جاك وود وأخته جين ، وقد أثبت جاك أنه مدير صالح للزراعة ، ولم تلبث جين أن عرفت في جميع الجهات المجاورة بمهارتها ونشاطها وكانت جين في نهاية السنة العشرين من عمرها جميلة المنظر جذابة الروح ، وكانت شديدة الحب لرونى فكان الطفل دائماً على استعداد لمصاحبة الخالة جين ، فكان من النادر أن تذهب إلى المدينة قبل أن تمر علينا بمربتها فتستصحبه معها ، ولم يكن جاك أقل تعلقاً برونى من أخته ، وهكذا كان الطفل يقضى أغلب أوقاته عندهما لم أتكلم حتى الآن كثيراً عن طفلى ، والحق

أنه أصبح في العام السابع من عمره صبيكاً كاملاً يشبه أباه في شكله شبهاً شديداً ، كانت له عيناه الكبيرتان السوداوان اللتان تلمعان في الغضب وتشعان في السرور ، أما شعره فكان في سواد شعرى . وكان الطفل نظيفاً بطبيعته مثل أبيه ، فالناظر إلى وجهه ويديه يخيل إليه أنه لا ينقطع لحظة عن تنظيفها ، وكان يندر أن يراه الإنسان منفصلاً أو شرس الخلق ، فلم يكن يحتاج إلا إلى القليل من الإرشاد ، وكان شديد الاهتمام بكل ما يدور حوله ، فكان في هذه السن طفلاً محبوباً من كل من يراه ، كثير التخيل بعض الأحيان ولكنه كان دائماً شديد التأمل

كان الشتاء في هذا العام قارساً مللنا أيامه الطويلة الفظيعة ، ولكن أيام الدفء لم تلبث أن أقبلت ، وكنا في الأيام الأولى من شهر أبريل ، وقد بدأنا نسمع نقيق الضفادع في بركة المرعى . فابتسمت مبتهجة عندما حررت بالبركة في طريقى إلى أكمى المحبوبة . وقد شعرت بانتعاش في نفسى لأننى سأستطيع الآن أن أذهب إليها في أغلب الأوقات لأتبادل مع جون رسائل حبنا ، وإذ بعثت إليه برسالى في هذه الليلة شعرت بأنه أقرب إلىّ منه في أى وقت مضى .

لقد قدر أن تكون هذه هى آخرى زيارتى للأكمة . وكانت الضفادع تنق مطمئنة وأنا عائدة إلى البيت مبطئة في مشيتى . وفي منتصف الطريق التقيت بمارى جوتز وكانت قادمة للبحث عنى ، فما رأتنى حتى قالت وهى تلهث :

— لقد كنا نبحت عنك في كل مكان ، فقد اعترف دينى بلابن بأنه هو الذى قتل هايل كيليون (٢)

فهو مريض ، وقد أحضروا له القسيس فاعترف له بكل شيء ، فلتسرعى يا مسز هارداواى فإنهم يريدون أن تذهبي مباشرة إلى بيت بلان
لم أرد أن أسرع لأننى أردت أن أبقى هناك تحت سماء ابريل أشكر الله هذا النبأ المبارك ، على أننى لم أضع وقتاً فى الوصول إلى بيت بلان

وكان دينى فى الواقع مريضاً جداً ، ولكنه فى هذيانه روى قصة ما حدث على مفترق الطريق منذ سنوات عديدة فقال إنه كان عائداً فى طريقه إلى بيته على جواده الصغير بعد زيارة لإحدى العائلات المجاورة ، فلما وصل إلى مفترق الطريق رأى جون وهایل يتقاتلان ، وكان هایل قد ألقى بجون على الأرض وشرع يخنقه ، فالتقط بلان إحدى البندقيتين من على الأرض وأطلقها على هایل فأصاب الطاق جنبه

وكان جون فاقد الوعي فسقط هایل إلى جانبه جثة هامدة ، ولم يتبين بلان إذا كانت الإصابة قاتلة أو إذا كان المصاب لا يزال حياً ، ولم يلبث أن سمع صوت جواد قادم من ناحية المدينة ، فوثب إلى سرج جواده ودفعه مسرعاً فى الطريق المعارض ، وكان لا يزال حاملاً البندقية فى يده ، فلما وصل إلى البيت وضعها على رف هناك وهى لا تزال هناك من ذلك التاريخ

وهكذا وضع الحق فى قصة جون ، فهو بعد اليوم حر طليق وسيمود إلى بعد قليل ! ولو أن السعادة تقتل الإنسان لكانت قتلتنى فى تلك الليلة لم يعش دينى حتى يحاكم على فعلته ، فقد قضى عليه المرض بعد أسابيع قليلة من هذا الاعتراف وكان لا بد من انقضاء بضعة أيام يحقق البوليس

فى أثنائها رواية بلان وتمد فيها الأوراق الخاصة بالإفراج عن جون ، وقد قضيت هذه الأيام منهمكة فى إعداد ما تتطلبه عودته من مظاهر الاحتفال ، وقد قلت لرونى إن أباه عائد إلى البيت فلم يكن الطفل أقل منى تأثراً وابتهاجاً بهذا النبأ السعيد

وحضر فرانك إلى البيت فى اليوم الثالث لتأكد البوليس من صدق رواية بلان وأخبرنى بأن الأمر قد صدر بالإفراج عن جون وأنه سيمود إلى البيت فى اليوم التالى ، ثم مضى ليشرّف على حلب الماشية وصعدت إلى الطابق العلوى لألبس رداء نظيفاً قبل الإشراف على عملية إخراج الزبد وإعداد أدوات التبريد

فلما عدت إلى الطابق الأول سمعت دقاً شديداً على الباب الجانبي ، فظننت أن الطارق قد يكون جون ولكنى لم ألبث أن ذكرت أنه لا يمكن أن يجيء بهذه السرعة ، فذهبت أفكرى كل مذهب ، غير أننى لم أتصور أن جون يطرق باب بيته . وبينما هذه الأفكار تساورنى تخيلت جون وهو يدخل من الباب مندفعاً يبحث عني فى لهفة وشوق قائماً ذراعيه كما كان يفعل عادة

ثم فتحت الباب فرأيت واقفاً على عتبة رجلاً قدرا المنظر يلبس صديراً قصيراً تميل قبعته إلى الأمام حتى تكاد تخفى عينيه ، وقد أمسكت إحدى يديه الوسختين طرف الباب ، وقد بدا ما بقى من إبهامه المقطوع بشع المنظر لم تلتئم ندبته التئاماً تاماً ، فجذعت أول الأمر ووددت لو أن فرانك أو ماري كان ممي ، ثم قلت :

— أسعدت مساء ، هل تريد شيئاً ؟

فراجع الرجل قليلاً وقال فى صوت أجش :

— إلين ! ألا تعرفيني — أنا جون ؟

فصحت :

— جون ؟ أه ، لا ! لا ! لست أنت جون ،
لست أنت زوجي !

ثم تذكرت السنوات العديدة التي مرت بنا ؛
فلطفت لهجتي وقلت :

— جون ؟ آه . عزيزي . أدخل .

وشعرت على حين فجأة أن الدنيا قد فقدت
بهجتها ، وأدرجت أن جون زوجي قد بات في نظري
في عداد الأموات ، لقد ختمت مأساة حياتي بهذه
الخطاة الموحجة .

ودخل جون البيت متردداً وكان يرتجف من قمة
رأسه إلى أخمص قدمه . وقال :

— لقد أفرجوا عني بأسرع مما كانوا يتوقعون
يا إلين ، ولم أستطع أن أنتظر إلى الغد فقطعت الطريق
جرياً ، واجتزت المرعى بجوار الأكمة فشمرت
بوجودك فوقها ، فانطرحت على الأرض وقبلت البقعة
التي وطأها قدمك يا عزيزتي ! ولكن التي أراها
الآن ليست إلين التي عهدتها ، فهذه امرأة جامدة
كأنما يفصل بينها وبينى مدى بعيد ! أين ولدي ؟ هل
علمته أن يكرهني أيضاً ؟

فقلت :

— صه يا جون ! وسنتكلم بعد أن تفتسل
وترتدى ملابس نظيفة . إنك متأثر بما مر بك من
حوادث ومفاجآت ، وهما هي غرفة أليك في انتظارك
وستجد فيها ملابس جديدة معدة لك

لم أخبر جون أنني قضيت النهار كله في عمل
متواصل لإعداد غرفتنا على ما يجب أن تكون
بعد أن نقلت فراش روني إلى الغرفة الصغيرة

المجاورة . ثم صعدت السلم يتبعني جون مبطناً فلما دخل
الحمام أسرعته بنقل ثيابه إلى الغرفة التي كان يسكنها
أبوه . وكانت هذه الثياب هي التي كان يلبسها قبل
ذهابه إلى السجن ، وهي البقية التي وضعناها في
الصندوق الخشبي بعد إخراجنا ثياب أبيه

وأدركت أن الثياب ستكون واسعة عليه
جداً فقد نخل جسمه كثيراً ، وبالألمس رقت
ثوب النوم ذا الطراز القديم أمام عيني وقبلت رقبتة
وتصورت جون وهو يلبسه . والآن إذ أسرعته
بوضع الثياب فوق سريره تحدرت الدموع من عيني
واجتهدت في تملك عواطفى حتى لا يخوننى صوتى
عند ما ناديته من خلال باب الحمام قائلة :

— لقد أعددت لك الثياب على الفراش وهناك
ثياب أخرى في الصندوق ، فلتحضر إلى العشاء
مضى انتهيت

وحرصاً على حياتى لم أستطع أن أودع كلمتى
شيئاً من حرارة الحب . وزلت إلى الطابق الأول
مهزوزة الأعصاب لحد عنيف وقد سحق الحزن
قلبي فلم أستطع الإشراف على عملية اللبس ، وتولت
مارى العمل نيابة عني وقد قالت :

— من رأي أنه كان يجب أن يخبروك
بما ستواجهينه فإن حياة السجن تشوه رجلاً مثل
جون تشويهاً فظيماً ، فعملهم هذا إثم وطار .
ولا عجب إذا شعرت بانكسار نفسك فدعى عنك
أمر اللبس فسأولاه واذهي أنت فاجلسى وحاولى
أن تألقى ما طرأ على حياتك من تبدل

فقلت فى نفسى : إننى لن آلف ذلك أبداً ،
فإذا عسانى أستطيع أن أفعل ؟
لقد تعودت أن أرى جون جالساً ملى إلى المائدة

فلن أستطيع أن أعود أبداً أن أرى مكانه هذا الرجل المشوه الذي عاد ليدعوني امرأته .

ساعدت ماري في إعداد مائدة العشاء ، ولكن ماري هي التي أرشدت جون إلى مكانه على المائدة . ولقد جلست ساكنة كشخص متجمد ، أما روني فقد استدارت عيناه من الدهشة ولم ينبس ببنت شفة ولم يأكل شيئاً . وتكلم فرانك وجون فيما طرأ على الزرعة من تغير وعن شؤون التعاون وعن موت أبيه ، ولكنهما لم يذكر شيئاً عن شؤون جون نفسه . فكان الرجل غريباً على مائدته .

لقد نظف جون نفسه جهد ما استطاع ولكن الصابون لا يزيل قذارة السجن من أول مرة . وكان جون شاعراً بحالته فلم يأكل إلا قليلاً . وعند الانتهاء من الطعام قال فرانك :

— لا تزال هناك بقية من الضوء تمسكك يا جون من مشاهدة بعض أعمال في الزرعة إذا أردت أن تمر بها قبل هجوم الظلام .

فنهض جون وتلمس قميصه ثم بدا عليه أنه يتذكر فتبع فرانك عاري الرأس يسير بخطوات ثقيلة أشبه ما يكون بالشيخ الهرم . ولعل وراء جفنيه المسبلين دموعاً متجمعة تغشى البصر كالدموع التي ملأت عيني في تلك اللحظة .

وعاد جون متأخراً في المساء فأوى إلى الغرفة التي كان يسكنها أبوه ، ولم يحاول أن يفتح باب غرفتي ، ولو أنه حاول ذلك لوجده موصداً بالفتاح واستمرت حياتنا شهراً كاملاً على هذا النمط .

ولو أن جون بدأ في الحال يساعد في أعمال الزرعة ولم يكن له من مراكز محدد في العمل فقد تلاشي ما كان يتميز به في شبابه من النشاط والخفة والتسلط

وأصبح ينتظر ما يلقي إليه من التعليمات ، ولكنه كان يعمل برغبة صادقة ولذة واضحة في إنجاز ما يشير عليه فرانك بعمله

وكان في سلوكه ممي رقيقاً غير فضولي ، وكان في بعض الأحيان يشتد به التواضع إلى حد الخجل ؛ وكان قليل الالتفات إلى روني ولكنني لاحظته بعض الأحيان وهو يرمق الطفل بعين ملؤها الحب والاهتمام ، أما روني فلم يقبل قط أن يكون جون أباً له .

شهر واحد من هذه الحياة كاد يدفع بي إلى الجنون . ولو أن جون ضمنى بين ساعديه وقبلاني بالقوة لكان من المحتمل أن أثور في وجهه وأن أدفعه عني ولكنني لم أكن لأحتقره كما احتقرته الآن يجب أن ينتهي الأمر بيننا بالطلاق . ولقد

شعرت باقتراب هذه النتيجة ، فإن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه الآن ، ولكنني ترددت في النطق بالكلمة التي تؤدي إلى هذه الغاية . لم يبق في نفسي شيء من الحب لجون ولكنني لم أرد أن أجرحه ، فقد أعرف أن نفسه الحساسة لا تزال مقيمة في جسمه المشوه ، فالجرح الذي أصابه كان بالفعل بالغاً عميقاً ، عميقاً إلى أبعد المدى

وجلست في إحدى الليالي الممطرة إلى مكتبي أراجع بعض الحسابات المهمة ، وكان روني قلقاً كثير الحركة ضايقني بكثرة مطالبه فوضع جون الصحيفة التي كان يقرأها جانباً وناداه :

— تعال يا بني

وكانت حركة جون غير متوقعة فلم أملك أن وقفت على ونظرت لأرى ما يكون ، فرأيت روني يذهب إلى جانب أبيه ، فقال جون :

— قل لي ماهي الهدية التي تفضل أن أحضرها لك ... ؟

فأجاب روني مسرعاً :

— جواد

— حسن ! فلأحضر لك « سيسي » خاصاً بك.

فقال روني في لهجة التوكيد :

— لا . فإني أريد جواداً كالذي يركبه أبي،

جواداً أبيض كبيراً

— ولكنني لا أفهم ياروني ما تريد؟ فأنا أبوك

ولكنني لا أركب جواداً أبيض

فقال روني والتفت إلى :

— أقصد أبي الحقيقي الذي أراه فوق مائدة

زينة أمي ، فقد حدثتني عنه ... ألم تحدثيني يا أمي

عن أبي ؟

فقلت :

— لقد رويت له يا جون قصة جالاهاد فكان

بعد ذلك يقرنها دائماً بصورتك الفوتوغرافية . ولقد

علمته أن يحب صورتك هذه ولم أحلم قط ...

فقاطعتني جون قائلاً :

— فهمت ... فهمت ... روني يحسب أن له

أبوين ، فإذا نفعل في ذلك يا إيلين ؟ هل ترين أن أتركه

في أحلامه ، أم نوقظه كما استيقظنا أنت وأنا ؟

فأجبت في حدة :

— بل لنتركه في أحلامه

فأجاب جون في لهجة حازمة لم يتكلم بمثلهما منذ

عودته من السجن :

— أما أنا فأرى الأمرين . فإن عقل الطفل

أشد ليونة من عقل الإنسان الكبير ، وسيدرك

الحقيقة تدريجاً ثم يقبلها .

عدت إلى مواصلة عملي ، وتكلم جون وروني

عن مركب وعد جون ابنه بأن يصنعه له من قطعة

خشب صغيرة وجدها ، وقد فهمت من حديث جون

أنه قد غوى الحفر في الخشب واشتغل به .

وبعد برهة قصيرة أخذت روني إلى فراشه

في الطابق الثاني ، ولما عدت وضع جون جانباً المجلة

التي نشرت فيها مقالتي الأخيرة عن صناعة الألبان .

وسألني :

— إيلين ، ألا تشعرين بأنك تريدن أن تتكلمي ؟

أظن أن هناك أموراً يجب أن نتكلم فيها معاً ،

فما أنت بالسعيدة ولا أنا بالسعيد . لقد قاسينا كلانا

الأم الشديد من هذه التجربة الفظيعة . وليس أحد منا

بملموم على ما حدث ، وما أنا بالرجل الذي أخذوه منك

ولا أنت أيضاً بالفتاة التي تركتها ورأى .

ولكل منا ذكرياته القديمة لا يستطيع

نسيانها ، وكلانا صغير ، فأنا لم أجتاوز السادسة

والثلاثين ، والماضي وراءنا ، ولا يزال أمامنا مستقبل

طويل وعلينا أن نفكر في مستقبل ولدنا ، فهو في هذا

الجو المشبع بالأسى والتوتر سينشأ قلقاً تمييزاً ، لهذا

أشعر بأنه يجب علينا أن نعمل في الحال عملاً ما

لتصحيح هذا الموقف .

لقد قررت أن أذهب إلى البيت . الآخر ،

واتفقت مع جاك وجين على إعداد ما يلزم لأن أقيم

هناك وأحتل مركزي الشرعي مديراً للمزرعة .

ولدينا كمية وافرة من الأرض يا إيلين تمكنا من

تربية ما نشاء من القطعان دون تعرض لقطيع معمل

ألبانك . ولك إذا أردت أن تمضي في عملك كما

مضيت حتى الآن .

ثم رفع المجلة وقال :

يريد هو لا حيث تريد هي . فلا أنا أحبك ولا أنت
تجبنى .

فرغ جون رأسه في حركة سريعة ، ولكنه
حول نظره جانباً وقال في هدوء :

— إذن أنت تقرين اقتراحي وتوافقين على أن
أنتقل من هنا ، وهذا هو ما توقعته من قبل ،
وطبيبي أن يقيم روني معك ولكنني أريد أن أراه
في أغلب الأوقات
فقلت :

— هذا طبيبي وروني صبي رقيق الحس وفي
مقدورك أن تكسب حبه وصداقته في سهولة . وهو
لا يزال أصغر من أن يفهم الأمور على حقيقتها ،
وإني أريد منك يا جون أن تحبه ، كما أود أن تدرك
مبلغ حزني لما صارت إليه الأمور ، وإني لأخجل
من موقعي بعد الذي قاسيته أنت من الآلام ، ولكنني
أريدك كما كنت يوم أخذوك مني زوجي الصغير
الجميل بجسمه القوي الرشيق ونظرة الثابتة وشعره
الغزير ... ويديك يا جون ...

« ألا فاغفر لي يا جون ولتبق هنا فلا تتركنا
وسأحاول أن أصلح كل شيء ! »

ثم غطيت وجهي بيدي وبكيت
فقال جون :

— أبدأ ! فإن بقائي هنا أسوأ من إرسالك -
إلى السجن لتقضي فيه بقية حياتك . لقد كنت
أفكر في غلطتي حين منعتك من زيارتي في السجن
وانتهيت إلى أن الغرور الوقتي هو الذي حملني على
ذلك ... على أن أولى غلطاتي مع ذلك كانت تركي
إياك تقضين لياليك وحيدة مندفعاً وراء هائل كيليون
في حياته الجنونية ، ولقد دفعت ثمن ذلك غالياً

— إنك قد نجحت نجاحاً مدهشاً . وإني لمعجب
بروحك القوي وقدرتك على إتمام الأعمال الكبيرة
التي اضطلمت بها . فأنت امرأة عاملة قديرة وتستطيعين
أن تعني بأمر نفسك ، وليست بك من حاجة إلى
إحداث أي تغيير في أسلوب حياتك ، وروني ابنك .
ولم أترك قط لنفسي العنان في الشغف به ، لأنني
أدركت منذ اللحظة الأولى شعورك نحوي . لقد
قضينا عدة أعوام متقاربين تقارباً شديداً من الناحية
المعنوية . فلا يتفق مع هذا أن أعجز اليوم عن قراءة
أفكارك . وأريد يا إيلين أن أشكر لك قبل أن نفرق
تلك الرسائل التي لم أكن لأحتمل حياة السجن
بدونها ، ولقد دأبت على انتظارها كل يوم حتى
اليوم الأخير .

انهمرت دموعي لأنني لم أستطع حبسها ، وكان
من موجبات العزاء أن أعلم أن جون كان ممتعضاً
مني أيضاً حتى أنه ليريد الذهاب .

ولكنني شعرت في كلماته بتيار خفي من الحزن
أثر في نفسي . وقد وقف عن الحديث ، ولكنه
لم يرفع نظره إليّ حين جاوبته :

— لقد كانت الغلطة الأولى غلطتك أنت يا جون
حين حملتني على أن أعاهدك بالألا أزورك في السجن .
ولو أنني رأيت بالتدريج ما طرأ عليك من تغير لكان
من المحتمل أن أحتفظ بمحبك حياً في نفسي ، غير
أنك مع ذلك على حق فيما تقول ، فليس اللوم فيما
حدث بواقع على أحداً .

« إن الغلطة هي غلطة المجتمع في أن تؤخذ مني
شباباً قوياً جيلاً ثم ترد إلى شيخاً مكسور القلب ،
وإني ما زلت على استعداد لأن أوجه الأمور خير
وجهاً ، ولكن حب المرأة يا جون يسقط حيث

يا عزيزتي ، دفعته ندمًا وحزنًا ، ولكنني الآن أريد أن أعيش ... وإنك لخطئة إذ تتصورين أننا نستطيع أن نكون سعيدين أو حتى راضيين في حياتنا معًا في هذا البيت ، ولقد قررت الانتقال إلى البيت الآخر غدًا ، وعندى بعض أشياء أريد أن أرتبها ، وهي ما يحويه الصندوق الذي جاءني أمس من إدارة السجن . وأنا من أجل ذلك صاعد إلى الطابق الثاني والآن أرجو يا إلين ألا تحاولي مرة أخرى إصلاح ما حدث ، وإنك لتعلمين أن لا فائدة في الندم ، ولنعمش من الآن للمستقبل ، لتستقبل ابنا الصغير - حيث جون تحية المساء وتركت الغرفة وقد شعرت الآن بالارتياح بعد أن واجهنا قضيتنا بهذه الصراحة

انتقل جون إلى البيت الآخر ليعيش فيه وعاد كل شيء إلى ما كان عليه قبل عودته من السجن ؛ غير أنني أصبحت أشعر بأن هناك شيئًا ينقصني . لقد أضمت شيئًا كان يشغل ناحية من حياتي ثم مضى فأنا شاعرة بفقدانه . لقد فقدت زوجي من قبل ، أما الآن فقد انتزعت ذكراه أيضًا من قلبي وكان روني يقضي وقتًا طويلاً في البيت الآخر ، وقد استحكمت الصداقة بينه وبين جون منذ اليوم الأول حين عاد إلى يحمل بين ساعديه مجموعة من اللعب المصنوعة من الخشب ، وقال :

— أنظري يا أمي ... هذه حشرة كاملة أعطاها لي جون . أنظري هذه الفتاة الجميلة التي تشتغل بصناعة اللبن ومد يده باللعبة في وجهي ، فكانت تمثالاً جميلاً لفتاة عفت جدائلها كالتاج حول رأسها ، وقد ثني ذيل رداؤها إلى أعلى فهي صورة طبق الأصل لي يوم تركني جون ذاهباً إلى السجن : هي الفتاة التي كان

يحمل بها جون ويعززها في الخيال

وقلت لابني :

— أعطني يا روني إحدى لعبك فمعدك منها كثير

فقال الصبي :

إذن خذي هذه المروس الصغيرة فإن الأولاد لا يلعبون بالعراس

ثم مضى يقول في حماسة :

— أنظري يا أمي إلى هذا الجواد وهذه البقرة والخنازير الصغيرة ، أنظري إلى ذيلها الجميلة الملفوفة نظرت ولكنني لم أستطع أن أرى شيئاً لأن الدموع قد ملأت عيني . لقد كان جون يفكر في ابنه الصغير وهو في السجن فصنع له هذه اللعب من الخشب !

وقال الطفل :

— إني أحب جون مثل حي أبي الذي في الصورة . وهو أب خزين جداً ولكنه يضحك معي ويروي لي أعجب القصص ، وسيصحبني غداً في صيد المصاير التي كان يصطادها وهو صغير . فهو كان صغيراً مثلي وكان يعيش في المزرعة التي يعيش فيها الآن جاك وجين ، وهو يعرف أشياء عن رعاة البقر وعن الهنود ويعرف كل شيء تقريباً ! ولقد كان الأمر كما قال جون : الطفل يالف

حكم الظروف بأسرع مما يالفه الكبار

وفي مرة أخرى عاد روني من زيارة أبيه وأخبرني أن جون يعرف كل شيء عن السجن ، فهم هناك يجلسون الرجال بعيدين عن أبنائهم الصغار وبناتهم لأن هؤلاء الرجال أشرار ، وأنا أعرف أن جون لم يكن رجلاً شريراً لأنه

الجديدة ، فلقد كان التغير الذي أحدثته فيه المدرسة كبيراً . وكانت الفتاة تستوقفه كل ليلة عند عودته لتمطيه فطائر طازجة من الجوزيل أو الكمك ، وكانت دائماً تخاطبني بالتليفون إذا هي أبقتة عندها وقتاً طويلاً . وكانت تقول في بعض الأحيان : لقد ذهب روني مع والده إلى جهة ما وسيحضر إليك بعد قليل

و كنت أشعر بالاطمئنان والرضا حين أعلم أن روني في بيت جين

كنت في هذه الأيام كثيرة المشاغل فقد قبلت أن أتولى كتابة صفحة في مجلة مصانع الألبان ، عدا الاشتراك في مسائل أخرى كثيرة ، وكما كثرت أعمالي قل تفكيري في نفسي . ولقد عاد إلى الشعور بالسعادة ، فكنت على الأقل أنعم بالحياة وقد خلت نفسي من كل غل أو حقد أو غيرة

وعاد شهر إبريل وكان الربيع بارداً رطباً وصحبت روني إلى المدرسة في صباح أحد الأيام ، وكانت السماء قد أمطرت بعد العشاء مطراً بارداً فاعترمت أن أذهب هذا المساء بنفسى إلى المدرسة لإحضاره ، ولكن جاءني رجل لأخذ صور للمجلة . وبلغت الساعة الخامسة قبل أن أتنبه إلى الوقت ، فجزعت لعدم عودة روني إلى البيت ودققت التليفون لبيت جين وود ولكن لم ألتق رداً لدقاتي . وإذا كنت أناهب للبس معطاني استعداداً للخروج أبصرت بجون يحمل روني إلى البيت ، وأسرعت إلى الباب وفتحته لحظة وصوله إلى عتبة وصحت .

— ماذا حدث يا جون؟ هل أصيب روني بسوء؟

فأجاب جون :

— هو مريض فلا تجزعي . لقد مرض

لم يعمل العمل الذي أدخل السجن من أجله ، ويقول جون إنه يحدث أحياناً أن يتعذب الناس بسبب أغلاطهم ، وهذا هو ما يحمل الإنسان على التفكير والحذر من الوقوع في بعض الأغلاط مثل إيدائك شخصاً تحبه في سبيل الجرى على هواك

ويعرف جون يا أمي كل شيء عن الفحم . يعرف العناصر التي يتولد منها ، كما يعرف طريقة إخراجها من الأرض ، وسيفتح محلاً هناك بجوار التل ويسمح للفقراء أن يحضروا إليه ليأخذوا ما يحتاجون إليه من الفحم لتدفئة أطفالهم الصغار . وهكذا أطلع جون روني على السر الذي اجتهدت في إخفائه عنه . ولقد عرفت كيف حدث ذلك ، فقد سأله روني السؤال الذي كان يحيره فأجاب عليه جون بالصدق وحدث الطفل كما لو كان يحدث رجلاً رشيداً

لقد شعرت في أحيان كثيرة أن روني محتاج إلى صحة رجل طيب ، لذلك فكرت في أن أتزوج مرة أخرى تحقيقاً لهذا الفرض ... والآن أرى أن روني قد أحب جون ، بل هو يحبه أكثر مما يحبني ولكنني لم أغضب لذلك !

كانت هذه أول سنة لروني في المدرسة ، ولقد كنت أتبع بلهفة حركات تقدمه ، وكان يمر في طريقه إلى المدرسة ومنها بيت جين وود ، وكانت جين تأتي به إلى البيت في أغلب الأحيان ، وكان جون يصحبهما في بعض الأوقات . ولقد قابلت صداقته لجين دون أن أحس بأقل أثر من الغيرة ، وقد خطر لي - إذا كانت جين تهتم به - أن أطلقه فقد تكون قادرة على إسماعه ، وما من شك في أنها تصبح زوجة صالحة .

ولم تكن جين أقل مني ابتهاجاً بحياة روني

في المدرسة وجاء إلى بيتنا ماشياً ، ومن هناك حملته إلى هنا .

وبينما هو يتكلم ذهب بروني إلى الصفة فأرقده فوقها ، وكانت حرارة الصبي مرتفعة ولم يكن في استطاعته أن يرفع رأسه ، وقد قال لي في صوت خافت :

— لماذا لم تحضري يا أمي ؟ لقد شعرت بأنني مريض جداً

عندئذ أدركت أنني كنت حتى هذا الوقت أفكر في نفسي وفي أهالي أكثر من تفكيرى في روني على الرغم من شدة حبي له .

وإذ استوى جون واقفاً بعد أن رتب الوسائد بما يتفق وراحة روني قال له الصبي :

— ابق هنا يا جون

فأجاب جون :

— سأعود يا روني ، فهناك شيء آخر لا بد من عمله وسأراك ثانية يا عزيزي .

ثم التفت جون إلى وقال :

— سأنقله إلى فراشه يا إلين ، ولكنني ذاهب الآن لإحضار الطبيب فأعطيني مفاتيح سيارتك .

عرفت حكم الطبيب قبل أن ينطق بكلمة « نيمونيا » فنسيت كل شيء في الدنيا إلا هذا العالم الصغير الذي يحيط بولدى وهو في فراشه يكافح الموت .

وبقي جون بجانب روني الذي لم يسمح له بالذهاب وقضى إلى جانبه أياماً وليالي طوالاً لا يفارقه لحظة في أثناء يقظته ، ولا يبعد عنه إلا قليلاً إذا هو نام .

وكان يعنى بابنه المريض في لطف وحنان ولكنه لم يكن أقل لطفاً وحناناً مع الزوجة التي جحدته .

ثم جاءت الليلة التي علفت فيها حياة الصغير

في ميزان القدر ، فقد اقتربت الأزمة وجلس الطبيب منحنيًا عند نهاية السرير يرقب التنفس ، ووقفت إلى جانب السرير ووقف جون إلى الجانب الآخر وعند منتصف الليل تلاشى الظل الأغبر عن وجه روني ولم يبق مكانه إلا شحوب رائق . ثم فتح عينيه يتلمس أحداً حوله وقال همساً :

— جون ؟

فأجابه جون :

— هأنذا يا روني ، هأنذا يا صديق العزيز ...

فرت على الشفتين الصغيرتين ابتسامة ملائكية وقال :

— حدثني يا جون عن بعض الهنود ورعاة البقر فقال جون :

— لا شك في أنني أعرف من أخبارهم أشياء كثيرة رائعة ولكن يجب الآن أن تنام هادئاً فترة طويلة

فأطاع روني إشارة أبيه وأدار رأسه واستغرق في النوم

فوقف الدكتور جونستون وقال :

— سيعيش . وكل ما يحتاج إليه الآن هو العناية .

ترى هل أعدت ماري شيئاً من القهوة ؟ أظن أنني أشم رائحة قهوة وسأهبط إلى الطابق الأول لأرى رفعت رأسي فرأيت جون ينظر إليّ بعينين ملوَّهما الحب ، فقلت همساً :

— جون ، جون ، إني أريدك ، أريدك كما أنت

فدار جون حول السرير قادماً نحوي وقابلته في منتصف الطريق ، وإذا أنا بين يديه يضمني من جديد بعد هذه السنوات الطوال ، وهو يقول :

— إني أحبك يا إلين ، ولم يقف قلبي قط عن

النبض بجبك ؛ ولكنني تركتك تفتقدين أن الحياة
بدونك كانت مستطاعة ميسورة ، ولم أكن أثق
بضبط نفسي إذا نظرت إليك . وكنت أخشى أن
تدركي أنني أحبك ، والآن ستمود إلينا السعادة
يا عزيزتي .
فأجبت :
- جون ، إني أحبك حباً صادقاً آخر الأمر
فقال جون في رقة ولطف :
- ترى هل يفرح صبيينا الصغير بهذا ؟
لم أجب على هذا السؤال لأن الطبيب عاد في هذه
اللحظة إلى الغرفة وقد فاجأنا بقوله :
- خذ زوجتك فأرقدوها في فراشها
ولما نظر إلى وجهي قال :
- لقد تمبت كثيراً ولكنها كانت تتجلد
فلا تشكو
ثم مضى يقول :
- إنكما لا تدركان مبلغ سروري بشفاء
طفلكما . وستصبح حياتكم جميعاً سعيدة رائعة
بعد الآن . وأنت أيضاً يا جون اذهب واسترح
وسأبقى أنا هنا فترة من الزمن
قضيت أنا وجون ساعتنا الأولى معاً محاولين
أن نجتمع فيها كل ما فقدنا من السعادة طوال هذه
السنوات المرة . وإن هناك من التجارب ما لا يستطيع
الكلمات أن تصفه ، إنما يستطيع أن يقدرها من
يمر بها فيعرف قيمة الحياة بعدها
عبد الحميد محمد

سبرني لا تخشى على مجوهراتك
سبري لا تخشى على مستنداتك

اودعوها

خزائن بنك مصر الحديدية

فهي في الحفظ والامان

بنك مصر يؤجر لكم خزائنه الحديدية القوية ويرعاها بعين ساهرة

مُسَهَّدَةٌ تَحْتَ ذَوْبِكَ الْفَضَى
وَهِيَ لَا تَجِدُ أَحَدًا غَيْرَكَ تَجْعَلُهُ
مُسْتَوْدَعًا لِأَسْرَارِهَا ، قَتَشَكَوْ
إِلَيْكَ بِهَا وَهِيَ وَاثِقَةٌ بِكَ ،
مُؤْمِنَةٌ أَرْسَخَ الْإِيمَانُ بِالْوَهْيَتِكَ
الَّتِي تَمْسَحُ الدَّمْعَ وَتَكْتُمُ
الْأَسْرَارَ وَلَا تَقْشِي مَا تُؤْتَمِنُ
عَلَيْهِ مِنْ بَنَاتِ الْقُلُوبِ !
نَظَرَ إِسْمَاعِيلُ أَفْنَدَى إِلَى

دَمْعٌ فَلَكِيكِيَّةٌ

أَقْصَصُ نَوْصَةٍ فِضْرِيَّةِ بِهَاتِ الْإِسْتِثْنَاءِ دِرِّي خَيْتَبَةِ

القمر الساطع خلال الشرفة الكبيرة ، وظل برهة
مُسْبُوهاً كَأَنَّهُ فِي حِلْمٍ ، ثُمَّ اقْتَرَحَ أَنْ يَذْهَبَ الْجَمِيعُ
إِلَى الْحَدِيقَةِ لِيَجْلِسُوا ثَمَّةَ تَحْتَ قَمَرِ الْمَنِيَا وَسَمَاءِ الْمَنِيَا ،
وَلِيَشْرَفُوا مِنْ رُبُوعِ الْخِلْدِ عَلَى النَّيْلِ الْقَدِيمِ الْقُدْسِ
الْمُمَثِّلِ فِي هَدْوٍ وَدَعَةٍ لَوْحِي خُون^(١) الْعَظِيمِ
كَانَ إِسْمَاعِيلُ أَفْنَدَى فِي مُسْتَهْلِ حَيَاتِهِ ضَا بَطْطًا
مِنْ ضَبَاطِ الْبُولِيسِ ، وَكَانَتْ لَهُ سَطَوَاتُ كَانَ صَدَاها
يَتَجَاوَبُ فِي فِضَاءِ قَلْبِهِ ، فَتَارَةً يَبْتَسِمُ وَتَارَةً يَتَجَهَّمُ ،
وَتَارَةً يَشْرُدُ لَهُ ... وَهَكَذَا كَانَ يَبْدُو أَثَرُ ذِكْرِيَّاتِهِ
عَلَى وَجْهِهِ حِينَ يَنْفَعِلُ بِهَا

وَكَانَ يَقْصُ لَأَبْنَاءَهُ بَعْضَ مَجَازِفَاتِهِ فِي مَطَارِدَةِ
الْصُّوَصِ إِذْ هُوَ مُعَاوَنُ بُولِيسٍ بَنْدَرِ طَنْطَا مِنْذُ ثَلَاثِ
وَعِشْرِينَ سَنَةً ... وَكَانَتْ طَرِيقَتُهُ فِي الْقَصَصِ طَرِيقَةً
جَذَابَةً شَائِقَةً ، وَلِذَلِكَ كَانَ أَبْنَاؤُهُ يَصْغَوْنَ إِلَيْهِ إِصْغَاءً
تَامًا ، وَكَانَتْ الْقِصَّةُ - أَوِ الْحَادِثَةُ - الَّتِي يَرَوِي
وَقَائِعُهَا قِصَّةٌ أَخْلَاقِيَّةٌ رَاضِيَةٌ مَمْتَلِئَةٌ بِالْخَاطِرَاتِ الَّتِي
يَزِيدُهَا ظِلَامُ اللَّيْلِ ، وَتَقْيِيقُ الضَّفَادِعِ ، وَغَوَاءُ الذَّنَابِ
فِي رَيْفِ الْغُرْبَةِ الشَّاسِعِ رُوعَةً وَرَهْبَةً .

(١) خُونُ وَخُونَسُو مِنْ أَسْمَاءِ الْقَمَرِ عِنْدَ الْمَصْرِيِّينَ
الْقَدَمَاءِ ...

جَلَسَ الْوَالِدُ السَّعِيدُ يَسْمُرُ إِلَى أَوْلَادِهِ السَّعْدَاءِ
حَوْلَ مَنَظِدَةٍ كَبِيرَةٍ فِي الرَّدْهَةِ الْفَسِيحَةِ الْمَزْدَانَةِ
بِصُورِ الْعِظَاءِ وَأَعْلَامِ الْفِكْرِ . وَكَانَتْ ثَرَيَاتُ الْكَهْرِبَاءِ
تَسْكِبُ أَذْوَابَهَا عَلَى الْوُجُوهِ الْمَصْفِيَّةِ إِلَى الْحَدِيثِ
السَّاحِرِ الْجَذَابِ ، يَلْقِيهِ إِسْمَاعِيلُ أَفْنَدَى عَبْدَ الرَّهَوفِ
بِطَرِيقَتِهِ الرَّائِعَةِ وَأَسْلُوبِهِ الْقَوِيَّ وَعِبَارَتِهِ الْهَادِثَةِ فَيَنْفِذُ
بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ جَمَالٍ إِلَى أَقْنَدَةِ بَنِيهِ

وَكَانَتْ لَيْلَةٌ مِنْ لَيَالِي الصَّيْفِ الْقَمَرَةِ . وَلَيَالِي
الصَّيْفِ الْقَمَرَةِ فِي مَدَائِنِ الْوَجْهِ الْقَبْلِيِّ عَامَةً وَفِي مَدِينَةِ
الْمَنِيَا عَمْرُوسَ مَصْرَ الْعَلِيَا خَاصَةً تَشْبَهُ لَيَالِي الْقَدْرِ ..
لَأَنَّهَا لَيَالِي الْأَحْلَامِ وَالْحُبِّ وَالشَّعْرِ وَالسَّمْرِ الْجَمِيلِ
الْحَلُوهِ الَّتِي تَهْدِيهِدُهُ أَغَانِي الصَّعِيدِ الْفَتَانَةِ ، وَتَحْمِلُهُ
نَسَائِمُ الصَّحْرَاءِ فَتَرْطِبُ بِهِ الْقُلُوبَ وَالْأَكْبَادَ
لَهُ مَا أَرَوْعَكَ يَا قَمَرَ الصَّعِيدِ ! وَلَشَدَّ مَا كَانَ
أَبَاؤُنَا مَعْدُورِينَ فِيكَ حِينَ اتَّخَذُوكَ إِلَهًا !

خُونَسُو !

هَكَذَا كَانُوا يُسَبِّحُونَ لَكَ وَيَضْرَعُونَ
بِأَكْفِهِمْ إِلَيْكَ ، وَيَتَمَنُّونَ عَلَيْكَ الْأَمَانِي !

فَكَمْ سَطَرَتْ فِي أَدِيمِكَ الْمَتَلَالِي مِنْ قِصَّةِ حُبِّ
يَا خُونَسُو الْجَمِيلِ ، وَكَمْ شَهِدَتْ دَمْعًا تَذْرِفُهَا عَيُونُ

- لكن إسماعيل أفندي سكت عن الحديث فجأة ،
وانتظر أبنائه أن يصل قصته ، بيد أنه لم يفعل ،
وبدل أن يتكلم راح ينظر إلى القمر ، أو إلى خونسو بلغة
المصريين القدماء ، كما كان ينظر إليه عباده
الأولون ... ثم راع الأبناء الواجب أن يذرف أبوهم
عبرة ترقرت فوق خديه الشاحبين ، لم يستطع أن
يمنعها من أن تنذرف .
- ولم يجرؤ أحد من الأبناء أن يسأل أباه لماذا يبكي ،
لكن أمهم لم تبال أن تفعل ...
- أوه ! ماذا ؟ لعلك أسفت لأنك تسببت
في إعدام اللص ؟
- أبدأ .. آه .. أجل .. والله لقد آلمني ذلك !
- وله ؟ أليس يستحق القاتل أن يُقتل ؟
- قد يستحق القاتل أن يقتل ، لكن كثيرين
من القتلة لا يستحقون أن يقتلوا .
- إذن تريد أن تضع شريعة جديدة ...
- لست أحاول ذلك .
- ولكن قل لنا أولاً : لماذا أحزنك إعدام
القاتل إلى هذا الحد ؟ !
- لقد ترك أسرة شقية لا عائل لها غيره .
- ولم ؟ لم يلتصق عيشه من طريق حلال ؟
- ومن يدرينا أنه لم يفعل ! لا شك عندي
أن أكثر لصوص بلادنا مضطرون إلى هذه الدناءة
برغمهم .
- ومنهم المجهول عليها وهو في غير حاجة
إلى السرقة .
- هذا حق لكنه قد يكون معذوراً كذلك !
- كلام عجيب ، وأعجب منه أنه يخرج من فم
رجل كان ضابط بوليس فيما مضى ... وكيف يكون
- معذوراً وهو في غير حاجة إلى السرقة ؟
- قد يكون معذوراً لأنه ربما نشأ في منزل
يعلم الإجرام !
- فلسفة جديدة !
- ليست فلسفة لكنها الحقيقة !
- وكيف ؟
- لو علمنا الناس وحاربنا الفقر لانتفت الجريمة
- وما علاقة المنزل بكل هذا ؟
- المنزل هو البناء والسكان ، وما دام البناء
غير صحي فسيظل الجسم غير صحيح . وما دام الجسم
غير صحيح فسيظل صاحبه يفكر تفكيراً سقيماً
ملتوياً ، ومع ذلك فهو لا يفكر إلا في الشر والحسد
والحقد و ... الجريمة ... هذا من جهة البناء ...
ومن جهة السكان ، فهم غالباً امرأة جاهلة شريرة ،
وابنة أجهل من أمها تريد أن تزوج بأية وسيلة إذا
دب الحيوان في أصلابها ... ثم أبناء متخاصمون
متنافرون لا يرحم بعضهم بعضاً ، ولا يريد أحدهم
الخير للآخر ، لا سيما إذا كان أحدهم متزوجاً ...
- أرجوك أن تدع هذا كله ... ولكن ماذا
أبكاك ؟ أحقيقة أنك تأملت لأن الرجل ترك أسرة
لم يكن لها عائل غيره ؟
- هذا هو !
- أبدأ ! ...
- إذن فماذا تحزين ؟
- أحزر ؟
- أجل
- لا بد أن في المسئلة سرّاً ، وقد حاولت إخفاءه
عنا بهذه الفلسفة في أصل الجريمة !
- أبدأ

— كلا ، كلا ... لا داعي ... صاخي أباك
يا إحسان ... قبلي يده ! هذا هو أبوك يا وجدى ...
ما هذا الظلام الحالك الذى انتشر فجأة فى عيني
إسماعيل !؟ إحسان !؟ من إحسان يا ترى !؟
لقد وجم إسماعيل وجوماً شديداً ، ووقفت
العائلة السعيدة ترمق القادمين بأعين دهشة ساهمة ...
من هؤلاء يا ترى !؟ لقد تساءل الصغار كل بينه
وبين نفسه : مَنْ هؤلاء ؟! مَنْ إحسان ؟ وَمَنْ
وجدى ؟ ومن هى هذه السيدة ... ؟ إن السيدة
تقول : إن أبائهم هو أبو إحسان وأبو وجدى ،
فإحسان إن صبح هذا هى أختهم ... ووجدى ...
هذا الشاب اليافع المعجب ببذلة العسكرية هو
أخوهم ... أخت من الطريق وأخ من السيارة ...
وعائلة طرقت باب الحديقة من جوف الليل القمر
ما هذا يا خونسو !؟ ما هذا يا كاتم الأسرار
الرهيب ؟ ألم يتفق عبادك على أنك مستودع بنات
القلوب الذى لا يفشى منها شيئاً ؟ كيف تفجأ عائلة
بعائلة هكذا من غير أهبة وعلى غير استعداد ... ؟
ألا ما أقساك يا خونسو الخبيث الساهر السامى !
تقدمت إحسان إلى إسماعيل افندى فصاغتته ،
ولما همت بتقبيل يده سحبها فى رفق وتلطف ...
ثم تقدم وجدى افندى فصافح الرجل المرتجف
المضطرب ، ولم يحاول تقبيل يده ، بل لم يحاول
الأنحاء القليل اليسير وهو يتناول اليد القاسية
الصارمة التى كلن يعنى نفسه منذ أن أدرك معنى
الحياة وحملها الثقيل بحسابها الحساب العسير
أما سميحة هانم ، أم الأنجال وربة العائلة ، فقد
أحست أنها فى مسرح كبير شاسع مكتظ بالرواد ،
تضج جنباته بالصفير والتصفيق والصخب ... وأول

— أبداً ... هل هذا صحيح ؟
— وماذا يهمنى أن أقول كل شئ عن سر حدث
منذ ثلاث وعشرين سنة ؟
— ليس يهمك شئ ؟
— بلى ... لا يهمنى مطلقاً ...
— على كل ، شكراً للقمر المعجب الذى أبكاك !

وقبل أن تنهض الأسرة المباركة لتنام ، وكانت
الساعة توشك أن تدق الحادية عشرة سمع صوت
سيارة تقف عند باب الحديقة ، فأوماً إسماعيل افندى
إلى الخادم لينظر من المقبل
من !؟

سيدة نصف^(١) ملثمة بلثام أسمر خفيف
يداعب النسيم حواشيه ، وفتاة ناهد فى مقبيل الصبا
وشرخ الشباب ، ترفل فى ثياب ثمينة تدل على السعة
والثروة والعيش الناعم المخفرج ... ثم شاب سامق
كالرمح يثب فى خطاه كذكر الحجل ، عليه بذلة
رسمية مما يلبس تلاميذ مدرسة البوليس ، أخذ القمر
يراقص أزوارها الصفر النحاسية ويتنازل أثرطها
الحمر الزاهية

— مرحباً مرحباً ، لعلكم فضلتم أن تستريحوا
عندنا !

— شكراً يا إسماعيل بك ! ألا تستطيع أن تذكر
من أنا ؟

— أنت ! ... أهلاً وسهلاً ... إجلسوا
أولاً ... أ ... لعل الطقس ملائم هنا ... أو ...
تفضلوا فى حجرة الجلوس يا حامد ... يا حامد ...
أودة الجلوس يا ولد !

(١) النصف التى بلغت الأربعين من النساء

المصنفين الصاخبين هو ذلك القمر الساطع الساخر في عليائه ، الذي يكاد ينشق قطعتين من شدة الصغير والتصفيق

لقد راحت سميحة هانم تنفرس في هذا الركب الذي انشق عنه جوف الليل كما تنشق القمام عن عفاريت سليمان ١١

وراحت تسائل نفسها عن هذا الفتى وهذه الفتاة ولدى السيد إسماعيل زوجها العزيز

ثم جعلت تفكر في الرسالة التي وردت باسمها اليوم تحمل إليها نبأ هذا اللقاء المفاجئ العجيب... « لقاء سيده يسعدنا كثيراً أن تنال مساعدتها في أمر هام سيجلب السعادة لكثيرين ، وسيشفي جراحاً طال عليها الزمان ما تفتأ تسبب آلاماً لكثيرين ... » هذه كلمات من الرسالة الهائلة التي تسلمتها سميحة هانم اليوم واليوم فقط ... لقد تسلمتها في الساعة الثامنة صباحاً ، والساعة الآن الحادية عشرة ونصف مساء ... فكأنه لم يمض إلا نصف يوم وبضعة ساعات حتى تم اللقاء التي أُنذرت به - أو خبرت به - الرسالة الهائلة

ولم تكن سميحة هانم تصدق أن وراء زوجها الوفي الأمين سرّاً عميقاً كهذا السر ، إذ كيف يكون ما جاء في الرسالة حقاً وهذا هو زوجها الوفي الأمين يعاشرها عشرين عاماً لا تدل إلا على الوفاء الجلم والمحبة الصافية لها ولأبنائها ... وكيف يستطيع رجل مثل هذا الرجل الوفي الأمين أن يكتم سرّاً مثل هذا السر في أعماق قلبه فلا يبوح به لزوجته التي هي نصف حياته إن لم تكن حياته كلها ؟!

لقد قرأت سميحة هانم رسالة تلك السيدة التي وصلتها اليوم عشرات المرات ، وكانت تخرج منها

في كل مرة بمعنى جديد لم يخطر لها ببال ، ثم كانت تارة تصدق وأخرى تكذب ، تصدق لأن ألفاظ الرسالة ألفاظ حزينة مكتوبة فيها إخلاص وفيها دموع وفيها حشرات ، وتكذب لأنها لم تعهد في زوجها إلا الأمانة والصدق والبساطة أحياناً . فكيف يستطيع أن يخفي عليها سره هذا وهو سر هائل هكذا ؟

وخيل لسميحة هانم أن الرسالة مفتوحة أمام عينيها . فهي تتلوها سطرّاً سطرّاً وكلمة كلمة . بل خيل إليها أن حروف الرسالة أحلام سوداء عاتق بعضها بعضها ، وأخذت ترقص في رأسها المضطرب هكذا :

حضرة السيدة المحترمة حزم إسماعيل بك عبدالرؤف « لا تنزعجي يا أختاه فهذه رسالة من أخت ، أو صديقة ، لا تحقد عليك ، ولا تتمنى لك إلا كل خير وسعادة ... على أنني لست أدري إذا كنت قد علمت قصتي أو عرفت اسمي قبل اليوم ؟ أنا أرجح أنك لا تعلمين من أمرى شيئاً ، ولذلك ، فربما تظنين أنني أرسل إليك بهذه الكلمة الحزينة لأحدث في حياتك الهائلة حدثاً يرنق صفاءها لا قدر الله .. كلا يا أختاه ... فلقد صبرت للنكبة التي حلت بي صبراً جميلاً ، وكبرت حياتي لإسعاد ولدى مجدى وإحسان ، وسأحت إسماعيل على ما صنع بي ، وإن لم يكن له عذر قط ... قد لا تظنين أنني أقصد إسماعيل بك عبدالرؤف زوجك المحترم .. إطمئني يا أختاه ... إنه هو نفس الرجل الذي أعنى ... قد لا يكون عندك خبر بما كان بيننا منذ ثلاث وعشرين سنة ... أوه ! ثلاث وعشرون سنة زمان طويل جداً وقديم ، وإثارة الذكريات التي ترجع

استشاط غضباً ، ودبر لنا حيلة ليجمعنا وإياه معاً ليرى فينا رأيه ... وأأسفاه ! ليته لم يفعل يا أختاه ! لقد جمعنا ليلتي حقه بيد إسماعيل ... أما كيف كان ذلك فلهذا قصة طويلة حالكه ما تزال طي الكتمان إلى وقتنا هذا ، وأنا ألخصها لك في كلمات ... لقد احتبت المناقشة بين أبي وبين ... حبيبي ... وهم الوالد المغيظ المجروح في عرضه المطعون في شرفه أن يبطش بإسماعيل ، فأخرج من جيبه غدارة محشوة ليفرغ ناراها في صدر الشاب ، ولست أدري كيف نسي إسماعيل عند ذلك حبه ، وتنمرت في رأسه عسكريته ؛ فإنه أخرج مسدسه بأسرع من البرق ، ثم أطلقه في رأس أبي ...

— يا للهول ! ... إنني أتذكر الوالد المسكين يا أختاه وهو يسقط إلى الأرض ناظراً إلى ... إلى أنا وحدي ... تصوري أيتها العزيزة موقفي ذلك بين أبي وبين حبيبي ... أستغفر الله ... بل بين أعز الآباء وأكرمهم وبين هذا الحبيب الوحش القاتل ، سافك الدماء ! ... على أن أبي العزيز كان كريماً حتى في موته ... لقد ظل يجود بروحه أكثر من عشر دقائق نسي فيها موقفه ومأساتي ، وذكر خلاصي وخلاص ... إسماعيل !!

« لقد طلب إلى قلماً وورقة ، فأحضرتهما على عجل ، فكتب بيد مرتجفة أنه ينتحر تخلصاً من مرضه ، وسجل الاعتراف بكتابة اسمه في هدوء عجب وطمأنينة لا يذكرها أحد ساعة الموت !

وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه ، انحنى إسماعيل يقبله ، فتبسم أبي ثم تتم : « هل تزوج كريمة يا إسماعيل ؟ » . فأجهش إسماعيل بالبكاء ثم قال : « إطمئن أيها الوالد فسأزوجها ، والله على ما أقول شهيد ... »

إلى قبل هذا التاريخ هو شيء مؤلم ، ومثير للعواطف . لماذا لا نفضل أن ننسى هذا الماضي ؟ آه ! قد تمصف بنا ضرورة فنثير هذه الذكريات برغمنا ... فمثلاً ... لا تنزعج يا أختاه إن لم تكوني قد عرفت مأسأذكره لك ... فمثلاً ... لقد حدث أمر قهرى بيني وبين إسماعيل بك قبل ذاك التاريخ البعيد ... قد تسأليني ماذا حدث ، وسأربحك حتى لا تفكري طويلاً ... لقد أحبني إسماعيل وأحبته ، وأحب كل منا الآخر حباً من ذلك الحب الذي تستعر ناره بسرعة وفي عنب لأنه يصادف قلوباً خالية فيتمكن ويكون جارفاً عارماً قوياً ... حب الشباب يا أختاه ... وأحسبك قد أحببت إسماعيل كما أحبته ، لأنه قبل عشرين سنة كان فتى سمهري القامة ، خلاب اللفات ؛ وكان في روحه شيء غريب غامض تنجذب إليه أرواح الفتيات في شدة من دون أن تكون لهن إرادة في ذلك ، فلا يلبث أن يقعن في شراكه كما تقع الحشرة في نسيج العنكبوت ... أخشى أن أم لك لأنني أطيل عليك ... فاعذريني إن خرجت عن موضوع رسالتي ، لأنني أذكرك بما كان في إسماعيل ، زوج كلينا ، من جاذبية وسحر ، لأن تذكرك بهذا سيكون أقوى أدلتي عندك على صحة قولي ... ولا بد أنك تذكرين جاذبيته وسخره تماماً ، خصوصاً إذا كنتم قد تحاييتما قبل الزواج .

— نما نحن يا أختاه ، وسبقته دموعنا ، فترعرع وأظلنا كالذوذة الباسقة ... وارتبط قلبانا برباط قوى مقدس ... لكننا لم نصبر على جوى الحب كما يصبر الآخرون ، لقد زلت قدمنا باسميحة هانم . يا لله لماذا أبوح بكل هذا ؟ ... ولما لاحظ المأسوف عليه — أو المغفور له — والدي ما تغير من حالي ،

وقيدت الحادثة انتحاراً كما أراد والدي الكريم
الرحيم البار ، ولم يحث إسماعيل فيما قاسم عليه أبي ،
وتزوجنا ، ورشونا المأذون فقيد التاريخ في صحيفة
سابقة ، حتى لا يكون كلام بين الزوج وبين الحادث
وبين الوضع ...

وعشنا في ظلال الحزن أعواماً ثلاثة ، كانت
تتمثل لنا الحياة طوالها جحيماً لا صبر لنا عليه ...
فقد فترحبنا ، وخذت جذوته التي كانت تشيع
بالكهرباء في جوانحنا ... وولدت لإسماعيل إحسان ،
لكنه لم يرها إلى اليوم ، فهل تصدق ذلك ؟ وظنى
أنه لا يذكر أخاها وجدى ... وجدى الحبيب الذى
لو رأيته اليوم لسرك شيا به ، وراقك عتفوانه ...
وجدى هذا لا يذكره إسماعيل أبوه ... كما لا يذكر
أخته ، لأنه ، عفا الله عنه أبى إلا أن تنفصل قبل
أن أضع ابنته بأربعة أشهر ، وكان عمر وجدى إذ ذاك
عامين ونصف العام على وجه التقريب

ولم أعارضه فيما رأى ... وأبرأته من كل شيء ،
وافترقنا على ألا نلتقى إلا الأبد

وعلمت بعد ذاك أنه خطبك وبنى عليك ، فوالله
ما حزنت لهذا ولا ضقت به ، بل ذكرت الله ربى لى
ولولدى ، وصليت له من أجلهما

واليوم ... وبعد عشرين عاماً يا سميحة هانم ...
كبرت عزيزتك - إن رضيت منى هذا التعبير -
«إحسان» وتقدم إلى خطبتها شاب رضى الخلق سرى
النفس كريم الأرومة ، من أسرة غريقة في بلدتنا
طنطا . وهو طبيب من أشهر أطباء المدينة له جاه وله سمعة
طيبة ... غير أنه ، ولا أدري كيف عرف هذا ،
علم أن والد إحسان ما يزال حياً يرزق ، وإنه يقيم
في منزله في مدينة النيا كأحسن ما يقيم الوالد الكريم

بين أبنائه ... فأصر على وجوب اشتراك الوالد في
خطبة ابنته ، وفي عرسها أيضاً ...

- حاولت يا سميحة هانم أن أثنيه عن هذا
الإصرار فأبى ، وقال إنه ذهب إلى النيا وعرف من
سيرة إسماعيل بك الشيء الكثير ... إن جميع
أهالى النيا يمتدحون أخلاقه ويطرون سيرته ،
ويضعونه في الذروة من شرفهم جميعاً ، فإذا بمنعه
من المشاركة في عرس ابنته ، ولماذا لا نتنزه هذه
الفرصة الثمينة لنسيان الماضى ؟

- خفت يا أختاه أن أصر على الرفض خشية
من الفواقب ، وإقصاء لأشباح الذكريات المرة
حتى لا تعكر على صفو أحزاني ؟ أجل ! صفو أحزاني
يا أختاه ... فقد صار لأحزاني صفو رضيت به ،
فأنا أجمرع غصته في سكون وهدوء وشجاعة ...
لأنى أنسى ماضى كله في سبيل حاضرى المستمر ،
وهو السهر على تربية ولدى الذى فرأبوها وتركهما
في عنق ...

- فإذا تقولين يا سميحة هانم ؟ هل كثير
أن عرفت هذا السر المزعج الذى ما أظن إسماعيل
قد وقفك عليه ؟ وهل كثير أن أضرع إلى هذا
الوالد الكريم أن يشارك في عرس ابنته مشاركة
إن شاء جعلها رضية ، وإن شاء جعلها فعلية ؟
إن هذا أو ذاك لا يكلفه كثيراً ... فأنا والحمد لله
في سعة ، وقد ترك لى المرحوم والدى أطياناً واسعة
وعقاراً عظيماً ومالاً جماً ... فمن جهة المادة لا أريد
أن أكلفه شيئاً ، والذى أطلبه منه أن يكون أباً
لإحسان يوماً أو يومين ، وأب يذكر تضحيتى
في سبيل ولدى ؟ فقد رفضت خطبة أطباء ومثربين

ومحامين وقضاة ، وفضلت أن أعيش لوجدى وأن أعيش لإحسان أرحامها بعين الأمومة الحزينة الباكية وأعطف عليهما بالصدر الذى كله أشجان وحشوه آلام وذكريات وأحزان ...

« فماذا تقولين إذن ؟ هل ستكونين شفيعتي لدى هذا الرجل ؟ هل تضمنين صوتى إلى صوتك فى سبيل إيقاظه من هذه النوم الطويلة ؟ ! لقد عزمتم أن أزوركم فجأة ... و ... وربما لا يمضى طويل حتى أكون عندكم ... »

« وتقبلى يا أختاه تحيات أم مهيضة كسيرة ، وقبلات ابن يقيم وأبوه حى ، وسلام فتاة بريئة لم تسعد بوالدها القريب البعيد ! ! »

« كريمة بهاء الدين »

تخيلت سميحة أن هذا الخطاب الطويل مبسوط أمام عينيها ، فهي تقرأه ، ثم تقرأه ، ثم تعيد قراءته عشرات المرات فلا تستغرق المرة أكثر من طرفة عين ، وعجبت كيف يكون ما جاء فيه حقاً وكيف تكون هذه السيدة - كريمة هانم بهاء الدين - حقيقة لا ريب فيها ... ثم تفرست فى الشاب ... وجدى ... ما أحلى هذا الاسم وما أرقه ! ! وجدى ! ! الثمرة البريئة لحماقة عاشقين ! ! فياترى ، هل يعرف وجدى هذه القصة القديمة المؤلة ؟ ... إنه قطعة من أبيه ما فى هذا شك ، وها هى ذى ظلال فضية من أشعة القمر تنكسر على جبينه فتعكس السحر من ناظريه ... صورة قديمة كالصورة التى وصفتها كريمة هانم فى خطابها لشباب إسماعيل وجاذيته وسحره ... ولقد أحببت سميحة هانم زوجها إسماعيل وهامت به بتأثير هذه الجاذبية الغامضة التى كانت تفيض بها روحه كما ذكرت كريمة ... لكن إسماعيل أيضاً كان يبادل

زوجته حباً بحب وهياماً بهيام ... فياترى ، هل كان يذكر كريمة فى فصول غرامه التى كان يملأ بها أذنى سميحة ، ويرتلها على سمعها ترتيلاً ؟ ؟ أليس فى هذا العشق بعد العشق نفاق على القلب وتدليس على الروح ؟ ؟ لقد تكلم إسماعيل عن الجريمة والمجرمين الليلة ، وقد سكت فجأة وهو يقص على أبنائه إحدى مخاطراته ... فلماذا سكت فجأة يا ترى ؟ ! أليكون قد ذكر هذه المأساة الدامية ؟ ! إنه لابد قد ذكرها إن لم يكن قد ذكر ما هو أشد منها هولاً وأغزر دماءً بريئة ؟ ! ولكن وجدى ... هذا الفتى المشوق السمهرى ما ذنبه ؟ ؟ كيف ساغ لإسماعيل أن يتركه ويترك ما فى بطن أمه ثم يفر كالجبان النذل ليتزوج مرة أخرى بدل أن يعتكف فى خلوة أو يعتزل الناس فى جبل أو دير ؟ ! ألا ما أشقى الإنسانية بكثيرين ممن ينتسبون إليها ظلماً وهم إلى وحوش الغاب أقرب ! ثم هذه الفتاة الجميلة إحسان ؟ ! كيف نشأت طوال هذه السنين ؟ قد يظن الإنسان أنها كانت تكون أشد شقوة لو أنها كانت فقيرة ، والإنسان حين يظن هذا ينسى أن ملء العالم ذهباً لا يؤمّض على فتاة مثل إحسان تلك الأبوة التأهية ... ! إنها لابد قد سألت نفسها ألف ألف مرة: أين أبى مادام موجوداً ؟ ولماذا لا يعيش مع أمى كما يعيش الآباء مع الأمهات ؟ ولماذا يكون أبى بهياً هكذا وكل الآباء بشر لهم قلوب وفى قلوبهم رحمة وعطف ومحبة ؟ ! لا بد أن إحسان قد سألت نفسها هذه الأسئلة ألف ألف مرة ، بل هى تسألها صباح مساء وفى كل لحظة . وليس صحيحاً أنها لا تعرف ما الأبوة لأنها لم تجربها ولم تنعم بها ... ليس صحيحاً هذا ... وإلا فقد بطل علمنا بالله لأننا لم نره ، فإن إحسان

لقد نظر كل من هؤلاء نظرات تأهبة إلى السيدة المثلثة في ضوء القمر ، فلما قالت قولتها ، انصرفت نظراتهم متبعثرة تنتثر على وجه أبيهم ووجه إحصان ووجه وحدى ... لكنها كانت أعلق بوجه الوالد من أوجه الغرباء المفاجئين !

هل عرفت الماء الآسن الراكد حين تقذف فيه بحجر ماذا ترى على سطحه من تغيرات ؟ لقد كان وجه إسماعيل أفندى يشبه تماماً ! بل كان وجه إسماعيل أفندى يتقلص مرة ثم تملؤه كآبة ثم تشيع في أساريره ظلمات فتجعله كالبحر اللجى ... ففمه مغفور كالهوة السحيقة بين كل موجتين ، وعيناه كأنهما زورقان يتلاعب بهما الماء ليقذف بهما من حلق ...

— لماذا لا تحي أبناءك يا إسماعيل بك

— أبنائي ؟ ...

أجل ... إحصان التي لم ترها قبل اليوم ، ووجدى الذى كان أعز مخلوق عليك في الحياة ؟ ... ألا تذكر ؟ هل نسيت ؟ عجباً ! هل نسيت كل شيء ؟ ...

— ومن أنت ؟ ...

— من أنا ؟ ... أنا أم ولديك هذين ! أنا

كريمة بهاء الدين !

— أم ... كريمة !

ثم التفتت كريمة إلى سميحة هانم فقالت :

— هل وصلت خطابي يا سميحة هانم ؟

— أجل يا عزيزتي لقد وصلتني

— لعله لم يزعمك !

— وكيف يزعمني وقد كتبتة عزيزة جداً مثلك ؟

— عفواً ... كم كنت أفضل ألا أسبب لكم

فكراً قد يسوؤكم !

تعيش كما يعيش أربابها ، ولكل من أربابها والد بر رحيم محب ودود ، لكن إحصان ليس لها أب لابر ولا غير بر ، وإذا سألت أمها أجابتها بدموع غزار حرار ، ثم لم تشأ أن تكذب ابنتها ، فتصرفها عن سؤلها في رفق وعطف وحزن وتلد

ما هذا الوالد اللئيم الذى يفر من أبنائه كما تفر ذكران القطا والكلاب والحمير و ... و ... ؟

كيف يسمو علينا نحن الآدميين الحمام والعصافير وسائر الطير وهى من مراتب الحيوان ولو أن لها أجنحة ؟

— « صاخي أباك يا إحصان ! قبل يده ! هذا هو أبوك يا وحدى ! » قد يكون الإنسان جالساً مع بعض صحبه فيسقط عليه جامود من الصخر فجأة فلا يحس الألم في الحال ، لكنه يقع في شبه غيبوبة عميقة إذا أفاق منها بدأ يصيح كالطفل ، وقد لا يشعر أين مكان الألم من جسمه ، لكنه كلما ذكر أن حجراً سقط عليه من علو استفزع الأمر واستمر في الصياح ... وهكذا كان حال إسماعيل أفندى حينما سمع السيدة تقول هذه العبارة الهائلة : « صاخي أباك يا إحصان ! قبل يده ! هذا هو أبوك يا وحدى ! » إنه فوجئ لأول مرة في حياته بأن له ابنة تدعى إحصان ! لم يكن يعرف ذلك من قبل ، وإن يكن يعرف أنه ترك كريمة حاملاً ... يا لقسوة القواد الذى ينسى رجولته تحت إصر الجريمة ؟ لقد نزل عليه الخبر كما يصطدم رأس السارية بعامود من حديد أو جدار من الحجر الصلد ، وقد أسلمه ذلك إلى غيبوبة عميقة زاد في عمقها أنها حدثت أمام زوجه وأبنائه ...

شهيد على ما أقول - لقد طلبت لك السعادة كما طلبت
لنفسى المعونة على تربية ولدى ... وكان يبكى فقط
أن يسألا عن والدهما أين هو ؟ فأقول لهما إنه حى
يرزق ، وهو سعيد ، فاطلبا من الله أن يزيده سعادة ،
أليس كذلك يا وجدى !
- أمى !

- ماذا يا بنى ؟
- أريد أبى أن ينكرنا ؟
- سله أنت يا بنى ... إنه لابد مجيبك بالحق ...
فهذه لحظة لا يستطيع فيها لسان آدم أن يفترى ...
إنها لحظة من لحظات الله !

- أبى !
- ... ؟ ...
- ألسنت أنا حبيبك وجدى ؟
- وجدى من !
- حبيبك وأعز الناس عليك ، وجدى الصغير .
ألسنت أنت الذى كتبت هذا الكلام تحت صورتى
هذه من سبعة عشر عاماً !

ومد الشاب يده بالصورة بعد أن أخرجها من
جيبه ، ثم أعطاها لأبيه ... ولكن الأب الشارد
كان ما يزال فى غيبوبته فلم يمد يده ليتناول الصورة
القديمة العزيزة التى طالما طبع عليها آلاف القبل ،
وسفح عليها آلاف العبرات قبل أن يعتزم الفرار
من كريمة .

- لماذا يا أبى تأبى أن تتناول الصورة ؟ هل
صرت قاسياً إلى هذا الحد ؟ ... تكلم أرجوك ...
لقد كبرت ، ولى سبعة عشر عاماً أو أكثر لم أرك .
ألم تفكر فى كما فكرت فىك ؟ كم كخترأتنى أن
أراك أيها الوالد ... أهؤلاء ... أولادك ؟ ... الله

- ولماذا يسوؤنا أن نعرف ؟
- هذا أمر طبيعى إن لم يكن إسماعيل بك
قد ذكر لك شيئاً من ماضيه
وهنا تدخل إسماعيل قائلاً :
- على أننى لا أدري ما الذى جعلك تذكرينى
بعد عشرين سنة ؟

- وهل كنت تظن أن الدهر كله يفصل
بينك وبين أبنائك ؟
- من هم أبنائى ؟

من هم أبنائك ؟ إسماعيل بك ! أفق تماماً ،
ولا تجعل البلوى بلوتين بإنكارك ... قد تحاول
أن تقطع الزمن فتجعل لك ماضياً تحب أن تجهله
أسرتك الثانية براءة من أسرتك الأولى ، ثم تجعل لك
حاضراً تشمره أنك ملاك ... إحذر أن تحاول هذا
أيها الرجل ... على أننى لست أفهم لماذا تحاول ذلك ؟
لقد جاهدت طويلاً فى أن يظل وجدى يذكرك ،
ولا ينساك لأنك أبوه ، ومن لا والد له فهو
لاشرف له وإن يكن هو مظلوماً فى ذلك . أما إحسان
فهى ابنتك التى فررت من أبوتها فظلمتها وهى لم تر
الدنيا بعد ، فهل تريد أن تنكرها هى أيضاً ؟
قبل أن تفعل ، تذكر أنك كنت رجلاً رسمياً من
رجال الحكومة ، ففكر فى العواقب التى تبنى
على إنكارك ... وأريد أن أطمئنك ... إنى لم أحضر
إلى هنا لأنقص عليك صفوك ... أو لأقتص منك ...
لا ... لقد نسيت كل شيء ... لقد علمتنا مأساتنا الخير
المحض ، فأنا ووجدى وإحسان نمرح دائماً مذ
فررت . فى رعاية الله وحمايته ... وقد عرفت أنك
تزوجت من سميحة هانم فى نفس الشهر الذى بنيت
عليها فيه ، فلم يثر فى قلبى أى حقد عليكما ، بل - والله

— شكرًا لك يا سميحة هانم ... أرجو
 ألا أكون قد سببت لك قلقًا
 — أي قلق يا عزيزتي ! كلا والله ... عشمي
 ألا تتأثري من إسماعيل ... إن الموقف مرعبك من
 غير شك ...
 — ولماذا يرتبك ؟
 — لماذا يرتبك ؟ على الأقل لأنه لم يذكر لنا
 عنكم شيئًا مطلقًا ... ثم هذه السنون العشرون ...
 إنها عمر بأكمله يا عزيزتي ...
 — ألم يقرأ خطابي يا سميحة هانم ؟
 — خطابك ؟ ... بل أنا الذي قرأته !
 — وهو ؟
 — لم يقرأه ... بل لم أذكر له عنه شيئًا
 — وله ؟
 — لأنني لم أصدقه بادي الرأي ... إنه قصة
 مشجية ، أليس كذلك يا كريمة هانم ؟
 — لكن لهجته الباكية تدل على أنه حق !
 — الآن فقط عرفت أنه حق .. بل ربما لم يحو
 كل الحق يا كريمة هانم ... ما شاء الله ! إن صورة
 وجدى وهو صغير تشبه صورة عبيد تمامًا
 — ومن عبيد ؟
 — عبيد ابني ، أخو وجدى !
 — والخط الذى فى ظهر الصورة !
 — هو خط إسماعيل ، ليس فى هذا شك !
 — إذن ... فأليك هذه الصورة أيضًا ...
 — آه ... آه ... هيه !
 — آه ماذا يا سميحة هانم ؟
 — هذه هى صورتكما !
 — هى بعينها ... هل كنت تعرفينها ؟
 — لقد كشفتها فى كتاب قديم بعد (دخلتنا) !

ما أسعدنى بهم ! كم كنت أتمنى أن يكون لى أخ
 فهو لاء إذن إخوتي ! تكلم يا أبى .. إني أحس كأنما
 قلبي ينجذب إليك ...
 بيد أن الرجل وقف متخشبًا بل وقف كأنه
 صنم من أصنام بوذا ... تفكير عميقة لكنها من
 صخر ، ولا يهم أن تكون من مرمر ! وهنا تأملت
 سميحة هانم لضراعة الشاب الذى يشبه أباه شبهًا
 كبيرًا ، فقالت والهم يعتصر فؤادها :
 — لم لا تجيب يا إسماعيل ؟ أليس وجدى ابنك ؟
 — ليس ابني ولا أعرفه !
 — عجيب جدًا ... لكنه يشبهك كثيرًا ...
 — هذا لا يهم !
 — أرني الصورة يا وجدى أفندى !
 ثم تناولات الصورة وجعلت ترمقها فى ضوء
 القمر ، فراعها أن يكون الخط خط زوجها ...
 لكنها لم تعجل ، بل دعت الجميع ليدخلوا فقد أخذ
 الموقف يتخرج ، ولم يحس القادمون بأية تحية ،
 وليس هذا من عرف الصعيد الكريم المضيف ...
 وحاولت كريمة هانم أن تعتذر فأقسمت سميحة أن
 تقبل دعوتها ... وهنا بدأ الجميع يتحركون كالأشباح
 المتعبة إلى الداخل ... وبقي إسماعيل فلم يتحرك ..
 وبقي معه ولداه .. وجدى .. وعبيد
 ولما جلسوا قليلًا فى الغرفة الفسيحة المؤتة ،
 وشربوا عصير البرتقال المثلوج ... دار الحديث
 فكان ذا شجون :
 — مرحبًا بك يا كريمة هانم ... ما شاء الله
 الآنسة إحسان جميلة جدًا ... إن شاء الله ربنا يتم
 بخير .. الله ! إن لها خالًا فى خدها .. مثل إسماعيل
 تمامًا ... وفى نفس الموضع

— نعم ...
 — ثم أنكر أن تكون السيدة شيئاً إلا ...
 — إلا ماذا ؟
 — ... ؟ ...
 — لعله أخبرك أنها حظية أو واحدة من صويحباته !
 — لا تحزني يا كريمة هانم ... الحق أن زواجكما بعد الحادث المؤلم الذي ذكرته لي كان ينبغي ألا يتم !
 — وأين كنت أذهب بوجدى يا أختاه ! ؟
 — ووجدى ... آه ... بل كان ينبغي أن تزوجا !
 ما ذنب ووجدى ؟
 — لو لم يكن في أحشائي منه شيء لما آثرت أن ...
 ثم حبس الدمع منطلق السيدة المحزونة فلم تستطع أن تكمل
 — على كل حال لقد برهنت على نبيل وأرومة مجد يا كريمة هانم !
 — شكراً لك يا أختاه ! ماذا كنت أستطيع غير هذا ؟
 — عجيب جداً أمر إسماعيل ... الآن عرفت سر أحلامه !
 — أحلامه ... ؟
 — أجل ... لقد كان يحلم في اليقظة وفي المنام ..
 وكان يتمم بكلمات لا نفهمها وعيناه مفتوحتان جاحظتان
 — ولكن لماذا يحاول أن ينكرنا ؟ لعله ظن أننا في حاجة إلى عونه المادي ؟
 — وإذا كنتم كذلك فماذا يمنعكم من طلب هذا العون ؟ إنه ملزم بهذا بل هو ملزم بأكثر من هذا ...
 إنه ملزم بنفقة ابنته طوال هذه السنين ، وأحسب أن نصف ثروته لن تقوم بذلك !

— ومع ذلك فأنت التي تقولين هذا !
 — ولم لا أقول هذا وقد خيل لي أنه ربما فرمنا مثلما فر منك ؟ !
 — لا ... لا قدر الله ... ولماذا يصنع ؟ إنه لم يفر منا يا أختاه ، بل هو قد فر من الذكريات ، ولولا هذا ما أعفيتها ...
 — هذا ضعف ، فقد غفر له والدك قبل أن يموت وأنجاه من القصاص العادل ... إن هذه يد لا يجحدها إلا لئيم ...
 — سيدتى ... أنا أعتذر ... يبدو لي أنني ورطتك في الثورة على زوجك ...
 — بالعكس ... حقيقة أننا كنا نعيش سعداء ، لكن أحلامه كانت تنغص علينا صفونا ، وكان جهلنا أسبابها يرهقنا بل يزججنا ... لقد كانت تتنابه حالات من الذهول والشرود هي أشبه بالجنون ...
 فكنا كلنا نبكي من أجله ... ولن ننسى مرة حين سمعناه يصرخ في سكون الليل طالباً المغفرة من ابنه ... قائلاً : يا رب ... اغفر لي يا بنى ... ليست خطيئتي أنا وحدى ... إصفيح عني يا ووجدى ! ...
 هذا الغلام الذي لا أشك الآن في أنه هو ... ولقد جعل مرة يضحك في رمضان ساعة الأصيل ويقول :
 نفاق ... رياء ... أنا منافق ... لقد كنت لا أصوم رمضان ... ولكني أصومه منذ عشرين سنة ، وكنت لا أصلي كذلك ، ولكن هأنذا أصلي منذ عشرين سنة أيضاً . فلماذا ؟ ! لماذا أعبد الله على هذا النحو ؟ ! أليغفر لي ؟ ... أبداً ... أبداً ...
 لن يغفر الله لي .. فالآن يا سيدتى عرفت السبب ..
 لقد كان يخفي عنا كل شيء ، فأما وقد عرفنا كل شيء فسيكون يسيراً جداً أن نعالجه ... لقد كسبنا كثيراً ...

زفر جنة

أَقْصُوصٌ مِصْرِيَّةٌ
بِقَلَمِ الْأَنْثَى جَمِيلَةِ الْعَلَاوِيلِ

السبب حسب ما يرسمه ذهنه
على ضوء تفكيره وإحساسه..
وأنا وحدي كنت أعرف
السبب ... فقد أهدى لها
خطيبها أول يوم صارحها بهواه
باقة من زهر البنفسج ثم جمعه
بعد ذلك تحية معطرة بقدمها
إليها كلما لقيها حتى خيل للفتاة

أن هذا الزهر رمز سعادتها المنشودة ومفتاح تفاؤل
نفسها المتعطشة لكل ما تطمع إليه عذراء في سن
العشرين من عمرها ... وكانت تحرص كل الحرص
على أن يحتفظ الزهر برويقه وعطره حتى أنها راحت
تبحث في كتب الطبيعة لتعلم كيف تصون الزهر من
الذبول ، وانتقت له إناء جميلاً كانت لا تعنى بأى عمل
في منزلها إلا تنظيفه ، ولم تحاول أن تعرف تنظيف
أى أداة من أدوات البيت غيره ...

لم أرها غير مرة واحدة وهي تتقبل منه الباقة
— لما زارها في منزلها — تقبلته في فرحة الطفل
الطروب الذي عثر على أعز ما يتمناه من لعب
قد يكون ذرف في سبيل العثور عليها أحر الدموع .
قبلت الزهر في حنان ثم وضعت في الإناء بخفة
ما لمحتها فيها أبداً ... كأنها تستودع أحلامها وأمانها
قلب القدر ... حتى في يوم العيد كان يرفق الهدية
بالباقة ...

تصرف مألوف كأي عمل معروف ... إنما
الإنسان هو الذي يخلق من العدم الوجود بحسبه
وتفكيره ... نحن نرى الزهر في كل مكان ونجمل
به كل مكان نزين به ... ولكن الإحساس الذي

في مثل هذا اليوم من العام الماضي دعنتي
صاحبتى لحضور عرسها وقد أسمعني يومئذ أجل
أناشيد السعادة المرتقة ، وأرتنى الأمل الوضاء إلهاماً
وسحراً

يا لفرحة العروس عند ما يجمع القدر بينها
وبين الرجل الذي تحبه

لا أحسب إلا الفرحة خلقت لها في مثل هذا
اليوم . وما زالت صورتها برداء عرسها الأبيض
تترأى لى من وراء الخيال الذاهب تمثل ما كان
يحبوها من مراح وبشر لا أدرى إن كان مبعثهما
ذلك الزواج المرغوب فيه ، أم الحب المشبوب الصادق ،
أم أن الله خلق البهجة والسرة لها وحدها أم خلقها
لها — لا أعرف — والذي أعرفه أننى تمنيت يومئذ
أن ينيلنى الله ما يبعث في نفسى هذه الفرحة الصافية
فأكتسب مثلها من الأمل المحقق طلعة الأطفال
الأبرياء وفرحة السعداء المتفائلين ...

وتساءل الناس في شبه همس ما الذى حداها
أن تضع باقة زهر البنفسج على صدرها والمفروض
أن تضع باقة من الفل أو الياسمين لتمائل لون
رداء العرس الأبيض ... وصور كل متسائل

الابتدائية ثم تركت المدرسة وخلقتها ورأى في الفرقة الثانية، وظلت هكذا متوانية متأخرة لا تترك الفرقة إلا بعد أن تمكث بها سنتين على الأقل ...

وهي في المنزل لا تمتاز عن المدرسة لا تحاول أن تساعد أمها في أي شيء وتستنكر القيام بأي عمل مهما كانت ظروف البيت، وتعتقد أنها خلقت لتبدي جمالها الذي منحها الله أكبر قسط منه، ولكي تجيد لعب الباسكت والتنس وتقارن بين جمال جريتنا ونورما وبين عظمة جاري كوبر ورامون

هي بحق تجيد معرفة كل ما يتعلق بالسينما والمسرح والرياضة والتجميل

وساءلت نفسي يوم علمت بخطبتها: أيمكنها أن تكون ربة بيت ...

وأيقنت يومئذ أنها لا بد عاكفة على دراسة شئون الدار وخصوصاً بعد أن انقطعت عن المدرسة ولكي أتاأ كد من صحة يقيني سألها:

— ماذا أنت فاعلة في مقبل الأيام؟ علمك بدأت تفهمين حقيقة الواجبات المنزلية ...

فضحكت في بلاهة وقالت: أي واجب يا صاحبتى أتظنين أنه يمكن أن أعرف غير مضجى الذى أقضى فيه ساعات النوم والمائدة التى أجلس عليها وقت تناول

الطعام والقيثار الذى أعزف عليه بغض الألمان؟ قلت: هه... أتظنين ذلك كفيلاً بتهيئة بيتك.. هناك غير ذلك أشياء أكثر أجلاً وأهم خطراً.. تهيئة بيتك ليكون كاللدوحة الظليلة لزوجك والفردوس الأرضى لأسرتك التى سوف يكل القدر أمر تكوينها وإسعادها إليك ... وتكونين بحكم الزواج ملكة

مسئولة عن مملكتها الصغيرة المتواضعة

ينغمر هذا لرؤية الزهر غير ما ينغمر ذاك، والشعور الذى ينتابني حينما أرى الزهر أو الورد وخصوصاً ما ترتاح إليه نفسي ويطمئن إليه قلبي غير الشعور الذى ينتاب صاحبتى أو أى إنسان ... فأنا أرى فى الياسمين معنى يوحى إلى بأحب الأخيلة ينأى عير عليه غيرى غير آبه. قلت لصاحبتى مرة لأداعبها:

— ما أعجب شأنك ... إن فى لون البنفسج معنى يدفع المرارة إلى النفس

فصربتني على شفتي بأطراف أناملها فى لطف وهي تقول:

— لو قدّم لك خطيبك زهر «التبولب» لكأنت أحب الزهور إليك

فطوقتها بذراعى وأنا أنظر إليها مسرورة لسعادتها وتفاؤلها قائلة:

— الآن فهمت يا صاحبتى أن السعادة فى المعنى لا المظهر

ثم حضرت مجلسهما مرة أخرى فشمت فى الرجل غموضاً لا يتفق مع براءة الفتاة ... وأنا أعرف أن الغموض لا يحدث إلا مع عشيقين مدنسين يحاول كل منهما أن يخفى حقيقته ليحظى برفيقه ... أما الخطيبان الحبيبان فلا مكان لتآلفهما غير الصراحة والصدق

وعجبت كيف اتفقا مع تناقضهما، ولكنى رجحت أن يكون الله جمعهما لحكمة لا يعلمها إلا هو

كانت الفتاة فى نهاية مرحلة التعليم الثانوى ولقد ذهبت إلى المدرسة تنفيذاً لأمر والدها الذى يرغب أن يجعل منها فتاة مستنيرة ولكن الفتاة لا تميل إلى التعليم مطلقاً فقد كانت مى فى المدرسة

البيت كالمملكة يحتاج للآداب والفنون والفلسفة ؟
لا تضحكي فلست هازلة ... إن أعقد المسائل
العالمية تشبه أبسط الظواهر المنزلية ... إنه مملكة
تحتوي مجموعة وزارات ، وأنت وحدك المسئولة أمام
الله والشريعة والناس عن رئاسة هذه الوزارات
وتسييرها بحكمة تتطلب منك عقلاً علياً يشبه عقل
وزير المعارف وسياسة وزير الخارجية وحكمة وزير
الداخلية وإدراك وزير الصحة ولباقة وزير التجارة
والصناعة وذكاء وزير الزراعة وقوة وزير الحربية .
وأخيراً لك قلب الملك الصالح . فظلت تضحك
حتى كادت تستلقي على ظهرها وهي تقول : ما دام
في وسع زوجي أن يحضر إليّ الخدم فإذ بهم ؟
حسبي أن أشرف على الوزراء .. وقهقهت ، وشاورتني
مرارة من الشك في سعادتها المرتقبة ولكنني
لم أشأ أن أكون متشائمة . فقلت : يا مني : الخادم
لا يمكن أن يحسن العمل إن لم يلحظ فيك خير
مثال للعاملين النابهين . أبعدى عن ذهنك يا عزيزتي
هذا الخاطر ، وتأكدى أن بيتك لا تثبت أركانه
إلا إذا ثبتت قوائم عرشك فيه بفضل قلبك وعقلك
افتحي قلبك .. وحكى عقلك ..

ليكن هذا شعارك دائماً .

وهنا دخل الخطيب فهرعت إليه تقول : أحمد ،

جيمي تخيفنى من الحياة الزوجية ..

فربت الخطيب على خدها في لطف قائلاً :

لا شك أنها تداعبك .

قالت في دلّ ظريف : بل تجداً ..

فلم أشأ أن أصارحه بالأمر خوفاً من أن يكون

(٥)

فهزت كتفها ومطت شفيتها وقالت في غير
اكتراث : خطيبي يحبني وأنا أحبه

قلت : للزواج مطالب أخرى غير الحب أكثر
خطورة . إن الحب يقنع بكل شيء لأن من صفاته
التسامح واللين ، أما الزواج فيحتاج إلى العقل والحكمة
بجانب القلب والإيمان

فقلت مستخفة : بقى أن تقول لى ويحتاج
للشعر والفلسفة أيضاً ...

قلت : ما عנית هذا ... ولا يمكن أن أقوله
لأن هذه ملطفات تلجأ إليها النفس بإيحاء غير مدرك
ولا علاقة لها بالزواج ، فالشاعر غير الزوج وكذلك
الأديب أو الرسام أو العامل أو الفلاح أو الوزير
فسياسة الزعيم في مكتبه غير معاملته لأسرته ، أنظري
إلى الفلاح ... إنه أمام صاحب الأملاك كالعبد الذليل
ولكنه في المنزل كسيد أمر قاهر ، والدكتور كقوة
القدر الجائر يبدو أمام الناس ، ولكنه أمام زوجته
أو أولاده ألطف من السحر . والذي أرجوه يا عزيزتي
كصديقة تحب لك السعادة أن تحاولي معرفة المسئولية
التي ستلقى على عاتقك . أنت مسئولة عن سعادة زوجك
وتكليف حياته ومساعدته بفكرك وحسك ليسمو
بنفسه وأسرته إلى السماء ، ومسئولة عن صفارك ليكون
لهم في العالم مكان على : ومسئولة عن بيتك ليكون
مجمعاً عالمياً ...

فقاطعتني متهمكة ... أى مجمع تعنين يا صديقتي ؟
أريدن أن يكون بيتى أكاديمية للعلوم والفنون
والآداب ؟

ثم ضحكت متهمكة ...

قلت : وأجل منها إن شئت ... إلى والله ، أليس

على يقين من أنها ملمة بشئون البيت . فأفتح ناظريه على ما لا يعلم فيرتد .

فقلت : إسمع يا سيدى ... كنت أتصفح هذه المجلة فأعجبني ذاك القصيد ... قلت لها اسمى ... فقالت : لا أحب أن أسمع غير كلام خطيبى ... وأنت تعرف أننى أحبها ... (فطبعاً عزت) ... وإذا كان هذا حالها اليوم فما عساها تفعل بعد الزواج ؟ طبعاً ستنسى جيمى .

فابتسم وقال : وهل يمكن أن تنساك ؟ إنها تحبك ؟ ... وكل ما فى الوجود يذكركها بك . فقطاعته قائلة : لا ... إنها لم تقل ذلك ، ولكنها تقول : يجب أن أقوم بشئون البيت . ثم دنت منه رابطة على كتفه فى خفة مردفة : وأنت تعرف أننى لا أعرف أى عمل فى البيت . ثم مطت شفيتها وهى تقول : حتى ملابسى لا أعرف كيف أنظفها أو أعلقها على المشجب . فضحك طويلاً وقبض على يدها وهو يقول : لا تفكرى فى هذا .. سيقوم الخدم بأعمال البيت ، وأنا مستعد يا حبيبتي للقيام بكل عمل بدلاً منك ...

فنظرت إليه فرحة ، وقد شاع طرب نفسها من كل خالجة فيها.. لكننى تأملت إذ كان فى مقدوره أن يهيب بها إلى تعرف المسؤولية فى لطف لتحاول أن ترضيه على الأقل ولكى يشعرها بقيمة حياتها ، وضرورة تأدية واجباتها - ولو فعل - لردها إلى عقلها وعملت على تعرف ما لم تعرف .

فقلت فى شبه دمدمة : وإذا مرض الخادم ؟ فأعقبت : غيره يقوم بعمله .

قلت : لنفرض أن الخدم تأمروا عليك ، وتركوك بغتة كما حدث لإحدى الملاكات فماذا تفعلين؟

فهزت كتفها ، ونظرت إليه كأنها تستلهمه الجواب ، فقال مسرعاً : أقوم أنا بكل شئ .

قلت : ولكنك لا تعرف واجبات ربة الدار والزوجة والأم ، أنت تعرف واجب الزوج ، ورب الدار .

قال مستخفاً : ياستى نستعين بكتاب التدبير . فقالت ضاحكة : آه نسيت « مرشد الفتاة » قلت : وغيره إن شئت ... إنما التجارب أنفع من القراءة .

ووجدت من العبث أن أحملهما على تعرف ما وراء المستقبل القريب لأنهما فى نشوة الحب . فانسحبت راجية لهما كل خير وتوفيق .

واليوم عيد ميلاد زفافها السعيد ، وقد مضى العام دون أن أراها إذ سافرت مع زوجها بعد الزفاف مباشرة إلى مقر عمله ، وأتتني رسالة منها البارحة تنبئني بأنها نقلت منذ أيام إلى المنصورة وأنها متلهفة لرؤيتي ...

وتذكرت أن ذاك اليوم عيد ميلاد زفافها فذهبت إليها لأقدم إليها تهنئتي الصادقة ولعلمنى كنت شغوفة لرؤيتها بعد ذاك العام لأعرف ماذا فعلت بحياتها الزوجية وكيف صارت .

وهرعت إليها وبى من الشوق إليها ما يزرى - بشوق كل حبيب .

وطرقت بابها وقلبي يخفق ويكاد من لهفة الحنين يضمنت ...

ولما فتح الباب أدخلتني الخادم فى غرفة (الصالون) وصرت دقائق ، وأنا وحدى أنتظرها ، تأملت خلالها محتويات الغرفة . ولشد ما أدهشنى أن أرى الأثاث

الجديد يبدو كأنه من تراث جدّها القديم! أى خيبة ساورتني عند ما لحت الإهمال يتجسم في الغرفة؟

وردت طرفي لكيلا أشوب حرارة حنّني بمرارة أنين نفسي لما أصابها من ألم له في عالم الحقيقة صورة مرسمة في أرجاء هذا (الصالون) ...

ودخلت (منى) وقبل أن أعانقها ارتمت على صدرى كأنما شاءت أن تستودعه حرارة وجدانها لتستريح حتى أحسست أن كل كياني بمرارتها يحس وينتفض... ثم رفعت وجهها بيدي وأنا أتأمل الوجه الجميل في شغف لا تبين وجه المرأة وأقارن بينه وبين وجه العذراء ...

أجل ... نظرت إليها طويلاً لأقارن بين وجه رفيقة طفولتي وبين وجه المرأة التي تخطت قبلي عتبة باب المسؤولية

وظللت هكذا أتأملها لأقارن بين حياة الحلم الماضي والواقع الراهن ، وبين حياة المتعة والحربان كما يقولون ...

لم تتكلم ونظرت إلى بعينين دامتتين وشفتين مرتمشتين ... ولم أتكلم ونظرت إليها بعينين شاع منهما خوفي عليها وحبي لها ، وقد بدت ظلال هذا الشعور الحار التوثب على شفتي في شبه بسملة مريرة وأخيراً تمت بصوت من يستيقظ بعد حلم عميق : منى ...

فأجابتنى بصوت مرتعش كأنه قطرات من الماء الصافي تنسكب في هوادة ورقة تماذجها قوة لا تبين : جيمي ...

قلت : أخيراً التقينا ... مضى العام ... اثنا عشر شهراً هي في حسابي اثنا عشر عاماً ... ونظرت إليها نظرة معناها : أليس كذلك؟

قالت : بل اثنا عشر دهنياً يا جيمي قلت : إذن أحسست بالوحشة كما أحسست بها ولقد ظننت أن زوجك أنساك جيمي وسعادتك .

محت من ذا كرتك ذكريات الطفولة المليئة بأجل ما في الحياة من طهر ومرح وحلم وسذاجة فتهدت قائلة : ليت هذه الأيام يا جيمي قيدتنا في باطن الغيب كما تقيد الجاذبية البدر بين الأرض والشمس ، أو لعلنا متنا قبل أن تتفتح بصائرنا على ضوء الأحلام والآمال فتتخيل ... حتى إذا داهمنا الواقع رأينا الحياة تخفى وراءها من الحقائق ما تخفى ...

وغالبت دموعها - على ما أظن - لأنني لحت الضوء يبدو فيهما ويتلاشى ليبدو أكثر قوة والتماعاً وكانت لهجتها متكسرة عميقة بطيئة كأنها آتية من أعماق الأبد ... تخرج قوية ثم تفر وتتلاشى لطول مسافة الزمن ... فمجبت لهذا المظهر الجديد الذي لم أتبينه فيها من قبل فقلت : لم يكن في حسابي أن الزواج يعلم الفلسفة ، وهكذا يمنحك الزواج من الحكمة في عام ما لم تمنحك إياه الحياة في عشرين عاماً ... يا عجبا !!

قالت : وعلمني أكثر ... ثم أسندت رأسها إلى صدرى كأنها تحاول أن تتخيل - بالإحساس على الأقل - أنها مرتكزة على صدر حنون . ثم رفعت بصرها إلى في التماع مترقق بالدمع الحار وغمغمت : جيمي ... كيف ترينني ؟

قلت : آه . أنسيتني ما يجب أن أقوله ... ترى هل جئت بجميلة أو جميلة ، وكنا اتفقنا منذ زمن أن تسمي كل منا بكرها باسم صديقتها تخليد كرى الصداقة الأ كيدة البريئة

فتمتت بشفيتين مبللتين بالدموع : جاءت جميلة ...

ولم أدعها تم عبارتها وعدوت أبحث عن الطفلة الجميلة التي كانت تتصورها قبل زواجها أجل أطفال العالم، ورسمت لها منهج حياتها رسماً يسمو بها فوق متن الريح لتستقر على عرش الطهر والرفعة والكمال

هرعت إلى مخدعها على الصغيرة نائمة فيه ... تدفني عواطفى لآلها ما كأنها كانت ابنة روى قبل أن تكون ابنة أمها .. ولما لم أجدها فى مخدع الأم ضحكت من خيالى الذى أنسانى أنها لا بد أن تكون فى مخدع صغير خاص جعل لنوم الصغيرة بعض الوقت ، ونحرسه ملائكة الرحمة والحب كل الوقت ، ولكننى لم أجدها السرير الصغير أيضاً ..

أتكون فى غرفة أخرى ؟ لا بد . وقبل أن أغادر الغرفة لحقت بى منى قائلة : حسبك تعباً . وجذبتنى فى رفق وهى تقول : لم يشأ الله أن يتركها تحت تصرف القدر الجائر . فاستردها ليستودعها حنان حور الجنان . ثم صممت من فرط الالتئاع وتركتم دموعها تعباً عن أساها .

ففهمت وحنوت عليها أشجعها بأجل الأمانى المرتقبة قائلة فى النهاية : آمنى بالله ! فقالت بلجة الخشوع :

عندما ولدتها وجريت كيف يفصل الله بين الروحين بقدره قادرة .. آمنت بالله وأقمت له الصلاة ولما ماتت وكنت يومئذ متبرمة من حياتى نائمة على ولادتها ... ازدادت إيماناً به ورحت أرتل باسمه بكرة وأصيلاً ..

قلت وأنا أشد منها إيماناً : يا سبحان الله ... فى لحظة يثبت لنا الله قدرته وعظمته بما تعجز عن إثباته قوى العالمين فى أجيال . ثم اغتصبت ضحكة لأرفه عنها وقلت : أتذكرين يا « منى » يوم كنت أدعوك لنؤدى فريضة الصلاة معاً ؟ ... كنت تضحكين وتسخرين منى وتقولين : فرضت الصلاة على الناس يوم كان لا عمل لهم . أما اليوم فالوقت يضيق بالعمل والجهد . ثم تبسمين فى بلاهة وتردفين : إن الله غفور رحيم ...

ولطالما حاولت أن أغالب شيطانك بنصحك فكنت أفشل لأن تأثير يئسك كان أشد وأقوى عليك منى ... لأن أمك متمدينة متطرفة لا تقيم للحياة ميزاناً إلا بما تجلبه عليها من طرب ومسرة ومتعة ...

وهنا لحت الأسى يغالبها فسحبت رأسها وأسندته إلى صدرى ورحت أنا أفكر فى ماضيها وحاضرها . وأقارن بين هذا وذاك ...

من يصدق أن منى المرحلة الطروب الجاهلة التى تبدو كأنها فى سن الثامنة من عمرها أو أقل ينأى قد بلغت الحلقة الثانية منه من - يظن أنها الآن تبدو وكأنها فى سن الخمسين من عمرها مع أنها لم تزد على العشرين غير عامها الأول من عمر الزواج ؟ -

تبدل بالمرح سكون رهيب مخيف وتلاشت النضارة ليحل مكانها الشحوب البارز .

لمن لم يصدق أن يقارن بين ابنة العشرين الحاملة المتفائلة ، وبين أختها المتألمة المتشائمة ليعرف أن عمر الحياة ليس فى حساب الزمن إنما فى معناه وما يجلبه من مرح أو ترح . وفجأة تذكرت زوجها ...

فرغت وجهها في رفق وأنا أقول : فأننى أن
أسألك كيف حال زوجك ؟.

ففظرت بعيداً كأنها تفكر فيما تقوله .

فمجبت لهذا المنظر واضطرت أن أكررسؤالى:
زوجك كيف حاله ؟

فتهدت وأطرقت قائلة بصوت خفيض : بخير ..
فشمت في لهجتها سرّاً رهيباً أفزعنى وراعنى أنها
جعلت حيزاً من الفراغ بين (زوجى بخير) حتى أحسست
أنها تفصل بينهما لكيلا تصل بين زوجها والخير
فارتعدت وخفت أن يكون جدّ لها مالا أرجوه
فقلت لأستدرجها : أهو على سفر ؟ المفروض أن
يكون في المنزل اليوم لأنه يوم العطلة الرسمية ...
فقلت وقد اعتدلت كأنها تنأهب لمصارحتى
بما كتمته عني : أتعرفين صلاح ؟

قلت : كيف لا أعرف زوجك ؟ مالك شاردة
كالذاهلة هكذا ؟ أترين مجيئى أزيجك ! اعله لا يبيح
لك لقاء صديقاتك ، إن كان ذلك كذلك فدعيني
أنصرف وحسبى أننى رأيتك فكل ما أتمناه هناك
ووقفت أتأهب للانصراف فأجلستنى في هدوء
وهى تقول : جيمى ، كان يجب أن تفهمى كل شىء
بمجرد رؤيتى ، وأنت أعرف الناس بطبيعتى ...
من كان يظن أن « منى » الزهرة الناضرة تدبل
دون أوان ؟ ولطالما قلت لك عند ما كنت أراك تتألمين
لمشهد محزن : يا صديقتى ... خلقنا لنضحك وإذا
عشنا لمشاطرة الناس آلامهم ماذا نستبقى من الزمن
للفرح ... لا شىء بالتأكيد. إذن خير لنا أن نخلق
البهجة والسرة لنغلب بها الحزن والصنى ...
ولطالما داعبتك بنوادرى لأبدد تجمهمك ولا أتركك

حتى يسمع الجيران ضحكنا ..
قلت : حقاً ، ولقد حرمت متعة الضحك الأكيد
منذ فارقتك

قالت : إذن ماذا تفهمين من دموى
قلت : قد تكون الدموع من تأثير الفرح
كما تكون من تأثير الحزن. ولقد تعمدت أن أجاهل
ما انتابنى من شك في سعادتها لأستنطقها
فقلت : قولى ذلك لمن لا يعرفك ... أما أنا
فقد علمتنى كيف أعرف ماذا أنت قائلة قبل أن تفصحى
عن مرماك
قلت : تغرير جميل ... من تعليم مدرسة الزواج حقاً.
كل ما فيك قد تغير ...

فقاطعتنى : ذهب جمالى وتلاشى فرحى وماتت
بهجتى ...

قلت : أمن أجل موت طفلة تميئين نفسك
حسبك زوجك والله نعم المعوض ... وماذا يجدى
الحزن ؟ ...

قالت : لم يكن مصابى فى ابنتى كصابى فى زوجى
فاضطربت وقلت : أمرىض هو ؟
قالت : لو كان لمان الخطب ، على الأقل كنت
أتعزى بالأمل فى المعافاة
قلت : لهجتك صروعة تخيفنى ، أفصحى ماذا
جرى ؟ ...

قالت : مات وهو حى
قلت : يا لله ! هل أصابك مس من الجنون
يا « منى » كيف تهمين زوجك الحبيب بالموت
وهو حى

صمتنا إذ سمعنا طرقاتاً على الباب . فازداد وجه

صاحبتى امتقاعاً ثم سمعناه يسأل الخادم بلهجة جافة :
من هنا ؟

فقلت لها : امرعى إليه لتستقبله ثم تعالى معه
إلى - إن شاء - لأحييه

فلم تتحرك ولازمها الوجوم ... وقبل أن أحملها
على الخروج دخل علينا وقد ابتسم - ولعله تكلف
البسمة - قائلاً : كيف حال الآنسة ؟ أراك على
أحسن حال ، صحتك ونضارتك ...

فقاطعت له لكيلاً يستطرد : وأنت علك كذلك
فقاطعتنى : الجو هنا بديع ... بديع جداً ...
فهمت أنه لا يريد أن يعترف بأنه على خير
ويأبى أن أشتم رائحة سوء تفاهمهما ...

فاحترمت رغبته واستأذنت لأنصرف وقبل أن
أصافهما خاطبها بلهجة جافة : لقد نسيت هنا بعض
أوراق رسمية فى غلاف كبير ، أين هو ؟
قالت : لا أدري !

قال (موجهاً الكلام إلى) : اسمى « ياستى »
الهانم (مديرة البيت) لا تعرف أين يضع زوجها
حاجياته .

فابتسمت على مضض قائلة لها : أنت مخطئة
يا منى إن كان ذلك حقاً ... على أنك لا بد تريد
أن تعلميه كيف يأخذ معه أوراقه خوفاً من أن
تتعطل أعماله ، لاشك ، وأظنه عقاب حلوى إصلاح بك
فقاطعتنى : ذلك تعليل قد أقبله لو كنت أجهلها .
ثم انفجر كالبركان النائر مردفاً :

إنما حضرته لا تعرف كيف تكون زوجة ...
أقوم فى الصباح ... أرتدى ملابسى وحدى وهى
فى مضجعها وإذا قامت فلست أقول لى لا تتأخر
فضحكت : جميل أن تدعوك دائماً إلى العودة

لتأتنس بك وأجل منه أنها تعلمك الاعتماد على نفسك
لكيلا تعجز عن ارتداء ملابسك إذا كانت مريضة
مثلاً أو على سفر !

قال : يا آنسة ... ينجلى أن أصور لك مبلغ
إهمالها وعدم اكتراثها بحياتها المنزلية .. أعرف أنك
صديقتها ، وأعرف أن لك فى الحياة رأياً سديداً .
فإذا تقولين لمن تعجز عن إعداد الغداء إذا خرج
الخادم وتضطرننا لأكل الجبن والزيتون فى الظهر ،
أو استحضار اللحم والخضار من (مطبخ) السوق
فصرخت فى وجهه : حضرتك تعرف أننى لا أعرف
كيف (أطبخ) ؟ وتزوجتنى وأنت تعلم أننى لا أعرف
أن أؤدى أى عمل منزلى ؟ فقاطعتها : لكن الفتاة
فى بيت والدها غير المرأة فى بيت زوجها ...

وهنا خفت أن يشدد عرا كهما ؛ فسحبت
صديقتى وخرجت بها إلى الخارج ، ثم رجوتها أن
تركة ريثما يهدأ وتباشر الخادم لإعداد لوازم راحته
وتعمل له كوباً من الليمون أو الشاي أو القهوة
حسب ما يجب . وتركها بعد أن هدأتها ، وقد فهمت
من حوارهما لم مات قلب الرجل ، ولم شقيت المرأة .
ولما عدت إليه وعدته أن أرشد صاحبتى
إلى ما تجهله من شئون الدار . ولما هدأ قلت بلهجة
جادة : اسمح لأختك أن تقول لك كلمة تقبلها منى
بسعة صدر الرجل الحكيم ، تذكر أننى أعرفت كيف
تحاييتا وتزوجتما وأنك قلت لها على مسمع منى إنك
رضيت بها زوجاً حبيبة ، ولم تأبه يومئذ لعجزها
عن تأدية مهماتها ، فما ذنبها ياسيدى ؟

فكر واحفظ الجواب لنفسك وخذ من الجواب
ما يعينك على توجيه زوجك إلى حياة الاستقرار
« الصورة »
جميلة العمولى

وقال: «سندهب غداً إلى
السينما يا عزيزتى» فقالت:
«لا بأس ولكن على ألا تغيب
أكثر من ساعتين»
وقال: «إن القطعة التي
يعزفها الجيران على البيان هذه
الليلة قطعة جميلة» فقالت:
«نعم إن هذا الدور من أحسن
الأدوار»

الأغنياء والفقراء

عزى الانجليزية
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

ومضت فترة في صمت كان فيها الزوجان يصغيان
إلى البيان، قالت الزوجة: «هل كنت مشغولاً؟»
فقال: «نعم. لقد استغرق شغلنا طول النهار
ويظهر أن أكثر الناس أغنياء. فهم يشترون أثاثاً
من كل نوع وبأى ثمن. إن الأغنياء سعداء الحظوظ
قالت: «لا تكرر هذه الجملة الظالمة. فإن حظك
ليس بالسيء». فقال: «إننى غير ساهط على الحظ
ولم أقصد إلى الشكوى؛ ولكن تجارة الأثاث
تدهش الإنسان لكثرة ما يراه فيها من الفرائب.
وإذا استثنينا الأطباء فإن تجار الأثاث يطلعون
على الباطن من حياة أية طبقة أخرى، وقد ألزمت
نفسى خطة هي أنى لا أسأل أى سؤال، ولا أفتح
فمى بكلمة عما أراه.

ثم أشعل لفافة أخرى وتناول الجريدة، وقرأ
قليلاً لزوجته ثم كتب خطاب شكر. وخرج من
المنزل فاشتري علبة سكاكر وعاد. وكانت الساعة
قد تجاوزت العاشرة. فأطفأ الزوجان النور وناما.
وفي الساعة الثامنة من صباح اليوم التالى تناولا
طعام الإفطار، وقبل الزوج زوجته وهو يغادر المنزل
وسألها عن رأيها في الذهاب إلى السينما. فقالت إنها

جلس فردريك جيمز سميت ماداً قدميه أمام
الموقد جلسة تدل على العظمة والزهو. وكان له الحق
في ذلك فقد تقرر في ذلك اليوم أن يزداد راتبه الأسبوعى
من ثلاثة جنيهات إلى خمسة. وفي هذه الزيادة تقدير
عظيم لخدمته مدة سبعة أعوام في شركة بنسبيت

وكان يسمع وهو جالس هذه الجلسة صوت
زوجته وهي تغنى في غرفة المطبخ أغنية هندية وتغسل
أطباق المرددين من آثار العشاء، وكان في الوقت
نفسه يسمع صوت البيان في المنزل المجاور

وأشعل فردريك جيمز لفافة وألقى نظرة على
إحدى الصحف ولكنه كان لشدة سروره لا يستطيع
أن يتناولها ليقرأها، وكان يفكر في مستقبله فينعش
نفسه بالأمل في صيرورته يوماً من الأيام مثل المستر
بنسبيت الذى أصبح من أغنى الأغنياء بسبب الاتجار
في المفروشات

ودخلت زوجته وفي يدها عدد من الملاعق
والشوكات والسكاكين فوضعتها في مكانها ثم التفتت
إلى المرقد الذى عليه ابنها النائم. وعادت فالتفتت
إلى زوجها الذى كان يتأمل في وجهها أو لعلها لم تحل
في عينيه إلا الآن

الأمريكي ويظهر أنه متمجّل جداً ولا أعرف ماذا يريد وقد يدعوكم عمله إلى الاشتغال طول النهار» فقال سميث: «لا بأس»

ولكنه ذكر في نفسه مواعده مع زوجته في الساعة السادسة، ووصلت العربّة إلى ريشموند في نصف ساعة، ثم وقفت عند منزل، فاستقبلهما رجل يظهر أنه كان في انتظارهما، وهو صغير الجسم كبير العمر مجعد الجلد أسمر اللون. وقال ساعة رأيها: «بول وبنسبيت؟». فأخى المستر بنسبيت رأسه وقال: «أنا بنسبيت وهذا مساعدى»

فنظرة المستر مارشال إليهما نظرة احترام. وأدهش سميث أن تكون كل هذه النظرة موجهة إليه. ثم مشيا إلى الردهة فظهر أن المنزل خال من الأثاث

ونادى المستر مارشال فنزلت سيدة مسرعة وحيث الزائرين ثم تبادلت مع زوجها المستر مارشال نظرة، وجلس الجميع فأخذت الزوجة تملى على سميث بيان الأثاث المطلوبة من سجاجيد ومفروشات وكراسى وأدوات زينة الخ الخ

ولم يزالوا يتنقلون من غرفة إلى غرفة وسميت يكتب قوائم جديدة حتى أصبح ثمن الأشياء المطلوبة يستغرق ثروة رجل ميسور... ولكن ذلك لم يكن كثيراً على المستر مارشال ملك الثروات والبوتاس فلما صارت الساعة العاشرة قال مارشال: إنه متمجّل جداً

قال بنسبيت: إنه سيعرض عليه النماذج وقائمة الأثاث في ظرف أسبوع، فضرب مارشال الأرض بقدمه وقال: «ليس الأمر أمر نماذج ولا أثمان

ستقبله في الساعة السادسة قرب دارالسيما في شارع كرانبورن.

وفي الساعة التاسعة وأربع دقائق كان جالساً إلى مكتبه فجاء الخادم وأخبره بأن المستر بنسبيت يريد أن يراه في اللحظة التي يأتى فيها.

قال في نفسه: «لماذا يريدنى؟». ثم خالجه الشك في أن يكون قد حدث خطأ، وأن زيادة المرتب ليست له. وألقى نظرة على الأوراق التي أمامه وذهب إلى «قدس الأقداس» وهذا التعبير صالح جداً للاعتراب عن نظرة الموظفين إلى الرؤساء.

وقابل المستر سميث سكرتير الرئيس فاستأذن له عليه...

وقف الرئيس وهو رجل طويل القامة متقدم في السن ذو لحية كبيرة يبدو عليه التهذيب وقال الرئيس: «ماذا تعمل يا مستر سميث؟» فقال: «أنا في قسم المبيعات يا سيدي»

قال الرئيس: «أرى أن تترك هذا القسم فاذهب وسلم ما بعهدتك وانتظرني عند أسفل السلم بعد خمس دقائق»

وبعد أربع دقائق ونصف كان سميث ينتظر كالحارس في أسفل السلم. وبعد نصف دقيقة نزل الرئيس فتجاهل وجود سميث في طريقه وخرج من الباب فجلس في العربّة ثم التفت إلى سميث وأشار له بالجلوس

وجرت العربّة إلى شارع اكسفورد. وفي الطريق قال الرئيس: «نحن ذاهبان إلى ريشموند لنقابل فيها عميلاً جديداً هو المستر مارشال فلا كستون

فصاح الأمريكي محتدأ: « اللورد في جهنم . استندع
خمسين عاملاً بالتلفون واستحضر أنواعاً مختلفة من
الستائر لعمل التجاريب »

ووجد التاجر حماسة الرجل لا تقبل المناقشة ؛
فاستدعى العمال بالتلفون وترك المستر سميث لينوب عنه
وعاد إلى متجره ليرسل البضائع .

لم يمض غير عشر دقائق حتى صارت حديقة
المنزل المراد فرشها بالأثاث كأنها معسكر لكثرة من
جاء إليها من العمال ولكثرة السيارات في الحديقة
وأمام الباب .

وكان سميث واقفاً أمام النافذة ينتظر مفروشات
الغرفة التي هو فيها فلمح عربة نفخة تقف عند الباب
وسمع الجرس يدق وعلى أثر ذلك دخلت الغرفة زوجة
المستر فلكستون تتبعها فتاة متناهية في الحسن وقالت
الفتاة لأُمها : « من هذا ؟ »

فأجابتها : « هو تاجر الأثاث »

ثم خرجتا وسمع سميث صوت الفتاة تقول :
« ألم يأت خبر عن الكونت ؟ »

قالت : « كلا »

وقالت الفتاة : « ما أشد الشبه بين الشاب
الواقف في الغرفة وبين أنطونيوا »

وكان سميث قد ألزم نفسه ألا يهتم بشؤون الغير
فلم يعر هذه المحاورة اهتماماً وانتقل إلى الغرفة المجاورة
ليعد المعدات لفرشها . وفي هذا الحين رأى الذين
جاءوا في العربة الفخمة يدخلون من حديقة الدار وهم
جماعة من الصينيين وقالت السيدة : « عفواً يا مستر

(٦)

ولكني أريد أن يكون المنزل مفروشاً بكل ما طلبته
في الساعة الثالثة من هذا النهار »

وكان بنسبيت قد لاحظ على عميله الجديد علام
ظنها دالة على الجنون ، فبعد الحركة الأخيرة لم يبق
عنده شك في صدق هذا الظن

قال صاحب المتجر : « أظن هذا مستحيلاً »
فقال الأمريكي : « كم عدد موظفيك ؟ »

قال : « عندنا في المصانع والمتاجر والإدارة
والمخازن بضعة آلاف »

قال الأمريكي : « هذا حسن فادعهم جميعاً
إلى العمل » فقال صاحب المتجر : « أخشى أن تكون
تكاليف ذلك ... »

قال الأمريكي مقاطعاً : « إنني لم أسألك عن
التكاليف ... أليس في المدينة سيارات ؟ أليس فيها
تليفونات ؟ أليس عندكم مخازن ؟ إنني أكرر لك
القول بأنني لا أبالي بالتكاليف وبأنني أريد أن يكون
المنزل مفروشاً في الساعة الثالثة »

دارت عيننا بنسبيت كما تدور عيننا كلب الصيد
حين يرى الأرنب ؛ ولم يتبين بعد هل هو الأرنب
أم لا . واستمر الأمريكي يقول : « استحضر
أسطولاً من سيارات النقل وخمسين رجلاً لفرش
كل غرفة »

قال سميث : « ولكن السجاجيد والستائر ... »
فقال الأمريكي مقاطعاً : « مالها ؟ إن المقاسات
أمامك وقد فرش اللورد جاستوتش منزله بالأمس .
وغرفته في مثل اتساع هذه الغرف »

قال سميث : « ولكن منزل اللورد ... »

سميث ! لا تنزعج من أى شيء وستنال ترضية على كل شيء تفعله . إن حادثاً لم يكن منتظراً قد وقع الآن وزيد منك أن تدعى شخصية لست صاحبها لمدة لحظة واحدة . ولك مكافأة كبيرة »

قال : « لا مانع يا سيدتى ولك الشكر »

ودخل الصينيون فاستقبلتهم السيدة وكان يصحبهم المستر فلكتون . وقدمت السيدة المستر سميث باسم السنيور أنطونيو بن الكونت أندوسى فأحنى رجل وجهه من بين الصينيين رأسه أمامه . واضطر سميث برأى بوعده لصاحبة المنزل إلى إحناء رأسه أيضاً . وتقدم المترجم لينقل إلى اللغتين الصينية والإنكليزية كلام الطرفين

قالت صاحبة المنزل : « إن سعادة الحاكم الصينى يريد منك يا سنيور أنطونيو تنازلاً كتابياً عن خطبتك لرودا مالىسترا وعن جميع الحقوق التى لك فى مملكة جزيرة بارى »

وهنا غمز المستر فلكتون ذراع سميث فقال إنه مستعد لتوقيع هذا التنازل

وقال المستر فلكتون : « إن هذا الشرط هو الذى اتفقنا عليه لزواجك من بنتى وسيتزوج سعادة الحاكم الصينى من رودا التى كانت مخطوبة لك » ثم كتب ورقة هذا نصها :

« أنا أنطونيو برونو أندروسى أقر أنى نزلت عن خطبة الأميرة رودا مالىسترا وعن حقوق كلها فى مملكة جزيرة بارى »

وقدم هذه الورقة إلى الحاكم الصينى فتناولها هذا ثم أحنى رأسه وخرج مسرعاً

وعلى أثر خروجه دخل مئات من العمال يحملون الأبسطة والستائر والتمارق والكراسي . وبعد قليل دخل المستر بنسبيت وأخذت المطارق تدق والمفروشات ترتب وسميث واقف يراقب ذلك ويشترك فى كل عمل يستطيع الاشتراك فيه

وفى وسط هذه الحركة القوية أعلن المستر فلكتون أن الساعة هى الثانية عشرة ، وأنه لم يبق غير ثلاث ساعات . وأخذ سميث يصيح بالعمال أن يسرعوا . فلما انتهى فرش الغرفة الأولى جاء فلكتون بستين جنياً وأمر بتوزيعها على العمال مكافأة لهم على الإسراع ، واستنهاضاً لهم حتى يتم العمل فى الموعد المطلوب .

وفى الساعة الثانية وخمس دقائق كان سميث واقفاً وحده ليستريح قليلاً فى غرفة لم تفرش بعد . وكان يرتب بنظره كيفية فرشها . فرأى على حين فجأة أربعة من الصينيين ، وأشار له أحدهم فتبعه إلى أعلى السلم وهناك شعر بمادة ذات رائحة غريبة قد ألقيت على وجهه . ثم امتنع شعوره بعد ذلك .

ولما أفاق سميث بعد ذلك وجد نفسه نائماً مكتوف اليدين فى سفينة ، ورأى البحارة حوله جميعاً من الصينيين . فقال نفسه فى إحسدى حزر الأريخيل اليابانى ، أو فى جزر الهند الشرقية .

ولكن وجه الغرابية هو أن البحارة كانوا يتكلمون باللغة الإنكليزية .

وقال لأحدهم : « أين نحن الآن ؟ » . فأجابه : « ستعلم متى جاء سعادة الحاكم » .

قال سميث : « ولماذا أنا مقيد اليدين ؟ » .

القدر على يد هذا الحاكم الصيني ، وبعد دقائق دخل الحاكم ونظر إليه نظرة وعيد وقال : « إنني أمرت بإعادتك إلى منزلك ولكن إذا فُهِت بأية كلمة عن أي شيء مما رأيته اليوم فإني سأهشم رأسك وسأتي لتأديبك ولو كنت في أقصى مكان من الأرض » وكان صوت هذا الجبار مثل نظراته شديدة الدلالة

على الوعيد

قال سميث : « لن تجرد مني غير الصمت وألف شكر لك »

وبعد قليل كان سميث مغمض العينين في عربة تجرى في شوارع لوندرا وهو لا يعرف هل مضى عليه بعد مفارقتة هذه المدينة أيام أو ساعات أو أعوام » ولم يرفع المنديل عن عينيه إلا عندما وقفت به العربة أمام باب منزله . وكان تشييع الصيني له نظرة تهديد قال جواباً عليها إنه ذا كر وعده وإنه سيلزم الصمت

ودخل سميث إلى منزله فنظر إلى نتيجة معلقة على الحائط فوجد أنه لا يزال في اليوم الذي باشر فيه المهمة في بيت فلـكستون ، ونظر إلى ساعته فوجد نفسه في الساعة الخامسة فأسرع إلى مقر عمله وهناك رأى كل شيء على نفس النمط الذي كان عليه عند ما ترك هذا المتجر . وتلقاه المستر بنسبيت فقال : « كيف حالك الآن يا مستر سميث ؟ »

قال : « بخير »

وقال بنسبيت : « لقد علمت أنه أغمي عليك في أثناء العمل بمنزل فلـكستون فنقلوك إلى منزلك في عربة » فقال سميث : « نعم لقد كان الأمر كذلك »

فأجابه البحار : لا أستطيع إخبارك بشيء حتى يأتي الحاكم . ولكن لماذا تشكلم بالانكليزية ؟ أأنت إيطالياً ؟

قال سميث : أنا فردريك سميث ، وصناعتي كاتب في شركة بنسبيت . فتدخل بحار آخر وقال : أأنت السنيور أنطونيو ؟

حاول سميث أن يتذكر كيف وأين سمع هذا الاسم ولكن ذاكرته خائتته وقال : إنه جائع فجاء له البحار بقليل من الطعام ثم غلبه النعاس بعد ذلك فنام وعند ما أفاق من النوم سمع البحارة يتكلمون وكان واحد منهم يقول : إن سعادة الحاكم لم يطمئن إلى التنازل الذي كتبه السنيور أنطونيو وليس يكفي أن يطالب بحقوقه في الملك ولا أن يأمن في حب خطيبة أنطونيو ما دام هذا الأخير موجوداً . ولذلك اختطفه بعض أعوانه وجاءوا به إلى هنا لإرساله إلى جزر الملايو . ولكن الغريب أن الرجل كما ظهر لنا الآن ليس إيطالياً مع أنه اعتقل في نفس المنزل الذي وقعت فيه الوثيقة بتوقيع أنطونيو . وكان أحد الذين اختطفوه ممن حضروا توقيعته على وثيقة التنازل فلا يبعد إذن أن يكون الأمريكي قد خدع الحاكم وجاء برجل مزيف ليمثل دور السنيور أنطونيو وهنا تهامس البحارة بلزوم الصمت لأن سعادة الحاكم مقبل

وعند مجيئه سمع سميث صوت رئيس البحارة وهو يكلمه بصوت منخفض فلم يتبين ما قاله . ثم سمع الحاكم يقول بصوت كهزيم الرعد : « لا تتركوه يتكلموا ! إقطعوا رقبتهم وألقوه في الماء » اضطرب سميث لعلمه أن هذا الكلام عنه وانتظر ما يجيبه له

الفصول والغايات

معجزة الشاعر الطاب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدو أبي العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطلبه الأستاذ

محمود حسن زغاني

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بفلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر
ومن إدارة « الرسالة »
الثنى ١٢ قرشاً

ولكنه عجب من رواية ما أصابه على هذه
الصورة المقتضبة . وتذكر وعده بلزوم الصمت
فسكت ...

وقبيل الساعة السادسة أسرع إلى المكان الذي
اتفق مع زوجته على مقابلتها فيه ليذهبها إلى السينما ؛
فوجدتها في انتظاره وقال : « أظنني جئت متأخراً »
قالت : « كلا بل جئت في الموعد . هل كان
عندك اليوم شغل كثير ؟ » فأجابها : نعم نحن
لا نستريح طول النهار بل هي حركة مستمرة »

قالت : ماذا رأيته اليوم ؟ فقال : إنني لا أحب
التدخل في شئون العملاء وإذا استثنينا الأطباء
فلا أحد يطلع على أسرار البيوت كما يطلع عليها تجار
المفروشات ؛ ولكنني أنظر ولا أسأل ، وأرى شأن
لي بأسرار العملاء ؟ لقد تنازلت اليوم في أثناء عملي
عن حقوق في مملكة باري ، وعن خطبتي للأميرة
رودا الصينية وخطبت بنت مليونير أمريكي واختطفني
رجال العصابة الصينية وكاد رأسي يقطع بالسكين ؛
وسافرت في السفينة إلى جزر الملايو ، وهأنذا
أعود في الساعة السادسة بعد أدائي كل هذه الأعمال »

فضحكت زوجته لاعتقادها أنه يمزح وقالت :
« هل كنت اليوم تمثل في رواية من روايات شارلي
شابلن ؟ »

فقال : « ساعيني إذا لم أجبك فاني مأمور
بالصمت »

وكم يرى المرء في حالتي النوم والإغماء ، وكم
في شئون الحياة مما يظنه المرء حقيقة رآها وهو وهم
يخيل له . أليست الأعمال كلها وليدة الآمال ؟ !
عبد اللطيف النشار

— حالاً وفي أى سيارة

لأمر هام

— حسن ...

واعتذر سلين إلى رفاقه

ووضع قبعته على رأسه وارتدى

معطفه واستقل أول سيارة

صادفته إلى مسكن صديقه

اللورد مينشنجهام ...

ودخل سلين مسكن صديقه بالطابق الثالث

وبعد أن أعطى الخادم قبعته ومعطفه ولج غرفة

المكتب حيث رأى اللورد جالساً مع اثنين من رفاقه

على مائدة اللعب وقد طغت على وجوههم موجة من

القلق والاضطراب ... ومد رب البيت يده مصافحاً

سلين قائلاً :

— إننى سعيد بمجيئك يا سلين ... أظنك

تعرف رفيقى

فأتى إليهما سلين بالتحية وقد عرف الأول

جورينج بریت الموظف بوزارة الخارجية والثانى السير

مارتن فيلبس عضو البرلمان والسنام فى عدة شركات

وله اسم رنان فى الأسواق المالية، ولحظ سلين خلو

المقعد الرابع ولما كان يعرف أن لعبة البريدج

لا تصلح إلا بوجود شخص رابع قال :

— ولكن أين رابعكم ؟

— كان صديقنا روني كارترت فجلسنا منذ ساعة

نحن الأربعة حول المنضدة وفرق الورق أحداً ثم دخل

خادمى طومسون وأخبر كارترت أنه مطلوب فى

التليفون فخرج هذا ولا يزال نصيبه من ورق اللعب

فى يديه يرتبه أثناء سيره إلى قاعة التليفون وقبعنا

ننتظره مدة طويلة دون أن يعود، وأخيراً قمّت لأرى

ماذا يفعل فوجدت الغرفة خالية وأوراق اللعب ملقاة

الورقة الثالثة عشرة

للكاتب القصصى فيليبس أوبنهم

بقلم الأديب عزت السيد ابراهيم

خرج جاسبر سلين مع رفاقه من القصف

إلى قاعة اللعب بمنتهى لاقدرد عندما جاء الخادم قائلاً :

— التليفون يناديك يا سير جاسبر

فلزم سلين الصمت برهة وهو يفكر فيمن

سيحدثه فى مثل هذه الساعة من الليل ثم قال :

— هل تعلم من هو ؟

— لم يذكر لى اسمه يا سيدى ولكنى أظنه

صوت اللورد مينشنجهام وهو يطلبك لأمر هام

فنظر سلين إلى رفاقه قائلاً :

— احجزوا لى مكاناً على المنضدة فسوف أعود

بعد أن أعلم لم يطلبنى مينشنجهام فى مثل هذه

الساعة من الليل

ودخل غرفة التليفون ووضع الساعة لصق

أذنه وقال :

— أهذا أنت يا مينشنجهام ؟

فأجابه الصوت فى لهجة مختصرة :

— نعم أيها الدجال ... ماذا تفعل عندك ؟

— كنت على وشك أن ألعب البريدج

— هذا ما كنت أفعل أنا أيضاً لولا معاكسة

الأقدار . هل تستطيع الحضور حالاً إلى بيتى فى

كننجهام مانشون

— حالاً ؟ أم بعد انتهاء اللعب ؟

على المنضدة بجوار آلة التليفون وباب المسكن مفتوحاً
على مصراعيه فاستدعيت الخادم ورحنا نبحث في
أرجاء البيت دون جدوى

وأخيراً هبطت الدرج إلى البواب فوجدته في
حجرته المطلة على الباب، وبسؤاله أجاب أنه واثق من
عدم خروج أى شخص في نصف الساعة الأخير
وبذلك اختفى كارتريت ولكنى لا أظنه اختفى بعيداً
بل هو في نفس العماره، ولكن أين؟ هذا
ما استدعيتك من أجله والطابق الأرضى كله حوانيت
مطلية أبوابها على الطريق العام والطابق الأول عبارة
عن مكاتب لبعض رجال الأعمال وتفتح أبوابها في
تمام الساعة السابعة من كل يوم والطابق الثانى
الذى يقع أسفل مسكنى مباشرة تسكنه الأميرة
الروسية مادزيويل

— وهل كان يعرفها كارتريت؟

— كلا...

— إذن دعنا نبحث في مسكنك أولاً...

وتقدمهم سلين إلى قاعة التليفون فوجد ورق
اللعب مرتباً حسب لونه ولكنه عند ما عده دهش
إذ وجده اثنتى عشرة ورقة بدلاً من ثلاث عشرة فأخذ
سلين يبحث عن الورقة الناقصة في جميع أرجاء البيت
ولكنه باء بالفشل فحاول أن يتصل بالسنترال بالتليفون
ولكنه وجده معطلاً فسأل طومسون:

— هل تحدثت مستر كارتريت من هذه الآلة؟

— نعم يا سيدي

— وهل حدثنى سيدك اللورد منها أيضاً؟

— كلا يا سيدي بل تحدث إليك من غرفة

البواب عند ما هبط لسؤاله...

ودخل اللورد مع صديقيه فسأل سلين:

— هل اهتمت إلى شيء؟

— إن التليفون معطل وسأهبط الآن لأوجه
بعض الأسئلة إلى البواب قبل أن تزور الأميرة
الروسية

وبسؤاله أجاب بأنه واثق من عدم دخول أحد
أخروجه من العماره وكذا كدخادم المصعد، وطلب
سلين من البواب أن يرافقه إلى الطابق الأول حيث
فحصوا جميع الأبواب فإذا هى محكمة الإيصاد وعندما
سأل البواب عن أصحاب هذه المكاتب قال:

— إنهم جميعاً محترمون فستر هابل المحامى خرج
مبكراً الليلة ولم يلبث وكيهله أن تبعه وأما كاتبه والخادم
فقد خرجوا في الساعة السادسة، ومستر سمبسون
متعهد الأفلام الأمريكية مستأجر المكتب لمدة ثلاثة
أعوام وقد خرج مع سكرتيرته السحابة السابعة
والشخص الثالث هو مستر ميشايل تاجر الفراء
والتحف وهو رجل لا غبار عليه

— وماذا تقول عن سكان الطابق الثانى؟

— إنها الأميرة الروسية مادزيويل وهى أرملة
كرمية نادراً ما تخرج ولكنها كثيراً ما تزار من بعض
الشخصيات البارزة...

— وهل عندها خدم كثيرون؟

— سكرتيرة صغيرة ووصيفة وخمسة آخرون
من الرجال

وبعد أن نفحه سلين بورقة مالية ليفك عقدة
لسانه سأل:

— لقد رأيت في غرفتك آلة تليفونية لتصلك
بجميع سكان العماره فما السبب الذى من أجله قطع
السلك الموصل إلى تليفون اللورد مينشنجهام؟

— يا إلهي . . . لقد كان سليماً عندما رأيته
لآخر مرة

— أفهم ذلك فقد حدثني اللورد في الساعة
التاسعة من تليفونه فلا بد إذن من وجود أحد
إما خرج أو دخل إلى العمارة بعد الساعة التاسعة

— كلا يا سيدي ما عدا سكرتيرة الأميرة التي
تخرج في مثل هذا الوقت من كل يوم لتزهر السكبتين
الصغيرتين ، وكذلك أحد خدم الأميرة فقد خرج
ليدخل سيجارة أمام الباب وابتظر عودة الفتاة، أما فيما
عدها فلم يدخل أو يخرج أحد من الساعة السابعة .
وفي رأي أن مستر كارتر ألقى بنفسه من نافذة
أو هبط إلى مسكن الأميرة .

— سنرى ذلك فأرجو لا تغادر غرفتك
حتى آذن لك .

ثم صعد سلين إلى رفاقه وقال : إنه لم يبق إذن
سوى البحث في مسكن الأميرة فقاطعه اللورد :
— من الصعب أن تفعل ذلك يا سلين إذ كيف
تطرق باب سيدة في مثل هذا الظرف والساعة
الحادية عشرة مساء .

وأحسن سلين وهو يهبط إلى مسكن الأميرة أنه
يقرب من حل هذه المشكلة الدقيقة وعند ما ضغط
بأصبعه على زر الجرس انفرج الباب عن خادم وقور
فسأله :

— هل سمو الأميرة موجودة ؟

— نعم يا سيدي ، ولكنها لا تستقبل أحداً
في مثل هذه الساعة من الليل .

— إن الأمر أهم مما تظن فأرجو أن تقدم إليها
بطاقتي هذه :

وغاب الخادم برهة ثم عاد يقول :
— تفضل يا سيدي .

ثم قاده إلى قاعة الجلوس ، حيث وجد الأميرة
ممددة على إحدى الأرائك، وهي متشحة بالسواد بينما
جلست على يمينها فتاة ممسكة بكتاب كانت تقرأ فيه
لسيبتها وبعد أن أبدى لها سلين أسفه على إزعاجها
أشارت له بالجلوس .

فأطاعها وسرد لها قصة اختفاء صديقه كارتر أيت
والأبحاث التي قام بها دون أن يجده أو يعثر عليه ،
ثم أردف :

— ولم يبق يا سيدي الأميرة سوى مسكنك
فهو الذي لم نفتشه .

وامتعضت الأميرة وبدأت على وجهها الأستغراب
شيء من الضيق ثم قالت :

— ثق يا سير جاسبار أن أحداً لم يدخل مسكني
منذ الساعة الثامنة مساء ، وغير ذلك فأنا لا أستقبل
سوى أصدقائي الأغراء أما صاحبك فأنا لم أسمع
باسمه قبل الآن .

— ولكن يا صاحبة السمو إن الظروف التي
أحاطت باختفائه غريبة وليس من المعقول أن إنساناً
مكوناً من لحم ودم وعظام يتبخر ويصعد إلى السماء
وقد بحثنا عنه في كل شبر من العمارة فلم نعث له على أثر
ولا أطمع في شيء سوى أن تسمح لي لنا بالبحث
هنا حتى يهدأ بالي وأطمئن أصدقائي الذين ينتظرونني
في الطابق الأعلى ...

فضحكت الأميرة برهة ثم قالت :

— كما تشاء يا سير جاسبار . أقرعني الجرس
يا آنا ليرافق جرابلنج السير جاسبار .
فشكر سلين الأميرة وتبع الخادم الذي أخذ

— قبل أن تقدم على أى مغامرة لتتأكد من أن هذه الورقة هي الناقصة فهل مع أحد منكم العشرة الدينارى ؟

— كلا !

— حسن . إذن فقد كانت هذه الورقة ضمن أوراق كارترايت وما احتفظ بها إلا سهواً أو ليعبث بها في طريقه . . . وقد وجدت مطوية جملة طيات على منضدة الأميرة

فقال اللورد مينشنجهام :

— ولماذا دخل هذا الأحمق عند الأميرة وغاب لديها إلى هذا الوقت . . . هل وجدته ؟

— كلا .. لم أترك شبراً في مسكنها إلا وبحثت فيه كما أكدت الأميرة أن أحداً لم يدخل عندها هذه الليلة ، فأين إذن اختفى وشهادة البواب تثبت أنه لم يخرج من الباب

فقال جورج بريث :

— لعله قفز من النافذة . . .

— إننا في الطابق الثالث والشارع مرصوف ولو فعل لدقت عنقه . . . وعلى كل حال لنجرب هذه الفكرة . وهبط الأربعة إلى الطريق العام بعد أن طلب سلين من خادم المصعد أن لا يسمح لأحد مهما كان بالدخول أو الخروج من المارة

ورافق سلين البواب فطافا حول البيت يبحثان عن أى أثر يؤيد شكوكهما دون أن يوفقا وكان الضوء ينبعث من نوافذ مسكن الأميرة فسأل البواب :

— نوافذ من تلك التي تحت نوافذ الأميرة ؟

— إنها نوافذ مستر ميشايل تاجر الفراء والمعاديات . . . وهو رجل ضخيم الجثة مرسل اللحية يرأس عدة موظفين . . .

يطوف به غرف المسكن ابتداء من مخدع الأميرة ، وغرفة الزينة دون أن يقف على أثر يدل على زيارة كارترايت هذا المكان ، وأخيراً قال جرابلنج :

— لم يبق يا سيدى مكان لم تره .

فنفحه سلين بورقة مالية ثم عاد به إلى قاعة جلوس الأميرة التي ابتدرته قائلة :

— لا أعتقد أنك وجدت صديقك ياسير جاسبار مخبئاً تحت فراشى أو في خزانة ثيابي !

وتخرج وجه سلين بحمرة الخجل ، ثم كرر شكره للأميرة على سماحها له بالتفتيش في مسكنها ثم قبل يدها وحيا السكرتيرة وتأهب للانصراف بينما قالت ربة البيت :

— أرجو ألا تكون هذه آخر مرة تروني فيها ياسير جاسبار .

— سأفعل دون شك يا صاحبة السمو .

وبينما هو في طريقه إلى باب الخروج لمح شيئاً على منضدة صغيرة فتقدم منها وراح يتظاهر بأنه يشتم باقة الزهر الموضوعة عليها بينما تناول ذلك الشيء ، وأخفاه دون أن يراه أحد لأن جسمه كان حائلاً بين المنضدة وقاعة الجلوس التي فيها الأميرة والسكرتيرة وصعد سلين إلى رفاقه وقبل أن يسأله عما فعل ابتدرهم قائلاً :

— ليعد كل منكم أوراق لعبه

فمقلت الدهشة ألسنتهم ولكنهم أطاعوه فإذا مع كل ثلاث عشرة ورقة بينما عد سلين الأوراق التي تركها كارترايت على المنضدة المجاورة للتليفون فإذا هي اثنتا عشرة ورقة ، وهنا أخرج من جيبه الشيء الذي وجدته على منضدة الأميرة فإذا هو الورقة الثالثة عشرة ، ثم قال :

ثم التفت إلى البواب قائلاً: احتفظ بهذه الفتاة
ربما أحدث بالتليفون

وحاولت الفتاة أن تصيح لولا أن وضع الرجل
يده على فمها ، بينما طلب سيلين سكوتلانديارد وطلب
حضور المفتش ستمبسون مع أربعة من رجاله ، فلم
تمض عشر دقائق حتى كانوا جميعاً في كمنجهم
مانشون ، وسرد عليهم سيلين قصة اختفاء كارتريت
وعندئذ قال المفتش :

— لقد أتانا اليوم تقرير عن المدعو ميشايل
تاجر الفراء

فالتفت سيلين إلى البواب قائلاً : أعط حضرة
المفتش المفاتيح الاحتياطية ودع الآنسة تنزه كلبها
وما إن فعل حتى قال المفتش :

— إننا سنهاجم عصابة قوية فأرجو أن يتكرم
أصداؤك بالابتعاد

ولكن اللورد ورفقاؤه أبوا إلا المكن ،
ففتح المفتش باب تاجر الفراء وأشعل الضوء الكهربائي
فوجدوا أنفسهم في ردهة مليئة بأنحر أنواع الفراء ،
وعندئذ سطع ضوء في إحدى الغرف المظلة على الردهة
ثم انطفأ ، فطلب سيلين من المفتش أن يرسل اثنين
من رجاله الأشداء لحراسة المارة من الخارج ففعل
ثم تقدموا جميعاً إلى الغرفة التي انبعث منها الضوء
ولكن بانها كان موصداً ففتحه بالمفتاح الاحتياطي
ثم دلف إليها شاهراً مسدسه ، ولشد ما دهش عند
ما وجد أن المكان خال إلا من روني كارتريت وقد
شد وثاقه في مقعد ضخم وتدلّى من السقف
سلم من الحبال الغليظة وما كاد روني يرى أصدقاءه
حتى صاح :

واتجه سيلين إلى اللورد سائلاً عما إذا كان
يمتلك سلاحاً ومصباحاً كهربائياً ، فدهش أصدقاؤه
بينما أتى اللورد بما يريد سيلين الذي قال :

— في استطاعتكم أن تهبطوا معي لاختلاس
السمع خلف باب مكتب مستر ميشايل ، فإن لم نسمع
شيئاً فقد عجزنا عن الاهتداء إلى صديقنا كارتريت
وعند ما صاروا أمام الباب تقدم سيلين وراح
يصيح بأذنه من ثقب المفتاح ، وبعد برهة أضاءت
عيناه يريق غريب وأشار لرفاقه بالهبوط إلى غرفة
البواب وأعطاه مسدساً وأمره بأن يحذر من
خروج أحد من المارة بينما يتصل هو بقسم
البوليس ... وعند عودته سمع رنين جرس المصعد
فناد يسأل البواب :

— من ذا الذي يطلب المصعد ليخرج في هذه
الآونة من الليل ؟

— لا أدري يا سيدي !

وصعد الخادم بالمصعد ثم ما لبث أن هبط وفي داخله
مدموازيل أنا سكرتيرة الأميرة وهي تحمل الكلب
الصغير على يدها ، فاعترضها سيلين قائلاً :

— آسف يا سيدتي فليس الوقت مناسباً لنزهة
الكلب فضلاً عن أنك خرجت به قبل الآن
فألقت الفتاة عليه نظرة احتقار وأجابت :

— إنني أخرج به جملة مرات كل ليلة ولولا
زيارتك المتأخرة لكنت ...

فقاطعها سيلين :

— آسف يا سيدتي ، فليست نزهة الكلب
بالأمر الهام

مسكن الأميرة الروسية لمقابلة مندوب وزارة الخارجية عندها ... وما كدت أقبل يد الأميرة حتى هجم على الطاهي وكان ما تعرفونه

وعند ما سأل سلين وزير الخارجية عما تم في أمر هؤلاء الجواسيس أجابه :

— خشينا أن نعاقبهم فتنشأ عن ذلك أزمة دولية فاكففنا بنفهم جميعاً وأرجو ألا يصل خبر هذه الحادثة إلى الصحف حتى لا ينقلب علينا الرأي العام وسأل كارترأيت سلين : كيف أمكنه أن يعلم المكان الذي سجن فيه عند الأميرة ، فقال وهو يضحك :

— عرفته بمشوري على ورقة اللعب الثالثة عشرة يا صديقي ! عزت السير إبراهيم

— إن هذا السلم المذلي يوصل إلى مطبخ الأميرة وقد سعد الطاهي اللعين مع ميشايل منذ برهة ... هيا قبل أن يلوذوا مع عصبتهم بالفرار ... لأنهم جواسيس ملاعين

وفي مساء اليوم التالي كان السير جاسبار مدعواً مع أصدقائه في الحفل الذي أقامه وزير الخارجية اعترافاً بجميله حيث قال :

— إن الحكومة يا مستر جاسبار عاجزة عن شكرك لتمكنك من القبض على هذه العصابة بعد أن فشل رجال بوليسنا في تعقب أثرها ، ولم نكن نظن في يوم من الأيام أن الأميرة الروسية ماديروبيل مندجبة فيها ، بل كنا نعلم أنها فرت من روسيا بأموالها بعد أن ادعت أنها من مؤيدي الثورة ، ثم تغير اعتقادها فاعتنقت البلشفية ظانة أنها تفيد بلادها فأخذت توافي حكومة موسكو بتقاريرها السرية حتى حدثت هذه الحادثة الأخيرة التي تعرفها من كارترأيت

فقال سلين : ولكن كارترأيت لم يذكر لي شيئاً عنها

— هناك باخرة تمخر عباب بحر المانش وعلى ظهرها مليون من الذهب الروسي وقد بذل معتنقو البلشفية هنا جهدهم كي يحصلوا على ما اعتزمته حكومتنا من أمر ضبطها ، وكان كارترأيت هو الرجل الوحيد الذي يعرف ذلك فنصب البلشفيون هذا الفخ لاصطياده وانتزاع المعلومات منه

وقال كارترأيت يروي ما حدث له : عند ما طلبت إلى التليفون خاطبني شخص وقال لي كلمة المرور السرية الخاصة بوزارة الخارجية وهي « إنك مطلوب حالياً » فاتهمت أوامره التي كانت تقضى بالهبوط إلى

مجموعات الرسائل

تباع مجموعات الرسائل مجلدة بالانجليزية

٥٠ السنة الأولى في مجلد واحد

٧٠ كل من السنوات الثانية والثالثة والرابعة

والخامسة في مجلدين

وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش

في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون

قرشاً في الخارج عن كل مجلد

فراراً من ذلك العار ... لقد
حلت النكبة ... فالأحرى بهم
أن يلبشوا في محلمهم وألا
يذهبوا بعيداً ، وأن يصمدوا
للأرزاء حتى تخف وتلين
قناتها ... »

ولم تلبث نفس الصحيفة

أن طلعت على القراء بعد يومين بخطاب خارجي موجه
إلى حنا و مرغريت رئيسي الأسرة المنكوبة ، وكان
هذا نصه :

عزيزتي مارغريت ... عزيزي حنا
ما أشد الشبه بين موقفكم الآن بعد نكبتكم
وآخر وقفته أسرتي لعشر سنين خلت ! وسأقص
عليكم حادثنا مفصلاً على قدر إمكاني آملة أن تجدوا
فيه عزاء لمصابكم وسلواناً :

كان عدد أفراد أسرتنا مطابقاً تمام الانطباق
لأفراد أسرته : أب وأم وثلاث بنات كبار وابن
صغير ، وقد كان الأخ على أي حال أصغرنا سناً
وأنا أليه في الكبر

عشنا في بلدة لا تقاس بعدينتكم ، فقد كانت
صغيرة الحجم ولا يربو عدد سكانها على ستة آلاف
شخص ، وفي مثل هذه البلدة يندر ألا يكون
شخص ملماً بأسماء باقي الأشخاص وأحوالهم ،
وعلى ذلك كنا معروفين من السكان جميعاً ...
وهذا وحده كاف لجعل فضيحتنا أشد من أن نتحمل

فضيحة ...!

مترجمة عن مجلة « ترافستوري »
بقلم السيد ناصر عزيزي

طلعت إحدى الصحف الصادرة في (أمريكا)
ذات يوم على القراء وفي إحدى زواياها نبأ مؤلم تحت
عنوان : « خطبٌ عائلي » وهذا نصه :

هنالك أسرة تتألف من الأب (حنا)
وزوجته (مرغريت) وأطفالهما الأربعة . وقد كانت
إلى عهد قريب أسرة سعيدة هائلة ؛ ولكن الدهر
يأبى أن يبقى على سعادة أو يديم سروراً

فقد هربت ابنة حنا الكبرى بصحبة رجل
متزوج لكي تعيش معه . وكم كان وقع هذه
المصيبة على هذه الأسرة أليماً ! لقد أصبح أعضاؤها
نهب الأسى والغم ، وشعروا بالحجل يغمهم والحزى
يحيط بهم فسحبوا أنفسهم من المجتمعات وأصبحوا
عن أصدقائهم بمعزل

ثم أوعزت (مرغريت) إلى (حنا) أن يبيع
حانوته بغية الرحيل إلى مدينة نائية حيث لا صلة
لأحد بهم ولا علم له بعارهم

ولكن حنا .. كان من رأيه أنه ليس لمجرد فضيحة
فرد من أفراد الأسرة يهيم الباقون على وجوههم

من المعلوم أن الخطب يشتد وقمه على المرء كلما عظم شأنه ، وتعالى قدره ! فمن البديهي أن يعظم في نظرنا ما نزل بنا ، ونحن أسرة ألفت المجتمعات ، وربطتها التقاليد الدينية السائدة ، فكان أفرادها في الكنيسة أعضاء عاملين !

أنهيت تحصيلي العالي في الكلية وأنا مشرفة على الحادية والعشرين ... وسرعان ما شغلت وظيفة تدريسية شاعرة في مدرسة محلية ...

أما أختي سوزان فلم تدرس سوى سنتين فقط في البدء ... لم تكن نظن أننا سنقع في فضيحة ... أما الآن وقد حلت الكارثة وأصابنا القدر بسهمه الصائب فقد حجبنا أنفسنا عن جميع الناس ... حتى عن أصدقائنا القدماء ! ولا تسأل عمادهي أخي وأختي الصغرى أثناء تنقلهما في المدارس العديدة لتلقى العلم ، من ألم وكمد ...

وقد دار بخلدنا أخيراً أن مواجهة الصدمة في محلنا ليس في قدرتنا ، فاعترمنا الرحيل ... وكان علينا قبل تنفيذ فكرتنا أن نعمل أشياء كثيرة بسرعة متناهية ... لذلك ألحفنا على الوالد أن يترك شغله دون أن يتقاضى لقاء خدماته الطويلة شيئاً ! غير أنه كان قد ادخر من شغله قليلاً من المال كان خير عون لنا بعد أن تذكر لنا الدهر ، فصممنا على تشييد دار جديدة لنا ... بعيداً جداً ... حيث لا يعرفنا أحد

ولم يواتنا الحظ في بيع دارنا (وهل لي أن أقول إننا ذوو حظ ؟) ، فإننا لم نجد لها شريكاً فتركناها خاوية ! ...

تركنا دارنا بعد أن أدير عنا الحظ ، قاصدين بلداً

لعشر سنوات مضت ... بدأت أختي الكبرى المشرفة على الثالثة والعشرين تماشى رجلاً متزوجاً ولم يمض طویل وقت حتى عرف الجميع ذلك ولم نكن لنذكر ما سيعقب ذلك حتى نزلت المصيبة !

فقد أعلنت جهراً فجأة أنها عازمة على الذهاب بصحبة الرجل المتزوج للعيشة معه ... وتركت البيت فعلاً إثر تصريحها وصحبته حيث أخذنا في التنقل من محل لآخر كما كانت تستدعيه لذلك أعماله ... ولكنهما كثيراً ما قصدا بلادنا في عطلة آخر الأسبوع أو في العطل الأخرى ...

وما كاد يطرق سمع زوجة الرجل علاقته بأختي حتى طلبت الطلاق على الفور ... وقد أجيب مطلبها في الوقت المناسب

وعلى أثر ذلك اقترن الرجل بأختي (سوزان) وعاشا في بيته رغم قضاؤهما جل الأوقات في السفر والتنقل

وهكذا ... ضربت أختي سوزان رقماً قياسياً في الوقاحة إذ ذهبت تنتهل السعادة من أحضان زوجها وخلفتنا نمرق الأرم وندب حظنا المأثر ... ورجو بانزواتنا اندمال قلبنا المكسوم !

كان أبي يشغل في معمل إعداد اللوازم الحديدية ، وكان يظهر عليه أنه قادر على تجميل بيته وتجهيزه وإدخال ضروب اللهو والترفيه إلى أسرته ...

وقد أنهى بصحبة أمي الشطر الأكبر من عمره في المدن ... فأصبحنا بذلك ذوي صلة بكثير من الأصدقاء

ولم نعد ترى ابتسامته القديمة المشرقة : تلك الابتسامة التي طالما علت شفثيه فأسكرتنا بهجة ورضى

وأخيراً ... حدث الأمر الذي لا مفر منه !
مهما أردت التخلص من شيء بهروبك منه وجدت ذلك الشيء مندفعاً نحوك اندفاع السهم ، لا يعوقه عن مواجهتك عائق خصوصاً إذا كان في الأمر فضيحة

فقد قذفت الأقدار إلى قرينتنا شاباً جاء من مدينتنا القديمة لقضاء عطلة عيد الفصح فيها، ويشاء حظنا العاثر أن يلح أخى (بوب) في الطريق وأن يعرفه على الفور ! ولم يأل جهداً في استقصاء أخبارنا فعلم أنني أشغل وظيفة تدريسية، وهنا تأتي بقية القصة رجعت إلى وظيفتي بعد انقضاء العيد، ولكنى لم أكد أخطو فيها حتى لمست في الجو تكهرباً .
وقلما أخطأ شعور الإنسان إذا ما لبثت أن كشفت سر ذلك التكهرب، فقد أخطرتنى المدرسة باستغنائها عن خدماتى منذ الآن !

يا لله ! أيا لحظ النحس البائس أينما حل ! ماذا ترانى فاعلة بعد هذا المصاب ؟ ولم يبق لدى شك فى أن خالة والدتى الصحية ستزداد رداءة وخطورة عما كانت عليه فى السنة الماضية . وظهر لدينا جلياً أن سحابة اليأس والقنوط موشكة أن تظلنا جميعاً ولم يكن فى وسعنا بعد الآن غير السفر ثانية إلى بلدة أخرى نلتمس فيها الاستقرار والصحة . فسافرنا فعلاً وحمد والذى الأقدار على أنها لم تربطه الآن بعمل آخر ليضحى ثانية به .

ألقت السفينة مراسها فى مدينة تناثرت المصانع فى أرجائها، وتعلت سحب الدخان من أفواه المداخن

بعيداً نأمن به شر العار ... وأخيراً أشرفنا على قرية س ... الصغيرة النائية فعشنا فيها ، وكانت هذه القرية واقعة فى الشمال ، وقد تيسر لى الحصول على وظيفة تدريسية فيها .

دهمنا سبتمبر ونحن فى مقرنا الجديد ، وقد عثر والدى على شغل ولو أنه لم يكن راغباً فيه ...

وكان من المنتظر أن نكون فرحين بعد عثورنا على مورد معيشتنا ، ولكن فى الحقيقة لم تكن كذلك ! فقد غدت والدتى مريضة قانطة ، ولم تكن تقدر أنها ستشعر بكل هذه الآلام حتى كانت تحثنا على الرحيل ، وقد كان عجيباً حقاً أن تشعر بأى ألم بعد انتقالنا إلى عشنا الجديد تاركين مهد الفضيحة وراءنا بعيداً، ولكن لعل ذلك راجع إلى انقطاعها عن الأصدقاء القدماء ... الأصدقاء الذين تربطنا بهم رابطة الصداقة المتينة التى يرجع عهدا إلى زمن الطفولة ، وقد أحس والدى أيضاً بهذه الخسارة برغم أننا لم نعدم أصدقاء عديدين فى محلنا الجديد، ولكن ما أشد تباين الصداقتين !

والآن ، لأبسط لكم حالنا .. لقد لزمى المرض والقلق ، وكان هذا حال أختى الصغرى ، وأخى بوب المشرف على الخامسة عشرة !

وسوف لا أطيل الكلام حول تلك السنة التى قضيناها فى قرية س ... وإنما يكفى أن أقول إن والدتى ضعفتها المرض طوال الشتاء ، ولزمتنى الكآبة مع أختى وأخى

أما والدى فبالرغم من تركه العمل لم يكن يشكو شيئاً ، ولكن ظهر عليه أنه يتقدم فى العمر بسرعة

تحرك الحب الأسمى وهو أقوى صلة وأعظم
رابطة على سطح الأرض !

من الجائز أن والدتي قد ظنت في وقت من
الأوقات — بسبب الفضيحة — أنها قطعت تلك
الرابطة وأسقطت ابنها من حسابها ، ولكن ...
ولكن صرخة الطفل وقت الكرب يجب أن تليها
وهكذا كان ... فقد قرر والدي ووالدتي
الذهاب لرؤية سوزان ، ولم يمكن تركهما يذهبان
دون أن أرافعهما ... فقد كانت صحة والدتي
متضعضة وخشت أن تصبح السفرة ولقاء الجريمة
وبالاً عليها ، لذلك صحتهما

لا أنسى قط نظرة الارتباب المشوبة بالفرح
التي ظهرت على وجه سوزان المعبدة عند ما فتحت
عينها فأبصرت بوالدها واقفة بجانب سريرها !

كانت لحظة عنيفة خالدة ... أنت على جميع
ما حمل قلب والدتي من الأحقاد التي ولدتها السنتان
الخاليتان ! لقد أجهشت في البكاء ، وأخذت دموعي
تهمل على خدي ... وفي نفس الوقت تملكنتني
الدهشة وعرائي الدهول لما أبصرت من قدرة والدتي
على التجلد وحبس الدموع في ذلك الموقف الهائل !
والدتي التي كانت آثار المرض : مرض الجسم
والنفس ، ظاهرة على قسبات وجهها بجلاء ووضوح !
مضت بضعة أيام كانت حياة أختي سوزان
خلالها معلقة في الميزان ، ولكن والدتي لم تدع
لليأس إلى نفسها سبيلاً . وأخيراً ... أخذ الخطر
يزول تدريجياً حتى أيقننا أن سوزان لن تلبث طويلاً
أن تعافى !

كثيفة قاتمة ... فنزلنا في تلك المدينة مصممين
على السكنى فيها .

وبعد أيام أسمعني الحظ بالعثور على وظيفة
تدريسية في (مدينة المصانع) ... وكان لرئيسي
القديم الفضل الأكبر في إيجادها لي .

أما أختي وأخي فقد شغلا وظيفتين في حانوتين
صغيرين ، فقد كان من المسير جداً العثور
على وظائف حسنة في ذلك الوقت . وكانت الحاجة
أيضاً هي التي دفعتهما لهذا الشغل القافه الأجرة .
وقد كان الشتاء التالي من أشد أيام حياتنا
إذ لم يكن يتنا مريحاً كالبيوت التي اكريناها
سابقاً ... ولم يشأ والدي أن يتورط في شغل آخر
بعد الآن !

انصرم الشتاء وأقبل الربيع بإشراقه ، وعبر
أزهاره ، وسحر جماله ، حاملاً تحت طياته نبأ خطيراً
فقد وافقنا الأبناء بحلول كارثة مروعة شنت
شمل أختي سوزان وبعلمها ... ومفاد تلك الأخبار
أن السيارة التي كانا يسوقانها انقلبت فقتل الزوج
شر قتلة ، وأصيبت سوزان بجراح خطيرة نقلت
على أثرها إلى المستشفى وهي بين الحياة والموت !
هل تحسبان أننا فكرنا يوماً في الذهاب إليها !
نحن كثيراً ما دعونا وابتهلنا لو أنها ماتت ،
إذاً لكان ذلك أولى من أن تجلب لأسرتنا تلك
الفضيحة !

أما الآن ... وهي بين برائن الموت ... فهل
في الإمكان نكرانها ؟

وكاننا الأقدار أشفقت عليها مما حل بها فحقت
أمنيتها ! فقد أمكنها من تكوين شخصية محبوبة
لا تمت لشخصيتها الأولى بسبب . فقد أحباها الناس
لبشاشتها ورقتها وحبها على الفقراء وطول باعها
في العمل ! ثم أخذت بين مدة وأخرى تزورنا فبرهنت
بذلك على توبتها واستقامتها !

وأخيراً تزوجت منذ خمس سنوات وسبقته أختي
الصغرى في زواجها بسنة واحدة ، وعشنا سعيدتين
بالقرب من والدينا . وبفضل ابتسام الحظ وزوال
التجهم أصبح والدي قادراً على المساهمة في الشركة
التي كان بها عاملاً من قبل . ولم تلبث الشركة أن
أصبحت تحت إدارته الحازمة حيث لاقت نجاحاً باهراً
فاتسعت أعمالها وعظمت شهرتها !

أما والدتي فقد استرجعت سرورها وبشرها ،
ولم يعد يقلقها المرض ثانية ، ولم يزل أخي بوب في عمله
مثال النشاط والإقدام !

فلأجل ذلك ... أحب أن أهمس في أذنك
يا عزيزي حنا ألا تضحي بعملك وبمجهوداتك التي
بذلتها في أحسن سني حياتك متشبهاً بالأم الواهي ،
الأم في إيجاد سلوة عن الخطب بذهابك إلى
محل ناء عن بلدك ؛ فقد علمتنا التجارب القاسية
أنا لا نقدر على الإفلات من الهم أو الهرب من
التعاب ، ووجدنا أن الأجدد بنا مواجهتها في
المحل الذي وقعت فيه ، إذ يظهر أن تلك المصيبة
تلاحق الشخص إلى أقاصي المعمورة !
وفي نفس الوقت ... احرص على توطيد علاقاتك

كنا أثناء زيارتنا سوزان قد استأجرنا غرفة
في إحدى المنازل ، فقصدنا أصدقاء كثيرين ليعبروا
عن مرورهم بشقاء سوزان

لماذا لا ترجعون للعيشة في منزلكم ؟ لماذا بالله؟
كان هذا السؤال يتردد على السنة جميع أصدقائنا
وقد أسمونا إياه أكثر من مرة . حقاً .. لقد خطرت
لنا نفس الفكرة حيناً ثم أخذت في النمو ... لماذا
لا نرجع إلى منزلنا الذي لا زلنا نملكه ... ؟ لماذا
لا نهرع إليه في التو واللحظة بعد كل ما حدث !
ولم يلبث الخاطر أن بعث إلى العمل وتحقق .
فقد رجعنا إلى منزلنا في البلدة ، وقفلت راجعة
لأنهي أجل تعليمي في (مدينة المصانع) ... وبعد
ذلك قصدت دارنا في يولية حيث كانت في انتظاري
وظيفة تدريسية ... نفس الوظيفة التي أسندت إلى
قبل فرارنا بسنتين ؟

لشد ما تبدل الأحوال ! فقد وجدنا بعد
رجوعنا إلى منزلنا القديم في بلدنا أن المار القديم
قد طمست معالمه وتطرق إليه النسيان فقد كانت
السنتان اللتان احتجبتا فيهما كفيلتين بتخفيف
وطء المار القديم ، وتقليل تأثيره . أما نحن فنادرأ
ما كنا نفكر فيه

دخلت سوزان على أثر شفائها المستشفى للتدرب
على التمريض ، وقد برعت في عملها فأرسلت إلى مدينة
ناحية لتقوم بعملها كمرضة ؛ ولا زالت إلى الآن
تمارس مهنتها بجد ونشاط . ولم يكن يؤرقها ويشغل
فكرها سوى شيء واحد : ذلك هو عارها القديم !
آه لو أمكن اندثاره ونسيانه ، إذا لماشت
سعيدة هائلة !

مع الأصدقاء ، فإنهم عند الشدة درع حصين ،
 وخير معوان على درء الكوارث أو إضعافها !
 إيه مارغريت العزيزة ... لقد أطلعتك على
 قصتنا ولا شك أنك قد ظفرت بحقيقة لا شك فيها ،
 ذلك أن الزمن كفيل بإزالة القسم الأكبر من الشقاء
 والبؤس ... وعمما قريب سيواتيكم الحظ فتسعدون !
 أنا لا أنكر أن ملاقاتكم ما نزل بكم في مدينتكم
 يفتقر إلى شجاعة في البدء ... ولكن ذلك خير
 لكم من الفرار إلى بلد آخر ما دامت المصاعب
 تلاحق الإنسان أينما ذهب أو حل !
 وفي النهاية ... أختم كلمتي هذه ببضعة أبيات
 اقتطفها من قصيدة صغيرة طالما وجدت الراحة
 في ترديدها أثناء ما حل بنا وهي :

عند بلوغك أخطر نقطة في حياتك ،
 يجب عليك مواصلة سعيك برغم كل الصعوبات
 إذ لا سبيل لرجوعك إلى الوراء أو إلى أي
 جهة أخرى .

وليس لك سوى السير حثيثاً إلى الأمام ،
 فإن الدياجير لن تلبث أن تتبدد ، والعاصفة
 العاتية عن قريب ستزول .

والله على إراحتك خير معوان ونصير !

المخلصة : س . ب . س

« البصرة » ناصر عزيز منصور
 مدرس بمدرسة العشار الابتدائية

المجموعة الأولى للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
 المصر لموسيه ، والأديسة لهوميروس ، ومذكرات
 نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
 كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
 ومنقولة .

الثنى ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

كتاب النقد التحليلي

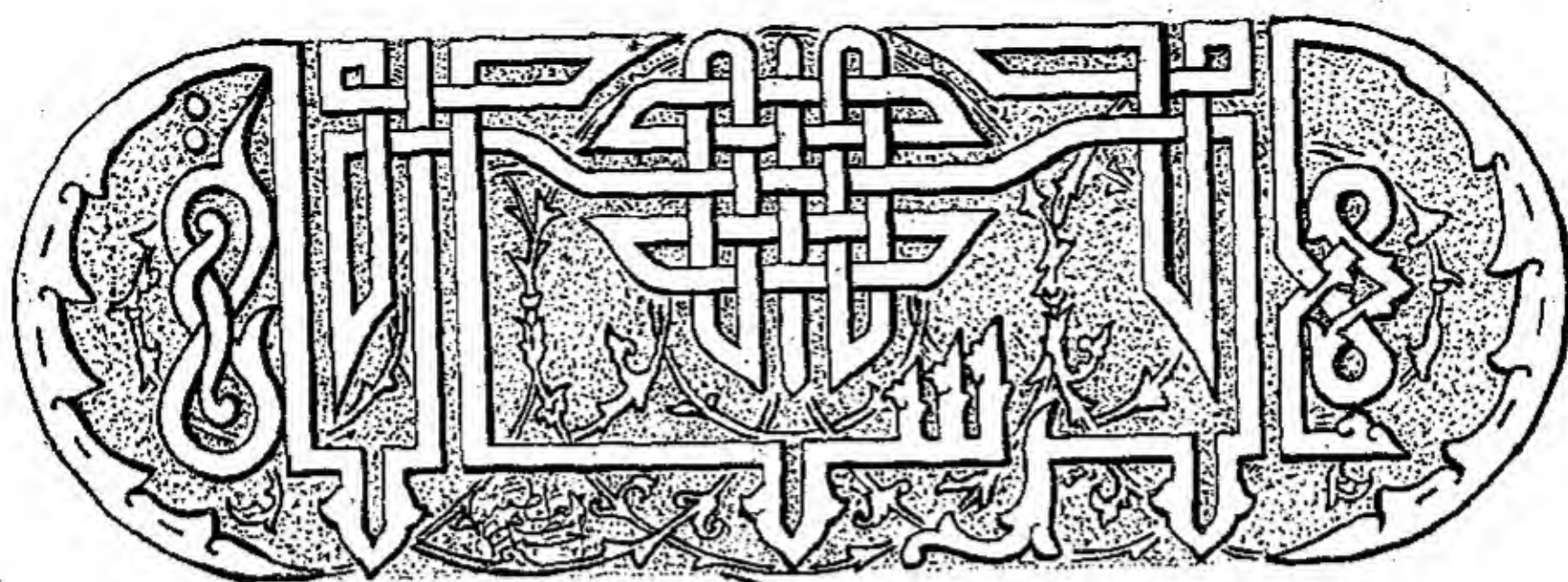
للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

هو أول كتاب في اللغة العربية عالج النقد الأدبي
 بالطرق العلمية المؤدية ، والمقاييس المنطقية المنتجة .
 بناء المؤلف على نقد كتاب (في الأدب الجاهلي)
 للدكتور طه حسين ، ولكنه استطراد لدرس مسائل
 مهمة في قواعد النقد وأصول الأدب ومناهج البحث
 حتى جاء الكتاب مرجعاً في هذا الباب ونموذجاً
 في هذا الفن . وهو في الوقت نفسه يغني القارئ
 عن كتاب (في الأدب الجاهلي) لأنه تلخيصاً
 وافياً .

يقع في ٣٢٦ صفحة من القطع المتوسط

و ثمنه ١٢ قرشاً خلاف أجرة البريد

ويطلب من إدارة الرسالة



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَصِلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النِّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ اسْكَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْمُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِيِّ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ، وَسِجْلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الدُّسْتُرَانِ الرَّافِعَيْنِ قَرْنًا، وَالْحَاضِرِ مَا يَسَاوِي هُنَا مِصْرِيًّا، وَلِلْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ بِخَصْمِ ٢٠٪



صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المستنول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ في مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الإدارة

دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين - القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠

الرسالة

مجلة أسبوعية للفن والفكر والتاريخ

نصدر مؤقناً في أول كل شهر وفي نصف

السنة الثالثة

١٣ جمادى الأولى سنة ١٣٥٨ - أول يولية سنة ١٩٣٩

العدد ٥٩

من أحسن القصص



فهرس العدد

صفحة	أقصوصة مصرية	أقصوصة مصرية	أقصوصة مصرية
٦١٨	حياة للفير	أقصوصة مصرية	أقصوصة مصرية
٦٢٣	وميتها حياة ثانية	عن الانجليزية	عن الانجليزية
٦٤٢	الأب	للكاتب الألماني ولهم شمتيون	للكاتب الألماني ولهم شمتيون
٦٥٢	إغراء الشيطان لآدم وحواء	من الأدب الفرنسي	من الأدب الفرنسي
٦٥٧	عابد الشمس	أقصوصة مصرية	أقصوصة مصرية
٦٦٦	الطائر الأزرق	للكاتب الأسباني روين داريو	للكاتب الأسباني روين داريو
٦٦٩	جندى قبل الاعدام	عن الانجليزية	عن الانجليزية

حياة للغيب

أقصصة مصرية
بقلم الأستاذ نجيب محفوظ

فأزاح الجريدة عن وجهه
ونظر إلى حديقة البيت المجاورة
نظرة التمتع فيها الابتهاج فرأى
وجهاً مشرقاً ينو إليه بعينين
سوداوين صافيتين يطالعه
بالبراءة والحسن ، فأحس
إحساس الحران هب عليه نسيم

بارد معطر بالياسمين ورد تحيتها قائلاً :

— أهلاً بالآنسة سمارة !

فابتسمت إليه ووقفت تلاعب كلبها الأبيض
الصغير. كانت في السادسة عشرة ، يتجاذب وجهها
الصباح وقدما المشوق براءة العبا وأنونة الشباب
وأشار إلى كلبها وسألها :

— كيف هو اليوم ؟

— تم شفاؤه ... الحمد لله ...

فضحك قائلاً :

— لعل هواء الأسكندرية لم يوافق مزاجه ؟

— على العكس كان يعدو على الشاطئ والدنيا

لا تسمعه من الفرح ...

فنظر إلى وجهها الذي كسا الشاطئ بياضه
حمرته كأنه غمسه في الشفق وقال برقة :

— لقد اكتسبت بشرة جديدة يا سمارة !

فاستضحكت ، وعدا الكلب في تلك اللحظة

فولته ظهرها وعدت وراءه ...

وبدا عليه تغير ظاهر ، ففاضت من عينيه نظرة
الجد والرزانة وخلفها نظرة حنان وأحلام ، وطاب له
أن يجلس منها نظرات طويلة سعيدة ، فشاهدها ،
وهي تجلس إلى الكرسي ، وتفحنى لتلاعب كلبها
الصغير ، وجعلت أناملها تنخل شعره الأبيض

ساعة الأصيل هي الساعة المختارة التي يهبط
فيها عبد الرحمن أفندي إلى حديقة البيت الصغيرة
وهي عادة التي يلزمها أو التي تلازمه أغلب شهور
السنه ، لأنه من القلة النادرة التي لا ترتاح إلى ترك
البيت إلا لعمل أو ضرورة . وقد نزل إلى الحديقة
ذلك اليوم من أيام سبتمبر المعتدلة ، وألقى عليها
النظرة المعهودة ، وتمشى بين طرقاتها اللتوية يسرح
بصره بين شجيرات الورد وأصص الزهور ، ثم
جلس على أريكة على كنب من السور المقام من
الأسلاك الشائكة الذي يفصل بين حديقة بيته
وحديقة البيت المجاور ، وبسط جريدة من جرائد
المساء كانت مطوية تحت إبطه ومضى يطالع ...

وكان في مشيته كما كان في جلسته آية للرزانة؛
فمن كان يراه لا يشك لحظة في أنه بإزاء رب بيت
وعاقل أسرة ؛ فحركاته وإيماءاته تقرر دائماً بالهدوء
والإتزان ، ونظرة عينيه تلوح فيها الرزانة والرجولة
والمسؤولية ، ورأسه الكبير وشاربه الغزير يدلان على
أنه ابن أربعين وإن كان في الحقيقة لم يجاوز
الخامسة والثلاثين إلا بشهور قليلة . وكان مستغرقاً
في مطالعته حين استيقظ فجأة على صوت رقيق يهتف
به قائلاً :

— سعيدة يا عمي ...

من الجنس الثاني التي رمت بها الأقدار في غزلته القاسية ... فتسرب الحب إلى قلبه خفية ، في أناة وهدوء ، وبلا قصد أو حذر تسرب الكرى إلى أجفان حالم مستسلم إلى هبات النسيم اللطيفة في جلسة طويلة هادئة على شاطئ النيل ...

وكان في أول عهده بها يتمتع بطفولتها السعيدة ويجد فيها منفذاً لحنان صدره المكتوم ، فلما أن انقلب عاشقاً أنشبت فيه الحيرة أظافرها وحرمت القناعة السعيدة وصار يعذبه كل شيء حتى عطفها وحديثها ، لأنها كانت تقبل عليه ببراءة ولم تشعر حياله شعور امرأة بأزاء رجل ، وقد حدجها مراراً بنظرات نفذ منها لهيب الهوى قهراً فلم تستجب له ولم تحس به وأصرت على أنه « عمها العزيز » لا أقل ولا أكثر ! ما عسى أن يكون ردها لو طلب يدها ؟ ... كيف يكون شعورها ؟ ... وكيف تكون دهشتها ؟ ... وماذا تقول لأبيها ؟ ... وماذا تقول لنفسها ؟ ... وهل يمكن أن يراها بعد ذلك كما يراها الآن في حديقته وأن يتمتع برؤيتها مقبلة مذبرة محدثة مداعبة أم ينقطع عهده بها إلى الأبد ؟

وهب أنه وجد من نفسه الشجاعة الكافية لأن يفتح أبواباً - صديقه العزيز - في هذا الشأن الخطير فما عسى أن يقول له ؟ ... ياله من قول عسير ! ... وفكر طويلاً ، ثم أغمض عينيه وحدث نفسه وكأنه يحدث صديقه : « صديقي العزيز لقد جئت أحدثك في أمر خطير لم تكن تتوقع أن أحدثك فيه أبداً ، وربما لم أكن أتوقع ذلك أنا أيضاً ، ولست واثقاً من موافقتك ولا من أهليتي للطلب الذي أتقدم به ولكنني لم أرد أن أضيع فرصة ذهبية لمجرد توهي الإخفاق ... سيدي ... وصديقي ... »

ولم يتم حديثه لأن صوتاً عذباً أيقظه من حلمه قائلاً :
— أنا نائم أنت ؟

فانتبه خافق القلب وقد تولاها ما يشبه الرعب ، وقال :

الطويل ، ومضى الكلب يلحق يدها مسروراً ويثب على ركبتيها وذنبه يرقص طرباً ، وفي أثناء ذلك تدلت خصلات شعرها الحريري وحامت حول عنقها وخديها ، وكان في مشاهدته سعيداً مبتهجاً ، ولكن انقبض صدره فجأة ، فلوى رأسه ونظر إلى الأمام بعينين لا تريان شيئاً ، لأنه تذكر أن سلوكها نحوه لم يتغير منذ كانت تدرج في الطفولة والصبا ، وأنها ما تزال تناديه بقولها « عمي » كما كانت تفعل وهي صغيرة تلعب بالعرانس ، وكان فيما مضى يفرح بهذا النداء ويعده آية على ماله في نفسها ونفس أبيها من المودة والصداقة ، أما الآن فهو يضيق به ويتأذى منه ولا يكاد يسمعه حتى ينقبض صدره وتتولى عنه البسرة وأنجه بصره إليها مرة أخرى وتساءل — ولم يكن يفعل ذلك للمرة الأولى — أمن المستحيل أن تصير سماراً زوجي يوماً من الأيام ؟

وهز رأسه في إنكار واستغراب كأن الفرض من المستحيلات حقاً ، ولكنه لم يسلم بلا جدال فتساءل مرة أخرى : ما وجه الاستحالة ؟ ... العمر ! ... فهو ابن ستة وثلاثين وهي بنت ستة عشر ، فعشرون عاماً تفصل بينهما وهو عمر طويل يبرر « عمومته » لها فكيف يتأني للعم أن يصير زوجاً وحبیباً ؟ حقاً إن الكثيرين لا يعترفون بعقبة العمر ، ولا ينزلون عند حكمها وبذلونها بغير مبالاة ، ولكن لكل تضحية من هذا القبيل ثمن ، فما عسى أن يكون الثمن الذي يبذله لثل هذه التضحية الغالية ؟ ... هو في الواقع ليس إلا موظفاً منسياً في وزارة الداخلية لا يتجاوز مرتبه الخمسة عشر جنياً فلا مكانة له يعتد بها ، ولا مال له يسدل به على نقائصه سترًا من الرواء والجلال ؟ ومع ذلك فهو يحبها ، ويبدوله أنه لم يكن من حبها بد ، وكيف كانت تتاح له النجاة منه وقد كانت تنمو تحت بصره يوماً بعد يوم ستة عشر عاماً ؟ ... وكانت إلى ذلك الإنسانية الوحيدة

— كلا ...

— مبذرة ... رأيتك منمض العينين ...

— كنت أفكر ...

— وفيهم تفكر . ؟

حذق في وجهها بعينين حارّتين وتساءل بماذا يجب ؟ ... أيقول لها فيك أنت ؟ ... ولكنها مجازفة سابقة لأوانها ، فلازم الصمت ، وأحس رغم ارتباكها بلذعة سخرية لا يضطرا به أمام هذه الطفلة ، وكان ينعم النظر في عينيها السوداوين ، ومرت دقيقة على جموده ، فشعر بسرّيان تخدير لذيذ ولم يعد يرى إلا سواداً جميلاً ، ثم لاحظ تغيراً فجائياً يطرأ عليها ، فرأى وجنتيها تتوردان وشففتيها تفلقان ، وعينيها تتحولان إلى هدف وراءه ... وشاهدها تفر نافرة إلى داخل البيت ، ونظر خلفه دهشاً فرأى أخاه أنور يقف مبتسماً ويمد له يده للسلام . وأحس بكآبة لم يدر ما سببها وخفق قلبه خفقان الخوف والخبية ، ولكنه سلم عليه مبتسماً وقال له : أهلاً كيف حالك يا دكتور ؟ فضحك الشاب وقال بصراحة :

— كم أنت سعيد يا أخي !

وأدرك ما يعني من اتجاه بصره ولهجته ، وآله ذلك غاية الألم ، ولكنه تجاهل الأمر وقال بإنكار :

— سعيد ؟ !

— طبعاً ، من يحدث سمارة ينبنى أن يكون سعيداً قابسماً ابتسامة صفراء وقال لنفسه : إما أن هذا الشاب خبيث ما كره ، وإما أنه غبي لا يفقه لما يقول معنى . ليس السعيد حقاً من تحدّث سمارة ولكنه من نخجل من محادثته ومن يتورد وجهها حين رؤيته فلا تملك إلا أن تفر هاربة . . . هذا هو السعيد حقاً . . . أفلا يفهم ذلك هذا الشاب أم أنه يتغابي وعكراً ؟ ! على أنه كان يحرص على ألا يبدو عليه شيء مما

في نفسه ، فقال بغير مجرى الحديث :

— كيف كانت ليلتك بالأمس ؟

جلس الشاب إلى جانبه وقال :

— كان قصر العيني أمس حافلاً بالحوادث المزعجة ومضيت أغلب الليل أستقبل صرعى القضاء والقدر وكان عبد الرحمن يرمق شقيقه وهو يتكلم بعينين ساهمتين وعقله دائب على التفكير ... كان ذا قلب كبير يفيض حنانه ، فهو يحب شقيقه وقد أمده هذا الحب الأخوي بالمعون والصبر فرباه ورعاه كما ربى أخوين له من قبل ، ولكن يداخله أحياناً من ناحيته خوف وجفول وربما أكثر من ذلك ... نعم هي الحقيقة فهو يكرهه أحياناً وهو أشد ما يكون كراهية له إذا جرى ذكر سمارة على لسانه ، فمجرد نطقه لذلك الاسم الحبيب يؤذيه ويعذبه وتستحيل هذه الكراهية المؤقتة مقتاً إذا وقعت عينا الفتى عليها أو عيناها عليه كما حدث منذ حين قليل ... على أن هذا لا يعني أن هذه الكراهية عاطفة ثابتة فهي مجرد انفعال عنيف ، وغير ذلك فهو يحبه ، وينظر إلى مستقبله كشئ جميل من صنع قلبه وكده ، فأى حيرة وأى عذاب ... ترى هل يفتن الشاب إلى ما يحدثه في نفس شقيقه الأكبر من الشقاء ... ؟ كلا ... هو بلا شك لا يتصور أن مثله يمكن أن يحب هذه الصبية الجميلة !

وكان الدكتور الشاب يفكر في تلك اللحظة من حياته السعيدة في أمور هامة فقال لأخيه :

— لدى أمور هامة أريد أن أفصح إليك بها

ولم يدعه قلبه القلق يرتاح إلى هذه الرغبة فقال :

— إخلع ملابسك أولاً وارنح قليلاً ...

ولكن الشاب قال بإصرار :

— استمع لي أولاً يا أخي فإن حياتي في مفترق

الطرق ...

فسكت الرجل وأردف الشاب :

— سنتتهي بعد أشهر مدة تمريني كطبيب

امتياز في القصر وقد أخبرني أستاذي الدكتور

فعدني أن نذهب غداً إلى مقابلة والدها ولعل لا أصدم
هناك بما يحيب أُملي

— حسن .. ولكن ما الداعي إلى هذه السرعة؟
— لا بد من السرعة فليس أُملي سوى شهوور
قلائل ينبني أن يتم في أثنائها الاتفاق والاستعداد
للسفر إلى إنجلترا

ثم ضحك الشاب وقال وهو يهيم بالوقوف :
— ألا ترى أنني سأمضي شهر العسل خارج
القطر كالوجهاء ؟

فابتسم الرجل ، وجياه الشاب وذهب إلى داخل
البيت ...

وتبعته عيناه حتى غيبه الباب ثم عادتا تنظران
إلى الدنيا المحيطة نظرة ذاهلة لا تمي التفاصيل ،
فأحس إحساساً غامضاً بالسمة التي أخذت تشوب
الكون والسكون الساري في مفاصله ، وضاق بمجلسته
فقام يتمشى في الحديقة الصغيرة يائساً محزوناً محتقناً
ودار دورتين ثم رجع إلى الأريكة وارتوى عليها
بشيء من العنف كأنه يسلم إليها حظه الشمس لاجسمة
المنهوك ...

ووجد في تلك اللحظة رغبة خفية قاهرة
في الفرار إلى الماضي ...

فطار خياله في الزمان عشرين عاماً في غمضة
عين إلى تلك الفترة من العمر التي تبدو فيها الحياة
كقطعة من العجين في يد الخيال يعبت بها كما يشاء
ويصنع منها ما يملئ عليه هواه بعيداً عن قساوة
الواقع . في ذلك الوقت البعيد كان هذا الرجل
المتلى رزانه وهماً وحزناً صبيحاً مرحاً مدلاً يفيض
قلبه بالأفراح والآمال وقد ميزته الطبيعة منذ رأى
النور ، فكان أول من خفق له قلب والديه بالأبوة
والأمومة من الأبناء . ثم كان من بعد ذلك غلاماً
مجتهداً تضيء حياته المدرسية استعدادات عالية
ومواهب نامية تبشر بالنبوغ والتفوق والمستقبل

براون بأن النية متجهة إلى اختياري عضواً في بعثة
كلية الطب ...

فأحس الرجل بارتياح غير منتظر وقال بفرح :
— مبارك . مبارك . أنت أهل لذلك بغير شك .
والظاهر أنه كان لدى الشاب ما يقوله غير ذلك
لأنه قال بارتباك وبصوت خافت :

ولكني ... أعني ... أريد أن أقول ... إنني
إذا سافرت فلن أسافر منفرداً ...
— لا أفهم شيئاً ...

في الواقع أنه يفهم كثيراً ، أو فهم على الأقل
ما جعل قلبه يرتد إلى الجفول ، وكان الشاب قد
تغلب على ارتباك فقال :

— سأسافر زوجاً إن شاء الله
— يا لها من مفاجأة ! ... إنه لم يسبق لك
التحدث إلى أحد في هذا الموضوع ... أليس
كذلك ؟

— بلى ...
— هل نبت في رأسك على حين غرة ؟
— كلا ولكني أوتر الصمت حتى أخرجني
عنه السفر المنتظر !

وسكت الأخ لحظة يغالب عواطفه ثم قال :
— هل أفهم من ذلك أنك وفقت إلى الاختيار ؟
فأحس الشاب رأسه وأشار بذقنه إلى بيت
الجار وقال :

— سمعنا ...
وساد الصمت ، وقلق الشاب لسكوت أخيه ،
فسأله بلهفة :

— ما رأيك يا أخي ؟ ... ألا تمجيك ؟
فقال الآخر بسرعة :
— نعم الاختيار ... نعم الاختيار ...
فابتهج الشاب وقال :
— أشكرك يا أخي ... وأرجو ألا تتوانى ،

وربما كان للزمن في ذلك شأن وأى شأن، فما كاد
أكبرهم يتخرج ضابطاً في مدرسة البوليس حتى
تزوج وترك العبء له وحده وتبعه بعد قليل أخوه
الثاني المهندس فاضطر إلى البقاء أعزب حتى هذه
السن ...

ثم ذكر كيف أنه كاد يختار أخيراً ما يكمل به
حياته وكيف جاء الاختيار بعيداً عن التوفيق وكيف
أنته الطعنة النجلاء من يد طالبا أثرها بالحلب
والمطف، وقد طعنه وهو يضحك ضحكة مشرقة
بالأمل والسعادة كأنه ذاك الحكيم الذي يترنم
بأنشودة السلام وقدمه تقتل عشرات الأحياء التي
لا تراها العين

وفيما هو في أحلامه إذ سمع صوتاً ينادى قائلاً:
« عبده ... لماذا تبقى في الظلام »
هذا صوت أمه الحبيب ... رباب ... لقد لفه
الليل وهو لا يدرى ...

وقام من جلسته متثاقلاً وسار يبطء إلى الداخل
وبادرته أمه قائلة:

— هل حدثك أنور؟

فقال: « نعم ... »

— ما رأيك؟

— اختيار جميل يا أمه، سأذهب غداً لمقابلة

جارنا وأطلب يد ابنته الجميلة لابننا النابه!

فقلت بمحنان:

— لم يبق إلا أنت!

ولازم الصمت هذه المرة ...

من يعلم؟ ... ليس الذي يلقى الآن بأشد قساوة
مما لقي في ماضيه، وما هذه بأول كارثة يمتحن بها
قلبه الكبير، وقد علمته الحياة فضيلة الصبر كما علمته
حقيقة أجل: هي أنه يستطيع أن يسمد وهو
يحقق السعادة للآخرين ... يجب محفوظ

البسام، ولكن الحقيقة أن ما خفي من فضائله كان
أعظم، وأنه كان ينتظر الفرصة فقط للظهور في أبهى
الحلل، وقد جاءت هذه الفرصة ولكنها لم تكن
وأسفاه سوى وفاة والده ...

ترك الوالد المتوفى أسرة بائسة مكونة من أرملة
وأربعة أبناء أكبرهم — عبد الرحمن — في مستهل
الشباب، وأربعة جنهات معاشاً، وهكذا تصدت
الحياة للشباب السعيد الواسع الآمال بوجه عبوس،
استأدته أشد الواجبات، وحثمت عليه أن يخضع رداء
الطفولة ليحمل على عاتقه اللدن أثقل التبعات ...
وكان عليه قبل كل شيء أن يتناسى أطعمه، ويخرج
في الأكفان آماله، ويقبر مواهبه لكي يهيئ للأسرة
الضعيفة حياة سعيدة، وبوليتها بعض العناية التي كان
يوليها إياها الأب الراحل، ورضى كارهاً بوظيفة
بائسة لم يتصور قط أن تنتهي إليها آماله ...

كانت تلك الأيام في بدنها مؤلة شديدة المرارة
تبعث في النفس الأسى والحسرة واليأس؛ ولكنها
لم تبلغ به قط حد الثورة أو الغضب الهائل. لماذا؟
كان قلبه كبيراً ينضج بالحنان والأخوة. فوهبه
أمه وإخوته، وهانت لذلك تماسه، وخففت الأيام
من وقع الخيبة في نفسه، وتجددت في قلبه آمال
أخرى لا تتعلق بمستقبله هو، ولكن بسعادة إخوته
ومستقبلهم، وذاق سعادة جديدة، هي السعادة التي
يحدثها بذل النفس والعمل من أجل سعادة الغير،
وبذلك شغل الشاب مكان أبيه، ودخل في طور
الرجولة الحق قبل الأوان ...

وذكر هنا كيف أنه كان يشعر بالفراغ الأليم
رغم امتلاء حياته بالآمال والأعمال، ولكنه كان ينجح
دائماً في إبعاد فكرة الزواج عن قلبه جباراً في أسرته
وإثارة لإخوته، واستوصى بالصبر، لكن أثبتت له
الأيام أن إخوته أقل صبراً وأعنى بنفوسهم منه

وَهَبْنَاهَا حَيَاتَانِ

(قصة استحققت ما نبي جنيته)

عن الانجليزية

بقلم الأستاذ عبد الحميد دحمي

الليلة قد انتهت من تمرير
السيدة شيد بعد وضعها ولدها
الثالث . وقد تركتها هي وطفلها
في صحة جيدة .

وفكرت وأنا أسير في
الطريق في مسكني المريح في بيت
السيدة ميل حيث قضيت الخمسة
عشر عاماً الأخيرة . فكرت

مسرورة في مطبخي التنظيف النير ، واعتزمت أن
أتمشى الليلة سجعاً وخبيص البطاطس . فذلك الجو
هو الجو المناسب لمثل هذا العشاء .

ولقد كنت دائماً أشعر بالذلة عند عودتي إلى
مسكني ، وكان في واجهة الطابق الأول من الدار .
فلما وصلت إلى الباب فتحتة وضغطت زر الكهرباء
ففاصت غرفة الجلوس بضوء لطيف .

وإذ تلفت لأغلق الباب سمعت صوت نشيج
مكتوم فوقفت أسمع فكان الصوت آتياً من المسكن
المواجه لمسكني .

كانت تقيم في ذلك المسكن سيدة اسمها مسر
فرانكلن استأجرته منذ بضعة أسابيع ولم أعرف من
أمرها إلا الشيء القليل جداً . كانت شابة لا تتجاوز
سنها السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين ،
طويلة القامة ملفوفة ، سوداء العينين جذابتهما في
وجه أبيض مستطيل . وقد تعودت أن تصبغ شفيتها
بالأحمر الزاهي ، وكان ذوقها في لباسها جميلاً بسيطاً .
ولم أشك في أنها حين كانت أصغر سنًا كانت مفرطة
الجمال . وقد أخبرتني مسر ميل صاحبة الدار أن
الساكنة الشابة تشتغل بالتصوير للمجلات ، وتبعث

[لم ترد أن تعيش بغير الرجل الوحيد
الذي حرك عوامل الحب في قلبها]

مضى على الآن ثلاثون عاماً في مهنة التمريض ؛
فقد أصيب زوجي — وأنا في الثانية والعشرين من
عمرى — بمرض طالت أيامه ؛ فعنيت بتمريضه
طوال العشرة الأشهر التي قضاها في الفراش ، حتى
إذا انتقل إلى العالم الآخر واصلت حياة التمريض .
ولقد خلقت بعض النساء ممرضات بالطبيعة ،
وأنا واحدة من هؤلاء ، وقد وجدت عملاً كثيراً
في بلدة أيسر انجليان التي ولدت فيها ؛ وقضيت
حياتي بين أهلها الذين أعرفهم ، وأستطيع التفاهم
معهم .

وكان الأجر الذي أتناوله قليلاً ، لذلك لم أدخر قط
مالاً كثيراً ، ولكنني ادخرت طائفة كبيرة من
الذكريات لا تقوم بمال مهما كثر ؛ والآن يعرفني
جميع أهل المقاطعة باسم العمة سارة كشنج .

وفي ليلة قارسة البرد من ليالي شهر نوفمبر عدت
إلى بيتي بسرعة ، وكانت الأنواء منبعثة من نوافذ
البيوت التي صهرت بها . وكنت كلما استنشقت الريح
الباردة شعرت بأن الحياة شيء جميل . وكنت في تلك

بالتماذج إلى كتب الأزياء .

وإذ كنت أليفة الروح فإني لم ألبث على أثر سكن مسز فرانكلن في الدار أن خطبت ودهابنية الصداقة ، وكانت الشابة كريمة النفس ، ولكنني لاحظت بعد قليل أنها لا تريد أن ترتبط بروابط الصداقة مع أحد من الناس .

فلما سمعت صوت النشيج المكتوم نظرت خلال فتحات بابها فلم أر أثرًا للضوء ، ففكرت فيها وحيدة في الظلام ، وقد تكون مصابة بأزمة مرضية حادة فأجبه قلبي إليها .

وقلت في نفسي : « إنني لا أستطيع أن أقحم الدار عليها غير مستأذنة » . ثم خطرت لي خاطر سريع . فدخلت إلى مسكني ، ووضعت كيس نقودي على كرسي ، وخلعت قمعي ومعطفي ، وكانت ساعتى في هذه اللحظة تدق التاسعة .

رتبت شعري ، واجتزت الردهة ، وطرقت باب مسز فرانكلن فلم أسمع جواباً ؛ فأعدت الطرق بأشد مما فعلت أول الأمر . فسمعت صوتاً مكتوماً يقول :

« مرحى ! من الطارق ؟ »

فأجبت :

« إنها العمدة سارة » .

ثم قلت :

« أيمكن أن تقرضيني شيئاً ؟ »

فقلت :

« أرجو أن تنتظري لحظة واحدة » .

وسمعت حركة مشيها من وراء الباب المغلق . ثم انبعث الضوء فجأة من فتحة عتبه ، ولم يلبث أن فتح في بطاء ، ووقفت الشابة كالخيال بيني وبين

الضوء . وقالت :

— أنتفضلين بالدخول ؟

فشكرتها وخطوت إلى داخل الغرفة .

والتفتت إلى ؛ فسقط الضوء على وجهها فغمره ، وكان شعرها الأسود الكثيف مرتباً غير مشوش . وكان ثوبها الأسود منتظماً في بساطته ، كذلك كانت عيناها السوداوان براقتين لا أثر للدموع فيهما . نخيل إلى أنه يكاد يكون من المعتحيل أنني سمعت نشيجها منذ لحظة .

وسألتني الشابة في اقتضاب وعلى فيها ابتسامة رقيقة متعصبة :

— أى شيء أستطيع أن أقرضك ؟

قلت :

— ليس عندي شيء من الشاي . فهل يمكن أن تعطيني ما يكفي قديحاً أو قديحين ؟

فأجابت :

— بدون شك وسأحضره في الحال !

فلما سارت متجهة إلى المطبخ فحست الغرفة بنظرة سريعة لعل أعثر على ما يفسر أسباب حزنها نخطاب أو تلفراف مثلاً .

ولكنني لم أر شيئاً غير جريدة المساء ملقاة على الأرض إلى جانب كرسي موضوع تحت المصباح . وعادت مسز فرانكلن إلى الغرفة وفي يدها علبة من الشاي . وقالت ملحة في لهجة سريعة متوترة :

— أرجو أن تأخذها كلها فعندي غيرها !

فشكرتها وأنا لا أزال غير راغبة في الانصراف . فقد كانت روح المأساة تسود الغرفة ، ولقد كنت على يقين من ذلك . فقلت :

— إن البرد شديد في الخارج .

فارتجفت الشابة وقالت :

— أهو كذلك ؟

ثم اصطبغ وجهها بلون أغبر ، ورأيت أصابعها الدقيقة تنقلص على ساعديها ، وقد ضمتها إلى صدرها من أثر التألم . فسألها بسرعة :

— أَمريضة أنت ؟

فالت نحوى مترنحة ، والتفت نظرانا ، وكان الألم الصارخ يبدو جلياً في عينيها ، ولكنها قالت في لهجة القلق الذي فرغ صبره :

— لا . لا . أنا لست مريضة .

وخيل إلى أن عينيها تبعثان بنظراتهما إلى داخل نفسي ، وكأنهما لا تريان شيئاً .

واسترعت الجريدة الملقاة على الأرض نظري ، ففني رأس الصفحة الأولى كتبت هذه الكلمات بالخط المريض :

« سيشنق كريج غداً . الرجل المتهم بقتل زوجته يلقي جزاءه » .

ودون أن أفكر في كلماتي قلت :

— إذن سيشنقون كريج غداً .

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى تصلبت الفتاة ونكصت عني كما لو كنت قد ضربتها ، وسقط ساعداها في دفعة واحدة إلى جانبيها ، ومال رأسها إلى الوراء ، وخرجت من حلقها صرخة فظيعة مخنقة حبست بين شفثيها الحراوين . وكانت صرخة غير دنيوية تجمد لها نخاع عظامي . فأمسكت بكتفيها وهزتها في لطف . وقلت في لهجة الأمر :

— قني هذا يا مسز فرانكلن !

فانفتحت عيناها في بطاء ، فكانتا تفيضان بمجزع بمجزع القول عن وصفه . ثم قالت في همس حاد :

— نعم سيشنقونه غداً .

وترنحت الشابة مائلة نحوى فأمسكت بها وأسندتها وأجلستها على الكرسي . ثم لم تلبث أن استولت عليها قشعريرة حادة . فكان الفزع الشديد الكامن في نفسها يهزها في عنف كما يهز ربح الشتاء الغاضب شجيرة ضعيفة .

فقلت وقد ألت لحالها :

— سأحضر لك شيئاً من الخمر فلا تتحركي حتى أعود إليك .

واجترت الردهة جارية حتى وصلت إلى مطبخي فصبيت نصف زجاجة من الخمر في قدح وعدت بسرعة إلى حيث كانت الشابة لا تزال ترتجف .

فركزت حافة القدح بين شفثيها وقلت :

— اشربي هذا !

فشربت جرعة أو جرعتين من الفسح ، وفي لحظات قليلة وقفت القشعريرة فقالت وهي كالتائهة :

— شكراً لك ، وأنا الآن على أحسن حال .

كانت هذه الكلمات إيذاناً لي بالانصراف ، ولكنني لم أصنع لها . وقلت في لهجة الاعتراض :

— لا أستطيع أن أتركك على هذه الحال من المرض ، وأنت تعرفين أنني ممرضة . فاسمحي لي أن أبقى معك فترة قصيرة .

فهزت رأسها في إشارة رفض مريضة ، ولكن كتفيتها لم تلبث أن مالتا متعبتين . وقالت :

— نعم . أرجو أن تبقى معي . لا تتركيني وحيدة . لابق معي حتى ... الصباح .

قلت :

— ألا ترقدين وقسمحين لي بأن أريحك ؟

فقالت الشابة وكان صوتها الألم الجسم :

(٢)

وما شمت كلمات الشابة المنكوبة حتى طوقها
بساعدى وصحت فى لهجة المواساة والحنو :

« عزيزتى ! »

وعادت هيلارى تنسج نسيجاً جافاً لا يصحبه
دمع حتى ليخيل إلى الإنسان أنه يمزق قلبها قطعاً
وقلت لها فى لهجة الرجاء :

— حدثيني بأمرك يا هيلارى ، فى الكلام
تفريج عن نفسك

فقلت فى صوت متوتر مخمق :

— ولم لا أتكم ، ليس فى تاريخ حياتى ما يعد
أمراً خاصاً أحاول إخفائه ، فلقد قرأ كل من أراد
قصتي منشورة على صفحات الجرائد ، فلماذا أخفى
عن إنسان واحد وجه الحقيقة فيها ؟

وبدأت هيلارى تذرع أرض الغرفة من جديد
جيئة وذهباً ؛ وكانت عينها مسبلتين وشفتاها
ترتجفان وقد لاحظتها بينما عادت ذاكرتى إلى الماضى
مسرعة تستعرض ما قرأته من قصة هيلارى لى
وما قرأته بلخص فى أن هيلارى كانت الابنة
الوحيدة لرجل غنى . وكانت بتيمة الأم منذ طفولتها
وكانت فتاة جميلة صلبة الرأى ، تملك المال الزائد جداً
على حاجتها . وقد أذيع أنها خطبت ثلاث أو أربع
مرات ، وقيل إنها هجرت أحد خطابها فى اليوم
الذى حدد لعقد الزواج

وقد شغلت الصحف وقتاً ما صفحاتها الأولى
بقصة حب هيلارى للشاب الجميل الذى كان يشغل
عند أبيها مركز رئيس الركيبه وهى قصة قصيرة
مكفهرة ، ولقد فصل أبوها هذا الموظف من عمله
وأمرع فصحب ابنته فى رحلة فى أرجاء العالم المختلفة
وبذلك تلاشت قصة ذلك الغرام

— تريحينى ؟ وهل أعرف الراحة بينما هو
ينتظر الموت ؟

ثم وثبتت ووقفت على قدميها ، وشرعت تذرع
أرض الغرفة ذهباً وجيئة . ثم وقفت أمامى على حين
فجأة ، وكانت عينها فى نظرى كالجريتين المتقدتين .
وكان صوتها وهى تتكلم أشد فظاعة من عينها ،
وقد قالت :

— إنهم سيشنقونه غداً . وليس فى يدي من
شئ أستطيع عمله لإنقاذه . . . نعم لا شئ على
الإطلاق !

فسألتها فى صوت بالغ فى الرقة :

— أو تحبينه ؟

فأجبت :

— أنا هيلارى لى

عندئذ أدركت سبب جزعها وآلامها
فقد قرأت ما كتب عن جناية القتل التى اقترفتها
كريج ، كما قرأها كل من يطلع على الصحف ، فقد
شغلت الصفحات الأولى من الجرائد أشهراً طوالاً ،
وفى أول الأمر تكرر اسم هيلارى لى عدة مرات
مقترناً بالظروف التى أدت إلى الجريمة ، ولكن فى
القسم الأخير من المحاكمة اختفى هذا الاسم فلم يسمع
به أحد

نشرت قصة غرام هيلارى لى القصيرة على
جمهور متمطش للأخبار المثيرة ، وأضيفت لها الحواشى
التي تزيد الرغبة فى قراءتها ، ولكن قصة هذا الغرام
انتهت وطويت صفحتها قبل حادث القتل بزمان طويل
ولم يستطع القانون ولا الصحافة أن يجدا أية حلقة
تربط بين حب نيكولاز كريج لهيلارى وبين قتله
امراته ليلي

لقد جعلت الصحف من حبنا « أنا ونيكولاز » شيئاً رخيصاً فاجراً ، ولكنه في الواقع لم يكن كذلك فقد كان نيكولاز يشرف على خيل أبي شهوراً عديدة قبل أن أحبه ، ولم يكن في نظري غير واحد من الموظفين العديدين الذين يعملون في اصطبلات أبي ، على الرغم من أننا قد ركبنا معاً مرات عديدة ، إلى أن جاء اليوم الذي ذهب فيه لمقابلة أبي في بيتنا الريني بنيو فرست وقد طلب أبي منه أن يصحبني في السيارة إلى ذلك البيت

ولما اقتربنا من منتصف الطريق داهمتنا عاصفة هائلة

فتركنا السيارة وعدنا على الأقدام تحت المطر المنهمر إلى كوخ على مقربة من الطريق كان نيكولاز قد لمح . وطرقتنا باب الكوخ ولكننا لم نسمع لطرقتنا جواباً ، ولم يكن هناك من مكان آخر نستطيع أن نأوى إليه اتقاء المطر ، لذلك عاج نيكولاز قفل الباب بسكين ففتحه . وأسرع فأشعل النار وبخشنا في المكان فوجدنا ملابس جافة ، ولم أكن قد رأيت نيكولاز قبل هذا اليوم في غير ملابس الركوب فلما رأيته يرتدي سراويل من الصوف الأبيض وقيصاً من الصوف الأزرق رأيته إنساناً آخر بخالفاً للذي كنت أراه

وطبخ نيكولاز لنا عشاء من بعض المأكولات المحفوظة في العلب التي وجدناها في أحد الأصونة ، وكانت العاصفة لا تزال في عنفوانها ، وخيل إلينا أنها تشتد عنفاً مع توالي ساعات الليل ، وكان المطر يطرق النوافذ في شدة ، وكان عصف الرياح أشبه بولولة مجموعة كبيرة من الشياطين وقال نيكولاز :

وحدث بعد ذلك أن أباه ادوارد لي فقد ثروته ما بين عشية وضحاها نتيجة معلومات خاطئة اتصلت به في أعماله ، فلم يستطع الرجل احتمال التفكير في حياة الفقر فاتحرف في غرفة مكتبة بيته في «سوري» وعادت الصحف مرة أخرى تذكر اسم هيلاري في رؤوس صفحاتها

وبعد ذلك تركتها الصحف مطمئنة فترة من الزمن إلى الليلة التي فيها أطلق نيكولاز كريج الرصاص على زوجته في مسكن بوست أند

كان نيكولاز كريج وزوجته متباعدين منذ سنوات ، لم يستطع أحد أن يكشف قط عن السبب الحقيقي لارتكاب الجريمة ، فعادت الصحف إلى ذكر قضية غرام هيلاري لي ولكنها لم تستطع أن تجد هيلاري لي

ولقد تخيلت هيلاري فتاة متفطنة حرجية القلب ، أول تفكيرها وآخره وكله في نفسها ، وكان من الصعب أن أصدق أن السيدة الشاحبة اللون ذات العينين السوداوين اللتين تنبعث منهما آلام المذاب النفسى هي حقاً هيلاري لي المشعوذة الخداعة ثم بدأت الفتاة تتكلم في جل قصيرة مقتضبة كما لو كانت كل كلمة تنطق بها قطرة جديدة من الألم الصارخ تعصر من قلبها ، وكانت وهي تتكلم تذرع أرض الغرفة بخطواتها ، ولقد سبق لي أن رأيت حيواناً محبوساً في قفص يخطو مثل هذه الخطوات اليائسة

ولم أقاطعها في أثناء حديثها ، بل جلست أصنى لها وقلبي يتفطر تالماً لها مع كل كلمة تنطق بها . وهذا ما قالته :

— يدولي أنك مقرورة فدعيني ألف هذا الدثار
حولك .

ووضع الدثار على كتفي فابتسمت له ، فإذا به
يضميني على حين فجأة بين ساعديه ، واندفع يقبلني
قبلات ما عهدتها من رجل قبله ... قبلات جائعة ...
كما لو كان ذا مسغبة من الحب

ولقد تعلقت به وقلت في نفسي : « إن هذا هو
الحب ، وإنني لم أعرف قط ما هو الحب حتى هذه
اللحظة »

لم أعد أشعر بشيء من البرد فلقد كنت
ألهب بنار سرور غريب ، فتركت له شفتي وقلبي
ونفسي ، وقد رأيت أن حق الحياة يقضى بأن
أكون معه في ذلك المكان أغمره بحبي ، بل بدالي
أن ذلك أحق من كل شيء آخر عملته في حياتي
ولما أشرق الصباح أشعل نيكولاز النار وأعد
لنا قهوة قوية . فلما انتهيت من شرب فنجانتي
ابتسمت له في كثير من الإعجاب ، فلقد كان الرجل
الذي لا تملك امرأة نفسها دون الإعجاب به والافتخار
بقربه . كان طويل القامة يقرب طوله من ستة أقدام
عريض المنكبين دقيق الوسط والردفين ، وكان
شعره الكثيف الجمعد في لون القمح الناضج . رمادي
المينين واسعهما في وجه قوي تزينه سمرة مبهجة ،
ورد نيكولاز على ابتسامتي بابتسامة عذبة رقيقة ،
فلمحت بريق أسنانه البيضاء القوية
وصحت في لهفة :

— لنزوج يا عزيزي بأسرع ما تستطيع ،
وسنخبر أبي بزواجنا بعد عقده ، فإذا هاج غضبه
— وهو لا بد أن يهيج — فلنمش بعيداً عنه حتى
يمود إلى نفسه ويهدأ غضبه

وما كدت ألفظ بهذه الكلمات حتى اختفت
ابتسامة نيكولاز ورأيت شفتيه تنطبقان في خط
متجهم عابس ، وقال :

— إنني متزوج بالفعل يا هيلاري
وسمعتني أقول صائحة :

— لا ، يا نيكولاز لا لا !

ولكن خيل إلي أن الصوت الذي يصيح بهذه
الكلمات لم يكن صوتي المألوف
فاقترن حاجباه في تقطية عمزنة وقال في صوت
يقطر منه الألم :

— إنني متزوج منذ أربعة أعوام ، ولم أكن
إلا طفلاً عند ما التقيت بيلي ، وكانت راقصة في أحد
المنتديات الليلية ، فخيل إلي أنني أحببتها ، ولست
أدري لماذا تزوجت مني فقد ملت معاشرتي بعد بضعة
أشهر من الزواج

ثم ازدادت غنة الألم في صوته وهو يقول :

— أنا لست إلا زوج المصادفة ، فإننا نعيش
أحياناً بعيدين أحداً عن الآخر أشهراً عديدة متتابعة ،
ثم نرسل إلى فأوافيها - كالكلب الذي يسير في كعب
صاحبه .

فسألته في بلاهة :

— هل تحبها ؟

فأجاب :

« لا - لا أحبها الآن ، لا أحبها بعد الليلة
الماضية

فصحت محتدة :

— كان يجب أن تقول لي ذلك في الليلة الماضية
فضميني بين ساعديه وقال :

— لقد كانت الليلة الماضية جنوناً - جنوناً عذبا

فقال في بطاء :

— لقد ظننت أنك أحببتني ، بل لقد كنت
واقفاً أنك أحببتني في الليلة الماضية .
فقلت غاضبة وقد سحبت معطفي :
« فلتنس ذلك »

وحين وصلنا إلى بيتنا الريفي انهال أبي على
نيكولاز بكلمات الغضب العنيفة . ثم أزعجني أن
سمعت نيكولاز يرد على أبي صائحاً بأنه قد أحبني
واتصل خبر هذه المشادة بالصحف فخلقت منها
قصة كبيرة ، وقد أعادني أبي إلى لندن في تلك الليلة
نفسها وبعد يومين ركبنا الباخرة في رحلتنا العالمية
ولم أحاول أن أكتب لنيكولاز قبل سفرنا
فقد كنت لا أزال أشعر بالجرح الذي أصابني وكنت
في حيرة شديدة

وفي أقل من أسبوع في البحر فقد قلبي ما أصابه
من جود وعاد يشعر بالألم ، فأدركت أن نيكولاز
قد أحبني حقاً وأنتى كنت قاسية في صرفه من غير
كلمة أزوده بها

لقد عرفت أننا لن نكون أبداً أحداً للآخر ،
فهو قد أحب ليلى على طرازه إلى الليلة التي أحبني
فيها ، ولقد نارت نفسي على فكرة الطلاق
وسهرت ليلة كاملة في الكتابة إليه ، فقلت له
في كتابي إنني أحبته ، وإنني لن أستطيع أن أنساه
أبداً ، وتذكرت غيبوبة حبنا وسألته أن يذكرني
دائماً ، وختمت الكتاب بأن طلبت منه ألا يراني
بعد ذلك

وضعت هذا الخطاب في صندوق البريد بأول
مرفأ رسونا فيه . ترى لماذا تضع النساء قلوبهن على
صفحات الورق ؟ لماذا يكتبن كلمات قد تهلك الرجل
المرسلة إليه ؟

جديداً على يا عزيزتي . وإنك لنجيم من السماء ياهيلاري
ولقد صعدت إليك ولستك . ولن أكون أبداً بعد
ليلة أمس كما كنت من قبل ، لقد ضمت بين ساعدي
النار والثلج وتربة النجم . ولن أدعك تتركيني أبداً
ويجب أن تطلقني ليلى ، فهل تزوجين مني متى أصبحت
حرّاً طليفاً ؟

ولكنني قد جرحت في عواطف جرحاً بالغاً
قاسياً ، فقد كان الفتى رجل امرأة غيري .

فصحت وأنا أجاهد للتخلص من بين ساعديه :
— لا ، لا أنا لا أريد زوج امرأة أخرى ،
لقد كنا مجنونين في الليلة الماضية . نعم كنا مجنونين
وقمنا في شرك الغرام . أما في هذا الصباح فقد عاد
إلينا صوابنا . فلتنس ما كان يا نيكولاز ولنبدأ من
اليوم حياة جديدة

فاقترب مني وتناول وجهي بين كفيه وقبلني
في رقة ولطف وسألني :

— أتمتقين حقاً يا عزيزتي أننا نستطيع
نسيان الليلة الماضية ؟ لقد تذوقت عذوبة تربة النجم
ياهيلاري ، فلن أقنع بعد الآن بما هو دونها .
وسيأتي اليوم الذي تصبحين فيه لي دون سائر الناس
فقلت له في خشونة :

— لا فائدة فيما تقول يا نيكولاز فلن أزوج
منك أبداً ، وسأنساك ، ويجب أن أنساك . وكأن
ما حدث ليلة أمس لم يحدث قط ، وإنني لا أريد أن
تجري الأمور بيننا على هذا الأساس ولنعد الآن
إلى السيارة

ثم قلت في لهجة وحشية :

— من يدري إن لم يكن القلق قد بلغ بأبي
في هذه اللحظة حد الجنون !

قضيت وأبى حوالى ثلاثة أشهر فى رحلتنا بعيدين عن لندن؛ فلما عدنا إلى دارنا لم يمض علينا أسبوع واحد حتى فقد أبى جميع ثروته واختار أسهل الطرق للخروج من نكبته

تولانى اليأس فى الأشهر الأولى بعد موت أبى، وكان لى قليل من المال ورثته عن أمى، فاخفيت عن العالم وعن أصدقائى إلى أن التأمت جروحي قليلاً وبعد عام من موت أبى استخدمت قسماً من مالى فى أحد حوانيت الملابس بمانشيستر، ودخلت العمل باسم مستعار واجتهدت جادة فى استهلال حياة جديدة وفى يوم من الأيام جاءت ليلى لمقابلتى. ولقد عرفتها منذ اللحظة التى وطأت فيها قدمها أرض الحانوت، عرفتها قبل أن تقول: «وأنا ليلى كريج فهل أستطيع أن أراك على انفراد؟»

كانت المرأة جميلة مكثرة من الصباغ، وقد أحالت شعرها إلى لون البلاتينيوم ولكن جذوره بقيت سوداء، وقد تصلبت حواجبها بما استعملت من مواد، وفى الجملة كانت ليلى شريرة رخيصة المدن وقة

أجبتها:

«ألك أن تدخل إلى مكتبى؟»

فلما أغلق علينا الباب رمقتنى من قمة رأسى إلى إخص قدى وعلى فيها ابتسامة عريضة وقة. وقالت وقد دخلت مباشرة فى الموضوع الذى جاءت من أجله: — مى كتاب قد تحبين أن تشتريه. فقد نزل

بى أنا ونيكولاز فى الأيام الأخيرة شىء من العسر المالى، فنحن أشد ما نكون حاجة إلى المال فتذكر زوجى هذا الكتاب الذى بعثت به إليه فى يوم من

الأيام وظن أنه قد يساوى عندك مائتى جنيه وأخرجت من قنطرها كتاباً رأيت على غلافه طابعاً أجنبيًا والكتابة التى عليه من خط يدى... وقالت المرأة وهى تبسم ابتسامتها الوحقة:

— إن فى هذا الخطاب مادة ساخنة، فهل يعجبك أن تنشر محتوياته على الجمهور؟ وهل تحبين أن أقرأ لك تذكرة بما فيه؟

فأمسكت بجانب المكتب ورأى لأسند نفسى وصحت بها ألا تقرأ شيئاً من الخطاب الذى شخص به نظرى وهى ممسكة به فى وجهى. لقد أحببت رجلاً فى وقت من الأوقات... أحبته حباً كلياً وكل حى له كان مكتوباً على صفحات هذا الكتاب. والآن يرسل هذا الرجل امرأته لتستبدل بهذا الحب نقوداً جامدة

ولقد سألت المرأة فى مرارة:

— لماذا لم يحضر نيكولاز بنفسه؟

فضحكت وقالت:

— نيكولاز عامل فقير مسكين

ولقد شعرت كأن شفتى قد بردتا وتجمدتا حين قلت:

— أنت تطلبين مائتى جنيه ثمناً للكتاب؟

أجابت المرأة:

— هو ذاك!

فشعرت بأن مرجل الغضب يغلى داخل نفسى وفكرت لحظة فى أن أتناول سماعة التليفون وأدعو رجال البوليس، ثم خيل إلى أننى أرى تلك الكلمات التى كتبها بخطى منشورة على صفحات الجرائد فلم أحتمل هذه الفكرة وقلت:

— سأشتري الكتاب

في الساعة الخامسة مساء
وقد وجدت رقم تليفون نيكولاز في دفتر
التليفون فلما طلبته كان هو نفسه الذي أجاب النداء
فقلت له :

« لا بد لي من أن أراك »

فصاح صيحة أستطيع أن أقسم بأن غنة الفرح
فيها كانت حقيقية صادقة وقد قال :

« أين أنت يا عزيزتي فسأحضر لك في الحال »
نخبزته باسم الشارع ورقم المسكن وفي أقل من
عشرين دقيقة كان معي

فما كدت أراه وأسمع صوته حتى بدأ قلبي يدق
دقاً عنيفاً حتى يخيل إلي أنني سأختنق

ولقد رأيت في عينيه نشوة الحب حين صاح :
« هيلاري حبيبتي إنني لم أجسر قط على أن
أؤمل في هذه السعادة ، لم أجسر قط على أن أؤمل
في أن ترسلي إلي يوماً من الأيام
فقلت في حرارة :

« إجلس يا نيكولاز ولننته من هذا الأمر ،
فأنا هنا لأشتري صورة كتابي ، فكم تطلب ثمناً لهذه
الصورة ؟ »

لم أكّد ألفظ بهذه الكلمات حتى رأيت أمارات
الدهشة والارتباك تملأ وجهه ، وقال في حدة :

« إنك لم تخبريني عم تتحدثين »

نخبزته بما حدث في بضع جمل قصيرة صريرة ،
قلت في ختامها :

« ولقد دفعت لأمرك بالفضل مائتي جنيه وأريد
اليوم أن أنهي الصفقة معك »

وهنا علا اصفرار الموت وجهه نيكولاز ، وقد

كان في خزانة مكتبي ما يزيد قليلاً على مائتي
جنيه ، فعددت المائتين ووضعتها على المكتب ،
فوضعت هي الكتاب إلى جانبها ثم أخذت الأوراق
المالية فعدتها في تأن ووضعتها في قطرها . ولم أكن
حتى هذه اللحظة قد لست الكتاب ، إذ لم أحتمل
لسه وهي معي في الغرفة

ومشت المرأة إلى الباب ثم وقفت وقالت مكررة
ابتسامتها الفاجرة :

— إنك لطيفة جداً في المعاملة فهل من رسالة
أحملها إلى نيكولاز ؟

قلت :

— لا رسالة له عندي

وترددت المرأة لحظة وهي ممسكة بأكرة الباب
ثم قالت :

— بهذه المناسبة أرى أن أخبرك بأن لدينا
صورة فوتوغرافية لهذا الكتاب ، فإذا أعسرنا
مرة أخرى فإنني أخشى أن أضطر عندئذ للعودة إليك
ثم اختفت وراء الباب

فالتقطت الكتاب وبدون أن أخرجه من غلافه
مرفقه إرباً

وكانت الأيام التي أعقبت هذا الحادث أشبه
بكابوس فظيع . ففي كل يوم يشرق علي كنت
أخشى أن تمود . وكلما دق جرس التليفون توقعت
أن أسمع صوتها . ولما لم أعد أحتمل عذاب الانتظار
قصدت إلى لندن لأشتري صورة كتابي الفوتوغرافية
ذهبت مباشرة إلى مسكن صديقة قديمة وكانت
قد خرجت في الساعة العاشرة لقضاء بعض حاجتها ،
فكان المسكن تحت مطلق تصرفي إلى أن عادت

فأجابني واعدأ :

— أبدأ يا حبيبتى .

مرت الساعة وأنا ممسكة بالسعادة بين يدي أحاول يائسة ألا تفلت منهما ، وحتى في هذا الموقف بين ساعديه القويتين كنت أشعر شموراً باطنياً بأن هذه هي آخر ساعة ألقاها فيها .

وقبل أن يتركني وكد لي أنه سيجد طريقة للحصول على صورة الكتاب . وقال في لهجة الوعد الصادق :

— فحي لن تؤذيك أبداً بعد الآن يا حبيبتى .
ثم قال :

— إنني أعرف كيف أعاملها ، وسأحملها الآن على أن تترك لي حريتي بالطلاق ، ويجب ألا يكون لك أي نصيب في الموضوع . فأنت نجمتى السماوية ؟ فلنمدين بأن تبقى بعيدة مهما حدث من أمر .
فوعده ، فقبلني وانصرف .

وعدت إلى مانشستر في الليلة نفسها .

يا لله ! كم تمنيت لو أنني لم أتركه .

لقد انتظرت طوال اليوم التالي أن تأتيني رسالة

منه ، وقد حملت إلى "صحف المساء" الرسالة التي كنت أنتظر . لقد قتلها في مسكنها ثم سلم نفسه للبوليس .

وإنني لأعرف الآن أنه فعل ذلك في ثورة غضبه حين عنفته بكتابي ورفعته في وجهه وتحدثه أن يجسر على الاقتراب منها لأخذه .

ولقد أخذه فعلاً وأعدمه قبل أن يحضر رجال

البوليس .

أخذت أول قطار إلى لندن وذهبت مباشرة إلى

أسودت عيناه من شدة الغضب ، وانتشل من جيبه الداخلي حافظة نقود رقيقة ، وفتح أحد جيوبها الداخلية ، فلم يلبث أن أحرق بصره بها بينما بدا الجزع في عينيه ، وقال :

« أنا أعرف أنها شيطانة ولكنني لم يخطر لي قط أنها تفعل ذلك ، لقد ضاع الكتاب ، وأحسب أنها قد استعانت ببعض أصحابها خفاف الأيدي على سرقة »

فصحت :

« ألم ترسلها إلى "لتبيعي الكتاب" ؟ »

فأعاد حافظة نقوده إلى جيبه ، وفي أسرع من لمح البصر انتقل إلى جانبي وطوقني بساعده وقبلني قبلات عنيفة وقال جواباً على سؤالى :

« إنى أحبك »

ثم صاح وقد أحكم تطويقى بساعديه

« سأقتلها من أجل ذلك »

فقلت راجية :

— لا تقل مثل هذا الكلام . فما أبالي ما حدث

وكل ما يهمنى أن أرانى مرة أخرى بين ساعديك يا حبيبتى

— ما كان أشد شمورى بالوحشة لبعديك ، وكم

من مرة حملت بك ! وما كان أشد تشوقى لرؤيتك ؟

إننى لم أعش قط معها ، حتى ولا ساعة واحدة بعد

تلك الليلة التي قضيناها معاً . فإني كنت لأتخذ امرأة

غيرك ؟ فإني كنت أنجمتى التي بها أهتدى يا حبيبتى .

فقلت :

— لا تتركني أبداً يا نيكولاز ؟ فما أريد أن

أفترق عنك .

معروف تقديمه له هو أن تبقى بعيدة عن هذه القضية »

وكان مستر لاين يحمل رسائل نيكولاز إلى ويحمل رسائل إليه. ومما قاله نيكولاز : « إن نجوم السماء لا مكان لها في السجون ولقد وعدتني بأن تبقى بعيدة عن هذه المشكلة »

انتهت المحاكمة إلى نتيجة سريعة ، وقد سدمنى القرار صدمة شديدة وإن كنت قد توقعته من أول الأمر . فقد كيفت الجريمة بأنها نتيجة الغيرة ، وقال نائب الاتهام : إن نيكولاز قد ذهب إلى ليلى رجوها أن تعود إليه فلما رفضت أطلق عليها النار في ثورة الغيرة التي ملكت نفسه

وبعد أن صدر الحكم عليه حضرت إلى هذا المسكن حيث كنت واثقة أن ليس هناك من يعرفنى . ولقد أردت أن أستهل حياة جديدة إذا أمكن إنقاذ نيكولاز

وكنت كلما مررت الأيام تعلق بالآمال تعلق جنون ، أما الآن فلم يبق لى شىء حتى ولا الأمل . ولقد كنت أشعر واثقة بأنه سيرسل إلى لأراه مرة أخرى ولكن ما هي ذى الساعات الأخيرة تمضى مندفعة في سرعتها ؟ وهو هناك ينتظر الموت الذى يوافيه صباح الغد . وأنا هنا على مسافة أميال عديدة منه أحاول أن أعيش خلال ساعات الليل الفظيعة المزعجة وسيكون الصباح نهاية كل منا ، فما أستطيع أن أحييا بعد موته ، ولن أحاول أن أبقى على قيد الحياة . وما أستطيع أن أتركه يموت وحده ، وما هي قيمة الوعد الآن ؟ يجب أن أذهب إليه ، ولا يزال (٢)

مستر لاين المحامى الذى كان يتولى أعمال أبى . فقلت له والزفرات تقطع حديثي :

— يجب أن تنقذه . فقد فعل ذلك من أجل ، ويجب أن أذهب إليه فهو بحاجة إلى : فقال مستر لاين فى حزم :

— يجب أن تبقى بعيدة عن هذا الأمر . فإنك لن تفيديه شيئاً باندفاعك إليه الآن ، بل لملك بذلك تضربن قضيتك . فاركبى القطار التالى عائدة إلى مانشستر ، وسأعمل يا هيلارى كل ما أستطيع لإنقاذه فقالت راجية :

— أرجو أن تكون دائماً على اتصال بى ؛ فبمضى بعض المال وسأنفق كل ما أملك فى الدفاع عنه فوعدنى المحامى بقوله :

« سأبذل كل جهدى لمصلحته ، وسأتصل بك يومياً »

وهكذا عدت إلى مانشستر ، ولكننى علمت أن فترة اطمئنانى القصيرة قد انتهت ، وأنه يجب أن أعود مرة أخرى إلى الاختفاء

وكانت شريكى فى التجسس راغبة أشد الرغبة فى ابتياع حصتي فيه ، فبعتها هذه الحصة وأرسلت ثمنها إلى مستر لاين لإنفاقه فى الدفاع عن نيكولاز ، ثم اختفيت من جديد

ولقد حاولت عدة مرات أن أرى نيكولاز ، ولكن محاولاتي ضاعت عبثاً ، فقد كان نيكولاز ومستر لاين متشددين فى رفض طلبى . وقال مستر لاين فى لطف :

« هو لا يريد أن تزوريه يا هيلارى ، وأكبر

في الوقت متسع لذلك إذا أنا أردت الذهاب

وتناولت حقيبة يدها من فوق مائدة صغيرها
وقتشها لتعرف ما لديها من النقود ثم قالت :
« يجب أن أحصل على مال أكثر من هذا .
وستقضي مني بعض المال فهل تضنين على بذلك ؟ »
وكانت عيناها براقتين جامدتين كالزجاج وقد
تقلصت عضلات وجهها في حال عصبية خفيفة ، وقد
لاحظت أنها على وشك الإغماء ، لذلك أمسكت
يديها الباردتين بين يدي وأسندتها بقوة وقلت في
لهجة حازمة :

— اسمي يا هيلاري لي . لقد وعدته وعداً ،
ويجب أن تحافظي عليه . ومنذ بدء الخليقة ضحى
الرجال أرواحهم في سبيل حبهم المرأة . ولني يتحمل
نيكولاز مرارة توديعك له . فآركيه يقابل الموت
كما يريد أن يقابله . دعيه يذهب وهو لا يزال يشعر
بنعيم القبلات السماوية على شفثيه ، وعظمة نجمته
أمام عينيه . صدقيني أنه يريد أن يلقي الموت على هذه
الصورة ...

فبدأت الفتاة تنسج نسيجاً عنيفاً وسألتني :
وأنا ؟ ماذا يكون من أصرى بعد موته ؟ ماذا
يكون من أصرى الغد وجميع الأيام التي تعقب الغد ؟
ألا فأعلمي أن ليس لي بعد الآن مكان في هذه الدنيا
وليس هناك من به حاجة إلي . فلقد كان هو الرجل
الوحيد الذي يعني بأصرى .

فقلت :

إن لكل منا مكاناً في هذه الدنيا ، ولكل منا

عمل يؤديه . فنحن جميعاً أعضاء في مجموعة الدنيا
المظيمة ، وستجد بين مكانك وعملك يا هيلاري لي ،
والأمر متوقف على شجاعتك وإيمانك
فأبجعت عيناها وقد ملثتاً بأنا إلى الساعة المعلقة
فوق الجدار ، وقالت منتحبة :

— لم تبلغ الساعة الحادية عشرة بعد ولا يزال
الوقت يسمح لي بالذهاب إليه .
فقلت :
— إنهم لم يسمحوا لك برؤيته
فصاحت في عنف شديد :

— اللهم رحمتك بي اللهم رحمتك به وبني جميعاً !
ثم وجهت إلى الحديث وقد ملثت عيناها رعباً
فقالت :

— ابقى معي ولا تتركيني وحيدة ، فإذا جاءت
ساعة التنفيذ فأمسكي بيدي وادعي الله أن يميتني
قلت :

— تعالى إلى مسكني ، يا عزيزتي ، فيكون
الأمراً سهلاً عليك في غرفة لم تتألم فيها مثل ما تألمت
في هذه الغرفة .
ثم طوقها بساعدي وقدها خلال الردهة حتى
دخلنا غرفة جلوسى فارتمت مترنحة على أحد الكراسي
وهي ترتجف في حال عصبية عنيفة :

فحملت حقيبة أدويتي وذهبت بها إلى المطبخ ،
فسخن ماء وصببت بعض الخمر في قده ، وأخرجت
من علبة في الحقيبة قرصين ألقتهما في القده ، فلما
ذابا صببت على الخمر الماء الساخن ، وعدت إليها
فوضعت حافة القده بين شفثيها وقلت في لهجة الأمر :

— اشربى هذا كله

قالت متوجعة :

— إبنى أشعر بالبرد الشديد

قلت :

— سيدفئك هذا

فجرت الفتاة كل ما فى القدر ثم وثبتت واقفة وعادت إلى حركتها الاضطرابية تذرع الغرفة ذهاباً وجيئة ، وكنت أرقبها عن كثب . وقد صاحت فى صوت مخفق فطبيع :

— تسع ساعات ... ألا خبرينى كيف أحتمل عذاب هذه الساعات التسع ! خبرينى كيف أحفظ بعقلي إلى الساعة الثامنة ... والموت !
فقلت وأنا أطوقها بساعدى :

— قوى نفسك يا هيلارى واجتهدى فى ألا تفكرى فى شيء

فأغمضت عينيها ومالت على متعبة وقالت همساً :
— أنا متعبة حائرة

ثم ارتجفت وهمست باسم نيكولاز ومالت إلى الأمام فأمسكت بها وحملتها بين ساعدى

وأنا امرأة قوية وكانت هى هزيلة ضعيفة فحملتها إلى غرفة نومي وأرقدتها على سريري ، وخلعت حذاءيها وجورييها وزعت ثوبها الخارجى وسحبت عليها غطاء السرير ، وكان تنفسها إذ ذاك هادئاً منتظماً ، وكنت أعلم أنها ستنام إلى ساعة متأخرة من الصباح ، ومن المحتمل أن تبغضنى متى استيقظت ولكنى قد حميتها العذاب الذى ينزل بها وهى ترقب عقارب الساعة تدنو من الساعة القاتلة

وسحبت كرسياً إلى جانب وجلست عليه أرقبها وكان وجهها أشبه بقناع من الشمع . وإذا كنت أعلم أنها ستنام ساعات عديدة فقد اختلست فترة أرحت فيها جسمى بقليل من النوم

ولما استيقظت كانت عيناها لا تزالان مغمضتين وكانت مستغرقة فى النوم . وساءلت نفسى لم لا تغفل روحها المعذبة من جسمها وتعرف بوسيلة ما غريبة طريقها إلى الرجل الذى أحبته فتواسيه فى ساعاته الأخيرة ؟ ورجوت الله أن يكون هذا هو الذى حدث لم يبق غير خمس دقائق حتى تبلغ الساعة الثامنة فأمسكت بيدها المترهلة بين يدي ، فقد وعدتها أن أفعل ذلك ، وشعرت بوحشة السكوت الرعب الذى يكسر القلب ... ثم دقت الساعة الثامنة فأحسيت رأسى ودعوت الله فى بساطة أن يبارك روحه

وما زالت هيلارى نائمة هادئة ، وقد ألفت أهدابها السوداء خطوطاً من الظلال على وجهها الأبيض النحيل

ودقت الساعة التاسعة ، فقلت فى نفسى :

— فلأبلغ بشيء من طعام الإفطار

ثم دق جرس التليفون فاخترقت الساعة قبل أن يدق مرة ثانية ، وسمعت التكلم يقول :
— أنا الدكتور مارتى . أيمكنك الحضور فى الحال ؟ عندى حالة وضع متعبة وأنا محتاج إليك فأجبت :

— نعم يمكننى أن أحضر حالاً

فقال الدكتور :

— مريضتي هي مسز باركز الصبية وسيحضر
إليك زوجها بعد خمس دقائق
ارتديت معطفي وقبعتي وذهبت إلى غرفة النوم
فألقيت نظرة على هيلاري لي فوجدت نومها عميقاً
في غرفة نومي فهل لك إذا أنا لم أحضر في الساعة
الأولى أن تعني بأمرها ؟
فأجابت مسز ميل :
— سأحمل لها بعض الحساء إذا لم تعودى



هادثاً . فهبطت إلى الطابق الأول وطرقت باب
مسز ميل ففتحته بنفسها ، فقلت لها :
— أنا مضطرة للذهاب إلى مريضه متعبه ،
وكانت مسز فرانكلن قد شمرت بالمرض وهي في
خرجت إلى جو الصباح القارس فوجدت
سيارة أجرة في انتظاري فركبتها إلى جانب مستر توم
باركز الشاب ، فقال لي في صوت أجش مرتجف :
— ماري مريضه جداً

فنظرت مسرعة إلى وجهه المتعرج وحاولت
مواساته فقلت :

— لا تنزعج يا نوم

لم يعض على زواج نوم من ماري أكثر من
سنة أشهر وكان زواجاً إجبارياً وقد سمعت أنهما
تعاركا عراكاً عظيماً وأنه هدهدها أكثر من مرة
بأن يتركها

ولم تكن المسافة بعيدة بين بيتي والبيت الصغير
الذي يسكنه باركرز ، فدخلت إلى الدار مسرعة
وصعدت السلم الضيق إلى غرفة النوم حيث وجدت
الدكتور مارتن منحنيًا على السرير فلما رأيته قال :
— حمدًا لله إذ حضرت يا سيدتي الممرضة ،
فإن الشابة ضعيفة جدًا ، وليس في مقدوري أن
أجعل الولادة طبيعية

وكنت أعرف ما يجب أن أعمل فبدأنا عملنا
في سرعة وسكون حتى إذا سلمني الدكتور طفلاً
قويًا باكياً قال لي في صوت متوتر :

« لا تهتمي الآن بأمر الطفل ، فكل جهادنا
الآن في سبيل إنقاذ الأم »

وبعد عشر دقائق قضيناها في جهد يائس التقت
عيوننا على الشابة ماري وقد جمدت حركاتها ، فهزرت
رأسي وقلت :

« لقد ذهبت إلى العالم الآخر »

ولما رفع الدكتور مارتن كتفيه المتعبتين رأيت
وجهه أغبر مجهداً ، وقال في بلاء :

« لقد كانت صغيرة جدًا لمثل هذا الموقف ،
لقد كانت هي نفسها طفلة »

ثم وضع يديه على عيني ، فقلت مسرعة :
« إنك متعب يا دكتور »

فهز رأسه وقال :

« لقد قضيت في هذه العملية الليلة كلها ، وقد
جئت إلى هنا مباشرة بعد عملية أخرى شاقة »
فقلت :

« إنك لن تستطيع عمل شيء آخر هنا ، فعد
إلى بيتك وحاول أن تنام »
فهز رأسه متعباً وقال :

« نعم ... أظنك على حق ، مسكينة هذه الطفلة
لقد تخليت لو استطعت إنقاذها »

ثم مسح شعر ماري بأصابعه في لطف ؛ ثم سار
إلى الباب . وقال :

— أنا ... ألك أن تخبري نوم ؟

فقلت :

— سأخبره يا دكتور .

وهبط الطبيب السلم الضيق ، وسمعتة يستقل
سيارته ويسير بها ، فسويت شعر الميثة ، وعشقت
ساعديها على صدرها ، وضجبت الغطاء على جسمها
الصغير .

وقلت في نفسي :

— مسكين هذا الطفل لقد كان خيرًا له لو مات
هو أيضًا .

دقت الساعة الحادية عشرة فأخرجت الطفل
من الدثار الذي لففته فيه ، وشرعت أدلك جسمه
بالزيت الباقى ، وكان صبيًا لطيفًا قويًا .

فتحت الباب ودخل نوم باركرز فال في تشاقل
إلى الجدار وسألني في همس أجش وقد ملأ الجزع
عيني :

— هل ماتت ماري يا عمة سارة ؟

فغطيت الطفل مرة أخرى وذهبت إلى حيث

وقف أبوه وقلت له في لطف :

— نعم يا توم، قد ماتت ماري ولكنها قد تركت لك طفلاً ذكراً لطيفاً

فكانه لم يسمع ما قلت له فقال :

— لا بد أن أذهب إليها

ومشى بترنح متجهماً إلى السلم

وذهبت إلى المطبخ فوجدت إبريق الشاي على

الوجاق فلأت قدحاً وشربته شاكرة

وبعد فترة قصيرة هبط توم السلم مبطناً وكان

وجهه الصغير مجهداً ، فقال منهيّاً عبارته بتهد

عميق :

— هي راقدة جامدة لا تتحرك !

ولقد حاولت أن أواسيه ولكن لم أعرف كيف

وبدأ الطفل يبكي عند ما حملته ووضعته على

ساعدي توم قائلة :

— أحمله حتى أسخن بعض الماء ، وإنه لطفل

كبير يكاد يبلغ وزنه تسعة أرطال

ووقف توم أول الأمر يحمل الطفل حائراً ،

ثم رفعه إلى قرب كتفيه وضمه إلى صدره وأخذ يهينه

ويطمئنه بقوله إنه أصبح في حضن أبيه . فسكت

الطفل عن البكاء ، وبدأ الأب يظهر إعجابه بولده

وذهبت إلى المطبخ فأعددت شايًا جديدًا وجئت

بقطع من الخبز المقدد وعدت إلى توم وألححت عليه

أن يأكل شيئاً ولكنه هز رأسه ، ومد إلى يديه

بالطفل ثم اندفع على حين فجأة في البكاء وقد تقلصت

عضلات وجهه وقال :

— يجب أن أتكم مع أحد من الناس يا عمة

سارة !

فجلست أحمل الطفل بين ساعدي وقلت :

— تكلم معي يا توم

فجلس أمامي وقد تقلصت أصابعه الشبكية بعضها

ببعض حول ركبته حتى لقد ابيضت مفاصلها .

وانهمرت الدموع على خديه وبدأ يقول في حزن

عميق :

— إنني لم أحبها قط ، وإنه ليحزنني أن أقول

ذلك وهي راقدة في سرير الموت ، ولم أكن راغباً

في الزواج منها ولكن لم يكن من ذلك بد من أجل

الطفل وكنت أنا المولوم . ولم نكن كلانا نرغب في

الطفل المنتظر ، فكنا صغيرين جداً فلم يكن ينبغي أن

يكون لنا طفل فأنا لم أبلغ العشرين بعد وكانت هي

في السابعة عشرة وبعد أن تزوجنا وعشنا في بيت

واحد أبغض أحدهما الآخر بغضاً شديداً ، وكنا

نشاجر كل الوقت ، ومن أتعس الأمور أن يعيش

إنسانان معاً وهما متباغضان مثل بغضنا

— ولقد اجتهدت أول الأمر أن أكون لطيفاً

في عشرتها فقد كان يحزنني أمرها . ولكنها لم تكن

تترك لي فرصة الاستمرار في اللطف ، لقد أبغضتني

لأنها كانت تترقب أن تصبح أما . لقد كانت صغيرة

وجيلة وكانت تود أن تسعد بأيام شبابها . وقد اعترمت

أن أتركها وأرحل بعيداً على أثر الولادة ، وقلت لها

ذلك أمس فقط .

قلت لها : إنني سأثب بعيداً عنك

وإني لأسف الآن أن قلت لها ذلك . ولقد

عبرت لها عن هذا الأسف منذ لحظة وهي على سرير

الموت . ولكنها لم تسمعني . فهي لن تعرف بعد

الآن أنني أسفت على ما قلت .

وحبست التنهيدات صوت الفتى فوضع يديه على عينيه

فلما نظرت إليه تألم قلبي لحاله ... إنه حقاً لفتى

بضعة منى ، ولن يأخذه أحد من بين يدي «
فقلت معترضة لعلمي بقلة الأجر الذي يتقاضاه :
— ولكن كيف تربيته يا نوم ؟ كيف تستطيع
أن تعني بأمره ؟

فأجاب في صوت ملؤه الجذ :
— سأجد طريقى إلى ذلك ، وقد اعترمت ألا
أبعده عن بيتى . سأجد المرأة التى تحضر إلى هنا
مقابل الأكل والسكن . امرأة تعنى بابنى العناية
التي أريدها ، فهل تساعدني يا عمة سارة في البحث
عن مثل هذه المرأة ؟

وكانت عبارته الأخيرة مشبعة بلهجة التوسل
والرجاء .

وعلى حين فجأة كشف الأمر أمام عيني وحلت
عقدة الخيط الربك ، ووجد المكان والعمل لمن هي
أشد ما تكون حاجة إليهما . فقلت في لطف :
« إنى أعرف امرأة قد تقبل مسرورة أداء هذه
المهمة »

فقال الفتى متأنياً في حديثه :
« لقد قلت الآن إنه حينما كانت ماري فإنها
ستعلم بأننى آسف على ما قلت ، فأظن أننى لو حملت
ابنى الآن إلى حيث هي راقدة ساكنة فسترانا معاً
وستعلم أننى لا أبغضه »

فسألته :
« أريد أن أصمد معك »
أجاب :

« لا ... فإنى أفضل أن أذهب وحدى »
وفي الساعة الأولى جاءت إحدى الجارات لتبقى
مع نوم ريثما أذهب إلى بيتى ثم أعود . ثم خرجت
إلى جوف قبر القارس

تميس ! ليس له أهل يحيطون به ، فهو مخلوق وحيد
لا صديق له وبين يديه طفل عليه أن يعنى بأمره .
فقلت :

— لقد كنت أنت ومارى صغيرين جداً بالنسبة
للزواج . وأنما في الواقع لم يبغض أحداً كما الآخر
ولكنكما كنتم تآثرين على الحياة ، ولو أنها عاشت
لصلحت الحال بينكما . فقال متنهداً :

« لقد قلت لها أمس إننى أبغض مجرد النظر إليها »
قلت :

« ولكنك لم تقصد ما قلت ... وكن واثقاً أن
مارى تعلم — في أى مكان كانت الآن — أنك لم تقصد
ما قلت »

فتوجع الفتى وقال :
« أود لو أصدق هذا الكلام »

قلت :
« حاول أن تصدقه يا نوم »

فسألني في لهجة اليأس وقد رفع إلى عينيهِ
المفرورقتين بالدموع :

« وماذا عساني أن أفعل الآن ؟ »
فقلت في لهجة حازمة :

« يجب أن تواصل عملك . وعليك أن تزيل
الأفكار المحزنة من رأسك ، وستجد بيتاً صالحاً
للطفل ويمكنك أن تدفع نفقات العناية به »

فوقف الفتى واثباً وأقبل نحوى فأخذ الطفل
من بين يدي ، وقال وقد زالت عن وجهه نظرة
الطفولة وبدت فيه خطوط جدية عابسة :

« هذا هو ابنى ، ولقد طردت من بيتى وأنا
في العاشرة من عمري ، فلم يكن لي قط ما يمكن أن
أسميه بيتاً . ولكن هذا ابنى ... هو ملكي وهو

ووجدت هيلارى لى لا تزال نائمة . ورأيت
على وجهها معالم الجمال والسلام

غسلت وجهى ويدي ورتبت شعري وارتديت
ثوباً نظيفاً

وتحركت هيلارى وتأوهت ثم فتحت عينيها
وقالت فى شيء من الخمول :

— إنه الصباح

قلت :

— نعم يا هيلارى

جلست وأزاحت شعرها الكثيف الأسود عن
جبهتها ثم قالت فى لهجة مجردة من كل معنى :

— لقد مات

قلت :

— نعم يا هيلارى

فضمت تقول متمهلة فى الحديث :

— لقد حملت حملاً غريباً ، لقد خيل إلى أننى
اجتمعت به وتحدثت معه ، فقبلنى وطلب منى
ألا أحزن . لقد كان ذلك حملاً ، ولكنه كان أشبه
بالحقائق حتى أننى احتفظت به ؟

وتجمع حاجباها فى تقطب يدل على الحيرة وقالت :

— أنت سقيتنى شيئاً يجلب النوم ؟

— نعم يا هيلارى

فسألتنى :

— وهل علمت أن هذه هى الوسيلة الوحيدة
التي تمكننى من الوصول إليه ... والجلوس معه
آخر الأمر ؟ هل علمت أننى فى أثناء النوم ينطلق
قلبي حراً فيذهب إليه ؟

أجبت :

— إننى لم أعلم ذاك ولكننى رجوت

فضمت يدي بين يديها وقالت :

— لقد كنت بى شديدة الشفقة والرحمة ،
فساعدبني الآن على الحياة فى الأيام التي كتبت لى
أن أعيشها

فقلت :

— إن هناك إنساناً أشد ما يكون حاجة إليك
ثم خبرتها بقصة توم ومارى والطفل الذى
لا يريد أبوه أن يخرج من بيته ، حتى إذا انتهت
من قصتي وقفت مترنحة قليلاً وهى تقول :

— ذلك الطفل الصغير المسكين ! نعم سأذهب
إليه ، إنه ليليدو غريباً أن يكون هناك حقاً من هو
فى حاجة إلى

ورأيت عينيها وقد زال منها أثر الجزع فكأنتا
هادئتين حزينتين لحد يستحيل وصفه

ثم قالت فى بساطة :

— يريدنى نيكولاز على أن أفعل ذلك . فقد
طلب منى فى الليلة الماضية ألا أحزن .
وأسرعت هيلارى فى ارتداء ملابسها حتى إذا
انتهت أحضرت لها قدحاً من الشاي ، وقالت :

— سنتغدى فى بيت توم ، ولا بد أن يكون
المسكين جائعاً جداً .

وبينما كنا نصعد سلم بيت توم سألتها :

— هل تعرفين شيئاً عن العناية بالأطفال ؟

أجابت :

— أستطيع أن أتعلم .

كان توم جالساً إلى جانب الموقد يحمل الطفل
على ركبتيه ، وكان بكاء الصغير يصعد من طيات
الدثار الملفوف فيه . فذهبت هيلارى مباشرة إلى
حيث يجلس وقالت :

لقد وجدته في تلك الليلة . لقد وجدته حقاً .
ولم أفقده قط منذ تلك الليلة . فهو أقرب إلي مما كان
في أي وقت من أوقات حياته . وهذا هو الذي
يشجعني ويهيني الأمل والسلام . وإني لأعلم أنني
سأبقى دائماً قريبة منه . وإني لأحلم به في أغلب
الليالي وأنا بذلك جد سعيدة
وسأعمل وأنتظر تلك الليلة التي يذهب فيها
قلبي إليه بعد نومي فيلقاه وأعلم أنني سأبقى معه بعد
ذلك إلى الأبد

ثم ضحكت في رقة وقالت :
إتانا نسمى ذلك الموت ولكنني أعلم أن هذا
الأمري متى جاء إن هو إلا حياة الخلود ...
عبد الحميد حمدي

المجموعة الاولى

للرواية

١٥٣٦ صفحة

فيها النص الكامل لكتاب اعترفات فتى
العصر لموسيه ، والأديسة لهوميروس ، ومذكرات
نائب في الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات
كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعات
ومنقولة .

الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة في جزئين

و ٢٤ قرشاً بدون تجليد

خلاف أجرة البريد

— إعطاني الطفل . فقد جئت لأعني بأمره !
وجلست على أقرب كرسي ، وقد شعرت فجأة
بأنني قد شخت وتعبت جداً ، ولاحظت أن عقربي
الساعة قد أشارا إلى الثانية . فقلت في نفسي :
— سأتمشي الليلة بالسجق والبساطس .
وبقيت هيلاري لي مع نوم إلى أن بلغ الطفل
السنة الثالثة من عمره ؛ ثم تزوج نوم مرة أخرى
من فتاة طيبة جداً أحبت الطفل حباً شديداً . وغادرت
هيلاري البلدة ؛ فشعرت بوحشة شديدة لها لأنني
قد تعودت أن أحبها .

وغابت هيلاري ستة أشهر . وفي إحدى الليالي
عند ما عدت من بيت بعض المرضى وجدتها جالسة
في غرفة جلوسى ، فلما رأتني ابتسمت وقالت :

— مرحى ياسارة ، لقد عدت لأقيم معك
إذا كنت محتاجة إلى
فقبلتها وقلت :

— بارك الله فيك ، إنني لم أشمر قط بوحشة
لإنسان كما شعرت بالوحشة لك .
فقلت :

— إني أريد أن أعمل مثل عملك ، فهل تظنين
أننى أصالح ممرضة نافعة ؟
فقلت :

— إنك تصلحين ممرضة نافعة جداً للوالدات
قالت :

— إذن قد اتفقنا
ولما جلسنا تلك الليلة نتمشي في غرفة جلوسى
البهيجة تحدثت معى عن نيكولاز ، فقالت وقد
أكسبها بريق عينيها جمالاً رائعاً :

الأب

لِلكَاتِبِ الْأَلْمَانِيِّ وَلِهَيْلَمِ شِمْبُون
بِقَتْلِهِ الدَّكْتُورَ عَلَى حُسَيْنِ

في الحصول على شبه ألموية
أهوبها
على أن الرغبة كانت في نفس
امراتي أقوى وأمر، ولكنها
كانت تهرب من رغبتها في صمت
وبحال تكاد لا تدرك . غير
أني لم أستسلم لتحاييلها وتهربها
ولربما لم يكن لي إلا الغريزة

التي تدفع الرجل ليصير أباً

وفي النهاية اشتدت الرغبة في المرأة أيضاً
وأصبحت تلح في الحصول على طفل ، ولما لم تهبنا
الطبيعة ابناً وجب علينا بدورنا أن نخدعها كما خدعنا
فأخذنا نبحت عن طفل غريب

ولكن ما العمل في ظرف مثل هذا ؟

عمدنا إلى مستشفى قرينتنا حيث تلد الشابات
أبناء لا يلبثون أن يصبحوا عبثاً عليهن . كلا
لا توجد هناك أم لا تحرص على ابنها كل الحرص
رغم كل شدة وضيق

بقي احتمال آخر : وهو أن نرضى بطفل من
هؤلاء قصد تربيته فقط وفي هذا من المخاوف والمخاطر
أن يسترده أهله بعد زمن ؛ وكيف يكون حال وقد
شفقت به حياً ؟

انتهى تفكيري في الطفل كالألموية وأداة للتلهي
وأصبحت أفكر في طفل يدوم لنا نسعد بنموه
ولا يجسر أحد أن ينزعه منا ، يبقى بيننا ويقضى
الحياة معنا ويحبنا حب الأبناء للآباء الحقيقيين

حقيقة قد أصبح لنا في مدى الاثنتي عشرة
سنة من زواجنا كلبان ولكننا لم نرزق طفلاً واحداً
ولقد بدء الكبر على الكلب الثاني من كثرة
التجوال طوال هذي السنين فاستأجرنا منزلاً
كي نكفل له فيه الراحة

لذلك وجب علينا أيضاً البقاء معه في المنزل
ولو أن أقدامنا لا تشكو تعباً بل على العكس تتحفز
كلّفاً بالرحيل وحباً في الحركة . إذن وجب علينا
الخضوع لصيف مملوء بالأمطار وشتاء يكثف فيه
الضباب بينما كان في وسعنا — لولا هذا البيت —
الرحيل إلى الجنوب

هنا تولد في نفوسنا شغف جديد نحو حياة
أغزر وأوفر من الحياة التي نعيشها . نتوق إلى حياة
تضاف إلى حياتنا، فضممنا إلى أسرتنا قطا في الأسبوع
الثالث من حياته لم تقو عيناه على شدة الضوء

وأضفنا إلينا ما طالب من دجاج وخراف أو ماعز
ولكن البيت ينقصه شيء : ينقصه طفل

والواقع أنني في البداية ما شفقت شغفي هذا إلا لرغبة

لا مرأتى أخت التحقت بحاشية فتاة ثرية مسنة يجب أن تصحبها في رحلة . ولقد مات زوج هذه الفتاة قبل ولادة طفلها . والآن تريد أن تكل أمر هذه الابنة إلى من تطمئن إليهم فسألتنا إن كنا نقبل رعايتها لمدة ثلاثة شهور أو لنصف عام . ولم يمض خمس دقائق حتى كان الرد في صندوق البريد بالموافقة

موافقة ليس فيها تحفظ ، وقد غلبنا طيش المفاجأة فلم نفكر في صعوبة انتزاع الطفلة من بيننا بعد ربع أو نصف عام . لقد قبلناه اقتراحاً منقذاً لنا مما نحن فيه من اضطراب عايناه كتلبية لصوت القدر . وعلى كل حال إن هي إلا تجربة نعرف بها حال طفل غريب بيننا ، وكيف نوفق بيننا وبين هذه الطفلة في هذه العلاقة الجديدة

جاءت الأم بالطفلة ، وتكاد تكون الأم أيضاً طفلة ، شقراء وضاءة الوجه باسمه كالملاك . وكانت طول يوم الفراق دأمة الابتسام فتفتر عن ثنايا جميلة يبدو معها جانب من اللثة . بقيت معنا هذا اليوم تقود لنا طفلها في كل تصرفاتها وعاداتها ، وتحدث إليها وتغنى لها ، ثم تنظر إلينا كي ترمق فينا عين الرضاء .

رضى ! وأى رضى ! لقد كنا نرعد من فرط النشوة . وبقينا نرقب اللحظة التي تفارقنا فيها الأم وتبقى لنا الطفلة وحدها ، وكنا نأخذ التعاليم الدقيقة في تمن ونفهم شئون التغذية وطريقة حمل الطفلة والعناية بها .

أنعجب ! لقد ظهر أن زوجتى مدركة كل أمور الطفلة كالأم تماماً ؛ إننى لم أرزق طفلة فحسب

حقيقة أمرنا أن شغفاً قوياً ملك علينا مشاعرنا ، نريد أن نغمرنا حب طفل . حب إنسان لا تتغير ولا تتبدل مشاعره نحونا شأن الأصدقاء الذين صافيناهم وفقدناهم نريد حياته وحظوظه متصلة بنا لنكون وحدة سامية وسط هذه الحياة الملوثة بالبغض الحجة الصعاب والمتاعب

أيقال : عديم الأبناء عديم الهموم ؟ إننا نريد هذه الهموم ! لقد أصبحنا لا نحتمل الناصفة في الحياة إننا نبني الحياة كاملة بهمومها وآلامها وأيضاً بسعادتها

تصفحنا الجرائد فوجدنا بين الإعلانات عدداً ليس باليسير من الأطفال قد عرضوا كسلعة تباع وأعلنوا عنهم بين المقار والأثاث والآلات المستعملة . وإن تعجب فعجب لمن يتناولون أموراً لا تكون في متناول أى إنسان : أعنى حظوظ البشر . ولما كثر علينا العرض أصبح لنا أن ننتخب وندقق في الانتخاب

حقاً لقد صرنا نتخير وندقق بيننا غيرنا من الآباء يقبلون ما وهبوا من بنين ؛ وهم بما وهبوا سعداء حتى ليتعلق الآباء الحقيقيون بأبنائهم المرضى أو العجزة أو العمى بحنان وعطف خارقين

أما نحن معشر الآباء المتبنين لا نعرف لرغائبنا خد الاعتدال . إنما لا نبغى سوى طفل كامل الصحة قوى البنية تام التكوين فتنة في جماله . فنحن نتطلب من دنيا النقائص كالأليس في عالمنا

ولما أضنانا البحث والتنقيب طوال ستة شهور أقبلت المقادير في عوننا

ولقد حمدنا الله كثيراً أن انتهى الفراق بهذه
الوداعة .

ولكنها ما وصلت إلى باب الحديقة حتى لاحظت
وأنا أرافقها خلف النافذة بناظري أن خطاها بدأت
تتعثر فكأنها أخذت تستيقظ من حلم . وبدأت
تشر بيدها الخالية وكانت تحمل طفلها قبل هنيهة،
ثم حولت وجهها نحو الطفلة مرة أخرى ولكنها لم
ترها فقد اختفت خلف جانب من البيت وتابعها
ناظري وهي تسير في صحبة زوجتي بخطى خائرة
كالذين يعيشون في نومهم وهي تبتعد بكل خطوة
تخطوها عن طفلها وشاهدت أكتافها تهتز هزات
عنيفة نتيجة بكاء مكتوم

لا أعجب في الوجود من محكوم عليه بالإعدام
يحرك قدمه ويسعى إلى مكان ختفه بنفسه

هنا عمى شعور من الحياء عظيم . هنا بداية

للإثم كبير

لقد تظاهرتنا جميعاً كأن كل ما في الأمر مرور
ربيع عام ولكننا نعلم في خفايا أنفسنا أنه وداع أبدي
وفي هذه اللحظة فتحت في لأصرخ خلف الأم
لأقول لها : « قني لا شأن لي بطفلتك »

في هذه اللحظة انطلقت صرخة صادرة من الأم
ليست من أصوات البشر بل صرخة حيوان
لقد استحال إشفاقى إلى حنق فما سمعت إلا
اتهاماً لي، إني لأتوارى خجلاً أمام جيراني، ألم يكن
هذا هو القدر الصارخ الذي اغتال أباهما

والآن يحتل مكان الوالد آخر . أنا ذا الذي
يحتل مكان الوالد وبذا أكون قد أدبت عملاً جليلاً

بل وهبت امرأة في حال جديدة ، والأمر الوحيد
الذي لم يكن في استطاعة زوجتي القيام به هو تغذية
الطفلة من ثديها ، وبذلك وجب على أن أتنازل عن
هذه الصورة الخلابية من الحياة

ترقد الطفلة في الحديقة في عربتها الزرقاء
الخشبية التي اشتريتها بمجرد حضورها ، وهي الآن
نائمة قد حولت وجهها إلى الجانب . وقبلها كانت
لا تحركني قوة لمشاهدة رضيع ولو هنيهة قصيرة .
والآن وهبت العين التي ترى المعجزة التي يحملها
هذا الوجه الذي لا زال يحوى ضوءاً من أضواء
العالم الذي أتى منه ، وإني لأشعر بإشفاق يتملكني
إزاء هذه المخلوقة العاجزة التي لا يدري سوى الله
أى المتاعب تنتظرها ، كذلك تملكني الشعور القوي
بأن أتعهدا بحمايتي وأذود عنها .

صه ! هناك ساعة الكنيسة تدق الساعة .

هت الأم لتتجه للرحيل في صمت وجود وفي
شيء من السرعة ، لأن الطريق إلى المحطة طويل .
وعادت إلى الحديقة والقبعة على رأسها وقد لبست
معطفها الصيفي وأقبلت تودع ابنتها

بكاد وجه الصغيرة يهبط بين ثنيات الوسادة
وبقيت زاوية صغيرة من وجهها لتطبع الأم
عليها قبلتها . ولم تحاول أن توقظ الطفلة كي يكون
الفراق هيناً . ولم تبلل عينيها دموعاً واحدة ؛ وكل
ما حدث أن جانباً من فمها حوته قشعريرة فيها شيء
من المرارة

ثم قالت وهي تبسم ابتسامة قواهنة « بعد ربيع
عام ! »

- ٢ -

هذه الرواية التي تخليقني بغموضها

وبعد زمن هيانا للطفلة حظيرة : سياجا من
الخشب مربع الشكل فيه تتحرك جالسة وهي تستخدم
كلتا ذراعيها كأداة تترزح بهما وكأنها عائمة تسبح
بهما من مكان لآخر

ولقد عجبنا كل العجب حين وجدناها في يوم
من الأيام فوق الأعشاب خارج الحظيرة . فقد نهضت
وعمدت إلى المغلق وأزاحتها فانفرج وهذه أول ظاهرة
ليقظة الذكاء ! والجميل الطريف أنها استخدمت
للخلاص والحرية

لقد أصبح في غير المستطاع حصر قوة الحركة
في الطفلة في هذا المكان الخشبي الضيق فقد طفت
على معقلها وطفقت تجوب الأنحاء طورا هنا وطورا
هناك ، تتحرك وفي صحبتها كلب وقط إلى أن تصل
إلى سور الحديقة ، ولا تتعداه كقوة لا تغلب ولكن
إلى متى ؟ ومتى تفتحم هذا الحصن أيضا ؟

إن بين الأطفال والحيوانات لعلاقة غريبة ...
تعذبها وتضع أصبعها في أعينها وتجذبها من آذانها
وأذنانها ، وكثيرا ما تصيح هذه الحيوانات من
من فرط الألم وتفر ، ولكنها لا تؤذي الطفلة
ولا تلبث بعد قليل أن تعود إليها . ولم يكن تغذيب
الطفلة للحيوان عبثا إذ لا بد أنه عن قصد يمت إلى
غريزة لا تدرك في الخلق من بداية نشأتهم ؛ ولا بد
أن الحيوان يشعر نحو هذه المخلوقة بشيء من التبعية
هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تحس وتخضع للغيرة
البشرية فيها

كنا إذا تحدثنا إلى الطفلة - ولو أنها لا تفهم
ما نقول - نعتنا أنفسنا : أمّا وأبّا . وهكذا

ربما كنت الوالد الوحيد الذي يستطيع أن يقول
عن طفليته ما أجملها وإنها أجمل مخلوقة في العالم ،
أستطيع أن أقول ذلك ولا أكون موضع سخرية
لأنني حين أبهر لمراى هذه العيون المنحرفة قليلا ،
وأفتن بشعرها المحكم وبهذه الأيدي الدقيقة الصغيرة ،
إن فعلت ذلك لا أسخر من نفسي فليس لي شخصيا
فضل في ذلك

لا يوجد في دم الطفلة ذرة واحدة تنفرها منا
ولا بد أنها شاعرة بطيب العيش بيننا كما لو كانت
مع أمها . بل هي الآن أسعد حالا إذ بدلت قنم
المدينة بدنيا ملؤها الشمس ، واستعاضت أرضا
مغطاة بالأسفلت بأخرى تكسوها الحشائش . ولقد
أخذت الطفلة تنمو وتترعرع وتفتح بعد أيام
قلائل . وكثيرا ما تركناها عارية فوق الأعشاب
وبذا اكتسبت بشرتها سمرة جميلة

وكثيرا ما توافد علينا الجيران - وقد اكتسبنا
ثقتهم - ويقولون وهم يهبطون برؤوسهم إلى الطفلة :
« لقد صادفت الطفلة هنا مقاما رحبا »

وحين تكون في الفضاء تجلس وتتعلق في الهواء
بكلتا ذراعيها ، وتتحدث ولو أنها لا تستطيع أن
تنطق بكلمة واحدة ، إن هي إلا أصوات ومقاطع
تطول وتقصر ، وحيناً ترتفع وحيناً تهبط ، وكأنها
تسامر وتتحدث إلى جمع لا يرى من المستمعين
وكثيرا ما يقاطع الحديث ضحك فكه عجيب ، أما
ذراعاها فكانتا تارة تمتدان نحو السماء وتأتيان بحركات
فيها ازدراء واحتجاج غير مسموع ، وطورا تجمع
هاتان الذراعان الدنيا كلها بينهما
وكثيرا ما وقفت في جانب من البيت لأشهد

كنت أنعت نفسي فأقول للطفلة: «أتريدين الذهاب إلى مكتب البريد مع أبيك ؟»

وما تحركت قدماي إلى مكتب البريد إلا والطفلة معي . لأننا نسير في طرق ملأى بالحوانيت وأمام الحوانيت تقف الناس ، فأحمل الطفلة فوق ذراعي وأمر بها خلال المزارع ، ثم أخرج إلى الشارع الرئيسي بخطى مرنة ، وأشعر وكأن كنتي زودنا بجناحين والكل يفوه بكلمة الإعجاب ، وتغر النساء بأيديهن فوق شعر الطفلة الحريري الأشقر الناصع إلى حد البياض ، وحيناً تقف بعض الفتيات المتجولات وينعمن النظر في الطفلة وفي ، وبديهي أن يحسبني الوالد الحقيقي وهذا ما يجعلني أزهي وأباهي . وحدث أن وقفت إحداهن وتناولت يد الطفلة وتحدثت عن وجه الشبه بين الطفلة وبينني !

بدأت أنسى شيئاً فشيئاً أن هذه الطفلة ليست طفلي وأخذت أشعر بغضاضة وإيلام حين يذكرك الناس أن الطفلة وجدت بيننا مكاناً رحباً . إنني لا أريد أن يذكرك أن للطفلة مقاماً أو موطناً في أي ناحية أخرى . وحيناً كنت أفرس في المرأة لأرى وجه شبه بين الطفلة وبينني . فكثيراً ما يصبح بمرور الوقت بين الزوجين شبه ، وبين الصديق والصديق شبه ، حتى الكلاب تحمل من ملامح سيدها شيئاً ...

وكثيراً ما كنت أرحل بدراجتي ومعى الطفلة إلى البلدان القريبة حيث لا يعرفني أحد ؛ وهناك أستمتع بزهو الوالد دون أن يعكر على أحد نشوتي . وأصبحت أتحملي المرور من الشارع الرئيسي حتى لا يذكرك مذكر بمركز أبوتي . ولقد أظرت امرأتى مرة طبع الطفلة الرح وخلفها الهادي

وأنها لا تبكي قط ، فأجبتها على الفور في غير وعي : « لقد أخذت هذا الطبع عني ! »

لقد زال من فكري كل ما يذكركني بالوالد الحقيقي للطفلة . ولما استحضرتنا لها قدحاً لتشرب منه اللبن نقشنا عليه الحرف الأول من اسمها إلى جانب الحرف الأول من اسمي ، وحين قيدنا اسمنا في قائمة الضرائب ووجب ذكرها قيدتها بلا تفكير إلى جانب اسمي

أنا خطاب من أم الطفلة ترجونا بل تتوسل إلينا أن نستبقها عندنا . ولقد أهملت الرد على هذا الخطاب لأن بقاء الطفلة عندي مسلم به لا شك فيه . أنا لن أفرط في هذه الطفلة إلى الأبد

إن هذه الطفلة تخصني بقوة إيماني وبقيني

— ٣ —

بعد حين حدث أمر أفرعنا

خرجنا مرة نتمشي ، وفي أوبتنا سمعنا بكاء الطفلة عن بعد فسعيننا إليها سعياً فوجدنا الخادمة تضربها بغصن شجرة وتقول لها : « أيتها القبيحة » ولم تبد الخادمة أي اهتمام ، وادعت أن الطفلة كانت تبكي ولا تريد أن تقف بيكائها عند حد وإنما فعلت ما فعلت لإسكانها . ولما أنبناها قالت : « ماذا ؟ ليست الطفلة طفلتكم وليس للطفلة أب »

أي فحش نطقت به الفتاة ! أتحتقر طفلتنا ... ولا تعترف بأبوتي ؟ من هذا الحين أصبحنا نخشى ترك الطفلة في البيت فوضعت توأ مقعداً أمام دراجتي وبذا أصبح في الإمكان أن تقطع معي المسافات الطويلة بين الأجرار والوديان لتبسم للعالم وتغني له ولقد بدأت الشكوك تتولد في نفسي نحو أهل القرية في أنهم إنما يضمرون لي سوء ، وجعلت أجد

وكانت « لو » ملاك الشاطئ الرقيق الصغير
وأنا الوالد الذي يتقبل الاطراء والتهاني في مداعبة
وبساطة أجدت التظاهر بهما وفي الليل أضطجع
بقلب خافق من فرط الطرب بسعادتي
ولم يكن الشعر الأشقر وحده الذي اجتذب
قلوب الناس في « لو » فقد كانت على الشاطئ ممثلة
أسوجية بطفلها التي صادقت « لو » وقد حدث
لطفلتنا أكثر مما أسمح به فأنحنت رؤوس السيدات
إلا « للو » ولا قبلن غير « لو » ولا حملن فوق
أذرعهن سوى « لو » ولا كانت الهدايا إلا « للو »
ولقد كان بين النزلاء زوجان لم يرزقا ولدا مثلنا
أنهالا على « لو » بالحلوى والحلى واللعب إلى حد
اضطرتنا إلى منعهما في شيء من الشدة ، كذلك وجب
علينا أن نقي طفلتنا من الاطراء والألفاظ الحلوة
المفسدة للصغار ففرزنا بفضب الناس الذين بدأوا
يحنقون علينا حنقا مصدرة الحسد

هنا شعرت بانتصار وزهو يتزايدان ولو علم
الناس الحقيقة !

في هذا الحين بدت سحابة قاتمة في سماء حياتي
الجديدة إذ كلما كانت « لو » في جمع من الناس
الغريباء وأردت أخذها من بينهم بكت
وقد كانت إلى هذه الآونة طفلة بغير عبرات ؛
وكانت إذا سقطت على الأرض ضحكت ولا تعرف
للضحك نهاية

والآن تبكي بكاء عجيبا في هدوئه ، عجيبا في طول له .
وأعجب من هذا أنها تقوس أصابعها الصغيرة وتعمل
بأظفارها رغبة في إيلاي

لقد أذهاني بكأوها الذي لا أفهم كنهه كما
أذهلني هذه الرغبة الجديدة في إيلاي

في كل كلمة قيلت غرضاً مقصوداً ، وبقيت في هياج
شأن كل حياة تحوى كذبا

ليس هناك ثمة دليل على أن الناس لا يعتبرون
الطفلة الاعتبار كله . على أنه ليس هناك أيضاً أدنى
شك في أنهم أرادوا إيلاي . فقد كشف لهم عن
موطن الضعف عندي ، وهذا أمر كائن في طبيعة
البشر ؛ وبأدى بدء يأتون ما يفعلون حباً في الردع ،
ثم حباً في المداعبة ؛ وفي النهاية حباً في الإيذاء
للإيذاء فهم يعذبونني تعذيب الطفلة للكلب والقط
يسألون الطفلة عن أمها وهي لا تدري مايقولون
ولكن إلى متى تبقى لا تدري

لا بد من الخلاص من هذه القرية حيث يعرفنا
كل إنسان إلى مكان نكون فيه غرباء يتحول
كذبي فيه حقيقة

— ٤ —

تدعونا رقة الطفلة إلى الرحيل للبحار وأقربها
منا البحار الجنوبية ، إذن هيا إلى البحار . هنالك
عشش صغيرة من الخشب يجلس الناس حولها طول
النهار فوق الرمال وينطى التليان أطفالهم بالرمال
فلا يبدو منهم سوى الرأس وهذا ما فعلناه مع طفلتنا
كي يقوى جسمها بهذه الوسيلة

ولقد وجدناها مرة تلهو بالرمال بمجرف وإناء
فأغمضنا أعيننا من ضوء الشمس ؛ وبعد ربع ساعة
اختفت فهممنا في خوف نبحث عنها فالفيناها في جمع
من السيدات والسادة التليان قد سعدوا بها وبشعرها
الأشقر .

وكما سئلت الطفلة عن اسمها أجابت « لو »
وبذلك احتفظت بهذا الاسم الذي أعطته لنفسها

- ٥ -

جاءت الحرب

وقف الناس على الشاطئ في لباس الحمام
والصحف اليومية في أيديهم
إذن وجبت علينا العودة

وكنا نسمع سنابك الخيل تصطك بالأرض
وكانت هذه أول ظاهرة مروعة للتعبئة

ولقد وقف بنا القطار في كنستانس ومن ثم
وجب علينا الانتقال إلى ألمانيا سعيًا على الأقدام

وكانت النساء السويسريات وأطفالهن معهن
يشهدن بعيون باكية الرجال الألمان الساعين إلى الموت.

وكنت أحمل طفلي فوق ذراع وجمعتي بالذراع
الأخرى ولذلك اختصني إشفاق معظم الناس، وهنا

كنت أستمري لذة الأبوة في معنى ما كنت أتوقعه
ولقد استقبلتني زوجتي وابنتي على المحطة لدى

أول عطلة لي في الجيش. ترى هل نسيتني «لو» ؟
كلا. وإن أنس لا أنسى التعبير المرتسم على

حيها وهي تطل على لأول وهلة، هذى المخلوقة
الريقة الفخورة أن لها أبا كما كنت نفوراً لعكس

السبب.

ولكن بما هذا البحث والفحص اللذان تقوم
بهما عيناها ؟ هل بدأت صورتي تضعف في مخيلتها

مدة غيبتني ؟ وبدأت صورة والدها الحقيقي تمثل أمامها
ومصدر هذا إلهام غامض أثاره حنين الدم ! ترى هل

شعرت بخيبة بعد طول الانتظار ؟ وهل من أجل
ذلك كان جودها وسكونها في البيت

صاحت طفلي رغم تطلق لها ؛ غير أنها كانت
تبرم مني وتجد أمي وتعرض عني وتعمد إلى

هرائسها حيث خلقت لنفسها بينها عالمًا غير عالي

وفي المساء تبكي بكاء عجيباً طويلاً لا يؤثر فيه المطف
إلا أن يزيد في اشتداده

إن بكاءها موجه إلى المجهول ، إلى الأب الذي
تشعر به شعوراً غامضاً .

هل هو يناجيه من عالم بعيد عن تصورنا ؟
وهل يغبطني على امتلاكه للطفلة ؟ أجل إني لأشعر

بعدائه لي وقد بدأت الغيرة تجرد مني غذاء شهياً ...
وهذه لا تلبث أن تتحول إلى بغض طائش .

ولقد عمدت إلى صورته فأقصيتها حتى لا يتسنى
للطفلة الوصول إليها حتى بعد سنوات . سوف يأتي

الوقت الذي نقص عليها فيه قصته ونذكر لها أنها
ليست من دمنا وأنها لم تكن سوى ربيبة . ولكن

لا عجلة في ذلك .

- ٦ -

وضمت الحرب أوزارها وسقط المارك ووصلت
أسعار الحاجات إلى الأرقام الخيالية وعاش المضارب

والفلاح في ثراء ورغد ، وعانت الطبقة المتوسطة
ما عانت ، فكانت « لو » الضوء والأمل والسعادة

التي تنسينا هم العيش ، وقد وصلت إلى السن التي
يجب أن تذهب فيها إلى المدرسة .

قالت زوجتي : الآن حان الوقت الذي نرفع لها
فيه النقاب عن أ كذوبتها .

قلت : إذن نكون قد أوجدنا سبباً لسخرية
الأطفال من « لو » وكيف تتحمل الصدمة ؟

إن الذي يقودها إلى المدرسة ليس بوالدها الحقيقي
ككل الأطفال الآخرين . غير أنني كنت أخشى

في نفس الوقت أن أفقد حبها بهذا التصريح .
صارت تسمى كالطير في خفة ورشاقة إلى المدرسة

رغم جعبتها الضخمة التي تشغل عاتقها .

وكنا نجلس مساء في شرفة المنزل الخشبية
نمزق بالقيثار ونغني وأخفت صوتي حتى يبق صوت
« لو » عالياً جلياً فتعني في عذوبة كتغريد البلابل .
ترى ماذا عانت هذه الروح الوديمة حتى يصدر
غناؤها مرتعد الرنين !

بدأت أشعر كأن نفسي في قرارها تغني مأخوذة
بقوة فائقة خفية وكأن قدي بدأنا تسبحان خفة
وطرباً . لقد جعلت الطفلة مني رجلاً طيباً
أواه ، لقد عاودني الوسوس بفقدانها . وأصبح
الكذب لا يجدي فتيلاً

لقد وجدت لو زملاء للعب وإنه ليسرني أن أراها
وسط الأطفال ترقص وتمرح بينهم
والمعجب إذا كان الرجل وانصرف الأطفال
عنها كانت لا تطيق البعد عنهم ولقد روعني عنادها
وتعلقها بالأطفال حين انصرفهم عنها

ولقد نفر الطفلة مني تطرفي في حبها الذي وقعت
فيه كي أرضيها فقد أحست لأول مرة ما يخفى هذا
الحب من اضطراب وأصبحت تقابل عطفي وإشفاقي
لأول مرة بشيء من التمتع والجفاء . ولقد باغت الطفلة
مرة وهي تفحصني بناظرها خلسة فحساً وإنها لنظرة
لا يمكن لخلوقة أن تلقها على والدها الحقيقي وخاصة
في هذه السن في عامها الثامن

والمصيبة أن والده إحدى صويحبات « لو »
أحست أن هناك سرّاً خلف علاقتي « بلو » ولقد
لمحت هذه المرأة وهي تفحصني بناظرها فحساً ، وهذه
هي نفس النظرة التي اكتشفها في « لو » والآن أعلم

مصدر هذه النظرة ، وإذا يلتقي ناظري بنظر هذه المرأة
في هذه الآونة تجمد كأن فكرة معذبة تغانينا
والكارثة الكبرى أن الطفلة أخذت عن المرأة
الجمود الذي جعلها جامدة إزاء كل كلمة أوجهها
إليها ، وهذا ما أقام بين عالمها وعالمنا سياجاً . وحيناً
ألحظ في وجهها عداوة ومرارة ظاهرتين يتبعهما
بكاء هادي طويل لا ينتهي إلى منتصف الليل إلا
حين تجلس امرأتني إلى حافة سريرها وتضم الرأس
الأشقر إلى صدرها في سكون

وبعد عام اتخذت « لو » لنفسها صديقاً وهو
طفل في الحادية عشرة من عمره عليه سياء أهل
الجنوب وجدت فيه المثل الأعلى لتخيلاتنا ، وقد
وفد إلى قريتنا لقضاء عطلة الصيف بها ولا يوجد
في الوجود سواء من أخذ من نفسها هذه المسكنة
من الاحترام والتجلة ، كما لا يوجد مخلوق تثق بكل
كلمة منه غيره ، وهو الوحيد الذي له سلطان عليها .
وهنا أيضاً وجدتني تلقى الطرف بأحشة في الوجه
الجديد ... هي تبحث عن الوجه الغامض في مخيلتها
لثنتين وجه الوالد الحقيقي . والمعجب أن وجه هذا
الطفل الأسمر الواسع العينين بسياء أهل الجنوب ،
يطابق وجه والدها الميت تماماً - مع أن الطفلة
لا تعرف عن والدها شيئاً - ولقد أصبحت في صحبة
هذا الطفل هادئة يتلألأ وجهها في سعادة نفسية دخيلة
وكأنني بها امرأة صغيرة قد ملأ الحب نواحي
نفسها فبدت برشاقة لا حد لها ، وكنت أشعر
بسعادة لم أرى هذين الطفلين جالسين متعاقبين على
مقعد طويل يتحدثان بصوت خافت ؛ ولم يداخلى
- وايم الله - غيرة ولا حاولت أن أسمع ما يدور
بينهما من حديث ، وشعرت كأن جانباً من جزيرتي
(٥)

« ليس بينك وبين لو شبه » إذ شعرت أنها قد جرحتنى جرحاً قاتلاً فطردتها من بيتي .

— ٧ —

لقد انتابتنى حى في الأعصاب لا أفهم لها سبباً وبعد ساعة من الإصابة كنت في عربة المستشفى و « لو » في صحتي تنظر من نافذة العربة ولا تفهم للرحلة خطورة فلم تكن لها سوى زهرة سريعة . ووجب على زوجتي أن تبقى معي ، وتركنا لو مع الخادمة في البيت .

في هذا الوقت كانت لو في الخامسة عشرة من عمرها وقد وجدت مدة غيبتنا شاباً تعلقت به وجعلت له من منزلنا موطناً رحباً يدخل ويخرج ويأكل ويشرب كأنه في بيته تماماً . وكنت أقول لها « كل ما نملك لك » فكانت تهب هذا الفتى — وكأنها في حلم — كل ما يصل إلى يديها مأخوذة بنزعة حب الإعطاء . أما الشاب فكان من العاطلين الذين لا يصلحون لشيء

ولما خرجت من المستشفى وعدت إلى البيت كان الفتى في انتظارنا لدى الباب كأنه منا

يا للغرابة، ياله من أمر لا يدرك كنهه، هو إنسان جديد أسود الشعر أسمر اللون بسياء أهل الجنوب . ألا يشابه والد « لو » كل الشبه ؟ أليست له نظره تماماً ؟

لم يكن من سبيل إلى إقصاء هذا المتعطل من بيتي سوى استعمال القوة ...

فصرخت له صرخات كأنها جنت جنوناً . وانتابتها هي أيضاً حى في الأعصاب

نحو هذه الطفلة قد حل عني وقد كان هماً يعلأ صدري غمماً نخف عني

ولما فارقتنا الطفل اصططحبته « لو » إلى المحطة دون أن يبدو منها ما يشعر أنها تفقد من سعادتها شيئاً .

ولكنها بعد حين وقد أصبحت وحيدة بيننا وقد بعد القطار في ناحية قاصية وبدت لها القرية كأنها خاوية ، هنا مالت الطفلة برأسها على المائدة وصرخت صرخة عالية وهذه نفس الصرخة التي تمت إلى الحيوان التي نفتتها أمها عند وداعها لها

ثم نطقت بألفاظ كأنها في قوتها من أساطير الأولين ، ألفاظ ما كان يدور بخلد إنسان أن هذه الطفلة تفوه بها ، قالت صارخة : « لماذا وجب عليه الرحيل ؟ لماذا لا يبقى هنا ؟ الأشجار باقية ، وكل الناس باقون . لماذا وجب رحيله هو ؟ لماذا ؟ لماذا ؟ »

كاد قلبي يتفطر شعوراً بجزيرتي وإثمي فأنا الوحيد الذي يعرف أن هذه الشكوى صادرة إلى الوالد المجهول

تم الاتفاق أن أعلم « لو » حقيقة أمرها في عيد ميلادها العاشر واحتفظت لنفسى بأمر تعريفها بالدها الحقيقي وأنزل نفسى إلى مرتبة الربى فقط غير أن الوقت قد فات ولم أجد الشجاعة على ذلك .

وكنت أقول تبريراً لموقفى إني أخشى عليها من وقع الخبر .

ولم يقف جنونى عند هذا الحد بل لقد طردت المرأة ذات النظرة الغريبة عند ما قالت مرة :

إنها سفرة لمدة ثمانية أيام فأطاعت لو وأصبحت
لا تسمع لنا كلمة

وفي أثناء الطريق ونحن في القطار سردنا لها
الحقيقة مجردة قبلتها دون انفعال نفسي رغم رقة
إحساسها ، وذلك ما كنت أخشاه ، فالحقيقة أخف
وطأة على النفس دائماً مما يعتقد الإنسان والكذب
وحده هو الأثقل من الصخور عليها

وكانت أمها في انتظارها على المحطة فكان مشهد
أختين تتعانقان

ولم تتحول « لو » فرفضنا بغتة وتعلق بالأم
وحدها .

فقد كان للكذب الطويل الأمد قوة هائلة
فبكت حين رحيلنا وبقيت لدى الأم كأنها في حلم
فقد كان التباين عظيماً لا يتحملة هذا الرأس الصغير
في وضوح وروية

بقيت لدى أمها عامين كاملين بدل الأسابيع
القليل التي أرادت تمضيها مع الأم ، وعوفيت
« لو » من البكاء الطويل المتواصل ولي الآن أن
أتنفس الصعداء إذ تحررت من إثمى .

لم يضعف حبي بل زاد وبالع في الزيادة والسبب
في أنه لم يقف عند حد أن القدر لا يجيزه لي ، وهذا
الحب سوف يقضى على راحة الطفلة كما تلهم الحرارة
النبات الذي يحتاج إلى طقس ندى .

أما هذا التطرف المضي في هذا الحب فصدره
الكذب .

وطفلي الحقيقي الذي لا تجيزه لي الحياة - أين
هو في هذا الكون ؟ ليس في وسعه أن يصل إلي
يناديني كما أناديه دون جدوى .

وهذا مصدر الآلام ا علي صبي

فكان هذا المرض الواحد هو الشيء الوحيد
الذي بقي بيننا ورباطا يصلنا

وأصبحت تصد كل كلمة تقال في سبيل تهدئتها
أو التفاهم معها في شدة وعنف وعنت

وكنت أقول دائماً : « الفقراء أحسن الناس »
وها قد صادفت فقيراً فما باله لا يروقي الآن ؟

وإني لأحبها من أجل بسالتها التي تذود بها
عن حبيبها ، وإنه لمسير على أن أفرق بين حبيبين
غير أننا هنا إزاء فتى عاطل يزهو بكبرياء ويناصبني
العداء ويمطرقني بوابل من الرسائل كلها تحد وغطرسة
وهذه الفتاة تميل إليه

إن « لو » لا تخصك أنت أيها الفتى الذي
ترتني تحت قدميه بماطفة قوية هو جاء أعلم أنا وحدي
ماذا تريد

هي تبحث عن والدها . هي تبحث بجذ عمي
تخصه ...

ليس في وسعي أن أهبطها من مات غير أننا نستطيع
أن نعمل ما في مقدورنا عمله حتى نكفر عن فريتنا
الكبرى مصدر كل بلاء ، فني استطاعتنا أن نردها
لأمها الحقيقية

أما مجرد الإفصاح عن الحقيقة فأصبح وحده
لا يجدي . إذن لها أن تقول : مالك تمنعني عمي
أحب ولست بوالدي ؟

يجب أن أردّها إلى أمها وعلى الأم أن تجدد القوة
لإنقاذ ابنتها من المخاطر التي تقع فيها باندفاع من
جاء جريرتي

- ٨ -

سافرنا بها إلى براغ حيث تقطن الأم وقلنا لها

حواء - لست أنا التي
أفشيهِ ... !

الشيطان - إذا أنا وثقت
بك ... سأخذك بكاملتك
وسأفشي لك بهذا السر ... !
أنا لا أريد منك أى ضمان آخر
حواء - يمكنك أن تثق
بكلامى ... !

الشيطان - أنت فى محبة رجل كريم النفس
ولكنى أراه ليس جديراً بمطفك وحنانك ... !
لقد رأيته وعرفته فظاً غليظ القلب ... أحق
لا يفقه شيئاً
حواء - هو ليس بالقدر الذى تصفه به ولكنه
مع ذلك خشن بعض الحسونة .
الشيطان - سيق مع الأيام ويروض نفسه
ما دمت بجانبه على الرقة ولين الجانب ... !
ولكنه الآن أسلب من الحديد ... ! أليس
كذلك ... ؟

حواء - إني لأعرفه نبيلاً يحمل نفساً عزيزة
كريمة ، وإنه لعل خلق عظيم ... !
الشيطان - أولى لك أن تصفيه بأنه رجل
وحشى لا هم له إلا مطاردة الحيوان ليفترسه ... !
هو كالحیوان فكرة ومعنى ، لا يعنى بنفسه ، بل
لا يريد أن يعنى بها .

لندعه وشأنه فهو خرف فى نفسه ، ولكن ألا
ترى منى أنه على الأقل ينبئ له أن يعنى بشريكته
الوحيدة وزفيقته الأليفة
أنت كائن رقيق ضعيف لا حول له ولا قوة

من الأدب الفرسى

اغراء الشيطان لآدم وحواء

بقلم الأديبة محمود المصطفى

المنظر الأول : (الشيطان وحواء)

الشيطان - حواء ... ! ها نذا قد أتيت إليك
ساعياً للقائك !

حواء - لماذا ... ؟ ماذا تريد منى أيتها الشيطان
المريد ... ؟ ما وراءك خبرنى ... ؟

الشيطان - إني أبحث بحث المعنى عن سعادتك
التي تنشدنيها ، وشرفك الأثيل الذى تحافظين
عليه ... !

حواء - لئمنحنا إياها الله عز وجل ... !
الشيطان - لا تخافى ... لا ترتعدى ... ! لقد
عرفت منذ زمن مديد أسرار السعادة الخالدة فى هذه
الجنة ... ! سأخبرك كيف تحصلين عليها .

حواء - ابدأ حديثك إذا وقص على ما تريد
وها أنا ذى أصغى إليك

الشيطان - أحقاً ستصغين إلى ... ؟
حواء - أجل ... ؟ وسأكون لك مطيعة رقيقة !
الشيطان - وهل تحافظين على السر الذى سأفشي
به إليك ؟

حواء - أجل ... وإيمانى برأى ... !
الشيطان - ألا تفشينه ... ؟

كبيرة دبرت في الخفاء في هذا الفردوس الخالد
وذلك أن الثمرة التي منحك إياها الله ليست
أحلى من تلك التي طالما حذرنا منها . أراه
لا يريد أن يتمتع بها إذ تحمل صفات جليلة
وفضائل جمة لا قبل لك بها هو يستكثرها
عليك . . .

فيها ينبوع الحياة والقوة والسلطان والعلم
والمعرفة بكل شيء هي الأمل والنهاية وفيها
الخير والشر . . . وبالجملّة تجمع في نفسها كل شيء
في الوجود . . .

حواء — ترى ما طعمها وكيف يكون ذوقها؟
الشیطان — منحت طعماً من السماء وذوقاً
إلهياً دونه كل ذوق أو طعم . . .

هي لجسمك الفخام الجميل ولجهاك الوضاح
الوسيم أضمن غذاء وأشهى طعام ستمصبحين
بعدها ملكة الدنيا بأسرها والسماء وعرشها وجهنم
وسعيرها ستعرفين كل ما هو موجود وكل
ما ينبغي أن يوجد وبالجملّة ستكونين مليكة
مسيطرة على العالم بأسره . . .

حواء — أجمع الثمرة كل هذه الصفات ؟
واعجباً . . .

الشیطان — أجل . . . هي كذلك . . .
(تمسك حواء الثمرة المحرمة وتعم النظر فيها وبعد
ما تناهها هنية تقول) :
لا شيء يستهوى بصري غير منظرها الجذاب
الجميل . . .

الشیطان — ماذا يحدث إذا أكلت منها ؟
لا شيء . . . حاولي . . . سوف تكونين أرشق قدّاً
وأهيف قامة . . . إذا تذوقت هذه الثمرة العجيبة

أنت يا من هي أندى من الزهر وأنصع من البلور
والثلج المتساقط على الجليد الرائق النقي — لقد خلق
الخالق منك أزواجين غير متزوجين ، متناقرين غير
متوافقين . . .

واعجباً . . . أنت رقيقة الحاشية ، حلوة المشر؛
وهو جاف غليظ القلب صلب بفيض لروح جميل
كروحك . وعلى الرغم من ذلك أراك صابرة غافلة
رزينة متزنة في غير ملل ولا سخر . كل أفكارك
وآرائك تصدر عن روية وعقل . . . فكلامك مغم
بالمعاني والمبر ، وقلبك يفيض بالمعطف والحنان . . .
خبريني هل تربنه بعد ذلك يعطف عليك ويعطيك
حقوقك من العناية والرعاية . . ؟

وأخيراً . . . أريد أن أقول لك شيئاً
حواء — لألفاظك رنين عذب وجرس شجي !
أفض إلى بسرك فأنا حفيظة عليه في قلبي . . .
الشیطان — أحذرك . . . فهذا السر شيء مقدس
ليكون بيننا نحن الاثنين أناشدك الله ألا تقضي
به لأي مخلوق . . .

حواء — من هذا الذي يستطيع أن يعرفه مني؟
الشیطان — حتى ولو كان آدم نفسه ؟
حواء — أجل . . .

الشیطان — إذاً آن لي أن أتكلم . . . أصغى
إلى . . . أنا لا أرى إنساً في هذا المكان غيرنا . . .
وآدم هناك بعيد عنا لا يستطيع أن يسمع الحديث
الذي يدور بيننا

حواء — تكلم . . . تكلم بصوت عال ، إنه
سوف لا يعرف كلمة ما . . .
الشیطان — أحذرك من مكيدة خطيرة وخديعة

فستبهرين آدم بمنظرك الملائكي .. سيعبدك بعد ذلك ولا يستطيع لك فراقاً ... !
 حواء « مضطربة مترددة » — لست أدري ماذا أفعل !
 الشيطان — هلاً تريدان أن تثقي بي ؟ ...
 ألا تعتقدين في كلامي ... ؟ خذي أنت الثمرة أولاً ثم أعط آدم إياها وانظرا ماذا يحدث بعد ذلك ...
 ستكونان ملكا السماء والأرض . ستستوليان فوراً على عرش الفردوس ، ستكونان كخالق العظيم صفة وشهاً . وإذا ذاك لا يستطيع أن يرفض لكما أمراً ولا يخفى عنكما سرّاً !
 في اللحظة التي تأكلان من الثمرة حيث شئتما ستتحول روحكما من حال مادية قانية إلى حال روحانية خالدة ، إذ تشاركان الله في ملكه وتنبوآن مكانكما من عرشه
 سوف تصبحان في قوة وعزة أنداد الله في الخير والحق والجمال ...
 هيا كلا منها ما شئتما ... هيا إلى الخير ...
 هيا إلى المجد .. إلى الخلود .. إلى الفخار والمظمة .. حاولا ولا تخافا ... أجمعا الرأي ولا تترددا
 فالتردد ليس خليقاً بكما وقد اصطفا كما الله !
 وهنا ابتعد الشيطان عن حواء ونزل إلى الجحيم وجاء آدم إلى حواء حزينا مكتئباً لحديثها مع الشيطان الشرير وقال لها في حدة :
 خبريني أيتها المرأة ماذا طلب منك هذا الشيطان البغيض وماذا يريد منك ؟
 حواء — كان حديثنا يدور حول مجدنا وعظمتنا وكيف نضمن خلودنا بهما !
 آدم — لا تثقي في الخائن ولا تعتقدي في المجرم إنك ما زلت ساذجة على حياك نقاء الطوية وصفاء النفس وطهارة القلب ... !
 ثقي بي أنا وحدي فأنا من معدنك وأنت مني وكلانا صنو الآخر ... هيا نمرح في جنتنا التي اختارها الله لإقامتنا ... ! لا تفسدي علينا هذه السعادة التي منحنا إياها الله !
 ألق ورائك ظهرياً كلام هذا الماكر الكاذب الشديد التلفيق ... ! لا تستهوك ألفاظه العذبة الرنانة المفعممة ولا وعوده المسولة الخادعة !
 هو لا يملك شيئاً حتى يمد هذه الوعود ، هو منبوذ قد لعنه الله إلى يوم الدين !
 أنصحك أيتها الرفيقة الجميلة ألا تطعمي في شيء أكثر مما نحن فيه ... نحن في جنان الفردوس الخالدة حيث لا ظمأ ولا جوع ولا برد ولا ضرور ولكن ظلال الله والملائكة الأبرار في عليين .. فنحن في حمى الله الرحيم المتعال
 أتوسل إليك ألا تصني لهذا الشرير ... ! لأنه رمز الألم والندم ... أنا أعرف به منك ولي خبرة بأفعاله وخصاله ... !
 حواء — كيف تعرفه هذا القدر من المعرفة ؟
 آدم — ذلك لأنني بكوثته وخبرته عن كذب حواء — ماذا يهمني من ذلك ... ! أنت إذا نظرته فإني زعيمة بأنك ستغير رأيك فيه لأن هيئته تحملك على ذلك ... !
 آدم — كلا ... ذلك لن يحصل — لأنني لاثقة لي به ولا أعتقد بكلامه بعد الذي رأيت من خداعه

وخيانته وكذبه وتلفيقه ... !
 لا ندعيه أن يأتي إليك أو يقرب منك
 إنه على خلق خبيث ونفس شريرة ماكرة ... !
 وقديماً أراد أن يخون سيده فكفر بنعمته
 وأنكر صنيعته بأن سلب عرشه متجاوزاً كل حد
 من الكفر والتكران
 أنا لا أريد هذا الخبيث أن يصل إلى قلبك
 الطاهر أو ينفذ إلى نفسك الصافية العذبة ... !
 (في هذه اللحظة يصعد ثعبان برفق وهوادة على جذع
 الشجرة المحرمة، حواء تقرب منه وكأنها ترهف أذنيها كأنها
 تريد أن تصغي إلى نصحه ... ! ولكنه يقدم لها تفاحة جميلة
 جذابة المنظر فتأخذها وتقدمها بدورها إلى آدم الذي يصر
 على رفضها باباء وشم)
 فتقول له حواء :
 كل يا آدم ولا تخف ... إنك ما زلت تجهل
 طعمها ... ! هيا لنأخذ هذا الخير الذي قدم لنا
 ليكون طوع بناتنا ... !
 آدم - وهل مذاقها حلو إلى هذا القدر
 حتى تستهوبنا وتغرينا ... !؟
 حواء - ستعرف حلاوة طعمها حين تأكلها
 وما دمت تحجم عن تذوقها فلا تستطيع أن تعرفها.
 فحاول ولا تخش شيئاً
 إنني لم أعهدك جياناً هكذا ... !
 آدم - بل أشعر بإحساس غريب وشعور
 غامض ! أتوجس خيفة أن يقع لنا شيء ... ! أقول
 لك الحق إن رعدة شديدة تستقلني وتجتاز جسمي
 وعقلي لا أعرف لها سبباً ولا أصلاً ... !
 حواء - لا تخف. أنا لا أشعر بمثل ما تشعر به
 أنت. هيا إلى الخير فهو في متناول يدينا ...
 هيا لا تتمهل ... !
 آدم - كلا لن أفعل ما تدعوني إليه ...
 أخشى شيئاً ... أخشى شيئاً
 حواء - تخطئ خطأ كبيراً إذا أنت أصررت
 على هذا الرفض
 آدم - أوه، حسن ... ! سأخذها ... !
 حواء - إذا فكل منها ما شئت ... وإذا ذاك
 ستعرف الخير ... والشر ... ! هانذا أذوقها
 قبلك ... !
 آدم - إذا فعلت فأنا مقدم على أكلها بعمدك
 حواء - نعم ... ! سناً كلها ونقتسمها سوياً
 في أمن وسلام ... !
 (وعندئذ أكلت حواء جزءاً من ثمرة المحرمة وقالت لآدم.)
 ها أنا ذى قد تذوقتها ... !
 يا إلهي ما ألد طعمها ... ! لم أذوق بعد طعماً
 أشهى منها ... !
 ما أجلك وأشهاك أيتها الفاكهة التي طالما
 حرمتنا إياك ... !
 الآن قد عرفت لماذا منعت عنا وحذرنا منها . !
 آدم - ماذا تقولين ... ؟ خبريني ما طعمها
 أمر عي .. وخبريني ... !
 حواء - لم يتذوق إنسان طعماً ألد من ذلك .
 فالآن أنظر نظراً ثاقباً ... ! لقد أصبحت في صفوف
 الآلهة أدانيهم في العظمة ، وأساويهم في القوة
 والسلطان
 ما أعجب هذه الثمرة ... إنها لساحرة ... !

وا أسفاه...! ما أشقى الأثم وأبأس المجرم...
 ما الذى فعلته حتى غضب على الله هذا الغضب، وقضى
 على هذا القضاء الذى لا مرد له ولكن أما قلت هذا
 لرفيقتى...؟ أما قلت لها إن شيئاً سيحدث لنا...
 ها نحن ذان قد حرمتنا جنتنا والسعادة التى كنا نمرح
 فيها فى غير فكر ولا ندم...!
 اللهم أنزل لعنتك وغضبك على هذا الأثم فهو
 الذى راودنا وهو الذى أغرانا!
 ألا لعنة الله على هذه الشجرة! لك الله يا حواء!
 هاأذا قد مت فى غير رجعة ولا أوبة...!
 وهبطت فى عالم لا أعرفه...!
 [ستار]

محمود المصطفى

كلية الآداب - القسم الفرنسى

آلام فرتر

للساعر الفيلسوف جون الاولمانى

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهى قصة عالمية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

ونعها ١٥ قرشا

أقد عرفت كل ما هو موجود، وسأعرف كل
 ما سيوجد. عرفت سر العالم بأمره.
 كل يا آدم وشاركنى فى أكلها، أريدك سعيداً
 مثلى...! تذوق طعمها الجليل ولا تحرم نفسك.
 أسعد نفسك بأكلها، وأنعمها بجهاها الذى
 لا يضارع... وطعمها الذى لا يقارن...!
 (فياخذ آدم التفاحة على أثر هذا الاغراء ويقول لحواء)
 إني لأرى نفسى تثق بك ثقة عمياء لأنك رفيقة
 حياتى، وشريكى فى السراء والضراء ولا قبل لى
 بالاستغناء عنك!
 أيتها الزهرة الجميلة التى لن تذبل وهى بين أناملى!
 ويا أيتها الفادة الحسنة التى استهوت قلبى
 واستولت على نوازع نفسى وبهرت بصرى بجهاها
 وخفة حركاتها

يا من لا تفارق ثغرك الصغير تلك الابتسامة
 العذبة السعيدة...

يا من أسكن إليك بعد التعب والنصب
 وأنا سعيد قير العين راضى النفس مطمئن البال..
 لا أطمع فى شيء إلا رضاك وحنانك ولا أنطلع
 إلا لصحبتك ورققتك!

أيها المخلوق المطوف... لأجدن نفسى لا تقدر
 على ردّ سُؤلك أو رفض ما تريد منه منى...
 ولكن... ما زلت لا أستطيع!

حواء - خذها من يدي وكلها ولا تخش سوءاً
 (هنا يأكل آدم جزءاً من الثمرة ولم يكده ينتهي من
 أكلها حتى عرف خطيئته: فحاول أن يخفى نفسه حتى لا يراه
 أحد. وجرد من ثيابه الأنيقة المزر كشفه انكشف على نفسه
 من ورق الشجر ليستر جسده وعند ذلك أظهر ندمه وأسفه
 وأخذ فى غير طائل قائلاً:

ولا أحسبك إلا غاضبة على
عند ما تعرفين الآن أنني
لا أجف من دمك ولا أرفه
عن أساك ، بل أشدك من
شعرك في قسوة لا تتفق مع
رحمتي التي جذبتك إلى كنفى
في تواضع رغبة في مواساتي
وطمعا في نصيحة ترد إليك
كبرياءك الذاهبة

عائد الشمس

أقصو صفة مصرية
بقلم الأنيسة جميلة العلايلي

أجل أجذبك في عنف وألقي بك في اللب الذي
أشعلته يديك ... ليتطهر جسمك وتنصهر ماديتك
في بوتقة الألم والعذاب ... وفي النهاية ستشعرين
عن يقين أنك شفيت رغم ما تركه اللب على جسمك
من علامات ما كابدية من عذاب

وليس اللب الذي أدفحك إليه كالنار أو الشرر
المتطاير ... إنما هو لب النفوس كلها أجمعه بحجرة
قلم من محيط الكون في دائرة محدودة ، ولا أليقك
وحدك إنما ألقى معك في وسط هذه الدائرة الملهبة
بغير دخان ، أنفاس الرجل الذي خانك ، وأخرجها
في حرارة كما يقول وقد أتن صياغتها بقلمه البارع
هذه الأنفاس التي تحمي وتميت ... الأنفاس
التي أحيتك وبعثت في نفسك حلو الآمال ثم أماتتك
تاركة خلفك أمر الآلام

هذه الأنفاس هي رسائل الرجل الذي أحبك
بالقلم وتركك بالقلم ، وهي التي أدفعها الآن ثمنا لما
أصابني منك من جهد الخيال ... فأعرضها لتكشف
للناس صورة من صور الأضاليل ... كيف يبدع القلم
التصوير ولا يعاف القلب التعبير ؟

والآن لا أرد إليك رسائل صاحبك التي بعثها

(٦)

عزيزتي الحائرة

ما عساي أن أقول لك بعد أن مرضت ، وهل
يرى الجرح غير يد الطيب ؟ وطيبك مع الأسف
رجل لا يعرف من المرأة غير جسمها ، ولا يلمس
في الحياة غير مواطن المادة

وأنا لست طيبة يا صاحبتى ... كل ما أجوده
على الخلائق حنانى وعطفي ، وهل يكفي الحنان لتضميد
الجروح ؟ لا أظن !!

ودليلي أن الحنان يفتح دائما فوهة القلب فإذا
بعميون من العواطف تتطلع إلى ما هو أعمق من
الحنان وأغزر من العطف ، إلى التهل العذب الذي
يفيض بالحرق المشتعي الذي يصوره المنطق في شبه
حروف تؤلف كلمة واحدة - الحب - ويترجم به الحس
ويسميه الشعور !

إذن لا فائدة من مواساتي بعد أن صدمتك
الحياة في الصميم ، لتردك إلى محط المعرفة فيلسوفة
بغير تعليم

خلي عنك نصائحي فإنها لا تجدى ... ومتى
أصلح النصيح مخطئا أو هدى ضالا ... ؟

حسبك ما علمتك إياه الحياة عن طريق صدمتك .
إنك الآن أكثر منى تفهما للحياة

خاطر جميل ، والآن وقد اكتملت هذه الأدوات
وارتحت بين أكناف الريف الودع الجميل فإني
أكتب إليك ذا كراً تلك السعادة التي غمرتني
بمعرفتك

وبعد: فإني طائر شاعر يعيش على الأحلام ويقتات
بالذكريات لا يحب أن يصطدم بالواقع ولكنه دائم
الاصطدام، فهو يود الحياة مستقيمة سهلة، لا عوج
فيها ولا نتوء!

وإني لأطمع أن تفتحي لي كوة أطل منها على
دنياك، رياضها وجنانها، هضابها ونجادها، وأن تمديني
بفيض من الأحلام والإلهام ففي هذه البيئة أحياء،
وبين هذه المآلف الحبيبة أنتقل وأعيش

— ٢ —

« هبة »

وصلتني رسالتك وأول ما ألاحظه عليها قصرها
— هذا القصر المخل — مع أنني أريدها طويلة كالسافة
التي بيننا، متعددة المناظر كالتى أتملاها وأنا في الطريق
إليك !! . أريدها رسالة يشفق البريد من حملها،
ولكنك أبداً ضئيلة حتى بالكلام... آه... « هبة »
لقد وقعت في الشرك حتى لم يعد لي أمل في
النجاة، فأنا - ولا أخفى عليك - قد حاولت أكثر
من مرة ألا أسترسل معك في الكتابة . بل لقد
حاولت جهدى ألا أطلعك على ذاتي مجردة عارية ،
ولكن قاتل الله الثلاثة : يدي ، وقلبي ، ونظري
أحبك ، نعم - وأعبدك ، وأحرق ذاتي بخوراً
في هيكلك المقدس ولكنك لا تحسن أبداً بهذا
المحب العابد المحترق !

يا هبة . لا أحب أن أشرح أو أصف لك
مأعاني ، وكل ما أحب أن أقوله إني وهبت قلبي لك

إلى لأطلع عليها وأبدى رأيي فيما ينتجه القلم الصامت
على ضوء الحب الكاذب .

لا أردّها إليك سرّاً بل أردّها إليك جهراً
بين ضجيج كل من يجذب نظره ضوء الأدب ...
وقد لا يفيدك هذا - على ما أعتقد - إذ سوف
يترحم عليك كل قلب رحيم ... فاجمى كل ما يصل
حسك من مواساة الأرواح اللامرئية واستعفى
بها عما أصابك من بلاء روحى سببه لك ذلك الرجل
الذى يحب كل النساء كما تقولين ويعبد كل شمس
متجسمة في امرأة

آنسى (هبة)

إنها لسكتة غير قصيرة طال فيها أمد الصمت ،
ولست أدري بماذا أو كيف أقطع عليك هذا الصمت
الذاهل فأحرمك تأملات فلسفية ، ورؤى شعرية
سحرية ، ولست أدري أيضاً أخطئ أنا أم مصيب
حين أفاجئك بهذه الرسالة فأقطع عليك سلسلة
خواتمك وإلهاماتك ، وأنتقل من دنياك المشرقة
الواعية ، إلى دنيانا العابسة الفارغة؛ وسواء أخطأت
أم أصبت فليس ثمة محيص من الكتابة إليك بعدما
انتظرت أن تكتبي لي ولو بما يطمئني على سلامة
عودك ، ولكني لم أحظ حتى الآن إلا بمرارة
الانتظار ولم يكن في الاستطاعة أن أكتب إليك
فيما سبق ؛ فأنا شاب لم يألّف الكتابة بين الصخب
والضجيج والارتحال والانتقال ، ولم يكن ذلك
هو السبب الأصيل ، ولكن هناك سبب آخر ،
ذلك أني رأيت أن أخصك بأدوات جديدة للكتابة
فلا أكتب بها أو فيها إلا لك ، ولست أدري تعليل
هذا الخاطر، ولعله خاطر شعري، وعلى كل حال فهو

ولكن الذى لا أفهمه أو أطيعه أن تغضبني أنت منى . ومنذا الذى ألوذ به وأطلمه على خبيثة نفسى بعد اليوم إذا كنت تعاملينى معاملة أولئك الأرقاء ؟

ألا فلتتق الله فى نفسى وقلبي فأني لا أعتقد أنك تعانين ما أعانى وتجدين ما أجد وتحملين نفسك ما لا تطيق !

وإني لأعنى أن تظل نظرتك إلى واحدة على الأيام .

وإذا كنت هفوت هفوة لم أقصدها فحسبي عقاباً هذا السكوت الذى أقض مضجعى وأمض نفسى وأطلق فى سماء حياتى سحب اليأس والضيق والبرم بالحياة

وأخيراً ما زلت لك المخلص الأمين .

— ٤ —

« هبة »

ومهما يكن من شىء فإني مدين لك بهذه الرسالة التى فتحت أمام ناظرى آفاقاً جديدة وعوالم غريبة من نفسك — نفسك التى طالما لفقتها بشوب من الحذر والغموض . وهكذا لا بد للورد من وخز الشوك . والآن بعد أن اجتزت فترة الاختبار فى تجربتك القاسية فإني أرى نفسك تبدو أسمى عارية من كل ثوب مجردة عن كل غطاء ، وإذا هى طفلة وديعة طاهرة نبيلة تهيج أحياناً وتشور ولكن هياج النبوغ وانفعال العبقرية وما أشبهنى بالموجة تحركها النسمة فإذا هى غاضبة ثم سرعان ما يستحيل هذا الغضب إلى رحمة وحنان على الصخور

وإنه ليسرنى أن تنثرى بين يدي نفسك ماحوته ووعته ثم لا بأس عليك من ذلك — وماذا يكون

فإذا شئت أن يحيا فهو لك . وإذا شئت أن يتحطم فهو لك أيضاً . ولكن رويدك فقد سرقت قلباً ونسيت مفتاحه ، وكنت أريد ألا أعطيك مفتاحه حتى يظل أمامك طالساً وتظلين أمامه فى حيرة ولكن ما انتفاعى بالمفتاح ما دام قد سرق الكنز ؟ يا هبة

قلبي شره إلى آخر حدود الشره ، فهو إذا جاع أو عطش فلا خيرات الأرض وأثمارها ولا أنهارها وبحارها بكافية لأن تسد جوعته أو تطفى حرارة ظمئه .

ولعلك بعد ذلك تعرفين كيف تنتفعين به ومنه .

— ٣ —

هبة ا

ليتني أدري ما الذى تناك عنى ومثلك لا يمكن أن تكون إلا ودية كريمة ...

يشهد الله أنى ما حملت لك أو أحمل إلا كل عاطفة شريفة ونية طاهرة مطهرة وقلبا يرف عليك ويشهد الله كذلك أنى لم أحلك من نفسى إلا فى أعماق مكان ولم أضعك إلا فى مصاف الآلهة الألى أتوسل إليهم بصلواتى وفناء ذاتى ، ويشهد الله أيضاً أنها لكلمات يسيل بها القلم خالصة مخلص لا تعرف الرياء أو النفاق . فى مثل اضطراب الأمواج خواطرى فى هذه الأيام ، وبمثل الغيب نفسى المظلمة — ا

ولو علمت أى حدث جرى وأية زلة ارتكبت لجثوت أمامك تائباً مستغفراً . لقد أفهم أن تنكر لى الحياة فلا آبه لها وأن ياتمر بى الواجدون فلا أحفل بهم ، وأن يقطع الأصدقاء خبل مودتى فلا ألتفت إليهم

في مثل هذه الظروف القابضة ؟ إنني لقادر على أن أعيش في كل صقع وأحيا في كل مكان ، وأن أقابل الشدائد فلا تنال مني إلا كما تنال الرياح العاتية من الجبل الأشم !

ولكن الذي لم أزل أهفو إليه وأقتش عنه هو القلب !

القلب الذي يؤنس وحشتي ويبدد ظلمتي ويقدرني دائماً على المقاومة والتجدد في الحياة !

ولا تظني أنني أجرب قلبي بهذه الجمل الموشاة ، ولا تظني كذلك أنها كلمات كتلك الكلمات التي اعتاد الرجل أن ينال بها إعجاب المرأة ويستولي على قلبها ، ولكنها كلمات أروى فيها طويلاً قبل أن أسطرها - فهي كلمات من لحم ودم ، كلمات ترخر بالحياة وتموج بالصدق، ولولا أنني واضح ظاهر ما سجلت إليك كلمة واحدة من هذا ...

وأنا إذ أبدى لهفتي إليك وانشغالي بك - أحب أن تقدرى هذه العواطف النبيلة

العواطف التي لا ترى إلى شيء وراءها ، فإني أحبك لما بهرني من روحك القوية السمحة ودمايتك الفائقة وشاعريتك المتنوعة ، أما الجسم وإن كان رقيقاً فاتناً بديماً فلا شأن لي به ولا مطمح ، وإذا كان هناك ما يخيفك من الرجال فليس الذنب على وإنما هو على سماحتك التي تقرض كل الرجال ملائكة لا أناساً

أما بعد فطائركَ الفرد لا يزال بين يديك ، فحذار أن تثقل عليه بهذه الأساليب التي لا تجدى معه شيئاً وإلا ألقاه أن يهجر جنتك آسفاً ، وإذا ذاك يظل قابلاً في وكره فلا ينفعك ولا ينفع نفسه ، وبذلك تشقن نفسك وتشقينه !

لو اتخذ كل منا من صاحبه أخاً لنفسه يهمس إليه بما يختلج في خاطره إن خيراً أو شراً دون خجل أو حياء ، ورب أخ لك لم تله أملك .

أعود إليك يا صاحبتى ...

كان يكفي أن أقف بك هنا لأترك القارى ينسرح بخياله في عالم نوراني يرى في سمائه كل ما يشتهي المخلص من أمان حسان ولكن لا بد أن أعقب على تعليقك بعد هذه الرسالة ... إذ تقولين إن تلك الرسائل رغم سحرها لم تبلغ عمق نفسك وإن الشك ظل يراودك ويقف بك بعيدة عن رغبات صاحبك حتى اشتدت حيرتك بين رغبتك وحذرك ...

قلبك يدنيك منه

وعقلك يقصيك عنه ...

وضباب الشك يشرف على أحلامك فيشوه حقائق أمانيك ...

وظلت هكذا حتى كتب لك :

(هبة)

إسمى يا هناء !

إني لأعجب من تمردك على هذه الأيام ومحاولتك مسي بالإنجاء ، مساً دون مقتضى أو داع ! أتقصدين ذلك حقاً ؟ أم تقعين على سبيل التدلل ؟

أما الأول فلا أطيعه ، وأما الثاني فقد أحمله ! على أن المؤلم أنك في الوقت الذي أنتظر فيه رحمتك تغضبين ، وأقرب قتمعدين ، وأتكم قتسكتين ، وأثق قتشكين !

ومتى تؤدين رسالتك يا فتاتي ... إن لم تؤديها

أجلامي . لقد رأيتك فرأيتني منجذباً إليك انجذاب
الحديد بالمغناطيس ، وتطلعت إلى عينيك فإذا بي أرى
فيهما رهبة معبد مقدس ... لقد كانتا عميقتين عمق
الأبد تنظران إلى السماء كأنما تبحثان عن سر ضائع .
وأخيراً استمعت إلى حديثك فإذا كلمات عليها طابع
الدوام كأنما تحمل تجارب القرون ...

حينئذ شعرت أنني ولدت ميلاداً جديداً وأن
روض حياتي قد نجمت فيه أزهار من نوع جديد !
وحينئذ أيضاً حرصت على مودتك وعاهدت نفسي
أن أكون حريصاً على الوفاء لك ما بقي بجسمي
نفس يتردد !

والآن ، هل تدرين مدى تأثيرك في حياتي !
لقد نقلتني من الظلام إلى النور وأجريت في
أعصابي خلاصة أجيال من عزم وإرادة وعبادة للحق
والقوة والحرية والجمال ...

ثم هل تدرين أيضاً وفائي لك في بعدك ؟
إنني أستعيض بك عن رؤية الناس وموداتهم
فأنت تسامرينني في وحدتي واجتماعي وأنت تمسحين
عن جبيني عرق الملل والكلال كلما أجهدتني عجلة
الحياة !

وأنت تفتحين أمامي أودية المجهول فأرودها !
وأنت تلازمينني في منزلي ، وأنت تؤنبنني كلما أهملت
في واجب ! وأنت في النهاية تعصمينني من التردّي
في مهاوى الهلاك وموارد الضلال ! ...

فلماذا أحبك حباً صرفاً
ولهذا أدعوك إلى أن تصحى نظراتك إلى
علاقتنا السماوية المباركة

وكل ما أريده أن تهينني كل عاطفتك
ولتتصارع حتى بالرغبات الخفية ولتفرغني إلى دنياي

أرجو أن يصلك هذا وقد عادت إليك ابتسامتك
وإشراقك . أنا الآن طريق الفراش يا هبة ولا أحد
معي يؤنسني إلا زفرات حارة أصعدها ، فالرحمة الرحمة ،
— واعلمي أن كلمة منك طيبة كفيلة بأن تريح عني
عبثاً ثقيلاً فهل أنت فاعلة ؟

(هبة)

إني لأتألم ... بل أعجب كيف أنك إلى الآن
لا تزالين تجهلين نفسي وعواطف وميولي تماماً ...
وأنا أطمع في أن يشملي حبك وتفرقني رغبتك
الأكيدة في أن تكوني بجانبى إلى النهاية مهما جالت
بيننا الحوائل

أنا الآن في المنزل جالس إلى مكتبي بعد أن
عدت من العمل خائر القوى ، ومع أن الحر شديد
والتعب يكاد يمسك عليّ مسارب أفكارى ، فإن بي
نزوعاً إلى استئناف الكتابة إليك

وأحب أن تذكرى أن حبي لك غريب لا يمت
إلى ما تواضع عليه الناس بصلة ، حب يميزه عن سائر
أنواع الحب عمقه وطهارته وخلوده وإخصابه !

لست أنكر أنني عرفت من قبلك ألف قلب
وقلب وحطمت ألف قلب وقلب ... حطمتها لأنني
لم أجدها فيها القوة السحرية الخفية التي تفتح عيني
على النور وتوقظ في أشواق الحياة وتدفعني إلى الخلق
والإبداع ، وتجمل الوجود في ناظري

حطمت كل هذه القلوب لأنها كانت كالعرائس
والدمى ، بل لأنها كانت (كورد الحمار !) منظر
ولا رائحة !

وإذا كنت لا أنكر ذلك فإني لا أنكر كذلك
أنك كنت المثل الأعلى الذي تصبو إليه بروحي ومحن

ولست أدري كيف اجتذبتني إلى عالمها بين
هضاب ووهاد وزهور وأشواك وتقطيب وإشراق
وهدوء وثورة وثرثرة وصمت وآمال وآلام وحقائق
وأحلام وتلميح وتصريح وبيان وغموض ، ولقد
قرأتها رسالة رسالة ، واستوعبتها فكرة فكرة ،
ووقفت على ما يحسن أمامه الوقوف فرأيتك فيها على
اختلاف أغراضها وتباين مناحيها مثلاً للفتاة الطيبة
السريرة ، الفتاة التي تحيا في الحياة بعقل حالم وخيال
كاشف وروح مستغرق وخاطر متوثب وإحساس
متفتح وشعور غامر دافق !

أجل ، ورأيتك أيضاً مثلاً للعبقريّة الفاتكة الخالقة
العبقريّة التي تعبد الفن وتغنى في ذاته كما يغنى الصوفي
بين نور الإله الجليل ، ولقد وجدت في هذه الرحلة
الروحية متاعاً لم أستلذه أو آلفه من قبل حتى لقد
أمضيت فترة طويلة وأنا في ضيافتها ذاهلاً عن نفسي
وعما يفمرها من صخب الحياة وضجيجها ، وهكذا
هداني بل عودني بخلك الكتابي أن أفزع إلى كنانة
الذكرى كلما غلقت الأبواب ، وأوصدت المنافذ دوني
وإن في هذه الكنانة لستودعاً حافلاً بأفانين السلاوي
والوان العزاء ، وذلك غاية ما أتمناه منك فاكثبي بعد
ذلك أو لا تكتبي ، وجودي أو لا تجودي ، ونأى عن
شاعرك أو لا تنأى ، فما عاد يحفل بهذا أو ذاك مادام
ظفر منك أيتها البخيلة ، بكنانة الذكرى

(هبة)

كان مما يقدرني على أعبائي الثقال وكان مما يحمل
الحياة في ناظري ، شعوري بأن الحياة رزقتني حبيبة
أفزع إليها وألوذ بها لدى الصدمات
وكان كذلك مما يعزيني ويحبيني في الحياة

كلما أعوزك الصدق والحب في دنيا الناس ولتكوني
وفية لي في محضري ومنهبي ولتتحنّسي ميولي
وتنفذي ما أرتاح إليه

لا أريد أن تعبّري عما تطوى عليه جوانحك
بكلمة ولكن باختلاجة أو حركة أو روح عامة
تموج في رسائلك فتشعّرنى بما لي عندك من منزلة
أو اعتبار

إنني لا أريد أن تقف علاقتنا عند حد السطحية
بل أريد أن أسمع منك : دع هذا وافعل ذاك وتعال
هنا واحذر أن تتأخر وأغضب منك إذا فعلت كذا
إنني لا أكون غالباً إذا قلت لك إن اهتمامي بك
يربو على اهتمام الوالدين والإخوة ، ولست آسفاً
على شيء ، فإنني ما دمت أنت بجانبني أستمد من
تشجيعك قوة ومن حبك أشعة تبدد أمانى ضباب
الحياة ! ...

آه ! ماذا أقول ؟ ومالي أجشّمك ارتياد هذه
الوديان المتأشبة ؟ وأخيراً ... ثقي أنني سأطوى قلبي
على حبك وسوف أكون لك الدوحة الفينانة التي
تفرعين إليها فتغنى عليك من ظلالها ، وتضمك
إلى أحضانها كلما لجأت إليها

واعلمي أن الغيب يضمرك حياة خالدة بحبي .

هبة ...

كلمات كثيرة تريد أن تثب من شفّتي على أسلة هذا
القلم ولكنني أكبّحها بقوة هائلة !

آه لو تدرّكين ما أريد ، ولكن أنت لا ترجمين
مهجة صب .

كنانة الذكرى

ولست هذه الكنانة إلا مجموعة من الرسائل
وعاها ظرف واحد وهبطت على منك في فترات
متقطعة ...

القديم ... عالم الظلام والغيب ، وسأقفل من ورأى
باب صومعتى الأزلية وهيهات أن أصنى لأى صوت !
أو أستجيب لأى دعاء ! أو أخف لأى نور !

وبعد فإذا كنت لا تأسفين على أى شيء ، فإني
أسف على كل شيء ! وإذا كنت قد كتبت ما كتبت
إلى أخيراً وبسمة العبت والطفولة تهوم على ثغرك ،
فإني قد كتبت هذا ودموع قلبي تكاد تفرقني ،
يا إلهي ، حتى من كنت أرجو أن تتحقق على يديها
الآمال تكون هي آفة الآمال !

يا إلهي إن أحشائي تنقطع والدم الفائر يكاد
يلهب شراييني ، فأنقذني يا إلهي وألق على نفسي
الطليحة وروحي الكليمة برد العزاء

إلى هنا أكتفى بهذه اللوحات من رسائل
صاحبك وهي في الواقع خلاصة فناء الفكر في القلم ..
ولا أقول فناء القلب أو الروح في القلم لأن
فناءهما في الواقع معناه خلود الحب ... أما وقد تلاشتي
ذاك الحب فلا أظن للقلب أو الروح سلطاناً عليه ..
على أن هذه الرسائل لا تخلو من إغراء يبعث
الحمرة في وجه الحسنة ويشعرها بأنها إنسانة محبوبة
مرغوب فيها ...

ولعل صاحبتي صدقت ذلك لأنها سايرت
صاحبها بخواطرها عن طريق قلمها كما يقول
وباعترافها أيضاً .. إنما كانت فطنتها أشد من إيمانها
صرت الشهور وهو يحاول أن يثبت لها حبه
بأعذب الألحان الشعرية وهي حائرة بين ما يبعثه
في صدرها من تخدير عاطفي .. بين ما تلمحه عليه من
آثار القلق والاضطراب والركود والاستسلام لخواطر
لا تتعلق بها ... فلطالما حدثها عن العذارى وأسمعها

شعوري أيضاً بأن هذه الحبيبة قد تخصصت في دراسة
ميولي وأهوائي حتى أصبحت تعرف سبجات فكري
وخلجات نفسي وهتافات شعوري

وكنت أستبعد أن تدب بيننا بدوات الشك
وهمسات الظنون فيما بيننا من حب ولده الامتزاج
السامى وغذته العاطفة المزدهة عن الشوائب ورغاء
الوفاء الكريم . واليوم ، بل ومن قبل اليوم ، يدهشني
أن هذه الحبيبة قد بدأت تنأى بجانبها وتتمرد على
صلتنا الروحية المقدسة ... فهي مرة منفعة غاضبة ،
وأخرى صامئة لا تتكلم ولا تجيب ، وثالثة متوعدة
المزاج ورابعة تغد بأن تتكلم ، وأخيراً هي تشتم
رائحة النفاق في أنفاس !! ... ماذا أيتها الساحرة !

أبهذه السرعة تريد أن تتحلى من صلتنا ،
وأن تحطى كل ما شدناه من صروح ، وأن تنكري
لمن حاشاه أن يتفكر لك مهما جازيته على الإخلاص
حرماناً وعلى الوفاء جحوداً ونكراناً

إنه لمن الجائر أن تبغى بمثل هذا الكلام الصارم
الملتقى على عواهنه إلى من اعتادوا إرسال الكلام على
عواهنه ترجية للفراغ ودفعاً للسأم

أما أنا الذى أفكر فيما أكتب وأفكر فيما
أقرأ ! أيمكن أن يحدث معي هذا ؟

على أن ما أذهلني حقاً أن تختفي رسالتك بقنبلة
تذهب شظاياها بقلبي ، فهل تعرفين حقاً أنني أحاول
أن أتلهى بحبك

إنك لتؤذين نفس الشاعر وتسيئين إليها حينما
ترجين بها في أخلاط النفوس البشرية وتظنين أنها
صيفت من طبيعتهم أو نسجت على غرارهم !

وما دام الأمر كذلك فإني - مع إخلاصي
الدائم لك - قد صممت على أن أرجع إلى عالمي

رجل يشور ويهدأ ويحب ويكره في آن واحد ،
وهأنذا أكتب ولا أدري إلام تنتهي مثل هذه
الكتابات الضالة .

ومع أنني مضطرب الشعور موزع الخاطر ؛
فأني أحب أن تعتقدني أنني لم أخن عهدك مطلقاً ولم
أله بمخلوق أو مخلوقة — حقاً إن حياتي كانت وما زالت
ملأى بالمجائب والمغريات ، ولكن أي مغريات
هذه ؟ إنني لست ممن يجرون وراء ملذاتهم حسبما
اتفق ، فأنا رجل فنان شاذ ، فإذا سقطت فهي سقطة
الفنان والحمد لله إذ نجابنا ، وما كان لثلي أن يتلهم
بالموتى . وبعد فإياك أن تثيري الضباب برياحك
الموجاء ، ودعيني — دعى هذا المريض يحلم —
يحلم بمقدم هذا الطبيب — وبعيناً لئن لم يشفى من
هذا الداء لألقين به من حلق ، ولأذهبن أنا وهو
إلى الجحيم .

إلى هنا أدع صاحبك وأعود إليك . كيف
خدعك حسك أنت التي خلقت من مجموعة أعصاب
حساسة ... ؟

قد يكون للأسلوب الجذاب تأثيره على الأفتدة
والأفتدة الشاعرة على الأخص ، ولكن ما صلة
الحب بهمسات القلم ؟

قد تعترضين وتقولين ، وهل كانت همسات القلم
إلا خواطر النفس وسوايح القلب !

ومعك الحق ، ولكن في غير هذا الزمن
يا صاحبتى ...

فقد طغت المادية على كل شيء وشوهت جلال
الروحانية الشفيفة ...

اسمى إلى جدتك عند ما تقص عليك حديث

أناشيد الهوى المستمر بإيحائهن
ومن الطبيعي أن تسترسل في خيالها وتقيم
لسكل مشهد من ألمانة قصة واقعية أثرت في حياته
تأثيراً أهاب بشاعريته إلى التفتى ...
وشاءت أن تظل في محراب تحفظها وتدأب
على اختبارها حتى تتكشف حقيقة نفسه فكتبت
إليه تقول :

أتركك لتتغم بالحب في كل واد

فكتب إليها يقول :

يا لك طفلة ! أنا أحب ؟ ومن أحب ؟ وهل
خلق الله بعد تلك التي تستطيع أن تنهض بحبي ... ؟
إنني يا عزيزتي ما أحببت مطلقاً ، ولن أحب أبداً ...
إنني يوم أحب أحطم أو أتحطم أو هما معا . وأين
هذه الحبيبة التي لها من الرهافة والحساسية
ما تستطيع أن تلمس نبضات قلبي واهتزاز مشاعري
وخلجات روحي ؟

إن هذا الشعر الذي كان يروقك أنت وغيرك
كذب كله ، إنه ضرب من الغزل التجريبي ألقيت به
في محيط القلوب الفارغة انتقاماً منها وسخرية بها ،
لقد كان لي حبيبة واحدة ... آه نعم حبيبة صفعتني
على خدي بيد رطبة صغيرة يوم قالت لي :

أنت مجنون

حبيبة ضربت على تخوم عالمها عجائب الرقى .
ثم سمعت إليها في ضباب يتنفس عن شذى البنفسج
وأنا أعرف على أوتار قلب جديد أناشيد مجنحة . حتى
إذا انتهيت إليها تباهت وتجاهلت ونفرت مغنمة :
أنا لا أعرفك

إذن دعيني من حديث الحب . فأنا لا أحب ،
فأى فتاة تطيق الإقامة بجانب رجل مريض النفس
والعقل ؟

بأسرته علاقة تبيح لها الزيارة في كل وقت
لم تجده ... فانتظرته وراحت تلهي بمطالمة
الكتب والمجلات الملقاة على مكتبه ... ودفعها الفضول
إلى فتح درج مكتبه ... ويبد حذرة سحبت بعض
لפافات الورق ...

وبسرعة البرق الخاطف تطلعت إلى مخوى كل
رسالة ...

رسائل غرام متنوعة ...
كتبت إلى ثبت من الفتيات ...
عائشه ، فاطمه ، نعمات ، سنيه ، نفوسه ، زينب
الخ هذه الأسماء ...

وكلها تفيض بأحاديث الحب المشبوب المستمر
وكلها تصور غرام الكاتب
وكلها تضغه تحت قدمي المرأة في خضوع لا يتفق
مع كبرياء الرجل

رسائل ... بما تحويه من لب وشوق وحنين ورغبة
وأمل وتوئب ... كتبها لعشرات الفتيات وكل
ما يفرق بين هذه وتلك ... اسم المرسل إليها

كان ذلك يكفي لرد الفتاة إلى محراب عقلها ...
محطمة ذلك الهيكل الخيالي الذي سمته حقيقة وسمت به
إلى ما وراء الخلود ، لكن هل كل فتاة يمكن أن
تحذر وتعود إلى نفسها دون عناء كهذه ؟

لقد خفف الشك وطأة المصاب فهل كل فتاة
تشك في الرجل الذي تحبه !! أنا أدعو إلى الشك
فيه لتظل بعيدة حتى إذا صدمها القدر به عز عليها
البكاء .

جميعه العروبي
(٧)

قلها . واسمى إلى نفسك — أنت المستنيرة المثقفة
ثم قولى أيكما أصدق وأعف وأقدر على الاحتمال
والصبر ...

الفطرة التي حاربناها في الصميم وشوهناها
بظواهر المدنية الراهنة التي عفت على الصدق والعفة
والقناعة والطمانينة

وفي الواقع لا ذنب لك ولا ذنب لصاحبك أيضاً
كلاكما مسرح لأضاليل الحياة . أنت معذورة لأنك
حسبت أن قلبك الطيب جدير بحب رجل ، وهو
معذور لأن المرأة تناديه من كل مكان ، في الشارع
وفي النوادي ، في المتاجر وفي المراقص ، وهي مستسلمة
تعبث بكل شيء في سبيل تحقيق أمنية ترجوها ...
ولا بد أن تأمل ولا بد أن تسمى إلى أملها ...
لأن الرجل في هذا العصر لا يبحث عن المرأة
المتحصنة التي تحبس نفسها داخل دارها خوفاً على
سمعتها وكرامتها ...

إذن كان أمر صاحبك في النهاية ... لا بد منه

قارئي في دهشة يتساءل : وما هذه النتيجة ؟
وكنت أحب أن أتركه حيث هو يتساءل ويفكر ..
ولكن لا بد من إجابته وإلا آثمى بالتقصير لأنه
تمود أن يجد على مائدته الأدبية كل ما تشتهي نفسه
أما أن يفكر ويبحث عما وراء هذا ونهاية ذاك
فلم يحن ذلك الوقت بعد ...

ذهبت صاحبتى لعيادة صاحبها المريض بعد أن
أفهمها أنها سبب علته وأنه في طريقه إلى القبر ...
ذهبت إليه دون أن تحدد موعداً وكانت لها

لم تكن مجرد دعابة . فقد
كان سكيراً حزيناً . وحين
كنا نسأله لماذا يبس ويحدق
في السقف ينهنا نحن جميعاً نضحك
كالجانين أو كالأطفال السذج
كان يجيب في ابتسامة مرة :
« يا رفاق ، إن برأسى طائراً
أزرق ، ولهذا ... »

الطائر الأزرق

للكاتب الإسباني روبن داريو
بتلم الأديب شكرى محمد عيسى

... ثم إنه كان عظيم الشغف
بارتياد الحقول إبان الربيع . فقد
كان هواء الغابات يلائم رثيقه كما
كان الشاعر يقول لنا . وحين
كان يشوب من رحلاته كان يحضر
منه دائماً باقات من الزهر
وبطاقات من الشعر . أما الزهر
« فلنيني » جارته ، وهي فتاة
غيسانة لها خدان موردان وعينان
عميقتا الزرقه ؛ وأما الشعر فلنا ،
وكنا نقرؤه ونطرب له ، فقد كنا
جميعاً نعجب بجارسن . كان نجماً

تعريف بالقصة

روبن داريو كاتب أسباني عاش
في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل
المشرين وشهرته الأدبية قائمة على
أشعاره وإن كان قد جمع إلى الشعر
كثيراً من النقد والرحلات وقيلاً من
الأقاصيص ، ويمد روبن داريو
صاحب أبداع أسلوب أسباني في العصر
الحديث ، وشعره ينجح إلى الإغراق
في الوصف الحسى . ولكنه غنى
باللفظ الجميل والخيال البعيد . وقد
كان داريو مغرمًا بالأدبين الإغريق
واللاتينيين ، عظيم الانتفاع بهما في شعره
وهذه الأتمنوسة الصغيرة من خير
ما كتب ، وأصح تمثيلاً لفنه وطريقته

باريس بلد طروب ولكنه
مخيف . فلم يكن أحد بين رواد
مقهى بلومبير من الرسامين
والنحاتين والشعراء - وهم شباب
كلهم يطمحون إلى إكليل الغار
القديم - من هو أحب إلى
القلوب من جارسن المسكين .
كان دائم الحزن ، يدمن شراب
الأسنت ، تسكره الأحلام
ولا تفوله الخمر ، يحسن - ككل
بوهيمي - ارتجال الكلام
وكانت ترين جدران حجرتنا

بوشك أن يتألق ، كان وقته لا ريب سيجيء . أوه؟
سوف يخلق الطائر الأزرق في السموات العلى امرحى
يا جارسن اهات أيها الساق كاساً أخرى من الأسنت

خذ من الزهر بنفسجه ،
ومن الجواهر صغيره (١) ،
ومن الحياة السماء والحب

تلك مبادئ جارسن . ثم : « الجنون خير من

(١) Sapphise نوع من الباقوت أزرق اللون

الصغيرة التي كانت معقد اجتماعاتنا المرحية ، رسوم
بريشة من أصبح يوماً « دلا كروا » (١) ، بينها
أبيات من الشعر في خط ثقيل منجن ، مقطوعات
كاملة لطائراً الأزرق

والطائر الأزرق هو جارسن المسكين . ألا تعلم
لماذا أطلقت عليه هذه الكنية ؟ نحن الذين أطلقناها

(١) دلا كروا رسام فرنسي شهير ، ملون ماهر ومجده
فاخر ، كان رأس المدرسة الرومانتيكية في القرن التاسع عشر
(١٧٩٩ - ١٨٦٣)

الجمود « هكذا كان الشاعر يقول

وكان الحزن يرين على نفس جارسن من حين إلى حين ، فيقطع الشوارع لا يابه بالركبات الفاخرة ولا بالشباب القرائيق ، ولا بالنسوة الفارهات . وقد يتسم حين يمر بمحانوت جوهرى ؛ ولكنه كان إذا صادف مكتبة اقترب من النافذة وخذق في محتوياتها شرها . وكان يقول : إن الحق يدسّر قلبه حين ينظر إلى المجلدات الضخمة ويغشى وجهه العبوس . وليسرى عنه الهم قد ينظر إلى السماء ويتهد ، ثم يهرع إلينا في المقهى ثائراً محتاجاً فيطلب كأساً من الأيسنت ويقول : « أجل إن برأسى طائراً أزرق حبيساً يريد الحرية »

وبدأ بعض الصحاب يظن أنه مجنون واستشير إخصائى في العقل فقال : إنه مصاب « بالونومانيا ^(١) » ، ولم يبق شك في أمره . حقاً لقد كان جارسن المسكين مجنوناً وذات يوم تسلم من أبيه خطاباً . وأبوه هذا تاجر قديم من تجار القماش في نورماندى . وكان هذا مضمون الخطاب :

« لقد سمعت بمسلكك الطائش في باريس . واعلم أنك إن واطبت عليه فلن تنال دانقاً منى . تعال وقم على حساب المتجر ، فإذا أحرقت أيها الأحمق كل كتاباتك البليدة ، فإنك تستطيع عندئذ أن تنعم بمالى »

وقد قرى هذا الكتاب جهرة في مقهى بلويير هل تذهب ؟ ألا تذهب ؟ هل توافق ؟ هل تفكر في مثل هذا الخطاب ؟

(٢) Monomania أو جنون الفكرة الواحدة

صرحى يا جارسن ! لقد مزق الخطاب وأطل بجذعه من النافذة ، وهو يضحك في صوت مجلجل وارتجل مقطوعة تنتهى على ما أستطيع أن أذكر بهذين البيتين :

ولست بيباك على شقوتي ولا أنا ذاك الذى يُشنىق
إذا ظل فى رأسى العبقري مقباً به الطائر الأزرق !

ثم بدأت أخلاق جارسن تتبدل ، فنجح إلى الثروة ومال إلى المرح ، وابتاع سترة جديدة ، وبدأ قصيدة معنونة - بالطبع - « الطائر الأزرق »
وحينما كنا نلتقى كل مساء كان يقرأ لنا منها جزءاً جديداً . لقد كانت رائعة ، سامية ، خلابة . كانت تصور سماء بديعة ، وحياة طليقة ، وحقوقاً كأنما رسمتها ريشة « كوردت ^(١) » السحرية تلوح وجوه الأطفال من بين أزاهيرها ، وعيني « نيني » مخضلتين كبيرتين ، وطائراً أزرق أرسله الله مخلقاً فوق ذلك كله ، فبنى وكره دون أن يعلم فى رأس جارسن المسكين ، وبقي هناك سجيناً . فإذا أراد الطائر أن ينطلق من محبسه ، رف بجناحيه ، وضرب بهما جدران سجنه ، فيرفع الشاعر رأسه ، ويعقد جبينه ، ويشرب الأيسنت بماء قليل ، وهو يجتر فى نفس الوقت سيجارة . تلك كانت العقيدة .

وذات ليلة جاءنا جارسن يضحك ضحكات عالية ، ولكن الحزن مع ذلك جاثم فوقه .

لقد حملت جارتة الجميلة إلى المقبرة .
« لقد جئتكم بشيء جديد : الجزء الأخير من قصيدتى . لقد ماتت نينى . الربيع يقبل وتدبر نينى يستطيع البنفسج أن يطمئن على سوقه . والآن إلى (١) كوردت : رسام فرنسى اشتهر بلوحاته الريفية

(١٧٩٦ - ١٨٧٥)

الفصول والغايات

محمزة الشاعر الطائب

أبي العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربي في طريقته ،
وفي أسلوبه ، وفي معانيه . وهو الذي قال فيه
ناقدهو أبي العلاء إنه عارض به القرآن ، ظل طول
هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة
في القاهرة .

صححه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمد حسن زياتي

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد
ويطلب بالجملة من إدارة مجلة « الرسالة »
ويباع في جميع المكاتب الشهيرة

رفائيل

لشاعر الحب والجمال لامرئين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر

ومن إدارة « الرسالة »

الثنى ١٢ قرشاً

خاتمة القصيدة ، إن الناشرين لم يتفضلوا على بقراءة
أشعاري . سوف يتصدع شملكم جميعاً . إنه قانون
الزمن . يجب أن تمنون الخاتمة : « كيف انطلق
الطائر الأزرق إلى السموات الزرقاء ... »

الربيع في عنفوانه ! الأشجار تزهو بخضرتها .
السحب وردية في الصباح شاحبة في المساء . النسيم
الرفيق يداعب أوراق الشجر ويلهو بخيوط أكواخ
القش . ولكن جارسن لا يذهب إلى الحقول .
ها هو ذا يأتي ، في سترة جديدة ، إلى مقهى بلومبير
الحبيب ، شاحباً وهو يبسم في حزن : « ودعوني
يا أصدقائي بملء قلوبكم ، فإن الطائر الأزرق يوشك
أن ينطلق ... »

وبكى جارسن المسكين ، وصافح أيدينا في قوة
وذهب

وقلنا جميعاً : سيعود الولد العاق جارسن إلى أبيه
في نورمانديا . وداعاً أيها الشعر ؛ وداعاً أيها الجمال ؛
لقد أزع شاعرنا أن يبيع القماش ! هيا ! كأساً
لجارسن

وفي اليوم التالي وقف رواد مقهى بلومبير جميعاً
في مسكن جارسن خشعاً وبكياً

لقد كان الشاعر مسجى على فراشه الملطخ بالدم ،
ورأسه قد هشمته رصاصة وعلى الوسادة فلذ من
غله ... فما أبشع !

وحين أقفنا من هول الصدمة ووقفنا نبكي على
جثمان صديقنا ، وجدنا تحت القصيدة الشهيرة ، وقد
خطت على الصفحة الأخيرة منها هذه الكلمات :
« اليوم ، في عنفوان الربيع ، فتحت باب القفص
للطائر الأزرق المسكين »

آه يا جارسن ! وما أكثر الذين يغريهم الحزن
مثلما فراك !
شكري محمد عيار

جُنَيْتُ قَبْلَ الْإِعْلَامِ

عن الانجليزية
بقلم الأديب مصطفى صبيحي

في السجن ينتظر تنفيذ العقوبة .
فيا ترى كيف يقضى الوقت إلى
أن تمين ساعته ...

وأثرت لهجة الرجل في نفس
القس . فقال يروح عنه : دعنا
نأمل رحمة الله ... لماذا تيأس !
قال : نعم . نعم . فلنبتهل

إلى الله ولنضرع إليه إنه غفور رحيم .
كان « بنى » قبل التحاقه بالجندية يقول لى :
سأعيش يا أبى خجولاً أمام نفسى وأمام الناس إذا
أنا لم أستعمل ذراعى القويتين المقتولتين من أجل
بلادى عندما تقع الحرب ويدعونى الوطن . وكنت
أقول له : إذهب يا ولدى ، إذهب فى حراسة الرب ،
وها قد حرسه الله !

ونطق مستر أوين بالعبارة الأخيرة فى بطء
كما لو كان رغم إيمانه قد ساوره الشك فى رحمة السماء !
فقال القس : تشجع يا صديق تشجع ،
ولا تقنط من رحمة الله !

وأصغت لوسى لهذا الحوار ، وهى فى موضعها
منكسة الرأس ، بالغة الأسى ، ممتعة اللون ، لما
أصاب أخاها « بنى » ؛ لكن لم ترسل عينها دمعاً
ولم تسمح لهما وكدرها أن يشيما على محياها .
وكانت على حداثة سنّها تقوم بنصيب موفور فى إدارة
شؤون البيت ؛ ولذلك هبت واقفة حين سمعت طرّقاً
خفيفاً على باب « المطبخ » ؛ وأسرعت وفتحت
الباب ووجدت رجلاً يقدم إليها خطاباً .

وحملت الخطاب إلى أبيها وهى تقول :

— إنه منه ... من أخى ...

جلس مستر أوين فى غرفته الخاصة بداره
الكبيرة فى جرين مونتن بالولايات المتحدة ، وكان
كاسف البال ، شديد الكآبة ؛ وإلى جانبه قسيس
القرية يواسيه ويخفف عنه .

بينما مكثت لوسى الصغيرة فى ركن الغرفة تنصت
إلى حديث الرجلين دون أن تلفظ بيت شفة .

وتكلم مستر أوين قال : كنت أحسب حين
وهبت ابنى لهذا الوطن أنى فعلت من أجل بلادى
ما لم يفعله أى رجل آخر فى أمريكا على سعتها ،
إذ ليس لى ولد غيره ؛ لكن هبتى لم تمش طويلاً ،
لأن ولدى المحبوب قد غلبه الناس فنام دقيقة واحدة
فى نوبة حراسته بالمسكر ، وهو الذى لم يغفل لحظة
عن أداء واجبه ؛ وكان مثلاً للنشاط الموفور والهمة
العالية ...

صحيح أنه قد استسلم للكرى دقيقة ، واستحق
حكم الإعدام الذى صدر ضده . لكن ليتهم رحوا
شبابه ، وراعوا حداثة سنّه . هو فى الثامنة عشرة
فقط ... من يصدق هذا ؟

إنهم الآن يتهيئون لرميه بالرصاص . لأن هذا
التمس نام بضع ثوان ، ولم يظل ساهراً الليل بطوله
يراقب قدوم جيوش الأعداء المهاجمين . إنه الآن

وكان الخطاب وصية ميت أو رسالة من القبر !
فقد تطلع فيه مستر أوين دون أن يجسر على فض
غلافه وارتجفت أصابعه وهو يدفعه إلى القس كالو
كان طفلاً لا حول له ولا قوة
وفض القس الغلاف وقرأ ما يلي :
أبي العزيز :

— عند ما تصلك هذه الرسالة أكون في عالم
الأبدية ! فالموت ينتظرنى عند باب السجن . ما أشد
ما أخافنى هذا الخاطر وروعنى ! على أنى فكرت
كثيراً وقلبت الأمر على كل الوجوه حتى لم يعد
الإعدام مخيفاً فى نظرى ... لقد احترموا آخر رغباتى
فى الحياة وسوف لا يضمون الأغلال فى يدى
ولا العصاة على عيني وعلى ذلك سألقى الموت كما يلقاه
الرجل الشجاع الباسل وفى هذا تعزية كبرى
غير أنى كنت أرجو أن تقضى الأقدار بغير
ما قضت ، وأن تكون ميتى أشرف من هذه الميتة
كنت أود لو أموت شهيداً فى ساحة الوغى وحومة
النضال مدافعاً عن بلادى وفى سبيل المجد ، إما أن
أعدم رمياً بالرصاص كالكلب وبتهمة إهمال الواجب
المسكرى وهو شئ يضارب الحياة ، فذلك ما يؤلنى
أشد الألم ولا أدري كيف لم تقتلنى هذه الفكرة
قبل أن تقتلنى بنادقهم

أبى : سوف لا يكون فى حادثى ما يخدش
اسمك أو يصم شرف أسرتك . سأعترف ها هنا بكل
شئ وعند ما أفارق الحياة أمل أن تشرح للدانى
وأصدقائى ما وقع . أما أنا فرجل ميت والموتى
لا يتكلمون

تذكر أنى كنت قد وعدت أم صاحبي « جى
كار » أن أعنى بولدها الذى هو زميلى فى الفرقة

فلما سقط « جى كار » مريضاً بذلت كل جهودي
من أجل راحته والأخذ بيده حتى تمائل للشفاء على أنه
قبل أن تجتمع له قواه وترد إليه صحته صدرت الأوامر
لفرقتنا بالتقدم إلى خطوط النار . وناه « جى »
بحملة فحمله عنه فضلاً عن حقائبي وقطعنا شوطاً
بعيداً ، وانقضى النهار وبدأ الرجال يشعرون بالتعب
وخارت قوانا جميعاً . أما « جى » فقد عجز عن مواصلة
السير ولم يمش إلا بعد أن مددت له يد المساعدة
وحين شارفنا المعسكر كنت فى أشد حالات
التعب وأحوج الرجال إلى الراحة . لكن شاءت الصدفة
أن تكون نوبة الحراسة تلك الليلة لزميل « جى كار »
ورأيت محطاً يكاد يقتله الضعف والتعب فتقدمت
للحراسة عنه ونسيت أنى فى تلك اللحظة كنت أشد
منه ضعفاً وإعياءاً ووهناً ، وصدقنى يا أبى أنى كنت
عند ما غالبنى النوم على حال من التعب والإعياء بحيث
لو أطلقت على رأسى رصاصة لما فتحت عيني أو حركت
ساكناً

على أنى غطى وخطئى أنى لم أفطن لحالى إلا متأخراً
جداً .. وعند ما وصل القس إلى هذا الحد من القراءة
قاطعه مستر أوين بهذه العبارة :

شكراً لله ، إن إبني يموت شهيداً وليس خائناً
وعاد القس يقرأ هكذا :

قيل لى اليوم إن إعدائى تأجل يوماً واحداً
بسبب ظروف طارئة ، وهذه فرصة لكى أكتب
إليك كما يقول رئيسى الطيب القلب . اصفح عنه
يا أبى فإنه لم يفعل سوى أن قام بواجبه ، وقد كان
يود بإخلاص أن ينقذنى لكن القوانين العسكرية
صارمة ولا حيلة فيها . كذلك أرجو ألا تضع
مسئولية إعدائى على رأس « جيمى كار » فإن

قد دخل غرفته تَوَّأ وبدأ يلقى نظرة على الأوراق
المكدسة على مكتبه وأقبل ينفضها وينظرفي شئون
دولته ... وبدون أية جلبة فتح الباب بهدوء
وانسابت لوسى إلى الداخل وخطت نحوه ثم وقفت
قبالته بخشوع ورهبة : عينها إلى الأرض ويدها
منقبضتان

ووقع نظر الرئيس عليها ولم يبد عليه أنه غضب
أو تملل حين فوجئ بدخولها ، بل ابتسم لها مترققاً
وخطبها بصوت مشجع ، قال :

— نعم يا صغيرتى؛ ماذا تريدن في هذا الوقت المتأخر
— أريد حياة « بنى » يا سيدي

— بنى ؟ من هو بنى ؟

— أخى . إلههم يرمونه بالرصاص بسبب نومه
في نوبة حراسته

فعاد مستر لنكولن إلى الأوراق التي أمامه
ينظر فيها وهو يقول :

— آه ، لقد تذكرت الآن ؛ إنه نام في أخرج
الأوقات وأخطرها واعلمى يا صديقتى الصغيرة أنه
اختار لنومه ساعة تتوقف عليها مصائر بلاده وحياه
ألف من الجنود . وهذا استهتار شنيع
قالت :

— وهكذا يقول أبى لكن « بنى » المسكين كان
متعباً جداً يا سيدي وكذلك كان « جى » وقد قام
أخى بعمل رجلين ولم تكن تلك الحراسة حراسته .
كانت النوبة على « جى » ولكن « جى » كان
مرريضاً وعندما حل أخى محله لم يكن يفكر في نفسه
ولا في تعبته ونسى أنه منهك القوى

ورفع الرجل العظيم رأسه من بين الأوراق
وعاد ينظر إلى زائرة الصغيرة وقال :

المسكين منكسر القلب شديد الأسف لما حل بي .
وقد ألح عليهم أن يأخذوه فدية عني ولكن أحداً
لم يمر طلبه الثقافتا بطبيعة الحال

أبى ، لا أجسر أن أفكر في أبى ولا في أختى
لوسى فيا ليتك تواسيها وتجفف دمعها وليتك
تقول لها إنى أموت شجاعاً بأسلاً وإنه عند ماتنتهى
الحرب سينسيان العار الذى سيلحق بى الآن

في هذا المساء عند ما تغرب الشمس ويولى
النهار سوف تمر بخاطرى صورة من صور السعادة
الضائعة فأرى قطمان الماشية تمشى الهويناً من المرعى
إلى الحظيرة وأرى بعين الخيال شقيقتى لوسى
في الشرفة واقفة تنتظرنى وتلوح لى حين ترانى ؛
على أنها لن ترانى ولن أعود !

أستودعكم الله واصفحوا عن ابنكم السىء الحظ
« بنى »

في ساعة متأخرة من تلك الليلة فتح باب الشرفة
الخلفية بمنزل مستر أوين وانسابت من بين مصراعيه
صبية صغيرة وهبطت الدرج الذى يؤدى إلى الطريق
وكان المشاهد يحسبها لسرعتها طائرة لا ماشية
وكانت تهوول إلى جهة معينة لا تلتفت إلى يمين
أو شمال لكنها ترفع رأسها بين حين وحين شطر
السما ويدها منقبضتان كأنها تضرع إلى ربها وتبتهل
وبعد ساعتين طويلتين قضتهما هذه الصغيرة
تسير وحدها في ظلمة الليل ووحشته وصلت إلى محطة
ميل . وقبل أن تشرق الشمس كانت لوسى في العاصمة
تسرع الخطا إلى البيت الأبيض الذى يقيم فيه
رئيس الجمهورية

وكان مستر لنكولن (رئيس الجمهورية العظيم)

وكانت الصبية أخته « لوسى » واستقبلهما الرئيس في غرفته الخاصة واحتفى بهما وكان يلبس حلة عسكرية جديدة تزين كتفها شارات الترقية التي رفعتها إلى درجة ملازم وخاطبه الرئيس قال :

لقد عفوت عنك ورفعت درجتك يا بنى لأن الجندي الذي يحمل حقائب زميله المريض ويموت من أجل غيره دون أن يشكو أو يتبرم ، يستحق تقدير الوطن .

وعاد بنى ولوسى إلى جرين موتن ، حيث استقبلتهما الجماهير الهاتفة في المحطة وبسط مستر أوين يده لولده والدموع تنهمر من مآقيه على خديه وسمعه الناس وهو يهتف بحرارة : « لله الحمد ! »

مصطفى صبحي

ما هذا الكلام يا طفلي؟ أنا أكاد لا أفهم شيئاً . تعالى إلى جانبي وقص قصتك

وبمثل العناية التي يبذلها دائماً في مختلف شئون الدولة أقبل الرئيس لنكولن يفحص هذه الدعوى ومشت لوسى إليه فربت على منكبيه واحول بيده وجهها إليه وأحست بعطفه عليها فرددت قصتها وقدمت إليه خطاب أخيها لأبيها فأخذه منها وألقى عليه نظرة ثم قرأه بعناية ، وحالاً انتهى منه أمسك قلمه وخط بسرعة بضعة أسطر على ورقة ودق جرساً أمامه فأقبل أحد الحجاب ، وسمعت لوسى الرئيس وهو يقول للحاجب : ابعث بهذه الرسالة في الحال !

وبعد يومين من هذه المقابلة وفد إلى دار الرئاسة جندي شاب ومعه صبية صغيرة . كان الشاب « بنى »

بنك مصر

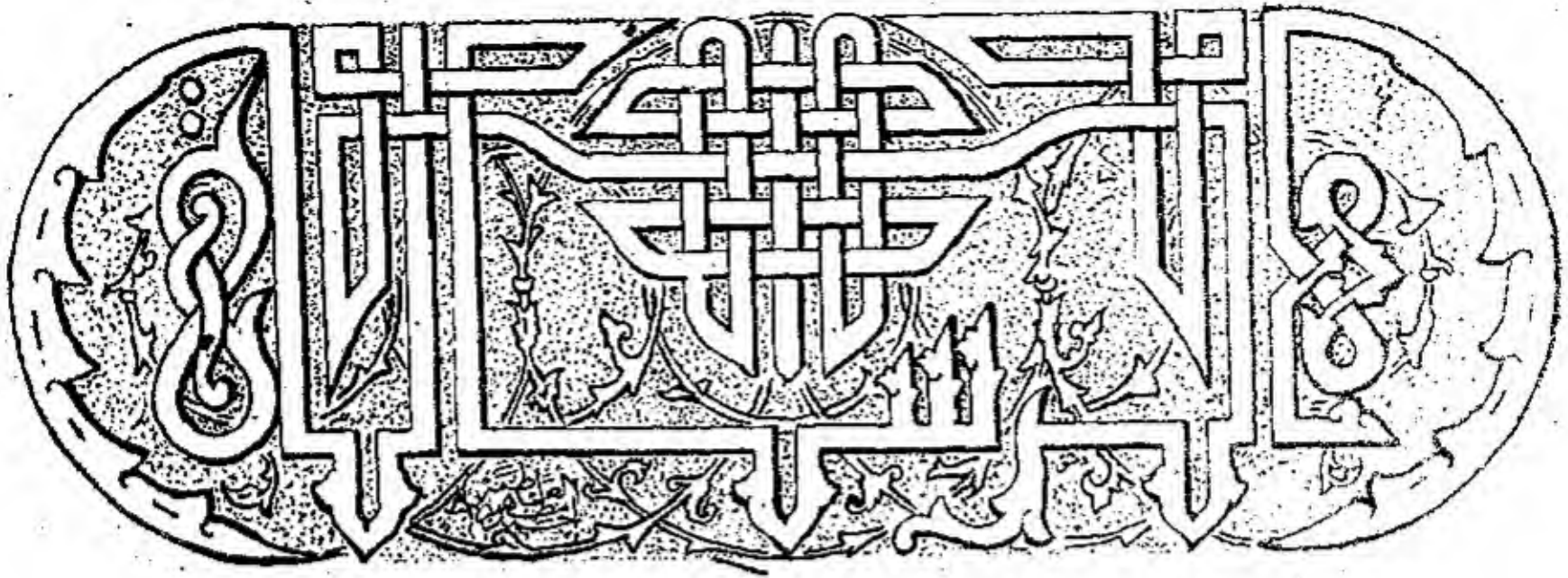
أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشئ الصناعات الكبرى

وتقيم دعائم الاستقلال الاقتصادي

تكتبوا ... النصر ليهودكم

عاملوه ... وعاملوا شركائهم



مَجَلَّةُ الْأَدَبِ الرَّفِيعَةِ وَالثَّقَافَةِ الْعَالِيَةِ
تَعْمَلُ الْمَاضِيَ بِالْحَاضِرِ وَتَرْبُطُ الشَّرْقَ بِالْغَرْبِ
عَلَى هُدًى وَبَصِيرَةٍ

الرِّسَالَةُ تُعَبِّرُ بِإِخْلَاصٍ عَنْ رُوحِ النِّهْضَةِ الْمِصْرِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَجْمَعُ عَلَى وَحْدَةٍ الثَّقَافَةَ أَبْنَاءَ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَصَوِّرُ مَظَاهِرَ الْعَبَقِيَّةِ لِلْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَسْجَلُ مَظَاهِرَ التَّجَدُّدِ فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ
الرِّسَالَةُ تَحْيِي فِي النَّشْءِ أَسَالِيْبَ الْبَلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ
الرِّسَالَةُ تَرصُدُ ظَوَاهِرَ التَّطَوُّرِ فِي الْحَرَكَةِ الْعِلْمِيَّةِ

مَجْلُوعَةُ أَعْدَادِهَا دِيَوَانُ الْعَرَبِ الْمَشْرِقِ ، وَكِتَابُ الشَّرْقِ
الْجَدِيدِ ، وَسِجْلُ الْأَدَبِ الْحَدِيثِ ، وَدَائِرَةُ مَعَارِفِ عَامَّةِ

الدُّسْتَرَانُ الْأَوَّلِيُّ سَنَةِ قُرْبَانِ . وَالْخَارِجِيُّ مَابَارَى جَنِينِهَا مِصْرِيَا ، وَلِلْبَهْدِ الْعَرَبِيَّةِ بِخَصْمِ ٢٠٪

FIN

DU

DOCUMENT

المروية

مجلة أسبوعية للفقه والتاريخ

تصدر مؤقتاً في أول كل شهر وفي نصف

1939
Volume 1